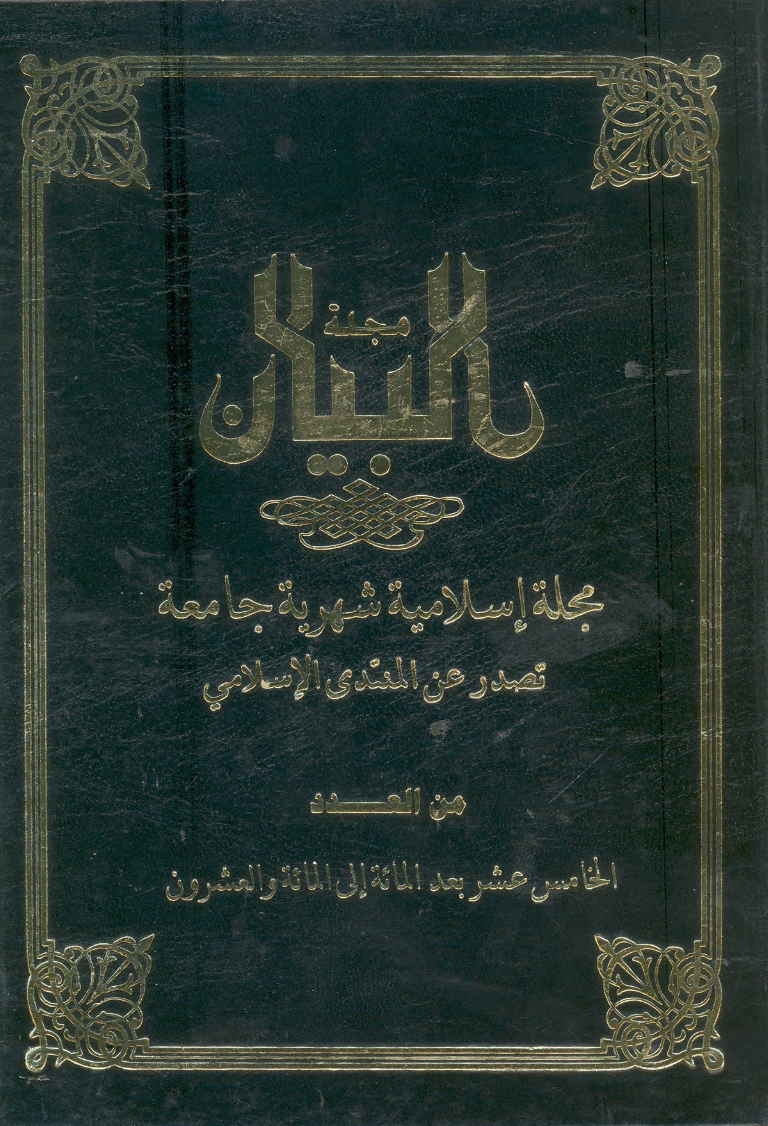

مجلة
البيان
مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي
من العدد
الخامس عشر بعد المائة إلى المائة والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

AL BAYAN MAGAZINE
7 Bridges Place, Parsons Green
London SW6 4HW, U.K.
Tel : 0171 - 736 9060
Fax : 0171 - 736 4255

الأردن ٥٠ قرشًا، الإمارات العربية ٨ دراهم، أوروبا وأمريكا ١,٥ جنيه إسترليني أو ما يعادلها، البحرين ٦٠٠ فلس، اليمن ٦٠ ريالاً، مصر ١٢٥ قرشًا، السعودية ٨ ريالات، الكويت ٦٠٠ فلس، المغرب ١٠ دراهم، قطر ٨ ريالات، السودان ٥٠ دينارًا، سلطنة عمان ٦٠٠ بيزة.

EUROPE & AMERICA 1.5
(STERLING OR EQUIVALENT)

كلمة صغيرة

انفعال الصورة

مع تكرار الأحداث الدامية في الشيشان كانت كل صور المأساة مكررة: المكان مكرر، والشعب المذبوح مكرر، والعدو الحاقد، القتل والتهجير والهدم والخراب مكرر، إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يتكرر هو انفعال المسلمين مع الأحداث، وهو ما يثير التساؤل: لماذا لم نتفاعل مع الأحداث الجارية في «الشيشان» بالدرجة نفسها التي تفاعلنا بها مع «الشيشان» قبل ذلك؟! ولماذا كان التفاعل أكثر مع أحداث كوسوفا برغم أن جميع الأحوال متطابقة على الجانبين؟

أنقول بأننا قد اعتدنا على تكرار المآسي، ومشاهد القتل والتهجير وتدمير المدن؟ أم تبلدت أحاسيسنا فلجأنا إلى الحوقلة والاسترجاع؟

لا نبرئ أنفسنا من هذه العادة السيئة؛ فها هي ذي القضية الفلسطينية بمآسيها المتكررة قد اعتدنا عليها، ولم نعد نتفاعل معها.

إن درجة التفاعل مع الأحداث – ويا للأسف – مرتبطة بشكل كبير بحجم العرض الإعلامي؛ فكلما ضغط الإعلام بصوره وتقاريره، وتضخيمه للحدث كلما كان تفاعلنا أكثر، والعكس بالعكس.

لا زلنا نذكر أن تفاعلنا مع مأساة الصومال كان إيجابياً، ثم تلاشى عندما انتهى العرض الإعلامي، وما زالت المأساة الصومالية مستمرة مكررة بشتى صورها وفصولها.

إننا نخشى أن يكون تفاعلنا وتأثرنا بالأحداث، كذاك الذي يشاهد عرضاً سينمائياً درامياً فيتأثر ويبكي إلى أن ينتهي العرض!

إننا نحتاج إلى إعادة النظر بشكل جاد في هذه المأساة الجديدة المتكررة للمسلمين، ولا نقول مأساة الشيشان أو الصومال وكشمير حسب، وإنما مأساة «انفعال الصورة».

● العدد ١٤٥ ● رمضان ١٤٢٠هـ/ ديسمبر - يناير ١٩٩٩ - ٢٠٠٠م

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	—	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرَق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٣٥٢٢٨٢	٣٥٢٢٩٢
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٥٥٧٧٣٤	٥٣١٥٥٠
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بور تسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بينين	كوتونو	٠٣ـ٤١٩٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

الحسابات

- مصرف فيصل الإسلامي حسَاب رقم: ٠٠٢- ٤٥١٤- ٤٢-١٠٩
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
- الإمارات - بنك دبي الإسلامي (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة شارع الأربعين حساب مجلة البيان رقم ٧/٢١٠٠
- قطر: مصرف قطر الإسلامي حساب رقم ٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452

بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهًا استرلينيًا
أوروبا	٢٠ جنيهًا استرلينيًا
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهًا استرلينيًا
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهًا استرلينيًا
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهًا استرلينيًا

في ه

المراسلات والإعلانات

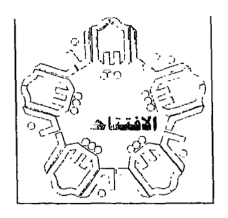
الدول العربية :
البحرين: المحرَق مكتب دار البيان ، ص.ب ٥٠١٦٣ ـ هاتف ٣٣٥٣٠٠ ـ فاكس ٣٣٦٣٠٠
السعودية : مكتب مجلة البيان ـ ص.ب ٢٦٩٧٠ الرياض : ١١٤٩٦
هاتف ٤٦٤١٢٢٢ ـ فاكس ٤٦٤١٤٤٦
أوروبا وأمريكا :
AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060
Fax : 071 - 736 4255

ـــذا العـــدد

الموزعون

الأردن . الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس ٦٣٥١٥٢
الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨
قطر : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس ٦٦٢٤٥٠
مصر : القاهرة – ش الجلاء – الأهرام للتوزيع ، هاتف وفاكس ٥٧٤٧٠٢٣ .
المغرب : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ، هاتف ٢٤٥٧٤٥/٥٤
السعودية : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف ٤٦٤٦٦٨٨ ، فاكس ٤٦٤٢٩١٩ ، الشركة الوطنية هاتف ٤٧٨٢٠٠٠ ، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣ .
اليمن : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف ٢٠٦٤٦٧
السودان : دار أقرأ للنشر والتوزيع ، الخرطوم : ص.ب ٨٨ براري.

الكويت : درة الكويت للتوزيع، ص.ب ٢٩١٢٦، الصفاة هاتف ٤٧٢٤٦٦٦، فاكس ٤٧٢٤٥٥٥.
البحرين : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف – المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ – ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
امريكا. International Media Group
Ann Arbor, MI 48107 U.S.A.- P.O. Box 7560
Tel. 734-975-1115 Fax. 734-975-9997



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

فمنذ أكثر من عشر سنوات، وبعد عهود طويلة من انحسار روح الجهاد الإسلامي، كنتم أيها المجاهدون سبباً في أن تكون بلادكم أفغانستان محط أنظار العالم، عندما سمع هذا العالم وشاهد بالصوت والصورة الانهيار المدوِّي لكيان الطغيان الشيوعي، بعد أن دقت سواعدكم آخر مسمار في نعشه. حينها قد تنفس العالم بعد صُعداء، وهو يرى ذلك الغول الأحمر، يجر أذيال خيبته منسحباً من أرضكم ذليلاً كسيراً، بعد أن كان يتهيأ للانقضاض منها على أراضي المياه الدافئة والحقول الغنية.

نعم! فقد كنتم تخاطبون العالم كله في ذلك الوقت بخطاب الشجاعة والشهمم، وبنبرة الحق وصوت القوة... حقاً لقد استطعتم وقتها - بفضل الله - أن تعيدوا للإسلام أحد جوانب وَضَاءته التي طال تغييبها، وهي العزة والإباء، وبدت أفغانستان تحت قيادتكم هي الأمل والمنطلق لدى الملايين من المستضعفين في عالم إسلامي يضج من المظالم ويئن من القهر، في كثير من أنحائه، ويحن إلى الحرية والكرامة.

وراحت مدرستكم الجهادية تفتح فصولاً تلو فصول، لمن أراد أن يعبَّ من دروس البذل والفداء.

عِقْد واحد من الزمان - أيها المجاهدون - رفعتم فيه رؤوس المسلمين إلى الثريا، وقربتم إليهم نجوم المجد حتى كادوا يبتدرونها بأيديهم ثم... ثم ماذا؟! ثم كان ما كان مما لم يَدُرْ بخَلَدٍ أو حسبان، عندما دارت عجلة التغيرات لتدوس الأماني، وتدعس الأحلام، وتسحل في غير رحمة نَبتات الأمل وزهرات الطموح..!

فُتحت كابل فتذكر الناس أيام مجد الفتوح.. ولكنها دُكّت بعد ذلك دكاً دكاً بالصواريخ التي بقيت من عتاد الجهاد، فتلوّث الجهاد وتلطّخ وجهه الوضّاء على الأيدي نفسها التي كانت قد أخرجته من حواشي الكتب وأصداء الخطب، وكيف لا يتلوث جهادكم؛ وقد تجاوز عدد ضحايا الأفغان المدنيين على أيدي

بعضكم أضعاف ضحايا البوسنة على أيدي الصرب، أو الشيشان على أيدي الروس!! تعالَوا - في هذا الشهر المبارك - نفتح معكم ملفاً طال إغلاقه، ولكنكم تصرون على فتحه بتصرفات بعضكم المتجاهلة لكل أثر مدمر، أو فتنة محبطة لكل المسلمين في الأرض:

● تفرغ بعضكم لـ «لعبة الكراسي الموسيقية» السياسية، فراحوا يتبادلون المناصب في احتفالات صاخبة تحت أزيز الطائرات وهدير المدافع، متجاهلين نَصَب الناس وتعبهم الذي طال بانتظار الفرج بقدومكم!

● لَبِس بعضكم بزة السطان، وراح يجوب البلدان فرحاً بألقاب الفخامة والسعادة والسيادة، مبدياً كل التفهم أو (الإذعان) لمسعى اللئام في مطلب (التعاون) لمكافحة دعوى الإرهاب!! وأنتم أول من يعلم من المعنيون بالإرهاب.

● نسي المتعاونون منكم أن من تُعاوِنون على تسليمهم أو سُلِّموا بالفعل ما كانوا ليوصَموا بالإرهاب ويوصفوا بالأصولية لولا ذهابهم إليكم ووقوفهم إلى جانبكم، مع أنهم كانوا بالأمس القريب رفاق السلاح وإخوة الجهاد الذين منيتموهم بالشراكة في جني ثمرات الجهاد.

● ثمرات الجهاد هذه لمن أطعمتموها أيها المجاهدون؟!

لعلكم ستقولون: إن الأمريكان سرقوها وتآمروا مع باكستان علينا!! ولكننا نعلم - وأنتم تعلمون - أنكم أطعمتموها للأمريكان ولمن هم أسوأ من الأمريكان. وهل هناك أسوأ من الأمريكان؟! نعم! إنهم الروس الملحدون الذين صادقتموهم بعد أن قاتلتموهم، والهنود الوثنيون الذين هادنتموهم والتجأتم إليهم.

ها هي أعوام خمسة تمر وأنتم تصرون على الحرب حتى آخر حمامة سلام في أفغانستان!

إننا نخاطبكم بخطاب الدين الذي قمتم لنصرته أول مرة: احذروا حبوط العمل، واخشوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، فوالله! إن أحدكم مهما جاهد وعمل فإنه لا يقوى على الوقوف يوم التغابن أمام طفل بُترت ساقه أو فُقئت عينه، أو وليدة فقدت أمها أو غاب أبوها، أو عجوز تهدم مأواها أو أُقعد عائلها..

انظروا إلى تغيُّر الأمور حولكم؛ فلعل فيها عبرة؛ فإن المسلمين جميعاً كانوا أنصاركم بالأمس، فمن أنصاركم اليوم؟! المؤمنون كانوا جميعاً يدعون لكم بالأمس فمن يدعو لكم اليوم؟!

إن بعضكم لا يزال يلوم المسلمين على صفحات الجرائد والمجلات؛ لأنهم تخلوا عن (الجهاد

الأفـغـانـي)، ألا يعلم هؤلاء أنهم هـم أول من تخلى عن هذا الجـهـاد وخـذله يوم اسـتـبـدلوا بالراية الإسلامية الجهادية راية عِمِّيَّة عنصرية، ويوم استنكفوا عن قبول النصيحة التي أسداها المشفقون من كبار علماء الأمة ودعاتها الذين تجشم بعضهم صعوبة الوصول إليكم للإصلاح، ولكنكم أبيتم إلا مداراتهم ثم مخالفتهم؟

ولا ينسى هؤلاء المسلمون الذين تتهمونهم الآن بالتخلي عن الجهاد، يوم اجتمعتم في أشرف البقاع في مكة المكرمة، وحينها قال الناس مستبشرين: لعل جلال المكان وهيبة الموقف تعيد الصواب إلى العقول، والصلاح إلى النفوس، ولكن - وبكل أسف - تبخرت تلك الآمال، وذهبت أدراج رياح الفتنة التي هبت من جديد.

وفتنة القتال المتجدد بينكم - أيها الإخوة - لم تنته باختياركم، بل انتهت لـمَّا سُحب البساط من تحت أرجلكم، وعندها عز على عناد بعضكم أن يلقي سلاح التناحر، فبدأ بإشعال نار (المعارضة) بعد أن خبا دخان المصارعة.

قد يقول قائلكم: هَبْ أننا جاهدنا ثم انتصرنا، ثم اختلفنا فتحاربنا، ثم انقلب بعضنا على أعقابه وارتمى في أحضان أعدائه، فما دخل منتقدينا والناقمين علينا؟ أليست هذه قضايا خاصة، ومسائل داخلية؟! ولماذا ينقم علينا ما لا ينقم على غيرنا؟

والجواب: إن الجهاد الأفغاني الذي كانت نصرته واجبة علينا وعلى جميع المسلمين - كما أفتى علماء الأمة وقتها - هو الجهاد الذي أُهدرت فيه الأرواح والأموال بلا حدود، وهذا الجهاد ليس من حق بضعة أفراد أن يحتكروا تحديد مصيره وتوجيه نهايته مهما كان أمرهم. **هذا من ناحية.**

ومن ناحية ثانية: فإن الأمة التي ناصرتكم في الدين هي التي ناصحتكم فيه، ولهذا فإن قضية أفغانستان (الإسلامية) التي رُفعت فيها راية الإسلام من أول يوم ليست كأي قضية من القضايا التي رُفعت فيها الرايات العلمانية.

ومن جهة ثالثة: فإن المسلمين الذين كانوا يفاخرون بكم الدنيا، أصبحت الدنيا تعيِّرهم بكم على مستوى الشعوب والجماعات، وحتى الأفراد، فلا يكاد مسلم يلتزم بالدين، أو يدعو إلى نصرته، أو الجهاد من أجله في مكان من العالم، إلا ويقال له: هل نسيت أفغانستان؟!

إن كل قضية إسلامية جهادية - بعد تجربتكم - قد أُضيرت أشد الضير بسبب ممارساتكم، بدءاً من قضية البوسنة، ومروراً بكوسوفا، وانتهاء بالشيشان، الشيشان التي يتفرج العالم عليها اليوم وهي

مخذولة من جل المسلمين عامتهم وخاصتهم، دون أن يرف لهم جفن، أو يتحرك فيهم ساكن لأجل
لاف الضحايا والمشردين، فلماذا هذا الخذلان؟! لأنهم قاموا باسم الجهاد في داغستان، والناس -
سببكم - قد سئموا حديث الجهاد!! وتشاءموا من عاقبة المجاهدين.

إننا - أيها المجاهدون - كان بوسعنا أن نواصل السكوت سنوات أخرى، فلا نُقْدم على خدش
شاعركم، ومس أحاسيسكم، ولكنكم أصررتم في الآونة الأخيرة، على حفر الخنادق في مشاعر كل
سلم، عندما طيرت الأنباء خبرين فجّرا الغيظ في قلوبنا، فسالت له أقلامنا، وأخرجت التحفظ معكم
ن قائمة اهتمامنا.

الخبر الأول: هو إعطاء الأمريكان الضوء الأخضر للروس لكي يدعموكم بلا حدود إلى النهاية،
ضمن حلف ثلاثي في المنطقة لـ (محاربة ما يسمونه بالإرهاب)! ولكي تعودوا إلى السلطة في
فغانستان، ونحن نعلم أن هذه العودة لن تكون - إذا كانت - إلا فوق الجماجم والأشلاء.

والخبر الثاني: أن أسدكم الهصور دعا علانيةً في حديث خاص مع إحدى الصحف الناقمة على
الأصوليين) إلى طرد جميع من أسماهم (الإرهابيين)! من جميع أنحاء أفغانستان!!

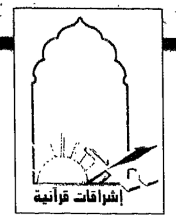
فإذا كانت هذه عودتكم فلا مرحباً بعودتكم إلى حكم أفغانستان إذا كانت لا تمر إلا عبر الكرملين،
البيت الأبيض، ولا مرحباً بعودتكم إذا كان المستضعفون هم قربانكم على عتبات المجرمين.

**وأخيراً: نعلم أن كلماتنا هذه ثقيلة وشديدة: ثقّلتها مسؤوليةُ الكلمة، وشدّدتها أمانة النصيحة؛ فما
جرى ولا يزال يجري أشد على القلوب، وأثقل في النفوس.**

وحسبنا الله لديننا، ولدماء شهدائنا، وأعراض إخواننا، وتضحيات أمتنا، أما أنتم - أيها
المجاهدون - فعودوا.. عودوا إلى الجهاد الأكبر؛ فباب التوبة مفتوح، وهو خير لكم من أبواب موسكو،
دلهي، وواشنطن، وطهران.

عودوا - كما وعدتم - إلى جهاد أعداء الدين الحقيقيين، فلا زلنا نذكر وعدكم بألاّ تتوقف راياتكم
حتى تُنْصَب بإيلياء !! فهل تذكرون؟!

والسلام... السلام عليكم ما دمتم مجاهدين صادقين، وإنا لله، وإنا إليه راجعون.



سورة القمر
وما فيها من إعجاز البيان وبديع النظام

د. محمد أسد سبحاني

هناك حقيقةٌ ظاهرة ثابتة، حقيقةٌ صدع بها الأصدقاء وشهد بها الأعداء، حقيقة يؤمن بها المؤمنو ويعترف بها المعاندون ألا وهي أن هذا القرآن الكريم - كتاب الله الخالد - يحتلّ ذروةً عاليةً وق سامقةً من بلاغة الأسلوب وإعجاز البيان؛ بحيث لا يجارى ولا يبارى ولا يُشقّ له غبار.

فما هي ميزة القرآن التي أعجزت فرسان الكلام وفحول البيان؟

من الواقع المرّ الذي لا بدّ أن نعترف به أن الكتب التي أنشئت لإبراز بلاغة القرآن وإعجاز أسلوبه - ، جلالة قدرها وعلو مكانتها - تعجز عن الإجابة الواضحة القاطعة الحاسمة على هذا السؤال.

ولا نرى لذلك سبباً إلا الغفلة عن نظام الآيات ورباط معانيها؛ فإن من غفل عن نظام الآيات أو تناوله تناو قاصراً عابراً لا يمكنه أن يستمتع بجمال القرآن، ولا يمكنه أن يدرك ميزته التي تخصّه من بين سائر أنواع الكلا.

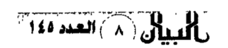
والحق الذي يحق أن يعلن ويقال: إن سرّ إعجاز القرآن هو هذا النظام.

فهذا النظام هو الذي جعل من تلك الآيات التي لا نرى فيها من ضروب البلاغة إلا التجنيس والطب والحذف والتكرار وما شابه ذلك، جعلنا نرى فيها عالَماً عجيباً من الروعة والجمال، وبحراً زاخراً من المعا والحكم؛ بحيث تهتز لها النفس اهتزازاً وتمتلئ بها بهجة وسروراً، ولا تدري كيف تعبّر عمّا تجد فيها م لطائف البلاغة وروائع البيان.

وقد أسهبت في بيان نواحي الروعة والجمال والبلاغة وحسن البيان المشتملة عليه خواتيم آل عمران ف كتاب بعنوان: (البرهان في نظام القرآن).

وأما هذا المقال فهو مخصص لتسليط الأضواء على سورة القمر وإماطة اللثام عمّا فيها من إعجاز البيا وبديع النظام، فنقول ـ وبالله التوفيق:

إن هذه السورة الكريمة المباركة تشتمل - كأخواتها - على أبواب كثيرة متنوعة من البلاغة وحسن العبار



ولكنّها تبدو وكأنها ما زالت رِتاجاً مُرتَجاً[1] لقلة من عُني بنظامها وقلة من درس رباط معانيها.

ولا نرى من أئمة التفسير وعلماء البيان من تذوّق تلك السورة الكريمة واستمتع بها مثلما تذوقها واستمتع بها المفسِّر والأديب البارع الموهوب الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - حيث يقول:

«هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر، بقدر ما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة.

وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغطه ويهزُّه ويقول له: ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ [**القمر**: ١٦].

ثم يرسله بعد الضغط والهزِّ ويقول له: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [**القمر**: ١٧].

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكيّة شتى؛ فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع، ومشهد من هذه المشاهد في الختام، وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وَمَلَئِه.

وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى.

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تُعْرَضُ في هذه السورة عرضاً خاصاً يحيلها جديدة كل الجدّة؛ فهي تُعرَض عنيفةً عاصفةً، وحاسمة قاصمة، يفيض منها الهول ويتناثر حولها الرعب، ويظلّلها الدمار والفزع والانبهار!

وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلاً منها يمثّل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة يشهدها المكذبون، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها، ويحسون إيقاعات سياطها؛ فإذا انتهت الحلقة وبدؤوا يستردّون أنفاسهم اللاهثة المكروبة، عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً؛ وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبع في هذا الجو المفزع الخانق؛ فيطل المشهد الأخير في السورة وإذا هو جوٌّ آخر ذو ظلال أخرى.

وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة. إنه مشهد المتقين: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ [**القمر**: ٥٤، ٥٥]، في وسط ذلك الهول الراجف والفزع المزلزل والعذاب المهين للمكذبين ﴿ **يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** ﴾ [**القمر**: ٤٨].

فأين وأين؟ مشهد من مشهد؟ ومقام من مقام؟ وقوم من قوم؟ ومصير من مصير؟»[2].

هذا ما نجده عند المفسر والأديب سيد قطب - رحمه الله - وهو - على روعته وجلالة قدره - لا يزيد على أن يكون لمحة خاطفة إلى محاسن تلك السورة ومميزاتها، وإلا فهي تزخر بمحاسن التعبير ولطائف البلاغة بحيث لا تقضي منها العجب.

والجدير بالذكر أن هذه البلاغة وتلك المزايا يرجع معظمها إلى حسن النظام.

فمن كان يريد أن يدرك هذه المحاسن أو يتذوق تلك البلاغة فلا عليه إلا أن يتدبر السورة متمسكاً بنظام آياتها ورباط معانيها؛ فإن ذلك سيمده بكثير مما لم يخطر بباله ولم يتشمم رائحته عند غيره.

ونذكر هنا بعض ما لمسناه نحن من لطائف البلاغة فيها حتى يكون ذلك حافزاً لمن تطلّع إلى الفحص عن بقيتها.

فكلما تدبرنا السورة وأنعمنا النظر في نظامها رأينا من شأنها عجباً؛ حيث وجدناها مثالاً رائعاً لبراعة الاستهلال، وندرة الاستدلال وروعة الانتقال وسرعة الالتفات، وحسن التلميح وجمال المقطع ودقة التصوير وشدة التأثير وكمال الإبلاغ وعجيب الاستدراج وما إلى ذلك من دلائل الإعجاز.

---

(١) رتاجاً مرتجاً: أي باباً مغلقاً.

(٢) في ظلال القرآن، تفسير سورة القمر.

براعة الاستهلال:

فأما براعة الاستهلال فيها فيكفينا لإدراكها أن نتذكر أواخر سورة النجم؛ حيث قال - تعالى - : ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٥٦ - ٦٢].

فلما كان أعداء الله في غاية السمود[1]؛ حيث كانوا يعجبون إذا قيل لهم: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وكانوا يضحكون ولا يبكون ويستهزئون ولا يخافون قرعتهم سورة القمر وهزّتهم هزاً عنيفاً حتى ينتبهوا من رقدتهم ويفيقوا من هوسهم: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

أي: جاءتكم الساعة. الساعة التي كنتم تعجبون منها وتضحكون. جاءتكم بكل ما فيها من ويل وثبور وشرور وأهوال؛ وهذي أشراطها قد ظهرت وتحققت؛ فقد انشق القمر ولم يبق مجال لإنكار من أنكر.

وفضّل هنا هذا الأسلوب - أسلوب المفاجأة والمباغتة، حتى يدركوا أن الساعة ستأتيهم هكذا بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم ينظرون، وعندئذ يندمون ويصطرخون، كما قال - تعالى - : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

ولكن: ماذا يجديهم الندم، وقد فاتهم الزمن؟!

وكان هذا الأسلوب - ولا شك - بحيث تتخشع له الجبال، وتتصدع له الصخور. ولكنه لم يكن لينجع في قوم أعماهم الجهل والسمود عن النظر في عواقبهم. وكانوا كما قال الله فيهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

فلم يكونوا ليفيقوا من هوسهم. وإنما الذي كان يخشى منهم أن يزدادوا عتواً إلى عتوهم وعناداً إلى عنادهم، ويقولوا كما قال أشياعهم من قبل: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

فجاءت الآية: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

وهذا من عجيب أسلوب القرآن؛ حيث إنه كثيراً ما يأتي بمعنيين ترى بينهما فجوة، وما هي بفجوة، وإنه هي من لطائف بلاغة القرآن؛ إنه يأتي بمعنيين متنائيين في بادئ النظر ويترك للذهن أن يملأ الفراغ بينهما وإن شئت فقل: إنه يجعل التفكر جسراً بينهما.

ومثل هذه المواطن تكون مظنة الحيرة، إلا أن رعاية النظام تعالجها بسهولة.

فكأنه قيل: إنهم الآن ينذرون ويلات الساعة، فلا ينتبهون ولا يرتعدون ويدّعون بآية يستدلون بها على صدق هذه النبوءة.

ولو ظهرت لهم الآية تحقيقاً لطلبهم ونظراً إلى رغبتهم لأعرضوا وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، كما جاء في موضع آخر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وأيضاً كما ورد في موطن آخر: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨].

ثم قال: على أية حال؛ فإنهم كذبوا بالساعة ولم يعتمدوا في تكذيبهم هذا على دليل رصين أو أساس متين

---

(١) السمود: الغفلة واللهو والتكبُّر. (لسان العرب، مادة سمد).

وإنما اتبعوا أهواءهم. فهل تكذيبهم هذا يغيّر الوضع ويبدّل القول؟ لا؛ فكل أمر له موعد مضروب وأجل محتوم.

فإذا جاء الموعد وحان الأجل وقعت الواقعة واستقر الأمر.

ومما يدعو إلى العجب أنهم يعرضون، مع أنهم جاءهم من الأنباء ما يكفي لردعهم وزجرهم!!

جاءتهم أحاديث كلها حكمة بالغة وموعظة رادعة؛ ولكن هذه النذر كلها ضاعت، كأنها كانت صيحة في وادٍ أو نفخاً في رماد!

روعة الالتفات:

وهنا يلتفت الخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

ولعمري إنه التفات عجيب ومليح؛ فإن الكلام ما زال متصلاً بالكافرين ومتوجهاً إليهم؛ فكأنه من قبيل (إياكِ أعني واسمعي يا جارة).

ولا يخفى ما لهذا الالتفات من وقع وتأثير في النفوس إن كان قد بقي فيها رمق من حياة!

حسن المقابلة:

ثم نلاحظ في تلك الآيات مقابلة جميلة رائعة لا ينتبه لها إلا من يهتم بنظام الآيات: فاليوم هم ﴿سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]، وغداً تراهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾[القمر: ٧].

واليوم تراهم معرضين عن الداعي: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

وغداً تراهم: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾[القمر: ٨].

واليوم تراهم يكذبون: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[القمر: ٣].

وغداً يصدِّقون، حين لا ينفعهم تصديقهم: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

واليوم تراهم يتبجحون ويقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

وغداً يخرجون من الأجداث: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

وما أروع المقابلة بين ﴿جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]. وبين ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

ثم تبلغ هذه المقابلة غايتها من الحسن والروعة والجمال حينما نستمع إلى القرآن مرة أخرى وهو يقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

وما أشبه الجيش المنهزم بجراد منتشر!!

ثم نجد أنفسنا أمام تلك الآيات: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إلى قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٩ - ٤٢].

ينظر الناظر إلى تلك الآيات ويمر بها وكأنها ليست إلا عبارات عادية لا يقصد بها إلا توعّد الكافرين بسوء مصيرهم في الدنيا، شأن من خلوا من قبلهم، كما صرّح به القرآن بعدما انتهى من تلك القصص؛ حيث قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٥].

ولكننا حينما نقيم على تلك الآيات ونطيل القيام عليها، ونتملاّها في ضوء نظامها نقضي منها العجب لكثرة ما تشتمل عليه من عجائب البلاغة من ندرة الاستدلال على مجيء الساعة وعجيب الاستدراج إلى أهوالها، ثم من سرعة الالتفات ولطيف الانتقال ودقة التصوير وشدة التأثير وأشياء أخرى قد يدركها المتأمل المتوسم ويعجز عن وصفها.

وهنا نُلمح إلى بعض ما تتضمنه تلك الآيات من روائع البلاغة ومحاسنها.

ندرة الاستدلال:

ننظر أولاً إلى ندرة الاستدلال على مجيء الساعة وهي من ناحيتين:

الأولى: أنهم كانوا يستبعدون الساعة من جهة إمكانيتها.

وكانوا يطلبون آية يستدلون بها على وقوعها.

إنهم كانوا يقيسون القدرة القادرة المطلقة بقدراتهم الضئيلة الهزيلة العاجزة، وكانوا يتعجبون ويتساءلون:

كيف ينشق القمر؟ كيف تنفطر هذه السماء؟ وكيف تسير تلك الجبال؟

وقد أشار القرآن إلى شبهاتهم هذه؛ حيث قال: ﴿**لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**﴾ [طه: ١٠٧، ١٠٨].

فقد جمع القرآن في ثنايا تلك القصص عدداً من الحوادث الكونية الكبرى، التي ستظهر حين قيام الساعة.

فإن كان الله قادراً في فترة قوم نوح على أن يفتح أبواب السماء، وعلى أن يفجّر الأرض عيوناً فما وجه الاستغراب إذن إذا قيل في أشراط الساعة: ﴿**وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا**﴾ [النبأ: ١٩] أو ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ**﴾ [الانفطار: ٣].

ثم إن كان الله قادراً على أن يرسل صيحة واحدة على ثمود فيكونوا كهشيم المحتظر، فما وجه الاستبعاد إذن إذا قيل: ﴿**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾ [يس: ٥٣]؟

ثم انفلاق البحر وانشقاقه بضربة بالعصا ليس أقل غرابة من انشقاق القمر في وقت قيام الساعة فما وجه الاستغراب إذن إذا قيل: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١]؟

الناحية الثانية: أن تلك الحلقات المتتابعة المتلاحقة للأحزاب التي حلّ عليها سخط الله بسبب عصيانها وطغيانها تدل دلالة واضحة على أن رب العرش ليس غافلاً عن خلقه، وهو يراقبهم في حركاتهم وسكناتهم ويعاملهم حسب تصرفاتهم؛ فيهلك العصاة الطاغين؛ ويرحم عباده الشاكرين.

فهي - في الواقع - شواهد على الدينونة الإلهية الحاسمة الكبرى التي ستظهر وقت قيام الساعة على وجه أتم وأشمل؛ فإن هذه الدنيا ليست دار الجزاء وإنما هي دار البلاء، وما يظهر فيها من وقائع الجزاء ليس إلا تلميحاً إلى ما يتبعه من الجزاء الأوفى الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

عجيب الاستدراج:

ومما يزيد في روعة هذه الآيات ويرفع من قيمتها الأدبية البلاغية أنها نموذج رائع لعجيب الاستدراج، كما أنها نموذج رائع لندرة الاستدلال.

فهي لا تصرّح بأدلة وقوع الساعة حتى ينفر منها من لا يؤمن بها، بل تتضمنها في ثناياها وتخفيها في غضونها؛ فهي تمشي في عروقها كما يمشي الماء في عروق الشجرة وأغصانها.

فالسامــع يستمع إلى تلك القصص واحـدة واحــدة؛ وما يكـاد ينتهي منها حتى يلين وينكسر مـن حيث لا يشعر، ويتوجس في نفسه خيفة الحساب وخيفة الجزاء؛ مع أنه كان منكراً للحساب ومنكراً للجزاء.

ثم حينما ينتهي السياق من تلك القصص المخيفة المرجفة لا يباغتهم بوعيد الساعة، بل يراعي ذلك الاستدراج، ويأخذ الجانب الذي كان من الوضوح بحيث لا يحتمل المراء، ويوجه إليهم سؤالين اثنين: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

وكان هذان السؤالان من القوة وإلزام الحجة بحيث لا يسعهم إلا أن يجيبوا عليها بـ «لا»..

فأردفهما سؤالاً آخر بدون أن يقف عندهما وينتظر الجواب عليهما: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. [القمر: ٤٤]

وكان في الموقف احتمال أن تستيقظ فيهم نوازع الأنفة والحمية الجاهلية، وكان من المحتمل أن يسارعوا بالجواب عليهم بـ «نعم» فأزاح عنهم حجاب الغرور، وهزهزهم بالواقع المرّ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

سرعة الالتفات:

ثم الذي يبين شأن هذه الآيات ويُظهر مدى مستواها الأدبي البلاغي هو سرعة الالتفات.. سرعة الالتفات مع عجيب الاستدراج.. سرعة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ثم إلى الغيبة؛ حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤١ ـ ٤٦].

علماً بأننا لأول مرة نرى في تلك السورة هذا الخطاب المباشر إلى الكفار.. نراه بعدما قطعنا ثلاثة أرباع السورة ودخلنا في الشوط الأخير منها.

ثم هذا الخطاب يفاجئهم بسرعة مذهلة ويمضي، بحيث يتحرك له الوجدان وتهتز له المشاعر.

فما هو السر في هذه المفاجأة المذهلة أو هذا التحول السريع يا ترى؟

ما نظن هذا السؤال يمكن عليه الإجابة إلا بعد ترداد النظر وإمعانه في نظام تلك الآيات.

لقد أسلفنا أن الله راعى في تلك القصص نوعاً عجيباً من الاستدراج؛ فما يكاد السامع ينتهي من تلك القصص ـ بشرط أن لا يكون مطموساً ـ إلا وهو يتوجس الروع ويداخله الفزع من حيث لا يشعر، ويجد نفسه مدفوعاً مضطراً إلى أن يراجع سلوكه ويفكر فيما يؤول إليه أمره.

وهنا ينتهز السياق تلك الفرصة السانحة ويوجِّه إليه هذا السؤال بسرعة كسرعة البرق، حتى يكون ذلك له معواناً على مراجعة نفسه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

علماً بأنه لم يكن مهيأً نفسياً قبل هذا حتى يوجَّه إليه هذا الخطاب المباشر.

هذا، وكان هناك وراء هؤلاء الجماهير فريق من قادة الكفر الذي قد بلغ من السمود غايته، ولم يكن مهيأً بعدُ حتى يوجه إليه الخطاب المباشر؛ فإنه على الرغم من هذا القرع المزلزل العنيف مصرٌ على سموده واستكباره، نشوان ثمل من قوته وشدة بطشه، ويتلوى ويتبجح في غروره:

على أية حال؛ فنحن جميع منتصر!

وهنا يبادر النص القرآني بردِّ هذا الغرور في وجه أصحابه مع الإعراض عنهم: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر : ٤٥، ٤٦].

ولا شك أن هذا الإعراض يزيد أحياناً في شدة الوعيد، ويكون أوقع في النفس وأنجع في التقريع.

ومما يشير إلى هذا الفرق أن السياق لا يقول في آية الخطاب:

أيها الكفار أأنتم خير أم أولئكم؟

بل يعدل عنه إلى قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

وعلى هذا فيكون تأويل الآية هكذا: أيها الناس، هل ترمقون قادتكم وطواغيتكم هؤلاء: أهم خير وأقوى من أولئك الذين سحقوا قبلهم ودمّروا؟

وهل ترون هؤلاء يفلتون من عذابنا، إذا أُخِذوا وحوسبوا؟

وإلا فكيف أخذتم طريقهم وربطتم مصيركم بمصيرهم؟

أم هل تحسبون أن ربكم كتب لكم صك العفو والغفران وصك البراءة من النيران وأعطاكم الرخصة للفجور والعصيان؟

براعة الترجيع:

نرجع مرة أخرى إلى القصص ونتأمل من خلالها في ترجيع قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٤٠].

فقد رُجِّعَت هذه الآية في تلك السورة أربع مرات، رُجِّعَت بعد كل مشهد من مشاهد المَثُلات.

فما الفائدة من هذا الترجيع يا ترى؟

هل يضيف هذا الترجيع شيئاً جديداً إلى موحيات هذه السورة؟ وهل له دور ملحوظ ملموس في جمال السورة وفي إيقاعاتها؟

أم هو تكرار محض وليس وراءه شيء ملحوظ مذكور يتصل بجمال السورة وموحياتها؟

تلك أسئلة وجيهة هامة تفرض علينا أن نمعن النظر في نظام الآيات، إن الجواب عنها يكمن في نظامها، ومن أراد الإجابة عليها ساهياً عن نظامها فلا تعتقد أنه يختلف في جوابه عن الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ حيث يقول: «لعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها»[1].

بينما التأمل في نظام تلك الآيات لا يدعنا نقف عند هذا الحد الأدنى بل يفتح أمامنا آفاقاً واسعة في الموضوع، ويجسِّم لنا جمال هذا الترجيع ويشخِّص لنا بلاغته وإعجازه من عدة وجوه، وهي كما يلي:

الوجه الأول: هذا الترجيع يسبغ على تلك المشاهد الرهيبة المخيفة المفزعة ثوباً ضافياً فضفاضاً من الرقة والعذوبة والرحمة، فنشعر كلما ينتهي مشهد من هذه المشاهد المرجفة كأن ربنا تجلّى لنا برأفته.

وهو يحذرنا أن نتورط فيما تورط فيه أولئك المتمردون من الخزي والعذاب والخسران، ويناديننا بحنوٍّ وتأكيد وإصرار:

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟

---

(١) فتح القدير، ٥/١٢٧.

الوجه الثاني: هذا الترجيع - بما فيه من تكرار ضمير الجلالة (نا) - يبين لنا مدى رأفة الله بعباده، ويقرّبنا حتى يجعلنا نستشعر كأننا في كنف ربنا، ونسمع صوته في آذاننا وهو يدعونا وينادينا:

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر : ٤٠].

الوجه الثالث: هذا الترجيع يجعل كل حلقة من تلك الحلقات مشهداً مستقلاً بنفسه. ويبرز كلاً منها وهي وحدها تكفي للعظة والتذكار.

وكم كان الله بعباده رحيماً، وكم كان عليهم حنوناً؛ إذ قصّ عليهم تلك القصص تباعاً، حتى لو فاتتهم قصة أيقظتهم أخرى:

ولقد صدق نبينا - عليه الصلاة والسلام - إذ قال: «ولا يهلك على الله إلا هالك»[1].

الوجه الرابع: هذا الترجيع يجعل كل حلقة من تلك الحلقات متميزة من صاحبتها، ويجعل لكل واحدة منها إيحاءاً يخصها، ويدعونا إلى أن نطيل المكث عند كل واحدة منها ونستوعب إيحاءاتها.

ثم إذا رجعنا إلى تلك الحلقات وعشنا مع تلك الآيات المباركات وتأملنا فيها من هذه الناحية وجدناها كذلك، وسنفصّل فيه القول - بإذن الله -.

فلننظر كيف كشف لنا التأمل في نظام تلك الآيات عن نواحي الجمال والروعة والإشراق في هذا الترجيع.

والآن فلا نبالغ إذا قلنا: إن هذا الترجيع تعرّض في تلك السورة تعرُّض أثناء الوشاح[2] المفصّل، وإن شئت فقل: إنه يتلألأ فيها كما يتلألأ الثريا في كبد السماء.

تميز وتماثل:

والآن نأتي لنرى تميز تلك القصص في إيحاءاتها مع تماثلها في جوّها وصياغتها.

وتلك ناحية عجيبة من بلاغة أسلوب القرآن، وما يفطن لها إلاّ من كان مهتماً بنظام الآيات، وكان عاكفاً على التأمل فيها والتشبع بعلومها وكنوزها، فنقول - وبالله التوفيق:

القصة الأولى: وهي قصة نوح، يغلب عليها لون رعاية الله لعباده الأنبياء.

ألا ترى كيف بدأ القصة بقوله: ﴿فكذبوا عبدنا﴾.

ولا ندري كيف نعبر عما تفيض به كلمة ﴿عبدنا﴾ من حفاوة ومودة تأخذ القلوب وتملك الشعور، وخاصة في هذا الجو الخانق المكروب ﴿قالوا مجنون وازدجر﴾.

ثم نلاحظ كذلك أنه ما تتحرك شفتا نوح بإظهار ضعفه وعجزه أمام ربه، حتى يسرع إليه ربه بعطفه ورعايته، ويحرك له الكون كله للانتصار من أعدائه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠ - ١٢].

ولننتبه لضمير الجلالة هنا: ﴿فَفَتَحْنَا﴾ و ﴿فَجَّرْنَا﴾ فإن التصريح بضمير الجلالة هنا يشعر أنه - تعالى - قد تولى أمر نوح بنفسه ولم يسنده إلى غيره اهتماماً بشأن عبده!

ثم نرى نوحاً يحمله ربه على ذات ألواح ودسر، وهي تجري بأعينه وفي ظلّ رعايته - سبحانه وتعالى - !

وكان هذا جزاءاً وإكراماً لمن كفر به قومه فأكرمه ربه وأسبغ عليه فضله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ

---

(١) رواه مسلم، ح/ ١٨٧.

(٢) أثناء الوشاح: قواه وطاقاته، ومفرد أثناء: ثِني ومَثناة ومِثناة. (لسان العرب، مادة ثني).

وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤].

والمراد بذات ألواح ودسر هو السفينة كما هو معروف ومفهوم؛ إلا أن النص القرآني عدل عن كلمة السفينة إلى قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ حتى يصوّر لنا ذلك المشهد الفذ الجميل، ويجعله حاضراً شاخصاً أمام أعيننا.

فنشعر كلما تلونا تلك الآية الكريمة كأننا واقفون أمام تلك الألواح وهي تحمل نوحاً في رعاية ربه، والأمواج الصاخبة حوله تريد أن تصل إليه ولكن بدون جدوى؛ فإنه في رعاية ربه، وربه يرعاه بنفسه!

وهكذا نرى السياق يبرز في هذه القصة مشهد الحماية والرعاية والكرامة. وأما المشهد الأخير - وهو مشهد الإهلاك والإغراق - فيطويه طيّاً، ويكتفي بالإشارة إليه: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢].

ثم تأتي الحلقة الثانية: وهي قصة قوم عاد، وتلك القصة بأكملها تمثل سوء عاقبة المستكبرين، كما آن القصة الأولى كانت عبارة عن تأييد الله للمرسلين.

فهي تنذر من يغتر بقوته أنه سيصرع صرعاً فظيعاً، وما يستطيع من قيام ولو لطرفة عين؛ فإن جنود الله الجبارين يمرِّغون آنوف المستكبرين في التراب، مهما بلغت قوتهم، ويلصقون جباههم بالرغام مهما عظمت شوكتهم.

فتلك عاد شمخوا بأنوفهم أمام ربهم: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فسلط الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية، فالقتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ - ٢١].

فنرى السياق يذكر هلاكهم الفظيع بكل سرعة وإيجاز وينتهي ولا يتعرض لشيء بعده.

ثم تأتي الحلقة الثالثة: قصة ثمود؛ وهي وإن كانت في لونها العام شبيهة بقصة عاد، إلا أنها متميزة منها من جهة، فإنها تحذير للكافرين على طلبهم آية العذاب، وتنبيه إلى أن الأمة إذا طلبت آية العذاب، ثم هتكت حرمتها فلا تمهل بعدها.

فالآية قد تكون حسرة وندامة في حق من يطلبها، ويكون موعد ظهورها هو موعد هلاك تلك الأمة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ...﴾ [القمر: ٢٣ - ٣٢].

ثم تأتي الحلقة الرابعة: قصة قوم لوط؛ وهي وإن كانت شبيهة بقصة قوم نوح على طريق العود على البدء، إلا أنها متميزة عنها؛ حيث إنها تبشر بتنجية المؤمنين كافة، وتنادي بحسن جزاء الشاكرين قاطبة.

إنها تصرح بتنجية آل لوط كلهم، ولا تقتصر على ذكر نجاة نبي الله لوط وحده.

علماً بأن القصة الأولى لا تذكر إلا نجاة نبي الله نوح: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾.

وكذلك تناولت هذه القصة هلاك المجرمين بنوع من التفصيل، بينما القصة الأولى لم تتناوله بتفصيل وإنما أشارت إليه إشارة عابرة خاطفة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ...﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٩].

ثم تأتي الحلقة الخامسة: وهي قصة آل فرعون، وهذه القصة تنبه إلى أن وفرة العتاد والأوتاد أو كثرة الجيوش والجنود لا تغني من ذي الجلال والجبروت؛ فإنه يقصف الطغاة ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

إلا أن هذه الحلقة تختلف عن أخواتها؛ بحيث إنها ليست ـ في الحقيقة ـ حلقة مستقلة، وإنما هي معْبرة لطيفة للتخلص من حديث الغابرين إلى واقع الحاضرين.

ولذلك ترى الآذان والأذهان تنتظر بعد ذكر آل فرعون ذلك الترجيع المألوف: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

فإذا بها قد فوجئت بسؤال يهز الوجود ويرجف القلوب: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٦].

ثم هناك ظاهرة أخرى تميز المشهد الأخير عن أقرانه هي أن المشاهد الأخرى جاءت مفصولة بعضها عن بعض؛ بحيث لا يربطها رابط من واو الوصل: فقال ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ... كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ... ﴾.

بينما نرى المشهد الأخير جاء بواو الوصل؛ حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾. [القمر: ٤١]

وتلك لمحة مليحة إلى أن المشهد الأخير يختلف عن سائر المشاهد في نوعيته وطبيعته ودلالته.

وتلك لطائف عجيبة من لطائف أسلوب القرآن، بحيث يتحرك لها الوجدان وتهتز لها حاسة البيان، ولا يمكن العثور عليها إلا بعد ترداد النظر في تصاريف النظام.

براعة الترتيب في القصص:

لا يخفى على الباحث المتأمل أن القرآن ليس له عادة معلومة أو قاعدة مطردة في ذكر القصص والأخبار، بل له في ذلك مناحٍ وأساليب في غاية الدقة.

فأحياناً يسرد القصص سرداً حسب ترتيبها في الزمان، وأخرى يعدل عنه إلى ترتيب آخر تقتضيه حكمة البيان.

فلنرجع إلى ما كنا فيه من سورة القمر، ولنمعن النظر في ترتيب قصصها عسى أن ندرك ما فيه من الحكمة البالغة والبلاغة الساحرة المعجزة.

من المعلوم أن هذا الترتيب الذي نلاحظه في هذه السورة جاء على وفق الزمان.

فذكر السياق أولاً قوم نوح ثم عاداً ثم ثمود ثم قوم لوط ثم آل فرعون.

ولا شك أننا إذا مررنا على مصارع هؤلاء الأحزاب، هكذا على ترتيبهم في الزمان؛ حيث يتبع بعضهم بعضاً، تمثلت لنا سنة الله التي عملت عملها دائماً، وغلب على حِسِّنا أن أيَّ أمة من الأمم - على مدار التاريخ - لما ركبت مركب الكفر والمعصية ذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً.

فهذا النظم له دور بارز ملموس في إعداد هذا الجو الرهيب المفزع.

والآية التالية لتلك القصص قد نجد فيها نوعاً من التأييد لهذا القول؛ فإنه لماَّ تهيأ هذا الجو وتمكن من القلوب الروع تقدم النص خطوة أخرى، وهزّ أعداء الله هزاً ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣].

أي: إذا كانت تلك سنة الله في الأمم، وكانت سنة قائمة على مرِّ الزمان؛ بحيث لم تركب أمة من الأمم هذا المركب الخشن إلا جنت الندم، ودارت عليها دائرة المحن، فما بالكم يا طغام الأحلام أمنتم على أنفسكم وتجرأتم على ربكم؟

أأنتم خير من أولئكم؛ فلا تمسكم نفحة من عذاب ربكم؟ أم كتب لكم ربكم «صك» البراءة والغفران؛ فلا تقطفون ثمار كفركم وإنكاركم؟!

ولمثل هذا النظم نظائر أخرى وشواهد تترى في القرآن، ولكن الأمر ليس بحاجة إلى أن نفيض فيه الكلام ونقيم عليه البرهان.

براعة المقطع:

وأخيراً نأتي على مقطع من السورة غاية في الحسن والروعة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

ولكي ندرك روعة هذا المقطع لا بد لنا أن نضع في اعتبارنا ذلك الجو الرعيب المكفهر الذي يسود السورة، والذي مررنا عليه قبل قليل.

ويزداد هذا الجو تجهماً ويشتد حين تستقبلنا هذه الآيات: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٤٧ - ٥٣].

يا لهول المصير!! ويا لخطورة الموقف!!

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢ - ٥٣].

فكأن هذا العذاب البئيس الذي دمرهم ومزقهم وجعلهم كهشيم المحتظر لم يحسب في حسابهم ولم ينقص من أوزارهم؛ بل كل صغير وكبير مسطور في زُبُر[1] أعمالهم؛ وهم سيحاسبون عليه واحداً بعد واحد.

والنتيجة واضحة معلومة؛ فهم يُسحبون في النار على وجوههم؛ وكل شيء حولهم يسخر منهم ويقرعهم. ذوقوا أيها السامدون! ذوقوا مسّ سقر!

في مثل هذا الجو العبوس القمطرير ترد هاتان الآيتان: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

يا لروعة هذه الكلمات في هذا الجو المكفهر القاتم!

فوالله! إنها لأروع من كوكب دريّ كريم يضيء في ليل بهيم! وهي أغلى في نفس المؤمن من كل كنز ثمين ومن كل متعة ونعيم!

وتجيء سورة القمر لتفصِّل تلك المصارع بأسلوب ينطق بقدرة الله وملكه وتفرده بالسلطان دون غيره؛ فله الملك وله الحكم؛ يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد؛ يبطش بالطغاة وينتصر من البغاة؛ ويأخذ من يشاء أخذ عزيز مقتدر.

ثم هذا ليس نهاية المطاف؛ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ؛ فهم يسحبون في النار على وجوههم ولا يجدون لديهم من يشفع لهم أو يخفف عنهم من عذاب ربهم.

وأما المتقون فهم ينعمون ويفرحون وهم اليوم في شغل فاكهون: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

---

(١) الزُّبُر: الكتاب.

فاليوم يومهم والمليك مليكهم.

فهم اليوم في عزة وسرور وفي سعادة وحبور.

والمليك يُتوِّجهم بتاج العز والكرامة، ويخلع عليهم حُلل الشرف والسعادة، ويرفع شأنهم حتى يجلسهم حول عرشه وينزلهم في كنفه؛ فإنهم عرفوا لصاحب الملك ملكه، وخشعوا له وسجدوا، وأوذوا في سبيله فصبروا، وقَتَلوا وقُتِلوا.

وأما الذين عدلوا عن المليك وتعلقوا بأهداب الشفعاء فلهم الويل كل الويل؛ فإنهم أسخطوا المليك ولم ينفعهم البديل.

وما أروع مشهد المتقين؛ حيث ينعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

ما أروع هذا المشهد إذا قسناه إلى مشهد الكفار وهم يُسحبون على وجوههم ويمثُلُون إلى نيرانهم؛ وكأن الملائكة الذين كان يحلم هؤلاء بشفاعتهم يتبرؤون منهم ويعنفونهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

ثم تدهشنا روعة هذا المقطع وبراعته من ناحية أخرى إذا قسناه إلى سورة الرحمن؛ وبيانه أن سورة القمر تطفح بلهيب الإنذار وتجيش بغضب الجبار؛ فقد تكررت فيها كلمة «النذر» و«الإنذار» اثنتي عشرة مرة، وتكررت كلمة العذاب سبع مرات؛ وهذا شيء يخص سورة القمر دون سائر السور؛ حيث لم تتكرر هاتان الكلمتان بهذا الشكل في أية سورة من السور.

ولعل هذا القدر من الكلام يكفينا لإدراك ما نحن بصدده من أن هناك جوانب وأطرافاً من البلاغة القرآنية العالية المعجزة لا يطّلع عليها إلا من يدمن النظر في نظام الآيات، ويلتمس الوشائج التي تربط المعاني بعضها برقاب بعض.

ومما يروى في كتب السيرة أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكلٌّ لا يعلم مكان صاحبه؛ فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا؛ فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا؛ فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً...[1].

لقد كانت تمر بنا تلك القصة وأمثالها في كتب السيرة فكنا نتحيّر: كيف كان يحرص الأعداء على سماع القرآن مع شدة عداوتهم وحنقهم على الإسلام؟

وما الذي كان يسوقهم إليه سوقاً في جنح الظلام؟

وكيف كانوا يؤخذون بروعة آياته وجمال أسلوبه مع أنّ العداوة تعمي العيون وتصم الآذان؟

ولكن لم يطُلْ بنا الزمان حتى تعرفنا على فكرة النظام فانقشعت عنا الحيرة، وعرفنا أن هذا القرآن ينطوي في نظام آياته ورباط معانيه على عالم عجيب من الروعة والجمال؛ بحيث لا يكاد يصبر عنه من يتذوق اللسان ولو قد جعلته العداوة من أعمى العميان.

فسبحان ربنا الرحمن الذي كرّمنا بهذا القرآن وفضلنا به على سائر الأقوام.

---

(١) انظر: مثلاً الروض الأنف، للسهيلي، ٣ / ٩٩.



إحياء سنة الوقف

نحو مؤسسة وقفية تمويلية تنموية

سليمان الطفيل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فقد طرحت افتتاحية مجلة البيان في عددها ذي الرقم (١٣٨) تحت عنوان: «صحونا.. فلننهض» بعض الإنجازات التي حققتها الدعوة في مرحلة الصحوة، ثم تساءلت: ما الذي علينا أن تستعين بالله في إنجازه فيما يستقبل من مراحل؟ مطالبة في ختام كلمتها أنه آن لنا أن ننتقل من مرحلة «الصحوة» إلى مرحلة «النهضة» لذلك عمدتُ - بعد توفيق الله تعالى - إلى الإسهام في تجلية حقيقة طالما غابت ولعقود طويلة عن أذهان كثير من المسلمين، هذه الحقيقة لها شأن عظيم وأثر بالغ في نهضة الإسلام وانتشاره في القرون الأولى، ألا وهي «سنة الوقف» تلك السنة الخيرية التي امتاز بها المجتمع الإسلامي الأول لقول جابر ﷺ: «لم يكن أحد من الصحابة له مقدرة إلا وَقَفَ»[1]، ولقد ذكر التاريخ الإسلامي في المجال التطبيقي لفكرة الوقف كثيراً من الأوقاف التي تبارى المحسنون من المسلمين في كل أقطارهم وعصورهم وعلى اختلاف مذاهبهم في إنشائها على جهات البر الكثيرة التي ما زال كثير منها قائماً حتى اليوم. وهذه الأوقاف مما اختُص به المسلمون؛ لقول الإمام الشافعي - رحمه الله -: «لم يحبس أهل الجاهلية - فيما علمته - داراً ولا أرضاً تبرراً بحبسها، وإنما حبس أهل الإسلام»[2]، وإلا فقد ورد أنهم كانوا يحبسون؛ ولكن بقصد الفخر والخيلاء؛ بل إن فكرة حبس المال والاستفادة من ريعه معروفة من قديم الزمان وحديثه، وإن لم يسم بالاسم المتعارف عليه عند المسلمين وهو الوقف.

تعريف الوقف:

الوقف لغة: يطلق على الحبس[3]، كما أنه يطلق على المنع[4]، فأما الوقف بمعنى الحبس فهو مصدر قولك: وقفتُ الدابةَ، ووقفتُ الأرضَ على المساكين، أي جعلتها محبوسة على ما وقفت عليه ليس لأحد تغييرها أو التصرف فيها. وأما الوقف بمعنى المنع فلأن الواقف يمنع التصرف بالموقوف.

وأما في اصطلاح الفقهاء، فقد عُرِّف الوقف بتعاريف كثيرة تبعاً لاختلاف المذاهب والأقوال في مسائل الوقف، وأقرب تلك التعاريف لمعنى الوقف ما ذكره ابن قدامة في المقنع بأنه: «تحبيس الأصل وتسبيل

---

(١) عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي - كتاب تيسير الوقوف - مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ، ج ١، ص ٢٣.

(٢) الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي - الأم - دار المعرفة للطباعة، بيروت - لبنان، ج ٤، ص ٥٢.

(٣) ابن منظور - لسان العرب - دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م، مج ٨، ص ٤٨٩٨.

(٤) د. إبراهيم أنيس، وآخرون - المعجم الوسيط - دار الفكر، مج ٢، ص ١٠٥١.

المنفعة»[1]، لكونه مقتبساً من قول أفصح البشر لساناً وأبلغهم بياناً ﷺ، حينما سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن أرض أصابها بخيبر، فقال له: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها»[2].

الأصل في مشروعية الوقف:

الأصل في مشروعيته: الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ وكذلك إجماع الأمة.

أما الكتاب: فقول الله - تعالى -: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

أما السنة: فقد ورد في صحيح البخاري[3] عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «أصاب عمر بخيبر أرضاً، فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟ قال: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، فتصدق عمر أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث وإنما هي صدقة في الفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقاً غير متمول فيه»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[4].

وأما الإجماع: فقد اشتهر اتفاق الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - على الوقف قولاً وفعلاً[5]؛ ومن ذلك قول الصحابي جابر بن عبد الله رضي الله عنه السابق ذكره، وكذا قول الإمام الشافعي - رحمه الله -: «بلغني أن أكثر من ثمانين رجلاً من الصحابة من الأنصار وقفوا»[6]. وذكر الخصاف أن فعل أصحاب رسول الله ﷺ، وما وقفوه من عقاراتهم وأموالهم إجماع منهم على أن الوقوف جائزة ماضية[7].

أركان الوقف: أركانه أربعة، هي[8]:

١ - الواقف: وهو الحابس للعين.
٢ - الموقوف: وهي العين المحبوسة.
٣ - الموقوف عليه: وهي الجهة المنتفعة من العين المحبوسة.
٤ - الصيغة: ويقصد بها لفظ الوقف وما في معناه. وهناك ألفاظ صريحة وألفاظ كناية. أما الألفاظ الصريحة فهي كقولك: وقفت، وحبست، وسبَّلت، وأما ألفاظ الكناية فهي كقولك: صدقة محرمة، أو صدقة محبسة، أو صدقة مؤبدة.

أنواع الوقف:

ينقسم الوقف باعتبار الجهة الأولى التي وُقِفَ عليها إلى نوعين[9]:

١ - الوقف الأهلي.
٢ - الوقف الخيري.

---

(١) ابن قدامة - المقنع - المؤسسة السعيدية، الرياض، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ، ج ١، حديث رقم ١٤١٨، ص ٢٩٩.

(٣) الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، فتح الباري، المكتبة السلفية، القاهرة، ج ٥، حديث رقم ٢٧٧٢، ص ٤٦٨.

(٤) الألباني، صحيح الجامع، مرجع سابق، ج ١، حديث رقم ٧٩٣، ص ١٩٩.

(٥) المناوي، كتاب تيسير الوقوف، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٣.

(٦) الشافعي، الأم، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٣.

(٧) أبو بكر الخصاف أحمد بن عمر الشيباني، كتاب أحكام الأوقاف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٨.

(٨) ينظر في ذلك: المناوي، مرجع سابق، ص ٢٤، أبو بكر، برهان الدين إبراهيم بن موسى، الإسعاف في أحكام الأوقاف، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٤، د. صالح بن غانم السدلان، أحكام الوقف والوصية، دار بلنسية، ط ١، ١٤١٥هـ، ص ٩، د. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مرجع سابق، مج ٢، ص ١٠٥١.

(٩) ينظر في ذلك: د. نزيه حماد، معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط ٣، ١٤١٥هـ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤، د. السدلان، أحكام الوقف والوصية، مرجع سابق، ص ١٠ - ١١، د. حسن عبد الله الأمين، الوقف في الفقه الإسلامي، ضمن ندوة إدارة وتثمير ممتلكات الأوقاف، البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، جدة ١٤١٥هـ، ص ١١٣.

يُقصد بالوقف الأهلي: وقف المرء على نفسه، ثم على أولاده، ثم على ذريته، ثم على جهة خيرية من بعدهم. أما الوقف الخيري: فهو الوقف على جهة بر ومعروف، كالمساجد والمدارس والمستشفيات، وسمي وقفاً خيرياً لاقتصار نفعه على المجالات والأهداف الخيرية العامة.

الحكمة من مشروعية الوقف:

لتشريع سنة الوقف حِكَمٌ عظيمة أبرزها: إيجاد مصدر تمويلي دائم لتحقيق مصالح خاصة ومنافع عامة، وعلى أساس هذه الحكمة يمكن وصف الوقف بأنه وعاء يصب فيه خيرات العباد، ومنبع يفيض بالخيرات على البلاد والعباد تتحقق به مصالح خاصة ومنافع عامة؛ ولا ريب أن هذه الخيرات تكون من أموال المسلمين وممتلكاتهم وأن حصولهم عليها يكون من جهةٍ حلال ومن طيب المال.

مؤسسة الوقف والنهضة بشؤون الإسلام:

بعد هذه المقدمة القصيرة حول تعريف الوقف وأنواعه والحكمة منه، نجد أن الفقه الإسلامي ينظر إلى الوقف على أنه مؤسسة تمويلية تنموية لها شخصيتها الاعتبارية، وأن مكونات هذه الشخصية لا تنحصر في التركيز على أعيان الوقف وإنما على الجهة (الخاصة أو العامة) التي رُصدت الأوقاف لمصلحتها، وبهذا تكون مؤسسة الوقف مصدراً مالياً من مصادر الأمة الإسلامية تستطيع - بأمر الله - تعالى - أن تنقلها من مرحلة الإعداد (الصحوة) إلى مرحلة البناء (النهضة). بمعنى أن مرحلة الوعي والالتزام بالدين الإسلامي (الصحوة الإسلامية) يترتب عليها عودة كثير من المسلمين إلى طريق الرشد والاستقامة - منهج أهل السنة والجماعة - هذه المرحلة تدفع كثيراً من المسلمين - المقتدرين - إلى الإنفاق والبذل في جهات البر والخير المختلفة، ومن ثم قيام مؤسسات خيرية منها مؤسسة الوقف، هذه المؤسسات تسعى إلى دعم مجالات التنمية المختلفة، فتبدأ حينئذ حركة البناء والنهضة تظهر وتنتشر في أرجاء المجتمع الإسلامي؛ وهذا ما فعله رسول الله ﷺ عند بزوغ فجر الإسلام؛ حيث أوقف ﷺ الحوائط السبعة في المدينة[١]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا[٢]، وكانت بنو النضير حبساً لنوائبه، وكانت فدك[٣] لابن السبيل، وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة أجزاء: جزئين للمسلمين، وجزءاً كان ينفق منه على أهله؛ فإن بقي فضلٌ رده على فقراء المهاجرين[٤]، وقال عبد الله بن كعب: حبس المسلمون بعد رسول الله ﷺ على أولادهم وأولاد أولادهم[٥]. وذكر الطرابلسي: حبست عائشة - رضي الله عنها - وأختها أسماء وأم سلمة وأم حبيبة وصفية أزواج النبي ﷺ، وحبس سعد ابن أبي وقاص وخالد بن الوليد وجابر بن عبد الله وعقبة بن عامر وعبد الله بن الزبير وغيرهم - رضي الله عنهم - أجمعين[٦]، وقال الشافعي: وأكثر دور مكة وقف[٧].

وعليه: إذا كانت المجتمعات الإسلامية عاشت حياة الصحوة مع بداية هذا القرن الخامس عشر الهجري ونهاية القرن العشرين الميلادي؛ فإن المناداة إلى عودة الوقف للإسهام في تمويل مجالات الدعوة ورعاية المؤسسات الخيرية، والإنفاق على القائمين عليها «تمويلاً للنهوض بشؤون الإسلام» يعد فرصة مواتية لإعادة

---

(١) الخصاف، كتاب أحكام الأوقاف، مرجع سابق، ص ١، ٢.

(٢) الصفايا: مفردها الصفية، واستصفيت الشيء إذا استخلصته، والصفايا هي ما اختارها الرسول ﷺ من الغنائم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٤٦٩.

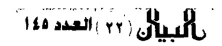
(٣) فدك: اسم قرية بخيبر، وقيل بناحية الحجاز فيها عين ونخل أفاءها الله على نبيه ﷺ، ينظر: ابن منظور، المرجع السابق، ج ٦، ص ٣٣٦٥.

(٤) الخصاف، مرجع سابق، ص ٣.

(٥) الخصاف، مرجع سابق، ص ٢.

(٦) الطرابلسي، الإسعاف في أحكام الأوقاف، مرجع سابق، ص ١٣.

(٧) الشافعي، الأم، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٣.



الاعتبار لهذه السنة بما يتلاءم مع مستجدات العصر الحالي؛ لأن مؤسسة الوقف لها أهداف تتعلق بشبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، تسعى دائماً لنشر الخير، وتنمية المجتمع الإسلامي، وإشاعة روح السخاء والبذل الذي يحرك أبناء الأمة الإسلامية ويقودهم إلى ساحات التكافل والتعايش، وبذل المعروف والإحسان، ويبعث في نفوسهم معاني الإسلام؛ تمهيداً للمستقبل المشرق الواعد، وتوطئة لمقدم جيل إسلامي صميم أشد أخذاً بالإسلام في نهضته الحديثة الراقية[1].

ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إن ظهور هذه المؤسسة الوقفية وانتشارها داخل المجتمعات الإسلامية كفيل - بعد الله تعالى - بأن تقوم بالدور الريادي للأمة الإسلامية خلال هذا القرن الهجري الجديد، بجانب المؤسسات الإسلامية الأخرى؛ ذلك أن مؤسسة الوقف بمثابة الكيان الحسي والمعنوي الذي ينسج داخل جسم المجتمع الإسلامي خيوطاً محكمة في التشابك، وعلاقات قوية من الروابط يغذي بعضها بعضاً، تبعث الروح في خلايا المجتمع حتى يصير كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. ويصدق على ذلك قول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2].

الوقف مؤسسة تمويلية تنموية:

لقد أثبتت التجربة التاريخية عبر القرون الإسلامية الماضية، الدور الكبير والعطاء المتميز لمؤسسة الوقف في تمويل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والصحية والمجتمعية، وفي رعاية المساجد والمكتبات،... إلخ، مما ساعد على نمو الحضارة الإسلامية وانتشارها؛ حيث انتشرت بسببها المدارس والمكتبات والأربطة وحِلَق العلم والتأليف، وتحسنت بدعمها الأحوال الصحية للمسلمين وازدهر علم الطب، وأنشئ ما عرف قديماً بالبيمارستانات أو المارستانات (المستشفيات)، إضافة إلى دور هذه المؤسسة في دعم الحركة التجارية والنهضة الزراعية والصناعية وتوفير البنية الأساسية من طرق وقناطر وجسور.

والمتأمل في أساليب الانتفاع الاقتصادي لمؤسسة الوقف في العصور الإسلامية الأولى سيجد أنه شمل أنواعاً مختلفة من مصادر ثروة المجتمع تمثلت في أراض زراعية وحدائق وبساتين إلى مختلف العقارات والدكاكين وأدوات الإنتاج فضلاً عن السفن التجارية والنقود.

أما عن الآثار التنموية لمؤسسة الوقف التي تظهر في حياة المجتمع فهناك آثار اقتصادية أبرزها: الأثر على التشغيل والتوظيف وتوزيع الثروة وتشجيع الاستثمارات المحلية، كما أن لها آثاراً اجتماعية، أهمها: تحقيق التكافل الاجتماعي والترابط الأسري، وبناء المساكن للضعفاء، ومساعدة المحتاجين، وتزويج الشباب، ورعاية المعوقين والمقعدين والعجزة، وبناء القبور وتجهيز لوازم التغسيل والتكفين للموتى.

إضافة إلى ذلك فإن لهذه المؤسسة الإسلامية العريقة الأثر الواضح في عملية التنمية البشرية التي تعنى ببناء الإنسان بجميع جوانبه «الروحية والعقلية والجسمية»، وذلك من خلال تركز أموال الوقف في بناء المساجد والجوامع «دور العبادة وتركيزها على جانب الروح»، والمدارس والجامعات والمكتبات وكفالة الدعاة «دور التعليم وتركيزها على جانب العقل»، والمستشفيات والمراكز الصحية «المارستانات أو البيمارستانات» وتركيزها على جانب الجسم.

وما أحوج المجتمعات الإسلامية في هذا العصر إلى وجود مؤسسات وقفية تتولى كثيراً من شؤون حياتهم؛ فقد تتوفر متطلبات الحياة في مكان بينما نجد أماكن أخرى يعيش أهلها في شظف من العيش.

---

(١) محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، الوقف في الفكر الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ج ١، ١٤١٦هـ، ص ١١، ٢٠.

(٢) الألباني، صحيح الجامع، مرجع سابق، ج ٢، حديث رقم ٨٥٤٩، ص ١٠١٨.



فهم القرآن وتدبره

د. أحمد بن شرشال

القرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية فحسب؛ بل نزل من أجل هذا ومن أجل ما هو أعم وأكمل؛ وهو فهم معانيه وتدبر آياته ثم التذكر والعمل بما فيه، وهو المنصوص عليه في قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

إن تلاوة كتاب الله - تعالى - تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت، إنها تعني تلاوته بفهم وتدبّر ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك.

إن تلاوة كتاب الله لا تعني الحرص على إقامة المدّ والغنّة ومراعاة الترقيق والتفخيم فحسب؛ وإنما تعني ذلك مع ترقيق القلوب وإقامة الحدود.

وقد عد شيخ الإسلام ابن تيمية المبالغة والحرص في تحقيق ذلك وسوسة حائلة للقلب عن فهم مراد الله - تعالى -[1].

والأمر الجامع لذلك: كما أننا مُتعبدُون بقراءة ألفاظ القرآن صحيحة وإقامة حروفه على النحو الذي يرضيه - جلّ وعلا - متعبدون بفهم القرآن والتفقه فيه دون سواه، والاستغناء به عن غيره. قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

قال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١] وقد فسر قتادة أن الصحابة هم الذين كانوا يتلونه حق تلاوته[3].

والتلاوة لها معنيان:

أحدهما: القراءة المرتلة المتتابعة، وقد أمر الله بها رسوله ﷺ في قوله - تعالى - : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]. وكان يتلوه على كفار قريش قال - تعالى - : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [يونس: ١٦].

والثاني: الاتباع؛ لأن من اتبع غيره يقال تلاه؛ ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ [الشمس: ٢]، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «يتبعونه حق اتباعه»، ثم قرأ: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ أي: اتبعها[4].

ونقل القرطبي عن عكرمة قوله: «يتبعونه حق اتباعه باتباع الأمر والنهي فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه ويعملون بما تضمنه»[5]، أقول: والجمع بين المعنيين هو المتعين، ويصح فيها جميعاً؛ فالتلاوة بإقامة الألفاظ وضبط الحروف، ثم العمل بما تضمنته الآيات المتلوة، وعبّر عن الفهم والتدبر بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى

---

(١) التفسير الكبير، ٦/ ٧١.
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٣) الجامع للقرطبي، ١/٩١.
(٤) تفسير ابن كثير، ١/١٧٥، الرازي ٢/٣٦.
(٥) الجامع للقرطبي، ١/٩٢.

أن ذلك هو المقصود من التلاوة، وليس مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ بدون فهم وفقه واهتداء.

وقد بين عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ معنى حق التلاوة فقال: «والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يُحلَّ حلالَه، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوَّل منه شيئاً على غير تأويله»[1]، وهذا البيان من عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ واسع وجامع لمعنى التلاوة، وهي قراءته كما أنزل، وفهمه وتفسيره والعمل به.

ولهذا كان الصحابة - رضي الله عنهم - لا يتجاوزون خمس آيات أو عشراً حتى يعلموا ما فيهن من العلم والعمل.

قال أبو عبد الرحمن السلمي - أحد أكابر التابعين - : حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: «فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»[2].

وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان الرجلُ منَّا إذا تعلمَ عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرفَ معانيهن والعمل بهن»[3]، وهذا يدلُّ على أن الصحابة - رضي الله عنهم - نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة[4]؛ فبين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فنقل معاني القرآن عنه ﷺ كنقل ألفاظه سواء، بدليل قوله - تعالى - : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، «وهذا يتضمن بلاغ المعنى، وأنه في أعلى درجات البيان»[5].

قال ابن تيمية وابن القيم: «والصحابة - رضي الله عنهم - أخذوا عن الرسول ﷺ لفظ القرآن ومعناه»[6].

وهكذا تلقى الصحابة - رضي الله عنهم - هذا القرآن لفظاً ومعنى، وكان التعلم والتعليم عندهم مبناهما على التفقه في القرآن دون سواه.

ذكر الحافظ ابن كثير عن الضحاك فقال: «قال الضحاك في قوله - تعالى - : ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال: «حقٌّ على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً» ومعنى تَعْلَمون: تفهمون معناه، وقرئ: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تحفظون ألفاظه، والجمع بين القراءتين متعيِّن، فكانوا يَعْلَمونه ويُعلِّمونه ولا يكتفون بالعلم حتى يضموا إليه التعليم[7].

قال الرازي: «ودلَّت الآية على أن العلمَ والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً؛ فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيُه وخاب عملُه»[8].

ونقل هذا المعنى رشيد رضا وقال: «فبعلم الكتاب ودراسته وتعليمه للناس ونشره والعمل به يكون الإنسان ربانياً مَرضياً عند الله»[9]. هكذا كان دأبُ الصحابة - رضي الله عنهم - كما ذكره ابن القيم فقال: «ولم يكن للصحابة كتابٌ يدرسونه وكلامٌ محفوظ يتفقهون فيه إلاَّ القرآن وما سمعوه من نبيهم ﷺ، ولم يكونوا إذا

---

(١) تفسير ابن كثير، ١/١٧٥.

(٢) الإتقان، ٢/٢٨٩، التفسير الكبير، ٢/١٣٢.

(٣) جامع البيان، ١/٣٥.

(٤) التفسير الكبير، ٢/١٣٢.

(٥) الصواعق المرسلة، ٤٤٠.

(٦) التفسير الكبير، ٢/١٠٤، ٢٥٣، الصواعق، ٤٤٠.

(٧) ابن كثير، ١/٤٠٥، القرطبي، ٢/١١٥.

(٨) تفسير الرازي، ٤/ ١٢٣.

(٩) تفسير المنار، ٣/٣٤٨.

جلسوا يتذاكرون إلا في ذلك»(١).

فكان القرآن عندهم هو العلمُ الذي به يعتنون حفظاً وفهماً وتفقهاً.

وقد فسر حَبْرُ الأمة ابن عباس الحكمة بفهم القرآن وفقه ما فيه من علوم. أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله - تعالى - : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: «المعرفة بالقرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله»(٢).

وفسرها الحافظ ابن كثير بالسنة وعزا ذلك إلى غير واحد من السلف وهو ما أُخِذَ عن الرسول ﷺ سوى القرآن، كما قال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(٣).

ونزع ابن عباس في تفسيره للحكمة إلى المعرفة بالقرآن وفقه ما فيه من العلوم، وهو من أوسع التفسيرات، وهو لا ينافي من فسّر الحكمة بالسنة؛ لأن بها يحصل بيانُ القرآن وفهمُه وفقهُه؛ فهي المفسِّرة والمبيِّنة للقرآن، وتعني - من بين ما تعنيه - الفقه والفهم، يدلّ على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

قال مجاهد: «يعني الفهم والعقل والفطنة»(٤) ومن أعطاه الله ويسّر له فقه القرآن وعلومَه والعمل به فقد حاز فضلاً عظيماً وخيراً جزيلاً.

قال القرطبي: «إن من أُعْطِيَ الحكمة والقرآن فقد أُعطي أفضل مما أُعطي مَنْ جمع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها»(٥).

فكتاب الله حكمة، وسنة نبيِّه ﷺ حكمة، وأصل الحكمة ما يُمتنَع به من السفه، ومن ثَمَّ اشتركت الحكمة في نسق تعليم الكتاب: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقد حث الله - عز وجل - على التدبر والاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ فقال: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧] ففي مثل الآيات ونحوها دليل على وجوب معرفة معاني القرآن والاتعاظ بمواعظه وفقه ما فيه من الهداية والرشاد، ولا يقال لمن لا يفهم تفسيره: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا يقال ذلك إلا لمن كان بمعاني القرآن بصيراً وبكلام العرب عارفاً(٦).

وأقول: وتدبر القرآن مرحلة تالية لمرحلة الفهم، ولا يمكن أن يتأتى التدبر لمن لم يفهم معاني القرآن.

قال القرطبي: «وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذّ؛ إذ لا يصحّ التدبر مع الهذّ» وقد شكا رسول الله ﷺ إلى ربه من هجر قومه للقرآن فقال: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهجر التفسير والفهم والتدبر نوع من أنواع هجره. قال ابن القيم وابن كثير: «ترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه»(٧).

---

(١) الصواعق المرسلة، ٤٤١.
(٢) الإتقان، ٢/٣٨٥، ابن كثير، ١/٣٤٥.
(٣) رواه أحمد، ح/١٦٥٤٦.
(٤) تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٣.
(٥) الجامع، للقرطبي، ٢/٣٠٠.
(٦) جامع البيان، ١/ ٣٥.
(٧) تفسير ابن كثير، ٣/٣٤٩، تفسير ابن القيم، ٣/ ٢٩٢.

قال ابن تيمية: «وأما في باب فهم القرآن فهو [أي: قارئ القرآن] دائم التفكر والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن؛ فإن شهد له بالتزكية قَبِلَهُ وإلا ردّه»(١).

ويشهد لما تقدم ما رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري حيث قال: «والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلَّه ما يُرى له في خُلُقٍ ولا عملٍ»(٢).

فكلام ابن كثير يدل على أن انصراف الطلاب إلى طلب العلم في غير القرآن نوع من أنواع هجره، وكلام شيخ الإسلام يدل على أن الواجب على الطلاب أن يستغنوا بمعاني القرآن وأحكامه عن غيره من كلام البشر، ويدل لهذا ما ذكر ابن أبي الحواري أن فضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم: لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاءاً لما تريدون، فقالوا: تعلمنا القرآن، فقال: إن في تعلُّمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم، قالوا: كيف يا أبا علي؟ قال: «لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه - تفسيره وبيانه - ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة»(٣).

فهذا فضيل بن عياض اعتبر التفقه في غير القرآن شغلاً لا طائل من ورائه، ثم هو يصحِّح لهؤلاء الطلاب التوجهات الصحيحة لطلب العلم في زمنه ويردهم إلى طلب التفقه في القرآن نفسه.

وهكذا كان بعض السلف يقدمون القرآن وعلومه وتفسيره على أي علم آخر؛ فقد وجد من يمنع طلب علم الحديث وكتابته قبل حفظ القرآن، وكانوا يختبرونهم في بعض معانيه؛ فهذا عبد الله بن المبارك يختبر من جاء يطلب الحديث عنده في القرآن وبعض علومه(٤).

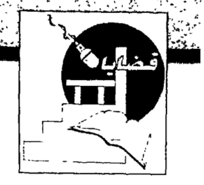
وذكر ابن عبد البر عن علي رضي الله عنه قوله: «أعزم على كل من كان عنده كتاب إلاّ رجع فمحاه؛ فإنما هلك الناس حيث يتبعون أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم»، وذكر عن عمر رضي الله عنه: «أن قوماً كانوا يكتبون كتباً فاكبوا عليها وتركوا كتاب ربهم»(٥)، نقل ابن القيم عن الإمام البخاري قوله: «كان الصحابة إذا جلسوا يتذاكرون كتاب ربهم وسنةَ نبيهم، ولم يكن بينهم رأي ولا قياس، ولم يكن الأمر بينهم كما هو في المتأخرين: قوم يقرؤون القرآن ولا يفهمونه، وآخرون يتفقهون في كلام غيرهم ويدرسونه، وآخرون يشتغلون في علوم أخرى وصنعة اصطلاحية، بل كان القرآن عندهم هو العلم الذي به يعتنون حفظاً وفهماً وتفقهاً»(٦).

ما أشبه الليلة بالبارحة! والقصة نفسها تتكرر في بعض طلبة هذا الزمن؛ إذ يهجرون حفظ القرآن وفهمه وتفسيره والتفقه فيه إلى كتب فلان وفلان، وإنك لتعجب من بعضهم؛ إذ انحرف في الطلب، فتجده لا يحفظ من القرآن إلا قصار السور ونحوها ولا يفهمها، وتجد له جرأة عجيبة على اقتحام علم الجرح والتعديل ونحوه؛ فمثل هذا وأمثاله لم يستوعب التصور الصحيح لمنهج التربية والتعليم الذي رسمه القرآن وبيَّنه.

فليزن طلاب علم هذا الزمن تعليمهم بهذا المنهج الذي رسمه القرآن وفعله السلف، ولينظروا أين مكانهم من فهم القرآن والتفقه فيه، وما حظهم من هدايته؟

---

(١) التفسير الكبير، ٦ / ٧١.
(٢) تفسير ابن كثير، ٤ / ٣٦.
(٣) الجامع، ١/٣٠، فتح القدير، ١/١٤.
(٤) المحدث الفاصل، ٢٠٣.
(٥) جامع بيان العلم، ١/٧٦، ٧٧.
(٦) افردنا هذا الموضوع في بحث مستقل سبق أن نشرته مجلة البيان في العدد (١٣٣).



الدعاة

تأملات في أسباب غياب البعد الزمني وآثاره

منصور طه الحاج آدم

استطاع النبي ﷺ أن يحوِّل مجتمعاً كاملاً من جاهلية وشر وفرقة وشتات ودماء وتارات إلى مجتمع رشيد بقيم الحق معافىً يمثل قدوة في العالمين في فترة لا تتعدى ثلاثاً وعشرين سنة، وقد بدأ العد التصاعدي للدعوة النبوية ببزوغها والإيذان بها، وبدأ العد التنازلي لدعوة الكفر التي غدت تفقد كل يوم أرضاً وضَيْعَةً من ضيعاتها، بينما كانت الجاهلية تسعى جاهدة لتطويق الدعوة وإماتتها في مهدها بشتى السبل والطرق؛ لمعرفتها ما يترتب من تحولات قادمة تحسب لها الحسابات عبر رصدها لتحركات النبي ﷺ وجماعته، ولكنها أخفقت وخاب مسعاها؛ لأن الدعوة منصورة بالله، ثم لأن النبي ﷺ عمل بالأسباب الواجبة المقتضية لتحقيق تمكينها في الأرض.

ولأهل الباطل عداوات شديدة ورصد كبير لأهل الحق ودعاته، ولا يفتؤون يبذلون ما في وسعهم لضرب الدعوة وأهلها؛ مما يوجب عليهم ذلك نظراً بصيراً وتحركاً محكماً ينطلق من تقييم صحيح وسليم، وتعرُّف على مآلات الخير والشر ودرجات كل منهما، وكما يقال: «ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل من يعرف خير الخيْرين وشر الشرَّيْن» كما يوجب عليهم الإفادة من الزمن لتحقيق المفاجأة وتغيير موازين القوى؛ فإن عامل المفاجأة وتغيير الموازين في الصراع يستند إلى قدرة الجماعة على بذل طاقاتها مع اختزال للجهد والزمن بأقصى ما يمكن لتحقيق التفوق على الخصم؛ فإن صراع الجماعات والأمم صراع على أرضية الزمن، وكيفية كسبه وتحقيق أعظم إنجاز بأقل جهد وزمن، وهذا ما نلاحظه في دعوة النبوة: عظمة الإنجاز مع قلة الزمن.

وأمام أهل الحق جبهات ثلاث مفتوحة علمياً وعسكرياً وسياسياً من قِبَل التيارات الآتية:

١ - التيارات الكفرية والشركية.

٢ - تيارات النفاق من العلمانيين والشيوعيين وغيرهم الذين يتلوَّنون بكل لون، ويدفعون كل راية حسب مقتضى الحال، ويكشفون عورات المسلمين.

٣ - الفرَق والجماعات الضالة الحديثة والقديمة في أصولها.

وتستخدم هذه التيارات هيئات متخصصة لدراسة ورصد القوى الإسلامية، وتعد خططاً ومناهج فكرية وسياسية وعسكرية لضربها وقطع الطريق أمام العودة الإسلامية الرشيدة للأمة؛ ومما تستخدمه من وسائل محاربة:

١ - إفراغ محتوى دعوات الإصلاح بتحوير مناهجها ومقاصدها عبر الإسقاطات الفكرية المختصة.

٢ - التشويش الفكري والعقدي، والتشكيك في عقائد الإسلام ومنهجه.

٣ - إدخال الجماعات الإسلامية في معارك استنزافية فكرية وسياسية وعسكرية.

٤ - بث وتوسيع الخلافات الداخلية والاستفادة من وضعية التشرذم الداخلي.

٥ - إيجاد الشرعية لضربها وإنهائها، والتحرش بها عبر وصمها بالألقاب الآتية: الأصولية، الإرهاب، المتاجرين بالدين، أصحاب العاهات العقلية والنفسية.

٦ - إضعاف السند والالتفاف الشعبي حول الدعوة - أو استخدام سياسة الاستفراد بالجماعات باستثمار أخطائها.

وفي مقابل هذه العداوات المرصودة وبكل شراسة ضد جماعات الدعوة الإسلامية نجد تشرذم البيت الإسلامي وانشغاله بقضايا بيئية، بينما الواقع المعاش لأمة الإسلام يلقي بأحمال وتبعات ثقيلة على دعاة الحق، وإنه لينوء بها من ينوء إلا ذوي العزائم وكبار النفوس المتوكلين على ربهم.

المطلوب:

١ - مرجعية علمية وعملية واحدة، أو معالجة أحوال النخبة:

من الاهتمامات الكبرى الضرورية في الدعوة المعاصرة تشكيل المرجعية العلمية والعملية الواحدة بمعالجة أحوال النخبة من علماء وطلبة علم ليمثلوا حالة الوحدة في المرجعية العلمية وضبط منهجية العمل الدعوي ومقاربتها في إصلاح الواقع في تصوره ومطالبه، وفقه التعامل والإنزال فيه، ومعالجته معالجة منهجية بعيداً عن الفوضى والارتجال العلمي والعملي التي يعاني منها الواقع الإسلامي المعاصر الذي أدى إلى ظهور تيارات مغالية أو مجافية، وبدون أفكار نشاز زادت من أزمة البيت الإسلامي؛ حيث انطلقت من رد فعل أزمة الواقع واتساع مطالبه وفقدان المرجعية الموجهة والضابطة علماً وعملاً. إن توحيد أو مقاربة المرجعية العلمية القائدة هي نقطة أولى لرأب الصدع وتوحيد الجهود.

٢ - مراجعات منهجية في العلم والعمل:

مما يؤدي إلى سلامة مسلك الدعوة في أقوالها وأفعالها تحريرُ مناهجها على قواعد وضوابط وأصول أهل السنة والجماعة: العلمية والعملية، ثم يتبع ذلك مراجعات منهجية في جانب العلم والتصور والفهم؛ لئلا يحيد عن الوسط ويصاب بعاديات البدع والانحراف؛ فإن الأصول ربما تكون سليمة ولكن تعتري العلة بعض الجوانب أو بعض المسائل التي توجب فتنة للاختلاف والشقاق فيها، وقد تكون تلك من الآثار التي عبر عنها

ابن تيمية - رحمه الله تعالى - نتيجة المعصية، وهي: خفاء الحق عند أقوام أو أحوال ومواطن فيضيِّقوا ما وسَّع الشارع، أو يتوسطوا فيما ضيِّق فيه من الحرام، ولاشتباه الحق بالباطل تقع الفتن[1].

فلا بد إذاً من تنقية المنهج العلمي وتصحيح المسلك العملي ومراجعته ليكون على مشروعية صحيحة، كما أنه يجب أن تستوعب قواعد السياسة الشرعية وأصولها في النظر إلى الوضع القائم وتقييمه، وفي ضبط مسلك الدعوة في الواقع المحيط بمختلف مكوناته العضوية والعلمية والفكرية دوراً وموقفاً نتوخى في ذلك كله جلب كل صلاح مستطاع ودرء كل فساد مقدور عليه، ولنؤمِّن طريق الدعوة من المعارك الاستنزافية التي يكيد بها الخصماء، والتي تفقد فيها كثيراً من القدرات والطاقات، وتهدم فيها المكتسبات.

٣ - تجديد خطاب الدعوة المعاصرة وإصلاحه:

الذي يتابع خطاب النبوة في عصر الدعوة الأول يرى تنوعه وتطوره بحسب المراحل التي تمر بها الجماعة والمطالب التي تقتضيها المرحلة؛ فالخطاب في مكة غير الخطاب الموجه في المدينة، والخطاب في المدينة ممتد عن الخطاب الموجه في مكة تفصيلاً وتوضيحاً وإضافة[2].

والواقع المعاصر أشد حاجة إلى هذا التنوع والمرحلية في الخطاب لتلبية حاجات المرحلة ومطالب الواقع في الأعيان والأحداث والأحوال تنوعاً ينتظم تحت دائرة كلية واحدة يقتضي بعضها بعضاً وتتضافر فيها المفاهيم في مسلك واحد ولتحقيق غاية واحدة وهي تحقيق العبودية لله. إن تجديد أساليب الخطاب المعاصرة وإصلاحها لتعالج قضايا الأمة وفق منظور شرعي واستراتيجية عملية ناضجة ضرورة لتحقيق التغيير الإسلامي المنشود، وإن أشد ما يعاني منه الواقع الدعوي المعاصر ذلك الخطاب الذي يعرض صورة منحرفة أو جزئية ناقصة أو سطحية تنطلق من رأي هذا أو ذاك، أو فهم هذا أو ذاك مقدماً على الحق كما أن الخطاب الذي اقتصر على مرحلة أو جزئية معينة وثباته حولها عامل من عوامل الشلل الدعوي، وهو ما يفسر موت كثير من الأنشطة الدعوية المعاصرة وتجاوز الزمن لها.

٤ - بناء الكفاءات والقدرات:

إن مراعاة البعد الزمني للدعوة تتطلب الإعداد الضروري الذي يؤهل للوصول إلى المستقبل المُستَشْرَف، وكل مرحلة وطور لها متطلباتها ووسائلها التي ينبغي الإعداد لها، وكل مرحلة تؤدي إلى الأخرى في تتابع وانتظام ثابت؛ فالذي يجب أن يرافق الاستشراف المستقبلي إعداد وتطوير الوسائل والإمكانات والقدرات التي تشكل ذلك المستقبل المتطور وتصوغه.

إن كثيراً من الفروض العامة غائبة لغياب المؤهلين الذين يقومون بها مما أقعد الأمة عن ممارسة دورها

---

(١) يراجع الفتاوى، ١٤/١٤٧.

(٢) يراجع الفتاوى، ١٥/١٥٩، والموافقات ٢ / ٦٢.

الحضاري، وهذا لا يُعفي العاجزين عن أدائها، بل يُلزمهم أمراً آخر وهو تهيئة القادرين عليها ودفعهم لإتقانها[1]؛ فإن الأفراد قد جُبلتْ فيهم خَلْقاً مختلفُ القدرات والإمكانات الذاتية التي يُسرُّوا لها (فكل ميسر لما خلق له) فإما أن تموت فيهم، وإما أن تحيا فيهم فيكون لها دورها في حياتهم وفي حياة أمتهم؛ فلذلك لا بد من العناية بالتنشئة السليمة لناشئة الإسلام التي تُخرج فيهم كوامن القدرات والطاقات، وتسعى إلى بنائها وتطويرها، وتدفع بكل واحد إلى ما هيئ له بوفور القدرة عليه ليحوز العلوم والآداب التي تناسب ما هو ناهض به، وإن تأهل لغيره أُعينَ عليه.

إن الدعوة الإسلامية المعاصرة تفتقر إلى كثير من القدرات والمؤهلات والبناء الداخلي المؤسس، مما يؤدي إلى ثغرات وعوامل ضعف فيها في المرحلة الراهنة، وتلك القدرات هي أهم ما تفتقر إليه القيادات الدعوية الرشيدة التي تملك قدرة التأثير وزمام المبادرة في القيادة والإصلاح والتربية. ومما يؤخذ على الجماعات الإسلامية المعاصرة عندما تخوض المعترك السياسي أو المعترك العسكري أنها تضعف أو تشل قدرتها في التربية والإصلاح، وتتناقص عضويتها الصفوية، وتتحول إلى تيارات شعبية عامة، مما ينحرف بمسارها وتتحول أهدافها وتفقد هويتها.

وأخيراً:

هل يعي دعاة الحق ويتفهمون تحديات الواقع وينهضون قياماً بالواجب وإصلاحاً في الأرض؟ إن القيادات والدعاة الربانيين هم أدلاَّء الخير وقادة الإصلاح، تعلو بهم راية الحق وتبطل بهم رايات الباطل، والأرض الإسلامية عموماً خصبة تنبت ما يزرع فيها نبتاً صالحاً، وقد توارت كثير من رايات الباطل إما زوالاً وإما كيداً خفياً من وراء الشعارات الإسلامية. وإن كانت الأرض مهيأة لقبول ما يزرع فيها فثمة تحدٍّ يتمثل في فقدان دعاة الحق؛ وهي حال قد تدفع بالتيار العام للانحراف وراء دعوات خبيثة أو إمامات ضعيفة ناقصة تؤدي إلى فتنة داخلية؛ فإن ما يلحظ أن كثيراً من التيارات المتغربة التي تلبس لبوس الإسلام وأخرى باطنية خبيثة لها مبادراتها وطروحاتها وأفكارها تعالج بها كثيراً من قضايا الواقع وتنتج كمًّا هائلاً من الفكر مما يلقي بثقله على أصحاب الحق من الواجبات العظيمة التي تنوء دونها الجبال.



إن تعقُّد الواقع وامتداداته الداخلية والخارجية تستوجب من أهل الدعوة أن يكونوا في مستوى المطالب والمقاصد فهماً وهمة وإصلاحاً وعملاً وتضحية وتخطيطاً وتنظيماً للجهود والطاقات؛ فإن إصلاح الأمة إنما يتم بجهاد وحركة علمية ناضجة ونشطة تجدد ما اندرس من معالم النبوة وآثارها، وتبعث مناهج السلف وأصولهم وهديهم علماً وعملاً وممارسة وسلوكاً. ومن الله وحده العون وعليه التكلان.

---

(١) الموافقات، ١/١٢١.



العادات بين طرفين

محمد بن عبد الله الدويش

تنتشر العادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية في كثير من المجتمعات، ويرتبط التمسك بها والإصرار عليها بمستوى ثقافة المجتمع وتعلمه، وبمدى الترابط الاجتماعي فيه.

فالمجتمعات المتعلمة والمثقفة أكثر جرأة على تجاوز العادات والتخلي عنها من المجتمعات الأمية، وتزداد الجرأة على تجاوزها كذلك كلما قلَّ الترابط الاجتماعي؛ فمجتمعات المدن أقل تمسكاً بها من البوادي والمجتمعات القبلية.

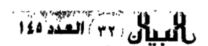
وحين تستقر هذه العادات والأوضاع لدى الناس ويتشربونها يقع الخلط بينها وبين الأحكام الشرعية؛ وأبرز مثال على ذلك: العادات المرتبطة بقضية المرأة.

وقد يختلط الأمر على بعض الغيورين فيدافعون عن بعض العادات ويصرون على التمسك بها والتشبث بها ظناً منهم بأنها جزء من الدين، والدين إنما مرجعه الوحيان وما استُنبط منهما.

وثمة طائفة أخرى يهمهم شأن الإسلام، ويسعون إلى جعله مقبولاً بين الآخرين، ومن ثَمَّ، فهم يسعون إلى أن يُبْعِدوا وينفوا عنه أي صفة من صفات القصور والنقص؛ حتى ولو كان معيار القصور والنقص هو ما يراه رجال الغرب الذي لا يدين بالإسلام.

ومن ثم يشن هؤلاء حرباً شعواء على العادات والأوضاع الاجتماعية لا لأنها ليست من الدين، بل هي - لدى هؤلاء - تشوِّه صفاءه ونقاءه.

وكما أن حرص الطرف الذي يصر على التمسك بها والتشبث غير كاف في سلامة موقفه؛ فحرص



هذا الطرف أيضاً على إبراز الإسلام بصورة صافية لدى الآخرين ليس كافياً هو الآخر.

والغلو ومجانبة الاعتدال في المواقف أياً كان اتجاهه أمر مذموم؛ فالوسطية سُنَّةُ الله في خلقه وشرعه.

ومن ثَمَّ، فالإصرار على التمسك بالعادات والأوضاع الاجتماعية التي لم يأت بها شرع منزل أمر مرفوض.

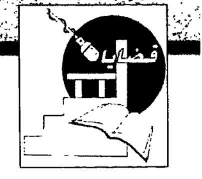
ويزداد الأمر رفضاً حين تخالف أدباً شرعياً، كالتعود على نمط من الضيافة يدخل صاحبه في دائرة السرف، أو يُحمِّله فوق ما يطيق، ولو دُعي للإنفاق في سبيل الله لما بذل عُشْرَ ذلك.

وفي المقابل ثمة عادات لم ينص الشرع على اعتبارها، لكنه مع ذلك لم ينص على إلغائها؛ فالأمر فيها ليس منكراً يُغلَّظ فيه على صاحبه ويَشدَّد عليه، ما لم يعتقد ارتباطها بشرع الله وينزلها منزلته.

والعجب أن طائفة ممن يبالغ في الوقوف ضد هذه العادات لا يجد غضاضة فيما يسمى بالأعراف الدبلوماسية، والبروتوكولات الرسمية، وهي - في الأغلب - تقليد ليس له مسوِّغ موضوعي، ومع ذلك يلتزم بها ويحافظ عليها، بل يعيب من يخالفها ويتجاوزها؛ فلِمَ تكون عادات الساسة وبروتوكولاتهم جديرة بالاحترام دون عادات رجال القبائل؟

ومن العادات والأوضاع الاجتماعية ما يندرج تحت باب الشيم ومعالي النفوس؛ فهو مما ينبغي أن يُحافَظ عليه ويُرعى؛ فالإخلال به لدى أهله إخلال بالمروءة.

ومنها ما يندرج تحت مقاصد الشرع العامة كمحافظة المرأة على ما تقتضيه آداب الشريعة، وتوقير الكبير وتقديره؛ فعدم نص الشرع عليه بخصوصه ليس مسوغاً للتخلي عنه بحجة كونه عادة.



سبق درهم مائة ألف درهم!

عبد الخالق القحطاني

من نافلة القول أن الدعوة إلى الله - عز وجل - من أجلِّ الأعمال وأشرفها؛ فهي مهمّة الرسل - عليهم الصلاة السلام - وقد خُصَّت بها هذه الأمة من بين سائر الأمم من لدن آدم - عليه السلام - حتى بعثة محمد ﷺ.

غير أن الناظر إلى الساحة اليوم يجد انصرافاً - إن لم يكن إعراضاً - عن هذه المهمّة العظيمة من قِبَلِ أناسٍ كان يُفترض فيهم أن يكونوا هم أهل الميدان المنتظرين، وقادته المبرّزين.

هؤلاء الأفراد على مستوىً عالٍ من التربية الإسلامية والفهم الصحيح، ويجمعون إلى ذلك ذكاءاً وَقّاداً ومعرفة بالعلوم الشرعية لا يستهان بها.

ولكنّ المعادلة غير المفهومة تنشأ عندما نرى هذه الفئة من المؤهلين تدير ظهرها لهذه المهمّة - أعني الدعوة إلى الله - وتنشغل بما ينشغل به عامَّة الناس من الانخراط في الوظيفة والعمل الدنيوي، وقد يجمعون إلى جانب انشغالهم ذاك توزيع كتاب أو شريط إسلامي أو القيام بعمل دعوي محدد أيّاً كان - كأثرٍ من آثار الضغط الذي تفرضه عليهم التربية التي تلقوها في سنين ماضية - ظانين بذلك أنهم قد أدّوا ما عليهم تجاه الفكرة التي يحملونها.

هذا الفراغ الهائل الذي خلّفه هؤلاء النفر، دفع أناساً ممّن ليست لديهم الخبرة الكافية ولم يبلغ علم أحدهم النصاب الشرعي[1] - وربما لم ينخرط الواحد منهم في أي برنامج تربوي طيلة حياته -

---

(١) أقصد بالنصاب الشرعي كل ما يلزم معرفته من الدين بالضرورة من أمور العقيدة والفقه.. ونحوها.

إلى أن ينزلوا إلى ميدان الدعوة وليس لديهم عُدَّة سوى العاطفة الصادقة، والإحساس بالمسؤولية تجاه الدين الذي هم به يؤمنون.

إن هذه الصورة غير المتوازنة تثير في النفس الشعور بالأسى والإعجاب في آن واحد:

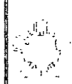
- الأسى لواقع أولئك المتخلفين عن قافلة الدعوة مع قدرتهم وتمكنهم.

- والإعجاب بأولئك المتقدمين - على قلة بضاعتهم - وأذكر عن أحد هؤلاء المتقدمين قوله لأحد الزملاء: «أنا قليل الفهم في العلم الشرعي؛ ولكنني أستطيع أن أقف على باب المسجد وأوزِّع على الناس أشرطة أو كتيبات، أليس الدال على الخير كفاعله؟» لقد قلت في نفسي: هو - والله - أفقه من كثيرٍ ممن لديهم الكثير من العلم الشرعي!

قال رسول الله ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم: رجلٌ له درهمان أخذ أحدهما فتصدَّق به، ورجلٌ له مالٌ كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألفٍ فتصدَّق بها»(١).

وهكذا سبق درهم الفقير مائة ألف الدرهم التي للغني؛ لأنَّ الدرهم كان نصف مال الفقير، ومائة ألف درهم كانت شيئاً من مال ذلك الغني.

وبالمثل حال أولئك النفر من الناس الذين يملكون قدرات ومواهب ولا يستثمرون منها إلا النزْر اليسير يجعلونه لدعوتهم، وحال أولئك الذين ليس لديهم إلا القليل من المعرفة والفهم ولكنهم قد بذلوه كله في سبيل دعوتهم؛ فإن درهم هؤلاء لا شك يسبق دنانير أولئك المكدَّسة!



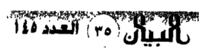
فإلى إخواننا الذين هجروا الميدان قبل أن يلجوه، وظنّوا أنهم قد أدَّوْا ما عليهم وزيادة، إليكم ما قاله أبو مالك - رحمه الله -: «كم من رجلٍ يرى أنه قد أصلح شأنه، قد أصلح قربانه، قد أصلح همَّته، قد أصلح عمله، يُجْمَع ذلك يوم القيامة ثم يُضرَب به وجهه!»(٢).

قال - تعالى -: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) ترتيب أحاديث الجامع الصغير، عوني الشريف، المجلد الأول، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة والنفقة، ح/٣٨.

(٢) أين نحن من أخلاق السلف؟ جمع الجليِّل وعقيل، ص ١٠.





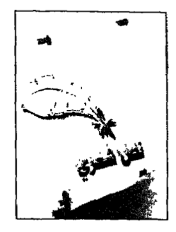
وقفة أمام عام الحزن

«دمعة شعرية على بوّابة وداع» نجم الحديث النبوي «الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - يرحمه الله -».

د. عبد الرحمن بن صالح العشماوي

لمن يتدفّق النَّغَمُ؟	وماذا يكتب القَلَمُ ؟!
ومَنْ ترثي قصائدُنا؟	وكيف يُصوِّر الألمُ؟
إذا كان الأسى لَهَبا	فقُلْ لي: كيف أبتسمُ؟
وقُلْ لي: كيف يحملني	إلى آفاقه الحُلُمُ؟
إذا كانتْ مَواجِعُنا	كمثل النَّارِ تضطرمُ
فقُلْ لي: كيف أُطفِئُها	وموجُ الحزن يَلْتطم؟!
أعامَ الحُزْنِ، قد كَثُرَتْ	علينا هذه الثُّلَمُ
كأنَّك قد وعَدْتَ المَوْ	تَ وعداً ليس ينفصمُ
فأنتَ تَفي بوعدكَ، وهوَ يمضي - مسرعاً - بِهِمُو	
ألستَ ترى رِكَابَ المو	ت بالأحباب تنصرمُ؟!
ألستَ ترى حصونَ العلمِ - رأيَ العينِ - تنهدم؟	
نودِّع ها هنا عَلَما	ويرحل من هنا عَلَمُ
جهابذةُ العلوم مضوا	فدمعُ العين ينسجم
مضوا - وجميعُ مَنْ وردوا	مناهلَ علمهم - وَجَموا
تكاد الآلةُ الحَدْبَا	ءُ، والأقدام تزدحم
تطير بهم إلى الأعلى	وبالجوزاء تلتحمُ
أكادُ أقول: إنَّ الشِّعرَ، لم يَسْلَمْ له نَغَمُ	
وإنَّ عقاربَ الساعاتِ لم يُحْسَبْ لها رقمُ	
تشابهتِ البدايةُ والنهايةُ واختفتْ «إرَمُ»	
ونفّذ سَدَّ مَأْرِبَ كلَّ	ما نادى به «العَرِمُ»
هوى نجمُ الحديثِ كما	هوتْ من قبله قِمَمُ
وكم رجلٍ تموتُ بموْ	تِه الأجيالُ والأُمَمُ
أناصرَ سُنَّةِ المختا	رِ، دَرْبُكَ قَصْدُه أَمَمُ
رفعتَ لواءَ سُنَّتنا	ولم تَقْصُرْ بك الهِمَمُ

قَضَيْتَ العمرَ في عمل ... به الأوقاتُ تُغْتَنَمُ
خَدَمْتَ حديثَ خيرِ النَّا ... سِ، لم تسأمْ كمن سئموا
حديثُ المصطفى شُرِحَتْ ... به الآياتُ والحِكَمُ
فنحن بنور سنَّته ... إلى القرآنِ نحتكمُ
خَدَمْتَ حديثَ خير النَّا ... سِ، لم تُنْصِتْ لمن وَهِمُوا
ولم تُشْغَلْ بما نثروا ... من الأهواء أو نظموا
سَلِمْتَ بعلمك الصافي ... من «البَلْوَى» ومما سَلِموا
غَنِمْتَ بما اتجهْتَ له ... ومَنْ نشروا الهدى غَنِموا
ومَنْ جعل العُلا هَدفاً ... فلن ينتابَه السَّأمُ
أناصرَ سنَّة الهادي ... سقاكَ الهاطلُ العَمَمُ
بكتْكَ الشَّامُ - وَيْحَ الشَّا ... مِ - أخفتْ بَدْرَها الظُّلَمُ
وخيَّم فوق «أرْدُنِها» ... سحابٌ غَيْثُه الألمُ
بكتْ «ألبانيا» لعبتْ ... بها أحقادُ من ظلموا
وعشَّش في مرابعها ... بُغاثُ الطير والرَّخَمُ
بكاكَ المسجدُ القُدْسيُّ ... والمدَنيُّ، والحَرَمُ
بكتْكَ سلاسلُ الكتبِ التي كالدُّرِّ، تنتظم
فسلسلةُ الأحاديث التي صحَّتْ لمن فهموا
وسلسلةُ الأحاديث التي ضَعُفَتْ لمن وَهِموا
وتحقيقُ الأسانيد ... التي ثبتتْ لمن علموا
علومٌ كلُّها شَرَفٌ ... تعزُّ بعزِّها القِيَمُ
أناصرَ سنَّة الهادي ... لنا من ديننا رَحِمُ
لقيتُكَ دونَ أن ألقا ... كَ، تُورق بيننا الشِّيَمُ
لقيتُكَ في ظلالِ العلمِ ... والأزهارُ تبتسم
تجمَّعنا محبَّةُ خير ... مَنْ سارتْ به قَدَمُ
خَدَمْتَ جَلال سنَّته ... فيا طُوبى لمن خَدَموا
رحلْتَ رحيلَ مَنْ أخذوا ... من الأمجادِ واقتسموا
كأنَّك لم تُدرْ قلماً ... ولم يُجْرِ الحديثَ فَمُ
حزنًا، كيف لم نحزنْ ... وشِريانُ القلوبِ دَمُ؟
ولكنَّا برغم الحزنِ ... لم يشطحْ بنا الكَلِمُ
نعبِّر عن مَواجعنا ... وبالإسلام نلتزمُ
ولولا أنَّ أنْفُسَنا ... بربِّ الكون تعتصمُ
لَمَاجتْ بالأسى وغدتْ ... أمامَ الحزن تنهزمُ



رسالة من سفح الجبال (*)

مقاتل من الشيشان.. متوشّح سلاحه.. وعلى قسمات وجهه علامات الصمود وآثار المأساة. رأيته يرفع يديه.. يناجي ربه بحرقة، ويسأله النصر على الأعداء قبل أن ينطلق مع إخوانه على جبهة القتال، وعلمت أن له حكاية طويلة ـ كغيره من المجاهدين ـ وأنه لو تملّك زمام الكلمة لأرسل رسالة إلى من وراءه يصوّر بها حاله ويتاسى على من فقد من الأهل والولد.. فصوّرت رسالته بلسان حاله قائلاً:

جمال الحوشبي

سقى الله قومي بالغمام غواديا … وأغدق أرضي فوق تلك الروابيا

وأردفها شوقي لداري وصبيتي … وأهطل منها سكبة من مآقيا

ألا ليت شعري كم عزيز فقدته … وكم طلل في الحي قد بات خاليا

وكم لبيوت الله بعد خرابها … أبيّ يبيع النفس لله غازيا

ولله خِلوٌ كان يرعى شبابه … دهته قلوب ينتحبن بواكيا

فإذا المطايا يستبقن ركابه … وإذا المنايا يستحلن أمانيا

تقاطر جيراني فشدوا رحالهم … وآذنهم داعٍ إلى البين حاديا

وقالوا: هلم اليوم فالخطب نازل … فقلت: سيقضي الله ما كان قاضيا

فوالله! ما أرخيت للروس هامتي … وإنّي على المكروه صعْبٌ قياديا

وتالله! لن أرضى لنفسي هوانها … فزادي كفاحي والظلام ردائيا

ولست بنزَّال على الناس حاجتي … كفى بالذي أرجوه عوناً وهاديا

تولّيت عنهم والظلام يلفني … وأمنع نفسي أن يزيد الهوى بيا

(*) المرجع: «كتاب: الشيشان صقور الجبال البيضاء» من إصدارات دار الأندلس الخضراء، جدة.

وليس الذي أشكوه أنّي مهاجر	إلى الله؛ لكنْ من تركت ورائيا
صغاراً عن المكروه في حجر أمهم	وشيخاً بركن الدار قد بات ثاويا
أودعهم والعين تذكي دموعها	أصبّرهم والخوف ألاّ تلاقيا
إذا عز في دارٍ مُقامٌ وعِشرةٌ	فجهّز لبين الدار إن شئت حاديا
فلا قرَّب الرحمن دار مذلة	ولا شق لي في لجة الضعف واديا
وجاوزت.. حتى لاح لي نار إخوتي	على جبل يؤوي الكماة الغوازيا
رقَيْت لهم والليل يرخي سدوله	وأنجمه في الأفق ثكلى كما هيا
فلما رأوني قام كلٌ يضمني	ويسألني عمن تركت ورائيا
وهل جزت في سَفْري الغداةَ ديارَهُ	وهل أهلهُ والدارُ سلْمٌ كما هيا؟
ورحت أقوّي عزمهم وجهادهم	وأتلو من القرآن آياً مثانيا
فما إن فرغنا من أداء صلاتنا	إذا بالرزايا ينتظمن عواليا
وإذا الشظايا مستطير شرارها	وإذا الجبال الصم دوت شواكيا
وحلّقتِ الأشباح فوق رؤوسنا	كغيلان ليل يستبقن عواديا
ركضت إلى كِنّ على جرف صخرة	لعل ظلاماً منه يخفي مكانيا
ولاذ سريعاً كل إلفٍ عرفتُه	وبات خيال الموت في السفح ثاويا
تذكرت أجدادي غداةَ تُخُرِّموا	فأشهرت رشاشي وزال الذي بيا
وصوبت مني طلقة بعد أختها	على طائرات الروس طلقاً مؤاتيا
وقلت: إلهي لست أرمي رصاصتي	فأنت الذي ما زلت يا رب راميا
وأنت ترى ما يصنع الكفر بيننا	وأسلَمْنا حتى الأعزُّ مواليا
ودوى ضجيج هالني بُعدُ ضوئه	ينوِّر من أضوائه تلك واديا
وكبَّر إخواني فأيقنت أنني	غداة دعوت الله لبّى دعائيا
وأن انتصاري ليس في جنب قوتي	ولكن لأن الله يخزي الأعاديا
فقولوا لمن قد باع بالرخص دينه:	أجيبوا امرأً للعز والمجد داعيا
وحتّامَ لا ترعون عهداً وذمة	ألم تعلموا يا إخوة الدين ما بيا؟
وربي دهانا الروس لما رأوكمُ	نياماً وأمري عنكمُ بات نائيا
وردنا حياض الموت كُرْهاً وأنتمُ	وردتم على اللذات واللهو ناديا
وبأسكمُ يا قوم بين صفوفكم	ونيرانكم تُصلون فيها المواليا
فعودوا... لعل الله يكشف ما بنا	وتوبوا.. تروْا نصر المهيمن دانيا



كيف نخاطب الجماهير؟ (١-٢)

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

درج عدد كبير من رموز الصحوة الإسلامية على مخاطبة الجماهير من خلال المنابر المختلفة، ووجد كثير منهم - ولله الحمد - إقبالاً واسعاً، والتفَّت الجموع بين أيديهم، وهذه نعمة عظيمة يفتقدها كثير من رموز الفكر والأدب والثقافة الآخرين. ولهذا أحسب أنَّه من الواجب على الإسلاميين إعادة النظر في طروحاتهم وطريقتهم في الخطاب وتقويمها، لتحصيل أعلى المصالح ودرء المفاسد قدر الإمكان، والاستفادة من التجربة الماضية. وهاهنا أمور أرى أنه ينبغي مراعاتها في هذا الأسلوب أضعها بين أيديكم للحوار وتبادل الرأي حولها:

أولاً: الإيمان بالهدف:

مرَّ على الناس في العصور التاريخية المختلفة عدد من المصلحين والمفكرين ودعاة التغيير، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم. وبتتبع سيرهم وأخبارهم نجد أن صلة الجماهير بهم تزداد وترسخ مع الوقت إذا اطمأنوا إلى صدقهم وجديتهم وإيمانهم العميق بأهدافهم التي ينادون بها، واستعدادهم القوي على تحمل تبعات تلك المبادئ، والتضحية من أجلها. وفي المقابل نجد أن الجماهير تنفضُّ وتتفلت من تلك الرموز إذا رأت فيها العجز والهوان، أو أحست ضعف مصداقيتها وجديتها، وقديماً قال الرافعي: «رؤية الكبار شجعاناً هي وحدها التي تخرج الصغار شجعاناً، ولا طريقة غير هذه في تربية شجاعة الأمة»[١].

ثانياً: الحذر من الخيلاء وحب الرياسة:

محبة الناس للمصلح وتجمُّعهم بين يديه فتنة عظيمة قد تطغى على بعض النفوس الضعيفة، وتُنبت فيها الخيلاء والاستكبار وحب الرياسة، وتصرفها عن كثير من معالي الأمور. وكم من الرموز التي تساقطت ولفظتها الجماهير، أو تناستها، حينما غلبت عليها تلك الشهوة، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[٢].

ولهذا قال ابن تيمية: «كان شداد بن أوس يقول: يا بقايا العرب، يا بقايا العرب، إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية. قال أبو داود صاحب السنن: الشهوة الخفية: حب الرياسة. وذلك أن حب الرياسة هي أصل البغي والظلم»[٣]. وقال أيضاً: «وكثيراً ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها

---

(١) مجلة الرسالة العدد (٩٤) محرم ١٣٥٤هـ.

(٢) أخرجه: الترمذي في الزهد (٤/٥٠٨) رقم (٢٣٧٦)، وقال حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٤٩٦).

(٣) شرح حديث أبي ذر (ص ٢٥)، وانظر: رسالة في التوبة ضمن جامع الرسائل (١/٢٣٣).

لله وعبوديتها له»(١).

وملاحظة النفس ومراجعتها من أعظم أبواب المجاهدة التي ينبغي للمرء أن يأخذ بها، والغفلة عن ذلك قد تؤدي إلى الزلل، ومن تعلَّق قلبه بحبِّ الظهور صغرت نفسه، وغلبت عليه الأهواء الشخصية وتردَّى في سلسلة من الانحرافات التي تزيد بزيادة تلك الآفة القلبية، وما أحسن قول الرافعي: «إذا أسندت الأمة مناصبها الكبيرة إلى صغار النفوس كبرت بها رذائلهم لا نفوسهم»(٢).

ثالثاً: الحذر من الانسياق الأعمى خلف العامة:

حينما يتصدر المرء لمخاطبة الجماهير قد يقع - من حيث لا يشعر! - في دائرتهم، فيقودونه ويدفعونه لمحبوباتهم، ويزداد تأثره بمشاعرهم الجياشة عند كثرة الهتاف والتصفيق، وتأخذه النشوة بكثرة الحشود؛ ومعلوم أن نسبة كبيرة من أولئك العامة لا ينظرون إلى أبعد من مواقع أقدامهم، ولا يحيطون بكثير من التداخلات الفكرية والسياسية، ولا يَزِنون ردود الأفعال بالموازين العلمية.

وأحسب أن التأثر بالجماهير نوعان:

الأول: التأثر الإيجابي: وهو في غاية الأهمية؛ لأنهم يشعرون بالتفاعل والاهتمام، ويحسون بأهمية آرائهم، وقيمتهم المعنوية، كما يحسون بدورهم في البناء والتغيير، ممَّا يزيدهم ارتباطاً بدعاة الإصلاح، ويحفزهم إلى المزيد من التجاوب والتعاون.

الثاني: التأثر السلبي: حيث ينساق المرء وراء عواطفهم، ويقع في شراكهم، ويصبح برنامجه الإصلاحي مرتبطاً برغباتهم، وخطته العملية متأثرة بأهوائهم، وتكون النتيجة أن الجماهير هي التي تقوده، وهو يحسب أنه يقودهم..!!

رابعاً: الدقة في الخطاب:

الخطيب الذي يتصدر لمخاطبة الجماهير لا يسلم من الخطأ والزلل، حاله كحال غيره من المتحدثين، «وليس صنف من الناس إلا وله حشو وشوْب»(٣). ولكن خطأ الخطيب يكون على رؤوس المنابر يسمعه الناس كبيرهم وصغيرهم، وقد يطير خطؤه في الآفاق. وبعض أصحاب النفوس المريضة يكون همه أن يتصيد العثرات، ويتسقَّط الزلات، وتكون فاكهته التي يتندر بها ويفرح، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما كانت على أحد نعمة إلا كان لها حاسد، ولو كان الرجل أقوم من القدح لوجد له غامزاً»(٤). ولمَّا قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد! إنَّ هاهنا قوماً يحضرون مجلسك ليتتبعوا سقط كلامك! فقال الحسن: «يا هذا! إني أطمعت نفسي في جوار الله فطمعت، وأطمعت نفسي في الحور العين فطمعت، وأطمعت نفسي في السلامة من الناس فلم تطمع، إني لمَّا رأيت الناس لا يرضون عن خالقهم علمت أنهم لا يرضون عن مخلوق مثلهم»(٥).

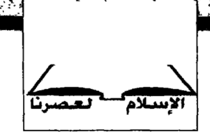
إنَّ على من يتصدر لمخاطبة الناس أن يعتني بما يصدر عنه اعتناءاً شديداً، وينتقي عباراته انتقاءاً دقيقاً، ويحرص حرصاً كبيراً على أن يخرج كلامه بدقة وإتقان، حتى ينفع سامعيه ويسد - قدر الطاقة - منافذ الهوى عند بعض الناس، ومع ذلك كله لن يسلم أحد من الخطأ مهما بلغ حرصه، ويعجبني المتحدث الذي يملك الجرأة والشجاعة على مراجعة أقواله، ويوضح ما استشكله الناس عليه، ويعترف بخطئه إن كان ثمة خطأ.

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٢١٥). (٢) مجلة الرسالة العدد (٨٤) ذو القعدة ١٣٥٣ هـ.

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٥٤).

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر القرطبي (١/ ٤٠٦). (٥) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر (ص ٤٢٢).



آيات الصيام والدعوة إلى الإسلام

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

الإسلام دعوة ومنهاج: دعوة إلى الله، ومنهاج لتبليغ هذه الدعوة، سواءاً كان التبليغ لأناس مؤمنين، أو لأناس لم يؤمنوا بعد، ومنهاج البلاغ هذا ليس مبيناً بالوصف فقط كما في مثل قوله - تعالى -: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، بل وبالمثال أيضاً. والمثال يكون بالطريقة التي يدعو بها الخالق - سبحانه وتعالى - عباده - كما سنرى في آيات الصيام - وبالطريقة التي يدعو بها الرسلُ أقوامهم، كما في مثل قوله - تعالى - عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ [هود: ٢٥ - ٣٤] والتي يدعو بها الذين ساروا على سنتهم من الإنس كما في مثل قوله - تعالى - عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ..﴾ [غافر: ٢٨ - ٣٤]، بل ومن الجن كما في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا...﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

ومثل الدعوة في هذا كمثل الصلاة والصيام والحج؛ فكما أننا نعرف الصلاة والصيام والحج معرفة علمية نظرية، ثم نصلي كما عَلِمْنا كيف كان الرسول ﷺ يصلي، ونأخذ عنه مناسك حجنا، فكذلك نعرف طرق الدعوة معرفة نظرية علمية، ثم نعرفها معرفة عملية بمعرفتنا للطرق التي دعا بها أنبياء الله - تعالى - ودعا بها سائر عباده الصالحين الذين قص الله - تعالى - علينا قصصهم في هذا المجال. لكن المسائل التي بُينت لنا طرقُها العملية نوعان: نوع لا يتأتى فعله إلا من العباد كالصلاة والزكاة، ونوع نسترشد فيه إلى جانب ذلك بالطريقة التي يعامل الله - تعالى - بها عباده، كطريقة الدعوة إليه، وآياتُ الصيام التي هي موضوعنا في هذا المقال خيرُ مثال على هذا النوع الأخير.

إن الغاية من هذه الآيات هي أمر المسلمين بصيام شهر رمضان، ولو شاء الله - تعالى - لأمرنا بها أمراً مجرداً لا استعطاف فيه ولا تعليل؛ فهو الرب ونحن عبيده، ومن حقه أن يأمرنا بما شاء، ومن واجبنا أن نطيعه بغير سؤال ولا مراء. لكن الله - تعالى - أعلم بطبيعة النفوس التي خلقها، وبأحسن الطرق إلى هدايتها وعطفها على قبول الحق والعمل به. لذلك نراه - سبحانه - لا يأمر عباده بالصيام أمراً مجرداً بل يسوق كل الحقائق التي من شأنها أن تعطف قلوبهم إلى الخير الذي يأمرهم به.

يقول - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٧] فيخاطبهم بأحب أوصافهم إليهم. وهذا الخطاب وإن كان خطاباً عاماً إلا أنه يجعل المستمع الفرد يُؤَمِّل في الدخول في سلك هـؤلاء الذين شهد الله - تعالى - لهم بالإيمان. وهل بعد الشهادة الإلهية من شهادة؟ وإذا كان يرجو أن يكون مؤمناً حقاً بعمله بما كتب الله عليه، فما أقل الصيام من ثمن لهذا الإكرام!

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: بما أن الإنسان قد يتردد في الإقدام على أمر يراه صعباً ولا يرى له

فيه سلفاً، فإذا تبين له أن الأمر قد جربه أناس قبله، فأغلب الظن أنه سيقول لنفسه: إذا كان الصيام قد كتب على من قبلنا فصاموا، فما الذي يمنعنا نحن من أن نصوم؟ وإذا لم نكن أول من جرب الصيام بل جربه أناس قبلنا ونجحوا في التجربة، فما الذي يمنعنا نحن من أن ننجح كما نجحوا؟

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: فالغاية من الصيام ليست تعذيب الإنسان بمنعه من الطعام والشراب والنكاح، وإنما أتى هذا المنع وسيلة ضرورية لغاية شريفة هي التقوى، والتقوى هي سبيل النجاة من عذاب الله؛ وهي من ثَمَّ سبيل الفوز بجزائه ومرضاته، ولهذا كانت التقوى هي الغاية التي تحققها كل عبادة من العبادات التي أمرنا الله - تعالى - بها.

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾: لم يكلفنا الله - تعالى - بصيام السنة كلها ولا بأكثرها، وإنما هي ثلاثون يوماً من أيام العام التي تبلغ أكثر من ثلاثمائة وخمسين يوماً. وكلمة ﴿ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ تعبر عن قلة هذه الأيام. والمؤمن يقول لنفسه: ولماذا لا أصوم أياماً معدودات وأكسب التقوى التي وعد الله بمنحها لمن يصومها؟

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾: ولأن الغرض من الصيام هو التقوى لا مجرد تعذيب البدن؛ فإن الله - تعالى - قد أعفى من صيام هذه الأيام المعدودات من كان مريضاً أو على سفر؛ لما قد تسببه هاتان الحالتان من مشقة زائدة على الأمر العادي.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾: والأيام المعدودات التي أمرنا الله بصيامها هي أيام شهر لا كسائر الشهور، إنه شهر رمضان الذي شرفه الله - تعالى - بأن أنزل فيه القرآن، وذلك أنه كما أن الله - تعالى - أعلم حيث يجعل رسالته بالنسبة للبشر، فهو - سبحانه - أعلم حيث ينزل رسالته بالنسبة للأزمنة؛ لأنه كما أن بعض البشر أفضل من بعض فإن بعض الأزمنة والأمكنة أفضل من بعض ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨]. ولهذه المناسبة القوية بين القرآن وشهر رمضان، فإن النبي ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل في كل رمضان، ثم إنه عرضه عليه مرتين في العام الذي توفي فيه ﷺ. ولهذه المناسبة أيضاً فإنه يستحب لنا الإكثار من تلاوة القرآن ولا سيما في صلاة التراويح.

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ هذه أهم خصائص القرآن، الكتاب الذي أنزله الله في شهر رمضان. إنه هدى للناس، وإنه بينات، بينات من الهدى ومن الفرقان.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ إنها لحكمة بالغة أن تنزل هذه الآية الكريمة ضمن آيات الصيام. إن في الصيام شيئاً من المشقة، ما في ذلك من شك؛ لكن الآية تؤكد لنا أن هذه المشقة ليست مرادة لذاتها، وإنما هي مشقة قليلة محتملة تجلب تيسيراً روحياً كبيراً، هو نيل التقوى؛ فهي إذن ثمن قليل يدفعه الصائم لنيل عوض كبير. ولما كان المراد من أوامر الله ونواهيه كلها هو اليسر لا العسر؛ فقد أذن - تعالى - بالفطر لمن كان في حال يكون الصيام فيه عليه عسيراً.

لكن اليسر ليس شيئاً متروكاً لأهواء الناس الذين لا يحيط علمهم بكل عواقب الأعمال والتروك، وإنما ينظرون إلى بعض جوانبها دون بعض، وإلا فلو ترك أمر اليسر لتقديرات الناس لقال أكثرهم: إن الصيام عسر لا يسر، وما دام الأمر كذلك وما دامت أوامر الله - تعالى - ونواهيه مبنية كلها على اليسر، فإن المنهج الصحيح للاختيار بين آراء المجتهدين هو أن يختار ما دل الدليل على أنه أقرب للحق؛ لأن ما كان أقرب إلى الحق فهو الأقرب إلى اليسر. أعني أنه لا ينبغي للعالم أن يجعل ما يعتقده يسراً هو المعيار الذي يفضل به اجتهاداً على اجتهاد؛ لأن ما يظنه يسراً قد يكون في الحقيقة عسراً، بل عليه أن يبذل جهده في النظر في أدلة المجتهدين ليفضل ما كان منها أقرب للحق موقناً بأن ما كان أقرب للحق؛ فهو الأقرب إلى اليسر.

أعاننا الله وإياكم على صيام شهر رمضان، وجعلنا وإياكم من خير الدعاة إلى الإسلام.

ودوا لو تكفرون كما كفروا

صور من جهود المنصرين في إفريقيا

مراسل المجلة في إفريقيا

تتوالى جهود المنصـرين العاملين في أوساط المسلمين في القارة الأفريقيـة وتتنوع أساليبهم في ظل إمكانات مالية وبشـرية وإدارية ضخمة، ومؤازرة واضــحة من الدول الغربية والمؤسســات العالمية، مما جعل مخــاطرهم على المسلمين – وخصوصاً الفقـراء والنساء والأطفال – تتعاظم يومــاً بعد آخر في ظل أمية طاغية، وجـوع مدقع، ومرض مؤلم، وشبهات فاتنة، وشهـوات ملهية، وهو ما يوجب على المسلمين مناصرة إخـوانهم والسعي إلى رفع الجـهل والجوع والمرض عنهم، وسأكـتفي هنا بإيراد بعض جـهود المنصرين المكثفة والـقصص الواقعية التي لا تمثل إلا غيضــاً من فيض، وقطرات من بحر؛ فلعل في ذلك عبرة وذكـرى، ودفعاً للهمم لنصرة ديـــن الـحق، والوقوف في وجه أهل الباطل، وسُبُـلِهِم التي يبثون شبهاتهم عن طريقها، ومن ذلك:

١ – استطاعت الكنيسـة في نيروبي في كينيا تنصـيـر شاب عربي اسمه حسن، وحين ارتدَّ عن الإسلام جعلته الكنيسة من زعمائها، وأخذت تطوف به المدن والقرى لتغري به السفهاء قائلة: إن هذا الشاب عربي ولد في الإسلام ونزل القرآن بلغته، ولكنه اختار النصرانية، وقد ارتدَّ بسببه حتى الآن ٨٥ شخصاً، وحين تتبع الدعاة حاله وجدوا أن الجامعة الكاثولوكية تدرب طالباتها على كسب شباب المسلمين وخاصة العرب فوقع هذا الشاب في حبال إحداهن.

٢ – تمكنت الكنيسة في ولاية لامو ذات الأغلبية المسلمة في كينيا من بناء أكثر من ٣٠٠ كنيسة حتى الآن علماً بأن هذه الولاية حتى عام ١٩٧٤م لم يكن فيها أكثر من كنيستين، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الكنيسة سعت في توطين أتباعها في تلك الولاية، ووقعت مع مؤسسة (G.T.Z) الألمانية اتفاقية تم بموجبها بناء مدارس من مرحلة الروضة إلى المرحلة الثانوية.

٣ – في منطقة سيولو في كينيا استطاع النصارى بناء ١٢ مدرسة وكنيسة، ويشترطون على أبناء المسلمين

الراغبين في الدراسة التنصر وإلا حُرموا من التعليم، وقد تنصر حتى الآن أكثر من ٥٠ أسرة فقيرة لا تستطيع دفع رسوم أبنائها الدراسية ولا قيمة تغذيتهم وملابسهم التي تبلغ ١٤٠ دولار للفرد سنوياً، وهم الآن تحت إشراف منظمة (F.F.H) التي كانت تزعم في بداية تواجدها بأنها تعمل للإنسانية جمعاء، وحين تعرفت على واقع المجتمع تنكرت لمنهجها السابق وأظهرت هويتها.

٤ - قامت بعض المنظمات التنصيرية في دولة مالي ذات الأغلبية الإسلامية بترجمة كتاب (الآيات الشيطانية) لسلمان رشدي إلى اللغة المحلية (البمبارا) التي يتحدث بها أكثر من ٨٥٪ من السكان، وتم طباعة هذه الترجمة وتوزيعها بأعداد هائلة، فأسفر ذلك عن نتائج مؤلمة تمثلت في نشر الفهم الخاطئ والتصور غير الصحيح عن الإسلام في أوساط الكثير وخصوصاً طلبة الجامعات والمثقفين ثقافة غربية.

٥ - في بداية عام ١٩٩٩م تمكنت الكنيسة في دولة مالي من امتلاك أرض كبيرة تقع في حي من أرقى أحياء باماكو العاصمة، وذلك لبناء كنيسة ومركز تنصيري ومكتبة عامة، وتقدر كلفة بناء المشروع بـ ٦ ملايين دولار أمريكي، ويتوقعون أن ينتج عن ذلك تنصر كثير من أبناء المسلمين إما اغتراراً بتضليلات المنصرين، وإما طمعاً فيما يقدمونه إليهم من مساعدات مادية في ظل احتياجات ماسة إلى الطعام والدواء والتعليم، خيب الله توقعاتهم!

٦ - قامت الكنيسة في جوس في نيجيريا بتجهيز أربعة مواقع: ثلاثة منها لإيواء أبناء المسلمين الفقراء وخصوصاً المهاجرين (وهم طلبة الكتاتيب القرآنية التقليدية)، ورابعها للمعاقين، ويتم في هذه المواقع الأربعة تقديم الطعام ثلاث مرات يومياً ودعوتهم إلى الدخول في النصرانية، وقد تنصر عدد منهم ولبس الصليب، وبخاصة الشباب، ناهيك عن أعداد كبيرة تشككت في دينها.

٧ - أنشأت الكنيسة في مدينة جوس في نيجيريا كُلِّيةً لتأهيل المنصرين في مجال الدراسات الإسلامية ليتم إرسال طلبتها بعد التخرج إلى المدارس الحكومية لتدريس الإسلام لأبناء المسلمين.

٨ - أصاب مرض شديد امرأة من المسلمين تدعى (هند) فعجزت عن تكاليف العلاج البالغ مقدارها (٥٠٠ دولار)، فقامت الكنيسة بتولي علاجها، فارتدت المرأة عن الإسلام وتنصرت، فقام المنصرون بتوظيفها، وزوجوها من أحد الأطباء، ومنعوا الدعاة من اللقاء بها، وعندما حاول أحدهم اللقاء بها نقلها المنصرون إلى مدينة أخرى خوفاً من أن تنجح محاولات الدعاة في الوصول إليها.

٩ - أقامت الكنيسة في جمهورية التوجو العديد من المراكز الصحية التي تعالج الناس مجاناً أو بثمن زهيد، وتشترط إدارتها على كل من يأتي للعلاج فيها بأن يشاهد قبل الكشف والعلاج فيلماً عن حياة المسيح لمدة لا تقل عن ساعة.

١٠ - في دولة بنين أقامت الكنيسة في شمال البلاد ذات الأغلبية الإسلامية مراكز تنصيرية ضخمة على مساحات شاسعة، وكان من أبرز أنشطتهم استقطاب اللقطاء وأبناء الفقراء إلى هذه المراكز بدعوى كفالتهم وتعليمهم وتقديم المعونات المادية لهم، وتسديد الرسوم الدراسية عنهم، ونحو ذلك.

كما أنهم جعلوا من هذه المراكز قاعدة للانطلاق إلى القرى والأدغال النائية لتكثيف دعوتهم وبث باطلهم.



صور من الجهاد بالمال

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

في المملكة العربية السعودية

فتوى رقم (١٢٦٢٧) وتاريخ ١١/٢/١٤١٠هـ.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على الأسئلة المقدمة من د. عبد الله الخاطر(*) إلى سماحة الرئيس العام، والمحالة إليها برقم (٧٢٤٨) وتاريخ ١٦/١١/١٤٠٩هـ، وأجابت عن كل منها عقبه فيما يلي:

تمهيد: الجهاد في سبيل الله إعلاءً لكلمته - سبحانه - ونصرة لدينه، ونشراً لشرائعه عقيدة وعملاً، وتذليلاً لما قد يكون في طريق ذلك من عقبات واجب على المسلمين، وذلك مما يختلف باختلاف أحوالهم واختلاف أحوال أعدائهم فيما يكيدون به للإسلام والمسلمين، قال الله - تعالى - : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فأوجب - سبحانه - على المسلمين إعداد ما استطاعوا من العدة عموماً: من قوة جيش وتوفير مال للإنفاق على ظروف الجهاد: قتالاً أو بياناً قولياً أو كتابياً، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» (١). فذكر - عليه الصلاة والسلام - أنواعاً من الجهاد في سبيل الله وعلى هذا يجاب عن الأسئلة:

(*) الأمين العام السابق للمنتدى الإسلامي.

(١) رواه أحمد وابو داود والنسائي.

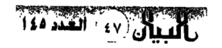
السؤال الأول: نعلم أنكم تدفعون الزكاة للدعـاة، ولكن هل يجوز دفع الزكاة لموظفـي المركز الذيـن لا يقوم المركز إلا على مـثلهم؛ مع العلم بأن هؤلاء الموظفين ليس لديهم دخل مادي آخـر ولكنهم يستطيعـون العمل في مكان آخر، ولكن المركز سيـصبح مشلولاً ومعطلاً عن العمل؟ أمثلة من الموظـفين: سكرتير، مدير إداري، حارس وطباخ، مسؤول إعلانات عامة، مدرسون في المدرسة، مدير للمدرسة.

والجواب: إذا كان أعداء الإسلام يحاربونه بالقوة الفكرية: بإلقاء الشبه، وتحريف الآيات، والإلحاد في الدين وجب على علماء المسلمين أن يحاربوهم بجنس السلاح: بإقامة الحجة وإزاحة الشبهة وإيضاح الحق وبيانه بدليل يدمغ الباطل ويدحضه، ويهدي إلى سواء السبيل، كما كانت الحال قبل مشروعية الجهاد بالقتال وبعده؛ فقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك قبل الهجرة وبعدها فيلتقي الوافدين إلى بيت الله الحرام، ويبلغهم دعوة الإسلام، ويقف في بعض المشاعر وينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش! حتى إذا اجتمعوا بلَّغهم كلمة التوحيد، وكان يسافر إلى بعض الجهات كالطائف؛ ليبلغ من فيها دعوة الإسلام، وقد أرسل إلى بعض البلاد كالمدينة دعاة يرشدون أهلها ويعلمونهم القرآن، وأرسل بعض القرَّاء إلى بعض القبائل كرعل وذكوان، وبعث معاذاً وغيره من الصحابة إلى اليمن، وكتب إلى عظماء الدول وكبراء الأمم كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام. وبالجملة: جاهد في سبيل الله بالقول والكتابة والبعوث قبل الجهاد بالسيف والرمح والنبال ومعه، بل أمر حسَّاناً أن ينازل المشركين بالشعر حينما أخذوا يحاربون المسلمين حرب أعصاب فأمره أن يجيبهم، وأمر الصحابة أن يجيبوا من قال من الكافرين: لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم، وعلمهم كيف يجيبونهم، وكان بعض الكفار مثل كعب بن الأشرف يؤلب الكفار على المسلمين، ويوقد نار الفتنة، فرأى النبي ﷺ أن يندب بعض الصحابة لقتله، تخلصاً من سعيه جاهداً في إيقاد نار الحرب؛ فكل حرب تقابل بما يناسبها: الشبهة تقابل بالحجة الواضحة، والسيف بالسيف، والدعاية بالدعاية، والتمويه بحسن البيان وإظهار الحق؛ فإنفاق المال على من يقوم من الدعاة بمثل هذه الأعمال وفيما يلزم لهم في أداء مهمتهم إنفاقٌ له في الجهاد في سبيل الله؛ فيجوز أن ينفق في ذلك من أموال الزكاة لكونه من مصارفها.

السؤال الثـاني: على المركز ديون تحـمَّلها القائمـون عليه وهي في ذمتـهم، وهذه الديون هي بعض قيـمة المركز؛ فهل يجوز دفع الديون من الزكاة؟ وتوجد زكاة لدى المركز مدفوعة من أهل الخير لصرفها في مصارفها؛ فهل تدفع من هذه الزكاة الموجودة لدى المركز؟

السؤال الثالث: هل يجوز صرف الزكاة لمصاريف المركز الأخرى مثل كهرباء – تدفئة – هاتف – ضرائب؟

والجواب (٢ – ٣): إذا كان دعاة المنتدى الإسلامي بلندن ينهجون في دعوتهم منهج أهل السنة والجماعة فيرجعون في الأحكام والمواعظ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ ويعتمدون في مراجعهم على كتب السلف، واضطروا إلى مبنى يكون مركزاً لهم يجمع شتاتهم، ويكون مقراً لمن يحتاجون إليه من الموظفين، ويعقدون فيه جلساتهم للتشاور بينهم في شؤون الدعوة والتخطيط لنجاحها وقوة انتشارها فلا بأس من دفع قيمة ذلك المبنى مما تجمَّع لدى المسؤولين عنه من الزكاة، وكذا يجوز دفع مصاريف الكهرباء لإنارة المنتدى وتدفئته، ودفع ما لزم من الضرائب ومصاريف الهاتف مما تجمَّع من الزكاة لدى المسؤولين عن المنتدى.



السؤال الرابع: هل يجوز دفع الزكاة لطلبة يدرسون في الخارج علوماً مادية «ليست شرعية» في حالة انقطاع المنح عنهم؛ مع العلم بأنهم يمكن رجوعهم إلى بلدهم فيعملون بما عندهم من تحصيل علمي؟ وكيف يكون الأمر عمن لا يستطيع الرجوع إلى بلده؟

والجواب: إذا كان هؤلاء الطلاب يدرسون علوماً مادية مباحة كالطب يحتاج إليها الدعاة ومن يقوم بخدمتهم من الموظفين، أو يحتاج إليها المسلمون وانقطعت عنهم المنح وليس لديهم ما ينفقونه لإتمام تلك الدراسة أو تعذر عليهم الرجوع إلى بلادهم ليرتفقوا بما لهم فيها من عقار ونحوه جاز أو تدفع نفقاتهم من الزكاة لإتمام دراستهم لحاجتهم وحاجة دعاة المركز أو المسلمين إليهم.

السؤال الخامس: تجتمع لدى المركز أموال من الزكاة؛ فهل يجوز تأخير صرفها لأكثر من سنة نظراً للحاجة؟

والجواب: يجوز إذا لم تَدْعُ الحاجة إلى تعجيل صرفها لمستحقيها، وكان تأخيرها لمصلحة متوقعة تقتضي إنفاقها فيها، وذلك في حدود سنة فأقل.

السؤال السادس: توجد لدى المركز صدقات تبرُّع؛ فهل عليها زكاة إذا حال عليها الحول ولم تصرف؟

والجواب: لا تجب فيها الزكاة إذا حال عليها الحول ولو بلغت نصاباً؛ لأنها ليست ملكاً لمعين؛ بل هي مرصودة لتنفق في وجوه البر التي تُبُرِّعَ بها لتصرف فيها، لكن ينبغي التعجيل بصرفها لمستحقيها حينما يوجد المستحق.

السؤال السابع: هل يجوز إرسال كتب أو مجلات إسلامية كمجلة البيان ـ وهي إسلامية إن شاء الله ـ إلى البلاد الفقيرة لتعليم أهلها ونشر الإسلام فيها من أموال الزكاة؟

والجواب: إرسال الكتب الإسلامية التي تبين الحق بالدليل عقلاً ونقلاً وتنتصر له ونشر المقالات الإسلامية في المجلات والصحف هدايةً إلى الصراط المستقيم، ودحضاً للباطل، ورداً على الشبه من طرق الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فيجوز صرف الزكاة في ذلك؛ نصرةً لدين الله، وإعانةً على نشر العقيدة الصحيحة والأحكام الشرعية التي يشهد لها الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وبالله التوفيق.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة

الرئيس	نائب رئيس اللجنة
عبد العزيز بن عبد الله بن باز	عبد الرزاق عفيفي

القضية الفلسطينية.. مآسٍ متجددة

ملفات

فاتحة الملف

ليست للبيع بأي ثمن

في خنادق الفنادق، وسرادقات المنتجعات المحمية، بدأت مفاوضات حل القضية الفلسطينية على الطريقة العلمانية حلاً نهائياً تتحلل فيه كل المعتقدات والمبادئ والأخلاق والأعراف.

فها هم أشاوس الكفاح المسلح الذين رفعوا لواء «ثورة حتى النصر» و«ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة» ها هم يبيعون القضية الفلسطينية بكل قداستها بثمن بخس، وما أخذ منهم بالقوة يحاولون استرداده بالمفاوضات وهيهات هيهات!!

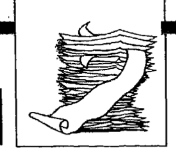
إن الزمرة التي تولت أمر القضية الفلسطينية زمرة معزولة عن آمال الأمة وآلامها. زمرة لا يحق لها أن تنوب عن المسلمين في بيع أراضيهم المقدسة لليهود.

تأتي المفاوضات النهائية لتنتهي بها المفاوضات، كل المفاوضات، فلن نسمع بعد ذلك عن القدس شيئاً، لن نسمع بعد ذلك عن اللاجئين شيئاً، لن نسمع بعد ذلك عن الاستيطان شيئاً، ولن نسمع عن العمل «الجهادي» شيئاً، فوقتها لن يكون إلا إرهاب خالص نقي خالٍ من شوائب التسويفات، فالأرض لم تعدْ محتلة!!

ووقتها لن نعجب حين يضاف لعدد الدول في الجامعة العربية واحدة أخرى.

ومع بداية هذه المفاوضات يأتي ملفنا هذا: « **القضية الفلسطينية.. مآس متجددة** »، للتذكير بالقضية بكل ما ألمَّ بها من آلام، وبكل ما نتطلع إليه من آمال، تذكير نطرق به على ذاكرة الشعوب الإسلامية باستمرار حتى لا ننسى فلسطين التي يريدون بيعها، يريدون علمنتها بقداستها ومقدساتها الطاهرة، تذكيراً للمسلمين بمنزلة قضيتهم وصراعهم مع اليهود، تذكيراً بوعد الله الحق وسننه في خلقه.

كما أنه تذكير لأولئك الباعة المتجولين بأن فلسطين ليست للبيع بأي ثمن.



بين القومية العربية والقومية اليهودية

عبدالناصر الشعراني

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده.. وبعد:

فقد خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم أبا البشر - عليه السلام - ثم خلق من آدم حواء، ثم جعل في ذريتهما البنين والبنات، وذلك مذكور في القرآن الكريم، في قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، فالنفس الواحدة هي آدم، والزوج هي حواء، أما الرجال فهم الأبناء والأحفاد، والنساء هن البنات والحفيدات.

وقد سار آدم - ومَن بعده - على تقوى من الله، ثم بدأت الفُرقة التي نفث فيها الشيطان - لعنه الله - بعدما كثر الناس، وانتشروا في الأرض، وبدأ التعصب للقبائل في الظهور، حتى أدى إلى الاقتتال بحميَّة الجاهلية، والافتخار بالانتساب إلى المفهوم القبلي الضيق، ولكن الله لم يرضَ عن تلك الجاهلية العمياء التي تجعل الانتماء الفردي للجماعة الصغيرة، أو المجتمع الكبير هو أساس كل شيء، فلا تتعدى ذلك إلى الانتماء الرحب، الذي يتعدى الفرد والجماعة الصغيرة إلى الدولة الكبرى التي تضم الأفراد والجماعات والقبائل؛ ولذلك قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالتعارف وسيلة من وسائل عمران الدنيا، وأكرم الخلق أتقاهم.

وبدا ذلك جلياً في دولة الإسلام الفتيَّة التي أقامها رسول الله ﷺ عندما كان يخاطب الأمة كلها، ولم يفرق بين أوس وخزرج ومهاجرين، ويمن وحبشة، بل الكل عباد الله، ولم يترك للشيطان مجالاً أو ثغرة ليجتالهم، وكان خير مثال غضبه من الفتنة التي أُثيرت بين جناحي الأنصار الأطهار (الأوس والخزرج)، واعتبرها دعوة جاهلية، وكذلك نجد الخطاب القرآني موجهاً إلى الناس جميعاً، وإذا خص المؤمنين خاطبهم جميعاً، ولم يؤلب طائفة ضد أخرى، ولم يرفع قبيلة أو جماعة، ويخفض أخرى، بل هي دعوة نورانية تسعى لتوحيد الناس تحت راية التوحيد، وتعتبر أن التعصب الأعمى - للجنس أو العرق أو غيرهما - جاهلية مقيتة، ودعوة مُنْتنة يجب أن توضع تحت أقدام المؤمنين.

ولقد حفل تاريخنا الإسلامي بصور مدمرة ورهيبة للدعوات الجاهلية، التي أرادت تدمير أمة الإسلام، وقد

أطلق عليها كلمة : (الشعوبية) ، التي كانت في بدايتها شعوبية فارسية ، ثم تعددت أصولها ، وهي نزعة – في العصر العباسي – تنكر فضل العرب ، وتحاول الحطّ منهم ، فتخفّت تلك الدعوة الجاهلية خلف العلويين والعباسيين ؛ لتقوض حكم العرب الذين هم مادة الإسلام كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ فقد كان وجود العرب المسلمين حاكمين من أكبر العوامل المحافظة على انتشار الإسلام ، وانتشار اللغة العربية (لغة القرآن الكريم) ، وإن حدث منهم تعصب فذلك مردود عليهم ، ولا يقره الإسلام .

بل لم يجد المسلمون حرجاً – في الماضي – من أن يقولوا : « نحن عرب » ، وذلك بمفهوم الاعتزاز بالإسلام ، وليس بغرض الانسلاخ منه ، كما تدعو القومية العربية والدعوات القطرية الجاهلية .

بل خاطبهم الرسول ﷺ محذراً إياهم من قرب خروج « يأجوج ومأجوج » ، قائلاً : « ويل للعرب من شر قد اقترب » .

إن الإسلام عندما أشرق على شعوب الأرض جمع بين أمرين قد يبدوان متناقضين:

الأمر الأول: إذابة كل الأعراق والأجناس والانتماءات في رسالة واحدة ، وهي الإسلام .

والأمر الآخر: عدم إلغاء انتماء الأفراد والجماعات للقبائل والأعراق والأجناس واللغات ، فهذا عربي وهذا بربري ، وهذا كردي . . . ، لهم لغاتهم ولهجاتهم وأصولهم الموروثة ، ولكن كل ذلك في إطار الإسلام ، ولا فرق بينهم إلا بالتقوى .

وقد استمرت تلك السُّنَّة في الخلافة الإسلامية ، حتى بدأ الوهن يدب في الدولة العثمانية – آخر دول الخلافة الإسلامية – فانقضَّت جماعة « الاتحاد والترقِّي » التركية اليهودية على الدولة العثمانية ، فقضت عليها ، وأعلنت الجاهلية الطورانية التركية ، فكانت دعوة لإحياء التعصب الجاهلي للجنس التركي على حساب العرب والأكراد وغيرهم ، فكان رد الفعل في الطرف الآخر (العرب) – المدعوم باليهود والأوروبيين – هو إحياء الجاهلية العربية في النصف الآخر من القرن التاسع عشر الميلادي ؛ اتباعاً للأوروبيين الذين قد تعصبوا – في الماضي – لجنسهم ، ثم أُزيل التعصب ظاهرياً ، وصار تعاوناً على الإثم والعدوان ، والله – عز وجل – يقول : ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾ [الحشر : ١٤] .

وفي الوقت نفسه الذي كان العرب ينْقضون عُرى الخلافة الإسلامية عُروة عروة – كان اليهود يواصلون مخططاتهم التي بدأت منذ العودة من السبي البابلي (٥٨٦ – ٥٣٨ ق . م .) ، وسميت الحركة التي تنفذها حركة : (المكابيين) ، وأول أهدافها العودة إلى صهيون ، وبناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى (الأسير) .

وبعد القضاء على الخلافة الإسلامية ظهرت بوضوحٍ الدعوة القومية العربية الجاهلية ، وتقابلها الدعوة القومية اليهودية الجاهلية ، وإن كانت تلك دعوات ، وليست دعوة واحدة لكلتيهما ؛ لأن داخل القومية العربية قوميات صغيرة (وطنية أو قُطرية) ، وقد تُختزل تلك الدعوات ، حتى نرجع إلى نظام القبائل ، الذي صهره الإسلام كما ذكرت سالفاً .

وكذلك نجد تفرق الجماعات اليهودية ، وقد ذكر الرسول – عليه الصلاة و السلام – افتراقهم إلى إحدى وسبعين فرقة ، وقال الله – تقدست أسماؤه – عنهم : ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا**

يعقلُون ﴾ [الحشر : ١٤] .، ولكنني أذكرهما بصفتهما كتلتين خاضتا معارك حامية الوطيس، فخسرت الأولى خسراناً مبيناً، أما الآخرة فانتصرت انتصاراً عظيماً - لضعف الأولى - حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

العنصر الأول: الأسس النظرية لكل قومية.

العنصر الثاني: البرامج والشعارات.

العنصر الثالث: حصاد كل قومية.

أولاً: الأسس النظرية:

قبل الحديث عن هذه الأسس لا بد من تمهيد لُغوي ومصطلحي لمعرفة هاتين القوميتين.

يقول صاحب «القاموس المحيط»: «القوم: الجماعة من الرجال والنساء معاً، أو الرجال خاصة، أو تدخله النساء على تبعية، ويؤنَّث، (ج) أقوام، (جج) أقاوم وأقاويم وأقائم، وقام قوماً وقومةً وقياماً وقامةً - انتصب، فهو قائم من قُوَّم وقُيَّم وقُوَّام وقُيَّام،.. والقَوَام - كسَحَاب - العَدْل، وما يُعاش به، وبالضم: داء في قوائم الشاء، وبالكسر: نظام الأمر وعماده ..»[١].

إن القومية هي مصدر صناعي من (قوم)، وهي: «وعي قومي يمجد أمة معينة، ويضع التوكيد على تعزيز ثقافتها ومصالحها»[٢]؛ فهي دعوة لتمجيد أمة معينة من خلال الاعتزاز بكل ماضيها القائم على الباطل، بل هناك قوميات تحارب غيرها؛ لتعيش على أنقاضه، ولا تكتفي بإبراز هويتها، كاليهود والصرب والهندوس والروس والبوذيين والأوروبيين والأمريكيين، أو باختصار: كل الكفار والمشركين والملحدين والمنافقين.

وكما يقول د. محمد السيد سعيد: «القومية تنتمي إلى طائفة من الظواهر التي تتعلق بعملية تحديد هوية أو انتماء جماعات من الناس؛ فالناس قد يحددون أو تتحدد هويتهم على أساس مجموعة من العوامل والعلامات مثل الدين والعنصر العرقي واللغة والمنطقة الجغرافية والحضارة، أو أي تفرعات من هذه العوامل»[٣]، وإذا فحصنا تلك العوامل، التي ذُكرت سالفاً فسنجد أن تطبيقها - في غياب الإسلام - يعني القضاء على القومية الأخرى المقابلة، وقد ضربت بعض الأمثلة للقوميات المتعصبة فيما سبق؛ ولذلك يخبرنا التاريخ والواقع أن كل دعوة غير الإسلام وبال على المسلمين، وأفضل مثال على غرابة فكرة القومية قول أحد كبار الدارسين لها - وهو فردريك هرتز -: «ما الذي منح القومية تلك القوة الكبرى في العصر الحديث ؟!»، ويجيب: «نحن - في الحقيقة - لا نعلم !»[٤]، ولكننا - نحن المسلمين - في الحقيقة نعلم أنهم اليهود!

١ - القومية العربية:

إن القومية العربية هي: «حركة سياسية فكرية متعصبة تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم

---

(١) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، عام ١٣١٧ هـ / ١٩٢٥م، ط٢، ٤/١٦٩.

(٢) قاموس المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، عام ١٩٩٣م.

(٣) الشركات عابرة القومية ومستقبل الظاهرة القومية، د. محمد السيد سعيد، سلسلة «عالم المعرفة»، رقم ١٠٧، الكويت، عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٦٨م، ص ١٠٣.

(٤) المرجع السابق، ص ١٢٧، نقلاً عن القومية في التاريخ والسياسة، فردريك هرتز، المؤسسة العربية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ب. ت، ص ١٩.

على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين، وهي صدى للفكر القومي، الذي سبق أن ظهر في أوروبا»[1].

وكانت تلك الدعوة الجاهلية الجامحة تدبر وتخطط منذ عام ١٨٤٧م؛ ولذلك نجد أنها تآمرت من ذلك العام إلى عام ١٩١٤م، من خلال خمس عشرة جماعة سرية وعلنية، وكان يقودها الكافرون - وبعض مَن ينتسبون إلى الإسلام - أمثال ميشيل عفلق النصراني الذي أسس حزب البعث العربي الاشتراكي في إبريل (نيسان) عام ١٩٤٧م في العراق وسورية، وهناك صراع بين جناحيه على حساب البلدين الشقيقين، ومن أكبر دعاة القومية العربية ومنظِّريها ساطع الحصري (١٨٨٠ - ١٩٦٨م)، وهو من أصل سوري.

وقد برزت تلك الدعوة - بشدة - في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي استغل بها مشاعر الناس، ثم سقط - وهي معه - سقوطاً مروعاً، وهناك مَن يحاول إحياءها، ولكن هيهات هيهات!

ولم تقم تلك الدعوة إلا على أسس ومبادئ تقوم على محاولة القضاء على الإسلام دون غيره من المِلَل والنِّحَل السابقة، ومن هذه المبادئ:

١ - إعلاء الفكر القومي من شأن رابطة القربى والدم على حساب رابطة الدين.

٢ - يرى دعاة الفكر القومي - على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكر - أن أهم المقومات التي تقوم عليها القومية العربية هي: اللغة والدم والتاريخ والأرض والآلام والآمال المشتركة.

٣ - أن العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة، وأنها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط.

٤ - كما يرون أن الحدود بين أجزاء هذا الوطن حدود طارئة ينبغي أن تُزال، وينبغي أن تكون للعرب دولة واحدة وحكومة واحدة تقوم على أساس من الفكر القومي اللاديني.

٥ - يدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديان - كما يزعمون.

٦ - يتبنَّى الفكر القومي شعار «الدين لله، والوطن للجميع»!، والهدف من هذا الشعار إقصاء الإسلام عن أن يكون له أي وجود فعلي من ناحية، وجعْل أُخوّة الوطن مقدَّمة على أخوة الدين من ناحية أخرى.

٧ - يرى الفكر القومي أن الأديان والإقليميات والتقاليد الموروثة عقبات ينبغي التخلص منها؛ من أجل بناء مستقبل الأمة.

٨ - يقول عدد من قادة هذا الفكر: نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد!، من أجل إقصاء مبادئ الإسلام التي جاء بها هؤلاء الرسل - عليهم الصلاة والسلام -.

٩ - يقرر الفكر القومي أن الوحدة العربية حقيقة، أما الوحدة الإسلامية فهي حُلم!

١٠ - أن فكرة القومية العربية من التيارات الطبيعية التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية، لا من الآراء الاصطناعية التي يستطيع أن يبدعها الأفراد.

ويتمثَّل دعاة الفكر القومي كثيراً قول الشاعر القروي:

---

(١) الموسوعة الميسرة، مرجع سابق، ص ٤٠١.



هبوني عيداً يجعل العرب أمة   وسيروا بجثماني على دين بَرْهَم
سلام على كفر يوحد بيننا   وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم!

١١- يقول بعض دعاة الفكر القومي : إن العبقرية العربية عبرت عن نفسها بأشكال شتى ، فمثلاً عبرت عن نفسها بشريعة حمورابي ، ومرة أخرى بالشعر الجاهلي ، وثالثة بالإسلام ! (وكأن الإسلام دين من وضع البشر!).

١٢ - قال أحد مشاهيرهم : لقد كان محمد كل العرب ، فليكن كل العرب محمداً!

١٣ - يرى دعاة الفكر القومي أن من الإجرام أن يتخلى العربي عن قوميته ، ويتجاوزها إلى الإيمان بفكرة عالمية أو أممية.

١٤ - يقول بعض مفكري القومية العربية : إذا كان لكل عصر نبوته المقدسة فإن القومية العربية هي نبوة هذا العصر!

١٥ - ويقول آخرون منهم : إن العروبة هي ديننا نحن العرب المؤمنين العريقين - من مسلمين ومسيحيين - لأنها وُجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية ، ويجب أن نغار عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي ، والمسيحيون على إنجيل عيسى.

١٦ - يقرر بعضهم الآخر أن المرحلة القومية في حياة الأمة مرحلة حتمية ، وهي آخر مراحل التطور ، كما أنها أعلى درجات التفكير الإنساني.

١٧ - التعاون مع الشيوعيين لمقاومة الرأسمالية الغربية ، والعكس صحيح ، (عبد الناصر وغيره).

١٨ - مساعدة أي ثورات أو تمردات أو انقلابات من أي اتجاه.

١٩ - قمع الإسلاميين ومحاربة الأنشطة الإسلامية.

٢٠ - الاستسلام لليهود (الضفة الغربية ، سيناء ، الجولان..).

ولتلك الأسس النظرية الكفرية جاء وصف الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - في «نقد القومية العربية» أنها «دعوة جاهلية إلحادية تهدف إلى محاربة الإسلام ، والتخلص من أحكامه وتعاليمه» و«هي دعوة باطلة ، وخطأ عظيم ، ومكر ظاهر ، وجاهلية نكراء ، وكيد سافر للإسلام وأهله»[١].

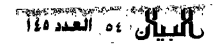
٢- القومية اليهودية :

اختلطت اليهودية - وهي دين سابق دخله التحريف - بالصهيونية ، التي هي : «حركة سياسية عنصرية متطرفة ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فِلَسطين ، تحكم من خلالها العالم كله» ، واشتُقت الصهيونية من اسم «جبل صهيون» في القدس ، حيث تطمع الصهيونية أن تشيد فيها هيكل سليمان ، وتقيم مملكة لها تكون القدس عاصمتها ، وقد ارتبطت الحركة الصهيونية بشخصية اليهودي النمساوي «تيودور هرتزل» الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم[٢]؛ ولذلك يلقى هذا الاختلاط بين اليهودية والصهيونية قبولاً وتأييداً من أحبار اليهود ، لكل مَن شارك في إقامة الكِيان المغتصب

---

(١) مرجع سابق ، ص ٤٠١ ، ٤٠٦.

(٢) الموسوعة الميسرة ، ص ٣٣١.



على أرض فلسطين المحتلة، ولو كان من الملحدين! فالصهيونية هي الجناح السياسي والعسكري لليهود.

وقد ظهرت تلك القومية - الممثِّلة للدين المحرَّف - منافسة للقوميات الأُخرى؛ ولذا فكلمة «يهودي» في أي دولة أوروبية أو أمريكا - تعني «قومية»، أي تقابل كلمة «أمريكي، فرنسي، بريطاني..الخ»، ولا يشعر اليهود بأدنى حرج من إظهار هويتهم، وتعصُّبهم الأعمى لتلك الحركة الصهيونية، وإن كان هناك مَن يعارضها؛ في انتظار عودة مسيحهم المنتظر!

وتنطلق تلك القومية اليهودية الصهيونية من العهد القديم (التوراة المحرفة وأسفار الأنبياء) والكتابات الأخرى (المزامير والأمثال وأيوب..)، والتلمود، وهو روايات شفوية تناقلتها الحاخامات، حتى جمعها الحاخام يوضاس سنة ١٥٠م في كتاب سماه: (المشنا)، أي الشريعة المكررة لها في توراة موسى كالإيضاح والتفسير، ثم أضاف إليها يهوذا سنة ٢١٦م تدويناً وزيادات شفوية، وقد تم شرح هذه المشنا في كتاب سمي: (جمارا)، ومن هذه المشنا والجمارا يتكون التلمود، وله منزلة مهمة جداً تزيد على منزلة التوراة المحرفة(١).

إن الأسس النظرية لليهود تحدد تعاملهم الوحشي مع غيرهم، ولكنهم فيما بينهم يختلفون تماماً؛ مصداقاً لقوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. [آل عمران: ٧٥]

ومن الأسس النظرية للقومية اليهودية ما يلي:

يقول د. عبد المالك خلف التميمي عن بعض أهداف القومية اليهودية: «بدأت فكرة الاستيطان الصهيوني في فلسطين منذ المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد في بازل في سويسرا عام ١٨٩٧م؛ حيث حدد هذا المؤتمر الأهداف الاستيطانية - أقول: وهي من الأسس النظرية للقومية اليهودية، التي بدأت بالسيطرة على مراكز اتخاذ القرارات العالمية، ثم الاستيلاء على فلسطين (مركز الحلم اليهودي)، واتخاذها نقطة انقضاض على العالم كله - على النحو الآتي:

١ - العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.

٢ - تنظيم اليهودية العالمية، وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد.

٣ - تقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتغذيته.

٤ - اتخاذ الخطوات العملية التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غايات الصهيونية.

٥ - جعْل اللغة العبرية لغة رسمية للتخاطب بين اليهود في جميع ربوع العالم(٢).

٦ - تعتبر الصهيونية جميع يهود العالم أعضاء في جنسيةٍ هي الجنسية الإسرائيلية.

---

(١) مرجع سابق، ص ٦٥٩ - ٧٥٠.

(٢) الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، سلسلة «عالم المعرفة»، رقم ٧١، الكويت، محرم - صفر عام ١٤٠٤هـ، ص ١٠٧، نقلاً عن الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ لجعفر الخليلي، بغداد، عام ١٩٩٧م، ط ٢، ص ١٠٨.

٧ - تهدف الصهيونية إلى سيطرة اليهود على العالم، كما وعدهم يَهْوَه[1]، وتعتبر المنطلق لذلك هو إقامة حكومتهم على أرض الميعاد التي تمتد من نهر النيل إلى نهر الفرات.

٨ - يعتقدون أن اليهود هم العنصر الممتاز الذي يجب أن يسود، وكل الشعوب الأخرى خدم لهم (نظرية نقاء النوع).

٩ - الاستعانة بالثورات والانقلابات لتحقيق أطماعهم.

١٠ - يرون إقامة الحكم على أساس التخويف والعنف.

١١ - تسخير الحرية السياسية من أجل السيطرة على الجماهير.

١٢ - انتهاء سلطة الدين، وظهور سلطة الذهب (المال).

١٣ - السياسة نقيض الأخلاق، ولا بد فيها من المكر والرياء، أما الفضائل والصدق فهي رذائل في عرف السياسة؛ لذلك يغرقون غيرهم في الرذائل.

١٤ - بث الرعب في معارضي مؤامراتهم على العالم.

١٥ - استخدام الشعارات الجوفاء الخداعة (الحرية والمساواة والإخاء).

١٦ - السيطرة على المال والعلم.

١٧ - السيطرة على الصحافة والثقافة والنشر لتوجيه العالم من خلالها.

١٨ - توسيع الشقة بين الحكام والشعوب؛ لكي يلجأ إليهم الحكام للدفاع عنهم ضد ثورات شعوبهم.

١٩ - جعل السلطة هدفاً مقدساً لكل القوى المتصارعة.

٢٠ - تشكيل أندية وروابط سرية كالماسونية وأذرعها الهدامة (روتاري وليونز..إلخ).

٢١ - إقامة مجتمعات منحلة مجردة من الإنسانية والأخلاق ناقمة على الدين.

٢٢ - إشاعة المتناقضات وإلهاب الشهوات وتأجيج العواطف.

٢٣ - تفكيك الأسرة، ونفخ روح الذاتية في كل فرد ليتمرد، والحيلولة دون وصول ذوي الامتياز إلى الرُّتَب العالية[2].

ثانياً: البرامج والشعارات:

تمثل البرامج ما يسعى الفرد أو الجماعة لتحقيقه، أما الشعارات فقد تكون كلمات نظرية لغايات معينة (غسيل مخ، خداع، حرب نفسية).

ومن النظرة السريعة للقوميتين العربية واليهودية نلاحظ أن القومية العربية سعت لتحقيق أهداف وأعلنت عن برامج - حققت الكثير منها - ولكن كل ذلك في الاتجاه المعاكس للإسلام، مع ملاحظة أن بعض الأسس قد استُخدمت برامج وشعارات، وكذلك بروز الشعارات الناصرية القومية (الشيوعية)، التي ما زالت تداعياتها إلى الآن، وقد استحوذت على جانب كبير من الدعاية المكثفة، أما القومية اليهودية فقد حققت الكثير من

---

(١) يهوه: هو اسم الإله عندهم.

(٢) الموسوعة الميسرة، مرجع سابق، ص ٣٣٢ - ٣٣٧، وذلك نقلاً عن كتاب بروتوكولات «حكماء» صهيون وغيره، ويعمل اليهود - دائمًا - على زرع الشك من نسبة تلك البروتوكولات إليهم، فمنهم مَن يؤكدها، ومنهم من ينفيها، ولكن الواقع يؤكدها.



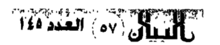
برامجها وأهدافها، وما شعاراتها إلا لخدمة الأهداف اليهودية، وليست للاستهلاك المحلي، كما يقولون، ومن هذه الشعارات:

١ - شعارات القومية العربية:

- الفكر القومي يعلو على الرابطة الدينية.
- الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج.
- القضاء على الرجعية.
- الدين لله والوطن للجميع.
- الحرية والاشتراكية والوحدة.
- القضاء على الاستعمار وأعوانه.
- إقامة جيش وطني قوي.
- معركتنا مع اليهود معركة عسكرية وضد ما يسمونه بالاستعمار، ولا علاقة لها بالدين.
- إزالة آثار العدوان الصهيوني على فلسطين ومصر وسورية والأردن.
- حتمية الحل الاشتراكي.
- تحالف قوى الشعب العاملة.
- حرية المرأة.

٢ - شعارات القومية اليهودية:

- العودة إلى أرض الميعاد (فلسطين).
- فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.
- الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر.
- ضرب أي قوى عسكرية تمثل تهديداً - ولو بعيداً - لكِيَانهم المغتصِب.
- العناية باليهودي في كل مكان.
- السيطرة على مراكز اتخاذ القرارات في العالم؛ لخدمة أهدافهم.
- إقامة صناعة حربية متقدمة بإدخال السلاح النووي في الصراع مع العرب.
- تحسين صورة اليهود أمام العالم وتكثيف الدعاية ضد العرب المتوحشين الأشرار.
- إقامة الدعايات ضد النازية للزعم بأنها قتلت ستة ملايين يهودي في أفران الغاز (المحرقة أو الهولوكُست) أثناء حكم هتلر، والمطالبة بالتعويضات الباهظة الدائمة من ألمانيا، وكل مَن اعتدى عليهم، كما يزعمون.
- البراءة من الصلب - المزعوم - للمسيح - عليه السلام - لتخفيف كراهية النصارى لهم، ولتجميع القوى ضد المسلمين.
- أن اليهود هم شعب الله المختار، وكل الشعوب الأخرى خدم لهم (نظرية نقاء النوع).
- مَن يعاديهم أو يحاربهم فهو معادٍ للسامية، ويجب محاسبته، أو قتله.
- الأخلاق قيد لا معنى له.



ثالثاً: حصاد كل قومية:

إن الحصاد الذي جنته أمتنا من القومية العربية هو حصاد الهشيم، حصاد الدمار، حصاد السراب، حصاد التبعية والذل.

أما القومية اليهودية فقد أقامت لها دولة العلو والفساد، وسيدمرها الله، يقول - تعالى - : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ [الإسراء: ٥].

١- حصاد القومية العربية:

- نشر الأفكار الإلحادية المناقضة للدين.
- تفرق الدول العربية، بل الحرب الشديدة بين الدول التي أسسها الأفراد أنفسهم (العراق وسورية).
- ولاء للكافرين وبراء من المسلمين ومحاربتهم وقتلهم.
- إعلاء شأن اليهود والنصارى.
- عزل الإسلام عن المعركة، بل محاربة آهله.
- الكبت والشيوعية والانفصال بين الدول المتحدة ظاهرياً وإجبارياً (مصر وسورية).
- تمكين الأعداء من بلاد المسلمين.
- الهزيمة الساحقة لقوة مصر في عام ١٩٦٧م.
- احتلال سيناء والضفة الغربية (القدس) والجولان.
- الاستسلام للمخططات اليهودية.
- انتشار الأحقاد والعداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع والدول أيضاً بسبب السياسات الشيوعية التي تحرض وتثير طبقات المجتمع بعضها ضد بعض.
- انتشار الرذيلة والدعارة بعد خروج النساء للعمل، وشعور المرأة بالقهر وانتهاك كرامتها في الخارج.

٢ - حصاد القومية اليهودية:

- احتلال فلسطين.
- إقامة الجيش الإسرائيلي الذي استطاع إنهاك الجيوش العربية مراراً؛ بسبب ضعف العرب لبعدهم عن الإسلام وإبعادهم له عن المعركة.
- تدمير المفاعل النووي العراقي، وتهديد باكستان بضربها، وتحريض الهند الهندوسية عليها؛ لإنهاك قوتها وإضعافها.
- السيطرة على مراكز اتخاذ القرارات في العالم؛ لخدمة أهدافهم.
- إقامة صناعة حربية متقدمة بإدخال السلاح النووي في الصراع مع العرب.
- تحسين صورة اليهود أمام العالم وتكثيف الدعاية ضد العرب المتوحشين الأشرار.
- الحصول على التعويضات الباهظة الدائمة من ألمانيا، وكل مَن اعتدى عليهم، كما يزعمون، ومحاربة من يشكُّون فيه (الرئيس النمساوي والأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم - والمفكر الفرنسي رجاء غارودي)، بل قتل واعتقال مَن يشكون فيه.

- الحصول على براءة من الصلب المزعوم للمسيح - عليه السلام - من الفاتيكان، وهي كبرى هيئات التنصير الكاثوليكي في العالم.

- بث الرعب في معارضي مؤامراتهم على العالم.

- سيطرة أندية وروابط سرية كالماسونية وأذرعها الهدامة (روتاري وليونز..الخ).

وما ذلك الحصاد المُرّ إلا لأن المسلمين قد تناسوا أن «للأمة الإسلامية أربعة أبعاد لا ينفصل أحدها عن الآخر:

بُعد عقدي: وهو الأصل والمعيار؛ فكل المسلمين أمة واحدة.

بعد إقليمي: فكل الأرض التي سرت عليها أحكام الإسلام يوماً مَّا هي أرض الأمة الإسلامية، وعلى المسلمين أن يعيدوا ما سُلب منهم، وإلا أثموا جميعاً حتى تعود.

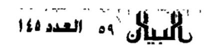
بعد شخصي: فكل مَن دخل الإسلام - أياً كان مكانه على أرض الله - صار من أبناء الأمة الإسلامية، دون نظر لجنس أو عرق أو لون، ودون نظر لعقيدته السابقة على دخوله الإسلام، أو موطنه السابق.

بعد تاريخي: يفيد استمرارية وجود هذه الأمة - دون انقطاع - في كل عصور التاريخ البشري، يقول الحق - جل شأنه -: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [الشورى: ١٣].

ويصف الله - تعالى - الأنبياء ومن اتبعهم من لدن نوح - عليه السلام - حتى بُعث محمد خاتم الأنبياء والمرسلين - عليه الصلاة والسلام - بوصف الأمة الواحدة، فيقول: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٩٢][1].

من أجل ذلك شاء الله - جلت قدرته - أن يعود الكثير من أبناء الأمة إلى دينهم، ويبدؤوا المسيرة المباركة من جديد؛ لكي يسودوا العالم بحكم الإسلام ورحمته وعدله ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾.
[الروم: ٤ - ٦]

(١) كيف نفكر استراتيجيًا؟ اللواء ـ أركان حرب ـ الدكتور فوزي محمد طايل، مركز الإعلام العربي، الهرم، مصر، عام ١٤١٨هـ، ص ١٣٤ - ١٣٥.





العلو الكبير (١-٢)

من خيمة الذل... إلى حصن الجبروت

دور القوى الكبرى في التمكين لليهود

عبد العزيز كامل

قضى الله - تعالى - قضاءاً لا مرد له، بأن تظل أمة اليهود في ذلة مقيمة بعد أن حلَّت عليهم لعنة الله - تعالى - بسبب كفرهم وتكرار جرائمهم مع الأنبياء والمصلحين، وتأكد هذا بعد بعثة رسول الله ﷺ، ولكن هذه الذلة المقيمة معهم والمضروبة عليهم كالخيمة حيثما حلُّوا أُخضعت لاستثناءين أو حالتين ترفع فيهما:

الحالة الأولى: أن يدخلوا في الإسلام فيستمدوا منه العزة المكتوبة لله ولرسوله وللمؤمنين.

الحالة الثانية: أن تشملهم مظلة قوة من قوى الشر من البشر الذين يستغلونهم أو يستعملونهم لأجل أغراض ومصالح مشتركة؛ وهذا ما قرره القرآن العظيم في وضوح جليٍّ تام، في قوله - عز وجل - : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

والمتأمل في تاريخ بني «إسرائيل» كله بعد عصور الاصطفاء يجد أن تلك الأمة اليهودية لم تخرج عن هذا القضاء الإلهي قيد شعرة؛ فطوال عهود تمكين الإسلام لم يحظ يهودي بعزة وأمان إلا بدخوله بصدق في الإسلام وانضمامه إلى ركب المؤمنين، أو بخضوعه لحكم المسلمين والنزول تحت حمايتهم، وهذا ما كان طيلة التاريخ الإسلامي، وخاصة خلال فترة وجود اليهود في الأندلس، ثم في تركيا؛ حيث لم يجدوا الأمان إلا في كنف المسلمين. أما في عصور ضعف المسلمين، وخاصة في العصر الحديث فقد انتقل اليهود إلى الاحتماء بقوى الطغيان الكبرى التي كانت تسمى بقوى الاستعمار.

وقبل إبراز هذه الحقيقة من خلال استعراض دور القوى الكبرى في إيجاد كيان اليهود ودعمه وتثبيته، تجدر بنا الإشارة إلى حقيقة أخرى مهمة، وهي أن هناك قضاءاً إلهياً آخر يخص المسلمين في هذا الشأن، وهو

أن الأصل فيهم أن يكونوا أعزة، فكما ضربت الذلة علي اليهود فقد كتبت العزة للمؤمنين، ونص القرآن واضح في هذا. قال - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] والمقصود هنا الرسل وأتباعهم الناصرون لدينهم، كما قال - سبحانه - : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. فعزة المؤمنين والمسلمين هي الأصل، ولكن قد يعرض استثناء من الذلة إذا تخلفت موجبات العزة، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، ورضيتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم»[١].

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام؛ فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»[٢]، وصدق الفاروق، فقد جرب العرب الاعتزاز بالقوميات والوطنيات وغيرها من الرايات، فما زادتهم إلا ذلة وخبالاً.

ونعود إلى الكلام عن ذلة اليهود؛ فقد شاء الله - سبحانه - أن يشهد عصرنا علواً آخر كبيراً لهم، والعلو بالباطل ليس عزة في الحقيقة بل هو بغي وطغيان وتجبر، ومع ذلك فإن هذا العلو، لم يرتفع اليهود إليه إلا فوق رافعات من قوىً أخرى غير يهودية كان لها الأثر الأكبر في ظهورهم وفجورهم.

إن الوقائع المعاصرة تصدِّق هذه السُّنَّة الإلهية التي نطق بها القرآن بشأن اليهود، كما تصدق في أحوال المسلمين. ولكن الذي يعنينا في هذا المقال هو حال اليهود من حيث خروجهم من دائرة الذلة: كيف خرجوا؟ وبم خرجوا؟ وعلى يد مَنْ خرجوا؟ إن الجواب على ذلك كفيل بأن يكشف لنا ملامح المصير الذي سيؤول إليه صراعنا معهم، وقمين بأن يبين مزيداً من معالم سبيل المجرمين في الكيد لهذا الدين.

فرنسا الاستعمارية، والتجربة الأولى:

سبقت فرنسا إنجلترا في الاهتمام بشأن اليهود، ولفتت أنظارهم إلى إمكانية العودة إلى الأرض المقدسة في فلسطين قبل مئتي عام، في ظل بوادر ضعف إسلامي متزايد؛ فقد أطلق نابليون بونابرت دعوته لليهود بالهجرة إلى فلسطين في إبريل من عام ١٧٩٩م للميلاد، وعرض تعاون الحركة الاستعمارية الفرنسية معهم، لتمكينهم من السيطرة على أرض بيت المقدس؛ ولهذا فإنه بعد أن غزا مصر عمد إلى غزو الشام، وخاض معارك كبيرة هناك، إلا أنها انتهت بهزيمته في عكا في معركة أبي قير، مما أجهض مشروعه الإجرامي لتمكين اليهود في فلسطين في ذلك الوقت المبكر الذي سبق ميلاد الحركة الصهيونية المعاصرة بنحو مئة عام؛ ولكن فرنسا ظلت محتفظة بالتزامها بالتعاون مع اليهود بصور تظهر تارة وتختفي تارة، وكان من أبرز صور التعاون معهم بعد إقامة دولتهم المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، والأظهر من ذلك تمكين دولة اليهود من تصنيع القنبلة النووية بتعاون فرنسي إسرائيلي وثيق منذ نهاية الخمسينات.

بريطانيا تشد الحبال الأولى:

جدلت بريطانيا لليهود حبل الخروج، فكانت أول (حبل من الناس) لنصرتهم وانتشالهم من ذلتهم في القرون الأخيرة، وقد استفادت من إخفاقات نابليون في تحقيق هذا الغرض، وسارت في خطوات حثيثة

---

(١) رواه أبو داود، ح/٣٠٠٢، وأحمد، ح/٤٧٦٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ك. الإيمان، ١/٦٢، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وخبيئة لإنجاح المشروع الذي لم تفلح فيه فرنسا. وقد تكلل هذا المسعى المشؤوم بالنجاح - بكل أسف - في نهاية المطاف، ووُلدت دولة اليهود على يد القابلة البريطانية بعد نحو مئة عام أخرى من موعد بدئه؛ فالمشروع الإنجليزي لتمكين اليهود في فلسطين بدأ عام ١٨٤٠م، وأثمر قيام الدولة عام ١٩٤٨م؛ فكيف كان ذلك؟

لقد بدأت بريطانيا مشروعها بتصدير رجال دين نصارى لهذه المهمة؛ حيث رأت أن رجال السياسة لن يصلحوا لمرحلة البداية التي تحتاج إلى تحفيز روحيٍّ وعقديٍّ، ولهذا فإن أول من أذنت له بريطانيا ببذل مساعيه لإحياء المشاعر الدينية عند اليهود بخصوص العودة لفلسطين هو القس (وليام هشلر) الذي تحرك في دول أوروبا من أجل الإقناع بهذا الهدف.

وبينما كان القس يهيئ الأجواء لقبول المشروع البريطاني، كان الساسة يرتبون للتحرك على محاور أخرى لاستثمار نتائج مساعيه أولاً بأول، وأصبحت بريطانيا تنادي علناً بحماية حقوق الأقليات الدينية في العالم، ولم يكن يهمها في الحقيقة من هذه الأقليات سوى الأقليات اليهودية لجمع شتاتها المبعثر في العالم، وحشْره في بيت المقدس.

وعندما آتت هذه المساعي شيئاً من أكلها بانتعاش الأقلية اليهودية في فلسطين انتقلت بريطانيا في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر إلى جلب يهود آخرين إلى أرض فلسطين من خارجها، واستغلت خبرتها العريقة في اغتصاب الشعوب باسم (الاستعمار) لتضعها تحت تصرف اليهود باسم (الاستيطان)، أي تحويل أرض الغير إلى وطن.

وقد أرادت بريطانيا بذلك المسعى أن تضرب عصفورين بحجر واحد؛ فهي من ناحية تحقق ذلك الهدف المشبوه من مشروع تمكين اليهود في بيت المقدس بعد تيه قارب الألفي عام، ومن ناحية أخرى، تضع خنجراً في خاصرة العالم الإسلامي، لتكرس حالة الوهن التي وصل إليها بعد ضعف الدولة العثمانية، وذلك حتى لا يقوم لهذا العالم كيان عالمي يحاول النهوض من جديد. وقد جعل وزير خارجية بريطانيا (اللورد بالمرستون) مهمته الأولى هي السير قدماً في وضع السياسات الكفيلة بتحقيق هذين الهدفين.

ولكن برامج (بالمرستون) ظلت مجمَّدة حتى انتهت الحرب العالمية الأولى التي نتج عنها هزيمة الدولة العثمانية؛ حيث استغل الإنجليز نتائجها وسارعوا إلى اغتنام فرصة الفراغ والبلبلة الناشئة عنها، ونادوا بضرورة فرض الحماية البريطانية على فلسطين، ولم تكن هذه الخطوة إلا تطبيقاً لأفكار بالمرستون للإمعان في تهيئة الأوضاع في فلسطين للتمكين لليهود فيها بالتنسيق مع فعاليات الحركة الصهيونية العالمية التي كانت قد بلغت في ذلك الوقت مرحلة من النضج التنظيمي الذي يؤهلها للقيام بدور فاعل في هذه التطورات المصيرية في المنطقة.

وهنا نقف وقفة مع (خيمة الذل) المضروبة على اليهود، فنتساءل: هل كان بإمكان تنظيمات الحركة الصهيونية وحدها أن تقفز هذه القفزة، لولا (الحبل) الإنجليزي، الذي أُلقي إليها لتتسلق عليه إلى الأرض المقدسة؟!

لقد شهدت البدايات الأولى للقرن التاسع عشر تلاقياً ظاهراً بين أهداف الحركة اليهودية العالمية وأهداف بريطانيا زعيمة العالم النصراني في ذلك الوقت؛ وكأن أحقاد التاريخ كله قد اجتمعت على موعد لتصفية حسابات قرون مضت لليهود والنصارى مع الإسلام في عقر داره.

لقد توَّجت بريطانيا هذا التلاقي بإصدار حكومتها وعداً رسمياً لليهود بإقامة (وطن) - لا مستوطنات - ولم يكن هذا الوعد الصادر في نوفمبر عام ١٩١٧م مجرد وعود تشجيعية، وإنما كان بمثابة حكم قضائي،

سخرت لتطبيقه القوى المتنفذة في ذلك الوقت، فوعد (بلفور) كان يعني بتعبير آخر، تعهد بريطانيا بتحويل فلسطين إلى وطن لليهود، ولم يكن هذا التعهد قابلاً للتنفيذ عن بُعد، ولهذا أقدمت بريطانيا على احتلال القدس بعد صدور الوعد بشهر واحد.

وهكذا، وبعد عشرين عاماً من اجتماع قادة الصهيونية في (بال) بسويسرا فتحت لهم بريطانيا مصاريع أبواب فلسطين لكي يلج منها مشروعهم التآمري ضد المسلمين، بل ضد البشرية جمعاء.

لقد سعى اليهود بعد ذلك من خلال منظماتهم النشطة سياسياً إلى تحويل وعد بلفور إلى النطاق الدولي الواسع بدلاً من النطاق البريطاني الضيق، وذلك بعد أن عرضت الحركة الصهيونية مشكلتها على مؤتمر السلام الدولي المنعقد في باريس - ١٩١٩م حيث أوجد هذا المؤتمر الأرضية المناسبة لقرار الحلفاء بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ومع تحول القضية إلى الصفة الدولية حرصت بريطانيا على الاحتفاظ بدورها الخاص في إكمال مسعاها المشؤوم إلى نهايته؛ فإثر تسلمها مهمة الانتداب عينت صهيونياً هو (هربرت صموئيل) مندوباً سامياً أول لبريطانيا في فلسطين، وبوصفه يهودياً وبريطانياً فقد قام بما أُسند إليه بدقة وإخلاص، ولم يضيِّع فرصة يمكن أن يستفيد منها اليهود.

كانت فترة الانتداب (١٩١٧ - ١٩٤٧م) كافية لتوفير المعطيات اللازمة وإعطاء المسوغات الكافية للإعلان عن بلوغ الحركة اليهودية مرحلة التأهل الكامل لإعلان الدولة، فعبر سياسات اغتصاب الأراضي وطرد أهلها أو التحايل لشراء الأراضي منهم أو سن القوانين لنزع ملكيتها، تم تدبير العنصر الأول من عناصر الدولة وهو (الأرض).

وعن طريق تدبير الهجرة لليهود والتهجير للعرب، تم طبخ العنصر الثاني من عناصر الدولة وهو (الشعب)، وأصبحت أرض فلسطين مهيأة لتطبيق العنصر الثالث من مقومات الدولة وهو (السيادة) وهو ما تم بإعلان الدولة فعلياً عام ١٩٤٨م، بعد ثلاثين عاماً من العمل المتواصل والمتكامل بين يهود العالم ونصارى بريطانيا تحت مظلة الانتداب الدولية.

وبميلاد دولة اليهود بدأت الإمبراطورية البريطانية في العالم تنحسر، وكأن عمرها قد مُد فيه لتكون محلاً لسخط الله والناس بإنجاز هذا المشروع المعادي للإنسانية (إسرائيل). فقد أنهت وجودها في القارة الهندية في العام نفسه، ثم سحبت جيوشها بعد ذلك من البلاد العربية التي كانت تحتلها.

لقد سلَّمت بريطانيا الشجرة الصغيرة التي زرعتها إلى من يرعاها وينميها حتى تستوي على عودها، وتزاول مهمة إنتاج الثمرات الخبيثة.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي الحاضنة الجديدة، حيث رعت دولة اليهود وثبتتها في مراحلها المختلفة حتى بلغت الرشد، وشبت عن الطوق، بل وخرجت عن السيطرة، ولهذا فقد كانت (الحبل) الثاني من حبال الناس التي خرج بها اليهود من الذلة إلى حين.

ولكن الحبل الأمريكي كان أشد وثاقاً، وأحكم صنعة، حتى إنه جرَّ اليهود جراً إلى مقدمة قوى الطغيان الدولي؛ ولكن قبل أن نبدأ في تفصيل ذلك لا بد من وقفة مع (الأداة) التي استعان بها البريطان ومن بعدهم الأمريكان في بناء الحصون التي احتمى بها اليهود طيلة سنوات الصراع الماضية، إنها (الأمم المتحدة) فإلى جانب وضع الولايات المتحدة كل إمكاناتها تحت خدمة العلو اليهودي، فقد استغلت الأممَ المتحدةَ ـ المنظمة

الدولية ـ في القيام بدور آخر، لم تستطع الولايات المتحدة نفسها، ولا بريطانيا القيام به، وهو دور إسباغ (الشرعية الدولية) على الوجود والسيطرة اليهودية في بلاد المسلمين، ولهذا فلا بد لنا من وقفات مع هذا الدور الذي قامت به وتقوم به تلك المنظمة في تمكين اليهود في منطقتنا الإسلامية؛ بحيث أصبحت هي الأخرى حبلاً آخر مساعداً للخروج اليهودي الاستثنائي من خيمة الذل الأبدي، وإن بدا للناس خلاف ذلك.

الأمم المتحدة.. وإرادة الكبار:

لا توجد إرادة مستقلة باسم (الأمم المتحدة) ولكن هذه المنظمة الدولية منذ نشأت لا تعكس إلا إرادة القوى العالمية المتنفذة في تحديد العلاقات الدولية، وإن كان لها سلطة فإنها موجهة من تلك القوى وليست نابعة من نظمها أو ميثاقها، ولذلك فإنه فيما يتعلق بقضية فلسطين جرى فرض إرادة الدول الكبرى على معالجة الأمم المتحدة لها، ولم تكن هذه المعالجة سوى تثبيت للخطط المسبقة والمتفق عليها من تلك الدول؛ فقبل أن يتم إعلان قيام دولة اليهود مهدت الأمم المتحدة لقيامها بصدور قرار الجمعية العامة التابعة لها في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م برقم ١٨١، وهو القرار الذي أوصى بتقسيم فلسطين بين اليهود وعرب فلسطين بنسبة ٥١ ٪ إلى ٤٩ ٪. ولم يضيِّع اليهود الفرصة، فراحوا يتسابقون لاستكمال اللمسات الأخيرة للدولة التي قررتها لهم (الشرعية الدولية) في الأرض التي اغتصبوها بالاحتيال والإرهاب.

وقرار التقسيم هذا هو الذي رفضته الدول العربية وقت صدوره، وهو نفسه الذي يمثل الآن أقصى ما يحلمون بتحقيقه لإعلان الدولة الفلسطينية بعد أن اجتاح اليهود في حروب تالية بقية فلسطين التي تسمى حتى الآن (الأراضي المحتلة)!

وقد أعلنت الأمم المتحدة قبول دولة «إسرائيل» عضواً فيها بعد عام من إعلان ميثاقها، ولم يكن هناك بالطبع وجود لدولة أخرى على الشطر الثاني من فلسطين، فتعاملت الأمم المتحدة مع قضية الشعب الفلسطيني على أنها مجرد قضية (لاجئين) واكتفت بتشكيل وكالة إغاثة دولية لهم، وظلت القضية تعامل داخل أروقة الأمم المتحدة على هذا الأساس مدة عشرين عاماً في ظل إصرار إسرائيلي على عدم عودة أي لاجئ إلى أرضه، وظل الأمر على ذلك حتى حدثت حرب «النكسة» ١٩٦٧م، فأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة[1] عدة قرارات تؤكد فيها حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، ومن ذلك ما صدر في ١٠/١٢/١٩٦٩م، حيث وصف القرار حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بأنه غير قابل للتصرف.

وعندما أعلن المجلس الوطني الفلسطيني قيام دولة فلسطين في نوفمبر ١٩٨٨م مستثمراً نتائج انتفاضة الحجارة، اعترفت الجمعية العامة بهذا القرار، ولكن مجلس الأمن الذي يفترض أنه جهة تنفيذية ظل متعاجزاً عن اتخاذ أي موقف عملي لتنفيذ قراراته فضلاً عن قرارات الجمعية العامة بما في ذلك القرار ٢٤٢ الداعي إلى انسحاب «إسرائيل» من الأراضي التي احتلتها في عام ١٩٦٧م، واكتفى هذا المجلس بإصدار قرارات الإدانة والشجب لممارسات الدولة اليهودية المتصادمة مع القرارات والمواثيق الدولية، تلك القرارات التي اتخذ الكيان اليهودي منها موقفاً واحداً لا يتغير ولا يتبدل وهو: التعالي والازدراء، أو على الأقل التجاهل وعدم المبالاة؛ ففي

---

(١) الجمعية العامة للأمم المتحدة تمثل مجموع أعضاء المنظمة الدولية، أما مجلس الأمن، فتتحكم فيه فقط الدول التي تتمتع بنقض الفيتو، ولا تملك الجمعية العامة إلزام مجلس الأمن بشيء من قراراتها.

تحدٍّ ظاهر تجاهلت «إسرائيل» نحو خمسة وأربعين قراراً دولياً بالإدانة أو الشجب أو الاستنكار، بين أعوام ١٩٥٣م إلى ١٩٩٥م، واستخفت وسخرت من نحو خمسة وثلاثين مطلباً دولياً ومناشدة في تلك المدة.

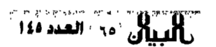
وسأضرب مثالاً بقضية واحدة ضمن قضايا عديدة صدرت بشأنها القرارات الدولية وهي قضية القدس؛ فقد صدرت بشأنها قرارات متعددة لم تنفذ «إسرائيل» واحداً منها؛ ففي عام ١٩٥٨م صدر القرار (١٢٧) يطالب «إسرائيل» بأن توقف فوراً اعتبار القدس منطقة نفوذ إسرائيلية، ولكنها لم تذعن، وفي عام ١٩٦٨م صدر القرار ٢٥٠ يدعوها إلى عدم إقامة عروض عسكرية فيها، فلم ترعوِ، وصدر بعد ذلك مباشرة قرار بالإدانة لرفضها الإذعان فلم تأبه به، وفي القرار ٢٥٢/ ١٩٦٨م، طالبت المنظمة الدولية «إسرائيل» بالعدول عن قرار اتخاذ القدس عاصمة موحدة لها، فرفضت القرار، ثم صدر القرار ٢٦٧ لعام ١٩٦٩م يطالبها بإيقاف عمليات تغيير معالم القدس، فلم تُلقِ دولة اليهود له بالاً، ثم أتبعته المنظمة الدولية بقرار آخر برقم (٢٧١/ ١٩٦٩م) يدين عدم الإذعان، ويكرر المطالبة بإيقاف تهويد القدس، ولكنها لم تلتفت إليه أيضاً، وبعد ذلك بعامين صدر القرار (٢٩٨/ ١٩٧١م) يكرر الإدانة والمطالبة بشأن قضية القدس، ولكنه لحق بما سبق من التجاهل الذي استمر طيلة عقد السبعينيات وجاء عقد الثمانينيات، فصدر القرار (٤٧٦/١٩٨٠م) مطالباً حكومة اليهود بإلغاء خطواتها المتخذة بشأن تهويد القدس بعد أن اعتبرتها الأمم المتحدة لاغية، ولكن أحداً من المسؤولين الإسرائيليين لم يُصْغِ لهذا القرار، بل ردت عليه «إسرائيل» بأن أعلنت في قانونها الأساس أن القدس عاصمة موحدة وأبدية لدولة «إسرائيل» مما جعل الأمم المتحدة تصدر قراراً آخر هو القرار (٤٧٨) لعام ١٩٨٠م، تستنكر فيه بشدة عناد «إسرائيل» في تنفيذ القرارات الدولية السابقة كلها!

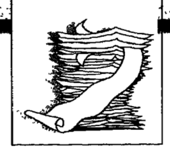
وتتكرر القضية طيلة عقد الثمانينيات والتسعينيات، بشكل يصور المنظمة العالمية بصورة هزلية وهزيلة؛ إذ إنها تطالب العالم كله باحترام (الشرعية الدولية) والخضوع لقراراتها، وتسارع لفرض ذلك.

العقوبات وضرب الحصار، وحشد القوى الدولية ضد كل من يخرج عن شرعيتها، باستثناء دولة واحدة، لم يصدر بشأنها إجراء عملي واحد لردعها هي دولة «إسرائيل»، ويحدث هذا كله تحت سمع وبصر الدول الكبرى التي ما كان لدولة اليهود أن تتصرف على هذا النحو إلا بإغماض منها في الظاهر وتشجيع في الباطن.

ولهذا كله؛ فإن من البلاهة والبلادة، بل من الحمق والغباء أن يُظن أن الذين صنعوا لليهود دولة في عقر ديارنا، ومكنوهم من التفوق على مجموع قوتنا وجيوشنا يمكن لهم في يوم من الأيام أن يقفوا معنا ضدهم أو يمكنونا من صدهم أو إضعافهم، هيهات هيهات؛ فالله - تعالى - يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، والعجيب أن كثيراً من العرب يتصورون أنه لا حل للأزمة مع اليهود إلا بكسب صداقة «أصدقاء اليهود» والمراهنة على (الضغوط) التي تمارسها ضدهم الدول الكبرى والمنظمات الدولية، وهذا وهم آخر، فالله - تعالى - يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

فاللهم ائت بالفتح أو أمرٍ من عندك... حتى تمكن للمؤمنين وتوهن كيد الكافرين.. آمين.





اللاجئون بين العودة والتوطين

د. يوسف الصغير

لا شك أن عملية زرع دولة لليهود في فلسطين كانت معدَّةً ومرتبة بإتقان؛ فقد تتابعت الأحداث من وعد بلفور إلى فرض الانتداب الإنجليزي على فلسطين الذي كان هدفه تهيئة الأوضاع لقيام وطن لليهود؛ ولهذا فقد صرح وزير المستعمرات البريطاني عام ١٩٢١م، «ونستون تشرشل» وهو من الصهاينة غير اليهود: أنه إذا صار اليهود أغلبية في البلاد في غضون عدة أعوام فمن الطبيعي أن يتسلموا الحكم فيها، ومع ذلك فإنه في عام ١٩٤٧م كان اليهود يؤلفون أقل من ثلث عدد السكان و ٩٠٪ منهم من المهاجرين ولم يكتسب الجنسية الفلسطينية إلا ثلث هؤلاء المهاجرين.

وكان الضغط الأمريكي على أعضاء هيئة الأمم المتحدة عاملاً حاسماً في تمرير قرار التقسيم عام ١٩٤٧م الذي أعطى اليهود غالبية المناطق الخصبة والمنتجة، ولم يحدث في مكان آخر غير فلسطين أن يسمح لمهاجرين أجانب أن يدمروا السلامة الإقليمية للبلاد التي وفدوا إليها لكي يعيشوا فيها. ومن الملاحظ أن قرار التقسيم أقام دولة لليهود في أراضي أغلب سكانها من العرب؛ فقد كانت دولة اليهود المقترحة تضم سكاناً مجموع عددهم في ذلك الوقت ١,٨٨٠٠٠٠ منهم ٥٠٩,٧٨٠ من العرب؛ و ٤٩٩,٠٢٠ من اليهود.

وقد خصص التقسيم أحسن أراضي فلسطين وأكثرها خصوبة للدولة اليهودية ٥٦٪ من أراضي فلسطين، وقد ارتفعت النسبة إلى أكثر من ٧٠٪ بعد حرب ١٩٤٨م مما ضاعف مشكلة التوازن السكاني بين الفلسطينيين واليهود. وقد اعتمد اليهود في حل هذه المشكلة على أسلوبين:

الأول: تصفية الوجود الفلسطيني:

يقول الوسيط الدولي الكونت برنادوت في تقريره المنشور قبل اغتياله من قِبَلِ اليهود: إن نزوح عرب فلسطين جاء نتيجة للرعب الذي خلقه القتال الدائر في مجمعاتهم، وللشائعات المتعلقة بأعمال الإرهاب الحقيقية أو المزعومة أو بفعل الطرد «وإن كل السكان العرب تقريباً هربوا أو طردوا من المنطقة الواقعة تحت الاحتلال اليهودي»(١).

وقد استعمل اليهود أساليب متعددة لطرد الفلسطينيين منها:

---

(١) U.N. Prpgress Report, Spet. 16,1948 تقرير الأمم المتحدة ١٦ سبتمبر ١٩٤٨م.

١ - الإرهاب : مثل نسف المنازل، وإلقاء المتفجرات على تجمعات الناس، وتدمير القرى، والمجازر المخطط لها مثل مجزرة دير ياسين التي نفذتها منظمة أرجون بقيادة مناحيم بيجن الذي تبجح في أحد كتبه بقوله : «ما كانت إسرائيل لتقوم لولا النصر العسكري في دير ياسين»(١).

٢ - الطرد : لقد تم طرد الفلسطينيين من مدنهم وقراهم بالقوة وسيقوا إلى الدول العربية؛ كما حدث لأهالي مدن حيفا وطبريا واللد والرملة ويافا وعكا وسكان بئر السبع والجليل وغيرها.

٣ - الحرب النفسية : لقد شن اليهود حرباً عسكرية نفسية ضد الفلسطينيين وصفها الدكتور جون ديفيز الذي شغل منصب المفوض العام لوكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين وتشغيلهم مدة خمس سنوات بقوله : «إن مقدار الوحشية التي استخدمها الإسرائيليون في طرد أهل فلسطين باعتبارها جزءاً من خطة مدبرة متعمدة هو أمر لم يقدر حق قدره، وإن فكرة الصهيونية لإنشاء الدولة اليهودية قد دعت إلى طرد السكان العرب الأصليين من ديارهم. ثم وصف الأسلوب بقوله : «إنه تفاوت بين حرب نفسية دبرها خبراء وبين طرد بالقسوة وبلا رحمة».

وقد عمدتْ إدارة القسم العربي الخاص في الهاجاناه إلى إرسال يهود يتكلمون العربية ويرتدون الزي العربي لنشر الإشاعات. وقد استعمل اليهود سيارات جيب مزودة بمكبرات الصوت تدور في مناطق الفلسطينيين وتبث تسجيلات الرعب، وتضمنت التسجيلات الصراخ والعويل للنساء العربيات وللأطفال وزعيق صفارات الإنذار، وكان يقاطعها صوت بالعربية ينادي : «يا جميع المؤمنين أنقذوا أرواحكم وانجوا بحياتكم؛ اليهود يستعملون الغاز السام والأسلحة الذرية! أسرعوا إلى الفرار ناجين بأنفسكم» لقد كانت هذه الدعايات والوسائل الساذجة تؤثر كثيراً على البسطاء من أهل القرى مع دعاية أخرى توحي لهم بأن الهجرة مؤقتة وأنهم سيعودون مع الجيوش العربية القادمة لإبادة اليهود؛ ولهذا فكثير منهم خرجوا وهم يحملون مفاتيح منازلهم وما زال كثير منهم يحتفظ بها بعد أكثر من خمسين عاماً.

ونتيجة لسياسة التفريغ السابقة فقد هجرت مئات القرى وكثير من المدن وبدأ اليهود تنفيذ خطة لمصادرة هذه الأملاك وإعطائها لليهود ويعلق دافيد بن جوريون في مذكراته بتاريخ ١٩٤٨/٦/٥م بقوله : «يجب أن نعد العدة فوراً لاستيطان القرى الفلسطينية المهجورة بمعونة الصندوق القومي اليهودي».

ومن أجل تنفيذ هذه الخطة تم إصدار القوانين التي منها :

١ - قانون أملاك الغائبين لعام ١٩٥٠م وقد صدر هذا القانون لتوضع أملاك العرب تحت الحراسة ويحق للحارس بيع هذه الأملاك لقاء ثمن تحدده السلطات الرسمية.

٢ - قانون استملاك الأراضي لعام ١٩٥٢م و هو يعطي السلطات حق مصادرة الأراضي العربية بحجة استخدامها في أغراض التعمير والتنمية أو لأسباب أمنية.

٣ - قانون التصرف العام ١٩٥٣م وهو يشترط على صاحب الملك أن يتصرف بأملاكه تصرفاً فعلياً

---

(١) Begin, Menachem: The Revolt Story of the Irgun.

(٢) Davis, Jahn; The Evasive peace, PP, 57 - 60.

بشخصه هو مباشرة؛ والمقصود طبعاً إبطال حقوق الفلسطينيين الذين طردوا من ديارهم. ولوزير المالية وفق هذا القانون وضع اليد على هذه الأملاك والتصرف فيها.

٤ - قانون تقادم العهد ١٩٥٧م؛ ونص هذا القانون بأن المالك لأرضه لا يحق له الاحتفاظ بها إلا إذا قدم إثباتات تؤكد تصرفه بها طيلة ٢٥ عاماً وإلا أصبحت ملكاً لدولة «إسرائيل». والمقصود بالطبع إسقاط حقوق المطرودين؛ إذ كيف يتصرف في أرضه وهو ممنوع من العودة إليها؟

لقد بلغ عدد اللاجئين في ذلك الوقت ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ألف، منهم ١٢٠ ألف بقي في فلسطين ولكن بدون أراضي أو أملاك، وصنفوا من قِبَل الأمم المتحدة على أنهم لاجئون. أما البقية فقد وزعوا على عدة دول عربية، وبعضهم انتقل إلى أطراف بعيدة وقد انضم إلى اللاجئين آلاف مؤلفة أخرى بعد حرب ١٩٦٧م.

وعلى الجانب الآخر عمل اليهود بعد قيام دولتهم على تشجيع اليهود على القدوم، وفي مقابل القوانين السابقة في حق الفلسطينيين فقد سن اليهود قانون العودة الذي ينص على أن لكل يهودي الحق في المجيء إلى هذه الدولة، وأضيف قانون ينص على أن لكل يهودي الحق في الجنسية الإسرائيلية حتى لو لم يتخل عن جنسيته الأصلية.

واتسمت الهجرة بعد قيام الكيان الصهيوني بارتفاع كبير نتيجة نقل يهود الدول العربية. فمثلاً بلغت أعداد المهاجرين من ١٩٤٨م إلى ١٩٥٢م كما يلي:

- ١٩٤٨م: ١٠١,٨٣٧
- ١٩٤٩م: ٢٣٩,٩٥٤
- ١٩٥٠م: ١٦٩,٧٢٠
- ١٩٥١م: ١٧٤,٠١٤
- ١٩٥٢م: ١٣,٥٠٠

واستمر على هذا المعدل المنخفض حتى عام ١٩٥٥م ليرتفع من جديد نتيجة أحداث الجزائر والمجر، ثم عاد للانخفاض.

لقد نص قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨م في إحدى فقراته: «تقر الأمم المتحدة وجوب السماح بالعودة في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى ديارهم وعن كل مفقود، أو مصاب وفقاً لمبادئ القانون والإنصاف وأن يعوض عن ذلك الفقدان أو الضرر من قِبَل الحكومات أو السلطات المسؤولة».

يتلخص القرار في حق العودة لمن يشاء والتعويض لمن تتعذر عودته، وقد حاولت الولايات المتحدة في دورة خريف عام ١٩٩٣م حذفَ هذه الفقرة من صلب القرار.

لقد كان من الواضح أن أكبر عقبة في تصفية القضية الفلسطينية هو هذا العدد الكبير من اللاجئين؛ فقد عملت الولايات المتحدة منذ البداية على تصفية هذه المشكلة، وقد قال الرئيس الأمريكي ترومان في خطاب ألقاه عام ١٩٥١م: «ما لم يجد هذا العدد الضخم من المشردين بيوتاً جديدة وفرصاً اقتصادية فإنهم سيؤلفون قوة في استطاعتها أن تصبح هدامة في هذه البقعة من العالم ذات الأهمية الحيوية لنا».

وقد سارعت الأمم المتحدة بدلاً من الإصرار على عودة اللاجئين إلى إنشاء وكالة تسمى وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا» بتاريخ ١٩٤٨/١٢/٨م.

وحددت أعمالها بما يلي:

١ - إطعام المشردين وإغاثتهم.

٢ - إيجاد المشاريع الزراعية والصناعية المختلفة لتوطين اللاجئين في البلاد العربية، وإقامة مشاريع في سوريا ولبنان والأردن، وقد أخفق المشروع بسبب مقاومة اللاجئين لهذه المشروعات؛ لأنهم يعرفون أن معناها تصفية قضيتهم وإقفال أمل العودة نهائياً.

وتقوم الوكالة بتسهيل هجرة الشباب الفلسطيني إلى الولايات المتحدة وكندا وأوروبا واستراليا وتهيئة فرص العمل لهم بشرط أن يتنازلوا عن جنسيتهم الفلسطينية، وما تزال الولايات المتحدة تقوم بدفع نصف تكاليف الأونروا.

والآن وبعد حوالي ٥٠ عاماً على أول طرد جماعي للفلسطينيين فما هي خريطة توزيع اللاجئين؟ وما هي الحلول المطروحة؟

لقد بلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين حوالي خمسة ملايين نسمة. ويتوقع أن يصل العدد إلى ثمانية ملايين عام ٢٠٠٥م، ويتوزع اللاجئون الفلسطينيون بصورة تقريبية على البلدان الآتية[1]:

البلد	عدد اللاجئين المسجلين لدى الأونروا[2]	المجموع الكلي
الأردن	١,٤٣٧,٠٠٠	٢,٣٢٠,٠٠٠
سورية	٣٦١,٠٠٠	٤٤٥,٠٠٠
لبنان	٣٦٢,٠٠٠	٤٠٨,٠٠٠
الضفة الغربية	٥٥٠,٠٠٠	——
قطاع غزة	٧٦٠,٠٠٠	——
مصر	——	٤٠,٥٠٠
دول الخليج	——	٤١٥,٠٠٠
ليبيا	——	٧٥,٠٠٠
العراق	——	٧٥,٠٠٠
شمال وجنوب أمريكا	——	٤٠٠,٠٠٠
دول متفرقة	——	٢٢٠,٠٠٠
فلسطين المحتلة ١٩٤٨م	——	٢٠٠ ـ ٣٠٠ ألف لاجئ

(١) مقابلة مسؤول ملف اللاجئين في منظمة التحرير أسعد عبد الرحمن مع صحيفة الشرق الأوسط.

(٢) لا يشمل اللاجئين عام ١٩٦٧م أو الذين هاجروا لغير الدول التي تشملها خدمات الأونروا.

إن قضية العودة مطلب رئيس للاجئين تحملوا في سبيله البقاء في مخيمات تنعدم فيها الخدمات وتقل فيها فرص العمل؛ ويعيشون على فتات الأونروا التي تتعرض لمحاولات جادة لإلغائها ونقل مسؤولية خدماتها إلى الدول العربية المضيفة.

والذي لا شك فيه أن العودة لن تحصل إلا بتصفية الوجود اليهودي في فلسطين، ولن يعودوا إلا برفقة الجيوش الإسلامية المنصورة، وليس هذا على الله بعزيز. ولا ننسى في هذا المجال التذكير بحديث الرسول ﷺ حول قتال اليهود: «حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي تعالَ فاقتله»[1].

إن الإحداث والتحركات الحالية تصب في حل قضية اللاجئين بعدة طرق يمكن تطبيقها مجتمعة ومنها:

أولاً: السماح بعودة عدد محدود جداً إلى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، وستكون عودتهم إلى مناطق تجمع وليس إلى المناطق التي أُخرجوا منها، وقد تراجع العدد الذي صرح اليهود بإمكانية عودتهم من ١٠٠ ألف عام ١٩٤٨م إلى بضعة آلاف في الوقت الحاضر، وعندما تثمن الإدارة الأمريكية موافقة «إسرائيل» على لمِّ شمْل عدد محدود من اللاجئين مع حرصها على إلغاء حق العودة أو التعويض في قرار ١٩٤؛ فإنه يتبين أن حل المشكلة سيكون أساساً على حساب الدول العربية، وستكون مشاركة دولة اليهود رمزية.

٢ - توطين جزء من الفلسطينيين في مناطق الحكم الذاتي خاصة الضفة الغربية؛ حيث إن هناك أفكاراً في نقل بعض سكان غزة إلى الضفة لتخفيف الكثافة السكانية العالية جداً في غزة، وتقدر مصادر أمريكية إمكانية توطين حوالي ٧٥٠ ألف لاجئ أغلبهم من لبنان والأردن في مناطق السلطة.

٣ - تسوية أوضاع اللاجئين الفلسطينيين الذين لم يحصلوا على الجنسية الأردنية وذلك إما بالعودة إلى الضفة أو تجنيسهم، وهناك مفاوضات جادة في هذا المجال ويبدو أن أكبر عائق هو الاتفاق على الثمن النقدي لهذا الإجراء؛ حيث يشاع أن الأردن يطالب بمبلغ معين مقابل كل لاجئ يتم تجنيسه. وقد بدأ طرح عطاءات الأعمال الاستشارية لمشروع كلفته ٩٨٠ مليون دولار لتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة في المخيمات.

٤ - تنشط المشاورات السياسية مع سوريا في الوقت الحاضر من أجل تطبيع العلاقات مع اليهود وحل مشكلة اللاجئين. ولفرنسا دور كبير في هذا المجال لعلاقاتها المتميزة مع كل من سوريا ولبنان، وتشير مصادر أمريكية إلى إمكانية تجنيس الفلسطينيين المقيمين في سوريا بصورة جماعية.

٥ - تفترض الإدارة الأمريكية أن على دول الخليج ومصر والعراق ودول المغرب العربي إعطاء حق المواطنة للفلسطينيين المقيمين فيها والذين يقدر عددهم بحوالي ٩٦٥ ألف نسمة.

٦ - تقوم الولايات المتحدة ودول غربية أخرى بتوطين ٩٠٠ ألف فلسطيني.

٧ - تبقى قضية الفلسطينيين في لبنان حساسة جداً؛ حيث إنه في البداية في عام ١٩٤٨م، تم التعامل معهم بحذر؛ حيث تم تجنيس عدد كبير من النصارى، أما الأكثرية وهم السنَّة فقد تم توزيعهم على مختلف الأراضي اللبنانية مع عدم السماح لهم بالإقامة قرب الحدود.

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٥٢٠٠.



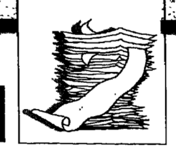
وفي استطلاعات حديثة تبين أن عموم الفلسطينيين في المخيمات يعارضون التوطين ويقاومونه، ولتصفية هذه المعارضة فقد بدأت السلطة الفلسطينية بالتنسيق مع «إسرائيل» بإحياء دور فتح في المخيمات؛ حيث بدأت في تجنيد المسلحين وفتح المكاتب تمهيداً لتصفية أي معارضة للحل النهائي؛ ويتوقع قيام حرب فلسطينية ـ فلسطينية جدية داخل المخيمات لإسدال الستار نهائياً على قضية اللاجئين في لبنان. إن الموقف من التوطين حساس لخصوصية لبنان بغض النظر عن الموقف من السلام مع «إسرائيل» وهذا الموقف يتلخص في الآتي:

- النصارى يعارضون التوطين بشدة؛ لأنه يخل بالتوازن على حسابهم؛ ولهذا فقد صرح الرئيس الهراوي لوفد كنديٍّ ناقش معه قضية التوطين أن من يريد الفلسطينيين فليأخذهم، وأن هناك ملايين من المهاجرين من أصل لبناني في البرازيل أحق بالجنسية. ويطرح في لبنان تجنيس الفلسطينيين مع تجنيس المهاجرين الذين يغلب فيهم النصارى، وذلك لحفظ التوازن.
- يرحب السنة عموماً بتجنيس الفلسطينين؛ لأنه يمثل سنداً لهم في التوزيع الطائفي.
- يعارض الشيعة التوطين؛ لأنه يخل بالتوازن مع السنة داخل المجتمع غير النصراني.
- لا يهتم الدروز بالتوطين بشرط أن يكون بعيداً عن مناطقهم.

وأخيراً: عندما تحل مشكلة العودة بتذويب اللاجئين يبقى موضوع التعويضات والأملاك الفلسطينية التي سيحرص اليهود على ابتلاعها وطي صفحتها، وقد حرصت «إسرائيل» عن طريق أمريكا على إلغاء بنود العودة والتعويضات من القرار ١٩٤، ولما أخفقوا بدأ الكلام عن حق عودة اليهود الذين خرجوا من الدول العربية وحقهم بالتعويض؛ حيث إن القرار ١٩٤ وأوسلو أيضاً ينصان على عودة اللاجئين ولكن لم يذكر قط لفظ اللاجئين الفلسطينيين وبذلك فهو يشمل اليهود أيضاً، ولا يستبعد أن يحصل اليهود على تعويضات كبيرة عن أملاكهم في العراق واليمن ومصر وليبيا؛ وقد صرح أحد السياسيين اليهود أن على الدول العربية أن تقوم بتوطين الفلسطينيين ونقوم نحن بتوطين اليهود.

وتحاول «إسرائيل» في الوقت الحاضر إلغاء مرجعية قرارات الأمم المتحدة والتي تنص على عودة اللاجئين وحق العودة أو التعويض وانسحاب «إسرائيل» من أراضي عربية محتلة والتأكيد على أن المرجعية هي التراضي والتفاوض بدون شروط، وأنَّ ما وقَّع عليه رابين لا يلزم نتنياهو، وما وقَّع عليه الجميع لا يناسب باراك، وبكلمة أخرى: «إن كلام الليل يمحوه النهار» فمتى يعي مدمنو الحلول السلمية وسياسة التنازل خطوة خطوة أنه سيأتي اليوم الذي لا يجدون فيه شيئاً يتنازلون عنه؟! يومها سيتبين لهم قيمتهم الحقيقية عند أبناء عمهم.





أخطبوط الاستيطان الصهيوني في فلسطين

باسل يوسف النيرب

بدأت عملية الاستيطان اليهودي منذ أواخر القرن التاسع عشر للميلاد من خلال خطوات مدروسة، ولم تخلُ التسويغات الاستيطانية الصهيونية من العنصر الديني؛ فقد استوطن اليهود المدن الفلسطينية القديمة «صفد، طبريا، الخليل، القدس» وخلال هذه الفترة نشأ العديد من المستوطنات في القرى الزراعية المحاذية للقرى الفلسطينية دون أن تثير أي مشاكل لدى الفلسطينيين، وإثر وضوح النوايا في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن - ببروز دعم الانتداب والدول الأوروبية لمشروع الاستيطان، وظهور عمل العصابات الصهيونية على استملاك الأراضي بالشراء من بعض الإقطاعيين المستملكين أراضي من فلسطين - وضحت أبعاد المسألة، ومع ذلك لم تتجاوز النسبة ٦,٥٪ من مجموع مساحة فلسطين، مما جعل الفلسطينيين يأخذون حذرهم من الخطر الصهيوني.

الدور الأوروبي:

تتحمل الدول الأوروبية الدور الأكبر في منح فلسطين لليهود؛ فبريطانيا منحتهم وعد بلفور المشؤوم ١٩١٧م مدعية أن تلك الأرض لا سكان فيها، وكانت قبل ذلك في عام ١٨٧١م قد سهلت قيام فرع منظمة الأليانس العالمية - الاتحاد الإسرائيلي العالمي - لمساعدة «المضطهدين» اليهود والمشاركة بشكل رسمي لإنشاء الدولة العبرية.

عمد رئيس وزراء بريطانيا آنذاك (بالمرستون)، إلى الطلب من سفيره في إسطانبول أن يحاول إقناع السلطان العثماني بفتح أبواب الهجرة إلى فلسطين، وبعد مؤتمر بال ١٨٩٧م، أقيم العديد من الجمعيات الاستيطانية ومنها صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار، وشركة أنجلو فلسطين المحدودة، وشركة أنجلو ليفتين المصرفية المحدودة، والصندوق الثقافي اليهودي، وشركة المكابي للأراضي المحدودة.

كما ساعدت بريطانيا على بناء العديد من المستوطنات بخلفية الشعور الديني القائم على المذهب البروتستانتي؛ فالمذهب البروتستانتي يرى في قيام «إسرائيل» علامة على قرب عودة المسيح المنتظر، مما دفع أتباع هذا المذهب للمساعدة على قيام «إسرائيل».

ولم تختلف مساعي فرنسا ومشاعرها كثيراً عن بريطانيا؛ ونجد هذا واضحاً في النداء الذي أرسله



نابليون إلى اليهود أثناء حصار عكا قائلاً: «يا ورثة فلسطين الشرعيين ندعوكم للمساهمة في السيطرة على بلادكم من أجل بناء أمتكم، وحتى تصبحوا أسياد فلسطين الشرعيين» كما أن مؤسسة الإليانس كانت نشأتها الأولى في فرنسا عام ١٨٦٠م.

وتُعَدُّ ألمانيا هي صاحبة الدور الأبرز في بناء المستوطنات، وصاحبة فكرة مستوطنات الهيكل وصاحبها فوتمبرج WUTTEMBERG، وأعلنت ألمانيا موقفها من لجنة التحقيق لعام ١٩٣٧م، بأنها ليست مع قيام دولة يهودية تحت الانتداب البريطاني؛ لأنها لا تستطيع استيعاب جميع يهود العالم؛ ولكنها توافق على أن تكون فلسطين قاعدة قانونية لدولة اليهود.

وتذكر الوثائق التاريخية أن أول قطعة أرض امتلكها اليهود في فلسطين كانت في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م) عام ١٨٥٤م، وهي التي أقيم عليها حي مونتفيوري، وكان قد اشتراها موسى مونتفيوري الذي شجع فكرة الاستيطان ونشر التعليم الزراعي بين يهود فلسطين.

مراحل الاستيطان:

مرت العمليات الاستيطانية بأربع مراحل:

المرحلة الأولى: كانت في العهد العثماني؛ حيث قامت الحركة الصهيونية بزرع عدد من المستوطنات فكانت كالجزر المعزولة وسط المناطق العربية، وأصبحت فيما بعد نقاط ارتكاز، فبعد أن كان عدد اليهود عام ١٨٨٢م ٢٤ ألف يهودي قفز في عام ١٩١٧م إلى أكثر من ٨٥ ألف يهودي، وبلغ عدد المستوطنات عام ١٨٨٤م خمس مستوطنات في كل منها ١٠٠ مستوطن، أقيمت ثلاث منها في جوار يافا، وواحدة في الحولة وأخرى في حيفا، وارتفع عدد المستوطنات عام ١٩٠٠م إلى ٢٢ مستوطنة ضمت ٥٤١٠ من المستوطنين، ومعظم هذه المستوطنات في السهل الساحلي حيث بلغ عددها فيه ١٢ مستوطنة، وفي الجليل ٧، وفي القدس اثنتين، وواحدةً في الغور.

بلغ عدد المستوطنات وفي عام ١٩١٤م ٤٧ مستوطنة: منها: ٢٦ مستوطنة في السهل الساحلي، و١٢ في الجليل، ومستوطنتان في القدس، وواحدة في كل من الغور ومرج بني عامر، وبلغ عدد المستوطنين ١١٩٩٠ مستوطن، وحتى نهاية عام ١٩١٨م كان بحوزة اليهود من أراضي فلسطين ٤١٨ دونم.

المرحلة الثانية: ترافقت مع الانتداب البريطاني على فلسطين واقتطع الانتداب أخصب الأراضي في مرج ابن عامر ووادي الحوارث وغيرها من المناطق، ووصل عدد اليهود إلى٦٠٠,٤٦٩ يهودي في آخر فترة الانتداب.

وقد عملت سلطات الانتداب على تكثيف الهجرة لتحقيق التوازن العددي بين السكان الأصليين والمستوطنين، وحرصت على زيادة المساحات التي في حوزة اليهود وخاصة الأراضي الزراعية، وقلب الوضع الاقتصادي بالاستيلاء على المرافق الحيوية والصناعات الناشئة في ذلك الوقت، وتغيير الوضع بالنسبة للأماكن المقدسة.

بلغ عدد المستوطنات المقامة من ١٩١٨ - ١٩٤٨م نحو ٣٦٣ مستوطنة، وأزيلت خمس قرى في

قضاء صفد وحولت إلى مستعمرات ومثلها في طبريا، وأربع في قضاء بيسان، وعشر في قضاء الناصرة، وست في قضاء عكا، وعشرون في قضاء حيفا، وخمس في قضاء يافا، وبلغت مجموع القرى التي محيت إحدى وستين قرية.

المرحلة الثالثة: مع قيام الدولة اليهودية بدأت مرحلة أخرى من الاستيطان من الجليل شمالاً حتى النقب جنوباً وجرت خلال هذه المرحلة عمليات ترحيل «ترانسفير» وطرد منظم للسكان العرب من فلسطين. وأوضح ما يبين هذه الصورة رسالة موشي شاريت إلى ناحوم جولدمان عام ١٩٤٨م التي يقول فيها: إن إخراج العرب هو حدث رائع في تاريخ «إسرائيل» كما يعتبر الحدث - وفق مفهوم معين - أروع من إقامة دولة «إسرائيل» نفسها، إضافة إلى ما كتبه الكونت برنادوت الذي اغتيل على يد عصابات الهاجاناه: «إن عرب فلسطين لم يغادروا ديارهم ويهجروا ممتلكاتهم طوعاً أو اختياراً؛ بل نتيجة لأعمال العنف والإرهاب»، وأعلن بن غوريون بأن على «إسرائيل» عمل كل شيء لضمان ألا يعود أحد من الفلسطينيين المطرودين إلى بيوتهم.

المرحلة الرابعة: وجاءت إثر عدوان حزيران سنة ١٩٦٧م واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان، وهنا اختلف الاستيطان عن ذي قبل، وأخذ طابعاً جيوسياسياً مغلَّفاً بالدوافع القومية الدينية.

وضعت السلطات الإسرائيلية العديد من القوانين التي تمنع عودة أصحاب الأراضي إليها، ويُعرف عن هذه القوانين أنها تشكل إحدى الدعامات التي مهدت للاستيلاء على الأرض، ومنها قانون «حارس أملاك الغائبين» وحاولت «إسرائيل» من خلال هذا القانون إقناع الرأي العام العالمي أن الهدف هو الحفاظ على أملاك الغائبين، وصدر الأمر العسكري رقم ٥٨ لسنة ١٩٦٧م، الذي ينظم عمل قانون «حارس أملاك الغائبين» والمناط به حق التصرف في أملاك الغائبين، وأن يتخذ الإجراءات الضرورية لذلك، ولحارس أملاك الغائبين الحق بالموافقة أو عدم الموافقة على بيع وشراء وتأجير أي صفقة ينطبق عليها قانون أملاك الغائبين، ثم عملت هذه السلطات على مصادرة الأراضي لأغراض عسكرية: للرماية، والتدريبات، واعتبرتها مناطق أمن للجيش، وكان الصندوق القومي اليهودي ومؤسسة هيمنوتا التابعة للصندوق يقومان قبل عام ١٩٧٩م بالشراء، ثم أصدرت السلطات العسكرية أمراً عسكرياً بمنع المحاكم من النظر في مسألة بيع الأراضي وتحويل تسجيلها إلى لجنة خاصة، وبعد عام ١٩٧٩م سمحت السلطات الإسرائيلية بالشراء للأفراد، وكانت أغلب الصفقات عبارة عن بيوع مزيفة، كما أعلنت العديد من الأراضي أراضي حكومية لا يجوز التصرف بها إلا من قِبَل الدولة.

القدس والاستيطان:

يجب التأكيد في البداية على أن الاختلاف القائم بين اليهود على الاستيطان ليس ضد التوسيع أو البناء؛ لكن ضد التوقيت الذي يعلن فيه عن قيام المستوطنة؛ ففي القدس يحظى الاستيطان بإجماع عام داخل الأحزاب الدينية والعلمانية؛ فبعد الانتهاء من حرب ١٩٦٧م، أصدر ليفي أشكول رئيس الوزراء

الأسبق قراراً بتوحيد القدس، وأشار إلى أن «إسرائيل» مستعدة لإعادة الجولان وسيناء مقابل السلام، أما بالنسبة إلى القدس فقال: إننا مستعدون للموت دون التنازل عنها، ثم أعلنت «إسرائيل» العديد من القوانين واتخذت الإجراءات الكافية لضم القدس، ثم شرعت في البناء، وعملت على خلق واقع ديمغرافي جديد.

يبلغ عدد المستوطنين حالياً في القدس الشرقية ما يزيد عن ١٧٠ ألف، والمدقق في تصريحات المسؤولين الإسرائيليين يخرج بنتيجة أكيدة وهي: إجماعهم على أنه لا «إسرائيل» بدون القدس وأنها يجب أن تبقى عاصمة أبدية «لدولتها» وهذا تنفيذ لمقولة مؤسس «إسرائيل» بن غوريون: «من الواجب جلب يهود إلى القدس بأي ثمن، من الواجب توطين عشرات الآلاف من اليهود هناك في غضون فترة قصيرة».

تصنيف المستوطنات:

تصنف المستوطنات من حيث المساحة إلى أربع فئات:

الفئة الأولى: مساحتها أكثر من ١٥٠٠ دونم، وتمثل ما نسبته ٧,٥٨٪ .

الفئة الثانية: مساحتها بين ١٠٠٠ - ١٤٩٩ دونم.

الفئة الثالثة: مساحتها بين ٥٠٠ - ٩٩٩ دونم وتشكل ما نسبته ٧,٦٪ .

الفئة الرابعة: وهي المستوطنات المحاذية للخط الأخضر، ومساحتها الإجمالية ١٥١٣٠ دونم، ويبلغ عددها ١٧ مستوطنة.

تتشكل أغلب البؤر الاستيطانية في ألوية القدس، ورام الله، والخليل، ونابلس؛ فالاستيطان فيها قائم على أسباب استراتيجية وديمغرافية ضمن سياسة عزل وتفتيت المناطق العربية بعضها عن بعض بواسطة الكتل الاستيطانية.

وتنتشر المستوطنات المخصصة للسكان في الضفة الغربية بنسبة ٧٦,٧٪ وقطاع غزة بنسبة ٧٣,٤٥٪ إضافة إلى بعض المستوطنات الزراعية في أريحا، وبيت لحم، ونابلس.

أما القدس فتضم العدد الأكبر من المستوطنات وعددها ٨٤ مستوطنة، وتضم الأراضي الاستيطانية ٤٥٦١٥ دونم، ثم يتبعها محافظة نابلس وتبلغ المساحة العمرانية للمستوطنات ٢٠٦٣٨ دونم، ثم محافظة الخليل، وتشكل مستوطنات لواء القدس ٥,٧٦٪ ، ثم رام الله ١,٩٪ ، ونابلس ١,٦ ، وبيت لحم ١,٥٪ .

التسوية والاستيطان:

تشير إحصاءات المكتب المركزي للإحصاءات الفلسطينية أن المستوطنات التي بناها الليكود تقارب ٧٠,١٪ في حين ساهم حزب العمل في بناء ٢٩,٩٥٪ من المستوطنات، ومعظم هذه المستوطنات تم بناؤها بين أعوام ١٩٧٦ ـ ١٩٨٢م، و١٩٨٩- ١٩٩١م، ثم توقف تقريباً بناء المستوطنات لتبدأ عمليات توسيع وتسمين المستوطنات المقامة واستمر حتى ما بعد توقيع اتفاق أوسلو.

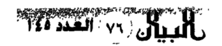
ويعتبر الاستيطان مشكلة من المشاكل الكبرى في طريق التسوية النهائية الجارية حالياً بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ومن خلال المفاوضات الجارية ستعمل «إسرائيل» على المحافظة على المستوطنات باعتبارها عموداً فقرياً لها ومصاحباً «للدولة» في كل مراحل تطورها، إضافة إلى الإجماع الرسمي والحزبي على أن المستوطنات تشكل مورداً استراتيجياً ثابتاً يجب المحافظة عليه وتوسعته.

بدأت أولى مراحل البحث عن حلول لمشكلة الاستيطان بعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة والقطاع في عام ١٩٦٧م، عبر مشروع (إيغال آلون) والذي اقترح ضم غور الأردن إلى «إسرائيل» بشكل رسمي وتكثيف الاستيطان فيه، ثم قدَّم البروفيسور الإسرائيلي (إبراهام فاكمان) مشروعاً في عام ١٩٦٩م عرف باسم (الخطة الفقرية المزدوجة)، كما طرح (معهد ديفيس) التابع للجامعة العبرية اقتراحاً بتحديد الحدود من خلال ضم المناطق الغربية من الخط الأخضر الفاصل بين المناطق المحتلة ١٩٤٨م وبين المناطق المحتلة ١٩٦٧م، وهي المناطق التي تضم أكبر عدد من المستوطنات، وتوالت الاقتراحات التي تدور حول هذا الطرح من خلال صياغة خارطة تأخذ بالحسبان تحديد الحدود لحزام المستوطنات المقامة وضمان المياه والديمغرافيا والأمن.

كما صمم فريق من جامعة حيفا برئاسة أرنون سوفير رئيس قسم الجغرافيا خارطة مقترحة وقُدمت لحزبي العمل والليكود تنص على تعديل الخط الأخضر، ووضعت مناطق تستوعب الكتل الاستيطانية التي كانت في ذلك الوقت تضم ٥٠ ألف مستوطن، وما يزيد عن ١٤٥ ألف مستوطن في منطقة القدس الشرقية، وتسمح هذه الخارطة لـ «إسرائيل» بالسعي من خلال ثلاثة ممرات واسعة للوصول إلى الخط الفاصل مع الأردن، وتمنحها معظم مصادر المياه في الجبال الوسطى من الضفة الغربية، ثم عُدِّلت الخارطة لتربط المسجد الإبراهيمي بالحرم القدسي الشريف، على أن تكون مسؤولية سلامة اليهود في الخليل بيد الفلسطينيين، وفي القدس تكون مسؤولية سلامة العرب بيد اليهود.

قدم شارون اقتراحاً نص على: إبقاء سلسلة من الجيوب بيد الفلسطينيين في الضفة والقطاع وضم المناطق الأخرى باعتبارها مراكز ونقاطاً استيطانية لاحقة لـ «إسرائيل»، كما صدرت عن (جمعية سبل الاتفاق الوطني) مقترحات، ومنها: أن تبقى في يد «إسرائيل» السيطرة الكاملة على كل من القدس الكبرى وغوش عتصيون وغور الأردن وشمال البحر الميت، وضم الكتل الاستيطانية غير المأهولة بالسكان العرب.

تُجْمِعُ قوى اليمين واليسار حالياً في «إسرائيل» على وثيقة عرفت باسم (وثيقة العمل والليكود)، التي تنص على أن لا عودة لحدود الرابع من حزيران ١٩٦٧م، وأن معظم المستوطنات ستبقى تحت السيادة الإسرائيلية مع الحفاظ على تواصل بين المستوطنات عبر ربطها بالكتل الاستيطانية، كما نصت الوثيقة على: أن المستوطنات التي سيتم ضمها لـ «إسرائيل» ستحظى بترتيبات خاصة ومتفق عليها في إطار يحافظ من خلاله المستوطنون على الجنسية الإسرائيلية ويحافظون على حقهم في المرور



الآمن إلى المناطق الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية.

يشكل الاستيطان عامل انقسام داخل القوى السياسية الإسرائيلية، فترى أحزاب الوسط واليسار إمكانية وجود مستوطنات داخل الدولة الفلسطينية مقابل عدم تفكيكها، وثمة رأي آخر داخل هذا التيار يقف مع تفكيك بعض المستوطنات الصغيرة، وفي المقابل تعزيز المستوطنات في غور الأردن والمنطقة الشرقية من الخط الأخضر وحول القدس.

والتيار الآخر الذي يتزعمه الجناح اليميني وأحزاب الوسط يطالب بتعزيز المستوطنات حتى داخل التجمعات الفلسطينية مع البحث عن دور وظيفي للفلسطينيين في إدارة شؤونهم المدنية دون السيطرة على الأرض والموارد الطبيعية، ولذلك أقيمت الطرق الالتفافية حول المستوطنات وربطت بعضها ببعض، ثم خصصت الميزانيات الضخمة لتسمين المستوطنات حتى وإن كانت غير مأهولة.

إن الحل السياسي المطروح حالياً لا يضمن إزالة المستوطنات التي أقيمت على الرغم من معارضة القانون الدولي لذلك، بل يضمن بقاء المستوطنات ضمن المدن والقرى في مناطق الإدارة الفلسطينية وفق ترتيبات تعد الآن، كما أن المستوطنين لن يخرجوا من الأراضي الفلسطينية؛ فقد عملت «إسرائيل» على زيادة زخم الاستيطان وإقامة الحقائق على الأرض؛ لأن جميع الاتفاقيات بدءاً من أوسلو وحتى واي ريفر ٢ أخفقت في منع «إسرائيل» من استغلال المرحلة النهائية، مما يعني أن الحل السياسي الدائر حالياً سيصب في المصلحة الإسرائيلية.

إن الحديث عن موضوع الاستيطان متشعب وفيه الكثير من الآراء؛ ولكن علينا أن لا ننسى أن المستوطنين هم الذين أسسوا الحركات السرية لملاحقة الفلسطينيين وحملهم على الخروج من أراضيهم، ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما نشر في عهد حكومة إسحاق شامير ١٩٩٠م، وكان تحت عنوان: «دليل المستوطنين»، وفيه توصيات وتوجيهات لكيفية أداء العمليات الانتقامية ضد السكان العرب، ويدعو الدليل إلى استخدام الذخيرة الحية، والعمل على سرقة الأسلحة واستخدامها، ويقول الدليل: «طوبى لك إذا قررت القيام بعملية مدبرة، وتهانينا لك إذا قمت بتنفيذ العملية» ويشرح الدليل كيفية التصرف إذا اعتقل المستوطن، وسوَّغ التقرير أفعال المستوطنين بأنها رد على كل حجر يلقيه عربي، فعلى المستوطنين القيام بعمليات انتقامية سرية أو بعمليات جماعية، وإلحاق الخسائر الفادحة بالممتلكات العربية.

وختاماً لا بد من التأكيد على أن المستوطنات التي أقيمت فوق الأرض الفلسطينية استولت على المياه والموارد الطبيعية والأرض، وقطعت القرى الفلسطينية عن المدن، وفصلت الاتصال العمراني بين المناطق الفلسطينية، كما أثرت على الاقتصاد الفلسطيني بأن جعلت العمال الفلسطينيين يعملون في البناء والزراعة داخل المستوطنات مما جعل مصدر الرزق الوحيد العمل داخلها، وساهمت المستوطنات في إبقاء الفلسطينيين بلا بُنية تحتية وتحت رحمة «إسرائيل».



د. عبد الفتاح العويسي

رائد نهج الرسول ﷺ في الاتجاه إلى القدس

أجرى الحوار : محمد النجار

- الدكتور عبد الفتاح العويسي يعمل أستاذاً للدراسات العربية والإسلامية بجامعة استيرلينج في بريطانيا، وأحد المؤسسين لمجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة، وهو مجمع متخصص ببيت المقدس، واختير أميناً عاماً لهذا المجمع، وأيضاً يرأس تحرير مجلة دراسات القدس الإسلامية. وقد كان لمجلة البيان معه هذا الحوار حول المجمع وأهدافه ودوره.

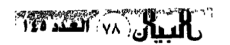
● ينصبُّ اهتمامكم على التركيز على قضية المسجد الأقصى؛ وهذا يستدعي أن نطرح على فضيلتكم السؤال الآتي: كيف وصلتم إلى القناعة بأن قضية المسجد الأقصى المزمنة بحاجة الآن إلى المزيد من دراسات متخصصة عن بيت المقدس؛ فقمتم مع إخوانكم بتأسيس مجمع البحوث في بريطانيا؟ وهل من الممكن إعطاؤنا فكرة مختصرة عن المؤسسين لهذا المجمع؟

■ دعني في البداية أربط الحدث مع قضيتين تاريخيتين: القضية الأولى: هي نهج الرسول ﷺ في التعامل مع قضية القدس؛ فالفتح الإسلامي لمدينة القدس - في السنة الخامسة عشرة للهجرة النبوية الشريفة - لم يتم دفعة واحدة؛ إنما سبقه خطوات عملية هيأت لعملية الفتح الإسلامي.

بدايةً هيأ الرسول ﷺ وعبأ النفوس حول هذه المدينة المقدسة بالآيات التي وردت في كتاب الله عن هذه البقعة، ثم بما تحدث به؛ بحيث إن القلوب والعقول أصبحت تحن إلى بيت المقدس وهو واقع تحت الاحتلال الروماني قبل أن تتم عملية الفتح.

لقد كانت الخطوة الأولى - وهي التعبئة للنفوس والعقول المسلمة لتبدأ بالتحرك عملياً تجاه القدس، وقد حدث هذا وأهل الإسلام في مكة مستضعفون قبل الهجرة إلى المدينة - تلك الخطوة تعني أنه حتى في مراحل الضنك والألم التي عاشها المسلمون في مكة كانت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ توجههم نحو هذه المدينة المقدسة، ثم بعد ذلك تبعتها الخطوات العملية بعد الإسراء بالرسول ﷺ من مكة إلى القدس ومعراجه من بيت المقدس إلى السماوات العلى بعد ذلك.

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بدأت الخطوات العملية نحو تحرير القدس من الاحتلال الروماني لها؛



فكانت معركة مؤتة أول صراع مع الرومان، وكانت الخطوة الثانية في الطريق إلى تحرير القدس، ثم بعد ذلك كانت غزوة تبوك؛ فقد كانت بمثابة تتبع للروم.

وجاءت بعدها معركة اليرموك، وأستطيع أن أقول: إنه لولا اليرموك ما كانت قدس، وكذلك من باب المقارنة: لولا حطين في زمن صلاح الدين ما كانت قدس؛ وهذا يعطينا - حقيقة - درساً تاريخياً مهماً مُفَادُه: أنه قبل معركة القدس الكبرى، وقبل تحرير القدس لا بد أن تُسبَق بمعركة في الشام في منطقة وادي الأردن؛ لأن اليرموك وحطين حدثتا في تلك المنطقة، ثم بعد ذلك تم الفتح الإسلامي في السنة الخامسة عشرة لهجرة الرسول ﷺ على يد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهذا ما بشر به رسول الله ﷺ.

هذه المقدمة التاريخية تخبرنا أنه لا بد من خطوات عملية، ولا بد أن تُهيأ الأمة للتحرك تجاه هذه المدينة.

للأسف الشديد! واقعنا العربي والإسلامي يقول: إننا نتحرك نحو القدس دون أن تتعلق قلوبنا بها؛ فنحن خالفنا طريق الرسول ﷺ الذي انتهجه تجاه القدس. نحن نتصور أننا يجب أن ندخل في صراع مسلح مع المحتلين لهذه المدينة المقدسة وتنتهي الأمور! لا... لا بد أن يسبق ذلك إعداد؛ فتنفيذ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وربط القلوب والعقول بهذه المدينة هي الخطوة الأولى للتعلق بها والحنين إليها، وحب المرابطة فيها، وحب الجهاد بها.

القضية الثانية: أنه أحزننا أنْ مرت ذكرى أربعة عشر قرناً على الفتح الإسلامي للقدس والعالم العربي والإسلامي لم ينتبه لهذه المناسبة العظيمة. والفتح الإسلامي للقدس كان نقطة تحوُّل ليس في تاريخ القدس وحدها؛ وإنما في تاريخ المشرق العربي الإسلامي؛ إضافة إلى الأمة الإسلامية جمعاء.

وهنا نتساءل: لماذا تحدث القرآن الكريم كثيراً عن المسألة التاريخية؟ هل هي من باب إضاعة الوقت أو من باب التسلية - حاشى لله -؟ لا... إنما بهدف أخذ العبرة والدرس للانطلاق للمستقبل، وإن أردت أن تعرف التاريخ ففي القرآن الكريم علم الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأنك تصنع الحاضر في ضوء الماضي وتستشرف المستقبل في ضوء فهمك للماضي والحاضر؛ فكان مرور أربعة عشر قرناً على الفتح الإسلامي لبيت المقدس ١٩٩٤م نقطة أردنا أن نحتفل بها، ليس على طريقة الاحتفالات التقليدية، وإنما في إطار حضاري إسلامي مميز يأخذ هذه القضية ويدفعها إلى إطارها الواسع.

أحببت أن أعطي هذين الإطارين التاريخيين حول هذا الموضوع لنفهم لماذا تم إنشاء مجمع البحوث الإسلامية.

أما إذا أردت أن أوضح الأمر بشكل مباشر حول مجمع البحوث فأقول: إن لكل عصر متطلباته التي تختلف عن العصر الذي يسبقه؛ فما كان يصلح للخمسينيات والستينيات لا يصلح في التسعينيات؛ لا أقصد أن المبادئ لا تصلح؛ ولكن أقصد الوسائل التي تصل بنا لتحقيق هذه الغايات؛ فالإسلام بدأ من ١٤٠٠ عام وهو صالح لكل زمان ومكان؛ ولكن أقول: الوسيلة التي نستعملها لتحقيق هذه الغاية تختلف من عصر إلى آخر. البيئة التي نعمل بها هنا بيئة غربية؛ فعلينا أن ندرس البيئة؛ فالرسول ﷺ قبل الهجرة للمدينة درس البيئة التي هاجر إليها مما ساعده في تنظيم الدولة الإسلامية الأولى في المدينة.

كان ينقصنا معرفة البيئة التي نتحرك بها؛ ولذلك فقد قمنا بدراسة البيئة التي نحن بها في هذه البلاد الغربية ـ ولا سيما في بريطانيا ـ فوجدنا أن هنالك فجوة خلاف عميقة جداً فيما يخص موضوع القدس على صعيدين: فالدراسات الأكاديمية المتوافرة في الغرب إما دراسات توراتية، أو دراسات استشراقية من ناحية، ولا يوجد دراسات إسلامية متعمقة أو جدية حول القدس، ومن ناحية أخرى؛ فإن الدراسات الإسلامية المتوافرة هي دراسات عاطفية لا تعتمد المنهج العملي في الحوار.

إسلامنا علمنا أن نواجه الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق؛ ولكن للأسف! عندما نناقش قضية القدس نناقشها بعاطفة، حتى هذه العاطفة غير واضحة وغير مبنية على أسس؛ إذن عملُنا الأكاديمي في الغرب هنا أثبت لنا أن هنالك فجوة كبيرة في الدراسات المتوافرة عند العرب والمسلمين، وعند الغربيين في دراساتهم الأكاديمية.

النقطة التي تلي ذلك: أننا نعيش في عصر التخصص، وللأسف الشديد! فإن المؤسسات الإسلامية تحب أن تدعي أنها تفهم في كل شيء، وفي نهاية المطاف لا تبني أي شيء؛ ولذا فإن علينا أن نعي أننا في عصر التخصص؛ فالأطباء الآن لا يتخصصون (أنف وأذن وحنجرة)؛ بل يتخصصون في جزء من أجزاء الأنف؛ هذا التخصص الدقيق جداً أيضاً معرفة؛ ونحن غير مختصين بالقضية الفلسطينية؛ نحن مختصون فقط بجانب بيت المقدس؛ قضية القدس من جميع جوانبها: الشرعي، التاريخي، الجغرافي، الجيولوجي، أي موضوع له علاقة بموضوع القدس حتى الموضوع الطبي - البيئي، أي شيء له علاقة بموضوع القدس يجب أن نهتم به. إذن هذه هي الخلفية الفكرية التي دفعت إلى إنشاء مجمع البحوث الإسلامية، وإن أردت أن أُلخِّص الهدف من نشأة مجمع البحوث الإسلامية أقوله في جملة واحدة فهي أن مجمع البحوث الإسلامية يهدف إلى تأسيس مرجعية جديدة حول القدس.

● نود ولو إشارة بسيطة حول هذا المجمع؛ لأن هناك - كما هو ملاحظ في مجلة دراسات القدس الإسلامية - كادراً كبيراً وشخصيات متميزة يعملون به، وبعضهم من الغربيين؛ فما الجانب الذي كنتم تودون لو تصوغون فيه المجلة؟ أو ما هي الفكرة من مثل هذه المجلة؟

■ علينا أن نعود إلى معرفة البيئة التي نعمل فيها؛ فنحن لا نعمل بانعزال عن البيئة الغربية التي نقيم بها، وقد قلنا: إن الدراسات المتوافرة هنا دراسات توراتية أو استشراقية؛ ولكنْ هناك عدد من الأكاديميين المتعاطفين الذين يبحثون عن الحقيقة.

ولكن لا ندعي أن جميع من يعمل في السلك الأكاديمي متعاطفون؛ بعضهم يريد أن يصل إلى الحقيقة، هؤلاء هم الذين تعاونا معهم. قلنا: إن بعض الأكاديميين الغربيين الذين يُظهرون نوعاً من التعاطف ونوعاً من البحث عن الحقيقة قمنا بالتعاون معهم؛ علماً بأن عضوية مجمع البحوث الإسلامية ليست مقتصرة على المسلمين. ونحن نسعى لجعل المجمع مؤسسة مؤثرة لدى صانعي القرار في هذا البلد؛ فالعمل الأكاديمي هو الذي يصنع العقول، ويدفع إلى الانطلاق نحو تشكيل هذه المرجعية الجديدة التي تكلمت عنها.

ولعلِّي في هذه المناسبة أذكر المؤرخة الإنجليزية كارن أرمسترونج التي نشرنا لها مقالة في المجلة واستضفناها في المؤتمر الأكاديمي الدولي الأول عن القدس في عام ١٩٩٧م، ونستغرب الكلام الذي قالته عن القدس، وخلاصة رأيها:

«أنها بعد أن درست تاريخ القدس منذ بدء الخليقة حتى الآن وجدت أن القدس قائمة على مفهوم العدل، وبمعنى أصح: إن من يحقق العدل في القدس تدوم سيطرته على تلك المدينة، وخلصت بالقول بعدما درست المتغيرات المختلفة، ووجدت أن القدس في العهد الإسلامي تمتعت بالعدل وتميزت بالتسامح والمساواة بين الجميع مما أدى إلى ازدهار المؤسسات العلمية والثقافية وهو الدور الكبير الذي دفع إلى الاستقرار في المنطقة، وتحقيق السلام.

● أشرتم إلى أهمية التخصص الأكاديمي بالذات لمثل هذه الدراسات؛ ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل تعتقدون أننا سنصل بهذه الطريقة - أيْ طريقة الحوار الهادئ والدليل المقنع - إلى شيء يفيد القضية؟ ثم هل تجدون أذناً صاغية في الجانب الآخر: المسيحي، واليهودي؟

■ مرة أخرى نعود إلى قضية الأهداف التي نسعى إليها؛ لأن هذه قد توضح جزءاً من الإجابة على هذا



السؤال. نحن نهدف في هذه المؤسسة إلى ما نسميه تحقيق الوعي الحضاري من خلال بناء سقف حضاري معرفي، وتأصيل عمل مميز عن بيت المقدس من جانب، ومن جانب آخر: احتضان الطاقات المبتعثة المختصة وتهيئتها ومساعدتها في إطلاق إمكانياتها، كما أننا نريد أن يكون المجمع منبراً عالمياً لمناقشة القضايا المتعلقة بالقدس وملتقى للعلماء المهتمين بهذه القضية، أو بمعنى أوضح وأشمل:

نريد أن نخرج بقضية القدس من دائرة رد الفعل إلى دائرة صناعة الفعل؛ فحتى هذه اللحظة في كل القضايا التي يعاني منها العالم الإسلامي نحن نقوم بردود أفعال؛ ففي قضية كوسوفا كان العالم الإسلامي يقوم برد فعل على جرائم تُرتكب هناك؛ ولكننا لا نصنع الفعل. (نحن في مجمع البحوث) نريد أن نصنع الفعل تجاه قضية القدس، هذا جزء من أهداف المجمع؛ وليس الرد على الدراسات التوراتية والاستشراقية؛ لأننا لو أخذنا جزءاً من وقت المجمع في الرد على الدراسات التوراتية والاستشراقية لبقينا في دائرة رد الفعل؛ ولكننا أردنا أن نصنع الفعل من خلال المحاورة، من خلال المؤتمرات الأكاديمية التي نعقدها، من خلال المجلة الأكاديمية، ومن خلال الندوات، والمحاضرات. اطرح وجهة نظرك، وليطرح الآخر وجهة نظره؛ فتلك هي المحاورة الحضارية الهادئة التي أمرنا بها القرآن الكريم عندما نتكلم في محاوراتنا مع غير المسلمين. قال الله - تعالى -: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] في كل القضايا نحن نريد أن نطبق هذا الشعار، في قضية القدس نحاورهم بالتي هي أحسن على ألاَّ نُجَرَّ فيصبح عملنا رداً لفعلهم؛ ولكننا نصنع الفعل.

المؤتمر عندما يعقد فإننا نضع فعلاً جديداً حول القدس، وعندما نصدر مقالة فإننا نؤسس مرجعية جديدة، ونقوم بصناعة الفعل بطريقة هادئة، والطريقة الهادئة تنتج في الغرب أكثر من الصراخ والغوغائية والعاطفية؛ وأستطيع أن أدَّعي أننا منذ ١٩٩٤م وحتى هذه اللحظة كسبنا إلى صفنا من الغربيين لصالح قضية القدس أكثر مما كنا نتوقع، وبهذه الطريقة الحضارية.

● **يتوجه أغلب المصْلحين لمخاطبة الجماهير الغفيرة بلغة بسيطة يفهمها الجميع؛ فلماذا توجهتم هذا التوجه الأكاديمي البحت؟ ثم هل وجدتم تجاوباً من المؤسسات والجهات العلمية المهتمة بهذا مع مشروعكم؟**

■ أولاً: لعلِّي من خلال المقدمة التي أعطيتها القارئ نلاحظ أنه ليس لدينا مختصون في موضوع القدس، وإن كان لدينا فعددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة؛ بل أستطيع أن أدعي أنهم يقلون عن عدد أصابع اليد الواحدة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولذا فإننا إذا أردنا أن نخاطب الجماهير فسنكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة؛ فكيف نستطيع أن نخاطب العالم الإسلامي والعالم الغربي؟ هذا الأكاديمي سيصاب بجهد كبير من السفر والمتابعة، وسيذهب جميع وقته في اللقاءات والمحاضرات... إلى آخره؛ مما يعني أنه لن يكون هنالك إنتاج؛ ولكن نحن قلنا: نعم! لن نغفل هذا الجانب في مخاطبة الجماهير المسلمة؛ ولكن في الوقت نفسه نريد أن نعدَّ قطاعات علمية أكاديمية متخصصة في موضوع القدس، وهذه القطاعات هي التي ستحمل على عاتقها مشروع مخاطبة الجماهير المسلمة في جميع أنحاء العالم الإسلامي. نحن نتمنى أن يكون هناك - على الأقل - متخصص واحد في كل قطر عربي؛ حتى يحمل هذه الأمانة، وهذه الراية في مخاطبة الجماهير.

إذن الهدف في المرحلة الحالية هو تكوين مجموعات أكاديمية متخصصة تعرف الحقائق من جميع نواحيها حول موضوع القدس لتتولى مخاطبة الجماهير؛ ولكن عملية إعداد هذه النوعيات ليست عملية سهلة، ويجب أن نتعاون مع المؤسسات العلمية والإسلامية والسياسية في العالم العربي؛ لدعم ذلك المشروع. الآن لدينا ٦ طلاب يحضِّرون الدكتوراه في مواضيع مختلفة حول موضوع القدس: طالب يحضر حول القدس بين الفقه الإسلامي والقانون الدولي، والثاني: حول الفتح الإسلامي الأول للقدس، والثالث: عن المؤسسات العلمية

الإصلاحية في القدس في الفترة الأيوبية، الرابع: حول الاستيطان في القدس منذ عام ١٩٤٨ منذ قيام دولة اليهود، والخامس: عن القدس في الصراع العربي الإسرائيلي، أما السادس: فعن نظرية جديدة في تفسير العمارة الإسلامية في القدس؛ فجميع الدراسات الاستشراقية حتى الآن وحتى العربية والإسلامية تقول: إن العمران في القدس هو نسخة طبق الأصل من المعمار البيزنطي، هذا الطالب الآن يحضر رسالة الدكتوراه في الهندسة المعمارية في القدس، ليؤكد أن العمارة في القدس في الصدر الأول للإسلام إنما بنيت انبثاقاً من فهم القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ.

وبطبيعة الحال ما كان ليتم هذا لولا المكرمة التي تسجل بأحرف من نور للشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم حاكم دبي الذي تفضل مشكوراً بتبني خمسة طلبة يُحضِّرون الدكتوراه في المواضيع التي ذكرتُها بعد أن رأى جدِّيَّة المشروع الأكاديمي الذي نقوم به، كذلك قمنا قبل عدة أسابيع بالسفر إلى دبي؛ لزيارة الشيخ حمدان، وقمنا أيضاً بمقابلة الرئيس الأعلى لجامعة الإمارات ولجامعة زايد، ووزير التعليم العالي في الإمارات العربية المتحدة: الشيخ مبارك آل نهيان الذي أمر بتقديم كل الدعم اللازم لمجمع البحوث الإسلامية للانطلاق لتحقيق هدفه السامي من أجل الحفاظ على القدس عربية إسلامية.

ولعلي أستغل هذه المناسبة لأوجه هذا النداء لقراء هذه المجلة الرائدة (مجلة البيان) لنقول لهم: إننا خطونا خطوة أولى على الطريق الصحيح نحو القدس، ونحن نسعى بجميع ما لدينا من إمكانيات ووقت وتخصص وعلم؛ لكي ننطلق في هذا المجال؛ ولكننا نريد من أهل الخير في عالمنا العربي والإسلامي أن يقدموا لنا الدعم المادي والمعنوي؛ فجميع هذه النشاطات لا يمكن أن تتم إلا من خلال الدعم المادي والمعنوي. نحن بحاجة إلى أن نرفع من عدد المنح الدراسية التي نقدمها في المجمع لنُكَوِّنَ هؤلاء الخبراء الذين ينطلقون لنشر هذه الرسالة العظيمة ونأمل في الاتصال بنا ليقولوا لنا: إننا نريد أن نتبنى طالباً، اثنين، عشرة، أي عدد يستطيعونه لدراسة الدكتوراه في مجال موضوع القدس مثلاً، ويسرنا أن نتعاون معهم في أي مجال آخر، فمن أراد أن يتبنى مالياً المؤتمر والمصاريف التي ننفقها على المؤتمر الأكاديمي السنوي الذي نعقده في لندن فجزاه الله خيراً، أو إن أراد أن يتبنى طباعة المجلة العلمية الأكاديمية (مجلة دراسات القدس الإسلامية) التي نطبعها فأهلاً وسهلاً، أو إن أراد أن يترك له صدقة جارية في وصيته بعد مماته وقفاً جارياً عنه لننتفع به في هذه القضية، أو إن أراد أن يدعم بعض المشاريع التي نقوم بها في القدس نفسها من خلال ترميم بعض الأماكن التاريخية الإسلامية الآيلة للسقوط في داخل المدينة المباركة المقدسة؛ فالمجال مفتوح للتعاون على البر والتقوى.

● **نعود للحديث عن أهم النشاطات التي يقوم بها مجمع البحوث الإسلامية، ولعل من أبرزها: مجلة دراسات القدس الإسلامية؛ فما هي أهم الموضوعات التي تتطرق لها المجلة؟**

■ مجلة دراسات القدس الإسلامية هي مجلة تصدر مرتين في السنة باللغتين العربية والإنجليزية، وهي مجلة أكاديمية محكَّمة. بمعنى أصح: إن أي مقالة تصل إلينا لا بد أن نرسلها إلى اثنين من المختصين في مجال القدس، فإن وافقوا على نشرها يتم نشرها في المجلة، وهذا يساعد في بناء الشخصيات العلمية المختصة؛ لأن النشر في تلك المجلة يساعد على الترقيات العلمية الأكاديمية؛ فالباحث الذي يريد أن يرقى أكاديمياً من درجة أستاذ مساعد إلى أستاذ مشارك، ثم إلى أستاذ لا بد أن ينشر في مجلات أكاديمية محكَّمة، وهذا ما نسعى إليه في الوقت الذي ننشر فيه مقالات حول القدس، كما أننا نريد أن نتيح لإخواننا نشر مقالات متخصصة تساعدهم على الترقيات العلمية في حياتهم الدنيوية. هذا تعريف عام بمجلة دراسات القدس الإسلامية، وحتى الآن صدر من المجلة أربعة أعداد يُتناول بها جملة من القضايا المختلفة والمتعددة؛

فمثلاً: في العدد الأول كان هناك مقالة للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي حول القدس في الوعي الإسلامي، وأيضاً مقالة أخرى للدكتور محسن صالح عن جهود علماء فلسطين في رعاية المقدسات الإسلامية في القدس وحمايتها من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢١م.

ومن المناسب أن نقول: إن الدكتور محسن صالح فاز بجائزة بيت المقدس للعلماء المسلمين الشباب، وهي الجائزة التي يتبناها المجمع سنوياً ويقدمها لأفضل الباحثين في هذا المجال، وفي العدد الثاني - نتكلم عن المقالات باللغة العربية - : كانت هنالك مقالة حول تخريج أحاديث فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى للأستاذ أحمد يوسف أبو حلبية، وكان فيه أيضاً وثيقة عن موقف حزب العمال البريطاني من قضية القدس. العدد الثالث كانت فيه ترجمة للمقالة المهمة جداً التي أود أن يطلع عليها القارئ - وهي باللغة العربية - للمؤرخة الإنجليزية (كارن أرمسترونج) بعنوان: (مكان مقدس: قدسية القدس الإسلامية) ومقالة أخرى بعنوان: (القدس نقطة مركزية في حياة صلاح الدين) لمؤرخ إنجليزي آخر بالإضافة إلى المقالات الإنجليزية الأخرى، أما العدد الرابع فيتضمن مقالاً عن مركزية القدس في الإسلام للأستاذ الدكتور: إبراهيم زيد الكيلاني، ومقالاً آخر عن أهمية القدس عند المسلمين للدكتور: مروان أبو خلف.

● **كما هو ملاحظ فإن مجلتكم تخاطب الطرف المقابل باللغة الإنجليزية؛ فهل توجد شريحة مهمة في المجتمع البريطاني تشارك في الحوار الهادئ وتوجهون لها الخطاب حول هذه القضية؟**

■ لا شك أن هذه المجلة هي مجلة محترمة في جميع الأوساط الأكاديمية وجميع الجامعات الغربية والأمريكية والبريطانية، وهذه المقالات التي تنشرها تهدف إلى تعميق هذا الحوار حول موضوع القدس، وقد يكون من الجميل في هذا الإطار أن يكتب المقالات المفيدة للحقل الإسلامي باحثون وعلماء مشهورون في العالم الغربي؛ مما يؤثر إيجابياً على عقلية الإنسان الغربي. فمثلاً: عندما يقرؤون مقالة لكارن أرمسترونج وهي معروفة جداً في مجال التأريخ، فإن هذا يؤثر جداً في العقلية، ولعلي أقول: إن بعض السياسيين البريطانيين الذين يحضرون المؤتمرات دهشوا من الكم الهائل للمعلومات الإيجابية التي قالتها كارن أرمسترونج حول موضوع القدس، وعلق أحدهم قائلاً: إننا نجهل الجانب الآخر عن القدس وهو الجانب الإسلامي، وقال: إنه لا يمكن حل قضية القدس دون الأخذ بعين الاعتبار البعد الإسلامي لهذه المدينة. إذاً هذا الحوار الذي بدأ منذ أربع سنوات حول قضية القدس أستطيع أن أدعي أننا بدأنا نقطف ثماره بعد تزايد عدد المهتمين والمؤيدين والمتخصصين من الجانب الغربي بقضية القدس.

● **حقيقةً الإشارة إلى المؤتمرات التي هي من مجالات عمل مجمع البحوث مهمة؛ فهل لكم أن تحدثونا أكثر عن المؤتمر الأول والثاني وما تنوون عقده من مؤتمرات في المستقبل القريب - إن شاء الله؟**

■ المؤتمرات أيضاً تدور في نفس الهدف لمجمع البحوث وهو: تأسيس مرجعية حول موضوع القدس، فوجدنا أن الحوار عن طريق المجلة والمحاضرة قد لا يكفي؛ ولذلك فنحن نريد أن نجمع جملة من المهتمين والمختصين من العالم الإسلامي والغربي؛ ليطرحوا قضية القدس للمناقشة؛ فكانت فكرة المؤتمر الأكاديمي الدولي عن القدس الإسلامية.

وأريد أن أركز على أننا نستطيع أن ندعي أننا طرحنا مفهوماً جديداً حول القدس كان غائباً في الغرب والعالم الإسلامي وهو: (مصطلح القدس الإسلامية) هذا المصطلح له أهميته؛ كنا نسمع: القدس اليهودية، القدس النصرانية، القدس العربية؛ ولكن أن نطرح القدس بهذا البعد في بلد غربي فهذا مفهوم جعل الكثير من الغربيين الأكاديميين والسياسيين يعيدون النظر في هذه القضايا. وهذه من بركات المؤتمر الذي يعقد - عادة -

في فصل الصيف قبل العودة للحياة الأكاديمية، وعادة يكون في كلية الدراسات الشرقية الإفريقية بجامعة لندن.

وفي المؤتمر الأول عام ١٩٩٧م كان الحضور مميزاً، وكان الحاضرون على مستوى عالمي من العالم العربي والإسلامي، وأصبح لدينا سُنة - نسأل الله أن تكون سنة حسنة - أن يُفتتح المؤتمر من شخصية سياسية بريطانية لنقل التأثير إلى المؤسسة السياسية. والكلمة التي ألقيت في المؤتمر الأكاديمي الأول سنة ١٩٩٧م كانت من شخصية سياسية بريطانية لنقل التأثير الأكاديمي للدوائر السياسية، وهذا حقيقة ما صنعه الطرف الآخر - يعني اليهود -؛ فقد استطاع أن يؤثر في صناعة القرار في البلاد الغربية؛ مما أدى إلى تحول الغرب تجاه دعم قضيتهم؛ وقد افتتح المؤتمر الأول (إرني روس) رئيس مجلس الشرق الأوسط في حزب العمال البريطاني رئيس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان البريطاني. والمؤتمر الأول في سنة ١٩٩٧م كان مؤتمراً عاماً تحت عنوان: (القدس الإسلامية) أما سنة ١٩٩٨م فكان المؤتمر متخصصاً أكثر وكان عنوان المؤتمر: (مركزية القدس في الإسلام) وأيضاً شاركت فيه نخبة من العالم الغربي هنا، وأيضاً افتتح من الدكتورة (فلس استاكي) نائبة رئيس مجلس الشرق الأوسط في حزب العمال ورئيسة اللجنة البرلمانية لجميع الأحزاب السياسية في البرلمان البريطاني.

وفي ١٩٩٩/٩/٧م انعقد المؤتمر هذا العام تحت عنوان: (العلاقات الإسلامية المسيحية في القدس) ومن المتوقع أن يَفتتح المؤتمر هذا العام وزير الدولة في وزارة الخارجية البريطانية، وأيضاً سندعو له جملة من المختصين والمهتمين بموضوع القدس - إن شاء الله - ونسأل الله أن يعيننا على نقل بعض هذه المؤتمرات إلى العالم العربي، ونحن على استعداد لأن نتعاون مع أي مؤسسة أكاديمية بحتة أو جامعة من جامعات الوطن العربي لعقد مؤتمرات مماثلة في أي قطر أو بلد عربي - إن شاء الله تعالى -.

● **فضيلة الدكتور: هل لكم اتصالات مباشرة مع بعض الجهات الأكاديمية في القدس أو في فلسطين؟ وهل تساعدكم هذه في الحصول على معلومات أو مخطوطات علمية تساعدكم في دراستكم حول القدس؟**

■ نعم! نحن على اتصال مع المؤسسات الأكاديمية في القدس نفسها وبعض المدن الفلسطينية؛ فالطلبة الذين يحضِّرون للدكتوراه هم من القدس أو من المدن الفلسطينية، وهم سيكونون بإذن الله - تبارك وتعالى - خير سفراء لنا في جلب الوثائق والمخطوطات المتعلقة بالقدس. ومن جانب آخر نحن أيضاً على اتصال بالمؤسسات المهتمة بموضوع القدس.

ودعَوْنا في العام الماضي مدير المعهد العالي للآثار الإسلامية بجامعة القدس في داخل القدس للحديث حول القدس في المؤتمر، أيضاً لنا اتصال مع المؤسسات المهتمة بالترميم داخل القدس، ولا سيما جمعية الأقصى لرعاية المؤسسات الإسلامية التي يرأسها الشيخ (رائد صلاح) الذي كان له دور كبير جداً في الحفاظ على المسجد الأقصى، وأخص هنا الدور الكبير التي قامت به هذه الجمعية في تحويل التسوية الشرقية للمسجد الأقصى والتي تعرف حالياً بالمصلى المرواني التي تبلغ مساحتها خمسة آلاف متر مربع، وكانت خالية يُمنع الدخول إليها إلا بإذن، فعندما اكتشفت جمعية الأقصى أن اليهود يسعون إلى عمل نفق يربط حائط البراق (الذي يسمونه حائط المبكى) بتلك التسوية بادرت تلك الجمعية إلى العمل في داخل هذه التسوية فتم تبليطها وترميمها وفرشها، والآن أصبحت مصلى يصلي فيه أهل الإسلام في فلسطين، وهذه الحال لم تكن كذلك منذ الاحتلال في عام ١٩٦٧م. فنحن على اتصال دائم داخل القدس مع المؤسسات العلمية والأكاديمية والشخصيات التي نأمل أن تكون عناصر في هذا المجال، بالإضافة إلى المؤسسات التي تتولى ترميم ورعاية وحماية المسجد الأقصى المبارك ومدينة القدس بصفة عامة.

● نود أن نسأل عن نشاطاتكم الأخرى من خلال مجمع البحوث، وما هي طموحاتكم لتطوير المجمع؟

■ بالإضافة للمؤتمر الأكاديمي الدولي السنوي، والمجلة، والمنح الدراسية لدينا سنوياً معارض فوتوغرافية حول موضوع القدس؛ وكل معرض يحمل مفهوماً نريد أن نوصله إلى من يشاهده؛ ففي السنة الأولى - على سبيل المثال - عملنا (درة المدينة المقدسة)، وكنا نريد أن نغير مفهوماً خاطئاً في عقلية المسلم والغربي في نفس الوقت، وأردنا أن نقول: إن المسجد الأقصى ليس قبة الصخرة، وإنما القبة جزء من المسجد الأقصى.

المعرض الثاني كان لتوضيح فكرة التواصل المستمر للمسلمين مع القدس منذ الفتح الإسلامي حتى هذه اللحظة، وأن الوجود والصفة الإسلامية حول هذه المدينة صيغت مباشرة بعد الفتح الإسلامي للقدس. ونحن في الطريق إلى إعداد المعرض الثالث - بإذن الله - إضافة إلى أن لنا نشرة تصدر أربع مرات في السنة باللغة العربية والإنجليزية: وهي نشرة إخبارية نخاطب بها عامة المسلمين والغربيين، ونحاول أن نوصل لهم أحدث الأخبار التي لا تنشر في الصحافة حول موضوع القدس باللغة العربية وتسمى: (نداء العلماء) وباللغة الإنجليزية تسمى: (The Holy Sity).

هذه نبذة مختصرة حول ما نقوم به لتأسيس المرجعية الجديدة حول موضوع القدس بأسلوب حضاري مميز نأمل تحقيقه، وأشياء كثيرة جداً؛ ولكن طموحنا في إطار المعقول، وليس طموحاً فيما لا يمكن أن نحققه.

نحن منذ إنشاء المجمع ١٩٩٤م نخطو خطوات دقيقة وبطيئة وهادئة بعيدة عن أي صخب أو ضوضاء؛ وهذه الطريقة تعطينا مصداقية في عالمنا العربي والإسلامي والعالم الغربي، ونأمل - إذا ما توافر لدينا الدعم المالي اللازم - إلى زيادة عدد المنح الدراسية وزيادة المعارض.

والمجلة تصدر أربع مرات في السنة، ونقوم بطباعة بعض الوثائق حول موضوع القدس، وعقد مؤتمرات في البلاد الغربية كذلك لتوعية ونقل هذا الاهتمام الحضاري إلى عالمنا العربي، ونأمل كذلك في توثيق علاقتنا بالجامعات العربية والجامعات الإسلامية ومراكز البحث العلمي في تلك البلاد، ولكن كثيراً من المشاريع التي ناقشناها في مجمع البحوث وتوقفنا عن تنفيذها كان بسبب عدم توفر الدعم المالي. نحن على استعداد أن نناقش جميع المشاريع التي لدينا مع أي جهة خير أو فرد يريد أن يدعم هذه المشاريع بإذن الله - تعالى - فالمشاريع كثيرة؛ والطموحات كثيرة؛ ولكننا نريد أن نكون واقعيين في تعاملنا فلا نريد أن نطرح قضايا كثيرة جداً وهي بحاجة إلى دعم كبير، ونريد أن نتعامل مع ما هو متوافر لدينا؛ فإن توافر لنا الدعم فمن المؤكد أننا سننطلق في مشاريع كثيرة جداً تشمل بقية أوروبا وأمريكا والعالم العربي والإسلامي.

أريد أن أذكر نقطة وهي: نشر الكتب، فلقد قمنا مؤخراً بنشر كتاب وثيقة حول حائط البراق الشريف الذي أصدرته اللجنة الدولية عام ١٩٣٠م وصادقت عليه الحكومة البريطانية وعصبة الأمم عام ١٩٢١م بعد ثورة البراق ١٩٢٩م، وهذه الوثيقة لمن يريد أن يتكلم بالشرعية الدولية والقانون الدولي نقول بكل وضوح: إن حائط البراق هو ضمن أوقاف المسلمين وإن ملكيته تعود إلى المسلمين، والكتاب باللغتين العربية والإنجليزية.

وأختتم حديثي بأننا بفضل الله - تعالى - على قناعة بهذا المشروع، ولقد وافقت الجامعة التي أعمل بها على طرح مقرر أتولى تدريسه حالياً اسمه: (القدس الإسلامية) ليدرس لطلبة البكالوريس؛ فهذا إنجاز كبير. والحمد لله رب العالمين.



مستقبل العمل الإسلامي في فلسطين

عبد الملك محمود

لا شك في الدور الضخم للانتفاضة في فلسطين الذي أخاف أعداء الأمة من يهود ونصارى، وقد خطط الأعداء طويلاً ومكروا مكر الليل والنهار، خصوصاً عندما رأوا تأثير الانتفاضة حتى توصلوا إلى أفكار ومشاريع مختلفة. هؤلاء الأعداء المتربصون كثر، وعلى رأسهم الحلف اليهودي النصراني الدنس. وكان من أبرز ما تمخض عن مشروعات الأعداء للمنطقة (اتفاقية أوسلو للسلام)، هذا المشروع الذي أقيم أصلاً للمحافظة على مصالح دولة «إسرائيل». وهي مصالح لا تتحقق إلا بضرب كل ما يمت للإسلام بصلة وصد الناس عن دين الله، فالتقت مصالح اليهود والعلمانيين من السلطة وغيرها، فتعاونوا على حرب تلك الانتفاضة.

وقامت هذه الحرب على عدة محاور:

١ - إنهاء الانتفاضة ورموزها.

٢ - القضاء على النشاط الإسلامي وتجفيف منابعه.

٣ - شن حرب شرسة على الأخلاق، ويرتبط بها سياسة التجويع والتجهيل.

٤ - إنهاء أي صورة من صور المعارضة لمشاريع السلام ومحاولة ضرب الإسلاميين بشتى الوسائل.

ولعلنا نشير فيما يلي إلى بعض النقاط حول طبيعة المعركة الحالية، ثم بعد ذلك نعرج على الموضوع الأهم وهو حديث في النقد الذاتي داخل البيت الواحد، ونريد من إخواننا العاملين في فلسطين على كافة اتجاهاتهم أن تتسع صدورهم للحديث؛ فهم منا ونحن منهم، ونحن نثق بإخواننا ونقول لهم: لسنا أوصياء عليكم ولكنها النصيحة الواجبة علينا وما يهمكم يهمنا. لذا سنتحدث قليلاً عن بعض المراجعات والدروس ـ نظراً لعدم اتساع المقام - ثم نشير إلى بعض المسائل الإيجابية التي يجب أن تُنمى ويركز عليها.

القضاء على الانتفاضة وبذورها:

كانت هناك محاولات ومخططات للقضاء على الانتفاضة، وأخيراً توقفت الانتفاضة، ووقف شمعون بيريز بعد عام من اتفاق أوسلو في الكنيست يدافع عن الاتهامات الموجهة له ولحزبه بالتسرع في الاتفاق مع السلطة الفلسطينية، فقال: «إلى من يعترض على برنامج حكومتنا أقول شيئين: الأول: نحن إذا رجعنا بالذاكرة إلى الوراء فسنرى أنه لم يكن أمامنا إلا خياران: إما أن نأتي بالمنظمة الضعيفة ونسلب منها كل مقومات المقاومة ونتفاوض معها وهي ضعيفة بشروطنا، أو أن نذهب إلى حماس ونتفاوض معها وهي قوية وتلقى قبولاً لدى الناس

والشارع الفلسطيني ونضطر إلى مفاوضتها بشروطها هي. الثاني: اذهبوا إلى غزة الآن وانظروا إلى حال المرأة الفلسطينية في غزة وكيف حجابها؟ من يستطيع أن يقول إن المرأة كانت تستطيع نزع الحجاب أيام الانتفاضة»؟

لقد كانت حال المجتمع الفسلطيني خلال الانتفاضة تمثل نوعاً من التكافل والترابط والعودة إلى الدين. كانت هناك صورٌ جيدة من التكافل والنظافة الاجتماعية وربما كان ذلك بسبب التماسك في وجه العدو المشترك ومشاركة الذين فقدوا أبناءهم أو أصيبوا بما أصيب به كل بيت. لم تكن تسمع عن حالات الفجور التي نراها الآن. ولم تكن هناك قوات ردع أو شرطة تجبر الناس على الحجاب؛ فقد كانت الأخلاق بصورة عامة منضبطة نوعا ما.

ومثالٌ على هذا: اتجه الناس أيام الانتفاضة إلى تبسيط الأعراس وعدم البذخ؛ فكان مبلغ ٥٠٠ دينار كافياً لإقامة الزواج وحفلته. أما الآن فإن ظاهرة التنافس في الأعراس في فلسطين أصبحت لا تطاق من مغالاة في المهور، فضلاً عن مظاهر البذخ والانحلال والتقليعات الجديدة والفساد في الحفلات مثل استئجار عدد كبير من السيارات والذهاب إلى البحر في غزة أو غيرها، أو موضة الذهاب إلى مطار رفح والتقاط الصور في صالة المطار... وعادات أخرى عجيبة بدائية، وتضييع للأموال والأوقات والانشغال بأشياء تافهة؛ وبهذه الطريقة لا يفكر الناس باليهود ولا بما يقومون به. بينما يقوم اليهود في بناء المستوطنات وتفريغ القدس والاستيلاء على مزيد من الأراضي.

القضاء على النشاط الإسلامي، وسياسة تجفيف المنابع:

لقد نصت الملاحق السرية لاتفاقية أوسلو على محاربة الإسلام والنشاط الإسلامي، وبذلت السلطة في ذلك جهوداً كبيرة شملت تصفية رموز الإسلاميين ومطاردتهم خصوصاً أصحاب الجناح العسكري، كما شملت تشديد الخناق والاعتقالات والتعذيب. ومن جهة أخرى عملت السلطة على إقفال الجمعيات والمؤسسات الإسلامية على الساحة، وإبعاد الخطباء النشطين، حتى إن الخطيب لا يسمح له بالقيام بخطبتي جمعة متتاليتين. لقد بدأت السلطة باكراً بهذه السياسة، ومن المفارقات أن يكون من أولويات السلطة إنشاء المعتقلات والسجون والتشديد الأمني قبل أن تبدأ بأي شيء من البنى التحتية التي يفتقدها الناس. إن سجلات عرفات طوال أكثر من ٥ سنوات كلها خزي؛ فمن حصيلة إنجازاته: إنشاء ٣٠ مركز توقيف واعتقال، و١٧ سجناً و٤٠ ألف شرطي!! لقد بدأت المنظمة باكراً بهذه العملية مع استلامها للسلطة فبادرت بعمليات الاعتقال وإغلاق الجمعيات وتجفيف المنابع، وأخذت خلاصة خبرات الأنظمة القمعية في هذا المجال.

من المفارقات - وللحق - أن المسلمين في المناطق التي يحتلها اليهود (مناطق عام ١٩٤٨م) هم أفضل حالاً ممن يرزحون تحت سلطة عرفات. وخلال الأشهر الأولى من عام ١٩٩٦م تعرض الكيان اليهودي لموجة انفجارات عنيفة هزت أركان المجتمع اليهودي وأثارت مخاوفه وقلقه، وكان عقب ذلك تشديد آخر ضخم، وتعقُّب لعناصر حماس وتصفيات جسدية واعتقالات في مناطق ما يسمى بالحكم الذاتي! كان لها تأثير بالغ.

- ولن نتحدث هنا عن مظاهر الفساد الإداري والاختلاسات والرشاوى التي يقوم بها أباطرة السلطة ورجالاتها؛ فهذه القصص حديث الناس اليومي.

تحالف يهودي - أمريكي - عرفاتي - عالمي:

أما عن تعاون السلطة مع اليهود فهو واضح وأدلته كثيرة؛ فقد تكلم بيريز مع نتنياهو عندما سأله: لماذا لا

تترك الخليل؟ فقال نتنياهو : لماذا لم تنسحب أنت في الفترة السابقة؟ قال : لم أنسحب؛ وذلك بناء على طلب عرفات. وهذه رواية ثابتة عنه. بل إن الخلافات بين «إسرائيل» والمنظمة على مواضيع المفاوضات تبدو وكأنها خلافات داخل الأسرة الواحدة، وكما صرح نتنياهو ذات مرة بأن «الأصدقاء في الأسرة الواحدة يختلفون ثم يتصالحون!».

أما الأنظمة الأخرى، فلا شك أن السباق بينها الآن محموم لإقامة علاقات مع «إسرائيل» وإنهاء الحالة السابقة، والمنطقة كلها تهرول نحو السلام.

وعلى سبيل المثال فإنه عقب فوز باراك في الانتخابات بدأت سوريا تتخلى عن الفصائل المعارضة التي كانت تستخدمها ورقة ضغط، وأرسلت إليها إشارات واضحة بضرورة التفاهم مع السلطة والتخلي عن خيار هذه الورقة - حتى لو كان ذلك عبارة عن مجرد تصريحات على الورق - كما أن هناك مساعيَ لإكمال سلسلة العلاقات المغاربية الإسرائيلية بإيجاد علاقات مع الجزائر؛ وقد بدرت لذلك عدة بوادر منها : مصافحة الرئيس الجزائري لباراك، ومقابلة صحيفة إسرائيلية مع بوتفليقة، وإشارات متفرقة أخرى. وما لا يتم في هذه السنة فسوف يتم في التي بعدها، وما لا يمكن إحرازه على هذه الجبهة يمكن أن يحرز في جبهة أخرى، لكنْ هناك اتفاق على قضايا ومحاور أساسية من أبرزها محاربة (التطرف) الإسلامي، كما حدث في اتفاق شرم الشيخ الذي أطلق عليه : (مؤتمر مكافحة الإرهاب).

نظرة إلى مسيرة المفاوضات:

بمجرد فوز باراك في الانتخابات أطلق لاءاته الأربعة الشهيرة : لا للانسحاب من القدس، لا للدولة الفلسطينية، لا لعودة اللاجئين، لا لإزالة المستوطنات. ومع هذا فلا زالت السلطة ومن حولها تلهث خلف المفاوضات، وهي مفاوضات تسير على وتيرة واحدة. فهناك سلسلة صعبة مما تم تأجيله في المفاوضات كقضية القدس والمعتقلين واللاجئين. ولو سلمنا جدلاً بأن المفاوضات عبارة عن حل وسط فما هو الحل الوسط المطروح في قضية القدس؟ وما هو الحل الوسط في قضية اللاجئين؟ في كل جولة تثار قضايا جانبية ثم تؤجل المفاوضات لفترات ربما تمتد لشهور طويلة ثم تعود ثانية وهكذا. ولننظر على سبيل المثال إلى نموذج من فنون المماطلة اليهودية في قضية النازحين إذا ما تمت الموافقة على بدء الحوار فيها، ولا ندري متى يتم ذلك؛ فإن هناك بعض الطروحات الإسرائيلية ومنها :

١ - تعريف من هو النازح.

٢ - كم عدد النازحين.

٣ - تشكيل لجنة دولية لإجراء إحصاء لمعرفتهم.

٤ - النازحون هم الذين نزحوا عام ١٩٦٧م من الضفة وغزة وليس أبناءهم أو ذويهم.

شكلت لجنة فنية لتعريف من هو النازح أولاً، وانشغلت اللجنة بستة اجتماعات ثم توقفت بموت رابين، وجاء اقتراح بيريز بأن تتم عودة النازحين - في حال الموافقة - بصورة مبرمجة لكيلا يحدث انفجار سكاني في منطقة السلطة[١]، والطريف في الأمر أن هذا البرنامج المقترح يعني أن النازحين ستتم عودتهم في مدة وجيزة لا تتجاوز ٣٠٠ سنة فقط (!!).

---

(١) لا يخشى من حدوث انفجار بعودة ٨٠٠ الف يهودي من روسيا خلال اشهر.

وأحياناً تدور المفاوضات حول قضايا معينة مثل مسألة ميناء غزة ومسألة فتح شارع الشهداء في الخليل وربما تكون على مستوى آخر كمسألة الممرات الآمنة، وهكذا تؤجل القضايا الأساسية الضخمة؛ فهناك حرب إسرائيلية شاملة شرسة لتفريغ القدس من أهلها المسلمين، والمستوطنات تزداد رسوخاً (ربما يسمح بإزالة بعض بيوت الصفيح المتنقلة) وعدد اليهود القادمين إلى فلسطين يزداد (تقرير في مجلة المجتمع العدد الأخير أوائل نوفمبر ١٩٩٩م تحدث عن قرب هجرة ٢٤٠ ألف من اليهود الروس خصوصاً عقب الحرب في الشيشان) وهكذا فالعدو الإسرائيلي الماكر يبرمج الحلول كما يشتهي، والسلطة تقابل ذلك بمسيرة تنازلات والرضى بأي شيء: ممر آمن، أو غيره[1]. وما لقاء أوسلو الجديد في أوائل نوفمبر ١٩٩٩م سوى استمرار للمسيرة نفسها، ولا ينسى عرفات في التوقيت نفسه (ذكرى مقتل رابين) أن ينحني ليقبل يد زوجة رابين كأنها إشارة إلى مسلسل الانحناء والذل لليهود.

مثال: قضية المعتقلين:

يقدر عدد المعتقلين بنحو ٧٠٠٠ معتقل، وقد أطلق سراح بعض المتهمين في قضايا جنائية، وفي العام الماضي طالبت المنظمة بإطلاق سراح ٧٥٠ من أعضاء فتح والجبهات العلمانية فأطلق سراح ٢٥٠ منهم: ١٥٠ جنائي، و١٠٠ سياسي، ومنذ نحو شهر ونصف أطلق سراح ٢٠٠ والباقي نحو ٣٠٠ من فتح والعلمانيين من المتهمين بقتل يهود أو المساهمة في العمليات، أما الإسلاميون فيقدر عددهم بنحو ٣٠٠٠ مَن أُخرج منهم حديثاً بعضهم اقتربت نهاية محكوميته، ومن الطريف أن هناك شخصاً بقي له أسبوع فقال: اتركوني حتى ينتهي الأسبوع وخذوا مكاني آخر.

«إسرائيل» غير مستعدة لمناقشة موضوع الإسلاميين في السجون، بل وغير الإسلاميين ممن ثبت أنه سفك الدم اليهودي (المقدس). والحقيقة أن المنظمة ليس لديها القوة للمطالبة بهؤلاء، بل لا بد من موافقة مكتب الـ (سي آي إيه) في غزة بناءاً على اتفاقات أوسلو، وهو مكتب قوي له إمكانات واتصالات وحسابات، وهو موجود لحل بعض المعادلات والوصول إلى الأسماء والمعلومات المطلوبة. ومن الجدير بالذكر أن عبد العزيز الرنتيسي المعتقل لدى السلطة ـ وهو من قادة حماس ـ ممنوع إطلاق سراحه بناء على طلب «إسرائيل» وأمريكا على خلفية أنه رجل قوي الشخصية وإداري، ووجوده خارج السجن يعني قوة لحماس وكلامه مقبول، وهناك اتفاق مسبق بين المنظمة و«إسرائيل» بعدم إطلاق سراح هؤلاء، فالمعادلة إذن محسومة.

حرب على الأخلاق:

من أبرز أهداف المشروع اليهودي الغربي للمنطقة محاربة الأخلاق؛ فهو يحرض على نشر الفساد والرذيلة، وقد ركز الأعداء على هذا الأمر؛ لأن الانهيار الأخلاقي مفتاح استسلام الشعوب وقبولها للذل والتبعية والتغريب.

وبمجرد استلام رجال المنظمة للسلطة تم استيراد بعض فرق الباليه من روسيا ومن مصر، فضلاً عن استقدام الفنانات؛ بينما أهملت البنية التحتية: الكهرباء، والماء.

كما قامت السلطة بعمل ترميم وبناء لدور السينما التي دمرت خلال الانتفاضة وكانت هدفاً للإسلاميين[2]،

---

(١) نرجو أن لا تكون الممرات الآمنة عاملاً مساعداً في القمع ومطاردة الإسلاميين.

(٢) ففي عام ١٩٨٥م تحرك بعض المشايخ وطلاب العلم فاحرقوا خمارة في خان يونس وأخرى في منطقة اخرى من غزة.

فبدأت سينما النصر في غزة تعمل بعد ترميمها، ولكن الله قدر أن تخرب مرة أخرى أثناء أحداث ١٨ نوفمبر الماضي، كما تستعد السلطة لافتتاح سينما الجلاء في غزة. وفي إطار إنجازاتها قامت السلطة بتشييد الكازينوهات مثل: كازينو زهرة المدائن، وكازينو النورس وعددها في ازدياد، وقد كان لسهى الطويل زوجة عرفات دور أساس في إنشاء هذه الكازينوهات ورعايتها، كما تقوم قوات الشرطة الفلسطينية بحراسة هذه الكازينوهات؛ لأنهم خائفون على هذه الإنجازات من العبث أو الغضب الشعبي. ويكفي أن نذكّر بأحد منجزات السلطة وهو مشروع الكازينو الضخم في أريحا ويحوي صالة من أكبر صالات القمار في العالم، وعُملت له دعاية ضخمة، واستُقدمت إحدى الممثلات الأمريكيات لافتتاحه، وهكذا وكأن الشعب الفلسطيني لا ينقصه إلا مشاهدة الأفلام والكازينوهات؛ وهذا شيء بسيط من إفرازات أوسلو أو الاتفاقات اليهودية الفلسطينية. والذي عايش الأوضاع في فلسطين قبل خمس سنوات يرى الآن صوراً كثيرة من الفجور والسرقات وغيرها من الأخلاق السيئة.

العمل الإسلامي آمال وآلام:

لا شك أن النشاط الإسلامي المعاصر في فلسطين له تاريخ عريق بدأ منذ أوائل القرن، وما ثورة القسام إلا صورة من صورها المشرقة، ورغم المؤامرات الضخمة وتكالب الشرق والغرب إلا أن النشاط الإسلامي انتعش وقوي بحمد الله - تعالى - وكان أوج نشاطه أيام الانتفاضة. وبعد الانتفاضة كان حقاً علينا أن ندرس واقعنا بصورة أكثر عمقاً وبعداً عن السطحية، دراسة لنقاط القوة والضعف، وللإمكانات والفرص الضائعة والمتاحة. لذا كانت هذه بعض الإشارات التي ينبغي علينا الانتباه إلى واقعنا من خلالها، مثل:

- الأزمة الأخلاقية التي تحدثنا عنها قبل قليل.
- الجهل والغفلة والبدع.

حدثني أحد الإخوة من شخصيات حماس عن بعض الأمور العجيبة من انتشار الدجل والشعوذة والسحر، ومن يذهب إلى هناك لفترة قصيرة فسيسمع عشرات القصص المضحكة المبكية عن صور من الدجل الذي يتم. وذكر لي هذا الأخ قصة أناس مرض أحد أبنائهم فذُكر لهم أن فلاناً يمكن أن يكون عنده العلاج، فشدوا الرحال إلى خان يونس وقال لهم المشعوذ: دوروا حول هذا الشيء الذي جعله لهم في وسط المجلس، فأخذوا يدورون وهو يقول لهم: أخرجوا كل شيء من جيوبكم وضعوه على الأرض فيقوم هو بأخذ ما يحتاجه فقط وهو الأموال (!) وبعد اللفات العلاجية يطلب منهم أن يأخذوا هوياتهم وأوراقهم الهامة التي رموها على الأرض حتى لا يواجهوا صعوبة من اليهود أثناء عودتهم، ويسألونه إن كان يريد مالاً فيعتذر الرجل؛ لأن عمله لله! ولا أحد يستطيع سؤاله عن الأموال التي سرقها وهم يدورون كحمار الرحى!!

كما حدثني هذا الأخ عن انتشار البدع الصوفية والأفكار المنحرفة بتشجيع ودعم من السلطة وحمايتها، مثلاً: إذا وُلِدَ لإنسان ولد فإنهم يذهبون به إلى ما يسمى مقام الخضر في «دير البلح» ويذبحون عند الخضر ويلطخون رأس الولد بالدم! فهل هذا إلا صورة من الجاهلية الأولى؟!

ضعف في العلوم الشرعية وسياسة التجهيل:

الشعب الفلسطيني عموماً بقدر تقدمه في العلوم المادية وحيازته أعلى الشهادات فإنه يعتبر فقيراً جداً في العلوم الشرعية؛ ولذلك فلا بد من إيجاد مشاريع لإنشاء معاهد ومدارس للتربية وتعليم العلوم الشرعية وإنشاء مكتبات: مكتبات عامة، مكتبات في المساجد، وحلقات علمية؛ وتزويدها بما تحتاجه من الكتب والمراجع.

مراجعات:

ونحن نقصد بهذه المراجعات ضرورة النقد الذاتي ومحاسبة أنفسنا ؛ فهو نقد داخل البيت الواحد ، ونحن ننتقد أنفسنا ، وهذا العمل منا ونحن منه ، والأخطاء أخطاؤنا قبل أن تكون أخطاء غيرنا . ومن جهة أخرى فمما لا شك فيه أن الذي يعمل ويتحرى الحق خير من القاعد ، ونحن أمة واحدة كالجسد الواحد ، كما أن المسلمين ينصح بعضهم بعضاً ويسعون إلى الاستفادة من الدروس ، والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين .

لقد تضخم العمل الإسلامي في فلسطين - وفي أماكن كثيرة أخرى في بلادنا - وكثيراً ما كان التضخم والتوسع بدون دراسة - ونحن لا نقصد الجانب القدري الكوني في المسألة - نقول هذا للإشارة إلى مشكلة الترهل التي تصاحب كثيراً من الجماعات الإسلامية التي تسلك السبيل نفسه ، وهي تذكرة لنا ولإخواننا ؛ والحر تكفيه الإشارة . ولعل هذا يدفعنا إلى دراسة كيفية الانتشار ووسائله ، والتوسع والتوثيق بين العاملين ، ومعرفة حقيقة حجمنا حتى تبنى الأمور على قواعد معلومات دقيقة .

والشيء بالشيء يذكر ؛ فإنه رغم الدور الضخم للإسلاميين في تفعيل الانتفاضة إلا أنه للإنصاف لا بد من تقدير حجم ودور التيارات الأخرى الموجودة والظروف التي رافقت عملية الانتفاضة . فهل بالغنا في تقدير قوة حماس وقيمتها أيام الانتفاضة؟ هل كانت حماس هي صاحبة الانتفاضة أم أنها كانت رقماً كبيراً ؟ ألم يكن ثمة دور لأبي جهاد وفتح في العملية؟

القيادة والمسؤولية:

ربما يكون هناك أناس طيبون فيهم صلاح أو إخلاص ولكن صلاحهم هذا لا يعني أن يتولوا دفة القيادة أو أن يكونوا ناطقين باسم المجموع ، وكم جرَّت مثل هذه الأخطاء أو المجاملات على العمل الإسلامي من ويلات . إنك ترى أحياناً بعض من يشار إلى أنهم قادة يصرحون تصريحات أو تُجرى معهم مقابلات غير موفقة ومحرجة ؛ ولقد شاهدنا في أكثر من بلد أناساً كانوا في السجون وخرجوا منها ، كأن أحدهم خرج من القبر وبعث بعد سنين فهو لا يدري كيف تسير الأمور ثم يتحدث بالأعاجيب ، وهناك يبدأ الأصحاب والأتباع في البحث عن التسويغات والمعاذير التي لا تجدي شيئاً للخروج من الإحراج .

فهم الواقع بصورة أكثر دقة:

وقد أشير فيما سبق إلى شيء من ذلك ، ونود هنا الإشارة إلى أهمية معرفة دور عرفات ورجاله وخططه ، إن زعيم السلطة يقدم مصلحته فوق كل مصلحة ، وإذا رأى أن هناك إمكانية للصلح بسجن أعضاء حماس والجهاد الإسلامي فإنه لن يتردد في سجنهم كلهم . وكمثل كثير من تجاربنا الإسلامية قطف عرفات وجماعته من العلمانيين والنفعيين ثمرة الانتفاضة .

ونود التذكير بأهمية المنطلقات والتركيز على كونها شرعية تماماً ؛ فلقد لسنا في لهجة بعضهم الكلام عن أرض فلسطين وتراب فلسطين ، والوطنية ، وهذا لا يتناسب مع إسلامية القضية ، كما رأينا من بعضٍ آخر عدم الانتباه إلى خطورة الرافضة والحرص على بناء علاقات متينة معهم . ومن فهم الواقع حقيقة أن ننطلق فيه من خلال مبادئ ثابتة . ونعيد هنا التركيز على أهمية المنطلقات ، وضرورة أن تكون سليمة هي ووسائلها حتى لا يكون هناك غبش في الرؤية . ولنأخذ على ذلك مسألتين:

١ - **علاقة الإسلاميين بإيران:** نحن نعلم أن الكثير من الإسلاميين في فلسطين لا يكنون الود للرافضة، لكن حدثت بعض الأمور والعلاقات التي أزعجت عامة التيار الإسلامي، ومنهم كثير من الإسلاميين في فلسطين، وقد كان واضحاً أن مسألة تبني منهج أهل السنة والموقف الشرعي من الرافضة لم تأخذ بعداً منهجياً واضحاً عند قيادة حماس؛ رغم أن عامة شعبنا في فلسطين يذكر تماماً ما فعله رافضة لبنان في المخيمات.

٢ - **العلاقة مع السلطة:** لقد كانت العلاقة مع السلطة مذبذبة وغير واضحة، رغم أن السلطة كانت ظالمة للإسلاميين منذ البداية، ونحن نقدر تماماً التوازنات التي يحاول الإسلاميون تقديرها هناك، ولكن هذا لا يعني بأي صورة أن يكون هناك مداهنة أو موالاة. وللأسف فإن بعض التصريحات والمقابلات التلفزيونية والصحفية مع بعضهم أعطت إشارات سلبية في هذه القضية، ولذا فإننا نحذر إخواننا من محاولة جر السلطة لهم لحقل الألاعيب السياسية، ومحاولات تفريغ العمل من حقيقته.

ونرجو ألا يكون هناك ـ مستقبلاً ـ أي استغلال من السلطة للإسلاميين؛ فلقد قطفت السلطة ثمرة الانتفاضة، ولا نريد أن يكون هناك مزيد من الخسائر أو أن نفاجأ بجر الإسلاميين بالألاعيب السياسية ودهاليز الوزارات، ومن الضرورة فهم من هم أعداؤنا، ومعرفة حجمهم وأدوارهم وفضح المنافقين.

إن التحالف القائم، وإن لم يكن قد تم بصورة رسمية مع الأمريكان واليهود والعلمانيين إلا أننا نعلم ذلك يقيناً، ولسان الحال ينطق بذلك؛ فهو حلف تشترك فيه كل التيارات العلمانية، ومن رموزه: الجبهة الشعبية «جورج حبش»، والديمقراطية «نايف حواتمة» وقد رأينا اتصالات المنظمة للحوار مع هذه التيارات والوعود بإعطائها بعض المناصب، وهذه الجبهات متعددة الوجوه؛ حيث تقوم بأدوار تمثيلية عدة، فتلبس لكل حالة لبوسها، ومثل هذه الجبهات المتعددة؛ الأقنعة التي تلبس لكل سياسة قناعاً لا يمكن إقامة أي نوع من التحالف أو التعاون معها.

الأمل والمستقبل:

هناك صراع طويل وكبير بين الإسلام واليهود، والنصوص الشرعية تشير إلى هذا. نعم! ربما ليست لدينا القوة على التغيير حالياً، ولكن لدينا القدرة ـ بإذن الله ـ على الإعداد لهذا التغيير. وهذا الصراع والهجمة العالمية دخل فيها أطراف وتحالفات من النصارى الأمريكان - على وجه الخصوص - وأنظمة مرتدة ودول تحمي وتدعم بطرق مختلفة؛ صراع تنوعت فيه الأدوات والوسائل، وجند فيه نظام العولمة والإنترنت، وسخرت الإمكانات الضخمة لخدمة اليهود. وبرغم هذا فإن المسلمين ما خرجوا إلا من منطلق: لا يزيدهم هذا الأمر إلا إيماناً وتسليماً بموعود الله كما في سورة الأحزاب: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] ألا ما أشبه الليلة بالبارحة! الإسلاميون يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢] إنه وعد لا يشك فيه أحد.

وسواء توقفت العمليات الجهادية ضد اليهود حالياً أو لم تتوقف فإن مشروع الجهاد لا تملكه السلطة بل ولا حماس ولا غيرها، إنه وسيلة الأمة كلها، لدفع العدوان ودحره والله - سبحانه - هو الذي يختار ويصطفي وهو الذي وعد بأن يبعث على اليهود إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب من المسلمين أو من الألمان أو من غيرهم، ونحن نوقن أيضاً بأن سنة التدافع خير للأمة وفيها مفاتيح الفرج للمسلمين ـ إن شاء الله ـ.

نعم! إن الوضع العام الغالب يدل على الضعف، وهذا صحيح؛ حيث رمانا الأعداء عن قوس واحدة، وهناك من توجد عنده سلبية أو ينظر بتشاؤم، ولا زلنا ـ حتى اللحظة ـ نعاني صوراً من القصور والضعف والتشتت؛ ولكن أغلب الإسلاميين يقولون: ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾، ويوقنون بأنه لا بد من الابتلاء والتمحيص والفتنة، ويشعر الكثيرون أننا نحن لضعفنا لا زلنا في مرحلة لم نتأهل بعدُ لنصر الله، وسلعة الله غالية، ولو انتصر المسلمون الآن على ما فيهم من ضعف وقصور ربما كان الأمر أشد فتنة.

– لا بد من تنمية الخير الموجود في النفوس. ولا بد للطاقات من أن تُنمَّى وتوجَّه بصورة سليمة حسب الظروف التي يراها العاملون هناك بالحكمة.

– لا بد من التركيز على إنشاء المراكز والمعاهد الشرعية ومدارس تحفيظ القرآن، ونحن نعلم أن هناك بوادر جيدة في هذا الإطار للأعمال الإغاثية وطلاب العلم ورعاية الأيتام والأرامل، ولكنها مشاريع بحاجة إلى تركيز ودعم ودراسة أكثر. وهذه مناسبة نطلقها إلى الجميع لتبني قضايا المسلمين في فلسطين، وهي دعوة للمحسنين في بلاد المسلمين للإنفاق ولدعم إخوانهم المحاصَرين من كل جهة لدعم مراكزهم ومساجدهم وطلاب العلم لديهم، ومن العجب أن السلطة المفلسة لما رأت هذا النوع من النشاط بدأ ينتشر صارت تنافس الجمعيات الخيرية في انتشار حلقات التحفيظ في المساجد[1]، والأوقاف انشأت بعض مشروعات تحفيظ القرآن الكريم، وما ذلك إلا لأنهم شعروا بأن الجمعيات الخيرية تنشط في الحلقات وتحاول سحب البساط. ولعل هذا مصداق سنة التدافع التي جعلها الله – سبحانه – لصالح عباده وعمارة الأرض.

– ونعيد التأكيد هنا على مسألة بث العلم الشرعي وتصحيح مفاهيم الناس من خلال الخطب والمحاضرات والحلقات القرآنية والندوات والمراكز الصيفية.

– توحيد الصفوف والبعد عن الحزبية الضيقة وعدم إثارة الخلافات، وهي وإن كانت قليلة – بحمد الله – مقارنة بما في غيرها من البلاد، إلا أنه لا بد من السعي للتنسيق على الأقل بين جميع العاملين المخلصين.

– فهم الواقع بصورة أكثر دقة وشمولية، وقد سبقت الإشارة قبل قليل إلى شيء من هذا.

– التركيز على مسألة التربية ثم التربية، وهي تشمل التربية الجهادية وغيرها.

دور المسلمين:

إن شعبنا في فلسطين تحيط به «إسرائيل» من جميع الجهات، وله حق كبير في النصرة والدعم والتأييد خصوصاً في ظل أجواء التجويع والبطالة الموجودة. الدعم المعنوي مطلوب من دعاءٍ ونصيحةٍ وتواصلٍ وكذلك الدعم المادي للمشاريع الخيرية التي قامت وتقوم – بحمد الله وفضله – من بناء المساجد والمراكز الصيفية والحلقات القرآنية والمدارس ونشر الكتاب والشريط الإسلامي.

(١) لعل هذا من قبيل: إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر.



حزب الله.. رؤية مغايرة!!

(٣) البناء بالحرب!!

عبدالمنعم شفيق

في ١٨ فبراير من عام ١٩٧٤م، وقبل بداية الحرب الأهلية اللبنانية بعام تقريباً، وقبل اندلاع الثورة الإيرانية بسنوات قليلة، وقف موسى الصدر أمام حشد كبير من شيعته ليقول: «إن اسمنا ليس المَتَاوِلة، إننا جماعة الانتقام، أي هؤلاء الذين يتمردون على كل استبداد، حتى إذا كان ذلك سيكلفنا دمَنا وحياتنا، إننا لم نعد نريد العواطف، ولكن نريد الأفعال، نحن تعبون من الكلمات والخطابات، لقد خطبت أكثر من أي إنسان آخر، وأنا الذي دعا أكثر من الجميع إلى الهدوء، ولقد دعوت إلى الهدوء بالمقدار الذي يكفي، ومنذ اليوم لن أسكت أبداً، وإذا بقيتم خاملين، فأنا لست كذلك»(١).

«لقد اخترنا اليوم فاطمة بنت النبي، يا أيها النبي، يا رب، لقد اجتزنا مرحلة المراهقة، وبلغنا عمر الرشد، لم نعد نريد أوصياء، ولم نعد نخاف، ولقد تحررنا، على الرغم من كل الوسائل التي استخدموها لمنع الناس من التعلم، ولقد اجتمعنا لكي نؤكد نهاية الوصاية، ذلك أننا نحذو حذو فاطمة، وسننتهي كشهداء»(٢).

وبهذا الإعلان «الثوري» كانت بداية جديدة للحركة السياسية الشيعية في لبنان، وكانت نقطة الانطلاق التي اتفق فيها الصدر مع فضل الله.

«أمل» تبعث الأمل:

قصة البداية: بعد حرب العام ١٩٤٨م لجأ إلى لبنان أكثر من ١٥٠ ألف فلسطيني، وفي منتصف السبعينات الميلادية وصل هذا العدد إلى أكثر من ٤٠٠ ألف، وفي أعقاب الصدام العنيف في «أيلول الأسود» من عامي ١٩٧٠، ١٩٧١م بين المنظمات الفلسطينية، والسلطات الأردنية، لجأ كثير من هذه المنظمات إلى لبنان، وبطبيعة الحال فإن هذه المنظمات كانت أفضل تسليحاً وتنظيماً من أي قوة أخرى في الجنوب، في ذلك الوقت كان المجتمع الشيعي في حالة صحوة كما مر، واجتمع للشيعة عدة عوامل تزيد من عدم رغبتهم في هذا الوجود الفلسطيني، ومنها:

١ ـ عامل التاريخ: وهو ذلك العداء القديم لأهل السنة؛ فهاهم الآن في معقل من معاقلهم «جبل عامل» وبقوة مسلحة تستطيع تهديدهم بشكل مباشر ولهذا كان الشيعة أول من سارع لمساندة الجيش اللبناني «الموارنة» في الاشتباكات التي جرت مع المنظمات الفلسطينية، بل ومساعدة اليهود في ذلك

---

(١) الإمام المستتر، فؤاد عجمي، ص ١٥٥.

(٢) الإسلام الشيعي، عقائد وأيديولوجيات، يان ريشار، ترجمة: حافظ الجمال، دار عطية للنشر والترجمة ـ بيروت، ط ١/١/١٩٩٦م، ص ١٩٩، ٢٠٠.

أيضاً؛ فالموارنة لا يريدون تكثير «السنة» لأجل إنشاء دولتهم النصرانية، واليهود لا يريدون الفلسطينيين في لبنان لئلا يتهـدد أمنهم مـن الشمال، والشيعة لا يريدونهم كذلك؛ لأنهم يمثلون عائقاً أمام تحقيق وجودهم وكيانهم الذي يسعون من أجله.

٢ ـ عامل الجغرافيا: وهو الرغبة في عدم إثارة الدولة اليهودية «الجارة» وهذه الإثارة تنتج عن مهاجمة المنظمات الفلسطينية لأي أهداف إسرائيلية سواء من داخل لبنان أو خارجها، وذلك أن دولة اليهود دأبت على تأديب سكان الجنوب كلما حدث ذلك لتزيد من النقمة الشيعية على الفلسطينيين.

٣ ـ عامل الأيديولوجيا الثورية: حيث إن الشيعة في حال جديدة رغبة في التطلع لوضع سياسي واجتماعي يدفعهم نحو الدولة الحلم في لبنان، والتمكين للطائفة في الواقع اللبناني، وحيث إن الجنوب هو معقلهم التاريخي، فلا مناص إذاً من التخلص من هذا العائق الكبير الذي يقف أمام هذا الحلم.

ولهذا فقد كان من الضروري التعامل مع هذه القضية الشائكة بحذر وجدية في الوقت ذاته.

فالحذر: كان لاعتبار تلك النداءات التي أطلقها الصدر من أنهم يحملون هَمَّ القضية الفلسطينية وأنها قلب دعوتهم كما جاء في ميثاق حركته:

«فلسطين، الأرض المقدسة التي تعرضت - ولما تزل - لكل أنواع الظلم، هي في قلب حركتنا وعقلها، وإن السعي إلى تحريرها أول واجباتنا، وإن الوقوف إلى جانب شعبها وصون مقاومته والتلاحم معها شرف الحركة وإيمانها»(١).

كما كان من دواعي الحذر أن الصدام السريع مع المنظمات الفلسطينية سوف يكون لصالحها لا محالة.

وأما الجدية: فكانت في إيجاد حركة مسلحة تستطيع تحقيق الأمن الذي تحتاجه الطائفة الشيعية، والتخلص من هذا الهمِّ الجاثم على صدورهم، وكان أن أُعلن عن إنشاء «اتحاد محرومي لبنان»(٢) أو «أفواج المقاومة اللبنانية» والتي عرفت فيما بعد باسم «أمل». ومن العجيب أن هذا الاسم الأخير «أمل» كان من اقتراح ياسر عرفات على موسى الصدر(٣)، وكانت هذه الحركة هي «الجناح المسلح» لحركة المحرومين التي تم التدثر بها ابتداءً.

«ومضى الصدر إلى أبعد من مجرَّد الدفاع الداخلي عن حقوق طائفته، فنراه يقيم علاقات وثيقة مع المقاومة الفلسطينية، وهكذا نجده يخرج عن تحفظه في موضوع العلاقات بين الدولة اللبنانية والمنظمات المسلحة التي كانت تعمل ضدّ (إسرائيل) بدءاً من جنوب لبنان، وكان تحالفه معها يتيح لرجل الدين الإيراني أن يستفيد من دعم عسكري لكي يقف بقوة أمام الرؤساء التقليديين لجبل عامل، وأن يجد بعد عام ١٩٧٥م دعماً شخصياً (كتقديم أسلحة، وتدريب) عندما أسست الميليشيا العسكرية لحركة أمل»(٤).

وكما تدربت ميليشيا أمل على يد «فتح» فقد كانت المنظمة تقدم خدماتها بهذه الصورة إلى ما هو أكبر وأوسع من دائرة أمل، فقد وسعت هذه الخدمة لتشمل النشاط الشيعي على مختلف الأصعدة، وكأنهم يقولون لهم: هكذا تذبحوننا!!(٥).

وعندما وجد الصدر من جماعته القوة التي تستطيع أن تواجه المنظمة ـ التي دربته ـ قلب لها ظهر المجن، فبعد أن اشتعلت الحرب الدنية اللبنانية، بدأ الصدر يغير موقفه بشكل واضح من المنظمات الفلسطينية، وقد نقل عنه كلمات قاسية جداً ضدها، قالها - قبل أن يختفي - لأحد رجال السياسة الموارنة القريب من الطلائع المارونية:

---

(١) عبد الله الغريب، أمل والمخيمات الفلسطينية، ص ١٥٧.

(٢) انظر هذه التسمية عند باتريك سيل في كتابه: الأسد، الصراع على الشرق الأوسط، دار الساقي، ط ٢/١٩٨٩م.

(٣) انظر حوار نبيه بري مع مجلة الوسط، العدد: ٢٧٤/٢٨/٤/١٩٩٧م.

(٤) يان ريشار، الإسلام الشيعي، ٢٠٠.

(٥) انظر: الحرس الثوري الإيراني، نشأته وتكوينه، ودوره، كينيث كاتزمان، ص ٤٦، ٥٢، ٥٣، وانظر: وضاح شرارة، دولة حزب الله، ص ١٠٩.

«إن المقاومة الفلسطينية ليست بثورة، إنها لا تقبل البرهان على قضيتها بالشهادة. إن هذه مكنة عسكرية ترهب العالم العربي؛ فمع السلاح يحصل عرفات على المال، وبواسطة المال يمكنه أن يغذي الصحافة، وبفضل الصحافة يستطيع أن يجد آذاناً صاغية في الرأي العالمي، إن المنظمة (فتح) عامل اضطراب في الجنوب، وقد نجح الشيعيون بالتغلب على عقدة نقصهم تجاه المنظمة الفلسطينية[1].

في الوقت ذاته كان الصدر لا يريد أن يفقد علاقته مع حلفائه من الموارنة في السلطة الحاكمة فأعلن أن «أمل» عون ومدد للجيش اللبناني في الجنوب في التصدي للهجمات الإسرائيلية!! وبهذا الفعل حصل الصدر على عدة مكاسب:

١ ـ اكتساب شرعية لميليشياته من الدولة اللبنانية، وعدم خسارة العلاقة معها.

٢ ـ إضعاف سلطة الفلسطينيين في الجنوب بوجود قوة أخرى «لبنانية» مشتركة، وكان التعاون بينهم في هذا الجانب واضحاً[2].

٣ ـ كان هناك كذلك مكسب هام ـ وإن كان إعلامياً ـ وهو الادعاء بأنه ما زال يدافع عن القضية الفلسطينية، وها هي قواته تقاتل في الجنوب ضد العدو الصهيوني، وهو ما اعتبره الصدر انتزاعاً لانفراد المنظمات الفلسطينية بالمواجهة، وعليه؛ فقد تم التفريق بين القضية الفلسطينية وبين مواجهة الفلسطينيين.

الخروج إلى بيروت:

بعد هذا الاستقواء الذي تم للحركة طالب الصدر أتباعه في خطاب جماهيري باحتلال القصور في بيروت، واعتبر الشيعة ذلك نداءاً مقدساً، واحتلوا من بيروت مناطق وقصور «أهل السنة».

يقول عبد الله الغريب: ويغلب على ظني أن استيطان الشيعة في بيروت في الستينات وقبلها كان عفوياً، أما بعد الستينات فكانت أهدافهم واضحة، وكان موسى الصدر مهندس هذه الخطة ومن ورائه النهج النصراني، ومن الأدلة على ذلك أن العمال والموظفين القادمين من الجنوب والبقاع والشمال كانوا يبنون منازلهم في جنوب بيروت على أملاك الغير، وكان ذلك يحدث تحت سمع السلطة وبصرها، بل وكان أصحاب الأراضي من أهل السنة يطالبون الأجهزة المسؤولة بوضع حدٍ لهذا العبث، ورغم ذلك فالسلطة تترك قُطّاع الطرق يفعلون ما يشاؤون. ولو كان هذا الذي يحدث في بيروت الشرقية أو في أي منطقة من مناطق النصارى لما صمت قادة الموارنة لحظة واحدة.

وعندما سأل الصحفيون نبيه بري عن الأسباب التي دفعته إلى احتلال بيروت الغربية أجاب: بيروت الغربية عاصمة لبنان وملك لجميع المواطنين وليست حكراً على أهل السنة[3].

وشاع في وسط المهجرين الخروج عن القوانين العامة وعن الأعراف، مثال ذلك: أن ٨٨٪ من الـ ٤٤٠٠ مبنى التي أحصاها المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بالرمل العالي والأوزاعي وشاتيلا والجناح، وهي من نواحي الحركة الإسلامية «الخمينية»، شيّدت في الأملاك العامّة أو في أملاك الغير (اغتصبت عنوة)، وهذه الحال استمرت على الوجه نفسه إلى العام ١٩٩٦م، وسوف يستمر هذا الاغتصاب حتى يتم إنجاز ما يسمّى مشروع «اليسار» وبناء هذا الجزء من ضواحي بيروت بناءاً جديداً في نصف العقد الآتي، ومع استهلال الألف الثالثة، فإن ما يقرب من ٢٠٪ من المقيمين ببيروت الغربية كانوا منذ العام ١٩٨٦م واستمر معظمهم على

---

(١) فؤاد عجمي، الإمام المستتر، ص ١٧٨.

(٢) راجع في ذلك: أمل والمخيمات الفلسطينية لعبد الله الغريب، وراجع: حرب الألف عام في لبنان، جوناثان راندال، ترجمة فندي الشعار، دار المروج، ١٩٨٤، ص ٢٣.

(٣) عبد الله الغريب، أمل والمخيمات الفلسطينية، ص ١٥٥، وانظر فصليْ: دول الجماعات، وبناء العقل الإسلامي في كتاب: دولة حزب الله لشرارة.

حاله إلى ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦م يقيمون في منازل تسلّطوا عليها واحتلّوها احتلالاً «١٤٪»، أو ينزلون مؤقتاً ببيوت يملكها أقارب أو أصحاب «٨,٥٪» (١).

غياب الصدر:

وصل الصدر إلى ليبيا مع اثنين من رفاقه هما الشيخ محمد شهادة يعقوب، وشفيع عباس بدر الدين في ٢٥ أغسطس عام ١٩٧٨م في زيارة غير محددة المدة والغرض. وقد صرح أحد رفاق الصدر القريبين منه بأن الزيارة كانت استجابة لدعوة من الزعيم الليبي معمر القذافي، وقَبِل الصدر هذه الدعوة على أساس أنها سعي نحو تحقيق السلام في لبنان.

وكثرت الروايات حول أسباب اختفاء الصدر، ولعل من أبرز الأسباب هو ما تمحور حول مسألتين:

الأولى: طموح الصدر؛ فقد سُئل علي الجمال، وهو أحد المقربين لموسى الصدر، ومن كبار ممولي حركته بالمال والسلاح، سُئل عن طموح الصدر فقال: أما طموحه فكان الوصول إلى الأمانة العامة للطائفة الشيعية في العالم(٢).

الثانية: وهي نتيجة للأولى وسبب مباشر لها؛ حيث إن هذا الطموح لم يكن خافياً على الخميني مما اعتبره منافساً قوياً وخطيراً له كما أشار بذلك الخبراء والقريبون من مصادر المعلومات الجيدة(٣).

على الرغم من أن الغموض الذي يحيط باختفاء الصدر لا يزال قائماً، فإن هذا الاختفاء شكل أهمية رمزية لحركة أمل؛ فقد ارتفع الصدر إلى مرتبة الشهيد القومي عند العديد من الشيعة اللبنانيين، وتصدرت صوره افتتاحيات صحف أمل، كما أعيد طبع خطبه وتعليقاته مصاحبة بصوره، وأطلق أعضاء الحركة على أنفسهم ـ من حين لآخر ـ «الصدريين».

لقد حقق اختفاء الصدر فوائد عدة لحركة أمل؛ فقد وجد العديد من الشيعة في «الإمام المختفي» رمزاً ملزماً للتعبير عن عدم الرضا الذي يشعرون به، وقد أكمل اختفاء الصدر هذا المزاج السياسي للشيعة وغذاه، وكان وسيلة ملائمة للتعبير عبر الحركة التي خلفها وراءه.

كما أن هناك بعضاً من قادتهم من يسلم بأن اختفاءه كانت له قيمة كبيرة في التعبئة السياسية لجماهير الشيعة، لم يكن يحققها وجوده ذاته، كما أدى أيضاً إلى قلة حدة الانتقادات التي توجه للحركة بسبب تبجيلها لذكراه واعتباره رمزاً لها(٤).

وهكذا فقد حقق اختفاء الصدر هدفين في وقت واحد: التخلص من طموحه، وإعطاء دفعة معنوية لحركة أمل إلى حين.

كمون «حزب الله»:

كان حسين فضل الله في ذلك الوقت يمارس دوره بهدوء بعيداً عن ضوضاء الصدر وحركته، وكانت عناية فضل الله ـ كما ذُكر قبل ـ متوجهة إلى التربية المنهجية لإعادة العِلم الإمامي الديني وتوطينه وتطويره، ولم تكن تلك المهمة لتمتد أكثر من ذلك، فقد بدأ الزرع يُخرج بعض الثمار، فبدأ «أبناء فضل الله» بالانتشار في نسيج المجتمع اللبناني، ومد أذرعهم في جنباته، وبالرغم من هذه الخطوة إلا أنهم لم يستطيعوا الإعلان عن هويتهم؛ إذ ما زال فيهم من الضعف ما يمنعهم من ذلك، فكان لا بد من الاحتماء بـ «أمل».

«فكانت الحركة الصدرية واقي أنصار الدعوة والإسلاميين الخمينيين في حال ضعفهم، وحتى إعلانهم الاستقلال السياسي والعسكري، إلا أنهم في هذه الأثناء كانوا يعملون عملاً حثيثاً على بناء النواة التي في مستطاعهم إنشاء معقلهم حولها»(٥).

وبالرغم من هذا الاحتماء بـ «أمل» إلا أنه لم

---

(١) دولة حزب الله / ٢١١.

(٢) حوار مع مجلة الشراع اللبنانية، العدد: ٨٩٨، ١٩٩٩/٩/٦م، بمناسبة الذكرى الحادية والعشرين لاختفاء الصدر.

(٣) انظر: الصدر ودوره في حركة أمل، ضمن حلقات: الإسلام والكونجرس الأمريكي، مجلة المجتمع، العدد: ٩٥٧، ص ٤٧.

(٤) المصدر السابق، ٤٧.

(٥) انظر: دولة حزب الله، ١٩٧ ـ ١٩٩.

يكن في حسبان الحركة الشيعية في لبنان أن تكون «أمل» هي صورتها الدائمة والمستقبلية ولا قائدة مسيرتها؛ إذ الصورة المطلوبة هي ذلك المثال «الإيراني» لا المثال «العلماني» الذي تدين به أمل، ولسوف يأتي اليوم الذي يخرج فيه الطائر ويكسر «قشرة البيضة» التي احتضنته لا محالة.

وفي ذلك الوقت لم تكن ـ كذلك ـ قد تبلورت الأفكار والمناهج والتصورات السياسية لـ «حزب الله» بل لم تكن تسمت هذه المجموعة بهذا الاسم، إلا أنها كانت تعيش أهم مستلزمات العمل الثوري، وهو ما أسمته الحركة بـ «الحالة الجهادية» أو «الحالة الثورية» أو «الذهنية الثورية» وكان الوصول إلى هذه الحال أساس التعليم الإمامي في الحوزات والحسينيات، فكان «لا بد للعلم من جهاد يكمله ويتكامل معه» وكان من لوازم التخرج من الحوازات العلمية أن تنتقل به إلى «ساحات الجهاد» وأصبحت هذه «الحالة الجهادية» هي الحال التي يتمنى كل فرد منهم الوصول إليها؛ إذ هي تصل بصاحبها لـ «الشخصية المتكاملة» ولقد كان السعي لها لتتحقق أمنية الأماني: التمتع برؤية «الإمام الحسين»!!

فهذا «أبو هادي» كان على هذه الحال، وهو فتى في الثالثة عشرة، سمع أحد العلماء يتكلم عن استقبال الحور العين للشهيد حين يسقط على الأرض مضرجاً بدمه، فصرخ في العالم، وقال: «دع الحور العين لك أنت وحدك، أما أنا فحدثني كيف وأين أرى الإمام الحسين»!! ويعلق وضاح شرارة على ذلك فيقول: وهذه ـ أي رؤيا الحسين ـ هو ما يردد الرغبة فيه كل شهداء المقاومة الإسلامية بلبنان، وما يعربون عن الأمل في الحصول عليه، ويقاتلون في سبيله، ويرون فيه ثمناً لبذلهم دمهم وحياتهم[1].

الخروج من الشرنقة:

أولت الحركة الإسلامية الخمينية في لبنان أمر المساجد والمدارس الدينية الاهتمام الكبير؛ إذ هي في تلك المرحلة محاضنها وبيوتها التي تحميها من حمأة الانصهار في جحيم المجتمع بحربه المستعرة والحركة ما زالت في مهدها «الثوري»، وإذ هي مدارس العلم وحوزاته كذلك.

ولهذا فقد اتخذت الحركة طريقها الأول عند الخروج من الشرنقة لعمل حزام من الحسينيات والمصليات تتحصن بها، ولتؤدي من خلالها دورها المنوط بها من تحويل المجتمع إلى وجهة أخرى، وكان لهذا الحزام دور هام في انتشار الحركة وتوسعها على ما نرى.

كما أن هذا الحزام ساعد أبناء الحركة على مد أيديهم لإخوانهم من الشيعة بإحلالهم محال غيرهم ومنازلهم.

أما المصلّيات فكانت أربعة:

المصلى الأول: (الإمام الباقر) ناحية الروشة، غير بعيد من الصخرة، أقيم مكان مقصف وعلبة ليل رخيصة كانت تحفهما فنادق ومطاعم ومقاه، بعد أن اتخذها الفلسطينيون المسلحون موئلاً ومعقلاً وملجأ، ولم يكد الفلسطينيون يخلونها حتى حل في أبنيتها التي لم تكتمل بعض أهالي الجنوب، وتبعهم أهالي كيفون، والقماطية، والبلدتان سكانهما من الشيعة وتقعان بدائرة «عاليه» الانتخابية التي يقتسمها الدورز والموارنة والأرثوذكس، ووقعت عشرات الأبنية ومنها ثلاثة فنادق سابقة في قبضة المسلحين، فأسكن المسلحون الشيعة المهاجرين والمهجّرين من الضاحية، وأنشؤوا مصلى الإمام الباقر في وسط المهجرين الشيعة، ونصبوا مذياعاً للصلوات والأدعية، وأقاموا من أنفسهم مطوعة أو «شرطة أخلاق»، فمدوا طرفهم إلى المطعم القريب، وحرّموا تناول المشروبات الكحولية في شهر رمضان، وفي الأيام العشرة الأولى من محرم، وزينوا المصلى بالأعلام والصور، واتخذوه قاعدة للدعوة بالصورة والصوت.

أما المصلى الثاني (الإمام الصادق) فكان في

---

(١) المصدر السابق، ٢٨٢.

بناء من أبنية الحمراء يقع خلف سينما ستراند، في شارع احتُل بعضُ أبنيته الجديدة التي لم يتم إنشاؤها، وبعضُ أبنية المنطقة القديمة التي كانت شققها مكاتب تجارية أو مكاتب مهن حرة، وأُنزل فيها الأهالي الذين نزحوا من حي فرحان ومن حي «ماضي»، وأُخليت إحدى الشقق في بناء يقع بالطرف الغربي من بناء صالة ستراند، وأُخرج مكبر صوت إلى الشوارع التجارية الكبيرة وإلى الأبنية التي يقيم في معظم شققها من بقي من مسيحيي رأس بيروت، ومن الأرمن والسنَّة.

وأقيم المصلى الثالث (الإمام الحسين) في ناحية القنطاري غير بعيد من برج المر.

وأقيم المصلى الرابع (المصطفى) بعين المريسة، في وسط ناحية يتنازعها السنة الذين سبقوا إليها، والدورز، والشيعة الذين وجدوا بها ملاذاً شعبياً رخيصاً في العقد الخامس، ثم طرأ على الناحية تغير عميق من جراء انتشار الفنادق الفخمة والشقق المفروشة والمقاهي والمقاصف وعلب الليل. وهذه الفنادق والشقق أخلتها الأعمال الحربية ودمرتها وأسكنت في بقاياها وبين أنقاضها الذين قسروا على النزوح من برج حمود والنبعة ... إلخ.

ولا تقتصر شبكة الحركة «الخمينية» على المساجد والنوادي الحسينية والمصليات البيروتية هذه، فانضمت إليها حسينيات وادي أبو جميل ومدينة الكرامة (حي السلم)، وبرج البراجنة، ومسجد الطيونة؛ إلا أن هذه الأماكن لا يرد ذكرها ولا يشار إلى استعمال الحركة «الخمينية» لها إلا في معرض خطبة أو تأبين، وقلما يتجاوز الخبر هذا المعرض إلى غيره.

أما خارج بيروت، فيدور نشاط الخمينيين على عدد من المساجد والحسينيات التي يتولى الصلاة فيها أو يرعى شؤونها دعاة الحركة من علماء الدين، وغالباً ما يتفق الاحتفال في البلدة مع سقوط أحد أفراد الحركة من أهل البلدة فتكون إحياء ذكراه جسراً إلى أقربائه وإلى أهالي بلدته.

وتتصدر بلدات الجنوب اللبناني بمساجدها وحسينياتها نشاط الدعاة الخمينيين؛ ففي صور؛ حيث مدرسة من المدارس الدينية الإيرانية حسينية تستقبل على الدوام تظاهرات «الخمينيين»، ونادي الإمام الصادق الذي يقوم مقام حسينية ثانية.

وتعد صور من بين الأرياف اللبنانية الفقيرة التي تأخرت هجرة أهلها إلى بيروت، لكن هجرة أهل الساحل هذا كانت مبكرة جداً إلى فلسطين وإلى المهاجر الإفريقية والأمريكية، وإلى ذلك؛ فقد أدت هجرة الريف الصوري إلى صور إلى طبع المدينة البحرية بطابع سكاني وطائفي جديد؛ فبعد أن غلب السنة والمسيحيون على المدينة، انتقلت الغلبة إلى الشيعة المهاجرين من الأرياف العاملية القريبة على نحو حاد، من غير أن تملي المدينة الصغيرة على المهاجرين إليها التطبع بطباع مدنية أو التأدب بآداب جديدة. ولم يبق من أهل صور الأولين إلا ضعفاؤهم وفقراؤهم وغير القادرين منهم على «الاختلاط بالأشغال مع المسيحيين في بيروت وصيدا وجبل لبنان».

أما في البقاع فتتصدر بعلبك نشاط الإسلاميين قبل مقدم الحرس الثوري في صيف ١٩٨٢م وبعده.

هذه الخريطة لأبرز المساجد والحسينيات والمصليات التي يتخذ منها الخمينيون «خلايا» دعوة وتعبئة»[١].

الانقلاب على «أمل»!!

يقول ميثاق حركة أمل: «إن حركة أمل ليست حركة دينية، وميثاق الحركة الذي تمت صياغته في عام ١٩٧٥م، من قِبَل ١٨٠ مثقف لبناني معظمهم من المسيحيين!! يدعو إلى إلغاء النظام الطائفي في البلاد وإلى المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين دون تمييز»[٢].

---

(١) دولة حزب الله، ٢٣٥ ـ ٢٣٩ بتصرف.

(٢) أمل والمخيمات الفلسطينية، ص ١٥٥.

وعندما نجحت الثورة الإيرانية، كانت نقطة تحول كبيرة في الحركة الشيعية في لبنان؛ فقد تحقق جزء كبير من حلم الدولة الثلاثية، وأصبحت هناك دولة دينية شيعية آلت على نفسها منذ اليوم الأول لها تصدير ثورتها لنصرة المستضعفين في كل مكان.

وكان على هذه الدولة الجديدة أن ترد الجميل لأهلها في لبنان، فقد احتضنوهم بالمأوى والتدريب، وكان رد الجميل سريعاً، فأمدوهم ـ بعد الدفعة المعنوية الكبيرة بنجاح الثورة ـ بالمال والسلاح والرجال والتخطيط.

وهكذا – وبسرعة أيضاً – تم الإسفار عن الوجه المطلوب إظهاره في لبنان، وهو ذلك الوجه الكامن المختبئ إلى حين، وجاء موعد خروجه من كمونه، ولكن ما زالت «أمل» هي الصورة الواضحة في لبنان كممثل رسمي لشيعته، ولكن «أمل» بهذه الوجهة «العلمانية» أصبحت مرحلة مضت يجب تجاوزها؛ لأنها ستمثل عائقاً في طريق إكمال السعي للأهداف الجديدة، وبما أن الهدف من إيجاد «أمل» كان إخراج الفلسطينيين وحماية الشيعة منهم؛ فها هو الاحتلال الإسرائيلي لبيروت قد أخرج الفصائل المسلحة منها، كما أنه قد تمت تصفية عدد كبير منهم في مذابح مروعة قام بها اليهود والموارنة والشيعة.

وهكذا لم يعد لأمل دور تستطيع الدفاع عنه أو تنازع حوله، وعلى هذا فقد تم اتخاذ قرامانات عدة لزحزحة أمل من قلب الصورة إلى هامشها، وكان من ذلك:

١ ـ الضلوع في إخفاء الصدر أو قتله ـ كما مر ـ لإضعاف الحركة في أحد مراحلها.

٢ ـ بروز خلافات «علنية» بين نبيه بري، ومحمد مهدي شمس الدين الذي كان نائباً لرئاسة المجلس الشيعي الأعلى؛ حيث كان الصدر ـ الغائب ـ لا يزال الرئيس، وسبب ذلك: عدم القبول بتصرفات بري ومنهجه «العلماني» !!

وقد نقل راديو «صوت لبنان الكتائبي» أن المكتب الخاص لنائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى أعلن أنه لم تعد للقيادة الحالية لحركة أمل أي علاقة مع سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وقد أُبلغت القيادة الحالية لحركة أمل بهذا القرار في حينه(١).

٣ ـ تصفية بعض الرموز المهمة في حركة أمل، أمثال: مصطفى شمران الذي كان له دور بارز في الحركة، وكان المسؤول التنظيمي فيها، كما تسلم إدارة المدرسة المهنية في جبل عامل التي أشرفت على تخريج كوادر أمل العسكرية بعدما حضر إلى لبنان يحمل خطاب تزكية من الخميني(٢).

وبعد أن قامت الثورة استدعي لشغل منصب وزير الدفاع في إيران، وتم قتله أثناء زيارة للجبهة في الحرب مع العراق في ظروف غامضة(٣).

٤ ـ كان الخط الذي اتبعته «أمل» منذ بداياتها مع الصدر هو مد حبال الصلة مع الحكومة اللبنانية، وتمسكها «الظاهري» بشرعية الدولة، والسعي من خلال هذا الطريق لاستنقاذ حقوق الشيعة وكان الاستمرار على هذه الطريقة هو مما يتعارض والهدف الجديد للحركة الشيعية في لبنان.

وجاء الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، ودعا الرئيس اللبناني ـ وقتها ـ إلياس سركيس إلى اجتماع «هيئة الإنقاذ الوطني» وكان نبيه بري عضواً فيها، وقبلت القيادة الدينية حضور بري(٤) باعتبار أن هذه الهيئة ستتحول إلى حكومة وطنية، وهو أحد أهداف بري وحركته في أن يكون لهم تواجد حكومي قوي. وهنا أعلن أحد أبناء الحركة الخمينية الكامنة والمتدثرة بـ «أمل» انشقاقه عن

---

(١) انظر: حركة أمل، مرحلة ما بعد الصدر، مجلة المجتمع، العدد: ٩٥٨، ص ٥١، وانظر: أمل والمخيمات، ص ١٧٨.

(٢) انظر: الإسلام الشيعي، ص ٢١١، وانظر حوار نبيه بري مع مجلة الوسط، العدد: ٢٧٨/٢٦/٥/١٩٩٧م.

(٣) انظر: حركة أمل، مرحلة ما بعد الصدر، مجلة المجتمع، العدد/٩٥٨، ص ٥٠.

(٤) انظر ذلك في حوار بري مع الوسط، العدد: ٢٧٤، ص ١٨، والعدد، ٢٧٧، ص ٢٣.

«أمل» ورفضه لهذه المشاركة وأعلن «أمل الإسلامية» وكان هذا الرجل هو: حسين الموسوي، نائب رئيس حركة «أمل» وبهذا الانشقاق تم تفريغ «أمل» من كوادرها الخمينيين الذين انضموا إلى «أمل الإسلامية» وكان ذلك الإعلان الرسمي الذي تحول فيما بعد إلى «حزب الله».

لماذا استمر بري[1] بـ «أمل»؟!

السؤال الذي يطرح نفسه: إن كان تم الانقلاب على «أمل» بهذه الطريقة، فلماذا استمر بري في صدارة الصورة «السياسية» الشيعية، بل لا زالت «أمل» لها من الوجود نصيب؟

هناك قاعدة هامة يجب الالتفات إليها أولاً، وهي: أن معيار الظهور السياسي الشيعي في لبنان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإيران ومطالبها في لبنان، وذلك حسب الخيارات والأهداف المرحلية التي تنتهجها[2].

ثانياً: استخدام إيران لبري بعد الصدر[3] كان لعدة اعتبارات:

١ ـ كان هناك إقرار وموافقة من قِبَلَ «الفقهاء» أصحاب السلطة الحقيقية - على بري ومنهجه والدور الذي سيؤديه، وإلا لما كان له وجود ابتداءاً باعتبار اليد الطولى للملالي.

٢ ـ أن الواقع الطائفي اللبناني أفرز عدداً من الشخصيات الشديدة التعصب لمذهبها، وإن لم تكن «متدينة» في سلوكها، وكان بري من تلك النماذج، وهو ما تقتضيه المرحلة.

٣ ـ هذه المرحلة تحول فيها الشيعة إلى العمل المسلح الظاهر، وأضحى هدفهم بالتخلص من الفلسطينيين «السنة» معلناً، وكان من الصعب أن تلصق المذابح التي أعدوا لها وقاموا بها بأحد الآيات أو الحجج، كيف ذلك وهم ينادون بالتقارب مع أهل السنة وإزالة الحواجر، وعندما وقعت الصفقت بـ «علمانيي» المنهج.

وعلى ما سبق فالود باق مع بري، ولا نُغفل هنا عقيدة «التقية» التي هي من أصول دين الإمامية، وعلى هذا فيبقى في الأخير أن الأدوار توزع حسب الحالة، وليس أدل على ذلك من البيان الذي صدر في ١٩٨٣/١٠/٨م؛ حيث أعلن عبد الأمير قبلان - المفتي الجعفري الممتاز - باسم المجلس الشيعي الأعلى ما يلي: «إن حركة أمل هي العمود الفقري للطائفة الشيعية، وإن ما تعلنه (أمل) نتمسك به كمجلس إسلامي شيعي أعلى، وبالتالي فإن ما يعلنه المجلس الشيعي تتمسك به الحركة»[4].

وجاء هذا الإعلان بعد البيان الذي أذيع في ١٩٨٣/٢/٢٧م من أن حركة أمل لم يعد لها علاقة بالمجلس الشيعي الأعلى!!

٤ ـ جاء هذا التأييد ـ السابق ـ للحركة بعد الانشقاق الذي خرجت به «أمل الإسلامية» وبعد «الحضور الفعلي» لحزب الله على أرض الصراع.

٥ ـ كان للسياسة الإيرانية في لبنان خطان تستعملهما في تحقيق أهدافها:

خط أول: يتلمس سبل طي الحرب المستمرة والمقيمة ولو من خلال التفاوض مع ممثل «القوات اللبنانية»، وفي رعاية وسيط أمكنه من القيام بالوساطة احتلالٌ إسرائيلي يطوق بيروت والقصر الجمهوري ويرزح بثقله على الجنوب وعلى الجبل.

وخط آخر: رأى في الاحتلال وفي ما حفّه من أدوار سياسية ودبلوماسية أمريكية وأوروبية وعربية ذريعة إلى تجديد الحرب، وإلى اختبار الاستراتيجية الإيرانية في ميدان غير إيران.

وبينما أملت الخط الأول عصبية شيعية لبنانية حفظت من الروابط المحلية والعالمية ومن اعتدال

---

(١) انظر ترجمة له في أمل والمخيمات، لعبد الله الغريب، ص ١٦٧ ـ ١٧١، وانظر: حكام لبنان، مجلة المجلة، العدد: ٧٩٥، ١٣/٤/١٩٩٥م، ص ٤٤.

(٢) راجع: آ. ر. نورتون، لبنان: الصراع الداخلي والارتباط بإيران، ص ١١٦ ـ ١٢٧ عن الإسلام الشيعي، ص ٢١١.

(٣) شغل حسين الحسيني منصب الأمانة العامة لحركة أمل بعد غياب الصدر إلى أن تولى بري علم ١٩٨٠م.

(٤) أمل والمخيمات، ١٨٤.

النخبة الصدرية الأولى قسطاً كان لم يزل فاعلاً، فقد أملت الخط الثاني نزعة إلى توسيع النزاع، وإلى تأجيجه وتوجيهه وجهة ضم جبهة لبنان إلى جبهة الخليج والجبهات الإقليمية المشرقية، وإلى استدراج القوى الغربية التي تلعب دوراً راجحاً في النزاع الإقليمي، ولو من غير الاشتراك في الاشتباك مع المجابهة المباشرة(١).

ونختم هنا بكلام لحسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، يقول: إننا حريصون على علاقة طيبة مع «أمل» ونحن نعمل على تطوير هذه العلاقة، وهناك لجنة ثنائية من أحد قادة «أمل» مع أخيه في حزب الله ينظرون في كل الأمور المشتركة سياسية وعسكرية، وسياستنا تقول: إن الموضوعات التي نتفق عليها نتعاون معاً، وما نختلف عليه لا يؤدي الخلاف في وجهة النظر إلى نزاع، حتى الخلافات تم تنظيمها، الطابع العام لعلاقتنا الإيجابية والتنسيق والتعاون، وقبل أسابيع حضرت لقاء مع الرئيس «بري» لتثبيت هذه الصيغة وتفعيلها(٢).

وبهذا يتضح أنه لم يكن هناك إبعاد كبير للحركة بقدر ما هو زحزحة من الصورة «العسكرية» والمواجهة إلى الساحة «السياسية» واستبقاؤها لأدوار أخرى تتوافق والمتغيرات السياسية لإيران وملفاتها في لبنان.

ثورة تحمي.. الثورة:

إذا أراد شخص ما أن يحقق لعمله الهدوء والاستقرار، والأشخاص المحيطون به لا يوفرون له ذلك، بل لا يريدون له ذلك، فلا بد من التفكير والسعي لأن يصنع لهم شيئاً يشغلهم عنه ويلتهون به، وهذا ما فعلته إيران بعد ثورتها.

«فمنذ بداية انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، طالب التيار الداعي لتصدير الثورة باعتبار تصدير الثورة إحدى سبل حمايتها في الداخل، وبعدم الاكتفاء بالدعاية الخارجية للنموذج الإيراني بل بتقديم مساعدات ودعم لقوى سياسية خارج إيران، وخاصة القوى الراديكالية المعادية للنظم القائمة في العالم الإسلامي لإنشاء حكومات على النمط الإيراني.

وقد طالب الخميني منذ البداية بتكرار ثورة إيران في البلدان الإسلامية الأخرى، باعتبارها خطوة أولى نحو التوحد مع إيران في دولة واحدة يكون مركزها إيران في المواجهة مع من أسماهم بأعداء الإسلام في الشرق والغرب. والتزم بتدمير من أسماهم بالأنظمة الفاسدة التي تقمع المسلمين واستبدالها بما أعتبره حكومات إسلامية، كما ربط بين تصدير الثورة وبين مواجهة الإمبريالية وتحرير فلسطين.

وأضفى الخميني على رؤيته قدراً من الواقعية عندما ذكر أن عدم تصدير إيران لثورتها سيضعفها أمام أعدائها.

وقد سوَّغ الدكتور حسن آيات - أحد منظري الحزب - تدخل الثورة الإيرانية في شؤون الدول الإسلامية الأخرى بأن على إيران نصرة المستضعفين في كل مكان حتى يتم ضمان استمرارية الثورة واتساع دائرة إشعاعها.

وقد جاءت تصريحات لعدة مسؤولين إيرانيين لتؤكد أن إيران لن تأمن من مؤامرات الدول الكبرى إلا إذا حدثت ثورات مماثلة في العالم الإسلامي، ووعدت بمساعدة كل حركات التحرير والحركات الإسلامية الراديكالية في أي مكان في العالم»(٣).

كما بذلت إيران ما في وسعها منذ قيام الثورة لإدماج الأقليات الشيعية الأجنبية سياسياً تحت قيادة الإمام، وهكذا دعمت في فترة أولى تمتد حتى عام ١٩٨٢م، كافة الحركات الشيعية الصرفة مثل حركة أمل في لبنان.

بعد ذلك راحت تطلب المزيد من الراديكالية والمزيد

(١) دولة حزب الله، ص ١١٨- ١١٩.

(٢) حوار أجرته مجلة المصور المصرية في شهر مارس ١٩٩٩، ونشرته مجلة المقاومة في العدد: ٤٠/إبريل/ ١٩٩٩م، ص ٣٦.

(٣) انظر: د. وليد عبد الناصر، إيران: دراسة عن الثورة والدولة، دار الشروق، ط ١/١٤١٨هـ، ص ٧٠ - ٧٥.

من التخلّي - في آن معاً - عن المرجعية الوطنية والاندماج في بنى إيرانية محضة، وهذه الفترة الثانية هي الفترة التي بدأ فيها ظهور الأحزاب التي دُعيت بأنها أحزاب الله، سواء في لبنان أو أفغانستان، وإلى قيام تنظيمات باسداران لدى الشيعة.

وهكذا، فإن السفارة الإيرانية في بيروت أصبحت بمثابة قيادة الأركان الشيعية الحقيقية في لبنان؛ حيث شرع حزب الله وأمل الإسلامية التي نشأت عام ١٩٨٢م في معارضة حركة أمل، مع الابتعاد عن رجال الدين الأكثر تقليدية (مثل الشيخ محمد مهدي شمس الدين).

أما المرحلة التالية فكان قوامها توجيه المجموعات الشيعية لشنّ هجمات ضد خصوم إيران وهي المرحلة التي حولت لبنان بخاصة إلى ساحة حرب ضد الرعايا الغربيين (تدمير مركز قيادة الأركان الفرنسية والأمريكية عام ١٩٨٣م)[١].

وتفلسف أحد قادة الحركة في لبنان وهو إبراهيم الأمين ـ وقال: إن تصدير الثورة لا يعني تسلط النظام الإيراني على شعوب منطقة الشرق الأوسط، وإنما المفروض أن تعيش هذه المنطقة الإسلام من جديد!! ـ أي إسلام؟ ـ فيكون المتسلط على هذه الشعوب الإسلام وليس الإنسان، على هذا الأساس نحن نعمل في لبنان من خلال المسؤولية الشرعية ومن خلال القناعة السياسية أيضاً، حتى يصبح لبنان جزءاً من مشروع الأمة في منطقة الشرق الأوسط، ولا نعتقد أنه من الطبيعي أن يكون لبنان دولة إسلامية خارج مشروع الأمة[٢].

وكان الحرس الثوري الإيراني هو المؤسسة الرسمية الرئيسة التي تحمي وترفع راية مبادئ الثورة الإسلامية ومُثُلها التي حددها الخميني، وقد لعب الحرس دوراً هاماً في ترسيخ أفكار الثورة وزعيمها[٣].

وانطلاقاً من هذه السياسة الإيرانية بعد نجاح الثورة وبلوازم الدور الذي يقوم به الحرس الثوري لتصدير هذه الثورة، ولتحقيق الأمل الآخر بقيام الدولة الأخرى في لبنان فقد ساعدت مفرزة الحرس في لبنان على تأسيس «حزب الله»، وعلى تدريبه ودعمه فيما بعد، بهدف إقامة جمهورية إسلامية في ذلك البلد، وعموماً كانت قيادة مفرزة الحرس وأفراده في لبنان ـ وقوامها ٢٠٠٠ مقاتل ـ تضم أكثر رجال الحرس راديكالية من الناحية العقائدية وإلى جانب المساندة والتدريب العسكريين المباشرين لحزب الله لعب الحرس دوراً عقائدياً وسياسياً كبيراً في وادي البقاع اللبناني؛ حيث بثوا معتقداتهم بين السكان المحليين وأسسوا المدارس والمستشفيات والمساجد والجمعيات الخيرية، واكتسبوا التأييد للثورة الإسلامية وأمدوا حزب الله بالمجندين.

كما لعب السفير الإيراني السابق في سوريا ووزير الداخلية علي أكبر محتشمي، وهو أحد المتشددين البارزين، دوراً فاعلاً بالتعاون مع الحرس في تشكيل حزب الله، ويبدو أنه لا يزال يتمتع بنفوذ قوي في لبنان. كما تسعى السفارتان الإيرانيتان في سوريا ولبنان مع وزارة الخارجية الإيرانية وبعض الزعماء الإيرانيين، إلى السيطرة على أنشطة الحرس والسياسة الإيرانية في لبنان[٤].

البناء بالحرب!!

حين وصلت الحركة الجديدة إلى «الحالة الثورية» كان لا بد من الاستجابة للنداء المقدس من ضرورة تحويل لبنان إلى دولة أخرى، وحيث الروح المعنوية عالية، والمدد المادي والعسكري والتنظيمي متوفر بكثافة وبكرم يفوق الخلق العربي فكان لا بد

---

(١) انظر: أولفيه رواء، تجربة الإسلام السياسي، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) دولة حزب الله/٢١٠.

(٣) انظر: الحرس الثوري الإيراني، نشأته وتكوينه ودوره، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) المصدر السابق، ١٣٩ ـ ١٤٠، ١٧٨، ١٨٠، وانظر: دولة حزب الله، ص ٢٧٧، وانظر: مجلة المقاومة العدد: ٣١، ص ٤.

من الخروج الكلي والإعلان الواضح عن الحركة، وكان من الطبيعي أن يتوجه الجهد العسكري لمحاربة الاحتلال وتطهير الأرض اللبنانية من «رجس اليهود» والسعي إلى إخراجهم من «الأرض المقدسة» إلا أن ذلك لم يكن هدف الحركة!!

يقول وضاح شرارة: لم يصرف الإسلاميون اللبنانيون - والقيادة الإيرانية من ورائهم - جهدهم إلى عمليات ضد الإسرائيليين وقوات احتلالهم، في الأشهر الأولى التي أعقبت صيف ١٩٨٢؛ فمصدر الخطر الأول على «مجتمع الحرب» أو «الحالة الجهادية»، يومذاك ليس الاحتلال الإسرائيلي!! فكان المصدر الذي يتهددها هو استقرار الدولة اللبنانية وحملها اللبنانيين على تسليم أمورهم وشؤونهم إليها وإقرارهم بشرعيتها، وهذا - أي التسليم والإقرار بالشرعية - ما كان يبعد أن يحظى به الاحتلال الإسرائيلي.

ويبرز الفرق جلياً بين الإسلاميين وبين الأحزاب والقوى السياسية التي أمدت المقاومة الوطنية اللبنانية بالمقاتلين والسلاح والخطط، في هذه المسألة، وما احتجاج الشيوعيين اللبنانيين على سبقهم في هذا الميدان إلا إمعاناً في الغلط، وفي التعامي عن الاختلاف في تقدير الأوضاع؛ فذهب الحزب الشيوعي اللبناني، والحزب السوري القومي الاجتماعي، وبعض فصائل حركة «أمل»، والمرجح أن قسماً من الفلسطينيين تابعهم على رأيهم، إلى أن الأمر الملحّ والداهم هو عرقلة الاحتلال الإسرائيلي، والحؤول دون استتبابه، والمضي على المقاومة التي جابهت العملية الإسرائيلية، ولو اختلف في تقويم هذه المقاومة؛ وعقدت الأحزاب والمنظمات آمالها على قيامها بـ«حرب التحرير» هذه، ورجت أن تقطف ثمار عملها قوة جديدة تمكنها من أخذ موقع سياسي راجح في الميزان اللبناني.

اطّرح «الإسلاميون» هذا الرسم من غير موارية ولا تأخر، فقدَّموا على سائر المهمات والأعمال مهمة الحؤول بين الأبنية السياسية والإدارية اللبنانية وبين انتزاع الاعتراف بشرعيتها من جديد؛ والسبب في ذلك أن مثل هذا الاعتراف يحكم على الإسلاميين وفيهم، وعلى غيرهم، بالخروج على الشرعية، وعلى ما هو مُجمَع عليه، ويدينهم بعرقلة مسيرة السلم والعودة إلى الحياة السياسية الآمنة. ودفع الإسلاميين لهذا الإطراح عواملُ كثيرة، منها: أنفتهم من تناول الأمور تناولاً وطنياً ومحلياً، ومنها بروز الوجه الإقليمي والدولي للحرب الإيرانية العراقية، واختبار قادة طهران جدوى التعبئة الجماهيرية عسكرياً وسياسياً وانتقالهم بعد ربيع وصيف ١٩٨٢م إلى مرحلة الهجوم، وسعيهم إلى انتزاع مكاسب إقليمية ثابتة في نهاية هجومهم المأمولة.

ولم يكن خافياً أن استقرار أبنية الدولة اللبنانية تبع لمساعدة أمريكية وأوروبية تحوط هذه الأبنية، وترعى ذراعها المسلحة، وتحول بين القوى الإقليمية والمحلية وبين بعثها المعاقل التي تقطع جسم الدول. ولما كانت الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، من وجه آخر، تقف عائقاً دون إحراز القوات الإيرانية انتصارات عسكرية تقوض النظام الإقليمي في الخليج، تحالفت السياسة الإيرانية والسياسة السورية، والمصالح المحلية على ضرب القوة الأوروبية والأمريكية التي تملك حوط الدولة اللبنانية وإحباط الانتصارات الإيرانية معاً.

وضربُ مثل هذا الغرض - القوات المتعددة الجنسية[1] - قمين إذا ما أفلح - بحرمان الدولة

---

(١) راجع تفاصيل العمليات التي قام بها حزب الله ضد الأهداف الأمريكية والفرنسية بمساندة الحرس الثوري، د. سعد أبو دية، دراسة تحليلية في العمليات الاستشهادية في جنوب لبنان، ط ١، ١٤٠٧هـ.

اللبنانية الرعاية التي لا قيامة لها من دونها، وبإباحة لبنان أرضاً ومجتمعاً للمعاقل المختلفة، وهو قمين أيضاً بإطلاق اليد السورية في غير ناحية من لبنان، وبتعويض التراجع الذي منيت به القوات السورية في صيف ١٩٨٢م، وبمد جسر إيراني إلى قلب المشكلات العربية يحول دون تأليب الإسلام العربي «السني» عليها، وتحويل إيران إلى قوة عربية عن طريق محاربة القوات الإسرائيلية والعلاقة بالمنظمات الفلسطينية على أرض دولة عربية[١].

ويعني هذا الأمر، بعبارة أخرى، وفي ضوء الثورة الإسلامية الإيرانية وتجربتها يومذاك، أن الحرب وحدها في مستطاعها أن تظلل إنشاء العقل الإسلامي، وأن ترد عنه غائلة حياة اجتماعية وسياسية وثقافية مستقرة، لذا كان الإسلاميون الشيعة ذوو الهوى الإيراني والخميني في الصفوف الأولى من كل أعمال الكر والهجوم على «العدو العام»: على القوات الإسرائيلية، وعلى الوحدات الأمريكية والفرنسية، وعلى «القوات اللبنانية»، وعلى الجيش اللبناني، وعلى المواطنين اللبنانيين المسيحيين والمواطنين الأجانب، وعلى «جيش لبنان الجنوبي»، وعلى السفارات الأجنبية والعربية، وعلى القوات الدولية، وعلى بعض المواطنين اللبنانيين المسلمين الذين يخالفون الإسلاميين في الهوى والمشارب، وعلى المراقبين السوريين الذين سبق قدومهم الانتشار السوري في بيروت أواخر شباط ١٩٨٧م، وعلى مسلحي «أمل» بالضاحية الجنوبية في صيف ١٩٨٨م، وعلى المسلحين الفلسطينيين المتحالفين مع «أمل» في حروب المخيمات الطويلة (١٩٨٥ ـ ١٩٩٠م) فهؤلاء كلهم، الذين كانوا أو ما زالوا هدفاً لأعمال الخمينيين الحربية، تسهم حربهم في إنشاء الجيب الإسلامي الإيراني وفي إطالة الأمد الذي يحتاج إليه أصحابه من أجل إرسائه على أسس يظنونها ثابتة.

فإلى الدور الذي تضطلع به هذه الحرب الكثيرة الوجوه في الوصول بمآرب السياسة الإيرانية إلى غاياتها الإقليمية والدولية، تضطلع بدور آخر لا يقوم الدور الأول إلا به، وهو تشييد أبنية المجتمع الإسلامي الذي تتعهده ولاية الفقيه ويتعهده وكلاؤه»[٢].

بهذه البدايات «المتفجرة» بدأ «حزب الله» إثبات وجوده في الساحة اللبنانية طبقاً للأهداف الإيرانية، وعلى الجهة الأخرى كانت سوريا على الخط اللبناني الساخن، واستخدمت سوريا «حزب الله» كما استخدمت أمل من قبل، فهل ينجح حزب الله في خدمة سيدين!؟

وعلى الصعيد الداخلي اللبناني كان على «حزب الله» وسادته أن يقوموا بتأمين المجتمع وإغراقه «بالإحسان» والخدمات الاجتماعية ليكسبوا التأييد الشعبي للحزب، فما هي هذه الخدمات؟ وهل حققت أهدافها؟ وما هي النجاحات التي حققها «حزب الله» في الصراع المتبادل مع اليهود؟ كما يطرح سؤال مهم نفسه: مع تغير اللهجة الإيرانية واتباعها للمنهج البراجماتي في سياستها الجديدة، ومع خوض سوريا في مفاوضات تسوية، هل يستمر حزب الله في الدور نفسه الذي بدأ به؟

كل هذه الأسئلة وغيرها نجيب عليها - بإذن الله - في الحلقة الرابعة والأخيرة.

---

(١) دولة حزب الله، ٢٣١ ـ ٢٣٢، ٢٦٩، ٢٧١ بتصرف.

(٢) المصدر السابق/١٢١ ـ ١٢٢.



يرصدها: حسن قطامش

إخـوة الجهالة

[غنى اللبناني (مارسيل خليفة) قصيدة للشاعر محمود درويش تتضمن آيات قرآنية، وأحيل إلى المحكمة بناءاً على إدانة مفتي لبنان لهدا العمل].

١ - إن ما يحدث لمارسيل خليفة اليوم ليس سوى حلقة في مسلسل العنف الذي تمارسه المجموعات المعادية للمجتمع المدني التي تبرر إرهابها باسم الدين زوراً وبهتاناً على المبدعين والمفكرين العرب، بوصفهم طليعة المجتمع المدني، وفاتحي أفق الحق والخير والجمال لمجتمعاتهم التي تحلم بالحرية والعدل والتقدم.

ما يتكرر حدوثه في هذه السنوات من ممارسات التعصب والتطرف والإرهاب التي تهدف إلى الإطاحة بإمكانات الدولة المدنية الواعدة لا يعرف قيم التسامح التي تعرفها الأديان الكبرى وتؤكدها، ولا يعترف بحضور المجتمع المدني الذي يسعى إلى تدمير وعوده. وأول هذا التدمير إشاعة الرعب في نفوس المبدعين والمفكرين، وتثبيت تقاليد الاتباع المعادية لكل اجتهاد أو تجريب، وإشاعة روح العداء للخروج على المألوف أو المعتاد، أو التحرر من قيود الثبات أو أسر الضرورة في الفكر والإبداع، والمطاردة المستمرة والملاحقة القمعية للمبدعين والمفكرين الذين يبحثون عن المغايرة في كل مكان. قضية مارسيل خليفة، حلقة من حلقات القمع المستمر على الإبداع في كل مكان من هذا الوطن العربي الذي لا يكاد يخرج من كارثة من كوارث التعصب إلا ليقع في غيرها. [د. جابر عصفور، جريدة الحياة، العدد: (١٣٣٧٤)]

٢ - إننا من خلال تضامننا مع مارسيل خليفة نتضامن مع العلمانية ضد الجهل والخرافة، ولم نعد نخشى أن نشهر علمانيتنا وأن نعتز بها ونكافح بها في وجه الجهل والخرافة، وعندما نتضامن مع مارسيل فإننا نتضامن مع أنفسنا لرغبتنا في بناء حياة جديدة مليئة بكل أشكال التنوير والحداثة، وتجاوز القتامية والظلامية التي يُحاوَل فرضها علينا. [ياسر عبد ربه، وزير الثقافة والإعلام الفلسطيني، جريدة الحياة، العدد: (١٣٣٨٦)]

دين أدونيس

الشعر تحديداً: انشقاق، أو لأكرر ما يراه «نيتشه» بعبارة أخرى: يكون الشعر مضاداً أو لا يكون. الشعر انفجار متواصل في تصدعات زمنية متواصلة، وهو لذلك ضد كل ما هو سائد، أو راسخ، ضد المعتقدات والتقاليد! وضد كل ما هو عام، لقد كان الفكر العربي في مختلف اتجاهاته فكراً أصولياً، وتعود أصوليته إلى أنه ينطلق دائماً من أفكار ومعتقدات يعدها مسلمات وحقائق نهائية، ولا يطرح عليها أي سؤال، إن العمل الأول للفكر هو نقد أصله أو أصوله، هو نقد المسلَّمات، لا نقدها وحسب، وإنما الخروج منها كذلك، كل شيء يجب أن يخضع للسؤال والبحث، عندما يمارس الفكر العربي هذه الحرية يمكن القول عنه آنذاك: إنه فكر خرج من الأصولية ويمكن أن نسميه آنذاك فكراً بحصر المعنى.

[أدونيس، مجلة الوسط، العدد: (٤٠٥)]

وحيد.. زمانه!!

١ – شاءت المقادير أن أقتربَ من السيد (عبد الرحمن وحيد) في أكثر من مناسبة في مؤتمر أمستردام كان الرجل يردد مقولات المستشرقين عن الإسلام فيما يتعلق بالشريعة والمرأة والحدود وغير المسلمين، وكلها آراء سلبية يعرفها الجميع لا ترى في الإسلام فضيلة ولا تنسب إليه فضلاً، وقبل هذا وذاك فإن السيد عبد الرحمن كان له موقفه العلماني الحاسم الذي يدعو إلى عزل الدين عن المجتمع وحصره أو حصاره ـ في الأخلاق والعبادات والتوحيد ـ أما المعاملات وشؤون الدولة وغير ذلك ففي رأيه أنه ينبغي ألا يكون للدين بها علاقة. وهو كلام يطرب الغربيين لا ريب، لأنه يسمعهم ما يريدون ويتمنون، ولذلك فإنهم اعتبروا الرجل زعيماً إسلامياً معتدلاً ومستنيراً للغاية، وقدموه في المؤتمر وفي غيره من المحافل بهذه الصفة.

هذه هي المرة الأولى ـ في حدود علمي على الأقل ـ التي يقدَّم فيها رجل علماني بحسبانه زعيماً إسلامياً يتبعه ملايين البشر ممن انخرطوا في جماعة مصنفة تاريخياً باعتبارها إسلامية محافظة. ذلك أن السيد عبد الرحمن وحيد يرأس جماعة «نهضة العلماء» التي أسسها جدُّه في عام ١٩٢٦م، وتضم أعضاءً يصل عددهم إلى أكثر من ٢٠ مليون شخص.

عندما التقيته في بيته، كرر الكلام نفسه عن الشريعة وظل عند موقفه منها، لكن حديثه في السياسة كان جديداً، بالنسبة لي على الأقل؛ إذ وجدته شديد الحماس لـ «إسرائيل» والإعجاب بشعبها وبما اعتبره تقدماً على أصعدة مختلفة فيها. ثم اكتشفت أنه عضو مؤسس في معهد بيريز للسلام بتل أبيب، وعلمت منه أنه زار «إسرائيل» ثلاث مرات، وأنه اعتذر عن عدم تلبية دعوة رابعة بسبب انشغاله بالانتخابات في بلاده!

وبسبب علاقاته التي أقامها مع «إسرائيل»، لم يكن مستغرباً أن يحتفي الزعماء الإسرائيليون بتوليه رئاسة أكبر دولة إسلامية، وهو ما عبر عنه تقرير نشرته صحيفة «جاكرتا بوست» ـ التي يملكها تجمع مسيحي أندونيسي متعاطف مع «إسرائيل» ـ ونقلت فيه تصريحاً لرئيس الوزراء الأسبق شمعون بيريز أدلى به لصحيفة «يديعوت أحرونوت» قال فيه: إن عبد الرحمن وحيد صديق حميم لـ «إسرائيل» وهو يمثل «الإسلام المستنير» (!) ـ كما أنه رجل مبادئ وروحاني ـ كما نقل ما نشرته صحيفة «هاآرتس» أن الرجل زار «إسرائيل» عدة مرات، وشارك في مؤتمر هناك ضد الإرهاب (الفلسطيني لا غيره)! وقال: إن الإسلام دين سلام مع الجميع. أضاف تقرير «جاكرتا بوست» أن عبد الرحمن وحيد كان قد أدلى بحديث صحافي للإذاعة الإسرائيلية قبل عدة أشهر، أعرب فيه عن إعجابه بالشعب اليهودي، وقال: إنه تلقى علاجاً في تل أبيب، وأنه يتطلع إلى اليوم الذي تقام فيه العلاقات الدبلوماسية بين إندونيسيا وإسرائيل». [فهمي هويدي ـ جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٣٦)]

٢ – ذكرت وكالة الأنباء الرسمية «أنتارا»: أن إندونيسيا ستمضي قدماً في خطتها لإقامة علاقات تجارية مع «إسرائيل» على رغم المعارضة العامة؛ ونقلت الوكالة عن وحيد قوله: «أدعو الذين يعارضون ذلك أو لا يريدون التفهم أن يفهموا» وأضاف أن على إندونيسيا أن تتمكن من إقامة علاقات اقتصادية مع أي دولة في العالم، بما في ذلك «إسرائيل»، إلا أنه لم يشر إلى أنه سيعترف بـ «إسرائيل» في المستقبل القريب.

وتابع وحيد: إن عدداً من الدول الإسلامية التي تستبعد علانية إقامة علاقات مع «إسرائيل»، تقيم من دون ضجة علاقات تجارية مع تل أبيب؛ وقال: «دعونا من النفاق» وزاد: إن الغرض من إقامة علاقات تجارية مع «إسرائيل» هو التمتع بمزايا اقتصادية.

وأعلنت الحكومة الإندونيسية أن خطة إقامة علاقات تجارية مع «إسرائيل» جزء من الضغط على تل أبيب فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية!! [جريدة الحياة، العدد: (١٣٣٩٢)]

تواطؤ عربي على الأقصى

كشف الشيخ رائد صلاح رئيس بلدية أم الفحم ورئيس الحركة الإسلامية النقاب عن وجود مباحثات سرية تجري بين الحكومة الإسرائيلية وأطراف عربية لوضع حلول لبناء الهيكل المقدس لدى اليهود. وهذه المباحثات السرية جرت في النمسا وفرنسا ودول عربية لم يعلن عن اسمها من أجل بلورة حل لقضية المسجد الأقصى وبناء الهيكل إلى جانبه. وعدد صلاح ثلاثة مقترحات لبناء الهيكل تتم دراستها، وهي:

إقامته في الأماكن التي تقع في أسفل المسجد الأقصى، بينما يبقى المسجد الأقصى والقبة مع المسلمين على قاعدة: «ما فوق التراب للمسلمين، وما تحته لليهود».

والمقترح الثاني: بناء قواعد ضخمة جداً وسط الآثار الأموية والأيوبية الواقعة في القسم الجنوبي والجنوبي الغربي للمسجد الأقصى المبارك مشتركة بين اليهود والمسلمين.

وينص الاقتراح الثالث على بناء الهيكل بصورة مباشرة في ساحات المسجد الأقصى. وأوضح الشيخ رائد صلاح أنه منذ توقيع اتفاقية أوسلو وحتى الآن - بين الحكومة الإسرائيلية ومنظمة التحرير الفسلطينية - ازدادت عمليات الاعتداء على المسجد الأقصى؛ بحيث بلغت ٧٢ محاولة، في حين كانت بلغت ٤٠ اعتداءاً في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦٧م و ١٩٩٠م، وكان أخطرها في العام ١٩٨٤م وهي محاولة تفجير الأقصى.

[جريدة الخليج، العدد: (٧٤٦٩)]

ترى هل يسمعون؟

أهابت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي - في نداء أصدرته - بأصحاب الجلالة والفخامة والسمو ملوك ورؤساء وأمراء الدول الإسلامية والمنظمات والهيئات والمؤسسات والشعوب الإسلامية للتضامن مع شعب الشيشان في المحنة الأليمة التي يعيشها منذ أن شنت القوات الروسية أبشع عدوان عسكري عليه. إن القوات الروسية أحرقت الأرض، ونفذت استراتيجية الإبادة الجماعية وحملت مئات الآلاف من الشيشان على الفرار والهرب، إننا نطالب جميع المسلمين بالمسارعة إلى تقديم أشكال العون المادي والعيني لشعب الشيشان المنكوب استجابة للاستغاثة التي أطلقها الشيشانيون للمسلمين وملوكهم ورؤسائهم. [جريدة الرياض، العدد: (١١٤٥٩)]

أساؤوا.. وأخطأت

قال سعيد عبد المسلموف السكرتير الصحافي للرئيس الشيشاني أصلان مسعادوف: إن الأخير قد بعث برسالة إلى البابا يوحنا بولس الثاني طلب منه ومن العالم المسيحي حماية الشعب الشيشاني من إبادة لا علاقة لها إطلاقاً بالإرهاب والجريمة، إن الأحياء السكنية تحترق، وقال مسعادوف في الرسالة: إنه لم يوجه رسالته إليه إلا بعد ما تأكد من أن العالم الإسلامي لا يكترث بمأساة الشعب الشيشاني ونداءاته المتكررة!!

[جريدة الحياة، العدد: (١٣٣٨٣)]

أين أونسكوم؟

أفادت وكالات الأنباء أن القوات الروسية أطلقت صواريخ من قاعدة عسكرية بالقرب من فلاديقفقاس تصنف على أنها أسلحة دمار شامل، وأن ثلاثة من هذه الصواريخ أصابت سوق جروزني.

[جريدة الخليج، العدد: (٧٤٦٦)]

حتى متى؟!

أعلن وزير الدفاع الأمريكي وليام كوهين أن الولايات المتحدة ستعزز قواعدها الجوية في الكويت لتتمكن من الرد بأسرع ما يمكن في حالة الطوارئ، وأعلن كوهين في مؤتمر صحافي عقده في الكويت: ما نريده هو زيادة قدرة قواعدنا على استيعاب قوات والتأكد من أن لدينا مجالاً أوسع للطائرات وتسهيلات أخرى لاستقبال عدد كبير من الطائرات، على سبيل المثال، في الحالات الطارئة أو حدوث ما هو غير متوقع. وقال: إن كلفة المشروع قرابة ١٧٣ مليون دولار، ولم نناقش كيف ستتوزع الكلفة بين الولايات المتحدة والكويت. وأضاف كوهين سنتوزع النفقات، ثم قال: «إن الشعب والحكومة في الكويت كانا في غاية الكرم في دعمهما للمشاركة في أهداف الولايات المتحدة في المنطقة ونامل في أن نستمر في تلقي دعم الشعب الكويتي.

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٣٦)]

الحرب المستعرة

قال الرئيس التركي سليمان ديمريل: إن الإسلام بالمفهوم المعاصر لا يتناقض مع العلمانية وإنه لا يفهم سبب خوف بعضٍ من أن يعلنوا بأنهم مسلمون.

لقد تغير الكثير خلال ألف وأربعمائة عام، وإن هناك بعض الأحكام في القرآن لا يمكن تطبيقها الآن مثل تعدد الزوجات، وإن أفضل شيء في هذا الموضوع استبعاد آيات الأحكام من التطبيق وعدد هذه الآيات ثلاثمائة وثلاثون آية أو يزيد!! - على حد قول الرئيس التركي.[جريدة الرياض، العدد: (١١٤٥٦)]

كلام لا يُشرف

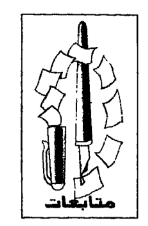
قال قائد الجيش الباكستاني الجنرال برويز مشرف: إن الزعيم التركي الراحل كمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة «مصدر وحي كبير» له، مشيراً إلى ما تردد في الدوائر السياسية بباكستان حول تشابه صيغة «مجلس الأمن القومي الباكستاني» التي أعلن عنها مع النموذج الأتاتوركي العلماني.

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٣١)]

بين المنع والإباحة

١ - منعت حكومة جزر المالديف الإسلامية عرض فيلم «أمير مصر» الذي يُظهر أمريكياً في دور سيدنا موسى - عليه السلام - وسبق لهم أن منعوا فيلم «بن خور» و «التعاليم العشرة» لنفس السبب وهو ظهور مثلين يتقمصون دور أحد أنبياء الله مما يتعارض مع تعاليم القرآن، وقد سبق لحكومة المالديف أن طردت بعض المنصرين الغربيين وسجنت بعض المرتدين عن الإسلام. [دورية الكوثر، العدد: (٢٣)]

٢ - قام وفد من البطريركية الأرثوذكسية في القدس، على رأسه البطريرك اليوناني ثيودوروس الأول الآتي بدعوة رسمية تستمر ٣ أيام من أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، في أول زيارة يقوم بها لقطر، شكر خلالها الأمير على دعوته ومبادرته بالموافقة على بناء أول كنيسة هناك. وقال تيماثاوس: في قطر التي زارها وفد أرثوذكسي مصغر قبل عامين للاطلاع على أوضاع الرعايا من أبناء الطائفة فيها أكثر من ١٠ آلاف مسيحي، معظمهم من الأرثوذكس القادمين من لبنان وفلسطين والأردن ومصر، وبعض الدول المسيحية، كاليونان وروسيا وصربيا والهند وسواها، وهؤلاء كانوا يطالبون دائماً بمكان للعبادة هناك، تدعمهم جهود بذلها بعض الدبلوماسيين الأجانب في الدوحة، فأجريت اتصالات خلال العام، تبعتها دعوة رسمية من الأمير لثلاثة أيام، شكروه خلالها على تبرعه بأرض لبناء أول كنيسة أرثوذكسية منذ ١٣٠٠سنة في الدوحة، من دون أن يشرح كيف كانت هناك كنيسة أرثوذكسية في ذلك العصر بقطر. [جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٤٩)]



المسلمون والإعلام الفضائي

مروان كجك

تتعاظم آثار الإعلام التلفزيوني يوماً بعد يوم؛ تبعاً لتعاظم الشبكة الفضائية التي غدت من أكبر مشاغل الناس، ومن أعظم همومهم. وإذا كانت جموع المؤمنين ترفع أكفها إلى السماء ليسقيها ربها ماءاً غدقاً فإن أكثر مَنْ في الأرض يُرهفون أسماعهم، ويوسِّعون حدقات عيونهم، ويُبيحون حِماهم لاستقبال رسائل مستعمري الفضاء التي لا يحمل أكثرها إليهم إلا ما يؤدي إلى عبودية الإنسان للإنسان، واستغلال الأقوياء للضعفاء، والأغنياء للفقراء، وسيادة الكذب، وتواري الصدق، والدعوة للإسراف في كل شيء إلا الخير.

وهذا ما يدعونا إلى إعادة النظر في هذا الجهاز المتربع على عرش الإعلام بكل أبعاده ومقاييسه وأخطاره، تحذيراً للغافل وتعليماً للجاهل، وبياناً للحق في هذه المسألة التي تشغل أذهان الآباء والمربين وقلوبهم وهم يرون ما لهذا الجهاز من السيطرة على عقول الناشئة، وما له من الآثار على الشخصية السوية والمسلمة منها خاصة وهي الشخصية التي نرجو لها أن تسود العالم بما تحمله من الأهداف النبيلة التي يشمل خيرها الصديق والعدو، والإنسان والحيوان، والنبات والجماد.

وإن التطور المذهل في وسائط الاتصال وآلياته وأساليبه يستدعينا - نحن المسلمين - أن نسارع إلى استدراك ما فاتنا من هذا التطور الذي ارتضينا أن نكون من زبائن تُجَّاره ورعايا فُجَّاره، وكأن هزيمتنا وخضوعنا لأعدائنا على وجه الأرض لم يكفنا حتى غدونا عبيد الفضاء وأذلاء الأثير، حتى إننا أجَّرنا قمرنا «عرب ساتنا» لـ «ألدِّ أعدائنا» ولم يعد لنا من حول ولا طَوْل إلا أن نقول بألسنتنا ما لا نعقده في قلوبنا: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وكأننا نرائي الله بأقوالنا كما يرائي بعضنا بعضاً؛ والله يعلم أن قولتنا هذه لا تجاوز حناجرنا، ولو علم الله منا صدقاً في الإيمان بمدلول هذه الكلمة كما يقتضيه لسان العرب لانتصر لنا من أعدائنا.

إن استخدامات التلفزيون، في صورته الراهنة، ومن خلال المؤسسات العالمية التي تمارس التوجيه المشبوه من خلاله، تشكل عقبة تؤثر في العملية التربوية المنوطة بالأسرة والمدرسة والمجتمع، وتنحرف بالعملية التربوية عن مسارها الطبيعي وتقود المجتمع نحو الهاوية.

ولعلّ الدراسات المستفيضة التي قامت في السنوات الأخيرة حول الآثار السلبية للتلفزيون تدعونا - نحن المسلمين - أن نكون أول من يتنبه وينتصب ليدافع عن حضارته وهويته، ويسد المنافذ على المفسدين الذين لا يرون في جموع البشر - ومنهم المسلمون - غير مجموعات استهلاكية لبضاعتهم الفكرية والتجارية، أو فئران تجاربْ تخضع لاختبارات التأثير المباشر لغاياتهم وأهدافهم.

إن الأضرار الناجمة عن كثير من برامج التلفزيون مؤكدة تحمل البراهين الدالة على أنه - بما وراءه من أهداف - يُستخدم ليكون مِعْوَل هَدْمٍ وأداة تراجع في المفاهيم الإنسانية النبيلة. ولو لم يكن لهذا الجهاز من الآثار الضارة - فيما يقدمه - إلاّ ما يقع منها على أطفالنا لكان ذلك كافياً لكل أب عاقل وأم رؤوم أن يختطفا أبناءهما من بين أيدي المحطات الداعرة حرصاً على إنقاذ فلذات الأكباد من مجونٍ إعلامي عاهر يضع المثل الأعلى لأطفالنا في ممثلين وممثلات أجَّروا أنفسهم لوكالات العهر والتخريب، أو في شخصيات خيالية غير مقبولة شرعاً ولا عقلاً تبني شخصيات أبنائنا على تقبُّل صُوَرِ الزيف والباطل، وتقودهم إلى مسارب الذل والهوان، فلا يرون في الصَّغار إلاّ عظمةً، ولا في الذل إلا عزاً، ولا في التخلُّف إلاّ تقدماً.

إن أباطرة الإعلام وهم يتربعون على عرش التوجيه الثقافي والروحي لعصرٍ سمِّي في إصداره الأحدث: «النظام العالمي الجديد» هؤلاء الأباطرة لا يتورعون عن اتباع شتى الأساليب التي تضمن لهم عالَماً يُساق إلى الذل في موكب خادع ماكر يأخذ بتلابيب الجميع من غير رحمة أو شفقة أو تأثر بأي معنى من معاني الإنسانية الفطرية.

إن ساعة زمنية من ساعات البث التلفزيوني تحتاج إلى تكاليف باهظة يعجز عن تسديدها كثيرٌ من حكومات العالم الفقيرة؛ ومع ذلك فإن أفراداً بأعيانهم - وكثير منهم من اليهود - يمتلكون محطات عالمية ومحلية للإرسال التلفزيوني يبذلون في سبيلها كثيراً من الأموال قد تبلغ الملايين من الدولارات؛ مما يتيح لهم تسخير مختلف أنواع الأقمار الصناعية واستخدامها للَّعب بأهواء الشعوب واجتذابها بشتى صنوف البرامج الجادة منها والهازلة، ولكنها في النهاية تتوجه إلى ترقيص الجميع على إيقاعها الإلكتروني ومشاهدها الساحرة، محرِّكةً للغرائز الشهوانية لتكتب ولو سطراً واحداً على قلوب مشاهديها الذين لا يدرون أن هذا السطر قد داخلهم فعلاً دون أن يحسوا له دبيباً!

نعم! إن قطاعات عريضة من شعوبنا الإسلامية قد أدركت اللعبة قبل غيرها؛ وإن كنا نعلم أن بُؤَراً اجتماعية في الغرب نفسه قد أفزعتها هذه المحطات التي لا تفرق في استعبادها للبشرية بين غربي أو شرقي أو مسلم أو نصراني؛ فالكل في نظرها قطعان تستهلك الطعام والجنس تقايضه بحريتها وكرامتها دون أن تتاح لها الفرصة للتفكر أو إعادة النظر في مجريات حياتها؛ فالزخم الإعلامي

غامر، والجدران الحصينة تنشق وتتفجر ليطل من خلالها على العالم مواليد إعلامية جديدة تتيح للُصوص والمنحرفين والشواذ السطو على البيوت والمنتديات؛ ولا أدل على ذلك من شبكة الإنترنيت التي لن تكون آخر صيحة ولا نهاية مطاف لما يتفتق عنه العلم، وما إن يظهر جيل من أجيال الكمبيوتر أو المستحدثات الأخرى حتى يظهر جيل آخر أكثر تقدماً وأعظم خطراً؛ بل إن شركات الكمبيوتر تُعِدُّ دفعة واحدة أنواعاً من هذه الأجهزة المختلفة في قدراتها والتي يلغي بعضها بعضاً فتسربها إلى السوق الواحد تلو الآخر بحسب قدراتها ومواصفاتها؛ بحيث يندفع الباحثون عن الجديد والأحدث إلى اقتنائها والفوز بقصب السبق في عالم متغير مع كل نقلة لعقرب الثواني في عصر العولمة الجديد.

وأضع أمام ناظرَي القارئ الكريم خبرين طازَجين يدعوان إلى إعادة النظر في معالجة مسألة الإعلام المرئي المسموع واستنفار أصحاب الغيرة في الأمة من علماء الدين، والعلماء الاختصاصيين، والمربين الغيورين، وأهل الأموال الخيرين، وأصحاب الخبرة التربوية والإعلامية والدعاة المرهفين إلى المبادرة الجادة مجتمعين ومنفردين للعمل الجاد لملاقاة هذه الداهمات والتصدي لمخاطرها، والإفادة من إمكاناتها في التوجيه الصحيح والبناء الصالح للفرد والجماعة، وألا نضع أنفسنا في مواقع التوجس منتظرين كشف الكاشفين؛ فإذا العالم كله يتقدم ويقوى ونحن على حالنا منتظرين حالمين مستهترين.

الخبر الأول نقلته كثير من الصحف قبل أيام من كتابة هذه السطور، وأوردُ رواية صحيفة الرياض السعودية في عددها الصادر يوم ١٩٩٩/٨/٨م تحت عنوان: (شاشة عالية الوضوح على إبهامك):

«توصلت شركة أمريكية مقرها في ولاية كاليفورنيا إلى إنتاج شاشة صغيرة وعالية الوضوح ارتفاعها حوالي سنتيمتر واحد من السهل أن يضعها الشخص على إبهامه. ومن غير المتوقع أن تستخدم هذه الشاشة بالطريقة التقليدية؛ فلن يجلس الشخص أمامها في غرفة المعيشة ليشاهد التلفزيون أو يستعمل الكمبيوتر، وإنما توضع هذه الشاشة داخل أجهزة رؤية توضع أمام العين مباشرة مثل النظارات الطبية. وتؤكد الشركة أن درجة الوضوح التي توفرها الميكرو شاشة تتفوق على درجة الوضوح التي توفرها شاشة مساحتها ١٩ بوصة» ا. هـ.

فما الذي يعنيه هذا الخبر؟ وما الذي سينتج عنه؟ وهل يثير مثل هذا الاختراع في المسلمين شيئاً أو يحرك ساكناً؟

هذا الخبر يعني - دون ريب - تضيُّق مساحة الرقابة التربوية على الآباء والمربين ورجال الأمن؛ وفي كثير من الأحوال انتفاء هذه الرقابة واستحالتها؛ فقد أصبح بمقدور أي شخص صغير أو مراهق أو كبير إخفاء هذه الأداة عن الأعين الشفيقة الحانية؛ فقد يواريها الفتى طية من طيات ثيابه، أو كتاباً من كتبه، أو تحت فراشه أو مخدته، وهذا ما يشير إلى تعطُّل جزء كبير ومهم من وسائل الرقابة التربوية التي كانت فعالة إلى حد كبير.

الخبر الثاني نقلته مجلة الشباب في عددها السادس الصادر في جمادى الأولى ١٤٢٠هـ تحت عنوان: (الإنترنيت تطلِّق الكمبيوتر). قالت المجلة:

«بعد شهور قريبة سيرثي الكمبيوتر فراق الإنترنيت؛ حيث أعلنت شركة الهواتف (vswest) عن خططها لإطلاق أجهزة هاتفية تسمح للمستخدمين بإرسال البريد الإلكتروني وتصفح الإنترنيت بدون الحاجة إلى استخدام الكمبيوتر؛ وبذلك تنتهي مشكلة أولئك الذين يعانون من صعوبة التعامل مع الحاسوب ويرونه عقبة تقف أمام دخولهم على الشبكة العالمية (الإنترنيت). وهذه الفئة من الناس ليست بالقليلة؛ حيث قدَّرتهم الشركة بـ ٥٠ ٪. ويتضمن ذلك الهاتف الجديد شاشة ملونة تسمح للمستخدم بتصفح الإنترنيت عن طريق التأشير ولمس أيقونات معينة. كما يمكن إرسال البريد الإلكتروني عن طريق طباعة الرسالة على لوحة المفاتيح الخاصة بهذا الهاتف. والجميل فعلاً أن من أهداف هذا الاختراع الجديد أن يقدَّم بسعر مناسب لا يتجاوز ١٠٠٠ - ١٥٠٠ ريال سعودي؛ وذلك يوفر عليك أضعاف هذا المبلغ لشراء جهاز الكمبيوتر». ا. هـ.

وهذا الخبر ماذا يعني لنا أيضاً؟ وما الذي يعنيه للمربين؟ بل ما الذي يعنيه بالنسبة لإمبراطورية الكمبيوتر التي كان يتراءى لها وللعالم أنها وضعت شبكة الإنترنيت تحت إبطها؟

إن هذا الخبر يعني الكثير بالنسبة لنا خاصة وللعالم عامة. إنه يعني أن هذه الإنجازات المذهلة سوف تكون مطارق تسحق قِيَمنا ومعاول تهدم ما بقي من صروحنا إن لم نأخذ أهبتنا لها لا بإغماض أعيننا واستهجان استخدامها ومستخدميها واستبعاد الزمن الذي تدخل فيه بلادنا أو تطأ ترابنا.

أما ما يعنيه هذا المخترَع بالنسبة للمربين فهو الحيرة والذهول، ثم البحث عن وسائل تضطلع بمهمة شاقة لم تكن منتظرة.

أما إمبراطورية الكمبيوتر فسوف يساورها الشك في استحوازها على أكبر قدر من وسائط الاتصال بعد اليوم.

إنه عالم متغير حقاً مع كل قفزة من قفزات عقارب الساعة. فما العمل اليوم؟

في عام ١٩٨٦م تساءلتُ في كتاب: (الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون) بالسؤال نفسه، وكان جوابي قبل أربعة عشر عاماً الذي تبع العنوان: (المخرج حاضراً): «إننا نرى أن على الأسرة المسلمة اليوم أن تتخلى عن التلفزيون نهائياً، وألا تدع له مكاناً بين أفرادها ما دام موجهاً نحو أغراض تناقض ما أحبه الله لخلقه... والتلفزيون على ما هو عليه الآن من هيمنة جهات معينة لا تقيم للدين وزناً، فتوجهه الوجهة المعاكسة للتربية القويمة المتوازنة فإنه بالتمحيص والدراسة المتأنية نجد وبشكل يثير القلق أن مضاره تدفعنا إلى اختيار الدعوة إلى الإحجام عن استعماله أو الركون إليه ولو مؤقتاً إلى أن تنحاز برامجه إلى جانب الحق، ويغلب خيرُه شرَّه» [ص ٢٥٦، ٢٥٧].

ومما قلته تحت عنوان: (المخرج مستقبلاً): «ليست دعوتنا الأسرة المسلمة إلى التوقف عن تشغيل التلفزيون تعني طلب الإعدام لهذا الجهاز أو إلقائه في مقلب الزبالة كما اقترح الكاتب الأمريكي جيري ماندر ... ولكن تقديرنا أن المؤسسة التلفزيونية في بلدان العالم الثالث - والشعوب الإسلامية جزء من هذا التصنيف - هذه المؤسسة تبدو صورة من صور السلطة وجانباً هاماً من مرتكزاتها التي لا تنفصل عن حقيقتها، هذا التقدير

جعلنا نتوجه باقتراحنا هذا مباشرة إلى الأسرة لإدراكنا بأن شعوب العالم الثالث قد هُذِّبت على ألاَّ تطلب في واقعها شيئاً بل عليها انتظار الإنعام ... فما هي الوسيلة التي تجعلنا نفيد من هذا المختَرَع الرهيب العجيب ونسخِّره للخير بعد أن ظل زمناً طويلاً منذ اختراعه مستخدَماً في ضروب شتى من التخريب وإضاعة العمر في متابعة ترهاته وخزعبلاته؟ هذه الوسيلة تكمن في التلفزيون السلكي أو التلفزيون الجماعي، وهو ما يسمَّى بالتلفزيون الكابلي ... وقد أصبح وسيلة اتصال قائمة بذاتها ولمحطاته القدرة على البث في نحو مائة قناة مرة واحدة، وما تزال الأبحاث جارية لزيادة عدد القنوات هذه». [ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨]

وما يزال للتلفزيون الكابلي دوره المتميز على الرغم من مزاحمة الفضائيات له؛ فقد أشارت الدكتورة عواطف عبد الرحمن أستاذة الصحافة في جامعة القاهرة إلى هذه الحقيقة في مقالة لها في صحيفة الحياة تحت عنوان: (وظائف الإعلام العولمي بين شمال وجنوب) قالت فيها: «تشير خريطة الفضائيات التي تسيطر عليها كل من الولايات المتحدة واليابان والدول الأوربية إلى أنه يوجد في العالم - أي حتى كتابة المقالة تلك - ١,٢٦ بليون جهاز تلفزيون منها ٢٠٠ مليون جهاز بالكابل..) [الحياة ١٥/٧/١٩٩٨م] وقد يبدو العدد قليلاً؛ إذ إن نسبته إلى المجموع الكلي هي السدس؛ إلا أننا إذا عدنا إلى التفكُّر بالطبقة العلمية والاجتماعية التي تأخذ عادة بهذه الأساليب الراقية فإننا نستطيع أن نتخيل أن الطبقة الفاعلة المؤثرة في مجريات العصر الذي نحياه هي الأعلى نسبة بين مستخدمي هذا الصنف من شبكات التلفزيون.

أما اليوم وفي أيامنا الراهنة هذه فقد تبدلت الصورة عما كانت عليه قبل ما يقرب من سدس قرن تبدلاً يكاد يكون جذرياً، واتسع الخرق على الراقع، ولم يعد المجال مناسباً للاقتصار على الدعوة إلى الابتعاد عن الجهاز أو الإقلال من قربانه، أو محاولة ترويض النفس على المشاهدة الانتقائية التي لا يستطيع تحملها إلاَّ القلة النادرة أمام الإغراءات الطاغية التي تأخذ بتلابيب المرء ولا تدعه حتى يصبح مدمن تلفزيون من فئة خمسة نجوم؛ مما يستدعي إعادة التفكير في حل مناسب للمسلمين خاصة، وللبشر عامة؛ فما هي الدواعي للبحث عن حل؟ وما هو الحل؟

دواعي البحث عن حل:

إن دواعي البحث عن حل كثيرة، ولو جئنا ننقب عنها لوجدناها تحوم حولنا وتحف بنا وتحيا معنا، تمر بنا ونمر بها، تغيب عن أذهاننا لتغوص في أعماقنا؛ فإن أطلت ثانية جاءتنا بثوب جديد، وفلسفة مستحدثة، ولون مبهر، وطلاء أخاذ؛ ومعظمُ الغيورين ينشدون حلولاً تناسب العصر ولا تخرج بنا عن عقيدتنا وأعرافنا القيمة التي انبنت على هذه العقيدة ونبتت بين ظهرانيها؛ ولذلك فإننا نذكر أهم دواعي البحث عن حل يتناسب وواقع الأمة بمجملها:

١ - سيادة البث الفضائي القسري، وتسلحه بأرقى ما توصل إليه فن الإعلام وتقنية الاتصال، واستناده إلى رأسمال ضخم يبتلع الأخضر واليابس.

٢ - خروج البث التلفزيوني من قبضة الحكومات إلى قبضايات الرأسمالية التي لا تفرق بين الحلال من المال أو الحرام منه؛ فبإمكان المال

شراء ما يشاء من قنوات البث التلفزيوني والذمم المعروضة للبيع أو التأجير بدون شروط مسبقة إلا توفر الفلوس.

٣ - توجُّه أصحاب الأيديولوجيات المنحرفة عن الحق والمعادية له من يهودية ونصرانية وإلحادية إلى امتلاك الأقنية التلفزيونية والإذاعية في شتى بقاع العالم، وتوجيه العديد منها إلى العالم الإسلامي بقصد زعزعة عقيدته تمهيداً لرد المسلمين عن دينهم، أو فصل حياتهم عن دينهم بعد أن تمكنوا في معظم بلاد المسلمين من فصل الدين عن الدولة.

٤ - تصدُّر البث التلفزيوني بصورة عامة والفضائي منه خاصة المنابر التربوية، وهيمنته على الأطر التربوية التقليدية من خلال: الأسرة والمدرسة، وأمكنة العبادة؛ بل يكاد التلفزيون يلغي التأثير التربوي لتلك الأمكنة ويزيح القائمين عليها من الآباء والمدرسين والخطباء والوعاظ، ويمهد لتشكيل شخصية عالية لا يجمع بينها سوى شدة النهم لكل دواعي الغرائز والشهوات، شخصية استهلاكية أنانية فردية لا يعنيها غير تحقيق رغباتها والاستجابة إلى نزواتها.

٥ - استحالة التصدي الفعلي لمحطات البث الفضائي، أو إيقافها أو التحكم فيها من قِبَل الدول المستقبلة لها، مما يعني استفحال المشكلة، وخروجها عن نطاق التحكم فيها، أو تصفيتها وترشيحها وتنقيتها (الفلترة)، أو حجب بعض برامجها؛ فلها سلطانها الذي يحميها، وهي في منأى عن قوانين وأنظمة البلاد التي تستقبل الإرسال، ولا تخضع إلا لسلطة البلد الذي تعمل فيه أو القمر الصناعي الذي تعيد البث من خلاله نحو أصقاع شتى.

٦ - بداية عصر الاستقبال الفضائي دون الحاجة إلى الأطباق والدشوش؛ مما يعني إمكان إخفاء مظاهر التعامل مع هذا الاستقبال مما يقطع الصلة بالناس المحتاجين للإرشاد والتوجيه والنصيحة؛ ليصبحوا فريسة طيعة للشيطان والإرسال الشاذ.

هذه بعض أسباب ودواعي البحث عن حل؛ وذلك بمقتضى المستجدات والمتغيرات التي طرأت على آليات البث التلفزيوني وزادت من آثاره وأخطاره؛ وهذا ما يدعونا دون إبطاء أو تمهل إلى المبادرة إلى الأخذ بمنهج الإقلال من مخاطر البث التلفزيوني عامة، والفضائي منه على وجه الخصوص؛ دون إغفال الاهتمام بالإنترنيت؛ متصدين للمخاطر محاولين الإقلال من المفاسد إلى أقصى حد ممكن؛ مع العمل على زيادة الإفادة من الجوانب الإيجابية إلى أقصى حد ممكن أيضاً وتوظيفها لخدمة الإنسانية لتتمكن من السير في دروب العبودية لله لا للشهوات والطواغيت ودعاة الباطل.

وحيال هذا السيل الطامي من التدفق الإعلامي من خلال البث المباشر المتَّسم بالأهداف غير الإنسانية فإن من الحكمة الأخذ بالمعطيات الخيِّرة للتلفزيون، ولن يتأتى ذلك إلاَّ بتصدي نخبة العلماء والعقلاء والفضلاء لهذا الأمر والوقوف له متعاونين متعاضدين باذلين ما وسعهم الجهد للتلاقي بين أجهزة الإعلام الوطنية وبين العلماء والمربين والتنسيق فيما بينهم للتخفيف - إلى أي حد مستطاع - من آثار هذه الهجمة الإعلامية الشرسة.

الحل المقترح:

لعل من المفيد الإشارة إلى بعض الأساليب التي يمكن أن تساهم في الحد من الآثار السلبية لسوء استخدام هذه المخترعات الفائقة التأثير على مسيرة البشرية جمعاء وهي:

١ - إنشاء محطة بث إسلامية عربية تشترك فيها كافة البلدان الإسلامية، ويمكن التقاطها في أية بقعة من الأرض، وتعمل على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً.

٢ - إنشاء شركات إعلامية إسلامية أهلية خاصة مساهمة تتبنى المنهج التربوي الإسلامي في الإعلام بأصنافه المختلفة وعلى رأسها الإعلام التلفزيوني الفضائي والإنترنيت.

ويمكن لهذه الشركات والمحطات التعويل على الإعلانات التجارية التي لا تتعارض مع التربية الإسلامية في سد جانب كبير من متطلباتها المالية، والعمل على تنميتها بحيث تتمكن من تمويل نفسها بنفسها ثم الانتقال إلى تطويرها بما يتناسب وكل مرحلة جديدة لتؤدي رسالتها بثقة وقوة، وللوقوف في وجه ما يمكن أن تتعرض له من أساليب المحاربة والتخريب المحتمل؛ على أن تحمل الإعلانات التي تُبث من خلالها الروح الإسلامية التي تروِّج للحلال وتبتعد عن الحرام.

٣ - العمل على إيجاد منهج تربوي إسلامي جديد يتناسب والعصر الإعلامي الذي نحياه؛ مع الأخذ في الحسبان التطور المتوقع على مدى مستقبلي للأجيال الحاضرة والمستقبَلة؛ فمما يروى عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: «ربُّوا أبناءكم غير تربيتكم؛ فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» فإن الدفاع الذاتي خير وأجدى من كل أنواع الدفاع؛ فمن امتلك العقيدة وعرف أسسها وخطوطها العريضة حتى أصبحت له عقيدة وقضية كان أقوى على الصمود في وجه الشبهات ودحضها والانتصار عليها، ثم التحول إلى الانتصار للحق قولاً وعملاً.

٤ - الإكثار من المنتديات التي تهتم بعرض الأفلام التسجيلية الصالحة مساهمةً في البناء التربوي للشخصية دينياً وعلمياً وحضارياً.

٥ - قيام صناعة وطنية في البلاد الإسلامية لأجهزة التلفزيون مبرمجة بشكل متوافق مع محطات الإرسال الوطنية والإسلامية لا غير.

٦ - التنسيق بين أجهزة البث التلفزيوني الإسلامي والعربي لتحقيق الأهداف والغايات المتفق عليها فيما بينها.

٧- إنشاء قنوات بث إسلامية بمختلف لغات الشعوب الإسلامية على أن يكون من أهم برامجها تعليم اللغة العربية لتلك الشعوب بأساليب تربوية ميسرة.

٨ - إنشاء محطات بث إسلامية موجهة لغير المسلمين يمكن التقاطها في أية بقعة من الأرض، وناطقة بلغات الشعوب الموجهة إليهم.

٩ - إنشاء صناديق تبرعات دائمة في كافة أنحاء العالم الإسلامي لتقوية الرسالة الإعلامية، وإصدار طوابع مالية وبريدية بقِيَمٍ رمزية تُوَجَّهُ حصيلتها لتحقيق أغراض الإعلام الإسلامي.

١٠ - حث رجال المال والأعمال المسلمين وأهل الخير على البذل الخيري في الجانب الإعلامي، وتخصيص وقف إسلامي للعلم والإعلام.

١١ - مسارعة المؤسسات الإسلامية وسَبْقُها إلى تعرُّفِ أيِّ مخترع جديد مفيد، والتدرُّب عليه

وتهيئة الأشخاص والظروف المواتية للإفادة منه بشكل جدي وسريع؛ وهذا يستدعي قيام مؤسسة إسلامية لمتابعة ورصد المخترعات والمبتكرات والمكتشفات وبرامج الكمبيوتر والإنترنيت الجديدة التي تخدم الشعوب الإسلامية.

١٢ - القيام بوضع أفلام تسجيلية تبرز الدور العلمي للعرب والمسلمين حين كان الغرب يغط في الظلام، وإبراز دور الأندلس والمشرق العربي أثناء الحروب الصليبية في بعث الروح العلمية لدى الغربيين؛ وذلك لإعادة الثقة إلى نفوس أبنائنا وتعريفهم بفضل أمتهم على العالم.

١٣ - إنشاء مكتبة مركزية عامة (سمعية - بصرية) حكومية ومؤسسية في جميع المدن والأحياء الإسلامية تساهم في إعارة ونسخ الأفلام والبرامج الجادة المتفقة مع شريعتنا وتقاليدنا؛ مع عناية هذه المكتبة بإنشاء ملفات إحصائية لما يُتداول من البرامج الخاصة بكلٍّ من الفيديو والكمبيوتر على المستوى الوطني لكل بلد من بلدان المسلمين، وإنشاء لجان تربوية مختصة لدراسة هذه البرامج وتقييمها وتبادل هذه الدراسات بينها.

١٤ - إنشاء مؤسسة إسلامية عالمية تقوم بإنتاج برامج تلفزيونية تخدم المسلمين، وتساعدهم على الوصول إلى ما يتطلعون إليه في دينهم ودنياهم، وترجمة هذه الأفلام (الدبلجة) إلى جميع لغات المسلمين.

١٥ - إنشاء مؤسسة إسلامية عالمية لإنتاج برامج الكمبيوتر مما يخدم أغراض المسلمين، ويحقق أهدافهم الدينية والدنيوية.

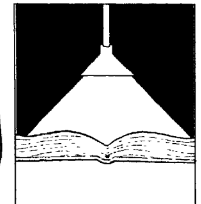
١٦ - إنشاء مجلس إعلامي يضم عضواً واحداً على الأقل من كل كلية من كليات الإعلام في جميع البلدان الإسلامية؛ للتنسيق بينها في مجال المناهج والمستجدات العلمية في أساليب الاتصال والأخذ بالمفيد منها، ورصد المناهج المضادة للنهج الإسلامي والعمل على التصدي له.

وبعد إيراد هذه البنود التي أجد أن من الأمانة إبلاغها لمن يدخلون تحت قوله ﷺ: «كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته»[1]؛ فالخطاب بتلك المقترحات وإن خص أناساً لمواقعهم ودرجة مسؤوليتهم فإنه يعم كل بني الإسلام؛ فحاجة الجميع إلى تربية إسلامية صحيحة أعظم من أن يتلهى عنها أحد في عصر فَغَرَ فاه ليبتلع كل شيء ويحوله إلى ركام وسماد يُستزرَع عليه طغيان لا ينجو منه ابن البيضاء ولا السوداء ولا الحمراء ولا الصفراء في عصر عولمة الشر والضنك والافتئات على خلق الله.

وأخيراً فإنه لا بد من التذكير بأن تضافر الجهود الخيِّرة، وتآزر الهمم المتطلعة لسيادة الحق وهزيمة الباطل كفيلة - بعد توفيق الله وتسديده - بأن تصل بخير أمة أخرجت للناس إلى بر الأمان، وامتلاك ناصية الأمر، وتخليص الإنسانية من كابوس طغيان المادة، وتحكُّم الذين يسيئون وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً.

---

(١) رواه البخاري، ح/٨٤٤، ومسلم، ح/٣٤٠٨.



العولمة بين منظورين

د. محمد أمحزون

إن الصراع الذي يميز التاريخ الإنساني ـ وما يزال ـ هو الصراع بين ضروب العولمة، أو بين الصور النموذجية للإنسان في الحضارات المختلفة.

والمتأمل في الحقَب أو الفترات المهمة في التاريخ الإنساني يلحظ أنها كانت عالمية، وتعود إلى من بيدهم الأدوات التي تمكنهم من فرض خواصهم على الآخرين.

وبهذا المعنى؛ فالعولمة فعل تاريخي متواصل، وهو حصيلة المعركة الجارية بين العالميات أو النماذج الحضارية المختلفة التي يؤمن أصحابها بأن لهم رسالة تحدد المثال الإنساني الأعلى.

وفي هذا الإطار فإن «العولمة» صفة لفعل الإنسان الصانع للتاريخ.

عالمية الدعوة الإسلامية:

إن الإسلام منذ أيامه الأولى كان واضح المعالم بأنه دين عالمي غايته تقديم رسالة الحضارة الإسلامية بوصفها ضرباً[1] روحياً خلقياً ومادياً لا يتنافى فيه الدنيوي والأخروي تنافياً انقسامياً يجعل الإنسان ممزقاً بين عالمين: أحدهما تحكمه القوانين الطبيعية الصماء، والثاني تحكمه القوانين الخلقية العزلاء.

ولقد كان واضحاً كل الوضوح في لغة القرآن المكي عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانية هذا الدين الذي يخاطب الإنسان جنس الإنسان بغضِّ الطرْف عن وطنه وقومه كما في قوله - تعالى -: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [التكوير: ٢٧]، وقوله - جل ثناؤه -: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله - جل ذكره -: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ [سبأ: ٢٨].

وهذا الخطاب موجه للناس كافة في شتى بقاعهم ومختلف أزمانهم، وبكل أجناسهم وقومياتهم وألوانهم.

وخلال الحوار الذي دار في بيت أبي طالب بين كبار قريش وبين النبي ﷺ قال لهم: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»[2] أي: كلمة لا إله إلا الله.

وفي مطلع السنة السابعة للهجرة باشر النبي ﷺ عمله في المجال العالمي حينما أرسل رسله من «الحديبية» يحملون كتبه إلى ملوك وأمراء عصره يدعوهم إلى الإسلام، وعلى رأسهم قيصر ملك الروم وكسرى ملك الفرس[3].

ثم بدأ بعد ذلك الاحتكاك بالروم البيزنطيين في غزوة مؤتة وتبوك على مشارف بلاد الشام؛ إذ كانت هذه المنطقة ضمن الإطار الحيوي الاستراتيجي للأمة الإسلامية.

---

(١) الضرب: النوع.

(٢) ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ج ٢، ص ٢٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، ج ١٢، ص ١١٢.

ولم يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى حتى كان العرب جميعاً قد دانوا بالإسلام، ووضعت الدعوة الإسلامية خطوات ثابتة ومدروسة في طريق التبليغ العالمي.

وقد ألقيت هذه المهمة الثقيلة على كاهل الخلفاء الراشدين الذين ابتدؤوا الفتوحات الإسلامية لإنقاذ الشعوب من الاستبداد السياسي والاستغلال المالي والتفكك الاجتماعي والفساد الأخلاقي.

خصائص العولمة الإسلامية:

لقد انطلقت العولمة الإسلامية من منطلقات فكرية وعملية قوية، مما جعلها تلقى القبول لدى الأهالي في البلدان المفتوحة وتتجلى خصائصها في أنها:

- تحمل ميزاناً دقيقاً للحقوق والواجبات حسب الشريعة الإسلامية.
- تحرص على بناء مجتمع العدل والقوة.
- تنطلق من مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للثروة والجاه أو اللون أو العرق.
- تتخذ الشورى أساساً للنظام السياسي.
- تُربّي الناس على الإبداع والإتقان من خلال دعوتها إلى العمران.
- تجعل العلم فريضة على الجميع لتفجير الطاقات الإنسانية لمواصلة التقدم والرقي.

الملكية العقارية بين الفرس الساسانيين والخلفاء الراشدين:

لنقتصر على نموذج واحد في المجال الاقتصادي لرصد العلاقة بين أشكال استثمار الأرض الزراعية في العهد الساساني والتحول النوعي في العهد الإسلامي.

لقد كان الفلاحون في سواد العراق أيام الدولة الساسانية يرتبطون بالأرض، وجلهم في حالة رق واستعباد، خاصة في ضياع الدهاقين والنبلاء، وتروي المصادر أن هؤلاء دأبوا على جباية الأموال واغتصابها من أصحابها لتدعيم مدخراتهم وإثراء كنوزهم، حتى يُروى أن (كسرى خسرو) الثاني اعتلى كرسي الملك وفي خزينته (٢,٦٨) مليون مثقال ذهبي لترتفع بعد ثلاثة عشر عاماً من الحكم إلى (٨٠٠) مليون مثقال ذهبي مما دفع الفلاحين إلى هجر الأرض نتيجة الإرهاق الضريبي، واللجوء إلى الأديرة طمعاً في الترهب وفراراً من الظلم[1].

ولكن بعد الفتح الإسلامي اعتُبروا أحراراً، واقتصرت السياسة الإسلامية في عهد الراشدين على إبقاء الأراضي في أيديهم بدافع تشكيل القوى المنتجة من جهة، وتحديد مساحات تلك الأراضي بهدف ضبطها فنياً واقتصادياً، مما سهل أعمال جباية الخراج، وأنصف أصحاب الأرض العاملين فيها من جهة أخرى[2].

تأثير الحضارة الإسلامية في أوروبا المسيحية:

في ضوء الدور الحضاري المتجدد والمتطور للمسلمين خلال العصر الأموي والعصر العباسي، أمكن للحضارة العربية الإسلامية أن تقدم مثالاً من الكونية ونموذجاً من العولمة يتسم بالتأثير على أوروبا المسيحية عبر معابر الحضارة في الأندلس وصقلية ودمشق وفاس وغيرها من الحواضر الإسلامية تأثيراً إيجابياً؛ إذ لم يحتكر المسلمون المنهج التجريبي الذي اكتشفوه، بل تركوا المجال مفتوحاً أمام البعثات الطلابية التي كانت تأتي من أوروبا إلى الحواضر الإسلامية لتستفيد من الاكتشافات الإسلامية في مختلف فروع العلوم: في

---

(١) نقلاً عن: عبد المجيد قدي: قراءة في واقع تخلف العالم الإسلامي، ص ٨٢.

(٢) انظر: أبو يوسف: كتاب الخراج، ص ٣٦ ـ ٣٨.

الكيمياء، والطب، والهندسة، والطبيعة، والرياضيات، والزراعة، وعلم الاجتماع، والحسبة.. إلخ، كما ساهمت أيضاً حركة الترجمة عن العربية – التي كانت لغة العصر – إلى اللغات الأوروبية وخاصة اللاتينية في نقل مناهج البحث الإسلامي والكثير من نتائجها العلمية(١).

التسامح في التعامل مع غير المسلم:

لقد مثّل الإسلام فتحاً في تقاليد العولمة من حيث التعامل مع غير المسلم؛ إذ كان المخالف (المُعارض) في أوروبا يُقتل أو يُطرد؛ بينما جاء الإسلام ليقبل الآخر المختلف معه في العقيدة أو الدين، ورتب له أوضاعاً قانونية وحقوقية تحفظ له وجوده، وتحفظ له ممارسة عقيدته، ويكفي أن نعرف أن غير المسلمين الذين عاشوا في المجتمعات الإسلامية قد ازدهرت حياتهم ولم يعانوا أية مشكلة؛ وعلى سبيل المثال فإن العثمانيين اتجهوا نحو التسامح مع الأقليات الدينية والعرقية، وتناقل المسيحيون عبارة قالها (لوكاس ناتوراس) الزعيم الديني البيزنطي في القسطنطينية حيث قال: «إنه خير لنا أن نرى العمامة في مدينتنا القسطنطينية من أن نرى فيها تاج البابوية»(٢).

كما كانت الدولة العثمانية ملاذاً للهاربين من الاضطهاد الديني في أسبانيا وفي أوروبا؛ يقول المؤرخ البريطاني (توينبي) في هذا الشأن: «إنها لأول مرة في التاريخ استطاعت أن تتوحد الكنيسة الأرثوذكسية في ظل هذه الدولة التي كانت استراتيجيتها: (وحِّدْ واحْكُمْ)، بينما كانت الاستراتيجية الاستعمارية تتبنى مبدأ: (فَرِّق تَسُدْ) (٣).

الاستعمار ووسائل التغريب:

عندما بدأ التخلف يطرق أبواب العالم الإسلامي لجملة من الظروف لا مجال لذكرها هنا، وأخذت موازين القوى تميل لمصلحة الأوروبيين مع إرهاصات النهضة، وبدأت أوروبا تسعى إلى تطويق العالم الإسلامي وإضعافه بكل الوسائل، فلم ينته القرن التاسع عشر الميلادي إلاّ وقد عظم شأن الاستعمار الغربي واستفحل، وسقطت أكثر البلدان الإسلامية تحت سيطرته أو نفوذه مستغلاً ضعف السلطنة العثمانية.

لكن الذي ينبغي ذكره هنا هو أن الاستعمار الغربي يدخل في نطاق العولمة السلبية؛ لأن مهمته كانت تقتصر على استغلال الموارد الطبيعية، وتوفير المواد الخام لصناعاته، والأيدي العاملة التكميلية، وتأمين سوقٍ مفتوحة لبضائعه. على أنه كان ينتظر الوقت الذي يستطيع فيه أن يستغني عن القوة العسكرية والتدخل المباشر ليعتمد في حراسة مصالحه على ما يسميه: «الصداقة».

وكان منح الاستقلال للمحميات أو المستعمرات بعد المواجهات الدامية وسيلة تخدم هدفاً مزدوجاً هو: إيجاد التواصل وإنشاء علاقة مستقرة ظاهرها الود والتفاهم وأساسها حراسة مصالح المستعمر، وتطوير السبل الكفيلة بدعم برامج التغريب (Westernigation) التي تطمح إلى طبع البلدان المختصة بطابع الحضارة الغربية(٤).

---

(١) انظر: غوستاف لوبون، حضارة العرب، وزيغرد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب.

(٢) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٧١.

(٣) محمد كمال منصور: توظيف ورقة الأقليات في العالم الإسلامي (حالة تيمور الشرقية)، ص ٧١.

(٤) محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٦.

وقد شمل التغريب كل الميادين، فتغلغل في السلوك الفردي، والفنون والآداب، والمناهج والبرامج والدراسية والإعلام، والاقتصاد، والقوانين... إلخ.

على أن العولمة الغربية تتكون من المراحل الآتية:

أ - **عولمة التصفية الجسدية**: ويدخل ذلك في نطاق ما تفعله القبيلة البدائية الغالبة بالقبيلة المغلوبة. وهو ما فعله همج الغزاة الأوروبيين في أمريكا من تصفية جسدية لأصحاب الأرض المحتلة (الهنود الحمر).

ب - **عولمة الاستعباد الرقيقيّ**: وقد كانت تتمثل في ضرورة البحث عن حل لما يترتب على تلك التصفية باستيراد العبيد من القارة الإفريقية لمن يعتقدون في أنفسهم تمثيل النوع الأرقى (الرجل الأبيض).

ج - **عولمة الاستعمار الاقتصادي**: وكانت تتمثل في ضرورة التوسع دون تصفية واستعباد، لإيجاد مصادر للمواد الخام، والأيدي العاملة التكميلية، وأسواق مفتوحة للبضائع.

د - **عولمة الاستتباع الحضاري**: وتتمثل في جعل المستعمَرين توابع يفضلون بأنفسهم مستعمراً على مستعمر آخر دون حسبان للمصالح، بل يسعون لنوع من الاندماج الحضاري في قيم الغالب المفضَّل، وهو ما يمكن أن نسميه: اقتسام العالم إلى مناطق نفوذ ثقافي.

هـ - **والمرحلة الأخيرة هي عولمة التصفية الروحية**: عندما يصبح التابعون يجدون في سيدهم المثال الأعلى؛ بحيث يصبح همهم الوحيد أن يكونوا مثله مع الاعتقاد بأنهم لن يصبحوا كذلك إلا بنفي كل ما يميزهم عنه، وهو ما يمكن أن نطلق عليه: «الانتحار الروحي فيسخرون من لغتهم وأدبهم وتاريخهم وقيمهم؛ وهو ما يعني إبادتهم الحضارية، وهذا الذي أصبح غالباً على جلّ النخب العربية، وخاصة التابع منها للمافيات الحاكمة الفاسدة المفسدة»[1].

خصائص العولمة المعاصرة:

جاءت العولمة (Glabolisation) لتكريس توجه الهيمنة ولتفرض أنماطاً حضارية جديدة في إطار الليبرالية الجديدة، بهدف تقوية الرأسمالية العالمية وخدمة مصالحها.

وقد جرى استخدام مصطلح: «عولمة» في هذا العِقْد على نطاق واسع، وتنبع خطورة هذا المفهوم وأهميته من أنه تحوّل كلية إلى سياسات وإجراءات عملية ملموسة في كل المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية، وأضحى عملية تطرح في جوهرها هيكلاً للقيم تتفاعل كثير من الاتجاهات والاستراتيجيات في الغرب على فرضه وتثبيته، وقسر مختلف شعوب المعمورة - وخاصة المسلمين - على تبنّي تلك القيم وهيكلها ونظرتها للإنسان والكون والحياة.

فما هي العولمة إذن في صورتها المعاصرة؟

إنها ظاهرة تتداخل فيها أمور السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع والسلوك، وتحدث فيها تحولات على مختلف الصور تؤثر في حياة الإنسان على كوكب الأرض أينما كان.

ويسهم في صنع هذه التحولات ظهور فعاليات جديدة هي الشركات متعددة الجنسيات التي تتسم بالضخامة وتنوع الأنشطة والانتشار الجغرافي والاعتماد على المدخرات العالمية، ومنظمة الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة المنبثقة عنها كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي[2].

---

(١) أبو يعرب المرزوقي: العولمة والكونية، ص ١٩.

(٢) عمرو عبد الكريم: العولمة، عالم ثالث على أبواب قرن جديد، ص ٣٥.

وهي وسيلة للهيمنة أو هي نمط من الاحتلال الجديد احتلالاً جدد آلياته وأساليبه بفعل التقدم التقني، فلم يعد قائماً على احتلال الأرض؛ بل أصبح قائماً على تحويل العالم كلّه إلى سوق استهلاكية للأفكار والمنتجات الغربية، أو بعبارة أخرى: فهي تمثل عصا استعمارية جديدة بحكومة عالمية خفية لها مؤسساتها: البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ولها أدواتها: الجات، والسبعة الكبار.

والولايات المتحدة - مهندسة هذا النظام العالمي الجديد - أخذت بمساندة احتكارات الشركات متعددة الجنسيات ودعمها في اختراق مجتمعات عالم الجنوب أو العالم الثالث، وإخضاع شعوبها لأنماط المعيشة الغربية وتحديداً: الأمريكية.

مجالات العولمة:

عولمة الاقتصاد:

قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها دعت الولايات المتحدة حلفاءها لمؤتمر عقد في مدينة «بريتون وودز» عام ١٩٤٤م، للتفكير في الأسس التي سيدار على أساسها النظام الاقتصادي العالمي.

وقد سيطرت على سير أعمال المؤتمر توازنات القوى التي نجمت عن الحرب، فكان من البدهي أن تصوغ أمريكا للعالم هذا النظام بما يحقق مصالحها.

وقد تمخض هذا المؤتمر عن ميلاد عدد من المؤسسات تشكل في مجملها الركائز التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الدولي وهي:

- صندوق النقد الدولي، ويقوم بدور الحارس على النظام النقدي العالمي.
- البنك الدولي: ويعمل على تخطيط التدفقات المالية طويلة المدى.
- الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة والتي تعرف اختصاراً باسم: (الجات)، التي تمخضت عن إنشاء المنظمة العالمية للتجارة[١]، وهي الشريك الثالث لصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي في وضع السياسات العالمية، كما عبّر عن ذلك مدير عام الاتفاقية (بيتر سذرلاند)[٢].

ويعتبر الهدف الرئيس من الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة تمكين الدولة العضو من النفاذ إلى الأسواق لباقي الدول أعضاء الاتفاقية، وقيام كل دولة بتثبيت بنود تعريفاتها الجمركية إلى حدود مقبولة من باقي الأطراف المتعاقدة بالاتفاقية، بحيث لا يتم تغيير هذا الربط «التثبيت» إلا بعد الرجوع إلى بقية الأطراف وتعويض المتضررين منها بهذا التغيير[٣].

لكن التفاوت الكبير في القوة السياسية والمنافسة الاقتصادية يجعل بنود الاتفاقية تصبّ في مصلحة الدول الكبرى؛ فقد أعلنت الولايات المتحدة عزمها على استغلال حق المطالبة بالتعويض أو فرض العقوبات التجارية في حالة الإخفاق في الوصول إلى حلّ مع المخالفين.

بل والأخطر من ذلك: أنه لأول مرّة في التاريخ الاقتصادي للأمم تصبح السياسة التجارية للدول المستقلة شأناً دولياً وليس عملاً من أعمال السيادة الوطنية؛ إذ أصبحت مقيدة بمجموعة من القواعد الملزمة وآليات التحكم الإجبارية؛ حيث إن منظمة التجارة العالمية تحدّ من قدرة دول الجنوب على التصرف المطلق ضمن

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٠.

(٢) ياسر قارئ: اتفاقية التجارة العالمية (GATTI)، ص ٧.

(٣) عمرو عبد الكريم: العولمة، ص ٤٠.

حدودها الوطنية، وتملك حق تشريع قوانين دولية وسلطة قضائية تلاحق الحكومات التي لا تنصاع لقراراتها، وقوة شرطية تمارس حق التفتيش داخل الدول[1].

ومن جهة أخرى، فقد وضع الغرب آليات التحكم في الاقتصاد العالمي بناءً على ثلاثة محاور:

أولها: النظام النقدي العالمي:

من خلال هيمنة الدولار الأمريكي على وسائل الدفع العالمية؛ حيث يمثل وسيلة الدفع العالمية المقبولة التي حلّت محل الذهب لتغطية إصدارات معظم عملات الدول، وبخاصة دول العالم الثالث. وتتحكم في هذا النظام المؤسسات المالية الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بوضع السياسات النقدية التي تخدم هيمنة رؤوس الأموال الغربية على اقتصاديات دول الجنوب والكتلة الشرقية بعد انهيار المنظومة الاشتراكية في شرق أوروبا بزعامة الاتحاد السوفييتي[2].

ثانيهما: التحكم في حركة رؤوس الأموال:

من خلال أسواق المال العالمية التي تتركز في الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، وأوروبا بالدرجة الثانية، واليابان بالدرجة الثالثة، وهذه الحركة لرؤوس الأموال تتم السيطرة عليها من خلال السياسات التي تضعها المؤسسات المالية الأمريكية التي تتحكم بدورها في المؤسسات المالية الأوروبية واليابانية من خلال تملّكها لمعظم أسهم تلك المؤسسات.

ومن أجل ذلك نجد الدعوة التي تتبناها المؤسسات المالية الدولية بتشجيع التخصيص، وبالسماح لرؤوس الأموال الأجنبية بتملك أسهم الشركات والسندات التي تصدرها الحكومات المحلية، ما هي إلا وسيلة لتحقيق الهيمنة الاقتصادية الغربية على اقتصاديات تلك الدول[3].

وقد أخذ البنك الدولي بتوجيه من الولايات المتحدة بإجبار دول العالم الإسلامي على إعادة هيكلة اقتصادياتها وفقاً لهذه السياسة الليبرالية، فاتجهت هذه الدول إلى الخارج لجذب رأس المال الأجنبي، وتبني مفهوم القطاع الخاص من خلال استخدام آليات السوق الحرة، وما يتطلبه ذلك من تحجيم واضح للملكية العامة وزيادة الفوارق الاجتماعية، ورهن أجيال المستقبل بالديون الخارجية.

ثالثها: الشركات متعددة الجنسيات:

وهي تمثل أهم مظاهر عولمة الاقتصاد، والإحصاءات الآتية توضح مدى خطورة تمركزها الرأسمالي:

- إن إيرادات أكبر خمسمائة شركة في العالم بلغ في عام ١٩٩٤م نحو (١٠) تريليون و (٢٥٤) مليار دولار، أي ما يقارب نصف الناتج المحلي الإجمالي لدول العالم في سنة ١٩٩٣م.

- إن مبيعات أكبر ٢٠٠ شركة تجاوزت مداخيل اقتصاديات (١٨٢) دولة ما عدا أكبر (٩) دول؛ فقد وصل دخل (١٨٢) دولة إلى مستوى (٦,٩) تريليون دولار، بينما وصلت مبيعات أكبر (٢٠٠) شركة إلى (٧,١) تريليون دولار.

- إن حجم المبيعات لأكبر ثلاث شركات متعددة الجنسيات (إكسون، شل، موبيل) عام ١٩٨٠م فاق حجم الإنتاج الوطني الإجمالي لكل دول العالم الثالث عدا سبع دول: (الصين، البرازيل، الهند، المكسيك، نيجيريا، الأرجنتين، أندونيسيا).

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٢) محمد بن عبد الله الشباني: مؤتمر القاهرة الاقتصادي، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢.

- في عام (١٩٩٦م) تعدى حجم المبيعات السنوية لأكبر (٢٠) شركة (٦٧) مليار دولار.

أما بالنسبة لكل شركة على حدة:

- **فليب مورس** التي احتلت المركز (٦٩)؛ فإن حجم مبيعاتها تجاوز حجم اقتصاد نيوزيلندا، ولها فروع في (١٧٠ دولة).
- **متسوبيشي:** المركز (٢٢): حجم نشاطاتها الاقتصادية أكبر من حجم النشاط الاقتصادي لأندونيسيا التي تحتل المركز الرابع على المستوى العالمي من حيث تعداد السكان.
- **جنرال موتورز:** المركز (٢٦): أكبر من الدانمارك في حجمها الاقتصادي.
- **فورد:** المركز (٣١) أكبر من جنوب إفريقيا اقتصادياً.
- **تويوتا:** المركز (٣٦): أكبر من النرويج في نشاطها الاقتصادي.

وجدير بالإشارة أن مجال عمل هذه الشركات تجاوز الميدان الاقتصادي إلى العمل على التأثير في القرارات السياسية وثقافة الناس وطرائق عملهم، مما جعل كثيراً من الاقتصاديين والمهتمين بظاهرة هذه الشركات يخلُص إلى أنها نوع من الاستعمار بأسلوب يناسب وعي الشعوب وتطورها.

وكانت طموحاتها التجارية محفوفة بالنتائج الدبلوماسية العالمية في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، ونذكر على سبيل المثال: الدور الذي قامت به الشركة الأمريكية (Ipp) في أحداث ١٩٧٢م في الشيلي التي أدت إلى سقوط نظام (سلفادور إلّندي) ذي التوجه الماركسي، أو العمل الذي قامت به (British feroling) عام ١٩٥٣م في إسقاط حكومة (مصدق) في إيران حين أمّم مصافي النفط وآباره.

وفي عام ١٩٩٧م شاركت (إلف الفرنسية) التي تسيطر على ثلثي إنتاج النفط في الكونغو في الانقلاب الذي أطاح بالرئيس المنتخب (باسكال ليسوبا)؛ لأنه أراد كسر عملية الاحتكار التي تقوم بها (إلف) بالتفاوض مع شركات النفط الأمريكية.

بل في بعض البلدان كنيجيريا، فإن شركة النفط (شل) هي الحكومة الفعلية؛ ففي مقابلة مع (د. أوين سراويو) شقيق (كن سراويو) الذي أعدمته السلطات النيجيرية بسبب انتقاده لشركة (شل)، سألته مجلة (ملتنشيونال مونتر) في عددها الصادر في يوليو ١٩٩٦م السؤال الآتي: إذن (شل) هي التي تحكم وليست الحكومة؟ فأجاب: نعم (شل) بطبيعة الحال هي التي تحكم فعلياً، هذا معروف جداً (أي في نيجيريا)(١).

ويقول (بيير أوجين) رئيس منظمة الشفافية العالمية، وهي منظمة تهتم بمراقبة الفساد المالي والإداري على المستوى العالمي: «إن نسبة كبيرة من الفساد المنتشر في دول العالم الثالث هي من صنع الشركات المتعددة الجنسيات التي تتركز مقارها في الدول الصناعية، وتعمل على تقديم رشاوى كبيرة لمسؤولي الدول المختلفة من أجل الفوز بالصفقات»(٢).

---

(١) أحمد بلواقي: الاستعمار الجديد (الشركات متعددة الجنسيات)، ص ٢٢ ـ ٢٣، (نقلاً عن: الشقيقات السبع: شركات البترول والعالم الذي صنعته لأنتوني سميسون).

(٢) أحمد بلواقي: الاستعمار الجديد، ص ٢٧ ـ ٢٩ (نقلاً عن مجلة ملتنشيونال مونتر).

العولمة الإعلامية والثقافية:

لقد تطور الإعلام بدرجة أدت إلى غزو جميع ميادين الأنشطة البشرية؛ حيث وُجدت بنىً أساسية عالمية تنتشر وكأنها نسيج عنكبوتي يمتد عبر العالم أجمع، مستفيداً من التقدم الحاصل في تقنية الرقميات وثورة المعلومات، ومن التداخل الحاصل بين قطاعات الاتصال والهاتف والتلفاز والحاسوب وشبكة المعلومات الدولية (إنترنت).

ونظراً للترابط القوي بين عولمة الثقافة ووسائل الإعلام، فإن الإحصاءات تشير إلى أن الاتصالات اللاسلكية تمثل سوقاً تُدرّ (٥٢٥) مليار دولار سنوياً، وأن هذه السوق تزداد بنسبة ٨ إلى ١٢٪ سنوياً.

ففي عام ١٩٨٥م بلغ الوقت الذي استهلكه مستخدمو الاتصالات في العالم على شكل إرسال معلومات أو حديث أو فاكس (١٥) مليار دقيقة. وفي عام ١٩٩٥م بلغ (٦٠) مليار دقيقة[(١)].

ولأهمية قطاعات الاتصال في نشر وترويج أنماط معينة من الثقافة، قامت الولايات المتحدة بوضع ثقلها كله في معركة تحطيم الحواجز لتصبح الاتصالات قادرة على الانتقال دون عوائق تُذكر عبر العالم كلّه، كالريح فوق صفحة المحيطات.

ومن أجل ذلك انعقدت أربع مؤتمرات دولية (جنيف ١٩٩٢م، بيونس أيرس ١٩٩٤م، بروكسل ١٩٩٥م، جوهانسبورج ١٩٩٦) نجح خلالها الأمريكان من تسويق فكرتهم حول: «مجتمع المعلومات العالمي» والضغط لفتح حدود أكبر عدد ممكن من البلدان أمام التدفق الحرّ للمعلومات[(٢)].

ولعل هذا هو ما حدا بباحث من وزن (نعوم تشومسكي) الأكاديمي الأمريكي المعروف أن يقول: «إن العولمة الثقافية ليست سوى نقلة نوعية في تاريخ الإعلام تعزز سيطرة المركز الأمريكي على الأطراف أي على العالم كله»[(٣)].

ونلاحظ هذا من خلال قطاع الاتصالات الثقافية للنظام العالمي الذي أخذ يتطور طبقاً لتدفق المعلومات من منطقة المركز - الولايات المتحدة؛ أول منتج للتقنية الحديثة - إلى الأطراف - دول العالم الثالث خاصة - وهو ما يؤيده انتشار لغة بمفردها هي اللغة الإنجليزية.

وفي هذا الإطار عبّرت دول متقدمة داخل المنظومة الحضارية الغربية نفسها مثل: فرنسا، وكندا (مقاطعة كيبيك) عبرت عن التوجس الشديد من المخاطر الناجمة عن الهيمنة الأمريكية على الإعلام والثقافة تحت ستار العولمة؛ إذ إن وسائل الإعلام الأمريكية تسيطر في الواقع على ٦٥٪ من مجمل المواد والمنتجات الإعلامية والإعلانية والثقافية والترفيهية، بل إن فرنسا تقاوم سيطرة اللغة الإنجليزية على شبكة الإنترنت؛ وذلك لأن ٩٥٪ من حجم تداول المعلومات والاتصالات على الإنترنت باللغة الإنجليزية، في حين أن ٢٪ فقط باللغة الفرنسية.

وفي هذا الصدد يقول وزير العدل الفرنسي (Jack toubon): «إن الإنترنت بالوضع الحالي شكّل جديد من أشكال الاستعمار، وإذا لم نتحرك فأسلوب حياتنا في خطر»[(٤)].

ولذلك رفعت فرنسا خلال مناقشات ثقافة (الجات) الأخيرة شعار: «الاستثناء الثقافي».

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٩. (٢) عمرو عبد الكريم: العولمة، ص ٤٢.

(٣، ٤) المرجع نفسه، ص ٤٣.

وفي المقاطعات الكندية بلغت الهيمنة الأمريكية في مجال تدفق البرامج الإعلامية والتلفاز إلى حدّ دعا بعض الخبراء إلى التنبيه إلى أن الأطفال الكنديين أصبحوا لا يدركون أنهم كنديون لكثرة ما يشاهدون من برامج أمريكية[1].

ولعل تمكُّن الولايات المتحدة من تدعيم هيمنتها على العالم عبر قدرتها على التحكم في المنظومات المعلوماتية وتقنيات الاتصال هو ما دفع الباحثين إلى التعبير عن العولمة أنها : «أمركة»؛ إذ تستهدف بشكل خاص إشاعة وتعميم وتسييد أسلوب الحياة الأمريكية وقيمها من خلال :

١ - قرية المواصلات الأمريكية.

٢ - وحدة السوق الأمريكية.

٣ - حضارة الاستهلاك الأمريكي.

٤ - وحدة النمط المعيشي.

٥ - الديمقراطية الأمريكية[2].

وهذا التصور يعبر عنه بوضوح الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بقوله : «إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً لتحويل العالم إلى صورتنا»[3].

وتنبع خطورة عولمة الإعلام من كونها وسيلة للسيطرة على الإدراك وتسطيح الوعي وتنميط الأذواق وقولبة السلوك، وهدف ذلك كلّه هو تكريس نوع من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والأفكار والسلع تشكل في مجموعها ما يطلق عليه د. محمد عابد الجابري : ثقافة الاختراق.

ونختم هذا الحديث عن العولمة الإعلامية والثقافية بكلام أحد الباحثين الغربيين في كتابه : «تغريب العالم» ينقل لنا فيه كيف تتم عملية الغزو الثقافي في بلدان العالم، يقول : «ينطلق فيض ثقافي من بلدان المركز، ليجتاح الكرة الأرضية، يتدفق على شكل صورة.. كلمات ... قيم أخلاقية، قواعد قانونية... مصطلحات سياسية... معايير ... كفاءة... ينطلق كل ذلك ليجتاح بلدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام، المتمثل في إذاعات وتلفزيونات، وأفلام وكتب، وأسطوانات فيديو، وأطباق استقبال فضائية، ينطلق عبر سوق المعلومات التي تحتكرها الوكالات العالمية الأربع : أسوشيتدبريس ويونايتدبريس (الولايات المتحدة)، رويتر (بريطانيا)، وفرانس بريس (فرنسا)، وتسيطر الولايات المتحدة على (٦٥٪) من تدفق هذه المعلومات.

هذا الفيض من المعلومات يشكل رغبات وحاجات المستهلكين - أو بتعبير اخر : الأسرى السلبيين - يشكل أنواع سلوكهم، عقلياتهم، مناهج تعليمهم، أنماط حياتهم، وبذلك تذوب الهويات الذاتية في هذا الخضمِّ من الغزو؛ لأن مواد الغزو تُصنع في معامل الغرب وفق معاييره ومواصفاته المعينة»[4]. ومن المؤكد أن المستهدَف خاصة بهذا الغزو الثقافي هم المسلمون : العرب منهم خاصةً، والمسلمون عامة، وذلك لعاملين اثنين :

أولهما: ما تملكه بلادهم من مواد أولية هائلة يأتي على رأسها النفط والغاز وثروات طبيعية أخرى.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٣.

(٢) أبو يعرب المرزوقي : العولمة والكونية، ص ٢٧.

(٣ ، ٤) ندوة : هويتنا الإسلامية، الشيخ محمد بن إسماعيل، مجلة البيان، العدد ١٢٩، ص ٤٦.

ثانيهما: ما ثبت لهم عبر مراكز بحوثهم وجامعاتهم ومستشرقيهم أن هذه الأمة مستعصية على الهزيمة إذا حافظت على هويتها الإسلامية، ومن ثم فالطريق الوحيد هو القضاء على تفرد شخصيتها وإلغاء دينها الذي يبعث فيها الثورة والرفض لكل أشكال الاحتلال والسيطرة.

العولمة الاجتماعية:

تتحدد معالم هذه العولمة ومظاهرها من خلال مؤتمرات دولية كان الغرض منها تأطير الأنماط السلوكية الشاذة التي تتعارض مع الفطرة الإنسانية ونشرها، والتسلُّل لاحتواء موارد الدول الفقيرة واستغلالها لصالح المؤسسات المالية الغربية.

ففي شهر سبتمبر (أيلول) لعام ١٩٩٤م عُقد في القاهرة المؤتمر العالمي للسكان والتنمية، وفي شهر سبتمبر (أيلول) لعام ١٩٩٥م عقد في بكين مؤتمر المرأة، وفي شهر يونيو (حزيران) ١٩٩٦م انعقد في إستانبول مؤتمر الإيواء البشري.

وهذه المؤتمرات أطَّرتها منظمة الأمم المتحدة، وهي الذراع التنفيذي لمخططات الولايات المتحدة وحليفاتها في أوروبا.

وإن كانت الشعارات التي دأبت الأمم المتحدة على رفعها وفق دعايتها هي تحسين أوضاع العالم الاقتصادية والتجارية والعمرانية والاجتماعية، لكن حقيقة الأمر بخلاف ذلك؛ بل إن هذه المؤتمرات أداة ووسيلة تستخدمها الليبرالية الجديدة للسيطرة على العالم فكرياً واقتصادياً من خلال تأطير السلوك الاجتماعي، واستبعاد الجوانب الأخلاقية في السلوك الاقتصادي وفق منظور خاص يخدم مصالحها الأيديولوجية والاقتصادية.

على أن الإجراءات التنفيذية التي رسمتها هذه المؤتمرات تدل دلالة واضحة على ذلك؛ ففي مؤتمر الإيواء البشري في إستانبول تم الاتفاق على مجموعة من الالتزامات تتضمنها وثيقة المؤتمر منها:

أ - التأكيد في البنود رقم: ١٤٠، ١٤٧، ١٥٠ من الوثيقة على ربط (السلطات المحلية) بالسوق المالي الدولي، ومؤسسات الإقراض الخاصة بالشؤون البلدية، مع العمل على توفير البنية التي تسمح للاقتصاد الدولي بالنمو والمساهمة في بناء البنية التحتية لمشاريع الإيواء وتكوين المراكز الحضارية(١).

ب - تغيير قوانين الملكية الخاصة بالأراضي: سواء الزراعية أو السكنية، وقوانين الإسكان والإيجارات، وفتح باب سوق شراء وبيع العقارات، وإزالة جميع العوائق الخاصة بتوفير المناخ الملائم لحرية السوق العقاري (البند رقم ٥٦ من الوثيقة)(٢).

ج - توسيع نظام الإقراض، وتمكين المؤسسات المالية العالمية من التغلغل في دول العالم الثالث من خلال عمل شبكة من البنوك، وربط تمويل توفير المباني والبنية التحية لمشاريع الإسكان بالإقراض الخارجي (البند رقم ٣٠)(٣).

ويتضح من خلال هذه البنود أن ما يحصل من أساليب إجرائية متعددة الأشكال لحل مشاكل اجتماعية

---

(١) المرجع نفسه، د. مصطفى حلمي، ص ٥٥ (نقلاً عن: لا توش: تغريب العالم).

(٢) محمد بن عبد الله الشباني: العولمة الاقتصادية ومؤتمر الإيواء البشري، ص ٩٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٨.

واقتصادية هو تمكين لمراكز النظام الرأسمالي من إعادة احتواء دول العالم المتخلفة وإعادة امتصاص قواها طبقاً لمنطق تراكم رأس المال في تلك المراكز. والأخطر من ذلك أن هذه الإجراءات تؤدي حتماً إلى تآكل السيادة الوطنية التي تعدّ عاملاً كبيراً من عوامل تميز الهوية القومية للشعوب والأمم.

والحقيقة التي يجب أن تُذكر هنا هي أن هذه الأوضاع الجديدة ستعمق الهوة بين الفئات الاجتماعية وتزيد من معاناة الفقراء والمعوزين في مجتمعاتنا، ذلك أن آليات السوق التي تقوم عليها الفكرة الأساس للرأسمالية أو الليبرالية هي: أن من لا يستطيع كسب قوته يجب أن يموت؛ فهناك أصوات في الغرب تنادي بأن المليار من فقراء العالم الثالث زائدون عن الحاجة؛ وعليه فلا مسوِّغ لوجودهم ولا حاجة إليهم ضمن مفهوم فلسفة: البقاء للأقوى.

ولذا نجد الدعوة المستمرة لتغيير مفهوم الأسرة، والدعوة إلى الإجهاض، وقتل العَجَزة، وغير ذلك من الدعوات غير الأخلاقية وغير الإنسانية التي ما هي إلا نتيجة العبثية الرأسمالية العلمانية[1].

أما في مجال الأسرة التي تعدّ النواة الرئيسة لبناء المجتمع فنجد أنفسنا في مؤتمر بكين للمرأة أمام توصيات تدعو إلى نشر التعليم الجنسي، وإدماج كل أشكال الانحراف من الزنا إلى الشذوذ لتصبح أوضاعاً طبيعية[2].

وقد تم تعبيد الطريق لهذه التوصيات لتتحول إلى قرارات ملزمة في مؤتمر الإيواء البشري الذي انعقد بعد ذلك بسنة في إستانبول؛ حيث ينص البند رقم (١٨) من وثيقة المؤتمر على شمول الإيواء لمختلف أشكال الأسَر؛ والمقصود من ذلك منح الشاذين جنسياً الذين يكوِّنون فيما بينهم أُسَراً، وتلك الأشكال من العلاقات بين الرجال والنساء الذين لا يرتبطون بعلاقات شرعية منحهم جميعاً مساكن للإيواء[3].

وفي الختام أقول: إن أخطر أنواع العولمة هي تلك «العولمة الطوعية» التي يدخل فيها الفرد باختياره وبملء إرادته؛ إذ توجد عولمة لا شعورية تلقائية يصل فيها المرء باختياره إلى الانهزامية والاستلاب في مواجهة النموذج الغازي، ولعل ذلك هو ما يقرره ابن خلدون في «مقدمته» أن المغلوب مولَع بتقليد الغالب.

لذلك ينبغي أن نفرِّق بين هزيمة الجيوش في ساحة المعارك، وانكسار الأمم والشعوب في مجال الأفكار والقيم؛ إذ إنّ الأولى في بُعدها العسكري هي تعبير عن طبيعة الحروب؛ فالمعارك ما هي إلا كرّ وفرّ وفقاً للسنة الإلهية: ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [**آل عمران**: ١٤٠]. أما انكسار الأمم وهزيمة الشعوب النفسية فهي قاصمة الظهر.

ولعلّ ذلك ما علمتنا إياه تجربة التاريخ في حروب الفرنجة: «الحروب الصليبية»؛ فعلى الرغم مما حققته تلك الحروب خلال غزواتها المتعددة ومكوثها في بلادنا بين القرنين السابع والتاسع للهجرة الموافق للقرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، فقد استطاعت تلك الحملات الهمجية أن تُعملَ السيف في رقاب مئات الألوف، واستطاعت أن تمزق وتجزِّئ وتفسد في الأرض الإسلامية، ولكن الشيء الذي لم تستطع أن تفعله هو تخريب النمط العقدي والفكري والاجتماعي والحضاري ذي الطابع الإسلامي للبلاد؛ وهو الأمر الذي أبقى السلطة الفرنجية خارج المجتمع، على الرغم من أن حربها وسيوفها تغلغلت في داخل المجتمع الإسلامي.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩٨. (٢) المرجع نفسه، ص ١٠٠.

(٣) محمد يحيى: تدشين الأممية النسوية العلمانية (قراءة خلفيات مؤتمر المرأة ببكين)، ص ٩٨.

لقد أثبتت تلك التجربة أن الإسلام حين يبقى في قلوب الناس وفي شرايين حياتهم يشكل حالة مقاومة مستمرة تجعل الاحتلال أمراً مرفوضاً ومؤقتاً مهما بلغت سطوته ووصلت درجة قوته.

ولعل هذا ما يفسر موقف نابليون حين اجتاح مصر بجيوشه؛ فقد وجد نفسه في وجه «صَدَفَة مغلقة» لم يستطع أن ينفذ إلى داخلها، ولهذا تظاهر بإعلان إسلامه كذباً حتى يجد له مكاناً في الداخل ليجعل حكمه أمراً قابلاً للاستثمار.

وهكذا كل محتل في ظل العولمة لا بد له من تحطيم مقومات المجتمع الأصلي (ثوابت، مبادئ، قيم) ثم استحداث مجتمع آخر مكانه يحمل الرؤى الحضارية نفسها؛ وذلك لأن الهمينة الكاملة غير ممكنة ما لم تُحطَّم المقومات العقدية والحضارية، وتحلّ محلها مقومات التبعية من خلال إقامة المجتمع الاستهلاكي التابع، وبذلك تدخل الشعوب في مضمار العولمة الطوعية، وهي أخطر أنواع العولمة(١).

ومما لا ريب فيه أنّ المخرج من هذه التبعية التي تكرسها العولمة يوماً بعد يوم ينحصر في أمرين:

الأول: هو استعادة الوعي بالهوية الإسلامية، وتحصين العقل المسلم من الاختراق الثقافي والاستلاب الفكري في مجال القيم والمبادئ والأصول الثابتة التي لا غنى عنها في مواجهة خطط تذويب الذات وتدمير البنية التحتية العقائدية والفكرية التي تحفظ للأمة تحصينها واستقلالها، علماً بأن الهوية تعتبر الآن عنصراً هاماً واستراتيجياً بالنسبة لأمن الأمم والدول في إدارتها للصراع والتنافس مع الدول الأخرى.

والمطّلع على خطط الدول سواءاً الأمنية أو التنموية يلحظ أن مسألة الهوية تحظى بعناية خاصة؛ لأنها خط الدفاع الأول عن ذاكرة الأمة ولغتها وتاريخها وقيمها الحضارية.

والثاني: الانفتاح على الحضارات الأخرى في مجال نقل التقنية وعلوم الوسائل حرصاً على امتلاك القوة في المجالات الاقتصادية والإعلامية والعسكرية لدعم التنمية الشاملة في بلادنا، وذلك بالربط المباشر بين السياسات الفعلية والتربوية وبين سياسات التنمية الشاملة في تلك القطاعات، لتفجير الطاقات الكامنة في المجتمع.

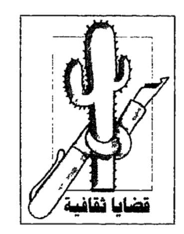
فالتقدم الحقيقي لا يمكن إحرازه إلا بالجمع بين الأصالة والمعاصرة، أو بعبارة أخرى بين الثابت والمتغير: ثابت يجب الحفاظ عليه ويتضمن اللغة والتاريخ وقيم التنشئة الاجتماعية، ومتغير يفتح المجال للتفاعل مع علوم العصر مع خلق المناخ الملائم للابتكار والإبداع والتجديد.

والنموذج الآسيوي (خاصة الياباني) خير مثال على ذلك؛ فاليابان بدأت الطريق إلى التقدم ببناء الإنسان أولاً، ودرس الحضارة الغربية بالنسبة لحاجاتها وضروراتها، وليس بالنسبة لكمالياتها وشهواتها. فالفارق العظيم بين صلة اليابان بالحضارة الغربية وبين صلتنا بها: أن اليابان وقفت من الحضارة موقف التلميذ، ووقفنا منها نحن موقف الزبون! إنها استوردت منها الآليات والوسائل بوجه خاص، ونحن استوردنا منها الأشياء بوجه خاص.

والأمة العربية الإسلامية إذا أرادت التقدم ورغبت أن تدخل حلبة السباق الحضاري فإنه لا سبيل لها إلا أن تقف هذا الموقف المتوازن، فتستفيد مما عند الغرب من تقدم مادي وعلمي، وفي الوقت ذاته تحذر من الذوبان في شخصية الغرب وهويته، وتتفاعل مع قيمها وهويتها الإسلامية.

---

(١) محمد بن عبد الله الشباني: العولمة الاقتصادية، ص ٩٧.



البراجماتية

نشأتها وأثرها على سلوك المسلمين

د. أحمد بن عبد الرحمن الشميري

ابتُليت الأمة الإسلامية عبر تاريخها بتيارات هدامة تسعى إلى الفتك بجسمها وتشتيت فكرها وإهدار كرامتها، وتمزيق هويتها، والحيلولة بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغايتها. وقد تدرجت تلك التيارات في خطورتها وضلالتها كما تدرجت وتباينت في خفائها وتلبيسها على أبناء هذه الأمة. وإن من تلك التيارات التي بدأت تتشكل وتستشري بين أفراد هذه الأمة ومثقفيها (التيار البراجماتي) الذي يدعو إلى الذرائعية، وتمييع المفاهيم، وتقديس الواقعية، وتسويغ الوسائل للوصول إلى الغايات العملية. هذا الفكر الدخيل وجد أتباعاً ومريدين بل ودعاة ومروجين له ولو لم يسمعوا به من قبل أو يخطر لهم على بال. وهذا البحث المختصر يلقي الضوء على نشأة هذا التيار وأسباب انتشاره وأثره على سلوك المسلمين وتوجهاتهم الأدبية والإعلامية والاقتصادية.

ما هي البراجماتية؟

إن البراجماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني براجما (Pragma) وتعني «العمل». وعرفها قاموس ويبستر العالمي (Webster) «بأنها تيار فلسفي أنشأه شارلز بيرس[1] (peirce) ووليام جيمس[2] (William James) يدعو إلى أن حقيقة كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية»[3].

(١) شارلز بيرس (١٨٣٩ ـ ١٩١٤م) فيلسوف أمريكي، أول من طرح الفكر البراجماتي ودعا له في كتابه «تثبيت الاعتقاد» المؤلف عام ١٨٧٧م الذي وضع فيه النظرة الفلسفية البراجماتية لتحديد التصورات والقيم. انظر: «الإسلام في مواجهة المذاهب الغربية» محمد عزيز سالم، ص ٢٨٢.

(٢) وليام جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠م) المنظر الحقيقي للبراجماتية. طور الفكر البراجماتي ودعا له وأوضح فلسفته، وقد ساعده في ذلك أنه عاش في الفترة التي استكملت فيها أمريكا نظامها الرأسمالي. ألف كتابه الشهير «البراجماتية» الذي وضع فيه معالم الفكر وأصوله.

(٣) انظر: Webster Dictionary - Second Edition P. 1118.

أما ديوي[1] (Dewey) فقد وصف البراجماتية بأنها «فلسفة معاكسة للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصورات، وبقدر صدق هذه التصورات تكون النتائج، أما البراجماتية فهي تدعُ الواقع يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حق أو حقيقة ابتدائية تفرض نفسها على الواقع»[2].

وكما يؤكد جيمس الذي طور هذا الفكر ونظر له في كتابه «البراجماتية» (Pragmatism)، فإن البراجماتية لا تعتقد بوجود حقيقة مثل الأشياء مستقلة عنها. فالحقيقة هي مجرد منهج للتفكير كما أن الخير هو منهج للعمل والسلوك؛ فحقيقة اليوم قد تصبح خطأ الغد؛ فالمنطق والثوابت التي ظلت حقائق لقرون ماضية ليست حقائق مطلقه، بل ربما أمكننا أن نقول: إنها خاطئة[3].

ما بين العلمانية والعقلانية:

يخلط من يعتبر البراجماتية مصطلحاً مرادفاً للعقلانية: فالبراجماتية تقرر أن الحقيقة أو التجربة أو الواقع يتغير، أما الواقع والحقيقة في نظر العقلانية فهي قائمة منذ الأزل؛ فبمقدار ما ينظر العقلانيون إلى الماضي يعتد البراجماتيون بالمستقبل وحده. أما العلمانية أو «اللادينية» بتعريفها العلمي الدقيق فقد كانت وما تزال منهجاً فكرياً هداماً تسللت من خلاله أفكار الغرب وقيمهم التي حملها وكان من أخلص دعاتها بَعْضٌ من أبناء هذه الأمة وفلذات كبدها. إلا أن تيار الصحوة الإسلامية الذي اجتاح بفضل الله ورحمته بقاع الأرض تصدى لهذا الفكر الفاسد وعرّى دعاته ورد كيد مروِّجيه؛ فلم يعد للعلمانية في عدد من ديار المسلمين التي نضجت فيها الصحوة ونمت وأثمرت مشاعل خير وهدى، لم يعد لها بريق أخاذ كما كانت في الماضي؛ فقد أصبحت الأصوات المنادية بأفكارها نشازاً، ودعاتها منبوذين، واستبانت للجماهير «سبيلُ المجرمين» وطرقُهم. فلم يعد مقبولاً في أكثر بلاد المسلمين أن ينعق أحد بالقول: «ما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟»، «وما للإسلام وزي المرأة؟»، «وما للإسلام والأدب؟»، «وما للإسلام والاقتصاد؟». لكن هذه الأصوات تجد آذانا صاغية بل وأتباعاً ومريدين ومؤيدين حينما تنهج الفكر البراجماتي فتقول: «إنه لا بأس بوجود القنوات الفضائية العربية الماجنة طالما أنها تصرف المشاهدين المسلمين عن القنوات الكفرية المنحلة»، أو تنادي بأن التمكين في الأرض واستخلافها يسوِّغ بعض الربا إذا ما أدى إلى انتعاش موارد الأمة وقوة اقتصادها. كما أنه ليس في بعض الكفر والإلحاد بأس إذا ما أنتج الأدب إبداعاً ثقافياً مميزا. فهذا المذهب الذرائعي البراجماتي ربما كان مطية يمتطيه أصحاب الفكر العلماني للوصول إلى مآربهم وأهدافهم في تمييع شرائع الدين ونقض أصوله وثوابته.

والحق أن البراجماتية على هذا النحو تعد أكثر خطراً على سلوك المسلمين وعامتهم من العلمانية في وقتنا المعاصر. كما أن دعاتها الذين استمرؤوا هذا الفكر ودافعوا عنه، وروجوا له وحسنوه في أعين الناس، وارتضوه معتقداً ومنهجاً لسلوكهم ليسوا مجرد عُصاة، بل مبتدعة ومحدثون يسري فيهم قول المصطفى ﷺ:

---

(١) جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢م) هو أحد الفلاسفة الأمريكان الذين أثروا في الفلسفة تأثيراً كبيراً. ويعتبر ديوي أحد رموز الفلسفة البراجماتية ومطوريها؛ إذ كان له الدور الأكبر في إدخال الفلسفة البراجماتية إلى الفكر التربوي.

(٢) انظر «الإسلام في مواجهة المذاهب الغربية»، محمد عزيز سالم. مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٦ . ص ٢٨٢ .

(٣) أنظر «الفكر البراجماتي في ضوء الإسلام» - بحث لنيل شهادة الماجستير من جامعة أم القرى - محمد الشميمري ص ٤٧؛ والعنوان السابق غير دقيق لعدم إمكانية الاطلاع على الرسالة عن طريق مكتبات الجامعات، وما توفر للباحث سوى خمس ورقات منها بتعاون من المؤلف.

«ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١] وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من أحدث فيها أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٢]. وهم أشد من مرتكبي المعاصي المقصرين والمعترفين بذنوبهم وآثامهم، فكما قال سفيان الثوري: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»[٣]. فخطرهم قد امتد إلى كثير من نواحي الحياة ولم يقتصر على السلوك الشخصي لأبناء الأمة بل تجاوزه إلى التغلغل إلى معاملاتهم الاقتصادية وتوجهاتهم الأدبية ومناهجهم السياسية ومنطلقاتهم الإعلامية.

البراجماتية في الأدب:

إن التزام المسلم فيما يكتب ويقول يعد مبدأ هاماً من المبادئ المقررة في الشريعة وهو «الالتزام» الذي تدعو إليه أدبيات الدعوة، وسيرة السلف الصالح. فحياة المسلم وأفكاره ومنطلقاته لا تسير عبثاً ولا تتشكل ارتجالاً، بل قوامها ومرجعها الثوابت الأساسية والشرائع الربانية التي تعد الإطار العام الذي ينظم للمسلم منطلقاته وتوجهاته العلمية والأدبية والسياسية والاقتصادية وسائر حياته العامة.

والناظر إلى المذاهب الأدبية المتعارضة والمتناقضة يجد أنها كانت نتاج أزمات وردود أفعال زمنية مَرَضِيَّة مرتبطة بالحالات والأزمان التي عايشتها. لذا فقد ظهرت تلك الأفكار ونمت تلك الاتجاهات الأدبية المريضة وما يقابلها من اتجاهات معاكسة وانبثقت من المجتمعات التي تسودها الأنانية المطلقة والحرية الفردية التي تقدس الوحدوية وتسعى إلى نقل ذلك التقديس الفردي إلى ما يصدر عن ذلك الفرد من أقوال لا ترتبط بثوابت ولا بقيم.

وقد كان للاتصال بالغرب والتتلمذ على أيديهم الأثر الكبير في تبني تلك المذاهب الأدبية المنحرفة، فبدافع الواقعية أو البراجماتية في الاستفادة من العلوم الغربية ومحاكاة الغرب والتنافس معه في طلب العلم والمعرفة أقبل الأدباء والمفكرون المسلمون على تبني تلك المناهج الأدبية المنحرفة وسايروا توجهاتهم الفكرية والأدبية، ونقلوها على علاتها وأسقامها، فظهر المتبنون للمناهج الأدبية التي منها تلك المناهج التي تجعل كاتب النص أو مستقبله يترفع عن المبادئ والقيم التي تحكم المجتمع، فيقرأ المستقبل للنص وهو يشارك القائل الحرية في معناها الإنساني دون أن يكون للنص علاقة بصاحبه أو بمظاهر الحياة أو قيمها التي تسود في ذلك الزمن الذي صدر فيه النص. كما ظهر أولئك المسايرون للمذاهب الحداثية في دراسة النصوص، فاعتنوا بالشكل دون المضمون، وأصبحت دراسة النص لديهم تنْحو المنحى التحليلي المعتمد على الدلالات والرموز والطلاسم والإشارات المتحررة من جميع النزعات الدينية أو السياسية أو المذهبية، وتخلَّوْا عن مصطلحات النقد العربي إلى المصطلحات الغربية ليضفوا على توجهاتهم الشرعيةَ والعلميةَ فتحوَّل المجاز في اللغة إلى «انحراف» ودلالات الألفاظ إلى «سيميوتيكا»[٤]، والإشارات الموحية إلى «سوسيولوجيا»[٥]، وقواعد اللغة إلى زوايا

---

(١) اخرجه مسلم، ح/ ١٦٩١.

(٢) اخرجه البخاري. ويرى أهل العلم ان الحديث عام انظر «فتح الباري ١٣/ ٢٨١».

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٤٧٢.

(٤) سيميوتيكا: أي العلم الذي يبحث في دلالة الألفاظ.

(٥) سوسيولوجيا: أي علم الإشارات، وسوسيو (كلمة يونانية تعني الإشارة) انظر: قراءة النص وجماليات التلقي، محمد عباس عبدالواحد- دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ص ٧٢.

وخطوط وتقاطعات وتداخلات هندسية، وحلت هذه المصطلحات محل مصطلحات النقد الأدبي الموروث ليختلط بذاك المعنى مع التركيب مع الدلالة ولتصبح إبداعاً وابتكاراً وتجديداً يختلط فيه الصحيح مع السقيم والحق مع الباطل والخير مع الشر دونما رابط أو محدد أو إطار ينظم ذلك الإبداع ويقوِّمه.

البراجماتية في الإعلام:

خلافاً للأدب الذي كانت بداياته وأصوله الإسلامية حسنة منذ زمن طويل، فإن ولادة الإعلام في كثير من بلاد المسلمين كانت على يد المستعمر الأجنبي الذي أنشأ تلك الوسائل الإعلامية التي من أهدافها أن تديم وتبقي استعماره، وترسخ سيطرته وسطوته؛ ولذلك فقد كانت منطلقات الإعلام وأهدافه لا تمت بصلة لخدمة قضايا الأمة، ولا ترتبط بتراثها الأصيل؛ فالإذاعة على سبيل المثال بدأت في بلادنا العربية كمحطات أهلية صغيرة متفرقة في مصر هدفها خدمة الاستعمار، فلما تحولت إلى مؤسسات حكومية ظلت تقلد الغرب وتعتمد على الترجمة والاقتباس والنقل الأعمى لما تبثه إذاعات الغرب ووسائله، وهكذا كان الحال في معظم البلاد العربية والإسلامية، وما يسري على الإذاعة يسري كذلك على التلفاز والمسرح والسينما التي تنافست في تشتيت هوية الأمة، وإهدار فكرها، وتمزيق وحدتها، وإفساد أخلاقها.

وعلى هذا فقد بُني أغلب إعلامنا لخدمة الغرب ومبادئه، وغلب عليه الانفصام بين الدين والدنيا، والبعد عن الأصالة، والإيغال في التقليد الأعمى، ولم تكن الحركات الإصلاحية الرسمية ذات أثر فعال سوى فيما يحقق أهدافها ومآربها من توجهات إعلامية ترضيها، وتعمل على تقديسها وإضفاء الشرعية المطلقة لأحكامها وأوامرها.

ولما هيأ الله لهذه الأمة صحوة مباركة أيقظت أبناءها من السبات العميق، والغفلة الغارقة أدرك المصلحون الحاجة إلى صياغة أخرى للإعلام الإسلامي وخدمة قضايا الأمة وأهدافها السامية؛ حينها ظهرت المحاولات الجادة «لأسلمة» الإعلام، وجعله أداة داعية إلى الخير العام للإنسانية، ومعيناً على عمارة الأرض والاستخلاف فيها، ومحققاً للعبودية الخالصة لله ـ عز وجل ـ كما قال – تعالى – : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وظهر في الساحة الإسلامية أولئك المتبنون والمتحمسون لتقديم إعلام إسلامي رزين، يكون بديلاً لتلك المعاول الهدامة والوسائل المفسدة، ولكنها لم تكن سوى بدايات متواضعة واجتهادات بسيطة أمام ذلك الفساد الجارف، ونشأ بين هؤلاء وأولئك البراجماتيون الذين خلطوا السم بالدسم ليقدموا إعلاماً هجيناً مشوهاً يختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر؛ فظهرت تلك الصحف والمجلات والقنوات الفضائية التي جعلت الترويج والترفيه هدفاً أساساً وغاية كبرى للإعلام الإسلامي البديل، فخلطت المفاهيم، ومُيِّعت القضايا باسم الإسلام ونصرته ونشر مبادئه السمحة؛ فليس هناك غضاضة لدى القائمين عليها من أن تعرض تلك القنوات أفلاماً عربية ساقطة ومفسدة للأخلاق بحجة أنها البديل الأفضل والأهون ضرراً على المشاهد العربي المسلم من تلك الأفلام الأجنبية الغربية الخليعة. كما أنه لا بأس في عصر الحضارة والتقدم أن تنبري بعض الماجنات والمتغربات مظهراً ومخبراً لتقديم الفتاوى الإسلامية ومناقشة القضايا الدينية والاجتماعية في حياة أبناء وبنات هذه الأمة. فكان هذا التوجه البراجماتي الخطير نذير شؤم على تصحيح مسار الإعلام الإسلامي النبيل، فدعاته هم أولئك الذين يملكون السبل المادية والإمكانات البشرية التي يحلو لها الرقص على ما يثير نزواتها وشهواتها.

البراجماتية في الاقتصاد:

يقول الدكتور محمد عزيز سالم: «إن البراجماتية تعبير صادق عن الفلسفة الأمريكية»(١)، فهي تدعو إلى «العملية» وتتخذ من «العمل» مقياساً للحقيقة، لتوافق بذلك ما يدعو له النظام الرأسمالي الذي يربط بين الحقيقة من جهة، والذاتية والنفعية من جهة أخرى. وأصبحت البراجماتية منذ ذلك الحين المبدأ الإداري والاقتصادي الحكيم الذي يتعامل مع الواقع وما يحيط به من ظروف متغيرة بصورة عملية تحقق الأهداف القائمة على مبدأ المنافسة الحرة بكفاءة واقتدار. وأصبح المصطلح البراجماتي مفهوماً مرتبطاً بالإدارة والاقتصاد وتسلل هذا المفهوم إلى مبادئ الاقتصاديين والإداريين المسلمين وسلوكيات التجار وأصحاب الأموال والاستثمارات، فتساهل الممارسون للأعمال التجارية في استخدام جميع الوسائل بغض النظر عن شرعيتها للوصول إلى ما يعتقدونه هدفاً سامياً، وغاية حسنة تسوغ الوسائل كلها، فظهر من ينادي بحلٍّ بعض أنواع الربا حتى تتمكن البنوك الإسلامية من مقارعة مثيلاتها الغربية الكافرة ومنافستها، واستحلال اليانصيب لجمع الأموال وإنفاقها في وجوه الخير، كما ظهر من لا يرى غضاضة في استخدام الأساليب الإعلامية والإعلانية الشهوانية تقليداً للغرب؛ وذلك بحجة جذب المستهلكين إلى الصناعات المسلمة وصرفها عن صناعات أعدائها؛ فأصبح من المضحك المبكي أن ترى من لا يجد بأساً في ظهور الفتيات الفاتنات يعرضن إعلاناً لأحد المنتجات العربية ما دمن متحجبات الحجاب العصري الجديد. كما ظهرت في بلادنا العربية تلك الاستثمارات السياحية المشبوهة والاحتفالات المختلطة التي يسوِّغ دعمها صرف الشباب المسلم عن الوقوع فريسة السياحة الغربية الكافرة. والأمثلة كثيرة على تلك الاستثمارات التجارية المتنامية في بلاد المسلمين التي تقوم على أسس براجماتية وذرائعية.

أسباب انتشار البراجماتية:

إن أسباب انتشار الفكر البراجماتي كثيرة ومتعددة، كما أن العوامل التي ساهمت في نموه وقبول فئة من الناس له مختلفة ومتداخلة.

وإجمالاً للقول: فإن من تلك الأسباب الكثيرة التي يحسن إلقاء الضوء عليها:

أولاً: قلة العلم الشرعي.

ثانياً: اتباع الهوى.

ثالثاً: اتساع الفجوة بين العلماء والمفكرين.

رابعاً: التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً: قلة العلم الشرعي:

لعل من أبرز عوامل بروز هذه الظاهرة هو: قلة العلم والعلماء المختصين بالعلم الشرعي وندرتهم لسد حاجة الأمة؛ فقد أتى على المسلمين زمن ضعفت فيه همم الشباب عن طلب العلم الشرعي والتخصص فيه ومتابعة علومه، واكتفى كثير منهم بالعلم السطحي المادي مسايرة للتقدم الحضاري الغربي، فظهرت الفجوة

---

(١) انظر: الإسلام في مواجهة المذاهب الغربية، محمد عزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٦م، ص ٢٨٢.

الكبيرة والنقص الواضح في المرجعية والتخصص العلمي، وظهرت طبقة جديدة من المثقفين وجيل جديد من المختصين الحاملين للشهادات العلمية البراقة والأسماء العلمية اللامعة التي لا تحمل في جعبتها من العلم الشامل إلا القليل؛ فانتشرت بذلك «الجهالة المقنعة»، وترأس أولئك المثقفون والمفكرون المعاهد والأقسام، وتصدروا مجالس الفتوى ومنابر الفكر، ونعتهم الإعلام بالمفكرين المثقفين؛ فصاروا مرجعاً للعلم والإفتاء، فخلطوا الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، فصدق قول المصطفى ﷺ فيهم: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(١)، فلا غرو والحالة هذه أن نرى في وسائل الإعلام من يتخبط بالقول منكراً أن يكون للمسلمين علاقة دينية بالمقدسات الفلسطينية، أو أن نسمع فتاوى تروِّج لها وسائل الإعلام المكتوبة تبيح ربا البنوك اليوم بحجة أنه ليس من «الربا القرآني المحرم»، أو أن يخرج علينا فقيه عصري يحل أموال اليانصيب والمشاركة فيها تفويتاً لاستغلالها من قِبَل الكفار.

وكان من أولئك المفكرين من أعمل العقل في كل شيء، وجعل النقل تابعاً لاستنباطات العقل ومداركه وما يراه عملياً في عصره وبيئته، فقدموا عقولهم المحدودة على النقل، وحكّموها في قبول النصوص الصحيحة الصريحة وردها، وظهرت المدرسة العقلية من جديد ولكنها عبر الذرائعية لتكثر المناقشات والمجادلات والمواقف العلمية الشاذة والشبهات العقلية المنحرفة والتأملات الفكرية المنكرة. ومن ذلك ما ذكر عن أحد المفكرين الذي ملأت سمعته الأصقاع أنه عندما خرج إلى رمي الجمار في منى فشاهد زحام الناس الشديد عليها وقف قريباً من خيمته وقال لمن معه: إن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، وإن الغاية من الرمي تجسيد عداوة الإنسان للشيطان، فتعالوا نرمي هنا، فرمى حصى الجمرات بجوار خيمته!(٢) أو تسمع عن ذلك الإمام الإسلامي الكبير الذي أجاز لأتباعه في أمريكا الشمالية أن يؤدوا صلاة الجمعة يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة، وذلك كي يتمكن المسلمون من الحضور واستماع الخطبة نظراً لارتباطهم بأعمالهم يوم الجمعة!

ثانياً: اتباع الهوى:

يقول المولى - عز وجل -: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[**الأعراف**: ١٧٥، ١٧٦]

يقول سيد قطب - رحمه الله - في الظلال: «والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وزمان، وفي كل بيئة.. حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مَثَلُه؛ فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستزلهم الشيطان.. ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً، ثم يكتب في حله كذلك عاماً

---

(١) أخرجه البخاري - (فتح الباري ١/١٩٤) ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) القصة ذكرت في مقال نشرته مجلة الصراط المستقيم بعنوان: الفجوة بين العلماء والمفكرين، عام ١٤١٨هـ.

آخر. ورأينا من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه»[1].

وما ظهور الاتجاه الذرائعي في الفتوى والأحكام والمعاملات إلا من بعد أن ركن هؤلاء الدعاة إلى ما تميل إليه نفوسهم وترغبه وتهواه من أمور تسوِّغ لهم تصرفاتهم، وتحقق لهم مصالحهم، وتزكي لهم أعمالهم. وكانت مجالستهم واختلاطهم بالنفعيين المتزلفين وأصحاب الأهواء فتيلاً أجج نار الهوى لديهم؛ فاعتدُّوا بآرائهم واستحسنوها ووجدوا من أتباعهم من تروق له هذه الأفكار والأحكام والاتجاهات ومن باركوها وتتلمذوا عليها. وظهر من ينادي بأن «الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان» ويحتج بأن العلماء غيَّروا فتاواهم عندما تغيرت أماكنهم وأزمانهم، كما كان من الإمام الشافعي - رحمه الله - عندما ذهب إلى مصر فصار يفتي بغير ما كان يفتي به في الشام حتى صار له مذهبان: أحدهما قديم، والآخر جديد. وهكذا حتى وجدوا تخريجاً لكل ما تهوى أنفسهم من أفعال وأقوال. ومن أكبر تبعات اتباع الهوى إضلال الآخرين وإبعادهم عن الطريق الحق؛ فالهوى لا يقتصر خطره على صاحبه بل كثيراً ما يتعداه إلى غيره من الناس؛ فقد قال المولى - عز وجل -: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]؛ فعامة الجماهير لا تفرق بين الحق وقائله، فتعرف الحق بالرجال؛ فإن صدر ممن اشتهر بين العامة بالعلم أخذوا منه كل ما قال، وإن اشتهر بعمل الخير سوَّغوا له كل ما عمل وقلدوه في كل أمر، وهكذا حتى انتشر المذهب الذرائعي البراجماتي بين الناس بزلات أهل العلم والاختصاص واتباعهم لأهوائهم.

ثالثاً: اتساع الفجوة بين العلماء والمفكرين:

لقد استيقظت الأمة الإسلامية من غفلتها وسباتها وقد سبقها الغرب إلى ركب الحضارة والتقدم والمعرفة، فلم يكن لأبنائها بد من السعي الحثيث لاقتفاء أثر المعرفة الدينية والدنيوية في معاقل الغرب ومعاهدهم، فنشأ جيل من المفكرين والمثقفين الذين تتلمذوا وتعلموا على أيدي الغرب ومناهجهم، وكان منهم من يستهجن آراء بعض العلماء وفتاويهم وتصريحاتهم ومحاضراتهم ويكثر من العبارات المنتقصة لوعيهم وإحاطتهم بالواقع المعاصر، وظهرت المصطلحات الساخرة «كدعاة الجمود» و«التحجر الفكري» و«غلق باب الاجتهاد».

وفي المقابل فقد كان لانغلاق العلماء الشرعيين في حدود بيئتهم الضيقة سبب في اتساع هذه الفجوة؛ فقد ترفع بعض هؤلاء العلماء عن مخالطة المفكرين والرد عليهم والاطلاع على آرائهم وكتبهم، واكتفى بعضهم بالحكم على بعض أقوال المفكرين أحكاماً عامة لا تَشْفِي غليل الأجيال الناشئة التي كانت الضحية الأولى لهذه الفجوة. ففي حين ظهر تيار شعبي رافض لجميع وسائل الحوار والرد والتصدي لمثل هذه الأفكار ومناقشتها بحجة الحكم مسبقاً على أصحابها بالضلالة ظهر تيار آخر من تلك الأجيال الناشئة راقت له هذه الآراء وتبناها وعمل بها ودعا إليها دون تمحيص أو تقييم فزاد هذا التقسيمُ الفجوةَ اتساعاً يصعب الآن ترقيعه.

رابعاً: التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي بعث الله بها الرسل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٣٩٨، ٣/، دار الشروق.

أجمعين. وبإقامته كما أمر الله - سبحانه وتعالى - استحقت هذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس؛ حيث قال المولى - عز وجل -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ وإن من أشق ما تواجه الأمة اليوم هو الغبش والغموض في مدلول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعناه الشامل الذي يقتضي «استبانة سبيل المجرمين» وإظهار الحق ومناصرته ودحض الباطل وتعريته. وقد كان لاختلاط المسلمين بالمجتمعات الغربية أثر واضح في تمييع المفاهيم الإسلامية والتساهل في بعض الأحكام، بل وردها أحياناً مجاراةً لتحقيق التعايش وتبادل المصالح وتقارب الأفكار. فلم يعد مستغرباً أن نستمع الآن إلى خطيب يستنكر على أصحاب العقول المتحجرة أنهم يصرحون بدخول النصارى النار، محتجاً بأن القرآن امتدحهم وأن بعضهم قدّم للإنسانية أجمع أعمالاً جليلة في حين يرتكب بعض المسلمين جرماً وآثاماً تعجز عن حملها الجبال ولا يحكم عليه بدخول النار! كما أنه لم يعد مستغرباً اعتراض بعض الكتاب على الحجاب الإسلامي واعتباره مسألة هامشية ينبغي أن لا تعيق المرأة من مشاركتها في تنمية المجتمع والمساهمة في بنائه أسوة بمثيلاتها في الغرب. ومن ذلك أيضاً احتجاج بعضهم بالقاعدة الدعوية المعروفة «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه» فوسعوا هذه القاعدة حتى شملت إعذار من لا يشك في كفره وضلاله، واختلط الأمر على بعض المسلمين الذين عاشوا بين ظهراني الغرب واعتادوا على التعاون معهم فاختلط عليهم معنى التعاون والمودة والإعذار؛ فالتعاون مع الكفار لرد الشر والباطل بشتى أنواعه وطرقه أمر مجاله فسيح وبابه واسع؛ لكن مودتهم ومحبتهم لا تحل لمسلم لقول المولى - عز وجل -: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ فالإنكار عليهم واجب، وإعذارهم لا ينبغي؛ فمحل الإعذار بين أهل السنة من المسلمين وليس مكانه بينهم وبين غيرهم.

وأخيراً فإن البراجماتية ستبقى مستشرية في جسد هذه الأمة ناخرة في عقول أبنائها إن لم يتصدَّ العالمون بحقيقتها وسبيلها بواجبهم في الإنكار على مروِّجيها وسالكي سبلها، وبيان خطرها على تراث الأمة ودينها؛ فقد قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان» وفي رواية أخرى لمسلم: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(١)؛ وإذا كان هذا الخطاب للمسلمين عامة فإنه على العلماء العارفين أوجب. فالأحرى بمن ملك العلم منهم أن يخرج من العزلة المعنوية والمحلية الضيقة إلى العالمية الفسيحة والمعايشة الدائمة لمشكلات العالم الإسلامي المعاصرة، وأن يتخذ من الأساليب الحديثة طرقاً للحوار والاتصال بالمفكرين ووسائل الإعلام. كما أنه من الواجب على أصحاب الفكر والمثقفين الرجوع إلى فتاوى وآراء أهل العلم الشرعي والاستماع لهم ومناقشتهم وسد النقص الذي لديهم، فإن حسن نواياهم وسلامة مآربهم وإخلاص أعمالهم لا تشفع لهم أخطاءهم واجتهاداتهم الفكرية الشاذة. والله أعلم.

---

(١) الحديثان اخرجهما مسلم في صحيحه، بشرح النووي ٢/٢٣.



أنصاف العلماء..

وأنصاف الفقهاء..

نجوى الدمياطي

ليس من شك أن كثيراً من مظاهر الاختلاف والفرقة في واقعنا الإسلامي المعاصر إنما مردها إلى القول على الله بلا علم، وأن أحد أهم الأسباب التي يرجع إليها التفرق «هو الجهل بمقاصد الشريعة والتخرُّص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول»(1). ذلك أنه عندما يضعف العلم يصبح الأمر فوضى، وعندما يغيب تتسع دائرة الشقاق والفرقة..

ومعظم البلاء في واقعنا الإسلامي إنما يأتي من أنصاف العلماء، وأنصاف الفقهاء، الذين يتعجل الواحد منهم ممارسة ما لا يصلح له من العلوم دون تأهل، ويخوض الواحد منهم فيما لم يحصل رتبته ولم يبلغ درجته!! ويفتي الواحد منهم في دين الله بغير علم، فتعظم في فتاويه الصغائر، وتصغر العظائم كمن تنازعوا ـ قديماً ـ في دم البعوضة، واستباحوا دم أصحاب رسول الله ﷺ .

---

(1) الشاطبي ـ الاعتصام ج ٢، ص ١٨٢ .

"إن على المسلم ألاَّ يتعجل في قول أو عمل قبل أن يثبت له أنه الحق"

إن من تمام فقه الفقيه أن يعرف قدر نفسه فلا يتعداه، وأن يعرف مجاله العلمي فلا يخرج عنه، ولا يتصدى لما ليس له بأهل، فإذا «سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب عنها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب»(١) كما قال مالك - رحمه الله - : «أمَّا أن يكره أن يُسأل عما لا يعرف فيقول: لا أدري، فهذا من الخطأ والجهل.. ولهذا صح عن ابن مسعود وابن عباس: من أفتى الناس في كل ما يسألونه فهو مجنون».. وقال ابن مسعود: من كان عنده علم فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم؛ فإن الله قال لنبيه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

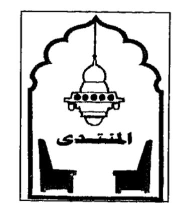
إن المسلم الصادق مع ربه قبل أن يُقْدِم على أي قول أو فعل ينظر في مبلغ علمه الذي يؤهله أن يتخذ قراراً ينبني عليه اعتقاد أو عمل سيوضع في ميزانه أمام الله يوم القيامة، وسيحمل حسنات أو سيئات من اتبعه على هذا القرار.. فإذا لم يكن أهلاً للحكم فيه رجع إلى أهل الذكر والاختصاص فشاورهم ولم يستقل بالجواب ذهاباً بنفسه وارتفاعاً بها أن يستعين على الفتاوى بغيره من أهل العلم؛ فهذا من الجهل!!

إن المسلم لا يمكنه الخروج عن الظلم والجهل إلا بالرؤية العلمية السليمة التي تميز بين الأفكار؛ وتتعرف على مميزاتها وعيوبها، فتستفيد من جزئياتها الصحيحة وتترك ما فيها من الانحراف. ولا يمكن أن تتوفر هذه الرؤية إلا لصاحب العلم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والذي يمد صاحبه بالبصيرة فيعلم ماذا يأخذ؟ وماذا يدع؟ ويدرك أنه لا بد له من أن يعلم، ولا بد مع العلم من معرفة: متى وأين وكيف يقول بالعلم؟!

إن على المسلم ألاَّ يتعجل في قول أو عمل قبل أن يثبت له أنه الحق؛ فإذا تيقن منه أقدم على القول به والعمل بمقتضاه، وإلا توقف عن القول على الله بلا علم، وبدأ في طلب العلم.. العلم النظري وتراث السابقين من أهل الذكر وخبراتهم.. والعلم بالواقع والفحص الدقيق لجزئياته..

---

(١) ابن القيم - اعلام الموقعين ج٤/ص٢١٧، ٢١٨.



اتباع الجنائز أم اتباع المناهج؟

إبراهيم بن علي العريني

كم من المقالات سُطِّرت، وكم من العبرات سُكِبَت، وكم من القوافي نُظمت حين فقدت الأمة كوكبة مضيئة من علمائها في أيام قلائل، ومع ذلك لم تفِ الكلمات ولا الشعر بحق تلك الثلة من بقية السلف وحملة العلم وهداة الأمة، بل وعجزت الدموع أن تعبِّر عن مقدار الحزن الذي خيَّم على القلوب والألم الذي حاصر النفوس بفقد أولئك الجهابذة، ويا سبحان الله! لكأنما هو عقدٌ انفرط نظامه فتساقطت درره واحدة بعد أخرى، وهذه هي سنة الله في خلقه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وبقدر الألم والحزن اللذين شَعَر بهما مُحِبّو أولئك العلماء، بقدر ما عمتهم الفرحة والاستبشار عند رؤية الألوف المؤلفة تتبع جنائز أولئك العلماء، بل من الناس من تكبّد المصاعب وتحمل المشاق والعناء ليشارك في جنازة أحدهم، والآن، وقد برد الحزن، وخف الألم وتسللت الدنيا إلى قلوبنا مرة أخرى لتحتل المكانة التي ألفتها، يأتي السؤال الكبير: هل نسينا علماءنا؟ أهذا ما يريده العلماء الراحلون منا؟

إن أجر اتباع الجنازة قد وعد به الصادق المصدوق ﷺ، واتباع جنازة عالم ليس كاتباع جنازة غيره؛ لأن فيه إظهاراً لقيمة العلم ورفعاً لمنزلة العلماء، وهو اللائق بهم، ولكن: كم من تلك الجموع التي سارت خلف جنائز علمائها واصلت السير بعد فراق العالم على منهجه وطريقته في طلب العلم ونشره، وفي الدعوة إلى دين الله، وفي الصبر والمثابرة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي العبادة والزهد؟ أهي ردود أفعال، أم تعزية نفس، أم تبرئة ذمة؟ ماذا يا تُرى سيكون حال الأمة لو قام من تلك الحشود مكان كل عالم يُوَدَّع رجلٌ واحد فقط يسُدُّ مكانه فيعوِّض الله به الأمة ما فقدت؟ أم كيف يكون حال الأمة إذا قام مكانَ كل عالمٍ رجال يسعون في الخير والعلم والدعوة والجهاد كما سعى عالمهم؟

إن فرحة المسلم بتلك الجموع التي شيعت علماءها لم تلبث أن تلاشت حين رأت أكثر المشيِّعين ما إن نفضوا أيديهم عن تراب علمائهم حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من كسل لا يليق بمسلم، وهدر للوقت لا يرتضيه عامل، وصدود عن العلم والدعوة والجهاد ليس له مثيل، وأكثر تلك الجموع غرَّها التزامها الظاهر بهدي الإسلام حتى صنَّفوا أنفسهم طلاب علم ودعاة وهم عن هذين الوصفين أبعد ما يكون.

فيا شباب المسلمين وشيبهم، ويا رجالهم ونساءهم «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»(١).

فهلاً منكم مشمِّرٌ عن ساعد الجد طلباً للعلم ودعوة للحق وجهاداً في سبيل الله حتى يعوض الله به الأمة ما فقدت ويحميها من الضلال؟

---

(١) رواه البخاري (رقم ١٠٠)، ومسلم (رقم ٢٦٧٣).

ماذا بعد وفاة العلماء؟!

عبد الإله محمد العسكر

عاش المسلمون في الفترة الماضية أياماً محزنة، وذلك بوفاة عدد من علمائهم العاملين ودعاتهم المصلحين؛ ففقد العلماء لا شك في أنه خسارة كبيرة ورزية عظيمة لا سيما في عصر تلاطمت فيه أمواج الفتن وكثرت فيه أسبابها ودوافعها. قال الله - تعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]، قال ابن عباس ومجاهد: «ننقصها من أطرافها»: موت علمائها وصلحائها.

لقد رحل أولئك العلماء، والأمة الإسلامية في أمسِّ الحاجة إلى العلماء العاملين، يقول الشاعر:

لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد فذٍّ ... يموت بموته خلق كثير

لقد كان أول عالم ودَّعته الأمة الإسلامية هذا العام فضيلة الشيخ صالح بن علي بن غصون عضو هيئة كبار العلماء في السعودية، وأحد العلماء البارزين الذين ملؤوا بعلمهم الأرض، ثم بعد وفاته - رحمه الله - بمدة قصيرة فجعت الأمة الإسلامية بوفاة عالمها الجليل ومحدثها وفقيهها إمام أهل السنة والجماعة في عصره الحبر العلاَّمة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الذي يعجز الواحد منا أن يحصي أعماله وفضائله في خدمة الإسلام والمسلمين، ثم ما لبثنا إلا أياماً قليلة وإذا بنا نسمع خبر وفاة الداعية الأديب الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله -، ثم بعد ذلك بأسبوعين نسمع خبر وفاة الشيخ مصطفى الزرقاء - رحمه الله -، وما هي إلا أيام وإذا بخبر وفاة الشيخ مناع القطان نسمعه ونقرؤه عبر وسائل الإعلام، وما كادت تجف دموعنا بوفاة ذلك الشيخ وإذا بنا نسمع خبر وفاة الشيخ محمد عطية سالم المدرس بالمسجد النبوي الشريف في اليوم التالي لوفاة الشيخ مناع القطان؛ ثم جاءت أنباء وفاة محدِّث العصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فأحسن الله عزاء الأمة وجبر مصابها وعوضها خيراً وصدق الرسول ﷺ حيث قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء»(١).

لا شك أن وفاة أولئك العلماء ثلمة في الأمة الإسلامية؛ فالناس في حاجة ماسة للعلماء أكثر من حاجتهم للطعام والشراب؛ بل إن العلماء كالشمس للدنيا وكالعافية للناس كما قال الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الشافعي بأنه كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، قال إبراهيم بن أدهم:

إذا ما مات ذو علم وتقوى ... فقد ثلمت من الإسلام ثلمة

وموت الحاكم العدل المولَّى ... بحكم الأرض منقصة ونقمة

إن وفاة أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء ليؤكد ضرورة يقظة المسلمين والتنبه لما يخططه الأعداء لهم؛ لأن الأعداء يكونون أشد فرحاً بوفاة علماء المسلمين؛ فهم يعلمون أن المسلمين أقوياء بعلمائهم؛ حيث يوجهونهم ويبصرونهم ويبينون لهم؛ وهم على يقين - أعني الأعداء - بأنهم مخفقون فيما يخططون له؛ لأنهم أمام سد منيع من العلم والعلماء؛ وبوفاة العلماء ينهار ذلك السد، ويحدث فراغ في الأمة يتسلل من خلاله الأعداء إلى جسدها ليبثوا سمومهم وينشروا أفكارهم؛ لذلك يجب على المسلمين مواجهة هذا الخطر ودفع هذا العدوان بالوقوف أمام مخططاتهم والتصدي لها، ولن يحدث ذلك إلا بطلب العلم والتسلح به، وبذلك يمكن سد الفراغ الذي تحدثه وفاة العلماء، ويمكن - بإذن الله - أن نواجه الأعداء بهذا السلاح ونحبط محاولاتهم، وليس طلب العلم سلاحاً نتسلح به فقط، بل له فضل عظيم ذكره الصحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - حيث يقول: «تعلموا العلم؛ فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قربة، والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدِّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء والزيْن عند الأخلاء والسلاح على الأعداء؛ يرفع الله به قوماً فيجعلهم قادة أئمة تُقتفى آثارهم ويُقتدى بفعالهم»، والله نسأل أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) رواه البخاري رقم ١٠٠، كتاب الفتن.

تعقيب على مقال: أخيتي كفى عجزاً

سارة بنت عبد الله الزامل

«أخيتي.. كفى عجزاً» ما إن وقع نظري على هذا العنوان وأنا أتصفح محتويات مجلة البيان العدد (١٤٣)، حتى تجاوزت ما سواه إليه؛ فكثيراً ما تدفعني نفسي للبدء بقراءة مثل هذه الوقفات العاجلة مستفتحة بها قراءة المجلة، ومن ثم أعْبُر منها إلى غيرها من الموضوعات الأخرى – التي تهمني –. أما هذه المرة فقد وجدت نفسي لا تحتمل مغادرتها إلى غيرها حتى أبث لصاحبها بعض ما جال في خاطري حيال كلماته التي أحسبها كلمات ناصحة مشفقة صادقة.

أخي الفاضل: إن المرأة ـ كما ذكرتم ـ قلعة من قلاع الإسلام، وحصن من حصونه، ومن المعلوم ـ وكما بينتم ـ أن أعداء هذا الدين حريصون ساعون ليل نهار على انتهاك هذا الحمى الكريم، ومن ثم تساءلتَ – كما هي عادة الغيورين –: أين دعاتنا؟ وأين هن نساؤنا الداعيات؟! وإن كان السؤال كبيراً على هذا القلم إلا أنه أبى إلا المشاركة!

أخي – حفظك الله ورعاك –: النساء الصالحات كثير، والداعيات إلى الله كثر، وللمصلحات وجودهن في كثير من الأوساط النسائية؛ لذا فالمشكلة ليست في الوجود والمشاركة، إنما تبقى مشكلتنا في الكيف، والفن، والإتقان، والإبداع في تطوير وسائل الدعوة وأدواتها، ومدى تأثيرها على فتاة اليوم، وتلمُّس حاجات هذه الفتاة المسكينة، وتتبُّع مراحل تطورها الثقافي، والفكري، والاجتماعي، ليسهل عندها التأثير، والنصح، والبيان، ولتصل إليها دعوة التوحيد دعوة النجاة على طبق تفهمه وتقبله وتتحلى به عقيدةً، وشعائر، وسلوكاً، وهي مرفوعة الرأس، لا تطأطئه لناعق محترف، ولا إلى منافق مرد، والأدهى من ذاك والأمرُّ: عند مناقشة أخواتنا الطيبات حول موضوع الدعوة والنظر في وسائلها، و.... و.....، فإنك تصدم بإجابة لا تأمل بعدها شفاءاً لصاحبتها! مما قد يضطر بعضهن إلى ترك مقعد الدعوة اضطراراً لا اختياراً، ولا عجزاً، ولا يأساً من الحال ولا جهلاً بها، ولكن: إما مع الخيل يا شقراء، وإلا فلست منا!! هذه هي المعضلة! فهلاً صنعتم لها حلاً ـ رحمكم الله!

ردود

* الأخ: محمد عبد الرحمن فريد: نشكر لك ثناءك على مجلة البيان، ونسأل الله أن نكون عند حسن الظن؛ أما اقتراحكم بأن تتحول المجلة إلى جريدة يومية، فإننا نفيدكم بأن المجلة ارتضت هذه الطريقة في العمل الإعلامي، وتحولها إلى جريدة غير مناسب، ولكن نتمنى أن يتحقق هذا المطلب في مطبوعة جديدة، وجزاكم الله خيراً.

* الإخوة: إبراهيم علي مليحي، أشرف الغمري، صالح علي العمري: نرجو إفادتنا بعنوان بريدي أو هاتفي للتفاهم حول مشاركاتكم.

* الأخ: ناصر السيد: اقتراحكم بوضع صور خرائط في مقالات باب المسلمون والعالم اقتراح جيد، ومحل اهتمامنا، وجزاكم الله خيراً.

* الأخت: هدى بنت سعد: مقالكم «هَمّ وهِمَّة المرأة المسلمة» لم يصلنا، وأما تعقيبكم على مقال «الكتيبات الإسلامية»، فإن كاتبة المقال أفادت بأن التعقيب تناول جزئية فرعية ولم يتطرق لصلب الموضوع، وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى.

* الأخوان: عطية فتحي الويشي، محمود كرم سليمان: نشكر لكما تعاونكما الطيب مع المجلة، ونفيدكما بأن المشاركات مجازة للنشر ـ إن شاء الله.

* الإخوة والأخوات: عمر الرماش بن إدريس، علي أحمد الجميلي، محمد الزهراني، فتاة الصحوة، عبد الله بن خضر الغامدي، محمد جلال، أبو جعفر محمد الشريف، محمد الفتيحي، عبد الله بن شبيب الدوسري، أبو عبد الرحمن أحمد عبد الله، محمد بن عبد الله الرويلي: وصلتنا مشاركاتكم الكريمة، ونفيدكم بأنها مجازة للنشر في المنتدى، ونتمنى دوام التواصل.

* الإخوة: صلاح جابر الطويرقي، عبد الباقي شرف الإسلام، هارون بن عمار، إدريس الكبنوري، ياسر جياكنا، عبد الباقي يوسف، طارق الغفيلي، عادل الزهراني، عبد الله الحافظ، عبد الرحمن العمري، أحمد إبراهيم السيسي، أحمد محمود دخنة، علي بن موسى التمني، عبد الكريم القصير، محمد نجيب لطفي، ماجد بن عيد الحربي، علي بطيح العمري: وصلتنا مشاركاتكم وسعدنا بتواصلكم، ونتمنى لكم التوفيق في مشاركات قادمة.



من أسرار رحلة إنسانية

خالد أبو الفتوح

هل تأملتَ يوماً سيارة قديمة أُنتجت منذ عشرات السنين وقارنتها بسيارة حديثة الصنع؟ لا بد أنك لاحظتَ مدى التقدم في التقنية التي عليها السيارة الحديثة؛ من حيث المظهر والقوة والرفاهية، وقد يجول بخاطر بعضنا مدى التخلف الذي عليه السيارة القديمة، وقد يقطع آخرون بأنه لم يعد لهذه السيارة مكان إلا في أفران الحديد ومصانع الصلب، أو في أحسن الحالات تُوجَّه إلى إحدى القاعات في متحف للمواصلات، وقد يكون ذلك ما يمليه الواقع بالفعل.

ولكن الحقيقة الغائبة أن هذه السيارة القديمة ليست متخلفة بل (بدائية)، وأن السيارة الحديثة ليست إلا سيارة (متطورة)، وأن هذا التطور ما كان ليحدث لو لم يُستفد من تجربة السيارة البدائية ويبنى عليها؛ فإهدار التجارب السابقة والبدء دوماً من نقطة الصفر يعتبر عبثاً وإهداراً للأعمار.

فالاستفادة من التجارب السابقة والبناء الواعي عليها هو أحد أسرار التقدم الإنساني، وهو ميزة إنسانية محضة؛ فعلماء الاجتماع يقولون: إن من الخصائص المميزة للإنسان كونه حيواناً ذا ذاكرة، بمعنى أنه - بخلاف الحيوانات الأخرى - يمتلك القدرة الذهنية على اختزان التجارب والمعلومات ثم استرجاعها مرة أخرى عند الحاجة إليها أو في مواقف مشابهة للاستفادة منها في تجارب جديدة وأيضاً نقلها إلى آخرين.

وهذا ما حض عليه القرآن الكريم عندما دعا في أكثر من آية إلى الاعتبار وأخذ العبرة بتأمل الآيات الكونية والأحداث التاريخية، وبيّن أن ذلك من سمات أولي الأبصار وأولي الألباب وأصحاب الخشية: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]،

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢١ - ٢٦].

وأصل معنى (العبرة) و (الاعتبار) من العبور، وهو الانتقال من جانب إلى آخر، كعبور النهر أو الطريق؛ ففي هذه الآيات وأمثالها حث القرآن على تأمل الآيات والأحداث، ثم الانتقال منها وبها إلى الواقع والمستقبل، يقول ابن فارس في قوله - تعالى -: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]: «كأنه يقول: انظروا إلى مَنْ فعل ما فعل فعوقب بما عوقب به، فتجنبوا مثل صنيعهم لئلا ينزل بكم مثل ما نزل بأولئك»[1].

فالاستفادة من التجارب السابقة ومراعاة نتائجها عند الشروع في العمل إحدى السمات التي تميز أولي الأبصار: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، بينما فَقْدُ ذلك يجذب الإنسان نحو عالم الأنعام ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ومن هذا المنطلق ينبغي أن نلاحظ أنفسنا في تجاربنا التربوية والدعوية؛ فالمربي الذي لا ينقل خلاصة علمه وتجاربه إلى من يربيه فإنه يتركه في الحقيقة ليبدأ من نقطة الصفر أو قريب منها، وبمعنى آخر: يدعه يعيد إنتاج (السيارة البدائية)، وكذلك يفعل بنفسه من يتربى إذا لم يكن حريصاً على (عصر) المربي للاستفادة منه.

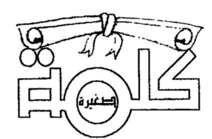
وأي مجموعة دعوية تنقطع عن التجارب الدعوية الأخرى - الناجحة والمخفقة، الماضية والمعاصرة - فإنها تهدر أعماراً يمكن إضافتها إلى عمرها، بما تحويه هذه الأعمار من علوم ومعارف وتجارب ورصيد في الواقع؛ وهذه أمور بُذِلَ من أجلها الغالي والنفيس من تضحيات ومعاناة.

لا بد من حرص متبادل على استثمار التجارب الأخرى وتركيزها في الأجيال الجديدة، وأن يتم ذلك بقصد ووعي وليس بعفوية وكيفما اتفق؛ لأن تواصل الأجيال ضمانة ضد الإخفاق، وفضلاً عن كونه حاجة إنسانية فإنه ضرورة قرآنية.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٢١٠.

بسم الله الرحمن الرحيم



رمضان على مشارف الألفية الثالثة..!

انقضى شهر عظيم من شهور الله المباركة، ولكن بصورة أخرى ما كنا نعهدها من قبل في الأعوام السالفة؛ ففي مطلعه كانت طبول الاستعداد العالمي تُدقُّ لدخول ما يُسمى بـ (الألفية الثالثة)، وفي وسطه بدأت الاحتفالات الصاخبة تطغى على كافة الأجواء الفكرية والإعلامية والاجتماعية، ولا زال الضجيج يصمّ الآذان، ويسيطر على العقول والأفئدة.

كان الجميع يسعى للتميز - زعموا! - فهذه المناسبة لا تكرر عليهم كثيراً.. لم نعجب كثيراً من هذا الصخب الغربي، ولكن العجب لا ينقضي من تلك التبعية الفكرية والإعلامية لبعض المنتسبين إلى الإسلام الذين سلبت عقولهم، ومسخت هويتهم..!!

لقد انتُهكت حرمة شهر رمضان، ومسخت لياليه المباركة بليالي الرقص والخمر والمجون، وسقطت الأقنعة الكالحة، وراح دهاقنة العلمنة وأباطرة الإعلام ودعاة الرذيلة يستبيحون المحرمات، ويلهثون وراء الشهوات، ويزيِّنونها بكل ألوان الفتنة والإغراء، ويُلبسون الحق بالباطل.

نعم! حصل ذلك كله، وهو أمر عظيم، ولكن الأعظم منه ذلك الخلل العقدي العريض الذي ظهرت بعض معالمه في موالاة الكفار، ومحبتهم، والتشبه بهم، ومجاراتهم في أعيادهم وشعاراتهم وأخلاقهم، والسقوط في أحضانهم، وها هنا مكمن الداء - نسأل الله السلامة.

إنَّ التقليد الأعمى للغرب ومجاراته في ضلاله آية من آيات الهزيمة النفسية والفكرية التي تسيطر على بعض النفوس الضعيفة، ولهذا روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!».

إن هذه الظاهرة من أهم النوازل التي يجب دراستها وتحديد معالمها، ثم معالجتها برؤية شرعية متكاملة.

نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا من مضلات الأهواء والفتن.

● العدد ١٤٦ ● شوال ١٤٢٠هـ/ يناير - فبراير ٢٠٠٠م

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	ــــ	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرَّق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٣٥٢٢٨٢	٣٥٢٢٩٢
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٥٥٧٧٣٤	٥٣١٥٥٠
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بور تسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بينين	كوتونو	٤١٩٣-٠٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

الحسابات

- مصرف فيصل الإسلامي حساب رقم: ٠٠٢- ٤٥١٤-٤٢-١٠٩
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
- الإمارات - بنك دبي الإسلامي (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة شارع الأربعين حساب مجلة البيان رقم ٢١٠٠/٧
- قطر: مصرف قطر الإسلامي حساب رقم:٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452



المراسلات والإعلانات

الدول العربية:

البحرين: المحرّق مكتب دار البيان، ص.ب ٥٠١٦٣ ـ هاتف٣٣٥٣٠٠ ـ فاكس ٣٣٦٣٠٠
السعودية: مكتب مجلة البيان ـ ص.ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦
هاتف ٤٦٤١٢٢٢ ـ فاكس ٤٦٤١٤٤٦

أوروبا وأمريكا:

AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060
Fax : 071 - 736 4255

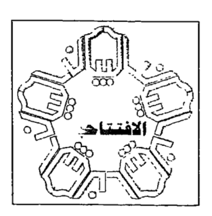
بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهًا استرلينيًا
أوروبا	٢٠ جنيهًا استرلينيًا
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهًا استرلينيًا
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهًا استرلينيًا
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهًا استرلينيًا

ـــذا العـــدد

الموزعون

الأردن : الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس ٦٣٥١٥٢
الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨
قطر : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس ٦٦٢٤٥٠
مصر : القاهرة - ش الجلاء - الأهرام للتوزيع ، هاتف وفاكس ٥٧٤٧٠٢٣ .
المغرب : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ، هاتف ٢٤٥٧٤٥/٥٤
السعودية : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف ٤٦٤٦٦٨٨ ، فاكس ٤٦٤٢٩١٩، الشركة الوطنية هاتف ٤٧٨٢٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣ .
اليمن : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف ٢٠٦٤٦٧
السودان : دار اقرأ للنشر والتوزيع ، الخرطوم : ص.ب ٨٨ براري.

الكويت : درة الكويت للتوزيع، ص.ب ٢٩١٢٦، الصفاة هاتف ٤٧٢٤٦٦٦، فاكس٤٧٢٤٥٥٥.
البحرين : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف - المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ - ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
امريكا. International Media Group
Ann Arbor, MI 48107 U.S.A.- P.O. Box 7560
Tel. 734-975-1115 Fax. 734-975-9997



أعطوا الحرب فرصة!!

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

للمسلمين مع الروس تاريخ طويل من القهر والاستعباد، والنفي والتشريد، والتجهيل والتضليل سواء من قِبَل روسيا القيصرية (النصرانية)، أو من قِبَلِ روسيا الشيوعية، أو حتى من قِبَلِ روسيا الديمقراطية!! حيث تشهد اليوم فصولاً من المأساة الشيشانية.

وقد سطَّر المسلمون تاريخاً طويلاً من الجهاد والاستشهاد في مقاومة الروس ودفع عدوانهم وبغيهم، وسجلوا مواقف بطولية نادرة فداءاً لدين الله وحماية لأعراض المؤمنين.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ [النساء: ٨٤].

وقد كتب الله لنا اليوم أن نشهد فصولاً من الجهاد الشيشاني؛ حيث بدأت الأحداث بإعلان جوهر دوادييف ـ الضابط السابق في الجيش الروسي، ورئيس الشيشان ـ الاستقلال عن روسيا، ولم يكن الرد الروسي بالاستفتاء الشعبي حول الانفصال من عدمه، ولا بمنحهم حق تقرير المصير!! ولكن بتحرك الآليات العسكرية الروسية المدمرة، وحلقت الطائرات لتمطر أرض الشيشان بأنواع القنابل لتأتي على الأخضر واليابس على مدى عشرين شهراً ١٩٩٤ ـ ١٩٩٦م والعالم كله يتفرج على ما يجري على أرض الشيشان وكأن الأمر لا يعنيه!

ولكن – وبفضل الله تعالى ثم بثقة المجاهدين بربهم وحسن توكلهم عليه بعد اتخاذ الأسباب الشرعية – استطاعت الفئة قليلة العدد والعتاد دحر الظالمين وتكبيدهم خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، خرجوا على إثرها من أرض الشيشان الأبية صاغرين يجرون أذيال الهزيمة.

واتجهت الشيشان لتحكم نفسها وتتحرر من ربقة العبودية لغير الله، فأُعلن فيها تطبيق الشريعة الإسلامية، فانتشرت المحاكم الشرعية في أنحاء البلاد، وأقيمت الحدود والتعزيرات الشرعية، ورُدَّت المظالم، وأُخِذَ على أيدي المجرمين، فقرّت عيون أهل الشيشان بالأمن والاستقرار الذي لم تشهده البلاد

منذ زمن، وانتشرت الدعوة والمعاهد الشرعية، وكثر طلاب العلم مما كان له كبير الأثر في رفع الجهل عن الشعب الشيشاني وتبصيره بدينه.

وقامت اللجان الاحتسابية بمنع المنكرات من الأسواق والأماكن العامة؛ فكسرت أواني الخمر، وأقيم الحد على شاربيها، وبدأ الحجاب ينتشر، وبدأ الشباب يتجه إلى ربه، وأصبحت عينك ترى المرأة المحجبة والشاب الملتحي، وأعيد بناء المساجد، وانتشرت حلقات تعليم القرآن، ورأى الناس ثمار جهادهم على أرض الواقع في أمن مستتب، وحرية مطمئنة وشعائر إسلامية ظاهرة، مع ضعف صوت الباطل وقلة أنصاره.

ولكن الروس أزعجهم ما يجري على أرض الشيشان، وأقلقهم نجاح التجربة الشيشانية في الاستقلال مما يحدو باقي الجمهوريات لاتباعها، وبدلاً من أن يدفع الروس تعويضاً عن التدمير الذي لحق بالشيشان من جراء الاحتلال، وبدلاً من أن يساعد في إعادة تعمير البنية التحتية للبلاد؛ سعى الروس عن طريق عملائهم في البلاد إلى زعزعة الأمن والاستقرار في الداخل، ومحاولة إحداث الفتن والخلافات بين الفصائل الشيشانية، وبثوا الجواسيس داخل صفوف المجاهدين بهدف الإيقاع بينهم واغتيال قادتهم، فكشفهم الله وفُضِحوا وأُعلِنت اعترافاتهم في وسائل الإعلام، وباءت محاولات الروس بإحداث الفتنة داخل الشيشان بالإخفاق، فأخذوا يضيقون على الشيشان ويحاصرونها، ومنعوا فتح المطار والاتصال بالعالم الخارجي، وحالوا بينها وبين الاستفادة من مواردها الطبيعية؛ وكل ذلك لم يثن الشيشانيين عن الاستمرار في التجربة الفريدة.

وها هم الروس اليوم تحركوا لتدمير هذا البلد الآمن باجتياح الشيشان للمرة الثانية واختلاق المعاذير لذلك، واتخذوا سياسة جديدة في الحرب مستفادة من الغرب بتكثيف القصف على المدن والمناطق الآهلة وإحداث أكبر قدر من التدمير والقتل والتهجير، وهددوا ـ بل استخدموا ـ المواد الكيماوية في قتالهم للشعب الأعزل إلا من سلاح الإيمان، وها هم الآن يجتاحون المناطق ويدمرونها بمساندة الغرب الكافر واليهود ما بين صمت وتعتيم على ما يجري، وبين دعم مادي ودعم معنوي بالكوادر العسكرية والاستشارات.

ولنا ها هنا وقفات:

١ - في هذا العالم الذي يتغنى بالديمقراطية وحق تقرير المصير وتحرير الشعوب المضطهدة يبقى المسلمون ليس من حقهم هذا؛ فلكم سمعنا من المصطلحات الدولية والأعراف والأنظمة العالمية حين كانت قضية تيمور الشرقية، والنداءات الدولية تصخ الآذان، والضغوط الأمريكية والأوروبية (النصرانية) تتتابع على إندونيسيا حتى تأثر كثير منا بالإعلام ورأى أن من حق تيمور الشرقية (المضطهدة) أن تستقل، واستقلت بالفعل!!

ولكن هـذه كلها صارت أدراج الرياح في قضية الشيشـان، وذابت النداءات كما يـذوب الملح في الماء لا على المسـتوى الرسـمي الدولي ولكن حـتى على المسـتوى الإعـلامي والإنسـاني (الهـيئـات التي تُعنى بحقوق الإنسـان). والغرب (الكافر!!) يقول: «نحن نتفـهم أسـباب ضـرب روسـيا للشيشـان ونقدرها» ويقول: «الحرب في الشـيشـان شأن داخلي»!! ويقول مندوب الأمم المتـحدة لإغـاثة اللاجئين بعد زيارة اللاجئين الشيشان في أنغوشيا: «إن أوضاعهم لم تصل إلى درجة الكارثة»!!

٢ - إنه يمكن لنا أن نفـهم مـعنى سكوت الغرب، ودعمـه لما يجري في الشـيشـان من قتل للمدنيين وتدمير القرى على أهلها (المسلمين). لكننا لا نفـهم موقف منظمة المؤتمـر الإسلامـي الذي صـرح «بأنه يؤيـد وحـدة الأراضـي الروسية» يا عجباً وحدة الأراضي الروسية!!

ألا يدخل هذا في مظاهرة الكافرين على المسلمين؟!

المستجير بعمرٍو عنـد كربته   كالمستجير مـن الرمضاء بالنار

نريد أن نفهم: لِمَ كل الحماس على جميع المستويات الذي حظيت به قضية كوسوفا وهي شبيهة إلى حد كبير بقضية الشيشان - الذي لم يقتصر على المستوى الرسمي في بلاد المسلمين حيث تدور معظم الأنظمة في فلك (النظام العالمي الجديد) بل حتى على مستوى الجمعيات والمؤسسات الخيرية وبعض الأئمة والخطباء والدعاة والعلماء؟!

ما الفرق بين القضيتين بالنسبة لنا نحن المسلمين؟!

إن الفرق المؤثِّر هو أن للغرب مصالح في ضرب الصرب والتدخل باسم حماية حق شعب كوسوفا.

ونحن - بالطبع - نتفاعل ونخطب ونقنت لتحقيق مصالحنا! لا عفواً بل لتحقيق مصالح الغرب من حيث لا نشعر!!

٣ - بتنا على ظهر العراء وبين أنياب المنون

نصحو على قصف المدافع، والمجازر بالمئات

وننام والخوف الرهيب يلفنا بالطائرات

أمٌّ هناك وطفلة.. وأب تمزقه الشظايا المحرقات

تبكي وقصف الطائرات يسوقها نحو الممات

حتى متى يا أمتي..؟!

وإلى متى..؟!

حتى تُهدَّمَ دورنا وديارنا؟!

حتى تقطع للعدا أشلاؤنا؟!

حتى يشرّد أهلنا.. أطفالنا؟!

حتى تُقادَ عفيفةٌ بالأمس كانت لا تقاد؟!

إنا نصيح ولا مجيب..!

إنا نئن.. ولا طبيب..!

فأين.. أين المسلمون ؟!

بل أين بعض المسلمين ؟!

بل أين أهل العلم منهم من بقايا الصالحين

لاذوا بأسوار السكوت

لم يمنحوا إخوانهم حتى كليمات القنوت؟!

وعلى كل حال فمهما تخلى المسلمون عن إخوانهم فإن الله ناصرهم ومؤيدهم، والذي يظهر لنا - والله أعلم - أن الحرب ستطول، وسيسيطر الروس على جميع مدن الشيشان؛ ولكنهم لا يستطيعون الاستمرار فيها والمحافظة عليها؛ حيث ستستمر حرب العصابات، والنتيجة أن يخرج الروس من خلال سيناريو يحفظ ماء الوجه لتقوم دولة حرة مسلمة على أرض القوقاز - بإذن الله - ما لم يتدخل الغرب لمنع قيام دولة إسلامية، كما في البلقان حين أُجهضت آمال المسلمين بقيام دولة لهم على أرض البوسنة باتفاق دايتون الذي لم يكن في حقيقته إلا تبديداً للنجاح الذي حققه المسلمون على الصرب.

وعلى كل حال فقد وُعِدْنا وعداً لا يخلف ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

لكنه النصر القريب

بإذن علام الغيوب

مهما تواترت الخطوب

والنصر آتٍ فوق أشلاء الكماة المخلصين

والنصر آتٍ خلف إمداد الكرام الباذلين

والنصر آتٍ بالدعاء وبالبيان

آتٍ بإذن الله رغم غواية الغاوي وهذرمة الجبان

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

عبد اللطيف بن محمد الحسن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن سنة النبي ﷺ أنوار هادية إلى الصراط المستقيم، وأضواء كاشفة عن سبل العوج والانحراف والنقص والزلل.

وفي كلمة من مشكاة النبوة يرسم النبي ﷺ مَعْلماً من معالم النجاة، بل يحدد أمارة للفلاح والسداد يقيس بها المرء نفسه، ويعرف بها مقدار قربه أو بعده عن الجادة، فيقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١).

وهذه وقفات مع معنى هذا الحديث وفقهه وآفاق تطبيقه تصلح لأن تكون معالم في طريق تزكية النفس وتربيتها.

حديث جامع:

هذا حديث جامع لمعانٍ عظيمة لا غنى للمسلم عن فهمها وامتثالها، وهو من روائع جوامع كلمه ﷺ، وقد تعددت عبارات الأئمة في بيان منزلته من الدين، فقال ابن أبي زيد: «جماع آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث..» وذكره منها(٢). وعدّه حمزة الكناني ثلث الإسلام(٣)، وذكر ابن القيم أن النبي ﷺ جمع الورع كله في هذا الحديث(٤)، وقال ابن رجب عنه: «أصل عظيم من أصول الأدب»(٥)، وذكر أبو داود أنه يكفي الإنسان لدينه أربعة أحاديث، وذكره منها(٦).

والحديث قاعدة عظيمة فيما يأتي الإنسان وما يذر، وفيه تنبيه على الركن الأول في تزكية النفس، وهو جانب التخلية بترك ما لا يعني، ويلزم منه الركن الثاني وهو التحلية بالانشغال بما يعني.

وتزداد الحاجة لفهم مثل هذا الحديث والعمل بمقتضاه في زمن تزاحمت فيه الواجبات، وتنازعت فيه

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٣١٧، ٢٣١٨ (٤/٥٥٨)، وابن ماجه، ح ٣٩٧٦ (٢/١٣١٥)، ومالك،٢/٩٠٣، وأحمد، ١/٢٠١، وابن حبان، ح ٢٢٩ (١/٤٦٦)، وغيرهم، والحديث حسن لغيره، حسنه النووي في الأربعين النووية، الحديث (١٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ح ١٨٨٧، وغيره.

(٢) الديباج على صحيح مسلم (مخطوط ورقة ٢٩).

(٣) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك،٣/٦٩.

(٤) مدارج السالكين، ٢/٢٢.

(٥) جامع العلوم والحكم، ١/٢٨٨.

(٦) تاريخ بغداد، ٩/٥٧، قال الذهبي: «قوله: يكفي الإنسان لدينه ممنوع، بل يحتاج المسلم إلى عدد كثير من السنن الصحيحة مع القرآن». (السير، ١٣/١٢٠).

الأولويات، وصعبت الموازنة.. فكانت الخطوة الأولى هي تركيز الاهتمام فيما ينفع، وترك كل ما لا يعني، وهي أولوية تربوية ملحّة في تربية النفس، وفي تربية الآخرين.

دعوة لتحسين الإسلام:

في الحديث بيان أن ترك ما لا يعني من أسباب حسن الإسلام.

«والإسلام - عند الإطلاق - يدخل فيه الإيمان والإحسان، وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

والمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين كما دل عليه فحوى هذا الحديث: فمنهم المحسن في إسلامه، ومنهم المسيء؛ فمن قام بالإسلام ظاهراً وباطناً فهو المحسن ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، فينشغل هذا المحسن بما يعنيه... ومفهوم الحديث: أن من لم يترك ما لا يعنيه فإنه مسيء في إسلامه»(١).

يرتبط مفهوم حسن الإسلام بمفهوم زيادة الإيمان بالعمل الصالح، ومفهوم مرتبة الإحسان الذي هو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فيتولد ترك ما لا يعني من مراقبة الله - عز وجل -(٢).

«وهذا الحديث يدل على أن ترك ما لا يعني المرء من حسن إسلامه، فإذا ترك ما لا يعنيه، وفعل ما يعنيه كله فقد كمل حسن إسلامه»(٣).

ففي الحديث معيار وعلامة يُعرف بها حسن الإسلام من ضده، وأسباب كل منهما.

فضل حسن الإسلام:

جاءت الأحاديث بفضل منزلة حسن الإسلام، وما يكرم الله - تعالى - به من أحسن في إسلامه، ومن ذلك:

١- مضاعفة الحسنات: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها، حتى يلقى الله»(٤).

٢- الإثابة على الحسنات التي فعلها قبل الإسلام: كما في أحاديث، منها: حديث حكيم بن حزام حين قال له النبي ﷺ: «أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير»(٥).

٣- التجاوز عن سيئات ما قبل إسلام المرء: يدل عليه حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قلنا يا رسول الله! أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «أما من أحسن منكم بعد الإسلام فلا يؤاخذ بها، ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام»(٦). وما ثبت من أن الإسلام يجبُّ ما كان قبله من الذنوب ويهدمها(٧) فهو محمول على الإسلام الكامل الحسن؛ جمعاً بين الحديثين(٨).

٤- تبديل سيئاته التي عملها وقت كان مشركاً إلى حسنات: يشهد لذلك قول الله - تعالى -: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار شرح جوامع الأخبار، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ١/٢٨٩.

(٣) السابق، ص ٢٩٥.

(٤) أخرجه مسلم، ١٢٩.

(٥) أخرجه مسلم، ح ٢٣.

(٦) أخرجه البخاري، ٦٩٢١، ومسلم، ح ١٢٠، واللفظ له.

(٧) كما في صحيح مسلم، ح ١٢١.

(٨) انظر: جامع العلوم والحكم، ١/٢٩٦.

وظاهر الآية شامل لتبديل المعاصي بطاعات مكانها يوفقهم الله لها، وشامل أيضاً لتبديل السيئات التي عملوها نفسها بحسنات يُجزون بها[1]. وكذا حديث الرجل الذي تعرض عليه صغار ذنوبه يوم القيامة، ثم تبدل حسنات، فيتمنى أن تبدل كبائره كلها حسنات قائلاً: «يا رب! قد عملت أشياء لا أراها ها هنا»[2]. وذلك ـ والله أعلم ـ؛ لأن صادق التوبة والندم «يتجرع من مرارة الندم والأسف على ذنوبه أضعاف ما ذاق من حلاوتها عند فعلها، ويصير كل ذنب من ذنوبه سبباً لأعمال صالحة ماحية له»[3]. وهذا هو حال الموفقين المهتدين الصادقين في توبتهم، فانظر إلى عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ لما راجع النبي ﷺ في صلح الحديبية، ورأى أنه قد أساء، قال: «فعملت لذلك أعمالاً»[4]، أي: أعمالاً صالحة أكفِّرُ بها ما فعلت. ومن كانت هذه حاله فإنه كلما كان أكثر إساءة في الجاهلية ـ وكان صادق التوبة ـ كان أكثر إحساناً في الإسلام.

الإعراض عن اللغو صفة الجادين:

وصف الله المؤمنين بالإعراض عن اللغو في غير ما آية، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]. واللغو: الباطل، وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وكل ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال[5]، والاهتمامات والشعور[6]. ومن اللغو: الاشتغال بما لا يعني من أمور الناس[7].

«والإعراض عن جنس اللغو من خلق الجد. ومن تخلق بالجد في شؤونه كملت نفسه، ولم يصدر منه إلا الأعمال النافعة؛ فالجد في الأمور من خلق الإسلام»[8].

أي شيء هو الذي لا يعنيك؟

قول الحبيب ﷺ في هذا الحديث: «ما لا يعنيه» أي: ما لا يهمه[9]، ولا يفيده في دينه ولا دنياه. والشيء الذي يعني المرء هو ما «تتعلق عنايته به، ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية: شدة الاهتمام بالشيء، يقال: «عناه يعنيه إذا اهتم به وطلبه»[10].

والفعل أصله من (عنى) الدال على «القصد للشيء بانكماش فيه، وحرص عليه»[11].

«وعناه الأمر يعنيه عناية وعُنياً: أهمَّه. وقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]. وقرئ: يَعنيه، فمن قرأ يعنيه بالعين المهملة، فمعناه: له شأن لا يهمه معه غيره، وكذلك: شأن يغنيه، أي لا يقدر مع الاهتمام به على الاهتمام بغيره»[12].

والمرء إنما ينبغي له أن يهتم أصلاً بما به نجاته وخلاصه وسعادته، وذلك منحصر فيما يجلب له مصالح آخرته، ويدفع عنه مفاسدها، وأيضاً فيما يجلب له مصالح دنياه، ويدفع عنه مضارها؛ لأن له في صلاح دنياه وسيلة لصلاح آخرته. وهذا ما دعا النبي ﷺ إلى الحرص عليه بقوله: «احرص على ما ينفعك»[13].

---

(١) انظر: تيسير الكريم المنان، للسعدي، ص ٥٣٥.
(٢) أخرجه مسلم، ح ٢٣.
(٣) السابق، ١/ ٣٠٠.
(٤) ذكره البخاري مرسلاً، كتاب الشروط، باب ١٥، وانظر المسند ٤/ ٣٣١، والفتح ٥/ ٤٠٨، وعمدة القاري للعيني ١٣/ ١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/ ٣٠٠.
(٦) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب ٤/ ٢٤٥٤.
(٧) شعب الإيمان للبيهقي، ٧/ ٤١٥.
(٨) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٨/ ١١.
(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ٣١٤.
(١٠) جامع العلوم والحكم، ١/ ٢٨٨.
(١١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ٤/ ١٤٦.
(١٢) لسان العرب، ٤/ ٣١٤٦.
(١٣) أخرجه مسلم، ح ٢٦٦٤.

وما سوى ذلك فإنه لا يعنيه ولا يهمه، وذلك شامل لجميع أنشطة الإنسان وأعماله، من الأقوال والأفعال، كما هو شامل للمحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها[1]، وكلها مما يحاول الشيطان إيقاع العبد فيه متدرجاً من الأشد إلى الأخف.

وما لا يعني قد يكون في أمور الآخرة، كالتفكير فيما يكون عليه حال الأرض بعد انقضاء الأمر، وهل يخلق الله خلقاً آخرين يكلفون ويبتلون ويُرسَل إليهم رسل؟ فإن هذا مما لا يعني الإنسان[2].

وما لا يعني ـ أيضاً ـ جزءان[3]: جزء في أمور لا تعني الإنسان ولا تهمه في أصلها، كشؤون الآخرين وخصوصياتهم في كيفيات معايشهم وجهات تحركاتهم ومقدار تحصيلهم من الدنيا، وكذا الانشغال بالقصص والوقائع والمشاهدات التي لا تتعلق بقصد صحيح. وجزء في حاجات تهم الإنسان في أصلها كشؤون المعايش من الطعام والشراب والمنام والكلام والخلطة والنظر والحركة، وما لا يعني فيها هو الزيادة فيها على قدر الحاجة، وهو ما يعرف بـ (فضول المباحات).

قال ابن القيم: «قد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة، فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، فهذا يعم الترك لما لا يعني من: الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع»[4].

لذا فإن الذي ينبغي ألا يكون المقياس لمريد الكمال والرفعة في فعله وتركه هو حصول الإثم أو عدمه؛ فذلك حال يشعر بضعف الإيمان، بل الأنجح له أن يكون الدافع حصول الأجر وبلوغ مرضاة الله، والدافع إلى تركه عدم ذلك؛ ليكون دائراً في فلك الإحسان، أو حائماً حوله، ومن كانت هذه حاله فهو من أبعد الناس عن دائرة الظلم.

الضابط في معرفة ما يعني وما لا يعني:

الضابط في معرفة ما يعني الإنسان مما لا يعنيه هو الشرع المطهر؛ فلا يجوز أن يكون للهوى دخل فيه[5].

واليوم يفهم كثير من الناس أن المراد بما لا يعني: شؤون الغير على الإطلاق. وهو خلط في المفاهيم، ولبس في فهم المراد؛ فإن من شؤون الغير ما يعني الإنسان مباشرة، ومن ذلك ما كان من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ من الخطأ المبين التذرع بمثل هذا الحديث للتوصل إلى ترك هذه الشعيرة العظيمة.

كما أن، ما يعني الإنسان بدرجة كبيرة شؤون المسلمين وقضاياهم في أي صقع كانوا.

نعم إن للآخرين خصوصياتهم وشؤونهم التي لا تعني الإنسان، كأحوالهم في بيوتهم، ومراكبهم، ومكاتبهم، وأوراقهم، ومتاجرهم، وطرائقهم في العمل والمعيشة، ومقدار مكاسبهم وأرباحهم، و(رواتبهم) ومدخراتهم، مع مراعاة حقوق القرابة كالأب مع ابنه، علماً بأن استرسال الأبوين في التدخل في شؤون أبنائهما المتزوجين ـ خاصة ـ ينجم عنه مفاسد لا تخفى، وهي بالنسبة للتدخل في شؤون البنت المتزوجة أظهر وأكثر.

حفظ الأبواب الأربعة:

قال ابن القيم: «من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، يلازم الرباط على ثغورها؛ فمنها يدخل العدو، فيجوس خلال

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ١/٢٨٩.

(٢) هذه مأخوذة من أشرطة مسجلة في شرح الأربعين النووية، للشيخ محمد المنجد.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، ٣/١١٢ - ١١٤.

(٤) مدارج السالكين، ٢/٢٣ - ٢٤.

(٥) انظر جامع العلوم والحكم، ١/٢٨٩.

الديار، ويتبر ما علا تتبيراً... وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة»[1].

وكذا انشغاله بما لا يعنيه؛ فإنه يلج من هذه الأبواب، ولذا فلا بدَّ من الوقوف معها:

أولاً: النظر:

لا غنى للإنسان عن بصر ينظر به طريقه، ويعرف به مكانه، ويدرك به حاجته، ويتأمل به في خلق ربه.. لكن المتأمل في واقعنا يرى مدى التجاوز بهذه النعمة العظيمة إلى ما لا يعني، من التوسع في النظر المركز إلى المباحات من بيوت ومراكب ومتاجر ولوحات.. مما يعيق الناظر عن التقدم ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧] ويتطلب من الجادين مجاهدة للنفس في تركه واجتنابه. هذا فضلاً عن المكروهات من النظر للقراءة في غثّ الكتب والمجلات، كالقصص الخيالية والبوليسية التي ليس فيها إلا مجرد الاستمتاع النفسي بتصور الأحداث، وكالزوايا المفرغة من المحتوى المفيد كأخبار الرياضة والفنّ، وأخبار الكلاب ونحو ذلك. والأشد: النظر في المحرمات والعورات.

ثانياً: الخواطر والأفكار:

باب الخواطر والأفكار من الأمور التي تستحق العناية؛ لما لها من أثر ظاهر في أقوال المرء وتصرفاته وأفعاله.

وأنفع الخواطر ما كان لله والدار الآخرة، كالتفكير في معاني آيات القرآن الكريم وفهم مراد الله منه، والتفكير في آيات الكون المشهودة والاستدلال بها على أسماء الله وصفاته وحكمته، والتفكير في آلائه وإحسانه وإنعامه، والتفكير في عيوب النفس وآفاتها وعيوب العمل ونقصه، والتفكير في واجب الوقت ووظيفته[2].

وما عدا ذلك فإن الواجب ضبط الذهن، وعدم ترك المجال له يسترسل في الخواطر والشطحات والخيالات الواسعة التي تقلب صاحبها في أودية الدنيا وشعابها، وتنقله من شيء إلى آخر غير أنها لا توقفه على ما يهمه، وهذا شأن التفكير الفوضوي غير المنظم. أما التفكير المنظم المدروس فهو حاجة ماسة للعبد، ومطلب ملح للأمة تنتقل به نقلات في طريق الريادة.

ثالثاً: اللسان:

وكما أن الأمور التي لا تعني الإنسان تكون في أفعاله، فإنها تكون في أقواله أيضاً، فإنها من عمل الإنسان، وهذا ما يغفل عنه أكثر الناس، فلا يعتبرون أقوالهم جزءاً من عملهم. قال عمر بن عبد العزيز: «من عدّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه»[3]. بل إن «أكثر ما يراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام»[4]، يشهد لذلك قول النبي ﷺ: «إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[5].

يكفي دافعاً لحفظ ألفاظ المرء قول الله - تعالى -: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقول النبي ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلاَّ حصائد ألسنتهم»[6].

و«حفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة؛ بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم، ص ١٥٨.

(٢) انظر الجواب الكافي، ص ١٦١ - ١٦٥.

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ١/ ٢٩١.

(٤) السابق، ١/٢٩٠.

(٥) أخرجه أحمد، ١/٢٠١، وهو حسن لغيره.

(٦) أخرجه الترمذي، ح ٢٦١٦، وقال حسن صحيح، وأحمد ٥/٢٣١.

يتكلم نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر : هل تفوت بها كلمة هي أربح منها؟ فلا يضيعها بهذه. وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان؛ فإنه يُطْلِعُ على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى...»[١].

وحدّ الكلام فيما لا يعني : أن يتكلم بكلام لو سكت عنه لم يأثم، ولم يتضرر به في حال ولا مآل، كذكر أخبار الأسفار والوقائع اليومية والأطعمة والألبسة، وسؤال الغير عن عبادته، وعن مكانه الذي كان فيه، وعن كلامه الذي قاله لفلان. مما يوقع المسؤول في الحرج أو الكذب[٢].

والواقع أن الإنسان يحتاج قدراً من الكلام بشكل غير مباشر، وذلك ما كان من باب المباسطة على سبيل التودد لبلوغ مصلحة، أو دفع مفسدة.. لكن لا شك أنه باب يشق ضبطه إلا على الجادّين الموفقين، وقليل ما هم.

ومن الكلام الذي لا يعني : الزيادة فيما يعني على قدر الحاجة[٣]، وهو أمر نسبي.

وكلام الأئمة في التحذير مما لا يعني من فضول الكلام كثير جداً.

وسئل لقمان عما بلغ به مكانته، فقال : «صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني»[٤].

رابعاً: الحركات والخطوات:

إذا نظرت في اهتمامات الناس وأعمالهم تعرف مدى انشغالهم بما لا يعنيهم من أنواع اللهو والألعاب المسلية، وهوايات جمع الطوابع، والتحف، والنوادر، والعملات، والمسابقات التافهة، وكتب الطبخ والأزياء، وأسفار السياحة، وتتبع الأخبار العالمية الدقيقة ـ التي لا تعني إلا أصحابها ـ وقراءة الصحف والمجلات الهابطة، وجلسات السمر، والدراسات المفرغة من النفع عديمة الجدوى.. وغيرها كثير مما قد ينهى عنه لكونه يلهي أو يطغي، ناهيك عن المحرمات الواضحة كمسابقات عارضات الأزياء، وملكات الجمال، وسماع المحرمات والنظر إليها من خلال الشاشات المتنوعة.

حقيقة مرّة.. وتزداد مرارة؛ حيث تنظر في كثير من اهتمامات بعض من أنعم الله عليه بالهداية، فتراه ما بين اهتمام بدنيا، أو انشغال بما لا يعني! ولهؤلاء يتوجه الخطاب أولاً بأن يراجعوا أنفسهم قبل نفاد العمر.

قال ابن القيم : «وأما الخطوات : فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينويها لله، فتقع خطاه قربة»[٥]، وهكذا سائر حركات الجوارح وأعمال البدن.

قال قتادة : «كان يقال : لا يُرى المسلم إلا في ثلاث : في مسجد يعمره، أو بيت يُكِنُّه، أو ابتغاء رزق الله من فضل ربه»[٦].

وفي أبواب العلم أيضاً أمور لا تعني:

ضمن أبواب العلم ومباحثه ومسائله أمور لا تعني ولا تفيد دارسها في شيء، ولا تعدو أن تكون ضرباً من إضاعة الوقت والاشتغال عن المهم؛ وذلك ما نبه عليه بعض أهل العلم محتجين بهذا الحديث .

فالاشتغال بعلم الكلام والفلسفة[٧] لم يَجْنِ منه أصحابه إلا كدّ العقول وإهدار الأوقات وتبديد الجهود وإحلال

(١) الجواب الكافي، ص ١٦٥ - ١٦٧.

(٢) انظر : إحياء علوم الدين، ٣/١١٣ - ١١٤.

(٣) السابق، ٣/١١٤.

(٤) الصمت، لابن أبي الدنيا (١١٦)، ضمن موسوعة رسائله.

(٥) الجواب الكافي، ص ١٦٩.

(٦) شعب الإيمان، ٤/٤١٦ (١٠٨١٠).

(٧) علم العقيدة لا يدخل في علم الكلام، وإطلاق الكلام على العقيدة ـ كما يفعله بعض الناس ـ إطلاق خطأ غير صحيح.

الفرقة والتناحر، كما صرح كبار أساتذتهم بعد عمر طويل، كالرازي والشهرستاني والغزالي والجويني[1].

ومن المسائل التي لا تنفع بل لا يجوز الكلام ولا التفكير فيها: كيفيات صفات الله ـ تعالى ـ؛ فإن هذا مما لا يعني في شيء، ولا يمكن أن يدرك بالعقل؛ فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

كذلك من المسائل التي لا تنفع: الانشغال بالبحث عن أسماء وأعداد وأوصاف أشياء ذكرت في القرآن على عمومها دون تقييد، مثل: تحديد الطيور الأربعة التي ذبحها إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وعدد أصحاب الكهف، وصفة كلبهم، وجزء البقرة المضروب بقتيل بني إسرائيل...

ومن المسائل التي ينبغي إيجاز بحثها: مسألة التفضيل بين الملائكة والأنبياء[2]، ومسألة رؤية النبي ﷺ لربه[3]، ومبحث الروح[4]، وكل ما كان من قبيل التكلف كالسؤال عن صفة كفتيِّ الميزان[5]، وكذا المسائل الافتراضية المستحيلة أو النادرة جداً[6].

وفي هذه المسائل ونحوها من مُلَحِ العلم يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «كل مسألة لا ينبني عليها عمل؛ فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي. وأعني بالعمل: عمل القلب وعمل الجوارح، من حيث هو مطلوب شرعاً. والدليل على ذلك استقراء الشريعة؛ فإنا رأينا الشارع يُعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به؛ ففي القرآن الكريم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فوقع الجواب بما يتعلق به العمل؛ إعراضاً عما قصده السائل...

وقال ـ تعالى ـ بعد سؤالهم عن الساعة: أيان مرساها: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣]﴾، أي: إن السؤال عن هذا سؤال عما لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنه لا بد منها، ولذلك سئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الساعة فقال للسائل: «ما أعددت لها؟»[7]؛ إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة، ولم يجبه عما سأل. وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].. ومن هنا نهى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «عن قيل وقال، وكثرة السؤال»[8]؛ لأنه مظنة السؤال عما لا يفيد... وقرأ عمر بن الخطاب: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، وقال: «هذه الفاكهة، فما الأبّ؟»، ثم قال: نهينا عن التكلف».

وفي القرآن الكريم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهذا ـ بحسب الظاهر ـ يفيد أنهم لم يجابوا، وأن هذا مما لا يحتاج إليه في التكليف».

ثم ذكر أوجهاً في كون الخوض في هذا النوع من العلم غير مستحسن، ومنها:

أولاً: أنه شغل عما يعني من أمر التكليف بما لا يعني؛ فهو غير مفيد في أجر أخروي، ولا رزق دنيوي.

ثانياً: أن الشرع بيَّن ما تصلح به حياة العباد؛ فما لم يبينه فلا مصلحة فيه، بل قد يجر إلى المفسدة، وهذا واقع مشاهد في حال المفترقين الذين أُتِيَ كثير منهم من قبيل انشغاله بما لا يعنيه.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ١/٢٣٦ ـ ٢٤٨، وإحياء علوم الدين ١/٩٤ ـ ٩٧، ولسان الميزان ٤/٢٤٣، وتذكرة الحفاظ، للذهبي ٣/٩٢١.

(٢) شرح الطحاوية ٢/ ٤١٠ ـ ٤١٢.

(٣) سير أعلام النبلاء، ١٠/١١٤.

(٤) نقل الكرمي في أقاويل الثقات، ص ١٩٢، عن الرملي في شرح الزبد، أن الأقوال في الروح بلغت ما يزيد على ألف قول!

(٥) سير أعلام النبلاء، ٩/٣١٢.

(٦) شرح الطحاوية، ص ٢٩١.

(٧) أخرجه البخاري، ح ٦١٧١ (١٠/٥٥٧).

(٨) أخرجه البخاري، ح ٧٢٩٢، (١٣/٢٦٤).

ثالثاً: أن الاهتمام بالنظر في كل شيء وتطلب عمله من شأن الفلاسفة المنحرفين.

ثم ناقش الاعتراضات الواردة على هذا الأمر[1].

ولعل النهي عن الإكثار من السؤال في صدر الإسلام كان ضرباً من التوجيه إلى ترك ما لا يعني، وسداً للذرائع الموصلة إليه؛ إذ التوجيه إلى الانشغال بما يعني وبيانه هو مهمة الرسول في البلاغ، وحسب الإنسان أن يفعل ما يوعظ به.

وهذا باب تربوي ينبغي للمربين العناية به؛ اهتماماً بما اهتم به الشرع.

لماذا الانشغال بما لا يعني؟

إنه يعني بالدرجة الأولى التفرغ من الانشغال بما يعني ويفيد؛ فهذا إنسان فارغ بطَّال لا هو في أمر دنياه ولا في أمر آخرته، وكفى بهذه رادعاً للعاقل اللبيب عن الغي والعبث. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللاً [أي: فارغاً] لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة»[2].

إن اشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا ينفعه إنما يدل ـ في واقع الأمر ـ على جهل الإنسان بمصالحه، وجهله بحقيقة نفسه وحقيقة الخلق والكون والحياة، أو يدل على غفلته عن السنن ونواميس الكون، أو يدل على محاولته التهرب من المسؤوليات، وذلك دليل عجزه وأمارة ضعفه في علاقته مع الله ـ تعالى ـ؛ فإن المؤمن القوي يكتسب قوته من حرصه على ما ينفعه مع استعانته بالله ـ عز وجل ـ، كما قال النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز..» الحديث[3].

أما الكلام فيما لا يعني فيبعث عليه أمور [4]:

- الرغبة في معرفة ما لا حاجة له فيه، وهو ما يعرف بـ (حب الفضول)، وربما سُوِّغ ذلك فسمي (حب استطلاع)، وحب الاستطلاع بهذا المعنى مذموم.

- المباسطة في الكلام على سبيل التودد. وهذا إذا كان له قصد صحيح؛ كتأليف القلب وإحلال المحبة ودوام المودة، توصلاً إلى نصيحة أو توجيه أو تربية.. وإلا كان ضرباً من إضاعة الأوقات. وقد يقع هذا حتى بين الإخوان المجتمعين من غير هدف، كما سماه ابن القيم ـ رحمه الله ـ «اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت»[5].

- تزجية الأوقات، وقضاء الفراغ الناتج عن ضعف فهم حقيقة العبودية وغاية الخلق.

للمسلم شغل عما لا يعنيه:

إن فيما كلف به الإنسان شغل شاغل عما لا يعنيه، وعساه أن يقوم به. قال ابن العربي: «هذا الحديث إشارة إلى أن الإنسان لا يقدر أن يشتغل باللازم؛ فكيف أن يتعداه إلى الفاضل»[6]، وقال قتادة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]: «أتاهم ـ والله ـ من أمر الله ما وقذهم عن ذلك»[7].

---

(١) راجع الموافقات ١/٤٣ ـ ٦٦. وانظر أيضاً ٥/٣٨٧؛ حيث ذكر عشرة مواضع يكره فيها السؤال، منها هذا الموضع وغيره.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ٢/٣٤٠، لسان العرب، ٣/١٩٣٢.

(٣) أخرجه مسلم، ح ٢٦٦٤.

(٤) انظر الإحياء: ٣/١١٤.

(٥) الفوائد، ص ٥١.

(٦) تنوير الحوالك، ٣/٩٦.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ٣/٣٠٠. وقذهم: أي جاءهم من الله ما يسكِّنهم ويمنعهم من انتهاك ما لا يحل ولا يجمُل (لسان العرب، مادة وقذ).

«إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو الهذر.. له ما يشغله من ذكر الله، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق.

وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب، ويشغل الفكر ويحرك الوجدان.. وله ما يشغله من تكاليف العقيدة: تكاليفها في تطهير القلب وتزكية النفس وتنقية الضمير، وتكاليفها في السلوك ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان، وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف، وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها والسهر عليها من كيد الأعداء.. وهي تكاليف لا تنتهي، ولا يغفل عنها المؤمن، ولا يعفي نفسه منها، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية. وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري. والطاقة البشرية محدودة، وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها، وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو. والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح.

ولا ينفي هذا أن يروِّح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين. ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ»[1].

الإنسان مع اهتماماته بين الربح والخسارة:

قرن النبي ﷺ توجيهه إلى ترك ما لا يعني الإنسان ببيان علة ذلك وفائدته ـ فهو طريق إلى تحسين الإسلام، وزيادة الإيمان، والترقي في سلم درجات الكمال ومراتبه التي يُحرَمها من انشغل بما لا يعنيه.

قال الإمام ابن تيمية: «فإذا خاض فيما لا يعنيه نقص من حسن إسلامه، فكان هذا عليه؛ إذ ليس من شرط ما هو عليه أن يكون مستحقاً لعذاب جهنم وغضب الله، بل نقص قدره ودرجته عليه»[2].

كيف لا وقد انشغل بغير ما خلق له، وأضاع وقته فيما لا يقربه من مرضاة ربه؟ فإن إضاعة الوقت في غير فائدة انشغال بغير العبودية[3]. قال ذو النون: «من تكلف ما لا يعنيه ضيع ما يعنيه»[4].

وقال سهل التُستَري: «من تكلم فيما لا يعنيه حُرِم الصدق، ومن اشتغل بالفضول حرم الورع، ومن ظن السوء حُرِم اليقين، ومن حُرِم هذه الثلاثة هلك»[5].

في حين أن انشغاله بما يعنيه دون ما لا يعنيه يرقيه في درجات الكمال، ويقربه من مولاه. قال ابن خلدون: «الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا، أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا... وإن لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قربةً إلى الله، فإن «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[6].

وترك ما لا يعني حصن للعبد من المكروهات، فضلاً عن المحرمات؛ فمن ترك ما لا يعنيه ترك المحرمات من باب أَوْلى[7].

إن تربية النفس على ترك ما لا يعني معين على تركيز الذهن والفكر والشعور والنظر والقول والعمل في الاهتمامات الواجبة والمستحبة، بدلاً من تشتيته في أودية وشعاب لا حصر لها؛ فإن السمع والبصر رسولان

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/٢٤٥٤. (٢) الإيمان الكبير، ٧/٥٠.

(٣) انظر كلاماً في غاية النفاسة عن إضاعة الوقت لابن القيم، في مدارج السالكين، ١/٢٧٨، ٢٧٩.

(٤) شعب الإيمان، للبيهقي، ٧/٤١٨ (٨/١٠٨).

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٣/٣٣٠، وانظر: نزهة الفضلاء، لمحمد عقيل، ٢/٩٨١. (٦) مقدمة ابن خلدون، ٢/١٩٩، ٢٠٠.

(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٤٩٧.

للقلب ينفذ من خلالهما الكلام والصور، فتنطبع في القلب وتشغله بتحليلها حتى يمتلئ بالفضول؛ فلا يبقى فيه مكان لهمّ فاعل مفيد.

بالانشغال بالمفيد ينال الإنسان الحكمة، «قيل للقمان: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما قد كُفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني»(١). وبه يُدرَك الحِلْم. قال معاوية لرجل: «ما بقي من حلمك؟ قال: لا يعنيني ما لا يعنيني»(٢). وتلك هي السيادة حقاً، «قيل للأحنف: بِمَ سُدت قومك، وأنت لست بأنقبهم ولا أشرفهم؟ قال: أني لا أتناول - أو قال: لا أتكلف - ما كُفيت، ولا أضيع ما وليت»(٣).

إذا كانت هذه سعادة المحيا فإن هذا الأمر مجلبة لسعادة الممات. قال زيد بن أسلم: «دُخل على ابن أبي دجانة وهو مريض، ووجهه يتهلل، فقال: «ما من عملي شيء أوثق في نفسي من اثنتين: لم أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي للمسلمين سليماً»(٤).

أول الطريق:

وختاماً: فإن الأمر ليس باليسير، ومما يُعين عليه:

- استفراغ الوسع في معرفة ما يجب على المرء، والاجتهاد في أدائه: ففي ذلك شغل شاغل عما سواه. قال شميط العنسي: «من لزم ما يعنيه أوشك أن يترك ما لا يعنيه»(٥).

- دوام مجاهدة النفس: قال مورِّق العجلي: «أمرٌ أنا في طلبه منذ عشر سنين، لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه... قالوا: ما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني»(٦).

ولا بد من محاسبتها، وربما اقتضى الأمر الزيادة عليها مما يفيدها لتألفه، ومن السلف من عاقب نفسه في ذلك: «مرَّ حسان بن أبي سنان بغرفة، فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه، فقال: تسألين عما لا يعنيك، لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها»(٧).

- الاستعانة بالله - تعالى - ودعائه والتضرع إليه ولا بد من ذلك للسالكين؛ فها هي ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [**الفاتحة**: ٤] تتلى في كل ركعة، وها هو نبي الهدى ﷺ يقول: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»(٨).

- دوام مراقبة الله - عز وجل -: وعظ عطاء بن أبي رباح أصحابه فقال: «إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتذكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد؟ أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته؟»(٩).

ومن استحضر موقف الحساب ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [**عبس**: ٣٤ - ٣٧] وتخيل حقيقة الإفلاس إلا من عمل الصالحات أخذ الأمر بمأخذ الجد، وتأهب بما يجب. والله المستعان، وإليه المرجع والمآب.

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي، ٤١٦/٧ (١٠٨٠٩)، والصمت لابن أبي الدنيا، ضمن موسوعة رسائله ٩٠/٥، (١١٥).

(٢) الصمت، لابن أبي الدنيا (١١٧).

(٣) شعب الإيمان، ٤١٨/٧ (١٠٨١٧).

(٤) الصمت (١١٣).

(٥) الصمت، لابن أبي الدنيا (١١٩).

(٦) السابق، (١١٨).

(٧) شعب الإيمان، ٢٧٥/٤ (٥٠٨٣).

(٨) تقدم ذكره وتخريجه.

(٩) شعب الإيمان، ٢٧٤/٤ (٥٠٨٠).



علم المناسبات في القرآن

محمد بن عبد العزيز الخضيري

من المألوف لدى كل قارئ لكتب التفسير أن يجد المفسِّر يكاد ألاَّ يغفل عن ذكر المناسبة بين الآية والتي بعدها، أو السورة والتي تليها، أو الحكم وما قارنه من أسماء الله وصفاته، ونحو ذلك، ولم يدُرْ بخلد كثير من القراء أن هذا العلم علم عظيم حظي بعناية العلماء واهتمامهم وأفردوا له المؤلفات تحقيقاً أو تطبيقاً.

وفيما يلي ـ أخي القارئ ـ إطلالة عابرة تبين لك جوانب هذا العلم، وتعرفك بمقاصده، وتكشف لك أنواعه وتاريخه وأهم المؤلفات فيه .

تعريفه:

المناسبة في اللغة: المقاربة والمشاكلة(١).

ويعرف اصطلاحاً بأنه : علم تعرف به وجوه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض، وقولُنا : (أجزاء القرآن) شامل للآية مع الآية، والحكم مع الحكم، والسورة مع السورة، والقصة مع القصة، وكل جزء من القرآن مع ما قارنه.

أهميته وأقوال العلماء فيه:

لقد أبان العلماء فيما سطروه بجلاءٍ عن أهمية هذ العلم وعظيم الفائدة بمعرفته حتى قال الفخر الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودَعة في الترتيبات والروابط»(٢).

وقال الزركشي : «واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول»(٣).

أما القاضي أبو بكر بن العربي فقد كشف عن منزلة هذا العلم بقوله : « ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني، منتظمة المباني... علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله ـ عز وجل ـ لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلَةً ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»(٤).

وقال الرازي : «علم المناسبات علم عظيم أودعت فيه أكثر لطائف القرآن وروائعه، وهو أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول»(٥).

---

(١) الإتقان للسيوطي، ٢/ ١٣٩.

(٢) انظره في : البرهان، للزركشي، ٣٦، والإتقان ٢/ ١٣٨.

(٣) البرهان : ٣٥.

(٤) البرهان: ٣٦، وانظر الإتقان : ٢/ ١٣٦.

(٥)انظر البرهان: ٣٥.

وقال في تفسير سورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته»(١).

وقال البقاعي مبيناً فائدة جليلة من فوائد معرفة هذا العلم: «وبهذا العلم: يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين:

إحداهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثانية: نظمها مع تاليتها بالنظر إلى الترتيب. والأول أقرب تناولاً وأسهل ذوقاً؛ فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمُّل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهزّ والبسط، ربما شككه ذلك وزلزل إيمانه؛ فإذا استعان بالله وأدام الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز والوقوف بأنه في الذروة من إحكام الربط كما كان في الأوج من حسن المعنى، فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار رقص الفكر منه طرباً وشاط لعظمة ذلك جنانه، ورسخ من غير مرية إيمانه»(٢).

أول من أظهره، وأهم المؤلفات فيه:

يعد العلماء أبا بكر النيسابوري (ت ٣٢٤هـ) أول من أظهر علم المناسبات في بغداد، وكان يزري على علماء بغداد لجهلهم وجوه المناسبة بين الآيات، وكان إذا قرئت عليه آية أو سورة يقول: لِمَ جُعلت هذه الآية إلى هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة(٣).

وهذه الأولية إنما هي باعتبار شدة العناية والتعليم؛ وإلا فالمتتبع لتفاسير السلف حتى من الصحابة يجدهم يتحدثون أحياناً عن المناسبات في بعض المواطن وإن كانت قليلة.

وقد ذكرنا آنفاً كلمة ابن العربي حين تكلم في هذا العلم وشكواه من بطالة النقلة.

أما المؤلفات فيه فهي على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من أفرده بالتصنيف، ومن أشهرهم:

١ - أبو جعفر بن الزبير الأندلسي (ت ٨٠٧ هـ) في كتابه: «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن».

٢ - السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه: «تناسق الدرر في تناسب السور».

٣ - عبد الله الغُمَاري في كتابه: «جواهر البيان في تناسب سور القرآن».

وأعظم من كتب في هذا العلم وأشفى على الغاية القصوى فيه، وغدا مرجعاً لا يستغنى عنه فيه هو برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) في كتابه: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» حيث ذكر المناسبات بين آيات القرآن وسوره كلها وبلغ كتابه اثنين وعشرين مجلداً.

القسم الثاني: الذين جعلوه نوعاً من علوم القرآن الكريم وتحدثوا عنه في باب من كتبهم، ومن أشهرهم:

---

(١) نظم الدرر: ١/ ٩، والإتقان: ٢/ ١٣٨.

(٢) نظم الدرر: ١/ ١٠ ـ ١٢.

(٣) انظر: البرهان، للزركشي: ٣٦.

١ - الزركشي في كتابه: «البرهان في علوم القرآن» فقد جعله النوع الثاني من كتابه الكبير.

٢ - السيوطي في كتابه: «الإتقان» وقد جعله في النوع الثاني والستين.

القسم الثالث: المفسرون الذين عُنُوا بذكر المناسبات في تفاسيرهم، ومن أشهرهم:

١ - الفخر الرازي في تفسيره الكبير: «مفاتيح الغيب».

٢ - أبو السعود في تفسيره: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم».

٣ - سيد قطب في كتابه: «في ظلال القرآن» حيث كان يفتتح تفسير السورة بذكر موضوعها العام، ثم يربط بين مقاطع السورة على ضوء ما ذكره من موضوعها وجوِّها العام.

فوائد هذا العلم: لهذا العلم فوائد، ومن أهمها:

١ - أنه يزيل الشك الحاصل في القلب بسبب عدم التأمل في دقة النظم وإحكام الترتيب، وقد تقدم كلام البقاعي في هذه القضية[1].

٢ - أنه يفيد في معرفة أسرار التشريع وحكَم الأحكام وإدراك مدى التلازم التام بين أحكام الشريعة؛ فإذا قرأت قوله - تعالى -: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ**﴾ [**النور**: ٣٠] وتعرفت على المناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفرج علمت ما بينهما من التلازم والتلاؤم؛ فحفظ الفرج لا يتم إلا بغض البصر، ومن أطلق بصره في الحرام فحري أن تزلَّ قدمه في الآثام.

٣ - أنه يعين على فهم معنى الآيات وتحديد المراد منها، ومن ذلك: خلاف المفسرين في معنى قوله - تعالى -: ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾ [**الصافات**: ١]، فقال قوم: هي الملائكة، وهذا قول الجمهور، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول؛ وذلك لأنا لو بحثنا عن المناسبة بين أول السورة وخاتمتها لوجدناه ذكر في الخاتمة في معرض حديث الملائكة عن أنفسهم: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**﴾.

[**الصافات**: ١٦٥، ١٦٦].

٤ - وبه يتبين لك سر التكرار في قصص القرآن، وأن كل قصة أعيدت في موطن فلمناسبتها ذلك الموطن، ولذلك ترى اختلافاً في ترتيب القصة ونظمها بحسب المناسبة وإن كانت متحدة في أصل المعنى[2].

قواعد في علم المناسبات:

علم المناسبات كغيره من العلوم له قواعد وضوابط ينطلق منها المتحدثون فيه، ومنها:

الأولى: في كيفية التعرف على المناسبات في السورة جملة:

قال الشرالي المغربي: «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك - إن شاء الله - وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة»[3].

---

(١) انظر أيضاً: البرهان: ٣٦.

(٢) انظر: نظم الدرر: ١/ ١٤.

(٣) نقله السيوطي في الإتقان ٢/ ١٤١ عن بعض المتأخرين.

وقد لخص البقاعي تجربته في التعرف على المناسبة فقال: «تتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو»[١].

والمتأمل لما كتبه سيد قطب في - ظلاله - يجده سار على هذا المنوال في بيان أوجه الربط بين مقاطع السورة.

الثانية: قال الزركشي: «وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً؛ ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه؛ ليُعلم عظم الآمر والناهي، وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك»[٢].

الثالثة: المزاوجة بين الوعد والوعيد، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب؛ وفي ذلك من الحكمة والمناسبة ما هو بيِّن لكل متأمل.

الرابعة: قال السيوطي: إن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد؛ حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً، كما قال في سورة الكهف: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ** ... ﴾ [الكهف: ٤٩] إلى أن قال: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ... ﴾ [الكهف: ٥٤].

والقواعد في هذا الباب كثيرة ومثيرة، وليس هذا موطن استقصائها.

أنواع المناسبات:[٣]

للمناسبات في القرآن ثلاثة أنواع:

الأول: المناسبات في السورة الواحدة.

الثاني: المناسبات بين السورتين.

الثالث: مناسبات عامة.

ولكل نوع من هذه الأنواع أقسام كثيرة وسنقتصر في هذه العجالة على بعضٍ منها، مما يتضح به المقصود وينفتح به الباب للطالب الراغب.

النوع الأول: المناسبات في السورة الواحدة، ويتضمن اقساماً، ومنها:

أولاً: المناسبة بين أول السورة وخاتمتها:

مثاله: قوله - تعالى -: في أول سورة البقرة: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة: ٣]، ثم قال في آخر السورة: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ** ... ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فهو في أول السورة يذكر صفات المتقين التي يتميزون بها وفي آخر السورة يبين أن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه قد امتثلوا تلك الصفات وتحلوا بها.

---

(١) نظم الدرر: ١/ ٦.

(٢) البرهان: ٤٠.

(٣) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي: ٦٨ وما بعدها.

مثال آخر: في سورة (المؤمنون) افتتح السورة بذكر فلاح المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، واختتمها بنفي فلاح الكافرين ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ثانياً: المناسبة بين الآية والتي تليها.

مثاله: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإنه لما ذكر في أول السورة استحقاق الله ـ تعالى ـ لكل المحامد، وكونه رباً للعالمين، وهو الرحمن الرحيم، وهو مع كل هذا الملك المتصرف في اليوم الذي لا ملك فيه لأحد إلا لله.. كان من شأن كل عاقل أن يُقبِل على مَنْ هذه صفاته وتلك عظمته معترفاً بالعبودية له والذل الكامل لجنابه العظيم ملتجئاً إليه طالباً منه العون والمدد، ثم إنه لما حمد وأثنى ومجّد واعترف بالعبودية ناسب أن يستشرف للطلب من ذلك الرب المستعان، فيقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦].

ثالثاً: المناسبة بين حكمين في الآيات أو الآية:

وذلك كما في آيات الاستئذان حين أعقبها بالأمر بغض البصر؛ فإن الاستئذان إنما جعل من أجل أن لا يقع بصر المستأذن على عورة، ولو صادف أن وقع فإن على المستأذن أن يغض البصر، ثم إن العلاقة بين الحكمين بيِّنة؛ إذ فيهما ذكر ما تكون به العفة وحفظ العورات في المجتمع المسلم.

والمناسبة بين الأمر بحفظ الفرج والأمر بغض البصر تقدمت ـ فيما سبق ـ، وهما حكمان في آية واحدة.

رابعاً: المناسبة بين اسم السورة ومضمونها:

مثاله: المناسبة بين مضمون سورة الكهف واسمها؛ فإن السورة قد ذكرت أنواع الفتن التي تمر بالمرء؛ إذ ذكرت فيها الفتنة في الدين في قصة الفتية، وفتنة الجلساء في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ...﴾ [الكهف: ٢٨]، وفتنة المال في قصة صاحب الجنتين، وفتنة العلم في قصة موسى والخضر، وفتنة السلطان في قصة ذي القرنين، وفتنة القوة والكثرة في خبر يأجوج ومأجوج، وذكرت هذه السورة المخرج من كل واحدة من هذه الفتن؛ فكأنها كهف لمن اعتصم بها من الفتن، وقد قال رسول الله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»(١).

النوع الثاني: المناسبات بين السورتين: ويتضمن أقساماً منها:

أولاً: المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمة التي قبلها:

مثاله: في آخر سورة الإسراء قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ...﴾ [الإسراء: ١١١]، وفي أول سورة الكهف التي تليها قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

---

(١) رواه مسلم، ح / ٨٠٩.

مثال آخر: في آخر سورة الطور قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩]، وفي أول سورة النجم قال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

ثانياً: المناسبة بين مضمون السورة والتي تليها:

مثاله: في سورة الضحى ذكرٌ للنعم الحسية على رسول الله ﷺ، وفي سورة الشرح ذكر للنعم المعنوية عليه.

مثال آخر: في سورة البقرة ذكر للطوائف الثلاث: المنعم عليهم ويمثلهم المسلمون، والمغضوب عليهم ويمثلهم اليهود، والضالون ويمثلهم النصارى. وقد ذكر في سورة البقرة الطائفتين الأوليين بما هو ظاهر، وفي سورة آل عمران ذكر الطائفة الثالثة فيما يزيد على «١٢٠» آية من أولها.

النوع الثالث: مناسبات عامة: وهي المناسبات التي يذكرها العلماء مطلقة في القرآن وهي كثيرة جداً أذكر منها نموذجاً للبيان.

- افتُتحت سورتان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهما: سورتا النساء، والحج، وذكر في الأولى بدء الخلق والحياة للإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، وفي سورة الحج ذكر لنهاية هذه الحياة وبداية حياة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

شبهة وجوابها:

قد يقول قائل: كيف تطلب المناسبات بين الآيات والسور علماً بأنها نزلت مفرقة كل واحدة منها في زمن يخالف زمن الأخرى، وفي قضية مغايرة لمضمون ما جاورها؟ وقد أجاب عن هذا التساؤل الزركشي فيما نقله عن بعض مشايخه المحققين فقال: «قد وهم من قال: لا يطلب للآية الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة؛ وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً؛ فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف»(١).

ويزيد هذا الجواب إيضاحاً الشيخ محمد عبد الله دراز فيقول: «إن كانت بعد تنزيلها جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فُرِّق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة»(٢).

وبعدُ - أخي القارئ - فهذه كلمات وجيزة أردت بها تعريفك بعلم تفيدك معرفته والاطلاع على حقيقته، واللهَ أسأل أن أكون موفقاً في بلوغ الهدف وتحقيق المقصود.

---

(١) البرهان: ٣٧.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ٥٧.



أهمية علم مصطلح الحديث

ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي

لعلم مصطلح الحديث أهمية عظيمة؛ وقد أشار إلى أهمية هذا الفنّ عددٌ من العلماء الأجلاّء أذكر منهم:

الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي في أول «شرح ألفيته» التي لخص فيها «كتاب ابن الصلاح» في هذا الفن؛ حيث قال: «وبعد؛ فعلم الحديث خطير وقعه، كبيرٌ نفعُه، عليه مدار أكثرِ الأحكامِ، وبه يعرف الحلال والحرام، ولأهله اصطلاحٌ لا بُدَّ للطَّالب من فهمه؛ فلهذا نُدِب إلى تقديم العناية بكتابٍ في علمه»[1].

فإذا علم هذا فلا شك أن الإسناد وتأريخ الرواة، ووفياتهم، ونقد الرواة، وبيان حالهم من تزكية أو جرح، وسبر متن الحديث ومعناه، وعلم الجرح والتعديل، وعلم علل الحديث: هي شعب كبرى من «علم مصطلح الحديث»؛ فهو المَقسِم العام، وتلك أقسام منه.

وذلك أن «علم مصطلح الحديث» هو مجموع القواعد والمباحث الحديثية المتعلقة بالإسناد والمتن، أو بالراوي والمروي حتى تقبل الرواية أو ترد، التي بدأ تأسيسها في منتصف القرن الأول للهجرة حتى تكاملت، ونضجت، وانصرفت في أواخر القرن التاسع لحفظ حديث رسول الله ﷺ من الدس والتزوير، والخطأ والتغيير، وهي تتصل بضبط الحديث سنداً، ومتناً، وبيان حال الراوي والمروي ومعرفة المقبول والمردود، والصحيح والضعيف، والناسخ والمنسوخ، وما تفرع عن ذلك كله من الفنون الحديثية الكثيرة، وكل ذلك يسمى: «علم مصطلح الحديث»، أو «علم أصول الحديث»، أو «علم المصطلح» اختصاراً، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ[2].

وللأستاذ الشيخ سليمان الندوي ـ رحمه الله ـ كلمة مهمة في بيان أهمية الرواية، وضرورة نقد المرويات أحببت أن أوردها هنا؛ ففيها خير تعريف لعلم أصول الحديث.

قال ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن «تحقيق معنى السنة ومكانتها»: «الرواية أمر ضروري؛ لا مندوحة عنه لعلم من العلوم، ولا لشأن من شؤون الدنيا عن النقل والرواية؛ لأنه لا يمكن لكل إنسان أن يكون حاضراً في كل الحوادث.

فإذاً لا يُتصور علم الوقائع للغائبين عنها إلا بطريق الرواية شفاهاً، أو تحريراً.

وكذلك المولودون بعد تلك الحوادث لا يمكنهم العلم بها إلا بالرواية عمن قبلهم.

هذه تواريخ الأمم الغابرة والحاضرة، والمذاهب والأديان، ونظريات الحكماء والفلاسفة، وتجارب العلماء واختراعاتهم: هل وصلت إلينا إلا بطريق النقل والرواية؟

---

(١) انظر كتاب: «شرح الألفية» للحافظ العراقي (٣).

(٢) انظر كتاب: «لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ (١٩٨ ـ ٢٠٠) بتصرف.

ولما كانت الأحاديث أخباراً وجب أن نستعمل - في نقدها وتمييز الصحيح من غيره - أصول النقد التي نستعملها في سائر الروايات والأخبار التي تبلغنا؛ فهذه القواعد وأشباهها استعملها المحدثون في نقد الأحاديث، وسموها: «أصول الحديث»، وبذلك ميزوا الأحاديث الصحيحة من غيرها»[1].

نشأة علم مصطلح الحديث:

نشأت علوم الحديث مع نشأة الرواية ونقل الحديث في الإسلام، وبدأ ظهور هذه الأصول بعد وفاة الرسول ﷺ حين اهتم المسلمون بجمع الحديث النبوي خوفاً من ضياعه، فاجتهدوا اجتهاداً عظيماً في حفظه وضبطه، ونقله، وتدوينه، وكان من الطبعي أن يسبق تدوين الحديث علم أصول الحديث؛ ذلك لأن الحديث هو المادة المقصودة بالجمع والدراسة، وأصول الحديث هي القواعد والمنهاج الذي اتبع في قبول الحديث أو رده، ومعرفة صحيحه من ضعيفه.

وقد اتبع الصحابة والتابعون وتابعوهم قواعد علمية في قبول الأخبار من غير أن ينصوا على كثير من تلك القواعد، ثم جاء أهل العلم من بعدهم فاستنبطوا تلك القواعد من مناهجهم في قبول الأخبار، ومعرفة الذين يُعتد بروايتهم أو لا يعتد بها، كما استنبطوا شروط الرواية وطرقها، وقواعد الجرح والتعديل، وكل ما يلحق بذلك؛ فقد لازم نشوء علم أصول الحديث نقل الحديث وروايته، وهذا أمر طبعي؛ فما دام هنالك نقل للحديث فلا بد من وجود مناهج وطرق لذلك النقل.

ثم ما لبثت علوم الحديث أن تكاملت، وأصبحت علماً مستقلاً له شأنه بين العلوم الإسلامية[2].

ومن خلال هذا نعلم أن بدء تدوين مبادئ هذا العلم، وكذا تسجيل بعض مسائله كان ببدء تدوين التاريخ للرجال، والتصنيف للحديث في الكتب، وكان قبل ذلك محفوظاً في الصدور متردداً على الألسنة، ومع ذلك فإنه لم يؤلف فيه تأليف خاص جامع في الجملة إلا في القرن الرابع، وما جاء قبل ذلك كان رسائل مستقلة، ونتفاً وجملاً منثورة، ورسائل في بعض المسائل منه تجيء بها المناسبات.

وفي أواخر القرن الثاني بُدئ بتأليف بعض المباحث منه على شكل أبواب مستقلة في موضوعها، يجمع الموضوعَ الواحد منها جزءٌ، أو أجزاءٌ تكون كتاباً لطيفاً بمقاييسنا اليوم[3].

وإذا كان - كما نقل النووي عن الخطيب - لعلي بن المديني مئتا مصنف في الحديث فمعنى ذلك أن هذا المذكورَ من مؤلفاته - وقد بلغت (٢٩) كتاباً - غيضٌ من فيض من تصانيفه في خدمة الحديث، فلا شك أن هناك أنواعاً أخرى ألف فيها، وانقرضت كُتُبها، ولكن أصحابه وتلامذته تلقوها عنه، واستفادوا منها، وأفادوا بها مَنْ بعدهم.

وهكذا نرى أن علي بن المديني ألف في جملة كبيرة من أنواع المصطلح وفنونه، وهو من أهل القرن الثاني وأوائل الثالث.

وهكذا كانوا يؤلفون أول الأمر لكل فن من فنون علم الحديث كتاباً، ثم لما تقعدت المسائل، ونضجت المباحث، واستقرت الاصطلاحات جعلوا كل نوع باباً من أبواب المصطلح، كما هو الحال في كتاب الإمام ابن الصلاح: «معرفة أنواع الحديث»، وقد يطول النوع أو يقصر بحسب ما كتبوا فيه، وما دخل تحته من مسائل وفروع وفوائد وتنبيهات.

---

(١) انظره في مقاله الماتع: «تحقيق معنى السنة ومكانتها» المنشور في مجلة المسلمون. في المجلد السادس، ص ٥٦٥، في العدد السادس منه، ص ٤٩.

(٢) انظر كتاب: «أصول الحديث» للشيخ محمد عجاج الخطيب (١٤ - ١٥).

(٣) انظر كتاب: «لمحات من تاريخ السنة» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة (٢٠٠ - ٢٠١).

ويمكن أن يقال: إن الإمام الشافعي - رحمه الله - (١٥٠ - ٢٠٤هـ)، هو أول من دوَّن بعض المباحث الحديثية في كتابه: «الرسالة»، فتعرض فيه لجملة مسائل هامة مما يتصل بعلم المصطلح، كذكر ما يشترط في الحديث للاحتجاج به، وشرط حفظ الراوي، والرواية بالمعنى، وقبول حديث المدلس، واشتهر عنه موقفه من (الحديث المرسل)، واستعمل (الحديث الحسن) كما ذكره الحافظ العراقي في حاشيته على «مقدمة ابن الصلاح»[١].

أطوار علوم الحديث:

لقد اعتاد الباحثون في علوم السنة تقسيم كتب علوم الحديث إلى طورين:

الأول: طور ما قبل كتاب ابن الصلاح «معرفة أنواع علم الحديث».

الثاني: طور كتاب ابن الصلاح، وما بعده[٢].

الطور الأول:

أما بدء الطور الأول لهذا العلم فلا شك أن الإمام الشافعي - رحمه الله - (١٥٠ - ٢٠٤هـ) أول من نعلمه تكلم عن بعض علوم مصطلح الحديث كلام تقعيد وتأصيل في كتابه المشهور بـ «الرسالة».

وإليك طرفاً مما قاله الإمام الشافعي - رحمه الله - في «الرسالة» مما يتصل أوثق اتصال بمصطلح الحديث.

قال - رحمه الله - في (باب خبر الواحد)[٣]: «قال لي قائل: احْدُدْ لي أقلَّ ما تقوم به الحجة على أهل العلم حتى يثبت عليهم خبر الخاصة.

فقلت: خبر الواحد عن الواحد حتى ينتهى به إلى النبي ﷺ، أو من انتهى به إليه دونه، ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً:

منها أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يُحيل معاني الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع، لا يحدث به على المعنى؛ لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه: لم يَدْرِ: لعله يحيل الحلال إلى الحرام، وإذا أداه بحروفه فلم يبقَ وجهٌ يخافُ فيه إحالته الحديث.

حافظاً إذا حدث به مِنْ حفظه، حافظاً لكتابه إذا حدث من كتابه، إذا شَرِكَ أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم، بريئاً من أن يكون مدلساً: يحدِّث عمن لقي ما لم يسمع منه، ويحدث عن النبي ﷺ ما يحدث الثقات خلافه عن النبي ﷺ.

ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه، حتى ينتهي بالحديث موصولاً إلى النبي ﷺ، أو إلى من انتهى به إليه دونه؛ لأن كل واحد منهم مثبتٌ لمن حدثه، ومثبتٌ على من حدث عنه، فلا يستغنى في كل واحد منهم عما وصفت... إلخ».

ونقل الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في مقدمته لكتاب «لسان الميزان»[٤]، كلامَ الشافعي هذا، ثم قال:

---

(١) انظر كتاب: «التقييد والإيضاح» للحافظ العراقي (٨ - ٣٨)، وكتاب: «لمحات من تاريخ السنة» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة (٢٠٥ - ٢٠٦).

(٢) انظر كتاب: «نزهة النظر» لابن حجر - رحمه الله -، ص (٤٦ - ٥١)، وكتاب: «تدريب الراوي» للسيوطي - رحمه الله - (١/٣٥ - ٣٦)، وكتاب: «لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث» للشيخ حاتم الشريف (١٨٣ - وما بعدها) و قد ذكر الأخيران جملة من مباحث هذين الطورين، وهناك كتب أخرى سيأتي ذكرها - إن شاء الله -.

(٣) انظر «الرسالة» للشافعي، ص (٨، ٢٨).

(٤) انظر لسان الميزان لابن حجر (١/١٨ - ١٩).

«وقد تضمن كلام الشافعي هذا جميع الشروط المتفق عليها بين أهل الحديث في حدِّ من تُقبل روايته» انتهى.

وقد علق الشيخ أحمد شاكر على كلام الشافعي في «الرسالة» بقوله: «... ومن فقه كلام الشافعي في هذا الباب وُجِدَ أنه جمع كل القواعد الصحيحة لعلوم الحديث «المصطلح»، وأنه أول من أبان عنه إبانة واضحة، وأقوى من نصر الحديث، واحتج لوجوب العمل به، وتصدى للرد على مخالفيه، وقد صدق أهل مكة وبروا إذ سموه: (ناصر الحديث)، ـ رضي الله عنه ـ»[1].

ثم تبعه الإمام الحافظ عبد الله بن الزبير الحميدي (٢١٩هـ) شيخ البخاري والذهلي وهذه الطبقة: فقد روى عنه الحافظ أبو بكر بن الخطيب في مواضع من كتابه: «الكفاية في علم الرواية» كلمات هامة في مصطلح الحديث يمكن أن تعد رسالة لطيفة في الموضوع، فيها التعريف الكاشف للحديث الصحيح المحتج به، ولحكم الحديث المعنعن، وما يعد جرحاً عاماً في الراوي، وما لا يُعد إلا جرحاً في بعض حديثه، وغير ذلك مما له أهميته[2].

وكذا في «الجامع الصحيح» للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ـ رحمه الله ـ (١٩٤ ـ ٢٥٦) جملٌ كثيرةٌ في مسائل مصطلح الحديث، وكذلك في مجموع كتبه كـ «التاريخ»، و«الضعفاء»، فيُلتَقط منها جمل جمة من علوم الحديث، لا سيما مباحث الجرح والتعديل.

ثم تبعه الإمام الحافظ مسلم بن الحجاج ـ رحمه الله ـ (٢٤٠ ـ ٢٦١هـ)؛ حيث قدم لكتابه: «الجامع الصحيح»، مقدمة نفيسة تضمنت جملة صالحة من علم المصطلح، وجاءت هذه المقدمة الحديثية الاصطلاحية بالغة الروعة في لغتها، وقوتها ومضمونها، وأمثلتها.

وهناك من الأئمة المحدثين من كان يشير إلى بعض قواعد علوم الحديث من تصحيح، أو تضعيف، أو تعليل خلال كلامه على الحديث، كثيراً كان أو قليلاً.

فمن المكثرين: الإمام الحافظ محمد بن سورة الترمذي ـ رحمه الله ـ؛ ففي كتابه المشهور بـ «الجامع» جملة كبيرة من علوم الحديث نجدها مبثوثة في أبوابه، وعند الكلام على أسانيده.

قال القاضي أبو بكر بن العربي ـ رحمه الله ـ في كتابه: «عارضة الأحوذي»[3]: «وليس في قدر كتاب أبي عيسى مِثْلُهُ حلاوةَ مَقْطَعٍ، ونَفَاسَةَ مَنْزَعٍ، وعذوبةَ مشرعٍ، وفيه أربعة عشر علماً فرائد: صنَّف ـ أي الأحاديث ـ على الأبواب ـ وذلك أقرب للعمل ـ وأسند، وصحَّح، وأشهر، وعدد الطرق، وجرَّح، وعدَّل، وأسمى، وأكنى، ووصل، وقطع، وأوضح المعمول به والمتروك، وبين اختلاف العلماء في الرد والقبول لآثاره، وذكر اختلافهم في تأويله، وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه، فرْد في نصابه».

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد ـ رحمه الله ـ: «هذا الذي قاله القاضي أبو بكر ـ رحمه الله تعالى ـ في بعضه تداخل، مع أنه لم يستوف تعديد علومه، ولو عدد ما في الكتاب من الفوائد بهذا الاعتبار لكانت علومه أكثر من أربعة عشر؛ فقد حسَّن، واستغرب، وبيَّن المتابعة والانفراد، وزيادات الثقات، وبين المرفوع من الموقوف، والمرسل من الموصول، والمزيد في متصل الأسانيد، ورواية الصحابة بعضهم عن بعض، ورواية التابعين بعضهم عن بعض، ورواية الصاحب عن التابعي، وعدد من روى هذا الحديث من

(١) انظر: ما علقه الشيخ احمد شاكر على كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي، ص (٣٦٩).

(٢) انظر هذه الكلمات في كتاب «الكفاية» للخطيب ـ رحمه الله ـ في الصفحات التالية (٤٠، ٤١، ١٣٣، ١٤٦، ١٧٥، ١٧٩، ١٨١، ٢٦٥، ٤١٢، ٤٢٩)، نقلاً عن الشيخ ابو غدة في كتابه السابق (٢١٥ ـ ٢١٦).

(٣) انظر عارضة الأحوذي لأبي بكر بن العربي (٥/١).



الصحابة، ومن تثبت صحبته ومن لم تثبت، ورواية الأكابر عن الأصاغر، إلى غير ذلك.

وقد تدخل رواية الصاحب عن التابع تحت هذا، وتاريخ الرواة.

وأكثر هذه الأنواع قد صُنِّف في كل نوع منها، وفي الذي بيناه ما هو أهم للذكر» انتهى.

وقد ختم الترمذي ـ أيضاً ـ «جامعه»، بجزء نفيسٍ للغاية، ألحقه به، وعُرِف أخيراً بكتاب: «العلل الصغير»، جاءت فيه المباحث الكثيرة الهامة: في الجرح والتعديل، ولزوم الإسناد، والرواية عن الضعفاء، ومتى يحتج بحديثهم، ومتى لا يحتج؟ وفي الرواية بالمعنى، كما ذُكِر فيه شيء من مراتب بعض المحدثين الكبار، وصور التحمل والأداء، ومن حُكْم الحديث المرسل، واصطلاح الترمذي في وصفه الحديث بالحسن، أو الغريب في كتابه.

ومن المقلين الإمام الحافظ سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي المشهور بأبي داود ـ رحمه الله ـ (٢٧٥هـ)؛ حيث حفظ لنا قدراً حسناً من مسائل هذا العلم في «رسالته في وصف سننه» إلى أهل مكة.

وكذا الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي ـ رحمه الله ـ (٣٠٣هـ)، لم يخل كتابه: «السنن» من بعض مباحث علوم الحديث.

ففي خلال القرن الثالث اتضحت معالم هـــذا العلم ـ علوم الحديث ـ بما ذُكِر من مسائله في كتب الرجال، أو في كتب الحديث، أو في كتب مستقلة ذات موضوع واحد، مثل كتب الإمام علي بن المديني، وأكثرَ الكاتبون في مسائله: فمنهم: الإمام الحافظ الحجة أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، (١٨١ ـ ٢٥٥هـ) في المقدمة النفيسة لكتابه: «السنن»، وهو أحد شيوخ الأئمة المحدثين الكبار كالبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وأبي زرعة الرازي، وأبي حاتم الرازي، وهذه الطبقة العالية الشأن.

فإن هذه المقدمة نفيسة الموقع كل النفاسة؛ إذ تعرض فيها للتعريف بصاحب السنة الشريفة سيدنا رســول الله ﷺ، وما كان الناس عليه قبل مبعثه، كما تعرض لذكر أول شأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما أكرمه الله به من معجزات، وما خص به من الصفات المحمدية، والأخلاق النبوية، ولذكر وفاته، وللزوم اتِّباعه، والأدب مع سنته، وأوامره، ونواهيه.

وتوجد ـ أيضاً ـ جملة من ألفاظ الجرح والتعديل، والمصطلح، في كتاب «الثقات» للعجلي: أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي ثم الطرابلسي (٢٦١هـ) ـ رحمه الله ـ.

وكذلك في كتاب: «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (٢٠٠ ـ ٢٨١هـ) ـ رحمه الله ـ كلام كثير جداً في الرجال، ومسائل من علوم المصطلح، بل هو محشو حشواً بتلك الفوائد والمسائل، حتى إن تلميذه أبا بكر الخلال أحمد ابن أحمد بن هارون (٣١١هـ) سمى كتاب شيخه هذا: «كتاب التأريخ وعلل الرجال»؛ ففيه نُقُول في مسائل هامة من علم مصطلح الحديث من كلام أئمة القرن الثاني والثالث، كالإمام التابعي محمد بن شهاب الزهري (١٢٤هـ) ـ رحمه الله ـ، وكلام الإمام الأوزاعي (١٥٧هـ) ـ رحمه الله ـ، وكلام الإمام مالك (١٧٩هـ) ـ رحمه الله ـ ومن كلام كثير سواهم.

وقد جاء في كلام هؤلاء الأئمة: التوثيق، والتضعيف، والجرح والتعديل، والتفضيل لبعض الرواة الثقات على بعض، وذكر من يدلس، ومن لا يدلس، والمفاضلة بين الحافظ والأحفظ، والفقيه وغير الفقيه...، وحكم التحديث، والإخبار، والإجازة، والقراءة على العالم والسماع منه، وكيف يروى عنه في ذلك، وذِكْر مصطلح بعض المحدثين كدحيم شيخ أبي زرعة الدمشقي، وذِكْر من حظي بالصحبة واللقاء، والإدراك للنبي ﷺ

وعدمه، وذكْر الموالي ومواليهم، والأسماء المتفقة والمفترقة، وأنساب الرواة، وألقابهم، وكناهم، وبيان مواليدهم، ووفياتهم، وبعض شيوخهم، والجرح ببدعة القدرية والخوارج، وبالزندقة، وباللصوق بالسلطان والخروج عليه، وغير ذلك من المسائل الهامة المفيدة.

وكذلك في كتاب «المعرفة والتأريخ» للحافظ الإمام يعقوب بن سفيان الفَسَوي (٢٠٠ - ٢٧٧ هـ) جملة صالحة من علوم المصطلح منثورة في خلال بحوثه، يقف عليها الباحث المتتبع بيسر وسهولة.

وكذا للحافظ العلامة أبي بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق البزّار (٢٩٠هـ) جزءٌ في معرفة من يُترك حديثه، أو يقبل، ذكره الحافظ العراقي، ونقل عنه في شرحه «للألفية».

وهكذا تعددت التآليف، وتنوعت التصانيف، وكثرت الروافد والأصول، حتى جاء في القرن الرابع الهجري أئمة أعلام لم يفتوا من العناية، والكلام عن الحديث ومصطلحاته، ومباحثه.

وفي منتصف القرن الرابع توجهت أنظار بعض العلماء إلى جمع تلك المباحث والقواعد المتفرقة في كتاب جامع ناظم لمسائل هذا العلم العظيم - علوم الحديث -.

فقد كتب الإمام الحافظ الناقد ابن حبان البُستي مقدمة صحيحه: «التقاسيم والأنواع»، ومقدمة كتابه الآخر: «المجروحين»، ومقدمة كتابه الثالث: «الثقات»، وتعد هذه المقدمات - وخاصة مقدمة الصحيح والمجروحين - من أهم ما كُتبَ في علوم الحديث لما حوته من مباحث مهمة، وقواعد لا يستغنى عن العلم بها.

وفي القرن الرابع أيضاً كتب الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (٣٨٨ هـ) مقدمة كتابه: «معالم السنن»، ومع كونها صغيرة إلا أنها تعتبر أول باكورة في تقسيم الحديث إلى ثلاثة أقسام: صحيح، وحسن، وضعيف.

ثم كتب - أيضاً - الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي (٤٠٣هـ) مقدمة كتابه: «مختصر الموطأ عن مالك»، المعروف بـ «الملخَّص» تناول فيها مسائل في: الاتصال والانقطاع، وصيغ الأداء، والرفع وأنواعه، ونحوها.

وهكذا تتابع العلماء كتابةً في هذا الفن - علوم الحديث - وما زالوا على هذا المنوال حتى تصدى بعض أهل العلم للكتابة والتدوين لهذا الفن استقلالاً.

التدوين استقلالاً:

ومن أول من دوَّن فيه تدويناً مستقلاً الحافظ القاضي الإمام البارع الذواقة أحد أئمة هذا الشأن - دون شك -: أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاَّل الفارسي الرَّامَهُرمُزي، (٢٦٥ - ٣٦٠ هـ) - رحمه الله -، فألَّف فيه كتابه الرائد الماتع الشهير بـ «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي»، وهو كتاب جليل عظيم النفع جمع فيه مادة ضخمة منوعة في فنون الرواية وآدابها.

وكذلك نجد كتاب: «المحدث الفاصل» معتمداً الاعتماد كله على كلام أئمة النقد من أئمة الحديث في القرن الثالث الهجري؛ حيث بيَّن فيه منهجهم في مسائل «علوم الحديث».

وكذلك لأبي عبد الله بن منده الحافظ (٣٩٥هـ) - رحمه الله - «جزء» في شروط الأئمة في القراءة، والسماع، والمناولة، والإجازة ذكره الحافظ سبط ابن العجمي في كتابه: «التبيين لأسماء المدلسين».

وكذا قام الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري - رحمه الله - (٤٠٥هـ)، بتأليف كتاب مستقل فيما نحن بصدده، وذلك هو كتابه العظيم: «معرفة علوم الحديث».

فجاء كتاب الحاكم وكأنه مختص بما كان أهمله كتاب الرَّامَهُرْمُزي - رحمه الله - من الاعتناء بمصطلح الحديث، وشرح معناه، وضرب الأمثلة له.

وقد تكلم - رحمه الله - عن العالي والنازل، والموقوف والمرسل والمنقطع، والمعنعن، والمعضل، والصحيح، والسقيم، وغير ذلك من الأنواع، التي بلغت عنده اثنين وخمسين نوعاً.

وكتابه هذا صريح كله بأنه ناقل لما عليه أئمة الحديث من شيوخ الحاكم ومَنْ قبلهم، وخاصة أئمة القرن الثالث الهجري.

وعلى هذا المنهج نفسه - في الأغلب - صنف الحافظ أبو نعيم الأصبهاني «مستخرجه على معرفة علوم الحديث للحاكم»[1]؛ لأن طبيعة المستخرجات تُلزم بذلك.

وهنا ننتهي من الكلام على مصنفات علوم الحديث في القرن الرابع، وندخل في القرن الخامس الهجري؛ إذ تتابع فيه التأليف، وتعدد فيه التصنيف، فألف فيه حافظ المشرق الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) فأكثر، وأوعبَ، وأطالَ، ونوَّعَ؛ وقد قال عنه ابن نقطة الحنبلي: «له مصنفات في علوم الحديث لم يُسبق إلى مثلها ولا شبْهها عند كل لبيب. إن المتأخرين من أصحاب الحديث عيالٌ على أبي بكر الخطيب»[2]. انتهى.

وعنه قال ابن حجر: «قلَّ فن من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتاباً مفرداً»[3]؛ إلا أن أجلَّ كتبه، وأنفعها في علوم الحديث هو: «الكفاية في علم الرواية».

أما منهجه في كتابه هذا فقد صرح به الخطيب - رحمه الله - في مقدمته تصريحاً واضحاً؛ حيث قال: «وأنا أذكر - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - في هذا الكتاب: ما بطالبِ الحديث حاجةٌ إلى معرفته، وبالمتفقه فاقةٌ إلى حفظه، ودراسته من بيان أصول علم الحديث وشرائطه، وأشرح من مذاهب السلف الرُّواة والنَّقلة في ذلك ما يكثر نفعه.

ومن أعيان هذا القرن - الخامس - الحافظ أبو يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد الخليلي (٤٤٦ هـ)؛ فقد كتب في مقدمة كتابه: «الإرشاد في معرفة علماء الحديث» مقدمة نفيسة تعرض فيها لمصطلحات مهمة بالشرح والتمثيل لها، وكلامه فيها من معين المحدثين، ومن صافي مشاربهم، ولا أثر فيها لأي علم غريب.

وكتب - أيضاً - في هذا القرن الإمام البيهقي (٤٥٨هـ)، - رحمه الله - كتابه: «المدخل إلى السنن الكبرى».

وقد طبع القسم الثاني من هذا الكتاب، وهو الموجود من مخطوطته، وبقية الكتاب شبه مفقودٍ، فكان مما فقدنا من هذا الكتاب القسم الذي خصَّه البيهقي لعلوم الحديث، ومصطلحاته، وأصوله - والله أعلم!

وقد جعل الحافظ ابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ) - رحمه الله - كتاب البيهقي هذا مرجعه الثاني بعد كتاب ابن الصلاح في كتاب: «اختصار علوم الحديث»، كما صرح بذلك في مقدمة كتابه[4].

---

(١) ذكر هذا المستخرج، الحافظ ابن حجر في كتابه: «نزهة النظر» (٤٧)، والسيوطي في كتابه: «التدريب» (١/٣٥).

(٢) انظر كتاب: «التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» لابن نقطة، ص (١٥٤)، و«تكملة الإكمال» (١/١٠٣).

(٣) انظر كتاب: «نزهة النظر» لابن حجر، ص (٤٨).

(٤) انظر كتاب: «اختصار علوم الحديث» لابن كثير، ص (١/٩٦).

غير أن محقق كتاب البيهقي: الشيخ محمد ضياء الرحمن الأعظمي قد جمع مجموعة من النقول عن القسم المفقود من «المدخل إلى السنن» من كتب علوم الحديث المتأخر مصنفوها عن الإمام البيهقي[1].

فـ «المدخل إلى السنن الكبرى» عبارةٌ عن كتابٍ لإسناد أقوال أئمة الحديث في القرن الرابع فما قبله المتعلقة بأصول الرواية وقواعدها.

كما ألف فيه ـ أيضاً ـ حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر الأندلسي: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، (٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ)، وذلك فيما أودعه في مقدمته النفيسة الواسعة الشاملة لكتابه العُجاب الفريد: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» في ستين صفحة.

وقد نقل الحافظ ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ كلام الحافظ ابن عبد البر في علم المصطلح في غير موضع من كتابه: «معرفة أنواع علم الحديث».

فإذا انتهينا من مقدمة ابن عبد البر نذكر ـ تبعاً ـ قرينه أبا محمد ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، (٤٥٦هـ)، وإنما قلت: تبعاً؛ لأنه تعرض لعلوم الحديث في كتابه: «الإحكام في أصول الأحكام»، وهو كتابٌ في أصول الفقه لا في علوم الحديث، ولا مقدمة لكتاب في الحديث!

والكتاب، بعد ذلك وعلى هذه الشاكلة، يمثل قواعد ابن حزم ـ رحمه الله ـ ومصطلحه، لا قواعد الحديث، ومصطلحه عند أهله!

وجاء بعد الحافظَيْن الكبيرين ـ الخطيب البغدادي، وابن عبد البر الأندلسي ـ الحافظ القاضي عياض اليحصبي (٤٧٩ ـ ٥٤٤ هـ) ـ رحمه الله ـ فألف كتابه الماتع: «الإلماع إلى معرفة أصول الرِّواية وتقييد السَّماع».

ولهذا الإمام تعرُّضٌ واسع لأبوابٍ من علوم الحديث، في كتابين له هما: «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع»، ومقدمة كتابه: «إكمال المعلم بفوائد مسلم»، للمازري.

إلا أن كتابه الأول «الإلماع» كتاب مختص بأصول الرواية (طرق التحمُّل وحجيتها)، وتقييد السماع (كألفاظ الأداء)، وما يتعلق بذلك، وبعض الآداب وما شابهها.

فليس في الكتاب اهتمام بالمصطلحات الحديثية لأقسام الحديث التي هي مدار حديثنا!

أما كتابه الآخر: فهو شرح لمقدمة الإمام مسلم لصحيحه، وحيث تعرض الإمام مسلم في مقدمته لصحيحه لبعض القضايا المهمة في علوم الحديث تناولها القاضي عياض بالشرح.

وبما أن القاضي عياض ـ رحمه الله ـ فقيه وأصولي لذلك فقد حشا كتابه: «إكمال المعلم» بالنقل عن الفقهاء، والأصوليين، والمتكلمين حتى غلب النقل عنهم على المتحدثين[2]!

ثم جاء بعده قاضي الحرمين أبو حفص الميَّانِشيِّ: عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي، نزيل مكة (٥٨٣ هـ) ـ رحمه الله ـ وكتب رسالته الصغيرة المسماة بـ «ما لا يسع المحدث جهله»، وهي رسالة مختصرة جداً،

---

(١) انظر مقدمة محقق «المدخل إلى السنن» (٧٥ ـ ٨٣).

(٢) انظر كتاب «المنهج المقترح...» لحاتم الشريف، (٢٠٦ ـ ٢٠٧).

وغالبها نقل واختصار من كتابَيْ : « معرفة علوم الحديث » للحاكم ، و« الكفاية » للخطيب ، ولم تَخلُ من فائدةٍ.

وقد أغفل الحافظ ابن حجر ـ أيضاً ـ في سلسلة من كتبوا ، أو ألفوا في (المصطلح) : الإمام مجد الدين أبا السعادات مبارك بن محمد المشهور بابن الأثير ، (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) وما كتبه في مقدمة كتابه : « جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ » ، وذلك في الباب الثالث في بيان أصول الحديث ، وأحكامها ، وما يتعلق بها(١).

وقد بلغ هذا الباب (١١١) صفحة فهو كتاب وليس بباب صاغه الإمام ابن الأثير ـ رحمه الله ـ بفصاحة عبارته ، وجمال أسلوبه ، ودقة صياغته ، واستوفى فيه أهم مباحث المصطلح تقريباً .

واستخلص ذلك من كتب الترمذي ، والحاكم ، والخطيب ، البغدادي وغيرهم ، كما أشار إلى ذلك في فاتحة ذلك الباب .

وبقي في هذا الطور مشاركات عدة مما بلغنا ، وما فُقِدَ فأكثر!

لكن ما بلغنا من هذه المشاركات : إما أنه لم يقصد إلى شرح مصطلحات ، وإنما اعتنى ببيان بعض القواعد ، والأصول ، أو أنه نقل محض تندر فيه الإضافة المؤثرة .

ومن أمثلة تلك المشاركات:

كتاب : « شروط الأئمة الستة » لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي (٥٠٧ هـ) .

ومقدمة كتاب : « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » لأبي طاهر أحمد بن محمد السلفي (٥٧٦ هـ) .

وكتاب : « شروط الأئمة الخمسة » لأبي بكر محمد بن موسى الحازمي (٥٨٥هـ) .

وبهذا نكتفي بما ذكر مما ألف في هذا الطور طلباً للاختصار ، وما ذُكر فيه كفاية ـ والله أعلم .

الطور الثاني:

وهذا الطور لا شك أنه أخذ حجماً كبيراً ، وميداناً واسعاً في كثرة التأليف في فن « علم الحديث » ، حتى إنك قد تعجز عن حصر الكتب التي اعتنت بهذا الفن ، لذا لن نتوسع في ذكر كتب المصطلح التي صنفت في هذه الحقبة الزمنية خشية الإطالة والخروج عن مقصدنا ؛ ومنه سنكتفي ـ إن شاء الله ـ بذكر كتابين عظيمين ، وكذا ما تعلق بهما سواءاً اختصاراً ، أو شرحاً ، أو تنكيتاً ، أو تعليقاً ؛ لأنَّ في ذكرهما وذكر ما تعلق بهما كفاية ، ووفاية ـ والله أعلم ـ ، وهما :

الأول: كتاب : « معرفة أنواع علم الحديث » ، للإمام ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ .

الثاني: كتاب : « نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر » ، للإمام ابن حجر ـ رحمه الله ـ .

كتاب: « معرفة أنواع علم الحديث »:

ثم بعد هذا وذاك جاء الحافظ ابن الصلاح : أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشَّهْرَزُورِي ، الشافعي (٥٧٧ ـ ٦٤٣ هـ) ، فألف كتابه العظيم في علوم الحديث المسمى بـ « معرفة أنواع علم الحديث » ، وقد اشتهر أخيراً بـ « مقدمة ابن الصلاح » ، ووقف التأليف في « علوم الحديث » ، عند كتابه هذا ، فإنه جمع فيه عيونه ، واستوعب فيه فنونه .

---

(١) انظر كتاب « جامع الأصول ... » لابن الأثير ، (١/٦٨ ـ ١٧٨) .

وغدا هذا الكتاب - لمحاسنه الجمة، وتفوقه على كل من سبقه - المنهل العذب المورد في المصطلح لكل حديثي ومحدث وعالم، وتوجه العلماء من بعده إليه بشرحه، أو اختصاره، أو تحشيته، أو نظمه.

قال الحافظ السيوطي - رحمه الله - عنه: «... إلى أن جاء الشيخ تقي الدين ابن الصلاح، فجمع «مختصره» المشهور، فأملاه شيئاً بعد شيء لما ولي تدريس دار الحديث الأشرفية - بدمشق - فهذب فنونه، ونقح أنواعه، ولخصها، واعتنى بمؤلفات الخطيب، فجمع متفرقاتها، وشتات مقاصدها، فصار على كتابه المعوَّل، وإليه يرجع كل مختصر ومطول». انتهى.

وعنه يقول الحافظ ابن حجر: «فهذب فنونه، وأملاه شيئاً بعد شيء؛ فلهذا لم يحصل ترتيبه على الوضع المتناسب، وضم إليها نخب فوائدها، فاجتمع في كتابه ما تفرق في غيره؛ فلهذا عكف الناس عليه، وساروا بسيره، فلا يحصى كم ناظم له ومختصر، ومستدرِك عليه ومقتَصر، ومعارضٍ له ومنتصر!»[1].

فإذا علم هذا فإننا نجد أهل العلم لم يألوا جهداً في العناية بكتاب ابن الصلاح - هذا - ولذا تضافرت جهودهم في الاهتمام به شرحاً، أو نظماً، أو اختصاراً، أو تنكيتاً، أو تعليقاً، أو تعقيباً، وهكذا لم يبرحوا عن متابعة خدمة هذا الكتاب الجليل، وهو كذلك؛ فقد أتعب ابن للصلاح - رحمه الله - من بعده، وحاز سعده؛ حيث أصبح كتابه هماً للاحقين، ومفزعاً للطالبين، والله يؤتي الفضل من يشاء من العالمين، والحمد لله رب العالمين.

هذا، وبقي كتاب الحافظ ابن الصلاح: «معرفة أنواع علم الحديث» المنهل الوحيد المفضل في علم المصطلح نحو مائتي سنة حتى جاء الإمام الحافظ ابن حجر - رحمه الله - فألف رسالته المختصرة التي سماها: «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر»، كما سيأتي الكلام عنها - إن شاء الله -.

نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر:

لقد ألف الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، المشهور بابن حجر - رحمه الله - (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)، أمير المؤمنين في الحديث، رسالته المختصرة الجامعة التي سماها: «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر»، ثم شرحها بالكتاب الذي اشتهر - أيضاً - باسم: «نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر»، فاتجهت أنظار العلماء إليه، وعوَّلوا في علم المصطلح عليه؛ لاختصاره وتنسيقه، وتمحيصه وتحقيقه، واحتوائه لزيادة جملة هامة من أنواع علم الحديث خلت عنها مقدمة الحافظ ابن الصلاح؛ فمن ثم صارت «نخبة الفكر»، وشرحها محل الدرس والنظر من علماء الأثر، فكثر شراحها، ومختصروها، وكاتبوا حواشيها، وناظموها، كثرة بالغة كادت تبلغ ما بلغته مقدمة ابن الصلاح؛ فلا يحصى كم ناظم لها ومختصر، ومستدرك عليها ومقتصر، ومعارض لها ومنتصر[2]!

ومن خلال ما ذكرناه عن كتاب ابن حجر - رحمه الله - فإنه لم يكن أقل حظاً من كتاب ابن الصلاح؛ لذا نجد أهل العلم - أيضاً - لم يألوا جهداً في العناية به؛ حيث تضافرت جهودهم في الاهتمام به سواءاً: شرحاً، أو نظماً، أو اختصاراً، أو تنكيتاً، أو تعليقاً، أو تعقيباً.

---

(١) انظر كتاب: «نزهة النظر» لابن حجر (٥١).

(٢) من كلام ابن حجر في «نزهة النظر» عن كتاب ابن الصلاح (٥١).



نحو استثمار أفضل لفائض الوقت

د. مصطفى السيد

يسعى المسلم يومياً مع الملايين من إخوانه في مناكب الأرض إعماراً لها، وإعمالاً لمواهبه، إنتاجاً وإبداعاً، وبعضهم يضرب في طلب الرزق أجواء الفضاء، وآخرون يركبون متون البحار والأنهار يعملون وكلهم يشتهون غداً أفضل، ومستقبلاً أجمل لأمتهم وأوطانهم.

والأمة التي تجعل العمل من مقومات وجودها، وهدفاً أساساً لها في الحياة لن تحصد - بفضل الله ثم بعملها - إلا مجداً باهراً، وازدهاراً ساطعاً، وحُق لأمة تكون كذلك أن تكون لها سويعات ترفيه، وأوقات راحة تخلد فيها إلى الهدوء، أو تركن إلى صحبة تتعاطى معها نشاطاً ذهنياً أو رياضياً يتجدد من خلالها نشاطها، وتتنمى عبرها مواهب قد لا يتمكن العاملون من إشباعها أوقات الدوام.

هكذا تكون الحياة السوية سمواً عبر العطاء، ومثاقفة بناءة في ساعات الترويح والاسترخاء.

تعالوا أيها الأحبة نسائل أنفسنا: أين نحن من ذلك في حياتنا بشطريها: العامل، والمستريح؟

لا أنكر ابتداءاً أنه يوجد بيننا من حولوا ساعات العمل بفضل الله ثم بفضل ما طبعوا عليه من تربية؛ حولوها إلى زيادة في رصيد حسناتهم، وإلى نتاجات فكرية أو مادية استفاد منها البلاد والعباد.

كما يوجد من بيننا من حوّل ساعات الترفيه والاسترخاء إلى وجه آخر من وجوه الحضور للمسلم المنتمي إلى عصره ومجتمعه انتماء مشاركة، وتعاون على البر والتقوى، وتفكر وتدبر في كل دقيقة، وكيف تملأ بما يكفل عائداً مجزياً ومردوداً مريحاً؛ وذلك عندما يوفق في قضاء ساعات راحته مع فئة من الناس تتبسط بغير استهتار، وتتحادث بغير إسفاف، لا تخلع العذار في مزاحها، ولا تسقط الحياء في لهوها، تتهادى الكلمة الطيبة، وتتبادل الأفكار التي تفتح للأمل أبواباً، وتوصد من اليأس مثلها، يحضرهم سمر النبي ﷺ عند أبي بكر - رضي الله عنه - الذي كان سمراً في مصالح المسلمين، وقول عمر - رضي الله عنه -: «إنه لم يعد له من أرب في العيش لولا محادثة أهل الفضل والمروءة».

إن مثل هذه النماذج المباركة جعلت من لقاءات الترفيه والسمر مدارس تبث الكلمة النافعة، وتضخ الخبرة الناضجة لجُلاّسها؛ لأنها:

- لم تفهم الترفيه تحرراً من المسؤولية، وتحللاً من الفضيلة مرددة مقولة جاهلية ومأثورة شيطانية: «ساعة لك وساعة لربك»، أو: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

- لم تفهم الترفيه هروباً إلى رفقة سوءٍ رأت في الحياة عبءاً، والعمر هماً جاثماً على الصدر، فتفننت في التخلص منهما، والتحلل من مستلزماتهما.

- لم تفهم الترفيه هروباً إلى العكوف بين يدي متحدث عليم اللسان، فارغ الجنان، اختزل الحياة بساقط النكات والقهقهة العابثة التي رأت في سخف القول والعمل سقفاً للعيش، ومضماراً للهو والطيش.

- لم تفهم الترفيه هروباً من الأسرة وحقها في أوقات تأخذ من الأب تجربته، كما يلقي الأب السمع إلى أفكار ورؤى أبنائه وبناته، لا يتركهم تحتبس الكلمات في صدورهم، والأسئلة في عقولهم، يغيب عنهم وعن زوجته ليحل محله يأس طاغ، أو رفيق سوء باغ، أو جلوس إلى قنوات فضائية تتسمر أعينهم في صورها، يلتهمون سمها الزعاف وفكرها القاتل.

- لم تفهم الترفيه استقالة من معالي الأمور، وانتحاراً بطيئاً غير مباشر من تبعات الحياة، حتى صار هؤلاء القوم يقدمون الاستراحة على البيت، وروادها على الأسرة، والحياة الهاربة من كل التزام جاد على الحضور الذي تتحقق به ومعه أهداف الحياة، حتى إن بعضهم ليحسب أنما خلق عبثاً للعيش بلا دور سوى حضور باهت على هامش الحياة معطلاً فيه عقله، معلقاً رجولته بخيوط العجز واللامبالاة، مؤكداً حضوره بتثاؤب مكدود، عيناه باتتا موانئ للذباب، وروحه ملاعب لجيوش اليأس والإحباط.

- لم تفهم الترفيه سخرية لاذعة من الإصلاح والمصلحين، والجد والجادين، بل رأت في الترفيه والسمر فرصاً لرفعه إلى مستويات الجد من خلال دعاء لحاكم ومحكوم بالتوفيق والنجاح، أو من خلال جمع بعض المال تفك به أزمة مأزوم، أو بالتداول في طرائق النصح لمنحرف ضل الطريق، وهكذا كانت أوقات الترفيه استمراراً لأوقات الجد واستكمالاً لساعات العمل.

إذا كان الناس يتداعون لشهود صلاة الجنازة على ميت مات فما العمل إزاء شريحة كبيرة من أفراد الأمة باتوا أحياءاً أمواتاً، وأصبحوا حاضرين غائبين، همشوا أنفسهم، أو همشتهم ثقافة الإقصاء التي تجرعوها، توارثوها من أسر لا تمسك علماً، ولا تنبت قيماً.

شريحة تعيش في الحضيض، وإخوانهم من شياطين الجن والإنس يمدونهم بالغي ثم لا يقصرون، يوهمونهم أنهم يحسنون صنعاً، وأنهم في قلب الحياة، والحق أنهم لم يدخلوها إلا بشهواتهم، ولم يحضروا إلا في أطرافها النائية.

هل هؤلاء الذين ارتضوا من الغنيمة بالإياب، ومن الحياة بالفتات؟

هل هؤلاء ضحايا أم خاطئون؟ برءاء أم مسؤولون؟

هل هم نتاج الثقافة الزائفة؟

هل هم دلائل ساطعة على إخفاقنا، وإخفاق المؤسسات العامة والخاصة في استيعابهم؟

وهل حسبُنا أن نطرح السؤال فقط؟ أو أن نشخص الأوجاع فحسب؟

إن ذلك فهم، ولكن الأهم أن ننتفض انتفاضة نفسية وعقلية لمواجهة النزف والهدر في هذه الشرائح، وأطْرها على الحق من خلال كل الوسائل المتاحة والمباحة؛ لأن الأمة لن تقدر على نهضة جادة وفي خواصرها جروح نازفة يأساً، راعفة إحباطاً، هاذرة في الملمات، هائمة في وقت الحاجة الماسة إلى التركيز.



الداعية المطلوب

محمد بن عبد الله التميمي

إن مضمار الدعوة إلى الله – تعالى – هو المضمار الذي تتسابق إليه النفوس الطموحة والعقول الواعية المفكرة لخوضه وكسب قصب السبق فيه – إي وربِّي!

نعم إنها لكذلك، وإنها لأجلُّ من ذلك... فلكم قُدِّمت لأجلها رؤوس ... وأُزهقت أنفس... وأدميت أعقاب... وذرفت دموع!...

إنها (صناعة الحياة) والآسي[1] المضمِّد لجراحات الأمة «وما أكثرها!» وهي المهندس الذي يبني (قلعة) الإسلام ويُرمِّمُ بِنْيَة جدارها الذي يُريد أن ينقضَّ، وهي الضوء ـ والخرِّيت[2] – الذي يشق العُبابات ويجلي الغبش عن نواظر الأمة ليَمدَّ لها طريقاً في الأفق يبدأ من منطلق: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] عبر محور: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] مروراً بمبدأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] كل هذا يصاغ ببوتقة: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

أَجْمِلْ بالداعية وهو يصعد عالي البحار وسافل الوهاد يَجُوبُ الأرض قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم...﴾ [النساء: ١] مذكراً كلَّ مدَّكرٍ، ومعلماً كل جاهل، ويداً حنونة تعطف على من تنكَّب الجادَّة، ومَنْهلاً رويًا يطفئ غليل كل طاغية.. وابتسامة متفائلةً في وجه كل الصعوبات، وأمام كلِّ العقبات... وثباتاً على المبدأ عند المنعطفات وتحت وطأة كل التيارات؛ أجل... فالدعوة هي سُلَّمُ النهوض بالأمة الإسلامية من سباتها العميق ومشهدها الدامي الحزين!!

والداعية هو البطل الذي سَيَنْتَشِلُ قرة عينه (الأمة الإسلامية) من كَنَفِ الرذيلة، وحمأة الضلالة، ومنعطفات الغواية، ومن شؤم المعصية إلى حلاوة الإيمان وزورق الحياة السعيدة وجمال الحسنة وبرِّ

---

(١) الآسي: الطبيب.

(٢) الخرِّيت: الماهر.

الأمان؛ حداؤه في برنامجه الدعوي: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] ليحوز الخيريَّة «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[١].

لكن (العمل الدعوي) ليس باباً مفتوحاً على مصراعيه، أو ماءاً الناسُ فيه شركاء، لا، ثم لا.. فإن صُنَّاع الحياة لا بد لهم من معايير ومقاييس يسيرون على ضوئها؛ ومن أبرزها:

- الإخلاص والمتابعة (شرطان لذاتهما ولغيرهما).
- المصداقية في القول والعمل.
- ترجمة (الأوامر والنواهي) إلى واقع محسوس في حياة الداعية، ثم إلى مسرح الحياة.
- الصبر. وفي الحديث: «والصبر ضياء»[٢] قال الشاعر:

أحرى بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومُدْمِنِ القرع للأبواب أن يلجا

بل إنَّ مدار الإمامة في الدين على الصبر واليقين كما قال الحسن البصري - رحمه الله تعالى - مصداقاً لقول الله - سبحانه -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

- (التأصيل العلمي) وجمع المسائل العلمية[٣] - وإن كان هذا المعيار تدور حوله القضية الساخنة (العلم، والدعوة، والصراع)[٤] إلا أننا ندرك أن الدعوة إلى الله - تعالى - دائرة حول (الأحكام التكليفية والوضعية) وهي مفتقرة إلى الدليل الذي يدعم حكمها - قلَّ أو كثُر - قال ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية»[٥] وقال: «رُبَّ حاملِ فقه لا فقه له»[٦].
- صب الاهتمام بكليات المسائل من غير إذابة لجزئياتها عملاً بقاعدة: (إذا تزاحمت المصالح قُدِّمَ الأعلى منها).

وهذه (المقاييس والمعايير) هي السلاح الذي يغدو به (الداعية إلى الله) صانعاً للحياة مؤدياً رسالته على الوجه المطلوب.

وجماع هذه المقاييس والمعايير محوران: (التحصيل العلمي الصحيح) و (المخزون الإيماني) بجانب - الخلق الدمث النبيل - وإن لم تكن هذه (المقاييس والمعايير) في جعبة الداعية فما عليه إلا أن يتنحى عن الطريق لغيره؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

---

(١) البخاري، ح/ ٢٧٢٤، ومسلم، ح/٤٤٣٣. (٢) مسلم، ح/٣٢٨.

(٣) ليس المراد أن لا يدعو إلى الله حتى يرسخ باعه ويعلو كعبه في العلم، وإنما أن يكون معه من العلم ما يجعله لا يتكلم من (فراغ) وذلك لأن الداعية هو من أكثر الناس تعرضاً للتيارات المنحرفة والأفكار الهدامة.

(٤) هناك مقال (لا يُملُّ) في هذه القضية للشيخ (عبد الله المسلم)، انظر البيان (١١٤).

(٥) البخاري، ح/ ٣٣٠٢. (٦) رواه أحمد، ح/١٦١٣٨.



وما عليك ألا يزكى

محمد بن عبد الله الدويش

لقد كان النبي ﷺ يحمل عاطفة صادقة، كان يحب الخير للناس كلهم، ومن ثم كان يحزنه ويؤله ما هم عليه من الكفر والضلال، ويكاد أن يهلك نفسه حزناً على ما هم عليه، وحرصاً منه ﷺ على إسلامهم وإيمانهم.

وفي القرآن آيات عدة تحكي ما كان عليه ﷺ من ذلك؛ ففي سورة الأنعام يقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٥، ٣٦].

وفي سورة الكهف قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وفي سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. [الشعراء: ٣].

إن حرص الداعية على اهتداء الناس، وحزنه على ضلالهم وإعراضهم دليل على محبته الخير لهم، وعلى صدقه في دعوته، وها هو صاحب أهل القرية حين مات ورأى ما أعده الله له في الجنة تمنى أن يعلم قومه بما جُوزي به، حتى يهديهم الله، ويقبلوا عليه ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

لكن هذا الحرص ينبغي ألا يتجاوز حد الاعتدال، وإلا كان أمراً منهياً عنه.

إنه حين يتجاوز هذا القدر يولِّد آثاراً سلبية، منها:

١ - شعور الداعية بأنه مسؤول عن هداية الناس، وإصلاحهم بينما واجبه البلاغ، والهداية إنما هي بيد مَنْ قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف شاء، ولئن كانت مهمة النبي ﷺ تقف عند واجب البلاغ؛ فغيره من باب أوْلى.

٢ - انشغال الداعية أحياناً بشخص يطمع في هدايته، أو شخص انحرف بعد صلاحه واستقامته، وهذا الانشغال يصبح في أحيان كثيرة على حساب الآخرين، فيأخذ وقت الداعية ويشغله عمن هو أحوج منه إلى بذل الجهد والوقت؛ فالمقبلون على الله - عز وجل - الصادقون في الاستجابة أوْلى من هؤلاء المعرضين، ولقد عاتب الله - تبارك وتعالى - نبيه ﷺ في ذلك فقال: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ [عبس: ٥ - ٨].

٣ - انشغال فكر الداعية وقلقه، مما يشغله عن التفكير بما هو أهم من ذلك وأوْلى.

إن الشعور بأن لكل مشكلة حلاً إن صح في ميادين فإنه لا يصح في الميادين الإنسانية؛ فالمربي والداعية قد يستطيع أن يخطو خطوةً مَّا، ويتخذ حلاً لمشكلة تؤرقه، لكنه لا يستطيع بحال أن يضمن استجابة الطرف الآخر وتقبله؛ فالدعوة والتربية ليسا عملاً من طرف واحد.

وفي سيَر الأنبياء - وهم الذين بلغوا الغاية والقمة في دعوة الناس والتأثير عليهم - نماذج تدل على صدق هذه القضية.

فها هو نوح - عليه السلام - يجتهد في دعوة ابنه دون يأس من استجابته حتى آخر لحظة، فيناديه وهو في الفلك: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وها هو إبراهيم - عليه السلام - يبذل جهده في دعوة والده ونصيحته دون يأس.

وها هو خاتم الرسل محمد ﷺ يأتي إلى عمه وهو في مرض الموت قائلاً له: «كلمة واحدة أحاج لك بها عند الله»(١).

ومع ذلك الجهد من هؤلاء الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه عليهم - فلم يستطيعوا هداية هؤلاء الذين هم من أقرب الناس إليهم، وماتوا على الكفر كما ماتت زوج نوح وزوج لوط - عليهما السلام - على الكفر وقيل لهما: ﴿ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فلنبذل جهدنا في دعوة الناس وتربيتهم وإصلاحهم، لكن لنعلم أن الثمرة والهداية بيد الله - عز وجل -؛ فحين لا تتحقق النتيجة التي نريد فلا ينبغي أن نضجر ونبالغ في التألم والتحسر.

---

(١) رواه البخاري، (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤).



وصايا الدرب

بليغ المشاعل

الحمد لله رب العالمين...

أخي الحبيب: كم يعتريني خجل وحياء كلما رأيت قلمي يداعب الورقة لكتابة رسالة إليك، فأنا كالمدين الذي جاء يسدد الدين بعد فوات الأجل، تراه يسير بجانب الجدار ثم يطرق الباب، وهو يسأل الله ألا يفتحه الدائن بل أحد أبنائه الصغار، فيعطيه ما معه وينصرف سريعاً ليختفي عنه ردحاً من الدهر.. وأحسب أني لا أختلف كثيراً عن ذلك المدين؛ فكم أتمنى أن أرسل هذه الرسالة مع أحد معارفك أو زملائك، أو لعل ريحاً تاتي فتحمل تلك الرسالة إليك وتريحني من عناء اللقاء المشوب بخجل المداينة؛ لكن طمعي وأملي في جميل طبائعك وكريم سجاياك سيجعلني أتجرأ لأقف بالرسالة بين يديك فأعطيكها دون خوف الدَّين والمدين.

مشاعر غريبة جداً اعتلجت في صدري حينما قرأت ما كتبته إليَّ حول طلبك النصيحة مني:

أهي شعور بالفرح لاستمرار الثقة والمودة بيننا؟

أم شعور بالخوف من عدم القدرة على أداء هذه المهمة؟

أم شعور محبط بنقصي الذي يمنعني من نصح من هم على مستوى عالٍ من الخلق والدين.

وبقيت أياماً لا أستطيع تحديد حقيقة مشاعري وموقفي تجاه تلك الرسالة، حتى استقر شأني على أمرين لا ثالث لهما: إما أن أكتب الرد، أو لا أكتبه.

وكان لكلٍ من هذين الأمرين داعيه الذي يلح عليَّ بالإجابة فأقف حائراً بينهما، ولكني عزمت على الكتابة أداءً للحق الواجب شرعاً بين المؤمنين، ولعلَّ الله - تعالى - أن ينفعني وإياك بهذه الوصايا:

الوقفة الأولى: رفيق الدرب!

أخي الفاضل... ما أشق الطريق وأبعد الغاية على الذين يسافرون وحدهم من غير صاحب يخفف عنهم عناء الطريق، ويدفع عنهم جهد السفر، والمسلم في هذه الحياة مسافر يحتاج إلى أنيس في سفره ومعين في جهاده حتى يصل لغايته وهدفه، ويا لسعادة ذلك المسافر إن كان رفيق دربه كيِّساً تقياً! ويا لتعاسته إن كان غير ذلك!

إن المؤمن قوي بإخوانه ضعيف وحده، ولا يزال العبد في قوته ما دام آخذاً برفقة الخير والجلساء الصالحين «فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»(١).

---

(١) أخرجه أحمد، ح- ٢٠٧١٩، والنسائي، ح/ ٨٣٨، وابو داود، ح/ ٤٦٠.

كم أشعر بالغباوة وأنا أسترسل في ذكر أهمية الأخ الصادق والرفقة الطيبة وهي حقيقة أصبحت من آكد المسلَّمات!

قد يستنكر بعض الشباب الذين قطعوا شوطاً كبيراً في الهداية حينما توصيه بالتزام الرفقة الصالحة والعض عليها بالنواجذ، وهم مخطئون بذلك الاستنكار؛ فالمؤمن في كل حال ومهما بلغ يظل محتاجاً لإخوانه، بل هذا نبي الله محمد ﷺ يوصيه ربه فيقول: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ [الكهف: ٢٨].

فيا لغباء المستكبرين!!

الوقفة الثانية: وللرفيق بريق:

من الخطأ بل من السذاجة أن نعتقد أن الشيطان سينسحب من المعركة في أول هزيمة له أو أنه سيتركنا مع أول وقفة جادة لنا مع أنفسنا.

ولئن أشرت إلى أهمية الرفقة الصالحة قبل قليل فلا بد من الإشارة إلى مزلقين هامين يحرص الشيطان على نصبهما لنا كثيراً:

المزلق الأول: أن نعتقد أنَّا قد وجدنا الرفيق الصالح بمجرد رفقتنا لمجموعة صالحة، ومن ثمَّ يعتقد الإنسان أنه مع جليس صالح بمجرد أن يكون مع رفقة بعمومها صالحة، وننسى أن النفع الأكبر إنما يكون من خاصة أولئك الصالحين، فبعض الناس ينتقي أردى الأصحاب ليقتبس أخلاقه ويتطبع بطباعه، ويهمل الأخيار والمتميزين منهم؛ لأنه في رفقةٍ الغالبُ عليها الصلاح، ولا يزال يتردى وينحط مع خليله ذاك حتى ينسى نفسه، ويفقد خيراً كثيراً.

وقد أشار الإمام ابن القيم إلى آفات الاجتماع بالإخوان فقال: «الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع مؤانسة الطبع وشغل الوقت؛ فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

تزيين بعضهم لبعض، والكلام والخلطة أكثر من الحاجة، وأن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود»(١).

المزلق الثاني: الاكتفاء بدور الأستاذ المربي، ومع شرف هذه المهمة وأهميتها إلا أن الاهتمام بمعاشرة أهل الفضل والعقل والتقوى من الجانب الآخر أمر مهم؛ لكي لا يكون عقل الرجل - مع مرور الوقت - عقل صبي في جسم رجل. والتوسط في كل الأمور حسن ومطلوب.

الوقفة الثالثة: حياة بلا روح:

ما أقبح الحياة بلا روح! بل لا حياة بلا روح.. وكل مبتغٍ للحياة استمراراً من غير روح فهو كمن يرجو المحال.. يقول - تعالى -: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ﴾ [الشورى: ٥٢].

---

(١) الفوائد، ص ٥١.

سبحان الله! فقد سمَّى الله القرآن العظيم بالروح، فلا حياة حقة من غير كتاب الله ـ عز وجل ـ، ولا نعيم في الدنيا والآخرة من غير كتاب الله؛ فهو لذة المتلذذين ونعيم المتنعمين، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم.

إن خير ما يربي به المرء نفسه وخير ما يربي به المربون أبناءهم جلسة خاشعة مع كتاب الله ـ عز وجل ـ خالية من كدر الدنيا، وخالصة من شوائب الحياة، وما أجمل الصلة بحبل السماء يوم تنقطع حبال الأرض! وما أجمل ولوج أبواب السماء يوم تغلق أبواب الأرض! وأعظم ما يكون الأُنس بكتاب الله ـ تعالى ـ حينما تهدأ العيون ويغط الناس بنومهم، فيقوم الصالحون يتلون كتاب الله ـ تعالى ـ بخشوع صادق، وإخبات تام، تحفهم الملائكة بالرحمة، ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

احرص على قراءة كتاب الله وتفسيره وحفظه وتدبره والعيش معه في ورد خاص، ولا تقطع صلتك بكتاب الله، بعيداً عن كل ملهيات الدنيا وصوارف الحياة.

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

الوقفة الرابعة: أرحم الناس بالناس:

أخي الكريم: كم تكون شفيقاً حينما تشاهد منكوباً يتألم، فتتألم لألمه وتبكي لبكائه.

وكم تكون رحيماً حينما تمد يدك بصدق من أجل مساعدته.

وكم تكون أرحم ممن سبق حينما تجهد نفسك في عونه ومساعدته، وتؤثره على نفسك.

لكن اعلم ـ رحمك الله ـ أنك من أرحم الناس بالناس يوم تدعوهم إلى الله، يوم تقدم لهم نور الهداية، وتنقذهم من ظلمة الغواية.

إن الدعوة إلى الله هي مهمة الأنبياء والمرسلين من قبلنا، ولنا الشرف يوم نسلك مسلكهم ونسير على طريقهم، واعلم أن من أعظم الدعوة إلى الله تربية النشء على حب الله وحب رسوله ﷺ، وإبعادهم عن مستنقعات الرذيلة؛ أقول كلامي هذا في وقت انتقص فئام من الناس مهمة المربين ووصموهم بقصر النظر وسطحية التفكير، وتعليم الصبيان.

أخي المحب: إن تربية الشباب على الطاعة والتقوى من أعظم أوجه الدعوة إلى الله التي لا يبصر نتائجها إلا أهل البصيرة الثاقبة الذين وفقهم الله لفهم هذه الأمور، وليرتع أصحاب الفكر السطحي وطالبو النتائج السريعة في حمأة سذاجتهم وليتركوا هذا الأمر لرجاله.

إن المربين هم صُنَّاع الرجال، وهم بنَاؤو الحضارة، ومغيرو مسيرة التاريخ. والدعوة التي تمتلك أكبر قدر من المربين الصادقين هي الدعوة التي يكتب لها البقاء، وترسخ أقدامها في أعماق الأرض، فلا تضرها فتنة إلا أن يشاء الله.

الوقفة الخامسة: لا تكن شمعة!

مسكينة هي الشمعة، كم هو مؤلم أن تحترق ويستفيد الناس من نورها..!

وكم هو مؤلم أن يحترق الداعية للناس فيستنيرون ويذبل هو..!

ما أعنيه هنا هو إهمال المرء تربية نفسه ببلوغه مرحلة من العمر؛ فقد يعتقد بعضنا أن كبر سنه يغنيه عن التربية الفردية لنفسه، أو أن ممارسته لنشاط دعوي يغنيه عن الانتباه لنفسه، وهذا مزلق خطير؛ ففاقد

الشيء لا يعطيه، والداعية في مقام القدوة دائماً فلا بد من أسلوب التربية الذاتية، والحرص على بناء الإيمان، وتعهد القلب بالصلاح وإنماء الورع، حتى لا نكون مثل الشمعة تحترق وغيرنا يتمتع بالإضاءة.

الوقفة السادسة: ميراث الأنبياء!

مع أهمية ما أسلفت من دعوة إلى الله - عز وجل - وعبادة صالحة له، إلا أنها قد تكون وبالاً على صاحبها إذا خلت من أساسها المتين ومادتها الأصيلة وهي العلم الشرعي، قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن كل دعوة - مهما بلغت من نشاط - هي دعوة جوفاء إذا خلت من العلم الشرعي الرصين، بل ربما تكون دعوة إلى الجهل، وما نشأت الجماعات الضالة إلا بسبب الدعوة المفرَّغة من العلم الصحيح.

وكل عبادة على غير هدي النبوة - مهما بلغت من كثرة - هي نقص وخلل وخاصة إذا خلت من العلم الشرعي، وما نشأت فرق الزهاد الضالة إلا بسبب الجهل العريض الذي اكتنف تلك الفرق.

إن في العلم حياة لا يعرف قدرها إلا من ذاق حلاوتها، واستطعم لذتها، وما أحسب أن هناك صفوة في أي مجتمع إلا وكان أهل العلم هم روادها، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

الوقفة السابعة: إخلاص يحتاج إلى إخلاص:

يقول الله - عز وجل -: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] لقد جعل الله - عز وجل - أساس التفاضل هنا الحسن، ولم يجعله الكثرة؛ فالمسألة ليست مسألة كثرة، بل هي نوع وجنس صالح.

وأكمل ما يعين على تحسين العمل ووصفه بالحسن: «إخلاص العمل لله - عز وجل - » بل هو مادة العمل الحقيقية، ومن غيره فوجود العمل وعدمه سواء.

أخي الكريم: كم يعاني الصادقون من قضية الإخلاص، لكن لا بأس؛ فأول خطوات الوصول (المعاناة) لكن لا بد من الصبر والمصابرة والمجاهدة حتى يصل المرء إلى غايته ومطلوبه ولو بعد حين، وإياك والاغترار بالعمل فقد قال بعض السلف: «من ظن أن في إخلاصه إخلاصاً، فإخلاصه يحتاج إلى إخلاص».

أخي الفاضل: إن ما ذكرته سابقاً من وصايا - أنا والله من أحوج الناس إليها - قد تثير في نفسك همة العمل وشِرَّة[1] الإنتاج، وهذا ما أرجوه، لكن قد يعجز المرء في أول أمره فلا بأس، فليعاود ثم ليجاهد ثم ليصابر حتى يبلغ مراده ولا تحسبن أن الأمر سهل ميسر، بل هو غاية قُطعَت من أجلها رقاب وأزهقت أنفس، فأرخص الغالي لها - سددك الله -: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ختاماً: أخي الكريم! أعتذر إليك إن كنت قصرت في نصحك أو أسأت الأدب في وعظك؛ فهذا جهد المقل وأرجو التجاوز والصفح، واعلم - يا رعاك الله - أني ما كتبت هذا الكلام إلا بعد تردد لعلمي بقصور ذاتي وقلة علمي.

وأسأل الله أن يعينني وإياك على تحقيق مرادنا، وأن يتجاوز عنا جهلنا وإسرافنا في أمرنا.

---

(١) الشِّرَّة: النشاط والرغبة.



أزماتنا ... كيف نديرها؟

الإبداع يحل الأزمات

رؤية جديدة في إدارة الأزمات

عرض وتلخيص: أحمد عثمان

المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن البريدي.

دار النشر: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٩م.

عدد الصفحات: ١٧٨ من القطع المتوسط.

مدخل:

كانت الحياة - ولا تزال - تعصف بها ألوان من المشاكل، وأشكال من الأزمات، وكان الإنسان ولا يزال يقاوم أحداثها، وينازل أطرافها، ويكابد نتائجها، يستمر تارة، وينقطع تارة، يبلغ به ذكاؤه إلى أهدافه حيناً، ويقصر به حيناً، ينجح مرة، ويخفق أخرى.

وأخذت الأزمات تتنوع في مجالاتها، وتشتد في خطرها، فجعل الإنسان يستفيد من تجاربه - الناجحة والمخفقة على السواء - وأخذ يصهر ركام خبراته بالنقد البناء، ثم تلقف بعد ذلك اللبنات الصالحة الباقية فشيّد بها بناءاً علمياً تراكمت أجزاؤه عبر الأبحاث العلمية الرصينة والخبرات الحياتية الرائدة، فعلا بناؤه في فضاء المعرفة الإنسانية، واصطُلح على تسميته بـ «إدارة الأزمات».

وبِلُغة ميسرة وأسلوب رصين يهدف المؤلف بكتابته في هذا الموضوع الذي نحن بصدده الآن إلى محاولة إكساب القارئ منهجية إدارة الأزمات من خلال الإجابة على سؤالين رئيسين هما:

١ - كيف ندير الأزمات التي تواجهنا بشكل مباشر في مختلف مناحي حياتنا: في شركتنا، منظمتنا، جامعاتنا، منطقتنا، بيتنا؟

٢ - كيف نحلّل الأزمات التي لا تواجهنا مباشرة ولا نشارك في إدارتها، ولكن نتائجها تهمُّنا وتؤثر علينا في أشكالها الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، والسياسية.

وبعد هذه المقدمة السريعة، ومن أجل الإفادة من بعض أجزاء الكتاب، يمكنني الولوج إلى الموضوع عبر تلخيص بعض النقاط محافظاً في أكثر المواطن وبشكل كبير على أسلوب المؤلف المتميز «مع الإشارة إلى الموطن الذي أنقل منه بين قوسين»:

بعد تجوال في إشكالية التعريف ينتهي المؤلف إلى تعريف مختار للأزمة قائلاً:

«الأزمة هي فترة حرجة أو حالة غير مستقرة يترتب عليها حدوث نتيجة مؤثرة، وتنطوي في الأغلب على أحداث سريعة وتهديد للقيم أو للأهداف التي يؤمن بها من يتأثر بالأزمة».

ثم يعرج المؤلف على أنواع الأزمات:

فيبين أن تصنيف الأزمات وتقسيمها يفيدنا في تعميق التفكير في الأزمة ويلفت الانتباه إلى بعض القضايا الهامة، كأن يقال: هذه أزمة شاملة، أزمة جزئية، أزمة عنيفة، هادئة ونحوها، كما يفيدنا هذا التصنيف في توحيد المفاهيم والمصطلحات عندما نفكر أو نتناقش في أزمة معينة، أما في حالة غياب مثل ذلك التوحيد، فسيكون التفكير الجماعي والنقاش حينذاك كمن يتكلمون بلغات مختلفة غير مفهومة، ومن ثم سيظفر أولئك المتناقشون بـ «لا شيء»!!

وبعد أن يستعرض المؤلف «دور حياة الأزمة» التي يشبهها بالكائن الحي في ولادته ونموه وفتوته ثم ضعفه واضمحلاله، ينتقل بنا في الفصل الثاني إلى معالجة مصطلحين مرتبطين بالأزمات وهما:

إدارة الأزمات أم الإدارة بالأزمات؟

ثمة فرق بين هذين المصطلحين يمكن توضيحه عبر التعريف بهما، وذلك كما يلي:

فإدارة الأزمات Crisis Management بعبارة يسيرة هي: معالجة الأزمة على نحو يمكن من تحقيق أكبر قدر ممكن من الأهداف المنشودة والنتائج الجيدة.

من يدير الأزمة: مدير أم فريق الأزمة؟

والأزمة يجب ألا تدار فقط من خلال المدير الخارق «السوبرمان»، وإنما من خلال فريق خاص Task Force يُختار أعضاؤه بعناية فائقة، ليتم بعد ذلك تدريبهم ورفع مستوياتهم وإكسابهم المهارات اللازمة لإدارة الأزمة.

من هو مدير الأزمة الفعال؟

ومع ضرورة إدارة الأزمة من خلال فريق متكامل، إلا أن مدير الأزمة بذاته يكتسب أهمية خاصة، ويلزم اتصافه بصفات معينة من أهمها أنه ينبغي أن يكون:

- قوي الإيمان بقضية الأزمة، شديد التحمل، ماضي الإرادة.
- يمتلك القدرة على التفكير الإبداعي.
- يتسم بالمهارات القيادية في إدارة فريق الأزمة، وفي الاتصال مع كافة الأطراف ذات الصلة بالأزمة بما في ذلك الطرف الآخر «أو الخصم».

أما الإدارة بالأزمات Management by Crisis فمصطلح يشير إلى: «افتعال أزمة من أجل تحقيق هدف معين».

ومن هذين التعريفين ندرك أنه في «الأزمات المفتعلة» يستخدم مفتعل الأزمة «الإدارة بالأزمات» في حين أن الطرف الآخر يلجأ إلى «إدارة الأزمات»، وهذا لا يعني أن جميع الأزمات مفتعلة من قبل أحد أطراف الأزمة؛ بل قد تكون الأزمة حدثت من جراء عوامل خارجة عن سيطرة ونطاق طرفي الأزمة، ومن ثم يلجأ كلاهما إلى «إدارة الأزمات».

وفي الفصل الثالث يدخل بنا المؤلف إلى صلب الموضوع الهام والذي عنون به الكتاب «الإبداع يخنق الأزمات» كيف ندير أزماتنا؟

إنه يصل بنا إلى كيفية إدارة الأزمات، والتي يقرر أنها ليست أكثر من أن تكون لوناً من ألوان التفكير الإبداعي الذي:

● يتفهم طبيعة الأزمة وإفرازاتها، ويدرك أنواعها ودورة حياتها.

● يتعرف على استراتيجيات التعامل معها وكيفية رسم سيناريوهاتها.

● ويستبطن الوصايا المرعية في إدارة الأزمات.

إذاً فإدارة الأزمات - في رأي المؤلف - تفكير إبداعي واعٍ، ومن ثم يجب التعرف على هذا اللون من التفكير، ونرى الاكتفاء بتلخيص أبرز النقاط

المتعلقة بهذا اللون من التفكير، وذلك كما يلي:

التفكير الإبداعي هو: «عملية ذهنية مصحوبة بتوتر وانفعال صادق ينظم بها العقل خبرات الإنسان ومعلوماته بطريقة خلاقة تمكنه من الوصول إلى جديد مفيد».

ويتميز المبدع بمزايا عقلية ونفسية كثيرة، من أبرزها:

الخصائص العقلية:

أ - الحساسية في تلمس المشكلات.

ب - الطلاقة.

ج - المرونة.

د - الأصالة.

هـ - الذكاء.

الخصائص النفسية:

أ - الثقة بالنفس.

ب - قوة العزيمة وحب المغامرة.

ج - القدرة على نقد الذات.

د - الإيمان غالباً بأنه في «الإمكان أبدع مما كان».

هـ - البذل بإخلاص وتفان.

و - دائم التغلب على «العائق الوحيد».

ز - حب الاستكشاف والاستطلاع بالقراءة والملاحظة والتأمل.

ح - الميل إلى الانفراد في أداء بعض أعماله، مع مهارات اجتماعية.

وفي الفصل الرابع يبدأ المؤلف في تناول كيفية إدارة الأزمات والتي تنتظم خمس خطوات بتفصيل معقول كما يلي:

أولاً: تشخيص الأزمة وتحديد أسبابها:

في هذه الخطوة يجب تحديد الأزمة بدقة، وهنا يجب أن نفرق بين «الأزمة الظاهرية» و «الأزمة الحقيقية»، فالأولى قد يفتعلها الخصم من أجل المناورة وكشف بعض الأوراق بل ربما من أجل استنزاف الموارد وإنهاك القوى.

ومدير الأزمة المبدع يمتلك حساسية بالغة تجاه المشاكل والأزمات، كما أنه يعايشها بصدق وحرارة؛ ليستكشف بهذه المعايشة جوهرها وأبعادها، ويستبصر اتجاهها ومراحلها، ويتلمس أسبابها ونتائجها.

ويُفضّل عند تحديد الأزمة أن تُصاغ في ظل أسوأ الاحتمالات وأفضلها، مما يساعد على الاستعداد لها ورسم كافة السيناريوهات الممكنة.

كيف نشخص الأزمة؟

يفهم من كلام المؤلف أن الأزمة في حقيقتها ليست أكثر من مرض خطير هاجم جسداً فوجده منهك القوى ضعيف المقاومة، ومن ثم كان بدهياً القول بأن التشخيص السليم للأزمة هو بداية الاهتداء للأسلوب الأمثل للتعامل معها، ويمكن تشخيص الأزمة عبر ما يسمى بـ «المنهج الشامل» الذي يقوم على المحاور الآتية:

١ - استقراء تاريخ الأزمة وتصنيفه إلى مراحل.

٢ - عند وصف المراحل التاريخية للأزمة وتحليلها يمكن تفكيك الأزمة إلى الأجزاء المنطقية التي تفاعلت على نحوٍ معين أدى إلى حدوثها، وهذا التفكيك يعرف «بمنهج النظم».

ثانياً: تحديد الأهداف «لماذا ندير الأزمة؟»

ماذا نريد؟ لماذا ندير هذه الأزمة ونتحمس لمواجهتها؟

سؤال محوري وخطير يستلزم إجابة دقيقة من خلال سلوك المنهج العلمي في تحديد الأهداف، ومثل هذه الإجابة قد تبين لنا في بعض الأزمات التي نديرها أن الأهداف التي يمكن تحقيقها متواضعة، ومن ثم فهي لا تستحق الجهد المبذول والتكلفة المتوقعة.

وعند «صناعة الأهداف» في أجواء الأزمة، يجب التأكد من أنها: واضحة ودقيقة، متناسقة، متكاملة، واقعية، قابلة للقياس، وأن تكون الأهداف

من نوع واحد «استراتيجية أو تكتيكية».

ثالثاً: الحد من تفاقم الأزمة:

يقضي التفكير العلمي - بعد تحديد الأهداف - أن نحدِّد البدائل الممكنة، غير أن تصاعد أحداث الأزمة يفرض على فريق الأزمة التفكير في «آلية للحد من تفاقمها» من خلال تحديد بدائل «أولية»، أو «علاجات مسكِّنة» بغية السيطرة على «فيروس الأزمة» بقدر المستطاع والذي ينشر «الخلايا السرطانية» ويعمل على تضخمها.

وهذه الخطوة يجب ألا ننظر إليها على أنها مستقلة عن خطوة تحديد البدائل؛ وذلك أن الأزمة تتصاعد أحداثها بشكل سريع ومخيف، مما يحتم علينا محاولة دمج هاتين الخطوتين عبر طريقتين هما:

١ - قيام الفريق بـ «التفكير الآني» في كلا العلاجين المسكِّن والأساس في وقت واحد أو في أوقات متعاقبة.

٢ - تقسيم فريق الأزمة إلى قسمين: يتولى أحدهما العلاج المسكِّن، ويتولى الآخر - في الوقت ذاته - العلاج الأساس.

رابعاً: تحديد البدائل الممكنة:

في هذه الخطوة سجل كل ما يعن لك من أفكار، ولا تستعجل في محاكمتها وإعدامها، فلقد أثبتت بعض الدراسات المعنية بالأزمات أن كثيراً من الأفكار والبدائل الجيدة التي نفذت في بعض الأزمات قد هوجمت في البداية ووصفت بأنها مثالية أو مجنونة!!

وعند تحديد البدائل يجب على فريق الأزمة أن يطرحوا على أنفسهم بعض الأسئلة التي تعين على توليد أكبر قدر ممكن من البدائل، ومن تلك الأسئلة مثلاً ما يلي:

● ماذا لو فعلنا - أو لم نفعل - كذا...........؟

● هل نغير زاوية التفكير؟ هل «نفكر رأساً على عقب»؟

● هل نستطيع تنفيذها؟ وهل الوقت مناسب لتنفيذها؟ ومن يستطيع مساعدتنا؟

ومدير الأزمة - بل فريق الأزمة - المبدع هو الذي يتخلص من أقفال الإبداع التي تحاول أن توحي لفريق الأزمة بإيحاءات سامة تنتشر في جو الأزمة، فيُخنق الإبداع ويخلفه الجمود ويعتل الجو بالبلادة.

عصف الأزمة ذهنياً:

وقد تتطلب بعض الأزمات حلولاً كثيرة، مما يؤيد استخدام ما يسمى «العاصفة الذهنية» Brain Stormin، وتتلخص في طرح أزمة أو مشكلة معينة على مجموعة من الأفراد، وتمر هذه العاصفة بالمراحل الآتية:

أ - توضيح الأزمة وتجزئتها.

ب - توليد الأفكار وعرضها.

ج - تقويم الأفكار المطروحة.

خامساً: اختيار أفضل البدائل:

بعد تحديد البدائل الممكنة يجب إخضاعها لدراسة علمية، يشترك فيها مجموعة من الخبراء والمتخصصين «فريق الأزمة + بعض المستشارين - إن لزم الأمر».

ويمكن تقييم كل بديل من خلال مجموعة من الأسئلة مثل:

- هل يمكن تطبيقه عملياً؟ وهل نملك القدرة والموارد الكافية لتطبيقه؟

- ما هي تكلفة تطبيقه؟ وكم سيستغرق من الوقت؟

- ما هي الآثار والمخاطر المتوقعة؟ وما هي ردة الفعل المتوقعة للخصم؟

وإذا تم اختيار البديل المناسب فثمة أسئلة أخرى نجيب عليها هي:

- من الذي سيشارك في تنفيذ كل خطوة؟ ومتى؟ وكيف؟ وكم ستستغرق هذه الخطوة من الوقت؟

- ما هي المشكلات التي يمكن أن تنشأ بين الأشخاص بسبب التنفيذ؟

ما هي استراتيجيات التعامل مع الأزمات؟

وبعد أن عرفنا الكيفية التي تدار بها الأزمات يجب أن نتعرف على الاستراتيجيات المتاحة للتعامل معها، وفي الفصل الخامس يناقش المؤلف هذه القضية بإسهاب، ويمكننا عرضها كما يلي:

إدارة الأزمات يجب أن تتم في ضوء استراتيجية معينة، بحيث يقتنع فريق الأزمة بضرورة إدارة الأزمة في ضوئها.

واستراتيجيات التعامل مع الأزمة كثيرة، ولذا كان من الواجب عند اختيار الاستراتيجية مراعاة الأمور الآتية:

● تحديد الموقف من الأزمة: من هو صانع الأزمة؟ ومن هو المستهدف بها؟

● اختيار الاستراتيجية التي تناسب طبيعة الأزمة وإفرازاتها.

● التأكد من أن الاستراتيجية المختارة يمكن تطبيقها في ظل الإمكانات المادية والبشرية المتاحة.

● التعرف على استراتيجية الطرف الآخر.

تم تناول المؤلف أهم الاستراتيجيات على النحو الآتي:

١ - كبت الأزمة:

وتقضي هذه الاستراتيجية بالعنف في التعامل مع الأزمة ومع الطرف الآخر، وذلك بالتدخل السريع ومحاولة وقف أحداثها والقضاء على «مولّداتها» كالأزمة الطلابية التي حدثت في الصين في صيف ١٩٨٩م.

٢ - تفريغ الأزمة:

وهذه الاستراتيجية تعتبر امتداداً لما قبلها، إلا أن الفارق بينهما يكمن في أن الاستراتيجية الأولى تهدف إلى القضاء نهائياً على الأزمة دفعة واحدة، بينما الثانية تروم القضاء عليها تدريجياً لقناعة مستخدمها بضرورة التدرج: إما لتماسك الطرف الآخر وقوته وكثرة أتباعه، أو للظهور إعلامياً بمظهر المتسامح، أو لغير ذلك من الأسباب.

٣ - إنكار الأزمة أو بخسها:

أي أنه لا يتم الاعتراف بوجود الأزمة أصلاً أو التقليل من شأنها بحيث تصور على أنها مجرد «فقاعات هواء» لا تلبث أن تتبدد، ومن ثم فإن هذه الاستراتيجية يصاحبها:

● تعتيم إعلامي لتفويت الفرصة على الطرف الآخر لإقناع بعض من المستهدفين بالأزمة وبخطورتها.

● تحصين الأفراد من هذه الحملات الإعلامية، وإقناعهم بعدم وجود أي أزمة أو التهوين من شأنها.

٤ - عزل قوى الأزمة:

هذه الاستراتيجية تؤمن بالحكمة التي تقبع في «اللاشعور الإنساني» والتي تقضي بقطع «رأس الحية» بغية التخلص من شرها!!

وعبر هذه الاستراتيجية يتم تصنيف قوى الأزمة إلى:

أ - القوى الصانعة.

ب - القوى المؤيدة.

ج - القوى المهتمة بالأزمة.

وبعد هذا التصنيف يتم عزل القوى الصانعة بطريقة أو بأخرى.

٥ - احتواء الأزمة:

وتهدف هذه الاستراتيجية إلى «محاصرة الأزمة» والعمل على عدم استفحالها، عبر امتصاص الضغط المولد لها؛ ففي الأزمات العمالية - مثلاً - يمكن اتباع ما يلي:

● إبداء الرغبة في معرفة مطالب العمال عبر مفاوضات ذكية.

● مطالبة العمال باختيار ممثل لهم في هذه المفاوضات، ومن ثم مطالبة الممثل بتوحيد الرغبات؛ حيث إنها متعارضة، أو المطالبة باستبعاد بعضها؛ لتعذر تنفيذها دفعة واحدة.

● التفاوض مع الممثل بذكاء والخلوص إلى نتائج جيدة.

٦ - تصعيد الأزمة:

وذلك بالعمل على زيادة حدة الأزمة إلى درجة معينة، ويتم اللجوء إلى هذه الاستراتيجية في حالات خاصة ولتحقيق أهداف محددة، مثلاً:

- في حالة الغموض الشديد في الأزمة وعدم ظهور أطراف الأزمة الحقيقية.
- عند الرغبة في تصنيف قوى الأزمة.

٧ - تفريغ الأزمة من مضمونها:

ليس ثمة أزمة بلا مضمون، ومضمون الأزمة قد يكون دينياً أو ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً، أو اجتماعياً أو خليطاً، وهذه الاستراتيجية تقضي بـ «خنق الأزمة» وذلك بامتصاص مضمونها، وجعلها تتنفس بلا هواء، أو بهواء بلا رئة!!

استراتيجية «التفريغ» كثيراً ما تستخدم في الأزمات الدينية والثقافية؛ ذلك أن الدين والثقافة يستعصيان على العنف والإكراه في الأغلب، وهو ما يضطر أحد الطرفين إلى تفريغ الأزمة من مضمونها والادعاء بأنها لا تمت إلى الدين أو الثقافة بأدنى صلة، لتبقى بعد ذلك مهمة الطرف الآخر منحصرة بالتأكيد على هذا المضمون، بل ربما امتدت مهمته إلى إيجاد مضامين جديدة لتشتيت خصمه تفكيراً وتنفيذاً.

وكلام المؤلف العميق حول هذه الاستراتيجية يجعلني أبادر إلى تقرير أن قضية فلسطين وما انتهجه اليهود تجاهها تعد مثالاً جيداً على هذه الاستراتيجية؛ ذلك أن اليهود ما برحوا منذ بدء الأزمة يصورون الصراع على أنه مسألة سياسية لا عقدية وأن الحل تستحيل بلورته وإنضاجه إلا عبر مجلس الأمن وما يسمى بـ «الشرعية الدولية»، حتى مصطلح الأزمة ذاته بات يمارس دوره التضليلي؛ فالصراع القائم هو «الصراع العربي الإسرائيلي»!!

ثمة وصايا يلزم اصطحابها:

بعد أن تعرفنا فيما سبق على ماهية الأزمة، وعلى خصائص فريق ومدير الأزمة الفعال، وبعد أن استعرضنا كيفية إدارة الأزمات في ضوء استراتيجية معينة، بعد هذا كله نكون قد أنهينا أغلب مفردات الإطار النظري لإدارة الأزمات، ليكون من المنطقي في هذا الجزء أن نتعرف على ما هناك من وصايا يلزم اصطحابها عند إدارتنا لأزماتنا.

يقول المؤلف: إن الأزمة بطبيعتها تخلق جواً مفعماً بالضيق والتوتر والانفعال - وربما صاحبه شيء من الشعور بفقد السيطرة على مجريات الأحداث - جواً مشحوناً بالمعلومات المتضاربة والآراء المتناقضة، جواً ربما يبعث بعض الناس على الانكفاء على الذات والانطواء على مصالحه الخاصة.

من هذا الجو «الخانق» تتجلى أهمية استصحاب وصايا تعيد إلى العقول رشدها وإلى النفوس طمأنينتها وإلى الإدارة حكمتها. وهذه الوصايا نستنبطها من النصوص الشرعية، ونفيد مما هو مبثوث في أدبيات إدارة الأزمات، وهي كثيرة، غير أن من أهمها ما يلي: «ذكر المؤلف في الفصل السادس عشر وصايا نذكر منها ثماني وصايا على سبيل الاختصار»:

١ - ما أصابك لم يكن ليخطئك:

هذه الوصية تجعلك تظفر بثمرة «الإيمان بالقضاء والقدر»؛ فالأزمة في حقيقتها مصيبة يبتلينا ربنا - عز وجل - بها تمحيصاً للذنوب ورفعة للدرجات، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وفي حديث جبريل - عليه السلام - أخبرنا الرسول ﷺ عن الإيمان بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[١]، ولذا فإن من

(١) رواه مسلم، ح/ ٩.

الواجب على المؤمن «المتأزم» أن يؤمن بأن أزمته لم تكن لتخطئه، ليستجمع بعد ذلك قواه ويسترد رشده ويلتقط أنفاسه من أجل الشروع في مواجهة أزمته بعد الاستعانة بالقوي الحكيم العليم - جل وعلا -.

٢ - لا تغضب!

لِمَ تغضب وعلامَ تطيش - إن كنت أيقنت حقيقة بأن أزمتك لم تكن لتخطئك؟! يجب أن تؤمن بأنه ليس ثمة سبيل إلى التفكير السديد في حالة «انقلاب الأعصاب» و «تسرّب الحِلْم» و «تبخّر الهدوء» وقد تقول: لا بد أن أغضب؛ فهذه أزمة، ثم كيف لا أغضب؟ بكل بساطة أقول لك: إن أردت ألا تغضب فلا تغضب!! ليست هذه فلسفة ولا سفسطة، وإنما توجيه نبوي كريم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني! فقال ﷺ: «لا تغضب» فردد مراراً؛ قال: «لا تغضب»[(١)].

٣ - كن واقعياً؛ فقد لا تستطيع تحقيق كل أهدافك:

بعد أن يثوبَ إليك رشدُك وتُمسكِ زمامَ عقلك، عليك أن تبادر نفسك بالسؤال:

ما هدفي؟ ماذا أريد بالضبط؟

وبعد أن تحدد أهدافك بدقة احذر من المثالية التي قد توهمك أحياناً بأنك قادر على تحقيقها كلها وفي كل أزماتك التي تديرها، غير أن الواقعية تقضي بغير ذلك؛ فكثيرٌ من الناس - ولعلك كنتَ واحداً منهم - حدَّدوا أهدافاً جيدة ولكنها غير واقعية: إما في عددها أو في مضمونها، ثم راحوا يديرون أزمتهم ويتعبون أنفسهم بغية تحقيقها ثم ما لبثوا أن اكتشفوا أنهم كانوا يحلُمون!! وربما كان ذلك سبباً في عدم تحقيق شيء من أهدافهم!! إذاً فكن واقعياً من البداية وحدد ما تستطيع تحقيقه من أهدافك في ظل الظروف الراهنة وفي ضوء قدراتك المادية والبشرية.

٤ - لا تحرج خصمك!

من الأصول المستقرة في إدارة الأزمات «عدم إحراج الخصم»؛ ذلك أن الخصم في أغلب الأزمات يعتبر شريكاً لا مناص من التنازل له ببعض الأمور، ويرجع هذا إلى عدة أمور من أهمها:

- انتشار الوعي الإداري والإلمام بأصول إدارة الأزمات.
- الثورة المعلوماتية أتاحت لطرفي الأزمة معلومات مهمة عن الأزمة وملابساتها.

ليس ذلك فقط هو الذي يدعو إلى «عدم إراقة ماء وجه الخصم»، بل إن إحراج الخصم قد يؤدي به في بعض الأحيان إلى موجة من التهور والطيش تكون سبباً في احتدام الأزمة وإشعال فتيلها.

ويتفرَّع عن هذه الوصية ويلزم منها وصية أخرى مفادها:

دع خصمك يتنفس!

ذلك أن الاستعجال في مبادرة الخصم قد يلجئه إلى شيء من الاستعجال الذي قد يصاحبه شيء من التهور؛ وذلك من أجل تقديم الدليل على كامل قدرته على الرد الحاسم والمدروس!!

٥ - صعِّد تدريجياً:

من الطبيعي في خضم الأزمة أن يحدد كل طرف بدائل متعددة، وتقضي إدارة الأزمات بالبدء بالأخف منها ثم التدرج فيها حتى البديل الأقوى، ومثل هذا التدرج يفيد في:

- إعطاء الخصم انطباعاً بأنك قادر على الاستمرار في الأزمة بل والتصعيد، مما قد يحمله على التنازل وإنهاء الأزمة بالصورة المطلوبة.
- تجنب توجيه الأزمة نحو العنف.

وهذا يقودنا إلى التأكيد على ضرورة الاقتصاد في استخدام الموارد المتاحة؛ وذلك أن بعض صانعي الأزمة قد يفتعل في البداية أزمة وهمية (كمين)

---

(١) رواه البخاري، ١٠/٤٣١.

بقصد استنزاف الموارد وإنهاك القوى، لتظهر بعدُ الأزمة الحقيقة التي قد لا تكفي الموارد الباقية والقوى الخائرة لمواجهتها!!

٦ - وسّع نطاق استشاراتك:

قال - تعالى - مبيناً أهمية الاستشارة: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وتنبثق هذه الأهمية من كونها تتيح لمدير الأزمة أن ينظر للأزمة بعقلانية أكثر وطرائق تفكير متعددة، ومن زوايا متعددة، وبنفسيات تختلف تفاؤلاً وتشاؤماً.

إن بعضاً ممن يعانون من الأزمات يستشير الكثير من الناس في أزماتهم، غير أنهم في الحقيقة لا يستشيرون إلا أنفسهم ولا يصدرون إلا عن عقولهم. إنهم أولئك الذين يستشيرون من يحاكونهم في طريقة التفكير والتخصص والخلفية الثقافية والاهتمامات!!

٧ - تلمّس دعماً أكبر:

مدير الأزمة الناجح هو من يتلمس دعماً أكبر:

● باستبقاء المؤيدين بقوة من خلال إقناعهم بالقرار الذي تم اتخاذه وبأهمية تأييدهم للقضية التي آمنوا بمشروعيتها واقتنعوا بضرورتها.

● ويجذب أكبر عدد ممكن من المترددين والعمل على زيادة تأييدهم؛ وذلك بإطلاعهم على كافة الجوانب التي تزيل اللبس وتقنعهم بسمو القضية، وبالنتائج الطيبة التي ستسفر عنها الأزمة.

● وبتحييد أكبر عدد ممكن من المعارضين.

٨ - استخر واستعن:

لم يبق لك إلا أن تستخير الله - تعالى - وتستعين به؛ فلقد حكى لنا جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلّمهم الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، ولاحظ أنه قال: «في الأمور كلها» هكذا، أي في عظيم الأمر وحقيره؛ فما بالك بقرار يتعلق بأزمة، وها هو ﷺ يقول لنا: «إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك» الحديث[1].

ثم ختم المؤلف كتابه بفصلين هامين:

الأول: «وهو الفصل السابع» تحدث فيه عن سيناريوهات الأزمة التي عرفها بأنها: «مسلسل متوقع للأحداث والنتائج تجاه قضية معينة»، متناولاً في هذا الفصل كيفية صناعة السيناريوهات وعوامل نجاح مثل هذه الصناعة.

الثاني: «وهو الفصل الثامن»: وهو من أهم فصول الكتاب؛ وذلك لأنه يتعلق بالتطبيق العملي، وقد عرض فيه لبعض التطبيقات العملية الناجحة والمخفقة في إدارة الأزمات؛ فقد عرض في التطبيقات الناجحة:

- أزمة بلقيس «قصة سليمان - عليه السلام - مع ملكة سبأ وكيف استطاع أن ينجح في إدارة تلك الأزمة الرهيبة».

- أزمة دواء التلينول «وقعت أحداثها في الثمانينيات الميلادية وهي أزمة مثيرة».

- أزمة الصواريخ الكوبية والتي تعد الأزمة النموذجية في عالم السياسة والتي وقعت أحداثها في عام ١٩٦٢م بين القطبين آنذاك.

أما التطبيقات غير الناجحة فقد استعرض المؤلف أزمة واحدة فقط هي «أزمة إدارة الأزمات العربية»!!

وما تم عرضه من الكتاب لا يغني عن قراءته واقتنائه لاكتساب المنهجية العلمية في إدارة الأزمات والتعمق في فهم مفرداتها وخطواتها.

والله ولي التوفيق

---

(١) رواه البخاري، ٢ / ٤٠.



الانحراف العقدي في الأدب العربي المعاصر

«دراسة نقدية»

عبد العزيز بن محمد المسلم

كتب الشيخ سعيد بن ناصر الغامدي أطروحة علمية لنيل درجة الدكتوراه بهذا العنوان: «الانحراف العقدي في الأدب العربي المعاصر» (دراسة نقدية). والباحث صاحب عطاء علمي متميز وإنتاج دعوي أصيل؛ حيث ألَّف رسالة في حقيقة البدعة، كما أعدّ مؤلفاً عن حزب البعث، ونشر كتاباً عن زغل الدعاة وغيرها من المشاركات العلمية والفكرية النافعة.

وتأتي هذه الرسالة ضمن الجهود المباركة التي قام بها أهل السنة حكاماً وعلماء تجاه الزنادقة والمارقين، فإذا كان الخليفة المهدي ـ مثلاً ـ قد تتبع الزنادقة في عهده بالسيف، فإن الدكتور سعيداً قد تتبع زنادقة هذا العصر بقلمه بالتعرية والتحذير من شرورهم.

وتتكون الرسالة من مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة وفهارس، وقد زادت صفحات الرسالة عن ألف وسبعمائة صفحة.

ذكر الباحث في مقدمة الرسالة عظم انحراف الحداثيين وشدة وطأتهم، فكان مما قاله: «قضيتهم الكبرى استيراد الآراء النظرية المتناقضة، وتخدير إحساس الأمة بآلاف الدواوين والمسرحيات والرسوم والمقالات النقدية

وغير النقدية، من خلال الإثارة والجاذبية والمتعة الفنية في الشعر والرواية والقصة، وتهريج للمسرح وأصباغ الرسوم، وإذا بنا نرى كل طائفيٍّ - يحمل أحقاده التاريخية على الإسلام - يخفي دمامة معتقده تحت فلسفة الحداثة والعلمنة، ويخرج سمومه القاتلة من أكمام الثوب الأدبي الفضفاض».

وتحدث الكاتب عن اهتماماته ومتابعاته لهذا الموضوع قائلاً: «هذا وقد بدأتُ بهذا الموضوع معتنياً بجمع الكتب فيه منذ أيام الدراسة الجامعية، يوم شعرتُ أن بعض الطلاب قد تأثرت عقائدهم بشكوكٍ قادت بعضهم إلى الانحراف الصريح، وبعضهم إلى الشك في وجود الله - تعالى - والنبوات والمعاد، وكانت لي معهم جولات في القضايا الكبرى.

وفي عام ١٤٠٧هـ سجلت على شريطين مادة علمية في هذا الاتجاه بعنوان: «الحداثة حقائق ووثائق» وكانت ذات أثر بالغ بينت فيها حقيقة هذا الاتجاه وفضحته؛ ولله الحمد.

وفي أثناء هذه المسيرة الطويلة من المرحلة الجامعية وحتى تسجيل هذا البحث جمعت كميات كبيرة من كتبهم ومجلاتهم وقصاصات كثيرة من صحفهم وملاحقهم الأدبية، ولما جئت لكتابة هذا البحث وجدت أمامي ركاماً هائلاً مما هو في ملكي، فضلاً عما في الأندية الأدبية الكبيرة، فعمدت إلى كتب وروايات ودواوين أكابر عتاة هذه النِّحلة، وأعرضت عن التلاميذ الصغار، وقد قرأت بعد تسجيلي لهذا البحث ما يزيد على خمسة عشر ألف صفحة من كتبهم».

وبيّن الباحث أن عنوان البحث في موضوعه يتجه لمعالجة الحداثة، وبداية الحداثة العربية على يد السيّاب أو نازك الملائكة - حسب اختلاف الحداثيين - وكلاهما ظهر في حقبة واحدة ما بين ١٣٦٦ - ١٣٨٠هـ.

ورتب الباحث فصول رسالته على ذكرٍ إجمالي لمعتقد أهل السنة في القضية المتناولة، ثم يذكر الجذور الفكرية للانحرافات العقدية عند أهل الأدب العربي المعاصر، ثم يورد أوجه الانحرافات والشواهد عليها ويعقب ذلك بالنقد والنقض، أو يتركها من غير تعقيب لظهور انحرافها للعيان.

وذكر الباحث الأوصاف التي يستحقها أولئك القوم مثل أوصاف: الضلال، والزيغ، والإلحاد، والسخف، والانحدارات الغثائية.

وساق الباحث في المقدمة الدراسات السابقة لهذا الموضوع؛ حيث عرّفها ونقدها، وتحدث في تمهيد البحث عن شمول الإسلام لكل أعمال الإنسان ومناشطه رداً على تمرد الحداثيين على شرع الله - تعالى - زعماً منهم أن هذا الشرع المنزّل ليس شاملاً لكل الأعمال والمناشط الحياتية، وتحدث أيضاً عن علاقة الأدب بالاعتقاد، وقرر الباحث - بعد دراسة واستقراء - أن كل عمل أدبي لا بد أن ينشأ من عقيدة، وينتج من فكر معيّن وفلسفة معينة للكون

والحياة والإنسان والخالق ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثم سطّر الباحث نبذة عن الانحرافات العقدية المعاصرة في مجال الثقافة والفن والأدب، وأشار ـ في ثنايا هذه القضية ـ إلى الخطوط العامة في مسيرة الانحراف الثقافي والأدبي: كالحملة الفرنسية، والتخلف الاعتقادي والحضاري، وسلطة محمد علي باشا وأثرها، والاحتلال البريطاني الاستعماري.

وأما الباب الأول فعنوانه: (الانحرافات المتعلقة بالله ـ سبحانه وتعالى ـ)، ويتكون من أربعة فصول؛ ففي الفصل الأول تحدّث الباحث عن الانحرافات المتعلقة بالربوبية، ولخّص هذه الانحرافات بما يلي:

١ - نفي وجود الله ـ تعالى ـ والتشكيك فيه.

٢ - نفي كون الله ـ تعالى ـ رباً خالقاً مدبراً.

٣ - نسبة الأبدية للمخلوق والقول بأزلية العالم.

٤ - الزعم بأن الوجود عبث.

٥ - نسبة الخلق إلى غير الله ـ تعالى ـ وتسمية غير الله خالقاً.

٦ - نسبة الربوبية إلى غير الله ـ تعالى ـ.

٧ - السخرية والاستخفاف بالخالق ـ جل وعلا ـ.

ثم بسط الباحث تلك الانحرافات بالأمثلة والشواهد من كتابات الحداثيين، وأتبعها بالمناقشة والتعقيب، واستنفد هذا الفصل قرابة مائة وخمسين صفحة.

وأما الفصل الثاني فعنوانه: المؤلفات المتعلقة بالألوهية؛ حيث كشف المؤلف تلك الانحرافات من خلال عدة مظاهر ومن أبرزها:

١ - نفي ألوهية الله ـ تعالى ـ مطلقاً.

٢ - نفي بعض خصائص الألوهية.

٣ - جحد حق العبودية لله والسخرية بالعبادة ومظاهرها.

٤ - العبودية لغير الله ـ تعالى ـ.

٥ - تأليه غير الله ووصف غيره بالألوهية.

٦ - الحيرة والشك في الغاية من الحياة ووجود الإنسان والزعم بأن وجوده عبث.

٧ - السخرية والاستخفاف بألوهية الله ـ تعالى ـ.

٨ - معاداة السماء ـ ويريدون بها الله ـ جل جلاله ـ والوحي والدين والشريعة.

٩ - احترام الكفر والإلحاد والوثنية والماركسية والعلمانية وامتداحها، ونحوه من نِحَل الكفر والاعتراف بالانتماء إليها، وبلغت صفحات هذا الفصل ما يربو على مائة وسبعين صفحة.

والفصل الثالث؛ حيث كان موضوعه عن الانحرافات المتعلقة بالأسماء والصفات ومظاهرها، ومن ذلك: وصف الله وتسميته بأسماء وأوصاف النقص، ووصفه بما لم يصف به نفسه، ووصفه بما نفاه عن نفسه، والسخرية بأسماء الله وصفاته ومخاطبته بما لا يليق بجلاله.

ومما يحسن ذكره في هذا المقام ما قاله الباحث: «إن من عبث الكلمات والتلاعب بالمصطلحات وغبش المضامين أن يُمتدح المستهزئ بالله والساخر من دينه؛ فإذا قال غيور على دين الله: لِمَ هذا؟ قالوا: نثني على جماليات أدبية، وتراكيب إبداعية.

فليس الإبداع أو الجمال أو التجديد خيراً لذاته، وليس دليلاً على العبقرية؛ لأن الذي يُبدع أو يأتي بعمل من الفن ليس ممدوحاً لذاته، بل إن كان إبداعه وجمالياته على وجه الحق ومن أجل الحق والخير - والتوحيد أساس كل ذلك - فهو محمود، وإن كان إبداعه وجمالياته في صفة الباطل والشر، وتنطوي على الإلحاد والكفر فهو مذموم مخذول.

وسطّر يراع المؤلف الفصل الرابع من التصورات المتأثرة بالوثنيات والديانات المحرفة، وأطال النفس فيه؛ حيث دوّن أكثر من مائتي صفحة في هذا الفصل، ومما قاله في مقدمة هذا الفصل: «قضية تأثر الحداثيين العرب بالعقائد الوثنية واليهودية والنصرانية من أوضح الواضحات، وأجلى المضامين الحداثية في الشعر والدراسة والنقد والرواية».

وتتبُّع كل شواهد هذه القضية مما يعسر ويصعب؛ ولكن نقول قولاً إجمالياً، ثم نتبعه بشيء من التفصيل:

أما الإجمال فإنه يمكن القول: إنه لا يخلو حداثي من التأثر بهذه العقائد الباطلة، إمّا في مجمل اتجاهه وفلسفته، وإما في جزئيات عباراته.

وقد قسم المؤلف الحداثيين العرب إلى ثلاثة أقسام:

١- النصارى العرب.

٢ - الطائفيين ممن لهم نزعة باطنية أو رافضية.

٣ - الشعوبيين؛ حيث أثبت المؤلف أن الحداثيين هم الامتداد الحقيقي للشعوبية؛ إذ أظهروا بغضهم للعرب أمة وجنساً ولغة، مع بغض سافر للإسلام، وإلحادٍ مكشوف.

ومما حرره الكاتب في هذا الفصل: «المسألة الجوهرية أن الحداثيين يسعون جاهدين لتبديل دين الأمة وتحويلها من أمة موحدة إلى أمة وثنية، ومن أمة صاحبة رسالة ودين إلى أمة بلا دين ولا رسالة».

وساق الباحث الشواهد والأمثلة على الوثنية الصارخة في فكر الحداثة والحداثيين، ومن ذلك أن عصابة «شعر» قد اتخذت في سبيل مشروعها الأسطوري الوثني مصطلح الشعراء التمُّوزيين؛ حيث إن «تمّوز» وثن أسطوري استخدم عند الآشوريين على اعتباره رباً للمحاصيل!!

ومما يجدر نقله في هذا الصدد ما قاله الكاتب: «من آثار اعتناقهم للأسطورة وارتوائهم من آبارها، مع وجود أرضية شاكّة في الدين أو جاحدة له: عمدوا إلى الحقائق الثابتة في

الوحي المعصوم في القرآن والسنة الصحيحة فجعلوها من الأساطير، أو من الفلكور الشعبي!!».

وقد تحدث المؤلف عن التصورات الحداثية المتأثرة باليهودية، وبالنصرانية، وبالفرق المنتسبة إلى الإسلام من الباطنية والصوفية الفلسفية والخوارج والمعتزلة والشعوبية والزنادقة، وكشف الباحث بالحقائق عن باطنية طائفة من الحداثيين كأدونيس النصيري، وتوفيق زياد الدرزي، كما بيَّن الباحث الأثر الباطني في شعر البياتي ونزار قباني، وخلص المؤلف في شأن الشعر الصوفي إلى «أن للصوفية تأثيراً واضحاً في أدب الحداثة، وخاصة التصوف الفلسفي المنحرف، وما فيه من عقائد وحدة الوجود والاتحاد وغيرها من الانحرافات الصوفية، ونجد أن أشهر رموز هذا الاتجاه ينالون الحظوة الكبرى عند الحداثيين وخاصة ابن عربي وابن الفارض والحلاج والسهروردي والنفري». واستوعب هذا الباب ثلاثمائة صفحة.

وشرع المؤلف في الباب الثاني تحت عنوان: الانحرافات المتعلقة بالملائكة والكتب المنزلة والأنبياء، وكانت الانحرافات المتعلقة بالملائكة ـ عليهم السلام ـ موضوع الفصل الأول، ويتمثل انحراف الحداثيين في شأن الملائكة بما يلي:

١ - نفي وجود الملائكة.

٢ - وصف الملائكة بما لا يليق بهم والتهكم والسخرية بهم.

٣ - إلحاق أسماء وأوصاف الملائكة بغيرهم.

يقول الباحث في شأن سخرية الحداثيين من الملائكة ـ عليهم السلام ـ: «ومن أساليب أهل الحداثة أنهم يستعيضون عن الأفكار الصريحة بالسخرية والتهكم والاستهزاء، كما أنهم يستخدمون أسلوب الأوصاف الهابطة وغير اللائقة بالشيء الذي يريدون جحده أو التشكيك فيه تحت شعار: «تدنيس المقدس» الذي يعتبرونه أحد أهم إنجازات الحداثة وأهم مشاريعها».

وأما الانحرافات المتعلقة بالكتب المنزلة عامة وبالقرآن خاصة فكانت موضوع الفصل الثاني؛ حيث ذكر الباحث أوجه الانحرافات التي اقترفها المصابون بداء الحداثة حول قضية الوحي، وأنها تدور على ثلاثة محاور:

١ - انحرافات متعلقة بالتلقي.

٢ - انحرافات متعلقة بالفهم.

٣ - انحرافات متعلقة بالتطبيق.

وبسط الباحث الحديث عن جحد الوحي ـ عند الحداثيين ـ والتشكيك في ثبوته، أو ثبوت بعضه، وإرادة القضاء عليه، ومثَّل لهذه القضية مع التفصيل بكلٍّ من: حسن حنفي، وأركون، ونصر أبو زيد، وجابر عصفور، ونزار قباني، وأدونيس، وعبد الرحمن المنيف.

وأما موضوع الفصل الثالث من هذا الباب فعنوانه: الانحرافات المتعلقة بالرسل ـ عليهم

السلام ـ؛ حيث ذكر أوجه انحرافهم على النحو الآتي :

١ - جحد الرسالات والتشكيك في وجود الرسل وفي صدقهم.

٢ - البغض والاستهانة والسخرية بالرسل وأعمالهم وأقوالهم.

٣ - جعل الرسل والرسالات مناقضة للعقل وسبباً للتخلف.

٤ - اتهام الرسل بأقوال الديانات المحرفة.

٥ - إطلاق أسماء الرسل وأوصافهم وخصائصهم على غيرهم.

وعرض الباحث في الباب الثالث الانحرافات المتعلقة باليوم الآخر والقدر، وبلغت صفحات هذا الباب أكثر من مائتي صفحة. وكشف في الفصل الأول منه عن انحرافاتهم المتعلقة باليوم الآخر؛ حيث لخّصها في ثلاثة مظاهر رئيسة :

١ - جحدهم لليوم الآخر، وما وراءه، ونفي البعث، واعتبار موت الإنسان فناءاً لا شيء بعده.

٢ - قولهم بأبدية الدنيا أو بعض ما فيها.

٣ - سخريتهم واستخفافهم باليوم الآخر وما وراءه.

ومما كتبه الباحث في المظهر الأخير قوله : «إن عبارات السخرية والاستهزاء التي يطلقها هؤلاء ليس في حقيقة الأمر إلا عجزاً يلبس ثوب القدرة، وضعفاً يرتدي رداء القوة، وخوفاً من غلب الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي والاستخفاف، وهالة مصطنعة تأتي في ألبسة التقريرات الجوفاء والشتائم الهابطة».

وأما الفصل الآخر فقد تحدث الباحث فيه عن الانحرافات المتعلقة بالقدر، ومن انحرافاتهم فيه :

١ - نفي وجود القدر، ونفي قدرة الله، وجعل القدر خرافة وكذباً.

٢ - ذم القدر والاعتراض عليه، وجعل الإيمان به سبباً للتخلف والتحجر والمهانة والسذاجة.

٣ - التهكم بالسخرية بالقضاء والقدر وبالمؤمنين به.

٤ - نسبة التقدير والقدر إلى غير الله ـ تعالى ـ، وزعم القدرة على تغيير مجرى القدر المكتوب.

٥ - نسبتهم الشرك إلى الله ـ تعالى ـ وتسويغ الرذائل والانحرافات بالقدر.

وتحدث الباحث في الفصل الثالث عن الانحرافات المتعلقة بالغيبيات الأخرى.

وأشار الباحث إلى واقعية الحداثيين التي أوقعتهم في شذوذٍ وجنس وصراع حيواني ونهم وجشع دنيوي هابط؛ وهربوا من الروح الرقراقة التي تميز الإنسان عن الحيوان، لقد أصبحوا واقعيين، نعم! ولكن على مستوى الحيوان. لقد كان فرارهم من كل ما له علاقة بالغيب والروح جعلهم يرتكسون في هذا الخوض الآسن».

وتتجلى انحرافاتهم في هذا الموضوع في عدة أوجه :

١ - جحد الغيبيات الحقيقية الثابتة التي جاء بها الإسلام.

٢ - جعل الإيمان بالغيبيات الحقيقية تخلفاً ورجعية.

٣ - السخرية بالغيبيات الحقيقية وبالمؤمنين بها.

٤ - الإيمان بغيبيات تناسب أهواءهم وضلالاتهم.

وتحدّث الباحث في الوجه الأخير عن الإيمان بما وراء الحس وأنه حاجة فطرية في الإنسان، ولما أعرض الحداثيون عن الإيمان الحق وعن الإقرار بالغيبيات الثابتة اشتغلوا بغيبيات خرافية وتصورات وثنية، كما هو ظاهر في رواياتهم وأشعارهم، وكما بسطه الباحث في الفصل الرابع من الباب الأول (التصورات المتأثرة بالوثنيات والديانات المحرفة).

وختم الباحث أبواب الرسالة بالباب الرابع تحت عنوان: (الانحرافات المتعلقة بالأحكام والسلوك ونظام الحياة)، واستوعب هذا الباب قرابة مائتين وخمسين صفحة، وتحدّث الباحث في الفصل الأول منه عن عبثهم بالمصطلحات والشعائر الإسلامية، ثم بيّن محاربتهم الحكم الإسلامي والدعوة إلى تحكيم غيره ـ كما في الفصل الثاني ـ حيث بيّن أوجه محاربتهم الحكم الإسلامي من خلال ما يلي:

١ - رفض حكم الإسلام وردّه جملة وتفصيلاً.

٢ - زعمهم بأنه لا حكم في الإسلام.

٣ - زعمهم بأن أحكام الإسلام لا تلائم العصر ولا يمكن اعتماد الإسلام نظاماً للحكم.

٤ - الزعم بأن حكم الإسلام سبب للتخلف وعائق في وجه التقدم.

٥ - زعمهم بأن أحكام الشريعة بشرية وليست إلهية.

٦ - قولهم بوجوب فصل الدين عن الدولة وعن الحياة.

٧ - تفسيرهم الإسلام تفسيراً عصرياً.

٨ - السخرية بأحكام الإسلام.

وأورد الباحث في الفصل الثالث سخرية الحداثيين من الأخلاق الإسلامية والدعوة إلى الانحلال والفوضى الخلقية.

وساق الباحث في الفصل الرابع انحرافات الحداثيين في القضايا الاجتماعية والنفسية كالسعي في إفساد المجتمع، وإسقاط مفاهيم الأخلاق من المجتمع، ونفي قيام مجتمع على أساس ديني، والمضادة للأسرة ونظام العائلة.

وختم الباحث هذا الباب بفصل خامس عن انحرافات الحداثيين في القضايا السياسية والاقتصادية؛ حيث استقرأ جملة من انحرافاتهم في القضايا السياسية والاقتصادية فذكر دعوتهم إلى تطبيق النظم السياسية والاقتصادية الجاهلية وإخضاع الأمة لها كالماركسية والليبرالية الديمقراطية الرأسمالية، ثم بين انتماء الحداثيين لأعداء الإسلام والمسلمين

ومؤسساتهم مثل مؤسسة فرانلكين وأثرها في الاتجاه الحداثي، ومجلة شعر وعمالتها للغرب، ودور الجوائز الأدبية والثقافية في اجتذاب أصحاب القلوب المريضة.

وفي خاتمة الرسالة ذكر الباحث نتائج البحث، وبيان أسباب الانحراف العقدي في الأدب العربي المعاصر، ومقترحات لمعالجة الانحراف العقدي في الأدب العربي المعاصر مثل: تحصين أبناء المسلمين بالعلم النافع، والاهتمام بالأدب الإسلامي، وقيام العلماء بدورهم في كشف زيوف تلك الانحرافات، وفضح الرموز المنحرفة، وترسيخ مبدأ الولاء والبراء والمناقشة والحوار مع المغرَّر بهم، والحصول على فتاوى من علماء الإسلام البارزين عن حكم الإسلام في تلك الانحرافات.

لقد تميزت هذه الرسالة بسعة اطلاع كاتبها وتمام نضجه وكمال إدراكه لهذه النازلة المترامية الأطراف، كما أن الرسالة ذات أسلوب أدبي رفيع، ولغة فصيحة وقد أجاد الباحث في وصف هؤلاء الزنادقة بما يستحقونه من أوصاف الضلال والزيغ. وليت الباحث تقدّم خطوة أخرى فبيّن حكم الله - تعالى - في مقالاتهم، وهل يُستتابون أم لا؟

وقد وُفق الباحث في منهجه؛ حيث سار على طريقة منضبطة، وعُني بحشد الشواهد الكثيرة والأمثلة المشهورة لكل مسألة يوردها، ولو أن الباحث أعطى خلاصة في نهاية كل مسألة - كما فعل ببعضها - لكان أرفق بالقارئ وأيسر، وكذا لو عمد إلى ترتيب بعض الفصول إلى مباحث ومطالب لكان أنفع وأكمل، وليت الباحث عقد بحثاً مستقلاً عن العقوبات والمثلات التي حلّت بالكثير منهم ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾. [هود: ٨٣].

إن هذه الرسالة لا تعد تصوراً مهماً ومرجعاً ثرياً في رصد فكر الحداثيين فحسب، بل هي وثيقة علمية رصينة في تاريخ الأدب العربي المعاصر، كما أنها مصدر نافع في التعريف بجملة هائلة من المصطلحات الفكرية والأدبية والتراجم الموثقة لأدباء الحداثة، كما أبدع الباحث في مناقشة الذين يحسنون الظن بالحداثيين، والذين يجادلون عن الذين يختانون أنفسهم.

وأخيراً: فهذه الرسالة قُدِّمت إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام محمد ابن سعود سنة ١٤١٧هـ، ثم نوقشت هذا العام ١٤٢٠هـ عن طريق كوكبة من أهل العلم والاختصاص؛ حيث كان سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ مفتي عام السعودية مقرراً، وكان أعضاء المناقشة كلاً من: فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، وفضيلة الشيخ ناصر بن عبد الكريم المشد، وسعادة الدكتور حسن بن فهد الهويمل.

فجزى الله الباحث كل خير على ما قدّم، وأعانه الله على المبادرة في نشرها بأقرب فرصة، وبالله التوفيق.



تتوالى الإصدارات الحديثة حاملة بين طياتها الجديد في عالم الدراسات الإسلامية، والفكرية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها. ورغبةً منّا في إطلاع قراء - البيان - على ما يتيسر لنا من هذه المطبوعات الجديدة التي نرى فيها الفائدة لقارئها... سيكون لنا - بإذن الله - وقفات مع بعض تلك الإصدارات بين عدد وآخر، والله الموفق.

● **التوضيح لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية (مجلد لطيف)**، للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تصحيح: محمد البسام، دار عالم الفوائد، ١٤٢٠هـ.

الكافية الشافية قصيدة جامعة - لابن قيم الجوزية - اشتملت على ما لم يشتمل عليه كتاب في فن التوحيد والعقائد والأصول، واحتوت على تفاصيل كثيرة لا توجد في سائر الكتب - حتى كُتُب مؤلفها - اكتفى المؤلف بشرح الأبيات المتعلقة بالتوحيد منها؛ اهتماماً منه بما تمس إليه الحاجة، وقد أكثر من النقل لعبارات المؤلف في كتبه؛ لأن أحسنَ ما شُرِحَ به النظمُ هو كلامُ ناظمه.

● **معالم في منهج الدعوة (مجلد)**، للشيخ د. صالح بن عبد الله بن حميد، دار الأندلس الخضراء، ١٤٢٠هـ.

عشر من الرسائل تندرج تحت وحدة موضوعية متقاربة، في ثناياها: مفهوم الحكمة، ونماذج القدوة، وثمرات التعاون، وأثر التوجيه، وأدب الخلاف، وأصول الحوار، ومواقف العزة، وكشف اللبس، وتعليم الخطابة، وأحكام الأذان.

● **الأحكام فيما يختلف فيه الرجال والنساء من الأحكام (رسالة دكتوراه - مجلدان)**، د. أحمد بن عبد الله العمر، دار ابن عفان، ١٤٢٠هـ.

يهدف الكتاب لتنقية الفكر من نتن دعوات مساواة المرأة بالرجل في كل شيء، رغم الاختلاف الحقيقي في التركيب الجسمي والعقلي والوظيفة المناطة بكل منهما، جمع المؤلف الفروق بينهما في أحكام العبادات ضمن أبواب أربعة في دراسة فقهية، فجاءت الدراسة لبنة في بناء صرح علمي فكري متين.

● **الطريق إلى الصحة النفسية عند ابن قيم الجوزية وعلم النفس (بحث تكميلي في مجلد لطيف)**، لعبد العزيز بن عبد الله الأحمد، دار الفضيلة، ١٤٢٠هـ.

الصحة النفسية مطلب تشتد حاجة الناس إليه - لا سيما في وقتنا الراهن - وتزداد مادته حين يدرس من خلال إمام فذّ كابن القيم. قدم الباحث قواعد وتفسيرات ومبادئ تهم الباحثين والعامة، من

خلال المقارنة بين تقريرات هذا الإمام وبين المبادئ النفسية المعاصرة؛ وذلك في أسلوب سهل قريب المنال؛ فجاءت الدراسة نموذجاً للتأصيل الإسلامي في هذا الفن الذي نشأ في غيبة عن المنهج الرباني.

● **الحوافز التجارية التسويقية وأحكامها في الفقه الإسلامي (رسالة ماجستير – مجلد)**، لخالد بن عبد الله المصلح، دار ابن الجوزي، ١٤٢٠هـ.

ترغيب المشتري في الشراء من خلال الوسائل والأساليب التسويقية المعاصرة من: الهدايا والتخفيضات والمسابقات والإعلانات والدعايات وإمكانية رد السلعة والضمان والصيانة والاستبدال من نوازل العصر الملحّة، كيف تخرّج أحكامها؟ وما الضوابط الشرعية العامة للمعاملات؟ هذا ما جاء البحث مجيباً عنه، ووقع على حاجة صارت ظلاً للتجارة المعاصرة لا تفارقه!

● **مقالات في التربية – المجموعة الأولى (غلاف)**، محمد بن عبد الله الدويش، دار طيبة، ١٤٢٠هـ.

تجني الصحوة اليوم بعض ثمرات جهود تربوية مباركة، تشدّ الأمة إلى الإصرار على التربية، وتدعوها إلى تفعيلها، ولما كانت التربية ضرورة لنقل الأحكام الشرعية من مجرد العلم إلى العمل كان إثراؤها بالدراسات ضرورة أيضاً، وقد جاءت هذه المقالات استجابة لها، من خلال العناوين الآتية: صفات المربي، وافتقار العمل التربوي للضوابط الشرعية - النجباء والموهوبون - أخطاء في علاج الأخطاء؛ بقلم معروف باهتماماته التربوية.

● **المال المأخوذ ظلماً وما يجب فيه في الفقه والنظام (رسالة دكتوراه – مجلدان)**، د. طارق بن محمد الخويطر، دار إشبيليا، ١٤٢٠هـ.

تأتي الدراسة في وقت تفاقمت فيه مظالم الأموال بالسرقة والاختلاس والنصب والرشوة والخيانة واحتكار الأموال العامة، فوصّف الباحث تلك الأفعال، وكيّف أوصافها، وحرر شروطها، ودلف إلى ما يترتب على كلٍ من الأحكام الشرعية، والقضائية - مكتفياً بالنظام السعودي -.

● **المحكَمات في الشريعة الإسلامية وأثرها في وحدة الأمة وحفظ المجتمع (غلاف)**، د. عابد بن محمد السفياني، دار ابن الجوزي، ١٤٢٠هـ.

تتحقق مقاصد الشريعة من خلال ما أحكمه الشرع الحنيف وأوضحه وحفظه من المحكمات التي ترعى ضرورات: الدين والنفس والعرض والعقل والمال التي يُحفظ بها المجتمع وتتوحد بها الأمة، ومن خلال المحكمات والأساسيات ينبغي تقديم الإسلام في التطبيق والدعوة؛ منعاً للتفرق المذموم على ما يسع فيه الخلاف. الدراسة تكشف عن أهمية الموضوع من الناحية العلمية الأصولية، والتطبيقية الفقهية يدبجها مختص ذو باع.



أدب ودراسات

بين شعر الأميري والأدب المنحرف

د. خالد بن سعود الحلبي

إن المسلم في صـراع دائم مع نفسه الأمَّارة بالسوء، يجاهدها، ويكشف خططها ومؤامراتها، ويلجم جموحها بزمام المراقبة لله والخشية منه؛ وقد عبر الشاعر الراحل عمر بهاء الدين الأميري ـ رحمه الله ـ عن ذلك في صور شعرية مختلفة، ومن ذلك قوله(١):

تُسَـوِّلُ لـي نَفْـسِي بِأَنَّ ذُنُوبَهَـا ... تُخَـفِّفُ مِن أَطْمَاعِـهَا وَغُـرُورِهَا

وَلَو أَنَّ نَفْـسِي صَحَّ في اللهِ عَـزْمُـهَا ... لَمَا بَطَّنَتْ ثَوبَ التُّـقَى بِفُجُـورِهَا

فَـيَا نَفْسُ خَلِّ المَكْرَ عَنكِ وَسَارِعِي ... إلى رَحْـمَـةٍ قَـدْ لاحَ بَارِقُ نُورِهَا

وقد عمد الشاعر هنا إلى أسلوب التجريد البلاغي؛ حين جرد من نفسه شخصاً آخر؛ ليكيل لها اللوم والتقريع؛ وربما ليومئ إلى الاعتراف بالذنب المبطن بالاعتذار بالطبيعة البشرية، والنفس الأمارة بالسوء، والتي تقررت طبيعتها في الآية الكريمة: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. ولكنه يدعوها إلى الاقتراب من رحمة الله، والتعرض لمغفرته.

وتجلى لنا الصراع أقوى ما يكون في مواجهة الرغبة الجامحة في المعصية في قول الأميري في مقطوعته (لفح السعير)(٢):

(١) ديوان: مع الله: ٦٣.

(٢) مخطوطة غير مصنفة في ديوان، محفوظة في مكتبة الشاعر في الرباط.

أُحسُّ اختناقاً بأعْمَاقِ رُوحِي ... إذَا طَافَ بِي طَائِفُ المَعْصِيَةْ
كَأنَّ الجِبَالَ عَلَى أضْلُعِي ... ولَفْحَ السَّعِيرِ بأنْفَاسِيَهْ
مرَانُ البَرَاكِينِ في غَوْرِ قَلْبِي ... تَثُورُ، وَتَنْفُثُ في قَلْبِيَهْ
فَأبْغِي نَجَاتِي وَلَو بِمَمَاتِي ... لأعْتَقَ مِن شَهْوَةٍ عَاتِيَهْ
وألْقِي كِيَانِي إلى مَنْ بَرَانِي ... لِتَرتَاحَ نَفْسِيَ مِنْ نَفْسِيَهْ

وكما نرى في هذه الأبيات فإن الشاعر لم يتأثر بالفكر النصراني المندس في الشعر المعاصر؛ حيث راح بعض شعراء العربية حتى من المسلمين يقلدون الغرب الصليبي في استيحاء الفكرة الباطلة التي تقرر: توارث بني آدم خطيئة أبيهم؛ وأن (الخلاص) يكون عن طريق (المسيح) ـ عليه السلام ـ، ولذلك كثر في شعرهم الرمز بالصليب والمسيح ونحو ذلك؛ كما نجد عند نزار قباني، ومحمود درويش، وصلاح عبد الصبور، وعبد الوهاب البياتي الذي يقول[1]:

خَطِيئَةٌ مَا بَرِحَتْ نَارُهَا ... تَطْلُبُ مِن مُوقِدِهَا المَغْفِرَهْ
لَوْ عَادَ لِلْعَالَمِ أمْوَاتُهُ ... لاحْتَضَنُوا فِي أرْضِنَا المُزْهِرَهْ
ألْفَ يَسُوعَ فِي جِرَاحَاتِهِ ... مَاتَ لِتَحْيَا فِكْرَةٌ نَيِّرَهْ

وتعجُّبي: كيف يقول مسلم ببقاء خطيئة غفرها الله بنص قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]؟ وكيف يؤمن مسلم بصلب المسيح ـ عليه السلام ـ، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]؟ وغير خفي إعراض الشاعر حتى عن اسم المسيح ولقبه في القرآن، إلى اسمه في كتب النصارى.

فإن الأميري برؤيته الإسلامية الناصعة حسم هذا الموقف بقوله[2]:

كَانَتْ الزَّلَّةُ وَالتَّوْ ... بَةُ وَالعَفْوُ الرَّحِيمْ

فالزلة حدثت من (آدم) ـ عليه السلام ـ، والتوبة أعقبتها منه، وتلاهما العفو الإلهي الرحيم.

وخُتِمَ الأمر، ولم يبق إلا الإغراء الشيطاني، ونزغات النفس الأمارة بالسوء، أما أسطورة الخطيئة والتكفير فلا وجود لها في الإسلام الذي قرر: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[النجم: ٣٨].

وما كان لعيسى ـ عليه السلام ـ أن يؤثِّر في العالم بعد أن رفعه الله إليه، إلى أن ينزل في آخر الزمان.

---

(١) ديوان عبد الوهاب البياتي: ٣١٤.

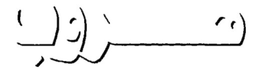
(٢) ديوان: ملحمة الجهاد: ٢٢.



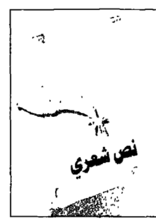
أحمد بن حنبل «رحمه الله»

د. محمد بن ظافر الشهري

سيكون للديدان قوتاً في غدِ ... فاجلِدْهُ يا سجّانُ أو لا تَجْلِدِ
قد بعتُ هذا الجسمَ واللهُ اشترى ... ومَن اشتراهُ اللهُ لم يَتردد
لو حرَّقوني لم أكن مستبدلاً ... ديناً مَرِيسِيّاً بدين محمدِ
لو فُهتُ بالكفر اتّقاءَ عذابهم ... مَا حيلتي في ألفِ ألفِ مُقلّدِ
ما ضرني سجني ولا قيدي وفي ... قلبي أرى حريتي لا في يدي
ظنوا سيوفهمُ تُبيد عقيدتي ... فقتلتُ بدعتهم بغير مُهنَّدِ
حقٌّ على العلماء ألاّ يكتموا ... ما جاء في القرآن أو في المُسندِ



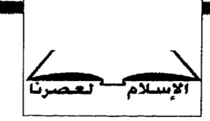
رأى الناسُ فيما يرى النائمونَ ... وللنومِ في الشرع حكم الجنون
كأنّ اليهود غداً يجنحونَ ... لسلْمٍ وبعد غدٍ يُسْلِمون
وأنهُمُ يوقفون البناءَ ... وها همْ أولاءِ مضوا يبتنون
وأن اليهودَ إذا غادروا ... سيخلفهم بشرٌ يَرْحَمون
فلما صحوْا علموا أنهمْ ... رأوْا صُوراً أبداً لن تكون
فَفَرُّوا إلى النوم أُنْساً به ... فقد وجدوا فيه ما يشتهون



دعونا نراهم بخفاقنا

محمد سعد دياب

إذا ما شَبِعْنا فَيا ليْتَنا / نُسافِرُ هَمّاً ولكنْ لِمَنْ؟
لِسِرْبِ الجِّياعِ بَرَى جِسمَهم / جَحِيمُ الزَّمانِ وَلَيْلُ المِحَنْ
سَرَى الجُوعُ يسحقُ أضلاعهم / ونحنُ تَخِمْنا ببطنٍ يئنْ
لقد داسَ أعناقَهم ذُلُّهُ / مَراراتُهُ أنهرٌ مِنْ شَجَنْ
هياكلُهُمْ ناتئٌ عظمُها / فُؤادٌ كسيرٌ وَجَفْنٌ وَهَنْ
أناخَ الشَّجا رحْلَهُ ساكباً / بحاراً تَدَفَّقُ مُرَّ الحَزَنْ
يُطلُّ الأسى مِلءَ شريانِهِمْ / فَبانَ الشَّقاءُ بِهِ مُرْتَهَنْ
فلا الصُّبحُ صَبحٌ يُنيرُ الدُّجَى / ولا الدَّرْبُ إلا الضَّنَى والوَهَنْ
يرون سِواهُمْ تُحِيطُ بهم / غدائرُ نُعْمَى وفجرٌ أغَنْ
وهمْ كأسُهُمْ بَحْرُ صَابٍ هَمَى / ودمعٌ غزيرُ الشَّجا ما وَهَنْ
بِكُلِّ وريدٍ ثَوَى عَلْقَمٌ / أراقَ اللَّظَى في الحَشا وَاقْتَرَنْ
حياةٌ هُنَيْهاتُها حَنْظلٌ / مُقِيمٌ بأحْداقِهِمْ ما ظَعَنْ
دَعُونا نُفَكِّرُ يا إخوتي / نُحِسُّ بِهِم لحظةً من زمنْ
دَعُونا نراهمْ بخفّاقنا / ونعطيهِمُ القوتَ مِنْ دون مَنْ؟
لنرحمَ طِفْلاً قَضَى لَيْلَهُ / يُصارِعُ عُمْراً غريبَ الإحَنْ
نُقِيلُ بِهِ عَثْرةً زعزعتْ / يقيناً وقلباً عَسَى يَطْمَئِنْ
وَيَبْقَى نَدَى الأَجْرِ نهفو لهُ / فما ضاعَ للأجْرِ يوماً وَطَنْ



الدعوة ووسائل الاتصال الحديثة

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

إن وسائل الاتصال الحديثة آية دالة على صدق النبوة المحمدية، وهي فرصة كبيرة لنشر الرسالة المحمدية، لكنها أيضا أكبر تحدٍ يواجه الدعاة إلى هذه الرسالة.

أما كونها آية فلأنها جعلت بلدان العالم كلها بمثابة البلد الواحد الذي كان يرسل إليه كل نبي قبل محمد ﷺ، وفي هذا دلالة على أن الذي أرسل محمداً رسولاً للناس كافة لا لقومه خاصة هو الخالق - سبحانه - الذي كان يعلم أن العالم كله سيصير بمثابة القرية الواحدة، فلا يحتاج إلى تعدد المرسلين، ولا يحتاج إلى رسول بعد الرسول الذي تعم دعوته شعوب العالم أجمعين. لقد كان هذا التقارب بين بلاد العالم قد بدأ مع مبعث النبي الخاتم ﷺ، لكنه ظل يزداد ويزداد مع تطور وسائل المواصلات والاتصالات، حتى وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا، وربما تشهد العصور التي تلينا تقارباً أكبر، بسبب تطور أكثر في مجال الاتصالات. فمَنْ غيرُ الخالق - سبحانه - كان يعلم آنذاك أن هذا سيكون؟ إن الترابط بين شعوب العالم الذي أحدثه هذا التطور الكبير في وسائل الاتصال ليس إذن مجرد أمر دنيوي بالنسبة للمسلم، وإنما هو أمر يتصل بصميم عقيدته؛ لأن فيه دليلاً يضاف إلى الأدلة المشيرة إلى صدق رسوله ﷺ.

وأما كونها فرصة لنشر الدعوة فأمر لا يكاد يحتاج إلى بيان. إن الكتب تطبع الآن بأسرع مما كانت تطبع به في الماضي، وتنتشر على نطاق أوسع مما كانت تنتشر به، والكلمات لم تعد تقتصر كتابتها بحبر على ورق، وإنما صارت الملايين منها تكتب في أقراص مدمجة يسهل حملها، ويسهل الوصول إلى المادة المكتوبة فيها. والكلمة المنطوقة لم يعد ينتهي صوتها بانتهاء النطق بها، وإنما صارت تسجل على أشرطة مسموعة وأخرى مرئية مسموعة، والرسائل لم تعد تحتاج إلى بريد بالجِمال أو بالسيارة أو الطائرة أو القطار، وإنما صارت ترسل في لحظات عبر الفاكس والبريد الإلكتروني. ثم الشبكة العالمية (الإنترنت) التي تجمع لك هذا كله، أعني: الكتابة والصوت والصورة والإرسال السريع والحفظ. وقد استفاد الدعاة بحمد الله - تعالى - من كل هذه الوسائل، فسُجِّل كتاب ربنا بأصوات عدد من كبار قرائنا، وسجلت بعض أحاديث الرسول ﷺ، وها نحن اليوم نستمع إلى دروس كبار شيوخنا ومحاضراتهم حتى بعد وفاتهم، وأما الشبكة العالمية فقد استفادوا منها هي الأخرى أيما فائدة، وما تزال المواقع الإسلامية تفتح فيها يوماً بعد يوم، وما تزال المادة الإسلامية المعروضة فيها في ازدياد مطرد. وقد سمعت عن أناس ورأيت أناساً هداهم الله - تعالى - عن طريق هذه الوسيلة. وقد كان المسلمون في البلاد الغربية يشكون من أن الصحف والمجلات لا تفتح لهم مجالاً للنشر فيها حتى عندما يكون المقال رداً على افتراء على الإسلام، فإذا هم اليوم يكتبون ما يشاؤون على صفحات هذه الشبكة. لكنني ما زلت أرجو أن يزداد اهتمامنا بها واستفادتنا منها، وأرجو أن يأتي يوم قريب تكون فيه كل

المراجع الإسلامية متيسرة فيها، وأرجو أن أرى فيها مقررات في شتى الفنون الإسلامية تأخذ بيد الراغب من المستوى الابتدائي وتتدرج به حتى توصله إلى المستوى الجامعي. وأرجو ان يأتي يوم تتحول فيه جامعتنا الامريكية المفتوحة، وأختها كلية لندن المفتوحة، إلى جامعة اسلامية عالمية تضاهي الجامعات المفتوحة الكبرى كالجامعة البريطانية التي يبلغ عدد طلابها أكثر من مئتي الف، أرجو أن يدرك المحسنون. وأن تدرك المنظمات الإسلامية في عالمنا الإسلامي أهمية مثل هذا التعليم الذي يسمى بـ (التعليم عن بعد)، والذي يصفه بعض رجال التربية الغربيين بأنه نظام المستقبل، فيولونه عنايتهم ودعمهم حتى تكون الدراسة في جامعته مجانا، وحتى يوفر العلم الشرعي للراغبين فيه أنّى كانوا على وجه الكرة الأرضية.

وأما كونها تحديا عظيما:

فأولاً: لأنها كما يسرت لنا إيصال دعوة الإسلام إلى غير المسلمين، فقد سهلت لغير المسلمين ـ ولا سيما الغربيين ـ إيصال دعوتهم إلينا، وبما أن إمكاناتهم المادية هي اليوم أكبر من إمكاناتنا، وبما أن إدراكهم لأهمية هذه الوسائل الحديثة أكبر من إدراكنا فإن ما يوصلونه إلينا يفوق كثيراً ما نوصله إليهم، بل إنهم لا يحتاجون إلى الاقتصار على الخطاب المباشر من الغرب إلى الشرق الإسلامي؛ لأن لهم عملاء في بلادنا هم من بني جلدتنا ويعربون بألسنتنا، ويكتبون في صحفنا، ويتكلمون في إذاعاتنا ويظهرون في قنواتنا، ولا همَّ لهم إلا دعوتنا للسير في ركاب الغرب، في نظمنا السياسية، وأوضاعنا الاقتصادية، وقيمنا الخلقية، ونظرياتنا التربوية، وأساليبنا الأدبية، ونظرتنا التاريخية، بل وتصوراتنا الدينية، يعطون الكلمات العربية والمصطلحات الإسلامية ـ مثل الأصولية ـ معاني كلمات غربية ثم يكررونها ـ بذلك المعنى الغربي ـ على مسامعنا ليل نهار، واصفين بها كل مستمسك بدينه من الافراد والدول والجماعات ليُدخلوا في روْع الناس أن مسلك هؤلاء وطريقهم هو الطريق الشاذ، وأن المسلم المعتدل إنما هو ذلك الشخص الذي يأخذ دينه مأخذ الغربي الليبرالي ـ أو حتى العلماني ـ للدين.

وثانياً: لأنها لا تفتأ تذكِّر المسلم بأن أكثر الناس على وجه الأرض ليسوا مسلمين، وأن أقوى دول الأرض سلاحاً واقتصاداً وأكثرها لذلك تأثيراً ليست دولاً مسلمة، بل وأن معظم الدول الإسلامية قد نهجت نهجها العلماني في نظمها السياسية وقوانينها، وكثير من نواحي حياتها الآخرى. وفي البشر ضعف يجعل من الشاق عليهم مخالفة الأمر الشائع حتى لو كان في نطاق قرية، أو مجموعة محدودة من الناس كما كان الأمر في الماضي، فكيف إذا أصبح مخالفة لأكثر سكان العالم وأكثر دوله؟ إن هذا الضعف قد يصل بالإنسان إلى مجاراة الأكثرية في إنكار أمر هو موقن بأنه حقيقة لا ريب فيها؛ ألم يقل الله ـ تعالى ـ لرسوله موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فلا يصدَّنَّك عنها من لا يؤمن بها واتَّبع هواه فتردىٰ﴾ [طه: ١٦]، والإنسان قد يدفعه هذا الضعف إلى الضيق بما يعلم أنه الحق إذا رأى الناس يعترضون عليه باعتراضات مهما كانت واهية. ألم يقل الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ: ﴿فلعلَّك تارِكٌ بعْض ما يُوحىٰ إليْك وضائقٌ به صدْرُك أن يقُولُوا لوْلا أُنزِل عليْه كنزٌ أوْ جاء معهُ ملكٌ إنَّما أنت نذِيرٌ واللَّهُ علىٰ كُلِّ شيْءٍ وكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، إن الله ـ تعالى ـ لا يرسل رسولاً تصده أهواء الناس عمَّا أوحى إليه ربه، أو تحمله اعتراضاتهم على الكف عن تبليغ بعض ما أنزل الله إليه، لكن في تذكير الرسل بعد الوقوع في مثل هذا النوع من الضعف دليل على أنه يقع من غيرهم، حتى لو كان من أتباعهم، وإذا كان الله ـ تعالى ـ يذكِّر رسله بعدم الاستسلام لمثل هذا الضعف فإن غيرهم أوْلى بأن يذكَّر ويذكِّر.

لكن حتى هذه الجوانب التي تبدو ضارة في وسائل الاتصالات الحديثة لا تخلو من نفع فيما يبدو لي، بل يمكن أن يُستغَل كثير منها استغلالاً حسناً لمصلحة الدعوة إلى الإسلام، وأرجو أن أبين هذا في مقال قادم بإذن الله وتوفيقه.

وقفات

كيف نخاطب الجماهير؟

(٢-٢)

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

ذكرتُ في الحلقة الماضية ضرورة إعادة النظر في خطابنا الجماهيري، وأثرت أربعة أمور، هي: (الإيمان بالهدف)، و (الحذر من الخيلاء وحب الرياسة)، و (الحذر من الانسياق الأعمى خلف العامة)، و (الدقة في الخطاب)، وفي هذه الحلقة أنبه إلى أمور أخرى إتماماً للموضوع.

خامسا: الحذر من التعلق بالأشخاص:

من الآفات المزمنة التي تظهر عند كثير من الجماهير؛ سواء أكان ذلك على المستوى الفكري أم الدعوي أم الاجتماعي أم الفقهي... ونحوها: التعلق بالرموز والانكفاء عليها، والشعور بأن هؤلاء وحدهم القادرون على إحياء الأمة والنهوض بها من كبوتها، فإذا عجز هؤلاء أو حبسهم العذر أصيب الناس بالإحباط، وثارت في كوامنهم دواعي العجز والحيرة. ويؤدي التعلق بالأشخاص أحياناً إلى ازدراء مصلحين آخرين ربما لا يقلون عن غيرهم أصالة وفهماً وقدرة. وقد يؤدي هذا التعلق إلى طمر الإمكانات الكامنة في بقية الأفراد، أو عدم استغلال الفرص السانحة لهم.

وقد يُرسِّخ هذا المفهوم بعض هؤلاء الرموز، ويدفع الناس إلى تقليده وتعظيمه، بلسان المقال حيناً، وبلسان الحال أحياناً أخرى. والتقليد قاصمة من القواصم التي تقتل كل ملكات الإبداع والتفكير، وتحول الجماهير إلى مجرّد قطعان هائمة يسوقها الراعي ذات اليمين وذات الشمال، وهي تستجيب له بكل دعة وخنوع. والنجاح الحقيقي للمصلحين ليس بالقدرة على أن يصرفوا وجوه الناس إليهم فحسب، بل بالقدرة على إحيائهم واستنبات البصيرة في عقولهم؛ فمن تبعهم تبعهم بحجة وبرهان. ولذا فإن الواجب على هؤلاء المصلحين أن يرسخوا ضرورة ارتباط الناس بالمنهج الصحيح وليس بذواتهم.

سادسا: وضوح الرؤية:

تتم مخاطبة الجماهير عند بعض المصلحين بطريقة تلقائية رتيبة؛ حيث لا توجد لديهم رؤية واضحة، ولا يدرون خلالها ما الأهداف ذات المدى البعيد التي يريدون الوصول إليها؛ وقد ترى أن كثيراً من طروحاتهم الفكرية والدعوية مبنية على خواطر مشتتة تطرأ على أذهانهم من هنا أو هناك، بل تلمس أحياناً أن بعضهم لا يعطي لنفسه فرصة التفكير في برنامجه العملي، ولهذا تراه يجتر كثيراً من أقواله وأقوال غيره بدون بصيرة!

إن وضوح الأهداف يعين كثيراً في الاعتبار بالماضي واستبصار الحاضر واستشراف المستقبل، ويدفع المرء إلى رسم أطر واضحة يعرف فيها بدقة: ما الموضوعات التي سوف يتحدث عنها؟! وما القواعد التي يريد بناءها؟! وما الأمراض الفكرية والمنهجية التي يقصد معالجتها؟! وما أنسب السبل لتحقيق ذلك؟ ويعرف في ذلك الأولويات التي ينبغي البدء بها، ويحدد طريقة المعالجة، ونحو ذلك مما يعدّ من البدهيات المنهجية التي لا غنى عنها.

سابعا: تلمس احتياجات المخاطبين:

احتياجات الناس المنهجية والفكرية والعملية كثيرة جداً، ويتميز المصلح الجاد بقدرته على تلمس احتياجات الناس، وكم من الأشخاص الذين اعتادوا على مخاطبة الجماهير تراهم يشرّقون ويغرّبون، ويتحدثون عن أشياء كثيرة، لكنهم بعيدون عن نبض الشارع واهتمامات الناس.

ومعلوم بأن المستمع قد يقترب من المتحدث كثيراً، ويألفه في بداية أمره، لكنه يبتعد عنه شيئاً فشيئاً إذا فقد المادة الأصيلة المتجددة التي تشبع حاجاته وطموحاته، ولا شك بأن الذي يشدُّ الجمهور ويوثق صلتهم بالمتحدث هو شعورهم بالحيوية والتجدد، وهذا - فيما أحسب - أحد المعايير الرئيسة للاستمرارية والبقاء.

ثامنا: الحذر من الاكتفاء بالخطاب العاطفي:

يغلب على كثير ممَّن يعتني بمخاطبة الجماهير اعتماد الخطاب العاطفي الذي يُبنى على استثارة المشاعر، ولا شك بأن هذا مطلوب ولا غنى للناس عنه، ولكنه وحده لا يكفي على الإطلاق، بل إن الاكتفاء به وحده قد يؤدي إلى خلل في البناء. نعم قد تجمِّع العاطفة أناساً كثيرين، ولكنها وحدها لا تحيي أمة، ولا تبني رجالاً، ولا تجعلهم يثبتون أمام الأعاصير والفتن.

كثيرون أولئك الخطباء والمصلحون الذين يستطيعون تجميع الناس واستثارة عواطفهم، ولكنّ القلة القليلة منهم هي القادرة على إعادة بنائهم وتشكيل عقولهم وصناعتهم من جديد. وإنّ من أكبر التحديات التي تواجه دعاة الإصلاح: هي القدرة على توظيف الطاقات، واستثمارها في البناء والعطاء، وكم هي الطاقات المهدرة التي طالما استهلكت في التصفيق والصراخ والهتافات الساخنة أو الباردة!

ولذا كان ممّا ينبغي على دعاة الإصلاح إدراكه أنّ من واجبهم التأثير الفكري والمنهجي على الجماهير، ورفع مستواهم الثقافي، وإحياء الوعي في صفوفهم، وتربيتهم تربية راسخة عميقة، والانتقال بهم من مرحلة تكثير السواد إلى مرحلة العطاء والوعي الإنتاجي.

يخيَّل لبعض المصلحين حينما يرى أتباعه يحيطون به من كل جانب أنّه لو دعاهم لتحرير القدس لما تخلف منهم رجل واحد، ولخاضوا ألوان المخاطر لتحقيق هذه الغاية العظمى، ولكنه يفاجأ بأنّ كثيراً منهم سرعان ما يتخلف عنه ويتعذر بمعاذير واهية عند أول عقبة قد تواجهه في مسيرته! ولست هنا أدعو إلى ترك الجماهير أو عدم الثقة بهم، ولكنني أدعو إلى تغيير آلية الخطاب ليستوعب المتغيرات الاجتماعية والفكرية الحديثة.

لقد ظلت الجماهير عقوداً متتابعة مغيَّبة يعبث بعواطفها أدعياء التحرر والوطنية، وها هنا يأتي دور المصلحين من جديد لإعادة تشكيل عقولهم وصناعة أفكارهم، ولا شك بأن هذا يتطلب جهداً كبيراً ونَفَساً طويلاً.

تاسعاً: الارتقاء بمستوى الخطاب:

كثير من الطروحات التي نسمعها من الخطباء وأمثالهم تعالج هموم العامة ومشكلاتهم، وتتوافق مع طموحاتهم وتطلعاتهم، ولا شك بأن هذه الطموحات محدودة، وتدور في أطر ضيقة، وقد يغفل بعض أولئك الخطباء عن مخاطبة طبقات أخرى في المجتمع، ولا بأس أن يوجد من يتخصص في مخاطبة العامة ويقصر اهتمامه في دائرتهم، ولكن ليس من المقبول على الإطلاق أن يتوجه أكثر خطبائنا إلى هؤلاء ويغفلوا عن الدوائر الأخرى!

إننا نعيش في عصر الانفتاح الإعلامي الذي أدى إلى انفتاح اجتماعي وفكري عريضين، وأصبحت قوة الخطاب وجاذبيته والتزامه بالمنهجية العلمية من أهم أدوات التأثير الفكري، وأعتقد بأن الارتقاء بمستوى الطرح والمعالجة في غاية الأهمية، فما يصلح في المدرسة قد لا يصلح في الجامعة، وما يصلح في المسجد قد لا يصلح في وسائل الإعلام، وما يصلح في هذا البلد قد لا يصلح في البلد الآخر.. وهكذا، وأذكر أنني استمعت ذات يوم إلى برنامج حواري اشترك فيه أحد المفكرين الإسلاميين مع مفكر ليبرالي، فآلمني جداً أن صاحبنا كان يتحدث بلغة عاطفية خطابية هزيلة، بينما كان يتحدث ذلك الليبرالي بطريقة مركزة تتسم بالذكاء والمراوغة، شعرت من خلالها أنّه يعرف ماذا يريد، ولا شك بأن الفتنة بمثل هذا كبيرة لجمهور عريض من العامة!

الحرب القذرة في الشيشان والمتواطئون

د. يوسف الصغير

يعيش العالم الإسلامي اليوم مرحلة مخاض صعبة تبشر بقرب ظهور الأمة الإسلامية على السطح من جديد مع مقاومة شديدة من قوى البغي المختلفة لظاهرة الانبعاث الجديدة؛ فأعداء الحق حريصون على بقاء العالم الإسلامي غائباً عن التأثير على مجريات الأحداث العالمية؛ بل والغياب حتى عن قضاياه الخاصة.

لقد كانت الأمة غائبة تقريباً عن أحداث البوسنة وكوسوفا وكشمير وجنوب الفلبين وجنوب السودان والصومال وغيرها. ونقصد بالغياب: هو عدم القدرة على توجيه الأحداث والتأثير على مواقف الدول. ولنضرب مثالاً بسيطاً: في حالة البوسنة أجري استفتاء وأعلن على أساسه استقلال البوسنة عن الاتحاد اليوغسلافي، وقام الصرب بحرب إبادة ضد المسلمين، وكان دور الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة التغطية على عملية الإبادة ومحاصرة المسلمين ومنع السلاح عنهم؛ ومع تطاول الحرب واستقتال المسلمين في البوسنة تكوَّن رأي عام ضاغط في العالم الإسلامي، وعقدت مؤتمرات إسلامية حرص الغرب على أن يرسل مندوباً سامياً يؤثر في مجريات الأحداث، ويمنع اتخاذ مواقف مؤثرة في رفع الظلم والحصار عن المسلمين.

وكان غياب جنود من العالم الإسلامي عن تركيبة القوات الدولية العاملة في البوسنة في بداية الأحداث مقصوداً، وفي المقابل فبمجرد إجراء استفتاء - فيما بعد - في تيمور الشرقية على الاستقلال عن إندونيسيا تدخلت قوات تستظل بعلم الأمم المتحدة، واحتلت الإقليم، وفرضت استقلاله وانفصاله بدعوى تحقيق رغبة شعب تيمور الشرقية بالانفصال.

إن نفاق من يسيِّر الأمم المتحدة ليس له حد ولا مثيل؛ فأين هذه القوات عما يحدث في بقاع كثيرة من بلاد المسلمين؟ وهل هناك شك في رغبة المسلمين في كشمير في الانفصال عن

الهند؟ وهل هناك أدنى ريبة في تضحيات المسلمين الجسيمة في جنوب الفلبين وفطاني؟ ولكن السيد مشغول عن صيحات المسلمين بالإنصات إلى (جون قرنق) ومحاولة إقناعه بالتواضع في مطالبه ليمكن تحقيقها؛ فهو يريد حكم السودان بأجمعه، وهم يحاولون إقناعه بما يمكن تحقيقه بسهولة حسب ظنهم وهو الاقتصار على جنوب السودان.

ولسائل أن يسأل: فما بال الشيشان؟

والجواب: أنه لا يختلف كثيراً؛ فهناك حضور قوي وتداعٍ من الأمم: إما للحفاظ على مصالحها، وإما للحصول على مغانم مستقبلية. ونقصد بالأمم ما يمكن أن يدعى «بالأَكَلَة» كما في حديث الرسول ﷺ: «تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها»(١) فالأكلة حريصون على الحضور وتسجيل المواقف مع حرصهم في المقابل على منع أي حضور إسلامي قدر الإمكان إلا في حالة الاضطرار. ويمكن أن نقول: إن هناك تواطؤاً في حضور الأكلة على المائدة الشيشانية، وتواطؤاً في غياب الأقارب من المسلمين.

لقد دخل الإسلام إلى بلاد القوقاز في صدر الإسلام، وعم في هذه المنطقة وتجذر فيها.

وبدأت الاحتكاكات مع الروس عندما بدأت الإمبراطورية الروسية القيصرية في التوسع جنوباً؛ حيث بدأت جحافل الروس في الدخول إلى المنطقة بهدف احتلالها منذ القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يستسلم المسلمون لهذه الغزوات بل واجهوها بكل قوة؛ حتى إن شجاعة الشيشان أصبحت مضرب المثل في روسيا ودخلت في أدبيات الروس، لقد كان ضعف الدولة العثمانية عاملاً مهماً في تمكُّن الروس من احتلال القوقاز وآسيا الوسطى، وكانت سياسة الروس القياصرة ومن بعدهم الشيوعيون تتلخص في تجويع الشعوب ومحاولة توطين الروس في هذه المناطق لضمان استقرارها، ولا ننسى أن جروزني كانت في الأساس قلعة أقامها الروس لترابط فيها قوات الاحتلال الروسي، وكانت علاقات الروس مع الشيشان سيئة على الدوام، وكان انعدام الثقة هو الأساس في التعامل بين الجانبين؛ ولهذا فقد قام (ستالين) باتهام الشيشان بالتعامل مع الألمان عند احتلالهم للقوقاز أثناء الحرب العالمية الثانية، وأمر بنفي الشعب الشيشاني. نعم! لقد تم نفي شعب بأكمله بتهمة أن بعض أفراده تعاون مع الألمان، وفي هذا الوقت فإن الشعب الشيشاني تدمر مدنه وقراه، ويجبر تحت التهديد بالإبادة على مغادرة أرضه؛ والحجة هي محاربة الإرهابيين، وهذه الحجة هي التي استخدمت منذ بداية الأحداث؛ فقد ركزت عليها

---

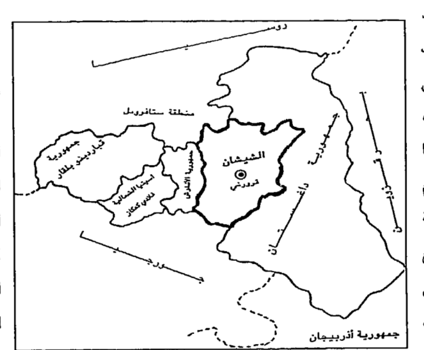
(١) رواه أحمد، ح/٢١٣٦٣، وأبو داود، ح/ ٣٧٤٥.

الدعاية الروسية ورددها السياسيون والعسكريون الروس ولم يجدوا غيرها، ومع ذلك فقد كانت مؤثرة في مواقف الدول والشعوب التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - لقد تم تخويف الصين من أن ما يجري في الشيشان سيتكرر تماماً في تركستان الشرقية المسلمة التي تحتلها الصين؛ ولهذا فإن الصين تقف بقوة مع روسيا.

٢ - لقد سارعت «إسرائيل» إلى تأييد روسيا، وعرضت عليها المساعدة وتقديم الخبرة المكتسبة في التعامل مع الإرهاب في فلسطين وجنوب لبنان، وبدأ تسويق مقولات: إن روسيا ستقيم حزاماً أمنياً حول الشيشان يماثل الحزام الأمني في جنوب لبنانٍ؛ وعلى الرغم من سقوط هذا الخيار وتجاوزه فإن (إسرائيل) تكرر مساندتها لروسيا فيما يسمى بحرب الإرهاب الإسلامي!

٣ - لقد ردد الروس أن لأسامة بن لادن دوراً في أحداث الشيشان والداغستان؛ وذلك من أجل استغلال حساسية أمريكا الشديدة، ولكن يبدو أن أمريكا تعرف أن ابن لادن بعيد عن أحداث الشيشان، إلا أنها في المقابل ترحب في تورط روسيا في الشيشان؛ وذلك لأن إضعاف الإسلاميين يصبُّ في مصلحة أمريكا، وإخفاق الروس المتوقع سيفتح المجال للنفوذ الأمريكي في هذه المنطقة الحيوية. والذي أراه أن أمريكا كانت ترغب في تورط الروس في هذه المنطقة، وكانت تردد أنه ليس فقط من حق روسيا محاربة الإرهاب بل هذا من واجبها كما حصل في مؤتمر إستانبول الأخير.



إن موقف أمريكا من الأحداث يتوقع له أن يتطور من أجل كسب شعوب المنطقة وتقبلها للحضور الأمريكي بعد طرد الروس.

٤ - لقد نجح الروس في البداية ولفترة مؤقتة في إبعاد الدول الإسلامية التي يتوقع أن يكون لها دور في الأحداث؛ وذلك باتهامها ابتداءاً بتأييد الإرهاب في القوقاز؛ وبالطبع سيسارع المتَّهم إلى نفي التهمة والتعامل بحذر حتى لا يعطي أي فرصة للروس لتأكيد هذه التهمة.

٥ - لقد سببت أحداث الشيشان الكثير من

الحرج لإيران نظراً لعلاقاتها الوثيقة مع روسيا في جميع المجالات؛ ولهذا فقد سارعت لإرسال وزير خارجيتها على رأس وفد منظمة المؤتمر الإسلامي إلى موسكو.

إن تصرفات الروس تشبه بتصرُّف من يقوم بتحطيم الكرسي الذي يريد الجلوس عليه؛ فقد ابتلع الروس الطعم الغربي بالتبشير بأسلوب الحرب الجديد الذي يناسب الجبناء والغرباء؛ حيث قام الروس بتقليد الأسلوب الأمريكي في الحرب الجوية والاستعمال الفائق للقوة، وفاتهم أن أمريكا استعملت هذا الأسلوب ضد أراضٍ تعتبرها عدوة مثل العراق وصربيا وكوسوفا؛ حيث تم تدمير البنى التحتية والمباني والجسور من أجل تحطيم قدرات الخصم على المقاومة ودفعه للخضوع.

إن مشكلة الروس في الشيشان أنهم لا يواجهون زعيماً أو حكومة متمردة ولكنهم يواجهون شعباً يكرههم، ومجموعات مجاهدين تسعى لطردهم. إن تدمير المدن والبنى التحتية من مصانع وطرق وخدمات سيضعف قدرة الروس على الصمود أمام حرب عصابات طويلة الأمد؛ فأين يقيم الجنود الذين بلغ عددهم مائتي ألف حتى الآن، وكيف يتم تموينهم؟

إن خروج الروس قضية محسومة وليست بعيدة المنال؛ ولكن الذي يهمنا أن يقوم المسلمون بتبني هذه القضية واستغلالها وأن يزاحموا الآكلة ويطردوهم، وعلى المسلمين أن يفهموا أن حرب الشيشان بدأت مشروعاً قومياً شيشانياً خالصاً ولكنها تحولت إلى مشروع إسلامي؛ فقد استلم الإسلاميون بجدارة قيادة الشيشان أثناء الحرب الأولى، وبعد خروج الروس بدأ المشروع الإسلامي يقوى ويتجذر في الشيشان، ولكن المشكلة الأساس هي حالة الحصار الذي تعيشه الشيشان، من قِبَلِ الروس وهاجس المستقبل؛ حيث نجح الروس في التملص من الاعتراف باستقلال الشيشان وأقنعوا الشيشان المرهقين من الحرب بتأجيل البت في هذا الموضوع لمدة خمس سنوات من عام ١٩٩٦م، وهذا يعني تأجيل الموضوع حتى تستقر الحكومة الروسية ويتعافى الاقتصاد الروسي ومن ثَمَّ يكون وضع الشيشان أصعب بكثير. والذي يبدو أن أحداث الداغستان أجبرت الروس على تطبيق مخطط كان مقرراً أن ينفذ بعد عام ٢٠٠٢م؛ إذ لم تنجح المخابرات الروسية في اغتيال قيادات المجاهدين وترتيب حكومة عميلة أو على الأقل خاضعة للروس.

إن حرب الشيشان الحالية ووضع الروس الصعب فيها فرصة لكل دولة إسلامية تريد أن تخرج من طوق العزلة والوصاية، وأن يكون لها ريادة العالم الإسلامي الجديد المشرق والذي أراه أمامي من خلال الأحداث رغم قسوتها؛ فإنه المخاض.



دراسات القرن الإفريقي وعودة العلاقات الإرترية السودانية

د. جلال الدين محمد صالح

تعقدت الأوضاع في القرن الإفريقي، وازدادت سوءاً إلى الحد الذي سلبه استقراره السياسي، وَحَوَّلَهُ إلى بؤرة صراع عسكري وتوتر أمني لا يسوقه إلا إلى نكبة من وراء أخرى، وليس فيما يظهر ما يبشر بقرب الانفراج، أو يوحي بتخفيف الأزمات فضلاً عن الذهاب بها إلى حيث لا رجعة؛ فالصومال الحزين ما زال ينزف دماً من جراء الاقتتال القبلي، ويُدفَع به من هاوية إلى أخرى من دون أن تجدي في إطفاء حريق الحرب كلُّ محاولات المساعي الحميدة وغير الحميدة من وسطاء عرب وغير عرب، وبلغ به الانهيار والتردي إلى الدرجة التي جعلت منه أفضل ميدان تصطفيه القوى الإقليمية المتصارعة لتصفية حساباتها وخدمة استراتيجياتها تماماً كما يفعل النظامان الإرتيري والإثيوبي باللعب في تناقضاته القبلية، وإغراقه بكميات من مختلف الأسلحة دعماً لمن تتطابق معه مصالحهما من الفصائل المتحاربة سواءاً من المعارضة الإثيوبية التي تتلقى دعماً عسكرياً من النظام الإرتيري، أو أطراف النزاع الصومالي؛ حيث تنحاز إرتيريا نحو عيديد، وإثيوبيا نحو عثمان علي عاتو الذي ندد مؤخراً بالتصرف الإرتيري وذلك بعد وصول سفينة محملة بالسلاح من إرتيريا لدعم المعارضة الأرمية الكامنة في الصومال تحت مظلة «عيديد» للانطلاق من هناك في ضرب الأهداف الإثيوبية، وتذكر مصادر صحفية أن قتالاً نشب بسبب النزاع على تقاسم هذه الأسلحة التي تم تفريقها بحضور «عيديد» وإشرافه.

وكتب مدير مركز القرن الإفريقي للدراسات الإنسانية في مقديشو نقلاً عن الصحف المحلية «أن وفداً عسكرياً إرتيرياً قام بزيارة معسكرات التدريب للثوار الصوماليين والأرميين في وقت سابق من الشهر الماضي للوقوف على مستوى التدريب ومدى القدرات القتالية لدى الثوار»(١).

ويتوقع المدير المذكور أن إثيوبيا سوف تتخذ هذا ذريعة

(١) المجتمع، عدد ١٣٥١، ٢٥/٥/١٩٩٩م.

لاجتياح الصومال كما اجتاحته من قبل لضرب ما أسمته بأوكار الأصولية القابعة هناك، وأورد أنها عقب هذا النشاط الإرتيري دعت حلفاءها الصوماليين إلى اجتماع طارئ للاتفاق على استراتيجية تحبط المخطط الإرتيري.

وهذا التفكك الصومالي بالرغم من أنه أنهى دور الصومال باعتبارها دولة مؤثرة، وأتاح لإثيوبيا فرصة العبث به إلا أنه من زاوية أخرى عاد عليها نتيجة غياب الحكومة المسؤولة بكثير من المساوئ مما أوجب عليها القيام بمبادرات إصلاحية تمثلت في تنظيم اجتماع «سودري» لتسوية الوضع المأساوي في هذا البلد؛ ولكن على النحو الذي يجعل منه كياناً مطواعاً تمسك به من خطامه وتجره من أنفه إلاَّ أنها عجزت عن كسب ثقة كل الفصائل، وبخاصة «عيديد» الذي وقف معارضاً لكل ما انبثق عن اجتماع «سودري» من لجان وقرارات معتبراً ذلك نمطاً من أنماط التدخل الإثيوبي في الشؤون الصومالية، وهكذا انحصر هذا الاجتماع في ستة وعشرين فصيلاً خرجوا بتكوين مجلس أطلق عليه: «مجلس الإنقاذ الوطني الصومالي» ومن أبرز رجاله «عثمان عاتو».

ومهما كان حظ «عيديد» من الصدق في تشخيص النوايا الإثيوبية من وراء تنظيم هذا اللقاء فإن التأثير القبلي والمصلحي في القيادات الصومالية بات عقبة صعبة التجاوز، فلم تعد مثل هذه المواقف الرافضة خاصةً بإثيوبيا ومبادراتها؛ وإنما أيضاً مصير كل مبادرة لا يجد فيها طرف من الأطراف ما يُخَصُّ منها بنصيب الأسد، حتى ولو كانت من المحيط العربي والإسلامي، كما كان الأمر مع لقاء القاهرة الذي تم في ١٩٩٧/١٢/٢٢م بعد اجتماع «سودري» وحضره «عيديد» لكنه جُوبِهَ بمعارضة قيادات أخرى كالكولونيل عبد الله يوسف، واللواء آدم عبد الله اللذين أعلنا فور وصولهما إلى أديس أبابا من القاهرة معارضتهما لكل ما ينجم عنه من قرارات. والكولونيل المذكور حسب إفادة مصادر مطلعة حليف قوي لإثيوبيا، ويقود منظمة تدعى «الجبهة الصومالية للإنقاذ» وقام بتشكيل حكومة محلية في مناطق الشمال الشرقي من البلاد، ولا ريب أن اتساع رقعة التنافر والتدابر بين هذه القيادات يعد مؤشراً جلياً على أن الصومال سيبقى بعيداً عن بر الأمان ملتهباً ومتقرحاً يندب حظه، وتتساقط عليه جراثيم الصراع الإقليمي لتعمق من جراحاته إلى أجل غير مسمى، وهو بالقدر الذي يمثله بوضعه الحالي من وصمة عار على جبين بنيه يعكس من جانب آخر ضعف المنظمات الإقليمية عربية وإفريقية في حل معضلات الشعوب لافتقارها إلى آليات فرض ما تراه مناسباً.

الصراع الإثيوبي الإرتيري:

من ناحية أخرى أدى تطور الخلاف الحدودي بين إرتيريا وإثيوبيا إلى اندلاع حرب شاملة بينهما، وتلبية لمتطلبات هذه الحرب شرع كل منهما في العمل على تصعيد الموقف بالشكل الذي يقيه شر الهزيمة، ويفل قدرات خصمه؛ الأمر الذي حفز أحزاب المعارضة المسلحة في كلا البلدين إلى استثماره وتوظيفه لصالح أهدافها ومراميها؛ فأقبلت تعمل في ترتيب

صفوفها وتجميع قواها؛ فعلى الصعيد الإثيوبي أعلن مقاتلو «كدوجابين» عن توحدهم، وأعربوا عن استعدادهم لقبول مختلف الدعم العسكري والسياسي من مختلف الجهات في سبيل إحراز استقلال الإقليم وفصله عن إثيوبيا، ومن المؤكد أن هذا مما يصب في مصلحة السياسة الإرتيرية التي أخذت على نفسها دعم اتجاهات كهذه ما دامت تشغب على إثيوبيا وتصرف مجهودها الحربي إلى قضايا جانبية تحول دون تركيزها على جبهة القتال الناشب بينها وبين إرتيريا، كما أن إثيوبيا لم تهمل من طرفها هذا الجانب فقد رحبت بالمعارضة الإرتيرية في أديس أبابا، وأجازت لها ممارسة نشاطها السياسي، ومن آثار هذا النزاع واستقطاباته أن جيبوتي وجدت ذاتها في معمعة بحكم المجاورة وتداخل المصالح مما فرض عليها في نهاية الأمر قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إرتيريا. وفي الحقيقة أن هذه النهاية جاءت نوعاً من أنواع التعبير الصريح عن عدم رضى الطرفين بسياسة كل منهما نحو الآخر، وقد أصابها الوهن منذ إنهاء إثيوبيا ارتباطها بميناء عصب الإرتيري، ولجوئها عوضاً عنه إلى ميناء جيبوتي، ثم تنامت إلى أن وصلت إلى حد القطيعة الكاملة باتهام الرئيس الإرتيري «إسياسي أفورقي» جيبوتي بالانحياز المكشوف نحو إثيوبيا في حربها مع إرتيريا، وطالب بإبعاد رئيسها السابق «حسن جوليد» عن لجنة الوساطة الإفريقية التي شكلتها منظمة الوحدة الإفريقية. ومن جانبه وصف «جوليد» الرئيس الإرتيري بالخروج على أسس الدبلوماسية الراشدة، ومجانبة العقلانية ومنطق الاتزان في معالجة مشكلاته مع جيرانه بشكل عام ومع جيبوتي بشكل خاص.

ورغبة في الضغط على جيبوتي اختارت القيادة الإرتيرية مد حبال التواصل مع المعارضة الجيبوتية والقيام بتزويد أجنحتها المسلحة بالمؤن العسكرية، وتفيد تقارير صحفية مطلعة نقلاً عن مصادر جيبوتية أن مجموعة الزعيم أحمد ديدني قامت «بضرب إحدى المجموعات العسكرية الحكومية الصغيرة في مناطق العفر بجنوب وشمال جيبوتي»(١) ويبدو أن إرتيريا لا تجيد أي مهارة أخرى غير هذا الخيار الذي يصنفها في خانة المشاغبين ليس إلا، وهو خيار ينم عن قصور في التجربة السياسية، وجفاف في ينابيع التفكير السياسي لدى القيادة الإرتيرية، وتطرف في استعمال العنف العسكري ليس له من تفسير سوى أن هذه القيادة ما زالت تعاني من تشابه وتشابك في الخطوط الفاصلة ما بين العهد الثوري بخصائصه ومتطلباته والعهد الدولي الذي لا يمكن أن يستجيب لتطبيقات العهد الثوري، وقد أظهر هذا الخلط بين الخطوط النظام الإرتيري بمظهر عدواني ارتد إليه في نهاية المطاف بالعزلة الإقليمية إلى الحد الذي صار يتخوف فيه من نشوء تحالفات جديدة بين مَنْ يعاديهم ويعادونه من دول المنطقة تعمل للإطاحة به، والتخلص منه، ويمكن أن نسبر عمق التضجر الإقليمي من سياساته بالتصريح الذي

(١) المسيرة الجديدة، عدد ٥٨، مارس ١٩٩٩م.

أدلى به وزير خارجية إثيوبيا «سيوم مسفن» الذي حمله «مسؤولية خلق الأزمات مع جيرانه»[١]، وأكد عدم استعداد بلاده للتعايش معه ما دام يريد أن يفرض ذاته «سوبرمان في المنطقة عن طريق الضغط على جيرانه بالقوة»[٢] وكذلك تصريح وزير الخارجية السوداني مصطفى عثمان إسماعيل الذي نعت فيه أفورقي في أديس أبابا أمام الصحافة المحلية والدولية «بهتلر إفريقيا الجديد»[٣] وليس بمستبعد أن تكون تلك القمة الثلاثية بين الرئيس السوداني عمر البشير، ورئيس الوزراء الإثيوبي «ملس زيناوي»، والرئيس الجيبوتي «إسماعيل عمر جيله» التي عقدت بمناسبة تنصيب الأخير رئيساً على جيبوتي خلفاً «لجوليد» خطوة أولى إلى تأسيس تحالف يقلم أظافر «أفورقي» باعتبار أن ذلك بات ضرورة من ضروريات مواجهته، وفي هذه القمة أطلع الرئيس السوداني نظيره الإثيوبي والجيبوتي على المساعي القطرية في تحسين العلاقات السودانية الإرتيرية وطمأنهما بأن «التقارب بين الخرطوم وأسمرا لن يكون على حساب العلاقات السودانية الإثيوبية»[٤]، وناقش الرؤساء الثلاثة قضايا تهم المنطقة وخرجوا بنتائج قالت عنها الصحافة: «أحيطت بتكتم شديد»[٥] ولا ريب أن ذلك مما يقلق النظام الإرتيري الذي وجد نفسه بعد سلسلة من الأخطاء الكبيرة محجوراً عليه في زاوية ضيقة. وفيما يبدو لي أن خروجه من نطاق هذه العزلة بعد أن فقد مصداقيته سيكلفه الكثير، ولا أظن أن أحدا من دول الجوار سيمنح ثقته «لأفورقي»، وقد أسفر الرئيس الجيبوتي السابق عن هذه القناعة عند تعليقه على المساعي المبذولة لتطبيع العلاقات السودانية الإرتيرية بقوله: «الذي أعرفه أن إقامة علاقة مع أفورقي مكلفة الثمن، وأي جهة تقدم على إقامة العلاقات مع أفورقي يجب أن تضع في حسباتها الربح والخسارة»[٦].

القرن الإفريقي والدور العربي:

وأياً كان ما سيتمخض عن تلك التحالفات الجديدة في القرن الإفريقي فإن العرب لا محالة معنيون بكل غاشية تغشى القرن الإفريقي وتقلب موازين تحالفاته بحكم ارتباطهم به: أمنياً؛ واقتصادياً، ومن الطبيعي أن تكون لهم مشاركات في ترتيب أمنه ورصد أحداثه صوناً لمصالحهم من القرصنة، وتأكيداً لوجودهم في بقعة من الأرض لها تأثيرها المباشر على استراتيجياتهم الإقليمية والدولية، وتضم دولاً تربطها معهم مواثيق الحماية، وعهود المناصرة، ومن ثم لا بد أن نرى دولاً عربية كمصر والسعودية والإمارات تتقدم بمبادرات إصلاحية لإخماد فتنة الصومال وإعادة بناء دولته، وبغض النظر عن حجم هذه المبادرات وأثرها الملموس فإنها نوع من التعبير عن إدراك أهمية القرن الإفريقي بالنسبة للأمن العربي، ولكي تكون فعالة ومثمرة لا بد أن تتسم بالتتابع والتناسق

(١، ٢) مجلة «المجلة»، عدد: ١٠٠٢، ٢٥/٤ - ١/٥/١٩٩٩م.

(٤، ٥) الحياة، ١٠/٥/١٩٩٩م.

(٣) الحياة، ٢٧/٣/١٩٩٩م.

(٦) المسيرة الجديدة، عدد ٥٨، مارس ١٩٩٩م.

ودقـة الرؤية التي تخـدم فـقط مـصـالح الاسـتـراتيـجـية العـربيـة بشكل عـام، وإلا فلن تقطف ثمار أي طارئ سياسي يشهده القرن الإفريقي إن لم تجلب الضرر؛ والحرب الإرتيرية الإثيوبية مثلها مثل أحداث الصومال تهم الأمن العربي وخطط التنمية العربية، ولهذا سارع الليبيون ومعهم اليمنيون إلى إطفاء فتيلها، إلاّ أن عناد الطرفين الإرتيري والإثيوبي حال من أول وهلة دون نجاح المساعي اليمنية الليبية، بيد أنه بعد اضطرار الرئيس الإرتيري إلى الإذعان للمبادرة الأمريكية الرواندية التي ظل يرفضها قبل تمكن القوات الإثيوبية المهاجمة من إجلائه عن «بادمي» -المنطقة المتنازع عليها - نشطت الدبلوماسية الإرتيرية بفعالية أكثر نحو العواصم العربية حاثّةً العرب إلى دفع إثيوبيا نحو تفهم الرغبة الإرتيرية في إنهاء النزاع معها سلمياً، ونجحت في أن تدخل مصر للعمل في جمع الطرفين على مائدة التحاور ليس على أساس مبادرة جديدة وإنما - كما أكد وزير الخارجية المصري عمرو موسى - «في إطار الجهود الإفريقية وإقناع البلدين بها»[1] ولكن كما كان متوقعاً فإن المصريين لم ينجحوا في إقناع الإثيوبيين بالجلوس مع الإرتيريين والتنازل عن شروطهم المطالبة بانسحاب الإرتيريين الكامل أولاً من كل ما يحتلونه من الأراضي الإثيوبية، ثم تعويض الخسائر الإثيوبية الناجمة من الاعتداء الإرتيري حسب تفسيرهم، وإزاء هذا الموقف المتصلب لم يملك المصريون إلا أن يقولوا: «إن الخلافات حادة بين إرتيريا وإثيوبيا، وإن مسار تسوية الأزمة الحدودية بين البلدين لم يتحدد بعد»[2]، وتعزز هذا بما صرح به الرئيس الإرتيري مؤخراً في احتفال يوم الاستقلال ٢٤/٥/١٩٩٩م إذ قال: «إن كل الجهود السلمية التي بذلت لم تثمر حتى الآن»[3]، ومما يظهر أن الإثيوبيين يعملون في تطويق مساعي الدبلوماسية الإرتيرية، ويحاولون مزاحمة «أفورقي» في كسب المحيط العربي، ومن المناسب أن أشير هنا إلى أن صحفاً إثيوبية كانت قد اتهمت مصر بالميل نحو إرتيريا مما حمل سفيرها في أديس أبابا على الإنكار، كما أن رئيس قطاع الموارد المائية بوزارة الري الإثيوبي «محمد أحمد هاجرسي» دعا مصر إلى عدم إهدار مياه النيل، وأثنى على الخبرة الإسرائيلية في إنشاء السدود، وطالب بالاستفادة منها في كلمته التي ألقاها في مؤتمر النيل[4]، وإني لا أفهم من هذا إلا توجيه رسالة تحذيرية إلى مصر خشية أن تنحاز إلى إرتيريا، ولفت نظرها إلى أن مصالحها في إثيوبيا أهم من أي إغراء تلوِّح به إرتيريا، وأن بإمكان إثيوبيا أن تفعل في مياه النيل بالتنسيق مع (إسرائيل) ما ليس في مصلحة مصر، كذلك انتقدها الرئيس الإرتيري - من قبل - في خلافه مع اليمن حول أرخبيل حنيش تضايقاً مما لمسه فيها من مساندة اليمن على حساب

(١) الحياة، ١٩/٥/١٩٩٩م.

(٢) الحياة، ٢٠/٥/١٩٩٩م.

(٣) الحياة، ٢٥/٥/١٩٩٩م.

(٤) مجلة المجلة، عدد ٩٩٨، ٢٨/٣ - ٣/٤/١٩٩٩م.

الحق الإرتيري على حد قوله، ومرة في فجر الاستقلال الإرتيري؛ إذ صرح بأن مصر غير راضية بما تم إنجازه في الساحة الإرتيرية و «أن المصريين تورطوا مع الفرنسيين في التخطيط لفكرة إيجاد نزاع قبلي في كل المنطقة»[1] واستفزهم مرات باعتقال عددٍ من صياديهم في البحر الأحمر، ورماهم بخيانته والتخلي عنه بعد توريطه في مواجهة السودان.

الوساطة الليبية القطرية بين السودان وإرتيريا:

وعلى كلٍ ولكون النظام الإرتيري حديث عهد بالسياسة الدولية والتواءاتها فإنه لم يحسن السير في ساحتها، وتاهت به السبل إلى أن أدرك أن لا بد من العودة إلى طريق السودان لا سيما في هذه اللحظة الحرجة بالنسبة له، اتقاء مضاعفات حربه مع إثيوبيا التي لا بد أن يكون ضررها عليه كبيراً إذا ما خاضها دون حليف مجاور، أو جار مسالم.

وتأتي هذه العودة بعد فترة من الهجران أعلنتها إرتيريا متذرعة بأن المد الإسلامي القادم من السودان صار يهدد أمنها، وأن السودان بدعمه لحركة الجهاد الإسلامي صار مصدر خطر عليها، ورتبت على ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية، وفي مخالفة صارخة للعرف الدبلوماسي سلمت مقر السفارة السودانية إلى المعارضة، واندفعت بحماس منقطع النظير إلى إعلان عزمها على إسقاط نظام البشير في الخرطوم إلا أنها بوغتت بانكسار جدار العلاقة الإرتيرية الإثيوبية، وبه دارت الدائرة على أفورقي نفسه فأمسى مقصوداً في بقائه كما تتناقل وسائل إعلامه، وأخذ يعيب على الإثيوبيين هذه النزعة المناقضة للشرعية الدولية وعرفها المألوف؛ ففي مقابلة له خص بها مجلة «النبض» الموالية لنظامه قال: «فالتحدث علناً بمسعاك لإسقاط نظام سياسي ما منافٍ للأعراف السياسية، فيمكنك أن تكره نظاماً معيناً، ولكن أن تفكر في إزالته ومحوه من الوجود فغير مقبول في هذا العصر»[2].

وهذه الإدانة من «إسياس» للتفكير الإثيوبي إزاء نظامه بالتأكيد من غير جدال تنسحب منطقياً على تفكيره هو إزاء السودان يوم كان يفصح عن عزمه من غير تورية ولا تعمية أنه لن يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرى في المضي إلى تغيير نظام الإنقاذ، وكأنه كان في عصر غير هذا العصر؛ ففي مقابلة له مع الحياة ٢٢/١/١٩٩٨م قال: «مشكلة إسقاط هذا النظام السوداني لا مجاملة من جانبنا فيها، ونحن لا نعمل في الخفاء إزاء هذا الأمر، فإذا كان التجمع يحتاج إلى أسلحة فسندعم المعارضة السودانية من دون أي تردد بالأسلحة، ليس لدينا أي مشكلة في هذا الأمر»[3].

وكلفته هذه الغاية الكثير من الخسائر البشرية والمادية؛ حيث غزا السودان من بوابته الشرقية، والجنوبية أيضاً، والآن بعد تورطه في الحرب مع إثيوبيا التفت إلى ثورة الإنقاذ متصالحاً لا مسقطاً، واستبدل مفرداته السابقة

---

(١) الحياة، ١٩/٩/١٩٩١م.

(٢) النبض، عدد خاص، ص ١٢ خالية من التاريخ.

(٣) الحياة، ٢٢/١/١٩٩٨م.

> «العرب معنيون بكل غاشية تغشى القرن الإفريقي وتقلب موازين تحالفاته»

بمفردات أخرى تتحدث - كما يقول - في: «البحث عن الحلول السلمية، وعدم التدخل في شؤون الغير، ونبذ أسلوب تصدير الأيديولوجيات، واحترام التقاليد، والأعراف الإقليمية والدولية»(١).

وهذا الخطاب مهما تباينت فيه وجهات النظر فإنه ما كان معهوداً من إسياس، وفيه من الدلالة ما يمكن أن يفهم منه أن بوادر الإفاقة بدأت تسري في عروق الرجل بعد أن سقط خارج حلبة الصراع، وانفض عنه من حوله ليواجه إثيوبيا وحيداً فريداً.

وكان السودان من باب مجازاة السيئة بمثلها قد خفض للمعارضة الإرتيرية جناحه، وقد أكسبت هذه السياسة قوى المعارضة الإرتيرية منافع كثيرة، وبخاصة حركة الجهاد الإسلامي بقيادة أبي سهيل التي استطاعت تنمية قدراتها وتوغلت في عمق المواطِن الحصينة من الساحل الشمالي من إرتيريا، ومن هنالك استطاعت أن تصد أكثر من مرة هجمات الجبهة الشعبية الحاكمة، كما تداعت كل فصائل المعارضة إلى عقد مؤتمر في الخرطوم خرج بتحالف يحمل اسم «التجمع الوطني الإرتيري» وأجمع على إسقاط نظام «أفورقي». وشعوراً من «أفورقي» بخطورة هذه المواقف عليه وهو مشغول بالجبهة الإثيوبية طار إلى ليبيا وقطر حتى يُنْهِيَا ما بينه وبين السودان من جفوة وخصومة، وأثمر سعيه عن لقاء بالبشير تحت رعاية القذافي، وبالرغم من أن «أفورقي» صرح بأن ذلك كان بمبادرة من القذافي؛ فإن الرغبة الإرتيرية كانت من وراء تحريك هذه المبادرة التي توجت أخيراً بعد تنسيق مع قطر بتوقيع اتفاقية الدوحة بين الرئيسين تحت رعاية الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر، ونصت الاتفاقية على «إعادة العلاقات الدبلوماسية، واحترام الأعراف والمواثيق الدولية، والاحتكام إلى سياسة حسن الجوار، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، وعدم إقامة تدابير إقليمية ضد الآخر»(٢).

وهذه الاتفاقية وإن كانت في جانب منها كسباً للسياسة السودانية ودليلاً على إخفاق «إسياس» في سياسته المعلنة ضد السودان إلا أنها من جانب آخر نجاح يحسب له؛ لكونه ما أراد منها أكثر من تقييد السودان عن الدخول في تحالف إقليمي يجمعه مع إثيوبيا وجيبوتي في مواجهته، وجاءت في وقت هو في أشد حاجة إلى تحييد السودان، وساعده عليها (كارت) المعارضة السودانية الموجودة في أسمرا فأجاد استغلاله، ومع أنه أكد أن هذا الاتفاق لا يمكن أن يكون على حساب المعارضة إلا أنه في النهاية يبقى مجرد كلام لا يغير من

---

(١) الحياة، ٦/٥/١٩٩٩م.

(٢) الحياة، ٣/٥/١٩٩٩م.

الحقيقة شيئاً. وإذا ما بحثنا عن المتضرر الأكبر من هذه الاتفاقية في المعارضة السودانية فإنه ليس إلا الشوعيين وبعض التجمعات الناشئة حديثاً في شرق السودان التي ما كانت تقبل بأقل من إسقاط نظام الخرطوم وتفكيك مؤسساته، ومن المتوقع أن ينعدم تأثيرها إذا ما نجحت الحكومة السودانية في الوصول إلى صيغة مصالحة مُرْضية بينها وبين الحزبين الكبيرين بقيادة المهدي، والمرغني، وهذا ما ترجحه معطيات الأحداث؛ إذ خرج المهدي بتفاؤل كبير بعد لقائه في جنيف مع صهره رئيس البرلمان والمؤتمر الحاكم الدكتور حسن الترابي، كما عاد رئيس السودان السابق جعفر محمد نميري من منفاه ليمارس نشاطه السياسي من الداخل.

المعارضة الإرتيرية وعودة العلاقات السودانية الإرتيرية:

وحتماً فإن السودان بموجب هذه الاتفاقية سوف يقلص من نشاط المعارضة الإرتيرية ويحده في نطاق لا يوقعه في حرج مع الحكومة الإرتيرية، إن لم يلزمها بما ألزمها به من قبل من لزوم الصمت والكف عما يثير «أفورقي». وأياً فعل فلا أعتقد أن تأثير ذلك على المعارضة يضاهي تأثير القرار الإرتيري على المعارضة السودانية لأسباب من أهمها:

أولاً: أن إثيوبيا هي بديل السودان الجاهز، وستجد فيها المعارضة من المتسع ما يعوضها عما تفقده في السودان.

ثانياً: أن الحدود الإرتيرية السودانية أكبر من أن تسيطر عليها أجهزة الأمن السودانية أو الإرتيرية، وفيها من الفسحة ما يمكِّن كلا معارضي البلدين من التحرك بعيدا عن عيون المراقبة، وحيث إن المعارضة السودانية الشرقية جزء من تحالف كبير فستفقد تأثيرها على النظام السوداني إذا لم تنصع لما سيصل إليه الحزبان الكبيران - الأمة، والاتحادي - من مصالحة مع الإنقاذ، فلن تبقى إلا المعارضة الإرتيرية المسلحة تتحايل، وتماطل.

ثالثاً: لم يكن الجهاز العسكري في المعارضة السودانية - باستثناء جناح جون قرنق - قوياً بذاته وإنما بمشاركة الجيش الإرتيري؛ في حين أن الجهة المقاتلة في المعارضة الإرتيرية وهي حركة الجهاد الإسلامي الإرتيري بقيادة أبي سهيل شبَّت عن الطوْق، وأعيت النظام وأعجزته عن القضاء عليها بالرغم من خوضه ضدها عدة معارك ضارية وعنيفة.

ولا جدال أن السودان له كامل الحق في أن يرتب أموره الأمنية على النحو الذي يحفظ به كيانه القائم من الانقسام، ويعيد إليه استقراره الأمني والسياسي؛ ولكن لا بد أن يعي أن هرولة «إسياسي» نحوه إنما جاءت لحاجة في نفسه أمْلتها أزمته الحادة مع حلفاء البارحة، وأنه قد يعود إلى غيه، وغدره إذا ما سنحت له سانحة، ولدى السودان تجربة ذاخرة وعامرة بكثير من العبر والفوائد في التعامل معه أحسبها كافية في أن تجعل حكومة السودان تفكر بعمق وروية قبل الإقدام على اتخاذ أي خطوة عملية بشأن المعارضة الإرتيرية، وإلا فستفقدها ساعة الحاجة إليها، ولا أظن أن يغيب عن السودان مهمته في حماية بوابته الشرقية.



العلو الكبير (٢ـ٢)

أمريكا... قاعدة انطلاقة لعلو جديد

عبد العزيز كامل

لليهود في هذا العصر هدفان كبيران كانا حلمين قديمين، وهما كما يبدو ـ والله أعلم ـ قَدَرَانِ مكتوبان على الأمة الغضبية حتى تستكمل معالم العلو الكبير، وربما الأخير.

فبعد الإفسادين الكبيرين المذكورين في أول سورة الإسراء(١)، وبعد أن قال الله ـ تعالى ـ لهم: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] أي لو عدتم إلى الإفساد عدنا عليكم بالعقوبة(٢)، عاد اليهود إلى الإفساد، فعاد الله عليهم بالعقوبة: مرة على يد الفرس، ومرة على يد المسلمين في المدينة، ومرة على يد الألمان في العصر الحديث، وها هم يعودون لعلو آخر كبير كبير، وإفساد في الأرض عريض خطير يتجلى في الهدفين الكبيرين اللذيْن يسير اليهود نحوهما سيراً حثيثاً، وهما:

أولاً: السيطرة على الأرض المقدسة، ومن ثم على ما حولها.

ثانياً: السيطرة على العالم كله بعد ذلك، وتسييره بعد تسخيره لصالحهم عن طريق السيطرة على أكبر قوة عالمية فيه.

وقد قام النصارى الإنجليز بدورهم الشرِّير لتحقيق الهدف اليهودي الأول بمنتهى الدقة والإخلاص؛ فهم أول من زرع نبتهم، وروى شجرتهم، ورعى ثمرتهم، ثم ترك الإنجليز للأمريكان إكمال الأشواط الباقية في مسيرة الطغيان اليهودي في أراضي المسلمين.

ومن العجب أن يكون للإنجليز أيضاً (فخر) القيام بالدور الأساس للبدء في تحقيق الهدف الثاني لليهود وهو السيطرة على العالم؛ فكيف كان ذلك؟

إن طلائع المهاجرين الإنجليز إلى القارة الأمريكية بعد اكتشافها؛ قد اصطحبوا معهم إبَّان هجرتهم أفواجاً من اليهود للاستيطان في تلك الأرض الجديدة (أمريكا)، وهم قد

---

(١) الإفساد الأول ـ كما ذكره المفسرون ـ كان قتل نبي الله زكريا، والإفساد الثاني كان قتل ابنه نبي الله يحيى. انظر: تفسير الطبري، ج ١٥، ص ٢١ ـ ٢٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠) بتحقيق الأرناؤوط.

اصطحبوا قبل ذلك موروثاتهم الدينية وترهاتهم العقدية التي تمجد (الشعب المختار) وتضفي عليه هالة من التقديس الغامض، انطلاقاً من التغيرات التي أصابت النصرانية على يد (البروتستانت) الذين ينتمي إليهم الإنجليز.

ربما لم تكن النظرة المستقبلية لما يمكن أن يحدث مع اليهود في أمريكا تدور بخلد أحد من قدامى المهاجرين إلى تلك القارة، ولكن ما حدث ولا يزال يحدث يبرز حقيقة مفادها: أن اليهود ساروا أو سُيِّروا في طريق جديد من العلو في الأرض ممتطين فيه ظهور (الجويم) أو (الأمميين) أو الكفار، كما يحلو لهم أن يرددوا.

إنه لأمرٌ لافت جداً أن نرى العلو اليهودي يتكرر في التاريخ مرة أخرى وبشكل ربما يفوق كثيراً ما كانوا عليه في مرات علوهم السابقة؛ لكونه عالمياً هذه المرة وذلك بعد أن مُدَّ لهم من قارة (العالم الجديد) حبل جديد، يتمادى غِلَظاً، كي يتسلقوا عليه إلى قمة العلو بالباطل والغلو في الإفساد.

إسرائيلان... لا إسرائيل واحدة!

أطلق المهاجرون الأوائل من اليهود على القارة الأمريكية (صهيون الجديدة)، وأخلد أكثرهم إلى اتخاذها وطناً دنيوياً ينافس الوطن الديني في الأرض المقدسة التي لم يكونوا قد عادوا إليها بعد.

وظل الوطنان يتنافسان فيما بعد على جذب اليهود للهجرة حتى أصبحا أكبر موضعين في العالم يضمان يهود. لقد كان التناقض يبدو صارخاً عندما نسمع عن عدم رغبة اليهود الأمريكيين في الهجرة إلى الأرض المقدسة كغيرهم، حتى بعد أن أقيمت فيها دولة لهم بعد غياب أكثر من ألفي عام، ولكن هذا العجب يزول والتناقض يرتفع عندما نعلم أن من ضمن عقائد اليهود عقيدة تبشر بالسيطرة اليهودية على العالم كله بعد استكمال السيطرة على الأرض المقدسة في آخر الزمان. جاء في التوراة التي في أيديهم عمّا يعتقدون أنه ملك آخر الزمان: «يولد لنا ولد، ونُعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفيه ويدعى اسمه عجيباً، مشيراً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام لنمو رياسته، وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد»[1] ويذكرون في رؤى دانيال في حكايته عن هذا الملك: «كنت أرى في الليل، وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى، وجاء إلى القديم الأيام، فقربوه قدامه، فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض»[2].

إذن، لا بد من تقسيم اليهود للقيام بالمهمتين: مهمة السيطرة الدينية على «أرض الميعاد»، ومهمة السيطرة الدنيوية على شعوب العالم.

وقد علم الجميع كيف قام اليهود ـ بمؤازرة من النصارى ـ بالسيطرة على الأرض المقدسة؛ فهل ينتبه الناس إلى سعيهم الآن للسيطرة على

---

(١) سفر اشعيا (٩/ ٦، ٧).

(٢) سفر دانيال، ٧/ ١٣.

العالم عن طريق السيطرة على أعظم قوة فيه؟!

بعبارة أخرى: إذا كانت أمريكا تقود العالم، واليهود يتحكمون ـ أو يكادون ـ في قيادة أمريكا فهل نحن بعيدون عن عصر العلو الكبير؟! لندع الحقائق تتحدث:

نقض المنطق!

مجموع اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية ـ حسب إحصاءات ١٩٩٢م ـ يبلغ خمسة ملايين ونصف، ويمثلون بالنسبة لمجموع السكان ٢,٤٪ فقط من إجمالي عدد الشعب الأمريكي البالغ (٢٥٧,٥٩٥,٠٠٠) نسمة. ويفترض أن هذه الأقلية؛ يصعب عليها أن تلفت نظراً، فضلاً عن أن تثبت وجوداً، ولكن الواقع أن هذه الأقلية التي تمثل ـ مع بقية اليهود ـ ثمانية أجزاء من العشر في المئة تتجه بسرعة نحو السيطرة على الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم تهدف للسيطرة على العالم.

وسنحاول إيراد إشارات بارزة وخطوط عريضة توضح كيف أن كل خيط من خيوط التآمر اليهودي يستحيل في أمريكا حبلاً مشدوداً، سرعان ما يتلوى نافثاً سموم الأفاعي وجراثيم الخراب.

١ - **المجال السياسي**: لم يعد الدور الذي تقوم به المنظمات اليهودية في التغلغل في الأوساط السياسية الأمريكية خافياً على أحد؛ فاليهود يتبرعون عادة بأكثر من نصف الهبات التي تدخل صناديق الحملات الانتخابية، وخاصة للحزب الديمقراطي الذي وجدوا فيه بوابة ولوج لخدمة المصالح اليهودية، فألقوا بثقلهم خلفه وأعطوه تأييد أكثر من ٩٠٪ من مجموع اليهود الأمريكيين. أما الحزب الجمهوري فقد أصعد اليهود وأنصارهم من النصارى الصهيونيين عدداً من مرشحيه إلى سدة الحكم وعضوية الكونجرس.

وهم يركزون على الكونجرس باعتباره المفتاح المتحكم في المخصصات المالية الخارجية ومبيعات الأسلحة لمختلف دول العالم؛ فعن طريقه يستطيع اليهود التحكم في توجيه السياسة الخارجية الأمريكية. وليس كل أعضاء الكونجرس من اليهود بداهة، ولكن جُل أعضائه صهاينة، ـ وإن كانوا نصارى ـ ومع هذا، فإن ١٠٪ من أعضاء الكونجرس يهودٌ خلَّص، و ٨٪ من أعضاء مجلس النواب من اليهود، ولو قارنا هذه النسبة بنسبة إجمالي عدد اليهود الأمريكيين إلى إجمالي الشعب الأمريكي وهي (٢,٤٪) لأدركنا أن اليهود يتصدون للخطاب نيابةً عن شطر كبير من الشعب الأمريكي؛ وبالذات الأغلبية الصامتة، خاصة أن في الولايات المتحدة ٣٨ منظمة يهودية تضم تحت عضويتها نحو ٤,٥ مليون يهودي أمريكي (أي ما يوازي عدد اليهود في الأرض المحتلة).

هذه المنظمات النشطة قد جرى توحيدها تحت مظلة واحدة عام ١٩٥٤م تحت مسمى: (اللجنة الصهيونية الأمريكية العامة) ثم غُيِّر اسمها إلى (اللجنة الإسرائيلية العامة)، وهي المعروفة اختصاراً باسم: (آيباك) وكان الهدف من توحيد تلك المنظمات ممارسة الضغوط على الكونجرس لحمله على إصدار التشريعات

والقرارات الضامنة لمصالح اليهود داخل الولايات المتحدة وخارجها.

ومن أبرز الشواهد وأحدثها على تحكم اليهود في قرارات الكونجرس الأمريكي فيما يتعلق بالسياسات الأمريكية ذلك القرار الذي أصدره الكونجرس في (٢٤/١٠/١٩٩٥م) بإلزام الرئيس الأمريكي بنقل السفارة الأمريكية في (إسرائيل) من تل أبيب إلى القدس، وهو القرار الذي صدر بأغلبية ٤٠٦ صوت مقابل ١٧ صوتاً، وأيضاً امتناع الكونجرس مؤخراً عن الموافقة على معاهدة الحد من أسلحة الدمار الشامل.

ولمنظمة (آيباك) دورها البارز في الانتخابات الأمريكية، فهي وإن كانت غير مؤهلة قانونياً لتقديم المساعدات المالية المباشرة للحملات الانتخابية إلا أنها تتحايل على ذلك بتنسيق عملها مع ما يزيد عن ٨٠ لجنة نشاط سياسي منتشرة في أنحاء الولايات المتحدة؛ وتعمل كلها على حشد التأييد لكل توجه يناصر اليهود، وبهذا أصبحت (آيباك) أقوى لجنة سياسية في الولايات المتحدة؛ لأنها تقوم بتنظيم عدة لجان سياسية مستقلة تابعة لها سراً. وتزودها بالتبرعات التي تُمرر إلى حملات المرشحين الأكثر استعداداً لخدمة مصالح اليهود، وبهذا نفهم كيف أصبحت الغالبية الساحقة من أعضاء الكونجرس الأمريكي من المؤيدين علناً لـ (إسرائيل) ولو كانوا من غير اليهود.

وقد بلغ التغلغل اليهودي في السياسة الأمريكية مداه في عهد الرئيس الحالي بيل كلينتون؛ فقد أحاط نفسه في الفترتين الرئاسيتين بجوقة من اليهود في أدق المناصب وأخطر الوزارات؛ فوجوه اليهود الكالحة تطل من شرفات المكاتب الوزارية والإدارية في البيت الأبيض: ففي الخارجية (مادلين أولبرايت) وفي الدفاع (وليام كوهين) ومستشار الأمن القومي (صموئيل برجر) ووزير الزراعة (دان جليكمان) والخزانة (روبرت روبين) ورئيس وكالة الاستخبارات المركزية (جورج تنيت) بالإضافة إلى العديد من المستشارين والمساعدين ورؤساء المجالس ومدراء المكاتب في أنحاء الهيكل التنظيمي الحكومي. على أننا نشير إلى أن من يدعون أنفسهم: (الصهيونيين المسيحيين) يكملون النقص الذي لم يسده اليهود الخُلّص، بل إن بعضهم أشد صهيونيةً من اليهود أنفسهم.

وفيما يتعلق بالشرق الأوسط بالذات تكوَّن في عهد كلينتون فريق عمل من الصهيونيين وعلى رأسهم (مارتن إنديك) الصهيوني الشهير الذي يشغل منصب نائب وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا، وهو صاحب سياسة الاحتواء المزدوج، ولا يفوقه في الخبث إلا (دنيس روس) منسق عملية السلام في الشرق الأوسط.

أما في المجال العسكري والأمني، فمن الحقائق المعلنة أن صهاينة أمريكا الحكوميين يقدمون لصهاينة (إسرائيل) سنوياً ثلاثة مليارات من الدولارات التي يدفعها المواطن الأمريكي ضرائب، (١,٨) منها مساعدات عسكرية، و (١,٢) مساعدات اقتصادية، ولولا هيمنة (الأسياد) اليهود على صناعة القرار في

أمريكا لما سمح المواطن العادي في أمريكا زعيمة (العالم الحر) بأن يُستعبد شعبها، ويدفع هذه المبالغ الباهظة كل عام من جيبه الخاص، ليست معونات إنسانية لشعب فقير، ولكنها إتاوات جبرية لمستكبر حقير يريد أن يجتاح بالسلاح حقائق التاريخ والجغرافيا في أراضٍ مغتصبة.

لم تكتف الولايات المتحدة بالتبرع بتسليح دولة اليهود منذ قامت وإلى الآن بكل أنواع الأسلحة الحديثة، ولكنها أيضاً تعوضها عما تخسره أولاً بأول؛ وذلك ما حدث في حرب عام ١٩٧٣م عندما أقامت جسراً جوياً إلى (إسرائيل) نُقل خلاله ٢٢ ألف طن من العتاد العسكري لتعويضها عما خسرته من الأيام الأولى من تلك الحرب.

وقد أقامت أمريكا مع (إسرائيل) علاقة خاصة لم تقمها مع غيرها من الدول، وذلك منذ عهد الرئيس الأسبق (لندون جونسون) في الستينيات الميلادية التي شهدت بداية الانحياز المطلق لليهود، بدءاً من حرب ١٩٦٧م. وقفزت تلك العلاقة قفزة أكبر في عهد الرئيس (رونالد ريجان) الذي وقّع مع دولة اليهود في سنة ١٩٨١م ما عرف بـ (اتفاقية التعاون الاستراتيجي) التي تحولت عام ١٩٨٣م من اتفاقية (تعاون) إلى اتفاقية (دفاع) استراتيجي، وهي التي تم بموجبها التعهد بشراء ما قيمته ٢٠٠ مليون دولار سنوياً من السلاح الإسرائيلي، وقد تحولت اتفاقية (الدفاع) في عهد كلينتون إلى اتفاقية (تحالف) استراتيجي عسكري وأمني جعلت (الصهيوني الأخير)[1] يقول بعدها: (سوف نساعد الإسرائيليين في صياغة المعاهدات الأمنية المشتركة التي ستضع أمن (إسرائيل) مع أمن الولايات المتحدة سواءاً بسواء. وقد كان كلينتون أول رئيس أمريكي يحضر بنفسه اجتماعاً وزارياً في وزارة الدفاع الإسرائيلية، وذلك في عهد بيريز.

أما في مجال التعاون النووي: فمن الحقائق المعروفة أن الفرنسيين هم أول من ساعد اليهود على امتلاك أول مفاعل نووي بتصنيع فرنسي، ولكن ما يخفى على كثير من الناس أن أمريكا هي التي وفرت لهذا المفاعل مادة نشاطه وبرامج نظامه وخبرات تشغيله وتقنياته، فإذا كانت فرنسا قد صنعت لهم (المخبز) فإن أمريكا زودتهم بالطحين والوقود... والخبازين أيضاً، وكان أول من كشف هذه التفاصيل الصحفي الأمريكي (ستيفن جرين) في كتابه: (علاقات أمريكا السرية مع إسرائيل) حيث كشف الحقائق المتعلقة بتسريب الأسرار النووية (لإسرائيل) وتزويدها باليورانيوم المخصب والمعلومات التقنية، وكشف أيضاً عن تغاضي الأمريكان الرسمي في عهد (جونسون) عن سرقة الإسرائيليين لكميات من اليورانيوم عالي التخصيب من شركة المعدات والمواد النووية الأمريكية ما بين سنوات ١٩٦٢م، ١٩٦٥م.

وكانت الولايات المتحدة قد فرضت رقابة

---

(١) هذا اللقب أطلقته الصحافة الإسرائيلية على بيل كلينتون بعد مؤتمر (شرم الشيخ) عام ١٩٩٦م الذي عقد لبحث سبل تأمين (إسرائيل) من خطر (الإرهاب)!

على مفاعل (ديمونا) الإسرائيلي لضبط النشاط النووي لـ (إسرائيل) والحد من جموحه، إلا أن هذه الرقابة أُوقفت منذ عام ١٩٦٩م.

ومع أن دولة اليهود من الدول القليلة جداً التي لم توقع على معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، إلا أن مجلس الأمن القومي الأمريكي في عهد نيكسون أوصى بعدم ممارسة الضغوط عليها لكي توقع على هذه المعاهدة!

وقد أظهرت اعترافات الفني النووي الإسرائيلي (مردخاي فعنونو) ـ إضافة إلى العديد من الأبحاث والكتب الصادرة بعد تلك الاعترافات ـ أن (إسرائيل) تمتلك ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قنبلة نووية، وهذا ـ بلا شك ـ لم يكن ليتم دون علم الأمريكان وتأييدهم، وهو ما يدل صراحة على أن يهود (أمريكا) يقولون بلسان الحال ليهود (إسرائيل): عليكم بالعرب، وعلينا بالغرب!

وقد صدر في عام ١٩٩٠م كتاب يتحدث عن فضيحة تستُّر أمريكا على الأنشطة النووية الإسرائيلية بعنوان: (المحاكمة والخطأ) وصدر بعده كتاب: (الخيار شمشون) من تأليف (سيمور هيرش) ليكشف الدور الأمريكي في التواطؤ مع (إسرائيل) في المجال النووي خلال العهود المتوالية للرؤساء الأمريكيين، وكشف بالإضافة إلى ذلك دور الإدارات الأمريكية المختلفة في منع أو عرقلة أي مشروع عربي لتملك السلاح النووي، بل ومساعدة الأمريكان لـ (إسرائيل) في ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١م، عن طريق تزويدها بصور سرية التقطتها الأقمار الصناعية الأمريكية. وقد أرغم الأمريكيون ـ بضغوطهم الثقيلة على الأمم المتحدة ـ الدول العربية على التوقيع على معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، بعدما حاولت مصر قيادة اتجاه للامتناع عن التوقيع ما لم توقع عليها (إسرائيل).

من الناحية الاقتصادية: لم يعد سراً أن اليهود الأمريكيين يمسكون بكثير من مفاتيح خزائن الاقتصاد الأمريكي، ويكادون يصبغون هذا الاقتصاد بصبغة الجشع اليهودي المالي الاحتكاري.

ويلاحظ خبراء في الاقتصاد أن هناك تحولاً حدث في السنوات الأخيرة في الرأسمالية الأمريكية؛ حيث انتقلت من التركيز على الصناعة والإنتاج إلى رأسمالية المضاربات التي يحسن اليهود فنون اللعب والنصب بها في (وول استريت) حيث يتاجرون بالنقد، ويكسبون منه الملايين على حساب عامة الناس.

واليهود الأمريكان، بما يملكون من ثروات وبنوك؛ يغترفون ثم يغدقون على إخوانهم الإسرائيليين، بما يجعل من الدولة اليهودية مثالاً شاذاً في الدول(١)؛ فهي دولة مهجر للمال والرجال؛ فكما أن شعبها غاصب وافد فاقتصادها مغتصب وافد.

إن دولة اليهود تُصنَّف على أنها دولة صناعية، ومع ذلك فإن نسبة الإعانات للمشروعات الصناعية تصل أحياناً إلى ٤٠٪ من قيمة الناتج

(١) نصيب دولة اليهود من المساعدات الأمريكية السنوية يساوي ثلث مجموع المساعدات العالمية الأمريكية.

الصناعي، ولذلك فإن المستوى المعيشي مرتفع جداً بالنسبة إلى ناتج الادخار القومي الذي تسد المعوناتُ الفجوةَ بينه وبين الاستثمار[1].

إن مصادر هذه المعونات الاقتصادية لا يمكن حصرها، أو بالأحرى لا يمكن كشف تفاصيلها على حقيقتها خاصة وأنها تتعلق بسر تضخم الكيان اليهودي، وعلوه في هذا العصر، وإذا ضربنا صفحاً عن المعونات الألمانية والإنجليزية والفرنسية التي ضخت الدم في عروق (إسرائيل) إبَّان نشأتها فإننا لا نستطيع تجاوز التبني الكامل من الولايات المتحدة لها في مرحلة عنفوانها وفتوتها؛ فأمريكا التي منحت دولة اليهود - بعد أسابيع من إعلانها - قرضاً قيمته ١٠٠ مليون دولار[2]، هي التي حولت القروض في السنوات التي تلت ذلك إلى مساعدات، ثم حولت المساعدات بدءاً من الثمانينيات إلى منح لا ترد تصل إلى ثلاثة مليارات من الدولارات سنوياً، وقد أوصلت بعض التقديرات هذه المنح إلى ما بين خمسة ونصف إلى ستة ونصف من المليارات سنوياً، وتقدر المساعدات التي وصلت إلى (إسرائيل) منذ قيامها بنحو ٦٠٠ مليار دولار. [جريدة الحياة: ١٢/١٢/١٩٩٩م].

أما ضمانات القروض التي تطلبها (إسرائيل) فإن الحكومة الأمريكية - في حال الموافقة عليها - تُلزم نفسها بسدادها نيابة عن (إسرائيل)، ولهذا فلا عجب أن نرى (شامير) يطالب الرئيس (بوش) في أعقاب حرب الخليج - في انتهازية ظاهرة - بضمانات قروض قيمتها عشرة مليارات من الدولارات! وقد حاول بوش أن يظهر تصلباً واستقلالاً في القرار فرفض هذا المطلب، أو طلب تأجيله، فكان مصيره أن خرج من أقرب بوابات البيت الأبيض.

والذي أريد قوله هنا: إن أموال اليهود التي تحولها المنظمات اليهودية الأمريكية[3] ليست هي وحدها التي تخدم مصالح اليهود في (إسرائيل)؛ ولكن اقتصاد الدولة الأمريكية نفسه يسخَّر لخدمة هذه المصالح ويوضع رهن إشاراتها. إنه (حبل) من ذهب يمد شعب السُحت والبُهت بأسباب البقاء.

من الناحية الإعلامية والثقافية: الإعلام الأمريكي يكاد يسيطر على الإعلام الدولي، واليهود يسيطرون على الإعلام الأمريكي، فبأي حال تجري صناعة الرأي الأعمى العالمي؟!

وإذا كان الإعلام الإلكتروني قد زحزح الإعلام المقروء عن مكان الصدارة فإن الاهتمام قد توجه إلى الشبكات التلفزيونية التي تقرن الصورة بالصوت، والحدث باللحظة، وتربط اللحظة بالرأي والتحليل، وتربط ذلك كله بالقناعات الملاة والآراء الموجَّهة.

إن هناك خمس شبكات تلفزيونية كبرى في الولايات المتحدة تبث ما نسبته ٩٥٪ من مجموع الأخبار المحلية والدولية، وهذه الشبكات الخمس مملوكة ليهود، أو خاضعة لإداريين يهود، فشبكة (ABS) يملكها (مايكل ايزنار) وهو

---

(١) يصل إلى الفرد في (إسرائيل) من أموال دافعي الضرائب الأمريكان ضعف استحقاق المواطن الأمريكي.

(٢) هذا في الأربعينيات الميلادية، فكم كان يساوي وقتها؟

(٣) هناك أكثر من ٢٠٠ منظمة يهودية أمريكية معفاة من الضرائب، وتعد هذه المنظمات مصدراً مهماً من مصادر المعونات الخارجية للحكومة الإسرائيلية.

يهودي، وشبكة (NBC) يرأس قطاع الأخبار فيها (أندورلاك) وهو يهودي، وشبكة (CBS) يرأسها (إيرواير) وهو يهودي، وشبكة (فوكس) ـ وهي أحدث الشبكات الكبرى في أمريكا ـ يملكها الإعلامي اليهودي العالمي (ميردوخ).

وغير خافٍ أن بضاعة السينما في هوليود من صناعة اليهود، وتظهر بعض الإحصاءات أن نسبة الكتاب والمنتجين والمخرجين السينمائيين اليهود تعدت الخمسين بالمائة من مجموع العاملين في هذا المجال، هذا فضلاً عن (نجوم) الفن والتمثيل والغناء والثراء والبغاء الذين يملؤون أثير الفضاء بظلمات بعضها فوق بعض، والعجب يزيد عندما نعلم أن ثمانية من ضمن عشر دور سينما كبرى في الولايات المتحدة يديرها يهود، وأن أكبر خمس شركات إنتاج سينمائي هناك يقوم على إدارتها يهود. ومن المعلوم أن ما يسمى بـ (صناعة السينما) هو في الحقيقة تصنيع للأذواق والآراء والتقاليد بمواصفات يهودية، همها السعي لإفساد إنسانية الإنسان حتى يصير حيواناً ذلولاً خاضعاً للراكبين.

أما في مجال الإعلام المقروء فيكفي أن نعلم أن هناك أكثر من ١٥٠٠ صحيفة يومية تطبع أكثر من ٥٥ مليون نسخة يومياً، ومن ضمن هذا العدد يستقل اليهود بملكية أو إدارة ١١٠٠ منها، أما المؤسسات الصحفية الكبرى ذات الصبغة العالمية فإن الثلاثة الكبرى منها يملكها يهود، وهي صحيفة (نيويورك تايمز) التي يتولى رئاستها (آرثر أوكس) اليهودي، ويشغل منصب المدير العام (فاكس فرانك) وهو يهودي، أما مدير التحرير، فهو (جوزيف ليفليد) اليهودي، وصحيفة (الواشنطن بوست) وهي الجريدة السياسية الأولى في أمريكا ـ تملك (كاترين مائير) اليهودية أكبر حصة فيها، ويشغل ابنها (دونالد مائير) منصب الرئيس العام لها، أما الصحيفة الثالثة فهي (دول ستريت جورنال) وهي صحيفة المال والأعمال فتملكها شركة (داجونز) التي يرأسها (بيتركان) اليهودي، وبالنظر إلى المجلات الأمريكية الكبرى فإن أوسعها شهرة مجلة (تايم) و (نيوزويك) و (يو إس نيوز) ولليهود صلة قوية بخيوط ملكيتها وإدارتها جميعاً، علماً بأنها كلها توزع دورياً (٨,٧) مليون نسخة.

وأخيراً: نذكِّر بأن يهود الولايات المتحدة الأمريكية يمثلون ما يقرب من ٤٤٪ من يهود العالم، وهي نسبة أعلى من نسبة اليهود في (إسرائيل) الذين يمثلون ٣٤٪ من مجموع يهود العالم، ومع هذا ينظر إلى يهود أمريكا على أنهم يهود (سُوبر) بالنسبة ليهود (إسرائيل)، ولا عجب فمهمة اليهود الأمريكيين أوسع وأخطر من مهمة اليهود الإسرائيليين؛ لأن ساحة الإسرائيليين هي عالم العرب، وساحة الأمريكيين عالم الغرب، بل العالم أجمع. وهذا لا يمنع من تعاونهما معاً لإفساد الأرض كلها، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ **وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [المائدة: ٦٤].

اللهم! إنهم قد عادوا للإفساد كما أخبرت، وعلوا علواً كبيراً كما ذكرت، فعد عليهم بالعقوبة كما توعدت، وانصر المسلمين عليهم كما وعدت، وسلِّط عليهم عباداً لك أولي بأس شديد يجوسون خلال الديار، ويمسحون عنا الذل والعار ـ آمين.



حزب الله .. رؤية مغايرة

(٤) فدائيون أم.. عملاء؟

عبد المنعم شفيق

في الوقت الذي كانت إحدى مجلات اليسار الثوري المتطرف تتوب فيه من اليسار، والثورة، والتطرف، أوردت مقالاً بعنوان: «حزب الله.. فدائيون أم عملاء؟» ووصلت كاتبة المقال في نهايته إلى الافتراض السلبي أي: إنهم عملاء، وذلك في وقتٍ لم تمنع أُخُوة المذهب أحد الكتّاب أن يطلق على «حزب الله» لقب: «خدم الأسياد»، وتلطف كاتب بريطاني وأطلق عليه: «الوكلاء»، بل إن أمينه العام اعتبر الحزب.. «ورقة وأداة».

في جميع الأوصاف السابقة إشارات واضحة باتهامات وإدانات لحزب الله، وهنا لن نتبنى وصفاً معيناً مما سبق، ـ وإن صدَّرنا واحداً منه ـ ولكن سنعرض تفاصيل الاتهامات وما يتعلق بها، ثم نترك القارئ يجيب عن السؤال الذي تقدَّم في صدر المقال.

هل كان الإحسان خالصاً؟

«إننا يمكن أن نأتي بالتغيير في لبنان بتعليم الشعب وتنويره داخل المؤسسات الاجتماعية».

«إن قوتنا تكمن في قدرتنا على صنع الناس والجماهير، وعلى أن نضع أوامرنا موضع التنفيذ، إنهم ينفذون أوامرنا لأنهم يعرفون أننا أقرب الناس في تحقيق مطالبهم»[١].

بهذه الكلمات الموجزة يُبين محمد حسين فضل الله الزعيم الروحي لحزب الله إحدى الوسائل الهامة التي يسعون من خلالها إلى تحويل لبنان إلى دولة شيعية، أو ـ على الأقل ـ مجتمع شيعي؛ فلم تقتصر وسائل التغيير لدى «حزب الله» على نمط واحد، بل تعددت وتشعبت في أركان لبنان، وكل وسيلة تغرس غرساً وتجني ثمراً.

وكان للخدمات الاجتماعية التي يقدمها «حزب الله» دور كبير في ترسيخ القناعة بأحقيته بأن يكون صوت العشيرة وراعيها الساهر على راحتها، الساعي إلى قضاء حوائجها في وقت تقطعت فيه أوصال المجتمع اللبناني، وانهارت مؤسساته بعدما حل بالبلد ما حل.

وفي الوقت الذي سعى فيه «حزب الله» لأن يكون رأس الحربة في الساحة اللبنانية، وفي مقدمة الطائفة الشيعية كان لا بد من النظر إلى عامة الشيعة نظرة تشعرهم بالاهتمام بهم، والسعي لرفع الفقر والحاجة التي طالما عانوا منها، فكان للحزب سعيان: سعي بالسلاح، وسعي بالإحسان؛ فالمبادئ والمثل والحقائق تبقى عند كثير من الناس بلا تأثير إن لم يروا لها واقعاً حياً يتحرك بها بينهم.

ولم يكن هذا الإحسان خالصاً كله؛ فقد كان

(١) قراءة في فكر زعيم ديني لبناني، د. أحمد إبراهيم خضر، مجلة المجتمع، العدد: ٩٥٤، ٩٥٨، ص ٤٣، ٥٠.

يرمي - فيما يرمي - إلى خلق جبهة خلفية تتبنى الدفاع الأدبي والمعنوي عن الحزب، كما أنها تمثل المدد البشري الذي يدين بالولاء والطاعة؛ فليس جزاء الإحسان إلا الإحسان!!

هدف الخدمات الاجتماعية ودورها:

تنهض هذه المنظمات الاجتماعية بالصلة بعامة الشيعة، والمقصد منها: إنشاء دوائر أوسع من التأييد، وكلها تفترض علاقة وثيقة ومتينة لسياسة الحركة وعملها. إن الهيئات المختلفة تعمل على الإحاطة بكل وجوه الحياة الاجتماعية لإنشاء مجتمع نقيض للمجتمع العام والظاهر؛ فينبغي لجمهور الحركة الشيعية وأنصارها أن يظلوا من المهد إلى اللحد، - هم وأهلهم والصغار منهم والكبار - من غير الخروج عن مرافق «ذلك المجتمع» مهما كانت الذريعة[(١)].

مؤسسة «الشهيد»:

وكان من أبرز المؤسسات الشيعية التي قامت بأدوار اجتماعية بارزة: «مؤسسة الشهيد».

وهي تضطلع برعاية «عوائل الشهداء» التي لا تقتصر على المواساة والعاطفة الصادقة؛ بل تتعداها إلى القيام بعبء مالي كبير، بعضه عيني يتمثل في تعويض ثابت ودوري، وبعضه الآخر خدمات مدرسية وصحية وتربوية ودينية[(٢)].

والمؤسسة مسؤولة عن عوائل من يسقطون في المعارك والأسرى خدمةً ورعايةً، بما في ذلك القتلى المدنيون من غير المقاومين، والمؤسسة منتشرة في معظم المناطق اللبنانية وتتولى فيما تتولى: الاهتمام بتعليم أبناء الذين قضوا نحبهم. وتصل الكلفة الإجمالية للفرد حوالي ٢٥٠٠ دولار شهرياً[(٣)].

المؤسسات الصحية:

افتتحت «الهيئة الصحية» في مطلع ١٩٨٧م - وبتمويل من «مؤسسة الشهيد» - صيدلية في حي السُّلَّم أسمتها: «صيدلية الشهيد الشيخ راغب حرب» تضطلع بمد يد العون إلى المستضعفين كافة، وتبيع الدواء بأسعار معتدلة ومدروسة، ولا شك أن الإقدام على مثل هذه الخطوة يخرج الجناح الشيعي الخميني من إطار جمهوره السياسي والحزبي إلى دائرة أصحاب الحاجات اليومية والعامة، وهم عامة الناس في الأحياء والشوارع التي يقطنها الشيعة بشكل كثيف[(٤)].

ومن المهمات التي تقوم بها الهيئة الصحية: الرعاية الصحية الأولية، مثل: الإرشاد، والوقاية، وإقامة دورات في المناطق النائية، وتنظيم محاضرات، كما تقوم بإجراء حملات التلقيح ضد الشلل، وقد استفاد منها عام ١٩٩٨م حوالي ٥٠ ألف شخص، وتملك الهيئة: ٢١ مستوصفاً و ٩ مراكز صحية كبيرة و ١٣ عيادة تجول في ٤٥ قرية في البقاع و ٢٥ قرية في الجنوب، وقد خرجت ٣٦٠ متطوعة عام ١٩٩٨م و ١١٩ مسعفاً انضموا إلى جهاز واسع لـ «الدفاع المدني» يبلغ عدد أعضائه الآلاف، كما يوجد مستشفى الجنوب في النبطية التابع للهيئة، وكذلك مستشفى دارة الحكمة في البقاع، وقد استقبلا ما يزيد عن مئتي ألف مريض خلال عام ١٩٩٨م.

وتقدم الهيئة تسهيلات صحية للمواطنين. وقد استفاد ٢٢٢ ألف لبناني من ذلك بمبالغ فاقت المليون دولار: ما بين دواء مجاني، أو دخول للمستشفى لعمليات جراحية، وغيرها من الخدمات الصحية.

مؤسسة الجرحى:

تقدم المؤسسة العناية الكاملة لجرحى المقاومة، والجرحى المدنيين بشكل «شبه كامل» أما بالنسبة لجرحى المقاومة فالعناية شاملة من لحظة دخول

---

(١) راجع دولة حزب الله، وضاح شرارة، ص ٦ ـ ٨، ٢١٢ ـ ٢١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٣) لبنان: أربعة وجوه للمقاومة الإسلامية، جوزف سماحة، جريدة الحياة، العدد: ١٣٢٢٢، ٦/٢/١٤٢٠هـ، ٢١/٥/١٩٩٩م، ونشرته مجلة المقاومة في العدد: ٤٢، يوليو/ ١٩٩٩م.

(٤) دولة حزب الله، ص ٦ ـ ٨، وانظر مزيداً من التفصيل في: سوريا وإيران تنافس وتعاون، أحمد خالدي، حسين ج. آغا، ترجمة: عدنان حسن، ص ٤٤.

المستشفى حتى لحظة الخروج، والمسؤولية عن المعاقين تشتمل على: مخصص شهري، سكن، صحة، تربية، تكاليف العائلة.. إلخ.

كما تعمل المؤسسة على إيواء الجرحى، ورعايتهم ضمن العائلة والمجتمع.

مؤسسة جهاد البناء:

جمعية «مؤسسة جهاد البناء الإنمائية» تأسست في لبنان سنة ١٩٨٨، شعارها: «إسرائيل تقصف يومياً ونحن نرمم يومياً» وقد اقتصر عملها بعد التأسيس - في ظل غياب الدور الخدمي للدولة - على رفع النفايات وتأمين المياه والكهرباء وما شابه ذلك من قضايا تهم اللبنانيين في حياتهم اليومية وتفاصيلها. «جهاد البناء» وجدت نفسها مدعوة إلى «ردم الهوة التي تريد إسرائيل إيجادها بين المقاومة والناس». و «ردم الهوة» بات يعني تحديداً: القيام بأعمال الترميم بعد الاعتداءات. ويُقَدر عدد المنازل والوحدات السكنية المتضررة في كل من عدواني يوليو ١٩٩٣م وإبريل ١٩٩٦م بخمسة آلاف منزل، وأمكن في المرتين إتمام الترميم خلال ٣ إلى ٤ أشهر، ثم إعادة البناء تماماً لكل ما تهدم، كما أن المؤسسة عاملة على بناء مدارس ومستشفيات ومستوصفات وملاجئ، وعلى القيام بتمديدات كهربائية بعد القصف وعلى حفر آبار ارتوازية، ويزداد يوماً بعد يوم، وللمؤسسة دورها في التنمية الزراعية؛ فهي تقوم بإرشاد زراعي وبتسليفات وتضع صيدلياتها وتعاونياتها في الجنوب والبقاع في خدمة المزارعين(١).

وقد قامت المؤسسة حتى أوائل تموز عام ١٩٩٤م، بإنشاء تسع وعشرين مدرسة أو تأهيلها، وترميم نحو خمسة آلاف وثلاثمائة منزل، كما تم رفع خمسة عشر مسجداً وأُهِّل ثلاثة وخمسون، وشُيد سبعة عشر نادياً حسينياً (حسينية)(٢).

وكان الشيخ نبيل قاووق، رئيس شورى الجنوب، نوه في أواخر أيلول عام ١٩٩٣م، أي بعد عملية «تقديم الحساب» بنحو شهرين، بترميم «جهاد البناء» ١٧٥٠ منزلاً في إحدى وثلاثين قرية جنوبية، وأسهم في إنجاز ذلك خمسة آلاف ومئة إداري ومهندس وعامل(٣).

المدرسة:

يقول نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله إن لدى الحزب ٥٠ مدرسة موزعة على مناطق لبنان(٤).

ونأخذ من هذه المدارس نموذجاً لنرى ما الذي يُقدَّم من خلالها، وهي مدرسة «شاهد»:

المدرسة من حيث المبدأ هي لأبناء القتلى والأسرى، والمبدأ المتبع فيها - كما في مؤسسة الشهيد - هو عدم عزل هؤلاء عن الآخرين؛ فعددهم في «شاهد» هو ١٨٠ من أصل ٦٧٥ طفل موزعين على الصفوف حتى الرابع الابتدائي(٥).

وهكذا نرى أن الخدمات الاجتماعية كانت شاملة لجميع الاحتياجات الاجتماعية، وهي خدمات لا تستطيع جماعة بمفردها القيام بها؛ إذ إنها مساعدات لا تقدر عليها إلا دول أو جماعات تمدها دول، وقد كان الهدف من تلك الخدمات هو «حصار» الناس ضمن إطار مذهبي شيعي لا يشذ عنه أحد، وكما قيل: من المهد إلى اللحد.

من أين لك هذا؟

سؤال يرد - بلا شك - على ذهن أي مطَّلع على حجم هذه الخدمات التي تُقدم، وسنورد حجم المبالغ التي تُنفق على «حزب الله» لينفقها بدوره على مشاريعه وأهدافه، وسنرى كيف أن المورد الذي اعتمد عليه

---

(١) لبنان: أربعة وجوه للمقاومة الإسلامية، مصدر سابق.

(٢) دولة حزب الله، ص ٣٣٧.

(٣) جريدة النهار اللبنانية، ٢٨/٩/١٩٩٣م.

(٤) محمد القدوسي، كربلاء الجديدة، ايام مع المقاومة في جنوب لبنان، اللجنة العربية لمساندة المقاومة في لبنان، ط ١/ ١٩٩٨م.

(٥) جوزيف سماحة، مصدر سابق.

«حزب الله» كان سخياً؛ فهل كان وراء هذا الكرم سر؟

بالنظر إلى جانب المدارس الدينية وحجم الإنفاق على الطلبة والمدرسين فيها، سنجد أن راتب الطالب العازب المقيم في المدرسة نفسها ألف وخمسمائة ليرة لبنانية (في صيف ١٩٨٦م)[١]، أما راتب المتزوج فيبلغ ألفين وخمسمائة ليرة، ارتفع الراتب الأول إلى نحو مئتي دولار (في العام ١٩٩٥م)، والثاني إلى نحو ثلاثمائة. أما المدرس فيُجرى عليه بقدر حاجته وأعبائه، ويرجح أن ما يتقاضاه المدرس لا يقل عن خمسة آلاف ليرة نقداً (١٩٨٦م)، وصار متوسط راتب المدرس نحو خمسمائة إلى ستمائة دولار[٢]. وليس لدينا إحصاء لعدد المدرسين أو الطلبة.

فإذا نظرنا إلى جانب آخر من المصروفات كتكلفة الجهاز العسكري المحترف، والرواتب العديدة، وتكلفة الجهازين السياسي والأمني، وجهاز الإعلام، فسوف يترجح تقدير الميزانية. بين العشرين مليون دولار والمئة والستين مليون دولار[٣].

ويقدر زين حمود دخل «حزب الله» المالي النقدي من إيران بثلاثة ملايين دولار ونصف المليون في الشهر الواحد، وذلك منذ ١٩٩٠م، أما علي نوري زاده فذهب إلى أن دخل الحزب الخميني بلغ عشرين مليون دولار في عام ١٩٩٢م، وخمسين مليون عام ١٩٩١م، وقُدِّر بمئة وعشرين مليوناً في ١٩٩٢م، ومئة وستين في ١٩٩٣م[٤].

وتشير بعض المصادر إلى ارتفاع ميزانية «حزب الله» في عهد رفسنجاني إلى ٢٨٠ مليون دولار[٥].

وقد تواتر الخبر واستفاض العلم للقاصي والداني عن هذا الدعم الإيراني غير المحدود لحزب الله[٦].

ولم تكن إيران وحدها على خط الدعم العام لحزب الله؛ فقد كانت سوريا شريكاً وحليفاً قوياً لإيران، وكان لهذا التحالف أثره على «حزب الله» دعماً ومساندة سياسية، واستخداماً بما يتوافق مع أهداف الحليفين. لقد كان لهذا التحالف دور هام في تحديد مسار «حزب الله»، ولذلك فمن الضروري إلقاء نظرة عليه وقراءة لأوراقه.

الحلفاء وقصة التحالف:

كانت نظرة الأسد إلى الشيعة أكثر إيجابية وتأييداً، وكان كفاح الشيعة من أجل حصة أكبر في الدولة اللبنانية نسخة من كفاحه هو في سوريا، وفي إحدى المناسبات في أوائل الثمانينيات طلب وفد من زعماء المسلمين السنة في بيروت مساعدة الأسد ضد جموع الفلاحين الشيعة التي تزحف على مدينتهم وتهدد بتغيير طابعها، فلم يظهر الأسد تعاطفاً مع هذا الطلب، وذكَّر زائريه بأنه هو نفسه كان فلاحاً أطاح بسلطة وجهاء المدن[٧].

وكان حزب البعث مدركاً منذ وصوله إلى السلطة عام ١٩٦٣م للقاعدة الضيقة للنظام؛ فإن علويي سورية (النصيرية) سعوا للوصول إلى توازن قلق بين الحصول على الاعتراف بوضعهم المعلن ذاتياً فرعاً من المذهب الشيعي الإثني عشري وبين الحفاظ على هويتهم. لذا فإن الدور السياسي للعلويين بصفتهم قاعدة للسلطة الحزبية قد ساعد في إبراز مشكلة «إضفاء الشرعية» العلوية، وأضاف بعداً إلى السياسة السورية، ومن هنا كانت

---

(١) أي قبل انهيار قيمة الليرة اللبنانية.

(٢) دولة حزب الله، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨، الإسلام الشيعي، عقائد وأيديولوجيات، يان ريشار، ص ٢١٢.

(٤) حزب الله من الداخل، أسرار وخفايا، زين حمود، مجلة الشراع، ١٤/٨/١٩٩٥م.

(٥) مجلة المجلة، العدد: ١٠١٣، ١١/٧/١٩٩٩م.

(٦) انظر على سبيل المثال: حوار محمد حسين فضل الله مع مجلة الوسط، العدد: ٢٢٢ / ١١/٢/١٤١٦هـ، وحوار حسن نصر الله مع مجلة المقاومة، العدد: ٣١، ص ٦، ومقال: حرب حزب الله للاستقلال، رونين برجمان، صحيفة هآرتس اليهودية، ٥/٣/١٩٩٩م.

(٧) باتريك سيل، الأسد صراع على الشرق الأوسط، ٥٧٩.

أهمية العلاقات مع شيعة لبنان وإيران على التوالي.

بالنسبة للشيعة اللبنانيين فإن البحث العلوي عن الشرعية كان يسير في توازٍ مع حاجة الشيعة إلى حليف خارجي يُعتمد عليه، ولقد تعززت هذه العلاقة من وقت لآخر بفعل الروابط الشخصية الحميمة بين قادة الطرفين، كما تمثلت العلاقة بين الرئيس السوري وموسى الصدر في أوائل السبعينيات، ويمكن النظر إلى فتوى الصدر باعتبار العلويين اللبنانيين المحليين شيعة في أيلول ١٩٧٣م على أنها إيماءة شخصية وسياسية على درجة عالية في الوقت ذاته باتجاه القيادة السورية، هذه الإيماءة تناغمت بشكل بارع مع هدف الصدر في الحفاظ على روابط قوية مع سورية بصفتها ثقلاً موازناً قوياً للأطراف الأخرى في المرجل اللبناني، وكانت هامة أيضاً في سياق اهتمام سورية الخاص بالطائفة الشيعية اللبنانية البادئة النمو والتجذر.

إن الفحوى السياسية لقضية الشرعية قد لعبت دوراً هاماً في تطور العلاقات السورية الإيرانية، ويمكن - في الواقع - النظر إليه على أنه المحرك الرئيس لنشوء التحالف بين البلدين. لقد ساعدت هذه الصلة في تأسيس لبنان باعتبارها نقطة تقاطع هامة بين العنصر الاجتماعي - الديني للعلاقات الشيعية - العلوية والمصالح الإقليمية والاستراتيجية لكل من سورية وإيران(١).

وقد قدم موسى الصدر خدمة جليلة للنظام السوري أثناء حربه مع القوات الوطنية المتحالفة عام ١٩٧٦م؛ حيث طالب الشيعة بعدم الانضمام إلى هذه الجبهة، أما حركته - حركة أمل - فكفت يدها عن النصارى والنصيريين!! وبذلك فقدت الحركة الوطنية اللبنانية والفلسطينيون أحد الدعائم التي كان من الممكن أن تغير الوضع في لبنان(٢).

وعلى نهج الصدر سار نبيه بري من بعده في التحالف مع سورية؛ فها هو يقول: إننا اتخذنا خيارنا مع سورية: نعيش معاً أو نموت معاً(٣). إن حركة أمل لم تتسلم شيئاً على الإطلاق من أي إنسان خارج سورية التي حصلنا منها على السلاح، أخذنا أسلحة ودبابات من سورية، وإمداداتي العسكرية كلها من سورية، أنا لا أنكر ذلك(٤).

وهذا الارتباط السوري مع شيعة لبنان جزء من ارتباط أكبر مع إيران صاحبة اليد العليا التي تنفق وتخطط، ومن المهم استعراض هذا التحالف وأسبابه وأهدافه.

بين طهران ودمشق:

منذ اللحظة التي تسلم فيها الخميني السلطة في أوائل عام ١٩٧٩م اعتبر الأسد مصادقته شيئاً تقتضيه مصالحه العليا.

وبوقوفه إلى جانب دولة خارج الأسرة العربية، ومع حركة إسلامية ثورية تتحدى المؤسسات السنية أظهر الأسد تحرراً غير معهود من التقاليد، وأعاد رسم قواعد نظام القوى في الشرق الأوسط. وكانت هناك أسباب استراتيجية هامه لتحركه.

رحب الأسد باستيلاء الخميني على السلطة في طهران ببرقية تهنئة حارة، وبعد ذلك بأسابيع قليلة أرسل له نسخة من القرآن مزخرفة بالذهب والأحرف الساطعة، هدية حملها إلى «قم» وزير إعلامه في ذلك الوقت أحمد إسكندر أحمد، وبعد تقبيل المصحف شكر آية الله سورية على عرضها له بالنزول في ضيافتها في أكتوبر سنة ١٩٧٨م، وقام وزير خارجية

---

(١) راجع: سوريا وإيران تنافس وتعاون، ١٢ - ١٥.

(٢) راجع: رؤية إسلامية للصراع العربي الإسرائيلي، ٤٨٣ - ٤٨٤، وانظر: باتريك سيل، ٥٧٣.

(٣) جريدة الحياة، العدد: ١٣٤٠٢ / ٩/٨/١٤٢٠هـ - ١٧/١١/١٩٩٩م.

(٤) حواره مع مجلة الوسط، العدد، ٢٧٦، ٢٧٧، ١٢، ١٩/٥/١٩٩٧م.

الأسد في ذلك الوقت عبد الحليم خدام بزيارة طهران في أغسطس سنة ١٩٧٩م، وأعلن بشيء من المبالغة والغلوّ أن الثورة الإيرانية هي «أعظم حدث في تاريخنا المعاصر»، وافتخر بأن سورية قد دعمتها «قبل قيامها وأثناء اندلاعها وبعد انتصارها»(١).

بالإضافة إلى ما ذكر من الترابط العقدي بين سورية العلمانية بعدما سيطر حزب البعث على النظام فيها، وبين إيران الثورية الخمينية؛ فإن هناك عوامل أخرى كانت دافعاً لكل طرف لكي يوثق التحالف مع الآخر، وقد تشعبت هذه العوامل وكثرت.

بالنسبة للسوريين فقد كان توقيت الثورة الإيرانية أكثر ملاءمة لهم؛ حيث تفاقم إحساس سورية بالعزلة وكونها عرضة للخطر الاستراتيجي بشكل متزايد نتيجة لتخلي مصر عن الصراع ضد «إسرائيل» وتوقيعها على اتفاقية كامب ديفيد في عام ١٩٧٩م، وقد كانت سورية قلقة أيضاً لكون مصر - وقد أصبحت في المعسكر «المؤيد للغرب» بثبات - سوف تجر في أعقابها أطرافاً عربية أساسية أخرى - بما في ذلك الأردن - مما يؤدي إلى زيادة عزلتها وإضعاف موقعها إزاء «إسرائيل».

إن الموقف السوري من إيران قد تحول إلى موقف منطقي محسوب يقوم على اعتبارات القوة والتوازن مع النظام المنافس في العراق من ناحية، وبالمفهوم الإقليمي الأوسع من ناحية أخرى. إن دور إيران في تقييد حرية الحركة العراقية كونها ثقلاً موازناً ضد أطراف عربية أخرى، بما في ذلك مصر - هذا الدور يمكن أن يكون قد أضاف بعداً إلى الحوافز السورية لإعادة نظرها في موقفها نحو إيران.

وتأتي اهتمامات إيران من ناحيتها لتعكس عدداً من العوامل المستقلة والمتداخلة؛ فكانت إيران في حاجة إلى حليف يعتمد عليه أكثر إلحاحاً بشكل كبير بسبب رغبتها في الحفاظ على موطئ قدم هام في المعسكر العربي، وحاجتها لإبقاء الضغط على العراق.

إن الحفاظ على علاقات جيدة مع سورية قد منح إيران فائدة أخرى هي تحديداً: الوساطة السورية الممكنة مع عدد من الدول الهامة الأخرى في المنطقة العربية.

وعلى الصعيد الدولي كانت روابط سورية الوثيقة مع الاتحاد السوفييتي قد منحت إيران قناة لا تقدر بثمن إلى القوة العظمى الأخطر على حدود إيران المباشرة؛ فإن إيران كانت مدركة لحاجتها إلى الحفاظ على علاقات الدولة بالدولة مع الاتحاد السوفييتي بشكل ندِّي لعدد من الأسباب السياسية والاقتصادية والطائفية والاستراتيجية.

أدت مساعي سورية الحميدة في بعض الأحيان إلى تسريع الاستجابة السوفييتية للمطالب الإيرانية، كما كان الحال ظاهرياً بالنسبة للشحنات العسكرية السوفييتية العابرة إلى إيران عن طريق سورية.

لقد عكس هذا التحالف عدداً من الاعتبارات، منها: تراخي الضغط على صدام حسين؛ فالدعم السوري لإيران كان يعتمد على الخلاف مع العراق، وزاد من احتمال الانتقام العراقي ضد سورية إذا ما سنحت الفرصة لذلك؛ إذ إن انهيار التحالف مع إيران سيكون له تأثير ضئيل في تهدئة صدام حسين في هذه المرحلة، وقد تكون سورية رأت أن من الأفضل الإبقاء على إيران ثقلاً موازناً للعراق بدلاً من التعويل على الاعتراف العراقي بالجميل مقابل تغير متأخر في العلاقة مع طهران.

لقد ساعد الغزو العراقي لإيران في أيلول ١٩٨٠م في تحضير الأساس لتحالف رسمي بين سورية وإيران أثناء المرحلة الأولى من الحرب ما بين ١٩٨٠، ١٩٨٢م.

بالنسبة للإيرانيين: قدم السوريون وسيلة غير مباشرة للضغط العسكري على العراق ومصدراً مباشراً

---

(١) راجع باتريك سيل، ٥٧٢، وما بعدها، وانظر: سورية وإيران، ١٠ - ١٣.

> كان للتحالف السوري الإيراني أثر بالغ في توجهات حزب الله الفكرية والعملية

للسلاح للقوات المسلحة الإيرانية المنغمسة في الحرب.

بعد أحداث مدينة حماة - ولاحظ المناسبة - سارعت الدولتان باتجاه تحالف رسمي؛ فقد تم توقيع بروتوكول تجاري واقتصادي بعيد المدى بين البلدين من قبل نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام في طهران في مارس ١٩٨٢م.

الغزو الإسرائيلي للبنان .. والتحالف:

كان لغزو ١٩٨٢م تأثير عميق على وجود إيران في لبنان عن طريق توسيع دورها في الصراع العربي - الإسرائيلي؛ فإن الغزو قد وفر الفرصة للمساهمة الإيرانية المباشرة الأولى في المجهود الحربي الداعم للحركة الشيعية في لبنان على شكل وحدة عسكرية صغيرة نسبياً مكونة من ١٥٠٠ عنصر من الباسداران (الحرس الثوري الإيراني) الذي سُمح لهم بالدخول عن طريق سورية إلى البيئة الصديقة في وادي البقاع. وقبل ذلك الوقت كانت الجهود الإيرانية لإقامة وجود عسكري مستقل في لبنان قد صُدَّت من قِبَلِ الأسد نفسه، لكن الموقف السوري بعد الغزو الإسرائيلي ربما أضحى أقل مقاومة لعروض المساعدة الإيرانية من ذي قبل.

من وجهة نظر إيران فإن وجودها الجديد في لبنان أنتج نقطة التَّماسِّ المباشر الأول بين النظام الثوري وطائفة شيعية كبرى في العالم العربي، ومنذ ذلك الحين غدت إيران لاعباً قيادياً في شؤون هذه الطائفة التي تمثِّل قاعدة ممكنة لمدّ نفوذها إلى قلب الصراع العربي - الإسرائيلي.

في ذلك الوقت بدأ تقاطع المصالح والتوجهات بين سورية وإيران بالاتساع؛ ففي حملتها لإخراج الإسرائيليين من لبنان كانت الدوافع المباشرة لسورية دوافع استراتيجية؛ فالوجود العسكري الإسرائيلي في النصف الجنوبي من لبنان - وعلى الأخص في وادي البقاع - قد وضع العمق السوري تحت تهديد مزدوج؛ فلأول مرة كانت دمشق معرضة لخطر مزدوج محتمل من الجولان والمواقع الإسرائيلية الأمامية في لبنان، إضافة إلى ذلك؛ فقد كان هناك التهديد الجيوسياسي النابع من وجود نظام موالٍ لـ «إسرائيل» وموال للغرب في لبنان. إن القلق السوري حول إمكانية العزلة الإقليمية ومخاطر الصفقات الثنائية العربية - الإسرائيلية المستقلة كان آنذاك المحدد الأساس لسياستها الخارجية؛ فوجود لبنان في الفلك الإسرائيلي - الأمريكي سوف يزيد من ترجيح كفة التوازن الإقليمي المائل أصلاً بشكل غير مرغوب فيه عن طريق إكمال التهديدات العراقية والإسرائيلية بتطويق محتمل من الغرب.

كما أن ارتداد لبنان سوف يضيف ثقله إلى خسارة مصر، ومع الأخذ بعين الاعتبار الموقف المشكوك فيه للأردن، وفي ظل هذه الظروف فإن رغبة سورية في تقوية روابطها مع إيران ليست مفاجئة. استطاعت سورية الاعتماد على إيران لتأمين المساعدة المادية على شكل معونة اقتصادية، وقوة بشرية على شكل جماهير محلية مهيأة، وتحريض يمثل وجهة نظر راديكالية معادية لـ «إسرائيل» وللغرب، ومصدر جديد للضغط والتهديد المحتمل لإلهاء كل خصوم سورية الإقليميين والدوليين تقريباً، مع الحفاظ في الوقت ذاته على مسافة مادية وتاريخية كافية لتفادي أن تصبح قوية أكثر مما يجب أو مستقلة أكثر مما

يجب على الحلبة الداخلية لسورية.

وبين أغسطس ١٩٨٨، وأغسطس ١٩٩٠م كان هناك عدد من التطورات التي أثرت على العلاقة السورية - الإيرانية؛ فمع انتهاء الحرب الإيرانية - العراقية بدت قوة العراق بشكل ملحوظ في وجه كل من سورية وإيران؛ فالعراق لم ينجح فقط في فرض نهاية مذلة للحرب، بل كان في موقع جيد جداً لجني أفضل فائدة من التأييد الدولي والعربي الواسع للقيام بدور القوة العربية الكبرى المتربعة على الخليج والمشرق، لذلك فقد قويت دوافع إيران للتمسك بالتحالف مع سورية بفعل تضافر عدة عوامل، والتي منها: ضعفها مقابل القوة العراقية والانتشار العسكري الأمريكي في الخليج والعزلة الإقليمية والدولية.

وبالمثل فقد كانت سورية مدفوعة بمصلحتها التقليدية في احتواء العراق والحفاظ على دورها الفريد في لبنان؛ بيد أن عوامل أخرى كانت تفعل فعلها، أولها وأهمها: التغيرات في علاقات الشرق بالغرب، وإبعاد التنافس الأمريكي - السوفييتي من المنطقة؛ فقد بدأت علاقات سورية السياسية والاستراتيجية الطويلة الأمد مع الاتحاد السوفييتي بالتآكل مع مجيء الرئيس غورباتشوف في منتصف الثمانينيات والامتناع السوفييتي المتزايد عن إمداد المجهود الحربي لسورية أو تدعيم اقتصادها المتوعك[1].

هذا الحلف الإيراني السوري كان له مركز هام لإظهار نتائجه، فكان لبنان هو مطبخ هذا الحلف الذي تشتم منه رائحة الصفقات والاتفاقيات، وبهذا فقد تم ربط لبنان بهذا الحلف شاء أم أبى.

فهذا وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي في محادثات مع نظيره السوري فاروق الشرع يقول: إن مصير إيران وسوريا ولبنان في مجال السياسات التي يتخذها البلدان الثلاثة مترابط بعضهم مع بعض[2].

كما كان من الطبيعي أن يكون «حزب الله» ورقة بين أطراف هذا الحلف، أو الطرفين القويين: إيران، وسوريا، وكان عليه أن ينسجم مع أهدافهما؛ فوجوده ونشاطه مرتهن بتوجهاتهما السياسية، ولكن هل ينجح حزب الله في الاستمرار في دوره على هذه الحال من الانجذاب بين طرفين؟

مُجبر .. لا بطل:

رسم الظهور العلني لحزب الله خطاً فاصلاً جديداً من وجهة نظر سورية، وكان هذا التطور إشكالياً؛ فمن ناحية شكلت العناصر الراديكالية الموالية لإيران ذراعاً فعالاً للنشاط بالوكالة ضد «إسرائيل» والولايات المتحدة، ومن ناحية أخرى فإن المناداة بجمهورية إسلامية في لبنان وإخضاع إرادة «حزب الله» لأوامر طهران الروحية والسياسية، كل ذلك كان يشكل تناقضاً مباشراً بشكل محتمل مع المصالح السورية الوطيدة.

كان نجاح إيران - حزب الله في منع سورية من تنفيذ سياستها في لبنان بمثابة رسالة خطيرة بخصوص السلطة النسبية لكل عنصر فاعل على الساحة اللبنانية؛ فقد كان الدافع السوري قوياً أيضاً لرسم حدود ثابتة ومفهومة بشكل متبادل لهذه السلطة في أعقاب الحملة المشتركة لعامي ١٩٨٣م - ١٩٨٤م؛ إذ لم يُبد تحمُّل سورية لنشاط حزب الله المعادي لـ «إسرائيل» في جنوب لبنان أي تغير في هذه الفترة، وظل بدون انتقاص حتى اليوم، إن

---

(١) راجع سورية وإيران، ٢١ - ٢٩، ٣٥ - ٣٦، ٤٩ - ٥١، وراجع الأسد، صراع على الشرق الأوسط، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٨١- ٥٨٣، ٦٤٢، ومقال لإفراهام سيلع، صحيفة هآرتس ٦/٤/١٩٩٩م، ومقال: من يعرقل الانسحاب ليوسي أولمرت، صحيفة يديعوت أحرونوت، ٢٢/٣/١٩٩٨م، ومقال: لبنان، أوان تقييم الوضع، لشلومه جازيت، صحيفة معاريف، ٢١/٨/١٩٩٧م، ومجلة المجتمع، عدد: ٩٥٩، وحوار محمد حسين فضل الله مع الوسط، العدد: ٢٢٢/١١/٢/١٤١٦هـ، ومجلة المقاومة، عدد: ٢، ٢٥، ٢٦.

(٢) جريدة الأنباء، العدد: ٨٣٠٢، ١٤/٣/١٤٢٠هـ - ٢٨/٦/١٩٩٩م.

تحدي حزب الله للهيمنة السورية بين الشيعة في لبنان يتجاوز الخلافات العملياتية حول الفلسطينيين والحرب في الجنوب، ومن الممكن أن يضرب في عمق النفوذ والهيبة للسوريين بالذات.

فسورية لم تكن مستعدة للوقوف مكتوفة الأيدي في حين كانت قوة «حزب الله» ونفوذه يتوسعان في لبنان، وهذا أدى في شباط ١٩٨٧م إلى آن اصطدمت القوات السورية مباشرة مع «حزب الله» في ضاحية بيروت الجنوبية.

إن السيطرة السورية في لبنان، ومقدرتها على منع أية تحركات إيرانية ذات شأن في هذه الساحة من المكانة التي تجعل أي تحدٍ مباشر لمصالح سورية الحيوية من قِبَل «حزب الله» أو إيران لن يؤدي إلى أي مكسب إيجابي لإيران.

في الواقع: إن الفقدان المحتمل لحرية الوصول إلى الشيعة اللبنانيين يمكن أن يكون رادعاً لأي دور تخريبي إيراني، إضافة إلى كونه حافزاً كبيراً بالنسبة لإيران على تشجيع «حزب الله» على التقيد بقوانين التحالف.

وعلى هذا فقد تحاشى «حزب الله» مهما كلفه الأمر وغلا الثمن ـ تحاشى الخلاف المعلن مع السياسة السورية، بل سعى إلى مزاوجة ولاءيه: الخميني الإيراني ـ من وجه أول ـ والسوري ـ من وجه ثان ـ من غير انفصال. فالولاء الخميني هو مصدر التحزب والداعي إليه ومنشئ هذه الجماعة على الصورة التي هي عليها؛ وعلى هذا الولاء مرجع تماسك الحزب، وتَدينُ المنظمة الخمينية إلى ولائها هذا بنهجها وطريقتها التي ميزتها عن غيرها، وتدين للدولة الخمينية بالإعداد والتجهيز والعتاد والموارد والملجأ والحماية و «الذراع الطويلة».

أما الولاء السوري فهو شرط بقاء الجهاز الخميني المادي «بقاءاً مادياً» بلبنان واستمراره على خطته ونهجه، وهو بهذا الاستمرار مسوِّغُ دوره. وفي ظلال الولاءين: الخميني والسوري ووفاقهما وتنسيقهما وعقدهما لم يكن على «حزب الله» إلا المضي في مقاتلة الدولة العبرية، والتمتع بامتيازات سياسية تحول دون استقرار الدولة اللبنانية؛ وعلى هذا فاليد العليا: معنىً وموردأ هي لإيران، واليد العليا: سياسة وشرطاً مادياً هي لسورية، ويسعُ «حزب الله» البقاء وهو يخدم سيدين لا سيداً واحداً!!(١).

المتغيرات وأثرها على الحزب:

من الصعوبة بمكان، بل من الاستحالة أن تستمر الأمور على نسق واحد من بداياتها إلى منتهاها، بل إن المتغيرات التي تطرأ على الأحداث تجعل من الحكمة إعادة النظر في السياسات الاستراتيجية والأهداف بعيدة المدى وإعادة صياغتها بما يتناسب مع الوقائع الجديدة، وكان هذا المنطق واضحاً بشكل كبير لدى إيران التي أنشأت حزب الله ورعته حتى أصبح كياناً له وزنه المعتبر في لبنان، وكانت التحولات التي طرأت على إيران تفرض لا محالة تغيرات جذرية على سياسة «حزب الله» ومنهجه وعمله.

فعقب تولي رفسنجاني رئاسة الجمهورية عبَّر عن رفضه فرض الثورة على المسلمين خارج إيران، بينما طالب الحركات الإسلامية خارج إيران باتخاذ الثورة الإيرانية قدوة ومثالاً لها، وبالسعي لإيصال صوت الثورة إلى الناس؛ وأضاف أن إيران ستصدر أفكارها في القوانين الدولية.

والواقع أن التحول نحو السياسة البراجماتية داخلياً وخارجياً قد ارتبط ـ في جزء من دوافعه ـ بانتهاء الحرب مع العراق والإحساس بالاختناق الاقتصادي وبالحاجة للانفتاح على العالم، خاصة اجتذاب استثمارات الغرب وتكنولوجيته لإعادة تعمير إيران مما تطلَّب اعتدالاً في السياسة الخارجية.

---

(١) راجع: وضاح شرارة، ص ٣٦٢ ـ ٣٧٤.

ومنذ عام ١٩٨٦م كانت إيران قد بدأت تمارس ضغوطاً على التنظيمات المسلحة الموالية لها في لبنان للإفراج عن الرهائن الغربيين مقابل تحقيق مصالح وأهداف «للثورة الأم» في إيران.

وشهدت فترة رئاسة رفسنجاني لإيران تقليص المساعدات العسكرية والمالية لحزب الله.

كما أن إيران مارست ضغوطاً على حزب الله لضبط النفس عقب اختطاف «إسرائيل» في ١٩٨٩/٧/٢٩م للشيخ عبد الكريم عبيد، أحد قياديي حزب الله في الجنوب اللبناني، وعدم الإصرار على استبداله برهائن غربيين خلال صفقات لاحقة بين إيران والدول الغربية، وكذلك الشيء نفسه بعد اغتيال «إسرائيل» للشيخ عباس الموسوي زعيم حزب الله في هجوم بالهليكوبتر في فبراير ١٩٩٢م ـ فأين الانتقام للشهداء؟! كما ساهمت إيران في إقناع حزب الله بالانضمام للهجوم الشامل ـ بالتعاون مع سورية ـ ضد العماد ميشيل عون في بيروت الشرقية في ١٩٨٩/٨/١٤م[١].

ولا شك أن حزب الله اللبناني ساهم بدور الرافعة للدور الإيراني في المشرق العربي، مما أعطى لإيران وزناً استراتيجياً أكبر من حجمها، وتم استغلاله منذ تدهور قوتها التقليدية.

ويمكن لحزب الله أن يظل أحد مصادر التأثير السياسي لإيران، وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت طهران تشجعه على التفكير في أدائه المستقبلي. وبغض النظر عن الجانب الأيديولوجي والترابط العضوي؛ فإن حزب الله اللبناني يمثل حالياً رافعة هامة لسوريا التي تعد أحد أهم اللاعبين الرئيسيين في منطقة الشرق الأوسط، والتي تعد إيران بحكم التعريف الجغرافي ليست جزءاً منها[٢].

ولهذا فقد كان التحول إلى وجه آخر وتبديل السياسات أمر لا مفر منه لحزب الله[٣].

إن الاتجاه الأكبر داخل حزب الله مدرك للحاجة إلى التكيف مع وقائع التسوية الممكنة بين «إسرائيل» وكل من سورية ولبنان، ولقيود السعي لبسط الحكم ذي النمط الذي يدعو إليه في البلد الأكثر تنوعاً من حيث الطوائف والأديان في المنطقة. وقد انعكس هذا في استعداد حزب الله للمشاركة في النظام السياسي اللبناني، بالإضافة إلى إظهار رغبة الحزب بالالتزام بقوانين النظام السياسي اللبناني المنبعث مجدداً ونقل نشاطاته السرية إلى مجال غير موجه ضد الدولة بحد ذاتها.

إن نقلة من هذا النوع في سياسة «حزب الله» وموقفه تعتمد كثيراً على توازن الآراء ضمن الحركة والموقف النهائي الذي تتخذه إيران، إضافة إلى موقف حزب الله مع سورية.

وتتمتع القيادة الرسمية لحزب الله، بما فيها الأمين العام الحالي الشيخ حسن نصر الله بعلاقات جيدة مع كل من سورية وإيران، ومن المرجح أن تستجيب لمتطلبات وحساسيات الأولى بقدر استجابتها لمتطلبات وحساسيات الأخيرة[٤].

ومن خلال هذا المنطلق، فقد صرح السفير السوري في واشنطن وليد المعلم أن حزب الله حركة مقاومة وطنية ولن تكون عقبة في طريق السلام إذا كان يلبي المصالح السورية واللبنانية، إن قيادة

---

(١) انظر: د. وليد عبد الناصر، إيران دراسة عن الثورة والدولة، ٧٤ ـ ٧٥، ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) حوار نيل باتريك، رئيس قسم الشرق الأوسط بالمعهد الملكي للدراسات الدفاعية في لندن، مع مجلة المجلة، المصدر السابق.

(٣) انظر: حوار علي فياض عضو المجلس السياسي لحزب الله، جريدة السفير، ٣١/ ٧/ ١٩٩٨م، ونشرته مجلة المقاومة، العدد: ٢٢، ص ٤، وانظر مقال: آنذاك ستبدأ الأيام الصعبة لحزب الله، لباروخ كيمد لينج، صحيفة هآرتس/ ٤/ ٣/ ١٩٩٧م.

(٤) راجع: سوريا وإيران، ١٣٦ ـ ١٣٩.

> بإلقاء نظرة على إنجازات حزب الله «العسكرية»، سيُعاد معها النظر في الصورة المرسومة للحزب

الحزب تدرك بأن أي اتفاق مقبول من سورية ولبنان يكون ملزماً لها على السواء[١].

بل لقد استبق حسن نصر الله الجميع باعترافه بأنهم أداة في يد المفاوضين في عملية السلام، فقال: إن المقاومة ورقة ضغط بيد المفاوض العربي. والغريب أن باراك يريد أن يفاوض ومعه طائرات حربية أمريكية جديدة، ومئات الملايين من الدولارات من أمريكا، وهذا مسموح به، بينما المطلوب أن تذهب الوفود العربية مجردة من عناصر قوتها، وعنصر المقاومة هو الأهم[٢].

وإمعاناً في التحول تلبية للإرادة الجديدة، فقد قام «حزب الله» بتوسيع قاعدة المشاركة في عملياته العسكرية انطلاقاً من ذوبانه في الحالة اللبنانية، فقام بإنشاء «سرايا المقاومة» التي فتح فيها الباب لجميع شرائح المجتمع اللبناني بما فيهم النصارى لكي تنضم إلى صفوفه، فقد أصبح الهدف الآن: تحرير التراب اللبناني!![٣].

حقيقة النجاح العسكري:

على الجانب العسكري الذي برز من خلاله نشاط حزب الله، فمن الواضح اليوم لكل ذي عقل - أو على الأقل يجب أن يكون واضحاً - أنه في حرب العصابات التي تدور اليوم في جنوب لبنان لا توجد فرصة للانتصار بالنسبة للإسرائيليين؛ وذلك لعدة اعتبارات:

أولاً: أنه لم يتغلب مطلقاً بأي شكل من الأشكال في العالم جيش نظامي على مقاتلي حرب عصابات.

ثانياً: أن «حزب الله» يعرف الميدان والمنطقة أفضل من جنود «إسرائيل» وأفضل من جيش نظامي بعتاده وإعداده.

ثالثاً: أن أتباع «حزب الله» يعملون في أوساط سكان متعاطفين معهم ويمنحونهم مزايا كثيرة - كما سبق الإشارة إليها ابتداءاً -.

رابعاً: أن جيش جنوب لبنان تحول من جيش أجير - الذي كان من المفروض أن يقوم بالعمل الذي يقوم به الجيش الإسرائيلي - إلى أداة مكسورة هشة، والتي بدون حماية «إسرائيل» وحضورها فإنه يصبح بدون فائدة.

خامساً: أن الوجود الجسدي على أرض لبنان يحول «حزب الله» من تنظيم إرهابي إلى مقاتلين من أجل الحرية وشرعيين في أعين العالم، وبذلك تُخلى مسؤولية لبنان وسورية من الدم المسفوك[٤].

كذلك فإن جزءاً كبيراً من الذين يخدمون في جهاز أمن جيش جنوب لبنان الذي تستخدمه «إسرائيل» هم من الدروز والشيعة سكان الحزام الأمني، ولقد مارس حزب الله معهم أساليب مختلفة ليجندهم، وفي الوقت ذاته هناك افتراض بأن الدروز

---

(١) جريدة الأنباء، العدد: ٨٣٠٥ / ١ / ٧/ ١٩٩٩م، وانظر تصريح رئيس الأركان الإسرائيلي حول تأثير سوريا على قرارات حزب الله في جريدة الحياة، العدد: ١٣٢٩٠/ ١٥/٤/١٤٢٠هـ - ٢٨/٧/١٩٩٩م، وانظر: هيثم مزاحم: حزب الله وإشكالية التوفيق بين الأيديولوجيا والواقع، مجلة شؤون الأوسط، العدد/ ٥٩، يناير/ ١٩٩٧م.

(٢) جريدة الأنباء، ٨٣٣١/١٤/٢/١٤٢٠هـ - ٢٧/٧/١٩٩٩م.

(٣) انظر: حوار حسن نصر الله مع مجلة الوسط، العدد: ٤٣٢ / ١٧/٨/١٩٩٨م، وحواره مع مجلة المقاومة العدد/ ٤٠، ص ٢٥ - ٢٦، وانظر: محمد القدوسي، كربلاء الجديدة، ص ١٩ - ٢٠.

(٤) الخروج، يوئيل ماركوس، ملحق هآرتس السياسي، ٢/٣/١٩٩٩م.

في جهاز الأمن لا يرون أن هناك أي مشكلة في إطلاع أعضاء الحزب التقدمي الاشتراكي ـ التابع لوليد جنبلاط ـ على المعلومات التي لديهم، وهؤلاء يتعاونون مع حزب الله(١).

إن القليل فقط ينتبه إلى أنه في العام الأخير طرأ انخفاض في عدد قتلى جيش الدفاع الإسرائيلي في جنوب لبنان. وبصفة عامة فإن من الممكن القول بأنه في أربعة مجالات أساسية لم ينجح حزب الله حتى اليوم في تحقيق أهدافه: فهو لم يحتل حتى اليوم موقعاً لجيش الدفاع الإسرائيلي، ولم ينهر بسببه جيشُ جنوب لبنان على الرغم من أن ذلك يمثل هدفاً أساساً لحزب الله، وعلى الرغم من جهود «حزب الله» فلم ينجح التنظيم في اختطاف جنود لجيش الدفاع الإسرائيلي ورغم كل محاولات «حزب الله» فإنه لم تسقط حتى اليوم طائرة هليوكوبتر واحدة أو طائرة للسلاح الجوي الإسرائيلي(٢).

ولقد أعلن زعماء «حزب الله» في الماضي أنهم سيواصلون محاربة «إسرائيل» حتى (تحرير القدس)، ولكنهم قالوا مرات كثيرة ما هو عكس ذلك، أي أن هدفهم هو تحرير الأرض اللبنانية، وليس من شأنهم مواصلة العمل ضد «إسرائيل» بعد تحقيق هذا الهدف.

من الناحية العملية، وعلى النقيض من المنظمات الفلسطينية التي حاربت «إسرائيل» نفسها، تجد أن حزب الله لم يبادر أبداً بعمل ضد أراضي «إسرائيل» المحتلة قبل ٥ يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧م، وقصر هذا النشاط على الأراضي اللبنانية التي احتلت بعد ذلك التاريخ. ورغم أن مقاتلي حزب الله قد وصلوا عدة مرات إلى خط الحدود، إلا أنهم لم يتسللوا إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة. وكان يمكنهم أن يفعلوا ذلك بدون شك(٣).

وهكذا نرى أن النجاحات التي يدندن حولها حزب الله لم تكن على مستوى لائق بهذا الزخم الضخم من الضجيج الإعلامي.

وأخيراً:

لا بد أن السؤال المطروح ـ في صدر المقال ـ قد أجيب عنه، وبغض النظر عن النتيجة التي سيصل إليها قارئ هذه الحلقة، تبقى تجربة «حزب الله» تستحق الاهتمام؛ حيث إن كثيراً من الناس، بل من المتابعين لشؤون الحركة السياسية الإسلامية لم يكونوا على اطلاع على هذه التجربة.

فعلى الحركة الإسلامية «السنية» أن تنظر إلى هذه التجربة بشكل عملي للاستفادة من الإيجابيات والسلبيات؛ فقد كان من أجلَى إيجابيات «حزب الله» أو التجربة الشيعية في لبنان هو ذلك النفس الطويل في العمل والحركة، مما أدى في نهاية التجربة إلى الوصول إلى نتيجة مُرْضية جداً؛ مقارنة بالأهداف المرسومة أولاً، كما أن من الإيجابيات التي ينبغي النظر إليها باهتمام شديد: الإعداد العلمي الهادئ الذي استمر مدة زمنية طويلة؛ حيث كان أساس الحركة ومنطلقها. أيضاً؛ فقد تميزت التجربة بالاهتمام بعامة الناس بشكل كبير، واصطفافها وراء الحزب عاطفة وتأييداً ودعماً ومساندة؛ بيد أن الملحظ هنا أن الحزب خُلِّيَ بينه وبين الناس، وهو ما لم يتوفر للحركات السنية، وهذه الأخيرة لا يسعها ما وسع «حزب الله» من انحرافات وتقلبات في المنهج العلمي والحركي، ولا يسعها تبدل الولاءات، ولا أن تكون «أداة أو ورقة» في يد من له يد طولى في الواقع الذي تحياه، فلا يسعها إلا أن تكون راية تحت لواء الشريعة الحاكمة من قبل أهل الولاية الشرعية.

ونشير هنا إلى أن كثيراً من مباحث هذه الدراسة تم عرضه بشكل مختصر، ليناسب مساحة النشر، كما أن هناك مباحث أخرى لم يُتطرق إليها في هذا العرض.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر: مقال رونين برجمان، هآرتس، ٥/٣/١٩٩٩م.

(٢) فشل جيش الدفاع الإسرائيلي ومشكلة الحكومة، زئيف شيف، هآرتس، ٢٩/١١/١٩٩٨م.

(٣) افراهام سيلع، هآرتس، ٣١/٣/١٩٩٩م.



يرصدها : حسن قطامش

يفهم أفضل منك!!

أكد الرئيس الإندونيسي عبد الرحمن وحيد إثر لقاء مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات تفهم الأخير عزم جاكرتا إقامة علاقات تجارية مع «إسرائيل».

وقال وحيد الذي كان يجيب بالعربية عن سؤال بهذا الشأن في مؤتمر صحفي عقب اللقاء : إن قصدنا من العلاقات التجارية مع إسرائيل هو تأييد موقف منظمة التحرير الفلسطينية ، والرئيس عرفات يعبر عن فهم لهذا الموقف. أوضحت للرئيس عرفات أن العلاقة التجارية بين إندونيسيا و «إسرائيل» ستتجه إلى تدعيم موقف منظمة التحرير.

إن المجتمع الإسرائيلي ينقسم إلى فئات ، وهناك فئة ترى أن مصير «إسرائيل» في إقامة علاقات طيبة مع جيرانها ، ومع البلاد المسلمة ، وعلى هذا يجب علينا تدعيم تلك الفئة ، ولذلك قمت بالاشتراك في تأسيس مركز شمعون بيريز للسلام؛ لأنني أعرف أن بيريز غير بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق.

وخلص وحيد إلى القول : لهذا يجب علينا دعم (الإسرائيليين) الذين لهم اهتمام في تطوير العلاقة مع جيرانهم ، ونرجو في المستقبل أن ينظر جميع الإسرائيليين إلى أن العلاقة الطيبة مع جيرانهم هي مفتاح للسلام في هذه المنطقة. [جريدة الحياة، العدد : (١٣٤١٠)]

هي لنا.. ولا تقبل القسمة

١ ـ أشار تقرير حقوقي صادر عن مركز القدس للحقوق الاجتماعية والاقتصادية أن الحكومة الإسرائيلية تواصل سياسة نهب الأراضي والأملاك العربية في المدينة عبر وسائل غير قانونية وأن ما لا يقل عن ٣٤٪ من أراضي الدولة باتت مصادرة تماماً.

وقال التقرير الذي يتناول أوضاع حقوق الإنسان في القدس العربية : إن «إسرائيل» اعتبرت نحو ٥٢٪ من مناطق المدينة مناطق خضراء يحظر البناء فيها لتشكل احتياطاً استراتيجياً للتوسع الاستيطاني الإسرائيلي في المدينة ولم تبق سوى ١٤٪ من مساحة المدينة للسكان مقام عليها المنازل.

وأضاف التقرير : إن «إسرائيل» هدمت ما يزيد على ٤٤١ منزلاً ، وأخطرت بهدم ٤٠٠ منزل آخر بالهدم خلال السنوات الخمس الماضية. [مجلة الإصلاح، العدد : (٤١٨)]

٢ ـ انتقد العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني الموقف الإسرائيلي المتمسك بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل معتبراً أنه يقوم على سياسة الإقصاء وقال : إنها تتسع لعاصمتين : فلسطينية ، وإسرائيلية ، وأن تكون للعالم كله في الوقت نفسه. [جريدة الحياة، العدد : (١٣٤١١)]

كانت دولة الخلافة!

الزلزال الكبير الذي حدث في منطقة مرمرة التركية كان فرصة لأن ينقل المنصرون نشاطاتهم إلى الشارع التركي. إن الموقف الذي اتخذته حكومة بولنت أجاويد من المنظمات الشعبية ذات الصفة الإسلامية عقب تدفق المساعدات الضخمة منها إلى المناطق المنكوبة كان له دور في ازدياد النشاطات التنصيرية في المنطقة، وكانت منظمة تنصيرية قد وزعت مئات الآلاف من الكتيبات، وبلغ عدد الكتيبات الموزعة في منطقة اسطنبول وحدها أكثر من مائتي ألف، وألقت مديرة المنظمة محاضرة للتعريف بالنصرانية في فندق مرمرة ذي النجوم الخمسة، هذا وقد لوحظ أيضاً أن الكتيب الذي يحوي عناوين وأرقام هواتف مراكز المنظمة في مختلف البلدان يوزع على منكوبي الزلزال قبل تقديم الطعام أو المأوى لهم.

[جريدة الرياض، العدد: (١١٤٧٣)]

ما زال الحقد مستمراً

بدأت زمالة الكنائس التنصيرية في إثيوبيا ببرنامج واسع لتنصير المسلمين، يشمل البرنامج إنشاء أربع مراكز إقليمية للتدريب على كيفية تنصير المسلمين، وقد تم تنفيذ ذلك، وسيتخرج كل عام ٥٠ شخصاً من مدربي المنصرين المختصين في تنصير المسلمين، وكل واحد منهم سوف يدرب عشرين شخصاً، وبالتالي كل واحد من هذه المجموعة سيدرب عشرة أشخاص؛ حيث يكون للكنيسة عشرة آلاف شخص متخصص ومدرب على تنصير المسلمين في إثيوبيا سنوياً. ومن الناحية النظرية سيكون بالإمكان للكنيسة أن تصل إلى كل المسلمين في إثيوبيا. [دورية الكوثر، العدد: (٢٤)]

والله! لتفتحن

عدَّد المونسينيور جوزيبي برناrديني أسقف أزمير (تركيا)، الإيطالي الأصل ما ادعى أنه مراحل تؤكد عزم المسلمين على فتح أوروبا. وزعم أن العالم الإسلامي سبق أن بدأ ببسط سيطرته بفضل دولارات النفط. وأضاف: إن هذه الدولارات لا تستخدم لخلق فرص عمل في الدول الفقيرة في إفريقيا الشمالية أو في الشرق الأوسط؛ بل لبناء مساجد ومراكز ثقافية للمسلمين المهاجرين إلى دول مسيحية بما في ذلك روما عاصمة المسيحية، وتساءل: كيف يمكننا أن لا نرى في كل ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع وفتحاً جديداً.

إن كلمات الحوار والعدل والمعاملة بالمثل، أو مفاهيم مثل: حقوق الإنسان والديمقراطية تتضمن معاني تختلف تماماً عن مفهومنا لها.

إن ذلك قد يجعل من الحوار بين المسيحيين والمسلمين «حوار طرشان» إن الجميع يدرك أنه يجب التمييز بين الأقلية المتعصبة والعنيفة والأكثرية الهادئة والمعتدلة. لكن علينا ألا ننسى بأن الأكثرية ستقف وقفة الرجل الواحد وستستجيب دون تردد لأوامر تصدر باسم الله أو القرآن. لا يمكن للمسيحيين أن يكونوا متشائمين؛ لأن النصر النهائي سيكون للمسيح. [جريدة الخليج، العدد: (٧٤٠٢)]

لماذا تقدمونها؟!

بعض المساعدات التي نقدمها تذهب إلى جيوب الحكام، ويوظفونها في بنوك سويسرية، وهذا أمر لا يخدم مصالح الناس ولا مصالح فرنسا.

[وزير التعاون الفرنسي، مجلة الوسط، العدد: (٣٨٥)]

لو أنهم أولادكم؟!

بلغ عدد الأطفال العراقيين المتوفَّيْن في عام ١٩٩٧م بنحو ١٥٠ ألف طفل بسبب الحصار، وقد ارتفع هذا العدد إلى ١٨٠ ألف وذلك عام ١٩٩٨م، بزيادة نسبتها ٦٦٪ مقارنة بعام ١٩٨٩م، كما ارتفع عدد الأطفال الذين توفوا بسبب سوء التغذية إلى نحو مليوني طفل منذ فرض الحصار على العراق قبل تسع سنوات، أي بنسبة زيادة بلغت ٢٠٠٠٪ قياساً بعام ١٩٩٠م.

كما أن هناك ارتفاعاً خطيراً في عدد الولادات لأطفال من ذوي البنية الضعيفة نتيجة أوزانهم المنخفضة؛ إذ ارتفعت نسبة المواليد دون وزن ٢,٥ كيلو جرام من ٥,٤ ٪ عام ١٩٩٠م إلى ٢٣,٥ ٪ عام ١٩٩٨م، بالإضافة إلى حدوث ارتفاع كبير في عدد الأطفال المصابين بالأمراض الانتقالية كالحصبة، والتيفوئيد، والسعال الديكي بنسبة ٨٠٠٪ . وقد سُجلت نسبة كبيرة لتفشي الإصابة بأمراض أخرى كانت اختفت من العراق منذ مدة طويلة كالجرب والكوليرا؛ إذ سُجل ٤٠ ألفاً و٣٦٠ إصابة بهذين المرضين عام ١٩٩٨م، بعد ما كانت تُعادل الصفر عام ١٩٨٩م، علاوة على حدوث ارتفاع كبير في عدد المواليد المعوقين جراء نقص الأغذية والأدوية وتأثيرات الأسلحة المحرمة التي استخدمت ضد العراق خلال حرب الخليج.

[جريدة الخليج، العدد: (٧٤٥٣)]

الحق معهم

أظهرت دراسة لمعهد غالوب أن الشعوب في أنحاء العالم تشتبه في نزاهة حكوماتها وفي مراعاتها حقوق الإنسان.

وجاء في الدراسة أن النتائج تبين أن كلمتي: (فاسدة) و (بيروقراطية) أكثر الأوصاف استخداماً بين الناس لدى وصف حكوماتهم، وأظهر المسح الذي أجري في أكثر من ٥٠ بلداً في أوروبا وإفريقيا وآسيا والأميريكتين أن حوالي ٤١٪ من المشاركين فيه يعتقدون أن حكوماتهم فاسدة، في حين يرى ٤٠٪ أن حكوماتهم بيروقراطية، ويظن أقل من ١٠٪ فقط أن حكوماتهم تتسم بالكفاءة. [جريدة الحياة، العدد (١٣٤١١)]

هدية وتكريم

تلقى الزعيم الليبي معمر القذافي أرفع وسام يوغسلافي من الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش اعترافاً بجهوده في تعزيز العلاقات الثنائية.

وقدم نائب رئيس الوزراء اليوغسلافي زوران ليليتش الوسام للقذافي في ليبيا، وكانت ليبيا الدولة العربية الوحيدة التي أدانت غارات حلف شمال الأطلسي على يوغوسلافيا أثناء أزمة كوسوفا في وقت سابق هذا العام، وهي من الموردين الرئيسين للنفط ليوغسلافيا. وأبقى القذافي على علاقات وثيقة مع ميلوشيفيتش أثناء حملته على ألبان كوسوفا التي أوقفتها غارات حلف الأطلسي.

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٣٨)]

بعدما قلَّ الناصر

بلغ عدد اللاجئين المسلمين الشيشانيين في أنجوشيا وحدها (١٧٥ ألف نسمة) منتشرين بين مخيمات اللاجئين وقطارات السكك الحديدية، التي لم تستوعبهم، فاتجه الباقون إلى حظائر الماشية، ويعيش الجميع في ظروف بالغة البؤس.

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٦٥)]

قرن الدم

مع أن إنسان هذا القرن استطاع أن يفجر القنبلة النووية (١٩٤٥م) ويسير على سطح القمر (١٩٦٩م) ويستنسخ النعجة دوللي (١٩٩٨م) إلا أن المجازر التي ارتكبها، والحروب التي شنها، والثورات التي أطلقها، جعلت من هذا العصر خزاناً للعنف الدموي، ونزاعاً متواصلاً للمواجهات السياسية والدينية والعرقية، ويقدر مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق زبغنيو بريزنسكي في كتابه «انفلات الضوابط» رقماً مخيفاً؛ إذ يقدر عدد ضحايا حروب القرن العشرين ـ العالمية منها والإقليمية والداخلية ـ بنحو ١٨٧ مليون نسمة، وهو يضيف إلى أرقام القتلى العسكريين والمدنيين خلال الحربين العالميتين عدة ملايين فقدوا في حروب صغيرة. كما يضيف بريزنسكي إلى قائمة العنف ضحايا التصفيات الستالينية فيقدر عددها بأكثر من ٢٠ مليون نسمة بينهم ١٢ مليون ماتوا في المعتقلات النائية، أو في عمليات التطهير خلال الثلاثينيات. [جريدة الحياة، العدد: (١٣٤١٢)]

مرصد الأرقام

- تفيد أكثر الإحصاءات تفاؤلاً بأن نحو ٩٠٠ مليون شخص يعانون من الجوع، و١,٣ مليار شخص يعيشون في فقر مدقع. [جريدة الأنباء، العدد (٨٤٠٨)]

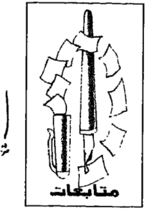
- تم التوقيع بين ممثلين من وزارتي الدفاع الأمريكية والإسرائيلية على اتفاق تبيع الولايات المتحدة بموجبه ٥٠ طائرة من طراز «إف ـ ١٦ ـ آي» ضمن صفقة مقدارها ملياران و ٤٦٠ مليون دولار.
[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٠٢)]

- ذكرت وكالة الطاقة الأمريكية أن «إسرائيل» أصبحت القوة السادسة في مجموعة الدول الكبرى نووياً، وتمتلك «إسرائيل» ما بين ٣٠٠ و ٥٠٠ كيلو جرام من البلوتونيوم الصالح لصنع الأسلحة.
[حريدة الحياة، العدد: (١٣٣٦٣)]

- كشف استطلاع رأي أجرته نقابة المعلمين في «إسرائيل» أن حوالي ربع المعلمين الإسرائيليين تعرضوا للضرب أو لشكل آخر من العنف على أيدي تلاميذهم. [جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٤٤)]

- يفيد برنامج الأمم المتحدة للإيدز أن ٢٢,٥ مليوناً من أصل ٣٣ مليون مصاب بفيروس الإيدز نهاية العام ١٩٩٨م في العالم هم من منطقة إفريقيا جنوب الصحراء. ومنذ ظهور هذا المرض في الثمانينيات أصيب ٣٤ مليون شخص بالفيروس في إفريقيا جنوب الصحراء وتوفي ١١,٥ مليوناً منهم من جراء هذه الإصابة، وتضم هذه القارة ٦٨٪ من إيجابيي المصل في العالم رغم أن سكانها يشكلون ١٠٪ فقط من مجموع سكان العالم. [جريدة الحياة، العدد: (١٣٣٦٥)]

- احتفظت منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بوضعها أكبر سوق سلاح في العالم العام الماضي بينما زاد الإنفاق العسكري ٧٪ إلى ٦١ مليار دولار، وعززت الولايات المتحدة مكانتها باعتبارها مورداً للأسلحة في العالم وسلمت شحنات أسلحة ومعدات عسكرية في عام ١٩٩٨م قيمتها ٢٦,٥ مليار دولار وهو ما يمثل حصة نسبتها ٤٩٪ من السوق. [جريدة الأنباء، العدد: (٨٤١٨)]



إشكالية التعامل مع الآخر في فكر ابن تيمية

عبد الله محمد الأمين النعيم

من المصلحين من لا يستطيع الخروج عن إطار عصره، فيركن إلى التوافق الاجتماعي بدل تغيير ما يمكن تغييره من الأفكار والعادات؛ لكن القليل من رجال الإصلاح من تكون له الشجاعة على تحدي العقبات التي تعترضه، فيخرج عن الإلف والعادة ومسايرة الرأي العام، فينتقد الأسس الفكرية الفاسدة والمسلَّمات المتواضع عليها، ويكشف العيوب الكامنة في تاريخ الأمة، ويبين المنهج الصحيح في الإصلاح، ولعل من هؤلاء القليل تقي الدين أحمد بن تيمية الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع والثلث الأول من القرن الثامن الهجري أي في عصر ابتُلي فيه المسلمون بفتن من الداخل والخارج لم يسبق أن ابتلوا بمثلها[١].

مدخل:

يأخذ الآخر وهو ـ غير المسلم ـ مساحة واسعة في القرآن والسنة النبوية والفكر الإسلامي عموماً؛ وإذا كان الوحي بشقيه ـ قرآناً وسنة ـ قد حدد الأسس والمعايير للتعامل مع الآخر إلا أن كثيراً من الدراسات الإسلامية قد انحرفت عن هذه الأصول الفكرية، ولقد لعبت عوامل عديدة لا محل لذكرها هنا دورها في إحداث هذا الانحراف الفكري نحو الضالين والمغضوب عليهم. وقد تنبأ رسول الله ﷺ بحدوث هذه الانحرافات في العلاقة بين المسلمين والآخرين؛ حيث قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[٢]. وقال في حديث آخر: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ قال: ومَن الناس إلا أولئك؟»[٣]، غير أن الأمة لا تتردى بمجموعها إلى هذه الهاوية؛ فقد أخبر ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة[٤]، وأخبر كذلك أن هذه الأمة لا تجتمع على الضلالة[٥].

وابن تيمية الذي عاش في عصر شبيه بعصرنا الحالي حاول في كتابه: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) تأصيل العلاقة مع الآخر مستنداً إلى الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، وقد استطاع إخراج دراسة شرعية على الرغم من أن العصر الذي عاش فيه كان عصر استضعاف للمسلمين؛ إذ كانت

---

(١) إبراهيم عقيلي: تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرندن، أمريكا، ط ١ ١٩٩٤م.

(٢) حديث صحيح أورده البخاري في كتاب الاعتصام، ومسلم في كتاب العلم، ومسند أحمد، ج ٤، وجامع الأصول لابن الأثير، ج ١٠.

(٣) أورده البخاري في كتاب الاعتصام.

(٤) أورده البخاري في المناقب ومسلم في الإمارة.

(٥) أورده الترمذي في كتاب الفتن.

الغلبة في الديار الإسلامية للصليبيين والتتار ومتى ما كان هناك استضعاف وذل للمسلمين فثمة بدع وضلالات ومذاهب باطلة[١].

فإذا كان ابن تيمية استطاع إخراج كتاب اقتضاء الصراط وكتابه الآخر: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) في عصر هيمن فيه الآخر وعلا في أرض المسلمين، وإذا كان ذلك العصر شبيه بعصرنا فإن هذا يدق إسفيناً في فكر الاستتباع للآخر؛ حيث يجري تسويق الآخر في ديار المسلمين حتى يمكن التعايش معه في ظل النظام العالمي الجديد.

في هذه الدراسة سأحاول تقديم خلاصة لأفكار ابن تيمية في التعامل مع الآخر مع ملاحظة الآتي:

أولاً: إن عصر ابن تيمية وإن كان شبيهاً بالعصر الحالي إلا أن هناك اعتبارات سياسية وعسكرية وغيرها من الاعتبارات يجب وضعها في الاعتبار؛ فلا يمكن معايرة ذلك العصر بعصرنا تمام المعايرة وإن وجدت المشابهة في الظروف العامة.

ثانياً: إن دراسة ابن تيمية وإن كانت دراسة أصولية استندت إلى الوحي وفكر السلف الصالح إلا أنه استصحب معه في دراسته واقعة المعاش مما يجعل السقف المعرفي لدراسته - في بعض جوانبها - محدوداً بظرف ذلك العصر وملابساته، ويتضح ذلك جلياً في استمام ابن تيمية بالآخر الموجود داخل ديار المسلمين؛ دون أن يضع كثير اعتبار للآخر الموجود خارج ديار المسلمين وهو الأخطر على المسلمين؛ لأن الجهل أو عدم الفهم - وهو الذي يولد العداوة بين المسلمين - تقل خطورته إلى حد مًّا بحكم معايشته للمسلمين؛ وهذه المعايشة قد توجِد نوعاً من الألفة.

ثالثاً: إن ابن تيمية وإن اهتم بالآخر في ديار المسلمين إلا أن دراسته جاءت شاملة لجميع الضالين؛ فلم تقتصر على الكتابيين؛ بحيث تدرج دراسته ضمن الدراسات المتعلقة بأهل الذمة وأحكامهم، وهو وإن تطرق في دراسته لهذه الجوانب إلا أنه توسع؛ بحيث وضع الأسس والمعايير للتعامل مع الآخر، وأشار إلى أمور أهل الكتاب والأعاجم التي ابتُليت بها الأمة وذلك ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم على حد قوله. ويذكر بأنه عدد أشياء من منكرات دينهم لما رأى طوائف من المسلمين قد ابتلي بها وجهل كثيراً منهم دين النصارى المحرف[٢].

هذه الملاحظات لا بد منها لكي توضع في الحسبان؛ فلا شك أن هناك من يود اقتفاء أثر ابن تيمية في معالجاته الفكرية، وهناك من يود الابتعاد عن معالجاته ومما لا شك فيه أن هناك عوامل عديدة تؤثر سلباً أو إيجاباً على المفكر.

كيف عالج شيخ الإسلام ابن تيمية إشكالية التعامل مع الآخر؟

إن ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم عمل على تشخيص بعض أنواع البدع والشركيات التي ابتليت بها الأمة، وأوضح أثر التشبه بالآخر على الأمة، ووضع قواعد أساسية في التشبه، وأوضح فئات الناس التي نهينا عن التشبه بها والنهي عن سماتهم وعن الأعياد والاحتفالات البدعية والرطانة ومفهوم البدعة وزيارة القبور ونحو ذلك، ونبه المؤلف على أصلين هما:

الأصل الأول: إخبار الرسول ﷺ القاطع الأكيد بأن أمته ستتبع سنن الأمم التي سبقتها من اليهود والنصارى وفارس والروم شبراً بشبر وذراعاً بذراع.

الأصل الثاني: إخباره ﷺ القاطع والأكيد أيضاً بأن الله - تعالى - تكفل بحفظ الدين وأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة، وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة[٣].

---

(١) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، م ١، ص ١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٠، ٤٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٨ وما بعدها.

في بيان أسباب مخالفة المغضوب عليهم:

إن ابن تيمية وهو بصدد بيان دواعي مخالفة المغضوب عليهم والضالين يوضح بأن الانحراف نحو الكفار قد يكون كفراً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ[1]، ويؤكد بأن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك، وأمور ظاهرة من أقوال أو أفعال قد تكون عبادات وقد تكون أيضاً عادات في الطعام واللباس والنكاح.. وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينها ارتباط ومناسبة؛ فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً، وقد شرع الله لنبينا من الأعمال والأحوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر؛ وإن لم تظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمور منها[2]:

١ - أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا الأمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم... إلخ.

٢ - أن المخالفة في الهدي الظاهر تؤدي إلى مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين. وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتم، وكان بعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

٣ - أن مشاركتهم في الهدي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التميُّز ظاهراً بين المهديين المرضيين والمغضوب عليهم والضالين؛ إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية. هذا إذا لم يكن ذلك الهدي إلا مباحاً محضاً لو تجرد من مشابهتهم. فأما إن كان من موجبات كفرهم كان شعبة من شعب الكفر؛ فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم؛ فهذا أصل ينبغي التفطن له.

ويؤكد ابن تيمية بأن الأمر بموافقة قوم أو مخالفتهم قد يكون لأن موافقتهم مصلحة، وكذلك قصد مخالفتهم أو مخالفتهم نفسها مصلحة بمعنى أن ذلك الفعل يتضمن مصلحة أصولية للعبد أو مفسدة، وإن كان ذلك الفعل الذي حصلت به الموافقة أو المخالفة لو تجرد عن الموافقة أو المخالفة لم يكن فيه تلك المصلحة أو المفسدة، ولهذا نحن ننتفع بمتابعتنا نفسها لرسول الله ﷺ والسابقين في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما قد كان لا يكون لنا مصلحة؛ لما يورث من محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم، ويدعونا إلى موافقتهم في أمور أخرى؛ إلى غير ذلك من الفوائد. كذلك قد نتضرر بمتابعتنا الكافرين في أعمال لولا أنهم يفعلونها لم نتضرر بفعلها، وقد يكون الأمر بالموافقة والمخالفة؛ لأن ذلك الفعل الذي يوافق فيه أو يخالف متضمن للمصلحة أو المفسدة ولو لم يفعلوه. لكن عبر عن ذلك بالموافقة والمخالفة؛ على سبيل الدلالة والتعريف، فتكون موافقتهم دليلاً على المصلحة[3] ومن تابع غيره في بعض أموره فهو منه في ذلك الأمر؛ لأن قول القائل: أنا من هذا، وهذا مني؛ أي: أنا من نوعه وهو من نوعي؛ لأن الشخصين لا يتَّحِدان إلا بالنوع[4].

ويذهب ابن تيمية إلى القول بأن مشاركة الكفار في الظاهر ذريعة إلى الموالاة إليهم وليست فيها مصلحة كما في المباينة والمقاطعة؛ حيث يقول: «والموالاة وإن كانت متعلقة بالقلب لكن المخالفة في الظاهر أعون على مقاطعة الكافرين ومباينتهم.

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٩ ـ ٨١.

(٣) المصدر السابق، ٨٢ ـ ٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٥٢.

ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع من الموالاة والموادة فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة مع أنها تدعو إلى نوعٍ ما من المواصلة كما توجبه الطبيعة وتدل عليه العادة ولهذا السبب كان السلف يستدلون بهذه الآيات «المائدة ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦. المجادلة: ١٤ ، ٢٢. الأنفال: ٧٢ ، ٧٥» على ترك الاستعانة بهم في الولايات[١].

وإذا كانت مخالفة المغضوب عليهم والضالين أمر مقصود للشرع فذلك لا ينفي أن يكون الفعل نفسه الذي خولفوا فيه ينطوي على مصلحة مقصودة مع قطع النظر عن مخالفتهم؛ فإن هنا شيئين[٢]:

أحدهما: أن المخالفة ذاتها لهم في الهدي مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين؛ لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة التي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم. وإنما يظهر بعض المصلحة في ذلك لمن تنور قلبه حتى رأى ما اتصف به المغضوب عليهم والضالون من المرض الذي ضرره أشد من ضرر أمراض الأبدان.

والثاني: أن ما هم عليه نفسه من الهدى والخلق قد يكون مضراً أو منقصاً، فيُنهى عنه ويؤمر بضده لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلا وهو: إما مضر أو ناقص؛ لأن ما بأيديهم من الأعمال المبتدعة والمنسوخة ونحوها مضرة وما بأيديهم مما لم ينسخ أصله؛ فهو يقبل الزيادة والنقص؛ فمخالفتهم فيه بأن يشرع ما يحصله على وجه الكمال ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملاً قط، فإن المخالفة لهم تنطوي على منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا، حتى فيما هم عليه من إتقان بعض أمور دنياهم؛ إذ قد يكون مضراً بأمر الآخرة أو بما هو أهم منه من أمر الدنيا؛ فالمخالفة فيه صلاح لنا.

وبالجملة: فالكفر بمنزلة مرض القلب، ومتى كان القلب مريضاً لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة: وإنما الصلاح أن لا تشبه مريض القلب في شيء من أموره؛ وفساد الأصل لا بد أن يؤثر في القلب، وإن جميع أعمال الكافر فيها خلل يمنعها أن تتم بها منفعة، ولو فرض صلاح شيء من أموره صلاحاً تاماً لاستحق بذلك ثواب الآخرة، ولكن أموره إما فاسدة وإما ناقصة.. فالحمد لله على نعمة الإسلام؛ فقد تبين أن مخالفتهم نفسها أمر مقصود للشارع في الجملة.

الدعوة إلى ترك إكرامهم:

بعد أن أكد ابن تيمية على عدم التشبه بهم دعا إلى عدم إكرام أصحاب الجحيم وإلى إلزامهم الصَّغار الذي شرعه الله - تعالى - «فاتفق عمر - رضي الله عنه - والمسلمون معه وسائر العلماء بعدهم ومن وفقه الله من ولاة الأمور على منعهم من أن يُظهروا في دار الإسلام شيئاً مما يختصون به مبالغة في أن لا يُظهروا في دار الإسلام خصائص المشركين؛ فكيف إذا عملها المسلمون وأظهروها؟ ومن المعلوم أن تعظيم أعيادهم ونحوها بالموافقة فيها نوع من إكرامهم؛ فإنهم يفرحون بذلك ويسرون به، كما يغتمون بإهمال أمر دينهم الباطل»[٣]. ولقد منع عمر - رضي الله عنه - استعمال كافر أو ائتمانه على أمر الأمة وإعزازه بعد أن أذله الله[٤].

النهي عن الرطانة:

ومن القضايا التي نعايشها إشكالية اللغة، وموقف ابن تيمية هو أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً؛ فإن اللغة العربية نفسها من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[٥].

(١) المصدر السابق، ص ١٧١ ، ١٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢٢، وراجع الشروط العمرية على أهل الذمة في كتاب ابن القيم: أحكام أهل الذمة.

(٤) ابن تيمية: المصدر السابق، ص ٤٧٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٤٩ ، ٤٦٦، انظر المدونة برواية سحنون، ج ١، مطبعة السعادة بمصر، ص ٦٣.

واستدل ابن تيمية بأحاديث عمر ـ رضي الله عنه ـ إذ نهى عن رطانة الأعاجم وقال: إنها خب، أي أنها لغة خديعة ونفاق أو أن اعتيادها يورث النفاق، وحديثه الآخر: «لا تَعَلَّموا رطانة الأعاجم، ولا تدخلوا عليهم كنانسهم؛ فإن السخط ينزل عليهم»[1]. ولهذا النهي شواهد من السنة النبوية: «من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية؛ فإنه يورث النفاق»[2]. لهذا كانت الكراهية للحديث بغير العربية.

المخالفة في الأعياد:

في مسألة الأعياد يذكر ابن تيمية الآتي:

أولاً: «إن الأعياد من جملة الشرائع والمناهج والمناسك» ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧] فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج؛ فإن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر، بل الأعياد هي من أخص ما تتميز به الشرائع ومن أظهر ما لها من الشرائع؛ فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره، ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تُنهي إلى الكفر في الجملة بشروطه. أما العيد وتوابعه فإنه من الدين المحرَّف؛ فالموافقة فيه موافقة فيما يتميزون به من أسباب سخط الله وعقابه.

ثانياً: إن ما يفعلونه في أعيادهم معصية لله؛ لأنه: إما محدَث مبتدَع، وإما منسوخ، وأحسن أحواله ـ ولا حسن فيه ـ أن يكون بمنزلة صلاة المسلم إلى بيت المقدس، هذا إذا كان المفعول مما يتدين به.

ثالثاً: إنه إذا سوّغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير، ثم إذا اشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس، وتناسوا أصله حتى يصير عادة للناس بل عيداً حتى يضاهى بعيد الله بل قد يزاد عليه حتى يكاد يفضي إلى موت الإسلام وحياة الكفر كما قد سوله الشيطان لكثير ممن يدعي الإسلام مثل عيد القيامة «شم النسيم».

رابعاً: إن الأعياد والمواسم في الجملة لها منفعة عظيمة في دين الخلق ودنياهم؛ ولهذا جاءت بها كل شريعة.

خامساً: إن مشابهتهم في بعض أعيادهم يوجب سرور قلوبهم بما هم عليه من الباطل خصوصاً إذا كانوا مقهورين تحت ذل الجزية والصَّغار فرأوا المسلمين قد صاروا فرعاً لهم في خصائص دينهم؛ فإن ذلك يوجب قوة قلوبهم وانشراح صدورهم واستذلال الضعفاء.

سادساً: إن ما يفعلونه في عيدهم منه ما هو كفر، وما هو حرام، وما هو مباح لو تجرد عن مفسدة المشابهة وجنس الموافقة وهنا يلبس على العامة دينهم حتى لا يميزوا بين المعروف والمنكر.

سابعاً: إن الله ـ تعالى ـ جبل بني آدم وسائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين؛ وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط. فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي؛ فمشابهتهم في أعيادهم ولو بالقليل هو سبب لنوع مًّا من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة؛ وكل ما كان سبباً لهذا الفساد فإن الشارع يحرمه.

ثامناً: إن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر؛ وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة؛ والمحبة والموالاة لهم تنافيان الإيمان.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ج ٤ مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ص ٨٧، فيه عمر بن هارون وهو متروك.

(٢) ابن تيمية المصدر السابق، ص ٤٧١ ـ ٤٨٩، وراجع مسألة الأعياد بتوسع في المجلد الثاني، ص ٥١٣ وما بعدها.

الخاتمة:

لقد جرى - ويجري - تسويق الآخر حتى أمكن تقبله والتعايش معه بدون حرج مما شكل خطورة على الدين الإسلامي ذاته، ومما يؤسف له أن يشارك علماء السوء في تحسين الوجه القبيح للآخر - لا سيما اليهود والنصارى - مستدلين بآيات منسوخة أو أحاديث ضعيفة لإضفاء الشرعية الدينية على آرائهم وفتاويهم، ولقد تخوَّف رسول الله ﷺ على أمته من هؤلاء الأئمة المضلين(١).

إن المسلمين وهم يعايشون مرحلة تداعت فيها الأمم عليهم تداعي الآكلة على قصعتها لا سبيل أمامهم للخروج من هذه الحالة إلا من خلال:

١ - التمسك بالهوية الإسلامية وعدم الذوبان في الآخر؛ مع ملاحظة أن التمسك بالهوية لا يعني الانكماش والانغلاق على الذات؛ لأننا أمة الدعوة الخاتمة ومطالبون بالتعامل مع الآخر لا من أجل أن نكون جزءاً منه؛ وإنما من أجل استنقاذه وإخراجه من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام. وإن ثمة ممارسات خاطئة أدت إلى تعويق الدعوة الإسلامية كانت وليدة تدين سلبي؛ إذ آثر بعض المتدينين الابتعاد عن الاختلاط بالضالين بحجة أن الاختلاط بهم سيؤثر سلباً على تدينهم، وتناسى هؤلاء الناس أنهم سيخالطون هؤلاء الضالين وهم مستعلون بالإيمان الذي يقي صاحبه من العودة إلى الكفر بعد أن استنقذه الله منه.

٢ - التمسك بالمصطلحات الشرعية في التمييز بين الناس حسب عقيدتهم؛ فهناك المؤمن، والكافر، والمنافق، والفاسق.. إلخ فهذه المصطلحات من شأنها ترسيخ الأسس والمعايير الإسلامية في العقل المسلم، فلا يتعامل مع الآخر إلا من خلال التمايز العقدي. ولقد كان من شأن تجاهل هذه المصطلحات الشرعية حدوث اضطراب في التعامل مع الآخر. وهنا يجدر التنبيه إلى أن العالم الغربي الصليبي يستعمل مصطلح «المسلمين» في أي صراع يخوضه ضد أي دولة إسلامية، وبدا هذا واضحاً في حرب البوسنة والهرسك والشيشان وغيرها مما أدى إلى تكاتف الضالين والمغضوب عليهم. هذا في الوقت الذي يستخدمون - ونحن من ورائهم - المصطلحات القومية لمناصريهم حتى يوهموا الناس بأن هذه الصراعات ليست دينية؛ فالعداء إذن في البلقان بين الصرب والمسلمين وفي الشيشان بين الروس والمسلمين وهلم جراً؛ فلنتفكر.

٣ - الاهتمام باللغات الأجنبية ومقارنة الأديان في كليات الدعوة وأصول الدين؛ فلا يمكن أن نخاطب الآخر بلغة لا يفهمها مع الجهل بعقيدته. فإذا كان النهي قد ورد بعدم استعمال اللغة الأجنبية فإن النهي المقصود به التحدث بهذه اللغات لغير ما ضرورة؛ لكن متى ما كانت هناك ضرورة فإن المحظور ينتفي. وإن عالمية الدعوة الإسلامية تستدعي فهم اللغات الأجنبية.

٤ - الحذر من الأئمة المضلين الذين يدعون للحوار بين الأديان متناسين أن الدين عند الله هو الإسلام.

٥ - الاستفادة من الاختلافات في صفوف الآخر؛ إذ إنهم شيع وأحزاب؛ فهذا قد يحقق الكثير للمسلمين.

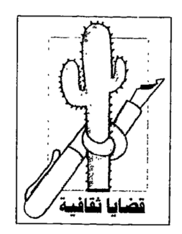
٦ - عدم الترويج في وسائل الإعلام لعقائدهم الباطلة وأعيادهم الفاسدة أو التعطل عن العمل فيها ومشاركتهم طقوسها؛ إذ إن هذا من المفاسد التي نهت عنها الشريعة.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ندعو الله - سبحانه - أن يحقق للأمة خيريتها وشهادتها على الناس؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) انظر الحديث في سنن أبي داود: كتاب الفتن والملاحم.



موقف العصرانيين من الفقه وأصوله

(١ ـ ٢)

محمد حامد الناصر

بعد أن شكك العصرانيون بحجِّية السنة النبوية راحوا يهاجمون الفقه والفقهاء، ويدعون إلى تطوير أصول الفقه (وخاصة في المعاملات) زاعمين ظاهراً فتح باب الاجتهاد، ولكن ليس هو الاجتهاد كما عرفه الفقهاء استنباطاً من النصوص، وكشفاً وإظهاراً لحكم الله، وإنما هو عندهم اجتهاد لتخطي النص، بل وتخطي سنة رسول الله ﷺ.

ولكتَّاب المدرسة العصرانية أقوال عجيبة حول تجديد أصول الفقه مآلها الفصل بين الدين والدولة، ومحاولة تمييع العلوم المعيارية للوصول إلى الفوضى، والتمهيد لتطبيق القوانين الوضعية الغربية تحت مظلة الإسلام.

يقول الدكتور أحمد كمال أبو المجد: «والاجتهاد الذي نحتاج إليه اليوم ليس اجتهاداً في الفروع وحدها، وإنما هو اجتهاد في الأصول»[١].

ودعا الدكتور حسن الترابي إلى تطوير أصول الفقه، للوفاء بحاجات المسلمين المعاصرة فقال: «إن علم الأصول التقليدي لم يعد مناسباً للوفاء بحاجتنا المعاصرة حق الوفاء؛ لأنه مطبوع بأثر الظروف التاريخية التي نشأ فيها»[٢].

ويقول موضحاً فكرته: «إن الفقهاء ما كانوا يعالجون كثيراً من قضايا الحياة العامة، إنما كانوا يجلسون مجالس العلم المعهودة، ولذلك كانت الحياة العامة تدور بعيداً عنهم، والنمط الأشهر في فقه الفقهاء والمجتهدين كان فقه فتاوى فرعية، وإن العلم النقلي الذي كان متاحاً في تلك الفترة كان محدوداً مع عسر في وسائل الاطلاع والبحث والنشر، بينما تزايد المتداول في العلوم العقلية المعاصرة بأقدار عظيمة»[٣].

وإنها لدعوى غريبة أن يزعم الدكتور الترابي أن العلم النقلي من نصوص الكتاب والسنة كان محدوداً في زمن نشأة الفقه وازدهاره!

وما البديل لدى الدكتور الترابي؟!

البديل عنده أن يشارك الشعب في الاجتهاد على طريقة دعاة الديمقراطية الغربية!!

---

(١) مجلة العربي: العدد (٢٢٢)، عام ١٩٧٧م.

(٢) تجديد أصول الفقه الإسلامي: د. حسن الترابي، ص ١٢، مكتبة دار الفكر، الخرطوم، ١٤٠٠هـ. (٣) المرجع السابق، ص ٨، ١٤.

يقول: «الاجتهاد مثل الجهاد، وينبغي أن يكون منه لكل مسلم نصيب».

ويضيف: «واتسم فقهنا التقليدي بأنه فقه لا شعبي، وحق الفقه في الإسلام أن يكون فقهاً شعبياً»[١].

ويتابع الدكتور محمد عمارة زملاءه في حملتهم على الفقه والفقهاء ودعوتهم إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مدعٍ وعامي لا علم له بالكتاب والسنة. ويقول: «إن الاجتهاد يجب أن يخرج وأن نخرج به من ذلك الإطار الضيق الذي عرفه تراثنا الفقهي، والفقهاء ليسوا وحدهم المطالَبين بالاجتهاد؛ بل إن المطالَب به هم علماء الأمة وأهل الخبرة العالية فيها، ومن كل المجالات والتخصصات؛ لأن ميدانه الحقيقي هو أمور الدنيا ونظم معيشتها، وليس إلحاق فروع الدين بأصولها...»[٢].

«فالمجتهد عند عمارة يمكن أن يكون بلا علم بالقرآن والسنة واللغة والأصول؛ لأن مجال المجتهد هو «أمور الدنيا» ولا يشترط لها كل هذا من العلوم الشرعية، وإنما يشترط لها أن يكون المرء «مستنيراً عقلانياً» تقدمياً ثورياً حضارياً؛ فمن جمع هذه الصفات فهو شيخ الإسلام حقاً؛ وقد بنى كلامه على باطل، هو التفريق المزعوم بين الدين والدنيا، وما بُني على باطل فهو باطل»[٣].

ومن غرائب الاجتهاد العصراني أن بعضهم دعا إلى صهر المذاهب الفقهية في بوتقة واحدة، وجعلها مستمَداً لا ينضب معينه، وذلك بالتسليم بكل ما قالت به المدارس الفقهية على اختلافها وتناكرها، بغض النظر عن أدلتها، ثم اختزانها في مدونة منسقة الأبواب كمجموعة «جوستينان» وأعْني كل ما أعطت المدارس: الإباضية والزيدية والجعفرية والسنية، وذلك يجعل هذه الثروة الفقهية منجماً لكل ما يجدُّ ويحدث»[٤].

«وهذه الدعوة التي تطالب بإعادة النظر في التشريع الإسلامي كله دون قيد ليفتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين، ولأصحاب الورع وأصحاب الأهواء، حتى ظهرت الفتاوى التي تبيح الإفطار لأدنى عذر.. وتبيح الربا - إلا ربا النسيئة أو أصنافاً معينة - وظهرت آراء تحظر تعدد الزوجات وتحذر من الطلاق؛ وبذلك تحوَّل الاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير للشريعة الإسلامية، يهدف إلى مطابقة الحضارة الغربية»[٥].

والنتيجة التي يود هؤلاء أن يصلوا إليها من تطوير الشريعة هو تحكيم القوانين الوضعية، وفي ذلك تنفيذ لمخططات أعداء الإسلام، الذين زعموا أن الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني. وردد هذه المقولة - مقولة المستشرق اليهودي «جولد زيهر» - الدكتور محمد فتحي عثمان نقلاً عن أستاذه السنهوري الذي يقول: «الفقه الإسلامي هو من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون المدني، وقد صنعوه فقهاً صحيحاً؛ فالصياغة الفقهية، وأساليب التفكير القانوني واضحة فيه وظاهرة»[٦].

والغاية من كلام السنهوري وإقرار تلميذه له أن يخضع الفقه الإسلامي لإشراف القانون الوضعي، ويكيِّف نفسه حسبما يقتضيه ذلك الخضوع.

«وغني عن القول أن كل أصل من الأصول الفقهية ثبتت حجيته بالكتاب والسنة، وقد بيَّن أهل العلم أدلة كلٍ من: الإجماع والقياس والمصلحة وحجية ذلك.. فهي ليست مبتدعة كما يزعم هؤلاء؛ بل هي منهج

(١) تجديد الفكر الإسلامي: محاضرة بجامعة الخرطوم، ص ١٠، ١٩٧٧م.

(٢) الإسلام والمستقبل: محمد عمارة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٥م.

(٣) محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة: سليمان بن صالح الخراشي، دار الجواب، الرياض، ص ٤٧٠.

(٤) أين الخطأ: عبد الله العلايلي، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٥) الإسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين، ص ٧٠. (٦) الفقه الإسلامي والتطور: محمد فتحي عثمان، ص ٢٩.

الاستنباط الشرعي الذي هو من الدين»[١].

إن دعوة العصرانيين هذه ما هي إلا علمانية جديدة تود تسويغ تحكيم القوانين الوضعية في ديار المسلمين، أو للتهوين من شأنها، ومن ثَمَّ مساواتها بأحكام شريعة السماء.

وقد خرج هؤلاء علينا بفقه غريب شاذ يريد تسويغ الواقع المعاصر بانحرافاته، وإليك أخي القارئ نماذج من شذوذات العصرانيين في مسائل الفقه المختلفة.

شذوذات العصرانيين في ميادين الفقه المختلفة:

موقفهم من الحدود:

حاول العصرانيون تسويغ رفضهم لإقامة الحدود الشرعية بحجج واهية كالشفقة على المجرمين، وأن قطع اليد أو الرجم ما هي إلا قسوة ووحشية لا تناسب العصر الحاضر؟!

فالشيخ عبد الله العلايلي مثلاً: يرى أن إقامة الحدود ينبغي أن لا تتم إلا في حال الإصرار، أي: المعاودة تكراراً ومراراً؛ إذ إن آخر الدواء الكي، وبلغ من استهزائه بالحدود الشرعية أن قال: «إن إنزال الحد لا يتفق مع روح القرآن الذي جعل القصاص صيانة للحياة، وإشاعة للأمن العام، وليس لجعل المجتمع مجموعة مشوهين: هذا مقطوع اليد، والآخر مقطوع الرجل، أو مفقوء العين، ومصلوم الأذن، أو مجدوع الأنف».

أما الرجم: فيقول فيه بمذهب الخوارج: «لا رجم في الإسلام كما هو مذهب الخوارج عامة»[٢].

والزاني والزانية - في عرف هؤلاء - لا يقام عليهما الحد إلا أن يكونا معروفَيْن بالزنا، وكان من عادتهما وخلقهما؛ فهما بذلك يستحقان الجلد[٣].

ولحسين أحمد أمين فتوى عجيبة في حد السرقة عندما يقول: «لقد كان الاعتداء على الساري في الصحراء بسرقة ناقته بما تحمل من ماء وغذاء وخيمة وسلاح في مصافٍّ قتله، لذلك كان من المهم للغاية أن تقرر الشريعة عقوبة جازمة رادعة لجريمة السرقة في مثل هذا المجتمع»[٤].

إباحة الربا في البنوك:

وقد بدأ ذلك الاجتهاد الشيخ محمد عبده، وتابعه في ذلك تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، وكانت الحجة هي الحفاظ على اقتصاد البلاد. والربا المحرم عند هؤلاء هو الربح المركب، أي الذي يكون أضعافاً مضاعفة[٥].

وممن قال بذلك من المعاصرين: الشيخ عبد الله العلايلي، وهو يكرر ما قاله أسلافه، يقول: «ما دام المصرف لا يزيد على أنه مقر سمسرة بتقاسم المردود مشاركةً مع من أسلم إليه مالاً، مفوضاً إياه ليعمل به حيث قضت خبرته، ولا قائل بحرمة عمولة السمسار!!»[٦].

فحرمة الربا واضحة، ونصوصه قطعية في الكتاب والسنة، وتحريم السرقة في الكتاب والسنة، وطُبِّق الرجم على عهد رسول الله ﷺ وعهد أصحابه - رضي الله عنهم - ولذلك فمن فضول القول أن نناقش الفتاوى السابقة؛ لأنها واضحة الضلال والانحراف، وخارجة عن إجماع فقهاء الأمة خلال عصورها المفضلة.

---

(١) المستشرقون: د. عابد السفياني، ص ١٢٥ - ١٢٦ بتصرف وإيجاز. (٢) أين الخطأ؟: عبد الله العلايلي، ص ٧٩ - ٨٧.

(٣) الهداية والعرفان: أبو زيد الدمنهوري، وكان قد حكم على كتابه بالمصادرة وعلى صاحبه بالزيغ والضلال، ينظر: الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم: د. محمد حسين الذهبي، ص ٩٤، ط دار الاعتصام ١٣٩٦هـ.

(٤) دليل المسلم الحزين، ص ١٤١.

(٥) ينظر: تفسير المنار، ج ٤ / ١٢٣، وتاريخ الأستاذ الإمام: ج ١/٩٤٤. (٦) أين الخطأ؟: عبد الله العلايلي، ص ٦٨.

يقول الشيخ محمد الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في هذه الفتاوى المنحرفة: «أما النظام الوضعي المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض كدعوى تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأن الرجم والقطع ونحوها أعمال وحشية لا يسوغ فِعلها بالإنسان... إلخ»(١).

ويكفي أن نعلم أن الأمم عندما ألغت القصاص شاعت فيها الجرائم، وضجت المحاكم وابتليت المجتمعات، فشاعت الفوضى ونضب معين الأمن.

موقفهم من قضية المرأة:

اهتم العصرانيون بقضية ما يسمى بتحرير المرأة وإعطائها حقوقاً سياسية كالمرأة الغربية، ودعوا إلى الثورة على الحجاب وتعدد الزوجات وإباحة الطلاق؛ لقد أكمل هؤلاء المؤامرة على المرأة المسلمة التي قادتها الحركة النسائية بعد قاسم أمين وأعوانه.

لقد اعتبر العصرانيون مسألة تعدد الزوجات ـ التي شرعها الله ـ من سمات عصر الإقطاع. يقول محمد عمارة: «إن تعدد الزوجات، وتتابع الزواج واتخاذ السراري والجواري من سمات عصر الإقطاع والدولة الإقطاعية»(٢).

ويرى هؤلاء أن الحجاب الشرعي قيد يجب التخلص منه، ثم راحوا يسوِّغون الاختلاط بين الرجال والنساء بعد أن زينوا للمرأة الخروج من بيتها وحصنها الأمين.

فالدكتور محمد عمارة يرفض أن تعود المرأة مكبلة بحجابها ويؤكد «أن جذور هذه القضية ترتبط بالتمدن والتحضر والاستنارة أكثر مما هي مرتبطة بالدين»(٣).

وهذا حسين أحمد أمين يقرر أن الحجاب «وهمٌ صنعه الفرس والأتراك، وليس في القرآن نص يحرم سفور المرأة أو يعاقب عليه»(٤).

والدكتور الترابي يقصر الحجاب على نساء النبي ﷺ فقط. والاختلاط مباح في عرف العصرانيين؛ إذ «ليست الحياة العامة مسرحاً للرجال وحدهم، ولا عزل بين الرجال والنساء في مجال جامع».

«وتجوز المصافحة العفوية التي يجري بها العرف في جو طاهر وذلك عند السلام ـ كما يزعم»(٥).

وفي ذلك مخالفة لأحاديث صحيحة وصريحة؛ فقد جاء في الحديث الشريف عن أميمة بنت رقيقة قالت: «جئت النبي ﷺ في نسوة نبايعه، فقال لنا: «فيما استطعتن وأطعتن؛ إني لا أصافح النساء»(٦).

ويرى الترابي كذلك أن للمرأة أن تستقبل ضيوف الأسرة وتحدثهم وتخدمهم وتأكل معهم»(٧).

ويدعو الدكتور محمد فتحي عثمان إلى ما يسميه الاختلاط المأمون؛ لأن المجتمع الذي يلتقي فيه الرجال والنساء في ظروف طبيعية هادئة، لن يغدو مثلُ هذا اللقاء قارعة تثير الأعصاب؛ إذ سيألف الرجل رؤية المرأة ومحادثتها، وستألف المرأة بدورها الرجل، وتتجمع لدى الجنسين خبرات وحصانات وتجارب(٨).

وواقع المرأة المزري في ديار الغرب مما ينقض هذا الرأي.

---

(١) أضواء البيان: ٤/ ٨٤ ـ ٨٥، عالم الكتب، بيروت.
(٢) فجر اليقظة العربية: د. محمد عمارة، ص ١١٨.
(٣) الإسلام وقضايا العصر: محمد عمارة، ص ٩.
(٤) موقف القرآن من حجاب المرأة: حسين أحمد أمين، الأهالي القاهرية، في ٢٨/ ١١/ ١٩٨٤م.
(٥) المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع، د. حسن الترابي، ص ٢١، ٣٥.
(٦) صحيح سنن ابن ماجة، الألباني، ٢/ ١٤٥.
(٧) المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع، ص ٢٥.
(٨) الفكر الإسلامي والتطور، ص ٢٠٤.

ودعا العصرانيون إلى مشاركة المرأة في السياسة والقانون والتجارة والاقتصاد بلا قيود، ويرون جواز مشاركتها في الانتخابات والمجالس النيابية؛ بل ويرى بعضهم ولاية المرأة للقضاء، وحتى الولاية العامة جائزة عند العصرانيين بإطلاق[1].

إلغاء أحكام أهل الذمة:

لقد أكثر العصرانيون من الحديث حول حقوق أهل الذمة وزعموا أن أحكام أهل الذمة كانت لظروف خلت وأن تطور العصر يرفضها، وممن تصدى لهذه المسألة وخصّص لها كتاباً: فهمي هويدي بعنوان: «مواطنون لا ذميون» نقتطف منه بعض آرائه؛ حيث يقول: «أليس غريباً أن يجيز الفقهاء أن يفرض المسلمون الحرب دفاعاً عن أهل ذمتهم، ثم يحجب البعض عن هؤلاء حق التصويت في انتخابات مجلس الشورى مثلاً؟» ثم يقول: «أما تعبير أهل الذمة فلا نرى وجهاً للالتزام به إزاء متغيرات حدثت. وإذا كان التعبير قد استخدم في الأحاديث النبوية فإن استخدامه كان من قبيل الوصف، وليس التعريف، ويبقى هذا الوصف تاريخياً لا يشترط الإصرار عليه دائماً»[2] فالكاتب يحاول إلغاء الأحكام بلا دليل، وكأن الاجتهاد في الإسلام تحولٌ إلى لعب أطفال وأوهام مبتدعة، وأمزجة منحرفة.

وفي فصل «الجزية التي كانت» يقول: «ومن غرائب ما قيل في هذا الصدد تعريف ابن القيم للجزية بأنها هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغاراً، وأن هذا يتنافى مع روح الإسلام، ودعوته للمسامحة بين الناس جميعاً: إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[3].

لقد حكمت الشريعة الإسلامية بضعة عشر قرناً من عمرها، لم يعرف في التاريخ عدلاً وإنصافاً ورحمة بأقليات دينية كما عرفت في تلك القرون تحت مظلة الشريعة، بل كانت الطوائف تفر من بطش أبناء دينها لتنعم بالأمن في ظل عدل الإسلام وإنصاف المسلمين، إلا أنها التبعية والتزلف الذي تناسى أصحابه أحقاد اليهود والنصارى التي ما زالت والغة في دماء المسلمين.

ولكن: يا ليت قومي يعلمون!

حقيقة العصرانية: علمانية جديدة:

لاحظنا فيما سبق من حلقات أن العصرانيين يلحُّون على تطوير الشريعة محاولين التسلل نحو تحكيم القوانين الوضعية «وخاصة في قضايا المعاملات وسياسة الحكم، وشؤون المجتمع».

وزعموا أن القوانين الوضعية لا تخالف الشريعة الإسلامية، كما دعوا إلى التوفيق بين الشريعة وتلك القوانين، أي أنهم دعوا إلى الفصل بين الدين والدولة، وهذه هي العلمانية بأجلى مظاهرها.

فالعلمانية مصطلح غربي يعني إقامة الحياة على غير الدين على مستوى الفرد والأمة، وقد ساد هذا المذهب أوروبا رد فعلٍ على تسلط الكنيسة ومبادئها المحرَّفة إثر صراع دام بين الكنيسة والعلم.

والعلمانية فكرة مستوردة بعيدة عن مناهجنا وتراثنا وهي تعني - بداهة -: الحكم بغير ما أنزل الله، وهذا هو معنى قيام الحياة على غير الدين، وهي نظام جاهلي بعيد عن دائرة الإسلام، قال - تعالى -: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) العصرانيون: ص ٢٦٥ - ٢٦٨.

(٢) مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي، ص ١٢٤ - ١٢٥، دار الشروق.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٨، ١٣١.

وقد سلك العصرانيون لتحقيق هدفهم هذا سبلاً متعددة منها :

١ - محاولاتهم الجادة لتنحية الشريعة:

لقد هاجم العصرانيون الفقه والفقهاء، وشككوا في حجية السنة النبوية، واتفقوا ـ باسم الاستنارة ـ على ضرورة تجديد الإسلام ذاته، بمعنى تعديل أحكامه وتشريعاته أو اقتلاعها من الجذور.

فالدكتور محمد أحمد خلف الله : «يرى ضرورة انعتاق الأحكام من إسار الشريعة إلى بحبوحة القوانين الوضعية، وأن خروج المعاملات من نطاق الشرع إلى نطاق القانون قد حقق لها ألواناً من الحرية والانطلاق، لم يكن لهم بها عهد من قبل»[١].

«وهو يعجب من الجامدين الذين يتمسكون بتلك المعايير البالية لمجرد أنها وردت في القرآن والسنة»[٢].

ويعتبر الدكتور محمد عمارة أن الشريعة ما عادت تلائم قضايا العصر فيقول : «إن أحداً لن يستطيع الزعم بأن الشريعة يمكن أن تثبت عند ما يقرره نبي لعصره»[٣].

ويدعو كذلك إلى مدنيَّة السلطة، وجعل حق التشريع في يد جمهور الأمة عندما يقول : «فأصحاب السلطة الدينية قد احتقروا جمهور الأمة عندما سلبوها حقها في التشريع وسلطاتها في الحكم» على حين قرر القائلون بمدنيَّة السلطة «أن الثقة كل الثقة بمجموع الأمة؛ بل جعلوها معصومة من الخطأ والضلال»[٤].

أما الدكتور أحمد كمال أبو المجد «فهو يتعجب ويتأفف من هؤلاء المسرفين الذين يرون ضرورة إسقاط القوانين الوضعية، ومن ثم يدعو إلى زلزلة قواعد الشريعة؛ حيث لا يُقتصر الاجتهاد على الفروع فحسب، بل والأصول أيضاً»[٥].

إن الأقوال السابقة تدعو صراحة إلى إسقاط الأحكام الشرعية. والشريعة الإلهية هي حكم الله، والقانون الوضعي حكم جاهلي كله سفه ونقص وعجز وقصور.

والشريعة الإلهية فصَّلها الله الذي خلق الإنسان، وهو أعلم به؛ فهي ثابتة باقية إلى يوم القيامة، أما القانون الوضعي فهو صناعة بشرية من أناس يتصفون بالعجز والنقص والتحريف، وتتحكم فيهم الشهوات[٦].

إلا أنها التبعية عند العصرانيين الجدد الذين يرون التقدم في القوانين الأجنبية منذ أقدم العصور، يقول محمد فتحي عثمان : «وعلينا ألا نتنكر لأنظمة مرت بمراحل تقدمية كبرى في الفكر والتطبيق، قبل أن نتطور بثروتنا الفقهية التي تكدس عليها غبار القرون من التعطيل والتجميد»[٧].

ولنا أن نتساءل عن هذه المراحل التقدمية؟!!

يقرر البحث العلمي أن مراحل القانون الوضعي تبدأ بقانون «حمورابي» وقانون «مانو» وقانون «أثينا» والقانون «الروماني» والقانون «الكنسي الأوروبي» مأخوذ من القانون الروماني ومما شرعه الرهبان، ثم قانون نابليون، وهذه هي المراحل التقدمية الكبرى في الفكر والتطبيق عند المؤلف[٨].

يقول ـ تعالى ـ : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠].

---

(١) من مقال بعنوان : المعاملات بين الشرع والقانون، الطليعة القاهرية، فبراير/ ١٩٧٦م.

(٢) المرجع السابق، عدد نوفمبر/ ١٩٧٥م.

(٣) المعتزلة وأصول الحكم : ص ٣٣٠، سلسلة الهلال، العدد (٤٠٠) / ١٩٨٤م.

(٤) الإسلام والسلطة الدينية : ص ٧.

(٥) حوار لا مواجهة : ص ١٠/ ١٣.

(٦) المستشرقون : د. عابد السفياني، ص ١٣١ ـ ١٣٢ بإيجاز.

(٧) الفكر الإسلامي والتطور، ص ١٦٨.

(٨) انظر الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية، ص ٤٥ ـ ٥٠. د. الأشقر.

٢ - تأييد سقوط الخلافة:

لقد تكالب الأعداء على إسقاط الخلافة، وكان من أهم شروط اتفاقية (سايكس - بيكو) ١٩١٥م، أن اشترط الحلفاء «إلغاء نظام الخلافة وطرد السلطان العثماني خارج الحدود، ومصادرة أمواله، ثم إعلان علمانية الدولة»(١).

وهاجم العصرانيون نظام الخلافة متبعين في ذلك كبيرهم الشيخ علي عبد الرازق، صاحب كتاب: (الإسلام وأصول الحكم) الذي وصف الخلافة بأنها «خطط دنيوية صرفة لا شأن للدين بها، وليس لنا حاجة إليها في أمور ديننا ولا دنيانا، ولو شئت لقلنا أكبر من ذلك؛ فإنما كانت الخلافة، ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد»(٢) - وهو يستعير في عرضه هذا آراء المستشرقين من قساوسة صليبيين ويهود حاقدين - وأن الإسلام دين لا دولة، وكان التوقيت لصدور كتابه هذا خبيثاً؛ ذلك أنه أصدره عام (١٩٢٥م) لإجهاض محاولات إحياء الخلافة آنذاك بعد إلغائها على يد كمال أتاتورك(٣).

ويقول محمد أحمد خلف الله: «والفكر السياسي في نظام الحكم هو فكر بشري خالص، وتستطيع المؤسسات العلمية من أمثال كليات العلوم السياسية أن تجتهد فيه»(٤).

ويرى محمد فتحي عثمان «أن الخلافة الإسلامية كانت صورة تاريخية، ولم تعش طويلاً، فعلى المسلمين ألا يفكروا فيها مرة أخرى»(٥).

ويقول محمد عمارة: «لم تكن الدولة هدفاً من أهداف الوحي، ولا مهمة من مهام النبوة والرسالة، ولا ركناً من أركان الدين وإنما اقتضتها ضرورة حماية الدعوة الجديدة»(٦)، «إن موقف الإسلام في مجال السياسة والدولة ينكر وجود سلطة دينية لبشر خارج نطاق الموعظة والإرشاد، ولم يحدد نطاقاً معيناً للحكم»(٧).

وهذه آراء علي عبد الرازق وسادته من المستشرقين الحاقدين نفسها.

لقد كان منصب الخلافة شوكة في حلوق أعداء الإسلام، وهدفاً طالما تحالفوا لإسقاطه، وتمزيق ديار المسلمين، وها هم تلامذة اليهود والنصارى ينادون بما خطط لهم سادتهم، والويل والصَّغار للمرْجفين.

٣ - دعوتهم الصريحة إلى علمانية الحكم:

يصرح بعض العصرانيين بحقيقة دعوتهم في الحكم وفصل الشريعة عن قضايا المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويدعون إلى علمانية مصبوغة بمفهومهم عن الإسلام.

فالدكتور حسن حنفي يرى أن العلمانية هي أساس الوحي ويقول: «العلمانية هي أساس الوحي؛ فالوحي علماني في جوهره، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ»(٨).

ويقول الدكتور محمد عمارة: «أما إسلامنا فهو علماني، ومن ثم فإن مصطلح العلمانية لا يمثل عدواناً على ديننا، بل على العكس يمثل العودة بديننا إلى موقفه الأصيل» ويقول: «فالسياسة والحكم والقضاء وشؤون المجتمع ليست ديناً وشرعاً يجب فيها التأسي والاهتداء بما في السنة من وقائع؛ لأنها عالجت مصالح هي بالضرورة متطورة ومتغيرة»(٩).

---

(١) ينظر تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين، ج ٢، ص ٨٣هـ (٣) انظر هذا الكتاب: ط ٢، مطبعة مصر، ١٩٢٥م.

(٤) مجلة العربي: العدد (٣٠٧)، رمضان، ١٤٠٤هـ من مقال للكاتب. (٥) مجلة العربي: العدد (٢٧٦)، ص ١٨، محمد فتحي عثمان.

(٦، ٧) الإسلام والعروبة والعلمانية: محمد عمارة، ص ٥. (٨) التراث والتجديد: حسن حنفي، ص ٦٩، طبعة القاهرة، ١٩٨٠م.

(٩) الإسلام والسلطة الدينية، محمد عمارة، ص ١٢٠.

إذا لم تكن العلمانية هي ما يقوله العصرانيون فماذا ستكون؟! فهم بفصلهم الدين عن شؤون الدولة والحياة، يدعون إلى علمانية قد يسمونها إسلامية، ولكنها في الحقيقة أشد بعداً عن الدين من العلمانية اللادينية؛ لأن هؤلاء يخدعون العامة باسم الإسلام، وتحت أسماء: «المفكر الإسلامي، الداعية الإسلامي، العقلاني المستنير».

ويريد هؤلاء الكتاب حكماً علمانياً، وفي أحسن أحواله ديمقراطياً برلمانياً على طريقة الغرب في أن يكون للأمة حق التشريع. رغم أن واقع الديمقراطية الغربية يشهد بإفلاس شعاراتها عند التطبيق، كما يريد بعضهم حكماً اشتراكياً يسارياً، باسم اشتراكية الإسلام أو اليسار الإسلامي[1].

ويقول محمد فتحي عثمان: «واليسار المسلم يتمسك بالديمقراطية؛ إذ هي حكم الله في المصالح والعلاقات الإنسانية؛ حيث لا يكون النص الإلهي الملزم القاطع»[2].

والحقيقة: «أن الفاصل بين العصرانيين والعلمانيين - إن وجد - دقيق جداً، وكأنهما وجهان لعملة واحدة، واسمان لمسمى واحد. وقد استفاد العصرانيون مما واجهه العلمانيون من استنكار، فراحوا يغيرون ويبدلون في المسميات، ويبحثون عن الشبه والزلات، ليلبسوا العلمانية ثوباً إسلامياً مزوراً، ويضفوا عليها صفة الشرعية، ويتمكنوا من التمويه على العوام، والتلبيس على أهل الإسلام ولو إلى حين»[3].

إن تنحية الشريعة عن شؤون الحياة من أخطر وأبرز مظاهر الانحراف في مجتمعات المسلمين الحديثة؛ وإلاَّ؛ فما الفرق بين قول قريش في جاهليتها: يا محمد! اعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهتك سنة، وبين قول العلمانيين - لفظاً أو واقعاً -: نعبد الله في المسجد، ونطيع غيره في المتجر أو البرلمان أو الجامعة؟!

وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله -: «إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين» وقال - رحمه الله -: «من اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكم الرسول ﷺ وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقاً أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال، فلا ريب أنه كفر»[4]. وقال ابن تيمية - رحمه الله - في (منهاج السنة): «ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر؛ فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر».

ومن الخطأ أن تنقل تجربة غريبة هجينة في التصور والاعتقاد إلى ديار المسلمين.

«إن الغلطة من الأصل هي محاولة وضع الإسلام وتطبيقاته على ميزان التجربة الأوروبية، واستخدام المصطلحات الغربية ذات الدلالات المحلية البحتة، كأنها اصطلاحات عالمية تصلح للتطبيق على أي شيء، وفي أي مكان، دون النظر إلى الفروق الجوهرية بين الاصطلاحات التي وضعها البشر في ظروف معينة، والمصطلحات التي أنزلها الله لتحكم الحياة، أو اجتهد المجتهدون بها، وهم ملتزمون بما أنزل الله»[5].

ولقد تميزت العصرانية بتبني الآراء الشاذة، والأقوال الضعيفة، واتخاذها أصولاً كلية الهدف منها عند أصحابها هدم القديم أكثر من بناء أي جديد؛ إذ دأبوا على محاولاتهم لتطويع الإسلام بكل وسائل التحريف والتأويل كي يساير الحضارة الغربية فكراً وتطبيقاً، ومن أجل ذلك دعوا إلى التقريب بين الأديان والمذاهب، وهوَّنوا من أمر الجهاد وقصروه على جهاد الدفاع فقط، ولكن الله غالب على أمره، والعاقبة للمتقين.

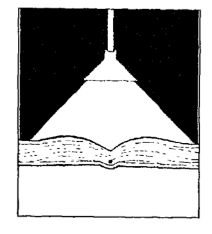
---

(١) ينظر: العصرانيون، ظاهرة اليسار الإسلامي، ص ٣٢٧ - ٣٤٧. (٢) مجلة المسلم المعاصر: محمد فتحي عثمان، العدد الافتتاحي.

(٣) انظر: كتاب مناقشة هادئة لبعض أفكار الدكتور الترابي، للأمين الحاج محمد أحمد، ص ١٠٣.

(٤) رسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم، مطابع الثقافة بمكة، ١٣٨٠هـ.

(٥) العلمانيون والإسلام: الأستاذ محمد قطب، ص ٥٩، ط دار الوطن.



مأزق الفكر الدفاعي

د. محمد يحيى

يلاحظ المتابع لساحة الفكر والكتابة الإسلامية على مدى السنوات الماضية بروز تيار من الكتابات والطروحات يمكن تسميته بالتوجه الدفاعي أو الاعتذاري أو التسويغي كان من المظنون أن الفكر الإسلامي قد تجاوزه منذ عقود ثلاثة أو أربعة من الزمان، وأنه عاد إلى الحجم الطبيعي الذي ينبغي له ليبدو مجردَ مكوِّن صغير الحجم داخل الكم الفكري العام أو الطرح الثقافي في مجمله.

ويمثل هذا التطور في تصوري ردة إلى مطلع هذا القرن الميلادي عندما ساد تيار فكري دفاعي التوجه وإن كانت هناك اختلافات جوهرية . إننا نستطيع القول بصورة مجملة - وربما إلى حد التبسيط المخل - : إن التيار الدفاعي الفكري يعود إلى القرون الأولى للإسلام؛ لكنه في ذلك الوقت كان ينصبُّ على الدفاع عن العقيدة الإسلامية في وجه ما سمي بشبهات تثار ضدها من جانب أفراد أو جماعات تعيش داخل الأمة الإسلامية وتتألف في غالبها من فلول أصحاب العقائد والمذاهب السابقة على الإسلام، أو أناس لا عقيدة لهم أو ملة، أو مسلمين حدث لهم ضلالٌ في الفكر أو زيغ عن قويم الاعتقاد . أما في طرحه الحديث فإن الفكر الدفاعي قد اتخذ منحى يمكن تسميته بالاعتذاري أو التسويغي، وكان جل توجهه صوب «اتهامات وليس شبهات» تأتي من خارج الأمة الإسلامية، وبالتحديد من دوائر التنصير والاستشراق الأوروبية ثم الأمريكية، وهي في القرون : الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين الميلادية طليعة حركات الغزو الاستعماري والسيطرة الإمبريالية في الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية .

هذا التحول والاختلاف في الفكر الدفاعي نحو الاعتذارية ونحو الخارج التنصيري ـ الاستعماري كان سمة المرحلة التي عاصرت مطلع هذا القرن أو نحوه والتي شهدت صعود نجم هذا الفكر بل وتحوله إلى «نجم» الفكر الإسلامي عموماً بمعنى توليه صدارة طروحات هذا الفكر . غير أن التيار العام للفكر الإسلامي الذي استعاد ثقته بالنفس واعتداده بالعقيدة والدين مع مضي عقود هذا القرن

تجاوز السقوط في أسر هيمنة الفكر الدفاعي، بل وأصبح إيجابي النزعة «هجوميا» - إن جاز التعبير - بمعنى أنه أخذ يطور من نظراته وتحليلاته لشتى نواحي الحياة في ثقة واعتزاز بالنفس دون الوقوع في الدائرة المفرغة لضرورة الدفاع عن النفس أمام الاتهامات الأجنبية، وقد بلغ هذا التوجه الايجابي «الهجومي» الذروة في عقدي السبعينيات والثمانينيات مع صعود قوة الحركات والافكار الإسلامية ونشاطها، وقوة المؤسسات الدينية الإسلامية وتهاوي الأطروحات المضادة الواقعة تحت مظلة العلمانية والتغريب التي عرفت في مذاهب سياسية وفكرية متنوعة يساراً ويميناً، وساد نتيجة لهذا تصورٌ بأن مرحلة فقدان الثقة بالذات - على أفضل الأحوال - مرحلة الاضطرار إلى تسويغ العقيدة والشريعة الإسلامية في وجه الطروحات العلمانية والتنصيرية والاستشراقية القادمة من الغرب قد ولت.

ولكن حدثت تحولات معروفة في دنيا السياسة وأحداثها صبت جميعها في توجه ضرب الحركات والطلائع الإسلامية السياسية والفكرية وصولاً نحو ضرب أوضاع الإسلام نفسه ووجوده التاريخي والجغرافي الثابت. ولم يحدث هذا في أطراف عالم الإسلام بل في مواقع القلب منه وفي بلدان تعتبر بؤرة عالم الإسلام وعقله.

وإذا كانت ما تسمى بالنخب السياسية والثقافية والاجتماعية في هذه البلدان الإسلامية هي التي تولت كبر هذا التدبير دفاعاً عن مصالحها ووجودها إلا أن الغرب الذي تتصل به هذه الدوائر وتستمد منه التوجه والتوجيه والدعم بأنواعه - ولا نقول الوجود - كان له الباع الأكبر في تحديد هدف ضرب الحركات الإسلامية وأساليبه ومعها الدين نفسه. وقد أصبحت هذه كلها الآن أموراً معروفة تحت عناوين الخطر الأخضر أو الأصولي، أو صراع الحضارات والثقافات، أو مكافحة إرهاب الإسلام والمسلمين، أو معركة تحديث وعصرنة الرجعية الإسلامية... إلخ وكان من أبرز تدبيرات الغرب وأتباعه بين ظهراني المسلمين في خضم هذه المعارك عملية خبيثة هدفت في غايتها إلى إعادة إحياء النزعة الدفاعية بطابع اعتذاري تسويغي سلبي منكسر، وإحلالها محل طروحات الفكر الإسلامي الإيجابي التي أخذت تملأ الساحة الفكرية والسياسية والاقتصادية والأدبية والثقافية والقانونية في بلاد الإسلام.

كانت الصورة التي أَقَضَّتْ مضاجع الغربيين والدوائر اللادينية المتسلطة على المسلمين في بلادهم هي تهاوي أطروحات الفكر العلماني المتغرب على كثرتها وقوة النفوذ المستخدم في ترويجها وإفلاسها تاركة الساحة لفكر إسلامي جديد يملؤها بأطروحات إيجابية فعالة وهو ممتلئ الثقة بالنفس، ومعتد بما لديه وليس منكسراً أو متخاذلاً أمام ما يأتي به العلمانيون والغرب، ولهذا كان الهدف الاستراتيجي الأعلى إعادة الصورة القديمة إلى ما كانت عليه قبل حوالي القرن من الزمان. كان المطلوب هدفاً عامّاً هو إخلاء الساحة من الفكر الإسلامي الصاعد والواثق من نفسه والإيجابي ليحل محله فكر متخاذل متراجع سلبي ذليل لا يقدم سوى الاعتذارات والتسويغات في وجه طروح علمانية وتغريبية يعاد بث الحياة فيها بعد موتها، ويعاد طرحها على الساحة، أو قل: فرضها فرضاً بعد أن أثبتت الأحداث على

مدى سنوات طويلة تهافتها، وبعد أن انفض من حولها من انفض إلا القليل جداً ممن آمنوا بها.

ولا حاجة بنا إلى ذكر الوسائل التي أصبحت معروفة ومستخدمة في تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي العام، وقد شملت الأساليب غير الموضوعية من ضربات قمعية وأمنية، ومنع وحظر، وملاحقة للنشاطات الفكرية الإسلامية، ومصادرات لكتب ومجلات، ولجوء إلى وسائل الإعلام والتسلية القوية لتشويه السمعة وطمس الصورة المشرقة وتضليل الجماهير، والدفع برموز مطعون فيها ومشبوهة وسقيمة الولاء والعقيدة لكي تتحول في الإعلام إلى «مفكرين إسلاميين» يوصفون بالعقلانية والاستنارة ويُستفتون في كل الشؤون! غير أن أبرز أدوات هذه العملية كانت طرح سيل من «الاتهامات» (وليس الشبهات أو الأسئلة) من جانب أجهزة الإعلام الغربية ومراكز الأبحاث والجامعات ودوائر السياسة والكنائس وغيرها؛ بحيث تصبح هذه الاتهامات هي المحرك والباعث والمسوِّغ للتيار الدفاعي الاعتذاري المراد إحياؤه كي ينطلق.

إن المسألة اتخذت طابعاً «تعاونياً» مريباً؛ فالغرب يستمر في توجيه الاتهامات بشكل مستمر أشبه بالطقوس الدينية، ولا يحول دون توجيه هذه الاتهامات السيل المستمر من الردود عليها.

وعلى الجانب الآخر يبرز أرباب الفكر الاعتذاري ليستمروا في اجترار بضاعة «الردود» على الاتهامات ولا يحول دون الاجترار أن هذه الاتهامات قد قُتلت رداً وتفنيداً منذ مطلع القرن. لكن التفسير لهذه الدائرة المفرغة من الاتهامات والردود هو أنها ليست في الحقيقة عملية طبعية من شبهات تثار ثم يرد عليها ويغلق الملف، ولكنها عملية مدبرة ومخططة يقصد بها في نهاية المطاف تسويغ إحياء الفكر الاعتذاري التراجعي ليحل محل الفكر الإيجابي الواثق في الساحة الإسلامية؛ وإلا، فمتى يرد على اتهامات الأجانب؟

هذه هي الخلفية لصعود الفكر الدفاعي في السنوات الأخيرة، وهو فكر يتسم ـ كما قلنا ـ لا بالرد على شبهات تثار في الداخل حول العقيدة بل لاتهامات وترهات ترد من الخارج في إطار تدبير معين، وهو فكر لا يظهر ليحتل وضعاً طبعياً داخل منظومة متكاملة من الطروحات الفكرية الإيجابية ولكن يشغل الحيز الأكبر وإن لم يكن الوحيد داخل الإنتاج الفكري الإسلامي، وهو فكر لا يأتي ليبني على الإنجازات الكبيرة التي تحققت للفكر والفعل الإسلامي بل ليحدث ردة وانكساراً واستخذاءاً وتراجعاً يظهر معه الإسلام وكأنه موضوع في قفص اتهام يعاني من مشاكل خطيرة أو كأنه دين مطعون فيه مليء بالعيوب والنواقص تؤكدها ولا تنفيها ردود الفعل للفكر الدفاعي التسويغي، وهذا الفكر في طرحه الأخير يعاني من مأزق أو قل مآزق جسيمة ـ فوق ما سلف ذكره من عيوب ـ نوجزه في أنه: يهدم وينقض من حيث ادَّعى البناء، ويتراجع وينتكس من حيث أراد الدفاع في زعمه، ويثبت التهمة من حيث أراد أن ينفيها، ويقر بجهة الاتهام ويؤكدها من حيث زعم أنه أراد تخطئتها.

وعلى ضوء خلفية الفكر الدفاعي التي بسطناها يتحدد مأزقه أو مآزق الفكر الدفاعي في عدة

محاور يحسن تسليط الضوء عليها؛ لأن هذا التوجه أصبح الآن مفروضاً وكأنه اتجاه شبه وحيد للفكر الإسلامي. وأبرز مشكلة لهذا التوجه الاعتذاري هي أنه حوَّل المسألة الفكرية والثقافية إلى ما يشبه القضية الجنائية أو الإجرامية؛ فهناك في طروحات هذا الفكر ثنائية حاكمة هي ثنائية الادعاء أو النيابة والدفاع، هناك جهة توجه الاتهام تلو الاتهام ولا تني وهي جهة الغرب ودوائره المختلفة تقابلها جهة تزعم أنها تدافع عن هذه الاتهامات وتدحضها، ومن الجلي أن التيار الدفاعي قد فرط منذ البداية بعنصر التساوي والتكافؤ؛ حيث أقر للغرب بشعبه وجهاته بحق توجيه الاتهام وشرعية ذلك، ثم وضع نفسه ومعه الإسلام الذي يدعي تمثيله في موضع الطرف الأضعف والموصوم منذ البداية بالاتهامات المتنوعة. ومن الواضح ألا تكافؤ هناك بين المدعي والمدعى عليه، ولا سيما أن المتهم قد أقر بشرعية سلطة الادعاء وأحقيتها في توجيه التهم.

ولا أتصور أنه يمكن في إطار تحويل المسألة الفكرية إلى شبه محاكمة جنائية ذات طرفين: قوي، وضعيف أن تكون هناك قيمة تذكر لأي أطروحات تتمخض عنها، لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار أن الفكر الدفاعي قد وضع نفسه تحت رحمة اتهامات الغرب وحصر جهوده في الرد المزعوم عليها، تاركاً للغرب أو من يمثلونه الحرية في تحديد نطاق هذه الاتهامات ورسمها، بينما سجن نفسه هو في قفص الرد عليها دون أن تكون له حرية طرح أي قضايا أخرى، أو حتى رد التهم على من يطلقونها، وإلا تعرض لاتهام آخر بالتعصب وعدم الموضوعية.

ولعلنا نذكر هنا بالمناسبة أن ما يعيب العملية المسماة الآن بالحوار بين الأديان والتي أصبحت الشغل المفروض على بعض المؤسسات الدينية الإسلامية في عالمنا العربي هو أنها تجري في إطار هذا الفكر الدفاعي، وتحكمها قيوده؛ وعليه فلا حوار هناك حقيقة؛ بل سيطرة من طرف يفرض شروط العملية ومحدداتها، وإذعان من طرف آخر لا يملك إلا رد الفعل على التهم المحددة الموجهة.

وإذا كان الفكر الدفاعي - أو بالأصح الاعتذاري - الصادر من الجانب الإسلامي المزعوم قد نسف أسسه منذ البداية بالتخلي عن حرية الحركة وحصر نفسه في دائرة الرد على الاتهامات التي يوجهها من اعترف وأقر لهم بسهولة بمشروعية توجيهها فإنه يعاني بعد هذا العيب القاتل من عيب آخر، وهو: إثبات التهمة من حيث أريد نفيها؛ ذلك لأن السمة الغالبة على هذا الفكر الدفاعي الإسلامي (زعماً) هي القول بفصلٍ بين الإسلام والمسلمين، ثم بين الإسلام «الصحيح» - كما يقولون - والإسلام الموجود في كتب الفقه والشريعة والدراسات الدينية وهو مجرد «تفسير» للإسلام حسب الادعاء الرائج.

وإذا كانت الاتهامات الغربية توجه الآن بالأكثر إلى مجالات الشريعة الإسلامية أو التاريخ الإسلامي القريب والحديث أو تراث المسلمين وعاداتهم (بينما كانت في الماضي توجه ضد العقيدة نفسها وهو ما لم يعد مقبولاً كثيراً هذه الأيام في ظل ادعاء الغرب بالتسامح وعدم تحقير الأديان) فإن الأسلوب المفضل والغالب عند الفكر الدفاعي في الرد على هذه الاتهامات هو القول بأنها بالفعل

صحيحة وثابتة، ولكن ذلك بسبب ممارسات الغالبية العظمى أو كل المسلمين الذين خرجوا عن الإسلام «الصحيح»؛ فالمسلمون عند الفكر الدفاعي مدانون بالتهم التي يطلقها الإعلام الغربي (من التعصب والإرهاب إلى اضطهاد النساء وإنكار حقوق الإنسان)، ولكن هؤلاء المسلمين لا يمثلون الإسلام «الصحيح» أو يمثلون - على الأقل - تفسيرات سيئة ورجعية للإسلام!

أما إذا حاولنا أن نعرف ما هو ذلك الإسلام الصحيح أو ذلك التفسير التقدمي للإسلام الذي لا تنطبق عليه الاتهامات الغربية فسنجد في كتابات الاعتذاريين أنه مسخ معلن متغرب يطلقون عليه اسم الإسلام الحقيقي الذي اكتشفوه هم بعد أربعة عشر قرناً من المسلمين بعلمائهم وعامتهم! وهكذا ينتهي بنا الفكر الدفاعي ليس فقط إلى إثبات التهم على المسلمين وتاريخهم بحجة أنهم لا يمثلون الإسلام الأصلي أو التفسير «الصحيح» و «التقدمي» للإسلام؛ بل إنه يصل إلى نتيجة خطيرة وهي أن الإسلام الحقيقي أو تفسيره السليم والعصري هو الذي يماثل آراء أهل الغرب ومذاهبهم وقيمهم: أي من تصدر عنهم الاتهامات.

إن التصور المنطقي العام الذي نخرج به من تأمل مقولات أصحاب الفكر الدفاعي وكتاباتهم هي أنهم – وقد انطلقوا بزعم رد اتهامات معينة أو بتصحيح «صورة الإسلام» في الغرب حسب تعبيرهم الشائع - ينتهون إلى إثبات التهم على المسلمين مع نفيها عن الإسلام؛ لكنهم عندما يتحدثون عن هذا الإسلام الذي ينفون عنه التهم نجد أنهم يقدمون – باسم «التفسير» و «التأويل» للدين - صورة هي شبه متطابقة مع قيم الغرب المعاصر وعاداته ومذاهبه وحتى القديم منها. ولعل أشهر الأمثلة على هذه النهاية ما عرفناه على امتداد العقود الماضية من دعاة يزعمون – مثلاً – أن التفسير «الصحيح» لمقولات الشريعة الإسلامية في شؤون الأسرة يدل على خطر تعدد الزوجات ومنع إيقاع الطلاق من جانب الرجل، وتقييد قوامة الرجل على أهل بيته - وكلها عادات أو ممارسات تطابق الفكر المسيحي - الليبرالي - الوضعي الذي هيمن على الغرب في القرن التاسع عشر وليس في القرن العشرين!

الفكر الاعتذاري يبدأ بإقرار واعتراف ساذج وغير نقدي بسلطة الغرب واتخاذها مرجعيةً أعلى وأنضج فكرياً في توجيه الاتهامات ضد الطرف الأدنى «وهذا هو رأي الفكر الدفاعي الضمني في الدين الذي يفترض أنه يمثله»، وهذا الفكر لا يجهد نفسه في تمحيص الفكر والوضعية الغربية التي تصدر الاتهامات ولا يتعمق في خلفية مضامين هذه الاتهامات وحقيقتها، ولا يجول في خاطره بحث الأسباب والبواعث غير الموضوعية وغير الفكرية (سياسية وتآمرية ودعائية) التي تكمن وراء هذه الاتهامات، ولا يسعى لتحليل المؤسسات والدوائر الغربية التي توجهها، إنه لا يفعل أياً من هذا ولا يوجه تهماً مماثلة أو حتى انتقادات متبصرة لأوضاع الغرب الفكرية والاجتماعية والتاريخية، بل إنه يتقبل الاتهامات على علتها حتى مع صدور معظمها عن دوائر – وبالذات الإعلام السيار – أصبحت موضع شك وطعن في الغرب ذاته، وبعد هذا التقبل «المجاني» للاتهامات بروح الفكر الدفاعي يفندها كما يتصور؛ فلا يخرج على الناس إلا بمبدأ ساذج وغريب، وهو أنه لا علاقة بين الإسلام والمسلمين؛ فالأول بريء، وأما

الآخرون فمدانون بهذه التهم. والإسلام البريء من هذه الاتهامات الغربية الجزافية في صحفهم الشعبية أو مؤسساتهم ذات التدبيرات الخفية ليس هو الإسلام الذي عرفه المسلمون طيلة القرون؛ فهذا الآخر مدان؛ لأنه كتلة من تفسيرات الفقهاء المنحازين أو المتأثرين ببيئات غابرة وأوضاع متخلفة.

إن الإسلام «البريء» في عرف جمهرة الدفاعيين هو إسلام جديد عصري تقدمي يخرج على الناس لأول مرة وهو - وللمصادفة البحتة - يكاد يتطابق مع قيم وتوجيهات وشرائع وأفضليات أهل الغرب ومشاربهم في الشؤون السياسية والاجتماعية والفكرية؛ فهو إسلام ليبرالي «مستنير» عقلاني «نسوي» رأسمالي يقدس حقوق الإنسان كما يفهمها الغرب ويبجل أديان الغرب.

إن النهاية التي يصل إليها الفكر الاعتذاري في طرحه الجديد ـ حسب تصور هذا الكاتب أو ذاك وبشكل عام مجرد ـ تؤدي بنا إلى سقوط الفكر الدفاعي واختفائه؛ فأي دفاع يتبقى بعد أن تثبت التهمة على جمهور المسلمين والفقهاء والعلماء على مر التاريخ من ناحية، وتنفى عن مخلوق في علم الغيب يسمونه بالإسلام التقدمي أو التفسير الصحيح؟! لكنه يتضح بعد رسم الملامح والخطوط أنه يتطابق مع طروحات وتيارات الغرب السائدة، أقول: أي «دفاع» يتبقى بعد الإقرار بصحة الاتهامات من ناحية، ثم «تبرئة» الإسلام المعلمَن المتغرب من ناحية أخرى؛ في تأكيد غريب وشاذ بالمرجعية العليا والمشروعية والصحة للغرب؛ بحيث إن «الإسلام» لا يمكن أن ينجو من التهم والشبهات إلا إذا قدمت له «صورة» هي طبق الأصل أو قريبة جداً من الممارسات والتصورات الغربية؟! لقد قال ماركس عن الرأسمالية: «إنها تحمل بين طياتها بذور فنائها» ونستطيع الآن القول بأن الفكر الدفاعي - لو سلمنا بصحة النوايا - يحمل في طياته بذور فنائه كما أوضحنا.

ولطغيان الفكر الدفاعي الاعتذاري على ساحة الكتابة الإسلامية في السنوات الأخيرة خلفية وسمات؛ فقد اكتشفنا أنه يعاني من مأزق أساس وهو أنه لا ينتهي في الحقيقة إلى دحض شبهات حول الدين تصدر هنا وهناك بقدر ما ينغمس - بوعي أو بدون وعي - في لعبة سقيمة تنصبها بعض الدوائر الغربية والإعلام هناك بأهداف تحويل الفكر الإسلامي عن مسار الاهتمام والإبداع الإيجابي تطويراً لمفاهيم هذا الدين، وبسطاً لها على مختلف جوانب الحياة، ورداً للطاقات الفكرية الإسلامية إلى الاجترار العقيم لمقولات مملة ما تزال تتردد في جوهرها وإن اختلف الأسلوب منذ قرن، وقلنا: إن الطابع الاعتذاري التراجعي الذي يطغى على هذا الفكر قد وسم بنوع من الخوف - ولا أقول الاستخذاء - وعقد النقص والدونية أمام الطروحات والاتهامات الغربية ـ والعلمانية المحلية ـ التي تتكرر بأسلوب يشبه الطقس الديني؛ بحيث إنه أصبح يسلم بالتهم ولا ينفيها ويقبلها على علتها دون أن يدحضها؛ بل يسارع إلى الخروج «بتفسيرات» للإسلام تعترف ضمناً بالاتهامات لكنها تسعى من خلال تقديم صورة معلمنة ومتغربة و «تقدمية» و «عصرية» و «مستنيرة» للدين إلى أن ترضي الغربيين والعلمانيين أصحاب الاتهامات، والواقع أننا بدل الحديث عن مأزق يعاني منه الفكر الدفاعي

الاعتذاري يجدر بنا أن نتحدث عن «جنايات» ينتجها هذا الفكر على الفكر الإسلامي.

إن أبرز هذه الجنايات هو رد الفكر الإسلامي من مواقع الطرح الإيجابي الواثق العريض المساحة والواسع الاهتمام إلى مواقع التراجع والارتداد وتضييق الجبهة وتقليص الاهتمام وزعزعة الثقة، والأمثلة على هذا كثيرة لا تعد؛ ففي العقود القليلة الماضية كان هناك إنتاج كبير في ميادين الدراسات الاقتصادية والإنسانية للخروج بفلسفات ومواقف ونظريات إسلامية فيها. أما الآن فالكتابة الغالبة أو التي تحظى بالترويج الإعلامي الرسمي والغربي هي التي لا تقدم مثل هذه الدراسات؛ بل التي تقتصر على الجانب التسويغي المتراجع وعلى زوايا ضيقة إلى حد يبعث على الريبة.

فبدل تكوين نظرية اقتصادية إسلامية وجدنا الخطاب الاعتذاري الذي فُرض على الساحة يركز في السنوات القلية الماضية على نقاط مثل إباحة الفوائد الربوية المصرفية.

وبدل طرح المفاهيم الإسلامية المتكاملة في مجال الأسرة كي تهدي وتعالج ملايين الحائرين في خضم فتن العصر وإباحيته نجد الفكر الدفاعي يفرض على الأمة مسائل مثل: إلغاء رخصة تعدد الزوجات، وتقييد حق الرجل في الطلاق مع منح المرأة حق إيقاع الطلاق بكل سهولة، ثم تقييد حق الرجل في القوامة على أهل بيته أو حتى إلغائه؛ وكل ذلك بحجج واهية من التمشي مع العصر، أو مراعاة حقوق الإنسان، أو إنصاف المرأة، أو تحقيق «روح» الدين؛ بينما الهدف النهائي هو أن تتحول تعاليم الأسرة وأحكامها في الإسلام إلى نسخة من نظيرتها في القوانين الغربية المسيحية والوضعية.

وبدل الحديث عن النظام السياسي في الإسلام يطرح الفكر الدفاعي ـ بعد أن ينكر وجود مثل هذا النظام ـ قضيةً وحيدة تقول: إنه لا خلافة ولا حكومة في الإسلام؛ بل نظام حزبي فقط أشبه بالنظم الليبرالية الغربية.

وبدل الحديث عن النظام القانوني في الإسلامي – أي تطبيق الشريعة – يخرج الفكر الدفاعي بمفهوم شاذ يقول: إن الشريعة في المحك الأخير ليست سوى نظام قانوني وضعي يصاغ وفق الاحتياجات المتغيرة للناس – حسب ما يزعمون – ، ونكتشف رغم ذلك أن ما يريدونه حقاً هو نظام وضعي يساير نظام الغرب ونماذجه، وليس احتياجات المسلمين، والأمثلة كثيرة ولكن في هذا كفاية.

ومن الجنايات الأخرى التي يرتكبها الاتجاه الدفاعي الاعتذاري في حق الفكر الإسلامي القضاء على روح الابتكار والخلق والنقد والبحث الواثق؛ فهذا الاتجاه ـ كما قلنا ـ يحصر الفكر في قضايا معدودة ما زالت تتكرر منذ القرن الماضي، وهو يتقبل اتهامات الغرب على علتها دون أن يمارس أي نقد أو حتى تمحيص لها، وهو يتقبل الغرب مشروعيةً فكريةً عليا دون أن يدرس هذا الزعم بموضوعية وإدراك بالعوامل التاريخية ودورها.

إن الغرب نفسه لم يعد يقبل أن يمنح مدارسه الفلسفية والفكرية وضع المرجعية العليا التي تسمو على النقد والمراجعة، لكن الفكر الدفاعي ـ وفي جهل غريب ومريب بكل التطورات الفكرية في الغرب نفسه والتي أسقطت مفهوم المرجعية المطلقة لمدارسهم ومذاهبهم التي أسست الفكر النقدي ـ يروح في

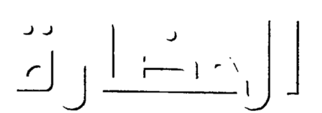
سذاجة أو ذيلية يعلي من شأن الفكر الغربي في شتى اتجاهاته، ويجعل له مشروعية توجيه الاتهامات، ثم يتقبل هذه الاتهامات باعتبارها حقاً مطلقاً قبل أن يتولى «الرد» عليها بالطريقة التي وصفناها سابقاً.

وعلى سبيل المثال: نجد الفكر الدفاعي عندما يستمع للاتهامات الغربية حول اضطهاد الإسلام للمرأة يتقبل هذه الاتهامات ولا يفكر حتى في اتخاذ موقف نقدي بسيط وأولي، يرى فيها مجرد إسقاط لمفاهيم وممارسات غربية بحتة وتاريخية نابعة من ثقافتهم وظروفهم الخاصة على عالم وحضارة الإسلام. وحتى إذا تجاهلنا الحديث عن الطابع الكيدي والمغرض لهذه الاتهامات وصدقنا أنها تصدر بحسن نية فإننا لا نستطيع أن ننكر على أنفسنا اتخاذ موقف نقدي بسيط يفحص هذه الاتهامات، ويرى أنها تعبر عن موقف ورؤية ومفهوم خاص بالغرب ونابع من ظروفه التاريخية والثقافية الخاصة المختلفة عن عقيدة الإسلام والمسلمين ودينهم وتاريخهم وحضارتهم، كما يرى هذا الموقف النقدي أن الاتهامات الغربية تنبع من صورة للإسلام تنطبع في تلك الحضارة عن الإسلام باعتباره لديهم عدواً تاريخياً وعقدياً لهم منذ أيام الحروب الصليبية. لكن الفكر الدفاعي الاعتذاري وفي غمرة تراجعه وتقبله المطلق للغرب لا يفكر في اتخاذ حتى أبسط المواقف النقدية أو الفاحصة.

وفي نهاية المطاف تنعكس هذه المثالب الناجمة عن فرض الاتجاه الدفاعي الاعتذاري ممثلةً توجهاً طاغياً أو وحيداً في ساحة الفكر الإسلامي على جمهور المشتغلين بالفكر والثقافة في الساحة الإسلامية؛ حيث يؤدي إلى إشاعة الظن بأن ذلك التوجه بعيوبه هو القدوة الوحيدة التي تحتذى، وبحيث يعتقد المشتغل بالفكر أو القارئ أنه مطالب بتقديم تسويغ ودفاع واعتذار أمام محكمة الغرب عن كل فكرة تطرأ على باله أو فعل يمارسه أو عادة يعتادها، ولعلنا نشبه هذا الموقف بمن يمشي وهو يتلفت وراءه حتى يظنه الناس مريباً؛ كما تغيب عن أذهان المشتغلين بالفكر الإسلامي نتيجة لسيادة التوجه الدفاعي كل الإنجازات والطروحات الإيجابية التي أفرزتها الصحوة الإسلامية وصعود الإسلام في السنوات الماضية؛ وهذا في حد ذاته هو المستهدف من وراء تلك «الهجمة» لفكر الدفاع والاعتذار والتسويغ التي تحتاج إلى وعي كامل بها وبأبعادها حتى نستطيع أن نفوِّت الفرصة على من فرضوا هذا الفكر وجعلوه تياراً شبه وحيد على الساحة، ومهدوا له كي يخدم أغراضاً هي أبعد ما تكون عن الدفاع حقاً عن الإسلام أو تصحيح صور مشوهة عنه يقال لنا: إنها تسود في الغرب.

وتبقى كلمة أخيرة وهي أن بعضاً منهم أصبح الآن مهتماً قبل أي شيء آخر بما يسمونه تصحيح صورة الإسلام المشوهة في الغرب، وتبلغ بهم الوقاحة حد الزعم بأن السبب في هذه الصورة الشائهة هم المسلمون أنفسهم وليست أية توجهات أو مكائد غربية، وهذا هو أحدث أو آخر ما أنتجه الفكر الدفاعي من مثالب؛ حيث انتهى به الأمر إلى اختزال كل جهود الفكر الإسلامي في تصحيح لصورة إعلامية بعد اتهام المسلمين بالمسؤولية عنها رغم أنها محض «صورة» في إعلام غربي تافه سوف يظل يكررها عشرات السنين مهما حدث لها من تصحيحات وتسويغ ودفاع؛ لأن المقصود بترويجها ليس طلب التصحيح؛ بل التشويه والكيد والإساءة، وتنفير الناس من الإسلام.





الحضارة

خالد أبو الفتوح

لم يدُر بخَلَدي قبل أن أشرع في الكتابة عن مصطلح (الحضارة) أن مصطلحاً بمثل هذا الانتشار يكتنفه غموض وإبهام كالذي رأيت؛ فهذا المصطلح - غير العربي نشأةً - أحد الترجمات لمفردتين في اللغات الأوروبية منبثقتين عن جذرين لاتينيين يختلف كل منهما عن الآخر، وقد نقل بعض (المثقفين) العرب معاني هاتين المفردتين الأوروبيتين إلى اللغة العربية وفرغوها في ألفاظ عدة حسب فهمهم لهذه المعاني وتلك الألفاظ، كان منها: (الحضارة).

فإذا علمنا أن الكلام على (الحضارة) يتشعب في كتب التاريخ والاجتماع والفلسفة والآداب والسياسة والجغرافية والعلوم...، وإذا أضفنا إلى ذلك أن عالمي الإنثروبولوجي (علم الإنسان) ألفريد كروبر، وكلايد كلوكهون كانا قد أحصيا سنة ١٩٥٢م ما يزيد عن (١٦٤) تعريفاً لـ (الحضارة) في اللغات التي نشأت دلالة المصطلح وتطورت فيها.. اتضح لنا حجم الاختلاف في تحديد مفهوم هذا المصطلح.

ولأن المصطلح نشأ وتطور خارج البنية اللغوية العربية فليس من المناسب أن نذهب - كما يفعل بعض الباحثين في مثل هذه المصطلحات - إلى المعاجم العربية لنبحث في مادة (ح ض ر) ثم نلوي بعض المعاني العربية لتتسق مع هذا المفهوم أو ذاك، أو نبتسر بعض هذه المفاهيم الغربية لتتفق مع معنى اللفظ العربي، ولكن ينبغي أن نذهب إلى المصطلح في لغته الأم، لنحاول الوقوف على معانيه الأصلية، ثم على المفاهيم التي انبثقت من هذه المعاني وتطورت عنها، وعلينا بعد ذلك أن ننظر في مدى مطابقة هذه المفاهيم للفظ العربي، وأن نبحث في مدى موافقتنا على هذه المفاهيم والمعاني، وفي أنسب الألفاظ لهذه المعاني والمفاهيم.

الحضارة في اللغات الأوروبية:

انتقل المفهوم الغربي إلى لفظ (الحضارة) العربي - وأيضاً إلى لفظي (المدنية) و(الثقافة) - عبر ترجمة لفظ Civilization التي تعود إلى اللفظ اللاتيني Civits، وأيضًا عبر ترجمة لفظ Culture التي تعود إلى الجذر اللاتيني Cultura؛ لذا علينا البحث في معاني هذين اللفظين:

أولاً: تطور مفهوم (Civilization):

اشتقت Civilization من اللاتينية Civis التي تعني المدني أو المواطن الساكن في المدينة، وهذا المعنى قريب من المعنى المقصود في كلام الفلاسفة العرب الذين تأثروا بالترجمات اليونانية عندما كانوا يذكرون أن (الإنسان مدني الطبع)، ويعنون بذلك: أنه (اجتماعي)، فمدني هنا كانت تعني: (أهلي)، أي: إنه غير وحشي، وكان هذا الاشتقاق غير متداول حتى القرن الثامن عشر، غير أن الكلمة Civilization لم تنتشر

بوصفها اصطلاحاً على (الحضارة) خلال هذا القرن، حتى إن أحد الكتاب رفض إدخالها في قاموس لغوي كان يؤلفه مفضلاً المصطلح القديم Civility الذي يحمل معنى الكياسة واللطف، وفي الوقت نفسه يعكس احتقار أهل المدن للريفي وللبدائي الهمجي.

وفي القرن الثامن عشر أيضاً استخدمها الموسوعيون الفرنسيون - قبل صياغة كلمة (رأسمالية) - لتناقض النظام الإقطاعي، وهي أيضاً قريبة من أصل المعنى؛ حيث تتناقض المدينة وحركتها الصناعية التجارية مع الإقطاع، كما أن صفة الانعتاق والتحرر تتعلق بكلمة Civilization التي قد تعني التقدم والسير إلى الإمام.

وقد عنت Civilization عند اشتقاقها: عملية (اكتساب) الصفات المحمودة، وبخاصة الألطاف الفردية والاجتماعية، ثم تطورت لتدل على النتيجة الحاصلة، أي: حالة الرقي والتقدم في الأفراد والمجتمعات (التحضر).

وفي القرن العشرين ساعد أوزفالد إشبنجلر وأرنولد توينبي وآخرون على إعطاء معنى آخر لـ Civiliza-tion - إضافة إلى عملية (التحضر) - وهو كون الكلمة تدل على وحدة حضارية تاريخية معينة؛ فالمعنى الأول مقصود به التقدم أو التحول الإنساني بشكل عام من مستوى إلى مستوى آخر أكثر تعقيداً أو تطوراً من حيث التقنية المستخدمة أو الثقافة السائدة، وفي هذا السياق يقال: حضارة بدائية، أو حضارة الآلة، أو حضارة دينية.. أما المعنى الثاني فيعني حضارة شعب بعينه أو منطقة بذاتها، فيقال: الحضارة الفرعونية، أو حضارة قبائل المايا، أو الحضارة الصينية...

وعموماً فإن الكلمة تستخدم اليوم في اللغات الغربية - في الأغلب - بصورة مطلقة لكلا المعنيين، وإن اختلفوا في ماهية المقصود منها؛ فهي عند الباحثين الإنجليز تعني الحضارات العليا، ويستعملها الفرنسيون بمعناها الشامل (المادي والمعنوي)، أما عند الباحثين الأمريكيين والألمان فهي تعني الجوانب المادية أو التكنولوجية من الحضارة، وغالباً ما يستعمل الألمان Civilization للدلالة على أن الحضارة في طريقها إلى الاحتضار.. ولكنهم جميعاً يتفقون على أن الكلمة تدل على: نمط ما من الحياة الاجتماعية مكتسب ومشتق من المدينة.

ثانياً: تطور مفهوم: (Culture):

أُخذت Culture عن اللفظة اللاتينية (Cultura من فعل Colere) بمعنى حرث أو نمّى، وقد ظلت اللفظة مقترنة بمعنى حراثة الأرض وزراعتها طوال العصرين: اليوناني، والروماني، ومع أن شيشرون استعملها بالمعنى المجازي داعياً الفلسفة: (Cultura mentis) أي: زراعة العقل وتنميته، إلا أن هذا الاستعمال ظل نادراً في اللغة اللاتينية.

وفي القرون الوسطى أُطلقت الكلمة في فرنسا على الطقوس الدينية، وفي عصر النهضة الأوروبية اقتصر مفهوم Culture على مدلوله الفني والأدبي، وبدأت الكلمة في أوائل العصور الحديثة تستعمل في الإنجليزية والفرنسية بمدلوليها المادي والعقلي، مع إضافة الشيء المقصود بالتنمية «ذكاء - معرفة - مهارة - زراعة...».

فلما كان القرن الثامن عشر أطلق الكتاب الفرنسيون اللفظة إجمالاً دون إضافتها إلى شيء معين، وأصبحت تدل على تنمية العقل والذوق، ثم انتقلت إلى حصيلة هذه التنمية من مكاسب عقلية وذوقية، وفي أواخر هذا القرن انتقلت اللفظة بما استقرت عليه من معانٍ من الفرنسية إلى الألمانية، ثم اكتسبت في الألمانية

في القرنين التاسع عشر والعشرين مضموناً اجتماعياً؛ حيث أصبحت تدل على التقدم الفكري الذي يحصل عليه الفرد أو المجموعات أو الإنسانية بصفة عامة، ويعتبر جوستاف كليم (١٨٠٢- ١٨٦٧م) مؤسس علم الإنثروبولوجيا (علم الإنسان) من أوائل من استعمل الكلمة لتدل على ظواهر اجتماعية عند أي جماعة من مهارات سلوكية و(دين) وفن وعلم وأنظمة للسلام والحرب.

أما في الإنجليزية، فحسب معجم آكسفورد فإن أول استعمال لهذه الكلمة بمعنى قريب من ذلك يعود إلى سنة ١٨٠٥م، وإضافة إلى ذلك فقد انطلق المفكرون الإنجليز في المسائل السياسية والدينية لينظروا إلى Culture من زاوية تطبيقاتها العملية، وفي عام ١٨٧١م وضع الإنثروبولوجي الإنجليزي إدوارد تايلور (١٨٣٢ـ ١٩١٧م) تعريفاً لمفهوم هذه الكلمة تأثر به معظم من جاء بعده؛ فهي عنده: ذلك الكل المركب الذي يشتمل المعرفة والعقائد والفن والآخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع.

وعرفها الفيلسوف الأمريكي جون ديوي بأنها: حصيلة التفاعل بين الإنسان وبيئته، ويعرفها كل من كروبر وكلوكهون بأنها: مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين، أي: الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها.

وإجمالاً فإننا نستطيع القول: إن مفهوم Culture يتضمن حصيلة التنمية المعرفية والأخلاقية والذوقية والتنظيمية وثمرتها المكتسبة الظاهرة في مجتمع ما، نتيجة التعليم والنظام والخبرة الاجتماعية والعوامل الاقتصادية.

ومن الملاحظ تبادل مفاهيم (Civilization و Culture) في اللغات الأوروبية من بيئة معرفية إلى أخرى.

انتقال مفهومي Civilization و Culture إلى العربية:

لعل ترجمة كتاب: (إتحاف الملوك الألبا بسلوك التمدن في أوروبا) في عهد محمد علي باشا أوائل القرن التاسع عشر الميلادي شهد ظهور أول ترجمة لكلمة Civilization بمفاهيمها الغربية الحديثة إلى العربية. وواضح أن لفظ (المدنية) صيغ في هذه الفترة مقابلاً لها للدلالة على المجالين المادي والمعنوي، وقد ذكر رفاعة الطهطاوي في كتابه: (مناهج الألباب المصرية) ما يوضح ذلك، أي: إن (التمدن) و (المدنية) كانتا تطلقان إطلاقاً شاملاً، وكذلك صيغت اللفظة نفسها في ترجمات كتب القانون، خصوصاً ما أطلق عليه: (القانون المدني)، وظل هذا المفهوم الشامل (للمدنية) مستخدَماً طوال القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين.

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين صيغت كلمة (حضارة) ترجمة لـ (Civilization)، وربما كان علي مبارك ومن بعده أحمد لطفي السيد أول من استخدم كلمة (حضارة) للدلالة على مفاهيم (Civilization)، وابتداءاً من الربع الثاني من القرن العشرين شاع استخدام كلمة (الحضارة) بديلاً عن (المدنية) بمعناها الشامل.

في عشرينيات هذا القرن أطلق سلامة موسى لفظ (ثقافة) على مفاهيم (Culture) قاصداً بها: المعارف والعلوم والآداب والفنون، يتعلمها الناس ويتثقفون بها؛ بينما أطلق (الحضارة) مقابلاً لكلمة (Civilization) قاصراً مدلولها على الأمور المادية والمحسوسة.

وفي أواخر الخمسينيات أُطلقت لفظة (المدنية) على الظواهر المادية في حياة المجتمع ترجمة لـ (Civilization) ، بينما ترجمت Culture إلى (حضارة) للدلالة على الظواهر الثقافية والمعنوية ، وقد ساهمت في ذلك ترجمات علماء الاجتماع والإنثروبولوجيا العرب.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين أخذت المعاجم والقواميس تترجم Civilization إلى (حضارة) ، مع نقل التعريفات والمفاهيم المرتبطة بالكلمة الأوروبية كما هي في بيئتها.

ومن خلال هذا الاستعراض يتضح لنا أن هناك شقين في المفهوم الغربي الذي أراد بعض المثقفين العرب نقله إلينا من خلال ترجمة (Civilization) و (Culture) : شق مادي محسوس ، وشق معنوي ومعرفي. وقد انتقل التداخل والتضارب في مفاهيم اللفظين عند الأوروبيين إلى الترجمات العربية ؛ حيث عبرت (المدنية) أحياناً عن الشقين معاً ، وأحياناً أخرى عبرت (الحضارة) عنهما ، وأحياناً عبرت (المدنية) عن الشق المادي ، و(الحضارة) عن الشق المعنوي ، وأحياناً أخرى عبرت (الحضارة) عن الشق المادي ، تاركة للشق المعنوي المعرفي كلمة (الثقافة) .. وهكذا اضطرب ارتباط المفهوم مع المصطلح ، وإن كان يكثر في السنوات المتأخرة إطلاق لفظ (الحضارة) على الشقين المادي والمعنوي ، مع بعض الميل إلى استخدام (المدنية) في الجوانب المادية ، تاركاً (الثقافة) لجهود الفرد في تنمية وعيه ومعارفه وذوقه ؛ بخلاف (الحضارة) التي تتسم بالجماعية .

نقد المفهوم الغربي:

باديَ ذي بدء : فإننا غير ملزمين بقبول محتوى المفهوم ولا بالتمسك بمصطلح ارتآه بعض المثقفين إلا بقدر ما يوافق قناعاتنا ، وهذا مقتضى إسلامنا ، بل مقتضى كوننا عقلاءَ وأحراراً ، ومن هنا : وجب علينا مناقشة المفهوم وتمحيص المصطلح ؛ فمن خلال مناقشة المفهوم الغربي - الذي يعد مرجعاً للمفكرين العرب الذين نقلوه إلينا - نستطيع التعرف على فحوى المصطلح ومدلولاته وملابساته التي تسللت إلى المصطلح العربي ، ونستطيع أيضاً استيضاح مدى توافق ذلك المفهوم مع مفاهيمنا الإسلامية الأصيلة.

لقد اتضح من خلال العرض السابق أن المفهوم الغربي خرج من كلمتين تدل إحداهما في أصل معناها على الفلاحة (غرس ، ثم إنماء ، ثم حصد) ، وتدل الأخرى على النسبة إلى المدينة ، بينما خرج المصطلح العربي (حضارة) من منطلق أن (الحضر) بخلاف البدو ، وعليه : فإن الكلمة (حضارة) تدل على الاستقرار الذي تنشأ عنه المدينة التي هي أصل Civilization ، ويمكن مناقشة ذلك فيما يلي :

أولاً: ارتباط مفهوم (الحضارة) بالمدن والنظرة الأوروبية للتطور أخرج مجتمعات بشرية مما يسمى بالمجتمعات البدائية من دائرة الحضارة ، وهذا لا يستقيم إنسانياً ؛ فالحضارة ميزة إنسانية نظراً لتفرد تكوين الإنسان العقلي والنفسي والعضوي ، وهذا ما عناه ابن خلدون في مقدمته عندما أدخل البدو (بدون مدن) في مراحل العمران ، وقريب من ذلك تقريرات علماء الإنثربولوجيا ؛ فهم يقصدون بالحضارة : جماع حياة أي مجتمع بدائي أو متقدم ؛ فلكل جماعة إنسانية من النشاط (الحضاري) ما تهيأ لها لتتكيف مع بيئتها وتحقق غايتها من التحسين والسعادة ، وهكذا يكون لكل جماعة إنسانية حضارتها التي أبدعتها ، وكما أنه ليست هناك جماعات كاملة التحضر كذلك لا توجد جماعات وحشية أو بدائية تماماً.

فالبدو - مثلاً - ليسوا خلواً من (الحضارة) ، وقد كان لهم في بلاد العرب - قبل الإسلام - أعرافهم وقيمهم

الأخلاقية التي ترتكز في تقريرها وتنفيذها على إعمال فكر، وكان لهم شِعْر يحمل كثيراً من الحكمة والتأمل والخبرة، كما كانت لهم خبرات عن النجوم والرياح والمطر بنيت على الملاحظة والاستقراء.

وقد أشار علماء الأجناس الجدد ـ حسب الموسوعة البريطانية ـ إلى أن شعوباً بدون مدن مثل قبائل بولينيزيا والهنود الحمر في أمريكا الشمالية كانوا على درجة عالية من (الحضارة)، بمعنى أنه عند التدقيق وجد أنه كانت لديهم لغات، وفنون أصيلة، بشكل يثير الإعجاب لظروفهم ومؤسساتهم المتطورة، وكان لديهم أيضاً ممارساتهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وأساطيرهم الوثيقة التي هي ليست بأحسن ولا بأسوأ من كثير من تلك التي تسود اليوم بين دول أوروبا.

وقد قدمت (الحضارات الماضية) في أطوارها المتعددة إنجازات تعتبر الأساس الذي شيد عليه البناء الحضاري الأوروبي، كاكتشاف النار، وصهر المعادن، وتدجين الحيوانات، والكتابة، والعجلة، وابتكار الصفر... بل قدمت جماعات بشرية بدائية اختراعات كانت أنفع للإنسان من الصعود إلى القمر، وهل يقارن هذا الصعود ـ من جهة نفعه للبشرية ـ باختراع رغيف الخبز مثلاً؟!

ونخلص من كل ذلك إلى أن الحضارة نسبية، وأنها تراكمية، كما أنها أيضاً كلمة محايدة لا تحمل في ذاتها مدحاً ولا ذماً.

ثانياً: إن مفهوم (الغرس، ثم الإنماء، ثم الحصد) جعل كثيراً من الباحثين ينظرون إلى (الحضارة) على أنها تسير في خط تصاعدي دوماً، حتى إن بعض المفكرين كهيجل وكانت وفيكو ـ على فروق بينهم ـ قسموا التاريخ إلى ثلاث مراحل: مرحلة الهمجية، ومرحلة البربرية، ومرحلة (الحضارة)، وبناءاً على ذلك المفهوم تكرست النظرة إلى أحوال المجتمع الأوروبي المعاصر على أنها (الحضارة)، بينما المجتمعات الأخرى الماضية أو المعاصرة مجتمعات همجية، أو ـ في أحسن الأحوال ـ في مرحلة متدنية من (الحضارة)، ولذلك: ظهرت عبارات مثل: المجتمعات المتخلفة، المجتمعات النامية، اللحاق بركب الحضارة، تضييق الفجوة،.... وفي الوقت نفسه: أعطى هذا المفهوم تصوراً عن قيم المجتمع الأوروبي ـ الذي تسنم قمة (الهرم الحضاري) ـ ومعتقداته وأنماط سلوكه ووسائل حياته.. أنها الأرقى والأصلح، بينما عدت قيم المجتمعات الأخرى ومعتقداتها وأنماط سلوكها رجعية ومتخلفة، ومن ثم: ظهرت عبارات مثل: رسالة الرجل الأبيض، اتباع الحضارة الغربية بحلوها ومرها، الدور التحضيري لأوروبا.. وبالفعل فقد تعاظم الدور الأوروبي في المجتمعات الأخرى، وأخذ الأوربيون في (غرس) قيمهم وأفكارهم ونمط معيشتهم، والعمل على (إنمائها) وسط هذه المجتمعات، والتطلع والصبر لـ (حصد) ثمرتها، وهو ما نعده نحن غزواً حضارياً بينما يدعي بعضهم أنها مجرد عملية (تحضير) قسري.

ثالثاً: إن هذا المفهوم بخلفياته التاريخية الأوروبية ولّد نوعاً من فكر التبعية تجاه الغرب؛ فنسق التطور الأخير للمدينة الأوروبية أوجد مدناً كبيرة بمثابة مراكز عالمية تمثل بؤراً تتشابك حولها مدن مختلفة رغم تباعدها، غير أنها ترتبط بالمدينة (الأم)، وتكون هذه المدن أخوات في المدينة الأم، وهذه هي النظرة الإغريقية نفسها تجاه المدينة الأم (أثينا)، ولكن طبيعة العلاقات المعاصرة أوجدت أنماطاً من الارتباطات مختلفة عن تلك التي كانت على عهد الإغريق، ومن هنا تكرست النظرة إلى طبيعة العلاقة المفترضة بين دول العالم (النامي) ودول العالم (المتحضر) بأنها علاقة تبعية، ثم نشأت المحاور والأحلاف والعلاقات الخاصة مع المراكز (الحضارية) الأوروبية.

ومن جهة أخرى: فإن انبهار العالم (النامي) بحضارة أوروبا ونظرة كثير من مثقفيه المهزومين نفسياً إلى كون الحضارة: نقلاً وغرساً وإحلالاً، أوجد بيئة خصبة للدعوة إلى استبعاد الثقافة والمعارف - بل والقيم - المحلية وتنحيتها؛ بوصفها رجعية متخلفة، لتفسح المجال لـ (الثقافة الجديدة) و(ثقافة اليوم) و(ثقافة المستقبل)، ومن ثم: للحضارة الجديدة.

رابعاً: إن المفهوم الأوروبي مستمد من القيم والأخلاق والأنماط التي أوجدتها المدينة الأوروبية بعد تطورها الأخير، ولذلك فإن هذا المفهوم ينسب إلى (المدينة)؛ فالمدينة في الغرب مصدر للقيم والسلوك، القيم والسلوك اللذين ظهرا في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين؛ حيث تطورت المدينة الأوروبية وانتشر فيها نمط حياة الترف وما صاحبه من أفكار وعلاقات اجتماعية وسياسية مستحدثة، وهذا بخلاف التصور الإسلامي، بل والتاريخ الإسلامي اللذين يختلفان عن التصور والتاريخ الأوربيين؛ فالمدينة إسلامياً هي التي خرجت من رحم القيم والسلوكيات الإسلامية وليس العكس؛ فهي مدينة؛ لأنها ذات شرعة (دين) وسلطان (دان)؛ فهي إحدى صور تشكلُّ حياة المسلمين، وهكذا كانت حضارة الإسلام وليدة هذا الدين، ولذلك صاحب تغيير الرسول ﷺ لاسم (يثرب) إلى (المدينة) إعادة تشكيل المجتمع الجديد وفق القيم الإسلامية، وربما لذلك أيضاً كان من علامات النفاق إطلاق اسم (يثرب) على (المدينة)؛ حيث يحمل إطلاق هذا الاسم القديم رغبة في العودة إلى العقائد والقيم والنظم القديمة التي محاها تأسيس (المدينة) النبوية.

ومن هنا: رأينا اختلاف المجتمع الأوروبي (المتحضر) عن المجتمع الإسلامي في شتى المجالات حتى المادية منها؛ حيث تسيطر أدوات الحضارة (الأشياء) على الأول، يدور حولها ويعمل من أجلها؛ لأنها غايته، بينما يوظف المجتمع الإسلامي هذه الأدوات لخدمة عقيدته ومبادئه ومنهجه.

خامساً: صاحَبَ نشوء المفهوم الأوروبي - أو سبقه - انفكاك المدينة الأوروبية من هيمنة الكنيسة - حيث كانت الكنيسة مركز المدينة الأوروبية والمسيطرة عليها - أو بالأحرى: انفكاك المجتمع الأوروبي من الدين، وعلى ذلك قامت حضارة أوروبا المعاصرة، ونتج عن ذلك أمران مهمان:

أما الأمر الأول: فهو بروز مفهوم (الحضارة) أو (المدنية) على أنه عكس مفهوم (الدينية)، ومن هذا التصور ظهرت عبارات: الدولة المدنية، والقانون المدني، والثقافة المدنية، في مقابل: الدولة الدينية، والقانون الديني، والثقافة الدينية، وهكذا انتقلت (اللادينية) إلى مجتمعاتنا عبر (المدنية) رغم التباين الكبير بين دين النصرانية ودين الإسلام.

والأمر الثاني: نشوء القومية الحديثة على أطلال الانتماء الديني أو المذهبي، ومن ثم ربطت الحضارة بالأرض أو القومية؛ ولهذا السبب لا نجدهم يطلقون اسم (الحضارة المسيحية) على حضارتهم رغم اشتراكهم في الانتساب إلى (المسيحية)، إضافة إلى سبب آخر هو أن انكماش المساحة التي يتحرك فيها دينهم - وأي دين خلاف الإسلام - جعلهم لا يتركون للدين إلا ركناً ضيقاً، هو كونه أحد مكونات الشق المعنوي في (الحضارة) أو (المدنية)، وهذا بخلاف الإسلام الذي تتأبى طبيعته على الانكماش أو الانزواء؛ فهو أوسع من أن تحتويه دائرة في (الحضارة) أو حتى كل الحضارة؛ لأنه يشمل الحياة كلها، ولذا خرجت منه الحضارة وانتسبت إليه وليس العكس؛ وهذه خصيصة إسلامية فريدة.

تمحيص المصطلح العربي:

ارتكز من روَّج لمصطلح (الحضارة) على أن (الحَضَر) لغةً بخلاف البدو، مما يعطي دلالة على الاستقرار الذي هو شرط (للحضارة)، وأيضاً: على الاستعمال العربي لـ (حَاضِرة) بمعنى مدينة أو قرية.

ورغم أن المعاجم العربية تورد (الحَضَر) على أنها خلاف البدو، وأن (الحَضَارة) الإقامة في (الحَضَر)، إلا أن الاقتصار على هذا المعنى لاتخاذه مصطلحاً غير مُسلَّم به؛ فقد أورد ابن الأنباري في كتابه (الأضداد) - وكذا أورده قطرب في الأضداد أيضاً - أن (الحضارة) من الأضداد؛ حيث قال: «ومن الأضداد قولهم: فلان من أهل الحَضَارة، إذا كان من أهل الحَضَر، ومن أهل الحَضَارة، إذا كان من أهل البادية»[1].

وإذا ضربنا صفحاً عن دلالة ما ذكره ابن الأنباري فإننا بالتأكيد لا نستطيع الزعم بأن أهل العربية قصدوا من لفظ (الحضارة) المفاهيم نفسها التي يقول بها علماء الإنثروبولوجيا المعاصرون؛ لأن اللفظ العربي لا يحتمل تلك المفاهيم لغة، كما أن (الحضارة) - إذا اعتبرناها من (حاضرة) بمعنى مدينة - لا تدل لغةً على الشق المعنوي والقيمي الذي ارتبط بالمفاهيم الحديثة لـ (الحضارة)، إلا إذا أضفنا إليها مفاهيم Civilization الغربية، وهذا لا يستقيم لغة ولا تاريخاً - كما بينا -.

وقد حاول الأستاذ نصر محمد عارف[2] توسيع مفهوم (الحضارة) عربياً ليتسع لمعانٍ إسلامية كثيرة، عن طريق ربطه بمعنى (الشهادة)، وحاول ذلك أيضاً من خلال التفريق بين (الحضور) و(الوجود)؛ حيث أعطى للحضور معنى «طرح نموذج إنساني للاقتداء به، أو للتبشير به بغض النظر عن مضمون هذا النموذج».

ولا شك أن هناك رابطاً بين (الحضور) و(الشهود)، ولكن هذا الرابط لا يصل إلى حد أن تكون الكلمتان مترادفتين، بحيث نذهب لنستنطق المعاني المستنبطة من (شَهِدَ)، ثم نسقطها تلقائياً على (حَضَرَ) - كما فعل الأستاذ نصر -، فأصل معنى (شَهِدَ) لغة: عَلِم وبيّن، وهذا المعنى لا يُشترط دوماً في (الحضور)، وهذا الفرق سجله أبو هلال العسكري في كتابه: (الفروق في اللغة)؛ حيث قال: «فالشهادة تقتضي العلم بالمشهود على ما بينّا، والحضور لا يقتضي العلم، ألا ترى أنه يقال: حضره الموت، ولا يقال: شهده الموت؛ إذ لا يصح وصف الموت بالعلم»[3]، وهذا يعني أن الشهادة أعم من الحضور، فكل مَن شَهِدَ حَضَر، وليس بلازم أن يكون كل من حضر شهد.

فنحن إذن بإزاء ثلاث كلمات: الوجود: وهو ضد العدم، وهو ممكن مع الغيبة، والحضور: وهو ضد الغيبة، لذا فهو غير ممكن مع الغيبة، ولا يستلزم العلم والبيان. والشهود: وهو أعلى من الحضور؛ إذ يقتضي حصول العلم والبيان، وقد يعني هنا: المراقبة وأداء الرسالة.. وهذا التفريق بين الكلمات الثلاث يجعلنا نخرج أصحاب حضور مثل التتار - الذين كان لهم نظم ودساتير وتأثير في حركة التاريخ - من الشهود؛ حيث كان لهم حضور ولكن لم يكن لهم شهود.

---

(١) الأضداد، لابن الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٢٦٥.

(٢) في بحثه المعنون: الحضارة - الثقافة - المدنية (دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم)، ولا تحط هذه الملحوظة من قدر البحث وتميزه؛ إذ يعد من أقيم ما كتب بالعربية حول هذا المصطلح - حسب اطلاعي -، وهو من أهم ما إستفدت منه في هذا المقال.

(٣) الفروق في اللغة، ص ٨٩.

فإذا كان مصطلح (الحضارة) لا يكفي للدلالة على المفهوم المراد - رغم التحفظات الموردة عليه - فما هو اللفظ الذي يمكن أن يطرح بديلاً له؟

قبل أن نبحث في المصطلح البديل علينا أولاً أن نحدد المفهوم، وإذا كان مقال كهذا لا يحتمل البحث في تعريف جامع مانع للمفهوم، فسوف أحاول تقديم ملامحه من خلال التعرُّف على العناصر والخصائص والشروط ودوائر النشاط المشكلة له.

فالمفهوم يبحث في نشاط الإنسان وإنجازاته في فترة زمنية، بما يحقق ذاته وسعادته ويكيفه مع بيئته ويميزه عن غيره، باعتباره مخلوقاً اجتماعياً مختلفاً عن الحيوان.. ومن هنا نستطيع القول: إن عناصر المفهوم هي: الإنسان، والبيئة، والزمن..

والإنسان: عقل، وجسد، وروح، يتميز عن الحيوان - عندما يكون إنساناً - بأن عقله: يستطيع التأمل والنظر، والتحليل والتركيب، والربط بين المتشابهات والتفريق بين المتنافرات، واختزان التجارب والمعارف ثم تذكرها والاستفادة منها.. وبأن جسده: يحتوي - إضافة إلى غرائزه - على مخ كبير الحجم، له جهاز عصبي معقد التركيب، قامته منتصبة مما حرر يديه، يداه تمكنانه من القبض على الأشياء بقوة، لسانه وحباله الصوتية مكنته من إخراج أصوات مختلفة، عيناه في وجهه مما يمكنانه من الرؤية في مجال بصري واسع، طفولته الجسدية والعقلية والنفسية طويلة.. وبأن روحه: تبحث عن الطمأنينة والسكن والتجانس والجمال مع جنسه ومع بيئته، تسمو بالغرائز، وتبحث دائماً عن معبود تألهه.

وأما البيئة فمقصود بها: العناصر والإمكانات المادية المتاحة لاستغلال الإنسان، والعوامل الجغرافية (تضاريس، وموقع، ومناخ) التي يعيش فيها ويتأثر بها ويحاول السيطرة عليها.

وأما الزمن: فهو امتداد الوقت الذي ينشط فيه الإنسان: الماضي الذي يستمد منه خبرته، والحاضر الذي يعايشه ويستغله، والمستقبل الذي يستشرفه ويخطط له.

ولكن هذه العناصر الثلاثة: (الإنسان، والبيئة، والزمن) لا تعمل وحدها؛ إذ لا بد أن يكون هناك غاية (هدف) يسعى إليه، وتعاون اجتماعي يعمل على تحقيق هذا الهدف وتلك الغاية، ولإخراج هذا الهدف إلى الواقع لا بد من الاستقرار والاستمرار إضافة إلى التعاون، ولقيام هذا التعاون لا بد من وجود نوع من أدوات الاتصال (اللغة والكتابة مثلاً)، ولا بد من وجود نوع من العلاقات الاجتماعية، ونوع من الحكم المنظم والسلطة المؤثرة وقوانين (أو أعراف) منظِّمة.

ومن هنا: نجد أن الإنسان في سعيه لتحقيق هدف راحته وسعادته (الجسدية والعقلية والنفسية والروحية) يعمل في دوائر نشاط متعددة ومتداخلة، نتجت من طبيعة الإنسان وتفاعله - جماعياً - مع بيئته خلال الزمن، هذه الدوائر هي: دائرة النشاط المعنوي والمعرفي، وتشمل: الجوانب العقدية والروحية والفكرية، ودائرة النشاط المادي، وتشمل: الجوانب الاقتصادية والتقنية والمعمارية..، ودائرة النشاط الإداري، وتشمل: النظم والمؤسسات السياسية والإدارية.

فما هي الكلمة التي تصلح أن تدل على هذه المفاهيم؟

في رأيي - وبدون تعصب فكري أو سلفية شكلية - أن أقرب كلمة تدل على هذه المفاهيم هي الكلمة التي اختارها العلامة ابن خلدون: (العمران)، فهي أقرب الكلمات في اللغة العربية، وأقربها إلى الاستعمال القرآني، بل لا تدانيها - حسب علمي - لفظة أخرى في اللغات الأجنبية للدلالة على هذه المفاهيم..

فأصل مادتها واشتقاقاتها تتضمن الجانبين: المادي، والمعنوي، وتتضمن أيضاً: البقاء (الاستمرار)، والامتداد الزمني، والاجتماع، والكثرة (أو الانتشار)، والعلو (السمو والتقدم).. وإليك بيان ذلك:

يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: «العين والميم والراء، أصلان صحيحان، أحدهما يدل على: بقاء(1)، وامتداد زمان(2)، والآخر على: شيء يعلو(3)... ومن الباب: عمارة الأرض(4)، يقال: عَمَرَ الناس الأرض عمارة..»، ويقول الأزهري في تهذيب اللغة (وانظر أيضاً: لسان العرب لابن منظور): «... عن ابن الأعرابي أنه قال: عَمَرتُ ربي أي عبدته(5)، وفلان عامر لربه، أي: عابد، قال: ويقال: تركت فلاناً يَعْمُر ربه، أي يعبده، وقال الله - عز وجل -: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61] أي: أذن لكم في عمارتها واستخراج قوتكم منها(4)... ورجل عمَّار، وهو الرجل القوي الإيمان الثابت(1) في أمره.. قال: والعمَّار: الزين(6) في المجالس، مأخوذ من العَمْر، وهو القرط، والعمَّار: الطيب الثناء والطيب من الروائح..(6)» ويقول أيضاً: «وعمَّار: المجتمِع الأمرِ اللازم للجماعة(7) الحَدِب على السلطان (8)، مأخوذة من العِمارة، وهي القبيلة المجتمعة على رأي واحد(8)، قال: وعمَّار: الرجل الحليم الوقور في كلامه وفعاله(9)... وعمار: مأخوذ من العَمْر، وهو: البقاء(1)، فيكون باقياً في إيمانه وطاعته وقائماً بالأمر والنهي إلى أن يموت، قال: وعمَّار: الرجل يجمع(7) أهل بيته وأصحابه على أدب رسول الله ﷺ والقيام بسنته..».

وعلى ذلك تكون (العُمْرَان) - التي هي مصدر عَمَرَ يَعْمُرُ - كلمة محايدة أيضاً لا تفيد مدحاً ولا ذماً، فقد يكون (عمران) قوم فاسداً أو باطلاً، وقد يكون صالحاً أو حقاً، وقد يكون فيه جانب من هذا أو جانب من ذاك.. تماماً مثل كلمة (دين) التي قد تعني دين الحق أو تعني ديناً باطلاً..

وبمثل الاستعمال اللغوي جاء الاستعمال القرآني: يقول الله - تعالى -: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

(1) تدل على: استمرار.

(2) وقت وتاريخ.

(3) سمو الإنسان في قيمه ومبادئه وسلوكه، وتقدمه في منجزات نشاطه.

(4) إنجازات مادية.

(5) سمو روحي تحقيق لإنسانية الإنسان (شق معنوي).

(6) جمال وذوق (شق معنوي).

(7) اجتماع وتعاون.

(8) نظم وعلاقات اجتماعية وسياسية..

(9) سمو وعلو خلقي (شق معنوي).

عَمرُوها...﴾ [الروم: ٩]، وقد بيّن لنا القرآن في مواضع أخرى بعض أنماط هذا العمران لبعض الأقوام؛ فقوم عاد قال لهم نبيهم هود ـ عليه السلام ـ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ – ١٣٠]، وقوم ثمود الذين قال لهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ في معرض التذكير بمنة الله عليهم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...﴾ [هود: ٦١] قال لهم في موضع آخر ـ في معرض المنة أيضاً ـ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً...﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال أيضاً: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ – ١٤٩].

ومن الاستعمال القرآني بمعنى العبادة (الشق المعنوي) قوله ـ تعالى ـ في العمران الحق: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله ـ تعالى ـ في العمران الباطل: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

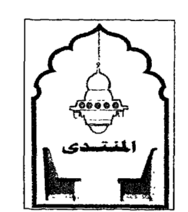
ومن الاستعمال بمعنى التشييد والإعمار المادي قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، ومن الاستعمال بمعنى الامتداد الزمني قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وأخيراً:

فقد يبدو استعمال مصطلح (العمران) غريباً ومهجوراً، وقد يُنْظَر إلى مصطلح (الحضارة) من منطلق: خطأ شائع خير من صحيح مهجور، ولكن مصطلح (الحضارة) أو (المدنية) كان مهجوراً أكثر منه، ولم يثبت ويعرف إلا حين استخرجه من استخرجه ثم استعمله وأكثر الآخرون من استعماله، وهكذا أصبح متداولاً معروفاً، ويمكن لمصطلح (العمران) ـ إذا رأى فيه أصحاب الرأي والفكر صلاحيته لأن يكون مصطلحاً لهذا المفهوم ـ أن يفرض نفسه ويأخذ السيرة نفسها بكثرة استعماله وتداوله أيضاً.

أهم مراجع المقال:

- الحضارة ـ الثقافة ـ المدنية... دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم.. نصر محمد عارف.
- في معركة الحضارة... قسطنطين زريق.
- معجم علم الاجتماع... تحرير: دينكن ميتشيل، ترجمة ومراجعة: د. إحسان محمد الحسن.
- الحضارة.. د. أحمد حمدي محمود.
- الحضارة.. دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها.. د. حسين مؤنس.
- مؤشرات حول الحضارة الإسلامية... د. عماد الدين خليل.
- مصطلحات فكرية.. سامي خشبة.
- تأملات.. مالك بن نبي.
- مقدمة ابن خلدون.. ابن خلدون.



العيد.. وكلمة الروح

أسامة طه الشافعي

يأتي يوم العيد ببُشريات متجددة كل عام؛ ففي المغزى الاجتماعي والمعنى الإنساني لهذا اليوم سرّ الفرح، وروعة الانتقال من طور إلى طور؛ إذ هو يوم الخروج من الزمن إلى زمن جديد، زمن قصير ضاحك بين الحين والحين؛ ليكون يوماً طبيعياً في هذه الحياة التي تعقدت وانتقلت عن طبيعتها!!

يوم يعمّ فيه الناسَ ألفاظُ الدعاء والتهنئة ليرتفعوا فوق منازعات الحياة وجاذبيات التراب.

يوم سنّ فيه الإسلام الثياب الجديدة إشعاراً للجميع بأن الوحي الإنساني جديد في هذا اليوم، فلا معنى فيه للأخلاق البالية من القطيعة والقسوة.

في هذا اليوم الجديد الأطفال هم المعلمون لنا ـ على نحو ما قال «الرافعي» – رحمه الله –، فلِمَ لا نجتلي حالهم لنتعلم منهم أن الحياة وراء الحياة وليست فيها؟!

هؤلاء السَّحرة الصغار الذين يخرجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من دراهم معدودة.

هؤلاء الأطفال هم السهولة قبل أن تتعقد، يأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها قانعين يكتفون بالتمرة ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها، فهلاّ تعلمنا منهم!؟

إن العبرة بروح النعمة لا بمقدارها، فإذا لم تكثر الأشياء في النفس كثرت السعادة ولو من قلة؛ فالطفل يقلّب عينيه في نساء كثيرات، ولكن أمه هي أجملهن، وإن كانت شوهاء؛ فأمه وحدها هي أم قلبه، ومن ثم فلا معنى للكثرة في هذا القلب، هذا هو السرّ، فهلاّ أخذه الكبار عن الصغار؟!

يا إلهي! ما أبعدنا عن سر الخلق وعن كلمة الروح بأطماعنا وآثامنا! وما أبعدنا عن البهجة بهذه الغرائز التي لا تؤمن إلا بالمادة، ولا تستقر إلا بإحراز أوفر الأنصبة منها! فيا أسفا علينا ـ نحن الكبار ـ، وما أبعدنا عن حقيقة الفرح وسر الحياة!».

إذا كانت كلمة الروح في ذلك اليوم هي تذكير للناس بسهولة الحياة قبل أن تتعقد فهي أيضاً تذكير للناس بحق الضعفاء والعاجزين حتى تشمل الفرحة بالعيد كل بيت، وحتى لا نرى النموذج البائس «الجائع العاري»، وإلى هذا المغزى الاجتماعي العظيم يرمز تشريع صدقة الفطر، ونحر الأضاحي في عيد الأضحى، إطلاقاً للأيدي الخيّرة في مجال البر، حتى لا تشرق شمس العيد إلا والبسمة تعلو شفاه الناس جميعاً.

فهلاّ أرينا الله من أخلاقنا ما يحب! إن ألوف المؤمنين والمؤمنات تعوّدوا السماحة وبذل الخير وصنائع المعروف، وتلك من سمات الخير في أمتنا، فإنما يتسرّب الشقاء إلى الناس عندما يحيون متقاطعين لا يعرفون إلا أنفسهم ومطالبها فحسب؛ فمن أراد معرفة أخلاق أمة فليراقبها في أعيادها؛ إذ تنطلق فيها السجايا على فطرتها، وتبرز العواطف على حقيقتها، والمجتمع السعيد هو الذي تسمو أخلاقه الاجتماعية في العيد إلى أرفع ذروة، ويمتد شعوره الإنساني إلى أبعد مدى، وذلك حين يبدو متماسكاً متراحماً فيخفق فيه كل قلب بالحب والمرحمة.

إن الفقر محنة، إذا لصقت بالإنسان أحرجته وربما هبطت به دون المكانة التي كتب الله – تعالى – للبشر، وقضية الإيمان قديماً وحديثاً أن يرهب الإنسان ربه في أمثال هؤلاء البائسين، وأن يذكر مصائب إخوانه من الأقطار الأخرى المشردين في هوان، وامتدت إليهم الأيادي الآثمة الملوثة لتنفرد هي بالحياة!!

إن من حقنا أن نفرح، لكن من واجبنا أن نذكر فواجعنا.. نذكر أطفالنا في إفريقيا وفي شتى البقاع.

إن دنيانا تمتلئ بالكوارث والأرزاء، فلننظر بمظهر الأمة الواعية التي لا يحُول احتفالها بذكرياتها الحبيبة وأعيادها دون الشعور بمصابها.

وقالها الدكتور مصطفى السباعي – رحمه الله –: «فلنقتصد في لهونا، ولنخفف من سرَفنا؛ لنشعر بالإخاء قوياً حتى تقوى العزائم، وهنا روح الإيمان الحي ولُباب المشاعر الرقيقة التي يكنُّها المسلم لإخوانه، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة، أو روح واحدة حلت في أجسام متعددة، وحتى يوقن المرء بهذه المعاني في هذا اليوم كانت صلاة العيد تجمع الناس صفاً وراء صف، ونسقاً على نسق كالسنبلة ليس فيها ـ على الكثرة ـ حبة متميزة!! فلنعش بهذه الروح، ولنمجِّ ساعة بساعة، فالزمن يمحو الزمن، والعمل يغير العمل، ودقيقة باقية في العمر هي أمل كبير في رحمة الله».

أنت.. وإن قيل

إبراهيم المشرف

أنت أيها الداعية رأس طبقات المجتمع بنص قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وراية الفضائل الإسلامية بقرار: «وذروة سنامه»، فمهما سمعت من نقد أو هجوم فابقَ شامخاً لا تهزك الرياح، ولا تنكسك العواصف، بل تزيدك رسوخاً في طريق الدعوة.

وإن ما تشهده الأطروحة الفكرية المعاصرة من دعوة إلى «النقد الذاتي» بكل صوره ومفرداته يجب فيه أمران:

أولاً: أن لا تخرج عن ميزان: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وأن تنضوي تحت ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فلا إفراط ولا تفريط.

ولكن الذي نراه أن الورقة النقدية في توسع وثراء، والعمل الدعوي في فقر وضمور.

ألا فليتق الله كاتب يرمي بسهام طائشة، وعبارات مجحفة حارقة، باسم النقد الهادف البناء ـ زعموا ـ معرضاً عن المحاسن، غير مقدر للجهود، وربما زين له الشيطان الجهر بالسوء من القول، تحت مظلة: «الحق أغلى من الرجال».

لله كم كانوا سبباً في صروح دعوية تقوَّض بناؤها! وكم كانوا سبباً في دعاة تساقطوا وآثروا السلامة! وكم كانوا سبباً في مشاريع دعوية ذهبت أدراج الرياح! وكم كانوا سبباً في صرف عامة الناس عن قنوات إرشادية دعوية إلى غير بديل! بل قد تلقفتهم قنوات الشر الهابطة، كل ذلك ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثانياً: أن لا يضيق الداعية بذلك ذرعاً؛ ففي كثير من تلك الأطروحات أفكار هادفة، وأقلام صادقة تحترق للدعوة، وتشعر بآلامها بعاطفة حية، وشعور جياش، غاية مسعاها تصحيح المسيرة وترتيب الأوراق ورص الصفوف؛ فإن خانها الأسلوب، ولم يسعفها التعبير فلا تثيرنك المواقف، واجعل الحكمة ضالتك، واستقبلها على الرحب والسعة، فإني أراك طالما احتفيت بأن المؤمن يستفيد من كل حتى من عدوه، وطالما رأيتك تتغنى:

عداتي لهم فضل عليَّ ومنَّةٌ ... فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

همُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

فإن كان هذا هو منهجك مع نصال شانئة، وأقلام حاقدة تترصد للدعوة، وتناصبها العداء، فأنت مع أولياء الإسلام وأنصاره أوْلى وأحرى؛ فهلم نفتش عن تصحيح، ونبحث عن توجيه، ونغض الطرف عن إساءة لأدب النقد، أو خلل في أخلاقيات الحوار.

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكنَّ سيد قومه المتغابي

نريد رجالاً كهؤلاء

محمد العيسى

إن المتبصر في أحوال أمتنا الإسلامية لا يستطيع أن ينكر مدى ما تعيشه من خذلان ومدى ما تلاقيه وتعانيه من أنواع الإذلال والقهر؛ فها هي تعيش في مؤخرة الركب، وتأكل من فتات موائد الأنذال اللئام، وتتوالى عليها الصفعات تلو الصفعات؛ فما تكاد تفيق من واحدة إلا وتأتيها أخرى، ونحن ننظر إلى الأمة وهي تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة؛ فأي شباب نحن؟ وأي جيل هذا الجيل؟

إن واجبنا تجاه أمتنا وعقيدتنا لا يحتاج إلى مزيد شرح وبيان؛ فطالما تكلم بذلك المتكلمون والدعاة إلى الله – سبحانه – ولكن وللأسف صُمَّت الآذان، فقد استمرأنا الهوان وظللت سماءنا سحب الخَوَر والإحباط!!

أخي! إنني أدعوك أن تقلّب معي دفتر الذكريات وصفحات التاريخ لننظر سوياً إلى رجال ذلك الجيل الذي علت فيه الأمة وسادت؛ فما أحوجنا إلى رجال أمثالهم يقودون السفينة التي عصفت بها ريح الكفر وهبت عليها أعاصير الحقد والكراهية للإسلام وأهله! لذا كان هذا الموضوع: «نريد رجالاً كهؤلاء».

الصبر على قدر الله:

امرأة يُقتل أبوها وزوجها وأخوها يوم أحد فلما أتاها خبرهم قالت: ما فعل الله برسول الله؟

قالوا: بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظره، فلما رأته صاحت من أعماق قلبها: كل مصيبة صغيرة بعدك يا رسول الله!

إنه الصبر الجميل على قدر الله، إنه الصبر الذي افتقده كثير من رجال زماننا، الصبر مدرسة تخرج الأبطال الأشداء الذين يثبتون عندما تزل الأقدام ويحتسبون عندما ييأس أصحاب العزائم الخاملة؛ فبالصبر تنال المكرمات.

نعم نريد رجالاً كهذه المرأة في صبرها.

شجاعة وإقدام:

عندما وصل سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – إلى شاطئ دجلة وجد على مد البصر مدينة المدائن في عظمتها وقصر كسرى في بهائه، وانتهى به الرأي أن يعبر مع رجاله على خيولهم وكان هذا أمراً غريباً وجديداً عليهم؛ فلم يلبث أن تقدم عاصم بن عمرو ومعه ستمائة من أهل النجدة، فساروا حتى بلغوا شاطئ دجلة يريدون أن يعبروا أولاً ليحموا الشاطئ، فلما وجد بعض رجاله يترددون تلا قول الله – تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥] ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه؛ فلما رأى القعقاع الكتيبة الأولى تتقدم في سبحها، ونظر فإذا العدو في الجانب الآخر يتأهبون لردها أمر سائر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه، وتولى العدوّ العجبُ لهذا الصنيع، فأرسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم على الماء، وصاح عاصم: «الرماحَ الرماحَ أسرعوها وتوخوا العيون»، وخرجت كتيبة الأهوال سالمة.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

نعم نريد رجالاً كهؤلاء.

مَنْ تابَ فربي يُنجيهِ

محمد عبد السلام الباشا

يسعى الإنسانُ بلا كللٍ والدُّنيا ماذا تُعطيه؟
تُعطيه طعاماً أو شُرباً وقليلٌ من ذا يكفيهِ
جهدٌ وجهادٌ يا كبدي يتوارى دوماً في التِّيهِ
عجلاتٌ تَسري من دهري مَنْ يَرْفُضْ هذا يأتيهِ
ثمراتٌ تنضجُ يقطفُها إنْ خابتْ حتماً تُشقيهِ
يا من لا تدري ساعَتها سارعْ فالأمرُ بتاليهِ
ندمٌ لَنْ يُجدي صاحبَهُ ودقيقُ حسابٍ يُرديهِ
حَضِّرْ أشياءَكَ ولْتغنمْ منْ عُمرِكَ يكفي باقيهِ
ألطافُ اللهِ بنا حلَّتْ منْ تابَ فربي ينجيهِ
التوبةُ تُلغي ماضينا والشكرُ لربِّي نُزجيهِ
التوبةُ ميلادٌ يأتي وَصَلاحُ المرءِ سيُعليهِ

الصلاةُ

أسامة أنور عيسى

كيف الحياةُ لمن نسي ركعاتِ والخيرُ ينبضُ في ربا الصلواتِ
وعلا الأذانُ فلا مجيبَ لدعوتي هل قد نسيتَ روائعَ الحسناتِ!
نادى المؤذنُ هل رميْتَ بلذةٍ ومضيْتَ نحوَ جوامعِ البركاتِ
أدميتني حَرَّقْتَ كلَّ مشاعري باللهوِ في الحركاتِ والسكناتِ
فإذا ذهبْتَ إلى الصلاةِ تعطلَتْ لغةُ الهدوءِ ومُجْتَ بالهفواتِ
وإذا انتهيْتَ أبحتَ كلَّ تشاجرٍ بالكفِّ والأقدامِ والكلماتِ
وإذا أتاكَ منَ الأحبةِ ناصحٌ ألقيْتَ نَفْسَكَ في خِضَمِّ سُبَاتِ
قفْ يا أخي لا لا تظلَّ معفراً باللهوِ عندَ إقامةِ الصلواتِ
لا تُلقِ بالنفسِ الكريمةِ للدجى في هفوةٍ من أقبحِ الهفواتِ
وتأمل الخيرَ الوفيرَ بركعةٍ وبسجدةٍ، يا روعةَ الركعاتِ
قفْ ثمَّ قُمْ نحو الصلاةِ معطراً بالذكرِ والتسبيحِ والعبراتِ
إنَّ الصلاةَ بها الصلاحُ جميعُهُ وفسادُها يفضي إلى النكباتِ
تنهى الصلاةُ عن التفاحشِ والهوى والميلِ نحوَ براثنِ العثراتِ
فاظفر بها متمسكاً بخشوعِها تنلِ الجنانَ وروعةَ الحسناتِ

نوم ونشاط

فتحي الجندي

القلبُ ينشطُ للقبيح
يا نفسُ ويْحك ما الذيَ
أوْلى بنا سفح الدموع
أوْلى بنا أن نرعوي
أوْلى بنا قتلُ الهوى
فأمامنا سفرٌ بعيدٌ
أقسمتُ ما هذي الحياة
فلمَ التلوُّنُ والخداعُ
يكفي مصانعة الرعاع
تباً لهم من معشر
بينا يُدبِّر للأمين
تباً لمن يتملقون
تباً لهم فنفاقهم
تباً لمن باع الجنان

وكم ينامُ عن الحسنْ
يُرضيك في دُنيا العفنْ
وأن يُجلبِبنا الحزَنْ
أولى بنا لُبْسُ الكفنْ
في الصدر أصبح كالوثنْ
بعدَه يأتي السكنْ
بها المقام أو الوطنْ
لمَ الدخولُ على الفتنْ؟
مَع التقلب في المَحنْ
ألفوا مُعاقرة النَتَنْ
أخو الخيانة مؤتمنْ
وينطوون على دَخنْ
قد لطخ الوجه الحسنْ
لأجل خضراء الدمنْ(١)

(١) خضراء الدمن: هي الدنيا.

تعقيب على العدد ١٤٤

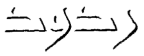
أبو عبد الله التميمي

قال ﷺ: «الدين النصيحة» فهذه ملحوظات على العدد ١٤٤ شعبان ١٤٢٠هـ.

أولاً: في غلاف العدد: جعلتم أو شبهتم السُّنَّة بذلك الجدار الذي تنكسر عليه الأقلام، والسُّنَّة أعلى وأرفع من أن تشبه بمثل هذا الجدار الذي يمكن أن يهدم بالأيدي. ثم إن هذا الجدار به خروم وتكسير في بعض نواحيه؛ فهل السُّنَّة هكذا؟ لا ـ والله ـ فإن السنة محفوظة بإذن الله، ولها رجال يدافعون عنها.

ثانياً: تجعلون الصفحة الأولى في الغالب ـ وهذا العدد منها ـ عن الحديث في أمور السياسة وهذا غير محذور؛ ولكن افتتاحيتنا وأول نظرة تكون على أمريكا وأخواتها.

فلو كانت البداية من ديننا الحنيف آية وتفسيرها أو حديث ومعناه، أو كلام لأهل العلم من أهل السنة والجماعة، ثم يتم في الصفحات التي تليها ما ترغبون من سياسة وغيرها. والله يحفظكم ويسدد خطاكم.



* الإخوة: سعد بن محمد مضية، عادل الدوسري، محمد غالب عفيف: نشكر لكم متابعتكم للبيان، ولتواصلكم الكريم معها، ونفيدكم بأن مشاركتكم مجازة للنشر في المنتدى، وجزاكم الله خيراً.

* الإخوة والأخوات: سليمان عبد الله الشريدة، ملفي بن عمير الشمري، أحمد حسبو، صلاح بن نور عبد الشكور، سعود الصاعدي، عبد الهادي الحسيني، ميسون رشدي طومان، علي عبد العزيز الشيبان، محمود عبد الله البغالي: سعدنا بتواصلكم الكريم مع مجلتكم، وقد جاءتنا بعض مشاركاتكم بعد فوات مناسبتها، والأخرى لم تكن مناسبة، ونتمنى دوام التواصل. وفقنا الله وإياكم إلى ما يحب ويرضى.



الدمعة الألبانية

محمد بن سليمان المهنا

جاءني خبر وفاة الشيخ العلامة أمير المؤمنين في الحديث في هذا العصر محمد ناصر الدين الألباني بُعيد صلاة المغرب من ليلة الأحد الثالثة والعشرين من الشهر السادس من عام ١٤٢٠هـ ، فنكأ الجرح ، وبعث الحزن الذي تجرعته أنفسنا خمسة أشهر منذ وفاة شيخنا شيخ الإسلام والمسلمين عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ وغفر لنا ولهم. آمين.

نعم! قبض في خمسة أشهر رأسا الأمة وإماما الحديث والسنة الرجلان اللذان ربَّيا النشء المبارك من شباب الإسلام على الأخذ بالكتاب والسنة وتعظيمهما وعلى اطِّراح التقليد ونبذ العصبية المذهبية والرجوع إلى كتب السنة قراءة وعناية وحفظاً. ما إن جاءني هذا الخبر حتى تلفَّتُّ يمنةً ويسرةً : ماذا أصنع؟ ومن أُعزِّي؟ ثم انطلقتُ أنا وإخواني يُعزي بعضنا بعضاً ، وقصدنا بالتعزية كبار علمائنا وجمعاً من طلبة العلم الذين عُرفوا بالعناية المتميزة بآثار الشيخ ـ رحمه الله ـ.

ثم عمدت إلى أشرطة للشيخ كنت اقتنيتها قديماً ، فجمعتها لأجدد العهد به وأتعزى ببقاء عمله خالداً إلى ما شاء الله.

واستمعت إليها وكان من بينها شريط محاضرة لم يتبين لي مكان إلقائها ولا تاريخه إلا أنها كانت بعد العصر فيما أظن ـ والله أعلم ـ.

والعجيب من تلك المحاضرة فاتحتها ـ وسائرها مُعْجِبٌ ـ فقد بُدئت بمقدمة ألقاها شاب حسن الصوت والأسلوب ، وكانت ـ كغيرها من مُقَدمات المحاضرات ـ شكراً للشيخ وثناءاً عليه وعلى علمه ودعاءاً له بالخير والإثابة.

ولم يكن في المقدمة شيء من الإطراء والمبالغة في المدح ، وإنما اشتملت على مدح يسير وثناء متواضع على الشيخ وعلمه وجهاده ، ثم ختم المقدم كلامه ليبدأ الشيخ محاضرته.

بدأ الشيخ بخطبة الحاجة ، وفي صوته ضعف ، وفي لسانه حَبْسة ، ثم قال : «أشكر الأخ على كلمته وعلى ثنائه ، وليس لي ما أقوله لقاء ذلك الثناء إلا الاقتداء بالخليفة الأول أبي بكر الصديق الذي كان الخليفة الحق والأول لرسول الله ﷺ» ، ولم يكن صوت الشيخ يزداد إلا تقطعاً وضعفاً واحتباساً ، ثم قال : «ومع ذلك ، فكان إذا سمع ـ رضي الله عنه ـ شخصاً يثني عليه خيراً ـ وأعتقد أن ذلك الثناء مهما كان صاحبه قد غلا فيه ، فما دام أنه خليفة رسول الله فهو بحق ـ ومع ذلك ...» وهنا انقطع صوت الشيخ وبكى طويلاً وسمعته يقول مُخافتاً : «الله المستعان» ثم سكت ونشج وانتحب ثم أكمل

فقال: «ومع ذلك كان يقول: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون»، ثم سكت، ثم أكمل: «واجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون» وهنا انقطع صوته مرة ثانية، وبكى، ثم قال: «هذا يقوله الصدِّيق الأكبر؛ فماذا نقول نحن من بعدة؟ فأقول اقتداءاً به: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون» ثم أضاف الشيخ وهو يبكي فقال: «الحقُّ ـ والحقَّ أقول ـ: لست بذلك الموصوف الذي سمعتموه آنفاً من أخينا الفاضل؛ وإنما أنا طالب علم لا شيء آخر».

ما أن سمعت تلك الكلمات الصادقات التي اختلطت بالدموع والعبرات حتى أيقنت بما كنت مؤمناً به من قبل من صدق الشيخ، ونصحه لله ورسوله وللمسلمين ـ أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكِّي على الله أحداً ـ، حتى أيقنت أن الشيخ لم يكن يردُّ على المخالف وربما أغلظ عليه إلاَّ غيرة على الدين ونصرة لشرعة رب العالمين، فلم يكن قصده الصعود على أكتاف العلماء، ولا التنقص من ذواتهم، ولا التفكه بالنيل من أعراضهم، وإنما كان غيوراً وربما دفعته الغيرة إلى شيء من الغلظة والفظاظة.

وهذا وإن لم يُستحسن ـ أحياناً ـ إلا أن وراءه نية صالحة وقصداً حسناً؛ والله لا يضيع أجر المحسنين.

هذا اليقين بصدور الشيخ عن قصد حسن بعيداً عن الانتصار للنفس وحب الشهرة والظهور لم يُستفد من هذه الواقعة آنفة الذكر فحسب؛ وإنما استفاده المنصفون من تاريخ طويل وسيرة عريضة سارها الشيخ في خدمة السنة والذود عن حياض الشريعة، وليست هذه الواقعة إلا مثالاً من أمثلة كثيرة تشهد على تواضع هذا الرجل العظيم، وتدل على ما ينطوي عليه قلبه من خير وصدق وهضم للنفس، وإلاَّ؛ فعلامَ البكاء الذي قطع كلام الشيخ وأخفى صوته؟

ثم لماذا نفى تلك الأوصاف التي مدحه بها المقدِّم مع أنه يستحقها وأكثر منها؟ ثم لم يكتف بذلك؛ بل نفى أن يكون من العلماء، وقال: «إنما أنا طالب علم لا شيء آخر».

إنها ـ والله ـ أخلاق الصادقين من العلماء، ولقد تذكرت بها الإمام الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني ـ رحمه الله ـ الذي كان آية في التواضع والخشوع مع شدة متناهية على أهل الأهواء؛ فانظر ما يحدِّث به عنه تلميذه الإمام الحَبر الهمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ يقول: «ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: «ما لي شيء، ولا مني شيء ولا فيَّ شيء» وكان يتمثل كثيراً بهذا البيت:

أنا المُكدِّي وابن المُكدِّي ... وكذاك كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: «والله إني لأجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمتُ بعدُ إسلاماً جيداً»، وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسيكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده ياتي

ثم ذكر بعدها تسعة أبيات ملئت تواضعاً وخضوعاً وإخباتاً لله ـ تعالى ـ.

هكذا فليكن العلماء، وبهذا فليتأدب الطلاب، والحمد لله الذي أرانا في علمائنا الأنموذج الصادق ليكونوا للناس أئمة وهداة.

اللهم آجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيراً منها.. اللهم صلِّ على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

AL BAYAN MAGAZINE
7 Bridges Place, Parsons Green
London SW6 4HW. U.K.
Tel : 0171 - 736 9060
Fax : 0171 - 736 4255

سعر العدد

الأردن ٥٠ قرشًا، الإمارات العربية ٨ دراهم، أوروبا وأمريكا ١,٥ جنيه إسترليني أو ما يعادلها، البحرين ٦٠٠ فلس، اليمن ٦٠ ريالاً، مصر ١٢٥ قرشًا، السعودية ٨ ريالات، الكويت ٦٠٠ فلس، المغرب ١٠ دراهم، قطر ٨ ريالات، السودان ٥٠ دينارًا، سلطنة عمان ٦٠٠ بيزة.

EUROPE & AMERICA 1.5
(STERLING OR EQUIVALENT)

كلمة صغيرة

ماذا بعد إفلاس الخطاب العلماني؟!

ظاهرة الزندقة من الظواهر القديمة التي تتجدد وتتلون، وتلبس لكل عصر لبوسه. وفي هذا العصر نشطت حركة الزندقة في مناح شتى من أخطرها الهجوم على الشريعة الإسلامية، والجرأة في نقد النصوص الشرعية، والعبث في تأويلها وتبديلها عن مواضعها؛ فصار التراث الإسلامي حمى مستباحاً يَلَغُ فيه كل مفسد بحجة (البحث العلمي!) (وحرية الرأي!) وأصبح الهجوم على الأصولية والتطرف سبيلاً للهجوم على ثوابت الأمّة ومسلّماتها الشرعية، حتى قال قائلهم: (إن الثابت الوحيد هو حرية النقد). وقال آخر مبيناً استراتيجية في التصدي للمد الإسلامي: (من أهم عناصر الحل: إزالة حاجز الخوف الذي لا يجعلنا نفصح بوضوح عن مواقفنا بكاملها تجاه هذا التيار المتطرف، إن بعضنا يخشى استخدام كلمة العلمانية، وهي ليست مخيفة، يجب أن نكتب بوضوح مثلاً في مسألة صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، أي أن نقول: إنه ليس هناك في أمور البشر ما يسمى قاعدة من هذا النوع)!!

إن تشنج التيار العلماني واضطرابه في نقد التيار الإسلامي يدل على تنامي الصحوة الإسلامية من جهة، وعلى إفلاس الاتجاه العلماني من جهة أخرى.

ولكن السؤال الكبير هو: هل يستطيع الخطاب الإسلامي المعاصر أن يقف بثبات أمام هذا الكم الهائل من الانحراف؟! وهل يرتقي الخطاب كي يكون أكثر عمقاً وأصالة؟! وهل يتضح وتتسع آفاقه ليملك القدرة على مخاطبة الأمة باعتزاز واتزان بعيداً عن الغلو أو الميوعة؟!

نحسب أن هذا هو التحدي الكبير الذي يجب أن يتبنى رايته العلماء والمفكرون ورجالات الدعوة الإسلامية، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] .

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	—	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرَّق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٣٥٢٢٨٢	٣٥٢٢٩٢
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٥٥٧٧٣٤	٥٣١٥٥٠
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بور تسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٢٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بينين	كوتونو	٠٣-٤١٩٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

الحسابات

- مصرف فيصل الإسلامي حساب رقم: ٠٠٢- ٤٥١٤-٤٢-١٠٩
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
- الإمارات – بنك دبي الإسلامي (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة شارع الأربعين
  حساب مجلة البيان رقم ٢١٠٠/٧
- قطر: مصرف قطر الإسلامي حساب رقم:٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات
  حساب مجلة البيان: بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ٢٤٢٠٧٠٠٧١

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452

بريطانيا وايرلندا	١٨ جنيهًا استرلينيًا
أوروبا	٢٠ جنيهًا استرلينيًا
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهًا استرلينيًا
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهًا استرلينيًا
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهًا استرلينيًا

في هـ

المراسلات والإعلانات

الدول العربية : البحرين: المحرّق مكتب دار البيان ، ص.ب ٥٠١٦٣ - هاتف٣٣٥٣٠٠ - فاكس ٣٣٦٣٠٠- السعودية : مكتب مجلة البيان - ص.ب ٢٦٩٧٠- الرياض : ١١٤٩٦- هاتف ٤٦٤١٢٢٢ - فاكس ٤٦٤١٤٤٦

البريد الإلكتروني: bayan@naseej.com.sa

اوروبا وامريكا :

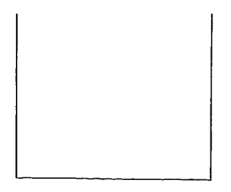
AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060
Fax : 071 - 736 4255

ــذا العــدد

الموزعون

الأردن : الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس ٦٣٥١٥٢
الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨
قطر : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس ٦٦٢٤٥٠
مصر : القاهرة – ش الجلاء – الأهرام للتوزيع ، هاتف وفاكس ٥٧٤٧٠٢٣ .
المغرب : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ، هاتف ٢٤٥٧٤٥/٥٤
السعودية : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف ٤٦٤٦٦٨٨ ، فاكس ٤٦٤٢٩١٩، الشركة الوطنية هاتف ٤٧٨٢٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣ .
اليمن : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف ٢٠٦٤٦٧
السودان : دار اقرأ للنشر والتوزيع ، الخرطوم : ص.ب ٨٨ براري.

الكويت : درة الكويت للتوزيع، ص.ب ٢٩١٢٦، الصفاة هاتف ٤٧٢٤٦٦٦، فاكس٤٧٢٤٥٥٥.
البحرين : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف – المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ – ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
أمريكا: International Media Group
Ann Arbor, MI 48107 U.S.A.- P.O. Box 7560
Tel. 734-975-1115 Fax. 734-975-9997



اللغة والفكر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحابته وسلم، وبعد:

فلا شك أن اللغة وعاء الفكر؛ ولذا كانت عناية السلف عظيمة بالحفاظ على لغة القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، وازداد حرصهم ذلك بعد دخول الأعاجم في دين الله وإقبالهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فكان منهم من لا يعرف الألفاظ في أصل اللغة ولا قانونها، كما كان منهم - وهذا هو الغالب والأخطر - من لا يعرف مراد الشارع بالألفاظ؛ لأنه لا يعرف سنَّته في الخطاب ولا يحيط بجميع النصوص الواردة في الموضوع محل الفهم أو البحث.

ومن جهة أخرى اهتم بعض أهل البدع باللغة العربية، فبرز منهم أكثر من عالم لغوي؛ لأن (الوجوه اللغوية) كانت طريقهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه وبابهم إلى التأويل عندما أعياهم الاستدلال على بِدَعِهِمْ بنصوص ثابتة في القرآن والسنة، فأخذوا يبحثون في ضعيف اللغة وشاذها ومرجوحها عما يشوِّشون به على الأصول الصحيحة التي لم تستسغها عقولهم أو أهواؤهم، حتى شاع بين بعض النحاة قولهم: «إن نزل رغيف من السماء مكتوب عليه: حرام، قلنا: لغيرنا»، دلالة على مقدرتهم في صرف أوضح الكلام وأشده صراحة إلى معنى آخر غير المعنى الظاهر.

وعندما انفتح (الفكر الإسلامي) على فلسفات الأمم الأخرى ونتاجهم العقلي دخلت على المسلمين أفكار جديدة عبر ألفاظ عربية أخذت مفاهيم محدثة أضيفت على المعنى اللغوي الأصلي أو انحرفت به، كالجوهر والفرد والمحدث والقديم... وهكذا رأينا أن المعركة الفكرية بين أهل السنة وسائر الفرق كانت معركة لغوية في جانب كبير منها.

وبالأداة نفسها (اللغة) نقشت مفاهيم جديدة - كالعلمانية والوطنية والقومية والتقدمية والرجعية - في عقول المسلمين العرب في العقود المتأخرة؛ فلقد كان من رواد (النهضة العربية الحديثة) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بعض المتضلعين في اللغة والباحثين في علومها من النصارى

وأصحاب الزيغ من تلاميذ المستشرقين، أمثال: بطرس وسليم البستاني، وناصيف وإبراهيم اليازجي، ولويس شيخو، ولويس معلوف.. بل حاول بعضهم كسر هذا الوعاء الفكري تماماً من خلال دعوات مشبوهة إلى استبدال العامية بالفصحى في لغة الكتابة كما رأينا عند أحمد لطفي السيد (أستاذ الجيل ـ كما يسميه العلمانيون!)، أو استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية كما رأينا عند سلامة موسى، وهذا ما فعله أتاتورك لقطع صلة تركيا بالعروبة والإسلام.

وإضافة إلى الأهداف السابق ذكرها للاهتمام باللغة ظهر في هذه المرحلة الزمنية وما بعدها التوجه إلى الطعن في الإسلام من خلال (أبحاث) لغوية، كما في كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين، وعند أمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله في كتاب: (الفن القصصي في القرآن الكريم)، ثم في كتابات التلاميذ المعاصرين أمثال: سيد حامد النساج، ونصر أبو زيد.. وغيرهم.

كما ظهر التوجه أيضاً إلى امتلاك ناصية الأشكال التعبيرية الجديدة: كالمقال، والقصة، والرواية، والمسرحية لاستخدامها أداة لإيصال الأفكار الجديدة؛ فلمعت أسماء: كفرح أنطون، وجورجي زيدان، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ. وبتحويل أعمال أمثال هؤلاء إلى أعمال فنية (إذاعية وسينمائية وتلفزيونية) انتشرت الأفكار التي أرادوا الترويج لها على نطاق واسع بين عوامِّ الأمة وخاصتهم.

وما زال هذا الأسلوب (استخدام اللغة لتقرير أفكار مستهدفة) متبعاً ومؤثراً حتى وقتنا الراهن، ومن الأمثلة الحية على ذلك: معالجة الأستاذ حسين معلوم لمفاهيم (القومية) و (الحكم) و (التقدم) على صفحات جريدة الحياة[1].

وإذا كان المقام لا يتسع هنا لمناقشة جميع ما ورد في هذه المقالات فإنه لا يسعنا إلا أن نشير إلى مأخذين على مقال واحد هو مقال: (الإسلام والقومية):

أولاً: انطلق الكاتب في قبول فكرة القومية المعاصرة من التحليل اللغوي والاستعمال القرآني لمادة (قوم)، مما جعله يعد (القوم) «بطوناً وعائلات، وتارة شعب مصر، وطوراً الملة الموسوية» وهذا كله حق، ولكنه ليس كل الحق في الموضوع الذي يعالجه؛ فإن الدعوة إلى القومية ـ في منشئها وحاضرها ـ لم تهدف إلى الاقتصار على هذا المعنى اللغوي فقط، ولكنها أرادت جعل القومية رابطة يجتمع عليها

(١) انظر الأعداد ١٣٨، ١٣٣٨٥، ١٣٤١٢، ١٣٤١٤.



مجموعة من البشر تذوب فيها جميع الروابط الأخرى - ومنها الدينية - بحيث تعلو القومية وتقدم عليها وكأنها عقيدة أخرى، فإذا قدمنا عليها أي ولاء آخر - كالإسلام مثلاً - لم يصبح لهذه القومية أي معنى عندهم، وهذا ليس كلامنا ولكنه تقرير روادها أنفسهم. يقول الدكتور نبيه أمين فارس: «لقد غرس هؤلاء [الرواد الأوائل] بذرة القومية والوطنية، وبعثوا حركة مستوحاة من تاريخ العرب ومآثرهم تستهدف مُثُلاً قومية بدلاً من المثل الدينية والطائفية»[1]، وهكذا فإن القومية عند دعاتها تجمع - بالإخاء - المسلم مع النصراني واليهودي أو مع البوذي والهندوسي إذا كانوا يعيشون في إطار واحد لـ (قوم) أو قطر، ولكنها تفرّقه عن أخيه المسلم - وقد يعاديه - إذا كان من (قوم) آخرين.

ثانياً: يقرر الكاتب أن «الفكرة هي ابنة واقعها الاجتماعي» وهذا كلام صحيح في العموم، ولكننا نعجب أنه لم يطبق ذلك على فكرة نشوء (القومية) ذاتها، بل ذهب عند تطبيقها إلى فكرة أخرى مترتبة عليها هي كون «القومية نوع من أنواع العصبية المرفوضة في الإسلام»، فهو يرى أن هذه (الفكرة) الأخيرة سكنت الفكر الإسلامي عن طريق سيد قطب الذي نقلها بدوره عن أبي الأعلى المودودي - رحمهما الله -، وهذا الأخير كان متأثراً بواقعه الاجتماعي في الهند؛ حيث كانت فكرة (القومية) سبيلاً لسيطرة الأغلبية الهندوسية على الأقلية المسلمة هناك «هذا بالإضافة إلى أنه رآها - بمحتواها العلماني - أيديولوجية معادية للإسلام».

وإذا كنا هنا لا نناقش - ولا نهتم - بصحة دعوى التأثير والتأثر بين المفكرين الإسلاميين المذكورين فإننا نذكّر بأن فكرة القومية بمعناها المضاد للإسلام سكنت الفكر العربي القومي قبل مولد المودودي وسيد قطب - رحمهما الله -، بل كان هذا المعنى مصاحباً لهذه الفكرة منذ مولدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي على يد بعض نصارى الشام أمثال بطرس البستاني وناصيف اليازجي، وهذه حقيقة يقررها كُتّاب علمانيون ونصارى قبل أن يقررها الكُتّاب الإسلاميون، ومن يراجع - على سبيل المثال - كتابات ألبرت حوراني وجورج أنطونيوس وساطع الحصري لا يخالجه شك في ذلك، فلم يكن الواقع الاجتماعي في الهند هو الذي أعطى هذا التصور عن (القومية العربية) بل كان تنظير المفكرين القوميين العرب - وخاصة في الشام - هو الذي نحا هذا المنحى؛ رغبةً في قطع الروابط مع المسلمين غير العرب (العثمانيين)؛ حيث كانوا جميعاً منضوين تحت لواء دولة واحدة في إطار الرابطة الإسلامية.

---

(١) مقدمة كتاب يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، لجورج أنطونيوس.

كما أن فكرة القومية بهذا المعنى مضادة بطبيعتها ـ وليس بواقعها فقط ـ للإسلام الذي فيه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] أياً كانت أجناسهم وقومياتهم، وفيه أيضاً : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢].

وبعد: فهل أمثال هذه المقالات تعد تطبيقاً لدعوات (تكتيكية) صدرت من بعض القوميين واليساريين للمزاوجة بين الفكر القومي والإسلام؛ لتجديد الدعوة القومية، وكسب الشارع العربي والاستفادة من طاقات الإسلاميين ورصيدهم الشعبي؟ إذا كان الأمر كذلك فالواضح أنهم يريدون أن تكون القوامة في هذا التزاوج للفكر القومي، وأن تكون اللغة والتاريخ شاهدي زور على ذلك!!



أحكام الصيد

عبدالله بن سعد المحارب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فمن نعمة الله ـ تعالى ـ على الإنسانية أنه أنزل دستوراً محكماً يحكم حياتها، ومنهجاً قويماً ينظم سلوكها شمل في تعاليمه وآدابه مجمل تعاملات الناس بعامة؛ ونظم حياة الإنسان مع نفسه، ومع خالقه، ومع خلقه ـ الإنس وغيرهم ـ نظاماً دقيقاً شاملاً كاملاً لا يوجد في غيره.

هذه التعاليم وتلك الآداب تتمثل في هدي هذا الدين الإسلامي العظيم بما أنزله الله علينا في كتابه المبين، وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ.

لذا كانت تعاليم هذا الدين العظيم أعظم النعم التي يمتن الله ـ تعالى ـ بها على عباده؛ حيث يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

فمن هذه الأحكام التي بينتها لنا شريعتنا الغراء: تعامل الإنسان مع أجناس الحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها، سواء كان ذاك التعامل بالاستفادة منها في المعيشة، وطرق الكسب لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل: ٨]. والاستفادة منها بأكل لحومها لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ [الحج: ٢٨]، أو كان ذاك التعامل لفوائد أخرى، ولو كان للاستئناس بالنظر إليها والترنم بسماع صوتها؛ فالله ـ تعالى ـ قرن ركوب الحيوان والاستفادة منه في الآية السابقة بقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَزِينَةً ﴾، والذي يفهم من الآية أنه كما أباح لنا الركوب والاستفادة من هذه الحيوانات أباح لنا اتخاذها زينة؛ وهذا من سعة فضل الله ـ تعالى ـ على خلقه.

والأصل في ذلك ـ أي الاستفادة ـ أن جميع المخلوقات التي يراها الإنسان ويتعايش معها مخلوقة له، ميسرة له، يقول ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهذا في سياق الامتنان على العباد بالإباحة ـ كما سيأتي.

والكلام في هذا الباب يطول؛ وحسبنا أن نقتصر على جانب منه هو من أهم فروعه المتفرعة منه وأوْلاها بالاهتمام، لا سيما أن شريحة عريضة من الناس يعايشونه، ألا وهو: أحكام صيد الحيوان في الشريعة الإسلامية، وهذا الموضوع في الحقيقة بابه واسع ومسائله متعددة، وسأعرِّج على بعض مسائله الهامة، وألحقها بتنبيهات لطيفة؛ وكل ذلك في إطار الاختصار ليستفيد منها القارئْ المبتدئ، ولا يملها المنتهي.



أولاً: تعريف الصيد:

الصيد لغة: هو مصدر صاد يصيد صيداً، ثم أُطلق الصيد على المصيد نفسه، تسمية للمفعول بالمصدر كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لا تقتلوا الصَّيْد وأنتم حرم﴾ [المائدة: ٩٥] أي المصيد، واستخدم ذلك في أكثر من موضع في القرآن. ومعناه ـ أي الصيد لغة ـ: هو الاقتدار على ما كان ممتنعاً ولا مالك له[١].

والصيد شرعاً: هو اقتناص حيوانٍ حلالٍ متوحشٍ طبعاً غير مملوك ولا مقدور عليه[٢].

فقولنا: حيوان: يدخل فيه حيوان البر والبحر والحيوانات والطيور، وخرج الآدمي وما ليس بحيوان.

حلال: خرج به الحيوان الذي لا يحل أكله كالخنزير والسباع، والمستقذرات من الحيوانات.

متوحش طبعاً: خرج به من الحيوانات الداجنة الأليفة، كبهيمة الأنعام.

غير مملوك: خرج به ما يكون في حوزة الغير.

ولا مقدور عليه: خرج به ما كان في القدرة، سواء قبل إصابته أو بعدها، فلا يجوز صيده حينئذ، ويكون رميه بالسلاح محرماً، وإن صيد فلا يجوز أكله، بل لا بد من تذكيته تذكية شرعية.

ثانياً: حكم الصيد:

للصيد ثلاثة أحكام:

الأول: الإباحة، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، والإجماع؛ فمن الكتاب قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤]، وأما السُّنة فوردت أحاديث كثيرة مشتهرة ـ منها حديث عدي بن حاتم، وأبي ثعلبة الخشني، المتفق عليهما ـ وسيأتي ذكر بعضها في ثنايا البحث.

وأما الإجماع فقد قام على إباحة الصيد[٣]؛ وهذا الحكم هو الأصل؛ فالأصل في الصيد أنه مباح لدفع الحاجة، والانتفاع بلحمه، ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، قال الإمام الشوكاني عند هذه الآية: «وفيه دليل أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة، حتى يقوم دليل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله ـ تعالى ـ: ﴿جَمِيعًا﴾ أقوى دلالة على هذا»[٤]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ معناه: من أجلكم، كما قاله جماعة من السلف[٥].

الثاني: الكراهة. وذلك إذا كان القصد منه التلهي به والمفاخرة، ولأنه ـ والحالة هذه ـ يشغل الإنسان عما هو أنفع منه من الأعمال الدينية والدنيوية، ثم هو يضيع الأوقات ويأخذ بعقل المشتغل به، حتى يشغف به، ومن ثَمَّ يلهيه عن الواجبات، ويدل لذلك قوله ﷺ: «من بدا جفا، ومن تبع الصيد غفل»[٦].

---

(١) انظر المصباح المنير، ص ١٣٥، مادة (صيد)، وانظر كتاب أحكام الذبائح في الإسلام للدكتور محمد أبو فارس، ص ٧٤.

(٢) انظر كشاف القناع للبهوتي، ٥/ ١٨٥.

(٣) انظر كشاف المفتاح، ٥/ ١٨٥، والمغني، ١٢/ ٢٥٧.

(٤) فتح القدير للشوكاني، ١/ ٦.

(٥) المرجع السابق.

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد، باب في اتباع الصيد، رقم (٢٧٨٨)، والترمذي في كتاب الفتن باب (بدون تسمية) رقم (٢٢٩٢)، والنسائي كتاب الصيد باب اتباع الصيد رقم (٤٧٨٨)، وأحمد في المسند، رقم (٢٣٥٠)، والحديث حسنه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٢٧٢).

الثالث: التحريم؛ ويحرم الصيد في حالتين:

الأولى: إذا ترتب عليه ظلم للناس بالعدوان على زروعهم، وبساتينهم، وأموالهم وأراضيهم، وممتلكاتهم؛ لأن ذلك من الاعتداء على أموال الغير؛ ولأن المقاصد لها أحكام الوسائل.

الثانية: إذا كان الصيد في الحرم، أو في حال التلبس بالإحرام.

أما الصيد في الحرم فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ولقوله ﷺ: «ولا ينفَّر صيدها»(١) وتنفير الصيد: إزعاجه عن موضعه، وتهييجه. فالنهي عن الصيد يكون من باب أوْلى في الحرمة.

أما تحريم الصيد في حال الإحرام فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥](٢).

ثالثاً: شروط حل الصيد (المصيد):

ذكر الفقهاء ـ رحمهم الله تعالى ـ أن الصيد لا يحل إلا بجملة من الشروط:

الشرط الأول: أن يكون الصائد من أهل الذكاة. فإن كان وثنياً، أو مرتداً ـ كتارك الصلاة عمداً أو من غير المسلمين وأهل الكتاب ـ لم يُبَحْ صيده؛ لأن الشارع لم يُبِحْ لنا غير ذبيحة المسلم، أو أهل الكتاب، فكذا في الصيد. أو كان مجنوناً، أو صغيراً لا يميّز، فلا يحل صيده كذلك؛ لأن الصيد من جملة الأفعال التي تحتاج إلى نية الفعل، وفاقد العقل ومن لم يبلغ سن التمييز لا يمكن أن تصح منه النية.

الشرط الثاني: أن يسمي عند إطلاق آلة الصيد، سواء أكانت تلك الآلة حيواناً جارحاً كالكلب، أو طيراً كالصقر، أو كانت آلة جامدة كالسهم والرمح والبندقية، أو غيرها من الآلات التي تقتل الصيد بالجرح وتنهر الدم.

وللعلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ في حكم التسمية ثلاثة أقوال:

القول الأول: وجوب التسمية على الصيد مطلقاً، فلو ترك التسمية عامداً أو ناسياً فإن صيده لا يحل، وهذا هو المعتمد عند الحنابلة، وقال به الجماعة من أهل العلم كالشعبي، وأبي ثور، وداود، ورجحه ابن قدامة(٣)، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (٤).

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

أ – قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ب – قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

ووجه الدلالة من الآيتين السابقتين واضح؛ ففي الأولى نهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، والنهي يقتضي التحريم. وفي الثانية أمر بالتسمية، والأمر يقتضي الوجوب، أي: وجوب التسمية.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ١٢٦٢.

(٢) المائدة الآية ٩٥، انظر في هذه الأحكام كشاف القناع، ٥/ ١٨٥، الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٣٢٥، وكتاب الأطعمة والصيد والذبائح للشيخ د. صالح الفوزان.

(٣) انظر في نسبة ما سبق المغني، ١٣/ ٢٥٨، ٢٥٩.

(٤) انظر الفتاوى، ٣٥/٢٣٩، فتاوى الصيد لابن عثيمين، وكتاب الأطعمة للشيخ الفوزان.

ج - حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنّ النبي ﷺ قال: «وإذا أرسلت كلبك المعلّم، وذكرت اسم الله عليه فكُلْ. قلت: أرسلُ كلبي فأجد معه كلباً آخر؟ قال: «لا تأكل؛ فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على الآخر»[1].

د - حديث أبي ثعلبة الخشني قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: إنا بأرض صيد، أصيد بقوسي، وأصيد بكلبي المعلَّم، وأصيد بكلبي الذي ليس بمعلَّم. فأخبرني: ماذا يصح لي؟ قال: «أمَّا ما ذكرت أنكم بأرض صيد، فما صدت بقوسك وذكرت اسم الله عليه فكل، وما صدت بكلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكل، وما صدت بكلبك الذي ليس بمعلم فأدركت ذكاته فكل»[2].

القول الثاني: أن التسمية واجبة مع الذكر، وتسقط مع النسيان، فلو ترك التسمية عند الصيد عمداً فلا تحل، أما لو تركها سهواً فإن الصيد يحل.

وبهذا قال الحنفية[3] والمالكية[4] وهو رواية عن الإمام أحمد[5] واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

أ - حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: إن ناساً قالوا: يا رسول الله! إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذُكر اسم الله عليه أم لا؟! قال: «سموا أنتم وكلوا» قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر[6].

وجه الدلالة: لو كانت التسمية واجبة لم يُرخص لهم ﷺ إلا مع تحققها. وهذا في التذكية، فيقاس عليها الصيد.

وأجيب: «بأن الحديث يدل على الوجوب؛ لأن الصحابة فهموا أنها لا بد منها، وخشوا ألا تكون وُجِدتْ من أولئك لحداثة إسلامهم، فأمرهم بما يخصهم من التسمية عند الأكل»[7].

وأجيب أيضاً: «بأنا لو سلمنا لكم ذلك فإن هذا في التذكية لا في الصيد، وبينهما فارق. قال ابن قدامة - رحمه الله -: «والفرق بين الصيد والذبيحة: أن الذبح وقع في محله، فجاز أن يتسامح فيه، بخلاف الصيد»[8].

ب - قوله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[9].

وأجيب: «بأن الحديث يدل على سقوط الإثم عن الناس، لا جعل الموجود كالمعدوم. بدليل ما لو نسي شرطاً من شروط الصلاة فإن الصلاة حينئذ تبطل، ولا ينظر في سهوه أو عمده»[10].

القول الثالث: أن التسمية سنة مؤكدة. وعليه فلو ترك التسمية عند الصيد عمداً أو سهواً فإن الصيد حلال، وبهذا قال الإمام الشافعي - رحمه الله -[11].

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة، منها:

أ - قوله ﷺ: «المسلم يذبح على اسم الله، سمى أو لم يسم»[12].

---

(١) متفق عليه. البخاري كتاب الذبائح إذا وجد مع الصيد كلباً آخر، ومسلم كتاب الصيد باب الصيد بالكلاب المعلمة.

(٢) متفق عليه: البخاري كتاب الذبائح، باب صيد القدس، ومسلم كتاب الصيد باب الصيد بالكلاب المعلمة.

(٣) انظر بدائع الصنائع للكاساني، ٦/٢٧٧٨.

(٤) انظر مختصر خليل مع شرحه، ٢/ ١٠٦.

(٥) انظر المغني، ١٣/ ٢٥٨.

(٦) رواه ابن ماجه، ح/ ٣١٦٥.

(٧) كتاب الأطعمة للشيخ صالح الفوزان، ص ١٣١.

(٨) المغني، ١٣/ ٢٦٠.

(٩) رواه ابن ماجه ، ح/ ٢٠٣٥.

(١٠) انظر المغني، لابن قدامة، ١٣/ ٢٦٠.

(١١) انظر المجموع، ٩/١٠٥، وهو رواية عن الإمام أحمد (المغني، ١٣/٢٦٠).

(١٢) أخرجه الدارقطني في كتاب الصيد باب من ترك الصيد، قال الزيلعي عنه: غريب اللفظ وفي معناه أحاديث. نصب الراية، ٤/١٨٢.



ب - قوله ﷺ حينما سُئل: أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ فقال: «اسم الله في قلب كل مسلم»(١).

وأجيب عن هذا الأحاديث: «بأن الأول مجمع على ضعفه»(٢). والآخر ضعيف كذلك؛ لأنه مُرْسَل، فلا تقوم بهما حجة، ولو صحت فهي في الذبيحة - خاصة - لا الصيد.

قال ابن قدامة: «وأما أحاديث أصحاب الشافعي، فلم يذكرها أصحاب السنن المشهورة، وإن صحت فهي في الذبيحة، ولا يصح قياس الصيد عليها؛ لما ذكرنا، مع ما في الصيد من النصوص الخاصة»(٣).

الترجيح: والذي يترجح من هذه الأقوال - والله تعالى أعلم - هو القول الأول؛ لقوة الأدلة الصحيحة الصريحة في وجوب التسمية.

قال ابن قدامة - رحمه الله تعالى -: «وهذه نصوص صحيحة لا يُعَرَّج على منْ خالفها»(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وهذا أظهر الأقوال؛ فإن الكتاب والسنة قد علَّقا الحِلَّ بذكر اسم الله عليه في غير موضع»(٥).

وقد سئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين - حفظه الله - عن الصيد الذي لم يسمَّ عليه؟ فأجاب: «إنها تُرمى ولا تُؤكل». ونوقش بأن هذا من إضاعة المال، والشارع نهى عن إضاعة المال؟ فأجاب قائلاً: «جوابنا على ذلك أن نقول: إن الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها ليست بمال؛ لأنها محرمة، وما كان محرماً فليس بمال، وعلى هذا فلا تدخل في نهي النبي ﷺ عن إضاعة المال. بل إن ترك أكلها طاعة لله - عز وجل - حيث قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾» [الأنعام: ١٢١](٦).

وقال فضيلة الشيخ د. صالح الفوزان: «فالقرآن والسنة قد علَّقا الحِلَّ بذكر اسم الله على الذبيحة في غير موضع، ولم يصح ما يخصصها بحالة دون حالة، أو يصرفها عن الوجوب إلى الاستحباب»(٧).

وبهذا يتبين رجحان وجوب التسمية عند الصيد، وأنه يتوقف عندها الحل من عدمه. وإنما بسطت هذه المسألة بأدلتها وردودها، لأهميتها، ولتوقف حل الصيد عليها؛ ولأنه غالباً ما يسأل الصيادون عنها، وغالباً ما يلتهي عنها من يشتغل بالصيد.

الشرط الثالث: النية: أي يقصد الصيد: بأن يرسل الجارحة على الصيد أو يطلق البندقية أو السهم عليه. أما إذا استرسلت الجارحة بنفسها فقتلت فلا تحل، وكذا لو رمى سهماً عبثاً هكذا، فأصاب صيداً، فإنه لا يحل الصيد حينئذ، لعدم النية؛ لكن لو لحق به قبل أن يموت وذكاه وسمى عليه فإنه يحل.

الشرط الرابع: أن يكون الجارح معلَّماً. سواء أكان صقراً أم كلباً؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]؛ ولحديث أبي ثعلبة الخشني السابق - رضي الله عنه -.

---

(١) الدارقطني في كتاب الصيد، البيهقي كتاب في الصيد باب من ترك التسمية.

(٢) انظر كتاب الفوزان، ص ١٣٢.

(٣) المغني، ١٣/ ٢٦٠.

(٤) المغني، ١٣/ ٢٥٩.

(٥) الفتاوى، ٣٥/ ٢٣٩.

(٦) الأنعام، آية ١٢١ (فتاوى الصيد للشيخ ابن عثيمين، ص ٢٩، ٣٠).

(٧) كتاب الأطعمة، للشيخ د. صالح الفوزان، ص ١٣٢.



ما يُعرف به المعلَّم من غيره ثلاث:

- إذا أرسله الصياد استرسل.
- وإذا زجره انزجر.
- وإذا أمسك لم يأكل.

ويتكرر منه هذا مرة بعد أخرى، حتى يصير معلماً في حكم العرف[1].

وقد اختُلف في صيد الكلب الأسود البهيم - أي الخالص - فالجمهور على حله؛ لعدم الفارق عن غيره من الكلاب. والحنابلة على تحريمه؛ لأن الكلب الأسود البهيم أُمِرَ بقتله[2].

الشرط الخامس: ألاَّ يأكل الجارح - الكلب أو الصقر - من الصيد. فإن أكل لم يُبَحْ صيده في أصح القولين، وروي هذا عن جمع من الصحابة والتابعين، لقوله - تعالى -: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، ولحديث أبي ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك. فقلت: وإن قتل؟ قال: وإن قتل. إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل؛ فإني أخاف أن يكون أمسكه على نفسه»[3].

وهذا إذا وجد الصياد صيده ميتاً، أما إن وجده حياً فيه رمق الحياة فسمَّى وذكَّاه، فحينئذ يجوز الأكل منه.

الشرط السادس: أن تكون آلة الصيد حادة تنهر الدم من أي موضع في الحيوان ويموت بها، فإن مات خوفاً، أو جزعاً فلا يحل، وإن مات غرقاً بأن سقط في الماء فينظر في سبب الموت، فإن كان السبب هو الماء فلا يحل، وإن كان جرحه موجباً بحيث نعلم أن الماء لم يؤثر فيه فإنه حلال، وإن شُكَّ في ذلك فيغلَّب جانب الحرمة، فلا يجوز أكله لقوله ﷺ: «وإن وقع في الماء فلا تأكل»[4].

ويدل على هذا الشرط ما رواه البخاري عن عباية بن رفاعة عن جده قال: يا رسول الله! ليس لنا مِدى - جمع مُدية وهي السكين - فقال: «ما أنهر الدم، وذكر اسم عليه فَكُلْ، ليس السن والظفر»[5].

وعلى هذا فلا يجوز أكل ما قُتِلَ بمُثَقَّلٍ أو بمعراض السهم، أو قتلتِ الآلةُ بثقلها، وبهذا نعلم أنه لا يجوز القتل بما يسمى (بالنباطة) أو (المقلاع) لأنها تقتل بالثقل[6].

ولا يجوز كذلك أكل ما لم يخرج منه دم؛ لأنه قُتل بثقل الآلة؛ فإنها من الموقوذة المحرمة. وأما اشتراط خروج الدم، فللرواية السابقة: «ما أنهر الدم فكل».

ولأن الدم المتحجر في الحيوان من جراء قتله بمثقَّل يُفسِد الدم، ويكون ضاراً للإنسان، وإذا خرج الدم المسفوح فإن الجراثيم والميكروبات تخرج منه فيكون اللحم طبيعياً، وهذا ثابت في الطب الحديث، وهو من أسرار هذا الشريعة، وحِكَمِها البالغة.

---

(١) المغني، ١٣/٢٦٢.

(٢) انظر المرجع السابق، ١٣/٢٦٧.

(٣) متفق عليه، سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري، ح/ ٥٠٦٢، (انظر كتاب الأطعمة للفوزان)، ص ١٨٨، وفتاوى الصيد لابن عثيمين، ص ١٣٠.

(٥) انظر البخاري مع الفتح، ١٢/٥٣.

(٦) انظر فتاوى الصيد، لابن عثيمين، ص ٤١.



الشرط السابع: أن يكون الصيد مأذوناً في صيده زماناً ومكاناً، فلا يحل صيد المُحرِم، أو الصيد في الحرم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة: ٩٥].

الشرط الثامن: أن يكون الحيوان مأكول اللحم.

والأصل في جميع الحيوانات برية أو بحرية الحل، إلا ما جاء الشرع بتحريمه، ومن ذلك الخنزير والحمار والبغل، وكل ذي ناب من السباع: أي التي تأكل اللحوم كالذئب والأسد والكلب والنمر وغيرها من المفترسات[1]؛ وكل ذي مخلب من الطيور كالعقاب والباز والصقر، وكذا ما استخبث من الحيوانات وما استقبح منها كالخنافس والحشرات والوزغ، وهوامّ الأرض، وما كان مضراً كالحيوانات السامة كالحية والعقرب وغيرها. وما عدا هذه الأنواع فإن الأصل فيها الحل.

رابعاً: آداب يجب التحلي بها لمن أراد الصيد:

١ - عدم التهاون بالصلوات المفروضة، وأداؤها في وقتها المحدد جماعة إن كانوا جماعة؛ لأن صلاة الجماعة واجبة فلا تسقط في أشد الظروف وأقساها: في حال الحرب، وحال لقاء العدو، فكيف بحال الصيد؟!

٢ - ألاّ يكون الصيدُ شُغْلَ الإنسان الشاغل لمن كان لا يعتمد في رزقه واكتسابه عليه؛ لقوله ﷺ: «من تبع الصيد غفل»[2].

٣ - ينبغي للإنسان أن يتجنب صيد الحيوانات والطيور المستقرة والثابتة في مكان، والتي لها صغار تأوي إليها وتطعمها، وقد سُئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين عن صيد الطيور التي تكون حولها صغار، فأجاب ـ حفظه الله ـ: «إذا علمنا أن هذا الطير المعيَّن له أولاد يضيعون بصيده فإن الأوْلى ـ بل شك ـ ألاّ يُصاد؛ لأنه أخشى أن يكون هذا من جنس فعل المرأة التي كانت لها هرة، فحبستها حتى ماتت جوعاً، فرآها ﷺ تعذب في النار، إلا إذا كان يعلم أين يكون أولادها، ليذهب إليهم، فيأخذهم فينتفع بهم؛ فإن هذا لا بأس به»[3].

٤ - ينبغي كذلك للصياد أن يتجنب أذية الناس بالمرور في أراضيهم، أو من بين زروعهم، وأشجارهم وممتلكاتهم؛ فإن الصيد في هذه الحالة يكون محرماً ـ كما سبق ذكره ـ؛ وذلك لأن فيه أذية للناس، والله ـ تعالى ـ حرم الاعتداء على الناس، وفيه نوع تمتع بأموال الناس بدون إذن، ومال المسلم لا يحل إلا بطيب نفس منه.

٥ - ينبغي للصياد أن يحرص على التسمية وألاّ يتهاون بها؛ لأنه يتوقف عليها حل الصيد من عدمه. وإني بهذه المناسبة أقترح على كل صياد أراد الصيد أن يضع ما يذكِّره بالتسمية، كأن يجعل لفظه «بسم الله» على البندقية أمام عينه حينما يستعد للإطلاق؛ ليكون في تلك اللحظة الأخيرة متذكراً، فيسمي ثم يطلق.

٦- ينبغي للصياد كذلك أن يكون في صحبته سكين ـ حال الصيد ـ؛ ليجْهز على الحيوان، أو الطير الذي أصابه بالرمي ولم يمت؛ فإنه لا يحل قتله حين الاقتدار عليه إلا بالذكاة الشرعية، وهذا من أعظم الأمور التي تحتاج إلى تنبيه؛ حيث إن كثيراً من الصيادين يجهزون على الصيد وهو بين أيديهم بما معهم من سلاح، وهذا أمر لا يجوز، ولا يحل أكل الصيد حينئذ، بل لا بد من الذكاة الشرعية، كما مر معنا.

٧ - ينبغي كذلك ألا يكون هذا الصيد هواية فقط، بمعنى: أن يصيد الصياد لا للأكل بل للتسلية؛ فإن

---

(١) ما عدا الضبع؛ فقد جاءت السنة بحله للدليل الخاص.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) فتاوى الصيد، لابن عثيمين، ص ٤٦، ١٩.



الصيد يكون حراماً، وقد سُئل فضيلة الشيخ محمد العثيمين ـ حفظه الله ـ عن صيد الحيوان فقط، ثم ترك الصيد ميتاً بعد ذلك لا يستفيد منه هو ولا غيره؟! فأجاب ـ حفظه الله ـ: «الصيد لهواً وعبثاً محرم؛ لما في ذلك من اللهو والغفلة عن ذكر الله؛ ولأن ذلك يوجب ضياع المال في غير فائدة، وقد صرح بعض العلماء بكراهته، ولكن قواعد الشريعة تقتضي تحريمه، لأن النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال»[1].

٨ - كذلك يباح للصياد إذا بلغ مسافة القصر أن يترخص برخص السفر؛ لأن هذا السفر لأمرٍ مباح، فيقصر الرباعية، ويباح له الفطر في رمضان، وعليه التأدب بآداب السفر من الأدعية الواردة وغيرها.

٩ - ينبغي للصياد ألا يخرج للصيد وحده، بل الأوْلى أن يكون في صحبة أحد من أصحابه، خصوصاً إذا كان محل الصيد بعيداً بحيث يبلغ مسافة القصر؛ لأن الوحدة يحصل فيها أخطار؛ ولأن السفر مفرداً منهي عنه؛ فالمسافر شيطان، والمسافران شيطانان، والثلاثة ركب، كما ورد في الحديث.

١٠ - ينبغي كذلك للصيادين أن يتجنبوا عند اجتماعهم المزح بالسلاح؛ وذلك بأن يرفع أحدهم السلاح على الآخر، أو يرمي من جانبه ليروعه، أو غير ذلك من أنواع المزح بالسلاح التي تصدُر أحياناً من الصيادين إذا اجتمعوا، وهذا الفعل محرم من جهتين: إحداهما: أن حمل السلاح في وجه المسلم حرام كما وردت بذلك السُّنَّة. ثانياً: أن ضرره واضح للعيان، بل ومتحقق؛ فكثيراً ما نسمع بتلك القصص الدامية التي راح ضحيتها نفوس بريئة سببها المزح الثقيل الذي ليس في بابه، وكثيراً ما نسمع بأن أحدهم وجَّه البندقية إلى صاحبه يظنها فارغة فإذا بها ترميه وتلقيه صريعاً على الأرض؛ فما أحلى الامتثال لأمر الله وأمر رسوله!

وقد سُئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين عن رفع السلاح على وجه المسلم من باب المزاح؟! فأجاب ـ حفظه الله ـ: «لا يجوز رفع السلاح على المسلم سواء كان ذلك من باب المزاح، أم من باب الجد؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك فقال ﷺ: «لا يُشِرْ أحدُكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»[2]. وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي وإن كان أخاه لأبيه وأمه»[3].

١١ - كذلك ينبغي للصياد أن ينتبه لثيابه وملابسه حال الصلاة؛ خشية أن يكون أصابها شيء من دم الحيوان أو الطير؛ لأن الدم الذي ينزف من الصيد بعد رميه نجس، فلا بد من إزالته وتطهيره، ولأن الله ـ تعالى ـ حينما ذكر المحرمات ذكر منها ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] وهو الدم المنهمر منه.

١٢ - كذلك ينبغي ألاَّ يترك السلاح بين الأطفال إذا كان معه أطفال؛ لأن ذلك قد يسبب أخطاراً ومن ثم يقع في الحرج والإثم من جراء تفريطه فيه.

١٣ - كذلك ينبغي للصياد أن يصطحب معه ما يحفظ به صيده من التعفن؛ فبعض الصيادين ربما يصيد صيداً كثيراً ويتركه في سيارته أو في مكان جلوسه، فإذا ما جلس مدة فإذا بالصيد يصيبه العفن، فتعافه نفسه فيرميه، وهذا من التفريط في حفظ المال، وكما سبق معنا في الحديث بأنا قد نُهينا عن إضاعة المال.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يوفقنا جميعاً بالاقتداء، والاهتداء بالسنَّة، وأن ينفع بهذه الأسطر كاتبها وقارئها؛ إنه على كل شيء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) فتاوى الصيد، لابن عثيمين، ص ٤٦، ١٩.

(٢) متفق عليه: البخاري رقم (٦٦٦١)، ومسلم رقم (٢٦١٧) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه مسلم برقم (٢٦١٦).





الأبعاد التربوية للحج

د. حمدي شعيب

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

سُئل رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم جهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم حج مبرور»[(١)].

تشكِّل الآية السابقة مع حديث رسول الله ﷺ ملمحاً يفتح للمسلم باباً عظيماً في الفقه نحن في أمس الحاجة إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى، وهو فقه ترتيب العقلية المسلمة، أو (فقه الأولويات)، وهو ما يُعرف بفقه مراتب الأعمال؛ حيث يتعلم منه المسلم أن للأعمال مراتب متباينة ومتفاضلة في أهميتها وفي ثوابها وفضلها، وأن لكل عمل وقتاً معيناً، وأولوية متقدمة على سائر الأعمال، وهو ما يُعرف بـ (واجب الوقت).

وعلى ضوء ذلك يمكن إعادة ترتيب العقل المسلم وصياغته، فيدرك من خلاله أن فقه الأولويات: هو مراعاة النسب بين الأعمال والتكاليف الشرعية، والإخلال بها يُحدث ضرراً بليغاً بالدين والحياة. والعقيدة في الإسلام مقدمة على العمل. والأعمال متفاوتة تفاوتاً بعيداً، وهي تتفاضل عند الله - سبحانه - وليست على درجة واحدة؛ فالنافلة لا يجوز تقديمها على الفريضة، وفرض العين مقدم على فرض الكفاية. ومما ينبغي أن نعرفه: القضايا التي هي أَوْلى بالاهتمام فتُعطى الجهد والوقت أكثر مما يُعطى غيرها، وأن نعرف أَوْلى الأعداء بتوجيه قوانا الضاربة، وتركيز الهجوم عليه، وأي المعارك أَوْلى بالبدء؟

وأجاب ابن القيم - رحمه الله - عن أي العبادات أفضل: هل الأفضل منها: الأشق؟ أو الأفضل: المتعدية النفع؟ ثم رجَّح أنه لا يوجد أفضل بإطلاق؛ وإنما لكل وقت عبادة تكون هي الأفضل بالنسبة له[(٢)].

ولا ننسى وصيته ﷺ عندما رتب أولويات الإنفاق، فقال: «وابدأ بمن تعول»[(٣)].

وكذلك عندما قص علينا ﷺ أوضح مثال لعاقبة عدم ترتيب الأولويات بما حدث لجريج العابد عندما قدَّم الأولوية لعمل صالح مرجوح على عمل صالح آخر أرجح؛ حيث قدم الاستمرار في صلاته، ولم يلبِّ نداء أمه

---

(١) رواه البخاري، ٢/ ١٦٤.

(٢) مدارج السالكين: ابن القيم، ١/ ٨٥ - ٩٠.

(٣) رواه البخاري، ح/ ١٣٣٧.

ثلاثاً، فأغضبها، ودعت عليه دعوة استجاب ـ سبحانه ـ لها فيها، وهي أن لا يموت حتى يرى وجوه المومسات، فاتهمته إحدى البغايا بالزنا والفجور، ولكن الحق ـ سبحانه ـ أنجاه بتوبته وصلاحه[1].

والداعية أولى الناس بامتلاك تلك العقلية المرتبة، فيعرف حق الوقت، ويفقه أولوياته، وربما بنفسه أن يكون تعامله مع القضايا تعاملاً مختلاً، مثل ذلك السفيه الذي استجار به غريق فاشترط أولاً أن يستر هذا الغريق المسكين عورته، حتى ينقذه!

إشارة نبوية:

تنمية روح الجندية والانضباط: وتبدأ هذه الرحلة المباركة من أماكن معينة، تعرف بالميقات المكاني للحج، وهي خمسة حدود مكانية؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «وقَّت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يَلمْلَمْ. قال: «فهن لهن، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، لمن كان يريد الحج، أو العمرة. فمن كان دونهن فمَهَلُّه من أهله، وكذلك حتى أهل مكة يهلون منها»[2].

ولا يجوز تجاوزها بغير إحرام إذا نوى العبد الحج أو العمرة، ومن تجاوزها فإنه يجب عليه أن يعود إليها ويحرم منها، وإلا فعليه دم يذبحه ويوزعه على فقراء الحرم.

من هذه الشعيرة الخاصة يمكننا أن نضع أيدينا على مغزى بعيد لها، وبُعْدٍ تربوي تستشعره النفس من خلال تدبرها، وهو أن يتعود المسلم دوماً أن لكل عمل ولكل أمر حدوداً معينة لا يجوز تجاوزها، بل إن تجاوزها قد يكون من الخطورة بمكان؛ حيث ينعكس أثره على صحة العمل نفسه، وقبوله عند الحق ـ سبحانه ـ.

وهذا المغزى الانضباطي التربوي البعيد يكاد يكون سمة بارزة من سمات المنهج الإسلامي التي يُربَّى المسلم عليها؛ حيث توجد عنده هذه الروح، وينميها في حسه، فتعوِّده على حب النظام والانضباط، والطاعة للأوامر، والتزام حدود كل عمل فلا يتجاوزه، وهي كلها جوانب تندرج تحت صفات الجندية المنشودة.

وكذلك كانت روح كل الشعائر والأعمال الخاصة بركن الحج.

وتدبر كيف أن لهذا الركن العظيم أركاناً أربعة هي: الإحرام، وطواف الإفاضة، والوقوف بعرفة، والسعي بين الصفا والمروة؛ فمن ترك ركناً لم يصح حجه، ولا يتم إلا به.

وتدبر أيضاً أن لهذا الركن واجبات؛ فمن ترك واجباً فعليه دم لفقراء الحرم.

وهي أيضاً روح كل العبادات والشعائر.

ويمكننا أن نأخذ مثالاً واحداً وهو الصلاة، وكيف أن لها شروطاً، وفرائض، وسنناً معينة، كلها توقيفية لا يجوز الزيادة عليها. والمقام لا يتسع هنا إلى التفصيل أكثر من هذه الإشارات.

وكذلك كانت روح علاقات المسلم كلها.

---

(١) قصة جريج العابد رواها البخاري، ح/ ٢٣٠٢، ومسلم، ح/ ٤٦٢٥..

(٢) رواه البخاري، ٢/ ١٦٤، ومسلم، ٤/ ٥.



فسلوكه مع ربه، وسلوكه مع نفسه، ومع أهله له ضوابط محددة، وهي حقوق في عنقه: «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»(١).

من هنا نخلص إلى أن الانضباط والتزام حدود الله - تعالى - من صفات المسلم الحق.

وعكس هذا هو عدم النظام والتسيب، والمخالفة، والتعدي.

بل إن تلك القضية لها آثار خطيرة داخل النفوس وكذلك داخل الصف.

ولنتدبر هذه النصيحة العظيمة من الحبيب ﷺ التي تبرز تلك الرابطة بين النظام في الظاهر، والنظام في الداخل؛ فما هي إلا إشارة حمراء تحذر العاملين، وتبين أن الاختلاف الظاهري ينتج اختلافاً بين القلوب. قال ﷺ: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»(٢).

والداعية أوْلى بالالتزام بصفات الجندية، وهو اللبيب الذي بالإشارة يفهم؛ فما بالك إذا كانت تلك الإشارة نبوية واضحة جلية؟

إنذارٌ للنمل!

فضل إعلان الهوية: من عند هذه المواقيت المكانية، وفي أثناء تلك المواقيت الزمانية يُحْرِم المسلم إذا نوى الحج أو العمرة؛ وذلك بأن يخلع ثيابه التي يلبسها، ويرتدي ثياب الإحرام، وهي تتكون من رداء وإزار أبيضين نظيفين، أما المرأة فتلبس ما شاءت من الثياب المباحة غير ثياب التبرج والزينة، ويستحب للإحرام الاغتسال والتطيب ونظافة الملبس.

وإذا أحرم المسلم كان عليه أن يرفع صوته بالتلبية: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

ثم يلتزم باجتناب محظورات الإحرام المعروفة.

وبتدبرنا لهذا العمل من أعمال الحج والذي يُصنَّف ركناً من أركانه، وكذلك واجباً من واجباته، وذلك من الجانب الذي يهمنا هنا وهو البعد التربوي لهذه الشعيرة، ودورها المهم؛ حيث تستشعر النفس أن هذا العمل يرمز إلى معنى رفيع وهو قضية جهد الإنسان في التغيير وفعاليته في صنع الأحداث، فشرارة البداية في التحولات الحضارية، هي محاولة تغيير النفس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. [الرعد: ١١].

ومع قناعتنا بأن التغيير المنشود هو التغيير الداخلي أي تغيير النفس والجوهر الإنساني، ورغم يقيننا بأن الحق - سبحانه - لا يعامل الناس بظواهرهم: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٣).

ولكن البعد التربوي للإحرام يوجهنا إلى منحى آخر مهم، وإلى دلالة عظيمة هي: أن من أراد التغيير

---

(١) رواه الترمذي، ح/ ٢٣٣٧.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٦٥٤.

(٣) رواه مسلم، ح/ ٤٦٥٠.

الداخلي فلا يهمل التغيير الخارجي؛ فالإنسان كلٌّ لا يتجزأ، وأي خلل ظاهري له تأثير بعيد داخلياً؛ وذلك كما أشرنا إلى وصية الحبيب ﷺ التحذيرية: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»(١) وكذلك كما نهتم بتسوية الصفوف، خوفاً من تأثيرها على الداخل: «لَتُسَوُّنَّ صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم»(٢).

والإحرام رمز للانسلاخ من مرحلة إلى أخرى، ويعتبر عهداً بين المسلم وربه، وتأكيداً على صدق نية التغيير والالتزام بذلك ظاهرياً بلبس الإحرام، وإعلان ذلك برفع الصوت بالتلبية حتى يعلم الناس جميعاً بهذا الميثاق، وبتوابعه ـ وهي اجتناب محظوراته ـ، بل إن البعد التربوي لهذه التلبية ودلالاتها نستشعرها من تدبر قوله ﷺ: «ما من ملبٍّ يلبي إلا لبَّى ما عن يمينه وشماله من شجر وحجر حتى تنقطع الأرض من هنا وهنا ـ يعني عن يمينه وشماله ـ»(٣).

وتدبر ذلك النداء ورفع الصوت بالتلبية وأثره الكوني والباطني، وتواصله مع ذلك النداء الذي رفعه مؤسس هذا المشروع العظيم الخليل ـ عليه السلام ـ عندما أمره الحق ـ سبحانه ـ أن يؤذن في الناس، فيبلغهم ويدعوهم، ووعده بالإجابة: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] «أي نادِ في الناس بالحج داعياً إياهم إلى الحج، إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذُكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ صوتي ولا ينفذهم؟ فقال: نادِ؛ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه ـ وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس ـ وقال: يا أيها الناس! إن ربكم قد اتخذ بيتاً، فحجوه. فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك»(٤).

وهو رمز لإعلان الهوية، وما يدل عليه من أن هذا المشروع مشروع كوني يهش ويبش له كل الخلائق، ويتجاوب معه الوجود كله، ويباركه رب هذه الخلائق ورب هذا الوجود كله ـ سبحانه ـ.

وهو رمز التميز الذي يفرق بين أصحاب هذا المشروع الرباني العظيم وأصحاب المشاريع الأرضية المغايرة؛ يفرق بين المشروع الذي يتجاوب له الوجود وتأنس إليه الفطرة وبين المشاريع الأخرى التي وإن لم تصطدم فهي تتنافر مع الوجود، وتأنف منها الفطرة الإنسانية.

وهو أيضاً عنوان التحدي الذي يشمخ به أصحاب هذا المشروع على غيرهم من أصحاب المشاريع المناوئة؛ التحدي بالركون إلى الحق ـ سبحانه ـ، إلى القوة التي تباركه وتزكيه وتباهي بأصحابه ملائكة السماء؛ حيث روي عنه ﷺ أنه خرج على حلَقٍ من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا. قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»(٥).

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٦٥٤.

(٢) رواه البخاري، ح/ ٦٧٦.

(٣) رواه ابن خزيمة، ح/ ٢٦٣٤ بسند صحيح.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٣/ ٢٢٦.

(٥) رواه مسلم، ح/ ٤٨٦٩.



ومن هنا ندرك كم لهذا العمل العظيم من أعمال الحج من آثار كونية! وكم له من آثار باطنية تأخذ بتلابيب النفس، ويتراقص لها القلب لهفة وحباً وشوقاً! وذلك استجابة لدعاء الخليل ـ عليه السلام ـ الذي رفعه ذات يوم من أيام هذا المشروع العظيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

لذا فهو إعلان مادي بالالتزام بعهد الانسلاخ، والتحول من الماضي بكل سلبياته والدخول إلى المستقبل المنشود من خلال بوابة الحاضر.

والدعاة العاملون يعون جيداً مغزى هذا العمل، ودلالاته الكثيرة، وأهمية تلك النقلة، والعبور من مرحلة التفلُّت إلى مرحلة العمل من أجل أداء هذه الشعيرة الإسلامية الكبرى.

لبنة التربية:

عند هذه المواقيت المكانية، وأثناء المواقيت الزمانية للحج يبدأ المسلم رحلته المباركة، ويحدد نيته فيختار أحد الأنساك الثلاثة: إما التمتع، أو الإفراد، أو القِران.

وكذلك عندما ينهي رحلته يكون على أحد الخيارين: إما التعجل في نهاية اليوم الثاني عشر وقبل غروب شمسه، أو أن يتأخر إلى اليوم الثالث عشر.

وبتدبر هذه الخيارات سواء في بداية الرحلة أو في نهايتها التي بينها الرسول ﷺ ولم ينكرها أي من الأئمة، وكذلك في اختلاف الفقهاء في أفضلية أي من الأنساك على غيرها، وبتدبر هذه الرحمة الإلهية في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وبالنظرة الشمولية العامة، والغوص في المغزى البعيد للنصوص، وعدم قصرها على موضوع الحج، بل بالتوسع في معناها البعيد، ومن هذا المنطلق المنهجي نجد أن هذه النظرة لهذه الركيزة القائمة على تدبر الخيارات في رحلة الحاج تفتح باباً عظيماً في المنهج، وتكشف أضواءاً على قضيةٍ طالما شغلت الكثيرين في مختلف العصور؛ ألا وهي (قضية تعدد الصواب)، وهي من أهم جوانب إعادة صياغة العقلية المسلمة وركائزها التي ندعو إليها ليزيد رصيدنا من هذه العقليات التي تفقه وتعي (فقه الموازنات) أو فقه الترجيح، وهو الفقه الذي على أساسه يقوم بنيان (السياسة الشرعية).

ولا ننسى الفقه الآخر المرتبط بهذا الفقه ويلازمه وقد يتداخل معه؛ ألا وهو (فقه الأولويات).

فعلى أساس هذين الفقهين يتم الترجيح والموازنة بين الاختيارات على أساس الأصوب والأوْلى.

وفي النهاية نخلص إلى أن ذلك من علامات سعة المنهج ومرونة الشريعة، وكذلك من علامات نضج حاملي هذا المنهج وثقتهم في سمو فكرتهم التي يدعون إليها وعلوها، وهي أيضاً دلالة بارزة على سعة أفق دعاة مشروعه الحضاري.

وإذا كان لهذه القضايا أهميتها في الماضي فإن هذه الأهمية تتضاعف في حلقة الصراع والتدافع الحضاري المعاصرة أمام تيارات ومشاريع مناوئة يُلقي حاملوها بالتهم جزافاً على حاملي المشروع الحضاري الإسلامي، ويتهمونهم بالجمود والتحجر وأحادية النظرة.



آلام ... وآمال:

ضرورة إيجاد محور تغييري واحد: ثم يبدأ الحاج طوافه، فيبدؤه باستلام الحجر الأسود بيده اليمنى ويقبِّله، فإن لم يتيسر تقبيله قبَّل يده إن استلمه بها، فإن لم يتيسر ذلك، فإنه يستقبله ويشير إليه بيده إشارة ولا يقبِّلها، قائلاً: بسم الله والله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءاً بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ. ثم يستلم الركن اليماني بيمناه، ويكمل سبعة أشواط مع مراعاة سُنَّتَي الاضطباع والرَّمَل في الأشواط الثلاثة الأولى.

وحول هذا الركن من أركان الحج، ومن خلال تأملاتنا التي تدور من الجانب الذي يعنينا في هذه الدراسة وهو البعد التربوي له نجد أننا أمام عدة قضايا مهمة:

أولها: عندما يرنو المسلم إلى هذه الأعداد الغفيرة من كل جنس ولون، ومن كل أرض وصقع، ومن كل لسان ولغة، وكيف توحدت في زيها، وفي خطواتها ونداءاتها.

لذا فإننا نؤكد أن هذا الدين هو الفكرة الموثوق بها والوحيدة المرشحة من قِبَلِ الحق ـ سبحانه ـ ركيزةً لتجميع الأمة كل الأمة بعد إخفاق الأفكار الأخرى التي استوردت على أيدي حفنة من بني جلدتنا، فكانت كالنباتات الشيطانية الغريبة على تربتنا.

ثانيها: أهمية وجود القضية المحورية التي لا بد منها لإيقاظ الأمة كل الأمة لتكون مشعلاً يبث الحماسة، وعاملاً يحرك مشاعر الجميع سواء الفرد أو الأمة.

فبرغم توحد اللباس والخطوات والكلمات لهذه الجموع الغفيرة إلا أن المشكلة هي وجود القضية أو الفكرة التي توحد اهتمامات الأمة، وتحرك جماهير الشارع.

ولقد حاول المخلصون مراراً أن يوجدوا المشروع الذي يجمع شمل الأمة، والذي يشعل حماس أبناء الأمة؛ فإن أمة لا يجمعها قضية خطيرة ومصيرية مثل ضياع أوَّل قبلتيها ومعراج رسولها الخاتم ﷺ وموطن مقدسات كل الرسالات السماوية فلن تجمعها قضايا أخرى.

وللأسف يغفل كثير من أبناء الأمة الإسلامية عن هذه القضية التي لا يختلف عليها اثنان لتعبئة الأمة حوله، ولتوجيه الأنظار للخطر المحدق بالجميع، ومن أجل مناهضة المشروع الصهيوني الغربي الذي يهدد كل الأمة.

أما بالنسبة للفرد المسلم فالكل يطوف ظاهرياً حول محور واحد، والكل يردد الكلمات نفسها، والكل يسكب عبراته، ولكن كلٌ يبكي على ليلاه، حقاً: «إنما الأعمال بالنيات»[1].

ثالثها: أهمية التنظيم؛ وهو ما يُعرف بفقه تنسيق الجهود وتوفير الطاقات، وتوظيف الإمكانات. وهذه القضية تبدو واضحة في كل أعمال الحج؛ ففي وقت معين وفي أماكن معينة تسير هذه الجموع المليونية في سلاسة وفي يسر وفي نظام عجيب ومعجز، وما كان هذا ليتأتى إلا بالتنظيم الجيد والدقيق الذي وضعه ﷺ عندما حج سنة عشر من الهجرة، وتبعه المسلمون حتى يومنا هذا دون تبديل أو تحريف.

---

(١) رواه البخاري حديث رقم ١.



رابعها: عندما ينظر الداعية إلى هذه الجموع المليونية نظرة ذات بُعد كمي؛ فيملأ جوانحه الأمل، ويتذكر مؤسس هذا المشروع العظيم؛ يتذكر الخليل ـ عليه السلام ـ وهو يقف وحيداً، ويؤذن بالحج كما أمره الحق ـ سبحانه ـ «نادِ وعلينا البلاغ»، فتكون النتيجة هي هذه الجموع التي لا تُحصى، والتي تأتي من كل حدب وصوب، حتى قيام الساعة، مشاة وراكبين، وكلهم شوق وبقلوب تهوي إلى هذا المكان الطاهر.

وهذا ما يؤكد أهمية فقه الدور المطلوب وأجره الموعود؛ فالداعية عليه البلاغ، والحق ـ سبحانه ـ يرعى النتائج بعد ذلك، ويبارك في الأجر العظيم الذي ينتظر الداعية عند القيام بوظيفته البلاغية.

وكذلك حَمَلَةُ الفكرة الربانية العظيمة، ودعاة هذا المشروع الحضاري، لقد كلفهم الحق ـ سبحانه ـ بوظيفة، أو دور معين، ووعدهم بالأجر العظيم على حسن أداء تلك الوظيفة.

ولا نريد أن نكرر هنا ما أكدنا عليه ووضحناه آنفاً، ولكننا نذكِّر الداعية أن يفقه وظيفته من حيث ماهيتها، ومنهجية تنفيذها، والأجر المترتب عليها، وكيفية تلقي التكاليف، وحسن تنفيذها، وحسن عرض البضاعة الربانية العظيمة، وضرورة أن يصل إلى درجة البلاغ المبين للفكرة، ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عليه أن يستشعر هذا التفاعل والتعاضد الفريد بين دور البشر، ودور المدد الرباني في تنفيذ جمع شمل الأمة المنشود، وكيف أن هذه النقطة هي النبراس الذي يعطي الأمل للعاملين، وهو العلامة الفارقة التي تميزهم عن غيرهم من أصحاب المشاريع المغايرة.

خامسها: عندما يُتبِع الداعية هذه النظرة، بنظرة أخرى ذات بُعدٍ نوعي؛ فيملأ قلبه الأسى عندما يتأمل ذلك الفارق الشاسع بين ثقل تلك الأعداد القليلة التي كانت تطوف معه ﷺ وأثرها في صنع أحداث الكون حولها، ودورها في صنع حركة التاريخ، وبين ثقل هذه الجموع المعاصرة، وهم يطوفون الطواف نفسه، ويرددون الكلمات نفسها، ولكن أصابهم مرض العصر، مرض الغثائية، أو الإمَّعية، وكيف تداعت عليهم أرذل الأمم، فشتتت جموعهم، وأصبحوا على هامش الأحداث.

وهي مرحلة القصعة التي حذر منها ﷺ: «يوشك أن تتداعى الأمم عليكم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟! قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»(١).

ويعود الداعية بعد تدبره لهذا الملمح التربوي، إلى نظرة واقعية يراجع بها منهجيته، فيدرك أهمية التركيز على التربية، ويهتم بالتقييم النوعي لثماره، ولا يغتر بالتجمعات الغثائية القطيعية.

سادسها: عندما يستلم المسلم الحجر الأسود، تعاوده السكينة، ويطمع في وعده ﷺ: «إن مسحهما يحطَّان الخطايا حطّاً»(٢).

سابعها: عندما يتأمل الداعية مشروعية سُنَّة الرَّمَل في الأشواط الثلاثة الأولى، ويدرك مغزى حرصه ﷺ أن يكون سلوك المسلمين وحركتهم بمنهجهم عنواناً يرد كيد الأعداء، ويطمس الشبهات، ويزيل الإشاعات التي

---

(١) رواه أبو داود، ح/ ٣٧٤٥.
(٢) رواه أحمد، ح/ ٥٤٤٢.

رددتها يهود حول حُمَّى يثرب التي أصابت المسلمين.

ثم يأسى على واقع أمته وكيف أن مجرد تلك الإشاعات حول الوهن الصحي الظاهري الذي زعموا أنه أصاب الصحابة - رضوان الله عليهم - قد استحالت إلى حقيقة مُرَّة وهو إصابة مسلمي عصرنا بوهن آخطر، وهو الوهن الباطني، والهزيمة الداخلية النفسية.

ومن خلال تلك القضايا التي ذكرنا طرفاً منها يتبين للداعية مدى أهمية المشاركة في جولة التدافع الحضارية المعاصرة، وذلك بحمل المشروع الحضاري الإسلامي؛ فبه - وبه وحده - تستطيع أمتنا أن تجابه المشروع الصهيوني الغربي.

فهو المشروع الذي به تتوحد اهتمامات الأمة وجهودها، فيكون تمحورها وطوافها حول محور تغييري واحد، وذلك للخروج من مرحلة القصعة؛ فلعل هذه المشاركة تزيل الوهن والغثائية، وتُري أعداء الأمة من المشاركين معنى القوة والعزة.

ساعة... وساعة:

تنمية خُلق التيسير: بعد إتمام الطواف، وقبل أن يبدأ السعي، يُسن للحاج أن يصلي ركعتين جاعلاً مقام إبراهيم - عليه السلام - بينه وبين الكعبة ولو بَعُدَ، وإن لم يتيسر له صلَّى في أي موضع، ويُستحب أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة (الكافرون)، وفي الثانية (الإخلاص).

بعد ذلك يُستحب له أن يذهب إلى زمزم ويشرب منها، ويصب على رأسه، وإن تيسر له رجع وكبَّر واستلم الحجر الأسود.

ولو تدبرنا نوعية تلك السنن وموضعها لوجدناها تتكرر بصفات أخرى طوال رحلة الحج، ونجدها أيضاً تفصل بين كل عملين شاقين.

أو بمعنى آخر كأنها لحظات لالتقاط الأنفاس قبل الشروع في الأعمال التي تتطلب جهداً ومشقة.

وتدبر جلسات الاستراحة الإيمانية المتعددة تلك، والتي تأتي على هيئات مختلفة عملاً ووقتاً مثل يوم التروية قبل الخروج إلى عرفة، والمبيت بالمزدلفة قبل أعمال يوم النحر الشاقة من رمي ونحر وحلق وطواف.

وهذا الملمح التربوي يفتح باباً عظيماً في المنهج، ويدلنا على سمة عظيمة من سمات ذلك المشروع الحضاري، وهو مراعاة الطبيعة البشرية، ومراعاة قدرات المشاركين في حمله، وكذلك يدل على يسر هذا المنهج وواقعيته وملاءمته للجميع.

وتدبر كيف أن الحبيب ﷺ قد راعى قدرات أصحابه - رضوان الله عليهم -، فجعل ذروة سنام الدين - وهو الجهاد - درجات ومراتب، فلم يُحرَم أحد من شرف القيام به، حتى وإن قصرت همته، وضعفت قدراته، بل وإن اعترف بها؛ وذلك لأن الجهاد هو سبيل الأمة ومصدر عزها، ولا بد من أن يشارك الجميع في الركب؛ لذا صُنِّف الحج على أنه جهاد الضعفاء، فعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال: «جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إني جبان، إني ضعيف، فقال ﷺ: هَلُمَّ إلى جهادٍ لا شوكة فيه: الحج»[1].

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ح/ ٢٩١٠ ورواته ثقات.



وكان منهجه ﷺ هو الوسطية، بمراعاة الفطرة الإنسانية، وحدود الاستطاعة البشرية: «مَهْ، عليكم بما تُطيقون، فوالله! لا يملُ الله حتى تملوا»(١).

وذلك روح الدين، وأساس القاعدة الربانية التي يقوم عليها المنهج الإسلامي: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويخرج الداعية من هذه الركيزة، بأن يراعي الطبيعة البشرية، وقدرات المشاركين، ويوظف كلاً في مكانه، ولا يُشعر أحداً بأفضلية مكانته على الآخر.

وإن كان الركب يحتاج إلى طلائع قوية، ودعائم صلبة تتحمل التبعات فإن الصف أيضاً يضم بجانب هؤلاء الرواحل آخرين من أنصاف الرواحل، والأقل منهم درجة، أو درجات، ولكل قدراته وطاقته التي توضع في عين الاعتبار، ولكل دوره الذي لا يستطيع أحد غيره القيام به، ولكل ثغره الذي لا يستطيع أن يحرسه غيره، بل ولكل فضله ومكانته التي لا يمكن لأحد بخسها.

وعلى الداعية كذلك ألا يهمل فترات الترويح على النفس، ولكن بشرط أن تنضبط بشرعيتها مع الأهداف والغايات الربانية للمسيرة؛ فهو المجاهد الذي لا ينسى قضيته حتى وإن استراح لبعض الوقت، وكذلك يجب ألا تطول فترات الراحة المباحة والاستجمام البريء فتنسيه مهمته.

وهو من باب الوسطية؛ أو التوازن والاعتدال، كما في نصيحته ﷺ: «يا حنظلة! ساعةً وساعةً»(٢).

الشقائق:

دور المرأة في المشروع الحضاري: بعد ذلك يتجه الحاج إلى المسعى، فإذا دنا من الصفا تلا قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ثم يقول: «نبدأ بما بدأ به الله». ثم يبدأ من الصفا فيرتقي ثم ينظر إلى الكعبة، فيكبر ويوحد، ويدعو ثلاثاً من خيري الدنيا والآخرة، ثم يبدأ السعي متجهاً إلى المروة ويذكر الله - عز وجل - ويدعو وهو يمشي. ويركض هرولة بين الميلين. ثم يمشي حتى يأتي المروة فيرتقي عليها، ويصنع كما صنع على الصفا. ثم يعود إلى الصفا ويكرر ذلك سبعاً.

وعندما نتأمل هذا العمل العظيم من أركان الحج أو واجباته - وذلك من زاوية بحثنا المتواضع، ومغزاه التربوي - من حيث دلالاته باعتباره ركيزة من ركائز المشروع الحضاري فإننا نرى بدايةً أنه قد شُرع للأمة كما في قوله ﷺ: «اسعوا؛ فإن الله كتب عليكم السعي»(٣)، شُرع ليربط الأمة بتاريخها الناصع، ويذكر الأمة بجذورها، وأصالتها تذكرة دائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، يذكرها بتلك التجربة العظيمة، والجهد

---

(١) رواه البخاري ١/ ١٠١ باب أحب الدين إلى الله أدومه.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٤٩٣٧.

(٣) المنهاج في يوميات الحاج: خالد بن عبد الله الناصر، ٣٥.



الشاق الذي قامت به هاجر الصابرة المؤمنة المثابرة، ـ عليها السلام ـ وهي تبحث عن الماء لرضيعها ولها بعد أن نفد الماء الذي كان معها، و «عطشت، وعطش ابنها ـ أي انقطع لبنها فعطش ابنها ـ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أي يبكي ويتقلب، وفي رواية: يتلبط أي يتمرغ ويضرب الأرض برجليه، وفي أخرى: يتلمظ أي يخرج لسانه فيبل به شفتيه وكانت سنه حينئذ سنتين ـ، فانطلقت كراهيةً أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر: هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ـ أي قميصها ـ ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة، فقامت عليه، فنظرت: هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فذلك سعي الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً؛ فقالت: صهٍ ـ تريد نفسها ـ ثم تسمَّعت، فسمعت أيضاً! فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ، ـ أي ساعدني لأني سمعتك ـ فإذا هي بالمَلَك ـ أي جبريل ـ عليه السلام ـ عند ماء زمزم ـ فبحث بعَقِبه ـ أي عظم مؤخر القدم ـ أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء»[1].

وبتدبر هذه التجربة العظيمة نستطيع أن نتلمس بعض الملامح التربوية حول بعض القضايا الفرعية، ثم حول القضية العظيمة والمغزى الرفيع الذي نخلص إليه وذلك في الحلقة التالية ـ إن شاء الله ـ.

(١) رواه البخاري، ح/ ٣١١٣.





حدثوا الناس بما يعرفون

محمد بن عبد الله الدويش

إن ثمرة دعوتنا للناس وخطابنا لهم تتحقق حين يفهمون الخطاب ويعقلونه، ثم يتحول الأمر إلى سلوك عملي واستجابة.

وما لم يكن الخطاب مناسباً للناس تبلُغُه عقولهم وتدركه أفهامهم فلن يتحقق المقصود منه.

لذا صح عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»(١).

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما أنت بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(٢).

وتحديث الناس بما يعرفون له جانبان:

الأول: يتعلق بأسلوب الخطاب؛ وذلك بأن يُخاطب الناس بلغة سهلة واضحة، وأن يبتعد المتحدث عن التقعُّر والتكلُّف والبحث عن الألفاظ الغريبة، وقد ذم النبي ﷺ هذا المسلك فقال: «إن الله ـ عز وجل ـ يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها»(٣).

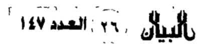
وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء

---

(١) رواه البخاري (١٢٧).

(٢) رواه مسلم في مقدمة الصحيح.

(٣) رواه أحمد (٦٥٠٧)، وأبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣).



والبيان شعبتان من النفاق»[1] قال الترمذي: والعي قلة الكلام، والبذاء: هو الفحش في الكلام، والبيان: هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسعون في الكلام ويتفصحون فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله.

وأحياناً يدفع التكلف صاحبه إلى هجر المصطلحات الشرعية، والبحث عن مصطلحات حادثة.

الثاني: يتعلق بمضمون الخطاب، فليس كل ما يُعلم يقال، والعامة إنما يُدعون للأمور الواضحة من الكتاب والسنة، بخلاف دقائق المسائل سواء أكانت من المسائل الخبرية، أم من المسائل العملية.

وما يسع الناس جهله ولا يكلفون بعلمه أمر نسبي يختلف باختلاف الناس، وهو في دائرة العامة أوسع منه في دائرة طلبة العلم.

وها هو النبي ﷺ إمام الدعاة وقائدهم حين يأتيه رجل يسأله عما يدعو إليه، أو يسأله عما يجب عليه أن يفعله، يجيبه النبي ﷺ بالجمل الثابتة الظاهرة من دعوته ﷺ: توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ، إقام الصلاة، إيتاء الزكاة، الصوم، الحج، صلة الأرحام، كسر الأوثان... إلخ، ولم يَدْعُ النبي ﷺ أمثال هؤلاء إلى مسائل فرعية أو خفية.

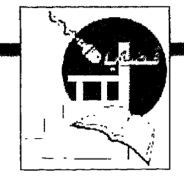
ومن ذلك ترك تحديث الناس بما يُشكِلُ عليهم فهمُه، أو يُخشى أن ينزلوه على غير تنزيله ويتأولوه على غير تأويله. قال الحافظ ابن حجر في شرحه لخبر علي ـ رضي الله عنه ـ: «وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة. وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي»[2].

فحري بالدعاة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يتدارسوا هذه الآداب، ويعتنوا برعايتها وتطبيقها.

---

(١) رواه أحمد (٢١٨٠٩)، والترمذي (٢٠٢٧).

(٢) فتح الباري، ج ١، ص ٢٧٢.



فتنة مسايرة الواقع

عبد العزيز الجليل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من علامة توفيق الله ـ عز وجل ـ لعبده المؤمن أن يرزقه اليقظة في حياته الدنيا؛ فلا تراه إلا حذراً محاسباً لنفسه خائفاً من أن يزيغ قلبه، أو تزل قدمه بعد ثبوتها، وهذا دأبه في ليله ونهاره يفر بدينه من الفتن، ويجأر إلى ربه ـ عز وجل ـ في دعائه ومناجاته يسأله الثبات والوفاة على الإسلام والسُّنَّة غير مبدل ولا مغير.

وإن خوف المؤمن ليشتد في أزمنة الفتن التي تموج موج البحر والتي يرقق بعضها بعضاً، وما إخال زماننا اليوم إلا من هذه الأزمنة العصيبة التي تراكمت فيها الفتن، وتزينت للناس بلبوسها المزخرف الفاتن، ولم ينج منها إلا من ثبته الله ـ عز وجل ـ وعصمه. نسأل الله ـ عز وجل ـ أن يجعلنا منهم.

وأجدها فرصة أن أتحدث عن فتنة شديدة تضغط على كثير من الناس فيضعفون أمامها، ألا وهي فتنة مسايرة الواقع وضغط الفساد ومسايرة العادات، ومراعاة رضا الناس وسخطهم، وهي فتنة لا يستهان بها؛ فلقد سقط فيها كثير من الناس وضعفوا عن مقاومتها، والموفق من ثبته الله ـ عز وجل ـ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عن هذه الآية: «تحت هذه الآية كنز عظيم، من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم»(١).

وإذا كان الرسول ﷺ قد قال له ربه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] فسواه من الناس أحوج إلى التثبيت من ربه ـ تعالى ـ، وفي هذا تأكيد على أهمية الدعاء وسؤال من بيده التثبيت والتوفيق وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ذكر بعض الصور لفتنة مسايرة الواقع والتقليد الأعمى:

إن فتنة مسايرة الواقع والتأثر بما عليه الناس لتشتد حتى تكون سبباً في الوقوع في الشرك الموجب للخلود في النار ـ عياذاً بالله تعالى ـ؛ وذلك كما هو الحال في شرك المشركين الأولين من قوم نوح وعاد وثمود والذين جاؤوا من بعدهم من مشركي العرب، فلقد ذكر لنا القرآن الكريم أنهم كانوا يحتجون على أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ عندما واجهوهم بالحق ودعوهم إلى التوحيد وترك الشرك ـ بأنهم لم يسمعوا بهذا في آبائهم الأولين، وكانوا يتواصون باتباع ما وجدوا عليه آباءهم ويحرض بعضهم بعضاً بذلك ويثيرون نعرة الآباء والأجداد بينهم. وسجل الله ـ عز وجل ـ عن قوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

(١) بدائع التفسير، ٢/١٧.

وقال ـ تعالى ـ عن قوم هود: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقال ـ تبارك وتعالى ـ عن قوم صالح: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...﴾ [هود: ٦٢].

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ عن قوم فرعون: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]، وقال عن مشركي قريش: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾ [البقرة: ١٧٠] والآيات في ذلك كثيرة، والمقصود التنبيه إلى أن تقليد الآباء ومسايرة ما عليه الناس والفوه لهو من آشد أسباب الوقوع في الكفر والشرك، وقد بين الحق للناس؛ ولكن لوجود الهوى وشدة ضغط الواقع وضعف المقاومة يُؤْثِرُ المخذول آن يبقى مع الناس، ولو كان يعتقد أنهم على باطل وأن ما تركه وأعرض عنه هو الحق المبين، وإلا فما معنى إصرار أبي طالب عم الرسول ﷺ على أن يموت على عقيدة عبد المطلب الشركية مع قناعته بأن محمداً ﷺ رسول الله والحق معه لولا الهوى ومسايرة ما عليه الآباء وخوفه من مصادمتهم وتضليلهم؟ نعوذ بالله ـ تعالى ـ من الخذلان.

وإذا جئنا لعصرنا الحاضر وبحثنا عن أسباب ضلال علماء الضلال الذين زينوا للناس الشرك والخرافة والبدع الكفرية رأينا أن من أهم الأسباب مسايرتهم للناس، وميلهم مع الدنيا ومناصبها، وظنهم أنهم بمصادمة الناس سيخسرون دنياهم وجاههم بين الناس، فآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، وسايروا الناس مع اعتقادهم ببطلان ما هم عليه، وكذلك الحال في سائر الناس المقلدين لهم في الشرك والخرافة والسحر والشعوذة لو بان لأحدهم الحق فإنه يحتج بما عليه أغلب الناس، فيسير معهم، ويضعف عن الصمود أمام باطلهم إلا من رحم الله من عباده الذين لا يقدِّمون على مرضاة الله ـ تعالى ـ شيئاً، ولا يتركون الحق لأجل الناس، ولا يسايرونهم على ما هم عليه من ضلال وفساد؛ بل يتذكرون قول الرسول ﷺ: «من التمس رضا الله في سخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس في سخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»(١).

والأصل في مسايرة الناس على ضلالهم وتنكبهم الحق هو الهوى المتغلب على النفوس بحيث يطمس البصيرة، حتى ترى المتبع لهواه يضحي بروحه في سبيل هواه وباطله وهو يعلم نهايته البائسة، ومن كانت هذه حاله فلا تنفعه المواعظ ولا الزواجر كما قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «فكذلك صاحب الهوى ـ إذا ضل قلبه وأُشرب حبه ـ لا تعمل فيه الموعظة ولا يقبل البرهان ولا يكترث بمن خالفه»(٢).

أما ما يتعلق بما دون الكفر من فتنة مسايرة الواقع فهي كثيرة ومتنوعة اليوم بين المسلمين، وهي تتروح بين الفتنة وارتكاب الكبائر أو الصغائر، أو الترخص في الدين، وتتبع زلات العلماء لتسويغ المخالفات الشرعية الناجمة عن مسايرة الركب وصعوبة الخروج عن المألوف، واتباع الناس إن أحسنوا أو أساؤوا. ومَنْ هذه حاله ينطبق عليه وصف الإمَّعة الذي نهى النبي ﷺ عنه وحذَّر منه؛ حيث قال: «لا تكونوا إمَّعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا؛ ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا

---

(١) رواه الترمذي، ح/ ٢٣٢٨.

(٢) الموافقات للشاطبي، ٢/ ٢٦٨.

تظلموا»[1]. قال الشارح في تحفة الأحوذي: «الإمعة هو الذي يتابع كل ناعق ويقول لكل أحد أنا معك؛ لأنه لا رأي له يرجع إليه، تابعاً لدين غيره بلا رؤية، ولا تحصيل برهان».

والفتنة بمسايرة الواقع وما اعتاده الناس كثيرة في زماننا اليوم لا يسلم منها إلا من رحم الله - عز وجل - وجاهد نفسه مجاهدة كبيرة؛ لأن ضغط الفساد ومكر المفسدين وترويض الناس عليه ردحاً من الزمان جعل القابض على دينه اليوم المستعصي على مسايرة الواقع في جهاد مرير مع نفسه ومع الناس كالقابض على الجمر، ولعل هذا الزمان هو تأويل قول الرسول ﷺ: «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»[2].

وإن مما يعين العبد على هذه المشقة الشديدة والصبر العظيم هو عظم الأجر الذي يناله هذا القابض على دينه المستعصي على مسايرة الناس وضغط الواقع وما ألفه الناس، ويكفي في ذلك قوله ﷺ: «فإن من ورائكم أيام الصبر. الصبر فيه مثل قبض على الجمر للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله وزادني غيره قال: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم»[3].

وفيما يلي ذكر بعض الصور لفتنة مسايرة الواقع في زماننا اليوم، وأخص بها فئة الدعاة وأهل العلم وما يجب أن يحذروه من هذه الفتنة:

إن أهل العلم والدعاة إلى الله - عز وجل - لمن أشد الناس تعرضاً لفتنة المسايرة؛ وذلك لكثرة الفساد وتنوعه وتسلط شياطين الإنس والجن على أهل الخير بالإيذاء والوسوسة وتأويل الأمور.. إلخ مما قد يعرض العالم أو الداعية إلى التنازلات والمداهنات إرضاءاً للناس أو اتقاءاً لسخطهم أو رضىً بالأمر الواقع سواء ذلك بتأويل أو بغير تأويل، وإن سقوط العالِم أو الداعية في هذه الفتنة ليس كسقوط غيره؛ ذلك أن غيره من عامة الناس لا تتعدى فتنته إلى غيره، وذلك بخلاف العالم أو الداعية؛ فإن فتنته تتعدى إلى غيره؛ لأن الناس يرون فيه القدوة والشرعية.

إن الدعاة إلى الله - عز وجل - وأهل العلم هم نور المجتمعات وصمام الأمان بإذن الله - تعالى - فإذا وقع منهم من وقع في مسايرة الواقع والرضا بالأمر الواقع فمَنْ للأمة ينقذها ويرفع الذل عنها؟ هذا أمر يجب أن يتفطن له كل منتسب إلى الدعوة والعلم، ويتفقد نفسه ويحاسبها ويسعى لإنجاء نفسه وأهله - باديَ ذي بدء - حتى يكون لدعوته بعد ذلك أثر على الناس وقبول لها عندهم، أما إذا أهمل الداعية نفسه، وسار مع ما ألفه الناس وصعب عليه الصمود والصبر فإن الخطر كبير على النفس والأهل والناس من حوله.

إن المطلوب من الداعية والعالِم في مجتمعات المسلمين هو تغيير المجتمعات وتسييرها إلى ما هو أحسن لا مسايرتها ومداهنتها، فهذه - والله - هي مهمة الأنبياء والمصلحين من بعدهم، وهذه هي الحياة السعيدة للعالِم والداعية، وإلا فلا معنى لحياة الداعية والعالم ولا قيمة لها إذا هو ساير الناس واستسلم لضغوط الواقع وأهواء الناس. إن العالم والداعية لا قيمة لحياتهما إلا بالدعوة والتغيير للأحسن، ولا شك أن في ذلك مشقة عظيمة؛ ولكن العاقبة حميدة بإذن الله - تعالى - في الدارين لمن صبر وصابر واستعان بالله - عز وجل -. وفي ذلك يتحدث أحد الدعاة المخلصين عن رجل العقيدة الذي يسعى لتغيير الواقع وتسييره في مرضاة الله - عز وجل - وليس مسايرته في مرضاة النفس والناس فيقول: «وأهم شيء في الموضوع تكوين رجل العقيدة، ذلك

---

(1) تحفة الأحوذي، ٦/١٤٥، رقم الحديث (٢٠٧٥) وقال الترمذي حسن غريب. (2) رواه الترمذي، ح/ ٢١٨٦.

(3) أخرجه أبي داود، ح/ ٣٧٧٨، والترمذي في تفسير القرآن ٢٩٨٤، وأخرجه ابن ماجة في الفتن ٤٠٠٤.

الإنسان الذي تصبح الفكرة همه : تقيمه وتقعده ، ويحلم بها في منامه ، وينطلق في سبيلها في يقظته ، وليس لدينا - بكل آسف - من هذا النوع القوي والعبقري ؛ ولكن لدينا نفوس متألمة متحمسة مستعدة بعض الاستعداد ، ولا بد للنجاح من أن ينقلب هؤلاء إلى مُثُلٍ قوية تعي أمرها ، وتكمل نقصها ليتم تحفزها الذي ينطلق من عدم الرضا بالواقع والشعور بالأخطار التي تتعاقب ، وينتهي باستجابة لأمر الله ونداءات الكتاب الحكيم ومراقبة وعد الله ووعيده ، والتأسي بسيرة الرسول الكريم - عليه صلوات الله وسلامه - ولا بد لنا من وصف عاجل وتحديد مجمل لرجل العقيدة.

إن السلوك الأول الفطري الذي يأتي به المخلوق إلى هذه الدنيا هو السلوك الغريزي ، وهذا السلوك يظل لدى الإنسان فعالاً مؤثراً حياة المرء كلها.

وفي مجتمع كمجتمعنا لا يليق بشخص محترم أن يحمل حاجاته إلى منزله - مع أن ذلك مما يثاب المرء عليه - ، وفي مجتمع كمجتمعنا لا بد من التبذير ولا بد من الترف ؛ فالأرائك في المنزل لا يحسن أن تكون من خشب رخيص وفراش بسيط؛ بل لا بد من المغالاة بأثمانها فهذا تبذير للأموال ووضعها في غير موضعها والتبذير محرم في عرف الشرع ، ولكن سخط المجتمع أكبر عند بعض الناس من الحلال والحرام وقد قال - عليه الصلاة والسلام - : «من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[1].

ويتحكم المجتمع في الأزياء تحكُّماً يقارب عبادة الوثن.

كثيرون أولئك الذين يعيشون من أجل رضا الناس والخوف من سخطهم ، لا يستطيعون التفلت من هذه القيود حياتهم كلها ، وهذا المستوى يرتبط بالمستوى الغريزي الأول؛ ذلك أن الإنسان اجتماعي بفطرته يعيش مع الناس ويحرص على رضاهم.

وقليلٌ أولئك الذين يستطيعون أن يتجاوزوا هذا المستوى ، يتخطونه إلى مستوى أعلى هو مستوى العقيدة ، فيعيشون لعقيدة ويمضون في سلوكهم بما تملي به عليهم عقيدتهم سواء سخط الناس أم رضوا ، وليس فوق هذا المستوى حين يندفع المرء بوحي عقيدته وإيمانه غير مبالٍ برضا راضٍ أو سخط ساخط، ليس فوق هذا المستوى مستوى أرفع منه[2].

من خلال ما سبق بيانه عن رجل العقيدة ندرك أن أبرز صفاته أنه يعيش لعقيدته ويمضي في سلوكه بما تملي عليه هذه العقيدة غير مبالٍ بسخط الناس ولا رضاهم ولا بعاداتهم وتقاليدهم المحرمة ، يغير واقع الناس ولا يسايره ، يؤثر فيه ولا يتأثر ، هذا ما ينبغي أن يكون عليه رجال العقيدة والدعوة والعلم ، ولكن الناظر اليوم في واقع الأمة وما تعرضت له من التبعية والتقليد والمسايرة يجد أن الصفات المذكورة في رجل العقيدة والمشار إليها سابقاً لا تكاد توجد اليوم إلا في فئة قليلة من الداعين إلى الله - عز وجل - نسأل الله - عز وجل - أن يبارك في أعمالهم وأوقاتهم ، أما السواد الأعظم فقد تأثر بشكل أو بآخر بفتنة مسايرة الواقع ، ما بين مقل ومكثر - وما أبرئ نفسي - .

ومن صور هذه الفتنة التي يجب أن يحذرها المسلمون عامة والمصلحون وأهل العلم خاصة ما يلي:

١ - **مسايرة الواقع وما ألفه الناس من عادات اجتماعية وأسرية** وذلك أنه قد ظهرت في حياة الناس - ومن

(١) رواه الترمذي ، ح/ ٢٣٣٨.

(٢) في سبيل الدعوة الإسلامية ، للعلامة محمد أمين المصري ، ص ٣٩ - ٤٣ (باختصار).



سنوات عديدة ـ كثير من العادات والممارسات الاجتماعية المخالفة للشريعة والمروءة بفعل الانفتاح على حياة الغرب الكافر وإجلاب الإعلام الآثم على تزيينها للناس فوافقت قلوباً خاوية من الإيمان فتمكنت منها وأُشربت حبها وكانت في أول الأمر غريبة ومستنكرة، ولكن النفوس ألفتها وسكنت إليها مع مرور الوقت وشدة الترويض وقلة الوازع، ومن أبرز هذه العادات والممارسات:

● ما انتشر في بيوت كثير من المسلمين اليوم من الخدم والخادمات حتى صار أمراً مألوفاً وصلت فتنته إلى بيوت بعض الدعاة وأهل العلم، مع أن بعض هؤلاء الخدم كفرة أو فَسَقَة، وأكثر الخادمات هن بلا محارم، وخضع الناس للأمر الواقع، وأصبحت ترى من ابتُلي بهذا الأمر يتعامل مع الخادمات وكأنهن إماء غير حرائر ولا أجنبيات، يتبرجن أمامه وقد يخلو بهن، وكذلك الحال مع الخادمين والسائقين؛ حيث قد ينفردون بالنساء اللاتي يتسامحن بكشف زينتهن أمام هؤلاء الخدم، وكأنهم مما ملكت اليمين، وكل هذا ـ ويا للأسف ـ بعلم ولي الأمر من زوج أو أب أو أخ، وإذا نُصح الولي في ذلك قال: نحن نساير الواقع وكل الناس واقعون في هذا، ومن الصعب مقاومة ضغط الأهل والأولاد ومطالبهم وإلحاحهم على مسايرة أقاربهم وجيرانهم!!

● ما انتشر في بيوت كثير من المسلمين من أدوات اللهو والأجهزة الجالبة للفساد كالتلفاز وغيره، وكذلك ما امتلأت به البيوت من صور ذوات الأرواح من غير ضرورة حتى أصبحت هذه المقتنيات أمراً مألوفاً لا يمكن الانفكاك عنه، ومن ينكره من أولياء الأمور يعترف بضعفه أمام رغبات الزوجة والأولاد وسخط المجتمع من حوله، فيستسلم لمثل هذه المنكرات مسايرة للواقع وإرضاءً للناس الذين لن يُغْنوا عنه من الله شيئاً، وكفى بذلك فتنة.

● ما ظهر في السنوات الأخيرة في بعض الدول من انتشار قصور الأفراح والفنادق وما يحصل فيها من منكرات وبخاصة في أوساط النساء كالتبرج الفاضح والغناء المحرم المصحوب بأصوات النساء المرتفعة، ناهيك عن المفاخرة والمباهاة في الملابس والمآكل... إلخ. ومع ذلك فلقد أصبحت أمراً مألوفاً يُشَنَّع على من يخرج عليه أو يرفضه ويقاطعه، حتى أصبح كثير من الناس أسيراً لهذه العادات مسايراً للناس في ذلك إرضاءً لهم أو اتقاءً لسخطهم.

● مسايرة النساء في لباسهن وتقليدهن لعادات الغرب الكافر في اللباس والأزياء وصرعات الموضات وأدوات التجميل حتى أصبح أمراً مألوفاً لم ينج منه إلا أقل القليل ممن رحم الله ـ عز وجل ـ من النساء الصالحات المتربيات في منابت صالحة تجعل رضا الله ـ عز وجل ـ فوق رضا المخلوق، أما أكثر الناس فقد سقط في هذه الفتنة فانهزمت المرأة أمام ضغط الواقع الشديد، وتلا ذلك انهزام وليها أمام رغبة موليته، واستسلم هو الآخر، وساير في ذلك مع من ساير حتى صرنا نرى أكثر نساء المسلمين على هيئة في اللباس والموضات ينكرها الشرع والعقل وتنكرها المروءة والغيرة، وكأن الأمر تحول ـ والعياذ بالله تعالى ـ إلى شبه عبودية لبيوت الأزياء، يصعب الانفكاك عنها.

وعن هذه العادات والتهالك عليها وسقوط كثير من الناس فيها يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً. هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً، وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها: أزياء الصباح، وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء، الأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ: من الذي يصنعه؟ ومن الذي يقف وراءه؟ تقف وراءه بيوت الأزياء،



وتقف وراءه شركات الإنتاج! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها!»[١].

● مسايرة الناس في ما اعتادوه اليوم في التوسع في المساكن والمراكب والمآكل بشكل يتسم بالترف الزائد بل بالمباهاة والمفاخرة حتى ضعف كثير من الناس عن مقاومة هذا الواقع؛ فراح الكثير منهم يرهق جسده وماله، ويحمِّل نفسه الديون الكبيرة وذلك حتى يساير الناس ويكون مثل فلان وفلان، والمشكل هنا ليس التوسع في المباحات وترفيه النفس؛ فقد لا يكون بذلك بأس إذا لم يوقع في الحرام، لكن ضغط الواقع وإرضاء الناس ومسايرة عقول النساء والأطفال يدفع بعض الطيبين إلى تحميل نفسه من الديون الباهظة وذلك ليكون مثل غيره في المركب أو المسكن، ولن ينفعه مسايرة الناس من الأقارب والأباعد شيئاً إذا حضره الموت وديون الناس على كاهله لم يستطع لها دفعاً.

٢ - مسايرة الناس فيما يطرحونه من استفتاءات حول بعض المخالفات الشرعية المعاصرة وذلك من قِبَلِ بعض أهل العلم الذين قد يرون مسايرة الواقع، ويفتون ببعض الأقوال الشاذة والمهجورة، أو يحتجون بقواعد الضرورة أو رفع الحرج أو الأخذ بالرخص... إلخ، ولا يخفى ما في ذلك من السير مع أهواء الناس والرضا بالأمر الواقع، والتحلل من أحكام الشريعة شيئاً فشيئاً، والمطلوب من أهل العلم والفتوى في أزمنة الغربة أن يعظُوا الناس ويرشدوهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر بدل أن يحسِّنوا لهم الواقع ويسوِّغوا صنيعهم فيه. يقول الشاطبي - رحمه الله تعالى -: «المقصد الشرعي من وضْع الشريعة هو إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً»[٢] ويقول أيضاً: «إن الترخُّص إذا أُخذ به في موارده على الإطلاق كان ذريعة إلى انحلال عزائم المكلفين في التعبد على الإطلاق، فإذا أخذ بالعزيمة كان حرياً بالثبات في التعبد والأخذ بالحزم فيه... فإذا اعتاد الترخص صارت كل عزيمة في يده كالشاقَّة الحرجة، وإذا صارت كذلك لم يقم بها حق قيامها وطلب الطريق إلى الخروج منها»[٣].

وقد لا يكون المفتي قاصداً مسايرة واقع الناس أو الميل مع أهوائهم؛ لكنه يغفل عن مكر بعض الناس وخداعهم، وذلك في طريقة استفتاءاتهم وصياغتها صياغة تدفع المفتي من أهل العلم إلى إجابته بما يهوى، وعن هذا يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «يحرم عليه - أي على المفتي - إذا جاءته مسألة فيها تحايل على إسقاط واجب أو تحليل محرم أو مكر أو خداع أن يعين المستفتي فيها، ويرشده إلى مطلوبه أو يفتيه بالظاهر الذي يتوصل به إلى مقصوده؛ بل ينبغي له أن يكون بصيراً بمكر الناس وخداعهم وأحوالهم، ولا ينبغي له أن يحسن الظن بهم، بل يكون حذراً فطناً فقيهاً بأحوال الناس وأمورهم، يؤازره فقهه في الشرع، وإن لم يكن كذلك زاغ وأزاغ، وكم من مسألة ظاهرها جميل وباطنها مكر وخداع وظلم! فالغر ينظر إلى ظاهرها ويقضي بجوازه، وذو البصيرة ينفذ إلى مقصدها وباطنها، فالأول يروج عليه زغل المسائل كما يروج على الجاهل بالنقد زغل الدراهم، والثاني يخرج زيفها كما يخرج الناقد زيف النقود، وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق! وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل! ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك»[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ١٢١٩.
(٢) الموافقات، ٢/ ١٢٨.
(٣) المصدر السابق، ص / ٢٤٧.
(٤) إعلام الموقعين، ٤/ ٢٢٩.

٣ - مسايرة واقع الأنظمة ببعض التنازلات التي تضر بالدعوة وأهلها:

وهذا من أخطر ما يتعرض له أهل الدعوة والعلم والإصلاح، وبخاصة حينما يكثر الفساد وتشتد وطأته على الناس ويبطؤ نصر الله - عز وجل - ويتسلط الظالمون على عباد الله المصلحين، حينئذ يجتهد بعض المهتمين بالدعوة والإصلاح، ويظهر لهم أن التقارب مع أرباب الأنظمة والسلطان والالتقاء معهم في منتصف الطريق قد يكون فيه مصلحة للدعوة وتخفيف شر عن المسلمين، وكل ما في الأمر بعض التنازلات القليلة التي يتمخض عنها - بزعمهم - مصالح كبيرة!! وليس المقام هنا مقام الرد والمناقشات لهذه الاجتهادات، فيكفي في فشلها وخطورتها نتائجها التي نسمعها ونراها عند من خاضوا هذه التنازلات ورضوا بالأمر الواقع؛ فلا مصلحة ظاهرة حققوها بتنازلاتهم، ولا مفسدة قائمة أزالوها؛ ولقد حذَّر الله - عز وجل - نبيه ﷺ عن الركون للظالمين المفسدين أشد التحذير؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول ﷺ وأولها: محاولة فتنته عما أوحى الله إليه، ليفتري عليه غيره، وهو الصادق الأمين.

لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى منها: مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم، ومنها: مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرمه الله، ومنها: طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء.

والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها، ليذكِّر بفضل الله على الرسول ﷺ في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة. ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً، وللقي عاقبة الركون إلى فتنة المشركين هذه، وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله.

هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً، محاولة إغرائهم لينحرفوا - ولو قليلاً - عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته؛ لأنه يرى الأمر هيناً؛ فأصحاب السلطان لا يطلبون منه أن يترك دعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق. وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها!

ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسيراً، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيلاً، لا يملك أن يقف عند الذي سلم به أول مرة؛ لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء![1].

٤ - مسايرة ركب الغرب في بعض ميادين من قِبَل دعاة العصرانية من أبناء المسلمين:

إن الحديث عن العصرانية والعصرانيين يطول ويطول[2] ولكن يكفي أن نذكر هنا ما يتعلق بموضوعنا وهو

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ٢٤٥.

(٢) من أراد التوسع في هذا الموضوع وكيف نشأ ومن هم رموزه فليرجع إلى كتاب: (العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب)، للأستاذ محمد حامد الناصر.

الحديث عن فتنة المسايرة - ولا أحسب العصرانيين من بني قومنا إلا وقد ركسوا في هذه الفتنة وظهرت عليهم في أجلى صورها، وهم لا يعترفون بأنها مسايرة؛ ولكنهم يسمونها تجديداً وتطويراً يناسب العصر، وتحت هذا المسمى يقضون على كثير من الثوابت الشرعية ويتحللون من شرع الله - عز وجل - باسم التطوير وهو في الحقيقة مسايرة للواقع الغربي وتقليد أعمى وانبهار بإنجازاته المادية بل الهزيمة النفسية أمامه؛ والغريب في أمر هؤلاء أنهم يرفضون التقليد ويشنعون على من يقلد سلف الأمة ويتبعهم، وعلى من يبقى على الموروث لا يتجاوزه ولا يطوره، ثم هم في الوقت نفسه يسقطون في تقليد الغرب ومحاكاته بصورة لا تدع مجالاً للريب والشك؛ وهم الذين يتشدقون بالعقلانية ورفض التقليد!!

ويعرِّف الدكتور الزنيدي العصرانية بقوله: «هي التأقلم مع المعطيات الاجتماعية والعلمية المتجددة في كل عصر، وربط الإنسان في فرديته وجماعيته بها في دائرة التصور البشري»[(١)].

ويتحدث الأستاذ محمد حامد الناصر عن بعض شذوذات العصرانيين في ميادين الفقه فيقول: «لقد خرج العصرانيون علينا بفقه غريب شاذ يريد تسويغ الواقع المعاصر لإدخال كثير من القيم الغربية في دائرة الإسلام؛ ذلك أن موقفهم من النصوص الشرعية عجيب؛ فإذا كانت الآية واضحة الدلالة والأحاديث النبوية المتواترة قالوا: إن هذه النصوص كانت لمناسبات تاريخية لا تصلح لعصرنا الحاضر، وإذا كانت أحاديث آحاد قالوا لا يؤخذ من خبر الآحاد تشريع ولا تبنى عليه عقيدة، أو ألغوا بعض الأحاديث الصحيحة بحجة أنها سُنَّة غير تشريعية، ثم يتهمون الفقهاء بالجمود وضيق الأفق!! إن هذه التجاوزات - لو أخذ بها - لن تترك من ثوابت الإسلام إلا وحاولت مسخه أو تشويهه. ومن شذوذاتهم:

١ - رفضهم تطبيق الحدود التي فيها رجم أو قتل أو قطع عضو إلا بعد الإصرار والمعاودة والتكرار، ويأتون بِشُبَهٍ من هنا وهناك.

٢- إباحتهم الربا في البنوك بحجة الحفاظ على اقتصاد البلاد وأن الربا المحرم عندهم هو الربح المركب.

٣ - موقفهم من المرأة، والدعوة إلى تحريرها - بزعمهم -، ودعوتهم لها إلى محاكاة المرأة الغربية في عاداتها، وإلى الثورة على الحجاب الشرعي وتعدد الزوجات، يقول محمد عمارة: «إن تعدد الزوجات وتتابع الزواج واتخاذ السراري والجواري من سمات عصر الإقطاع والدولة الإقطاعية» والترابي يقصر الحجاب على نساء النبي ﷺ، ثم راحوا يسوغون الاختلاط بين الرجال والنساء بعد أن زينوا للمرأة الخروج من بيتها.

٥ - أحكام أهل الذمة:

كما يرى العصرانيون أن أحكام أهل الذمة كانت لعصر غير عصرنا وهي الآن لا تناسب عصرنا!!»[(٢)].

ولكن الأستاذ الناصر يوضح مفهومهم للتجديد والتطوير قائلاً: «إن مزاعم التجديد التي رفع هؤلاء لواءها كشفت الحقيقة جلية وهي أن التجديد لديهم يعني تطوير الدين على طريقة عصرنة الدين عند اليهود والنصارى».

ولذلك فإن التجديد عندهم يعني: هدم العلوم المعيارية: أي علوم التفسير المأثور وأصوله، وعلم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث.

---

(١) العصرانية في حياتنا الاجتماعية، ص ٢٢.

(٢) العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التعريب (بتصرف واختصار).



ـ ويعني: رفض الأحاديث الصحيحة جزئياً أو كلياً بحجة ضرورة ملاءمتها لعقولهم ولمصلحة الأمة، وظروف العصر الحاضر.

ـ ويعني: رفض السنة غير التشريعية أي: فيما يخص شؤون الحكم والسياسة وأمور الحياة والمجتمع عموماً.

ـ التجديد عندهم يعني: الانعتاق من إسار الشريعة إلى بحبوحة القوانين الوضعية، التي تحقق الحرية والتقدم، ولذلك هاجموا الفقه والفقهاء بلا هوادة.

ـ الاجتهاد والتجديد عندهم يعني: تحقيق المصلحة وروح العصر(1).

مما سبق يتبين خطر هذه البدعة الجديدة وأن أصلها مسايرة الواقع والانهزامية أمام ضغطه مصحوباً ذلك بالجهل بالإسلام أحياناً، وبالهوى والشهوة أحياناً كثيرة.

الآثار الخطيرة لمسايرة الواقع وسبل النجاة منها:

إن لمسايرة الواقع وما ألفه الناس من المخالفات الشرعية من الآثار الخطيرة على المساير في دينه ودنياه ما لو انتبه لها الواحد منهم لما رضي بحاله التي أعطى فيها زمامه لغيره وأصبح كالبعير المقطور رأسه بذنب غيره، ومن أخطر هذه الآثار ما يلي:

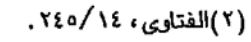
١ – **الآثار الدنيوية**: وذلك بما يظهر على المساير من فقدان الهوية وذوبان الشخصية الإسلامية، وبما يتكبده من معاناة في جسده ونفسه وماله وولده، وهذه كلها مصادر عنت وشقاء وتعاسة بخلاف المستسلم لشرع الله ـ عز وجل ـ الرافض لما سواه المنجذب إلى الآخرة فلا تجده إلا سعيداً قانعاً مطمئناً ينظر: ماذا يرضي ربه فيفعله، وماذا يسخطه فيتركه غير مبالٍ برضى الناس أو سخطهم.

٢ – **الآثار الدينية**: وهذه أخطر من سابقتها؛ وذلك أن المساير لواقع الناس المخالف لشرع الله ـ عز وجل ـ يتحول بمضيِّ الوقت واستمراء المعصية إلى أن يألفها ويرضى بها ويختفي من القلب إنكارها، وما وراء ذلك من الإيمان حبة خردل. كما أن المساير لركب المخالفين لأمر الله ـ عز وجل ـ لا تقف به الحال عند حد معين من المسايرة والتنازل والتسليم للواقع، بل إنه ينزل في مسايرته خطوة خطوة؛ وكل معصية تساير فيها الناس تقود إلى معصية أخرى؛ وهكذا حتى يظلم القلب ويصيبه الران ـ أعاذنا الله من ذلك ـ؛ ذلك أن من عقوبة المعصية معصية بعدها، ومن ثواب الحسنة حسنة بعدها؛ وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ(2): «وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ – ٦٨] وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ – ٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾ [الروم: ١٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿كِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]،

---

(1) المصدر السابق، ص ٣٥٣، ٣٥٤.

(2) الفتاوى، ١٤/٢٤٥.





وقال - تعالى - : ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وما أجمل ما قاله سيد قطب - رحمه الله تعالى - في النقل السابق حيث قال: «ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها - ولو يسيراً - لا يملك أن يقف عند ما سلَّم به أول مرة؛ لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء».

الآثار الدعوية:

إن الداعية الذي تظهر عليه مظاهر مسايرة الواقع يفقد مصداقيته عند نفسه وعند الناس، وإن لم يتدارك نفسه فقد ييأس ويخسر ويترك الدعوة وأهلها؛ إذ كيف يساير الواقع من هو مطالب بتغيير الواقع وتسييره؟! وكلما كثر المسايرون كثر اليائسون والمتساقطون؛ وهذا بدوره يؤدي إلى ضعف الدعوة وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سبل النجاة أو الوقاية من هذه الفتنة:

إنه لا ينجِّي من الفتن صغيرها وكبيرها ما ظهر منها وما بطن إلا الله - عز وجل - وقد قال لنبيه ومصطفاه ﷺ: ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤] فأول سبيل من سبل النجاة هو سؤال الله - عز وجل - وصدق العزيمة والأخذ بأسباب الثبات ومنها:

١ - فعل الطاعات وامتثال الأوامر واجتناب النواهي كما قال - عز وجل -: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦] فذكر - سبحانه - في هذه الآية أن شدة التثبيت تكون لمن قام بفعل ما يوعظ به من فعل الأوامر وترك النواهي، ويشير الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - إلى أثر الطاعة في الثبات فيقول: «فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت. ومادة التثبيت وأصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أُمر به العبد، فبهما يثبِّت الله عبده؛ فكل ما كان أثبت قولاً، وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً قال - تعالى -: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق»(١).

٢ - مصاحبة الدعاة الصادقين الرافضين للواقع السيئ والسعي معهم في الدعوة إلى الله - تعالى - وتغيير الواقع السيئ في نفوسهم وأسرهم ومجتمعاتهم، واعتزال أهل الدنيا الراكنين إليها والمسارعين فيها والمتبعين لكل ناعق، وترك مخالطتهم إلا لدعوتهم أو ما تدعو الحاجة إليه؛ لأن المجالسة تؤول إلى المؤانسة والمجانسة.

٣ - التفقه في الدين والبصيرة في شرع الله - عز وجل - لأن المسايرة عند بعض الناس تنبع من جهل بالشريعة وأحكامها ومقاصدها، مع أن أكثر المسايرين المخالفين للشريعة إنما يدفعهم إلى المسايرة الهوى والضعف. والمقصود: أن من كانت مسايرته بسبب جهله بالشرع فإن في العلم الشرعي دواءه ومنعه من المسايرة بإذن الله - تعالى -. وينبغي على طالب العلم الشرعي والمستفتي في دينه أن يسأل أهل العلم الراسخين فيه الذين يجمعون بين العلم والورع ومعرفة الواقع، وأن يحذر من أهل العلم الذين يسيرون على أهواء الناس وتلمس الرخص والآراء الشاذة لهم.

٤ - إفشاء المناصحة وإشاعتها بين المسلمين وبخاصة بين أهل الخير؛ لأن السكوت على المخالفات وضعف المناصحة بين المسلمين من أسباب التلبس بالمنكرات ومسايرة الناس فيها.

---

(١) بدائع التفسير، ١/١٧.





من أسباب تساقط الشباب

أحمد العميرة

تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على أهمية الدعوة وفضلها؛ فلن أستطرد في ذلك، وما دامت هذه الطاعة قد انتسبت إلى الإيمان فإنها معرضة لما يتعرض له الإيمان من الزيادة والنقص؛ فالإيمان يزيد وينقص كما هو معلوم، وأصبحت الدعوة ـ باعتبارها من الإيمان ـ ككل عمل إيماني يعلو فيصل الأوج والذروة أحياناً، اعتقاداً وحماساً، وينحدر متضائلاً تارة أخرى، والفائز الذي لا يغالي عند التعالي، ولا يسرف عند الهبوط، وذلك بأن يلزم هدي السنة النبوية الشريفة، كما قال النبي ﷺ: «لكل عمل شِرَّة ولكل شرة فترة؛ فمن كانت فترته إلى سُنَّتي فقد اهتدى»[1]، وفي لفظ آخر: «ومن كانت شرته إلى سنتي فقد اهتدى»[2].

ولعلنا نختصر أكثر فنقول: إن ما نريد طرحه نستطيع أن نسميه بـ «التساقط»، ويجب أن نفرق بين عدة مصطلحات قد يحصل الخلط بينها (الردة ثم الانحراف والانتكاسة ثم الفتور ثم ضعف الإيمان ثم القعود عن الدعوة) والأخير هو الذي نسميه: (التساقط في طريق الشاب).

الأسباب:

١ - عدم إخلاص النية لله، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. [البينة: ٥].

٢ - تخويف أعداء الله للعبد بقطع المعاش أو الفصل من الوظيفة ونحوها. قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) مسند الإمام أحمد، ح/ ٦٤٧٣.

(٢) المصدر السابق.



٣ - خذلان أهل الحق والخير ممن كان يُؤمَّل فيهم نصرة الدعوة. قال الشاعر - وما أحسن ما قال -:

وظلـم ذوي القـــربى أشد مضاضة   علـى المرء مـن وقـع الحسام المهند

٤ - قراءة الواقع قراءة سلبية تؤدي بالداعية للإحباط واليأس، فيترك طريق الدعوة.

٥ - عدم القناعة الكافية بطريق الدعوة.

٦ - تعلق قلب الداعية بالدنيا وكراهية الموت.

٧ - الانفتاح على الأعمال التجارية والدنيوية دون الالتزام بوسائلها الشرعية.

٨ - الأمراض النفسية كالعجب والغرور والحسد وغيرها.

٩ - الحيل النفسية وهي كثيرة، منها: احتقار الداعية لنفسه، أو الخوف الموهوم، أو الخجل المذموم أو غيرها.

١٠ - فقدان التربية الذاتية الجادة؛ فمجرد الابتعاد عن وسط من الأوساط قد يكون كفيلاً بأن يرجع الداعية الضعيف عما كان عليه من العمل الدعوي.

١١ - غياب الأهداف الرئيسة للدعوة الإسلامية في هذا الوقت عن ذهن الشاب المسلم كالرجوع بالأمة الإسلامية إلى عزها ومكانتها، وإعادة حكم الله في الأرض، ونشر العقيدة الصحيحة، إضافة إلى الحرص على هداية الناس.

١٢ - تسرب فكرة (طلب العلم أولاً ولفترة معينة، ثم الانتقال إلى الدعوة إلى الله) ولم يبيِّن لنا أصحاب هذه الفكرة: إلى متى يطلبون العلم؟ وما هو الحد الذي إذا وصلوه سينتقلون منه إلى الدعوة إلى الله؟ وأصحاب هذه الفكرة - بلا شك - لم يستوعبوا طبيعة هذا الدين منذ أن نزل على رسول الله ﷺ للناس. يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «بلِّغوا عني ولو آية»[(١)].

وقد ثبت أنه ﷺ استعاذ من علم لا ينفع؛ فقد ورد ذلك في حديث زيد بن أرقم وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة - رضي الله عنهم -: «اللهم أعوذ بك من علم لا ينفع»[(٢)] وعن جابر - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: «سلوا علماً نافعاً، وتعوَّذوا بالله من علم لا ينفع»[(٣)]، وعن سلمان - رضي الله عنه - قال: «علم لا يُقَالُ به ككنز لا ينفق منه»[(٤)]، وحين سأل أصحاب رسول الله ﷺ:

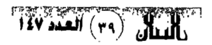
---

(١) رواه البخاري، ح/ ٣٢٠٢.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٤٨٩٩.

(٣) رواه ابن ماجة، ح/ ٣٨٣٣.

(٤) رواه الدارمي، ح/ ٥٥٤.



ما بال الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر؟ نزل قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وحين سأل رجل النبي ﷺ : متى الساعة؟ قال له: «ماذا أعددتَ لها؟»(١).

فماذا تعني ـ بالله عليكم ـ الاستعاذة من علم لا ينفع، والتوجيه إلى السؤال العملي الجاد؟ أليس يعني أن العلم ما لم يَقُدْ صاحبه إلى نتيجة عملية يعتبر من العبث، بل مما يُستعاذ منه؟ فحري بطلبة العلم أن يتربوا ويُرَبُّوا على أن لا يكون شحذ الذهن بالمعلومات هو الهدف النهائي والغاية القصوى، بل يكون التعلم للعمل والدعوة إليه، وأن يدركوا أن مجرد التعلم والانشغال به لا يغني عن تصحيح النية وإخلاصها لله وحده، إذاً فلا علم بلا دعوة، ولا دعوة بلا علم، وهذا هو دين الله، وعلى من يعترض علينا أن يأتي ببينة سليمة من سيرة السلف تشهد لكلامه.

١٣ – جهل الواقع والبعد عن فقهه ومعرفته فلا يستطيع التعرف على مشكلات مجتمعه وواقعه ويؤدي ذلك به إلى ترك الدعوة أو الضعف عنها.

١٤ – تأثير التفرق والاختلاف بين الدعاة والجماعات الإسلامية على الداعية، فيؤدي به ذلك إلى اجتناب طريق الدعوة قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

١٥ – قلة العلم وقلة التأصيل الشرعي للقضايا والمسائل الحادثة والنوازل؛ فهذا بدوره يُضعف الداعية عن المضي قدماً في دعوته.

١٦ – الإغراق في الجدل مع أصحاب الأهواء وإضاعة الوقت في ذلك، فهذا مما يضعف الهمة ويغفل عن جوانب أخرى كثيرة، وقد يتأثر بهم ويسقط معهم.

١٧ – عدم فقه المصالح والمفاسد وإدراك ظروف المرحلة التي تعيشها الدعوة، فيقدم المفضول على الفاضل، وهكذا.

١٨ – عدم الصبر عند وقوع الابتلاء والأذى في سبيل الله.

١٩ – عدم التعود على إنكار المنكر والنفرة منه ومجابهته، فيألف المنكر مما يسبب له التساقط والنكوص.

٢٠ – التنازل عن أمور لا يجوز شرعاً التنازل عنها من الدعوة، فتقوده السلسلة من التنازلات إلى النكوص والتراجع.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٣٤١٢.

٢١ -عدم التدرج في الدعوة؛ فيبدأ بأعمال غير مؤهَّل لها، فيصاب بشيء من الضعف نتيجةً لذلك.

٢٢ - عدم الانضباط مع الصحبة الصالحة التي هي الزاد للداعية في طريقه، وانعدام الاستشارة في الأعمال الدعوية أو قلتها.

٢٣ - الارتباط بصحبة بطَّالة أو مثبِّطة ذات اهتمامات دنيئة مما يضعف عزم الداعية.

٢٤ - استعجال الثمرة واعتقاد قربها.

٢٥ - ضعف اليقين بنصر الله لعباده المؤمنين قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

٢٦ - عدم الاعتراف بالأخطاء، وعدم تقبل النصيحة.

٢٧ - ارتكاب المعاصي والاستهانة بالصغائر من الذنوب.

٢٨ - قلة الاهتمام بالجانب العبادي لدى الداعية كقيام الليل والأذكار اليومية.

٢٩ - ترك الدعاء الذي هو سلاح المؤمن.

٣٠ - ضعف شخصية الداعية فيسهل التأثير عليها بأي شيء.

٣١ - عدم التنظيم للعمل الدعوي، وقلة التخطيط السليم.

٣٢ - التحريش بين الدعاة، وتحريض بعضهم على بعض.

٣٣ - تغير المجتمع أو الوسط الذي يعيش فيه وقد كان زاداً على الاستمرار في الدعوة.

٣٤ - العاطفة الزائدة والحماس المفرط الذي قد يؤدي للغلو في أمور كثيرة، وبعد فترة يجد نفسه متراجعاً عن كل عمل دعوي.

كانت تلك أبرز أسباب التساقط اجتهدت فيها بالاختصار والدمج بين سببين في سبب واحد، وعدم التكرار في الصيغة النهائية لها.

نسأل الله لنا ولكم التوفيق في الدارين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الحكم بغير ما أنزل الله

سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي
(رحمه الله)

الحكم بغير ما أنزل الله ـ تعالى ـ من النوازل التي عمّت وطمت، وكثر الخوض فيها ما بين غالٍ متشدد، ومفرِّط مداهن، والحق وسط بين الأمرين، وقد كتب سماحة العلاَّمة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله تعالى ـ جواباً محققاً في هذه المسألة، فبيّن أحوال الحاكمين بغير ما أنزل الله ـ تعالى ـ وأحكامهم إجمالاً، وحالة المشرّعين للقوانين تفصيلاً، وفي هذا العدد ننشر هذه الفتيا لأهميتها ومتانتها:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

- أمر الله ـ جل شأنه ـ جميع الناس أن يرد كل منهم ما لديه من أمانة إلى أهلها أياً كانت تلك الأمانة، فعمَّ ـ سبحانه ـ بأمره كلَّ مكلف وكلَّ أمانة، سواء كان ما ورد في نزول الآية صحيحاً أم غير صحيح؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم أوصى ـ سبحانه ـ من وُكلَ إليه الحكمُ في خصومة أو الفصل بين الناس في أمرٍ مًّا أن يحكم بينهم بالعدل سواء كان مُحكَّماً، أو ولَيَّ أمر عام، أو خاص، ولا عدل إلا ما جاء في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ؛ فذلك الهدى، والنور، والصراط المستقيم.

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على ما أسداه إلى عباده من الموعظة إغراءاً لهم بالقيام بحقها، والوقوف عند حدودها.

وختم الآية بالثناء على نفسه بما هو أهله؛ من كمال السمع والبصر، ترغيباً في امتثال أمره رجاء ثوابه، وتحذيراً من مخالفة شرعه خوفاً من عقابه.

ثم أمر ـ تعالى ـ المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ مطلقاً؛ لأن الوحي كله حق، وأمر بطاعة أولي الأمر فيما وضح أمره من المعروف؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ كما دلت عليه النصوص الثابتة الصريحة في ذلك.

فإذا اشتبه الأمر ووقع النزاع وجب الرجوع ـ في بيان الحق، والفصل فيما اختلف فيه ـ إلى الكتاب والسنة. لقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠].

وأمثال ذلك من نصوص الكتاب والسنة.

فإن الرجوع إليهما عند الحيرة أو النزاع خيرٌ عاقبةً وأحسنُ مآلاً؛ وهذا إنما يكون فيما فيه مجال للنظر والاجتهاد.

فمن بذل جهده ونظر في أدلة الشرع، وأخذ بأسباب الوصول إلى الحق فهو:

- مأجورٌ أجرين إن أصاب حكم الله.
- ومعذورٌ مأجورٌ أجراً واحداً إن أخطأه.
- وله أن يعمل بذلك في نفسه، وأن يَحْكُمَ به بين الناس، ويُعَلِّمَه الناس مع بيان وجهة نظره المستمدة من أدلة الشرع على كلتا الحالتين بناءاً على قاعدة: (التيسير ودفع الحرج) وعملاً بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، ولقول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم»(١)، ولقوله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله آجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد»(٢).

حالات الحاكمين بغير ما أنزل الله:

الأولى: مَنْ لم يبذل جهده في ذلك، ولم يسأل أهلَ العلم؛ وعَبَدَ اللهَ على غير بصيرة، أو حكَمَ بين الناس في خصومة؛ فهو آثمٌ ضالٌّ، مستحقٌّ العذاب إن لم يتب ويتغمده الله برحمته، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

الثانية: مَنْ عَلِمَ الحقَّ ورضيَ بحكم الله؛ لكن غلبه هواه أحياناً فعمل في نفسه، أو حكمَ بين الناس ـ في بعض المسائل أو القضايا ـ على خلاف ما علمه من الشرع لعصبية أو لرشوة ـ مثلاً ـ فهو آثم، لكنه غير كافر كفراً يُخرج من الإسلام إذا كان معترفاً بأنه أساء، ولم ينتقص شرع الله، ولم يسئ الظن به، بل يحزّ في نفسه ما صدر منه، ويرى أن الخير والصلاح في العمل بحكم الله ـ تعالى ـ.

روى الحاكم عن بُرَيْدة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: قاضٍ عرف الحق فقضى به، فهو في الجنة، وقاضٍ عرف الحق فجار متعمداً أو قضى بغير علم؛ فهما في النار» (٣).

الثالثة: من كان منتسباً للإسلام عالماً بأحكامه، ثم وضع للناس أحكاماً، وهيأ لهم نظماً؛ ليعملوا بها ويتحاكموا إليها وهو يعلم أنها تخالف أحكام الإسلام فهو كافر خارج من ملة الإسلام.

وكذا الحكم فيمن أمر بتشكيل لجنة أو لجان لذلك، ومن أمر الناس بالتحاكم إلى تلك النظم والقوانين أو حملهم على التحاكم إليها وهو يعلم أنها مخالفة لشريعة الإسلام.

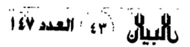
وكذا من يتولى الحكم بها، وطبقها في القضايا، ومن أطاعهم في التحاكم إليها باختياره مع علمه بمخالفتها للإسلام؛ فجميع هؤلاء شركاء في الإعراض عن حكم الله.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٦٧٤٤.

(٢) رواه البخاري، ح/ ٦٨٠٥.

(٣) رواه الترمذي، ح/ ١٢٤٤.



لكن بعضهم يضع تشريعاً يضاهي به تشريع الإسلام ويناقضه على علم منه وبيِّنة. وبعضهم بالآمر بتطبيقه، أو حمل الآمة على العمل به، أو وَلِيَ الحكم به بين الناس أو نفَّذ الحكم بمقتضاه.

وبعضهم بطاعة الولاة والرضا بما شرعوا لهم ما لم يأذن به الله ولم ينزِّل به سلطاناً.

فكلهم قد اتبع هواه بغير هدى من الله، وصَدَّقَ عليهم إبليسُ ظنَّهُ فاتبعوه، وكانوا شركاء في الزيغ والإلحاد والكفر والطغيان ولا ينفعهم علمهم بشرع الله واعتقادهم ما فيه مع إعراضهم عنه وتجافيهم لأحكامه بتشريع من عند أنفسهم، وتطبيقه، والتحاكم إليه، كما لم ينفع إبليسَ علمُه بالحق واعتقاده إياه مع إعراضه عنه، وعدم الاستسلام والانقياد إليه، وبهذا قد اتخذوا هواهم إلهاً؛ فصدق فيهم:

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. الآيات. إلى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ... ﴾ [المائدة: ٤٨]. إلى قوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. [المائدة: ٥٠].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا.... ﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]. إلى قوله: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

إن هؤلاء قد صدوا عن تحكيم شرع الله انتقاصاً له، وإساءةً للظن بربهم الذي شرعه لهم، وابتغاءَ الكمال فيما سولَّته لهم أنفسهم وأوحى به إليهم شياطينهم.

وكان لسان حالهم يقول: إن شريعة الكتاب والسنة نزلت لزمان غير زماننا؛ لتعالج مشاكل قوم تختلف أحوالهم عن أحوالنا، وقد يُجدي في إصلاحهم ما لا يناسب أهلَ زماننا؛ فلكل عصر شأنه، ولِكُلٍّ قومٍ حكم يتفق مع عروفهم ونوع حضارتهم وثقافتهم.

فكانوا كمن أمر الله رسوله أن ينكر عليهم ويسكتهم بقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ... ﴾ [الأنعام: ١١٤] إلى قوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وكانوا ممن حقت عليهم كلمة العذاب وحكم الله عليهم بأن لا خلاق لهم في الآخرة بقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

لقد استهوى الشيطان هؤلاء المغرورين فزيَّنَ لهم أن يَسنُّوا قوانينَ من عند أنفسهم ليتحاكموا إليها، ويفصلوا بها في خصوماتهم، وسوَّل لهم أن يسنُّوا قواعد بمحض تفكيرهم القاصر وهواهم الجائر لينظموا

بها اقتصادهم وسائر معاملاتهم محادةً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وانتقاصاً لتشريعه؛ زعماً منهم أن تشريع الله لا يصلح للتطبيق والعمل به في عهدهم، ولا يكفل لهم مصالحهم، ولا يعالج ما جدَّ من مشاكلهم؛ حيث اختلفت الظروف والأحوال عما كانت عليه أيام نزول الوحي في المعاملات وكثرت المشكلات؛ فلا بد لتنظيم المعاملات والفصل في الخصومات من قواعد جديدة يضعها المفكرون من أهل العصر والواقفون على أحوال أهله المطلعون على المشاكل العارفون بأسبابها وطرق حلها؛ لتكون مستمدةً من واقع الحياة: فتتناسب مع أحوال الناس وظروفهم الحاضرة ومع مستوى ثقافتهم وحضارتهم.

فهؤلاء قد طغى عليهم الغرور المكروه فركبوا رؤوسهم، ولم يَقْدُروا عقولهم قدرها، ولم ينزلوها منزلتها، ولم يَقْدُروا الله حَقَّ قدره، ولم يعرفوا حقيقة شرعه ولا طريق تطبيق منهاجه وأحكامه، ولم يعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علماً؛ فعلم ما كان وما سيكون من اختلاف الأحوال وكثرة المشاكل وأنه أنزل شريعة عامة شاملة وقواعد كلية مُحْكَمة، وقدَّرها بكامل علمه وبالغ حكمته؛ فأحسن تقديرها، وجعلها صالحة لكُلِّ زمان ومكان؛ فمهما اختلفت الطبائع والحضارات وتباينت الظروف والأحوال فهي صالحة لتنظيم معاملات العباد، وتبادل المنافع بينهم، والفصل في خصوماتهم، وحل مشاكلهم وصلاح جميع شؤونهم في عباداتهم ومعاملاتهم.

إن العقول التي منحها الله عباده - ليعرفوه بها، وليهتدوا بفهمها لتشريعه إلى ما فيه سعادتهم في العاجل والآجل - قد اتخذوا منها خصماً لدوداً لله، فأنكر (أحدهم) حكمته وحسن تدبيره وتقديره، وضاق صدره ذرعاً بتشريعه، وأساء الظن به فانتقصه وردَّه، وقد يصابون بذلك وهم لا يدرون؛ لأنهم بغرورهم بفكرهم عميت عليهم معالم الحق والعدل.

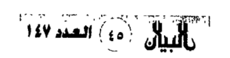
فكانوا من الأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.
[الكهف: ١٠٤].

وكانوا ممن ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.
[إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

إن الله - سبحانه - كثيراً مَّا يُذَكِّرُ أناساً في القرآن أحوالَ المعتدين الهالكين، ويحثهم على أن يسيروا في الأرض؛ لينظروا ما كانوا فيه - من قوة ورغد عيش وحضارة وبسطة في العلم - نظر عظة واعتبار، ليتنكبوا طريقهم اتقاءً لسوء مصيرهم، ولفت النظر في بعض السور إلى جريمة الغرور الفكري؛ لشدة خطره، وبيَّن أنه الفتنة الكبرى التي دفعوا بها في صدور الرسل وردوا بها دعوتهم، ليعرفنا بقصور عقول البشر أنها لا تصلح لمقاومة دعوة الرسل، وليحذرنا من خطر الغرور الفكري الذي هلك به من قاوم المرسلين.

قال - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم





الحرب على اللغة العربية

إبراهيم بن سعد الحقيل

توطئة:

تنبّه المستعمر الصليبي بعد طرده من ديار الإسلام ـ بل وبعد نقل المعركة إلى عقر داره في أوروبا ـ إلى أهمية الدين الإسلامي وأثرهِ في بقاء المسلمين أقوياء، فبدؤوا في غزوٍ فكري يحاول هدم أسسِ الإسلام في نفوسِ المسلمين، وشنوا حملات مختلفة في جميع الميادين، فشكّكوا في المسلّمات الدينيّة، ونبشوا آثار الأمم الكافرة التي أزال الله بالإسلام دولهم وحضاراتهم، وشوهوا تاريخ الإسلام وسِيَر قدواته، وكانت الهجمة مركزةً على لغة الإسلام ولغة رسول الإسلام ﷺ؛ لقطع حبال الاتصال بين حاضر المسلمين وماضيهم، ولجعل القرآن الكريم غريباً على آذانهم، وكذلك سنة رسوله ﷺ وتراث المسلمين المتنوع.

فجردوا اللغة العربية من رداءِ القدسية، وحاولوا فصل اللغة العربية عن الإسلام. يقول طه حسين: «إن اللغة العربية ليست ملكاً لرجال الدين يُؤْمَنون وحدهم عليها، ويقومون وحدهم دونها، ولكنها ملكٌ للذين يتكلمونها جميعاً، وكلُّ فردٍ من هؤلاء الناس حرٌّ في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك...»(١).

وإذا فقدت اللغة العربية هذا الرداء المقدس، وفقدت أهميتها الدينيّة سارت إلى ما سارت إليه اللغات البائدة. وقد غفل من حارب اللغة العربية عن حياطة الله ـ عز وجل ـ لها بالقرآن الكريم!

واتخذ الهجوم على اللغة العربية لتدميرها عدة محاور هي:

المحور الأول: الدعوة إلى العامية:

نرى أوروبا مقسمة إلى دول كثيرة لا تزيد

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، علم التربية، ٢٩٠.

مساحة أكبرها عن نصف مليون كم٢، لكل بلدٍ لغته وتاريخه، وكذلك كادوا للمسلمين فطُبق التقسيم السياسي، وحاولوا - حتى الآن - تطبيق التقسيم اللغوي والتاريخي، فروّجوا هذه الدعوة لينعزل كل جزءٍ من العرب في محيطهم بلغتهم العامية وتاريخهم الوثني القديم، وليصبحوا أُمماً شتى.

كان المعجَبُ بالغرب رفاعةُ رافع الطَّهْطَاوي - الذي أُرسل إماماً لأول بعثةٍ علميّةٍ إلى الغرب - أولَ من دعا إلى استعمال العامية وتدوين قواعد لها. قال في كتاب أصدره عام ١٨٦٨م أسماه[1]: (أنوارُ توفيق الجليل من أخبار توثيق بني إسماعيل): إنَّ اللغة المتداوَلة المُسمَّاة باللغة الدارجة التي يقع بها التفاهمُ في المعاملات السائرة لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ وتصنف بها كتب المنافع العمومية، والمصالح البلدية.. ا هـ.

ثم خرج علينا مندسٌ من المستشرقين عاش في مصر مديراً لدار الكتب المصرية اسمه: (ولهلم سبيتا) بكتاب أسماه: (قواعد اللغة العامية في مصر) عام ١٨٨٨م، وذكر أنه قد جازف بذلك العمل لحبه لمصر وللمصريين[2].

وأسرع صاحب صحيفة المقتطف فارس نمر فقرّظ لهذه الدعوة، ودعا إلى تدريس العلوم وكتابتها باللغة التي يتكلم بها الناس[3].

وبعد دخول المستعمر أصبحت المقتطف مداحة له، وأسرع الإنجليز ففرضوا الإنجليزية لغة التعليم، وأصبحت لغة رسمية، وأغلقوا مدرسة الألسن، ووجهوا جميع البعثات إلى بلادهم فقط.

وذرَّ قرنُ (كارل فولرس) فكتب كتاباً اسماهُ: (اللهجة العامية في مصر)، وكان لـ (ولكوكس) رأي مشابه بل وصفيق؛ فقد قال في محاضرةٍ له: إن ما يعيق المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى... وما أوقفني هذا الموقف إلا حُبي لخدمةِ الإنسانية، ورغبتي في انتشار المعارف. وأعلن في آخر المحاضرة عن مسابقة للخطابة بالعامية، ومن تكون خطبته جيدة ناجحةً فله أربع جنيهات. كان ذلك عام ١٨٩٣.

ومن العجب أن (ولكوكس) هذا كان يصدرُ مجلة اسمها: (الأزهر)، وكان يدعو إلى العامية من خلالها[4].

وخرج نفر كثيرٌ من هؤلاء يدعون إلى كل ما فيه هدم لأسس الإسلام في نفوس المسلمين،

---

(١) الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي، للكتاني، ج ٢، ٧٥٨، والاتجاهات الوطنية في الشعر العربي المعاصر، لمحمد محمد حسين، ج٢، ٣٥٩.

(٢) تيارات مسمومة ومذاهب هدامة، لأنور الجندي، ١٢٧، والاتجاهات الوطنية، ج ٢، ٣٦٠، ولماذا يزيفون التاريخ، لإسماعيل الكيلاني ٣١٦ - ٣١٧.

(٣) الاتجاهات الوطنية، ج ٢، ٣٦٠، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣١٧.

(٤) الصراع بين القديم والجديد، ج٢، ٧٦١، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣١٧.

وكان منهم: (سلدان ولمور) الذي كتب عام ١٩٠١م كتاب: (العربية المحلية في مصر)، قال فيه: ومن الحكمة أن ندع جانباً كل حكم خاطئ وُجِّه إلى العامية، وأن نقبلها على أنها اللغة الوحيدة للبلاد[١]. وأسرع فارس نمر صاحب المقتطف يقرِّظ لهذا الكتاب. ووضع (ولمور) كتاباً آخر عام ١٩١٠م، سمَّاه: (لغة القاهرة)، وجاء مضمونه كسابقه.

لم يكن هذا الوباء في مصر وحدها؛ فهذا (إسكندر معلوف)[٢] اللبناني أنفق وقته في ضبط أحوال العامية وتقييد شواردها لاستخدامها في كتابة العلوم؛ لأنَّه وجد أسباب التخلف في التَّمسك بالفصحى، ونحا ابنه عيسى نحوهُ فيقول: إنَّ اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة هو أهمُّ أسباب تخلفنا رغم أنَّهُ من الممكن اتخاذُ أيِّ لهجةٍ عاميةٍ لغةً للكتابة؛ لأنها ستكون أسهل على المتكلمين بالعربية كافة. ولي أملٌ بأن أرى الجرائد العربية وقد غيَّرت لغتها. وهذا أعدُّهُ أعظم خطوةٍ نحو النجاح، وهو غاية أملي[٣].

ومن العجب أنَّ من يدعو إلى العامية عضو في مجمع اللغة العربية؛ فأيُّ خير يُرجى من هذا المجمع وهذا من أعضائه؟

ونعود إلى مصر فنجد (سلامة موسى)[٤] يقول في كتابه: (البلاغة العصرية): «إنها تبعثر وطنيتنا - يقصد بذلك الفصحى - وتجعلها شائعةً في القوميَّة العربية». ويقول عن أستاذه أحمد لطفي السيد مفسد الجيل: وقام على أثره مُنشئ الوطنية المصرية الحديثة، فأشار باستعمال اللغة العامية، وبيَّن أنَّ ما يشغل بال (ولكوكس) بل ويقلقه هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها. وأحمد لطفي السيد هذا تولى رئاسة مجمع اللغة العربية؛ فأيُّ مجمع هذا؟

وينعق الشاعر العراقي الهالك جميل صدقي الزهاوي فيقول[٥]: فتَّشْتُ طويلاً عن انحطاط المسلمين فلم أجد غير سببين أولهما: الحجاب الذي عدَّدتُ في مقالي الأول مضاره، والثاني: هو كون المسلمين - ولا سيما العرب منهم - يكتبون بلغةٍ غير التي يحكونها.

ونعود إلى مصر فإذا بـ (لويس عوض)[٦] الصليبي الشيوعي يدعو إلى العامية ويصنف كتاباً يهديه إلى (كريستوفر سكيف) الجاسوس الإنجليزي ويكتب ديوانه (بلوتو لاند) عام ١٩٤٧م الذي دعا فيه إلى كسر رقبة البلاغة العربية وإلى الكتابة بالعامية[٧].

وكان للمغرب العربي نصيب من هذه

---

(١) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٦٠، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣١٧.

(٢) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٦٢.

(٣) الاتجاهات الوطبية، ج٢، ٣٦٣، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣١٨.

(٤) الفصحى لغة القرآن، لأنور الجندي، ١٢٧، والاتجاهات الوطنية، ١، ٣٧٢، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣١٩.

(٥) تيارات مسمومة ونظريات هدامة، ١٩٦.

(٦) لماذا يزيفون التاريخ، ٣٢٤.

(٧) لماذا يزيفون التاريخ، ٣٢٠، ومجلة الآداب عدد ١، ٢ / ١٩٩٩م، ص١٠١.

الدعوة؛ فقد أصبحت اللغة العربية لغة ثانية بعد الفرنسية لغة المستعمر، وجاء في تقرير أعدته لجنة العمل المغربية الفرنسية: إنَّ أول واجبٍ في هذه السبيل هو التقليل من أهمية اللغة العربية، وصرف الناس عنها، بإحياء اللهجات المحلية واللغات العامية في شمال إفريقيا[1]. وقد وضع علماء الاستعمار من المستشرقين كتباً في قواعد اللهجات الأمازيغية لتزاحم العربية، يقول (شحادة الخوري): شعر المستعمر باستحالة اقتلاع اللغة العربية من أرض الجزائر وغرس اللغة الفرنسية مكانها، فلجؤوا إلى وسيلة مُساعدةٍ أخرى وهي الإيحاء لأكبر عددٍ من أبناء الجزائر بأن اللغة العربية ليست لغة أصليَّة في الجزائر، وإنما اللغة الأصلية لسكان الجزائر هي اللغة البَرْبريَّة لغة الأمازيغ، وقد تطوع الفرنسيون لوضع أبجدية لها كيما يمكن كتابتها[2].

ونعود إلى الشام ولبنان خاصة؛ فـ (مارون غصن) أصدر كتاباً قال فيه[3]: إنَّ كل لغةٍ سائرةٌ إلى الفناء؛ لأن الشعب كله متعلقٌ كل التعلق بلغة آبائه وأجداده، وما هذه اللغة إلا العامية، وأتبع ذلك بإصدار كتاب بالعامية عنوانه: (في متلوها لكتاب) عام ١٩٢٠م.

ويتمنى (مارون غصن) أن يرى عاملاً عسكرياً سياسياً يفرض اللغة العامّية[4]. وقد تزامن مع هذه الدعوة إصدار جرائد ومجلات وكتب باللهجات العامية، فقد صدرت سبع عشرة جريدة ومجلة عامية بحلول عام ١٩٠٠م[5]، كما تحول المسرح من الفصحى إلى العامية مما دعا المنفلوطي إلى تسميته بـ (الملاعب الهزلية)[6] كما تسابق المستشرقون على إصدار دراسات عن اللهجات العامية مثل دراسة (نللينو) عن عامية مصر، و (سيانكو فسكي) عن عامية المغرب وتونس، و (إلياس برازين) عن عامية حلب، و (ليوريال) عن عامية الجزائر، وغيرها[7].

المحور الثاني: الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية:

هذه الدعوة مرتبطةٌ بالدعوة السابقة؛ حيث أخذ الهجوم على الفصحى[8] بالتدرج وتوحيد الجهود، وقد بدأ بذلك (سلدان ولمور) في كتابه:

---

(١) الاتجاهات الوطنية، ج، ٣٦٥، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣٢٣.

(٢) القضية اللغوية في الجزائر وانتصار اللغة العربية، ١٨/١٩. (٣) لماذا يزيفون التاريخ، ٣٢٤.

(٤) المصدر السابق، ٣٢٥، واتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي - لبنان - للدكتور رياض قاسم، ٢٨٨، وذكر كثيراً من آراء غصن.

(٥) الفصحى لغة القرآن، ١٢٧. (٦) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٦١.

(٧) ذكر كثيراً منها أنور الجندي في كتابه: الفصحى لغة القرآن، ١٢٧.

(٨) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٦٠، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣١٧.

(العربية المحلية[1] المصرية)، وهدَّد بأن العرب إن لم يفعلوا ذلك فإن لغة الحديث والكتابة ستنقرض، وستحل محلها لغة أجنبية.

ويخرج علينا عضو في مجمع اللغة العربية ليكمل جوقة المحاربين للغة القرآن من مجمعها، وكان الأولى أن يُسمَّى: (مجمع محاربة اللغة العربية). هذا العضو هو (عبد العزيز فهمي)[2]؛ فقد دعا عام ١٩١٣م لكتابة العربية بالحروف اللاتينية، وأصدر كتاباً يوضح فيه طريقته، جاء فيه بالعجب العجاب؛ فقد جمعَ نماذجَ للكتابة، أُرسلت له ممن هب ودب يكتبها ويكتب تحتها ترجمتها بالحروف العربية، ويقول ناشر الكتاب: «ونجحت التجربة في تركيا وهم يقرؤون اللغة التركية بالحروف اللاتينية، ولكنَّ أصحاب الآراء المتحجِّرة رموهُ بالكفر والزندقة»[3]. وقرأت أنه رجع عن دعوته تلك[4].

ويستلم منه الراية (سلامة موسى) القبطي[5] ليتبرأ من آثار العرب تاريخياً ولغوياً، ويدعو إلى ما دعا إليه المارقون قبله بشدةٍ وحماسةٍ.

وطبق بعض المارقين ذلك النهج، فولدت محاولاتهم ميِّتةً. مثل: (رفائيل نخلة اليَسُوعيّ) في كتاب أسماه: (قواعد اللهجة اللبنانية والسورية)، مكتوب بالحروف اللاتينية، وطبعته المطبعة اليسوعيّة. وأما (أنيس فريحة الخوري) فلا يرضى بأن تكون العامية اللغة المعتمدة بل يدعو إلى كتابتها بالحروف اللاتينية لتكون لغة رسمية للعرب[6]؛ لأن الحرف العربي لا يصلح لتدوين اللهجة العامية ويقبلُ اقتراح عبد العزيز فهمي؛ لأنَّهُ يَضْبطُ لفظة اللغة مرةً واحدة لجميع الناس.

والمُتسمِّي بـ (أدونيس) طبق ما يريد أستاذه (أنيس فريحة) فأصدر في عام ١٩٦١م ديواناً اسماه «ياره» كتب بالحروف اللاتينية[7]. أما (انستاس الكرملي) الذي يُسميه الجهال: «الأب» فقد كان ماكراً في دعوته؛ حيث ابتدع طريقة للكتابة تحوي في تضاعيفها حروفاً لاتينية[8]، وذلك في مجلته: «لغة العرب»، وكان يهاجم الداعين إلى استبدال الحرف العربي بحرف لاتيني، فهو يذرُّ رماداً في العيون لكي لا تراه ولا تنتبه لعمله، ولكنها رأته وأبطلت ما يصبو إليه.

---

(١) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٢٦٣، ولماذا يزيفون التاريخ، ٣١٨.

(٢) طبعة ١٩٩٤م، وهي ليست الأولى بالتأكيد.

(٣) مجلة الآداب ١، ٢ / ١٩٩٩م، ص ١٠١.

(٤) الاتجاهات الوطنية، ج٢ـ ٣٦٥.

(٥) لماذا يزيفون التاريخ، ٣٢٣.

(٦) اتجاهات البحث اللغوي الحديث ٣٩٤/ ٢٩٥.

(٧) لماذا يزيفون التاريخ ٣٢٤، واتجاهات البحث اللغوي الحديث ودرس مضمون الكتاب هذا ٤٠٧/ ٤١١.

(٨) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٧٧، وذكر بعض الردود عليه.

أما مجمع اللغة العربية فقد انشغل ثلاث سنوات يدرس اقتراح كتابة العربية بحروفٍ لاتينيةٍ[1] استجابة لثلةٍ من أعضائه المارقين! ألم أقل: إنه مجمع محاربة اللغة العربية؟!

المحور الثالث: الدعوة لإصلاح اللغة العربية:

لو كانت تلك الدعوات قُصد منها إصلاحٌ وإيضاح كما فعل المتقدمون منهم وكثيرٌ من المحدثين لكان ذلك صواباً، ولكنَّ النيَّة السيئةَ هي مطيَّةُ القوم. ولكي يَصِلُوا إلى مرادهم وصموا العربية بالجمود والتعقيد والصعوبة. وكل من ذكرنا سابقاً وكثير من مثلهم قالوا ذلك. وكانت تلك الدعوات غطاءً للهدم؛ فمنهم من دعا إلى إلغاء الإعراب مثل (قاسم أمين) عام ١٩١٢[2]؛ حيث دعا إلى تسكين أواخر الكلمات عوضاً عن الإعراب. قال (سلامة موسى)[3]: والتأفف من اللغة الفصحى التي نكتب بها ليس حديثاً؛ إذ يرجع إلى ما قبل ثلاثين عاماً حين نعى (قاسم أمين) على اللغة العربية صعوبتها، وقال كلمته المشهورة: إن الأوروبي يقرأ لكي يفهم ونحن نفهم لكي نقرأ. فانظر إلى ترابط الهدم؛ إذ يتحدث عن إفساد المرأة ثم يدعو إلى إفساد العربية. ولمثل دعوته في ترك الإعراب دعا (عبد العزيز فهمي)[4] وتبعهما كثيرون مثل: (يوسف الخال)[5] الذي دعا إلى تحطيم بنيان اللغة والتخلص من العبء الثقيل وهو الإعراب، وكثيرون سواد دعوا إلى ذلك، ومن آخرهم أستاذ بجامعة الملك سعود بكلية الآداب عندما عرفتُ ما يدعو إليه في إلغاء الإعراب[6] تذكرت ما كان يقوله لنا ونحن طلبة عنده من أنَّ عيبه عدم استطاعته إيصال ما يريد لطلابه لضعف لغته. وكانت لغته ضعيفة، ولسانه مطبوعاً على العامية لا يستطيع الفكاك منها.

ومنهم من دعا إلى إصلاح قواعد الكتابة مثل: (أحمد لطفي السيد)[7] الذي يقول: إن سبب تراجع الأمة العربية تمسكها بالتشديد والتنوين، ثم دعا إلى قواعدَ جديدةٍ ابتكرها مزهواً بذلك كأنه أبو الأسود أو الخليل - رحمهما الله -. كما كان لـ (أنستاس الكرملي) رأي ماكر في إصلاح الكتابة العربية دسَّ فيه حروفاً لاتينية أوضحناه آنفاً. أما (أنيس فريحة) فقد أصدر عام ١٩٦٦م كتاباً أسماهُ: (في اللغة العربية وبعض مشكلاتها)[8] أهداه إلى كل معلِّم يدرِّسُ العربية رونقه بحديثٍ في أوله عن مزايا

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ٣٦٣ ولم تكن اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية أحسن حالاً من المجمع؛ فقد احتضنت فريحة والقى محاضرات في مراكزها عن اللهجات وأساليب دراستها عام ١٩٥٥م، وسارعت إلى طباعة تلك المحاضرات، الاتجاهات الوطنية، ج٢ ٣٦٤.

(٢) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٧٢، وتيارات مسمومة، ٢٧٣.

(٣) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٧٢.

(٤) مجلة الآداب عدد ١، ٢ / ١٩٩٩م، ص ١٠١.

(٥) تيارات مسمومة، ٢٧٢.

(٦) اقرأ ما كتبه د. حسن الهويمل في جريدة الرياض بتاريخ، ١٤٢٠/٣/٣هـ.

(٧) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٦٩.

(٨) طبع أكثر من مرة.

العربية، ثم رنّقه[1] بوصم العربية بالعجز عن اللحاق بالعلوم والفنون، وجعل هجاءها من مشاكلها، ودعا إلى تيسير ذلك، وأخذ يحيي اقتراحاتٍ بائدةً لإصلاح ذلك. كما تأفف من مشكلات القواعد النحوية، واشتكى من الصرف ودعا في ثناياه إلى العامية! فماذا أبقى فريحة الخوري؟

وزعم (مارون غصن) - وهو ممن يُدعون بـ (الأبّ) - أنّ اللغة العربية ضعيفة في كل شيء؛ ولذلك هبَّ مسارعاً لتسهيل هذه اللغة فوضع كتاباً اسماه: (نحو عربية ميسرة)[2] عام ١٩٥٥م، وكتب مقالاً عنوانه: (هذا الصرف وهذا النحو أمَا لهذا الليل من آخر؟)، سخر فيه من قواعد العربية، ودعا إلى تركها[3]. أما صاحب فجر الإسلام (أحمد أمين) فقد دعا إلى إصلاحٍ في متن العربية[4] وانطلقت دعوته تلك من منبر مجمع اللغة العربية؛ فهو أحد أعضائه.

وكل من تحدث عن الإصلاح يلوك مقولة ملْكية الجميع للغة ويتهمون كل مدافع عنها بأنه ممن يدّعِي مُلْكَ اللغة؛ كما ذكرنا قول طه حسين آنفاً.

المحور الرابع: إفساد الذوق السليم:

لما عجز المستعمر وعجز ربائبه وأذنابه عن فرض العامية وكَلّت أقلامُهم في الدعوة إلى الحروف اللاتينية، وماتت تجاربهم في مهدها، ولم يستطيعوا جرَّ العرب لتحطيم العربية بدعوى الإصلاح، عند ذلك لجؤوا إلى إفساد الذوق السليم لكي يعدمَ العربي ذوقه التي اعتاد عليه في الاستمتاع بما كتب به كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ، وتراثه الأصيل، وحاضرهُ الزاخر. فانفتح الباب على كل عربي قارئ للآداب بمذاهب لا يعرف منها إلا اسمها سلخت من بلاد الغرب وزُجَّ بها في ساحة العربيةِ وطُوِّعت وسائل الإعلام المختلفة لكي تمتلئ بهذه المذاهب التي تهدمُ الدينَ وتحاربُ العربيةَ وتُفسدُ الأخلاق. وترجمت كتب النقد الغربي لكي يُطبَّق على أدبنا. وأصبح لزاماً على الدارس في كثيرٍ من أقسام العربية في الجامعات أن يدرس هذا الأدب وهذا النقد، ولقد درستُ النقد الأدبي الغربي في المرحلةِ الجامعيةِ ولكنهم سمَّوه: (النقد الأدبي الحديث). ودُعم كل ناعق بهذه الخزعبلات، فامتلأت الجرائد والمجلات وأرفف المكتبات بها، وخرج علينا في جميع وسائل الإعلام دعاة الحداثة - وهم شرذمة قليلة -، ودعوا إلى تحطيم الشعر. يقول (لويس عوض)[5]: «حطِّمُوا الشعر؛ لقد مات الشعر العربي عام ١٩٣٣م، مات بموت أحمد شوقي». فصار الشعرُ طلاسم وأحاجي لا يفهمها حتى كاتبها. لكي يعدم الشاب النماذج التي يحاكيها.

يقول الدكتور (عمر موسى باشا)[6]: إنَّ

---

(١) رنّقه: كدّره. ورَنَقَ بمعنى صفا، وكدر؛ فهو من الفاظ الأضداد.

(٢) لماذا يزيفون التاريخ. ٣٢٥.

(٣) المصدر السابق، ٣٢٥.

(٤) الاتجاهات الوطنية، ج٢، ٣٦٩.

(٥) تيارات مسمومة، ٢٠١.

(٦) المصدر السابق، ٢٧٢.

مفهوم الحداثة في الأدب يعني حريَّة الأديب فيما يختص باستخدام اللغة، وأنَّ للأديب الحرية الكاملة في استخدام اللغة العامية المحلية، ونحن نعترض على إطلاق هذه الحرِّية ما دامت تُصدِّع صرح اللغة العربية.

كما شجعت الآداب الشعبية لإفساد الذوق وحرف الناس عن أدبهم الفصيح، ولكي تسيطر العامية على الناس. يقول الدكتور: (محمد محمد حسين) ـ رحمه الله ـ عن هذا الأدب: هو امتداد للدعوة إلى استبدال اللهجات المحلِّية العامِّية مكان اللغة الفصحى»[1].

وأجزم أولاً أنَّ تدوينها والاهتمامَ بها ليتعلَّقَ الناس ويفسدَ ذوقهم ويعتادوها، ويعدموا النموذج الأصيل.

يقول أنور الجندي[2]: حاول الداعون بها أن يَوجِّهوا العنايةَ إلى الجمالِ الفنِّي الذي تمثلهُ الأمثالُ والقصصُ والأغاني التي يتداولها العامة، وقد دوَّنوا ما لم يكن مدوناً، فلما برزت الدعوة إلى العناية بالفنون الشعبية تمسَّح الداعون بهذه الدعوة بين العرب زاعمين أنَّ إهمال هذا اللون من الفنون ترفُّعٌ عن العناية بالطبقاتِ الفقيرةِ الكادحةِ، وما يتصل بها من شؤون.

الخاتمة:

بعد أن رصدنا رصداً سريعاً جوانب من هذه الهجمة نستخلص منها:

١ - كانت بدايةُ الهجمة بالمستشرقين تحت ظلال المستعمر، ثم نقلت إلى بني جلدتنا ليكون لما يقولون قبول أكثر.

٢ - جُلُّ من هاجم العربية بأي شكل هم من المستشرقين وغير المسلمين مثل: موسى سلامة، ولويس عوض، وعيسى معلوف وابنه إسكندر، ورفائيل نخلة، ومارون غصن، وانيس فريحة، والكرملي وغيرهم، ومن هاجم العربية من غيرهم فهو من المارقين الذين تحلَّلوا من الإسلام مثل: قاسم آمين، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وأشباههم.

٣ - اتخذ الهجومُ التدرجَ دعوةً إلى العامية ثم الحرف اللاتيني؛ فلما لم ينجحوا في ذلك دَعَوْا إلى إصلاح العربية؛ والقصدُ هو الإفساد؛ فلما سقطت دعوتهم فُتِحَ البابُ لإفساد الذوق السليم، وشُجعت الآداب العامية.

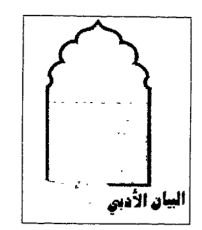
٤ - جوبهت تلك الدعوات الهدامة بردود ومعارك كتابية أرجعتها خائبة، كما أعرض العامة عنها ولم يعيروها أذناً صاغية، وكان تطبيقها حكراً على الناعقين بها.

٥ - ساعدت تلك الهجمة في بث الروح والحياة في نفوس أهل العربية، فخرج شعراء كبار مثل: البارودي، وشوقي، وحافظ، والرصافي، وكُتَّاب كبار كالرافعي، والمنفلوطي، وباكثير، وغيرهم.

والله ولي التوفيق

(١) المصدر السابق، ٢٥٠.

(٢) المصدر السابق، ٢٥٦.



وصــــول

د. محمد زين العابدين

مشى وحده حتى تعبت قدماه.. فالشلة لن تجتمع اليوم بسبب هذه الريح العاصفة القارسة البرودة؛ خاصة أن السماء ازدحمت فيها السحب الداكنة نذيراً باشاعة الفوضى في أي برنامج.. كل واحد منهم اختبأ في بيته، وادخر طاقته ليوم آخر ذي جو أصفى.. أما هو فلم يستطع أن يمكث في بيته؛ فهو يحب الحياة حتى النخاع، ولا يتصور نفسه إلا طائراً بين أفيائها يتنسم عبير الزهر الناضر تارة، أو يلتهم الثمر الناضج أخرى؛ حسب الظروف!! التعب ازداد حدة ولم يعد قادراً على مواصلة السير.

أتمنى أن أجلس، ولكن أين؟ آه.. ها هو ذا مقهى على الضفة المقابلة من الشارع.

حاول العبور لكنه لم يستطع بسبب سرعة السيارات وكثافة المارة.. سار على حافة الشارع متحيناً الفرصة للعبور حتى وصل النقطة المواجهة للمقهى، وانتظر.. لكن الانتظار طال وتضاعف معه تعبه وضجره اللذان زحفا إليه كما تزحف جيوش النمل الأبيض على جذوع الأشجار...

صوت حشرجة معدنية عالية انبعث فجأة من مكان ما فوق رأسه.. استطاع أن ينتفض على الرغم من إعيائه الشديد.. رفع نظره فرأى مكبراً للصوت فوق مئذنة لمسجد.. تعجب لوجود مسجد في هذا الشارع؛ فقد سار فيه مراراً ولم يلحظ المسجد أبداً.. المنظر في الداخل يبعث على الارتياح، والفرش على الأرض تغري ساقيه المتعبتين.

لماذا لا أدخل لأجلس قليلاً؛ فالجلوس هنا أكثر راحة من المقهى، كما أنه لا يكلف شيئاً..؟ ابتسم وهو يخلع حذاءه؛ فهو لا يتذكر متى كانت آخر مرة دخل فيها مسجداً..! في محراب المسجد يجلس أحد الشيوخ يبدو أنه على وشك البدء في حديث مًا.. استند إلى الحائط في نهاية المسجد، ومد رجليه.. انتشرت الراحة في جسده المنهك، وانتشت عضلاته المتعبة، وجال فكره بعيداً في الزمان والمكان يخطط جداوله للأيام القادمة، وكيف سيكون العبُّ من ملذات الحياة. يجب ألا يتكرر هذا الموقف السخيف ثانية؛ فهو من أنصار استثمار الشباب حتى الثمالة.. انتفض فجأة بسبب ارتفاع شديد في صوت الشيخ.. نظر حوله.. لقد امتلأ المسجد وغص بالحضور.. عدل من جلسته وثنى رجليه.. كان المتحدث يقول: الموت سهم فارق قوسه، ولا تعلم متى يصل إليك وهو لا يخطئ هدفه أبداً، جحظت عيناه، تدلى فكه، اندفع الدم الأحمر إلى وجهه؛ كأنه تلقى عليه صفعة قوية: الموت !! يا لها من كلمة! إنه لا يريد أن يموت وأمامه الكثير ليفعله.. توترت أعصابه.. لم يعد يستطيع الجلوس.. أحس بالرغبة في تدخين سيجارة.. هب واقفاً بشكل أفزع الجالسين بجواره، وتخطى النفر القليل بينه وبين الباب بشكل عصبي، وما أن خرج للشارع حتى ملأ صدره من هوائه المشبع بالغبار وعادم السيارات فزاده غيظاً واختناقاً.. ذلك السهم أمَا من سبيل لتفاديه؟! متى سيأتي؟ وهل يمكن تضليله؟ تزاحمت الأسئلة واللعنات في

عقله، واكفهرّ صدره متحدياً الجو من حوله، ومبرزاً قدرة البشر الفذة على الإحساس بالضيق.. مشى على غير هدى.. قادته قدماه إلى البيت.. منزل كبير وطوابق عديدة وهو يحتل قمته. أجل إنه دائماً في القمة!! صعد إلى غرفته فوق السطح.. دخل.. ندم على العودة، حاول الخروج.. ولكن إعياءه الشديد أجبره على الجلوس على الفراش.. خلع حذاءه بطريقة لا شعورية.. ضجة على السطح المقابل.. إنهما صبيّان يصوِّبان بقوس ونشّاب على أهداف وضعاها على السور القصير في نهاية السطح.

اللعنة.. اللعنة.. سهام مرة أخرى، كان الهدف مواجهاً للشباك؛ بحيث يمكن أن تدخل السهام لو كانت بالقوة الكافية لعبور الشارع.. ضاعف ذلك ضيقه إلى حد الجنون.. صاح فيهما لكي يبتعدا، فسخرا منه.. ماذا يفعل لهذه الشياطين الصغيرة؟ لا شيء بيده.. استسلم للصفاقة الصغيرة ونام على السرير؛ لكنه لم يستطع؛ فقد اصطدم سهم بالحائط خارج الشباك بشكل أفزعه.. ماذا لو دخل أحد هذه السهام إلى الغرفة وأصابه؟ إنها خشبية وغير مدببة بما فيه الكفاية، لكنها قوية.. ماذا لو أصابت عنقه؟!

أقلقته هذه الأفكار جداً؛ فوقف في منتصف الحجرة حائراً تتقافز نظراته يمنة ويسرة.. في النهاية تقدم إلى الشباك وأغلقه.. دقائق.. فتحه!! لم يستطع أن يعيش داخل علبة مغلقة، لا بد من منفذ على الدنيا، إن الشباك هو أهم شيء في هذه الغرفة، لقد فضلها على عديدات غيرها أكبر وأرخص؛ لأنها تفتقر إلى مثله، تمدد على السرير ثانية لكن صوت العفاريت على السطح المقابل دفعه إلى القيام، جال بعينيه في وكره مرة ثانية.. وقع نظره على الدولاب الضخم الذي ورثه عن أبيه.. إنه يقف شامخاً كسائر أهل جيله مزهواً بصلابة خشبه ومتانته وكأنه يقول: أنا أقوى من الزمن.. خطرت بباله فكرة مجنونة لذّت له فقام لينفذها على الفور: جمع ملابسه القليلة في الرف الصغير أعلى الدولاب، حمل اللحاف وبسط نصفه في أرض الدولاب، ثم نام فيه وغطى جسمه بالباقي، كان الدولاب بجوار الشباك وفي غرفة صغيرة، كان أحد المصراعين لا يفتح تماماً.. السماء فوق رأسه قاتمة تتصارع فيها وحوش رمادية ضخمة أو لعلها تتقافز مرحة سعيدة بالإحساس بالامتلاء بعد وجبة برنامج يومه الدسم الذي التهمته؛ وتركته خاوي الوفاض.. نظر إلى السحب بغيظ وحقد:

الشؤم على هذا الشتاء وعلى هذه الشيطنة التي تستطيع اللعب في طقس كهذا.. استسلم جسمه للدفء والراحة، وعقله لسبات عميق.. اشتد الهواء في الخارج فأغلق مصراع الدولاب وأحكم غلقه تماماً.. أجفله الصوت؛ لكن السبات الذي يسيطر على عقله والظلمة منعاه من إدراك حقيقة الموقف.. على كلٍ ليس هناك ما يُخْشَى؛ فعند اللزوم يكفي أن يضرب المصراع بيده فيفتحه.. لا مشكلة.. الصبيّان ما زالا يلعبان، ازدادت حدود الشيطنة وسئما الأهداف السهلة.. اقترح أحدهما التصويب لإدخال السهام خلال مقابض دولاب الجار الشاكس.. صوّبا كثيراً لكن السهام لم تصل بسبب الريح.. تضاعفت الحماسة والرغبة لقهر هذا الهدف المتحدي. إنهما ماهران جداً.. تراهنا؛ وانطلقا يبحثان عن الأسهم المناسبة، ثم رجعا وبدآ في المحاولة من جديد؛ لكن بلا جدوى.. انتهت السهام؛ لكن أحدهما قرر استخدام سلاحه الأخير.. أخرج سيخاً حديدياً ووضعه في النشّاب، وصوبه جيداً وأطلقه.. إنه ولد ماهر ماهر، لقد دخل سهمه من مقبض الدولاب الأول، ثم الثاني، ثم توقف، لقد أصبح القضيب الحديدي مزلاجاً على باب الدولاب. وعلى السطح المقابل تقافز الصبيّان وهما يصيحان جذلين: لقد وصل السهم.. لقد وصل السهم.

أتُرى يسري العدوان على بنت عدنان

شادي السيد أحمد عبد الله

إنّ الله - تعالى - أنزل القرآن عربياً لا عُجْمة فيه، بمعنى: أنه جارٍ في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب[1]، قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. ومَن أحبَّ اللهَ أحبَّ رسولَه المصطفى ﷺ، ومَن أحبَّ النبيَّ العربيَّ أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العربَ أحبَّ اللغة العربية التي بها نزل أفضلُ الكتب على أفضل العَجَم والعَرَبِ[2].

ومعلوم أنّ «تعلّم العربية وتعليمها» فرض على الكفاية، وكان السلف يُؤدِّبون أولادهم على توقِّي اللحن؛ فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربيّ، ونصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والاقتداء بالعرب في خطابها، فلو تُرك الناسُ على لحنهم كان نقصاً وعيباً؛ فكيف إذا جاء قومٌ إلى الألسنة العربية المستقيمة والأوزان القويمة فأفسدوها بمثل هذه المفردات والأوزان المفسدة للّسان، الناقلة عن العربية العرباء إلى أنواع الهذيان الذي لا يهذي به إلا قومٌ من الأعاجم الطماطم الصميان؟!![3].

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «تعلموا العربية؛ فإنها تزيد في المروءة»[4].

قال ابن فارس: «وقد كان الناسُ قديماً يجتنبون اللَّحْن فيما يكتبون أو يقرؤون اجتنابهم بعضَ الذنوب، فأمّا الآن فقد تجوّزوا حتى إنّ المُحدِّث يُحدِّث فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن، فإذا نُبِّها قالا: ما ندري ما الإعراب؛ وإنما نحن محدِّثون وفقهاء، فهما يُسَرَّانِ بما يُسَاءُ به اللبيب»[5].

ولا يخفى أن اللسانَ العربيَّ شعارُ الإسلام وأهله، واللغاتُ من أعظم شعائر الأمم التي يتميّزون بها[6].

فما أجْدَرَ هذا اللسانَ بأنْ يُعتَنقَ ضَمّاً

---

(١) الاعتصام: الشاطبي، ٢/٥٤١.

(٢) فقه اللغة وسر العربية: الثعالبي، ص ١٩.

(٣) الفتاوى: ابن تيمية، ٣٢/٢٥٢.

(٤) الجامع: الخطيب، ٢/٢٥.

(٥) التعالم وأثره على الفكر والكتاب: بكر أبو زيد، ص ٨٠ (ضمن المجموعة العلمية).

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ص ٢٠٣.

والتزاماً، كالأحبةِ لدى التوديع، ويُكْرَم بنقل الخُطُواتِ على آثاره حالةَ التشييع[1].

وما أكثر ما يجري من العدوان على هذا اللسان الذي وَسِع الدين والقرآن من أولئك الذين يَهْرفون بما لا يعرفون، ويقولون ما لا يفعلون! فكثُر اللَّحْنُ من الخواص قبل العوامّ، وطغت الهُجْنَةُ حتى ضجَّت الهوامُّ!! وسأضربُ مثالاً من هذا الرُّكام، وأزيح عنه اللِّثام: فما من كاتبٍ، ولا شاعرٍ، ولا خطيب، ولا أديبٍ - إلا مَن رحم ربي - إلا ويستخدم كلمة (بَسيط) بمعنى: قليل، أو هَيِّن، أو يسير... إلخ؛ فيقول: هذا شيء بسيط (بمعنى قليل)، ورجل بسيط (بمعنى مُغفَّل، أو طيب القلب) وهذا الاستخدام غير صحيح؛ فقد وردتْ مشتقات هذه الكلمة في خمس وعشرين آية، وجاءت على هذا النحو في القرآن الكريم: بَسَطَ - بَسَطْتَ - تَبْسُطْها - يَبسُطُ - يَبسُطُه - يَبْسُطُوا - بَاسِط - بَاسِطُوا - البَسْط - بِسَاطاً - بَسْطَة - مَبسُوطَتَان[2]؛ وليس فيها كلها معنى قليل، أو هَيِّن، أو مُغفَّل... إلخ.

قال الفيروز آبادي: «بَسَطَهُ: نشره، وبَسَطَ يده: مَدَّهَا، وفلاناً: سَرَّه، والمكانُ القومَ: وَسِعَهم، واللهُ فلاناً عليَّ: فَضَّلَهُ، والعُذْرَ: قَبِلَهُ. واللهُ يَبْسُطُ الرزقَ: يُوسِّعُه، والبِسَاطُ: ما بُسِطَ، والبَسيطُ: المنبسط بلسانه، وأُذُن بَسْطَاء: عظيمة عريضة، وانْبَسَطَ النهارُ: امتدَّ وطال، والبَسْطَةُ: الفضيلة، والبَسْطَة في العلم: التوسُّع، وفي الجسم: الطول والكمال، والمَبْسَطُ: المُتَّسَعُ»[3].

هذا: وإنني قد بسطتُ الكلام في هذا المقال، للتنبيه وضرب المثال: لصون اللسان عن الزلل في لغة القرآن، ودعوة لنبذ سقيم الكلام والأوزان، بعد أن «ازدادت المِحَنُ في هُجْنَةِ اللسانِ العربي، وطغت مولدات التغريب على لغة القرآن، فَعَظُمَ العُدْوان على بنت عدنان، وندر الآخذون بالثأر الموقظون لأمتهم عن تغريب اللسان»[4].

ورغم ذلك: فإن العلماء في لغة العرب - شكر الله سعيهم - قد بذلوا جهودا مكثفة في القديم والحديث، فأنشؤوا سدوداً منيعة وحصوناً حصينة للغة القرآن عن عوادي الهُجْنة والدخيل، ويظهر ذلك في المجامع وهي كُثْر، وفي كتب الملاحن وهي أكثر، فدبَّ يراعهم، وسالتْ سوابق أقلامهم، وانتشرت سوابح أفكارهم في نقض الدخيل، ونفي المقرف والهجين، فحمى الله - سبحانه - اللغة حماية لكتابه[5].

فهل إلى إصلاح لغتنا مِن سبيل؟!

أفليس حراماً أن نهملها حتى يجهلها منا المتعلمون وأهل اللَّسَن والبيان ويلحنوا فيها؟ أليس حراماً أن يكون فينا من الخوارج على لغتنا من ينصر العاميّة المسيخة أو يكتب بها؟ أليس حراماً أن تسير على ألسنتنا مئات الألفاظ الأعجمية: الفرنسية، والإنكليزية ننطق بها تظرّفاً أو تحذلقاً، وعندنا عشرات الألفاظ التي ترادفها وتقوم مقامها؟!

فيا أيها العرب لغتَكم. لغتَكم يا أيها العرب؛ تعلَّموها وحافظوا عليها وانشروها»[6].

فهل مِن ملبٍّ للنداء؟! وهل مِن مجيبٍ للدعاء؟!

---

(١) القاموس المحيط: الفيروز آبادي، ص ٢٩.

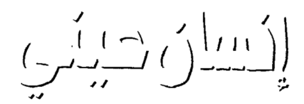
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد، ص ١٥١.

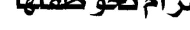
(٣) القاموس المحيط، ص ٦٥٩، وانظر كذلك: معجم الأخطاء الشائعة: محمد العدناني، ص ٣٧، صون اللسان: محمد الحسيني، ص ٢٦.

(٤) تغريب الألقاب العلمية: بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ٣٠٧ (ضمن المجموعة العلمية).

(٥) معجم المناهي اللفظية: بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ٤١٩.

(٦) فكر ومباحث: علي الطنطاوي، ص ١٠.







هو زينة الدنيا وبسمتها به ... هو حبة القلب ارتوت برضابِه
طفلي صباحة صبحنا ونسيمه ... عصفورنا الشادي برطب عِذابِه
هو نعمة الرحمن تغدو بيننا ... هو عزمنا في عنفوان شبابِه

* * * *

شادٍ تحاكيه البلابلُ غيرةً ... ويشنِّف الآذانَ سحرُ جوابِه
غضٌ نضيرٌ كالندَى في رقةٍ ... تغدو الوداعة كلُّها من بابِه

* * * *

ألقَى الحياةَ بخيرِها وشرورها ... فيهونُ ما ألقاه عند خطابِه
ويضمنا مرحُ الطفولةِ ساعةً ... أنسَى الحياةَ بها على أبوابِه
ألهُو وأركضُ مثلَه في نشوةٍ ... وكأنني يا صحبُ من أصحابه
وتُغرِّدُ الضحكاتُ من أعماقِنا ... يروي فؤادينا الصفا بلبابه(1)

* * * *

هو قطعةٌ مني من القلبِ الذي ... أنَّى يسيرُ يسيرُ في أعقابِه
فإذا بكى مُتضرراً من شوكةٍ ... ذابَ الفؤادُ تساؤلاً: ماذا بِه؟
وتمنَّت العينُ التي هو نورُها ... أن يحتويها الشوكُ قبل إهابِه
إنسانُ عيني، مهجتي، ريْحانتي ... عمري الذي أحياه من أسبابِه
رباه! هذا عُمرنا وشبابُنا ... آمالُنا، أحلامُنا تحيا بِه
فأنِر له الأيامَ من أيامِنا ... واحفظه من شرِّ الزمانِ ونابِه
واجعلني يا رب الفداءَ لدمعةٍ ... إن ساقها ألمٌ إلى أهدابِه
هذا دعاءُ الوالدين تَضرُّعاً ... بارك لنا اللهم في أعقابِه

(1) اللباب: المختار الخالص من كل شيء.



الإرهابي

أحمد حسبو

بالأمس للسودان صدّرتَ الفناءْ
ونزلتَ في الخرطوم شُؤما
وقطرتَ لُؤْما
وصببتَ حقداً أسوداً فوق (الشفاء)
ويداك ـ يا للعار ـ حطمتا الدواء

* * * *

واليوم عُدتَ إلى العِراق
بُركان حقد ثائرٍ يَرمي
بدانات النفَاق
الشعب ضاق به الخناق
ودمٌ يراق
والطفلُ يَسألُ أمّهُ: هل من فواق؟!
أمّاه: قد سرقوا الحليب
زرعوا على دربي النحيب
ناديت، لكن من يجيب؟!
أين العرب؟!
أين الأخوة والنسب؟!
أين القريب؟!
وطني سليب
يومي سليب
وغدي يُحاك له الردى
بيد الصليب

* * * *

يا مجرماً حتى النخاع
(مونيكا) مزقت القناع
والحُلم ضاع
وغدوت من سقط المتاع
ألأجل إلهاء الأراذلِ والرعاع
تلهو بشعبٍ من جياع؟!

* * * *

يا مسرفاً بغياً وليس يحفل بالقيم
كلاًّ، ولم يَكُ محترم
يا مُغرماً بمجازر ونزيف دم
تحت العيون الزرق حقد مضطرم
مستنقعٌ من خسّة يعلوه ثغر مبتسم

* * * *

أتظنُّ أنك مُنقذٌ للكوكب الأرضي جاء؟!
أو أنت شُرطيُّ العباد وكُلُّهم
رهنُ الإشارة
كَذِبٌ، هُراء
محضُ ادّعاء
لو كان في الدنيا عدالة
أو كان فيها الحق فوق ضفافها
يُلقي ظلاله
أو رَقَّ فيها الأقوياء لبائسٍ
يرثُون حالَه
لتوجَّهت لبني قُريظة ثعلبَ الصحراء
تُسْمِعُهَا الرسالة
لكنها سوق العمالة
سوقُ النفاق مع الدياثة والنذالة
لكن وعد الله آتٍ لا محالة
فالنصر منتظرٌ رِجالَه
سَيَبِينُ ركبٌ المخلصينَ من الحُثالة
وسَيَعرفُ الناسُ الدقيقَ من النُّخالة





أحمد بن عبد الرحمن الصويان

نعتب كثيراً على بعض إخواننا، ونتهمهم أحياناً بالتعصب والحزبية والجرأة في ردّ الحق، والتكلف في التماس المعاذير والمسوغات لأنفسهم.

وقد يكون بعض ذلك العتب حقاً، وقد يكون المرء مبالغاً في توصيفه وبيانه أحياناً، ولكن ألم نسأل أنفسنا يوماً: ما أسباب ذلك..؟! وهل لنا دور في ترسيخه وإثارته..؟!

إنَّ الحق - ولله الحمد - واضح بيِّن، ولكن قد تخفى بعض معالمه على بعض الناس، وقد تلتبس بعض فصوله على آخرين، وهذه سُنَّة قديمة لا يسلم منها كثير من الناس، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مُشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس»[1].

وقد يسعى أحدنا إلى بيان الحق وإبراز دلائله وبراهينه، ويرد على مخالفيه ويفنِّد حججهم ومآخذهم في تبنِّيه، ولكنه يستعلي عليهم، ويُسفِّه آراءهم، ويزدري اجتهادهم، وقد يتعرض لأشياخهم وأئمتهم بالهمز واللمز، ويخلط كلامه بشيء من السخرية والاستخفاف والتعيير. وربما ظنَّ المرء أنه نصر الحق بذلك، وأقام الحجة على المخالفين، ولم يصبح أمامهم إلا قبول رأيه والتراجع عن آرائهم، ولكنه يفاجأ بأنَّهم لم يحفلوا برأيه، ولم يتراجعوا عن مواقفهم، فيعمد إلى اتهامهم بالتعصب والحزبية، وقد يتشنج في نقدهم وبيان أخطائهم، ونسي أن: «الحق يُصرع إذا عُمِد إلى إظهاره بالسباب والشتائم»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري في الإيمان (١/١٢٦) رقم (٥٢)، ومسلم في المساقاة (٣/١٢١٩) رقم (١٥٩٩).

(٢) من كلام القاسمي، عن كتاب: (جمال الدين القاسمي) (ص ٤٣) تأليف ظافر القاسمي.



إن أسلوب الاستخفاف بالمخالف والقسوة المفرطة في تعنيفه وتخطئته قد يستفزه، ويستثيره للمعاندة، ويجره للمكابرة والتعصب، وقد تأخذه العزة بالإثم؛ فيزداد إصراره وتمسكه برأيه واعتداده بطريقته ومنهجه، وقديماً قال الغزالي: «أكثر الجهالات إنَّما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من أهل الحق أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلال، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها»[1].

وقال الإمام الشاطبي: «الطعنُ في مساق الترجيح يبين العناد - أي يثيره - من أهل المذهب المطعون عليه، ويزيد في دواعي التمادي والإصرار على ما هم عليه؛ لأن الذي غُضَّ من جانبه مع اعتقاده خلاف ذلك حقيق بأن يتعصب لما هو عليه ويظهر محاسنه، فلا يكون للترجيح المسوق هذا المساق فائدة زائدة على الإغراء بالتزام المذهب وإن كان مرجوحاً؛ فإن الترجيح لم يحصل»[2].

إننا بهذا الأسلوب نضع سياجاً متيناً، ونحفر خندقاً عميقاً يحول بيننا وبين إخواننا ممَّن نرجو استقامتهم وصلاحهم على الطريق؛ وبيان الحق من أوجب الواجبات، ولا يجوز السكوت عنه على حساب أحدٍ كائناً من كان، ولكن الهدف من بيانه هو نصح الأمة، والرغبة الصادقة في صلاحها ونجاتها، والواجب أن يتلمس المرء أسلم السبل التي توصل إلى المقصود؛ ولهذا لمَّا أمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ بالبلاغ أمره بأن يكون بلاغاً مبيناً، فقال - عز وجل -: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [**النحل**: ٨٢]. ولهذا كان من شمائل النبي المصطفى ﷺ: أنه رؤوف رحيم، قال الله - تعالى -: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [**آل عمران**: ١٥٩]. وانظر إلى ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد فتناوله الناس - وفي رواية للبخاري: فثار إليه الناس ليقعوا به - فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه، وهَرِيقوا على بوله سَجْلاً من ماء؛ فإنَّما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»[3]، ونظائر هذا الأدب النبوي الرفيع كثيرة جداً، وها هي ذي عائشة - رضي الله عنها - تصف خلق النبي ﷺ وصفاً جامعاً فتقول: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحِّشاً، ولا سَخَّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[4].

---

(١) الاعتصام للشاطبي (٢/٢٣٠).

(٢) الموافقات (٤/٢٦٣ - ٢٦٤).

(٣) أخرجه: البخاري في الوضوء (١/٣٢٣) رقم (٢٢٠)، وفي الأدب (١٠/٢٥٢) رقم (٦١٢٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/١٧٤، ٢٣٦، ٢٤٦)، والترمذي في البر والصلة (٤/٣٦٩)، وقال: حسن صحيح. وإسناده صحيح.



أصول وضوابط في دراسة السيرة النبوية الشريفة

عبد اللطيف بن محمد الحسن

يكفي دلالة على القناعة بأهمية دراسة السيرة تلك الكتابات المتكاثرة التي تحاول الإفادة من السيرة بأكثر من صورة. ولِمَا لمنهج الكاتب من تأثير في كتاباته فإن من المهم السعي إلى تحديد أطر منهجية ضابطة للدراسة والكتابة. وهذه محاولة لرسم بعض المعالم والضوابط أرجو بها النفع، وأن تتبعها دراسات أكثر نضجاً من ذوي الاهتمام والاختصاص[١].

أولاً: فهم حقيقة الإسلام ومنهجه المتكامل:

يكتسب هذا القيد مكانته من جهة عجز من يفتقده عن قراءة أحداث السيرة قراءة موضوعية تمكنه من سلامة فهم الأحداث، وتقصِّي أسبابها، ومعرفة دوافعها، وتفسيرها بما يتفق مع روح الإسلام. فمن المهم «أن يُعنى بالجانب التشريعي الذي يحتكم إليه المجتمع، وتوضح الضوابط الخلقية والقانونية التي تحكم حركة الأفراد والمجتمعات، ولا يمكن الفصل بين الجانب السياسي والعسكري، والجانب الخلقي والتشريعي، خاصة في القرون الأولى من تاريخ الإسلام؛ حيث تتشابك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بالعقيدة تشابكاً وثيقاً بحيث يصعب فهم حركة التاريخ في تلك المرحلة دون فهم روح الإسلام ومبادئه»[٢].

إزاء هذا الضابط نرى أنفسنا أمام خطرين اثنين :

أولهما: افتقاد بعض الباحثين والدارسين إلى المرجعية الشرعية.

---

(١) طالعت مقدمات عدد من كتب السيرة، حيث لم أجد دراسة مفردة، وقبيل الانتهاء من كتابة الموضوع وجدت مقدمة في السيرة اشتملت على جملة من الضوابط المهمة املاها د. عبد الرحمن المحمود في بعض دروسه العلمية فاستفدت منها كثيراً.

(٢) د. أكرم ضياء العمري، في السيرة النبوية الصحيحة : ١/١٨.



وثانيهما: قراءة السيرة بأنظمة معرفية أخرى: رأسمالية، واشتراكية، وعلمانية، وقومية من الخارج، ومحاولة تقطيعها والانتقاء من أحداثها، وفصلها عن نسقها المعرفي وسياقها ومناسباتها[1].

ونظير هذا: قراءة السيرة بخلفية بدعية صوفية أو رافضية.. ونحوها؛ فالرافضة - مثلاً -: يحللون أحداث السيرة تحليلاً يتسق مع انحرافاتهم العقدية!

ثانياً: ترك المنطق التسويغي:

ينبغي أن تنطلق دراسة السيرة من اليقين بعزة الإسلام وأحقيته في الحكم والسيادة، وأن الله لا يقبل ديناً سواه، وأنه لا يفهم إلا من خلال دراسة السيرة.

ولذا وجب البعد عن الروح الانهزامية في تحرير السيرة وتحليلها، وخاصة في الجهاد.

ومن المواضيع التي ينهزم أمامها التسويغيون ولا يجدون لها مسوِّغاً - على حد زعمهم - مسألة قتل يهود بني قريظة لما قبلوا حكم سعد بن معاذ فيهم - وكان حليفهم في الجاهلية - فحكم فيهم بحكم الله: أن يقتل رجالهم، وتسبى نساؤهم وذراريهم! هنا يصعب الموقف على من في قلبه انهزامية، فيسعى للتشكيك في ثبوت القصة. وهي ثابتة بلا شك[2].

ثالثاً: اعتبار القرآن الكريم مصدراً أولاً في تلقي السيرة وفهمها:

لدراسة السيرة من خلال كتاب الله ميزات عدة، منها:

- أن مدارسته عبادة عظيمة.

- اشتمال القرآن على إشارات تفصيلية لا توجد في مصدر آخر، كما في أحداث زواج زينب - رضي الله عنها -.

- دقة وصفه للأحداث والشخوص، حتى يصور نبضات القلب، وتقاسيم الوجه، وخلجات الفؤاد، وهذه خصيصة تنقل القارئ إلى جو الحدث ليعيش فيه.

- تركيزه على خصائص سيرة النبي ﷺ مثل: كونه بشراً، وأن رسالته عامة، وأنه خاتم النبيين. **ومنها:** ربطه بين قصة الحدث وسيره وبين العقيدة والإيمان والقضاء والقدر.

- بيانه حكمة الحدث ونتائجه وحكمة الله في تقديره، وهو الدرس التربوي المطلوب[3].

وبدراسة السيرة من القرآن يتحول الحدث من قصة في زمان ومكان معينين إلى درس كبير متكامل يتعدى ظروفهما.. يُتلى إلى قيام الساعة[4].

إن من يعيش السيرة من خلال القرآن - وصحيح السنة - لا تعود السيرة في حسه مجرد أحداث ووقائع،

---

(١) انظر: مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحماية والحذر، ص ٢٥، ٢٦.

(٢) مقدمة في السيرة، د. المحمود.. والقصة أخرجها مسلم، ح/ ١٧٦٦.

(٣) انظر. كيف نكتب التاريخ الإسلامي، محمد قطب ٨١.

(٤) مقدمة في السيرة النبوية، د. عبد الرحمن المحمود. (مخطوط).



وإنما تصير شيئاً تتنامى معه مشاعره الإيمانية تجاه الجماعة المؤمنة، ووعيه الإيماني بالسنن الربانية[1]. ومع أهمية هذا النوع من الدراسة فإنه لم يلق بعدُ اهتماماً يتناسب معه[2].

رابعاً: تمحيص الصحيح من الأخبار فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة:

الناس في اشتراط تمييز الصحيح من الضعيف في روايات السيرة على قولين مشهورين:

الأول: من لم يشترط التمحيص وأجاز إيراد كل مرويات السيرة، واحتج بأن كَتَبَة السيرة لم يعتمدوه ولم يحرصوا عليه. واستدلوا بما اشتهر عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه قال: «ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير»[3]. ويمكن نقاش دليلهم واستدلالهم من أوجه[4]:

أ- أن ثبوت هذه المقولة عن الإمام أحمد موضع نظر[5]، ومن ذا الذي يقول: إنه لا يثبت شيء في مغازي المسلمين؟ فأين ما في الصحاح والسنن، وأين ما ذكره الإمام أحمد نفسه في مسنده؟

ب - وفي حال ثبوت الرواية فإنه لم يقل: لم يصح فيها شيء، ولكن قال: ليس لها أصول. وقوله: ثلاثة كُتُب يدل على أن مراده: «كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها، ولا موثوق بصحتها؛ لسوء أحوال مصنفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القُصَّاص فيها»[6].

ج - أنه حتى لو نفى الصحة عنها فإن نفيها لا ينفي الحُسْن، ولا يستلزم الضعف أو الوضع.

د - يحمل قوله على الحال الغالب؛ فإن هذه الفنون غالب رواياتها ليس لها أسانيد متصلة[7].

أما القول الثاني: فيمثله د. أكرم العمري؛ حيث يقول: «المطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها، ثم الحسنة، ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام... وعند التعارض يقدم الأقوى دائماً.. أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي؛ لأن القاعدة: «التشدد فيما يتعلق بالعقيدة أو الشريعة»[8]. ولا يخفى أن عصر السيرة النبوية والخلافة الراشدة مليء بالسوابق الفقهية، والخلفاء الراشدون كانوا يجتهدون في تسيير دفة الحياة وفق تعاليم الإسلام؛ فهم موضع اقتداء ومتابعة فيما استنبطوا من أحكام ونظم لأقضية استجدت بعد توسع الدولة الإسلامية على إثر الفتوح.

---

(١) انظر: كيف نكتب التاريخ الإسلامي، لمحمد قطب: ٨١.

(٢) كتاب: السيرة في القرآن، لمحمد عزة دروزة، في مجلدين كبيرين، وحيد في بابه، ولا يخلو من ملاحظات، فلا يزال المجال شاغراً.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع، الجزء الثامن (٢/ ٢٢٤).

(٤) انظر: السنة ومكانتها في التشريع، للسباعي: ٣٤٤.

(٥) في إسنادها . محمد بن سعيد الحراني، قال ابن حجر: شيخ (التقريب: ٨٤٨)، وقال النسائي: لا أدري ما هو (التهذيب ٥/١١٣) «فروايته لا يحتج بها، وإنما تكتب للاعتبار، وذلك إشعار ضعف» (مرويات غزوة بدر، باوزير: ٣٤).

(٦) الجامع للخطيب ٢/٢٢٤.

(٧) انظر: فتاوى ابن تيمية: ١٣/ ٣٤٦، والبرهان للزركشي: ٢/ ٦٥١، والإتقان للسيوطي: ٢/ ٢٢٨.

(٨) ولا يفهم من هذا رد أحاديث الآحاد في باب الاعتقاد فهو خلاف منهج أهل السنة، مقدمة في السيرة، د. المحمود.



أما الروايات التاريخية المتعلقة بالعمران: كتخطيط المدن، وزيادة الأبنية، وشق الترع.. أو المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها»[(١)].

وهذا هو المنهج المعتبر عند الأئمة المحققين، يشهد به صنيع الذهبي في (تاريخ الإسلام)، وابن سيد الناس في (عيون الأثر)[(٢)]، وابن حجر في (الفتح)[(٣)]، وكذلك ابن القيم وابن كثير.

أما ما يؤخذ من الروايات التاريخية فهو ما اتفق عليه الإخباريون[(٤)]. أما اشتراط الصحة في كل خبر تاريخي ـ والذي مشى عليه بعض المؤلفين في السيرة فاختزلوا كثيراً من أحداثها ـ فإن ذلك يترتب عليه تضييع ثروة علمية كبرى، وإهدار الاستفادة منها في مجالات تربوية وإدارية.. ونحوها؛ حيث تضعف الثقة في كل ما استنبط منها[(٥)].

يبقى: كيف تدوّن السيرة على ضوء المنهج السابق: هل تذكر كل الأحاديث بنصوصها، أم يجمع بين الروايات في سياق واحد؟

الظاهر: هو الطريق الثاني؛ تحاشياً لتشوش القارئ، وتشتت ذهنه بانقطاع الأحداث، وتكرر بعضها، وعدم وضوح صورة متسلسلة متكاملة للسيرة، ثم إنه صنيع الزهري في روايته لحادثة الإفك التي رواها مسلم عنه[(٦)].

خامساً: معرفة حدود العقل في قبول النصوص وردها:

يرى العديد من الدارسين ـ وخاصة من المستشرقين ـ أن علماء المسلمين أهملوا نقد المتون، وأن ذلك لغياب عقليتهم النقدية. وهذا مردود، وهذه بعض أمثلة لمحاكمات تاريخية مستندة إلى نقد المتن:

١ـ رفض ابن حزم العدد المذكور عن عدد جند المسلمين في أُحُد؛ بناء على محاكمة المتن وفق أقيسة عقلية بحتة.

٢ـ قدّم موسى بن عقبة غزوة بني المصطلق إلى السنة الرابعة ـ خلافاً للأكثرين الذين جعلوها في السنة السادسة ـ؛ لاشتراك سعد بن معاذ فيها، وهو متوفى عقب بني قريظة وهي في السنة الرابعة. وتابعه على تقديم تاريخها ابن القيم والذهبي.

٣ـ أخّر البخاري غزوة ذات الرقاع إلى ما بعد خيبر؛ نظراً لاشتراك أبي موسى الأشعري وأبي هريرة فيها، وقد قدما بعد خيبر، وتابعه على تأخيرها ابن القيم وابن كثير وابن حجر، خلافاً لرأي ابن إسحاق والواقدي في تقديمها.

---

(١) السيرة، للعمري: ١/٤٠، وانظر التزامه هذا المنهج في مقدمته، ص ١٩.

(٢) السابق: ١/٤١.

(٣) انظر: تحقيق مواقف الصحابة، لامحزون: ١/٩٨ ـ ١٠٠.

(٤) العمري، مصدر سابق: ١/٢٠.

(٥) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، ١/ ٢٨ـ ٣٥.

(٦) انظر: صحيح مسلم، ح/ ٢٧٧٠، شرح النووي، ١٧/١٥٦.

٤- الخلاف حول تشريع صلاة الخوف معظمه مبني على محاكمة المتن.

والأمثلة كثيرة؛ ولكن من المهم أن يقال: إن حفظ الروايات قد استنفد طاقة الأوائل، وأتى بعدهم من لخّص وذيّل عليها وانتقى منها، وهذا عمل نقدي. وفي مؤلفات متأخرة تَبْرُزُ محاكمات دقيقة للمتون، كما في: البداية والنهاية، وفتح الباري، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «الأحاديث التي ينقلها كثير من الجهال لا ضابط لها، لكن منها ما يعرف كذبه بالعقل، ومنها ما يعرف كذبه بالعادة، ومنها ما يعرف كذبه بأنه خلاف ما علم بالنقل الصحيح، ومنها ما يعرف كذبه بطرق أخرى»(١).

كما يحسب في عداد تقويم العقلية النقدية لدى المسلمين خدمتهم لنصوص أحاديث الأحكام خدمة بالغة، وجهودهم في كتب أصول الفقه التي تنبئ عن عقلية فذة. وإذا علمنا أن للمؤرخين القدامى كتباً في فنون أخرى لم يجز لنا أن نتهمهم بإهمال المتون، كما يجب مراعاة عنصر الزمن، فلا تقوّم جهودهم بمقاييس أنجزها التقدم العلمي اليوم؛ لئلا يُغمطوا حقهم.

على أن علم مصطلح الحديث قد اشتمل على مباحث تشكل الجانب النظري لنقد المتون، ولكن القصور حصل في تطبيق ذلك على الرواية التاريخية، فلم تحظ بما حظيت به الأحاديث النبوية من العناية(٢).

لقد انزلق المطالبون بنقد المتون؛ حيث أجروا أحكام العقل في المتون الثابتة، وجعلوا ذلك أساساً للرد والقبول، وذلك أمر تتفاوت فيه العقول، وإنما يجيء الإشكال من جهة قصور العقل عن إدراك الخطاب للتوفيق بينه وبين النصوص الأخرى.

وربما يُثبت من لم يلتزم منهج المحدثين حديثاً واهياً لصحة معناه، وقد يردُّ رواية الشيخين لظنه تعارضها مع مبادئ الإسلام وقواعده، وهذا تحكيم ضعيف للعقل(٣).

ومما وقعوا فيه خلال دراسة السيرة نفي المعجزات الثابتة بالنقل الصحيح، وهو في حقيقته انصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية، مع أن المسلم لا بد له من الاعتزاز الذي يحقق له الاستقلال التام في النظر والبحث العلمي(٤).

---

(١) منهاج السنة النبوية، ٨/١٠٥، ولابن تيمية قاعدة للتمييز بين الصدق والكذب في المنقولات في غاية الأهمية تجدها في منهاج السنة، ٧/٣٤ ـ ٤٣، ٧/ ٤١٩ ـ ٤٧٩، وقد أنشأ (صادق عرجون) في كتابه: (خالد بن الوليد) نموذجاً محسوساً لمنهج النقد التاريخي جدير بالمطالعة. وقد ناقش فيه عدداً من الحوادث التي اضطربت فيها الروايات والآراء مناقشة عقلية، وحاكمها محاكمة دقيقة. انظر مثلاً: ص: ٢٦٥ ـ ٢٧٩.

(٢) د. العمري: ١/١٢ـ١٧.

(٣) ولقد رد الغزالي في (فقه السيرة ص: ١٠) رواية البخاري في أن النبي ﷺ غزا بني المصطلق وهم غارُّون، بناءاً على أنه لا تجوز مباغته العدو إلا بعد إنذاره، مع أنه يجوز ذلك مع من بلغتهم الدعوة. انظر: مناقشة لطيفة لرأيه في: أضواء على دراسة السيرة، للشامي: ٤٤- ٤٦.

(٤) د. العمري، مصدر سابق: ١/١٧.

سادساً: فهم العربية ومعرفة أساليبها:

«امتاز التأليف في العصور الأولى بقوة الأسلوب وفحولة المعاني وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة والتزام أساليب العرب ومذاهبهم في البيان»[1] فدعت الحاجة لدارس السيرة إلى حسن فهم العربية وأساليبها؛ ليحسن التعامل مع روايات السيرة؛ إذ المطلوب في فهمها والاستنباط منها أن يتم وفق قواعد العربية وأساليبها دون تعسف أو تمحُّل في التفسير[2].

سابعاً: الالتزام بالمصطلحات الشرعية:

قسم الله ـ تبارك وتعالى ـ الناس ثلاثة أقسام: مؤمناً، وكافراً، ومنافقاً ـ كما في صدر سورة البقرة ـ وجعلهم حزبين: أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، فالواجب الالتزام بهذه التسميات، وعدم العدول عنها إلى مثل: يميني، يساري[3]، ليبرالي... إلا عند الحاجة للتعريف باتجاهات بعض الأفراد الذين يترتب على معرفة ذلك منهم مصلحة، مع الحرص على التحديد ما أمكن.

وفائدة التحديد في تقليل التمييع والتضليل الذي يسعى إليه المفسدون وأشياعهم؛ حيث يحرصون على التعمية وتجاهل الأسماء الشرعية التي يترتب عليها أحكام، وتستلزم ولاءاً أو براءاً.

ثامناً: صدق العاطفة:

من أسس الكتابة في السيرة ودراستها توفر المحبة الصادقة لصاحبها ﷺ والعاطفة الحية التي تُشعر بمدى الارتباط الحقيقي قلباً وقالباً، والتفاعل الحقيقي مع أحداث سيرته[4].

ولقد عبر الشيخ محمد الغزالي عن عاطفته الجياشة فقال في مقدمة فقه السيرة[5]: «إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده، أو تابع عن سيده، أو تلميذ عن أستاذه، ولست ـ كما قلت ـ مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه». ودراسة السيرة تعبُّداً لله وتقرباً إليه تنمي ذلك الحب، وتسقي تلك العاطفة.

تاسعاً: الوفاء بحقوق المصطفى ﷺ دون غلو ولا جفاء:

ينأى عن سنة النبي ﷺ ومنهج سلف الأمة في دراسة السيرة فريقان[6]:

١ - قوم قصَّروا في حق النبي ﷺ وما يجب له من الإجلال والتوقير والتعظيم، فدرسوا سيرته كما يدرسون سائر الشخصيات الأخرى، فنظروا لجوانب العظمة البشرية والقيادة والعبقرية والبطولة والملك والإصلاح الاجتماعي، مغفلين الجانب الأعلى في حياته، وهو تشرفه بوحي الله ـ عز وجل ـ وختم النبوة والرسالة. ولهؤلاء يحسن سياق خبر أبي سفيان يوم فتح مكة؛ حيث قال للعباس لما رأى كتائب الصحابة

---

(١) أبو شهبة، في السيرة النبوية: ١/٢٦.

(٢) انظر: صنيع د. العمري في السيرة: ١/٢٠.

(٣) مقدمة في السيرة، د. المحمود.

(٤) انظر أضواء، للشامي، ٣٦.

(٥) فقه السيرة، ص ٥.

(٦) انظر: محمد رسول الله ﷺ، مدخل لدراسة السيرة النبوية، د. محمد الغمراوي، ص ١٥.



ـ رضي الله عنهم ـ : والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم لعظيماً ، فقال العباس : ويحك يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً[1].

٢ ـ وآخرون بالغوا في التعظيم وغلوا في منزلة الرسول ﷺ ، فلم يَرُقْ لهم وصفه بالبشرية ، بل ربما خطر لبعضهم أنه ضرب من الجفاء! مع أن كونه ﷺ بشراً عبداً لله ـ عز وجل ـ من مسلَّمات العقيدة ، وخلافه ضرب من الضلال ؛ فقد قال ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »[2].

فالحق وسط بين الطرفين ؛ ولدراسة السيرة انطلاقاً من ذلك أثر كبير في العقيدة والعبادة والسلوك والدعوة والتأسي والاقتداء .

عاشراً : تحديد هدف الكتابة والشريحة المخاطبة بها :

على كاتب السيرة معرفة الشريحة المراد مخاطبتها ، وفهم الأسلوب المناسب الذي تؤدى به .

وعليه كذلك أن يعيِّن غرضه من الكتابة ، وماذا يريد من : معالجة جديدة ، أو طرح للأحداث بأسلوب جديد ، أو تعليل لقضايا منغلقة ، أو تركيز على أحداث أغفلها الكُتَّاب[3].

فمثلاً المرحلة المكية مرحلة تربوية خصبة كتبت فيها كثير من الكتابات ، ولا تزال بحاجة إلى بسط في بعض جوانبها وزواياها ، ومن ذلك :

١- موقف الجاهلية من الدعوة والمؤمنين بها ؛ فأعداء الدعوة ليسوا قريشاً وحدهم ، بل كل الجاهلية .. ثقيف وهوازن وغيرهما . وإنما برزت قريش ؛ لأنهم عشيرته ﷺ الأقربون ، ولكن تخصيصهم بالحديث يوحي بمحلية الدعوة ، وهو خطأ جسيم .

٢- موقف المؤمنين من الاضطهاد ، بالمقارنة بين حالهم قبل الإسلام وبعده ، وكيف صنعهم الإسلام حتى هان على المؤمنين من العقوبات ما كان أخفه هو غاية التهديد في الجاهلية كالطرد من القبيلة ـ مثلاً ـ .

٣ ـ الدور التربوي العظيم لدار الأرقم ـ مدرسة المؤمنين السابقين الأولين ـ ، والمؤسف أن الأخبار عنها قليلة ، مع أنها تميزت بإعطاء منهج تربوي متكامل[4] . ولعل من الكتب المفيدة في دراسة المرحلة المكية : في ظلال القرآن ، لسيد قطب ـ رحمه الله ـ [5].

حادي عشر : العناية بتحليل الأحداث والتعليق والموازنة :

بذل العلماء المتقدمون جهوداً مضنية في حفظ العلم وروايته أشغلتهم ـ في بعض الأحيان ـ عن العناية بتحليل الأخبار ودراستها والنظر في أسباب الأحداث وملابساتها .

---

(١) ذكره ابن حجر في المطالب العالية المسندة : ٤/٤٢٠ (ح ٤٣٠٣) وقال : هذا حديث صحيح .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء ، ح/ ٣٤٤٥ ، (فتح ٦/ ٥٥١) .

(٣) انظر أضواء ، للشامي : ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) انظر : محمد قطب ، مصدر سابق : ٥٩ ـ ٧٢ .

(٥) انظر : الشامي : مصدر سابق : ٣٩ .

وفي عصور الضعف لم يأخذ جانب التحليل والدراسة حقه؛ «بسبب النظرة التجزيئية للقضايا، والسطحية في التعامل مع الروايات، وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ ودور الفرد والجماعة، والعلاقة الجدلية بين القدر والحرية وقانون السببية في الربط بين المقدمات والنتائج.

فضلاً عن أن الكتب التاريخية القديمة لا تمدنا بمنحى واضح في التحليل والتصور الكلي؛ بسبب اعتمادها على سرد الروايات فقط؛ إذ قلَّما يشير المؤرخ الإسلامي القديم إلى السنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ، رغم أن القرآن الكريم لفت نظر المسلمين إلى ذلك كله بوضوح، بل إن أحداً من مؤرخي الإسلام لم يحاول إعادة صياغة النظرة القرآنية للتاريخ وتقديم الوقائع والتطبيقات والشواهد القرآنية عليها بشكل نظريات كلية حتى وقت متأخر عندما كتب ابن خلدون مقدمته»[(١)].

ولغياب النظرة التحليلية في دراسة السيرة فقد غلب عليها الطابع التسجيلي السردي الذي يحاول إثبات الوقائع ووصف تطور الأحداث وتقرير النتائج دون الالتفات إلى المقدمات ومحاولة اكتشاف المنهج الذي يُسَيِّرها. ومع أن الدراسات شملت وصفاً دقيقاً لكل أحوال النبي ﷺ وأفعاله وكل ما يتصل به.. إلا أن الحديث عن المعجزات والمؤيدات الغيبية كان على حساب سنن عالم الشهادة التي يتحرك في إطارها ويصنع الأحداث ويحقق النتائج[(٢)].

«الحق أن المحدِّثين في باب التحليل والتعليق والموازنة بين المواقف قد أرْبوا على المتقدمين، وأكسبوا السيرة جدة ورواءاً، وقد تفاوتوا في ذلك على حسب تفاوتهم في المراتب، وسعة العلم والأفق، والاطلاع على سير الآخرين»[(٣)]. ولكن غالب هذه الدراسات قد ركز على جانب إثبات النبوة، وإبراز الخصائص. وهو أمر له مسوِّغه الظرفي في الصراع مع المخالفين. واهتم جزء آخر باستخراج الأحكام والتوجيهات والفوائد، واهتم آخرون بالتفسير الحركي لتسويغ بعض مواقف الحركة الإسلامية المعاصرة.

ثاني عشر: الاهتمام بتحرير المنهج النبوي في سائر المجالات:

بقيت العناية بالمنهج قليلة، مع أنه بإمكان النظرة الشمولية لهذه الجهود العلمية الضخمة ـ الآنفة الذكر ـ أن تستخلص البنية الهيكلية العامة للمنهج النبوي في نواحيه المختلفة[(٤)].

نعم.. إن استخلاص المنهج مطلب ضروري، بيد أنه ليس بالأمر اليسير، خلافاً لما قد يتوهمه بعضهم حين ظنوا أن (المنهج النبوي) على طرف الثمام، وأن نظرة عجلى على السيرة العطرة، أو جزء من السنة المطهرة، أو انتقاء مقاطع من هنا أو هناك كافية للإحاطة بهذا المنهج الفذ، وبناء حتميات تاريخية على تلك الأفهام العجلة. وتصوُّر بعضٍ أن بالإمكان إعادة إنتاج العهدين المكي والمدني، أو تمثيلهما في أي واقع يُعَدُّ مجازفة كبيرة...

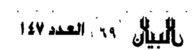
---

(١) د. العمري، في السيرة: ١/١٤ ـ١٥.

(٢) الطيب برغوث، في منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة: ٤٥.

(٣) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية: ١/١٧.

(٤) انظر: الطيب برغوث، مصدر سابق.



إن المنهج حين يطلق في إطار معرفي إنما يراد به قانون ناظم ضابط يقنن الفكر ويضبط المعرفة التي إن لم يضبطها المنهج فقد تتحول إلى مجرد خطرات انتقائية - مهما كانت أهميتها - لا يمكن تحويلها إلى ضوابط فكرية وقوانين معرفية تنتج الأفكار وتولد المعارف وتضبط حركاتها وتميز بينها؛ فبالمنهج يمكن أن نحدد طبيعة المعرفة وقيمتها وحقل عملها واتجاهها وكيفية البناء عليها والتوليد منها...

إن أي فكر تتضارب مقولاته وتتناقض لا يعتبر فكراً منهجياً حتى لو تمكن أصحابه من تقديم مختلف التأويلات التوفيقية: كالتأويل، والمقاربة، والتلفيق، وغيرها. ولذلك فإن إطلاق مصطلح: (منهج النبي ﷺ) و (المنهج الإسلامي) على ما يصل الباحثون إليه باجتهاد شخصي أو فردي لا بد أن يُحتاط فيه، كأن يقال: على ما نراه، أو على ما توصلنا إليه... الخ»[1].

مطلوب - اليوم أكثر من أي وقت مضى - قراءة السيرة ودراستها دراسة استراتيجية في مختلف الحالات الاجتماعية والتربوية والعلمية والإدارية والسياسية والاقتصادية والحركية والأمنية والثقافية.. ففي السيرة بيان لجميع الحالات أو أصولها؛ خلافاً لصنيع بعض كُتَّاب السيرة حين يصورون حياة النبي ﷺ على أنها صراع وحروب وغزوات وسرايا، ويغفلون عن الجوانب الأخرى[2].

لكن المطلوب: دقة تحليل الواقع المعاش من خلال متخصصين، لا متحمسين فقط، ثم دراسة السيرة وتحليلها، ثم تحديد مواقع الاقتداء من مسيرة السيرة، أو اكتشاف المرحلة من السيرة التي تمثل حالة الاقتداء وكيفيته من خلال ظروف الحال نفسه[3].

ثالث عشر: تحديد هدف الدراسة وهو الاقتداء والتأسي:

من العبث اعتبار سيرة النبي ﷺ، لمجرد التسلية وإبراز عظمة الرجال؛ بل إن سيرته هداية للناس، وترجمة عملية لدين الله - عز وجل - وتصور للإسلام يتجسد في حياة صاحب الرسالة، تطبيقاً للمبادئ والقواعد والأحكام النظرية[4]. ولذا قال الزهري: «في علم المغازي علم الآخرة والأولى»[5].

لمّا وعى الصحابة وسلف الأمة هذا الغرض اكتسبت السيرة في حياتهم مكانة علمية تليق بها وبهم. قال علي بن الحسين: «كنا نتعلم مغازي رسول الله ﷺ كما نتعلم السورة من القرآن»[6]؛ لأنه لا غنى لمن يريد الاقتداء به عن معرفة سيرته. والاقتداء أساس الاهتداء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١][7].

---

(١) طه جابر العلواني، في مقدمته للسابق: ٣٦ - ٣٧.

(٢) من المحاولات الجيدة في هذا الصدد: كتاب منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة، للطيب برغوث، وكتاب في السيرة النبوية.. قراءة لجوانب الحماية والحذر، د. إبراهيم علي.

(٣) انظر: عمر حسنة، مصدر سابق: ٢٧.

(٤) د. محمد سعيد البوطي، في فقه السيرة: ٢١، ٤١.

(٥) أخرجه الخطيب في الجامع، الجزء الثامن ٢٠/ ٢٥٢.

(٦) المصدر السابق.

(٧) انظر كلاماً قيماً لابن القيم في زاد المعاد، ٤/ ٦٩ - ٧٠.

ولكن كيف نتعامل مع السيرة في هذه المرحلة المتغيرة، وكيف يكون الاقتداء؟

الواقع يتغير، ووسائلنا في العمل والاقتداء وقراءة القيم لا تتغير، والسيرة اتخذت لكل حالة ما يناسبها، كما قال النبي ﷺ لعمار بن ياسر ـ حين أكرهه المشركون على سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ـ: «إن عادوا فعد»[1].

آية التأسي نزلت في غزوة الأحزاب لتبين أن تمام الاقتداء إنما يكون في شدة البأس والضيق وفوات الدنيا لمن تعلق بالآخرة، فلا يكون الاقتداء في اليسر دون العسر، ولا في الحاجيات والتحسينيات دون الضروريات من مقاصد الشريعة، وليس المقصود التقليل من شأن الاقتداء في العادات؛ فذلك مهم في صياغة الشخصية المتكاملة.

نزلت آية الأحزاب وقد بلغت القلوب الحناجر، وحين استنجد الصحابة بالرسول ﷺ عندما واجهتهم الصخرة الكبيرة حاول تفتيتها بالمعول طبقاً للسنن الجارية مؤملاً النصر[2].

«فقيمة الاقتداء وعطاؤه وعظيم ثوابه عندما يكون في العزائم والقضايا الكبيرة التي قد يمتحن صاحبها في صدق إيمانه وقوة يقينه، فتفوته بعض النتائج في الدنيا، ويخسر المعركة، لكن الاقتداء يحميه ويحول بينه وبين السقوط، ويرتفع به من الوقوف عند النتائج القريبة إلى إبصار العواقب والمآلات.. ذلك أن مظنة الارتكاز في الاقتداء هي رجاء الله واليوم الآخر واستمرار الذكر الذي يجلّي هذه الحقيقة، ويؤكد حضورها واستمرارها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]»[3].

ولكل مخلص أن يتساءل: ما نصيب السيرة النبوية في المناهج التربوية اليوم؟ وما أثر معرفتها في سلوك العاملين في ميادين الدعوة والتربية والتعليم؟

رابع عشر: معرفة مواضع الاقتداء من فعله ﷺ:

معرفة أحوال أفعاله ﷺ وأقسامها مبحث أصولي يهم دارس السيرة.

وفعله ﷺ لا يخلو إما أن يكون صدر منه بمحض الجِبِلَّة، أو بمحض التشريع، وهذا قد يكون عاماً للأمة، وقد يكون خاصاً به ﷺ، فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الأفعال الجِبِلِّية: كالقيام والقعود والأكل والشرب، فهذا القسم مباح؛ لأن ذلك لم يقصد به التشريع ولم نتعبد به، ولذلك نسب إلى الجِبِلَّة، وهي الخِلْقة.

القسم الثاني: الأفعال الخاصة به ﷺ التي ثبت بالدليل اختصاصه بها كالجمع بين تسع نسوة؛ فهذا القسم يحرم فيه التأسي به.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٣/ ٣٥٨، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي، ٨/٢٠٨، وابن سعد في الطبقات، ٣/٢٤٩.

(٢) كما في الحديث الذي رواه البخاري، ح ٤١٠١ (الفتح ٧/٤٥٦).

(٣) عمر عبيد حسنة، مصدر سابق: ٢٩ ـ ٣٢.



القسم الثالث: الأفعال البيانية التي يقصد بها البيان والتشريع، كأفعال الصلاة والحج، فحكم هذا القسم تابع لما بيَّنه؛ فإن كان المبيّن واجبا كان الفعل المبيّن له واجباً، وإن كان مندوباً فمندوب»[1].

خامس عشر: معرفة كيفية الاستفادة منها في الواقع:

الدراسة المفيدة للسيرة تحصل حين تُدرَس على أنها سنن ربانية يمكن أن تتكرر كلما تكررت ظروفها، ولا تتحقق أبداً حين ننظر للسيرة على أنها مجرد أحداث مفردة قائمة بذاتها حدثت زمن البعثة النبوية... بل هي آيات وعبر في شؤون الحياة كلها، وإلا ضاع رصيدها وقوتها الدافعة لأجيال المسلمين؛ فهي تربط المسلم بالسنن الربانية، وتربط قلبه بالله ـ تعالى ـ[2].

إن كل حركة إصلاح أو تغيير تعجز عن الاستفادة من السيرة في صياغة مناهجها وحل مشكلاتها هي بعيدة عن الاقتداء؛ لأن الواجب تجريد السيرة من قيد الزمان والمكان لتجيب عن أسئلة الواقع ومشكلاته. وهذا النوع من الدراسات قليل جداً؛ إذ جلّ الدراسات لا تعبر عن عصر مؤلفها، ولا تخدم احتياجات واقعه، ولا تطرق مشكلاته.

قد تكون المشكلة كامنة ـ أحياناً ـ في غياب المقاصد الحقيقية التي تمثل معاني الخلود عند دارسي السيرة ـ أي قدرتها على التعامل مع جميع الظروف ـ مما جعلها عند كثيرين تاريخاً لا مصدراً للاهتداء والتشريع. وهي ـ لا شك ـ تاريخ، ولكنها تاريخٌ وحاضر ومستقبل: تاريخٌ زماناً ومكاناً، وحاضرٌ عطاءاً ومصدراً للتشريع، ومستقبلٌ رؤية واستشرافاً. وإذا كان التاريخ مصدراً للدرس والعبرة فالسيرة أوْلى؛ لأنها فترة مسددة بالوحي، وحقبة بيان عملي للدين.

لقد سبب غياب هذا المنطلق إغراقاً في الفقه النظري ـ سواء الذي يسير خلف المجتمع، أو البعيد عن واقعه ـ كما سبب تراجعاً في الفقه التطبيقي (فقه التنزيل) فصارت مشكلات المسلمين تنشد الحل المستورد.

إن مما يؤكد أهمية الانطلاق من ذلك المنطلق حين التعامل مع السيرة ما يشير إليه ترتيب سور القرآن وآياته ـ والسيرة بيان عملي للقرآن ـ فلم يجئ ترتيبه حسب نزوله زماناً ومكاناً؛ لئلا يبقى المتأسي أسير الزمان والمكان الماضيين، بل ليبقى مسخِّراً للزمن متحكِّماً فيه يستطيع تحديد الموقع المناسب للاقتداء من خلال قيم القرآن الكريم ومسيرة السيرة بحسب الظروف والإمكانات وطبيعة أقدار التدين التي تحدد مكان الاقتداء من السيرة... هذا وإلا بقيت السيرة في خانة التبرك والفخر تصاغ في شكل موالد وموائد تشيع فيها البدعة، وتضيع فيها السنَّة، وتضيع معها الأوقات[3].

---

(١) معالم أصول الفقه عند أهل السنة، محمد الجيزاني: ١٢٧ ـ ١٣٢. وفي تفصيل الموضوع رسالة قيمة في أفعال الرسول، د. محمد الأشقر. وانظر: أفعال الرسول، للعروسي.

(٢) انظر: كيف نكتب التاريخ الإسلامي، محمد قطب: ٨١.

(٣) انظر: عمر عبيد حسنة، مصدر سابق: ٢١ ـ ٢٣، ٢٨ ـ ٢٩.



وفي سيرة سلفنا إضاءات للمستنيرين بنورها، فهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يقاتل مانعي الزكاة، ويقول لعمر بن الخطاب لما حاول تأجيل قتالهم: «أجبّار في الجاهلية، وخوّار في الإسلام؟! إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أو ينقص وأنا حي؟!»[١]، فلم يتقيد بقيد الزمان، - وهو ما قبل فرضية الزكاة في صدر الدعوة -. ولذا فإن من الخطأ أن نريد إعادة مراحل السيرة التي كانت قبل اكتمال شرائع الإسلام، فنكتفي ببعضها ردحاً من الزمن، ونحمل الناس على شيء من الدين مرحلة من الزمن[٢] فذلك «تبسيط شديد للأمور من ناحية، وتجاوز لتحليل ومعرفة أهم الأبعاد التي غابت عن محاولات التغيير، وأدت إلى تراجعها»[٣].

ولكي يتضح جانب التبسيط فإنه يُرَدُّ على من أراد تقييد الإفادة من السيرة بالزمان بتقييدها بالمكان! فهل يطيقه؟

ولا بد أن نلاحظ - حال الإفادة من معطيات السيرة - أنه لا يمكن أن تُنتِج الوسائلُ والتصرفات التي استعملها رسول الله ﷺ النتائج نفسها إذا استعملها سواه؛ لاختصاص الرسول ﷺ بالوحي والتسديد من الله - عز وجل -[٤].

ولذا، فإنه تبقى للسيرة النبوية صفة المعيارية الخالدة في الإطار العملي التطبيقي، وليس ذلك أبداً لممارسات أحد غيره - كائناً من كان -، فلا يجوز إسقاط السيرة على تصرفات بعض الأفراد أو الجماعات لتسويغ بعض الممارسات وإكسابها المشروعية، سواء قبل التصرف أو بعده، وسواء في ذلك القراءات الحركية أو العسكرية أو الأمنية أو الاقتصادية أو التربوية ما دامت فصّلت حوادثها على تصرفات معينة، والتي لا يمكن أبداً أن تكون معياراً، بل هي في الحقيقة صفحة من التاريخ تفيد الدرس والعبرة[٥].

وفي الختام: لعل فيما سبق من الضوابط محاولة لرسم معالم في كتابة السيرة ودراستها؛ والمرجو أن تبعث لدى المهتمين المبادرة بنقدها وتقويمها، والسعي لتحرير منهج علمي متين في دراسة سيرة الهادي ﷺ.

---

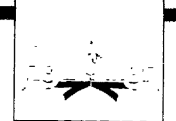
(١) ذكره أحمد بن عبد الله الطبري في الرياض النضرة في مناقب العشرة، ٢/٤٥، ١/٤٥١، وقال: «خرجه النسائي بهذا اللفظ، ومعناه في الصحيحين»، ولم أقف عليه.

(٢) مقدمة في السيرة، د. المحمود.

(٣) طه العلواني، مصدر سابق، ٢٧، ٢٨.

(٤) انظر: السابق، ٢٦.

(٥) انظر: عمر عبيد حسنة، مصدر سابق: ٢٤ - ٢٥.



حوار مع د. سليمان الخطيب

أجرى الحوار : وائل عبد الغني

نبذة عن الضيف:

* **العمل:** في (قسم الفلسفة الإسلامية) جامعة المنيا، ومعار إلى جامعة الملك خالد بأبها : (فرع جامعة الإمام محمد بن سعود سابقاً).

* **حاضَر في عدد من الجامعات العربية:** كجامعة الإمام عبد القادر بالجزائر، وجامعة صنعاء باليمن.

أهم المؤلفات:

- أسس مفهوم الحضارة في الإسلام (رسالة ماجستير).
- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (رسالة دكتوراه).
- التغريب والمأزق الحضاري.
- الدين والحضارة في فكر الطهطاوي (دراسة نقدية).
- فكرة التاريخ بين السخاوي والكافيجي.
- مفهوم التاريخ عند المقريزي.

نرحب بضيفنا الكريم، ونستهل هذا الحوار ـ بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه ـ بسؤال :

● **حول أهمية الجانب الحضاري للإسلام في هذا العصر، ولماذا هو حتى الآن مجرد فكرة؟**

■ تفعيل دور الجانب الحضاري للإسلام أصبح لازمة لا بد أن نتوقف عندها كثيراً ونحن في سياق إعادة صياغة أدواتنا ووسائلنا الفكرية؛ ونظراً لأن الحضارة فكر جامع يعبر عن شخصية، وهوية، وكلٌّ لا يتجزأ له خصوصيته؛ فلا بد من أن نستجليها في كافة مناحي فكرنا ووسائلنا ومناشطنا، ولأن

الفعل الحضاري الإسلامي فعل تعبدي وليس ترفا فكرياً، وليس ثقافة يمكن اختزالها أو أخذ بعضها وترك بعض، ولا يخضع للنسبية الفكرية التي تميز الخطاب الغربي؛ ولكنه فعل نابع من شمولية الإسلام، وإنسانيته، وعالميته، وعمقه، وتوازنه؛ لأن الخطاب القرآني لا يغيِّب عنصرا من عناصر النشاط الإنساني، بل هو متميز بأنه يرعى النمو الإنساني على كل المستويات: الروحية، والأخلاقية، والطبيعية، والعلمية.

ونظراً للفوضى المنهجية التي تسيطر على مجمل الإطار الدعوي والفكري الإسلامي المعاصر، والتي من أهم جوانبها غياب وحدة الهدف ووحدة المنطلق وهو ما يعني تشرذم الجهود وتبعثرها وعدم تراكم الجهود وبنائيتها وفق شمولية الكتاب والسنة ـ نظراً لكل ذلك تبرز أهمية هذا الجانب.

والمشكلة في بعض جزئياتها تكمن في أن بعض من يتصدى لطرح قضية الإسلام لم يدرك شموليته وتوازنه؛ فاختزله في محيط اهتماماته هو، بينما نحَّت الهزيمة النفسية والفكرية بعضاً آخر فرأى الإسلام محصوراً في زوايا التعبد.

ولكن المتأمل للقرآن والسنة يجد أنهما حثا على الفعل الحضاري واعتبراه فعلاً تعبدياً عن طريق مصطلحات التسخير والاستخلاف والتمكين، وهذا ليس بمعزل عن الواقع؛ فقد أقام الإسلام حضارة اعترف بها القاصي والداني وقدمت للغرب بواكير نهضته، ونحن بأمس الحاجة اليوم إلى إعادة التوازن لهذا الجانب بين تعاليمَ تحث عليه وتجربة تاريخية تملك مصداقيتها، وبين خواء سياسي وفكري وحضاري.

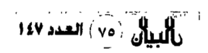
● **هذا يدفعنا للسؤال عن دور العقول المفكرة في الأمة: كيف توجَّه؟ وكيف تمارس فاعليتها في بناء كيان حضاريٍّ عصريٍّ له خصوصياته؟**

■ لا بد من إعادة النظر في الأدوات والأساليب المستخدمة لتبليغ الخطاب الإسلامي في واقع الأمة المعاصر سواء كان ذلك من خلال المؤسسات التربوية والجامعية أو المراكز البحثية أو الإعلام بصوره المختلفة.

الخطاب الدعوي يغلب فيه الجانب الوعظي على الجانب العلمي، وهذا يعكس جانباً من الضعف الإبداعي لعقولنا المفكرة التي تملك بمنهجها الصافي ـ لو أرادت ـ أن تقود حضارة العصر برغم تحديها التقني ومنهجيتها الصارمة وروحها المنطقة.

● **ولكن هل من نماذج للأدوات والأساليب التي يمكن أن تُفَعِّل الدور الحضاري للأمة؟**

■ أولاً: لا بد من ضبط منهجي للمرجعية الحضارية من حيث الأصول والثوابت التي تمكن العقل



المسلم من الاندفاع نحو التأثير والبناء متجاوزاً المفاهيم المتجزئة والجهود المبعثرة.

- ثم ترسيخ المفهوم التعبدي للفعل الحضاري بمعنى: أن بناء الحضارة فعلٌ تعبديٌّ وليس مجرد ترف فكري، أو مجرد خيار؛ بحيث يصبح العقل المسلم يتعامل مع الطرح الحضاري على أنه لازمة عقدية تفرض نفسها على الشخصية المسلمة؛ لأن الإسلام جاء ـ من خلال منهجه وضوابطه ـ ليحث المسلم على اقتحام الدائرة الحضارية والتفاعل معها وفق ثوابته بكل ما أوتي من أدوات قد سُخِّرت له ليبدع من خلالها، ولم يجئ ليقود المسلم عبر مواقع السلب والفرار من العالم وهو الدين الخالد المهيمن!

- مسألة التراث وتوظيفه توظيفاً عصرياً والالتحام به والاستفادة من الجهود والدراسات الواعية التي ورثناها عن علمائنا أمثال ابن خلدون.

- الاهتمام بالثقافة الإسلامية المعاصرة مُمَثَّلةً في جهود كثير من العلماء والمفكرين المسلمين الذين طرحوا قضية الإسلام من خلال البعد الحضاري، أمثال مالك بن نبي الذي أنشأ مدرسة فكرية واعية قدمت الإسلام مشروعاً حضارياً متكاملاً وحللت النفسية الغربية بوصفها نمطاً استعمارياً مواجهاً للخصوصية الإسلامية.

- بيان أهمية التنشئة الفكرية والحضارية للأجيال المعاصرة التي تساهم في صياغة العقلية الحضارية للأجيال القادمة.

- توجيه الأبحاث والدراسات في الجامعات الإسلامية والعربية إلى التركيز على شمولية الإسلام، والتركيز على فعالية العقيدة الإسلامية ودورها في تحريك المسلم ودفعه إلى مزيد من الإنجاز، والتركيز أيضاً على الأبعاد العلمية في قضية التوظيف الحضاري للعقيدة الإسلامية ـ إذا جاز التعبير.

- ثم يأتي دور الإعلام الإسلامي والدوريات الإسلامية في تجاوز فكر الانكسار والهزيمة النفسية، وتقديم الإسلام خياراً حضارياً أوحد للأمة في مقابل المرجعية الغربية التي ينطلق منها الخطاب التغريبي اليوم.

● وأين دور الصحوة باعتبارها أحد أهم روافد الأصالة والقوة الذاتية للأمة في بحثها الحضاري؟ وهل من دور زائد تلقيه أمانة الريادة التي تتحملها في عنقها؟

■ دور الصحوة يتمثل في عدة محاور مثل:

- التكوين الشرعي الواعي لمهام وضوابط الخطاب الإسلامي، وعدم قصره على منحنى معين؛ كأن يركز بعض الدعاة على المجال التاريخي أو الثقافي الذهني أو غير ذلك، ولكن لا بد من استحضار المنهج المتكامل والنظرة الشمولية المرتبطة بوحدة المنطلق ووحدة الهدف في ظل التحديات التي تواجهها



الأمة اليوم، واستجماع القوى المنهجية والأدوات التي تجعل الصحوة على مستوى التحدي الذي يواجه الأمة.

- **وهناك محور ثان هو:** مراجعة الكيان الإسلامي في ذاته، وما فيه من مشكلات ومعوقات تحول دون توحده تحت شعار: «أمة إسلامية واحدة» وإعلان الحرب التي لا هوادة فيها على التفكير القُطري، والقومي، والنعرات العنصرية والعصبية؛ بحيث ينطلق المسلم من رحابة عالمية الرسالة.

- **ومحور ثالث:** يتعلق بفهم الآخر من حيث التركيز والوعي بأدوات الغرب في الهيمنة ووسائل الاختراق وصور الهيمنة، وتحديد الإسلام ومحاولة القضاء على الكيان الإسلامي المعاصر.

● **هل يمكن تصوُّر الارتقاء الحضاري دون وجود كيان سياسي يحمي هذا الارتقاء؟**

■ يمكننا أن نفرق بين الحضارة الإسلامية في كيانها السياسي، والحضارة في قواعدها الجمالية والشعبية؛ فلو تأملنا تاريخ الحضارة الإسلامية من حيث صور وأشكال التآمر التي اعترضت حضارتنا الإسلامية - بدءاً من تحديات المشركين لدعوة الرسول ﷺ ووصولاً إلى العنصرية الغربية والنظام العالمي الجديد - لوجدنا أن الكيان الحضاري في شكله السياسي قد تمزق مراراً، ولم يمنع ذلك من تواصل الأمة وارتباطها بشريعتها على مستوى الجماهير، وقد برز هنا دور العلماء الذين قدموا صورة ناصعة للتمسك بالإسلام والذب عن هوية الأمة بالرغم من عسف الحكام في بعض الأزمان، ومع أن الإسلام اليوم ليس له كيان يمكن اعتباره مسؤولاً عن حركة الأمة إلا أن الصحوة تمتد عبر هذا الفراغ، والمد الإسلامي في يقظة مستمرة، وفي كل يوم يحرز موقعاً جديداً بفضل الله أولاً، ثم للحمية الإيمانية التي تسري في الأمة، والأرضية الإسلامية المتمكنة من القواعد الشعبية والجماهيرية التي لا يمكن إغفالها في المشروع الإسلامي المعاصر؛ فتجربة الجزائر مثال لذلك، والتجربة التركية مثال آخر على أن العمل الإسلامي يمكنه أن ينطلق ويمتد حضارياً حتى في غياب الكيان السياسي.

● **العلاقة مع الآخر أصبحت تتمحور حول مفاهيم وشعارات مثل: التعايش، والزمالة، والصراع، والتفاعل، والانكفاء حتى أصبح يمثل تشتتاً - للمثقف بالذات - فما هي أصح الصور لعلاقتنا مع الآخر، أعني: الغرب؟**

■ نحن أمام صورتين لهذه العلاقة عبر عشرات التجارب: إما تفاعل مع الغير، أو استلاب الغير. وباستقراء تاريخ الحضارة الإسلامية التي انفتحت وامتدت من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً، ومن الشمال الأوروبي إلى الجنوب الإفريقي بصورة لم تشهدها أي حضارة أخرى نجد أن المسلمين احتكوا

بتصورات وأفكار ومذاهب وديانات وتقاليد وعادات مثلت ركاماً ضخماً وفق ضوابط التفاعل والاحتواء وليس الاستلاب؛ لأن الإسلام استوعب مجمل الخطاب الإنساني في معرفته.. في تقاليده.. في نظمه.. استوعبها وحللها وتعرف عليها بعمق ووعي، ولفظ ما يتنافى مع عقيدته ومع خصوصيته، واستفاد استفادة أكيدة من تراكم الخبرات الحضارية في تلك المجتمعات. هذه المعادلة التي يمكن صياغتها في الحفاظ على الهوية في إطار عوالم متغيرة وحضارات مختلفة اكتسحها الإسلام بقوة سلطانه، وسيطر عليها.

هذه المعادلة تمت في تاريخنا وكان للحضارة الإسلامية تميزها وخصوصيتها، ونحن الآن في أمسِّ الحاجة إلى خطاب فكري واعٍ يُحسِن التعامل مع الآخر من منطلق التفاعل دون أن يعني التخلي عن هويتنا أو شعورنا بالدونية.

● **ولكن كيف يمكن التفاعل مع الغرب وفكره قائم على اكتساح كل ما أمامه من حضارات وكيانات ومصادرتها؟**

■ أنا أعني التفاعل المدروس والمضبوط بضوابطنا وبتاريخنا الذي يحفظ هويتنا ويراهن على ما عند الآخر من تقدم تقني ومعرفي نافع.

● **الأمة الإسلامية أمة ممتدة عبر الزمان والمكان؛ لذلك لا يمكن اعتبار ما يمر بها اليوم سقوطاً حضارياً، كما يطرد ذلك في الدول والشعوب، فماذا يمكن أن نسمي حالتنا الراهنة؟**

■ هذه الحالة عبر عنها بعضٌ بالانحطاط؛ ولعل الأنسب أن نعبر عنها بالانكسار؛ فما زالت هناك من عوامل القوة والبناء في الأمة ما يؤهلها ـ ولو بعد حين ـ للنهوض، والإسلام ما زال يملك حضوراً عالمياً وإنسانياً لا تخفى معالمه، وليس أدل على ذلك من حالة الخوف والقلق التي تنتاب العقلية الأوروبية من المد الإسلامي.

هذا رغم تراكم النكبات على الأمة ورغم ما أصاب المسلم من إحباط حضاري، وفتور أشار إليه النبي ﷺ في حديثه الجامع: «توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»(١).

وأشار في نهاية الحديث إلى ما سيصيب المسلم من عقلية الوهن الذي هو تعبير عن الخَوَر النفسي والهزيمة أمام الآخر، وهذا لا يتأتى إلا عندما يضعف الجهاز المناعي في الجسد الإسلامي.

أما تقوية هذا الجهاز فمُعَلَّقة بأخلاقيات التغيير الذاتي وفق مفهوم قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١] فالحالة الإسلامية تشتمل على منهج قائم وثابت وصالح، ولكن القضية هي الإنسان الذي هو محور الفاعلية في حركة الحضارة.

---

(١) رواه أبو داود، ح/ ٣٧٤٥.

ومع ما مرت به الحضارة الإسلامية من منحنيات الانكسار؛ فما أن تهب رياح التغيير الإيمانية من الداخل إلا وتجد الوثبة الحضارية تعود بالأمة إلى أرقى مما كانت عليه، ولهذا أقول: إن حصار المسلم يبدأ من داخله وليس من خارجه.

● **أسلمة المعرفة درجة على سلَّم الارتقاء الحضاري: ما ضرورتها؟ وما إمكانها؟ وكيف تكون؟**

■ في إطار الثوريات المعاصرة للعقل المسلم تفرض هذه القضية نفسها على العمل الفكري والعلمي الإسلامي؛ لأن هناك اتهاماً موجهاً للعقل المسلم أنه عقل تابع وعقل عنعنات وعقل شعائر ولا علاقة له بالتنظيم المعرفي ولا بالقدرة المنهجية على صياغة الأفكار ومواجهة الزخم المعرفي المثار في الواقع المعاصر.

ومن هنا يصبح لزاماً على العقل المسلم أن يتسلح بمنهجية إسلامية واعية في رصد الإنتاج العلمي المعرفي الإنساني، ومحاولة تقديم الرؤى الإسلامية حول هذه المعارف من منظور شرعي للاستفادة منها والإضافة الذاتية إليها.

وإذا كانت جل العلوم التي تدرس في جامعاتنا مؤسسة على المرجعية الغربية فإن هذا يمثل كارثة أمام نهوضنا من جديد.

ونحن لدينا في تراثنا المعرفي الضخم بدائل منهجية يمكن التأسيس عليها بما يتوافق مع خصوصيتنا؛ فعلم الاجتماع ـ على سبيل المثال ـ يمتلك منظومة إسلامية متكاملة في علاقة الفرد بالمجتمع على مستوى الكتاب والسنة وعلى المستوى المعرفي التراثي مذخورة في جهود عشرات الأسماء من علمائنا، منهم: المقدسي، وابن خلدون، والغزالي، والماوردي، وابن حزم. وقِسْ على ذلك في العلوم الأخرى.

● **ننتقل إلى المحور الثاني وهو يدور حول الفكر الغربي والأزمة التي يمر بها، والتي تتزايد أرقامها ودلائلها يوماً بعد يوم، ونبدأ بسؤال: إلى أي حد يشعر الغرب بهذه الأزمة؟**

■ أزمة الغرب واضحة على صعيد العنصر الزماني على المدى البعيد والقريب. هذه الأزمة ولدت مع بواكير الثورة على الكنيسة في مطالع عصر النهضة التي حملت الأزمة في ثناياها، فكانت النهضة ـ خلافاً لكل ما يقال عن عصر التنوير ـ أزمة جديدة؛ لأن المجتمع الحديث هناك تأسس على أخلاقية الصراع التي ترسخت في العقل الأوروبي وترجمها رموز العمل العقلاني والفلسفي والأدبي والعلمي في أعمالهم، وتطور الصراع ليصبح بين عناصر الأمة المختلفة بل ومع تاريخها وخصوصيتها ودينها وعقيدتها وانتمائها، وآل الأمر إلى طرح المذهبية العنصرية التي تمحور فيها الغرب نحو ذاته، وكانت النتيجة طرح النسبية البشرية مقياساً.

وقد رصدت معالم هذه الأزمة منذ ثلاثينيات هذا القرن في كتابات الغربيين، وكان أولهم وأبرزهم «أوزول شبنجلر» الذي وضع موسوعته : (Decline of the west) : أو «تدهور الحضارة الغربية» التي تبرز أزمة الإنسان الغربي وتحللها تحليلاً دقيقاً وموضوعياً.

ثم جاءت بعده عدة كتابات منها : كتابات «توينبي المؤرخ الإنجليزي» وهو شاهد عيان على تشريح آزمة الغرب، وكذلك «بترم سروكين» الروسي المتامرك، وكذلك «ألكسيس كارليل»، و«ألبرت شفيدزر» الذي نحا باللائمة في البعد المادي على الغرب وغياب البعد الإنساني، ونذكر أيضاً الأديب الإنجليزي «كولن ويلسون» في كتابه : «اللامنتمي وما بعد اللامنتمي»، وأعتقد أن هذه الكتابات وغيرها رصدت الظاهرة مبكراً، والغرب اليوم لم يكن في يوم من أيامه أشد شعوراً بالأزمة وخوفاً من المستقبل منه اليوم.

● **وما هي مظاهرالأزمة في الواقع المشاهد؟**

■ مظاهر الأزمة واضحة لكل إنسان مسلم تبدأ من عنصرية الغرب تجاه الشعوب الأخرى، ونقف عند قضية الاستعمار الذي يعتبره مالك بن نبي «أكبر سبة في جبين الإنسانية»؛ لأنه يستبيح لنفسه حقوق الآخرين وكرامات الشعوب وخصوصياتها، ويحاول أن يحقر الذوات الأخرى؛ هذا النمط لا يمكن أن يقدر أو يحترم.

هذا بالإضافة إلى الخواء الأخلاقي، والانحرافات السلوكية، والتحلل القيمي، والنسبية الأخلاقية التي بلغت حداً يدعو كل عاقل إلى التريث في الترويج لثقافة تقوم على الصراع والعنصرية.

أما الشعارات التي يرفعها مثل: «إنسانية، إخاء، مساواة» فهي دليل عن أزمة سابقة ولاحقة:

سابقة: لأنها دلالة على وحشية الإنسان الغربي فيما قبل الشعارات.

ولاحقة: لما نراه من عدم مصداقية في التعامل مع الأقليات المسلمة هناك ومحاربة للمشاريع النهضوية هنا.

يضاف إلى ذلك أن الفكر الغربي عاد أدراجه من جديد للتبشير بما بعد العلمانية، فعادت الدلالات الدينية من جديد، بعدما أخفق المشروع العلماني في حل المشاكل الإنسانية بشتى أبعادها هناك. ومن أبرز مظاهر هذه الأزمة : أن الغرب الذي يسعى في تصدير كل شيء إلينا يسعى جاهداً أيضاً إلى استيراد العقول المبدعة من الخارج؛ فالمدينة التي خرَّجت أمثال : شبنجلر، وماركس، وسلوكين، وشبدزر، وديكارت وسبينوزا، ونيتشه، وأمثال هؤلاء ممن يفتخر بهم الغربيون، كل هذه النماذج أصبحت خواء لا تجد عشر معشارها، ولا تجد تواصلاً للفكر الغربي رغم وجود المؤسسات العلمية

المتخصصة؛ وهذا شاهد قوي على أن القدرة الإبداعية - كيفما كان مسارها - في اضمحلال مستمر. ولك أن تتأمل في أبسط الصور في مجال الفن التشكيلي - في مجال الأدب.. في الشعر.. في الرواية.. ستجد خواءاً ضخماً.

● **وما هي انعكاسات هذا الخواء وهذا الإفلاس على المشروع العلماني عندنا؟**

■ انعكاسات ذلك لدى الخطاب العلماني العربي واضحة تماماً في أنك حين تقرأ لرموز التغريب في واقعنا الفكري المعاصر وتقارن دلالات الخطاب الذي يقدمه وأدواته المنهجية تتعجب؛ حيث لا تجد فارقاً كبيراً بين مجمل هذه الأدوات - من حيث منطلقاتها وغايتها - وبين ما قدمه أسلافهم من أمثال سلامة موسى، وشبلي شميل، وفرح أنطون، وقاسم أمين، وطه حسين، وهذا أكبر دليل على أن المرجعية الغربية مرجعية جامدة تقف عند حدود الإيمان بالإنسان والنزعة الآلية. وبذلك لم يستطع الخطاب العلماني أن يحل المشكلات؛ بل زادت بطريقة فلكية، فهو لم يستطع أن يلغي التبعية بل رسخ لها، ولم يستطع أن يوحد الأمة بل زادها فرقة.

● **بعض الناس يسوّق للتعددية الغربية ويراها عنصراً راشداً لا بد من الأخذ به! فهل التعددية بصورتها المعروفة إيجابية تقتفى؟**

■ التعددية الغربية دليل مرض؛ لأنه لا يمكن أن يصبح الإنسان حقلاً للتجارب في مجال القيم والأخلاقيات والعقائد. الإنسان في الغرب أصبح عرضة للنسبية الفكرية والأخلاقية، أصبح مقياساً لما يوجد من القيم والأفكار ومقياساً لما لا يوجد من هذه القيم والأفكار! وعند فقدان المرجعية الثابتة تصبح الأمور كلها نسبية والآراء كلها متكافئة، وهذا الأمر لا يناسب منهجيتنا وثوابتنا.

● **سؤال أخير: كيف نواجه الخطاب العلماني؟**

■ إذا ما تتبعنا الإنتاج الفكري للخطاب العلماني في العالم العربي نجده تفريخاً يومياً لعناصر جديدة وفاعلة: هناك دور للنشر، ومؤسسات علمية، ومؤسسات ثقافية تسعى لضرب كل ما يرتبط بالخصوصية الإسلامية!

إذن لا بد من إيجاد مؤسسات إسلامية واعية بهذه القضية، ولا بد من رصد رموز العمل التغريبي والعلماني في العالم الإسلامي، ولا بد من تنظيم معرفي دقيق لاختراق نصوص هذه الأعمال والرد عليها من منظور موضوعي يفضح عمالة هؤلاء ويبرز خواء المنهج والمرجعية التي يعتمدون عليها وأنها منهجية خائنة للأمة ولتراثها وهويتها، ومنهجية تتسم بالفقر الشديد واللؤم المعنوي في العمالة لكيانات لن تمكنها في يوم من الأيام أن تكون نداً لها أو مساوية في القوة أو في الحضارة.





الشيشان.. آلام وآمال

د. سامي محمد صالح الدلال

إن أحداث الشيشان واحدة من نوازل القدر يختبر الله بها عباده جميعاً، فلينظر كل امرئ ما يتعلق به من هذا الاختبار: مساءلته نفسه، وعرض خوالجها على ضوء الكشف القرآني والسنن النبوي. والقصد من كل ذلك أن يتوصل إلى أفضل الأجوبة التي تضمن له اجتياز الاختبار بأحسن تقدير وأرفع درجة.

وعلى اعتبار أهمية بلوغ ذلك فإن المسلم جدير به أن يجتهد في استحضار ما له علاقة بهذه القضية من أسئلة، من مثل:

١ - هل أنا مَعْنيٌّ بأحداث الشيشان؟

٢ - ما هي الرابطة التي تربطني بمسلمي الشيشان؟

٣ - هل يجب عليَّ شرعاً أن أقف معهم وأدعمهم؟

٤ - كيف أستطيع القيام بواجبي إزاءهم؟

٥ - ما هدف الروس من تأكيد احتلالهم للشيشان، وما هي دوافعهم؟

٦ - ماذا تريد روسيا بعد الشيشان؟

٧ - لماذا يقف العالم متفرجاً على ما يحدث في الشيشان؟

٨ - هل سينتصر الشيشانيون؟ وهل لي دور في ذلك؟

٩ - هل أنا مؤهل لاجتياز محطة المساءلة عن الشيشان في الآخرة؟

فلو أردنا تحري الصواب في الإجابة عن تلك الأسئلة فلعلنا نضعها بين يدي القارئ على الوجه الآتي:

هل أنا مَعْنيٌّ بأحداث الشيشان؟

نعم بالتأكيد! إنني معْنيٌّ بأحداث الشيشان من زوايا عديدة لا تتعلق برابطة العقيدة الإسلامية فحسب، بل لأن تلك الأحداث تأتي في سياقات دولية مفصلية لها الأثر البالغ على الوجود الإسلامي برمته؛ إذ إن إتاحة الفرصة للروس للانفراد بمسلمي الشيشان دون أن تحرك الدول الإسلامية ساكناً يعطي الضوء الأخضر لدول الكفر من يهود ونصارى أن تكشر عن أنيابها لتفترس الكيانات الإسلامية المبعثرة هنا وهناك على خارطة العالم؛ إذ إن هذه الأحداث تثبت لتلك الدول الكافرة بأنها لن تجد معارضة حقيقية وجادة ومؤثرة إزاء أي فعل تقوم به ضد الكيانات الإسلامية الضعيفة

أو المستضعفة، خاصة أن مسألة الشيشان لم تكن مسألة منفردة بمعزل عما قبلها، بل جاءت في إطار مسلسل البوسنة وكوسوفا وتيمور الشرقية؛ وهذا يعزز النظرية التي ذكرتها.

وأنا مَعْني بالشيشان باعتبارها دولة مسلمة من دول القوقاز وقع عليها الاحتلال الروسي عبر طوفــــان من المآسي والمحن التي ولَّدها النظام الشيوعي أيام ستالين وما كان قبله وما جاء بعده.

إن التوجه الاستقلالي للشيشان كان لا بد أن يفتح الباب على مصراعيه نحو استقلال دول القوقاز لترى النور بعد الظلام الحالك الذي خيم على ربوعها منذ عشرات السنين. فلو أن تلك الدول كتب لها أن تنضم فيما بعد في دولة قوقازية إسلامية واحدة لأفضى ذلك إلى أن يشكل فتحاً وعضداً كبيراً للقوى الإسلامية في القارة الآسيوية، كما أنه سيشكل رافداً قوياً للحركات الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية التي استقلت بعد سقوط الاتحاد السوفييتي؛ حيث ستكون تلك الحكومات مدعومة من قِبَلِ أفغانستان وربما باكستان، ثم من دولة القوقاز الإسلامية مما سيؤول في النهاية إلى تمكُّن تلك الحركات الإسلامية من السيطرة على مقاليد الحكم في تلك الدول.

أضف إلى ذلك فإن للشيشان امتدادات عرقية وقبلية في كل من سوريا والأردن، وهي دول في مواجهة (إسرائيل)، ولا يخفى ما لذلك من دلالات تتعلق بما سيكون لإقامة دولة إسلامية في القوقاز من أثر على الصراع مع (إسرائيل).

فإن كان اليهود والنصارى معنيين بأحداث الشيشان فلا بد للمسلم - من باب أوْلى - أن يكون معنياً بها وأشد تفاعلاً معها.

ماذا يربطني بمسلمي الشيشان؟!

لقد جعل الإسلام الأمة الإسلامية كياناً واحداً ولُحمة متصلة، قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وجعل لكل مسلم حقاً على أخيه المسلم حيثما وجد، فـ «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره»[١]، وفي الصحيحين: «المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله، ولا يسلمه»[٢]. وفيهما أيضاً قال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً! قيل: يا رسول الله! أنصره مظلوماً؛ فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه»[٣].

وأخرج الإمام أحمد من حديث سهل بن حنيف أن النبي ﷺ قال: «من أُذِلَّ عنده مؤمن فلم ينصره، وهو يقدر على أن ينصره أذله الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة»[٤] وهو ضعيف لكن يشهد له حديث أنس - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة» [٥]

(١) رواه مسلم، ح/ ٤٦٥٠.

(٢) رواه البخاري، ح/ ٦٤٣٧.

(٣) رواه البخاري، ح/ ٢٢٦٣.

(٤) رواه أحمد، ح/ ١٦٠٢٨، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ح/ ٥٥٥٤.

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى، ح/ ١٦٤٦٢.

> إن ما يربطنا بالشيشان هو رابطة العقيدة التي لن تنفصل أو تهون بل هي باقية إلى قيام الساعة

وهو في صحيح الجامع الصغير.

إن ترابط المسلمين فيما بينهم كترابط أعضاء الجسد الواحد، ما أن يقع ضيم أو تحل نازلة بأحدهم إلا كأنها أصابت جميع المسلمين، فيحنو بعضهم على بعض، ويرحم بعضهم بعضاً، فيهبُّون هبة رجل واحد فزعةً[1] لبعضهم بعضاً ونصراً لهم. وما لنا ألا يكون هذا حالنا والنبي ﷺ يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2]؟ وقال ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد: إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله»[3].

وقال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[4]. ومن أجل هذا فقد ترتبت حقوق عظيمة لكل مسلم على إخوانه المسلمين أينما كانوا.

وها هم إخواننا في الشيشان قد داهمهم الروس - وهم نصارى أرثوذكس - من البر والجو، مستخدمين جميع أنواع الأسلحة وأشدها تدميراً وأوسعها إهلاكاً، فأحدثوا فيهم الفتك والقتل والهتك والتشريد.

إن ذلك كله يلهب شعور جميع المسلمين بقوة رابطتهم بمسلمي الشيشان ويؤجج في نفوسهم ضرورة نصرتهم.

إن الرابطة التي تربط كل مسلم في أنحاء الأرض بمسلمي الشيشان هي رابطة الدين، رابطة العقيدة، إنها رابطة الإسلام، تلك الرابطة لا تنفصم ولا تنقطع ولا تهون، بل هي باقية - إن شاء الله - أبد الدهر إلى قيام الساعة.

نصرة الشيشان واجب شرعي:

قال - تعالى -: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]. وقال - تعالى -: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال - تعالى -: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧].

إن هذه الآيات تبين طبيعة المعركة ومعالم حدودها ومساحة حركتها. إنها تقول: إن الواجب الشرعي هو تناصر المسلمين في كل أنحاء الأرض، وأن يتولى بعضهم بعضاً؛ كما أن الكافرين والمنافقين يتولى بعضهم بعضاً. فعلى كل مسلم أن يلبي دعوة إخوانه في

---

(١) فزعة: إغاثة.

(٢، ٣) رواه مسلم، ح/ ٤٦٨٥، ٤٦٨٦.

(٤) رواه البخاري، ح/ ٤٥٩.

الشيشان بنصرتهم، كلٌ بما يستطيع: فمن استطاع الوصول إليهم ليقاتل معهم فليفعل، ومن استطاع نصرهم بالكلمة قولاً أو كتابة عبر الكاسيت أو الفيديو أو الرائي أو الصحيفة، أو أي واسطة أخرى فليفعل، ومن استطاع تمويلهم بماله الخاص أو بجمعه وإرساله إليهم فليفعل، ومن استطاع الدفاع عنهم بنشر قضيتهم بين الأمم فليفعل. ولا أقل من أن يشترك جميع المسلمين في كل الأرض في دعاء الله لينصرهم على أعدائهم الروس، ويصبِّرهم ويثبتهم ويرفع المحنة والشدة عنهم، وأن يتقبل شهداءهم ويشفي جرحاهم ومرضاهم، وأن يجعل الدائرة لهم ويخرجهم من هذه المعركة الضروس مرتفعة بالإسلام رؤوسهم، نابضة بالذكر لله والثناء عليه قلوبهم، حامدة له وشاكرة ألسنتهم، ساجدة لجلاله جباههم.

وقد وقفت على فتوى عظيمة للعالم الشيخ الجليل عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين أصدرها بتاريخ ١٦/٧/١٤٢٠هـ ذكر فيها أهمية مناصرة مسلمي الشيشان، وقال ـ حفظه الله ـ: يجب على المسلمين:

أولاً: الدعاء لإخوانهم في تلك البلاد بالنصر والتمكين والتأييد ورد كيد الكائدين.

ثانياً: إمدادهم بالأسلحة والقوة الحسية التي يكافحون بها ويقاتلون من قاتلهم.

ثالثاً: تقويتهم بالأموال، فهم بأمسِّ الحاجة إلى القوت والغذاء والكسوة، وكل ما يتقوَّون به ... إلخ الفتوى.

هل أستطيع القيام بواجبي نحو الشيشان؟

نعم! أستطيع القيام بواجبي إزاء المسلمين في الشيشان؛ وذلك في إطار مفهوم قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي إطار قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾. [الأنفال: ٧٢].

وسأذكر هنا ما يمكن أن يقدمه المسلمون لمسلمي الشيشان؛ وكلٌ يغرف من ذلك بقدر مغرفته:

١ ـ الدعاء لهم في صلاة الفريضة. والقنوت مشروع في الفرائض عند حدوث النوازل. وكذلك الدعاء لهم في صلاة قيام الليل وصلوات السنن والنوافل وخاصة في الأوقات التي يستجاب فيها الدعاء.

٢ ـ تعريف المسلمين بقضيتهم من خلال خطب الجمعة والمنتديات ومجالس البيوت، وعن طريق تداول أخبارهم في محيط الأسرة، وجعل ذلك مادة اهتمام الأمهات والأبناء والأقارب.

٣ ـ استغلال الوسائل الإعلامية المتاحة لتعريف العالم بما يقع على مسلمي الشيشان من ظلم وقهر واضطهاد وتقتيل وتشريد وتهجير وبطش من قِبَل الجحافل الروسية الهمجية. ومن أهم تلك الوسائل الإعلامية: الصحافة، والإذاعة، والتلفزيون (سواء عبر القنوات العادية أو المحطات الفضائية) والإنترنت. ومن خلال أشرطة الكاسيت والفيديو.

٤ ـ طباعة كتيبات صغيرة تشرح مأساة إخواننا مسلمي الشيشان وتسلط الأضواء على

أبعادها الدينية والإنسانية والسياسية. ثم توزع هذه الكتيبات مجاناً في أوسع نطاق بكافة اللغات العالمية المشهورة.

٥ - الدعوة إلى التبرع لصالح مسلمي الشيشان بقصد تغطية احتياجاتهم الجهادية والمدنية.

٦ - إن الجهاد بالنفس في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام؛ فمن استطاع الجهاد بنفسه في أراضي الشيشان فليفعل، ومن لم يستطع فليجهز من يستطيع ولا يجد ما يعينه على ذلك؛ فإنه «مَنْ جَهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في سبيل الله في أهله بخير فقد غزا»[1]، وفي رواية عنه أخرجها ابن ماجه بسند صحيح: «من جهَّز غازياً في سبيل الله كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الغازي شيئاً»[2].

٧ - إمدادهم بالسلاح بكافة أنواعه المتاحة، وهذا الأمر وإن كان متعذراً على الأفراد القيام به، فإن الحكومات في البلاد الإسلامية قادرة عليه لو أرادت.

٨ - الضغط على الحكومة الروسية بكافة الوسائل لحملها على إيقاف حربها الهمجية إزاء الشيشان وعلى الانسحاب من الأراضي الشيشانية والاعتراف بالشيشان دولة مستقلة وتعويضها عما ألحقته بها من خسائر فادحة في الأنفس والأموال والممتلكات. ومن وسائل الضغط على الحكومة الروسية ما يلي:

١ - إرسال رسائل الشجب والاستنكار لأفعالها الشنيعة في الشيشان، ويتم ذلك شعبياً من خلال إيصال تلك الرسائل إلى جميع السفارات الروسية في جميع أنحاء العالم. على ما يقوم به الروس من ممارسات وحشية في الأراضي الشيشانية.

٢ - الضغط على كافة دول العالم ومختلف المحافل الدولية لتقوم بواجبها في الوقوف مع الشعب الشيشاني الذي يتعرض للإبادة الشاملة، وذلك بالضغط على الحكومة الروسية بكافة السبل، والتأكيد على أن فارق القوة المادية بين الطرفين يجعل أداة القمع والبطش من طرف واحد دون أن يكون للطرف الثاني إمكانية المقاومة الفاعلة.

٣ - لا بد لدول العالم أن تقف موقفاً مع العدالة التي تقتضي الضغط على الحكومة الروسية لمنح الشيشان استقلالها، هذا إن كان للعدالة معنى لدى تلك الدول!

٤ - إن من أمضى ما يمكن أن يحمل الروس على إعادة تقييم حملتهم الظالمة على الشيشان هو استخدام أسلوب الضغط الاقتصادي وذلك بوقف المساعدات الاقتصادية الدولية عنهم، وتجميد أرصدتهم في الخارج أو حجزها لإيفاء ما عليها من ديون مستحقة، وبإيقاف استيراد الأسلحة منهم. وأما الضغط السياسي فبالتهديد بتعليق العلاقات الدبلوماسية معها أو بتخفيض درجتها أو بتقليل عدد العاملين في السفارات الروسية. إنني أعلم تماماً أن هذه الدعوة قد لا تجد أي أذن صاغية، وذلك

(١) رواه البخاري، ح/ ٢٦٣١.

(٢) رواه ابن ماجة، ح/ ٢٧٤٩.

لخضوع العلاقات الدولية عموماً إلى معادلة (الغاية تسوِّغ الواسطة)، وأن المصالح الدولية مقدمة على المصالح الإنسانية والمفاهيم القيمية؛ إلا أنه لا بد من تسجيل هذه الدعوة لإقامة الحجة على جميع الذين خذلوا مسلمي الشيشان وناصروا عدوهم الذي يفتك بهم.

ما هي أهداف احتلال الروس للشيشان ودوافعه؟

إن دوافع احتلال الروس لأراضي الشيشان متعددة الاتجاهات، ونجملها فيما يلي:

١ - لقد تعرض الروس إلى هزيمة قاسية على يد مسلمي الشيشان عام ١٩٩٦م عندما قام الروس باجتياح أراضي الشيشان في ذلك العام واحتلوا العاصمة غروزني ثم لم يُبقوا فيها حجراً على حجر. ولكن الله - تعالى - نصر مسلمي الشيشان عليهم رغم فارق القوة الهائل عدداً وعدة. لقد مرَّغ المقاتلون الشيشان أنوف العسكريين وسياسيي الكرملين في أوحال الذلة والصغار، وألحقوا بهم هزيمة تاريخية وقف لها جميع العالم مدهوشاً. وإن من أهم أهداف هذه الحملة الروسية الحالية على الشيشان هو رد اعتبار الكرملين على المستوى السياسي والعسكري، والثأر من الهزيمة السابقة.

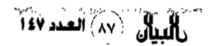
٢ - إن الحملة الروسية الحالية تشكل غطاءً للتنافس السياسي بين مختلف الفرقاء والفصائل والأحزاب الروسية للانتخابات القادمة للبرلمان ولرئاسة الدولة. إن إصرار رئيس الوزراء الحالي بوتين ورئيس الدولة بالنيابة على متابعة حملة الإبادة في الشيشان ما هو إلا ورقة قوية يمسك بها في يده لأجل انتخابه خلفاً ليلتسين. وكل فريق له حساباته؛ فالسياسيون لهم حساباتهم والعسكريون لهم حساباتهم، والجميع يعتقد أن تحقيق حساباته بشكل إيجابي يمر عبر أراضي الشيشان تدميراً وتقتيلاً وتهجيراً.

٣ - إن روسيا تريد إبقاء خضوع مناطق القوقاز لها وتحت سيادتها كيما تتمكن من مواصلة سرقة خيراتها الوفيرة. سواء منها البترولية أو الزراعية الكثيرة والمنوعة التي تشتهر بها حقول «غروزني» العاصمة[1]. إن إصرار روسيا على خوض هذه الحرب الشيشانية يعكس مدى التدهور الاقتصادي الذي حل بها والذي تريد تعويض بعضه من ثروات تلك البلاد الغنية.

٤ - إن الحكومة الروسية تريد من خلال حربها الشرسة في الشيشان إيصال رسالة لكافة المناطق التي غالبيتها من المسلمين والتي تخضع للاستعمار الروسي مفادها: أن الحكومة الروسية جادة في استخدام الحديد والنار لإبقاء تلك المناطق الإسلامية تحت سطوتها واستعمارها.

٥ - إن روسيا - من منظار صليبي أرثوذكسي بحت - تعتقد أن المنظور البعيد إذا كان يحمل في طياته قيام دولة إسلامية تجمع شتات المسلمين في تلك المناطق الآسيوية، فإنه من الواجب إيقاف ذلك الاحتمال ابتداءً من بواكيره وعدم الانتظار إلى مستقبل الأيام؛ فلربما لا يمكن عندها فعل شيء ذي قيمة يوقف إمكانية ذلك التوحيد؛ حيث إن روسيا ترى أن قيام مثل تلك الدولة يشكل

(١) موسوعة العالم الإسلامي، ١ / ٢٢٥.



خطراً بالغاً عليها. إن ذلك ربما كان صحيحاً إلا أن روسيا تريد أن تستعمل هذه الورقة وتسويقها داخلياً وخارجياً على أمل إقناع العالم بمسوغات الفظائع التي تقوم بها الآن.

٦ - إن للأعمال الحربية التي تقوم بها القوات الروسية حالياً في الشيشان أهدافاً أخرى تتعلق بتجديد حيوية ذلك الجيش وتجريب أسلحته الجديدة السرية للتأكد من كفاءتها؛ إضافة إلى اعتبار تلك الحرب نوعاً من التدريبات الحية والقاسية التي يختبر القادة الروس من خلالها قدراتهم العسكرية والفنية وكفاءة خططهم الحربية.

٧ - لقد استطاع الغرب أن يحيِّد روسيا في حرب كوسوفا ولم تتمكن الحكومة الروسية من نجدة حليفتها يوغسلافيا مما أفقد حلفاء روسيا الثقة بقدرتها على الوقوف معهم حال الأزمات. إن الموقف الروسي الضعيف في حرب كوسوفا ترك انطباعاً دولياً يوحي بالعجز الروسي عن التحرك في حال حدوث أزمات دولية. وتعتبر الحكومة الروسية أنه قد حان الوقت لتبديد هذه التصورات التي خلَّفتها حرب كوسوفا وذلك من خلال إثبات قدراتها على التحرك العسكري على نطاق واسع. وكان غزوها الثاني للشيشان تعبيراً عن هذه الفكرة إضافة إلى أنها قد ضمنت عدم تدخل حلف الأطلسي في هذه الحرب، مثلما لم تتدخل روسيا عسكرياً في حرب البلقان، ولكن علينا أن نلاحظ الفرق بين الحالتين.

تلك هي بعض أهم أهداف الغزو الروسي للشيشان، إلا أن المراقب المحايد يستطيع القول بثقة: إن روسيا لن تُفلح في تحقيق أي من تلك الأهداف؛ حيث إن معطيات الواقع تؤكد ذلك.

لماذا يقف العالم متفرجاً على أحداث الشيشان؟

لقد بات من نافلة القول أن جميع دول العالم تقيس كافة الأمور من منظور مصالحها الخاصة، سواء كانت مصالح عقدية أو اقتصادية أو سياسية أو غير ذلك، أما القضايا الإنسانية فهي لا تعدو أن تتخذ أحياناً واجهات يُتترس بها للوصول إلى تلك المصالح. ومن هذا المنطلق نفهم لماذا تكيل الدول والتحالفات مواقفها بمكاييل متعددة قد يغلب عليها التناقض. وهاك هذه الأمثلة:

● كوسوفا إقليم مسلم تحتله يوغسلافيا، وعندما تشكل فيه جيش تحرير كوسوفا وبدأت فيه بوادر نزعة الاستقلال عن يوغسلافيا تدخل الغرب (أمريكا وحلفاؤها الأوروبيون) لإجهاض هذه النزعة من خلال السيناريو الذي تم في ذلك الإقليم، والذي انتهى ببقاء إقليم كوسوفا تابعاً ليوغسلافيا ضمن إطار الحكم الذاتي لكن تحت مظلة استعمار دولي متعدد الجنسيات، بما فيها روسيا، ثم تم حلُّ جيش تحرير كوسوفا، وهكذا بات من الصعب أو من المستحيل أن يفكر مسلمو ذلك الإقليم في الاستقلال في ظل المعطيات القائمة.

● تيمور الشرقية جزء لا يتجزأ من إندونيسيا، ومعظم سكانه من النصارى الذين طالبوا بالاستقلال، فتدخلت الأمم المتحدة وأجرت استفتاءاً في الإقليم، فصوَّتت الغالبية على الاستقلال. اجتمع مجلس الأمن وأعطى إنذاراً للقوات الإندونيسية بالانسحاب من الإقليم خلال

٤٨ ساعة، وهكذا حصل. وجاءت القوات الدولية وتسلمت الإقليم وبقيت فيه لحمايته من أي احتمال للتدخل العسكري الإندونيسي في المستقبل. ولتفويت هذا الاحتمال صوَّت البرلمان الإندونيسي على استقلال تيمور الشرقية، لكن القوات الدولية ستبقى مرابطة فيه. فما مسوِّغ بقائها؟!

والسؤال هو: لماذا لم يَدْعُ مجلس الأمن للاستفتاء على استقلال كوسوفا؟ ولو تم ذلك وكانت النتيجة بالإيجاب فهل يفرض مجلس الأمن بالقوة ذلك الاستقلال؛ خاصة وقد أصبح ذلك الإقليم تحت احتلال القوات الدولية بعد انسحاب القوات اليوغسلافية تماماً منه؟ السبب واضح؛ فانسحاب القوات الإندونيسية من تيمور الشرقية يؤدي إلى قيام دولة نصرانية في ذلك الموقع المهم من العالم وهو مطلب الغرب ومبتغاه، وأما انسحاب القوات اليوغسلافية من كوسوفا دون أن تحتله القوات الدولية فسوف يؤدي إلى قيام دولة مسلمة في قلب أوروبا وهذا مرفوض عندهم تماماً.

إذاً المصالح العقدية هي التي دعت الأمم المتحدة الخاضعة لليهود والنصارى إلى مواقفها المتناقضة.

● الشيشان جمهورية إسلامية فرضت استقلالها عن روسيا بعد أن هزمت الجيش الروسي عام ١٩٩٦م، ورغم ذلك رفض العالم الاعتراف بها، ولم يتعامل معها؛ لأنها من وجهة نظره تابعة لروسيا. الآن تدخلت روسيا عسكرياً في هذه الجمهورية المسلمة؛ فلماذا لا يتدخل مجلس الأمن كما تدخل في موضوع تيمور الشرقية ويطلب إجراء استفتاء على الاستقلال، ثم يفرض ما تتضمنه نتيجة الاستفتاء بالقوة من خلال قوات دولية؟!

نعم! كان من الممكن أن يتم هذا فيما لو كان سكان جمهورية الشيشان نصارى أو يهود. وقد فعلها الغرب عندما دعم استقلال أستونيا ولاتفيا وليتوانيا عن الاتحاد السوفييتي؛ حيث إن سكانها نصارى.

وقد أشرت بالتفصيل لهذا الموضوع في كتابي: «انهيار الشيوعية».

قد يقال: إن الغرب لا يستطيع التعامل مع روسيا وهي ثاني أعظم دولة نووية في العالم كما يتعامل مع إندونيسيا أو يوغسلافيا؛ حيث إن موازين القوى لها أثر في المواقف الدولية والعالمية!

أقول: نعم! ولكن بإمكان أمريكا وحلفائها أن يتخذوا إجراءات مؤثرة تؤدي إلى وقف الحملة الروسية على الشيشان، ولكن الواقع أن تلك الدول تؤيد في الباطن تلك الحملة؛ إذ هي أيضاً تتخوف من استقلال الشيشان تحت المظلة الإسلامية مع ما يعنيه ذلك من أثر هذا الاستقلال على باقي الجمهوريات الإسلامية الأخرى الخاضعة للحكم الروسي، وقد فصلت ذلك سابقاً. فلو كانت الدول الغربية ـ وعلى رأسها أمريكا ـ جادة في وقف الحملة الروسية المدمرة على أرض الشيشان وشعبها المسلم لكان بإمكانها أن تقوم بالإجراءات التالية:

١ - وقف دعم صندوق النقد الدولي لروسيا والبالغ ٤,٥ مليار دولار.

٢ - تطبيق عقوبات اقتصادية بحق روسيا.

٢ - تبني قرار في مجلس الأمن يدعو إلى وقف التدخل الروسي في الشيشان وسحب قواتها منها.

"بماذا يقابل الله المسلمون الذين أيدوا الروس في حرب الشيشان سواء بالقول أو الفعل أو السكوت؟"

٤ - تقليص التبادل الدبلوماسي مع روسيا وتخفيضه.

٥ - شن حملة دولية لفضح الممارسات الروسية البشعة في الشيشان.

٦ - إيقاف تبادل الزيارات الثقافية والفنية والرياضية مع روسيا.

وهناك إجراءات أخرى قد تكون أكثر صرامة، ولكنها يمكن أن تؤدي إلى توتر الموقف الدولي أو خروجه عن السيطرة.

إننا إلى الآن لم نرَ أي إجراء فعال قام به الغرب ضد روسيا بشأن تدخلها السافر في الشيشان سوى بعض الاحتجاجات غير المؤثرة والتي تطلق عادة للاستهلاك المحلي أو الدولي.

لكننا إن نكن نعجب فإننا نعجب من مواقف بعض الدول الإسلامية التي أيدت التدخل الروسي في الشيشان إما بالقول والدعم الإعلامي، وإما بالسكوت عما يحصل في تلك البلاد الإسلامية الشيشانية المغلوبة على أمرها. لقد كان بالإمكان تقديم الدعم لدولة الشيشان المستقلة منذ عام ١٩٩٦م بالاعتراف باستقلالها، ولكن - للأسف - لم يتم شيء من ذلك، فكأن شأن الشيشان مع الدول الإسلامية كشأن الطائر الذي يغرد في غير سربه!!

وقبل أن أغادر هذه المحطة فإنني أتساءل: أين منظومة الأطباء بلا حدود التي حصلت على جائزة نوبل؟ وأين الهلال الأحمر والصليب الأحمر وجمعيات حقوق الإنسان؟ أقول: أين هؤلاء وأمثالهم مما يحدث في الشيشان؟ لماذا يقف الجميع متفرجاً، بل بعضهم قد يكون مصفقاً؟!

إن هذه المواقف السلبية تجاه مسلمي الشيشان تبين حقيقة الدوافع والمنطلقات التي تنطلق منها تلك المنظمات، فهي إما نصرانية غربية، فموقفها معروف، وإما منظمات إسلامية لكنها تدور في الفلك السياسي للأنظمة الساكتة. ونقول لهؤلاء: إن لم تحرككم الدوافع الدينية الإسلامية فلا أقل من أن تحرككم الدوافع الإنسانية، أم ترانا كما قال القائل:

لقد أسمعتَ لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادي!

هل سينتصر الشيشانيون؟!

إن قضية انتصار الشيشان تخضع إلى عوامل عدة، يمكن إجمالها في ثلاثة هي:

١ - العامل الذاتي.

٢ - العامل الروسي.

٣ - العامل الدولي.

فأما العامل الذاتي: فأساسه العقدي يعتمد على قدر الباعث الإسلامي في هذه المواجهة. ولا شك أن الشيشانيين يعلمون أن المحور الحقيقي لهذه الحرب هو المحور العقدي. فإذا أخلص الشيشانيون جهادهم لله - تعالى - وجعلوا قتالهم في سبيله ولإعلاء كلمته وإعزاز

دينه وتنفيذ شريعته فإن الله ـ تعالى ـ ناصرهم لا محالة؛ فهو ـ سبحانه ـ القائل: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. والقائل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وكي يتحقق النصر لا بد من إخلاص نية الجهاد لله ـ تعالى ـ والأخذ بالأسباب المادية المقدور عليها والاعتصام بالصبر مع الثبات عند اللقاء.

قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [آل عمران: ٢٠٠].

ولذلك نوصي بشدة أن تأتلف كلمة المقاتلين جميعاً من المنضوين تحت سلطة الدولة الشيشانية أو الآخرين الذين مع شامل باسييف وخطَّاب، ولا بد أن تكون قياداتهم موحدة وجهودهم متحدة.

ومن أهم ما نحث عليه بشدة هو أن تتوجه قلوب الشيشانيين إلى الله ـ تعالى ـ وحده، فيبتهلون إليه ويكثرون من الدعاء مع الإلحاح على ربهم أن يتولى أمرهم وأن يظهرهم على عدوهم اقتداءاً بهدي النبي ﷺ في دعائه لربه ـ جل وعلا ـ يوم بدر.

وأما العامل الروسي فيتشكل من عدة عناصر:

الصراع السياسي داخل الكرملين والبرلمان (الدوما):

إن هذا الصراع لا يزال يزداد تأججاً يوماً بعد يوم؛ حيث إن يلتسين قد فقد كثيراً من قدرته القيادية قبل تقديمه استقالته، وزمام الأمور ليس متركزاً في شخصية بعينها، رغم أن فلاديمير بوتين رئيس الوزراء الحالي ورئيس الدولة بالنيابة هو الشخصية الطافية على السطح، إلا أن تحت الأكمة كثيراً من الخلافات والاضطرابات. ولذلك فإن عدم وجود القيادة السياسية الحاسمة سينعكس سلباً على توجيه دفة الحرب الشيشانية مما يعزز قدرات المجاهدين الشيشان على الصمود والتحوُّل إلى الهجوم.

الصراع داخل المؤسسة العسكرية:

إن هذا الصراع محتدم بين مختلف القيادات المشاركة في الحرب الشيشانية؛ حيث إن المخططين العسكريين للعملية الشيشانية واقعون في ارتباك شديد بسبب عدم قدرة القوات في الجبهات الأمامية على تنفيذ المهام الموكولة إليهم، مما أحدث أزمة ثقة بين القيادات المخططة والقيادات المنفذة. وستُظهر الأيام القادمة هذه الخلافات على السطح، وسيتبلور ذلك من خلال ما سنراه من إحالة عدد كبير من كبار الجنرالات إلى التقاعد، أو ربما إحالتهم إلى المحاكمة بسبب التقاعس أو الإهمال أو الهروب من ساحات المعارك.

ولا شك أن الخلافات داخل المؤسسة العسكرية الروسية يصب في النهاية في صالح المجاهدين الشيشان.

الصراع بين المؤسستين السياسية والعسكرية:

إن هذا الصراع بدأ يحتدم منذ الآن؛ حيث إن المؤسسة السياسية قد لاحظت أن الحسم في الشيشان لصالح روسيا ليس مؤكداً، إضافة إلى ظهور بوادر التراجع في القرار السياسي، في حين أن المؤسسة العسكرية تصر على المضي قدماً في حرب الشيشان إلى النهاية. والنهاية عندهم هي إعادة احتلال الشيشان والقضاء على قياداتها السياسية والعسكرية، والإبادة الجماعية لشعبها المسلم.

وقد هدد كبار القادة العسكريين بما فيهم وزير الدفاع بالاستقالة إن تدخلت القيادة السياسية لوقف القتال أو الحد من اندفاعه.

الجانب النفسي:

إن معنويات العسكريين الروس بدأت في التداعي بسبب شراسة المواجهة التي يلاقونها من المجاهدين الشيشان، مما عرقل تماماً الخطط الموضوعة لاحتلال تلك البلاد، خاصة أن الشتاء على الأبواب وأن بعض تشكيلات الجيش الروسي من المتطوعين المرتزقة غير القادرين على الصمود والقتال لفترة طويلة.

لقد اعتقدت القيادة الروسية بمؤسستيها السياسية والعسكرية أن حسم موضوع الشيشان سيتم سريعاً جداً ولن يستغرق إلا بضعة أسابيع في أبعد التقديرات، ولكن جاءت الوقائع على خلاف ذلك، وهذا الذي حدا بالقيادة العسكرية إلى تكثيف قصفها بالطائرات وراجمات الصواريخ وقذائف المدفعية واستخدام أشد الأسلحة فتكاً، مع توجيه كل ذلك إلى البنية التحتية الشيشانية وإلى جميع المدنيين العزل من السلاح بغية ممارسة أشد أنواع الضغط على المجاهدين الشيشان كيما يلقوا سلاحهم حفاظاً على استبقاء أهلهم وممتلكاتهم. إلا أن جميع هذه التقديرات الروسية ذهبت أدراج الرياح، وأطاح بها صمود المجاهدين الشيشان وبسالتهم في القتال.

الجانب الاقتصادي:

إن روسيا منذ انهيار الاتحاد السوفييتي وهي تعاني من أزمات اقتصادية شديدة، مما أدى إلى إيقاف العمل في عدد من المشاريع الإنمائية وتأخر الحكومة عن دفع الرواتب سواءاً للموظفين المدنيين أو المجندين العسكريين.

إن الحرب الشيشانية لن تستطيع الحكومة الروسية الاستمرار في تمويل تكاليفها، وستضطر إلى إيقاف الرواتب وكثير من مشاريعها الاقتصادية؛ فهي بين فكي كماشة، فإما أن توقف هجومها على الشيشان، وإما أن تنزلق اقتصادياً إلى قعر الهاوية، مما سيعزز دور المافيا وأعوانها، أو تعوِّم نفسها من خلال حصولها على تمويلات سرية من الدول التي تهاجمها في العلن، وأقصد بها الدول الغربية وأمريكا، أو تمويلات أخرى من (إسرائيل).

الجانب الاجتماعي:

إن الجانب الاجتماعي سيتأثر بمجموعة عوامل من أهمها عاملان:

الأول: الأزمة الاقتصادية التي ذكرتها وهذه ستؤدي إلى حرب أهلية أو اجتياح جماهيري لمؤسسات الدولة ودخول روسيا في فوضى عارمة لا يضبطها ضابط.

الثاني: أن أسراب التوابيت للقتلى الروس في الجبهات القتالية ستنساح إلى جميع المدن الروسية بدون استثناء، وسيكون همّ الجموع الجماهيرية في صبيحة كل يوم هو استقبال توابيت جديدة والتي تحوي داخلها أشلاءاً ممزقة ستمزق نفوسهم ثم تمزق دولتهم ـ إن شاء الله تعالى ـ.

إن هذه الحال ستؤدي إلى فقدان الآباء والأبناء والإخوة، مما سيفكك الأسر الروسية ويبعثر اجتماعها ويرمي كل يوم إلى قارعة الطريق بأعداد غفيرة من الأطفال الذين لا عائل لهم يكونون فيما بعد قنبلة اجتماعية موقوتة ستأتي لدى انفجارها ـ والذي سيكون قريباً جداً ـ إن شاء الله ـ على الأخضر واليابس.

فخلاصة القول أن العامل الروسي يدفع روسيا إلى خسارة هذه الحرب ويقوي من عوامل انتصار المجاهدين الشيشان. وهذا ما ستثبته الأيام بإذن الله، وإن كان الثمن صعباً جداً.

وأما العامل الدولي: فإنه لا يصب الآن من الناحية الظاهرية في صالح روسيا؛ حيث إن أنباء المذابح التي يقترفها الروس ضد الشيشان جماعياً قد ملأت الآفاق وهذا قد دفع دول العالم أجمعين نحو زاوية حرجة، ومع تتالي الأيام والأسابيع أصبح من المؤكد أن يقول العالم شيئاً مًا بشأن تلك المذابح الهمجية. واشرأبت أعناق دول العالم الثالث نحو أمريكا وأوروبا تنتظر منهم موقفاً كي يقوموا هم بدورهم بصياغة مواقفهم على أساس ذلك الموقف الغربي. ومن المفارقة أن يجتمع مجلس الأمن بأعضائه جميعاً ويطالب الطالبان بتسليم رجل واحد هو (أسامة بن لادن) ولا يجتمع ليطالب روسيا برفع يدها عن قتل شعب بأكمله.

إننا لا نتوقع موقفاً حاسماً في إطار العامل الدولي، ولكن الدفة في هذا العامل من حيث العموم تميل شيئاً ما لصالح الشيشان لا من حيث الحصول على الاستقلال، ولكن من حيث إيقاف المجازر البشعة التي تقترفها الجيوش الروسية الجرارة، أو ربما مجرد الحد من تلك المجازر فقط لا غير.

الشيشان ومساءلة الآخرة:

«المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم»[1]. إن الدفاع عن حرمات المسلمين والوقوف معهم في المحن واجب شرعي. ولا يجوز للمسلم أن يسلم أخاه المسلم لأعدائه من الكفار والمنافقين. ونحن في موقف المساءلة يوم القيامة سنُسأل: ماذا فعلنا لنصرة إخواننا مسلمي الشيشان عندما أهريقت دماؤهم واستبيحت أعراضهم وأتلفت ممتلكاتهم وشردوا في كل صقع ومزقوا شذر مذر؟

ماذا فعلنا لنصرتهم عندما أرهقهم الخوف وغطتهم الثلوج وأفناهم الجوع؟

ماذا فعلنا لنصرتهم وقد لفتهم الأحزان وتعالت منهم الآهات وتألمت لأجلهم الآلام!!

ماذا فعلنا لنصرتهم وقد خرجوا من ديارهم هائمين على وجوههم لا يلوون على شيء، يتساقطون على الطرقات موتى لا يجدون من يدفنهم؟!

هل نصرناهم بالأنفس؟!

هل نصرناهم بالمال؟!

هل نصرناهم بالدعاء؟!

هل نصرناهم بالدفاع عنهم في المحافل داخلياً وخارجياً؟!

هل حاولنا أن نستشعر في نفوسنا ما يشعرون هم به حقيقة وواقعاً؟!

أين علماء أمة المليار مما يجري في بلاد الشيشان؟!

صرخة مدوية أصرخ بها في آفاق كل العالم، لعل المسلمين يسمعونها: أن هلموا لنجدة إخوانكم في الشيشان، وامتطوا صهوات التضحية والفداء.

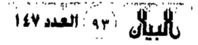
إن هذه الأمة لا تحيا إلا بالجهاد، فعندما تركته ماتت أو أوشكت. إن المجد لا يرتقيه الخائرون والمتقاعسون، بل يرتقيه المجاهدون والمضحون.

إن المسلم الحق له في قلبه عينان: عين على الدنيا، وعين على الآخرة؛ فكأنما يبصرهما جميعاً في آن واحد، فيجعل دنياه حرث آخرته.

فهل نجعل من نصرنا لإخواننا المسلمين في الشيشان وفي كل مكان زاداً لنا عند لقاء ربنا؟!

---

(١) رواه أبو داود والنسائي، ح/ ٤٦٦٥.





إفريقيا.. استقلال أم استغلال؟

الحسن عمر الفاروق جارا

كان وجود الاستعمار بأجلى صوره، وأقصى أنواعه الاستغلالية واتجاهه نحو تنصير شعوب القارة الإفريقية دافعاً بشكل كبير لظهور الميول الاستقلالية لدى كثير من شعوبها، ومعها نشأت اتجاهات الكفاح المسلح من أجل تقرير المصير.

ثم تطورت تلك الحركات من المراحل السلمية ـ حيث استخدام الإعلام والمحافل الدولية ـ إلى العنف بعد إحكام السيطرة، واستخدام السلاح والقوة؛ فرصد الغرب الاستعماري تلك الحركات، وتدارك الميول الجديدة في إفريقيا التي باتت هي الاتجاه السائد، وبسبب التطورات التي حدثت في العالم، رأى الاستعمار أنه من الأفضل لمصالحه أن يلتقي مع تلك الاتجاهات وهي لا تزال ضعيفة وفي بداياتها غير المتطورة؛ بدلاً من أن يصطدم بها ويساعد بذلك على بلورتها في اتجاهات خطيرة عليه في المستقبل، كخلق حالة من النهوض واليقظة، تتوسع لتشمل إفريقيا كلها[1].

بل أدرك الغرب عن كثب أن حالة كهذه لن يكون المرفوض فيها هو الوجود الاستعماري فحسب؛ بل يقود ذلك إلى رفض أفكاره، وما تتضمنه من نظرة أداء «رسالة الرجل الأبيض» في توعية الرجل الأسود وتحضيره (حسب زعمهم) والتي معناها: النظر إلى المستعمرات على أنها أقاليم منتجة لصالح الرجل الأبيض، وقد أوجدت تلك السياسة الاستعمارية ردود أفعال قسمت السكان في البلدان الإفريقية إلى فئات ثلاث:

ـ **الفئة الأولى**: وتضم جماهير كل الشعب من الذين وقفوا على الحياد بحكم عوامل موضوعية أهمها: عدم القدرة على استيعاب حقيقة ما يجري حولها، وذلك باعتبار أن الغالبية العظمى كانوا ولا يزالون في عداد الأميين.

ـ **الفئة الثانية**: وهي التي قبلت فكرة الدمج وتحمست لها لأسباب مختلفة: إما بفعل العامل الثقافي، أو نتيجة للسياسة التي ابتدعها الاستعمار تطبيقاً للمبدأ التقليدي: «فرّق تسد»، كما نجد المثال على ذلك فيما عرف بنظام المناطق الأربعة في السنغال، ويعني منح الجنسية الفرنسية بصورة تلقائية لكل من يولد في المدن الأربعة الآتية: سان لويس ـ روفسك ـ غوري ـ داكار.

ـ **الفئة الثالثة**: وتضم الثائرين بدوافع وطنية الذين رأوا في الاستعمار شراً مستطيراً يجب محاربته، فوضعوا تصورهم موضع التنفيذ،

(١) مقدمة في الصحافة الإفريقية ـ عواطف عبد الرحمن ـ سلسلة كتب إفريقيا ص ٩٢ ـ ٩٧ .

ونظموا حركات المقاومة المسلحة. وكانت المحصلة نمو الأفكار التي يسميها الإعلام الغربي بـ (الأفكار المتطرفة). وهذه الفئة هي التي جابهت الاستعمار منذ البداية، وسعت جادة للحيلولة دون تحقيق التكالب الغربي، وعملت لتوحيد أبنائها، وإيجاد التغيير الجذري لرفض ثقافة الغرب ونظرياته، ثم إخراجه، ولكن تم قمعها بشراسة من المستعمر.

وقد مثلت تلك الحالة عملية انفصال عميق بينه وبين إفريقيا امتدت لأجل طويل.

يضاف إلى ذلك وصول بعض الأفارقة إلى مستوى ثقافي عال، فتفتحت عيونهم على الأوضاع في بلادهم، وانتبهوا إلى ضرورة أداء واجبهم نحوها، ثم الاحتكاك الثقافي والحضاري بين الأفارقة وغيرهم أثناء الحروب التي فرضت عليهم أن يشاركوا في تحمل ويلاتها دون أن يجنوا ثمار تلك التضحيات، إلا أنها ساعدت على تبلور الوعي السياسي عندهم.

وأكثر من ذلك؛ فالمؤتمرات الإفريقية الآسيوية التي عقدت بعد الحرب العالمية الثانية بالذات، والتي أظهرت لشعوب القارتين وحدة الأهداف ووحدة المصير - هذه العوامل ساهمت بشكل فعال وأيقظت روح التحرر والمقاومة والسعي إلى تقرير المصير لدى الأفارقة؛ ولم يستطع الاستعمار إزاء ذلك أن يستمر في فرض سيطرته على شعوب القارة ودولها، بل أيقن أن الاستقلال أصبح وشيكاً وأكيداً بعد الحرب العالمية الثانية.

ففي عام (١٩٥٧م) أصبحت (غانا) أول دولة مستعمرة في غرب إفريقيا تحصل على استقلالها. ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام (١٩٧٥م) تم استقلال جميع الدول المستعمرة في غرب إفريقيا وتحررت من السيطرة الأجنبية شكلياً؛ وبقيت رهن إرادة سيطرة الأجنبي في مؤسساتها باستثناء عدد قليل نسبياً - وسمي عام (١٩٧٥م) عام إفريقيا.

المشكلات الإفريقية:

يتضح أثر السياسات الاستعمارية فيما عانته - ولا زالت تعانيه - الدول الإفريقية من مشكلات اقتصادية، واجتماعية، وسياسية. وقد برزت مشكلات الحدود على قمة المشكلات الإفريقية، وفيما يلي عرض لأهم هذه المشكلات:

١ - مشكلات الحدود السياسية:

عندما نالت الدول الإفريقية استقلالها لم يكن أمامها مفر من أن تقبل بحقيقة الحدود السياسية المصطنعة. وترجع هذه المشكلة إلى الأسس غير المنطقية التي خططت على أساسها الحدود بين مناطق النفوذ الأوروبي في القارة؛ وفي الواقع فإن دول غرب إفريقيا من أكثر دول القارة الإفريقية تأثراً بعملية التجزئة التي اتبعتها القوى الاستعمارية الأوروبية في إفريقيا؛ حيث قامت بتقسيم القارة إلى وحدات استعمارية متعددة تصل إلى إحدى وأربعين وحدة سياسية، وقد بدأت في تقسيم تلك الوحدات نفسها على أسس عرقية وقبلية، وكان ذلك واضحاً تماماً في غرب إفريقيا الفرنسية A.O.F منذ أن أصدرت فرنسا قانون عام (١٩٥٦م)[1] (Lois Ca-dre)، الذي نص على اختيار (جمعية وطنية إقليمية منتخبة)... مما ساعد على إيجاد سلسلة من الدول الضعيفة، بدلاً من توحيد الإقليم في اتحاد فدرالي قوي قد يناوئ السياسة الفرنسية في المنطقة... ولم يكن من المستبعد عودة القوى الإصلاحية - التي تبدو غائبة عن الساحة، وعن مجريات الأمور السياسية - إن هي أفسحت المجال لقيام مثل هذه

(١) راجع بنود ذلك القانون وتفاصيله في كتاب (إفريقيا فصول من الماضي والحاضر)، لطاهر أحمد ص ٢٠٠، ٢٠٤.

> مؤتمر برلين الجائر زرع ألغام الحدود السياسية في إفريقيا منذ قرن، ولا تزال تتفجر لليوم بين حين وآخر

الاتحادات... لذا ضغطت فرنسا على داهومي (بنين حالياً)، وبوركينا فاسو للانسحاب من الاتحاد الفيدرالي المشار إليه الذي كان من شأنه أن يكلف فرنسا في المستقبل ثمناً باهظاً، وجاءت الوحدات السياسية مثقلة بالمشاكل التي ستكلل مسيرتها وتتغير بسببها جهود التغيير والإصلاح؛ وتتضح هذه الحقيقة أيضاً إذا نظرنا إلى هذه الوحدات نظرة فاحصة ثم إلى خريطة القارة قبل عام (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م) فقد تم رسم هذه الحدود بشكل يتنافى تماماً مع الوضع الطبيعي لأي تقسيم سياسي. فنجد مثلاً (غامبيا) التي رفضت سياسة الاستيعاب تعتبر جزءاً من جمهورية (السنغال) فهي تقع في وسط السنغال. بجانب ذلك نجد (توجو Togo لاند)، وحدة اصطناعية، فأهلها يشبهون سكان البلاد المجاورة (غانا ـ بنين)، وأقسامها الجغرافية هي أقسام جيرانها[1] فشعب (الأيوي ـ مينا Minai) الساحلي كان قبل التحرر موزعاً بين النفوذ البريطاني (غانا)، وفي توجو الفرنسية، وفي جزء من داهومي، مع فروق جوهرية في الخلفيات الحضارية، وقد انتهى الأمر بعد عهد التحرر إلى تكوين جمهورية غانا، وجمهورية توجو، وبنين. وإلى جانب هذا تكمن المشكلة القبلية في كثير من الوحدات السياسية، (كالهوسا) في شمال نيجيريا؛ حيث ينتشر أفرادها بين نيجيريا والنيجر والكاميرون. ولقد برزت مشكلات الحدود بصورة واضحة فيما يلي:

- نزاع دائم بين الكاميرون ونيجيريا على الحدود بسبب الخلاف على تحديد مناطق التنقيب عن البترول.

- مشكلات الحدود بين مالي، وبوركينا فاسو، (والجزائر، والنيجر، وليبيا) التي أدت إلى الاقتتال بين مالي، وبوركينا فاسو عام ١٩٨٣م.

- مشكلة الحدود بين موريتانيا، والسنغال؛ حيث نشبت في نيسان (١٩٨٩م) مشكلة حادة بينهما، بدأت بأحداث بسيطة في المنطقة الجمركية على نهر السنغال، وانتهت إلى اشتعال فتيل القتال بين الموريتانيين البيض، وأبناء الجالية السنغالية في البلاد، وبين الزنوج (الموريتانيين السود) أنفسهم.

وستظل مشكلات الحدود الإفريقية هذه بشكلها الراهن إلى أجل يصعب التكهن به، وهي من الآثار السياسية التي تعاني منها القارة منذ استقلالها إلى اليوم، وهي ثمرة مؤتمر برلين الجائر (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م).

٢ ـ مشكلات اقتصادية:

من المشكلات الحادة التي تواجه دول إفريقيا دون استثناء مشكلة التخلف الاقتصادي منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن؛ إذ كان للاستعمار الغربي وخاصة الفرنسي نفوذ واسع النطاق في مختلف بلدان القارة.

فقد خلفت السيطرة الاستعمارية ـ بشكل عام ـ وراءها أوضاعاً اقتصادية متخلفة جعلت الدول

(١) إفريقيا والعلاقات الدولية، عبد العزيز رفاعي، ص ٢٢٣ ـ ٢٣٧، دار الثقافة بالقاهرة. وانظر: (إفريقيا ـ دراسة في شخصية القارة وشخصية الأقاليم) لمحمد عبد الغني سعودي.

الإفريقية تواجه صعوبات جمة في سبيل تنمية مواردها ورفع مستوى معيشة شعوبها بمعدلات سريعة؛ ذلك لأن البنية التحتية للاقتصاديات الوطنية كان قد تم اقتلاع أسسها، بالإضافة إلى نهب الموارد التي كانت ستمثل دعماً مهماً للنظم التي ستقوم مستقبلاً لبناء الاقتصاد الوطني بشكل قوي.

وقد أدى النمط الاقتصادي الذي أرسته فرنسا وإنجلترا في المنطقة إلى جعل مستعمراتها مرتبطة بها على وجه الخصوص بروابط اقتصادية وثيقة من الصعب التغلب عليها.

فبعد أن تم تقسيم إفريقيا لمناطق نفوذ بين الدول الأوروبية في مؤتمر برلين، خرجت هذه الدول بعد عصر الاستعمار، وهي تعاني من نتائج السيطرة الأجنبية على مواردها الاقتصادية، واستنزافها لصالح الدول المستعمرة، والتي تتمثل في قلة الخبرة الفنية، وعدم توافر رؤوس الأموال الوطنية، وسوء استغلال الثروة القومية، وارتباط الاقتصاد الإفريقي باقتصاديات الدول الاستعمارية، وقصور وسائل النقل والمواصلات.

وبالرغم من أن القارة الإفريقية تعد من أغنى قارات العالم، بالنظر لثرواتها الطبيعية وموارد القوى الموجودة فيها، إلا أن ٨٠٪ من الدول الإفريقية تظهر في ذيل القوائم العالمية الخاصة بثلاثة عشر مؤشراً للرفاهية الاجتماعية.

وقد قال الرئيس د. نكروما في كتابه: «الاستعمار الجديد La nouvélle colonisation»: «أرضنا غنية، ولكن منتجاتها التي تأتي من فوق تربتها ومن تحتها لا تعمل على إثراء الإفريقيين أنفسهم، بل جماعات وأفراد آخرين يعملون على أن تظل القارة في حالة فقر...» (١).

٨٠٪ من دول إفريقيا تظهر في قائمة الدول الفقيرة بالرغم من أنها من أغنى القارات

وإذا دققنا النظر في الأوضاع الاقتصادية لهذه الدول نجد أن مشكلاتها تزداد حدَّة بسبب محدودية الاستفادة من مواردها الطبيعية؛ فنجد أن ميراث الماضي ما زال يؤثر على القاعدة الاقتصادية مما نتج عنه اقتصاد متخلف، ومستوى صناعي وتكنولوجي متأخر.

هذا بالإضافة إلى نقص في البنية الأساسية، والخدمات الرئيسة، وصغر حجم السوق المحلية. هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى الاعتماد الكبير على الاستيراد؛ نظراً لمحدودية الإنتاج الصناعي في هذه الدول، وافتقارها إلى المهارة الفنية التي تجعلها تحافظ على مقدرة فنية عالية، والاعتماد على رأس المال الأجنبي، والتكنولوجيا الأجنبية.

إن ميراث العهد الاستعماري ميراث ثقيل على كاهل الدول الإفريقية المستقلة بلا جدال، وسيبقى لفترة طويلة عاملاً مؤثراً في توجيه العلاقات الثقافية والاجتماعية بين دول القارة، وتمكين القوى الخارجية من التدخل في قضايا المنطقة الداخلية... وليس من شك كذلك في أن الدول الإفريقية ستحتاج إلى فترة طويلة للتخلص بشكل نهائي أو جزئي من تلك التركة، لكن هذا العمل

---

(١) (الاستعمار الجديد آخر الإمبريالية) لكوامي نكروما، ترجمة: عبد الحميد بدوي، القاهرة، دار القاهرة للطباعة والنشر ١٩٦٦م، ص ١٥.

يبقى ضرورياً لكي تشهد القارة مستقبلاً ما يرشحها لأن تقوم بوظيفة جوهرية تتحقق فيه آمال وتطلعات شعوبها.

وإلى جانب التخلف الاقتصادي - مثلاً - ترى هناك جانب الاستقلال الوطني الذي له ارتباط وثيق وصلة عميقة بمسيرة هذا التقدم الاقتصادي... فالباحثون في الشؤون الإفريقية يرون أن العبرة ليست في الواقع بإعلان استقلال هذه البلاد، ورحيل المستعمر؛ بل بتصحيح العلاقات التي تربط المستعمر السابق بالشعوب الإفريقية، هذه العلاقات التي جعلت هذه الشعوب أسواقاً للسلع الأوروبية، وجعلت أوروبا السوق الوحيد لمنتجات هذه الشعوب وثرواتها المعدنية[1]. ولعل موازين مدفوعات، وإحصائيات التبادل التجاري في الدول الإفريقية توضح إلى أي مدى ارتبطت هذه الدول بالدول الأوروبية.

ولأن إفريقيا من أكثر القارات تأثراً بعملية التجزئة التي اتبعها المستعمر؛ حيث قام - كما أسلفنا - بتقسيم القارة إلى إحدى وأربعين وحدة سياسية، ثم قام بالتعاون مع الفئات التي استلمت زمام الحكم في الدول المستقلة بعملية خطيرة قديماً وحديثاً للحيلولة دون توحيدها لتكوين وحدة سياسية واقتصادية.. هذه العملية نفذها الغرب عن وعي، وتعاونت معه تلك الفئات الإفريقية في الغالب دون وعي، ويحاول الفكر الغربي وأعوانه إعطاء هذا الوضع طابع التحرر والموقف الإنساني؛ وهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك؛ فهو صادر عن الموقف الاستعماري ذاته ولخدمة المصالح الأنانية ذاتها... ولا يعدو هذا التسويغ أن يكون أسلوباً لمواجهة الظروف المستجدة نحو الوحدة... وإلا فالاستعمار بقي كما هو ولم يتغير مضموناً.

وإن كانت الحاجة ملحة إلى إحداث تغيير شامل في الأوضاع القائمة في القارة بدءاً بتحرير كل المنطقة من الهيمنة الخارجية التي اختلفت شكلاً عن الأسلوب الاستعماري المباشر، واتفقت معه موضوعاً، فإن الضرورة تلح كذلك على أن يتم تهيئة المناخ للإنسان الإفريقي، ليصبح قادراً على التخلص من السلبيات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية التي تعاني منها الدول الإفريقية.

وإذا كانت معظم هذه الأمراض الفكرية والنفسية ترجع جذورها إلى الطريقة الاستعمارية التي كانت تسعى إلى خلق مثل هذه العقلية في المنطقة، والتي تتجاوب مع متطلبات بقائها في القارة؛ فإن هذا لا يدعونا إلى إلقاء التبعة على الماضي فقط، ولن يعفى أبناء إفريقيا من المسؤولية.

وهذا التغيير لا يحدثه التعلم، ولا زيادة الدخل، أو الصحة، بل الأمر متعلق بالسلوك والأخلاق، والشخصية الإنسانية من جميع النواحي في قرار المواطن؛ وليس هذا مستحيلاً في الحياة البشرية؛ فقد أحدث الإسلام ذلك في رعيله الأول، حتى جمع الجباة أيام عمر بن عبد العزيز الزكاة والصدقة في

(١) فهيئة الطاقة الذرية الفرنسية مثلاً تسيطر على معظم إنتاج (اليورانيوم) في النيجر؛ فعلى هذه الدول على الأقل تصحيح علاقاتها مع الدول الأوروبية؛ لأن قطعها في ناحية من النواحي يعني استعجال موتها وزوالها في ظل الأوضاع الدولية المتغيرة، وفي ظل الأنظمة السياسية القائمة فيها... فعلى سبيل المثال يلاحظ مدى انخفاض المساعدات الأوروبية لهذه الدولة وتحويلها إلى أوروبا الشرقية، بل لم يكن أحد يتوقع تخلي فرنسا بهذه السرعة عن مجموعة منطقة (CAF) بعد ضغوط أمريكية متكررة، فانخفضت قيمة (السيفا) في ١١ يناير ١٩٩٣م - ولا أحد يتكهّن بالإجراءات التي ستتبع هذا الانخفاض، ولا ماذا تنوي هذه الدول فعله إزاء اقتصادياتها مستقبلاً... فالأوروبيون يؤكدون عزمهم على عدم تحمل أي مسؤولية تجاه هذه القارة... واسترعى ذلك انتباه السيد ميشيل كمدسوس المدير العام لصندوق النقد الدولي وأكد بأن إفريقيا «قارة ضائعة». انظر: لوموند ديبلوماتك العدد 26H، مايو/أيار ١٩٩٤م، السنة الثالثة ص ٨.

إفريقيا ولم يجدوا من يأخذها.

فالأوضاع السلبية المترسبة من آثار الاستعمار في إفريقيا الغربية تنتظر نفوساً تؤمن بالمساواة وتنبذ القبلية والأنانية والطمع، وتأخذ بيد الجميع إلى السعادة والرفاهية، في المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية؛ لكن نجاح هذه العملية المبدئية لن يتم إلا عندما توجد القيادة التي تمثل النموذج الذي ينظر إليه العامة، فيعجبون به فيسيرون على خطاه.

٣ ـ مشكلات اجتماعية وسياسية:

إذا اتجهنا نحو القضايا والمشكلات الاجتماعية، وهي غالباً ما تكون مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقضايا والمشكلات الاقتصادية، وجدنا أن الأغلبية الساحقة من الحكام الأفارقة تدرك حق الإدراك أنها عاجزة عن إحداث تغيير جوهري في الظروف التي ما زالت مجتمعاتها فيها بعيدة عن إمكانية الاكتفاء الذاتي، كمشكلة القضاء على الجوع، أو تقديم الخدمات الطبية والتعليمية الشاملة... إلخ، ناهيك عن جملة قضايا البيئة، مما ينعكس سلباً على الأوضاع الاجتماعية في إفريقيا كلها.

والذي تجدر الإشارة إليه هنا أننا نرى أنه بالرغم من الأزمات الاقتصادية الحادة التي تعاني منها الدول الإفريقية؛ فإنها تتمادى في اقتطاع مبالغ هائلة للحصول على الأسلحة في حين تعمل الدول المتقدمة على تقليل نسبة الإنفاق على التسلح وزيادة نسبة الإنفاق على نواحي الرفاهية الأخرى مثل الصحة والتعليم، وليس أدل على ذلك من دولة عظمى مثل: الولايات المتحدة الأمريكية التي قامت بتخفيض نسبة الإنفاق على التسلح ورفعت نسبة الإنفاق على التعليم والصحة؛ ففي خطة الموازنة لعام ١٩٩٥م التي وضعتها إدارة الرئيس الأمريكي كلينتون تم تخفيض موازنة الدفاع بنسبة ٣٪ عن موازنة عام ١٩٩٤م بينما تم رفع موازنة التعليم بنسبة ٥٪ وموازنة الأمن الاجتماعي بنسبة ٥٪[١].

وإذا كانت الدول المتقدمة تعمل على تصريف هذه الأسلحة إلى الدول النامية بأي ثمن كان؛ فمعظم أقطار دول غرب إفريقيا تغالي في تخصيص الإنفاق الحكومي على الدفاع على حساب التزاماتها نحو رفع مستوى الخدمات الاجتماعية؛ فاقتطاع جزء من تلك النفقات يمكن أن يوجه لإنتاج الغذاء اللازم للسكان.

وقراءة سريعة للائحة المساعدات العسكرية الغربية للدول الإفريقية تجعل الباحث يميل إلى ترجيح الرأي القائل بفساد الحكم والحكام، واختلاسهم لموازنات الدول ووضعها في حساباتهم الخاصة في البنوك الأجنبية، سواء كان ذلك بإيعاز من الخارج أو لقلة إدراكهم وشعورهم بالمصلحة العامة. وإن كان يصعب إثبات ذلك، إلا أن ما يتم نشره من أرقام عن ثروة بعض الحكام بعد خروجهم من الحكم يرجح هذا القول.

فالتحيز إلى جانب الإنفاق العسكري لا يمثل هذه المبالغ، ولا يمكن تسويغه بحجة الحفاظ على الأرض؛ فالحفاظ على المجتمع مطلوب أيضاً ومن شأنه التقليل من النفقات العسكرية لأداء خدمات الدولة الأخرى التي تعتبر ضرورية كالصحة والتعليم... فالخطر الأكبر الذي يهدد العديد من هذه الدول اليوم لم يعد افتقارها إلى الأمن الكافي (طبعاً باستثناء بعض دول المنطقة) ولا مواجهة عدو أو معتدٍ خارجي، ولا حتى القضاء على العناصر التي تزعم أنها تهدد الوحدة الوطنية أو أمن الدولة؛

---

(١) The Washington Post , February, 8, 1994, P.1.

بل إن أشد ما يهدد هذه الدول في المجال الاجتماعي هو المجاعة التي تنذر بإبادة السكان.

وتزداد خطورة الوضع الاجتماعي خصوصاً في منطقة جنوب الصحراء؛ حيث تذكر الإحصاءات الصادرة عن البنك الدولي أن معدل نمو إجمالي الناتج القومي للمنطقة في الفترة من: (١٩٨٥ - ١٩٩٠م)، يتراوح ما بين (١٪ و ١,١٪)، وهو معدل منخفض للغاية، وعلى المدى الطويل فإن نصيب الفرد من إجمالي الناتج القومي لعام (٢٠٠٠م)، سيقدر بـ (٢١٨ - ٣١١ دولاراً سنوياً)، بالنسبة لمعظم البلدان الإفريقية ذات الدخل المنخفض[١]، ويوضح الدكتور عصام الدين جلال انعكاسات هذا الوضع بأن هذه المنطقة تحتل مركزاً متأخراً في مجال التنمية التي هي إحدى ركائز التقدم الاجتماعي؛ يضاف إلى ذلك ثلاثة من المؤشرات الرئيسة للتنمية وهي: نصيب الفرد في إجمالي الناتج القومي - معدل القراءة والكتابة - ثم متوسط العمر المتوقع.

إن إفريقيا وهي تواجه مشكلة الجفاف المتزايد، تقف دولها اليوم عاجزة أمام التزايد السكاني في القارة، وهي غير قادرة على توفير الطعام اللازم لمواطنيها، بل إن التزايد السكاني يحد كل يوم من نصيب الفرد في الموارد الغذائية المتاحة، فيؤدي ذلك إلى مزيد من التعقيد للمشكلات، كما يسهم عدم الاستقرار السياسي إلى حد كبير في ازدياد مشكلات هذه الدول؛ فكثرة التغيير في أنظمة الحكم، وتوالي الانقلابات العسكرية في القارة، لها عواقب وخيمة على الدول الإفريقية، خاصة أن الحكومات الجديدة قلَّما تبذل جهداً كافياً من أجل التوفيق والمصالحة بين الأطراف المتنازعة[٢]، بل ترفض الحل الوسط وكل ما من شأنه أن يكون لصالح البلد؛ وهذا ما حدث في زائير مثلاً عام ١٩٩١، وتكرر في عام ١٩٩٣م؛ إذ رفض الرئيس موبوتو (MOBOUTO) الانصياع لإرادة الشعب وذلك بدعم من فرنسا وبلجيكا... وهي المشكلة عينها القائمة في توجو في حكومة الرئيس أباديما نياسبي.

وهناك أيضاً مشكلة تدخُّل الحكام في تزوير أو إلغاء الانتخابات، كما جرى في الانتخابات التي جرت في مالي (في مايو/ أيار ١٩٩٢م) وفي توجو ونيجيريا.

ويجدر هنا أن نشير إلى ما تواجهه غالبية الدول الإفريقية من مشكلات عرقية وقبلية، وقد برزت هذه المشكلات بشكل خاص في كل من سيراليون ونيجيريا.

"النسبة الأعلى من الشعوب الإفريقية لم تتأثر بموجات الغزو الثقافي الأوربي، ولا تزال تحمل حنيناً للإسلام"

(١) عصام الدين جلال. التنمية التكنولوجية كقاعدة أساسية للتحرر والأمن الإفريقي، السياسة الدولية، العدد ٧٩ يناير ١٩٨٥م، ص ٩٦.
عبد المنعم المشاط، دراسة أصول ظاهرة التخلف في العالم الإسلامي، السياسة الدولية، العدد ٩٩ يناير ١٩٩٠م، ص ٦٤٠ وما بعدها.

(٢) ياني أويس، الأمن الإفريقي آثار القيود الاجتماعية والاقتصادية وعدم الاستقرار السياسي، السياسة الدولية، العدد ٧٩ يناير ١٩٨٥، ص ٨٩ - ٩٠.

٤ ـ مشكلات تعليمية:

الموضوع الذي يطرح نفسه دائماً وبإلحاح في عرضنا للمشكلات الإفريقية بعد الاستقلال هو أن الأوضاع الإفريقية التي تشكلت بعد الانسحاب الاستعماري هي نفسها الأوضاع الموجودة الآن كما أسلفنا.. ويتأكد هذا الواقع أكثر فأكثر في المجالات التعليمية، والثقافية.

فبعد أن تم التكالب والسيطرة الأوروبية على هذه الدول كانت المحصلة النهائية هي فرض ثقافة موحدة على هذه الدول، شأنها في ذلك شأن الأوضاع السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، وبالرغم من أن أثر هذا الفرض ودرجته قد اختلفت من بلد إلى آخر، ومن نوع حكم استعماري لآخر؛ إلا أن العناصر الأساسية بقيت قائمة ومنسجمة؛ ذلك أن تلك الدول تنهل من الحضارة ذاتها، ومن معين الثقافة نفسها، ولكن الذي يجب ألا ننساه في الوقت ذاته تلك المبالغات في تعميم تأثير تلك الثقافات على دنيا سكان القارة من بعض الكتاب في الشؤون الإفريقية؛ فبالرغم من تطابق التجربة التي خاضتها المجتمعات الإفريقية في كل مكان؛ يبقى تأثير الثقافات الأوروبية وأفكارها ـ عشية الاستقلال ـ مقصوراً على جزء صغير من السكان في أي بلد، وهي المجموعة الصغيرة التي وجدت هويتها مع القيم الثقافية للنظم الاستعمارية والتي تدّعي بأنها (النخبة التي قبلت الإيديولوجية الغربية، واندمجت مع سياسة الاستيعاب).

أما الجماهير الريفية ـ والتي نكاد نجزم أنها مسلمة في أكثر المناطق ـ فقد رفضت الاستيعاب وقاومته، وهي تشكل (٨٠٪) من السكان الإفريقيين الذين لم تمسهم تلك المؤثرات الغربية الأوروبية[١].

فتأثير الثقافات الغربية الوافدة على مستوى القارة الإفريقية غير متوازن؛ فمن البلدان من استجاب نسبياً لهذه الثقافات، ومنها من حاربها وقاومها مقاومة شديدة، وفي شرق إفريقيا وغربها؛ حيث دخل الإسلام ولعب دوراً هاماً؛ إذ استطاع المسلمون أن يغيروا الكثير من المفاهيم القديمة لتحل محلها المفاهيم الإسلامية والقيم الروحية التي من شأنها أن تسمو بالإنسان، وترفع من شأنه ومستواه في عدة مجالات؛ لذلك فإنه عندما وفدت الثقافات الغربية، والتيارات الفكرية الأخرى لم يكن من السهل عليها أن تجد الطريق ممهداً أمامها كي تؤثر على هؤلاء الذين عرفوا المنهج الإسلامي والتربية الإسلامية الصحيحة، فقاوموا كل تيار وافد عليهم، وظل الإسلام ينتشر في ربوع القارة، ولكن ذلك لا يعني أن غيرهم لم يتأثروا بالأفكار الغربية وقيمها وثقافتها فيما بعد بشكل مطلق؛ ذلك لأن المستعمر استعمل شتى الوسائل والطرق والأساليب المتنوعة لفرض قيمه الثقافية والفكرية، ولم يجد المسلمون بُدّاً من التأثُّر بالواقع المفروض، فانخرطوا مع تلك القيم، وقبلوا الثقافة طوعاً أو كرهاً كأمر واقع، ولم يحسنوا التعامل معها فانعكست النتائج عليهم سلباً، وأثرت في سلوك كثير منهم من حيث الوعي، وما عادوا يحملون من الفكر الإسلامي الصحيح إلا قليلاً، وأصبح حالهم كحال غيرهم من مجتمعات دول العالم الإسلامي؛ وهذا الواقع يستلزم اتخاذ خطوات جادة ومدروسة.

---

(١) عاطف محمود عمر، العلاقات الثقافية بين مصر والدول الإفريقية، المرجع السابق، ص ١٣ ـ ١٤ .

المسلمون في حوض البحر الكاريبي

محمد عبد الجبار

يمكن تقسيم أقاليم حوض الكاريبي إلى ثلاث فئات رئيسة حسب قوتها العددية وتطورها التنظيمي وحال المجتمع المسلم فيها:

الفئة الأولى تشمل: ترينداد وغويانا، والمسلمون هنا منظَّمون ويمثلون مظهراً للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

الفئة الثانية وتشمل: الأقاليم التي ظهر فيها الإسلام بطريقة طبيعية خلال العقدين الماضيين؛ ويتنامى فيها عدد المسلمين تدريجياً وهي: جمايكا، باربادوس، جرينادا.

الفئة الثالثة تشمل: أقاليم فيها تنظيم للمسلمين الجدد، وفيها مؤسسات إسلامية قد تكون موقعاً واحداً في كل من: دومينكا، سينت لوسيا، ستت فنسنت، برمودا، انتيجوا برمودا، جزر العذراء البريطانية، مونتيسرات.

ويتناول هذا المقال بالتفصيل الفئتين: الأولى، والثانية.

- ترينداد وتوباغو:

تتكون جمهورية ترينداد وتوباغو من: ترينداد والجزر الواقعة في أقصى جنوب الكاريبي، والمناخ هنا استوائي، وفصل الجفاف يمتد من يناير إلى مايو، أما اللغة الرسمية فهي الإنجليزية وهي الغالبة، بينما هناك من يتحدثون الفرنسية والأسبانية والهندية والصينية.

نبذة حول تاريخها الحديث:

استعمر الأسبانيون ترينداد عام ١٥٣٢م؛ ولكنهم تخلوا عنها للإنجليز في عام ١٨٠٢م. وقد جرى ترحيل الأفارقة إلى الجزيرة ليعملوا رقيقاً حتى عام ١٨٣٤م؛ حيث أُلغي نظام الرق، وقد أدى نقص العمالة إلى وصول أعداد كبيرة من الهنود والصينيين المهاجرين عمالاً بعقود لأجل محدد خلال القرن التاسع عشر.

في عام ١٨٨٨م انضمت إليها جزيرة توباغو التي كان قد جرى تسليمها للإنجليز عام ١٨١٤م، وأصبحتا وحدة سياسية وإدارية واحدة، وظلت المنطقة مستعمرة بريطانية حتى الاستقلال في ١٩٦٢/٨/٣١م، وكان أول حزب سياسي جرى تأسيسه هو «حركة الشعب الوطنية» PNM وكان ذلك في عام ١٩٥٦م على يد مؤسسه د. إريك ويليامز، وقد نجح الحزب

في الفوز بعضوية المجلس التشريعي في سبتمبر ١٩٥٦م، وأصبح د. ويليامز الوزير الأول للمستعمرة في أكتوبر ١٩٥٦. وفي عام ١٩٥٨ أصبح الإقليم عضواً في اتحاد الهند الغربية الذي جرى تأسيسه، وفي العام التالي حصل على الحكم الذاتي الكامل؛ حيث أصبح د. (ويليامز) رئيساً، وفي عام ١٩٦٧م أصبحت ترينداد وتوباغو أول عضو من الكومنولث في منظمة الدول الأمريكية، وقد أدت السياسات الاقتصادية الصارمة لخلفه (جورة شامبرز) إلى عدم الاستقرار في البلاد، ومن بين تلك الاضطرابات إضراب عمال مصفاة البترول في مايو ١٩٨٤م.



وفي الانتخابات التالية في عام ١٩٨٦م فاز الحزب الآخر NAR؛ حيث حصل على ٦٦٪ من مجموع الأصوات وعلى ٣٣ مقعداً من أصل ٣٦ من مقاعد مجلس النواب، وتم تعين روبنس رئيساً للوزراء، وفي مارس ١٩٨٧م تولى القاضي السابق (نور حسن علي) الرئاسة بعد تقاعد السيد إليس كلارك.

في ٢٧ يوليو ١٩٩٠م حاول بعض أعضاء «جماعة المسلمين» - وهي جماعة صغيرة يقودها ياسين أبو بكر - الاستيلاء على السلطة فدمروا رئاسة الشرطة في العاصمة، واستولوا على مبنى البرلمان وتلفاز الدولة، وحجزوا ٤٥ شخصاً رهائن من بينهم رئيس الوزراء روبنسن وبعض الوزراء وكانت مطالبهم هي استقالة رئيس الوزراء، وإجراء الانتخابات خلال ٩٠ يوماً ومنح العفو للذين قاموا بالمحاولة الانقلابية.

وفي أول أغسطس ١٩٩٠م استسلم أصحاب المحاولة دون شرط، ورُفض العفو الذي منحه لهم رئيس مجلس الشيوخ (جوزيف أمانويل كارتر) بوصفه رئيس الدولة بحجة أن ذلك العفو جرى تحت التهديد. وأُدين (أبو بكر) وزملاؤه بالخيانة العظمى؛ حيث كان قد قُتل حوالي ٣٠ شخصاً، وأصيب حوالي ٥٠٠ شخص خلال تلك الأيام الخمسة.

وفي الانتخابات التي جرت في ديسمبر ١٩٩٥م فاز حزب المؤتمر الوطني الموحد، والمسلمون الذين فازوا في الانتخابات المذكورة

> المسلمون فئات يعمل كثير منها لقوميته أكثر من دينه فهذا سر ضعفهم

هم : د . رضا محمد ، د . فؤاد خان ، رزاق علي ، د . حمزة رفيق ، وقد حصلوا جميعاً على مقاعد وزارية عدا د . فؤاد خان . وكانت رئاسة الوزارة للسيد بانداد .

حال المسلمين اليوم:

يعيش المسلمون في بيئة مختلطة لا في مجتمعات خاصة بهم ، ويشكلون حوالي ٦ أو ٨٪ من إجمالي عدد السكان الذين بلغ تعدادهم مليوناً ومائتي ألف نسمة سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

وصل المسلمون الأفارقة إلى ترينداد وتوباغو قبل الهنود المسلمين بحوالي قرن من الزمان ، وعلى أي حال ، فإن عدد المسلمين الهنود يفوق عدد المسلمين الأفارقة في الوقت الحالي بنسبة ٢٠ : ١ .

وحرية ممارسة الإسلام منصوص عليها في الدستور ، وتمنح القوانين السارية الحق للمسلمين في ممارسة أسلوبهم في الزواج ، والمنظمات الإسلامية تشملها القوانين السارية ، وتجد مجالس المدارس الإسلامية الدعم الحكومي ؛ كما أن المسلمين أنفسهم يحتلون مواقع مهمة في الحكومة والجامعة والقضاء .

ومن الوزراء المسلمين : السيد كمال الدين محمد ، والسيدة موريل فاطمة دوناوا ماك ويفدسون ، صافي شاه ، شمس الدين محمد ، كما أن حفيظة خان كانت عضواً في البرلمان . كما عمل يوسف جمال ـ رحمه الله ـ مدعياً عاماً . وهناك أسماء أخرى كثيرة عملت في وظائف حكومية في البرلمان الذي كان يرأسه لمدة ١٥ عاماً . د . وحيد علي وقد ترأس الحكومة في عدد من المناسبات .

وفي الوقت الحاضر يتولى القاضي شفيع شاهد ، والقاضي كليم رزاق ، والقاضي زينول حسين ، والقاضي مصطفى إبراهيم عضوية محكمة الاستئناف ، وهناك غيرهم في الهيئة القضائية ، أما الرئيس الحالي لجمهورية ترينداد وتوباغو هو القاضي حسن علي .

ومنذ الستينيات ومع افتتاح الجامعة كان حضور المسلمين واضحاً كبقية الأديان ، وهناك حوالي ٢٠٠ طالب من المسلمين في الجامعة ، وللأساتذة المسلمين دور واضح في الجامعة ومن بينهم د . نظير مصطفى (الرئيس الحالي لاتحاد مسلمي ترينداد) . وهناك الجمعية الإسلامية في الجامعة وقد أنشئت عام ١٩٦٩م ، وهي جمعية نشطة للغاية ؛ حيث تجتمع أسبوعياً . وبالإضافة إلى صلاة الجمعة فهناك دروس إسلامية ومحاضرات عامة ، واحتفال بالتخرج ، وعرض المطبوعات الإسلامية في مكتبة الجامعة خلال شهر رمضان على الأخص ، ويرتبط كل العاملين

في الدولة أو القضاء أو الجامعة بالعمل الإسلامي سواء على مستوى المؤسسات أو المنظمات أو الجماعات المحلية أو على المستوى التنظيمي. ويدل هذا على حرص المسلمين على مكانتهم؛ حيث يظهر صوتهم في تسيير شؤون البلاد.

حرية التعبير:

أول محاولة لإذاعة إسلامية قامت بها «رابطة البعثات الإسلامية» التي تأسست في أوائل الستينيات بقيادة محمد قمر الدين حسين ويوسف متشل، ولم تكن توجد موارد لتغطية نفقات البث في إذاعة ترينداد ولو لمدة نصف ساعة (٧٥ دولار)، فتقدمت امرأة مسلمة مسنة بتبرع ساعد على ذلك، وكان للبرنامج صدى طيب في ترينداد والكاريبي عموماً، واستمرت الدعوة لعدد من السنوات في شهر رمضان عبر التلفزيون والراديو وكذلك في مناسبات مثل: عيد الفطر، وعيد الأضحى. وفي الوقت الحاضر يوجد ٦ برامج إسلامية تُبَثُّ أسبوعياً عبر الإذاعة ينظمها عدد من المنظمات الإسلامية ويرعاها رجال أعمال مسلمون، وتشمل قراءات من القرآن الكريم مع ترجمة لمعانيه، إضافة إلى برامج دعوية وبعض الأناشيد.

وهناك فرصة لنشر الآراء الإسلامية عبر الصحف وإن كانت مثل غيرها في جميع وسائل الإعلام نادراً ما تظهر دون تحرير. ووسيلة الإعلام الوحيدة التي يملكها المسلمون هي: «اقرأ برودكشنز Iqra productions» التي أسستها فاضلة خان وزبار بخش عام ١٩٨٨م.

ومنذ عام ١٩٨٧م يظهر صباح كل سبت «أضواء على الإسلام» وهو برنامج مدته نصف ساعة، وتواصل ذلك حتى يوليو ١٩٩١م، وهي وسيلة إعلانية إلكترونية، وكان رجال الأعمال يتبرعون للبرنامج، وكثير من المنظمات الإسلامية ظهرت في مجال إنتاج اللوحات، وقد بلغت قيمة الإعلانات ٣٠٠٠ دولار للبرنامج الواحد مما قاد إلى نجاح ملحوظ.

وقد تم تسجيل البرنامج على شرائط بواسطة تلفزيون ترينداد وتوباغو وهي مؤسسة غير إسلامية وعلى أي حال فقد استطاع المسلمون بعد تجميع الأموال شراء معداتهم الخاصة بهم بقيمة ٧٠,٠٠٠ دولار وأسسوا الأستديو الخاص بهم. وقد توقفت البرامج التلفزيونية مؤقتاً بسبب التمويل. وهناك حاجة إلى موظفين دائمين؛ لأن المتطوعين يعملون نصف دوام، وكل الأعمال تحتاج إلى دوام كامل لتحقيق الأهداف، والبرنامج يواصل تسجيل تاريخ الإسلام في الجزيرة من الأشخاص كبار السن وهو عمل قائم بذاته ونأمل أن يعود عمل البرنامج على الهواء، وقد علمت من الأخ ميرزا أنهم تبنوا المشروع لإعادته لسيرته الأولى. وتحتكر إحدى الجماعات الهندية المسلمة المعروفة برنامجاً إذاعياً وتلفزيونياً في ترينداد وتوباغو؛ ولكن الهدف الرئيس - على الرغم من أن البرنامج يبدأ بآيات قرآنية - ليس نشر الإسلام بل توحيد الهنود من مسلمين وهندوس، وهو برنامج جاذب للشباب

> الأحوال الشخصية بين المسلمين ـ لا سيما الجيل الجديد ـ لا تحترم قيم الإسلام، ومن هنا نشأ الاضطراب الاجتماعي بينهم

من الجنسين ويلقى رواجاً رغم أنه ـ ومع الأسف ـ يضعف الروح الإسلامية فيهم.

النساء في ترينداد حصلن على التعليم الأكاديمي بعد تأخر طويل، وقد تأثرن بطريقة الطهي الهندية وحتى الملابس الهندية، ولكن من خرجت منهن للعمل بدأت تترك الملابس الطويلة وتلبس كما يلبس الغربيون، وإن كانت الروح الإسلامية قد عادت مرة أخرى، وعادت النساء إلى الزيِّ الإسلامي.

الزواج وتعدد الزوجات:

كان الآباء يتولون تزويج ذريتهم لسنوات مضت؛ ولكنْ تأثراً بالنمط الأمريكي فقد أصبح الاختيار ملكاً للمعنييْن بعد أن يلتقيا ويقررا ذلك، وهكذا نجد بعض التقاليد الغربية قد تسللت إلى المجتمع المسلم خصوصاً بين المتعلمين. ولكن لا تزال الأسرة والبنات اللائي يلبسن الحجاب ينظرن إلى اللقاءات خارج الأسرة بأنها سلوك غير إسلامي، ولا يزال بعض الأزواج الجدد يسكنون في منزل الأسرة حتى يجد المتزوِّجون عملاً وتتحسن ظروفهم الاقتصادية فيستقلون بمنازل تخصهم. وقد يكون أوضح ما يُظهر عدم الطبقية في المجتمع المسلم هو الزواج؛ حيث إن الأغنياء يوافقون على زواج بناتهم من أبناء الأسر الفقيرة إذا كان الزوج يتمتع بشخصية جيدة ويمارس الإسلام.

وحتى عام ١٩٦٣م لم يكن المهر يزيد عن ٢٥٠ دولار، ولكنه في الوقت الحاضر وصل إلى أضعاف مضاعفة، ويظل الوضع يعتمد على الحالة الاقتصادية للزوج، ويوجد تعدد الزوجات في أوساط «جماعة المسلمين».

الطلاق:

يُمارَسُ الطلاق عبر «محكمة طلاق المسلمين» التي أنشئت عام ١٩٦١م، وهي تمارس توجيه النصح وتقديم الاستشارات وتنفيذ الطلاق، ولكن مسائل النفقة وما إلى ذلك من توزيع للممتلكات أو نحوه فيتم على مستوى المحكمة العليا حسب القانون المدني. أما التزام الزوجين بالوفاء بالمتطلبات الشرعية فهي تعتمد كثيراً على مدى اتباعهما للمبادئ الإسلامية.

وتفيد «محكمة طلاق المسلمين» أنها تعالج حوالي ٢٠ حالة في كل شهر، ولكنها تؤكد أيضاً أن ٩٠٪ من الزيجات غير الناجحة هي بسبب زواج بين مسلمين وغير مسلمين؛ حيث تنشأ النزاعات بسبب المخدرات أو الكحول، ويستوي الرجل والمرأة في طلب الطلاق.

وتتكون هذه المحكمة من: رئيسٍ، ومحامٍ (مدعٍ عام)، وسكرتير، وعضوين يوضحان الحكم الإسلامي في الموضوع المعروض.

المشكلات الاجتماعية:

تنشأ معظم المشكلات الاجتماعية بسبب المخدرات والكحول والعري والسلوكيات الإجرامية، ويتعرض المسلمون لمثالب المجتمع الذي تتفشى فيه هذه الأشياء، وبفضل من الله أخذ الوعي ينتشر بين المسلمين، ولا يعني هذا عدم تأثرهم؛ فمنهم كثير يصيبهم ما يصيب الآخرين؛ ولكن لا توجد إحصائية تقول بأنهم أكثر من غيرهم. ويساهم وجود المنظمات الإسلامية في الجزيرتين في شغل أوقات الشباب مما يساعد على ابتعادهم عن هذه الأجواء بدرجة كبيرة.

المجتمع الإفريقي المسلم:

معظم الأفارقة هنا يعتبرون أنفسهم «عائدين» للإسلام باعتباره دين أجدادهم أو دينهم في الصغر. وكانت توجد شكوكٌ بينهم وبين المسلمين الهنود لظن الآخرين أن الأفارقة يدخلون الإسلام بغرض الزواج من بناتهم أو طمعاً في ثرواتهم، ويعود هذا إلى الجهل وعدم الإلمام بتعاليم الإسلام والفهم الصحيح للدين. أما الآن فقد تلاشت إلى درجة كبيرة هذه الشكوك، وبدا واضحاً الاندماج بين المسلمين.

ويعود الوضع الاقتصادي المتردي للأفارقة المسلمين لأسباب طردهم من عائلاتهم، وللأسف، فإنه لا يوجد صندوق أو آلية اقتصادية تساعدهم على الاعتماد على أنفسهم حتى لا يعودوا إلى الجاهلية، وكثير من هؤلاء - وبسبب جهلهم - يعتقدون أن الإسلام هو الشيوعية وأن ما عند المسلمين يجب أن يكون مشاعاً بين الجميع، فإذا توافرت وسيلة لدعمهم بالتعليم أو توفير فرص العمل لهم فإن ذلك الجهل سوف يزول - إن شاء الله - ويفهمون الإسلام على حقيقته.

ظهرت جماعة «أمة الإسلام» في عقد الستينيات والتي تحولت إلى «المجتمع العالمي المسلم» بقيادة إليجا محمد في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تركز على الحقوق المدنية، وقد ظهر لها فرع في لافانتيل ترينداد وكانت دعوة عرقية أكثر من أن تكون دينية، وانضم إليها السود المطالبون بالحرية، ثم تطور الأمر إلى صراع على السلطة انقسمت بموجبه الجماعة إلى: أوزكانوك آآرت «جماعة المسلمين» و «جماعة المؤمنين».

إن إظهار الإسلام «الهندي» قاد تلقائياً إلى شعور بالعزلة لدى المسلمين الأفارقة؛ لأن البرامج في الإذاعة تقدم على أنها برامج هندية مما جعل الإسلام يعرف «بالهندي».

وعلى أي حال فإن في ترينداد أكبر جالية مسلمة في الكاريبي، وأكبر المنظمات والهيئات والمؤسسات الإسلامية والجماعات التي أثرت على حياة المجتمع المسلم بدرجة جيدة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: أين الجمعيات الخيرية الإسلامية الكثيرة من فتح مشاريع تنمية وتوعية للمسلمين في هذه المناطق؟ فهم أحوج ما يكونون لها حتى لا تتلاشى دعوة الإسلام القائمة بالجهود الفردية المحدودة التي يُخشى أن تموت بموت المتابعين لها إلا أن يشاء الله غير ذلك.

يرصدها: حسن قطامش

نار الحقد في.. نياكروم

لقد جرت سنة الله ـ تعالى ـ أن الصراع قائم والخلاف دائم بين أهل الحق وأنصار الباطل الذين ما فتئوا يوجِّهون سهامهم لحرب أهل الإسلام باذلين الغالي والنفيس مستخدمين في ذلك شتى الحيل والأساليب.

لكن لا بد لأهل الحق من تعاون وتآزر وتكاتف حتى يتحقق موعودهم ويحصلوا على مجدهم. وكان من آخر ما شهدنا من هذه الصراعات والابتلاءات ما وقع لإخواننا المسلمين في دولة غانا منطقة (نياكروم) من اعتداء غاشم آثم من قِبَل النصارى المعتدين الذين تمالأت معهم حكومة عابثة أغرتهم بترويع الآمنين وهتك ستور المظلومين. تقع مدينة (نياكروم) في الإقليم الأوسط لدولة غانا، وهي تبعد حوالي (٦٠ كلم) عن العاصمة أكرا.

يقطن هذه المدينة (٣٠٠٠) نسمة من المسلمين، وأكثرية السكان من النصارى والوثنيين البالغ تعدادهم (١٨,٠٠٠) نسمة.

ومن عادة الحكومة أن تنظم منافسات رياضية بين مختلف المدارس يشارك فيها طلاب جميع المراحل.

وفي عصر يوم الجمعة الموافق ١٤٢٠/٨/٤هـ أقيمت منافسة رياضية بين مدرسة المسلمين ومدرسة الكنيسة، فتفوق المسلمون في هذه المنافسة، فاشتعلت قلوب الكفار حنقاً وغيظاً، واستغلوا هذه الفرصة وجعلوها بداية الشرارة لإيذاء المسلمين إضافة إلى ما يبطنونه من عداوة وشر، وإلا فالحدث أقل من عادي في أي منافسة بين طلاب المدارس، لكنه الكفر الظالم والحقد الأعمى.

وفي ليلة السبت أضمر الخبثاء الشر والسوء وتواطؤوا على الفساد، ودبروا أمرهم وأجمعوا شركاءهم، فاشتروا كميات كبيرة من البترول ووضعوها في قوارير وجوالين وقرعوا طبول الحرب بأمر ملكهم الظالم استعداداً للهجوم الصباحي، فاجتمع الأوغاد وشنوا هجمة بربرية على الآمنين في البيوت والعاكفين في المساجد، وكانوا مدججين بالسلاح الناري والأبيض حاملين قوارير البترول، وقاموا بتهديم البيوت والمتاجر وأحرقوها بالنار بما فيها ومن فيها، كما بلغ الكيد مداه والسيل زباه عندما قاموا بتحريق وتمزيق المصاحف وهدم المساجد ودنسوا حرمة المساجد برجيعهم. مزقهم الله وشردهم.

[مكتب المنتدى الإسلامي ـ غانا]

وأخرى في كشمير

أعلنت لجنة تقصي الحقائق حول أوضاع حقوق الإنسان في كشمير التابعة للجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان أن القوات الهندية قتلت ٦٥ ألف مدني بين عامي ١٩٩٠م و ١٩٩٨م، وأجبرت كثيرين من السكان والأهالي على النزوح والهجرة من ديارهم، مضيفة أن هذه القوات أقامت كذلك ٦٣ مركزاً للتعذيب، وأن الجيش الهندي يمارس أسوأ ألوان التعذيب ضد المدنيين في كشمير.

[مجلة المجتمع، العدد: (١٣٨١)]

إن تنصروا الله ينصركم

نحن نملك سلاحاً لا تملكه الدول الكبرى، وهذا السلاح هو الإيمان بالله جبار السماوات والأرض، وهذا السلاح كافٍ لحسم المعركة إذا بذلنا ما نستطيع من أسباب القوة المادية والله يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] ويقول: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] ويقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ومع قلة عددنا في ميدان المعركة إلا أننا واثقون من وعد الله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فحينما يأذن الله بهزيمة الروس سنهزمهم ولو كانوا أكثر عدداً من ذلك.

[القائد الشيشاني، شامل باساييف، جريدة الشعب، العدد: (١٤٢٢)]

قول معروف خير من.. الأذى

إنني أوكد أن هذه الحرب - في الشيشان - ليست حرباً دينية، فالسبب الرئيس لهذه الحرب هو خط النفط من باكو إلى ميناء نوفوروسيسك الذي يمر عبر جورجيا، حيث يتم نقله إلى الغرب بواسطة الناقلات. كما أن هناك أسباباً مساعدة تتمثل برغبة بعض الجهات السياسية المتنفذة داخل وخارج روسيا بإبقاء التوتر في روسيا وإشاعة عدم الاستقرار فيها. فهناك الملياردير اليهودي الذي يحمل الجنسية المزدوجة (روسية - إسرائيلية) وهو بيروزيفسكي الذي يمد باسييف بالمال لإشعال الصراع، وهناك رئيس جورجيا شيفارد نادزه الذي يعمل على تدريب المسلحين في معسكر على الحدود (الأذربيجانية - الشيشانية) المشتركة للقيام بعمليات ضد روسيا.

[الشيخ محمد علي خوض، مساعد المفتي الأعلى لروسيا، جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٨٠)]

أصحاب «الفضيلة» !!

قال نائب حزب الفضيلة الإسلامي التركي، باش آكمز: «كنا نردد حتى الأمس القريب: الموت لأمريكا.. الموت لـ (إسرائيل)، ولكننا نجد اليوم بأن منظمة التحرير الفلسطينية التي حاربت (إسرائيل) عشرين عاماً عادت اليوم لتقبل بالتعايش سلمياً مع الإسرائيليين. ولذلك فإنني أعلن من هنا بأن حزب الفضيلة قد تخلى عن سياسة معاداة (إسرائيل)».

وعلق نائب آخر للحزب وهو ساجد غونباي، فقال: أما علاقاتنا مع (إسرائيل) فستكون علاقة الند بالند. وإن حزبنا ليس ضد اليهود، حتى إن ستة أعضاء من حزبنا قد انضموا إلى مجموعة الصداقة الإسرائيلية - التركية البرلمانية المؤلفة من ٧٠ عضواً، كإعلان عن زوال حقدنا على (إسرائيل).

وكان زعيم المعارضة رجائي فوطان قد أكد عشية زيارته إلى واشنطن في بداية نوفمبر ١٩٩٩م، بأن حزبه ليس معادياً لـ (إسرائيل) وإنما يحبذ إقامة العلاقات التجارية والاقتصادية معها، كما أنه سوف يجتمع باللوبي اليهودي في واشنطن، من أجل تطوير العلاقات معه.

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٨٩)]

اللهم لا تجعله رئيساً!!

عندما أُصبِحُ رئيساً للولايات المتحدة، سأعطي رئيس وزراء «إسرائيل» ايهود باراك كل الدعم لينفذ سياسته؛ فهذا الرجل قائد كبير وجدِّيٌّ، ويستحق كل دعم. هذا ما قاله جورج بوش الابن نجل الرئيس الأمريكي السابق في تصريح نشرته صحيفة «هآرتس الإسرائيلية» وقال بوش: بلادكم رائعة، إنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، وسأعمل على تعزيز العلاقة معها وتعزيز أمنها؛ فهذا فيه مصلحة عليا للولايات المتحدة!!

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٥٥)]

وما هي من الظالمين ببعيد

قدر مسؤولو الدفاع المدني في فنزويلا عدد القتلى بنحو ٣٠ ألفاً وعدد المنازل التي تهدمت بنحو ٢٣ ألفاً وعدد المشردين بنحو ١٤٠ ألفاً في واحدة من أسوأ الكوارث التي تشهدها أمريكا اللاتينية.

ودفن معظم الضحايا تحت أطنان من الأوحال والصخور انحدرت من سفوح سلسلة جبال أفيلا مع هطول أمطار غزيرة على ساحل فنزويلا المطل على البحر الكاريبي، وأدت السيول والأوحال وفيضانات الأنهار إلى دفن مدن بأكملها تحت الوحل والحجارة والأنقاض. وقال مسؤولون حكوميون: إن إعادة الإعمار ستتكلف مليارات الدولارات وستستغرق عدة سنوات.

إن المساحة التي ضربتها الفيضانات تقارب ٤٥ ألف كيلو متراً مربعاً (نحو أربعة أضعاف مساحة لبنان) وإن شكل السواحل تغير في أماكن كثيرة وإن سيل الوحول والصخور العملاقة المنحدرة من الجبال اندفع على امتداد الشواطئ بعمق يراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ متر داخل البحر.

وأضاف أن هناك نهراً بعرض ثلاثة كيلو مترات تقريباً وطول ثمانية كيلو مترات في منطقة كواليه السكنية السابقة مليء بالصخور العملاقة وكتل الأحجار والوحول. وقال: «لا أذكر أني رأيت في حياتي كتلاً صخرية وصخوراً منفردة بهذا الحجم الهائل. وكلها قد اقتلعتها السيول الطاحنة التي غيرت معالم الكثير من المناطق في شكل مذهل.

[جريدة الحياة، العدد: (١٣٤٣٩)]

يسارعون فيهم!!

ذكرت مصادر اقتصادية أن عدداً من الأثرياء العرب بدؤوا يقومون باستثمار جزء من أموالهم داخل الكيان الصهيوني. وأشارت المصادر إلى أن قيمة الأراضي والعقارات التي يتملكها أثرياء عرب في «إسرائيل» تبلغ حالياً نحو مليار ونصف المليار دولار.

و أكدت المعلومات أن هذه الحركة ما زالت حتى الآن تأخذ طابع السرية حيث يقوم الأثرياء العرب بتوكيل بعض الشخصيات المعروفة في أوروبا للقيام بهذه المهمة وذلك خوفاً على استثماراتهم في البلدان العربية.

وتقول المصادر: إن اتفاقاً تم بين الحكومة الإسرائيلية وهؤلاء المستثمرين وافقت بمقتضاه الحكومة الإسرائيلية على منح العديد من المزايا الاقتصادية والضريبية لهؤلاء المستثمرين العرب. وأشارت المصادر إلى أن هؤلاء المستثمرين أغلبهم من دول الخليج العربي بالإضافة إلى بعض الأثرياء المصريين والأردنيين. وتتوقع المصادر أن يتم الكشف عن استثمارات عربية تزيد قيمتها على ٣,٥ مليار دولار في «إسرائيل» في أعقاب إقامة العلاقات الدبلوماسية بين «إسرائيل» وبعض الدول التي ينتمي إليها المستثمرون العرب.

[جريدة الأسبوع، العدد: (١٤٨)]

يمدونهم في الغي

قال جون قرنق: إن موافقة الكونجرس الأمريكي على مشروع قانون بإرسال معونات غذائية إلى الجيش الشعبي لتحرير السودان ستعزز قدراته العسكرية من خلال إتاحة الفرصة أمام القادة لحشد أعداد أكبر من المقاتلين. وأضاف في مقابلة: سنتمكن من تركيز أعداد أكثر في وحدات أكبر، فالتركيز من مبادئ الحرب؛ إذا ركزت قوتك البشرية أو النيرانية فستحقق نتائج أفضل.

وكان الرئيس الأمريكي بيل كلينتون قد وقَّع على المشروع الذي مرره الكونجرس قانوناً.

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٦٨٢)]

ويأتيك بالأنباء.. هارب!!

اعتبر الناطق باسم «حركة الضباط الأحرار» الكولونيل ب. علي المنشق عن الجيش الجزائري، في مقابلة نشرتها صحيفة «لوموند» أن من بين الـ ١٣٠٠ إسلامي «التائبين» الذي سلموا أنفسهم إلى السلطات «أكثر من ٧٠٠ ضابط» اخترقوا صفوف الجماعات المسلحة.

وأفاد الضابط الذي التقته «لوموند» في «ضاحية مدينة أوروبية كبيرة» أن من أصل ١٣٠٠ إرهابي سلموا أنفسهم حتى الآن في إطار قانون الوئام المدني، يمكنني أن أؤكد لكم أن أكثر من ٧٠٠ منهم ضباط اخترقوا صفوف الجماعات الإسلامية، وتلقوا الأوامر بالعودة إلى ثكناتهم.

وجدد اتهاماته للجيش الجزائري الذي تعتبره «حركة الضباط الأحرار» مسؤولاً عن جزء من أعمال العنف في الجزائر.

وقال هذا الضابط: «يتم توقيف إرهابيين إسلاميين خلال عمليات التمشيط التي تقوم بها قوات الأمن، ويتم احتجازهم وتعذيبهم ثم يجري إلحاقهم بوحدات الكوماندوس التابعة للجيش ويكلفون عمليات ذبح في مسقط رأسهم، وأؤكد لكم أنهم تحت التهديد عندما يُطلب منهم القيام بعمليات ذبح فإنهم يذعنون».

وأفاد الكولونيل ب. علي أيضاً أن وحدة خاصة من الجيش يطلق عليها اسم «وحدة ١٩٢» - وترمز إلى تاريخ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢م عندما ألغى الجيش الانتخابات التشريعية - شُكِّلت «لإقناع» العسكريين الذين يعارضون سياسة «الجنرالات» الجزائريين، ويبدو أن هذه الوحدة التي وصفتها صحيفة «لوموند» بأنها «كتيبة الموت» تضم نحو ٢٠٠ عنصر. وأوضح الكولونيل ب. علي أن عدداً من أعضاء حركة الضباط الأحرار أعدموا في الجزائر بسبب انتمائهم إلى هذه الحركة لا سيما في منطقة القبائل. [جريدة الحياة، العدد: (١٣٤١١)]

حلم علماني

كان حلماً شبه طوباوي أن يتفق العرب على العمل معاً في إعداد كتب إبداعية معاصرة وتمويلها وتوزيعها مجاناً في المنطقة العربية بكاملها. الخطوات الأولى كانت صعبة وشاقة، أما اليوم وبعد مرور أربعة أعوام - عامين في التحضير، وعامين في الإنتاج -، فبوسعنا القول: صار للعرب تحت رعاية منظمة اليونيسكو صرح مشترك اسمه «كتاب في جريدة» المشروع تمرين وحدوي ثقافي من الطراز الأول، منذ ٢٤ شهراً يقرأ العرب في الأربعاء الأول من كل شهر كتاباً مجانياً بمعية كبريات الصحف العربية، كل في بلده، حيث يوزع شهرياً أكثر من مليونين ونصف مليون كتاب مخرجة بشكل جديد ومزينة برسوم كبار الفنانين. وقد بلغت أعداد هذه الكتب الموزعة أرقاماً مذهلة: خمسين مليون كتاب موزع حتى الآن.

إن نجاح هذه التجربة يشكل أساساً لمنطلق ثقافي على أبواب الألفية الثالثة نحن بأمس الحاجة إليه، وهو كسر الحواجز أمام وصول الكتاب العربي إلى قرائه، والوقوف بوجه حالة الانحسار والتردي في العلاقة مع الكتاب. فقد وصلت أرقام الإحصاءات إلى درجة كارثية: ما يستهلكه العالم العربي بأجمعه من ورق لصناعة الكتب لا يوازي ما تستهلكه دار نشر فرنسية كبيرة، وأكبر روائي عربي - حائز نوبل - لا يبيع أكثر من خمسة آلاف نسخة من الرواية الواحدة. وحين نعرف أن «كتاب في جريدة» يوزع كل شهر مليونين ونصف مليون كتاب نفهم معنى هذا الإنجاز وخطورته. [شوقي عبد الأمير - مدير مشروع (كتاب في جريدة) مجلة الوسط، العدد: (٤١١)]



موقف العصرانيين من الفقه وأصوله

(٢-٢)

محمد حامد الناصر

في الحلقة الأولى أشار الكاتب إلى جرأة العصرانيين على الفقه والفقهاء، ثم فضح شذوذاتهم في هذا الميدان وذكر منها: تحليلهم ربا البنوك، وإلغاء أحكام أهل الذمة، وإصرارهم على امتهان المرأة بدعوى تحريرها وخلص الكاتب إلى حقيقة العصرانيين العلمانية مدللاً على ذلك بمحاولاتهم تنحية الشريعة وتأييد سقوط الخلافة؛ بل ودعوتهم الصريحة إلى علمانية الحكم. ويتابع الكاتب في هذه الحلقة كشف النقاب عن أولئك النفر.
ـ البيان ـ

تزوير التاريخ وتمجيد الشخصيات المنحرفة (عند العصرانيين):

وهذا أغرب مواقف العصرانيين، ويكاد الإنسان ألاّ يصدق ما سطرته أقلامهم، وما بثوه في كتبهم. لقد كان العبث في التاريخ الإسلامي هدفاً من أهداف هذه المدرسة، ولم تقف عملية التزوير عند عصر دون عصر، ولا عهد دون عهد؛ بل شملت كافة عصور الإسلام بلا استثناء.

فحروب الردة لم تكن ـ برأي بعضهم ـ حروباً دينية، وما كانت حرب عليٍّ مع خصومه حرباً دينية، وإنما كانت حرباً في سبيل الأمر، أي في سبيل الرئاسة والإمامة[١].

أما الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيقرر عمارة أنه العلماني الأول في الإسلام «فقد كان رائد التمييز بين السياسة والدين، مع معارضة جمهور الصحابة له، وقد بنى الدولة الإسلامية على هذا التمييز»[٢].

ويزعم حسين أحمد أمين أن ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ حذف من القرآن (٥٠٠ آية) تطعن في بني أمية وتذم أبا سفيان[٣].

ويزعم الدكتور محمد عمارة أن «معركة بدر كانت بين الرسول ﷺ وأصحابه، وبين الارستقراطية الملكية وحلفائها!»[٤].

(١ ، ٢) انظر المعتزلة وأصول الحكم، محمد عمارة، ص ٣٤٨ .

(٣) إسلام آخر زمن، منذر الأسعد، ص ٥٨ ، طبعة ١٩٨٧م.

(٤) فجر اليقظة القومية : محمد عمارة، ص ١٠٣.

أما **الفتوحات الإسلامية** - التي شهد الأعداء قبل الأصدقاء بعدالة أصحابها ورحمتهم، ونبل دوافعهم في نشر الدعوة الإسلامية - فللعصرانيين فيها رأي آخر؛ **فالدكتور عبد المنعم ماجد** يعجب من توهم بعض المستشرقين الذين يرون أن العرب المسلمين فتحوا البلدان بدافع إسلامي ويقول: «لا نوافق بعض المستشرقين في قولهم: إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الديني؛ فمن غير المعقول أن يخرج البدوي - وهو الذي لا يهتم بالدين - لينشر الإسلام»[1].

فلمصلحة مَنْ هذا الافتراء؟! لقد أصبح الدكتور مستشرقاً أكثر من أساتذته، بغير الحقائق ويفتري لمصلحة أعداء أمته!

ويعتبر حسين أحمد أمين: أن الفتوحات الإسلامية هي نوع من الاستعمار، كالاستعمار الغربي لبلاد المسلمين فيقول: «وقد يحتج بعض المسلمين بأن الاستعمار الإسلامي (!!) لدولة أسبانيا كان بنّاءاً وفي خدمة التمدين والعمران، ولم يتخذ شكل النهب والسلب الذي اتخذه الاستعمار الأوروبي لدول آسيوية وإفريقية؛ غير أن الاستعمار الأوروبي لأمريكا الشمالية وأستراليا كان هو الآخر بنّاءاً، وفي خدمة التمدين والعمران، في حين لم يجلب الاستعمار العثماني (!!) للبلقان غير الخراب»[2].

ولست أدري كيف يستوي عند مسلم نشرُ دين الله وإقامة العدل بأروع صوره بين البشر مع غزو الأوروبيين الذي قام على النهب واستنزاف ثروات الشعوب؟! لكنها نفوس هانت على أصحابها فمسخت لخدمة أسيادها.

ويحاول المستنيرون الجدد طمس معالم الصفحات المضيئة من تاريخنا الإسلامي من منطلق دوافع قومية، ومن ذلك فتوحات العثمانيين، وانتصار المماليك، وحتى انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين حاولوا الغمز من صاحبه البطل المجاهد - رحمه الله -.

فالدكتور محمد جابر الأنصاري يحرص على تجريد العثمانيين من كل فضيلة حتى غدوا في نظره «جماعة من الهمج المتوحشين الذين دمروا الحضارة العربية الزاهية»[3].

ويتابع الدكتور محمد عمارة صاحبه فيصف الفتح العثماني بأنه: «طوفان الدمار التركي، وأرتال الجيش العثماني الذي لف العالم بردائه الأسود أكثر من أربعة قرون»[4].

فهل يعتبر هذا الهجوم على العثمانيين جزاء إيقافهم الزحف الأوروبي على ديار العرب عدة قرون؟ وهل هذه مكافأة للجيش العثماني الذي فتح القسطنطينية؟!

حتى السلطان صلاح الدين الأيوبي لم يسلم من أذى هؤلاء القوم - كما تقدم - إذ يصفه الدكتور محمد عمارة بأنه «القائد الإقطاعي البارز»! وهذا افتراء مشين وغير مسؤول. قال ابن الأثير عنه: «توفي ولم يخلف في خزائنه غير دينار واحد وأربعين درهماً» وقال العماد الكاتب: «ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً

---

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ١٦٣، مطبعة الأنجلو المصرية.

(٢) دليل المسلم الحزين: حسين أحمد أمين، ص ١٧٢، طبعة مدبولي، ١٩٧١م.

(٣) نظرة في الجذور: الدوحة القطرية، العدد: ١٠١، شهر رجب ١٤٠٤هـ.

(٤) فجر اليقظة العربية: ص ٣٦٢، محمد عمارة، يشاركه في هذا الرأي الدكتور خالص جلبي في كتابه: النقد الذاتي (ص ٢٠٠ - ٢١٢).

من الأملاك»[١]، أهكذا يكون الإقطاع في نظر العصرانيين؟!!

كما يأسف الدكتور لانتصار المسلمين في الحروب الصليبية؛ لأنها أعادت الحيوية للإقطاع العربي «فلقد كانت الحروب الصليبية مرحلة من الأحداث الكبرى التي أتاحت للإقطاع العربي فترة من استرداد الحيوية والنشاط»[٢].

وهو يتبرأ كذلك من النصر الذي حققه المماليك المسلمون على المغول التتار؛ لأنهم غرباء عنا حضارياً وتاريخياً، ولأنهم لم يكونوا من العرب[٣]، ثم يقول: «ولكن القوى التي أحرزت هذا الانتصار العسكري كانت في الأساس مؤلفة من جند المماليك، ومن ثم فقد كانت قوة غريبة قومياً وحضارياً عن الأمة والشعب والتراث والتاريخ»[٤].

وما أدري مَنَ هو الغريب ثقافياً وحضارياً عن تاريخ الأمة: أهؤلاء الذين يحققون أهداف رجال التنصير والاستشراق وأعداء الأمة، أم أولئك الذين طردوا الصليبيين والمغول عن بلادنا تحت رايات الجهاد في سبيل الله؟! لقد اختلت الموازين، واضطربت المعايير عند هؤلاء الناس.

هذه نماذج فقط من تحامل العصرانيين على تاريخنا الناصع، والمجال لا يتسع لذكر المزيد؛ إذ زَوَّروا حقائق فتوحات المسلمين للعراق والشام من منظور قومي، وادعوا أن نصارى العرب ساعدوا الفاتحين المسلمين؛ خلافاً لحقائق التاريخ لدى مؤرِّخينا الثقات.

تمجيد الفِرَق والحركات المنحرفة:

لقد تابع بعض العصرانيين سادتهم من المستشرقين في تمجيد الحركات الهدامة والفرق الضالة التي ظهرت في تاريخ المسلمين ـ فقد مجَّدوا الخوارج، واعتبروا أنهم حزب العدالة والجمهورية والقيم الثورية التي جاء بها الإسلام، - رغم أنهم كلاب جهنم وقد مرقوا من الدين، كما ذكرت ذلك الأحاديث الصحيحة ـ واعتبروا أن القرامطة «هم الجناح اليساري في الحركة الشيعية، بل كانوا حركة ثورية ضد الإقطاع» كما يرى الدكتور محمد عمارة[٥].

والقرامطة هم الذين احتلوا مكة المكرمة وقتلوا الحُجَّاج آنذاك، ورموا جثثهم في بئر زمزم، ونهبوا حلي الكعبة، واقتلعوا الحجر الأسود وبقي عندهم أكثر من عشرين سنة.

وقد مجد العصرانيون المعتزلة، وأعجبوا بمنطقهم وفلسفتهم، كما أعجبوا بالقدرية والشيعة، ويرى الدكتور محمد عمارة أن ثورات الخوارج والمعتزلة والشيعة كانت بسبب الظلم الاجتماعي ونبذ بني أمية لمبدأ الشورى[٦].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٢، ص ٤ ـ ٥، والكامل، ج ٩، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) فجر اليقظة العربية، ص ٢٢٨.

(٣) غزو من الداخل: جمال سلطان، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٤) تيارات اليقظة الإسلامية، محمد عمارة، ص ٨.

(٥) انظر: فجر اليقظة القومية: محمد عمارة، ص ١٤٠ ـ ١٥٤، وانظر غزو من الداخل، ص ٢٦، جمال سلطان.

(٦) ينظر: التراث في ضوء العقل، محمد عمارة، ص ١٦٣.

وقد سبقهم بذلك المستشرق «بروكلمان» في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) فهو يُعلي من شأن القرامطة وثورة الزنج إلى جانب افترائه على الصحابة افتراءً عجيباً.

ومجدوا الدولة العبيدية: إذ خصص الدكتور محمد عمارة كتاباً كاملاً في تمجيد هذه الدولة الرافضية الإسماعيلية بعنوان: «عندما أصبحت مصر عربية»(1). واعتبر أن توليها على مصر اكتمال لعروبتها!!

قال المؤرخ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في هذه الدولة: «كان الخلفاء الفاطميون من أعتى الخلفاء وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقلّ عندهم الصالحون من العلماء والعباد» وقال عن أول ملوكهم المهدي: «كان حدّاداً من سلمية اسمه عبيد، وكان يهودياً، فدخل بلاد المغرب وكان يسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وصار ملكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض»(2).

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «هم من أفسق الناس ومن أكفر الناس»(3).

فأي جناية يقوم بها العصرانيون في تمجيد هؤلاء الضالين الذين يكفِّرهم علماء المسلمين؟! حتى ثورة الزنج التي التهمت البصرة يمجدونها، ويرون أنها ثورة رائدة!

ثورة الزنج: هي من الثورات الطائشة التي اهتم بدراستها المستشرقون كعادتهم في تمجيد التيارات الحاقدة في تاريخنا، وقد خصص الدكتور محمد عمارة مبحثاً كاملاً من كتابه: «الإسلام والثورة» للحديث عن ثورة الزنج، وكان مما قاله: «كان قائد هذه الثورة شاعراً وعالماً، وهو ثائر عربي وعلوي، وأغلب قوادها كانوا عرباً»(4)، ويقول: «هذه الثورة قد بدأت في سلطة عربية ضد سلطة المماليك الترك الذين كانوا يفرضون طغيانهم على خلفاء بني العباس وخلافتهم في بغداد»(5) وقد كتب الأستاذ محمد جمال رسالة بعنوان «الفتنة السوداء» يقول فيها ما موجزه(6): «لقد سماه المؤرخون «صاحب الزنج» وهو رجل فارسي الأصل، محتال خبيث، اصطنع لنفسه نسباً إلى آل البيت».

قال ابن كثير: «ولم يكن صادقاً، وإنما كان أجيراً عند بني عبد القيس، واسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم، وأصله من قرى الري» وكان يقول لأصحابه: «لقد عُرضت عليَّ النبوة، فخفت ألا أقوم بأعبائها فلم أقبلها».

قال الأستاذ محمد جمال في ختام بحثه القيم عن هذه الفتنة: «هذه يا أخي القارئ حقيقة ما يسميه بعض من يزوِّر الحقائق بـ «ثورة الزنج التحررية» نقلت لك أخبارها بأمانة من أوثق كتب التاريخ الإسلامي»(7).

---

(1) عندما أصبحت مصر عربية، محمد عمارة، طبعة بيروت، ١٩٧٤م.

(2) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ١٢، ص ٢٦٧.

(3) الفتاوى: ٣٥/١٢٧.

(4) الإسلام والثورة: محمد عمارة، ص ٢٦٠.

(5) التراث في ضوء العقل: ص ٢١٩، محمد عمارة، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٠م.

(6) ينظر: محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة لسليمان بن صالح الخراشي، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٥.

(7) ينظر: محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة لسليمان بن صالح الخراشي، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٥.

تمجيد الشخصيات المنحرفة: وهذا أمر غريب يلفت النظر؛ إذ لم يترك العصرانيون شخصية خبيثة في معتقدها، منحرفة في مسلكها إلا حاولوا تمجيدها، فمجدوا غلاة الصوفية كابن عربي والحلاج وأمثالهما، ومدحوا أصحاب الحركات الباطنية كإخوان الصفا والحشاشين والقرامطة. ومعلوم أن المستشرق «ماسينيون» قد اهتم ببعث التراث الصوفي الفلسفي كالحلاج وكتابه الطواسين، واهتم بابن سبعين وبمذهب الباطنية[1].

وكثيراً ما أشاد محمد عمارة وأمثاله بالتصوف الفلسفي، رغم خروج أصحابه على الشريعة. يقول: «وأصحاب هذا النهج لا يقفون عند حدود الشريعة كما حددها الفقهاء، ومن هنا جاء الصراع بين الصوفية والفقهاء، لكن تاريخ هذا الصراع يشهد بأن الفقهاء كانوا أضيق أفقاً، كما كانوا أدوات للسلطة الحاكمة على عكس الفلاسفة الصوفيين؟!»[2] وقال: «ابن عربي في التصوف الفلسفي قمة القمم، لا في حضارتنا العربية الإسلامية فقط، بل وعلى النطاق الإنساني، وهو بمقياس «السلفية المحافظة» أو «الفقهاء» وثنيٌّ زنديق»[3].

وفلاسفة الصوفية قالوا بوحدة الوجود، وتعطيل الشريعة، ورفع التكاليف عنهم، وكان لهم تأثير سلبي على الحياة الاجتماعية في القرن السابع الهجري وما تلاه.

ويمجد العصرانيون انحرافات المعتزلة ورجالاتهم.

فها هو عمارة يشيد بقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني «فهو أعظم أئمة المعتزلة في عصره، وقد قاد الصحوة الاعتزالية في عصر اضطهاد المعتزلة، فقد بلغت الدولة العباسية في ذلك الاضطهاد إلى حد تحريم فكر المعتزلة بمرسوم ـ هو أشبه ما يكون بمراسيم الحرمان الكنسية ـ أيام الخليفة القادر»[4].

كما يمجد عمرو بن عبيد: «فهو زاهد المعتزلة وناسكهم وعالمهم وقائدهم وقد ساهم في الثورة ضد بني أمية»[5].

وبينما يمدح حسين أحمد أمين يزيد بن أبي سفيان صاحب الحَرَّة الذي استباح مدينة الرسول ﷺ، ويمجد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي حاصر مكة وقتل ابن الزبير وضرب الكعبة بالمنجنيق ويقول: «إنه أعظم الإداريين في تاريخ العالم»[6] على حين نراه يصب جام غضبه على الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فيرى أنه ساهم بجهله في الشؤون السياسية في تدهور أحوال الدولة الأموية ثم سقوطها ثم يقول: «ولم تجلب سياسته المالية والإدارية غير خراب الدولة»[7].

هكذا تكون الموضوعية والأمانة في دراسة التاريخ الإسلامي عند دعاة التغريب!!

---

(١) ينظر: العصرانيون، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢ ، ٣) التراث في ضوء العقل، ص ٢٩١ ، ٢٩٦.

(٤) التراث في ضوء العقل: محمد عمارة، ص ١٠٩ ، ١١٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٤٠.

(٦ ، ٧) ينظر: دليل المسلم الحزين، ص ١٦٩ ، ٢٠٣، وإسلام آخر زمن، منذر الأسعد، ص ٦٩ ، ٧٠.

ويشيد الدكتور عمارة بالجوانب المظلمة من مسيرة جمال الدين الأفغاني، كتنظيم (جمعية العروة الوثقى) السرية، وبمبادئها المليئة بالإشارات والرموز السرية، ويتحدث عن تأسيسه محفلا وطنيا شرقيا وعلاقاته مع المحفل الفرنسي الماسوني؛ فاستمع إليه وهو يقول: «من مجموعة الأوراق والوثائق والمراسلات التي بقيت من آثار هذا التنظيم نضع يدنا على خبرة في العمل السياسي والتنظيمي بلغت درجة عالية من النضج والعبقرية، وهذه خبرات نعتقد أن لها صلات وثيقة بتراث العرب والمسلمين في التنظيم السري منذ جمعيات المعتزلة، وإخوان الصفا القرامطة والحشاشين»[1].

كما يمجد العصرانيون الشيخ علي عبد الرازق على خدماته الرائعة لهدم الشريعة على طريقة الكنائس النصرانية، في كتابه: «الإسلام وأصول الحكم». يقول محمد عمارة: تتفق آراء كثير من المفكرين على اعتبار كتاب الشيخ علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» أهم الكتب التي صدرت منذ بداية النهضة العربية الحديثة؛ لأنه يمثل موقفاً شجاعاً من شيخ واجه الملك وعلماء الدين الدائرين في فلك الملك، ولقد كان الشيخ من تلامذة مدرسة الإمام محمد عبده، وتأثير فكر الإمام المعادي للسلطة الدينية واضح تماماً في منطلقات علي عبد الرازق»[2].

والحقيقة أن واضع الكتاب الأصلي مستشرق يهودي محترف هو «مرجليوت» أهداه للشيخ خلال دراسته في لندن، وأن علي عبد الرازق كان ينتمي إلى أسرة عريقة في خدمة المستعمر الإنجليزي[3].

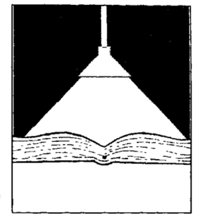
وهكذا وقف العصرانيون في صف أعدائنا في قضايا الحكم والتشريع وفي موقفهم من السنة النبوية وتراث الأمة وتاريخها فأصبحوا تياراً خطيراً ينخر في جسم الأمة، ويشكك في أصول فكرها وعقيدتها وتاريخها باسم الإسلام والتجديد والاستنارة وتحكيم العقول!! ليوقعوا شباب الأمة في متاهات لا نهاية لها ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١] والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الأعمال الكاملة لمحمد عبده، ج ١/ ٣٥، ١٢٩، تأليف محمد عمارة، بيروت، ١٩٧٨م.

(٢) التراث في ضوء العقل: ص ٣٠١، ٣٠٢، محمد عمارة.

(٣) ينظر: الإسلام والخلافة، د. ضياء الدين الريس، ص ١٦٦، ١٨٥.



دور التمويل الأجنبي في توجيه الجمعيات الأهلية

د. أحمد إبراهيم خضر

أقحم المثقفون العرب على الساحة العربية والإسلامية منذ مطلع السبعينيات مصطلح « المجتمع المدني ». ويعرِّف د. سعد الدين إبراهيم (وهو شخصية معروفة بتوجهاتها العلمانية الصريحة وبموالاتها لأمريكا وزياراتها لإسرائيل) المجتمع المدني بأنه: « مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة لتحقيق مصالح أفرادها، ملتزمة بقيم ومعايير الاحترام والتآخي والتسامح والإدارة السلمية للتنوع والخلاف، وتشمل تنظيمات المجتمع المدني كلاً من الجمعيات والروابط والنقابات والأحزاب والأندية، أي: كل ما هو غير حكومي، وكل ما هو غير عائلي أو إرثي »(١).

والذي يهمنا هنا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن مفهوم « المجتمع المدني » دخيل على تراث الفكر العربي والإسلامي، وأنه ينتمي إلى (فضاء) ثقافي وحضاري غربي، وأنه نشأ في بيئة أوروبية وفي ظروف تاريخية ومعطيات سياسية واقتصادية اجتماعية معينة ترتبط بها، بالإضافة إلى ارتباطه الوثيق بالرأسمالية والمجتمع الرأسمالي. ويسعى رهط من المثقفين العرب إلى تأصيل هذا المفهوم وإعادة صياغته وتحديد مدلولاته النظرية والعملية، ثم إدماجه في الثقافة العربية الإسلامية اعتقاداً منهم بأن هذا سيساهم في تكريس ما أسموه بـ (القطيعة متعددة الوجوه مع عالم العصور الوسطى)(٢) إشارة منهم إلى الإسلام والفكر الإسلامي بوجه أو بآخر.

الأمر الثاني: أن الرؤية الإسلامية ورؤية المجتمع المدني - في نظرهم - متناقضتان؛ فالمجتمع المدني عند هؤلاء مجتمع عقلاني يحل مشاكله حسب قوانين وضعية، وتحاول فئاته الاجتماعية التوفيق بين مصالحها ومصالح المجتمع. مرجعيته تجارب المجتمع التي قننها في صورة نصوص تسهر على تطبيقها سلطة وثيقة

---

(١) منيرة أحمد فخرو، موقع الحركات النسوية في مؤسسات المجتمع المدني في البحرين والكويت، والإمارات، عالم الفكر، المجلد ٢٧، العدد ٣، يناير / مارس ١٩٩٩م، ص ١٢٦.

(٢) كريم أبو حلاوة، إعادة الاعتبار لمفهوم المجتمع المدني، المصدر السابق، ص ٩.



الصلة بالدولة وإن أظهرت أنها تختلف معها. أما المجتمع الإسلامي - كما يرى الجنحاني - فإنه يستمد شرعيته من «السماء» ومرجعيته نصوص ترتكز على ما يسميه: «تجارب تاريخية» مرّ عليها أكثر من أربعة عشر قرناً نموذجاً أعلى، ومثالاً يحتذى ليس في مستوى القيم والإفادة من الإيجابي فيها فحسب بل في مستوى الممارسة اليومية وتسيير شؤون المجتمع[1].

الأمر الثالث: أن الواقع الفعلي للجمعيات الأهلية التطوعية وغير الحكومية - التي هي عماد المجتمع المدني - يُبَيِّن أنها تُمَوَّل من الخارج، وأن دور معظمها ليس إلا كالمجهر الذي يكشف كل ما تحته من أحوال المجتمع وظروفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأن مثقفي المجتمع المدني يلهثون وراء هذا التمويل ويقدمون لموليهم التقارير التي يطلبونها، وأن الهدف النهائي لهذه العملية هو خدمة مصالح الشركات متعددة الجنسيات وتدعيم عمليات التطبيع مع (إسرائيل) وهذا موضوعنا في هذه المقالة.

تعبير **«الجميع تحت المجهر ولا أحد خارجه»** تعبير استخدمته الباحثة «سناء المصري» ذات الباع الطويل والخبرة الدقيقة في العمل مع هذه المنظمات غير الحكومية، والنسائية منها على وجه الخصوص.

ولما اختلفت مع رفيقاتها على مسألة التمويل، كشفت لنا هذا الحجاب الذي كان مضروباً على ما يجري داخل هذه الجمعيات[2].

كتبت «سناء المصري» عن خيانة المثقفين وسقوطهم في بئر التمويل الساخن الذي تصب فيه الأموال الأمريكية والأوروبية وحتى اليابانية وتدفع به إلى الجمعيات والمنظمات غير الحكومية أو ما يسمى بالجمعيات الأهلية في مصر.

فعلى سبيل المثال: دفعت هيئة المعونة الأمريكية عام ١٩٩١م مبلغ عشرين مليون دولار لدعم هذه الجمعيات والمنظمات، وكانت قد تبنت قبلها مشروعاً ثلاثي المراحل بدأ من عام ١٩٨٧م وحتى عام ١٩٩٠م بحجم تمويل قدره خمسة وعشرون مليون دولار لدعم المنظمات العاملة في مجال التنمية المحلية استفادت منه ٢٠١٩ جمعية أهلية، وكذلك فعلت هيئة المعونة الكندية والاتحاد الأوروبي وغيره من الجهات الدولية.

حددت «سناء المصري» ما يقرب من عشرين منظمة دولية بعضها يتبع الحكومات مباشرة ويتبع بعضها الآخر الأحزاب الحاكمة، أشهرها منظمة «فورد» وغيرها من المنظمات ذات السمعة العالمية في زعزعة بنية بلدان العالم الثالث وتهيئتها لما يسمى بالنظام العالمي الجديد أو السطوة الأمريكية الجديدة، ومن المنظمات الممولة للجمعيات الأهلية: (سيدا) الكندية، و (سيدا) السويدية، و (دانيدا) الدانماركية، و (فينيدا) الفنلندية، والمعونة الأسترالية، ومؤسسة (إسرائيل) الجديدة في نيويورك؛ هذا إلى جانب المنظمات والحكومات الأخرى مثل ألمانيا واليابان.

وتعمل الجمعيات الأهلية في مجالات: حقوق الإنسان - رفع الوعي القانوني - بناء الديمقراطية ومراقبة الانتخابات - المجال العمالي والنقابي - الوحدة الوطنية - السينما والفيديو والورش المسرحية.

---

(١) الحبيب الجنحاني، المجتمع المدني بين النظرية والممارسة، المصدر السابق، ص ٤١.

(٢) سناء المصري، تمويل وتطبيع، قصة الجمعيات غير الحكومية، سينا للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، القاهرة، ص ٩ - ٤٩.

والهدف الأساس الذي يسعى إليه نشطاء هذه الجمعيات هو أن يكون العمل العام والتطوعي سبيلاً لتحقيق الثراء والصعود الاجتماعي والإحساس بالغنى والتعالي والنجومية الشخصية وحيازة السيارات والشقق الفاخرة واغتنام فرص السفر للخارج والإقامة في فنادق خمس النجوم؛ خاصة أن الممولين يدفعون رواتب ويقدمون منحاً هائلة تصل إلى ألوف الدولارات؛ وسرعان ما يتجه بعضهم إلى تكوين جمعيات جديدة بمجرد أن يدرك سهولة التمويل؛ حيث يكفيه أن يطلب سجل الممولين فتنهمر عليه أوراق التعريف بهم وطرق الاتصال بل وكيفية التعاون معهم؛ بالإضافة إلى الإرشادات الكثيرة للحصول على التمويل.

والتمويل هو العصا السحرية التي اخترقت تقوقعات شلل المثقفين وعاطلي السياسة وهي التي حولت الكثيرين ممن كانوا يقفون في صفوف المعارضة من شيوعيين وناصريين أو يساريين عموماً، وكانت دعايتهم تدور حول الوطن والاستقلال والعدالة الاجتماعية، وتهاجم (إسرائيل) والرأسمالية والامبريالية والتدخل الأجنبي والفوارق الطبقية - حولتهم إلى نشطين مخلصين يدافعون عن العولمة والتطبيع مع (إسرائيل). إن بضعة آلاف من الدولارات حوَّلتهم إلى خبراء كرَّسوا جهودهم لخدمة المؤسسات الرأسمالية الضخمة عابرة القارات ومتعددة الجنسيات ولخدمة جهود التطبيع مع (إسرائيل) على حد قول «سناء المصري».

وبالتمويل تقدم هذه الجمعيات تقارير سياسية وأخباراً إلى الخارج عبر أجهزة الفاكس، ولهذا يسميها بعضٌ بـ (منظمات الفاكس والطيران).

وبالتمويل تُؤَسس المراكز العمالية والقانونية في مناطق العمال لدراسة الحالة الراهنة للطبقة العاملة، وتراقب الجمعيات أنشطة العمال وانتخاباتهم ونقاباتهم وقوانينهم ونواياهم السرية والعلنية، وتعمل على تفتيت الاتحاد العام وإنشاء النقابات الموازية.

وبالتمويل ترفع جمعياتٌ شعار الوحدة الوطنية في الوقت الذي تسارع فيه إلى تضخيم الأحداث، وتطلب حماية الأقليات المضطهدة بعد أن تكون قد جذَّرت روح التعصب والنزاعات الطائفية إلى حد تكوين ميليشيات محلية، فتسقط البلاد في الحرب الأهلية والمذابح الجماعية كما حدث في بعض البلدان.

وبالتمويل تتفرغ جمعياتٌ لشؤون المرأة وتعزف على وتر الأحوال الشخصية وختان الإناث في خطب متكررة ومؤتمرات متتالية بالداخل والخارج.

وبالتمويل تقوم جمعياتٌ بدور المرابي القديم فتقدم للفقراء قروضاً لا تحل لهم مشاكلهم المادية بقدر ما تضاعف ديونهم وتثقل كاهلهم بمشاكل إضافية ونسبة فوائد تصل إلى ١٨٪، ١٩٪ من أصل القرض.

وبالتمويل تصور جمعياتٌ آلاف أفلام الفيديو عن كل شيء في البلاد وترسل إلى الخارج بحجة عمل المونتاج لها، ولا تعود مرة أخرى.

وبالتمويل أمكن تجنيد الأكاديميين والأساتذة والباحثين وضم بعضهم إلى مؤسسات استشارية دولية كانت مهمة بعضها إعادة الهيكلة الاقتصادية للبلاد كمؤسسة (كيمونكس أوف واشنطن) التي يعتبر (جيرالد مار) أكبر مساهميها الذي قال يوماً: (كنت أريد - من بين أمور أخرى - العثور على سبيل يمكنني من تأسيس وكالة مخابرات مركزية خاصة بي).

وهكذا تفشى مرض التمويل، فأصبحت التقارير تصب مباشرة في المؤسسات الدولية مهما اختلفت مسمياتها لتغطي كافة المجالات من حقوق الإنسان إلى الصحة والمرأة والأقليات والنقابات؛ وبهذا تمكنت الجهات الأجنبية عن طريق هذه الجمعيات من اختراق البلاد.

الهدف إذن هو الاحتراق المعرفي الذي تظل مفاتيحه في أيدٍ غير معلومة في الخارج، وبالتراكم المعرفي يتكون لدى هذه الجمعيات صمام أمن مباشر لتفريغ البلاد من احتمالات الثورات والتمردات الشعبية ثم العمل على إدماج البلاد في السوق الرأسمالي وإخضاعها للإرادة الكاملة للشركات الرأسمالية.

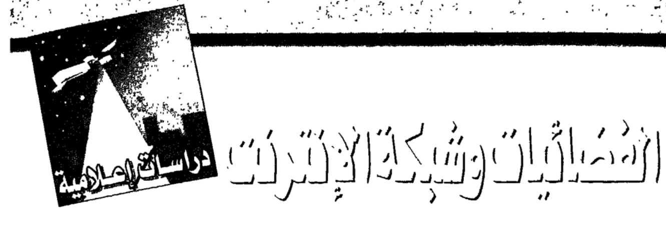
تحدثت «سناء المصري» بجرأة ملفتة للنظر عن مثلث (الجمعيات الأهلية ـ الحكومة ـ الممول الأجنبي) وعن العلاقة بين أطراف هذا المثلث؛ إذ تشكل هذه العلاقة لُعْبة متعددة المستويات داخلياً وخارجياً يلعبها الجميع بوضوح ومكاشفة مع محاولة كل طرف انتزاع أقصى ما يمكن من الأطراف الأخرى.

وينغمس النشطاء المحليون في شباك العلاقات الدولية واستجلاب المال الأجنبي تحت غطاء العمل العام، ويدخلون في سباق تكوين الجمعيات، وبعضهم يخرق القانون وتعلم الحكومة ذلك لكنها ـ كما ترى «سناء المصري» ـ تتغاضى عن ذلك بمحض إرادتها إرضاءاً للدول الأجنبية، بل إنها وبذاتها تشكل القنطرة التي يعبر بها المال الأجنبي إلى هذه الجمعيات.

وبوضوح شديد تقول «سناء المصري»: إن الحكومة تحرك هذه الجمعيات في قالب مرسوم؛ فإذا خرج النشطاء عن هذا القالب بادرت باستخدام حق الإغلاق والمصادرة أو التضييق عليهم، ومن جهة أخرى فإنها تسعد بتسريح هذا القطيع السياسي الذي كان مقلقاً لها في الماضي القريب لجمع المعونات والمنح من الخارج وإغراقه في تطلعاته للثروة والصعود الاجتماعي، وتلعب الجمعيات في المساحة المرسومة لها، ولا تخرج عن حدودها أبداً؛ بل إنها تمد يدها وتتعاون مع الحكومة في كثير من الأحيان.

وإن استطاعت الجمعيات الإفلات من قبضة الدولة وقعت في يد الحكومات الأجنبية المانحة التي تعرف كيف تقبض على عنق عميلها عن طريق تقسيم المنحة وليس بتقديمها دفعة واحدة، ويعلم الممول الأجنبي أن عملاءه ليسوا شرفاء أو أطهاراً دائماً؛ وكثيراً ما تحدث أزمة ثقة بين الطرفين لكن المانح يغض الطرف عن ذلك؛ فأهدافه تتعدى المساعدة في تنفيذ مشروع بعينه إلى توثيق العلاقة مع الأشخاص القائمين على هذه الجمعيات أو تحقيق أغراض أخرى يعرفها الطرفان ويتواطآن على تنفيذها، علاوة عن أن كل ذلك ليس إلا جزءاً من أبعاد اللعبة التي تحركها كلها خيوط الممول الأجنبي بهيئاته ومخططيه الدوليين الأكاديميين النشطين في الدراسات الاستراتيجية وعملائه في العالم العربي أو ما يسمى بمنطقة الشرق الأوسط.

ليس هذا إلا قليلاً من كثير تحدثت عنه «سناء المصري»، ولا زال الأمر يحتاج إلى مزيد من الرصد والجهد في الكشف عن هوة «المجتمع المدني»، تلك الهوة التي يسعون إلى إسقاط مجتمعاتنا الإسلامية فيها اعتقاداً منهم أنها السبيل الأمثل لمواجهة المد الإسلامي بحركته وفكره وآثاره بالإضافة إلى استمرار هيمنتهم السياسية والاقتصادية والثقافية وتأكيدها.



الفضائيات وشبكة الإنترنت

د. وحيد المصري

من الأمور التي أصبح مسلَّماً بها الزيادة المطَّردة في عدد القنوات الفضائية المرئية والتي يعاد بثها عبر العديد من الأقمار الصناعية المنتشرة في الفضاء الخارجي لتغطي الكرة الأرضية بكامل مدنها وقراها، وغاباتها وصحاريها ومياهها! وليس مبالغاً فيه أن هناك عشرات من القنوات الفضائية العربية وغيرها يمكن استقبالها بسهولة في الوطن العربي. كما أن انتشار شبكة الإنترنت ووصولها بكم هائل من المعلومات العلمية والتجارية والثقافية وتبادل المعلومات ورسائل البريد الإلكترونية وشراء السلع والتواصل بينها وبين القنوات الفضائية يسَّر المتابعة الآنية للحدث والبرامج والمسلسلات والأفلام وغيرها من غث وسمين؛ مما يستوجب العمل الجاد لتطويع هاتين التقنيتين في خدمة هذا الدين في كل بقاع الأرض، وبهذا انحسرت قدرات الدول على التحكم ومراقبة ما يستقبل في أراضيها ومياهها بدرجة كبيرة جداً، وخصوصاً أن تقنيات الاتصال المباشر بالأقمار الصناعية في طريقها لأن تصبح متيسرة، كما تيسر ما قبلها من تقنيات كان يُعتقد ألا تتيسر؛ وبهذا تكون الحكومات شبه فاقدة للسيطرة على ما يقرؤه ويسمعه ويشاهده مواطنوها.

إن تقنية استقبال البث المرئي المباشر عبر الأقمار الصناعية ـ أو ما يعرف بالفضائيات ـ أصبح أكثر سهولة وأرخص ثمناً عما كان عليه قبل سنوات قليلة مضت، وفي متناول جميع الفئات حتى الفقيرة منها في الوطن العربي والإسلامي؛ وذلك على العكس من تقنية الإنترنت التي ما زالت حكراً على الطبقة المثقفة القادرة على فهم رموزها والتخاطب بلغتها، وإن كان هذا في طريقه إلى الزوال أيضاً.

كل ما سبق شجع الحكومات على توصيل رسالتها السياسية والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية لمواطنيها وغيرهم بطريقة سهلة، وذلك بإنشاء قنوات فضائية ومواقع وصفحات على شبكة الإنترنت، كما شجع أيضاً المستثمرين باختلاف أفكارهم وتوجهاتهم على زيادة دخلهم عن طريق بث مستمر لبرامج ومواضيع مختلفة غالبيتها تدغدغ العاطفة فارغة من الهدف الجاد أو الترفيه البريء ـ باستثناء مجموعة هادفة ومفيدة أقل من أصابع اليد الواحدة.

ثم ظهر ما يعرف بـ «الباقات الفضائية» التي تبث مجموعة كبيرة منتقاة من القنوات العربية والأجنبية في حزمة واحدة بتقنيات رقمية حديثة لا تحتاج إلا للاقطات صغيرة جداً ومفتاح لشفراتها.

وللأسف؛ فإن جل القنوات الفضائية غير الحكومية من عربية وأجنبية يقوم عليها أناس هدفهم في الغالب ينحصر في الكسب المادي البحت ولو كان ذلك عن طريق إفساد الأسرة والمجتمع. ودأبت هذه القنوات على استقطاب المشاهدين ببث المسلسلات والأفلام شبه الإباحية، سواء أكانت في لغتها أو في التساهل في درجة التعري مع اللقطات الجنسية الساقطة، بل تمادت وقامت بتعريب حوارات(١) مسلسلات الخيانات الزوجية الأجنبية والترويج

(١) وهو ما يسمى بـ «الدبلجة».



للزنا والخمور، واعتبارها جزءاً من الحياة العصرية التي يجب أن تقبل بها الأسرة والمجتمع المسلم الحديث.

إن أخطر ما جاء به تعريب المسلسلات والأفلام الأجنبية هو إدمان أفراد الأسرة - إلا من شاء الله - وخصوصاً العجائز والنساء صباحاً ومساءاً - متابعة قصص الغرام والغزل، والتعرف على الخمور وكيفية شربها، كما بدا تأثيرها واضحاً على أداء العديد من الرجال والنساء من طلاب وموظفين بسبب السهر على متابعة الأفلام والأغاني الماجنة. هناك أيضاً الاتصالات المباشرة بين المشاهدين ومقدِّمات البرامج الكاسيات العاريات المائلات المميلات اللواتي رؤوسهن كأسنمة البخت (مصداقاً لحديث الرسول ﷺ)، والاستماع لمحاورة واحدة بين مشاهد أو مشاهدة - توضح فساد القلب والقالب، والأموال الهائلة المهدرة في المكالمات التي تكسبها شركات الهاتف الأجنبية، ولا ننسى في هذا المقام التعدي السافر على الإسلام وشرائعه - كالتعددية في الزواج - بالاستهزاء والرفض ووصمها بالرجعية.

السؤال الملحّ في هذا المقام: ما العمل؟

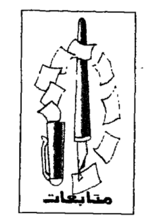
العمل الأول الذي يتبادر للذهن هو إنشاء قناة بل قنوات إسلامية بديلة تخاطب الأسرة المسلمة بطريقة عصرية جذابة، وتلبي حاجات جميع أفرادها من برامج عقدية وفقهية واجتماعية جادة، وترفيهية بريئة، وبرامج وثائقية وتاريخية وعلمية، مع الاهتمام بالطفل المسلم بصورة خاصة، وانتقاء فترات البث المناسبة للمنطقة المقصودة حتى تتم الفائدة المرجوة. كما يجب تشجيع الاستثمار في هذا الجانب من قِبَل المفكرين والدعاة المسلمين في أوساط التجار وأصحاب الثروات من المسلمين الغيورين الخيرين منهم.

ونظراً لأن الأموال اللازمة لتمويل إنشاء قناة تلفزيونية فضائية باهظة لا يقدر عليها العديد من أثرياء المسلمين مجتمعين، يمكن أن يكون هناك طريق آخر تقوم به المنظمات والهيئات الإسلامية وذلك بإنشاء شركات مساهمة تتولى هذه المهمة، والمتتبع لبعض البرامج الإسلامية القليلة في الفضائيات العربية الجادة في اختيارها العلماء والمفكرين ثم استضافتهم على الهواء مباشرة، كيف تنهال عليها الاتصالات من كل حدب وصوب بما يبشر بالرغبة الجادة عند فئات كبيرة من المجتمعات المسلمة في الوطن العربي والإسلامي في الغرب للتعرف على أحكام دينها ومعرفة شؤون حياتها بما يتوافق مع الشرع، والرغبة الجادة من الآباء بإيجاد بديل هادف لأبنائهم وبناتهم يمكن الثقة به. كما أنه يوضح في الوقت نفسه إخفاق البرامج الإسلامية التي تحاول بعض الفضائيات استخدامها لتمييع الدين وخلط الفاسد بالصالح.

كذلك يجب العمل على التعامل مع شبكة الإنترنت وتوظيفها لخدمة هذا الدين، وفي هذا الجانب هناك جهد جبار تقوم به بعض الهيئات والجماعات المسلمة خصوصاً في الغرب أدى في كثير من الأحيان إلى فهم وتعامل أحسن للدين الإسلامي. وهذا لا يمنع من إنشاء المزيد من المواقع الإسلامية لتفهيم الدين الصحيح والإجابة بطريقة متفاعلة وغير جامدة على استفسارات المتصفحين لها، خصوصاً إذا نظرنا إلى أن هناك الآلاف من المواقع التنصيرية واليهودية وغيرها من الديانات الوثنية والشركية ومواقع تشويه الدين الإسلامي الحنيف.

العمل الآخر هو حث الآباء والأمهات على مقاطعة القنوات الفاسدة والإباحية وغيرها، ومنع أبنائهم من الاتصال بها، وهو عمل شاق يحتاج إلى العزيمة وإلى تَبَنٍّ واضح من راعي كل أسرة وكل مفكر وعالم. كذلك يجب البدء في توجيه التجار والمنتجين بعدم شرعية كسبهم عن طريق ترويج سلعهم بالإعلان في قنوات الهدم والإفساد، ويجب أن لا نستهين بهذه المهمة؛ حيث إن امتناع تجار بلد عربي واحد عن التعامل مع تلك القنوات قد يؤدي إلى إفلاس حقيقي لها.





وكرم الله المرأة

عبد العزيز بن إبراهيم الحصين

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فهذه مناقشة لما تضمنه مقال: (وخلق الله المرأة) ـ لتركي الحمد في (جريدة الشرق الأوسط)، العدد (٧٤٦٠)، بتاريخ (١٩٩٩/٥/٢) ـ من أفكار ومناهج وأساليب في الاستدلال والاستنباط والتحليل، وسيكون فيها ـ أي المناقشة ـ قدر كبير من الصراحة أرجو ألا تزعجه؛ فلست أقصد بذلك الإساءة إليه، ولا القدح في شخصه؛ فلست أعرفه، ولا أعرف أباه، ولم يكن بيني وبينه في يوم من الأيام معاملة في درهم ولا دينار، ولا في غيرهما، بل لم تقع عيني عليه، ولم تسمع أذني صوته، بل حتى لم أكن أقرأ له شيئاً، ولم أقرأ له غير هذا المقال، ومقالين آخرين ـ أظن ـ أو ثلاثة، فليس بيني وبينه إلا القلم والقرطاس، والكلمات والأفكار، والاشتراك في العقل، وحرية البحث والنظر، الحرية التي تنبعث مضبوطة بضوابط الشرع والعلم والعدل، متجردة عن كل مؤثر يعبث بهذه الحرية، أو يجزئها، أو يبعثرها، أو يحيد بها عن المنهج السوي والصراط المستقيم، ومشتركاً معه أيضاً في الإسلام الذي انتسب إليه بقوله: «أما بالنسبة لنا نحن المسلمين».

لقد جمع تركي الحمد في مقاله كل ما استطاع من مقدمات يرى أنها منطقية وبراهين عقلية وشرعية؛ ليصل إلى نتيجتين إحداهما تتفرع عن الأخرى، فأما الكبرى منهما: فهي مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة المساواة المطلقة فيما عدا الاختلاف الطبيعي البيولوجي الذي لا يؤثر على مبدأ المساواة المطلقة، وفيما عدا الاختلاف في درجة التقوى. وأما الصغرى منهما ـ المتفرعة عن الأولى ـ فهي مسألة سفر المرأة وحدها بلا محرم، أو خلوتها بالرجال الأجانب وحدها؛ لأن معنى ذلك عدم ائتمانها على نفسها، وفي ذلك تناقض مع مبدأ ائتمانها على ما هو أكبر من نفسها، وخدش لمبدأ المساواة، وهذا يفضي إلى مناقضة ما يقتضيه مفهوم المواطنة، وشرعية الأمور؛ إذ يقرر كل منهما مبدأ المساواة المطلقة بين جناحي الإنسان.

ومع أهمية مناقشة تلك النتائج التي توصّل إليها، وبيان خطئه فيها؛ إلا أنني لن أتعرض لها هنا إلا من باب ضرب المثال، وإنما المقصود بهذا المقال مناقشة تلك المقدمات التي استنبطها وصاغها؛ ليصل بها إلى نتيجته، والأسلوب والمنهج اللذين سار عليهما، وما اشتملا عليه من مغالطات فكرية، ومناقضات عقلية، وأخطاء شرعية، وكأنه قد استقر في ذهنه مبدأ معين، أو فكرة معينة؛ فصار يحشد لها ما استطاع من كلام يظنه حججاً وبراهين؛ ليقنع بها الآخرين، غير عابئ بما تقتضيه أصول التفكير، ومناهج الاستدلال، وقواعد الاستنباط، ومبادئ احترام آراء الآخرين، وعقولهم.

١ - مارس تركي الحمد في مقاله - وللأسف - إرهاباً فكرياً، وعقلياً، ما كنت أظن عاقلاً - يحترم عقول الآخرين وفكرهم - يفعله، لقد توارى خلف كلمات فضفاضة واسعة تحتمل عدداً من المعاني، بعضها حسن، وبعضها قبيح، وهذه الكلمات يتبادر من بعضها إلى الذهن معنى حسن وجميل؛ كالمساواة، والتكامل الوظيفي، والمواطَنة، وشرعية الأمور، ومنطقية السلوك، وبعضها الآخر يتبادر إلى الذهن منها معنى سيئ ينفِّر السامع منها؛ فلا يحب الاتصاف بها، بقدر ما يحب الاتصاف بالأولى؛ كالعادات والتقاليد المهيمنة في مجتمع ما، والحشْوية، والمجسِّمة، والابتداع وفق معايير اجتماعية موضوعة، أو مصنوعة، والهوى، والتشدد، والموقف المتعالي من المرأة، ثم ربط بين هذه الكلمات وبين ما توصل إليه بالسلب والإيجاب؛ بحيث من أقر بالنتائج التي توصل إليها استحق أن يوصف بالكلمات التي ظاهرها الحُسن، ومن لم يقر بما توصل إليه فهو موصوف بالكلمات التي ظاهرها غير حَسن! ولا شك أن مثل هذا الأسلوب يضرب حاجزا متينا - كحاجز الأسلاك الشائكة بين الإنسان وبين استعماله الحر لعقله وفكره، وانطلاقه نحو أفق واسع في المحاورة والنقد والاختيار؛ إذ يبقى الارتباط في ذهنه بين هذه الكلمات والنتيجة، فإن أقر بها انهالت عليه الكلمات التي ظاهرها الحُسن؛ فيفرح ويبتهج ويسر، وإن خالف في النتيجة انهالت عليه الكلمات التي ظاهرها غير حَسَن؛ فيخاف ويرهب، ويتراجع ويتقهقر.

لقد كان كفار قريش يمارسون الأسلوب نفسه؛ حين وصفوا محمداً ﷺ وأصحابه بأنهم صابئون مخالفون لدين الآباء والأجداد، وأن محمداً ساحر وكاهن وشاعر؛ فقد كان ذلك مانعاً لبعض عقلائهم وكبرائهم - فضلاً عمن دونهم - من اتباع الحق؛ مخافة أن يوصف بتلك الألقاب، كما حصل للوليد ابن المغيرة، وغيره.

٢ - وأمر آخر يتعلق بمنهج الاستدلال، وطرائق الاستنباط؛ فإن مما لا يخالف فيه عاقل أن للاستدلال والاستنباط قواعد وأسساً ومناهج لا يختلف عليها عقلاء الأرض كلهم، وإن اختلفوا في الفروع والأمثلة، بحسب اختلاف كل بيئة ولغة ودين، وما دمنا نتحدث باللغة العربية، وننتمي إلى دين الإسلام، ونناقش - فيما أظن - مسألة دينية، فلا بد أن نكون محكومين في استنباطنا واستدلالنا بالقواعد المقررة، والمناهج المسلَّمة التي اتفق عليها علماء المسلمين، والاتفاق على هذه القواعد مما تقتضيه سلامة الفكر، ومنهجية البحث، وصحة العقل؛ إذ ضياع ذلك أو العبث به معناه ضياع الحق، واضطراب الفكر، وتناقض الآراء، وهذا هو التناقض الذي أبدى تركي الحمد استياءه منه.

وتركي الحمد قد ضرب في مقاله بهذه الأسس والمناهج والقواعد عرض الحائط متخذاً أسلوباً خاصاً، ومنهجاً منفرداً يستنبط به، ثم يقرر النتيجة به؛ فوقع في التناقض؛ إذ يستدل بالشيء تارة، ولا يستدل به أخرى، ويعتقد الشيء تارة، ولا يعتقده أخرى؛ فأوقعنا في الحيرة من أمره؛ إذ صرنا نتساءل: ما الحامل له على ذلك؟! أهو الجهل؟ فما ينبغي لجاهل أن يتصدر أعمدة الصحف، ثم يخاطب جمهوراً عريضاً بمقالات كثيرة في مواضيع شتى، أم التجاهل، وإرادة إقناع الناس برأي لا يستطيع أن يسلك في إثباته ما تعارف عليه العقلاء، واتفق على سلامته وصحته العلماء؟! وهذان أمران أحلاهما مر، وهما داءان، ولكل منهما دواؤه: فالأول دواؤه التعلم، والثاني دواؤه الموعظة والتذكير، ثم التوبة والإنابة، والتجرد للحق لا لغيره.

٣ - إن من العدل ألا يكتب الإنسان ولا يتكلم في موضوع معين إلا بعد أن يكون قد أحاط به، وعلم دقائقه وتفاصيله، وما له أثر فيه مما لا أثر له فيه؛ هذا إذا أراد أن يحكم على شيء فيه بأنه حق أو باطل، أو صواب أو خطأ، وهذا مما لا يخالف فيه عاقل؛ إذ لا يسوغ لمن أحاط بطرف من علم أن يتكلم فيه تكلم الناقد الخبير الذي يصحح ويزيف، ويحسِّن ويقبِّح، ويصوِّب ويخطِّئ؛ فضلاً عن الجاهل له؛ ومثال ذلك: من تعلَّم بعض كلمات اللغة الإنجليزية، واستطاع أن ينطق بها مركباً بعضها على بعض تركيباً ركيكاً، ثم عمد إلى قصيدة كتبها شاعر قدير من شعراء الإنجليز كتبها قبل مائتي سنة ليترجمها، أو ينقد اللغة التي استخدمها، والتراكيب التي استعملها، أو يحلل معانيها، ويصوغ أفكارها ومقاصدها بأسلوبه هو وفهمه لها، مع أنه لا يحيط بلغة القوم وما فيها من دقيق الإشارات، وجميل الألفاظ والكلمات؛ فهذا مخطئ بفعله لا محالة، وأحكامه إلى الخطأ أقرب منها إلى الصواب؛ لأنه لا يملك أسس النقد، ولا قواعد الحكم بالتصحيح والتصويب والتحسين، والتزييف والتخطئة والتقبيح، ومثله أيضاً من عرف بعض قواعد النحو والصرف، وبعض أساليب البلاغة والبيان، فقام يُخطِّئ فلاناً، ويصوِّب الآخر، أو يقول: هذا أفصح من ذاك؛ فإنه مخطئ بفعله هذا، وظالم لنفسه وللعلم وأهله؛ لأن مثل ذلك لا يطيقه إلا من أحاط بالعلم؛ فعرف حَسَنه من قبيحه، وصوابه من خطئه؛ ليكون حكمه إلى الصواب أقرب، ومن الخطأ أبعد، وقُلْ مثل ذلك في سائر العلوم والمعارف.

وعلم الشريعة هو أعظم هذه العلوم، والمتكلِّم فيه مبلِّغ عن رسول الله ﷺ المبلِّغ عن الله؛ فلا يحق لأحد أن يتكلم فيه إلا بعلم، أما الجاهل، ومن علم بعض العلم وجهل كثيراً منه فلا يحق له أن يتكلم إلا تكلُّم السائل المتعلم الذي يطلب كلام أهل العلم والمعرفة.

وتركي الحمد في مقاله هذا جعل من نفسه حاكماً ومفتياً، وعالماً بالأصول والحديث، فحكم على بعض الأحاديث، وبين أن مصدرها من كُتُب الإسرائيليات، وناقش أوجه الاستدلال، وزيَّف بعضها، وصوَّب بعضها الآخر، وأصدر أحكاماً فقهية، وقرر قواعد أصولية في مبدأ التعارض والترجيح، وكل ما فعله إنما دل به على جهله المركَّب بعلم الشريعة، ولا يشفع له أنه من المسلمين، أو أنه قرأ كتب الجاحظ أن يصعد إلى منصب لا يوصَل إليه إلا بعد اتباع مناهج وطرائق في طلب العلم،

والنظر، والبحث والقراءة، كأي علم آخر.

هذه الملاحظات الثلاث هي التي بدت لي أثناء قراءة هذا المقال، وهي تنصبُّ على المنهج والأسلوب، وطريقة التفكير، والاستدلال والاستنباط، ولا تناقش النتيجة؛ لأن المنهج إذا كان خطأً فلا يُمدح صاحبه إن أصاب، وإن أخطأ فالذم ليس لخطئه في النتيجة بل لخطئه في المنهج الذي أداه لمثل هذه النتيجة، كمن رمى وهو ليس برامٍ، فربما أصاب؛ فيقال: رميةٌ من غيرِ رامٍ، وربما أخطأ ـ وهو الأكثر ـ فيقال: لم يتعلم الرماية.

ثم لا تعجل عليَّ أيها القارئ؛ فإني قائل لك: إن كل ما وصفتُ به تركي الحمد من العبث في المصطلحات، واستغلال معانيها الحسنة في بث معاني ليست حسنة، والخلط في مناهج الاستنباط والاستدلال، والتكلم بغير علم إنما هي دعاوى لا تثبت إلا بإقامة الدليل على صدقها، لكن كلامي السابق يشتمل على شقين، إن سلمت لي بأحدهما؛ فلك أن تتابع بعد ذلك.

أما الشق الأول: فهو أني ذكرت ثلاثة مبادئ، لا يختلف عليها عقلاء البشر، وهي:

أولاً: تحديد المصطلحات وبيان المراد منها، وعدم التعمية فيها، حتى تكون واضحة بينة، وألا يربط بينها وبين معاني معينة ربطاً تحكمياً لا يقبل النقاش والجدال.

ثانياً: أن للاستدلال والاستنباط قواعد ومناهج متفقاً عليها لا بد من التزامها لإصدار الأحكام الصادقة السليمة.

ثالثاً: أن من أراد أن يتكلم في علم من العلوم كلام الناقد البصير الذي يُصدِر الأحكام ويجادل في جزئيات العلم، وفروعه، ونتائجه، وأصوله فلا بد أن يكون محيطاً بهذا العلم، متبعاً طرائق أهله ومناهجهم في تعلمه، سالكاً سبيلهم، سائراً على قواعدهم وأصولهم.

هذا عن الشق الأول.

أما الثاني: فهو أني حكمت على تركي الحمد بأنه خالف هذه المبادئ كلها، وأتى بما يناقضها؛ فإن سلَّمتَ بالشق الأول فلك أن تسأل عن الأمور التي دلتني على الحكم في الشق الثاني، وإن لم تسلم بالشق الأول فليس لك حاجة في أن تتابع، ولا أن تسأل.

وها أنا ذاكر كل ما يؤيد الحكم الذي حكمتُ به عليه:

١ - **قال:** «وذلك في تحوير للعبارة الواردة في العهد القديم... والتي تقول بأن الله خلق الإنسان على صورته، أي أن الله ذكر..».

والسؤال هنا: هل قوله: «أي أن الله ذكر» إنشاء منه هو؟ أو من كلام العهد القديم؟ وأي الأمرين كان فظاهرٌ من العبارة تسليمُ تركي الحمد بها، وإذا كان كذلك فهل الضمير في (صورته) عائد إلى الله، أو إلى الإنسان؟ وإذا كان عائداً إلى الله؛ فهل يدل على أن الله ذكر؟ وما وجه الدلالة هنا؟ إذ لا يبدو أي وجه من التلازم بين خلق الله الإنسان على صورته، وبين الذكورة والأنوثة.

٢ - **قال:** «فإننا نجد بعض الكتب التراثية القديمة، والتي ألفها من أسماهم الجاحظ بالحَشْوية، وأسماهم آخرون بالمُجَسِّمة والمُشَبِّهة ونحو ذلك؛ تأخذ بمقولة: إن الله خلق آدم على صورته، في تأثر واضح بالإسرائيليات، وروايات كعب الأحبار، ووهب بن منبه».

وهنا وقفات:

أ - في كلامه ألفاظ فيها إيهام، وهي: الكتب التراثية القديمة، والحَشْوية، والمجسِّمة، والمشبِّهة، فما المراد بالكتب التراثية القديمة؟ وهل يدخل فيها كتب الحديث التي جمعها علماء الإسلام، وفيها سنة النبي ﷺ وأقواله وأفعاله؟ ومَنْ هم المجسمة والحشوية والمشبهة؟ هل يراد بهم مثبتو أسماء الرب وصفاته على الوجه اللائق به، والذين يقبلون أحاديث النبي ﷺ إذا صح سندها ومتنها، سواء كانت متواترة أو آحاداً؟ أو يراد غير هؤلاء؟ لم يبين تركي الحمد ذلك! فإن هذا من التخفي وراء الكلمات، والتلاعب بالمصطلحات.

ب - الجاحظ معتزلي، بل هو من أئمة الاعتزال، وله مذهب مستقل يعرف باسمه، والمعتزلة من الذين ينفون صفات الله - تعالى -، ومعلوم أن نفاة الصفات يسمون مثبتي الصفات: مجسِّمة، وحَشْوية، ومشبِّهة؛ فهل تنفي صفات الله - تعالى - لكي لا تتصف بهذه الكلمات التي أطلقها الجاحظ وغيره؟ أو نبحث عن الحق ونتمسك به؟ ولا علينا وُصِفْنا بمثل ذلك أم لم نوصَف؛ فالحق أحق أن يُتَّبَع!

ج - سمَّى تركي الحمد «إن الله خلق آدم على صورته» مقولة، والأخذ بها تأثراً بالإسرائيليات، مع أن هذا اللفظ قطعة من حديث رواه البخاري في كتاب الاستئذان (رقم ٦٢٢٧)، ومسلم في كتاب الجنة (رقم ٢٨٤١) بلفظ: «خلق الله آدم على صورته»، ورواه مسلم أيضاً في كتاب البر والصلة والآداب (رقم ٢٦١٢) بلفظ: «وإذا قاتل أحدكم أخاه، فليجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته». وظاهر كلام تركي الحمد أنه ينكر أن يكون هذا اللفظ من كلام النبي ﷺ، ثم إنه يلزم عنده من هذا اللفظ أن الله ذَكَرٌ، وهو في هذا لا يخلو من أمور:

الأول: أن يكون قد اطلع على هذه الأحاديث، ودرس أسانيدها؛ فتوصل إلى أنها ضعيفة، وأنه لا يثبت عن النبي ﷺ في ذلك شيء، وأن القائلين بهذا القول إنما هم متأثرون بالإسرائيليات، وروايات كعب الأحبار، ووهب بن منبه.

الثاني: أن يكون قد اطلع على هذه الأحاديث، وعرف كلام أهل العلم فيها؛ لكنه بعد دراسة هذه الأقوال تبين له خطأ هذه المقولة، حتى وإن كان الذي قالها هو رسول الله ﷺ؛ لما يلزم منها من أن الله ذكر.

الثالث: أنه لم يطلع على شيء من ذلك أصلاً، ولكنه ثبت في ذهنه شيء معين، ورأى في كلام أصحاب الكتب التراثية القديمة، كالجاحظ مثلاً ما يؤيد رأيه؛ فقال به.

الرابع: وقد يكون شيء غير ما ذكر، الله يعلمه.

والمقصود من هذا كله أنه قد وقع في أمور أولها: الجهل بدلالات الألفاظ. وثانيها: استعمال المصطلحات والكلمات الموهمة. وثالثها: رد سنة النبي ﷺ، ووصفها بأنها من الإسرائيليات. ورابعها: الجرأة على التكلم في علم لا يحيط به، ولا يعرف منه إلا ما ذكره الجاحظ من أسماء كالحشوية والمجسمة والمشبهة.

٣ - قال: «مبدع الخلق... يقرر أن الإنسان عبارة عن ذكر وأنثى، وليس ذكراً فقط، وأن الأفضل عند الله هو الأتقى، وليس الذكر أو الأنثى؛ وبالتالي هي المساواة المطلقة بين جناحي الإنسان فيما عدا ذلك من معيار..».

وهنا وقفات أيضاً:

الأولى: أن الله خلق آدم أولا، ثم خلق منه زوجه، ومن هذا الزوج بث رجالا كثيرا ونساءا؛ فالمرأة مخلوقة من الرجل الأول، يدل على ذلك قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

الثانية: أن الله - سبحانه وتعالى - فرق بين الذكر والأنثى في أمور، وساوى بينهما في أمور، ولم نرَ آية في كتاب الله تأمر بالمساواة المطلقة، أو تدل عليها، بل قد كلف الله الرجل بالجهاد باليد دون المرأة، وألزم الرجل بالإنفاق على زوجه وأولاده دون المرأة، وألزمه بحضور الجُمَع والجماعات دون المرأة، وجعل نصيب الرجل في الميراث أعلى من نصيب المرأة عند الإرث بالتعصيب، وأمر المرأة بالحجاب وعدم إبداء الزينة دون الرجل، وغير ذلك كثير مما تختص به المرأة دون الرجل، أو الرجل دون المرأة، وساوى بينهما في أمور كثيرة أيضاً، فكيف يسوغ القول بأن الله يقرر مبدأ المساواة المطلقة؟! وهل يسلِّم تركي الحمد بمثل هذه الأمور الثابتة في كتاب الله؟ أم أنه لا يسلِّم بها لمناقضتها مبدأ المساواة المطلقة؟!

الثالثة: أن الاستدلال بالآيات الدالة على أن الله خلق الناس من ذكر وأنثى على مبدأ المساواة المطلقة خطأ في الاستدلال؛ فإن هذه الآيات تقرر مبدأ من مبادئ المجتمع الإنساني، وأنه لا يقوم إلا على الزوجية، لكن ليس في ذلك ما يدل على وجود مبدأ المساواة لا مطابقة ولا تضمنا ولا التزاماً، كما إذا قيل: إن اليوم الكامل لا يمكن وجوده إلا بالليل والنهار، فإن كل عاقل لا يفهم من ذلك مبدأ المساواة المطلقة بين الليل والنهار؛ فلليل خصائص ومزايا لا توجد في النهار، وكذا العكس، والناس يفرِّقون بينهما بحسب عائدة كل منهما، فكذلك الرجل والمرأة هما معا يشكلان المجتمع، ولا قوام للمجتمع إلا بهما، لكن لكل منهما خصائص ووظائف يمتاز بها عن الآخر.

٤ - قال: «كون المرأة تختلف عن الرجل في وظائفها البيولوجية مثلاً، أو أن الرجل يختلف عن المرأة في ذلك لا يعني ميزة لأحدهما على الآخر بقدر ما يعني التكامل الوظيفي بين جناحي الإنسان كي يكون إنساناً كاملاً».

ثم قال: «أن يختلف هذا الجناح عن ذاك الجناح مسألة طبيعية، بل ضرورية من أجل التكامل وأداء الوظيفة الطبيعية، ولكن ذلك الاختلاف لا يعني ميزة لأحدهما على الآخر، أو فضلاً طبيعياً لهذا على تلك، أو لهذه على ذاك».

إذاً هما مختلفان، والاختلاف في الوظائف البيولوجية يعني الاختلاف في الوظائف الاجتماعية، وهذا ينفي مبدأ المساواة المطلقة؛ لأن المساواة تارة تكون عدلاً، وتارة تكون ظلماً، فمن ساوى بين الغني والفقير، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، والعامل والخامل في الواجبات والوظائف والحقوق فقد أخطأ وأوقع الظلم على أحد الفرقاء، وأما إذا ساوى بينهم في العدل والإنصاف، بحيث لا يُظلَمُ أحد من حقه شيئاً؛ فقد أحسن.

ثم إنه مع اعترافه بالاختلاف إلا أنه ينفي التمايز بينهما، ويثبت المساواة، مع أن الله نفى المساواة، وأثبت الاختلاف، وفاضل بين الذكر والأنثى؛ فقال - تعالى -: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] وقال أيضاً: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا

فضَّل اللهُ به بعْضَكُم علَىٰ بعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال: ﴿الرِّجالُ قوَّامُون علَى النِّساء بما فضَّل اللَّهُ بعْضهُمْ علَىٰ بعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] وقال: ﴿ولَهُنَّ مثْلُ الَّذي علَيْهِنَّ بالْمعْرُوف وللرِّجال علَيْهِنَّ درجةٌ واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهو مع هذا التفضيل أمر بالعدل، والإنصاف، وإعطاء كل ذي حق حقه، ونهى عن هضم الحقوق والإساءة إلى الآخرين.

٥ - **قال**: «الاختلاف الذي يستند إليه الإنسان في تفضيل الأنثى على الذكر في عالم الحيوان مثلاً هو ذاته الذي يجعله يقلل من شأن الأنثى في المجتمع الإنساني؛ ليس لأن الذكر أفضل من الأنثى، أو أن الأنثى أفضل من الذكر بالطبيعة وبداية الخلق؛ بل هي مجرد معايير مرتبطة بشكل التركيبة الاجتماعية المهيمنة، وليست مرتبطة بالطبيعة المجردة لذات الكائن أو الشيء أو العلاقة».

وأقول: إن تفضيل أحد الجنسين على الآخر لا يلزم منه التقليل من شأن الآخر، بل لكل منهما شأنه الخاص به، الذي يميزه عن غيره. وتفضيل الأنثى على الذكر في عالم الحيوان يستند إلى اختلاف وظائفهما، وما يُجنى من كل منهما من فوائد، وهذا التفضيل لم يضعه الإنسان لمجرد معايير مرتبطة بشكل التركيبة الاجتماعية المهيمنة، بل استناداً إلى طبيعة كل منهما، وما خلق الله لكل منهما من عناصر، وحدد لهما من وظائف.

وتركي الحمد هنا يريد من كل ذلك أن يثبت لنا أن طبيعة كل من الذكر والأنثى وبداية خلقهما ليس فيها أي تفضيل بينهما، بل هما سواء، والاختلاف في الوظائف البيولوجية إنما هو ضرورة للتكامل الوظيفي، ولكن لا يلزم منه التمايز، ولا التفاضل، بل ليس بينهما إلا المساواة المطلقة، وكل محاولة للتمييز والمفاضلة إنما منشؤها معايير اصطنعها الإنسان، أو كانت نتيجة المداومة على عادة معينة.. وكل هذا في الحقيقة مناقض للشرع والعقل:

أما الشرع: فلِمَا سبق من أن الله فاضل بين الذكر والأنثى، والمفاضلة هنا بين الجنسين، وليس بين الأفراد، فجنس الرجال يفضُل جنس النساء، أما في الأفراد فقد يوجد من النساء من يفوق الرجال، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وأما العقل: فإن وجود الاختلاف بين طبيعة جنسين مثلاً ينفي وجود المساواة بينهما. نعم! ربما استويا في أمور، لكن أن يكونا على السواء في كل شيء؛ فهذا مما ينافي العقل.

ويصر تركي الحمد على أن المفاضلة تعني التقليل من شأن الأنثى؛ فيقول: «وإذا كانت المفاضلة بين الرجل والمرأة، والتقليل من شأنها بالنتيجة النهائية»، وهذا ليس بصحيح؛ فليس من لوازم المفاضلة التقليل من الشأن، أو الحط من القيمة، أوالتحقير في الوظيفة؛ فللمرأة وظيفتها، وقيمتها، ومكانتها، واستقلاليتها، لكن كل ذلك محكوم بنظام الشرع. نعم! ربما حملت المفاضلة بعض الناس على التقليل من شأن المرأة، والحط من مكانتها، واحتقار آرائها وأعمالها، وهذا تصرف خاطئ، إلا أن معالجته لا تتم بادعاء أمر يناقض الشرع والعقل، بل بفك الارتباط بين المفاضلة وبين التقليل من الشأن والاحتقار والازدراء.

٦ - قال بعد أن ذكر وضع المرأة في عهد قساوسة القرون الوسطى: «واختلف الإسلام منذ فجره الأول عن كل ذلك بإقرار مبدأ المساواة بين

الرجل والمرأة في كل شأن إنساني: فهن شقائق الرجال، وبعضهم لبعض أزواج، والجميع مكلفون التكليف ذاته، ويشملهم الخطاب، وما يضمنه من ثواب وعقاب».

ثم قال: «الأمور انقلبت منذ عصور الانحطاط؛ فأصبحنا اليوم نفعل ما كانوا يفعلونه بالأمس، ويفعلون هم اليوم ما كنا نحن نفعل بالأمس، أو ما نحن مأمورون فيه على الدوام من فعل وعمل؛ وفقاً للدين الذي نعتنق، ووفقاً لكلمات الخالق التي لم يعتَرِها التحريف منذ أن أوحيت إلى خاتم الأنبياء والمرسلين».

ادَّعى تركي الحمد هنا أن الإسلام أقر مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في كل شأن إنساني، وأن الرسول ﷺ وصحبه كانوا يعاملون المرأة ويتعاملون معها كما يتعامل معها الغرب الآن، واستدل على ذلك بحديث: «النساء شقائق الرجال»[1]، وأن بعضهم لبعض أزواج، وأن التكليف شامل لهم معاً، والخطاب موجه لهم معاً، ثم بعد أن استراح إلى ذلك ادعى أننا اليوم نتعامل مع المرأة كما تعامل معها أهل القرون الوسطى من النصارى، وأن النصارى يتعاملون معها الآن ويعاملونها كما كان الرسول ﷺ وصحبه يفعلون، وفي هذا عدد من المغالطات:

أ - الدعوى أخص من الدليل؛ بمعنى أن الدليل عامٌّ، والدعوى خاصة، ومعلوم أن الأعم لا يستلزم الأخص، فإذا قلت: في البيت إنسان؛ فلا يلزم من ذلك أن يكون الموجود زيداً، فقد يكون زيداً، وقد يكون غيره، فإذا أراد أحد أن يثبت وجود زيد لثبوت وجود إنسان فهو مخطئ في الاستدلال، وهذا ما حدث هنا: فكون النساء شقائق الرجال، وأنهن خوطبن بالخطاب نفسه، ويلزمهن التكليف ذاته، ومعرضات للثواب والعقاب لا يدل ذلك على المساواة في كل شأن إنساني. نعم! هو يدل على المساواة في أمور لا في كل الأمور، وقد ثبت أن الشارع نفى المساواة المطلقة بينهما، كما سبق.

ب - ولخطئه في الاستدلال أخطأ فيما تفرع عنه؛ حيث فهم من هذه الأدلة المساواة المطلقة التي يمارسها الغرب الآن، وهذا ما دفعه للقول بأنهم يفعلون ما يجب أن نفعله نحن، أو ما كان الرسول ﷺ وصحبه يفعلونه بالأمس، قبل عصور الانحطاط، وفي هذا مغالطة خطيرة؛ إذ ما يفعله الغرب هو مساواة مطلقة، لكن ليس هو ما فعله الإسلام بالمرأة عينه، ولا ما أمرنا الله أن نفعله، بل الله نفى المساواة المطلقة، وكل مسلم عاقل يدرك أن ما يحدث في الغرب هو ظلم للمرأة، واستغلال بشع لأنوثتها، وإبراز لمفاتنها، ومحاسنها؛ لتكون دعاية تُسَوِّق بها السلع، أو شبكة يصاد بها أهل الأهواء والشهوات. لقد حقق الغرب للمرأة بعض حقوقها المهضومة، لكنه أهدر من كرامتها، وأضاع من حقوقها أضعاف أضعاف ما حققه لها، فحمَّلها فوق طاقتها، وكلفها بما ليس من خصائصها، وشغلها عن مهمتها ووظيفتها الحقيقية بأمور لا تعود عليها إلا بالشقاء والنصَب التي ظاهرها السعادة، وباطنها التعاسة، أخرجوها لتطبخ للرجال بدل أن تطبخ لزوجها وولدها، ولتخدم الرجال في مكاتبهم وأماكن عملهم بدل أن تخدم زوجها وولدها؛ فأهملت بيتها وأسرتها، وأضاعت مكانتها، وأنزلت من قيمتها وقدرها. وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط - قبل

(١) رواه الترمذي، ح/ ١٠٥، وأبو داود، ح/ ٢٠٥.

بضعة أشهر - إحصائية عن كثرة إيذاء المدراء لسكرتيراتهم بالتحرش والمضايقة الجنسية، وسوء استغلال هؤلاء لحاجة المرأة للعمل، وضعفها وعدم قدرتها على دفعهم، ونشرت أيضاً قبل ذلك إحصائية تبين أن المدارس التي مُنِعَ فيها الاختلاط كان التحصيل العلمي فيها أكثر من المدارس التي فيها اختلاط، ونشرت أيضاً أن وزارة الدفاع الأمريكية أصدرت عدداً من القرارات تتضمن منع خلوة الرجل بالمرأة، وما ذاك إلا لشدة ما عانوا من سوء الاختلاط والتبرج؛ فهل الله الحكيم العليم البر الرحيم يأمر بأن نُخرج المرأة من بيتها لتسير على خُطا المرأة الغربية الكافرة؟! ألا يعقل تركي الحمد ما يقول؟!! هل يجوز أن يُنسب مثل هذا لدين الإسلام؛ وبهذا التعميم الذي ينكره الجاهل فضلاً عن العالم؟!! ثم ما هي الأفعال التي نمارسها اليوم تجاه المرأة وتشبه تصرفات نصارى القرون الوسطى؟! لم يذكر لنا مثالاً على ذلك، إلا بأن قال: إن أهل العادات يحمِّلون المرأة الجانب الأكبر من التكاليف بأمرها بالحجاب والستر، ومنعها من الاختلاط بالأجانب، والسفر إلا مع ذي محرم؛ فمن الذي أمر بكل ذلك؟! فهل يريد تركي الحمد أن يهدم الدين باسم الدين؟! وما معنى الإسلام؟! وما معنى أن يكون الرجل من المسلمين ثم يأخذ ما يشاء، ويدع ما يشاء، ويفهم الإسلام بحسب ما يمليه عليه الهوى والرغبة؟!!

ربما أساء بعض الرجال في استعمال حقوقهم؛ فمنعوا المرأة حقوقها، وساموها سوء العذاب، وخالفوا أمر الله وأمر رسوله ﷺ في ذلك؛ فهل الحل بأن نأمر المرأة بأن تسيء هي أيضاً استخدام حقوقها، وتتمرد على أمر الله وأمر رسوله ﷺ، ونزعم أن الإسلام جاء بالمساواة المطلقة بينها وبين الرجل؟! كلا؛ فليس هذا صنيع العقلاء، وإنما الحل يتمثل بإحياء أثر الدين في النفوس، وتطبيق أحكام الشرع تطبيقاً يمنع الظلم ويرفعه.

٧ - ثم مثَّل بمثال على الموازنة في كلمات الخالق بين جناحي المجتمع في الأوامر والنواهي، وما فعله بعض أهل العادات والتقاليد والهوى والمصلحة من تحميل المرأة القدر الأكبر من هذه التكاليف، وغض الطرف عن الرجل، فقال: «يقول - الباري - في محكم كتابه: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣٠، ٣١]. نجد هنا أمراً ربانياً بمسلك من مسالك الفضيلة، والخطاب فيه موجه إلى الذكر والأنثى، على السواء وفق معادلة متكافئة الجانبين، ولكن في كثير من الأحيان - إن لم يكن في أغلب الأحيان - وفي الواقع والسلوك الاجتماعي المعاش نجد أن هناك تشديداً على المرأة حتى فيما هو مرخص فيه في ﴿**وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ فلا يتسامح حتى مع ما ظهر منها، أو ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ**﴾ ومع أن

الخمار معروف لغة، والجيب معروف لغة، ولكن الوجه يدخل في القضية، وعلى الجانب الآخر نجد هناك من التسامح مع الرجل في هذا المجال حتى فيما هو مشدد فيه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ وغير ذلك من سلوكيات بما يجرح مبدأ المساواة الأولى».

لنتأمل المثال الذي ذكره: لقد اشتملت الآية في جانب الرجال على أمرين: غض البصر، وحفظ الفرج، واشتملت الآية في جانب النساء على هذين الأمرين، ولم تقف عند هذا، بل زادت بذكر تكاليف للمرأة خاصة بها، لا يشاركها فيها الرجل؛ فأين المعادلة المتكافئة بين الجانبين؟!

فإذا اختلف العلماء في الوجه هل هو مما يجوز إظهاره، أو مما لا يجوز؛ فهل يكون في ذلك تحميل للمرأة القدر الأكبر من التكاليف، وغض الطرف عن الرجل؟! وهل في هذا جرح لمبدأ المساواة الأولى؟! إن كان ذلك فالآية هي التي جرحت هذا المبدأ؛ حيث كلفت المرأة أن تخفي زينتها عن الأجانب بينما لم تكلف الرجل بذلك.

حينما نقول: يجوز للرجل أن لا يغض طرفه، ولا يحفظ فرجه، ولا يجوز للمرأة ذلك؛ نكون حينئذ قد تسامحنا مع الرجل، وحمّلنا النصوص فوق ما تحتمل، ـ وظاهر كلام تركي الحمد فيه إشارة إلى هذا، لكنني لا أعلم عالماً من علماء المسلمين يقول بمثل ذلك إلا أن يكون في مخيلة تركي الحمد نفسه؛ فهذا مما لا أعلمه. أما أن يكون في الخلاف في وجه المرأة: هل هو عورة، أو ليس بعورة؟ تحميل للنصوص ما لا تحتمل وتحميل للمرأة القدر الأكبر من الأوامر والنواهي فهذا جهل بحقيقة الخلاف ودلالات الألفاظ، وتحميل للكلام فوق ما يحتمله، وأعجب شيء وأقبحه أن يكون جهل امرئ من الناس حاكما على آراء الآخرين واستنباطاتهم.

ثم .. لمَ هذا الربط بين القول بأن وجه المرأة عورة، وبين العادات والتقاليد؟!

٨ – **قال:** «المواطَنة ابتداءا تفترض المساواة بين المنتمين إلى بلد واحد».

يقال في هذا مثل ما قيل في قوله: «إن الإسلام أقر مبدأ المساواة المطلقة»، فالمواطنة تفترض العدل بين الناس، ومن العدل أن تساوي حين تكون المساواة عدلاً، وأن تفرق وتمايز وتفاضل حين يكون ذلك عدلاً، ولا أظن أن تركي الحمد نفسه يرضى أن يُساوَى في كل شيء بجاهل لا يقرأ ولا يكتب، بل لكل واحد منهما من الحقوق، وعلى كل واحد منهما من الواجبات بحسب ما عندهما من العلم، والمؤهل، والكفاءة، وحسن العمل.

لكن تركي الحمد من أول مقاله إلى آخره يريد أن يثبت هذا المصطلح: (المساواة المطلقة) ليمرر من تحته ما شاء من أفكار وآراء.

٩ – **قال:** «ورغم أن أوامر كثيرة بالنسبة للمرأة كانت خاصة بنساء النبي الأكرم ﷺ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ...﴾ **[الأحزاب: ٣٢]** إلا أن البعض يعممها على غيرهن من النساء».

في هذا الكلام عدد من الملاحظات:

أ – ليس كثير من الأوامر بالنسبة للمرأة خاصاً بنساء النبي ﷺ كما ادعى هنا، بل هذه الأوامر التي يزعم أنها خاصة بنساء النبي ﷺ وصُدِّرت بـ ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ وجدت في سورة واحدة، في آيات معدودة منها، وما عدا ذلك، فمن أول القرآن إلى آخره ـ وهو كثير ـ كله عام لجميع النساء.

ب – اختلف العلماء في الخطاب الموجه لنساء

النبي ﷺ: هل هو خاص بهن، أو عامٌ لجميع النساء؟ والقائل بالقول الثاني لم يكن الحامل له على القول بذلك الهوى والمصلحة والعادات والتقاليد كما يذكر تركي الحمد، بل استدل بأدلة صحيحة صريحة، منها: أن من الأساليب العربية توجيه الخطاب إلى واحد، مع إرادة غيره ممن هو دونه، أو فوقه، كقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ...﴾ [الطلاق: ١] الآية، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] الآية، وقوله ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] الآية، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] الآية، وغير ذلك من الآيات؛ لكن تركي الحمد جهل ذلك؛ فلم يذكره، أو تجاهله؛ فطواه، وكلاهما أمران قبيحان.

ج - **قوله**: «إلا أن البعض يعممها» فيه تجهيل وحط من مقدار القائل بهذا القول، والعدل والإنصاف يقتضي المساواة بين أهل الأقوال بذكر آرائهم دون حط من مقدارهم، أو الاستهزاء بهم.

١٠ - **قال**: «عندما تكون المرأة ذات عقل راجح، ومشهوداً لها بذلك، ومع ذلك لا تؤتَمن على نفسها في سفر، أو غيره مثلاً مع أنها مؤتَمنة على ما هو أكبر من ذلك، كأن تكون أستاذة جامعية، أو مربية جيل، أو امرأة أعمال فإن في ذلك جرحاً ليس لمفهوم المواطَنة وممارستها فقط التي تفترض مساواة في الحقوق والواجبات، بل وفي منطقية السلوك برمته؛ إذ كيف تؤتَمن على جيل بأكمله مثلاً، أو ثروة عريضة، ولا تؤتمن على ذاتها؟ فإما أن تكون غير أمينة، أو حتى قاصر غير قادرة على تمييز الحق من الباطل؛ وذاك مما يناقض التكليف الإلهي ذاته القائم على كمال العقل؛ فلا تؤتمن بالتالي على شيء على وجه الإطلاق، وإما أن تكون أمينة وغير قاصر؛ فتؤتمن على كل شيء، وأول ذلك كله أن تؤتمن على ذاتها المباشرة، ولا وسط بين الطرفين في هذه المسألة، هذا إذا كان مفهوم المواطنة وشرعية الأمور ومنطقيتها هي معيار الحكم وفيصله بطبيعة الحال».

إن كل ما سبق من مقدمات تركي، واستدلالاته لتثبيت مبدأ المساواة المطلقة إنما يراد به الوصول إلى هذه النتيجة، وهي نسف مسألة منع المرأة من السفر وحدها، وتحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية بلا محرم، مع تغطية المرأة وجهها الذي سبق الحديث عنه، وقد حاول أن يحشد ما استطاع من كلمات: كمفهوم المواطنة، وممارستها، ومنطقية السلوك، وشرعية الأمور ومنطقيتها، والتناقض؛ ليحاصر فكر القارئ وعقله، ويجعله يسلِّم بما توصل إليه.

ويمكن تلخيص ما ذكره في نقطتين:

أولاهما: تصويره أن منع المرأة من السفر وحدها، ومنعها من الخلوة بالرجال الأجانب تخوين لها، وإسقاط لمبدأ الأمانة على نفسها، هذا مع أنها مؤتمنة على ما هو أكبر من ذلك، وهذا - كما يتصور الحمد - تناقض؛ فإما أن تؤتمن على كل شيء، أو لا تؤتمن على شيء، ولا وسط بين الطرفين عنده.

ثانيهما: أن ذلك - بحسب ما توهم - مناقضة لمبدأ المساواة، وكل ما ناقض مبدأ المساواة فهو باطل.

وفي هذا رد لنصوص الكتاب والسنة، واتهامها بأنها متناقضة، وعبث بمعانيها، وفهمها فهماً قاصراً، دون ضابط ولا منهج مستقيم، اتباعاً للهوى والرغبة، وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن

يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾ [الأحزاب : ٣٦].

وأول سؤال هنا: من الذي منع المرأة أن تسافر بلا محرم، وحرم على الرجل أن يختلي بالمرأة الأجنبية، وحرم على المرأة كذلك الخلوة بالرجل الأجنبي؟! أليس الله الذي حرم ذلك؛ حيث يقول النبي ﷺ: «لا تسافرِ المرأةُ إلا مع ذي محرم، ولا يدخلْ عليها رجل إلا ومعها مَحْرَم»(١)، وقد قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهُوا ﴾ [الحشر : ٧]؛ فلِمَ الاعتراض؟!

وسؤال ثان: ما الحكمة التي لأجلها كانت تلك الأحكام؟ وما هي عادة الشرع في إصدار الأحكام وربطها بعللها؟

وسؤال ثالث: من هو المؤهَّل لاستنباط الأحكام والعلل من كلام الشارع؟ وهل لذلك ضوابط، أم هو مباح لكل متكلم؟

وسؤال رابع: هل مَنْعُ المرأة من السفر وحدها تخوينٌ لها، وعدم ائتمان لها على نفسها؟! فالرجل ممنوع من الخلوة بالأجنبية أيضاً؛ فهل ذلك عدم ائتمان له أيضاً على نفسه؟

وسؤال خامس: هل من ائتمن على شيءٍ مَّا ائتمن على كل شيء؟ وكذا ضده؟

وسؤال سادس: ما التناقض؟ وما حقيقته؟

وسؤال سابع: هل المساواة المطلقة على اسمها ليس لها ضابط ولا حد، أو أن لها حدودا، وضوابط؟ وإذا كان الجواب بنعم؛ فما هي؟ ومن الذي يحددها ويضبطها؟

كل هذه الأسئلة لا بد من الإجابة عنها بجواب مقنع حتى يتضح الأمر، ويظهر الحق من الباطل؛ إذ الحق مقصود كل عاقل، أما التعمية في الكلام، والتكلُّم بمجمل من القول يحتمل حقاً وباطلا، وإصدار أحكام قطعية دون بحث ونظر وتأمل وتفكر، والحكم على كلام الشارع بأنه متناقض فهذا لا يزيد الأمور إلا اضطراباً، ولا يُعرَف به الحق من الباطل.

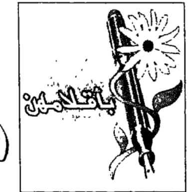
وأخيراً: فإنه لا يحق لكاتب يمسك قلماً ليخط به حديثاً في موضوعٍ مَّا إلا بعد أن يلم بأطراف الموضوع إلماماً يميز به الخطأ من الصواب، ويمتلك الآلة التي تمكنه من إدراك الحقائق على الوجه الصحيح، ويكون مقصده إيضاح الحق، وإيصاله إلى القارئ؛ إذ إن حَمْلَ القلم أمانة، والتفريط فيها خيانة للأمة بجميع طبقاتها وفئاتها.

وقد حاولت الاختصار مع أن الحديث قد طال، لكن المقام مقام خطير، والإيضاح فيه مطلوب؛ لأن المنهج إذا فسد وأصابه الخلل والاضطراب أدى ذلك إلى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها، وأرجو من الله أن يقع هذا الحديث موقعه، وأن ينفع به.

والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ١٨٦٢، ومسلم، ح/١٣٤١.



هجرة العقول الإسلامية

بدرية محمد

إن عنوان هذا المقال يثير الكثير من الحزن والكمد على عقولٍ ذهبت وجعلت من دول الغرب مقراً لها، ولكن في بداية حديثنا نود أن نبحر في قواميس اللغة حتى نعرف معاً معنى كلمة هجرة.

ففي القاموس الوسيط يقول المؤلف: إن المُهَاجِر: الذي هاجر مع النبي ﷺ، والمهاجَر موضع المهاجرة والمَهْجَر: المكان الذي يهاجر إليه، ولكن إذا انتهينا من معنى هذه الكلمة الصغيرة فإنا نود أن نعرف كيف تكون الهجرة وما هي أسبابها؟!

فالهجرة في هذا الوقت تلعب دوراً كبيراً في تعزيز الاقتصاد الغربي، وكثير من المهاجرين هم من المسلمين، والهجرة التي أعنيها: هي هجرة المفكرين المسلمين إلى بلاد الغرب لمزاولة الأعمال مثل: التطبيب والهندسة وغيرها من الأعمال الهامة التي تشكِّل في بلاد المسلمين فجوة كبيرة، ونحن ما نزال في حاجة إلى الغربيين في كثير من الاختصاصات؛ لكن نحن نستورد منهم العقول الساذجة التي لا تحمل أي معنى أو ثقافة أو أي معلومة هامة؛ لكنها تدعي ذلك، ومما يدل على قولي أنه في أحد المستشفيات في هذه البلاد الإسلامية الواسعة كان هناك طبيبان أمريكيان جاءا على أنهما في اختصاص القلب، وفي أول يوم سوف يجريان عملية جراحية؛ ولكن بدأا يتحدثان؛ فقال أحدهما للآخر: كيف سنجري العملية ونحن لا نعرف شيئاً؟ فقال الآخر: وما الذي يشغلك؟ نحن جئنا لنجري العمليات وكأننا في محطة تجارب. وكان المريض عجوزاً فظنا أنه لا يفهم اللغة الإنجليزية، فقفز هذا العجوز، وأخبر مدير المستشفى بذلك، وتم طرد هذين الطبيبين.

والمشكلة هنا هي أنَّ علماءنا ومفكرينا الأفذاذ هم الذين يجلسون في بلاد الغرب بينما العقول الخاوية هي التي تستوردها بلادنا فتأخذ الخبرة، وتدرس أحوال المنطقة، وتدعو إلى النصرانية كما قالت «إيراهاريسن» تنصح طبيباً ذاهباً بمهمةٍ تنصيرية: «يجب أن تنتهز الفرصة لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكون لهم بالإنجيل. إياك أنه تضيِّع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات؛ فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير فلا تسمع منه»(١).

ولكنَ هناك أسباب لهذه الهجرة: فمنها أسبابٌ سياسية، ومنها أسبابٌ مادية، ومنها أسبابٌ اجتماعية.

والمشكلة التي يعاني منها العالم الإسلامي ـ وخصوصاً العربي ـ المضايقات التي تحدث للعلماء والمفكرين فيلجؤون إلى بلاد الغرب حتى يمارسوا حرياتهم، لكن هذه المشاكل التي تحدث لهم في بلادهم التي تدَّعي الإسلام هي في الحقيقة ـ التي لا تخفى على الكثير ـ علمانية قد لبست جلد الأغنام وهي ذئاب بشرية مخيفة.

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي.

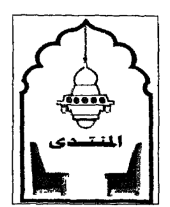
والسبب الثاني الماديات التي سلبت عقول البشر وأسرت أفئدة الناس وجعلتهم يفكرون فيها صباح مساء؛ فهم يستقبلون المهاجرين إليهم ويمنحونهم جنسية الدولة، فإلى الله المشتكى!! ففي الدول الغربية يرفهون ترفيهاً كبيراً وتُغدق عليهم الأموال؛ فماذا يريدون أكثر من ذلك؟! هل يذهبون إلى بلادهم لينال بعضاً منهم الفقرُ ويعاني بعضهم الآخر من عدم التشجيع العلمي الذي ينمي أفكارهم ويزيد مخترعاتهم؟! فكان طبيعياً - لما وقع من ضعف علمي - أن يهاجر العقل الواعي المسلم من بيئته التي لا يوجد بها أدنى احتفال حقيقي بالعلوم إلى الغرب الذي فتح أبوابه لكل قادم. «ويعاني العالم الإسلامي في هذا العصر من نزيف يكاد ينخره وهو نزيف العقول الإسلامية المهاجرة التي تضم كفاءات علمية وأكاديمية أصبح العالم الغربي يعتمد عليها في بناء حضاراته»[(١)].

يقول الأستاذ الدكتور «محمد علي موسى»: «إن عدد الأطباء المسلمين الموجودين في باريس وحدها أكثر من الأطباء الموجودين على التراب الجزائري، والباكستانيون - بالذات - بالآلاف في لندن حتى إن أكبر طبيب في تخصص القلب والشرايين باكستاني وهو مقيم في لندن، وقد التقت به ذات يوم هيئة الإذاعة البريطانية. ويشير تقرير رسمي للحكومة الباكستانية عام ١٩٧٩م إلى دراسة قام بها اثنان من الأساتذة إلى أنه في اليوم التالي لإعلان نتائج كليات الطب في باكستان تقدم ٩٠٪ من الخريجين بطلب إلى السفارة الأمريكية والبريطانية للهجرة. أما الدراسة التي أُعدت عن مصر - وهي دراسة محدودة بالنسبة لبلدٍ واحد مسلم - : منذ سنة (١٩٧٠م) وعلى مدار عشر سنوات امتنع (٩٥٠) ممن حصلوا على الدكتوراه من العودة إلى مصر، وحينما نترجم هذه الدراسة إلى أرقام تصبح مصر كأنها هي التي تعطي معونة إلى أمريكا. ويبلغ عدد المسلمين المهاجرين من مهندسين وخبراء وأطباء في أوروبا وأمريكا وكندا واستراليا ١٠٠ ألف عالم من أصحاب الكفاءات العالية، ولو أن كل واحد منهم أنتج بحثاً على مدار العام لأصبح في عالمنا الإسلامي مائة ألف بحث؛ فكم من مشكلة تحلها هذه البحوث! وكم من إبداع يبدعه هؤلاء الباحثون! لقد شهد الغربيون بهذه الظاهرة: ظاهرة هجرة العقول الإسلامية؛ فهذا رئيس جامعة كورنيل الأمريكية يصرح أمام الكونجرس بأن المهاجرين المسلمين من الأطباء وفَّروا على الولايات المتحدة إنشاء ٣٠ كلية طب سنوياً[(٢)]. وليس ذلك في مجال الطب فحسب بل في مجالات الصناعة كذلك؛ فمثلاً في مصنع (جمسي) الأمريكي يعمل ٢٤ ألف يمني في هذا المصنع في الولايات المتحدة. وأذكر كذلك إحدى المرات حين كنا ننصت إلى محاضرة لأحد الأساتذة خلال الشبكة المرئية أنه قال: إن غالبية الباحثين والعلماء المفكرين في الغرب هم الباكستانيون والهنود والمصريون المسلمون الذين يبحثون ويُجربون في المختبرات. ومن سعة مكر الغرب ودهائهم أن إحدى الطبيبات السعوديات وتُدعى سامية قُتلت في الولايات المتحدة الأمريكية على إثر اختراع جهاز يتمكن من إزالة سرطان المخ؛ لأن صاحب العمارة طلب منها أن تبيعه هذا الجهاز بأي ثمن تريد فرفضت. إذن ما هي الفائدة التي تجعلنا نبعث أبناءنا إلى الغرب كي يجلسوا هناك وينالوا الجنسيات أو يُقتلوا؟! لكن السؤال الذي يُبْرز نفسه على ساحة الواقع، ويضع أمامه العديد من علامات الاستفهام هو: هل نحن - المسلمين - بنينا حضارة الغرب في البداية ونبنيها في الوقت الحاضر؟!!

---

(١) قلاع المسلمين مهددة من الداخل.

(٢) المصدر السابق.



نعم.. كانوا كباراً في كل شيء

طارق محمد العمودي

ما أن نتصفح سير أسلافنا، وخاصة أهل القرون الثلاثة الفاضلة حتى نرى ما يُتعجب منه.

لقد كانوا كباراً في كل شيء.. في عبادتهم لله ـ تعالى ـ، والمنقول عنهم في ذلك معروف عجيب ـ، وفي خوفهم من الله ـ تعالى ـ وخشوعهم له، في تربيتهم لأبنائهم، وفي تربيتهم الذاتية لأنفسهم، وفي معاملاتهم مع العباد وكذا مع غير المسلمين، وفي فعل الخيرات واستغلال مواسم العمر.

ولو حلفت بالله العظيم أنهم قد أعجزوا من بعدهم لم أكن حانثاً.

ووصل الأمر بهم أنهم كانوا كباراً حتى فيما يتمنونه؛ فلم يتركوا لحب الدنيا منفذاً لدى أمنياتهم.

وما ذلك إلا لعلمهم بأنَّ التمنّي يدل على الهمّ الذي يحمله الإنسان، ومن أجله يصل إلى الغاية المنشودة.

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى ما يتمناه الكثير منا في زماننا هذا.

لا تجد في كثير منها إلا أمنيات شكلية، مادية بحتة، تقليدية منبهرة بالغرب، تتصدر ـ لدى الكثير منا ـ دعاءه لله ـ تعالى ـ ويشفعها بعد ذلك ـ على استحياء منه ـ بنصرة هذا الدين وإخواننا المسلمين في كل مكان!!

فكنا بذلك صِغَاراً، فَهُنَّا على الله ـ عز وجل ـ، فَصغَّرَنا في عيون أعدائنا من إخوان القردة وأكلة الخنزير، والجزاء من جنس العمل، وما ربك بظلام للعبيد.

ولقد تفطَّن لهذا الأمر الحافظ المؤدِّب ابن أبي الدنيا ـ رحمه الله ـ، فألف كتاباً عظيماً مشوقاً في بابه سماه: «كتاب المتمنين» ساق فيه بأسانيده عن سلفنا الصالح ما كان يتمناه الواحد منهم، فأودع فيه ما يدهش القارئ والسامع معاً، فأحسن في جمعه، ولا أعلم من صنف في موضوعه مثله.

وأسوق إليك بعضاً من أمنيات المتمنين من سلفنا لشحذ الهمم والاقتداء بهم كي نكون كباراً مثلهم:

– لما طُعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال له ابن عباس: أبشر بالجنة. قال: والله! لو أنَّ لي الدنيا وما فيها لافتديت به من هوْل ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر[١].

– وهو القائل ـ رضي الله عنه ـ: وددت أني شعرة في صدر أبي بكر. فضرب بذلك مثالاً للتقدير والاحترام[٢].

– وهو القائل لجلسائه: تمنوا. فتمنّى كل واحد منهم شيئاً، فقال عمر: أتمنى بيتاً مملوءاً رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح[٣].

فانظر إلى ما تمناه هنا ولم يُعِرْ للذهب والفضة اهتماماً، واختار بدلاً عنهما مثل «أمين الأمة» يكونون ولاة حق وعدل على رعيته.

– وتمنى أبو عبيدة فقال: يا ليتني كبش فذبحني أهلي فاكلوا لحمي وحَسَوْا مَرَقي[٤].

– وكانت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: يا ليتني إذا متُّ كنت نسياً منسياً[٥].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب المتمنين»، ص ٢٨، وابن أبي شيبة في المصنف، ١٢/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب المتمنين» ، ص ٥٧.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب المتمنين» ، ص ٢٨، وأبو نعيم في الحلية، ١/ ١٠٢.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب المتمنين»، ص ٣٠، وأحمد في الزهد، ٢/ ١٤١، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٤٨٦.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا، ص ٣٢، وأحمد في الزهد، ٢/ ١٤٥.

- وقال مالك بن دينار: وددت أنَّ الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول لي: يا مالك! فأقول: لبيك، فيأذن لي أن أسجد بين يديه سجدة، فأعرف أنه قد رضي عني. فيقول: يا مالك كن اليوم تراباً[1].

- وقال يزيد الرقاشي: يا ليتني لم أخلق، وليتني إذْ خُلقتُ لم أُوقَف، وليتني إذ وقفت لم أحاسب، وليتني إذ حوسبت لم أُناقش[2].

- وخطب الحجاج بن يوسف فقال: أما بعد: فإن الله قد كفانا مؤنة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة، فليت الله كفانا مؤنة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا؛ فقال الحسن البصري عندما بلغه كلامه: ضالة مؤمن عند فاسق، فلنأخذها![3].

وأقول: إذا كان الحجاج ـ مع فسقه ـ بهذا الوعي فهو أفضل بكثير من عقلاء زماننا قطعاً.

- وقيل لعيسى بن وردان: ما غاية شهوتك من الدنيا؟

فبكى ثم قال: أشتهي أن ينفرج لي عن صدري، فأنظر إلى قلبي ماذا صنع القرآن فيه وما نكا[4]؟

- وكان ابن عمر يتمنى لو أنَّ له مثل أُحُد ذهباً، فيحصي عدده ويؤدي زكاته[5].

(١، ٢، ٣، ٤، ٥) أخرجه ابن أبي الدنيا، ص ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٩، ٥٢.

ولدي الحبيب

مشبب بن أحمد القحطاني

كم حملتك كرهاً ووضعتك كرها، وتحمّلت آلام المخاض لأُقلّدك تاج آبائك فأنت سليل المجد عنوان الفداء.

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

لم أزل أعقد فيك أمجاداً وأحلاماً عِراضاً وأمنيات؛ فآباؤك صنعوا مجدك البرّاق ومن يشابه أباه فما ظلم.

مرّت عليَّ سنوات وقرون كنتُ فيها الملكة تحت حِماية الشرفاء أتيهُ سعادةً وفخراً؛ فأنا بين بُناة المجد آساد الشّرى لم يجُلْ في خاطري تبدُّل الحال؛ لأن أصل المجد ثابت وفرعه في السماء، وإن كنتُ قد سمعت عن ريح عاد ولكنني لم أرَها.

كانت المنابر ـ يا ولدي ـ ترتعد خوفاً عندما يغشاها الأبطال آباؤك ورجع الصّدى يذوب فَرَقاً من جَهْوَريِّ الصوتِ قويِّ الكلمةِ واثقِ النفس ورائعِ القيادة.

وكانت الجموع تحتشد ـ تحت المنابر ـ طاعة وإذعاناً لمن صنعوا ملحمة البطولة وحملوا لواء الفداء؛ ولاريب أن المنابر من ميراث آبائك وأجدادك لا يَشْركهم فيها أحد عندما كان الدّين همَّهم ونشر العقيدة دَيْدَنَهم والفتوحات هدفهم والجهاد هو الترياق لهم والبلسم الشافي لأحوالهم.

وها أنت اليوم تهيم في ذنوبك وما بعته بالأمس لا يمكن أن يُهدى إليك اليوم، ولا يليق بالتاج أن يبقى على رأسك. وأنت الآن بين خيارين لا ثالث لهما:

إما أن تبقى ذليلاً مهاناً ترتعد فرائصك من مغتصبي أمجادك.

وإما أن تعود كما كان آباؤك، وتبني مجدك المهدّم.

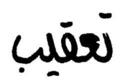
وليست على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدِّما

وهل نمت قرير العين وقد جُرِّدت من كل شيء وأصبحت غريباً أصولياً مُتطرِّفاً رجعيّاً لا تليق بك الحضارة؛ لأنك من الدول النامية؟

وبعدُ يا ولدي:

فإنني أرى أن كثرة الجراح لا بد أن توقظك يوماً مّا من سُباتك، وتكالبُ الأعداء عليك لا بد أن يُحدث لك يقظة هائلة تقلب فيها الموازين الفاسدة، وتعيد الحق لأهله.

ولأنني أمك الرَّؤوم عليك فإن أمنياتي بعودتك كبيرة، ولا زلتُ أرقب تلك اللحظة عندما ترفع رأسك من الهوان وتعود إلى طبيعتك الأصيلة ومجدك الأخّاذ.



الجوهرة سعد المطرب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد:

فلقد شهدتُ انبثاق فجر البيان وتابعتُها منذ وطئت قدماها الساحة الإعلامية فوجدت فيها غذاءاً فكرياً صافياً: ارتقاءاً بالفهم، وتنقية للذهن، واتباعاً للكتاب والسنة، وسيراً على نهج السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ.

كنت أقرؤها من الغلاف إلى الغلاف حتى وإن أخذ مني ذلك وقتاً طويلاً؛ فلا بأس (فهي المجلة الوحيدة التي تمدني بالتصور الصحيح للأوضاع في بعض البلاد الإسلامية) فكل باب من أبوابها يحوي علماً قيماً وكنزاً ثميناً، وكان خط سيرها مستقيماً لا تحيد عنه على مدى الأربعة عشر عاماً الماضية، فلا أذكر أنني خلال تلك السنوات قرأت فيها طرحاً شاذاً أو فكرة غير سليمة أو حتى مسالة مشتبهة، وأنَّى لها ذلك ومنهجها الكتاب والسنة؟!!

ولكن في عدد رجب ١٤٢٠هـ اصطدمت برأيين غريبين في مقالين اثنين يمس كل منهما قضية ساخنة من قضايا عالمنا الإسلامي المتشابكة:

الأول: قراءات هادئة في القنوات الفضائية ـ عبد العزيز الخضر.

الثاني: الأطروحات الدعوية الموجهة للمرأة المسلمة.. وقفة ودعوة للمراجعة ـ فاطمة البطاح.

حيث قلل الكاتب عبد العزيز الخضر من أهمية أسلوب الوعظ والتحذير والتحريم بالنسبة لمضار الفضائيات، وهوّن من تاثيرها على الأطفال بدعوته إلى تركهم يشاهدون الشخصيات الكرتونية والبرامج المخصصة لهم حتى يشاركوا أصدقاءهم في المدرسة الحديث عنها، ثم هوّل من تاثير عدم المشاركة على نفسياتهم.

ثم تساءل: «هل الطفل لديه القدرة على فهم الإشكالية بصورة طبيعية وموضوعية من الناحية الدينية؟».

وأقول: ولِمَ لا؟ فحين يتربى الطفل على قواعد سليمة ويعرف الحلال من الحرام، ويُبيَّن له مقدار السم المدسوس في هذه الوجبات الشهية، ويُعطى تصوراً مبسَّطاً عن الغزو الفكري ودور وسائل الإعلام في ذلك، ثم تشبع حاجاته النفسية لمثل هذه الأشياء عن طريق ألعاب الكمبيوتر الخالية من المحاذير وأشرطة الفيديو النافعة أو على الأقل غير الضارة؟ فإن في هذا ـ إن شاء الله ـ غنية عن الحرام.

ثم ما المانع من هجر القنوات هجراً كاملاً؟! أليس الدين يحثنا على البعد عن الفتن، خاصة لمن لا يجد في نفسه القدرة والكفاءة على مجابهة المتغيرات مع الثبات على دينه؟ فالناس لا يزالون مختلفين في هذه القدرات.

وكما قرأنا في (البيان العدد نفسه ص ٧٨) فإن هناك دعوة في بلاد الغرب لترك التلفزيون وهجره وإخراجه من البيت لما وجدوا له من آثار سلبية (!!) فلماذا نبدأ من حيث بدؤوا؟!

والحل الذي طرحه الكاتب حل مثالي!! بالرغم من أنه عاب على أصحاب الحلول المثالية في جزء من مقاله!! فهل جميع المربين على قدر من الفهم والإدراك، وقدرة على التوجيه والنصح والإقناع؟!!

وهل جميع المتلقين بهذا المستوى الراقي من القدرة على تمييز الطيب من الخبيث أو هجر السيِّئ ومقاطعته وتشجيع الحسن ودعمه؟!

إن هم إلا قليل في وسط تموج فيه الكثرة الكاثرة!!!

وأين الهوى والشيطان والنفس الأمارة بالسوء وصديق السوء و.... وغيرها مما له أثر كبير وظاهر على المتلقي؟!

وفي مقال الأخت فاطمة: عابت أيضاً على الحلول المثالية المتفق على صحتها وعلى جاهزيتها للعرض، ويبدو أن هذه المثالية هي المنتقاة من الكتاب والسنة، وضربت مثلاً على ذلك بقرار المرأة في بيتها وقالت: «إنه معالجة مثالية مغرقة في الحيطة والحذر للتخلص من بعض المزالق التي قد تعترض المرأة عند خروجها».

أليس هذا كلاماً عائماً يوحي بـالتقليل من أهمية قرار المرأة في بيتها وأنه حلٌّ لم يعـد صالحاً لهذا الزمن؟ هذا ما فهمته أنا على الأقل.

إن قرار المرأة في بيتها (وإن كانت داعيـة) هو وحي سماوي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد يعلم ما يصلح شأن هذه الأمة في أول أمرها وآخره.

أليس في قرار المرأة في بيـتها حل لكـثير من المشكلات المعـاصرة التي تعتـرضها؟ ولا تنسى أنه خطاب لأمـهات المؤمنين، وفيـهن الفقيـهة العالمة والداعـية الحكيمـة التي لو كانت في هذا الزمن لقـيل: لماذا تجلس في بيتهـا وتحرم الناس من علمها وفقهها؟ أتمنى ألا تعمينا بعـض الهـالات الإعلاميـة الكبيرة عـن مسلَّمات في ديننا لن يصلح شأننا إلا بها.

أنا أؤيدك في بقية مقالك لكنني واجهت إشكالاً في هذه النقطة عجزت عن توجيهه.

أتمنى ألا أكون قـد أسات الفهـم للكاتبين ـ جزاهما اللـه خيراً وغـفر لنا ولهمـا ـ، وللبيان مـني ألف شكر ودعاء خالص بالتوفيق والسداد ـ آمين.

لا جديد

نجاح عبد القادر سرور

لا جديدْ..
ما يزال الغصنُ يبكي
منذ ماتَ الإخضرارْ
ما يزالُ الليلُ يجري
ثم يبحثُ.. دون جدوى .. عن نهارْ
ما تزالُ الأمةُ الخرساءُ تقتاتُ السكوتْ
ما يزالُ الحقُّ في أرضي يموتْ
منذ أن قام العساكرُ
قيَّدوها بالحديدْ
لا جديدْ..
ما يزال الحزنُ يُعْلي صوتَه.. في جَلْجَلَةْ
ثم أرضُ المجد كالصحراءِ.. أمْستْ قاحلةْ
ليس ينبتُ فيَ بلادي
أيُّ نبت للجمالْ
نبْتُها شَوْكٌ.. وآلامٌ.. وحزنٌ.. واقتتالْ
طيرُها.. قد صار في عصر الأشاوس لا يطيرْ
صار يحيا.. في السلاسل .. كالعبيدْ
لا جديدْ..
كلُّ تقليد جميل في بلادي.. أعدموهْ
إنّ بيتيَ.. كل يَوم .. كل يوم هدَموه
إن صوتي.. كل يوم .. كل يوم أخرسوه
إن قُوتي .. إن أرضي وسمائي
إن مائي.. وهوائي.. ودوائي
كل يومٍ.. كل يومٍ.. سمَّموهْ
يوم هبّت في بلادي
رِيحُ أنفاس اليهودِ كالصديدْ
لا جديدْ..
ما يزال السُّكْرُ في عمق الليالي
ثم أمواجٌ .. من البحر المحرّم.. والضلالِ
قد توالتْ
أغرقتْ فينا الحلالْ
والمساجدُ تشتكينا
أين محرابي.. إمامي.. والصفوفْ؟؟
لا زهورَ أينعت.. في بلادي.. لا قطوف
والأسنَّةُ قد توالتْ
من قريبٍ .. من بعيدْ
لا جديدْ..
منذ صادقنا عدواً
يطعنُ الأحلامَ طعنًا
يشعل النيرانَ في الأحلام حقدًا
صَبَّ فيها الغدرَ صبًّا
جُرحُ أحلامي يسيل
كلما التامت جراحٌ
شق جرحاً من جديدْ
لا جديدْ..
منذ نور المجد.. فينا.. قد خَبَا
ماتت الآمال فينا .. والجمالْ
اكتستْ بالحزن أرضي.. وسمائي.. والرُّبَا

أنبأني طبيب الساعة

« خاطرة أدبية »

بوطيبة فيصل

على صدري وضع الطبيب السماعة، وأخذ يبحث عن همس بكل براعة، فأنبأني بعد أن رفع السماعة بأني ميت بكل فظاعة.

فقلت له: وما سر موتي يا طبيب!

فأجابني بشجاعة: قد غاب فؤادك من صدرك وضاع!؟ فراعني أني سأبقى يتيم العواطف، وما أهمني بأني سأشل في كل الوظائف، وأن عقلي سيمشي كالزواحف، وأني سأمضي حيث تقضي العواصف؛ فأنا لست واجفاً من كل المواقف؛ لأني عارف بأني لست بخائف من كل المعارف، لذلك سألت الطبيب حفياً بأن يطلب لي قلباً اصطناعياً، واشترطت أن يكون صاحبه غريباً، وأن أعمل العملية حالياً؛ فالوقت لا يكفي كي أفكر ملياً.

وبعد ساعات أفقت من ساعة الحلم، ووجدتني أنبض في كل جزء من جسمي، ووجدتني أستطعم نشوة التخدير في نومي. أدركت حينها بأن قلبي صار «أتوماتيكياً» مثل فمي، وأدركت بعد ذاك أني قد نسيت عنواني واسمي؛ فعزيت نفسي في نفسي من شر نفسي، ورأيتني أفسد الأرض بفأسي، وأبحث ـ من شدة اليأس ـ عن رمسي؛ فإذا بهمس يناجيني في بأسي: أفق.. فقبرك يضيق من شدة اللمس، وإذا بالهمس يؤذيني كالرعد.

أيها العربي المسلم لا تسلم من قلب الحقود، والله؛ فقلبك مرهون بوعد. إن صح منك الوعد صح لك منا المجد من أول عقد لأول اللحد أو آخر العهد.

ردود

* الأخ: محمد علي شماخ: وصلنا اقتراحك الطيب الذي ترغب فيه وضع صفحة على شبكة الإنترنت تضم إصدارات المنتدى الإسلامي وفهرس مجلة البيان الموضوعي، ونحن إذ نشكر لك هذا الاقتراح نسأل الله أن يوفقنا لخدمة دينه، ونرجو دوام التواصل، وجزاكم الله خيراً.

* الإخوة: مشبب القحطاني، إبراهيم المشيقح، عبد الباقي يوسف، عبد الله محمد السويلمي: وصلتنا مشاركاتكم الأدبية والشعرية، ويسعدنا تواصلكم الكريم مع مجلتكم، ونفيدكم بأنها مجازة للنشر في المجلة.

* الإخوة: عادل الدوسري، ماجد بن عيد الحربي، وحمزة يافع الفتحي، هاني حلمي الخفش، عبد الرحمن العمري، عبد الإله المحمد، الشريف حاتم العوني: نشكر لكم تواصلكم مع مجلتكم، جزاكم الله خيراً وقد وصلتنا مشاركاتكم، ونفيدكم بأنها سوف تنشر في المنتدى.

* الإخوة: أبو زكريا محمد محمود محمد، محمود جمال البكر، صقر الحوالي، محمد إبراهيم الشريف، أكرم عصبان، أسامة أنور عيسى، مصعب السحيباني، وأحمد العمري، شمس الدين حسين درمش، د. جمال محمد مرسي: جزاكم الله خيراً، وبارك الله فيكم فقد وصلتنا مشاركاتكم، وكم سعدنا بهذا التواصل الطيب، ونتمنى لكم التوفيق في مشاركات أخرى.



رب ضارة نافعة

إسماعيل بن سعد بن عتيق

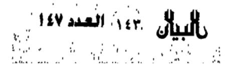
لقد كادت أن تنكشف شمس كوسوفا، وعلا سماءها قتر، بل ريح صرصر زج بها الغرب في حلبة الحروب لتحقيق أغراضهم البعيدة ومراميهم التي تهدف إلى إزالة معالم الإسلام من بلدان البلقان، وإن كان في الظاهر نَجْدةً ونُصْرَةً تحدوها الإنسانية وتدعو إليها الوثائق الأوروبية بما يسمى بالحلف الأطلسي أو الناتو. لقد تحقق الضرر وانكشف الستر، وأعطى الغرب العالم الإسلامي درساً لا يُنسى؛ ولكنه درس من وراء حجاب يستره دهاء السياسة ومكر الغرب وأعوانه؛ فنقول: (رب ضارة نافعة). لقد هرع المسلمون لرفع الأكف بالضراعة إلى رب الأرض والسماء أن يرفع عن إخوانهم الحزن والأسى، فكانت رابطة دينية وعروة روحانية تربط الشرق بالغرب يدفعها الإيمان بالأخوة الإسلامية بمثل قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله - عليه الصلاة والسلام -: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(١)].

عرف الناس كوسوفا ودول البلقان وكانت من قبل ضمن يوغسلافيا الشيوعية النصرانية، فكان في هذا الإعلام الذي تابعته الصحافة الإسلامية وانطلقت به حناجر الخطباء وأئمة المساجد ما يعرِّف الناس بإخوانهم ويدعوهم إلى البذل والعطاء، ولقد جاد من جاد بإنفاق ماله في سبيل نصرة إخوانه، بل وغامر من غامر في التوجه إلى مواقع الحرب ومنطلقات الصواريخ ليستقبلوا إخوانهم المشردين بالغوث والنجدة وتخفيف مصابهم. ونقول مرة أخرى: (رب ضارة نافعة) فقد تبين للعالم الإسلامي مدى مكر أولئك، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

وإننا لنذكِّر المسلمين بمبدأ الولاء والبراء الذي حدده القرآن، وطبقه محمد ﷺ وصحبه، ونذكِّر أفراد المسلمين وجماعاتهم بأن الكفر ملة واحدة، وأن الولاء والبراء من أصول هذا الدين وقواعده العظام لقوله - تعالى -: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٤٦٨٥.



﴿تخفي صدورهم أكبر﴾ [آل عمران: ١١٨].

وإن صور الولاء متعددة الأشكال متنوعة الأطراف؛ فهناك الولاء بالكلمة، والولاء بالمحبة، والولاء بالإعجاب، والولاء بالهيبة والاحترام، والولاء بالتحدث. لقد عد بعض العلماء مناولة القلم أو المحبرة للكافر نوعاً من أنواع الولاء، وإذا كان المستعمر الغربي القديم قد انحسرت سلطته المباشرة على العالم الإسلامي فإنه لا زال يهيمن على المسلمين إدارةً وفكراً وقوةً عسكرية بحكم ما أُعطوا من أسباب القوة ومظاهر التمكين؛ فهل يستطيع العالم الإسلامي أن يُنقذ نفسه، وتعود له القيادة على مقومات حياته؟ وبهذه المناسبة أذكر حالتين لزعماء ساسة: أحدهما مسلم، والآخر هندوكي.

فأما المسلم: فهو جمال الدين الأفغاني حين أُعد له مهرجان خطابي في الهند ظناً من الناس أنه سيتكلم ويأتي بكل معجزة من أجل الاستقلال ومحاربة الإنجليز، فصعد جمال الدين المنبر وحيًّا الجماهير ثم قال: «كم عدد الإنجليز؟ فعدُّوهم بالملايين، ثم قال: وكم سكان الهند؟ فعدوهم بمئات الملايين، فقال: لو كنتم ذباباً لآذيتموهم» ثم نزل عن منصة الخطابة وقد أحدث هذا القول دوياً وحماساً في كراهة الإنجليز وردد الناس: لو كنا ذباباً لآذيناهم.

أما الموقف الثاني: فهو للزعيم الهندي غاندي حينما ذهب لعصبة الأمم ومعه مغزله وعنزه، وقد صعد المنبر وقال لهم: «لا نستطيع أن نقاوم الغرب، بل ولا نقاوم الإنجليز، بل ولا دولة أقل منهم في أوروبا؛ لكنني سأعتمد على مغزلي، وأنسج من صوف هذه الماعز ثوباً، وأشرب من لبنها ولا حاجة لي في مصانع الغرب ومنتجاتها، ولو أُهديت لي أو بُذلت بالمجان» وعاد إلى الهند وهو يعلن هذا المبدأ: مبدأ الولاء للصناعة الهندية، ومبدأ البراء من الصناعة الأوروبية؛ فكانت المصانع الإنجليزية في الهند تغلق كل يوم فلا تُطلب بضائعها ولا تلقى مشجعاً لها، وبهذا ارتفع كابوس الإنجليز عن الهند بعد استعمار زاد على ٣٠٠ عام.

فهل لنا أن نعيد الصورتين: صورة القدوة على أننا بشر نحب ونبغض، ونوالي ونعادي، ونتحكم في مواردنا؟ وهل لنا أن نقول لمن عاش في ترف منتجات الغرب من مراكب فارهة ومظاهر خداعة: اتق الله في مالك ولا تنفقه إلا فيما دعت الحاجة إليه؟ ونكرر: (رب ضارة نافعة).

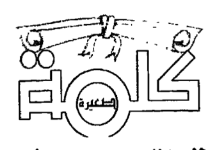
لقد عرف المسلمون حق المعرفة أنه لا مناص من اللقاء والمصارعة لتيارات أجنبية متى أخذ المسلمون حرياتهم وانطلقوا يعلنون عن مبادئهم؛ فإن الحياة صراع، وهي من حكمة الباري - تبارك وتعالى - إذ يقول: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

كرروها معي: (رب ضارة نافعة).

وفّق الله الجميع لما فيه خير أمتنا، وألهمنا رشدنا، ووقانا شر أنفسنا، وصلى الله على محمد وآله وصحابته.



بسم الله الرحمن الرحيم



دعوة التوحيد في الحج

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على النبي الكريم محمد، وعلى آله وصحبه ذوي السؤدد، وبعد:

انقضى شطر دعوة النبي ﷺ في إقامة العقيدة، حتى استقر التوحيد في النفوس، وتوجهت القلوب إلى خالقها، واستعدت لتلقي أوامر الشريعة وإقامتها عن طواعية ومحبة للآمر ـ عز وجل ـ مهما كانت التكاليف والأعباء؛ ولذا كان من أول ما نزل من القرآن ـ كما أخبرت عائشة رضي الله عنها ـ سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. [رواه البخاري، ح/ ٤٩٩٣].

ولا يسبقن إلى فهم أحد أن الاهتمام بالعقيدة يستدعي تقديم فروعها الجزئية على أصول الدين العملية، ولئن وقع من ذلك شيء فإنما مردُّه خطأ الأفراد الذي لا يحسب على المنهج.

وفي ظلال أيام الحج تحث فريضة الحج خطاها مقبلة حاملة في ثنايا مشاعرها دعوة متجددة إلى إحياء الإيمان وتصحيح العقيدة، نلمح ذلك في آيات الحج؛ حيث الدعوة إلى الحنيفية ونبذ الأوثان، والأمر بتعظيم شعائر الله وحرماته، وتحقيق التقوى في النفوس، كما نراه في أعمال الحج من تلبية وتهليل وذكر، إلى تذكير بالموت والبعث. ومهما تلمَّس العلماء من حِكَم الحج وأسراره فليس أبلغ من حكمة تحقيق الخضوع والاستسلام لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فريضةٌ هذا شأنها مع أصل الأصول.. تُرى كيف ينبغي أن يكون حال الدعاة معها في ذلك الجمع الكبير؛ حيث تقاطر الناس من أرجاء المعمورة، يحدوهم الشوق، وتدفعهم الرغبة، وقد انقطعوا لأداء النسك، وتفرغوا قبله وبعده أياماً؟

تلك ـ والله ـ سانحة ما كانت لولا رحمة الله ومنته، فما أحراها بالاغتنام لإقامة أساس الدين!

• العدد ١٤٨ • ذو الحجة ١٤٢٠هـ/ مارس ٢٠٠٠م

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	ـــــ	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرّق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٣٥٢٢٨٢	٣٥٢٢٩٢
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٣٥٠٥٢٦	٥٠٠٠١٥
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بور تسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بينين	كوتونو	٠٣ـ٤١٩٣	٣٠٤٩١٩	٣٠٣٩١٩

الحسابات

- مصرف فيصل الإسلامي حساب رقم ٠٠٢- ٤٥١٤-٤٢-١٠٩
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
- الإمارات – بنك دبي الإسلامي (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة شارع الاربعين حساب مجلة البيان رقم ٢١٠٠/٧
- قطر: مصرف قطر الإسلامي حساب رقم ٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات حساب مجلة البيان. بنك قطر الدولي الإسلامي رقم ٢٤٢٠٧٠٠٧١

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452

بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهًا استرلينيًا
أوروبا	٢٠ جنيهًا استرلينيًا
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهًا استرلينيًا
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهًا استرلينيًا
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهًا استرلينيًا



المراسلات والإعلانات

الدول العربية : البحرين: المحرّق مكتب دار البيان ، ص.ب ٥٠١٦٣ ـ هاتف ٣٣٥٣٠٠ ـ فاكس ٣٣٦٣٠٠ ـ السعودية : مكتب مجلة البيان ـ ص.ب ٢٦٩٧٠ ـ الرياض : ١١٤٩٦ ـ هاتف ٤٦٤١٢٢٢ ـ فاكس ٤٦٤١٤٤٦

البريد الإلكتروني: bayan@naseej.com.sa

أوروبا وأمريكا :

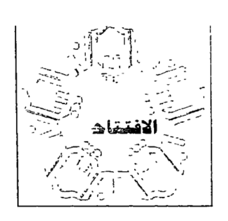
AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060
Fax : 071 - 736 4255

ـــذا العـــدد

الموزعون

الأردن : الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس ٦٣٥١٥٢
الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨
قطر : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس ٦٦٢٤٥٠
مصر : القاهرة – ش الجلاء – الأهرام للتوزيع ، هاتف وفاكس ٥٧٤٧٠٢٣ .
المغرب : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ، هاتف ٢٤٥٧٤٥/٥٤
السعودية : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف ٤٦٤٦٦٨٨ ، فاكس ٤٦٤٢٩١٩، الشركة الوطنية هاتف ٤٧٨٢٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣ .
اليمن : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف ٢٠٦٤٦٧
السودان : دار اقرأ للنشر والتوزيع ، الخرطوم : ص.ب ٨٨ براري.

الكويت : درة الكويت للتوزيع، ص.ب ٢٩١٢٦، الصفاة هاتف ٤٧٢٤٦٦٦، فاكس٤٧٢٤٥٥٥.
البحرين : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف – المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ – ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
امريكا- International Media Group
Ann Arbor, MI 48107 U.S.A.- P.O. Box 7560
Tel. 734-975-1115 Fax. 734-975-9997



التلاعب بالأحكام الشرعية إلى متى؟!

الحمد لله القائل: ﴿ فَلا وربِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. وبعد:

فلقد مرت في الآونة الأخيرة معركة ساخنة في بعض الدول العربية بخصوص ما دعي بتقنين جديد للأحوال الشخصية. تلك التشريعات المتعلقة بالشؤون الأسرية من زواج وطلاق وخلع. وهي ليست مشكلة خاصة ببلد بعينه بقدر ما هي مشكلة عامة لها ما بعدها، لا سيما ونحن في عصر العولمة، والأحوال الشخصية هي ما بقي من الأحكام الشرعية الإسلامية في قوانين أكثر الدول العربية والإسلامية، والتي لم يجرؤ الاستعمار الأجنبي الذي مر بتلك الدول أن يمسها بسوء إدراكاً منه للمواقف الصارمة والرافضة التي تنشأ عن المساس بتلك الأحكام، وكان من مصلحته تجنبها؛ لكن تلامذة الاستعمار وأذنابه وخريجي المدارس الأجنبية ـ ومن خلال ما يعملونه لتغريب بلدانهم وفرنجة مجتمعاتهم ـ تسلطوا على تلك الأحكام وحاولوا العبث بها حتى مُسخت تماماً في تركيا على يد أتاتورك، ومثله أو قريب منه في تونس على يد (أبو رقيبة)؛ حيث نقلت جل القوانين الأجنبية في سياساتهم العلمانية المعروفة.

والحقيقة أن هذه التصرفات الحمقاء ليست أخذاً بالمساواة والعدالة والحرية، ولا تطويراً لمجتمعاتهم وإخراجها من ضغوط الماضي ـ كما يدعونه بمناسبة وبغير مناسبة ـ، وإنما وراء ذلك حقائق معروفة منها:

١ - عدم إيمانهم بالإسلام منهجاً للحياة؛ فأحكامه ـ كما يدّعون ـ لا تتناسب والعصر؛ وهذا ناقض من نواقض الإسلام.

٢ - الهزيمة النفسية من الداخل، والتي وصفها العلاّمة ابن خلدون بقوله: «إن المغلوب أبداً مولع بتقليد الغالب»؛ فكيف يكون المنهزمون نفسياً هم قادة الأمة وموجهوها؟!

٣ - أنهم ينقادون وبكل ذلة للأوامر الخارجية التي تطالبهم بإقرار ما تدعو إليه القوانين الدولية التي تتضمن المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، والتي أكدتها المؤتمرات الدولية المعروفة مثل : (مؤتمر المرأة في بكين) و (مؤتمر السكان بالقاهرة).

٤ - للجمعيات النسائية في كثير من الدول العربية علاقات وثيقة بتلك الجهات الأجنبية؛ فهي تدعمها مالياً ومعنوياً وإعلامياً، ولها ضغوطها عبر الأحزاب ووسائل الإعلام منذ عهد الاستعمار البغيض وحتى الآن؛ لترسيخ الاتجاهات العلمانية في مجتمعنا الإسلامي الكبير. وحقيقة أكثر هذه الجمعيات النسائية معروفة للجميع، وقد أُلِّفت عنها دراسات وأبحاث مطبوعة ومتداولة لا يتسع المجال لعرض حقيقتها[1]؛ فمنذ (نازلي فاضل، وهدى شعراوي) إلى (نوال السعداوي) وهذه الجمعيات تؤدي رسالتها تلك بكل جرأة.

ومعلوم للجميع أن الأحوال الشخصية هي جزء من الفقه الإسلامي الذي قنن العلاقات الأسرية، ومحاولات زعزعة هذه الأحكام وإضعافها وتفريغها من مضامينها استجابة للضغوط الاجتماعية والدولية لم تكن جديدة؛ فقد دعا لذلك أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وجرت في مصر محاولات من هذا القبيل، ولا يغيب عن الذهن تعديلات ١٩٧٧م المعروفة بمشروع : (جيهان السادات) في هذا المجال، والذي نقده العلماء والمفكرون، وتم إسقاطه بعد فشله في أداء ما وضع له؛ بل لقد أحدث من السلبيات الكثير مما دل على انحرافه عن الصواب.

وجاء حديثاً (مشروع تعديل قانون الأحوال الشخصية) الأخير في مصر والذي تعرض لنقد كثير من علماء الإسلام في مصر، وقُدِّم اعتراض حمل توقيع ٢٢ شخصية من أساتذة الأزهر وعلمائه الذين أكدوا في بيانهم أن الشريعة المطهرة هي أمر الله، وأمره - سبحانه - تجب طاعته وتحرم مخالفته، وحقيقة الإيمان بالله أن يذعن المؤمن لأوامر الله ونواهيه.. وشريعة الله في مكانها فوق إرادات البشر ومشيئاتهم؛ فهي حاكمة على غيرها، وكل ما عداها تحت هيمنتها وسلطانها حتى ابتليت الأمة بالاستعمار الذي عمل على هدم مقوماتها ونقض دعائم قوتها حتى لا تستيقظ وتنهض في مواجهته؛ فهو يعلم سلفاً نتائج بقاء الأمة معتصمة بدينها ومهتدية بهدي شريعتها...

---

(١) انظر إلى موسوعة (عودة الحجاب) للأستاذ محمد بن إسماعيل المقدم، ورسالة : (الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية) للأستاذ محمد فهمي عبد الوهاب، والمؤامرة على المرأة المسلمة، تاريخ ووثائق، د. السيد أحمد فرج.

ثم إن هذا القانون يحمل بين ثناياه مظاهر اضطرابه؛ حيث تضمن من المخالفات ما يلي:

١ - في حالة الخُلع يباح للزوجة الحصول على الطلاق إذا أقرت أمام المحكمة باستحالة الحياة مع زوجها وتنازلها عن حقوقها المالية الشرعية، وردها ما حصلت عليه من مهر إلى زوجها، ويكون القاضي ملزماً الحكم بالتطليق.

فيلاحظ أن التعديل أعطى المرأة الحق في الخلع بينما منطوق الآية في الموضوع يحتم الاتفاق بين الزوجين على ذلك. يقول الله - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...﴾ [البقرة: ٢٣٣] ألا يجر ذلك فئات من النساء على هدم بيوتهن بأيديهن؟!

٢ - السماح للزوجة بالسفر من دون الحصول على إذن الزوج؛ وذلك في حال حصولها على ترخيص بذلك من المحكمة. فأين العصمة التي للزوج - ما لم يُشترط -؟ وأين تحريم سفر المرأة بلا محرم؟

٣ - الاعتراف بالطلاق رسمياً في حالات الزواج العرفي؛ فكيف تُعطى الشرعية لمثل هذا الزواج القائم على عدة مخالفات شرعية؟ وهذه المسائل - وإن زُعِمَ أنها لصالح المرأة - واجهت معارضة شديدة أدت إلى تعديلات محددة وافق بموجبها عليه كل من: فضيلة شيخ الأزهر، وفضيلة المفتي.

ومع تقديرنا لوجهة نظر كل من الشيخين الفاضلين إلا أننا نحذر من الأخطار المترتبة على مثل تلك القوانين المستوردة وما تؤدي إليه من سلبيات اجتماعية لا تخفى؛ فعلى كل امرأة مسلمة تخشى الله ألا تنخدع بمثل هذه الدعايات المكشوفة، وعليها الحذر من أن تنقاد لها لما فيها من مخالفات ومحاذير.

ونذكر كل المسلمين: علماء، ودعاة، ومفكرين، وإعلاميين بما يلي:

أولاً: أن الأحكام الشرعية ليست مجالاً مفتوحاً لكل من هب ودب من صحافة وبرلمانيين وحزبيين ممن قد لا يفقه في الشرع المطهر شيئاً، ومن ثمّ فلا مجال لأمثال هؤلاء بمناقشة ما ليس من اختصاصهم؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ثانياً: أن المجتمعات الإسلامية لها خصوصيتها ولها تميزها، وهي بحكم إسلامها وإيمانها بدينها تقبل أحكام الشرع المطهر بكل رحابة صدر، ومحاولة تسميم أفكار الرأي العام من قِبَلِ الإعلام والجمعيات النسائية المشبوهة بطرح زبالات الأفكار الأجنبية، وطلب نقلها لمجتمعاتنا هي ظاهرة يحرص أعداء الإسلام على إقرارها وتمريرها منذ سنين طويلة؛ وكلما رُفِضَتْ أُعيدت من جديد، وتُرفض لما

تحمله من أخطاء معروف للجميع، ولما فيها من تضليل للأمة، والانحراف بها عن الصراط المستقيم لمصالح أجنبية وأهواء شخصية.

ثالثاً: استغل أعداء الإسلام ضعف كثير من الدول الإسلامية واحتياجها لمساعداتهم بالضغط عليها لقبول علمنة المجتمعات وتطبيق القوانين الأجنبية التي تصادم شريعتنا السمحة بدعوى أنها من (حقوق الإنسان المقررة دولياً ومن مظاهر الالتزام بتحرير الاقتصاد) فلنحذر السقوط في هذه المكائد.

فالواجب على الأمة جمعاء أن تقف بكل شجاعة ضد أي ضغوط خارجية ـ وبخاصة فيما يتعلق بالمساومة على دينها وقيمها وشريعتها ـ لما في ذلك من مصادمة للشرع المطهر، وما يؤدي إليه من زعزعة لدعائم المجتمع وزلزلة لقواعده، وهذا بدوره يؤدي إلى ضعف الأمة والقضاء على سر قوتها، وهو تمسُّكها بدينها، واعتزازها بشخصيتها الإسلامية.

رابعاً: إن محاولات التغيير في تشريعات الأحوال الشخصية ليس في مصر وحدها؛ بل في المغرب كذلك حوار دائر بين الحكومة والعلماء والمفكرين والجمعيات النسائية حول تقنين دور المرأة في التنمية. وسبق لـ (البيان) أن تطرقت لهذا الموضوع في العدد (١٤٤)؛ حيث سلطت الأضواء عليه، وفي هذا العدد مقال آخر حول الموضوع نفسه. ونرجو الله أن يوفق أهل الشأن في المغرب لتحقيق ما يخدم المصلحة العامة ولا يصادم الشرع المطهر.

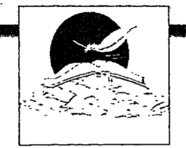
وأخيراً:

فقد أجمع علماء الإسلام قديماً وحديثاً على أن الحكم بما أنزل الله فرض على الحاكم وعلى المحكوم وعليهم جميعاً القبول به، وأن التحاكم إلى الطاغوت (غير شرع الله) محرم ومخرج من الملة وصدق الله العظيم القائل: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾**.

[النساء: ٦٠].

والله ـ تعالى ـ نسأل أن يحفظ لأمتنا عزها ومنعتها.

والله من وراء القصد ،،



حقيقة شركات التأمين(1)

د. سليمان بن إبراهيم بن ثنيان(2)

قلة من الناس هم أولئك الذين يعرفون شركات التأمين على حقيقتها، ويطَّلعون على خباياها وأسرارها. ويُرجِع الباحثون ذلك إلى أمور عدة أهمها: الدعاية التي تُظهِر شركات التأمين على غير حقيقتها؛ حيث تظهرها للناس حسب ما يحبون ويرغبون ويتمنون أن تكون عليه، وتخفي عنهم حقيقتها وواقع أمرها الذي لو عرفه الناس لربما نفروا منها، ولما استجابوا لها، كما يقول باحث التأمين الألماني ديترميز. هذا أمر، وهناك أمر آخر أعجب منه وأغرب، أمر أدهش كبار الباحثين وحيَّرهم، وهو: أن مجمل الناس لا يهتمون بمعرفة التأمين على حقيقته، ولا معرفة الشركات القائمة عليه رغم ارتباط الناس به وبشركاته، ورغم ما يدفعون من أموال طائلة إلى صناديق هذه الشركات. هذه الظاهرة العجيبة لم يجد لها كثير من الباحثين حلاً أو تفسيراً معقولاً. ولكن المتمعنين في حقيقة التأمين يردُّون ذلك إلى ما يحتويه التأمين من تعقيدات ـ مقصودة في الغالب ـ وإلى ما يكتنف شركاته من عدم الوضوح في المنهج والسلوك في أعمالها وتعاملها. كما يردُّون ذلك أيضاً إلى عدم اقتناع الناس بالتأمين أصلاً أو بوجود حاجة إليه؛ حيث ثبت بالاستطلاع الإحصائي الدقيق أنه لا يُقْدِم كثير من الناس على التأمين بدافع الحاجة والاقتناع، وإنما يُقدِمون عليه بدافع الدعاية الواسعة إليه وبدافع التقليد، كما يقول هنز ديترمير.

وقد أجريتُ استطلاعاً عاماً في مدن ألمانية مثل: فرانكفورت، وكلونيا، وميونيخ، وشتوت قارت حول ما يدفع الناس إلى التأمين فوجدت أن ما يقرب من ٥٨٪ ممن وُجِّه إليهم السؤال لا جواب لديهم سوى قولهم: كذا أو مثل الناس، أو نحو ذلك.

وتتضح لنا حقيقة شركات التأمين، وطبيعة تفكيرها، وتعاملها من خلال الأمور الهامة الآتية:

---

(١) ينشر هذا المقال في الوقت نفسه في مجلة (الجمعة) باللغة الإنجليزية الصادرة عن المنتدى الإسلامي.

(٢) عضو هيئة التدريس في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وهو أستاذ متخصص في التأمين.

أولاً: شروط شركات التأمين:

ليس لشركة في العالم ماضية وحاضرة ما لشركات التأمين من شروط عامة وخاصة، ظاهرة وخفية. وإن أخص ما تختص به هذه الشروط الصفة التعسفية، مما اضطر كل دولة في العالم أن تفرض رقابة خاصة على شركات التأمين لديها لتخفف شروطها على المواطنين.

وشروط شركات التامين متنوعة: فمنها ما يخص القسط، ومنها ما يخص مبلغ التأمين، ومنها ما يخص الخطر المؤمَّن ضده، ومنها ما يخص التعويض عن الحادث، ومنها العام الذي تشترك فيه جميع شركات التأمين، ومنها الخاص بشركة معينة، ومنها الظاهر الذي يعلمه أكثر الناس، ومنها الخفي الذي لا تعلمه إلا الخاصة من أصحاب الخبرة والممارسة - كما يقول صاحب كتاب: (الآمن الخادع) برند كرشنر -. وإن من أبرز الشروط الخاصة بالتأمين ما يسمى بشرط الحلول. ومقتضاه: أن تحل شركة التأمين محل المؤمن له في مطالبة الغير بما تسبب من أضرار بممتلكات المؤمَّن له لحسابها الخاص، وأن يسقط حق المؤمَّن له في مطالبة المتسبب، وبهذا قد تأخذ شركة التامين من المتسبب أكثر مما تدفعه تعويضاً للمؤمَّن له، وذلك حينما يكون التلف أكبر من مبلغ التامين، بل إنها قد تأخذ العوض كاملاً من المتسبب وتحرم المؤمن له من أي تعويض. كما أنه ليس للمؤمَّن له حق في أخذ ما يزيد على مقدار تعويض الضرر الذي لحق به. ومنها سقوط حق المطالبة بمبلغ التأمين في الظروف غير العادية كالحروب، والزلازل، والاضطرابات العامة. وشروط شركات التأمين كلها شروط إذعان، أي أنه على المؤمَّن له قبولها دون مناقشة، كما أن هذه الشروط تحمي شركات التأمين؛ حيث تُحكِم القبضة على المؤمَّن لهم في الانتظام في دفع القسط، في الوقت الذي تضع فيه العراقيل دون حصولهم على مبلغ التأمين، كما يقول خبير التأمين هنز ديترمير.

ثانياً: أهداف شركات التأمين:

لا تهتم شركات التأمين بشيء يضاهي اهتمامها بالربح؛ لذا نجد تركيزها الشديد عند التخطيط ووضع نظامها الأساس ينصبُّ على الأخذ بكل وسيلة تجلب الربح وتجنُّب الخسارة؛ بغضِّ النظر عما قد تسببه هذه الوسائل من إحراجات، أو معارضة للدين أو الخلق أو السلوك الحسن. ويشاهد ذلك جلياً فيما تنطوي عليه شروطها من تعسف واستغلال، وخاصة في التأمينات التي تفرضها بعض الدول على مواطنيها. كما يشاهد ذلك جلياً أيضاً في استثماراتها الربوية لما تجمعه من أقساط دون المساهمة في أي مشروع خيري. كل هذه مؤشرات إلى أنه ليس لها هدف في التعاون وخدمة الناس، وإن ألح بعض دعاتها في إقناع الناس بذلك، وإنما هدفها المحقق المعلوم هو الربح والثراء السريع على حساب المؤمَّن لهم، كما يقول أنتون أندرياس في كتابه (فخ التأمين).

ثالثا: عقود التأمين بين الظن والحقيقة:

يعتقد كثير من الناس أن من وقّع عقداً مع إحدى شركات التأمين ضد حادث معين فقد آمِنَ شر هذا الحادث، ونسي همه إلى الأبد. وهذا خطأ فاحش وفهم قاصر لحقيقة عقود التأمين؛ فعقود التأمين ليست إلا أوراقاً عارية تهددها سهام موجهة يندر أن لا تصاب بأحدها. هذه السهام المعروفة بنظام شركات التأمين، بشروطها ورجالها المأمورين المدافعين عنها من التابعين، والموالين، والمقررين، والمستشارين، والمحامين، والأطباء، والخبراء، وغيرهم من المختصين في حماية شركات التأمين، وإبطال أي دعوى تقام ضدها. نعم! تلك الشركات استمالت واشترت بالمادة ذمم كثير من أولئك الناس الذين يتولون التحقيق في الحوادث، وتقويمها، وبيان وجهة القانون فيها، وما يترتب عليها من مسؤوليات وتعويضات.

إنه ليس شيء أيسر على شركات التأمين من إيجاد السبب لإبطال عقد من العقود، والتحلل من التزاماته؛ فالظروف غير العادية - حسب نظامها - تجعلها في حل من جميع التزاماتها، وزيادة الخطر من مبطلات الالتزام ما لم يزد المؤمن له في قيمة القسط. والإخلال بشرط من شروطها مهما خفي أمره يعتبر لديها من آهم المحللات. وقد وضعت شروطها وأحكمتها بحيث لا يأتي بها كاملة إلا قلة من الناس، فيندر أن يسلم أحد من المؤمن لهم من شر هذه الشروط التي تجد شركات التأمين فيها أعظم مجال لتصيُّد الثغرات، والتحلل من الالتزامات.

والحاصل أن شركات التأمين تعقد الكثير، ولا تفي إلا بالقليل، كما يقول صاحب كتاب (الأمن الخادع). وكما يقول خبير التأمين الألماني أنتون جوها: إنه طبقاً لإحصائيات المكتب الفيدرالي الألماني فقد وقع في عام ١٩٨٤م مليونا حادث عمل كلها مؤمَّن ضدها، ولم تعوض شركات التأمين منها إلا ٢,٩ ٪ فقط.

بهذا نرى أن شركات التأمين لها عقود وشروط لا تلتزم بشيءٍ منها إلا وهي راغمة، ومن يستطيع أن يرغم جيوشها الجرارة من المحامين والعملاء والقضاة وسائر المنتفعين؟!

آثار التأمين في حياة الناس:

قد يعتقد بعض من لا يعرف حقيقة التأمين، وخاصة أولئك الذين يصغون أسماعهم لما تروِّجه شركات التأمين من دعاية جذابة، ويقرؤون ما تنشره أقلام أتباعها من مؤلفين وصحفيين وغيرهم قد يعتقد أولئك أن التأمين خير لا شر فيه. ولكن الأمر عند من يعرف حقيقة التأمين يختلف؛ فإن كانت للتأمين بعض المحاسن، فمساوئه تطغى على كل أثر حسن، وسأبيِّن ذلك من خلال بيان إيجابيات التأمين، وسلبياته، والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات من واقع الحياة.

الآثار الإيجابية في التأمين:

يقول أصحاب التأمين: إن من إيجابياته الأمور الآتية:

١ - تكوين رؤوس الأموال:

يُجمِعُ رجال الأعمال والمال على أن أعظم سبب لتكوين رؤوس الأموال التي عرفها العالم في القديم والحديث نظام التأمين؛ ذلك أنه ما من شيء يُتصوَّر في حياة من يأخذون بالتأمين إلا وللتأمين فيه حظ وافر ونصيب جزل، سواء كان ذلك مقابل تأمين الأنفس أو الأموال أو الممتلكات أو الحقوق أو مجرد الآمال والأحلام؛ حتى إن الفرد والجماعة والدولة في العصر الحديث يخصصون بندا ضخما في ميزانياتهم السنوية لتكلفة التأمين، ويُعِدُّون لذلك العدة الصعبة، بل إن الأمر قد بلغ أن التكلفة التأمينية أجَّلت بعض المشاريع؛ وذلك لأن التأمينات لا تقف عند حد؛ فبقدر ما تنتجه قريحة أصحاب التأمين من تصنيع للأخطار بقدر ما تمتد يد التأمين لتحصيل الأموال. ولدى شركات التأمين موهبة فائقة في تجسيم الأخطار، وإبرازها، وتقريبها من الناس. فأيسر الأخطار وأندرها بل وبعيدُ التصور منها تنفخ فيه شركات التأمين حتى تجعله الشبح المخيف الذي لا يصح تجاهله، والذي ينبغي الإسراع إلى فعل ما يقي منه ويدفعه. وبهذا انهالت على أصحاب التأمين الأموال الطائلة والثروات الفاحشة. ويقول أصحاب التأمين: إن هذه الثروات مفيدة للناس؛ حيث إنها تستخدم وتستثمر في المشاريع العامة المفيدة للجميع، كما يقولون: إنها مفيدة للدولة؛ حيث إنها سندها عند الأزمات الاقتصادية، كما يقرر ذلك خبير التأمين (هنز مير).

٢ - المحافظة على عناصر الإنتاج:

إذا احترق المصنع، أو انفجر، أو تهدَّم، أو مرض العامل، أو توفي أو تعطل، ولم يكن ما يعوض ذلك أو يصلحه فإنه قد تنحط عناصر الإنتاج البشرية والآلية، فيضعف إنتاجها أو يتوقف. ويقول أصحاب التأمين: إنه بالتأمين يستطاع منع ذلك، فلا تضعف عناصر الإنتاج، ولا تتوقف؛ ذلك أنه إذا احترق المصنع أو انفجر، أو تهدم فإن شركات التأمين تعوض أصحاب المصانع بدفع قيمة التأمين الذي يستطاع به إعادة بناء هذا المصنع. وإذا مرض العامل فإنها تعالجه، وإذا تعطل تعوضه، وإذا توفي تصرف لأسرته. ويعدون ذلك حسنة من حسنات التأمين وواحدة من إيجابياته.

٣ - التحكم في التوازن الاقتصادي:

تعاني كثير من الدول - وخاصة الصناعية منها - من عدم التوازن الاقتصادي بين العرض والطلب؛ فقد تكثر النقود في أيدي الناس مع قلة السلع المعروضة في الأسواق، فيرتبك الاقتصاد، وهو ما يعرف بحالة التضخم. وقد تكثر السلع المعروضة في الأسواق مع قلة النقود في أيدي الناس فتبور السلع، وهو ما يعرف بالكساد. ويعتبر الاقتصاديون كلا هاتين الحالتين الاقتصاديتين غير صحيتين.

ويقول رجال التأمين : إنه يمكن بالتأمين تفادي هاتين الحالتين المضرتين بالاقتصاد ؛ فإنه يمكن في حالة التضخم الاقتصادي التوسع في التأمينات الإجبارية لتعم أكثر قدر ممكن من الناس، وخاصة التأمينات الاجتماعية، وبذلك يمكن سحب قدر كبير مما في أيدي الناس من النقود، فتقل القدرة الشرائية، فيتزن العرض والطلب. وفي حالة الكساد يمكن للدولة أن تزيد من مخصصات المرضى، والعاطلين عن العمل، ونحوهم، فتكثر النقود في أيدي الناس، فتزيد القدرة الشرائية، ويزول الكساد، ويعتبرون ذلك إحدى إيجابيات التأمين؛ كما يقول خبير التأمين بول برس في كتابه : (أثر التأمين في الاقتصاد القومي).

٤ – اتقاء الأخطار:

ترغب شركات التأمين في عدم حلول المصائب والأحداث في الأمور المؤمَّن ضدها حتى لا تضطر إلى دفع مبلغ التأمين الذي تعهدت به، ولذا فهي تضغط على المؤمَّن لهم وتشدد عليهم ليجتنبوا الأخطار ويبذلوا الجهد في المحافظة على الأموال المؤمن عليها؛ ويقول أصحاب التأمين إن ذلك يؤدي إلى المحافظة على قوة الاقتصاد للبلد؛ فهو من إيجابيات التأمين كما يقول بول برس.

٥ – زيادة الائتمان:

لا توافق المصارف ولا أصحاب الأموال على إقراض أحد الناس قرضاً ربوياً ما لم يوثق هذا القرض بوثيقة ائتمان تضمن لهم حقوقهم، وهو ما يعرف بالرهن. وهم لا يقبلون هذه الرهون ما لم تكن مؤمنة ضد الفناء والهلاك. لذا فأصحاب الأموال يطالبون من يقرضونهم قروضاً ربوية بتوثيق ديونهم برهون معينة من عقار وغيره، ويطالبونهم أيضاً بالتأمين على وثائق الائتمان هذه، حتى إذا هلكت العين المرهونة قام التأمين مقامها. ويقول أصحاب التأمين : إن ذلك ينشط التجارة ويخدم الاقتصاد؛ فهو كما يرون من إيجابيات التأمين.

٦ – بث الأمن والطمأنينة:

يذكر رجال التأمين أن التأمين يجلب الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء للجميع؛ فأصحاب المصانع مطمئنون إلى سير مصانعهم ونجاحها، وأصحاب الأموال واثقون من سلامة أموالهم، وأصحاب البيع والشراء والتعامل مع البضائع مطمئنون إلى سلامة بضائعهم، وكذلك رجال الأعمال والموظفون والعمال، وغيرهم ممن يتعامل مع التأمين جميعهم يتاجر ويعمل بهدوء نفس وأمن واستقرار. ويعدون ذلك من إيجابيات التأمين. (مبادئ التأمين).

آثار التأمين السلبية:

يقرر أصحاب البصيرة في حقيقة التأمين أن للتأمين سلبيات ومساوئ كبيرة وكثيرة، ويحسبون من أخطرها وأضرها بالناس الأمور الآتية :

أولاً: الوقوع فيما حرمه الله ـ تعالى ـ:

ليس شيء في الدنيا أضر بالإنسان من معصية الله ـ تعالى ـ ومعصية رسوله ﷺ: ذلك أن أثر هذه المعصية لا يقف عند حد حساً ولا معنى؛ فهو نزع للخير والبركة في الدنيا، وذل وهوان وعذاب شديد في الآخرة. وليس شيء كذلك إلا معصية الله ـ تعالى ـ. وإذا كان التامين يقوم على الربا والقمار وغيرها مما حرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يثبته علماء الشريعة؛ فهو معصية لله ولرسوله ﷺ، وهو الخطر الذي يهون دونه أي خطر.

ثانياً: التامين خسارة اقتصادية:

إن الكثرة الكاثرة هي الجماعة الخاسرة في عملية التامين، والقلة النادرة هي الفئة الرابحة؛ فإنَّ قدْراً لا يستهان به من أموال الأفراد والجماعات والجهات والدول يُرمى به في صناديق التامين في العالم دون سبب حقيقي لهذا التصرف. والجميع خاسرون لهذه الأموال دون فائدة ظاهرة ملموسة، ولا يستثنى من هؤلاء سوى قلة نادرة لا تُعَدُّ شيئاً إلى جانب الأعداد الهائلة من المؤمَّن لهم، هذه القلة النادرة هم أولئك الذين يقع لهم الحادث المؤمن ضده ممن تدفع لهم شركات التأمين التعويضات، ولا فائدة لهم في ذلك إلا إذا جاوزت تكاليف الحادث ما دفعوه من أقساط مع اعتبار زمن استثمار هذه الأقساط لو لم يدفعوها، واستثمروها بأنفسهم حتى ذلك الحين. وأكثر من يقع لهم الحادث يكادون ألاَّ يذكروا بالنسبة لمجموع المؤمن لهم؛ فالرابحون الحقيقيون من وراء خسارة المجموع في عملية التأمين قلة من الناس تكاد تُعد على الأصابع أولئك هم قادة التأمين في العالم. لذا فخسارة الأمة بالتأمين باهظة، وهي عامة شاملة، وتعتبر من أنكى الخسائر الاقتصادية التي منيت بها الشعوب في العصور المتأخرة، وأشدها غبناً؛ فإن مجموع المؤمن لهم بمثابة الشاة الحلوب التي لا تعلف إلا بجزء يسير من قيمة لبنها؛ فهي الخسارة الجلية الواضحة كالشمس في رابعة النهار مهما تستَّر عليها المستفيدون المستغلون لمصائب الناس.

ولزيادة الوضوح والتيسير في فهم هذه العملية الخاسرة وضعتُ معادلة رياضية عرضتها على عدد من الاقتصاديين الغربيين، وخاصة من كان منهم وثيق الصلة بالتأمين، ولم يستطع أحد منهم أن يردها، أو أن يدافع عن التأمين إلا بقوله: (إنه ضرورة بالنسبة لنا)، أي بالنسبة للغرب، لتقطُّع الصلة فيما بينهم.

ويقول منطوق هذه المعادلة الرياضية:

إن مجموع ما يدفعه المؤمَّن لهم = أرباح الشركة + جميع مصاريفها + ما يعاد للمؤمن لهم عند الحادث.

ويتبين من هذه المعادلة الرياضية الرهيبة مدى الخسارة العظمى التي تُمْنَى بها الأمة من جرَّاء التأمين؛ فمعلوم أن أرباح شركات التأمين لا تضاهيها أرباح؛ حتى إنها لتكفي لإقامة دول كاملة، ومصاريفها أدهى وأمرّ؛ فهي تشمل جميع ما تبذله من عطاء سخي لمديريها، ووسطائها، وموظفيها، وسماسرتها، وبائعي الذمم من عملائها الذين لهم علاقة بتقدير الحوادث ونتائجها، ومختلف صورها. كما تشمل جميع ضرائب الدولة المفروضة عليها، وإيجارات مكاتبها الفخمة، ومنشآتها المتنوعة، وتكلفة مبانيها الشاهقة، ودعاياتها الواسعة، إلى غير ذلك مما لا يحصى من النفقات الباهظة. كل ذلك تستنزفه من جيوب المؤمن لهم دون مقابل. أما ما تعيده إلى المؤمن لهم في حالة وقوع الحادث فهو نزر يسير لا يكاد يذكر بالنسبة للأرباح والمصروفات. يقول خبير التأمين (ملتون آرثر): إن نسبة ما يعاد إلى المؤمن لهم في التأمين على الحياة ٣,١ ٪ من قيمة الأقساط[1]. وما مثل المؤمن لهم في هذه العملية الخاسرة إلا كمن يبيع ماله بجزء يسير منه. ثم إن ما تدفعه شركات التأمين إلى المؤمن لهم من هذا النزر اليسير لا تدفعه إلا بمرارة؛ حيث تضع العقبات لتحول دون صرفه؛ فهي تُنصِّب أمهر المحامين، وتشتري ذمم القضاة من القانونيين، وتضع الشروط الخفية المعقدة التي لا يكاد يسلم من شرورها أحد.

هذه حقيقة التأمين الاقتصادية المرة، وواقعه الخفي، فهل يقول عاقل عارف بحقيقة التأمين ناصح لأمته إن التأمين مصلحة اقتصادية؟!

ثالثاً: إنهاك الاقتصاد بنزيف الأموال خارج البلاد:

تنقسم دول العالم بالنسبة إلى التأمين إلى فئتين:

فئة مصدِّرة للتأمين، وفئة مستوردة. ولا شك أن الرابحة في هذه العملية هي المصدرة، وأن الخاسرة هي المستوردة؛ وذلك أن المصدر لهذه البضاعة لا يصدر ما ينفع الناس، وإنما ما يسلبهم أموالهم في لعبة معروف فيها سلفاً من الرابح ومن الخاسر، وهي ما يعرف بلعبة الذئب مع الغنم. إن الدول المصدرة للتأمين تأخذ الكثير ولا ترد منه إلا النزر اليسير. تلك الدول التي تمتلك شركات التأمين الكبرى، وخاصة منها شركات إعادة التأمين التي تصب أموال العالم في مشارق الأرض ومغاربها في أحواضها. إن التأمين بما فيه إعادة التأمين إنهاك للاقتصاد العالمي، وخاصة الدول الفقيرة منه؛ حيث تسحب به الدول القوية المصدرة للتأمين مبالغ طائلة من ثروة الدول الفقيرة مما يربك ميزانية مدفوعاتها[2].

---

(١) انظر: كيف تسرقك وثائقك في التأمين على الحياة، ص ٤٥ ـ ٥٧.

(٢) مبادئ التأمين، للهانس، ص ٣٩ ـ ٤٠.

رابعاً: عجز بعض المشاريع عن القيام بسبب الكلفة التأمينية:

تمنع أكثر دول العالم من إقامة اي مشروع صناعي أو تجاري، او غيره مما ما لم يؤمن عليه صاحبه مسبقاً. وقد تكون التكلفة التأمينية من الجسامة بحيث تكون عبئا ثقيلا على مثل هذه المشاريع، وخاصة الصغيرة منها؛ بل إنها تحول دون قيامها اصلاً. وهذه حقيقة في الدول التامينية على وجه الخصوص. وقد أجريتُ في مصر مقابلة مع عدد من الأشخاص من أصحاب المهارات الخاصة في الحرف والصناعات والكفاءات المتميزة ممن كان بإمكانهم إقامة معامل إنتاج ذات قدرات محدودة تقضي حاجات كثير من الناس وتثري الإنتاج الفني، وكان سؤالي يتوجه حول السبب في عدم إقامتهم لمثل هذه المشاريع، فكانت إجابة حوالي ٥٥ ٪ منهم بأن المانع هو ارتفاع نفقة الإنشاء وخاصة التأمين. ويصرح حوالي ٤٥ ٪ بأنه ما منعه إلا تكلفة التأمين، ويقول بعضهم: إنه قد أنشأ شيئاً من ذلك فأجهضه التأمين واضطره إلى توقيفه. وتسمع كثيراً لهجة مستنكرة تقول: ما ندري: هل نشتغل لتحصيل لقمة العيش، أو لشركات التأمين؟!

خامساً: الإغراء بإتلاف الأموال عدواناً:

يتعمد بعض المؤمن لهم إتلاف ماله المؤمن عليه بحريق، أو غيره ليحصل على مبلغ التأمين، وخاصة إذا كانت البضاعة المؤمن عليها كاسدة في الأسواق، أو فات وقتها، أو اكتشف فيها عيباً. وقد لا يتلفها فعلاً، ولكنه يصرِّفها، ويصطنع تلفها بحريق أو نحوه بما يوافق شروط استحقاق مبلغ التأمين، ويتم ذلك بإغراء الاستفادة من مبلغ التأمين، وخاصة إذا كان الشخص قد دفع مبالغ كبيرة لشركة التأمين دون أن يستفيد منها شيئاً، فيقدم على هذا العدوان بدافع التشفي. وهذه الحوادث مشهورة ومنتشرة في بلاد التأمين أجمع، وهي أشد ما تخشاه شركات التأمين، وتشدد في التحقيق منه عند وقوع الحادث ومثل هذاالتصرف خسارة على اقتصاد الأمة، وعدوان بغير حق، وهي إحدى سلبيات التأمين.

سادساً: تكدس الأموال في أيدي قلة من الناس:

عرف الإنسان منذ قديم الزمان أن تكدس الأموال وتجمعها في أيدي قلة من الناس أمر خطير ينتج عنه كثير من الشرور والتسلطات والآثار السيئة، ويعبِّر عن ذلك في العصور المتأخرة بنظام الطبقات في المجتمع. وقد أجمع علماء الإصلاح الاجتماعي على أنه لا شيء أسوأ على الأمم من انقسام مجتمعها إلى طبقات الأغنياء والفقراء. وأن من الآثار السيئة لتكدس الأموال في أيدي قلة من الناس تسلطهم وتحكمهم في مصير الكثرة، وتسخيرهم لخدمتهم بغير حق، وتوجيه أمور الأمة في جميع جوانبها وفقاً لمصالحهم. وقد نهى الإسلام عن تكدس المال في أيدي فئة قليلة تفسد في الأرض وتتعالى على الناس؛ والتأمين بجميع أنواعه هو الركن الركين لمثل هذا التكدس المشين.

سابعاً: التسبب في كثير من الجرائم:

بسبب إغـراء المال والطمـع في الحصـول على مبالغ التأمين يُقْدِمُ عـدد مـن المؤمن لهم بهذه المبالغ، أو المستحقين لها بعد أصحابها على ارتكاب جرائم شنيعة مروعة من القتل والبتر والتصرفات المنكرة النابية عن أدنى شعور بالرحمة والشفقة واعتبار الآخرين: فهذا يفجر الطائرة بمن فيها في الجو، ليقتل أمه لكي يحصل على تامينها، وهذا يخنق أباه، وهذا يغرق الباخرة بمن فيها ليحصل على التأمين الكبير لبضاعته، وهذه تسقي زوجها السم ثم ولدها لتستأثر بمبلغ التأمين؛ وهذا يقتل زوجته للغرض نفسه، وهكذا سلاسل الجرائم المنكرة التي لا يعرفها عصر غير عصر التأمين.

هذا وإن جرائم التأمين من أفظع الجرائم التي عرفتها البشرية وأشدها وحشية منذ فجر التاريخ؛ ذلك أن هذه الجرائم تستهدف أكثر ما تستهدف الأقرباء؛ فقد أخرج الباحث (شيفر ماكس) بحثاً علمياً دقيقاً رتب فيه جرائم التأمين حسب ما رصدته ملفات مخابرات الشرطة الدولية ودراساتها، ودفاتر الضبط في محاكم العالم فوجد أنه يأتي في المرتبة الأولى من جرائم القتل بسبب إغراء التأمين قتل الزوجة لزوجها، ويأتي في المرتبة الثانية قتل الزوج لزوجته، وفي المرتبة الثالثة يأتي قتل سائر الأقرباء مـن أم وأب وغيرهم، وفي المرتبة الرابعة قتل الأولاد مـن قِبَل والديهم، ولا يأتي قتل الأجانب إلا في المرتبة الخامسة. وإنه لمنتهى العجب أن يكون التأمين ـ الذي يقصد به اتقاء الأخطار ورفعها ـ أعظم سبب لأفظع الأخطار وأشنعها!

وليس أدل على ذلك من أن (جاك جراهام) وهو أحد مجرمي التأمين وضع في طرد الهدايا الذي حملته أمه معها في الطائرة لغماً هائلاً مزق أمه أشلاءاً، ودمر الطائرة بمن فيها في الجو. وأن (ألفريدي تلتمان) قتلت زوجها بالسم، ثم ابنها تخلصاً منهما لتنفرد بمبلغ التأمين من بعدهما. وأن (جوفياني فينا رولي) قتل زوجته بالخدعة شر قتلة. وأن (جوليان هرفي) قتل بالرصاص جميع من كان على ظهر إحدى البواخر بمن فيهم زوجته، ثم أغرق الباخرة لكي يحصل على تأمين زوجته الضخم. قصص وقصص تكاد ألاَّ يصدقها العقل. هذه حقيقة التأمين.

ثامناً: إبطال حقوق الآخرين:

تستخدم شركات التأمين أعداداً كبيرة من أشهر المحامين في العالم ليتولوا الدفاع بالحق أو الباطل لإبطال حجج خصومها من المؤمَّن لهم، وهي لا تقف عند هذا الحد، بل إنها تستميل بالمال الأطباء المقررين، وقضاة المحاكم القانونيين وكل من له أثر في تقرير الحوادث. إنها تفعل ذلك لإيجاد أي ثغرة تخرج معها من المسؤولية، فتتحلل من دفع مبالغ التأمين المستحقة بوقوع الحادث المؤمن ضده. وما أيسر إيجاد الثغرات، وخاصة مع شروطها المعقدة الخفية التي يصعب الإلمام بها على كثير من الناس، فضلاً عن الإتيان بها على الوجه المطلوب.

تاسعا: إفساد الذمم:

من شروط شركات التأمين شرط يقول: «إنه لا يحق للمؤمن له الذي يقع له الحادث مع غيره أن يعترف بخطئه للآخر مهما كان الخطأ، وإلا فان الشركة بريئة من التزاماتها بدفع أي مستحقات تترتب على الحادث. ليس هذا فقط بل عليه أن ينكر خطأه، ولو أمام المحكمة، وحتى لو كان خطؤه لا يحتمل الانكار. وبهذا الشرط يدفع نظام التأمين المتعاملين معه إلى الكذب وإفساد الذمم، ويملأ المحاكم بالقضايا التي تشغلها الدهر، ولا تنتهي إلا إلى حلول مجحفة تحصل بها شركات التأمين على أموال المؤمن لهم بالباطل دون أن تدفع لهم ما يقابلها من تعويضات عند الأحداث»(١).

عاشراً: ضياع المحافظة الفردية على الممتلكات:

يتسبب التأمين في وقوع كثير من الإهمال لدى المؤمن لهم الذين لا يعتنون ولا يحافظون على أموالهم وممتلكاتهم كمحافظتهم على أموالهم غير المؤمن عليها، بل قد يصل الأمر بهم إلى حد الرغبة في تلف بعض الأعيان المؤمن عليها طمعاً في مبلغ تأمينها الذي قد يفوق قيمتها. وإن عدم العناية وترك المحافظة على الممتلكات والأموال ضد الأخطار من أفراد المجتمع خسارة عظيمة على الأمة؛ لأن قوة المحافظة الفردية لا تعوضها أي قوة محافظة أخرى مهما بلغت. والخسارة الناتجة عن الإهمال لا تضر بالفرد وحده، ولا بالجماعة، ولا بالشركة المعوضة وحدها، وإنما يمتد ضررها ليشمل أبعد من ذلك؛ حيث يضر بكامل اقتصاد الأمة؛ لأن اقتصاد الأمة هو مجموع اقتصاد أفرادها. وعليه، فعدم المبالاة وترك الحراسة الفردية المشددة على الأموال والممتلكات بسبب التأمين إهدار لأعظم أسباب الأمن والسلامة، وإغراء بارتكاب الجرائم والنهب والاختلاس، وتعطيل لغريزة الوقاية التي خلقها الله في الإنسان.

الحادي عشر: تخويف الناس والتغرير بهم:

إذا كان السبب والأصل الذي دفع الناس إلى الأخذ بالتأمين هو الخوف من المستقبل المجهول، وعدم ثقتهم في مواجهة الأحداث بأنفسهم؛ فإن شركات التأمين قد استغلت هذا الدافع أسوأ استغلال، فجسمت أمامهم المخاطر، وعظّمت في أعينهم الأحداث، وحفّت الحياة بألوان من المفاجآت والتوقعات غير السارة، وربت الناس على عدم قدرة الفرد أو الجماعة على مواجهة هذا المستقبل المكفهر بأنفسهم، بل إن الأمر قد بلغ بها أن أخافت الدول نفسها، وزينت لها وللناس اللجوء إلى شركات التأمين التي جعلتها أمامهم هي وحدها القادرة على مواجهة هذه الأمور العظام، وعلى التصدي لتجنيب الناس أضرار الكوارث ومساوئ الأحداث؛ فهي وإن كانت تسمى شركات التأمين إلا

(١) انظر: نظام التأمين لمحمد السيد، والأمين الخادع، لكرشنر.

أنها تخيف الناس وترعبهم وتدمر ثقتهم بأنفسهم أولاً، ثم تدعوهم ثانياً إلى تأمين أنفسهم ضد ما أخافتهم منه؛ وهذا هو المرتكز والمبدأ الأول في سياستها الدعائية، وهو مبدأ تغرير وخداع لا يقره دين، ولا عقل ولا خلق (كرشنر، هنز ملر، كابل).

الثاني عشر: سلب الناس القدرة على مواجهة الحياة:

يؤدي ارتماء الناس في أحضان التأمين، وهروبهم من تحمل مسؤوليات الحياة إلى سلبهم القدرة على مجابهة أدنى المخاطر وتحمل أقل المفاجآت، والحياة كلها مسؤوليات وكلها مفاجآت. ومن الذي يستطيع أن يؤمن نفسه ضد جميع أخطارها وتقلباتها؟ ثم ما هو طعم الحياة وأين لذتها لمن لا يصادمها ويكابدها، ويخوض غمارها بنفسه؟ وأين إشباع غريزة حب التغلب والانتصار التي خلقها الله في الإنسان؟ ولكن ليس الأمر مجرد حرمان من إشباع الغرائز وتحقيق الملذات، وإنما هو الخطر من فقدان تحمل الحياة أصلاً؛ وخاصة في هذا العصر الذي تمدين أهله وتعقدت حياتهم، وطغى الشر فيه على الخير.

الثالث عشر: ضياع الروابط وتفكك المجتمع:

يحتاج الإنسان في حياته إلى الآخرين، وخاصة إلى أقاربه وذويه. وتشتد هذه الحاجة كلما حل العوز، أو وقعت كارثة، أو خوف. لذا فقد ساد الناس منذ العصور الأولى الالتفاف والائتلاف، وقام بينهم التعاون والتناصر وإغاثة المعوزين والمحتاجين، وتكونت بذلك الروابط الأسرية، وتكافل المجتمع، وقامت الألفة والمحبة بين الجميع، فكانت الأسرة التي هي وحدة العائلة ونواة المجتمع قوية متماسكة لا تهتز، وكذلك المجتمع. ولما حل الخراب بالأسر وبدأ التفكك في المجتمع جاؤوا بالتأمين ليحل محل الأسرة ويعوض الناس عما فقدوه، ويغني الفرد - بزعمهم - عن الآخرين، ولجؤوا إليه في كل أمر كانوا يرجونه من الأسرة، فضاعت بذلك الأسرة، وتهدم بناء المجتمع، ولم يعوض التأمين الناس عما فقدوه، وإنما زاد الطين بلة، فقطع ما تبقى من روابط، وباعد بين الناس وأسرهم، فوقف كل فرد وحيداً بعيداً منقطعاً، لا مغيث له ولا معين[١].

موازنة بين الإيجابيات والسلبيات من واقع الحياة:

بالموازنة بين السلبيات والإيجابيات في جوانب ثلاثة هامة، وهي: الجانب الديني، والاجتماعي، والاقتصادي يتبين لنا الفرق الهائل بين خير التأمين وشره:

أ - الجانب الديني:

لم أرَ من أهل العلم من قال: إن للتأمين إيجابيات في الدِّين. وأما سلبياته في هذا الجانب فقد قال

---

(١) توجيه التأمين على الحياة، وكيف تسرقك شركات التأمين على الحياة - والتركنتون.

أهل العلم المعتد بقولهم في بلاد المسلمين : إن التأمين محرم بجميع أنواعه ؛ وذلك لأنه لا يقوم إلا على الربا ، والقمار ، والغرر ، وغير ذلك ، كما هو موضح في موضعه .

وإذا لم تكن للتأمين إيجابيات في الدين ، وقد قال أهل العلم بتحريمه ، فلا مجال للموازنة بين الإيجابيات والسلبيات في هذا الجانب .

ب - الجانب الاجتماعي:

إن كان بعض أصحاب التأمين يعدون من إيجابياته تحقيق الأمن والاطمئنان في المجتمع ، كما سبق ذكره ؛ فلو سلمنا لهم بذلك فرضاً فإن تسلُّط فئة قليلة من أثرياء التأمين في المجتمع وتحكُّمهم ، وانتشار الجرائم بالتأمين ، وإفساد ذمم الناس ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وإشاعة الخوف من المستقبل ، وسلب الناس القدرة على مواجهة الحياة بأنفسهم ، وقتل الروابط الأسرية ، وتفكُّك المجتمع بالتعاملات التأمينية تقضي على هذه الدعوى غير المحققة .

ج - الجانب الاقتصادي:

يقولون : إن من إيجابيات التأمين أنه يساعد على تكوين رؤوس الأموال ، والمحافظة على عناصر الإنتاج ، والتحكم في التوازن الاقتصادي ، ويعدون من سلبياته أنه خسارة اقتصادية وقعت في شعوب العصور المتأخرة ، وإنهاك للاقتصاد الوطني بنزيف ثروات البلاد إلى الخارج ، ويحول دون قيام الصناعات الخاصة والمشاريع ، وهو مغرٍ بإتلاف الأموال عدواناً ، وتكديس لأموال الفقراء بأيدي قلة من الأغنياء ، وضياع للمحافظة الفردية على الممتلكات . وبهذا يتبين طغيان السلبيات على الإيجابيات ، وتهافت دعوى المحافظة على عناصر الإنتاج وهي جوانب اسمها وسمعتها أكبر من حقيقتها ، ويمكن أن يستعاض عنها بالتأمين الذاتي ، وهو أن يخصص صاحب المشروع أو نحوه مبلغاً من المال ، وهو ما يسمى احتياطي الحوادث ، ويستثمر هذا الاحتياطي ، وقد عُمِلَ بهذا في بعض المصانع الأمريكية والأوروبية فنجحوا نجاحاً كبيراً ، ووفروا أموالاً طائلة كانت تذهب عليهم هباء في صناديق التأمين .

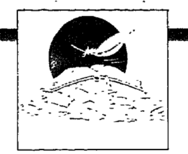
وفي ختام هذا المقال أسجل هذا الاستطلاع في الرأي العام الذي قمت به في مصر ، وألمانيا ، وأوروبا ، وأمريكا ، وكانت نتيجته ما يلي :

٥٥ ٪ تقريباً - بعد التوعية والتثقيف لبعض الفئات منهم - يقولون : إن شر التأمين يغلب خيره .

و٢٥ ٪ يقولون : إنه شر لا خير فيه .

و١٥ ٪ يقولون : إن خيره يساوي شره .

و٥ ٪ فقط هم الذين يُغَلِّبون خيره على شره .



الدعوة إلى الله في الحج

فيصل بن علي البعداني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ في موسم الحج سنة نبوية منذ فجر الإسلام؛ إذ كان النبي ﷺ يعرض دعوته على الناس في مواسم الحج، كما أرسل العديد من أصحابه – رضي الله عنهم – لذلك. وفي حجة الوداع نصح الأمة غاية النصح وبلغ البلاغ المبين، وقد استمر علماء الإسلام ودعاته الصادقون على مر العصور في استغلال هذا الموسم العظيم دعويًا مستفيدين منه في إيقاظ القلوب وإنارة البصائر وعرض الإسلام النقي والتحذير من مخاطر الشرك وشوائب البدع والمنكرات.

وفي عصرنا نرى في الحج جهودًا دعوية مباركة، وأعمالاً مشكورة يقوم بها العديد من الجهات والأفراد؛ ولكنها ـ مع كثرتها ـ لا تزال غير كافية وتحتاج إلى مزيد لأسباب عديدة أهمها:

١ – توارد الأعداد الضخمة من الحجيج والتي تتزايد موسمًا بعد آخر، وهو مما يهيئ لإحداث نقلة دعوية نوعية في العالم الإسلامي متى استغل ذلك.

٢ – تفشي الأمية الشرعية وعموم الجهل بعقائد الإسلام وأحكامه، وانتشار الشركيات والبدع والخرافات بشكل مذهل في أوساط كثير من الحجاج.

٣ – نوعية الحجيج؛ إذ كثير ممن يأتي للحج من البلدان المتفرقة هم من ذوي العواطف الدينية الجياشة الذين توفَّرَ لديهم نوع من اليسار النسبي والوجاهة في أوساط أقوامهم، مما يرجى أن يكون لدعوتهم أثر على أقوامهم بعد عودتهم.

٤ – استعداد الحجيج وتهيؤهم للاستماع والتلقي.

٥ – نظرة كثير من المسلمين لأبناء الحرمين نظرة تقدير وإجلال، وتقليدهم لهم فيما يرونهم يفعلونه ويدعون إليه، وهذا مما يضاعف المسؤولية ويزيد العبء على عاتق الدعاة والمخلصين في بلاد الحرمين.

كل ذلك يحتم إعطاء الدعوة والإرشاد في موسم الحج أولوية تفوق أولوية الاهتمام بشؤون تغذية

الحجيج وإسكانهم وتوفير النقل لهم، كما يحتم تكثيف البرامج الدعوية ومراجعة القائم منها ومحاولة إدخال التجديد عليها بما يتلاءم وأهمية الدعوة في هذا المقام المبارك.

ورغم توفر العديد من الأمور المشجعة على الدعوة في أوساط الحجيج كخصوصية المكان وإقبال الناس على الخير وتهيئهم لسماع كلام الله والعمل به إلا أنه يكتنفها العديد من العوائق التي يجب التنبه لها وتلافيها، ومن أبرزها:

أ - جهود أهل البدع والخرافات في تحصين أتباعهم من التأثر بدعوة الحق وتحذيرهم إياهم من الأخذ عن علماء أهل السنة.

ب - المشقة البدنية الناتجة عن السفر، والجهد المبذول في أداء المناسك، مما يقلل من الفرص الملائمة للدعاة للالتقاء بالحجاج ما لم يكونوا مخالطين لهم وعائشين في أوساطهم.

ج - خشونة بعض الدعاة وعدم تلطفهم مع المدعوين وقلة صبرهم عليهم، مما يجعل الكثير من الحجيج يتهيبون من سؤالهم والأخذ عنهم، بل قد توجد لدى كثير منهم ردود فعل تمنعهم من قبول توجيههم والاستماع إلى نصحهم وإرشادهم.

د - كثرة الكتيبات والمطويات والأشرطة التي في متناول الحجيج بما لا يتفق مع منهج أهل السنة والجماعة وهدي النبي ﷺ في هذا النسك العظيم.

وقبل أن أبدأ باقتراح بعض الوسائل الدعوية في الحج والتي يمكن للجهات أو الأفراد تطبيق بعضها كلٌ حسب ما يناسبه ويتلاءم مع وضعه أُحِبُّ أن أذكّر إخواني العاملين في حقل الدعوة في الحج بالأمور الآتية:

- أهمية قيام الدعاة بمراجعة أحوالهم ومحاسبة أنفسهم من ناحية إخلاصهم في دعوتهم لله - تعالى - ومتابعتهم فيها للرسول ﷺ.
- أهمية حرص الداعية على فقه أحكام المناسك والتحلي بالأخلاق الفاضلة من صبر وهدوء وحسن معاشرة ليكون داعية بسلوكه وأخلاقه قبل أن يكون داعية بلسانه.
- أهمية إدراك العلماء والدعاة - جهات وأفراداً - عظم المسؤولية الملقاة على عواتقهم والأمانة المنوطة بهم تجاه الحجيج وضرورة جدهم في استغلال هذا الموسم العظيم ومثابرتهم في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة والدعوة إليها، وكشف عوار الباطل والتحذير منه.
- أهمية ترتيب أولويات الدعوة في أوساط الحجيج والبدء بالأهم قبل المهم بحيث يتم التركيز على بيان العقيدة الصافية ومبادئ الإسلام الأساسية والتحذير من الشرك والبدع والمعاصي، والعناية بإيضاح أحكام المناسك وصفة الصلاة والحجاب الشرعي ونحو ذلك مما تمس الحاجة إليه.

❁ تنفيذ كثير من الوسائل فوق طاقات الأفراد وكثير من الجهات؛ ولذا فلا بد من تضافر الجهود وقيام الجهات الدعوية بالتنسيق فيما بينها للوصول إلى أفضل النتائج الممكنة.

❁ كثير من الوسائل الدعوية تحتاج إلى تخطيط وإعداد مسبق قبل موسم الحج بوقت كافٍ وما لم يتم ذلك فإن تطبيقها لن يؤتي الثمار المنشودة منها.

❁ الانتباه إلى أن الدعوة ليست توزيع كتاب أو إقامة نشاط أو إلقاء كلمة، بل محاولة تأثير على المدعو وسعي لتفهيمه الإسلام النقي ليعمل به، وتغيير لما يوجد لديه من معتقدات وسلوكيات مخالفة للشرع.

❁ الدعوة في الحج جهد ضخم وعمل مضنٍ فوق طاقة كثير من الجهات والأفراد؛ ولذا فلا بد من النظرة العالمية والعمل على أساسها بحيث يتم استيعاب كل صاحب جهد سليم وجاد والاستفادة من علماء أهل السنة ودعاتهم في البلدان المختلفة.

❁ أهمية تفهيم الحجيج بواجبهم تجاه دينهم، وضرورة قيامهم بحمل همِّ هذا الدين والدعوة إلى الله ومناصرة علماء أهل السنة والجماعة ودعاتهم الصادقين في مجتمعاتهم، وإفهامهم بأن الدعوة إلى الإسلام مسؤولية مشتركة بين كافة أبنائه كل حسب وسعه وطاقته.

❁ لا بد من مراعاة أحوال الحجيج ونظرة بيئاتهم الثقافية والاجتماعية التي نشؤوا فيها إلى بعض المنكرات والمواقف التي لا يرتضيها الداعية، وأن لا يقوم الداعية باستصحاب خلفيته التربوية والاجتماعية عند دعوته لهم وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بينهم.

❁ لا بد من الاهتمام بسلامة محتوى الكتيبات والمطويات والأشرطة الموزعة على الحجيج والتأكد من سلامتها عقديًا وفقهيًا، كما لا بد من الاهتمام بحسن العرض والإخراج حتى يكون ذلك أدعى لقبول الحاج لها واستفادته منها.

وأحب أن أشير إلى أن القصد من إيراد هذه الوسائل التمثيل لا الحصر، وأن الأمر قابل للتنمية والزيادة خاصة متى توفرت الركائز الأساسية لذلك، والتي تتمثل بحمل همِّ الدعوة إلى الله والممارسة الفعلية، والتنبيه على أن هدف ذلك تفتيح أذهان الدعاة ولفت انتباههم إلى وجود جوانب دعوية كثيرة في الحج لم تطرق أو أنها طرقت ولكنها تحتاج إلى المزيد، والتنويه إلى أن هذه الوسائل تحتاج إلى تحسين ومراجعة وذلك بعد عرضها على محك التجربة والتطبيق. وقد يلحظ القارئ الكريم تكرارًا في إيراد بعض الوسائل، وهذا مما يقتضيه مثل هذا الموضوع سعيًا إلى جمع الوسائل التي يمكن استخدامها في مقام معين في مكان واحد.

وسائل دعوية في الحج:

الوسائل الدعوية المقترحة في الحج كثيرة. وللاستفادة منها سأوردها كما يلي:

أولاً: وسائل دعوية والحجاج في بلدانهم:

❁ السعي إلى التنسيق مع مسؤولي الحج في الجهات والمشيخات والمجالس والمؤسسات والمراكز الإسلامية في الدول المختلفة لعقد دورات شرعية عن صفة الحج وآدابه، ومتطلبات الحاج في السفر، والأمور التي يشرع فعلها قبل السفر، وتهيئة الأجواء الملائمة لإنجاحها.

❁ تكليف الجهات الدعوية والمؤسسات والمراكز الإسلامية بعضَ دعاتهم في البلدان المختلفة بمرافقة الحجاج القادمين من بلدانهم وتعليمهم والقيام بتوعيتهم.

❁ إيجاد حقيبة إرشادية للحاج بلغته تتكون من مصحف وبعض الكتيبات والأشرطة والخرائط الخاصة بمكة والمشاعر، والتنسيق مع الجهات التي تتولى سفر الحجيج في البلدان المختلفة لتوزيع هذه الحقائب.

❁ توفير الكتيبات والأشرطة والخرائط الخاصة بمكة والمدينة والمشاعر بلغات مختلفة وعرضها للبيع في البلدان التي يقدم منها الحجاج قبل زمن الحج بوقت كافٍ.

❁ الاستفادة من التقنيات الحديثة لشرح معالم الحج وأركانه وآدابه، كأشرطة الفيديو والمجسمات والشرائح الفلمية؛ لأن كثيراً من الأخطاء التي يقع فيها الحجيج ناتجة عن الجهل بكيفية المشاعر ومواقعها.

ثانياً: وسائل دعوية في وسائل التنقل المختلفة إلى بلاد الحرمين:

❁ عرض أفلام ڤيديو وتشغيل أشرطة كاسيت حول صفة الحج وآدابه عند القدوم إلى المشاعر، وعند المغادرة وحول أهمية الاستمرار في العمل الصالح، وأن يكون العبد بعد الحج خيراً منه قبله، والحث على تجنب البدع والمنكرات التي يقع فيها بعض الحجيج عند عودتهم إلى بلدانهم، وأن يكون للحاج عند عودته دور في إصلاح أهله ومجتمعه وبث الوعي الشرعي ومجابهة الفساد.

❁ توزيع حقائب إرشادية على الحجاج تتضمن مصحفًا وسواكًا ومجموعة من الكتيبات والأشرطة الإسلامية المعتمدة من جهات علمية موثوقة.

❁ توزيع حقائب توعية خاصة بالمرأة تتضمن - بالإضافة إلى ما تتضمنه الحقيبة الإرشادية - كتيبات وأشرطة عن صفة الحجاب الشرعي وكيفية الالتزام به، ودور المرأة المسلمة، كما يمكن أن يضاف إلى هذه الحقيبة حجاب شرعي.

❁ في الرحلات التي تستمر وقتًا طويلاً ويكون العدد مناسبًا يمكن التنسيق مع المطوفين وأصحاب الحملات وشركات النقل لتعيين داعية أو أكثر من الذين يجيدون لغة الركاب لشرح صفة الحج وآدابه

والأخطاء التي يقع فيها الحجيج لتجنبها، وطرح بعض الموضوعات العقدية والفقهية، والإجابة عن استفسارات الحجاج ونحو ذلك مما يهمهم.

❁ الاقتراح على شركات النقل الجوي والبحري وضع مكتبة شرعية صغيرة مقروءة ومسموعة وعرضها على الركاب للشراء أو الاستعارة أثناء الرحلة.

❁ التأكيد على شركات النقل الجوية والبحرية بأهمية تنبيه الحجيج عند محاذاة الميقات؛ لأن كثيرًا منها لا يقوم بذلك، كذلك عدم عرض أو تقديم ما لا يحل شرعاً.

ثالثًا: وسائل دعوية في منافذ بلاد الحرمين الحدودية:

❁ توزيع المصاحف والكتيبات والأشرطة الإسلامية والخرائط الإرشادية عند قدوم الحجاج ومغادرتهم.

❁ وضع لوحات توجيهية، وأخرى تحمل عبارات الترحيب والوداع باسم الجهات والمؤسسات الدعوية.

❁ توزيع دليل بعدة لغات يتضمن أرقام هواتف الجهات الدعوية والخدمية الهامة وأرقام هواتف طلبة العلم والدعاة، ولا بد من تضمنه أرقام هواتف بعض الدعاة الذين يتحدثون بلغات مختلفة والإشارة إلى اللغة التي يتحدث بها كل منهم.

رابعًا: وسائل دعوية في مدن الحجاج والمواقيت:

❁ تكثيف الدعاة في هذه المواقع وبلغات مختلفة؛ بحيث تكون مهمتهم تعليم الحجاج ما يحتاجون إليه من أمر دينهم، وتوجيههم إلى ما ينفعهم، ومساعدتهم في تصحيح الأخطاء التي تُرَى عليهم، والإجابة عن استفساراتهم، ونحو ذلك.

❁ تكليف دعاة ميدانيين للرجال وداعيات ميدانيات للنساء يتخاطبون بلغات مختلفة يتجولون في مدن الحجاج بالسيارات وعلى الأقدام بحيث تكون مهمتهم التعليم المباشر للحجاج والدعوة لهم بحكمة ولين.

❁ الإكثار من مكاتب الإرشاد الشرعي الصغيرة في مدن الحجاج والمواقيت بقدر المستطاع؛ مع أهمية تخصيص بعضٍ منها للرجال وأخرى للنساء.

❁ توزيع المصاحف وما يستطاع توزيعه من الكتيبات والنشرات والأشرطة الإرشادية بحيث يُضمن وصولها إلى كل حاج بلغته.

❁ وضع لوحات إرشادية تتضمن صفة الحج وآدابه ونماذج من الأخطاء العقدية والسلوكية التي يقع فيها الحجاج، ويمكن أن يكون بعضها لوحات إلكترونية حتى يتمكن الدعاة القائمون عليها من تحديد التوجيهات الملائمة بلغات مختلفة.

❁ إقامة الدروس العلمية والدورات الشرعية في مدن الحجاج بعد انتهاء موسم الحج في وقت انتظار الحجيج زمن المغادرة إلى بلدانهم.

❁ التنسيق مع المجلات الإسلامية لأخذ مسترجعاتها لتوزيعه على الحجاج في مدن الحج بعد انتهاء موسم الحج.

❁ التنسيق مع مكاتب دعوة الجاليات والمكتبات والتسجيلات الإسلامية لإقامة معارض للكتاب والشريط الإسلامي بلغات مختلفة في مدن الحجاج.

خامسًا: وسائل دعوية في النقل الداخلي بين المدن وفي المشاعر:

❁ إلزام الجهات المعنية جميع أصحاب السيارت بإصلاح مكبرات الصوت وأجهزة العرض والتسجيل المرئي والمسموع.

❁ توجيه رسائل إلى السائقين تذكرهم بالله، وتحثهم على القيام بالدور المنوط بهم في توجيه الحجاج وإرشادهم، والحرص على أداء الحجاج لنسكهم حسب الوجهة الشرعية.

❁ إعداد قائمة بالمخالفات الشرعية التي تقع في وسائل النقل، وحث السائقين وشركات النقل على تحاشي وقوعها.

❁ حث شركات النقل والسائقين على توفير الأشرطة النافعة مرئية ومسموعة، ووضع الكتيبات والمطويات داخل سياراتهم لتزويد الحجاج بها.

❁ وضع مكتبة شرعية صغيرة مقروءة ومسموعة في الطائرات والحافلات يُمكِّن الركاب من الشراء منها أو الاستعارة أثناء الرحلة.

❁ وضع لوحات إرشادية تُجعَل خلف الكراسي بشكل أنيق ومناسب في سيارات الأجرة والحافلات تتضمن بعض التوجيهات والإرشادات الشرعية.

❁ التنسيق مع شركات النقل وأصحاب الحافلات للاستفادة من حافلاتهم في وضع بعض اللوحات والملصقات الإرشادية عليها بلغات مختلفة من الخارج.

❁ قيام المطوفين وأصحاب الحملات بتعيين داعية في الحافلات الخاصة بهم بلغة الركاب للتوجيه والإرشاد وإقامة البرامج الدعوية والإجابة على الاستفسارات.

سادسًا: وسائل دعوية في الحرمين الشريفين:

❁ تكثيف الدروس والمحاضرات المقامة في الحرمين بلغات مختلفة.

❁ تخصيص أمكنة معروفة في الحرمين لترجمة خطب الجمعة بعد أداء الصلاة ودروس كبار العلماء إلى لغات المسلمين الحية عبر مكبرات الصوت الداخلية.

❁ إلقاء كلمات لكبار علماء الأمة ودعاتها بعد الصلوات المفروضة.

❁ الاستفادة من ساحات الحرمين وأعمدتهما وجدرانهما وأسقفهما بوضع لوحات إرشادية إلكترونية وعادية بلغات مختلفة.

❁ تعيين جملة من الدعاة الميدانيين والداعيات الميدانيات من ذوي اللغات المختلفة في ساحات الحرمين الداخلية والخارجية لتعليم الحجاج وإرشادهم.

❁ تفعيل دور رجال الحسبة للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات الشرعية التي يقع فيها بعض الحجيج.

❁ تخصيص مكاتب للدعوة والفتوى في جنبات الحرمين الداخلية وساحاتها الخارجية.

❁ إقامة مكتبات مصغرة في جنبات الحرمين بلغات مختلفة وتخصيص عدد من الخزانات (الدواليب) والأرفف لوضع جملة من ترجمة معاني القرآن الكريم والكتيبات والمطويات الإسلامية بلغات مختلفة.

سابعًا: وسائل دعوية في مساجد منطقتي مكة والمدينة:

❁ قيام الأئمة والمؤذنين بدورهم في توجيه الحجاج الذين يصلون في مساجدهم وتعليمهم، ومحاولة التأثير عليهم وإزالة ما قد يكون لديهم من أخطاء شرعية.

❁ تفعيل دور جماعة المسجد في الاختلاط بالحجاج وإكرامهم وزيارتهم في مساكنهم، والقيام بتوعيتهم وإرشادهم.

❁ تفعيل دور نساء جماعة المسجد في الاختلاط بالنسوة القادمات من مناطق مختلفة للحج، وحثهن على تعلم الدين والدعوة إليه والقيام بدورهم في تربية النشء تربية صالحة، والتمسك بالحجاب، وعدم الانسياق وراء الدعوات المشبوهة التي تهدف إلى إفساد المرأة المسلمة وإبعادها عن دينها.

❁ الاهتمام بإقامة المحاضرات والدروس والكلمات التوجيهية في المساجد بلغات مرتاديها.

❁ التنسيق مع مكاتب دعوة الجاليات لترجمة خطب الجمعة والمحاضرات والدروس العلمية كل مسجد بلغة مرتاديه من الحجيج.

❁ إقامة الحلقات القرآنية والدورات العلمية المناسبة باللغات المختلفة.

❁ اختيار بعض الكتب العقدية والفقهية الملائمة للحجيج للقراءة منها عليهم بعد الصلوات.

❁ عرض بعض الدروس والمحاضرات المسجلة باللغات المختلفة عبر مكبر صوت المسجد.

❁ الاعتناء بتوفير ترجمات معاني القرآن الكريم والكتيبات والأشرطة ووضع ملصقات ولوحات إرشادية ومكتبة مصغرة للاطلاع بلغة مرتادي المسجد من الحجيج.

ثامنًا: وسائل دعوية في مساكن الحجاج في مكة والمدينة:

❁ وضع مكتب للدعوة في كل عدد مناسب من المجمعات السكنية يعمل فيه مجموعة من الدعاة الذين يجيدون لغة القاطنين فيها؛ بحيث تكون مهمتهم توعية الحجيج وإقامة البرامج الدعوية والعلمية لهم، والإجابة عن استفساراتهم.

❁ وضع مقسم (سنترال) ضخم للدعوة والإرشاد يضم مجموعة من الدعاة بلغات مختلفة بحيث يكون لكل لغة جملة من خطوط الهاتف برقم موحد من ثلاث خانات، ويتم إلزام المجمعات السكنية بتشغيل المقاسم (السنترالات) الخاصة بها، ووضع جهاز في كل غرفة أو جناح ووضع ملصق بجواره يتضمن جملة من الإرشادات الشرعية وأرقام هواتف مقسم (سنترال) الدعوة والإرشاد بكل لغة، وإلى أن يقام هذا المقسم (السنترال) يمكن التنسيق مع شركة الاتصالات السعودية للاستفادة من مقاسم (سنترالات) الاستعلامات لديها في منطقتي مكة والمدينة في موسم الحج في هذا الأمر.

❁ قيام المطوفين وأصحاب الحملات بوضع مكتبة مقروءة وسمعية بلغة القاطنين تتضمن جملة من المصاحف والكتيبات والأشرطة في كل مجمع سكني.

❁ وضع لوحات إرشادية في الأجنحة والأدوار والمجمعات السكنية تتضمن بعض الملصقات والنشرات التوجيهية بلغة الحجيج القاطنين فيها.

❁ التنسيق مع طلبة العلم والدعاة الذين يتحدثون بلغات مختلفة للقيام بزيارة الحجاج في مساكنهم للنصح والتوجيه وإلقاء دروس ومحاضرات وكلمات في المصليات، إن وجدت.

❁ مشاركة بعض الدعاة لإخوانهم الحجيج في السكنى في أماكن إقامتهم واستغلال ذلك في تعليمهم وتوجيههم الوجهة الراشدة.

❁ وضع ركن للدعوة والفتوى في مداخل المجمعات السكنية يتضمن رفًا توضع عليه الكتيبات والمطويات والأشرطة الخاصة بالتوزيع، ولوحة للفتوى وصندوقًا لجمع الأسئلة والاقتراحات الدعوية على أن تكون الكتابة بلغة ساكني المجمع.

تاسعًا: وسائل دعوية في المخيمات في المشاعر:

❁ الاقتراح على المطوفين وأصحاب الحملات بوضع مكتبتين تتضمنان عددًا مناسبًا من المصاحف وترجمة معاني القرآن الكريم، والكتيبات والأشرطة بلغة رواد المخيم في المخيمات التابعة لهم؛ بحيث تكون واحدة في جناح الرجال وأخرى في جناح النساء.

❁ قيام المطوفين وأصحاب الحملات بتوفير عدد من الدعاة المعتمدين من قِبَل الجهات المعتبرة بحيث يكون على الأقل نصيب كل مئتي حاج داعية يخالطهم معلمًا إياهم ومبينًا لهم هدي النبي ﷺ وسنته في أداء المناسك ومحذرًا إياهم من البدع والمخالفات التي يقع فيها كثير من الحجيج.

❁ التنسيق مع المطوفين وأصحاب الحملات لإيجاد إدارة للإشراف الدعوي والثقافي في مخيماتهم تتولى وضع سلسلة من البرامج الدعوية والعلمية التي تتعلق بالحج وغيره مما يهم المسلم في دينه ويقربه إلى ربه بلغة الحجيج.

❁ قيام مكاتب دعوة الجاليات ببلاد الحرمين بتنظيم جولات لدعاتها الذين يتحدثون بأكثر من لغة على مخيمات الحجيج الاعاجم الذين يجيدون التخاطب معهم لتوعيتهم وإرشادهم والإجابة على استفساراتهم.

❁ تنظيم زيارة للعلماء وطلبة العلم إلى مخيمات المطوفين وأصحاب الحملات لوعظهم وإرشادهم وإلقاء الدروس والمحاضرات عليهم.

❁ العمل على إيجاد قنوات تلفزيونية داخلية في منطقة المشاعر تبث بلغات مختلفة وتكون تابعة للمؤسسات الدعوية في بلاد الحرمين ليقوم من خلالها العلماء والدعاة بتوجيه الحجيج وإرشادهم إلى ما ينفعهم في أمور دينهم.

ويساعد على نجاح هذه الفكرة بقاء الخيام في الفترة الأخيرة في منطقة منى وجزء من منطقة مزدلفة على مدار العام.

❁ وضع لوحات إرشادية في المخيمات تتضمن بعض التوجيهات الشرعية بلغات قاطنيها.

❁ وضع أرفف توضع عليها المصاحف والكتيبات والأشرطة الخاصة بالتوزيع.

❁ تفعيل دور طلبة العلم الموجودين في المخيمات، ومطالبة من يستطيع منهم بإلقاء دروس ومحاضرات وكلمات بعد الصلوات في مخيماتهم والمخيمات المجاورة.

❁ تفعيل درو طالبات العلم والداعيات الموجودات في المخيمات باعتبارهن الأقدر على التأثير في أوساط النساء ودعوتهن.

❁ الاهتمام بالمرأة المسلمة وتوعيتها وتنبيهها إلى أهمية اهتمامها بتعلم دينها واعتزازها بهويتها ومحافظتها على الحجاب وترك الاختلاط بالرجال والابتعاد عن التشبه بالكافرات ومن سار في فلكهن.

❁ إيجاد مجسمات وخرائط للمشاعر للاستفادة منها في بيان الصورة الصحيحة والطريقة السهلة لأداء المناسك.

❁ ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مخيمات الحجيج بحكمة ولين.

❁ توفير الأجواء الملائمة والأدوات اللازمة لإنجاح عملية الدعوة والتوجيه داخل المخيمات.

❁ وضع صناديق للاقتراحات الدعوية في المخيمات في أقسام الرجال والنساء تكون تابعة لهيئة التوعية في الحج والجهات الدعوية في بلاد الحرمين لكي تستفيد من اقتراحات الحجاج في خططها الدعوية للأعوام القادمة.

❁ زيارة العلماء والدعاة القادمين من مناطق مختلفة للاستفادة منهم والاستماع إلى أخبارهم ومؤازرة أنشطتهم الدعوية معنويًا وماديًا بما يستطاع.

❁ تفريغ خطوط هاتفية في كل مخيم في قسمي الرجال والنساء تكون خاصة بالاستفسار وطلب الفتوى من أهل العلم.

* وضع لوحة للفتوى، وصندوق لوضع الأسئلة في قسمي الرجال والنساء على أن تكون الإجابة بلغة قاطني المخيم.

عاشرًا: وسائل دعوية في الطرقات والأماكن العامة في مكة والمدينة ومنطقة المشاعر:

* وضع مواقع صغيرة في الطرقات والأماكن العامة وبجوار المخيمات للوعظ والإرشاد عبر مكبرات الصوت والإجابة على الاستفسارات وتوزيع الكتيبات والأشرطة في الطرقات وبجوار المخيمات.

* وضع لوحات إرشادية إلكترونية وعادية على الجسور وفي الطرق والأماكن العامة بلغات مختلفة.

* التنسيق مع الجهات ذات الاختصاص في منطقتي مكة والمدينة للاستفادة من اللوحات الإعلانية الموجودة بها في توعية الحجيج وإرشادهم بلغات مختلفة.

* تكثيف جهود طلبة العلم والدعاة الميدانيين الذين يجولون الطرقات والأماكن العامة بالسيارات وعلى الأقدام للتوعية والإرشاد عبر مكبرات الصوت وبلغات مختلفة.

* الاستفادة من أسوار المخيمات في المشاعر وواجهات وأسطح المجمعات السكنية بوضع لوحات إرشادية يكتب عليها نصوص شرعية وعبارات توجيهية بلغات مختلفة.

* وضع ملصقات للتوعية الشرعية على أجهزة الهواتف العمومية وأبواب المستشفيات والجهات الخدمية المختلفة.

* وضع أجهزة عرض تلفزيوني وتسجيل في أماكن تجمعات الناس العامة كالمطاعم والمستشفيات وجوار كبائن الهواتف العمومية ونحو ذلك لعرض برامج دعوية وعلمية.

* إعداد خرائط بمواقع هيئة التوعية في الحج والجهات الإرشادية لتسهيل عملية الوصول إليها والاستفادة منها.

* تفعيل دور جهات الحسبة للقيام بدورها في وسط هذه الأعداد الضخمة من البشر لزيادة الخير وردع ضعاف النفوس من استغلال هذا التجمع الضخم بفعل ما لا يحل.

* حث طلبة العلم والدعاة والعامة على إحياء السنن التي يُتساهل فيها كالتلبية والتكبير ونحو ذلك.

وأخيرًا:

فالمسؤولية جسيمة، وعلى المطوفين وأصحاب الحملات ومن له تعامل مباشر مع الحجيج خوف الله فيهم والمبادرة بالإحسان إليهم والحرص على صلاح أحوالهم وصحة نسكهم وتعليمهم ما ينفعهم وتحاشي ظلمهم أو التقصير في حقهم خصوصًا في هذا المقام العظيم - زمانًا أو مكانًا -.

نسأل الله - تعالى - للجميع قبول العمل والتوفيق لكل خير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الإنابة في الحج

د. محمد طاهر حكيم

أجمع العلماء على أن فريضة الحج مرة في العمر لمن استطاع إليه سبيلاً، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

ولحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم»(١).

وأجمعوا على أن من كان عليه حج ـ وهو قادر على أن يحج بنفسه لا يجزئ أن يحج عنه غيره، وأن من لا مال له يستنيب به غيره فلا حج عليه(٢).

واختلفوا في المريض والمعضوب يكون كل واحد منهما قادراً على ما يستأجر به من يحج عنه، هل يجب عليهما في ذلك؟ بعد إجماعهم على أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج، إنما فرضه الله على المستطيع. ولا استطاعة لهما(٣). وكذلك اختلفوا فيمن مات وعليه حج. هل يحج عنه أم لا؟

✿ أما المريض والمعضوب: فقد ذهب جمهور أهل العلم منهم: علي بن أبي طالب، والحسن، والثوري، وابن المبارك، وداود، وابن المنذر، والأئمة الثلاثة: أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد، إلى أنهما إذا وجدا مالاً ورجلاً يحج عنهما، وجب الحج عليهما(٤).

واحتجوا على ذلك بأدلة، منها:

١ ـ حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ، فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق

---

(١) رواه مسلم، ٩/١٠١، وأحمد والنسائي وغيرهم.

(٢) المغني لابن قدامة ٣/١٧٨، ١٨٠. (٣) تفسير القرطبي ٤/١٥٠.

(٤) انظر سنن الترمذي ٣/٦٧٧، وشرح السنة، ٧/٢٦، والمبسوط ٤/١٤٨، وفتح القدير ٢/٣٠٩، والمغني ٣/١٧٧، وكشاف القناع ٢/٢٥٥، وزاد الشافعي: أنه إذا لم يجد مالاً يحج به غيره ولكن وجد من يطيعه من ولده ونحوه فإن الحج يجب عليه كذلك. انظر المجموع ٧/٧٤ـ ٧٥، ومغني المحتاج ١/٤٦٩ ـ ٤٧٠، والمهذب ١/٢٦٦، والغاية القصوى ١/٤٣١.

الآخر، قالت: يا رسول الله! إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ فقال: «نعم». وذلك في حجة الوداع[1].

٢ - وحديث أبي رزين العقيلي أنه أتى النبي ﷺ فقال: «إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن»، قال: «حج عن أبيك واعتمر»[2].

✿ وذهب بعض أهل العلم إلى أن المعضوب لا يجب عليه الحج أصلاً - وإن ملك المال - رُوي ذلك عن الليث والحسن بن صالح، وبه قال الإمام مالك[3] وهو رواية عند الحنفية[4].

واحتجوا بالآتي:

١ - قوله - تعالى -: ﴿ولله على النَّاس حجُّ البَيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧] فالآية وردت مقيدة لمن يستطيع السبيل إلى البيت. فمن لم يستطع السبيل إليه لم تتناوله الآية، والاستطاعة صفة موجودة بالمستطيع كالعلم والحياة، وإذا لم توجد به استطاعة فليس بمستطيع فلا يجب عليه حج[5].

٢ - وقوله - تعالى -: ﴿وأن لَّيس للإنسان إلاَّ ما سعىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى، فمن قال: إنه له سعي غيره فقد خالف ظاهر الآية[6].

٣ - قالوا: وأما حديث «الخثعمية» فهو مخالف لظاهر القرآن؛ فيرجح ظاهر القرآن[7].

وقد أجيب عن هذه الأدلة من جانب الجمهور:

١ - الاستطاعة تكون بالغير كما تكون بالنفس. قال ابن رشد: «وهي - أي الاستطاعة - تتصور على نوعين: مباشرة ونيابة»[8].

٢ - وعن الآية: ﴿وأن لَّيس للإنسان إلاَّ ما سعىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فقالوا: إننا نقول كذلك، ولكنه بذل ماله للنائب؛ فكأن الحج أصبح من سعيه.

وقد نقلوا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «إن هذه الآية منوطة بقوله - تعالى -: ﴿والَّذين آمنوا واتَّبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحقنا بهمْ ذُرِّيَّتهمْ﴾ [الطور: ٢١] وقال أكثر أهل العلم: هي محكمة.

وقال الربيع بن أنس: هذه الآية في الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره، وقال أبو بكر الوراق: ﴿إلاَّ مَا سعَىٰ﴾ إلا ما نوى[9]. وقيل غير ذلك. وعلى أيٍّ كان الأمر فليس في الآية دليل للمالكية ومن معهم فيما ذهبوا إليه.

---

(١) رواه البخاري ٤/٦٧ (على الفتح)، ومسلم ٩/٩٧ - ٩٨ (بشرح النووي)، ومالك ٢/٢٦٧، وأحمد ٢/٢١٢، و٤/٩٨، و٥/٤٢٠، وأبو داود ٢/٤٠١، والترمذي ٣/٦٧٥، والنسائي ٥/١١٧، و٨/٢٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٣/٦٧٨، وقال: حسن صحيح. وأبو داود ٢/٤٠٢، والنسائي ٥/١١٧.

(٣) انظر شرح السنة ٧/٢٦، والمنتقى ٢/٢٦٩، والشرح الصغير ٢/١١٥، والكافي ١/٣٥٧.

(٤) كما في المبسوط ٤/١٥٢، وجعله المذهب وانظر البدائع ٣/١٠٨٥، وملتقى الأبحر ١/٢٣٣.

(٥) المنتقى ٢/٢٦٩، وانظر القرطبي ٤/١٥١. (٦) تفسير القرطبي ٤/١٥١.

(٧) تفسير القرطبي ٤/١٥٢، وراجع فتح الباري ٤/٧٠. (٨) بداية المجتهد ١/٣١٩. وانظر المجموع ٧/٧٥.

(٩) تفسير القرطبي ١٧/١١٤ - ١١٥، وانظر: ملتقى الأبحر ١/٢٣٤.

٣ ـ وأما القول بأن ظاهر حديث «الخثعمية» مخالف لظاهر القرآن فجوابه كما قال الحافظ ابن حجر: «وتعقب بأن في تقرير النبي ﷺ لها على ذلك حجة ظاهرة».

ويظهر من هذا أن قول الجمهور أقوى. والله أعلم.

❁ وأما من مات وعليه حجة الإسلام أو قضاء أو نذر فإنه يجب أن يحج عنه من جميع ماله ـ أوصى أو لم يوص ـ ويكون الحج عنه من حيث وجب عليه، لا من حيث مكان موته؛ لأن القضاء يكون بصفة الأداء. قال بهذا جماعة من أهل العلم منهم: ابن عباس، وأبو هريرة، وابن المبارك، وابن سيرين، وابن المسيب، وأبو ثور، وابن المنذر، وهو قول الشافعي وأحمد[1].

واحتج هؤلاء بالآتي:

١ـ حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: «إن أمي نذرتْ أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: نعم، حجي عنها! أرأيت لو كان على أمكِ دين أكنتِ قاضيته؟ اقضوا الله؛ فالله؛ أحق بالوفاء»[2].

٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: «يا رسول الله»! إن أبي مات ولم يحج. أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم، قال: فدين الله أحق»[3].

٣ ـ ولأنه حق تدخله النيابة لزمه في حال الحياة فلم يسقط بالموت كديْن الآدمي، ويجب من رأس المال؛ لأنه ديْن واجب، فكان من رأس المال كديْن الآدمي[4].

❁ وذهب آخرون إلى أن من مات وكان قد وجب عليه الحج ـ ولم يحج ـ فإن أوصى حُج عنه من ثلث التركة وإلا فلا يجب على الورثة شيء إلا أن يَطَّوَّعوا. قال به النخعي والشعبي وحماد والليث في جماعة.

وبه قال أبو حنيفة[5] ومالك[6]؛ لأن الميت ليس له حق إلا في ثلث ماله، ودين العباد أقوى؛ لأنه مبني على المشاحَّة، ولأن له مطالباً بخلاف دَيْن الله ـ تعالى ـ لأنه مبني على المسامحة فلا يعتبر إلا من الثلث لعدم المنازع فيه.

❁ وهناك قول ثالث روي عن ابن عمر والقاسم بن محمد وابن أبي ذئب؛ حيث قالوا: لا يحج أحد عن أحد مطلقاً[7]. والأحاديث المذكورة حجة عليهم.

---

(١) انظر: سنن الترمذي ٣/٦٧٧، وشرح السنة ٧/٢٦، والتمهيد ٩/١٣٦، والمجموع ٧/٨٧,٩٠، ومغني المحتاج ١/٤٦٨، والمغني ٣/١٩٥، والإنصاف ٣/٤٠٩، والإقناع ١/٣٤٤.

(٢) رواه البخاري ٤/٦٤، . والنسائي بمعناه ٥/١١٧. (٣) رواه النسائي ٥/١١٨.

(٤) المهذب ١/٢٦٧، وراجع فتح الباري ٤/٦٦.

(٥) انظر التمهيد ٩/١٣٦، والمحلى ٧/٥٣، وعمدة القارئ ١٠/٢١٣ ـ ٢١٤، وعند الحنفية: لو مات رجل بعد وجوب الحج عليه ولم يوص به فيحج عنه رجل حجة الإسلام من غير وصية، قالوا: يجزيه ـ إنْ شاء الله ـ لأنه إيصال ثواب وهو لا يختص بأمر من قريب أو بعيد، ذكره ابن عابدين في حاشيته ٢/٦٠٠، وراجع مختصر الطحاوي ص ٥٩.

(٦) المنتقى ٢/٢٧١، والشرح الصغير ٢/١٥، والقرطبي ٤/١٥١، وعنده: إذا لم يوص فالصدقة أفضل من استئجار من يحج عنه، فإن حجَّ أحد تطوعاً فله أجر الدعاء.

(٧) المحلى ٧/٤٥، والمجموع ٧/٩٠، ومعالم السنن ٢/٤٠١، وعمدة القارئ ٩/٢١٣.

شروط الحج عن الغير[1]:

اشترط الفقهاء شروطا للحج عن الغير، نذكر أهمها:

١ - نية النائب عن الأصيل عند الإحرام: لأن النائب يحج عن الأصيل لا عن نفسه فلا بد من نيته، كأن يقول: احرمت عن فلان أو لبيك عن فلان. وهذا الشرط متفق عليه.

٢ - أن يكون الأصيل عاجزاً عن أداء الحج بنفسه وله مال، فإن كان قادرا على الأداء بأن كان صحيح البدن - وله مال - فلا يجوز حج غيره عنه باتفاق الجمهور غير المالكية. أما المالكية: فلم يجيزوا الحج عن الحي مطلقا. وعليه: لا يجوز أن يستنيب في الحج الواجب من يقدر على الحج بنفسه إجماعا. وأجاز الجمهور الحج عن الميت، لكن إذا أوصى عند الحنفية والمالكية. وقال الشافعية والحنابلة: يجب الحج عنه إذا كان قادرا ومات مفرطا.

٣ - أن يستمر العجز كالمرض إلى الموت. وهذا باتفاق الحنفية والشافعية، فلو زال العجز قبل الموت لم يجزئه حج النائب؛ لأن جواز الحج عن الغير ثبت بخلاف القياس لضرورة العجز الذي لا يُرجى برؤه، فيتقيد الجواز به.

وقال الحنابلة: يجزئه؛ لأنه أتى بما أمر به. فخرج عن العهدة كما لو لم يزل عذره. وهذا أظهر.

٤ - أن يُحْرِمَ على النحو الذي طالب به الأصيل. فلو اعتمر مثلاً وقد أمره بالحج، ثم حج من مكة، لا يجوز عند الحنفية.

وكذا لو أوصى بالحج وحدد المال أو المكان؛ فالأمر على ما حدده وعينه؛ وإن لم يحدد شيئاً فالحج من بلد المنوب عنه؛ لأن الحج وجب على الأصيل من بلده فوجب أن ينوب عنه منه، وهذا عند الحنفية والحنابلة. وقال الشافعية: يجب على النائب الحج من ميقات الأصيل؛ لأن الحج يجب من الميقات.

٥ - يجب أن يكون النائب قد حج عن نفسه قبل الحج عن الغير عند الشافعية والحنابلة لحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: «لبيك عن شبرمة» قال: مَنْ شبرمة؟. قال: أخ لي، أو قريب. قال: حججت عن نفسك؟ قال: لا. قال: «حجَّ عن نفسك، ثم حج عن شبرمة»[2].

ويجوز عند الحنفية - مع الكراهة التحريمية - الحج عن الغير قبل أن يحج الرجل عن نفسه عملاً بإطلاق حديث «الخثعمية» المتقدم من غير استفسار عن سبقها الحج عن نفسها. وترك الاستفصال في وقائع الأحوال ينزل منزلة عموم المقال أو الخطاب، أما سبب الكراهة فهو أنه تارك فرض الحج.

وكذلك قال المالكية: يكره الحج عن الغير - أي في حالة الوصية بالحج - قبل أن يحج عن نفسه؛ بناءا على أن الحج واجب على التراخي وإلا مُنع على القول بأنه على الفور - وهو المعتمد عندهم.

والقول الأول أرجح لحديث «شبرمة» ويحمل ترك الاستفصال في حديث «الخثعمية» على علمه ﷺ بأنها حجت عن نفسها أولاً وإن لم يروِ لنا طريق علمه بذلك؛ جمعاً بين الأدلة كلها - كما قال الكمال ابن الهمام[3].

هذه أهم شروط الحج عن الغير؛ والله - تعالى - أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) منع قوم من النحاة إدخال «ال» على «غير وكل وبعض» لأن هذه لا تتعرف بالإضافة فلا تتعرف بالألف واللام، قال ابن عابدين: إنها تدخل عليها؛ لأنها هنا ليست للتعريف ولكنها المعاقبة للإضافة. رد المحتار ٢/٣٢٣، (نقلاً عن الفقه الإسلامي وأدلته ٣/٣٧).

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة والدارقطني (نيل الأوطار ٤/٢٩٢).

(٣) انظر فتح القدير ٢/٣١٧ - ٣٢١و الشرح الصغير ٢/١٥، ومغني المحتاج ١/٤٧٠، وكشاف القناع ٢/٤٦٢، وانظر الفقه الإسلامي وأدلته ٣/٤٩ - ٥٥.



الأبعاد التربوية للحج

(٢-٢)

د. حمدي شعيب

استعرض الكاتب في الحلقة الأولى رحلة الحج مستنبطاً من مسيرتها الدروس والعبر، وإشارات للساري في طريق الملة الحنيفية، وقد ختم الحلقة بدور المرأة في المشروع الحضاري عندما توقف عند ركن السعي والرمل بين الصفا والمروة؛ حيث ذكرنا بهاجر - عليها السلام - وفي هذه الحلقة يتابع الكاتب نظراته التربوية في مسيرة الحج وما يستفاد منها في المشروع الحضاري لأمتنا الإسلامية. - البيان -

أ - أما بالنسبة للقضايا الفرعية:

فأولها: عندما يتأمل الحاج أنه قد كُتب عليه السعي على النهج نفسه وبالخطوات التي قامت بها أم إسماعيل - عليهما السلام - نرى أن الله - عز وجل - يريد أن يذكِّر كل مسلم، أن هذه الأمة واحدة؛ لأنها تملك كل مقومات هذه الوحدة: من جذور تاريخية، وأرض، وأفكار موحدة، وأنها تتجذر في التاريخ عمقاً يربطها بأبي البشر آدم وأبي الأنبياء إبراهيم - عليهما السلام - أوائل من بنوا البيت، وأنها كذلك تتجذر في التاريخ عرضاً لتضم كل الأمم وكل أجناس الأرض؛ فهي أمة واحدة ورسالتها واحدة.

ثانيها: كيف أن الماء الذي كان في سقاء هاجر - عليها السلام - قد نفد لتتعرض هي ووليدها الحبيب لهذه المحنة العظيمة التي تضطرها لهذا السعي والركض الشاق والمتكرر، وهو الملمح الذي يبين أنه قد كتب على ابن آدم عامة حظه من الكد والنصب، تحقيقاً لسنته - سبحانه - أن حياة هذا المخلوق هي سلسلة من الكد والتعب: **﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾** [البلد: ٤]، وأن الإنسان مخلوق مبتلى: **﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾** [الإنسان: ٢].

وكتب كذلك على الدعاة وحاملي الأفكار النبيلة خاصة تحقيقاً لسنته - سبحانه -: **﴿ الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾** [العنكبوت: ١، ٢].

إذن لا بد من الجهد والمحنة من أجل الاختبار والتمحيص، ومن أجل التمييز والانتقاء: **﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾** [آل عمران: ١٧٩].

وهذا المبدأ - مبدأ الابتلاء - لم يُستثن منه أحد حتى هاجر الصابرة الممتحنة ووليدها - عليهما السلام - بل كل الأنبياء - عليهم السلام - والصالحون والمصلحون على دربهم.

ثالثها: تدبر وصف الحديث الشريف لحال هاجر - عليها السلام - : « فانطلقت كراهية أن تنظر إليه » أي كان هنالك شعور داخلي عارم يدفعها للعمل والبذل إحساسا بالمسؤولية والإيجابية لعمل شيء مّا لتدفع به تلك المحنة ، ولم تقعد وتولول تواكلاً وكسلا وأن هذا شيء مقدر؛ بل نستشعر من طريقة سعيها - عليها السلام - معنى التصميم والعزم، وهو الشعور الذي يغيب عن بعض الدعاة؛ الشعور الداخلي بالمسؤولية لعمل شيء مّا من أجل الفكرة التي يحملونها.

رابعاً: كانت هاجر - عليها السلام - تسعى وتركض، ولا تريد أن تعود حتى تحصل على بغيتها حتى إنها كررت سعيها سبع مرات! أي كان هنالك تصميم وثبات وعدم يأس من تحقيق بغيتها. ولقد كان بإمكانها أن تعذر إلى الله - سبحانه - بأن تسعى مرة أو مرتين.

وهو الملمح الذي يذكِّر الدعاة بطرْق أبواب الخير مرات ومرات حتى تفتح، وأحرى لمن داوم على قرع الباب أن يُفتح له.

فالداعية صاحب قضية، وهو دوماً يتطلع إلى المعالي، ولا تعوقه مغريات الأرض، ولا ثقلة الطين حتى يتحقق هدفه العظيم، كما قال أحمد محمد الصديق:

يتعالى عن أراجيف الثرى نافضاً عنه غبارَ التهم

من تكن عيناه للأرض فلن يتسامى أبداً للأنجم

خامسها: بعد هذا المجهود المتكرر، والسعي الشاق المضني، والأخذ بكل الأسباب لا يسفر ذلك عن شيء، حتى كان الفرج بيده - سبحانه - المطَّلع على هذا الأمر، فأرسل جبريل - عليه السلام - ليضرب بعقبه أو بجناحه الأرض فتتفجر زمزم.

وهو الملمح الذي يذكِّر الدعاة بالفقه الجيد لقضية التوكل على الله؛ وذلك بأن يسعوا في الأسباب - وبأفضل الأسباب - مع القناعة الداخلية بعدم الركون إليها، ثم مع اليقين فيما عنده - سبحانه - : ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [**النحل**: ٩٦] والفرج بيده - سبحانه - وحده مالك الملك، ومقدِّر الأقدار؛ لذا فإن الجوارح تعمل بالأسباب، والقلب يناجي رب هذه الأسباب: ﴿ **بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾. [**آل عمران**: ٢٦].

وثمرة هذه القضية هو الخلوص والتجرد للحق - سبحانه - ﴿ **وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ** ﴾. [**التوبة**: ١١٨].

ب - أما بالنسبة للقضية الكبرى والمغزى العظيم من ركن السعي؛ فإن هذا العمل الذي يقوم به كل حاج ومعتمر يكاد يكون بكل دقائقه هو ما قامت به هاجر - عليها السلام - نفسه، وكأنها رسمت الخُطا للأحقين في كل عصر وفي كل جيل؛ فلا تتم لهم عمرة ولا حج إلا به، ثم ليتدبروا بعض الدروس التربوية منه. ولا يكاد يخلو هذا المكان من ساع ومهرول في أي لحظة، من اليوم والنهار، وكأننا بالحق - سبحانه - يريد أن تظل تلك القضية ودروسها حية دوماً في وجدان الأمة حتى يرث الأرض ومن عليها؛ عرفاناً بدور هاجر - عليها السلام - وتذكيراً للأمة، ورداً على أباطيل أعدائها وشبهاتهم.

وعندما نتدبر هذا الركن من خلال زاوية دراستنا نجد أنه رد عملي، وبرهان جلي، حول قضية طالما أثار حولها المعارضون للمشروع الحضاري الإسلامي الكثير من الشبهات والاتهامات؛ بل العجب في الأمر أنه قد يُشارك بعض المسلمين في إثارة الغبار حولها بحسن نية، أو بجهل، أو بهما معاً! وهي قضية مكانة المرأة في الإسلام، ودورها في المشروع الحضاري.

ويكفينا في هذا المقام أن نقتطف بعض ما جاء في الرأي الشامل الجامع والراقي للحركة الإسلامية المعاصرة حول هذه القضية؛ فالمرأة (هي الأم التي ورد في شأنها الأثر الكريم: أن الجنة تحت أقدامها، والتي قدمها الله ـ تعالى ـ على كل من عداها في حق صحبة الأبناء لها، وأنهن شقائق الرجال. والمرأة هي نصف المجتمع ونصف الأمة والقائمة على تنشئة الأجيال. ومسؤولية المرأة الإيمانية كالرجل سواءاً بسواء؛ فهي مأمورة ـ كالرجل ـ بالإيمان بالله، وبالعمل بالأركان، وعليها ما على الرجل من واجب التفقه في الدين. والحدودُ في الشريعة واحدة بالنسبة للرجل والمرأة، ونفس المرأة في القصاص كنفس الرجل. وهي أول من آمن، وأول من استشهد في سبيل الله. ولقد شاركت في الجهاد والغزوات. ولا يصح زواج في الشريعة إلا بموافقتها ورضاها وإجازتها، ولا يجوز شرعاً إجبارها على الزواج ممن لا ترضاه. وللمرأة ذمة مالية كاملة لا تنقص شيئاً عن ذمة الرجل المالية. ونقصها في الدين ليس نقصاً في الإيمان ولا لأنها مخلوق متدنٍّ غير أهل للرقي، بل لرفع العباداتِ عنها في أوقات معينة. ونقصُ الحظ هو في بعض أنصبة الميراث فقط. أما نقص العقل فهو محدد بالشهادة على أمور معينة أهمها الدَّيْن أي القرض، وعقود البيع والحدود. أما قوامة الرجل عليها فلا يجوز أن تُفهَم على أنها مطلقة في كل الأمور ولعامة الرجال، بل إن هذه القوامة خاصة بالأسرة فقط، وفيما يتعلق بالأمور المشتركة بين الزوج والزوجة. ورياسة الرجل ليست رياسة قهر وتحكم واستبداد، ولكنها تراحم وتواد ومعاشرة بالحسنى، وتقوم على التشاور؛ فالأصل هو المساواة، ولكن الاستثناءات ترد منه ـ سبحانه ـ. وقد وردت النصوص بأن جسد المرأة كله عورة، ولا يجوز أن يظهر منه لغير محارمها سوى الوجه والكفين، وأن خلوة المرأة بالرجل غير المحرم لها غير جائزة. وللمرأة وظيفة أساسية هامة وسامية خصها ـ سبحانه ـ بها وهي وظيفة الحمل والأمومة، وهي ربة البيت وملكته. وللمرأة حق المشاركة في انتخاب أعضاء المجالس النيابية وما ماثلها. ولها الحق في تولي مهام عضوية المجالس النيابية وما يماثلها. والوظيفة المتفق على عدم جوازها لها هي الولاية العامة، أي رئاسة الدولة. أما القضاء فقد اختلف الفقهاء بشأن توليها له، وهذا يحكمه فقه الموازنات والترجيح. أما ما عدا ذلك من الوظائف فما دام أن للمرأة شرعاً أن تعمل فيما هو حلال لم يرد فيه نص بتحريمه. وهذه الحقوق وكيفية استعمالها تحكمها ظروف وأخلاقيات كل مجتمع)[1].

وهكذا فإن ركن السعي يفتح أفقاً رحيباً للمشاركين في المشروع الحضاري حول قضية المشارِكات ودورهن، فلا يبخسن، ولا يُهملن. ويكفي أن النبي ﷺ سماهن: الشقائق.

---

(١) رسالة المرأة في المجتمع المسلم، ٥/ ٢٩ بتصرف.

مع المؤتمرين!

فضل الجماعية وأهميتها: ثم بعد طلوع الشمس من يوم عرفة يتوجه الحاجّ من منى إلى عرفة، وهو يلبي ويكبر: «الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد». ويرفع بها صوته. ويكره له الصيام في هذا اليوم. ومن السنّة النزول في نمرة إلى الزوال إن أمكن. فإذا زالت الشمس سُنّ للإمام أو نائبه أن يخطب خطبة تناسب الحال، ويبين للحاج ما يشرع في هذا اليوم وبعده. وبعدها يصلي الظهر والعصر جمع تقديم وقصرا؛ وذلك ليطول وقت الوقوف والدعاء بعد الصلاة؛ حيث يتفرغ للذكر والدعاء والتضرع إلى الله، ويدعو بما أحب من خيري الدنيا والآخرة، وليس لعرفة دعاء مخصوص، ويستحب أن يرفع يديه حال الدعاء، ويستقبل القبلة. والأفضل أن يجعل الجبل بينه وبين القبلة، إن تيسر ذلك. ووقت الوقوف يمتد إلى طلوع الفجر من يوم العيد. وعليه أن يتثبت من كونه داخل عرفة، ولا يخرج من عرفة إلا بعد غروب الشمس.

وبتأمل أعمال هذا اليوم العظيم نقتطف بعض الملامح التربوية؛ وذلك من منظور دوره ركيزةً من ركائز المشروع الحضاري:

أ - «الحج عرفة»[1] بهاتين الكلمتين وضح ﷺ أهمية هذا الركن من أعمال الحج، ولقد أجمع العلماء على أن الوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم؛ فهو اليوم الذي يجتمع فيه كل الحجيج في مكان واحد، وفي يوم واحد، وإن امتد وقت الوقوف. وكأن المقصود هو اجتماع ممثلي الأمة من كل جنس ولون، ومن كل أرض وصقع، وكأنه مؤتمر سنوي يناقش هموم الأمة، ويعطي الدليل على كيفية اجتماعها.

وعندما نتدبر مغزى حديثه ﷺ أن الحج الصحيح هو من أدرك الوقوف يوم عرفة فإننا نستشعر أن جمع الأمة على هذه الصيغة من الأهمية العظيمة بمكان، ويبرهن أيضاً على أن حضور هذا المؤتمر السنوي الكبير يجب ألاَّ يتخلف عنه أحد ممن حضر من ممثلي الأمة.

وكم هو منهج عظيم عندما يدعو في كل مناسبة إلى الوحدة، ويشيد بالجماعية وبركتها، وينبذ أفكار التشتت والتشرذم!

ب - في توجه الحجيج إلى عرفات تحت راية التكبير والتوحيد والتهليل يفهم منه أهمية الفكرة الربانية ودورها أن ركيزة التجميع لهذه الأمة هي كلمة التوحيد؛ فهي الفكرة الربانية التي رشحها الحق - سبحانه - لأن تجتمع عليها الأمة - كل الأمة - وهي الراية التي من الممكن أن يتجمع حولها كل الناس؛ فتنطلق بهم إلى سيادة الدنيا، وسعادة الآخرة.

ونحن في هذا المقام نضيف دليلاً آخر يؤكد ما قلناه؛ وهو ما أورده (ابن خلدون) في مقدمته (أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة؛ والسبب في ذلك أنهم - لخُلُق التوحش الذي فيهم - أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض. فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق - تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى والسلامة)[2].

---

(١) رواه أحمد، ح/ ٥٨٢٢٠.

(٢) المقدمة: ابن خلدون بتصرف.

ج - وفي قصر الصلاة وجمعها نستشعر منه وكأن المقصود أن يطول وقت الوقوف والتضرع إلى الله - عز وجل - وذلك من شأنه أن يحقق الهدف الثاني من أهداف ركن الحج وهو قطف ثمرته الروحية من ذكر ودعاء واستغفار؛ فهو فرصة سانحة لا تتكرر إلا كل عام، ولمن سعدوا بحضورها؛ حيث تبدو سويعات الوقوف وكأنها دورة تربوية روحية مركّزة قدّرها - سبحانه وتعالى - لمعالجة بعض جوانب تلك الحالة الاعتلالية التي تحدثنا عنها في (ظاهرة التآكل الروحي)؛ حيث تتسرب إلى بعض النفوس.

وتدبر كيف أن المربي العظيم ﷺ قد عمم الترغيب في آثار الحج الروحية عموماً، ثم خصص أهمية يوم عرفة، من ذلك: «من حج هذا البيت؛ فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1]، «العمرة إلى العمرة كفارة لم بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[2]، «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو - عز وجل - ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟»[3].

د - في هذا اليوم، وفي أثناء فرحة الحجيج بموقفهم، وبمؤتمرهم الجليل، وبينما هذا الجمع الطيب مشغول في دورته الروحية كان من الفقه العميق أن يُعرِّج الحبيب ﷺ إلى التحذير من العدو المبين ذلك الذي يتأذّى حسداً وحقداً من مجرد سجود المؤمن وطاعته لربه، فما بالك بهذا الموقف العظيم؟!

عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ما رُئيَ الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أدحر - أي أذل وأهون - ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تَنَزُّل الرحمة، وتجاوُزِ الله عن الذنوب العظام، إلا ما أري من يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: أما إنه رأى جبريل يَزَع - أي يقود - الملائكة»[4].

وهو العدو الذي لا ينام، ولا يغفل عن الدس والوسوسة. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد! أينام الشيطان؟! فتبسم وقال: لو نام لاسترحنا[5].

وهذه اللمحة النبوية العظيمة تذكرنا بباب عظيم من الفقه ألا وهو علم الشر، وسبل الوقاية منه، وهو الباب الذي لا يغني عنه ولا ينفي أهميته أن نفقه علم الخير، وسبل الوصول إليه.

مع السائرين!

تنمية الجوانب الأخلاقية: بعد غروب شمس يوم عرفة تبدأ الإفاضة، فينطلق الحاج إلى مزدلفة بهدوء وسكينة، مهللاً ومكبراً وملبياً، ثم يُصلي المغرب والعشاء قصراً وجمعاً بأذان واحد وإقامتين. ثم يوتر ويبيت بمزدلفة. فإذا تبين الفجر صلى مبكراً، ثم قصد المشعر الحرام فوحَّد الله وكبَّر واستقبل القبلة، ثم دعا بما أحب حتى يُسفر جداً، أو يدعو في مكانه إن لم يتيسر له. ثم يلتقط حصيات من مزدلفة ليرمي جمرة العقبة، ثم بعد ذلك يتجه إلى منى. وإذا وصل إلى وادي محسر - وهو بين مزدلفة ومنى - استحب له الإسراع.

وعندما نتأمل هذه المسيرة من خلال بُعدها التربوي وما ترمز إليه نستشعر بعض الوقفات واللمحات التربوية التي تدور حول بعض الأخلاقيات المنشودة للسائرين على درب المشروع الحضاري:

---

(1) رواه البخاري، ٢/ ١٦٤، ومسلم، ٤/ ١٠٧.

(2) رواه مسلم، ٤/ ١٠٧.

(3) رواه مسلم، ح/ ٢٤٠٢.

(4) رواه مالك، ح/ ٨٤٠.

(5) إحياء علوم الدين: الغزالي، ٣/ ١٤٧.

أ - كان الحبيب ﷺ يوصي بالسكينة والهدوء فيقول: «أيها الناس! عليكم بالسكينة؛ فإن البر ليس بالإيضاع - أي بالإسراع -»[1] وكان ﷺ يسير العنق - أي سيرا رفيقا - فإذا وجد فجوة - أي مكانا متسعا غير مزدحم - نصّ - أي أسرع - »[2].

والأمر بالسكينة وصية يُستشعر منها معانٍ عظيمة منها: الهدوء، والنظام، والطاعة، ومراعاة حقوق الآخر، ومراعاة جلال الموقف؛ وذلك من خلال سمات المنهج الذي يربي أتباعه على النظام والطاعة، وعدم التخلق بأخلاقيات الغوغائيين التي تبرز دوما مع أي تجمعات كبيرة.

ب - كان من هديه ﷺ أثناء الإفاضة أن يستمر الذكر والتهليل والتكبير والتلبية والاستغفار حتى تُرمى جمرة العقبة.

وكذلك كانت توجيهات الحق - سبحانه -: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. [البقرة: ١٩٨ - ٢٠٠].

وهذا الهدي وتلك التوجيهات توحي بأهمية المتابعة والاستمرار على الحالة الروحية الرفيعة المكتسبة من الدورة الروحية العظيمة أثناء الوقوف بعرفات، وكذلك نستشعر معها أهمية المحافظة على المكتسبات الربانية، والثمرة الروحية للحج؛ فلا تذهب مع مشقة المسير. كما نستشعر مدى عمق التحذير الإلهي من خطر العودة إلى الضلال السابق؛ فالموفق من تذكَّر ماضيه وقارنه بالحالة الربانية التي هو فيها، فشكر الله - عز وجل - ظاهراً بالمتابعة والاستمرارية، وباطناً بالخوف من خطر النكوص والارتكاس، والانتكاس. ونسأل الله - سبحانه - العفو والعافية، لا نحصي ثناءً عليه - سبحانه -، هو كما أثنى على نفسه.

ج - في وصفه - سبحانه - لحالة الذِّكر المنشودة: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] نستشعر مدى أهمية تنقية النية وتصفيتها؛ فإذا كانت الغاية هي الله - سبحانه - فيجب ألاَّ تختلط بغايات أو رايات أخرى.

كذلك يتبين لنا أهمية وجود العقلية المسلمة المرتبة التي تفقه أولوياتها؛ فمن كان همه رضا خالقه - سبحانه - فينبغي ألاَّ تعيقه أي اهتمامات أخرى حتى وإن كان الوالد أو الولد؛ ففي تلك المواقف يصبح الاهتمام بالموروثات القبلية مثل مجد الآباء والأجداد، والفخر بالأبناء والأموال من قبيل النزول من القمة إلى السفح، ومن الاهتمام والتمحور حول الأفكار والمبادئ إلى التفاخر بالوسائل المادية كالأرض والطين. والحق - سبحانه - يحب معالي الأمور.

د - ثم يبين الحق - سبحانه - خلقاً آخر يوصي به السائرين: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]. هذا وإن كانت هذه وصيته - سبحانه - بأن تلتزم قريش بالوقوف مع الناس، وعدم التمايز المكاني؛ فقد كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة - وكانوا يُسَمَّوْن: الحُمْس - وسائر العرب يقفون

(١) رواه البخاري، ح/ ١٥٥٩.

(٢) رواه البخاري، ح/ ١٥٥٥.

بعرفات؛ فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها؛ ثم يفيض منها؛ فذلك قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾»(١).

ولكننا نستشعر هنا المعنى التربوي البعيد للنص؛ حيث يدعو السائرين في كل درب وفي كل مجال إلى التخلق بخلق المساواة والعدل والتسوية بين الأفراد وعدم التمايز الذي من شأنه أن يمنع تولد الحقد والبغضاء والحسد داخل أي تجمع؛ فما بالك بالسائرين على درب المشروع الحضاري؟!

ولقد كان الحبيب ﷺ يتتبع هذا الخلق في كل مجال.

وتدبَّر هذا السلوك النبوي التربوي الرفيع: فعن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - «أن أباه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي. فقال رسول الله ﷺ: أكلَّ ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا. فقال رسول الله ﷺ: فارجعه». وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا، قال: اتقوا الله واعدلوا في أولادكم. فرجع أبي فردَّ الصدقة». وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «يا بشير! ألك ولد سوى هذا؟ قال: نعم. قال: أكلهم وهبت له مثل هذا؟ قال: لا، قال: فلا تُشهدني إذاً؛ فإني لا أشهد على جَوْر. ثم قال: أيسرُّك أن يكونوا لك في البر سواء؟ قال: بلى! قال: فلا إذاً»(٢).

وكذلك كان شعور كل فرد من الصحابة - رضوان الله عليهم -، وكأنه هو المقرب والمفضل عنده ﷺ.

ويستشعر الداعية أيضاً كيف أن بعضاً من داخل أي مؤسسة - خاصة المؤسسات الدعوية - قد يصيبه حالة اعتلائية يرى فيها نفسه فوق الآخرين، فينظر إلى موقعه التنظيمي ويقيِّم الآخرين على أساس تقدمه عليهم، ولا يفيض في الحركة الدعوية من حيث أفاض الناس، وهي (ظاهرة الغرور التنظيمي)، ولو تدبر قليلاً لوجد الرد الإلهي واضحاً في سورة عبس؛ وهي السورة التي وضعت أساسات وموازين تقييم الناس.

هـ - وفي قوله - سبحانه -: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢]. (إن هناك فريقين: فريقاً همه الدنيا، فهو حريص عليها مشغول بها، ويذكرها حتى حين يتوجه إلى الله بالدعاء؛ لأنها هي التي تشغله، وتملأ فراغ نفسه، وتحيط عالمه وتغلقه عليه. هؤلاء قد يعطيهم الله نصيبهم في الدنيا - إذا قدر العطاء - ولا نصيب لهم في الآخرة على الإطلاق. وفريقاً أفسح أفقاً وأكبر نفساً؛ لأنه موصول بالله يريد الحسنة في الدنيا ولكنه لا ينسى نصيبه في الآخرة؛ فهم يطلبون من الله الحسنة في الدارين، ولا يحددون نوع الحسنة، بل يَدَعون اختيارها لله، والله يختار لهم ما يراه حسنة وهم باختياره لهم راضون. وهؤلاء لهم نصيب مضمون لا يبطئ عليهم؛ فالله سريع الحساب)(٣).

ونحن ندور مع البعد التربوي البعيد للنص، وهو التركيز على علاج (ظاهرة القصور الفكري) التي تصيب بعضاً من اللحظيين ذوي النظرة المحدودة التقدير القاصرة القريبة من حواسهم ضيقي الأفق؛ فلا يدركون الأبعاد البعيدة للقضايا والأمور.

---

(١) رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها -، ح/ ٤١٥٨.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٣٥٠٩.

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٢/ ٢٠١ بتصرف.

وعلاجها يتم بضرورة تشجيع ذوي النظرة المستقبلية للأمور البعيدة التقدير، والاستشرافية للقضايا.

وكم من مكاسب عظيمة أضاعها المحدوديون! ولم يكن لهم نصيب في فقه سراقة بن مالك - رضي الله عنه - عندما تناقش مع الرسول ﷺ أثناء مطاردته له في الهجرة، ونظر إلى المكاسب العظيمة البعيدة التي تفوق جائزة قريش، فكسب نعمة الإسلام، والنجاة في الآخرة، وفوق هذا حصل على الوعد بسواري كسرى بعد سنوات أثناء حكم الفاروق - رضوان الله عليه -.

عوائق..وتضحيات:

أهمية معرفة عوائق الطريق: ثم نأتي إلى اليوم العظيم، يوم النحر: يوم العيد؛ حيث ينطلق الحاج قبل طلوع الشمس إلى منى ملبيا وعليه السكينة، ثم يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات متعاقبات، ويكبر مع كل حصاة، ويقطع التلبية عندها، ثم يذبح الهدي، ثم يحلق أو يقصر. وبذلك يتحلل التحلل الأول، فيلبس الثوب ويتطيب، ويحل له جميع محظورات الإحرام إلا النساء، ثم يذهب إلى مكة لطواف الإفاضة بدون رَمَل. ثم يصلي ركعتي الطواف، ويسعى المتمتع والقارن أو المفرد الذي لم يسع. وبذلك يتحلل التحلل الكامل. ويشرب من زمزم، ويصلي الظهر - إن أمكن -، ويكبر، ثم يذهب للمبيت في منى باقي الليالي.

وحول الأبعاد التربوية لأعمال يوم النحر نقتطف بعض هذه الملامح التي ترمز إلى معرفة السائر لعوائق الطريق، وتصميمه على الانتصار عليها:

أ - عندما يبدأ الحاج بالرمي فإنما هو من باب دخول البيوت من أبوابها؛ حيث إن الرمي هو تحية منى.

وكذلك هو من باب البداية بالأصل الكبير في كل قضية؛ فبعد سفر طويل وتعبئة كبرى، وشحن داخلي يتجه الحاج إلى العدو الأول، ذلك الذي حذره منه الحبيب ﷺ فعرَّفه عليه ليتجنبه؛ كيف لا وهو عينه ذلك العدو الذي لم يَرُقْهُ جلال سويعات الوقوف بعرفات، وكان في أغيظ مواقفه؟!

وعندما يرمي الحاج سبعاً من الحصيات فإنه يبدو كأنه تصميم على جدية المواجهة ضد شبهات الشيطان وشهواته.

وفي دعاء الحاج ربه عقيب الرمي يتبين أهمية سلاح الدعاء في كل موقف، وكذلك يتبين معنى فقر العبد دوماً إليه - سبحانه -؛ فبعونه - عز وجل - تأتي القوة والمنعة والنصر في معركته ضد عدو الله وعدوه.

وبتدبر البعد التربوي الشامل للرمي نستشعر أن أصل كل معركة أن تعرف من هو العدو الحقيقي، فتواجهه.

فمن العوائق الرئيسة عدم معرفة العدو، وعدم معرفة أسلحته، ونقط ضعفه، ومعرفة كيفية التغلب عليه.

ب - وفي النحر دلالات عظيمة للسائر: فهو يرمز إلى أن السائر الذي يعرف طريقه، ويعرف هدفه، ويعرف أيضاً عدوه، وأن عليه ألاَّ تعيقه أي تضحيات في سبيل تحقيق ما خطط له.

يتأمل الداعية ذلك وهو يتذكر رواده على الطريق، يتذكر الخليل - عليه السلام - وكيف أنه ضحى بولده الوحيد الحبيب - عليه السلام - وذلك في سبيل رضاه - سبحانه - وامتثال أمره.

والله - عز وجل - لا يريد العنت بعباده، وإنما يريد لهم تجربة واقعية تثبت وتبرهن أن العبد قد رتب أولوياته جيداً، وعندما يثبت ذلك للعبد نفسه وليس للحق - سبحانه - الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي

الصدور، عند ذلك فقط يكون النجاح في الاختبار. كيف لا والحق - سبحانه - قد أخبر أن إبراهيم وولده - عليهما السلام - قد نجحا بالرغم من عدم ذبح إسماعيل - عليه السلام -؟ فالقضية لم تك هي الذبح، بل هو مجرد اختبار واقعي لجدية الاستعداد للتضحية: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

[الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

والموفق هو من يعرف عوائق طريقه، فيتغلب عليها مضحياً في سبيل هدفه الأسمى، وهذا هو الفيصل والفارق: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

[البقرة: ١٦٥].

فرحم الله من أرى أعداء الله منه قوة، ورحم الله من أظهر لربه منه جدية وبذلاً وحباً وتضحية، وترتيباً صحيحاً لأولوياته.

ج - وفي ذهاب الحاج إلى مكة لطواف الإفاضة أبعاد تربوية عظيمة منها أنه تأكيد على أن السائر لم يزل على عهده، ولم تزل القضية المحورية التي يدور حولها وبها ومعها هي شغله الشاغل.

ومنها أيضاً أنه فوق كونه تجديداً للعهد، فهو تجديد للزاد الذي من شأنه أن يقويه على أي عقبة في الطريق.

ومنها أهمية تذكير الأمة بضرورة توحيد الغاية والهدف والهموم لتكون أشبه بمحور تطوف كل فئات الأمة حوله حتى تتجمع القوى حول الأهداف العظام، ولا تتفرق.

فمن عوائق الطريق التشرذم تحت رايات متعددة، والتمحور حول أفكار غير موحدة؛ لأن من أهم ركائز المشروع الحضاري الإسلامي هو الحركة الجماعية المنظمة والمتوافقة.

د - وعندما ينهي الحاج أعمال يوم النحر بالحلق أو التقصير، وهو من باب استعداد الحاج لأعمال منى، التي ستكون أشبه باللجان المصغرة التي تعقد ورش عمل لمتابعة أعمال المؤتمر السنوي الذي عقد في عرفة.

وعندما يقرر ﷺ صحة كلٍ من الحلق والتقصير، ثم يرتب الحلق ويفضله على التقصير فإنما هو من باب يسر المنهج ومرونته، وكذلك له مغزى تربوي آخر وهو من ركائز المشروع الحضاري ألا وهو قبول الآخر، أو بمعنى أشمل هو من باب التعددية الفكرية والمذهبية؛ وذلك كما بينا ذلك عند الحديث عن أهمية إعادة صياغة العقلية المسلمة على أصول منها: قضية تعدد الصواب.

فمن عوائق الطريق وجود بعض من ذوي الاعتلالات التربوية والحركية بل والفكرية، فلا يرى إلا رأيه، ولا يستمع للآخر، بل يبلغ به الأمر إلى أن يسفه رأي الآخر، ويتمادى به الاعتلال حتى يسفه الآخر نفسه.

وقديماً من وراء السنين أنصفنا المربون عندما حملوا لنا نصيحة الشافعي - رحمه الله - عندما وضع قاعدة ذهبية من قواعد حرية الفكر: «رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب».

بل إن الحق - سبحانه - ذم رائد هؤلاء (الدكتاتوريين) عندما وضع قاعدة بغيضة من قواعد كبت الفكر: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

مع لجان منى!

أهمية بث روح المؤسسية: بعد ذلك تبدأ أيام منى أو أيام التشريق. وأعمالها تتلخص في رمي الجمرات الثلاث، والمبيت بمنى، وهي أيام قال عنها المعلم العظيم ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله»[1].

وحول أيام منى والأعمال الخاصة بها نقتطف بعض الملامح التربوية؛ وذلك من باب هذه الدراسة وقيمتها وما ترمز إليه:

أ - حول لزوم المبيت للحاج بمنى، وأن يبقى أكثر الليل في أوله أو آخره. وكان من فقه المتابعة أن يشارك الحاج في حضور اجتماعات منى المصغرة والتي هي أشبه بفرق العمل أو اللجان المنبثقة عن مؤتمر عرفات السنوي الكبير، وذلك لدارسة التوصيات.

وهذا يبين لنا أهمية المتابعة لكل أمر.

ب - ومن أعمال منى رمي الجمرات الثلاث، كل واحدة بسبع من الحصيات، ووقت الرمي مسألة خلافية، ولكن المختار أن يبتدئ من الزوال إلى الغروب.

والبعد التربوي للرمي هو أنه يبدو كأنه تأكيد على أن المجتمعين عليهم ألا يغفلوا عن العدو المتربص بهم، ومحاربته وصد ما يلقيه من شبهات وشهوات سواء للنفس أو الزوج أو الولد، وألا يغفلوا أيضاً عن العدو الخارجي.

ورمي كل جمرة بسبع من الحصيات هو أيضاً من باب التصميم والجدية في المعركة.

وفي اختلاف وقت الرمي؛ حيث يبدو الحجيج بين ذاكر لله ورام ودارس وطائف وآكل وشارب، وفي الوقت نفسه يبدو حالهم كأنه من باب تكامل الجهود وتنوع الأعمال وتوافق الوظائف، وكأنهم في حركة جماعية مؤسسية تقوم على لجان متوافقة متناسقة ومتكاملة ومتعاضدة. وهو من باب أهمية المؤسسية في الحركة الجماعية الهادفة إلى تحقيق المشاريع الحضارية. وهو أيضاً من باب الاعتراف والتقرير بل والتقدير لكل عمل سواء قل أو عظم، ما دام يتوافق مع الحركة المؤسسية.

ج - كان القائد ﷺ في هذه الحركة الجماعية أيام منى مثالاً للقيادة الواعية؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير، فقال: «لا حرج»[2].

وأهم سمة قيادية في مثل هذه المواقف ينبغي أن تتمثل في المرونة واليسر.

وهاتان السمتان - سواء المرونة القيادية، أو التخلق بخلق التيسير - إنما تنبثقان وتنبعان من القاعدة الربانية الكبرى للمنهج الإسلامي: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذه السمة القيادية تبدو بارزة عند القادة الربانيين في كل المواقف.

ولعلنا نذكر ذلك القائد الرباني طالوت الذي كان يتمتع بهذه المرونة القيادية، فكان رحيماً في تجربته الجهاديةالتغييرية؛ عندما قال لأتباعه: ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والموفق من يكون متوازناً بين الحزم والمرونة، وبين الشدة والتيسير بشرط أن لا يخل ذلك بروح الانضباط؛ فيحافظ على شعرة معاوية.

---

(١) رواه مسلم، ح/ ١٩٢٦.   (٢) رواه البخاري، ح/ ١٦١٩.

د - ومن السنة الصلاة في مسجد الخيف أيام التشريق؛ حيث ورد أنه صلى في هذا المسجد سبعون نبيا. وهو من باب استشعار عمق جذور الحركة الدعوية، وأصالتها في عمق التاريخ؛ فالمشروع الحضاري ليس بدعاً؛ بل هو بعث لروح الأمة وتجديد لدينها، أو بالمعنى الأبسط: هو مجرد إزالة للركام المركب الذي طمس معالم المنهج سواء من جانب ضياع المفاهيم، أو من جانب سوء طريقة عرضه ومعاصرة طرحه.

أو بمعنى آخر: هو جولة حضارية تغييرية جديدة تقوم على مرتكز عظيم وهو رصيد التجربة.

هـ - ورد عن الحبيب ﷺ أن أيام منى أكل وشرب وذكر لله.

وهذا يشعرنا بأهمية تنمية الجانب الروحي، ومتابعة ذلك عند السائرين على درب المشروع الحضاري، حتى في سويعات الراحة المباحة من الأكل والشرب.

وداع .. وأمل:

أهمية الحركة وبث روح الأمل: ثم نأتي إلى نهاية رحلة الحج المباركة التي تنتهي بذهاب الحاج إلى مكة لطواف الوداع، وذلك قبل غروب شمس يوم الثاني عشر للمتعجل، أو يوم الثالث عشر للمتأخر، ثم بعد ذلك يعود إلى بلده مباشرة.

وحول بعض الملامح التربوية للنهاية الجليلة لتلك الرحلة العظيمة نقتطف بعض هذه القطوف التربوية.

لما كان الهدف هو حضور المؤتمر السنوي العام بعرفات، ومعرفة العدو الواحد، ثم حضور لجان منى وفرق العمل المنبثقة عن المؤتمر العام، واستشعار روح المؤسسية، وفوق ذلك كله التزود بزاد التقوى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وبلوغ درجات رفيعة من التربية الروحية ـ كان الأصل أن يعود المؤتمرون إلى بلادهم للقاء من يمثلونهم من الأمة ومتابعتهم.

يعودون إلى حيث ينشرون فكرتهم في أرجاء المعمورة، وكأن الانتشار بالفكرة هو الهدف المطلوب، أو أن الحركة بالفكرة هي قضية الساعة الآن.

وكذلك يدل على عالمية الرسالة؛ فهي مشروع لا يعرف حدوداً من جنس أو أرض.

ولكن قبل العودة كان لا بد من مِسك الختام في الطوافِ الأخير طوافِ الوداع.

وتدبر مغزى كلمة وداع وأثرها على النفس.

وتدبر كيف كان الختام وكأنه تأكيد عملي أخير يركز على ضرورة فقه الهدف الواحد والهم الواحد الذي تطوف حوله جموع السائرين، والذي ستحمله القلوب إلى بلادها، تلك القلوب التي هوت شوقاً إلى هذا المكان، فأتت من كل فج عميق.

ولكن هذه القلوب لم يمنعها هذا الرباط الروحي ولن يمنعها من أن تعود فتنشر فكرتها، وتدعو إلى مشروعها الذي تحقق على أرض فأصبح له مرتكز ومركز إشعاع ثابت وقاعدة صلبة توضع عليها راية التجميع ليؤوبوا إليها كل حين، ثم يعودون للانتشار من جديد.

فحركة التاريخ وناموسية التغيير الحضاري من سماتها التبديل والحركة التي لا تعرف السكون: بين مد وجزر، أو بين امتداد وانحسار.

وكذلك الأفكار؛ فالحركة تمنع نمو جراثيم التأسُّن الفكري في العقليات.

وأيضاً بالنسبة للأمم والجماعات والمؤسسات؛ فإن الحركة أيضا تهاجم حشرات التعفن الحضاري عند الأمم.

وإن الحركة في كل تلك المجالات مثلها مثل حركة الكون التي تجري مكوناتها في ديمومة حركية، لا تهدأ حتى المستقر النهائي الذي يقرر منتهاه ومستقره العزيز العليم: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

والحركة الحضارية من شأنها التداول: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وعندما يفقه الدعاة وكل من يشارك في مسيرة الدعوة إلى المشروع الحضاري تلك الإشكالية، ويدركون مغزى السمة التداولية للحركة الحضارية، ويعون الناموسية التغييرية للتاريخ فإن ذلك من شأنه أن يمدهم بزاد آخر، زاد ضروري، ألا وهو زاد الأمل.

ذلك الزاد الذي يعطي الدفعة العظيمة للسائرين، ويُضاعف روح البذل.

وخير ما ورد عن ذلك الزاد تلك البشارات التي كان يطلقها الحبيب ﷺ أثناء أصعب المواقف؛ عندما حوصرت الدعوة وجففت منابعها، وحوصر الداعية، وذلك أثناء غزوة الأحزاب، وكان هناك من يسجل لنا هذا الموقف الاستشرافي العظيم للقيادة الربانية الواعية؛ كان هناك البراء - رضي الله عنه - فقال: «لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول، فقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر أُعطيتُ مفاتيحَ الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة. ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر أُعطِيتُ فارس، واللهِ إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن. ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر. فقال: الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني»[1].

ومرت الأحداث، وتعاقبت الأيام، وتداولت الحركة الحضارية، واستّعْلت الدعوة على الحصار الشيطاني، ومكّن الله لها في الأرض، وتحقق ما بشر به القائد العظيم ﷺ.

وبعد: فهذه لمحات متواضعة حول الأبعاد التربوية لتلك الرحلة المباركة وما تمثله من ركائز للمشروع الحضاري الإسلامي؛ وهي محاولة نرجو من الله بها القبول؛ فمنه وحده - سبحانه - التوفيق؛ وإن كان بها من الزلات فهي مني ومن الشيطان.

---

(١) رواه أحمد، ح/ ١٧٩٤٦، والنسائي، ح/ ٣١٢٥..



بيان من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

بشأن كتاب بعنوان:

الحكم بغير ما أنزل الله وأصول التكفير

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

في المملكة العربية السعودية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. وبعد:

فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على كتاب بعنوان: (الحكم بغير ما أنزل الله وأصول التكفير) لكاتبه خالد العنبري، وبعد دراسة الكتاب اتضح أنه يحتوي على إخلال بالأمانة العلمية فيما نقله عن علماء أهل السنة والجماعة، وتحريف للأدلة عن دلالاتها التي تقتضيها اللغة العربية ومقاصد الشريعة، ومن ذلك ما يلي:

١ - تحريفه لمعاني الأدلة الشرعية، والتصرف في بعض النصوص المنقولة عن أهل العلم حذفاً أو تغييراً على وجه يفهم منها غير المراد أصلاً.

٢ - تفسير بعض مقالات أهل العلم بما لا يوافق مقاصدهم.

٣ - الكذب على أهل العلم وذلك في نسبته للعلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - ما لم يقله.

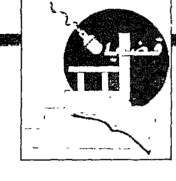
٤ - دعواه إجماع أهل السنة على عدم كفر من حكم بغير ما أنزل الله في التشريع العام إلا بالاستحلال القلبي كسائر المعاصي التي دون الكفر؛ وهذا محض افتراء على أهل السنة منشؤه الجهل أو سوء القصد. نسأل الله السلامة والعافية.

وبناءً على ما تقدم فإن اللجنة ترى تحريم طبع الكتاب المذكور ونشره وبيعه، وتذكِّر الكاتب بالتوبة إلى الله - تعالى -، ومراجعة أهل العلم الموثوقين ليتعلم منهم ويبينوا له زلاته، ونسأل الله للجميع الهداية والتوفيق والثبات على الإسلام والسنة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	**الرئيس**
عبد الله بن عبد الرحمن الغديان	عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ
عضو	**عضو**
بكر بن عبد الله أبو زيد	صالح بن فوزان الفوزان



العمل الإسلامي

[illegible]

د. سامي بن محمد صالح الدلال

وددت في هذه الدراسة أن أعبر عما في نفسي من الاستشعار بالخطر لما يحيط ويحيق بالتوجهات الإسلامية عموماً، وسأتحدث هنا عن خطرين:

الخطر الأول:

التراجع المستمر والمضطرد في الفكر والممارسة من قِبَل التيار الإسلامي لصالح التيار القومي، وقد برز هذا تحت ما يسمى بمد الجسور بين التيارين. فعلى مستوى المجال الفكري ألَّف بعض الإسلاميين كتباً تدعو إلى هذا الاتجاه وتغذيه، إضافة إلى ما يكتب من مقالات وما يصدر من بيانات. كل ذلك لا يصدر عن إسلاميين غير منتمين فقط، بل يصدر عن إسلاميين منتمين يمثلون فيما يكتبون جماعاتهم. وأما على مستوى الممارسة فحدث ولا حرج. وما المواثيق الوطنية والمنابر المشتركة والتحالفات المكتوبة بين التيارين إلا بعض الأدلة على ذلك. وفي تقديري أن هناك عدة أسباب لذلك أبرزها سببان:

الأول: فقدان التأصيل المنهجي الشرعي الذي تُحاكَم إليه الأفكار والممارسات. لذا نرى أن كثيراً من المسوِّغات التي يقدمها الإسلاميون لا تتعدى عموميات تدل على ضحالة في الرجوع المؤصل للأدلة الشرعية. وبعضهم يقول: إنها مصالح تقتضيها المواقف السياسية ولا داعي للبحث لها عن أدلة، فإذا ما أحرجته بقولك: إن معنى ذلك تجسيد عملي لفصل الدين عن الحياة بجوانبها السياسية والاقتصادية وغيرها، قال: إنها مصالح مرسلة!! هكذا بكل بساطة. ولا أعلم إن كان هذا القائل يعلم أن المصالح المرسلة هي ما اندرج تحت دليل كلي ولم يأت له دليل خاص بمسماه أو بحالته. أي لا يعلم أن المصالح المرسلة خاضعة للأدلة الكلية وليست متحررة من أي دليل!! وللأسف أن المصالح المرسلة قد أصبحت شماعة تُعلَّق عليها كافة الأفكار والممارسات العارية عن الدليل الشرعي.

الثاني: عدم إدراك الواقع وتغيرات العصر؛ إذ إن العالم يموج بصراع الأفكار وصراع المصالح. وفيما يخص العالم الإسلامي فهناك توجه دولي لإبقاء هذه المنطقة الإسلامية غارقة في جميع أنواع التخبطات التي تعيق أي انبعاث إسلامي صحيح فيها. ولأجل ذلك قام التيار القومي في المنطقة العربية بمراجعات واسعة

لتقويم المرحلة السابقة. وقد عُقِدت لاجل ذلك ندوات كثيرة ومؤتمرات متعددة. وقد حاضر فيها اساطين الفكر القومي، وقدّمت دراسات مستفيضة اتسمت بالمصارحة، واستمرت تُعقد - ولا تزال - عدة سنوات.

إن أهم ما أفرزته تلك الندوات والمؤتمرات والدراسات ما يلي:

١ - إن الطرح القومي السابق لمس العاطفة العربية، لكنه لم يلمس العقل العربي؛ فهو طرح شعارات وليس مناهج.

٢ - إن الهزائم الكبرى للعرب في هذا القرن جميعها تمت في ظل الانبعاث القومي، بل تم بعضها في ظل الحكم القومي، وكل ذلك أفقد الجماهير العربية حماسة الالتفاف حول هذا الطرح، ثم أفقدهم بعد ذلك الثقة به، وخاصة بعد الهجوم الهمجي البعثي على الكويت واجتياحها وتشريد أهلها.

٣ - إن أكثر البلاد العربية تضرراً على مستوى الحريات السياسية والرفاه الاقتصادي والأمن الداخلي كانت البلاد التي حكمها التيار القومي.

٤ - إن الجماهير العربية قد اكتشفت أن التيار القومي كان غارقاً حتى أذنيه في التنسيق مع الرأسماليين (أمريكا وأوروبا) خلافاً للشعارات والخطب التي كانوا يدجّلون بها على شعوبهم. وبعضهم الآخر كان ضالعاً في التنسيق مع الشيوعيين (الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية سابقاً والصين) مع اطلاعه الكامل على الدور الذي تقوم به تلك الدول لصالح اليهود ودعم (إسرائيل) وكان هذا التيار يغطي على هذا الدور خدمة لمصالحه المتمثلة بالتمكين لأعداء الإسلام. إن هذا الاكتشاف أوضح الازدواجية الخطيرة التي يظهر بها التيار القومي أمام الشعوب. وقد أدى ذلك إلى سحب البساط من تحت أقدامه لصالح جهات متعددة.

٥ - إن التيار القومي قد تعامل مع الجماهير العربية ليس فقط بطريقة تتجاهل التاريخ المجيد للإسلام والحضارة العامرة التي شيَّدها المسلمون في أرجاء الأرض، بل بطريقة تشوِّه ذلك التاريخ وتسدد له الطعنات، وتقفز فوق تلك الحضارة كأنها لم تكن!! إن إهمال التيار القومي للجذور التاريخية لهذه الجماهير العربية - والمتأصلة في عمق الزمن منذ خمسة عشر قرناً - كان غلطة تاريخية!!

٦ - إن التيار القومي لم يقابل التيار الإسلامي مقابلة فكر لفكر، بل مقابلة صاحب سلطة لمعارض!! وإن الجماهير العربية التي طالما صخَّت آذانَها أصواتُ أحمد سعيد[1] وأمثاله قد أصبحت متعطشة لسماع صوت القسم الآخر الذي زُجَّ به في السجون وأُزهقت أرواح أتباعه في الليالي المظلمة.

٧ - إن التعامل القاسي الذي أظهره التيار القومي للتيار الإسلامي قد كوَّن عطفاً جماهيرياً على ذلك التيار المضطهَد بغير وجه حق. وقد تأكد هذا العطف بالتفاف الجماهير حول الرموز الإسلامية، أفراداً وجماعات، بعد التراجع القومي.

٨ - إن مواقف التيار القومي الرافض لكل طروحات التيار الإسلامي جملة وتفصيلاً قد أفرز التيار الإسلامي إفرازاً مستقلاً، في حين كان القصد تحطيمه وإلصاق جميع الرذائل التاريخية على صدره وظهره،

(١) مدير إذاعة صوت العرب في عهد جمال عبد الناصر.

فإذا بالجماهير العربية تكتشف بعد أن بدأ الغبار بالزوال أن هذا التيار يستعصي على التحطيم؛ لأنه يولد مع كل مولود، وأنه يريد إبراز جميع الفضائل التاريخية من انتصارات وأمجاد ليخاطب الجماهير من خلالها لتنتفض بعد سُبات وتستيقظ بعد رقاد. وهكذا اكتشف التيار القومي أن موقف المفاصلة الذي اتبعه مع التيار الإسلامي كان غلطة تاريخية أخرى!!

إن هذه النقاط الثماني هي أبرز ما نتج من حوارات ومناقشات وندوات ومؤتمرات للتيارات القومية في المنطقة العربية؛ ولذلك رأوا أن لا بد من إعادة تأكيد إبراز الوجه القومي وفق نموذجين:

- نموذج على مستوى دولة.
- نموذج على مستوى أحزاب ورواد فكر.

ويأخذ هذا التوجه القومي على عاتقه تلافي كافة السلبيات التي وقع فيها سابقاً، وأن يدرس بعمق وتحليل: لماذا أخفق النموذج الأول على مستوى الدولة، والنموذج الثاني على مستوى أحزاب ورواد فكر؟ وأن يكون تحليل تلك المرحلة وتقويمها على ضوء النقاط الثماني التي ذكرتها.

إن مرحلة الثمانينيات كانت مرحلة إبراز النموذجين اللذين سيحاولان تلافي أخطاء مرحلة السبعينيات والستينيات وما قبلها. فعلى مستوى نموذج الدولة أُبرز «العراق»، وعلى مستوى الأحزاب أُبرز حزب البعث، كما أُبرز حزب التجمع في مصر. وهناك محاولات مستميتة لتعويم حزب حركة التحرير الجزائرية قبل أن يدركه الغرق!! وعلى مستوى رواد الفكر أُبرزت رموز كثيرة، كما أبرز عدد من الشخصيات التي تحترف وترتزق من الكتابات الصحفية، والمتمعن في مجريات الأمور يلاحظ أن خطوات عملية (بعضها قد آتى ثماره) قد تم ترتيبها بخصوص النقاط الثماني، وأوجزها مرتبة حسب ترتيب تلك النقاط:

١ - طرحت كتب ودراسات لبلورة الفكر القومي بشكل مناهج فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها. وعضت نواجذهم على «الحداثة». وفي تقديري أن الفكر القومي مع كل الذي فعل لم يستطع أن يخرج من دائرة الشعارات إلى دائرة المناهج. بل حتى دائرة الشعارات قد جرى اختراقها؛ فشعار «الاشتراكية» مثلاً قد انخرق ثوبه بعد إخفاق القطاع العام في مواكبة ضروريات التنمية. وهكذا طرح القطاع العام في العراق ومصر وغيرها من الدول التي كانت مستظلة بالاشتراكية للبيع.

٢ - في إطار الهزائم والانتصارات: فإن انتصار العراق على إيران قد محا من الذاكرة العربية كثيراً من الهزائم السابقة (لكنه أفسده باحتلال الكويت).

٣ - على مستوى الحريات السياسية: ضخ التيار القومي الحاكم مبدأ التعددية الحزبية (العراق، سوريا، الجزائر، اليمن، الأردن، مصر). أما على مستوى الرفاه الاقتصادي فلا يزال التيار القومي الحاكم يواصل عدم نجاحه ويتابع تدهوره، وأما على مستوى الأمن الداخلي: فلا تزال حملات القمع مستمرة؛ ولكن اقتضى تلميع الوجه إطلاق حرية بعض السجناء غير السياسيين، أما السياسيون الذين أُطلق سراحهم فقد تم تدبير أماكن لكثير منهم في المقابر!!

٤ - إن العزف على الوتر الاشتراكي على حساب الوتر الرأسمالي قد أصابه الخلل بعد الانهيار الشيوعي المروِّع، وقد أوقع هذا الانهيار التيار القومي في حيص بيص. إن التيار القومي الحاكم وغير الحاكم يمر الآن في مرحلة هي دون مستوى الرثاء بسبب الهزيمة الكبرى للاشتراكية العلمية وهي القاعدة التي انطلقت منها حقيقة الأفكار القومية.

٥ - أعاد التيار القومي انفتاحاً جديداً على التاريخ الإسلامي؛ ولكنه لم يستطع أن يخرج من تفسيره له تفسيراً قومياً!! ولذلك فهو يقع في تناقضات لا حصر لها هي أقرب ما تكون إلى الأكاذيب والدجل!! وسبب ذلك أنه لا يريد أن يقر بدور غير العرب في بناء صرح ذلك التاريخ المجيد.

٦ - إن عدم تمكن مقابلة التيار القومي للتيار الإسلامي مقابلة الند للند في الجوانب العقدية والفكرية، جعلته يحاول الالتفاف على المواجهة وذلك بطرح فكر قومي في قالب إسلامي؛ فقوم العرب هم مادة الإسلام الأولى، ولغة العرب هي لغة القرآن والسنة، والديمقراطية هي الشورى، والاشتراكية هي التكافل الاجتماعي، والحرية هي عنوان ما جاء به الإسلام لتحرير الإنسان، والوحدة هي التي قاتل العرب لأجلها في القادسية واليرموك وغيرها.. حق وباطل، خير وشر، صدق وكذب.

إنها حملة هائلة من التشويه تخرج بشكل دراسات وتُعقَد لأجلها مؤتمرات وندوات. وليس من الحق أن نقول: إن هذه الحملة الشرسة لم تحقق بعضاً من أهدافها!!

٧ - لقد قام التيار القومي الحاكم وغير الحاكم باحتضان بعض الرموز الإسلامية ودعمها وإعطائها الفرصة للتكلم من خلال أجهزته الإعلامية؛ مما أعطى انطباعاً لدى بعض الإسلاميين أن التيار القومي بدأ طريق العودة إلى الحق والصواب؛ فلا بأس إذاً من دعمه، وليست إلا سنوات ويكون بعدها التيار قد تأسلم!!

٨ - استطاع التيار القومي أن يعيد جسور الاتصال مع بعض ممثلي التيار الإسلامي، وأصبح التياران في بعض الدول يتحدثان من على المنابر نفسها ويرفعان الشعارات نفسها وينا‌ديان بالمطالب ذاتها!! وهكذا استطاع التيار القومي أن يُفقِد التيار الإسلامي تميُّزه على الساحة الحركية إضافة لإفقاده تميزه على الساحة الفكرية.

بعد ذلك أقول: إننا الآن على أبواب المحاولات الشاملة لسحب البساط كلية من تحت أقدام التيار الإسلامي لصالح التيار القومي. ثم أضيف نقطتين:

الأولى: إن هذه الصورة القاتمة لن تستطيع حجب الإشعاعات الإسلامية المتدفقة من أرجاء شتى في المعمورة، والوضع الإسلامي الآن يختلف كلياً عن الوضع الإسلامي في الستينيات. ويمتاز عنه بأمور:

١ - أن التيار الإسلامي أصبح يمتلك رصيداً من التجربة المعاصرة في مقارعة المفسدين ومعرفة جيدة بأساليبهم.

٢ - أن التيار الإسلامي قد تحرر نسبياً من عقدة الوصم بالتخلف والرجعية.

٣ - أنه أصبح أكثر وضوحاً من حيث موقفه من الغرب سياسياً وحضارياً.

٤ - أنه بدأ يمارس الجهاد عملياً وواقعياً بعد أن كان ذلك مجرد سطور في الكتب.

٥ - أنه أصبح له دور فاعل في الأرض المحتلة في فلسطين.

٦ - أن بصيص التأصيل الشرعي بدأ ينشر شعاعه شيئاً فشيئاً بين الجماهير الإسلامية.

٧ - أن المفهوم الحقيقي لعقيدة أهل السنة والجماعة قد أصبح أكثر وضوحاً لدى بعض القيادات الإسلامية ولدى كثير من الشباب المسلم.

٨ - أنه بدأ إعادة امتداده في إفريقيا وآسيا إضافة لإثبات وجود فاعل في أوروبا وأمريكا.

٩ - أنه أصبح لديه رصيد كبير من مختلف الاختصاصات العلمية التي ساعدت على تغلغله في جميع الشرائح والمرافق الوظيفية والعلمية والاقتصادية والثقافية وغيرها.

١٠ - أنه أصبح أكثر نضوجاً وشجاعة لوضع منطلقاته السابقة - تصورياً وحركياً - تحت منظار التقويم وإعادة النظر.

وأمور أخرى.

إنها مجموعة من الإيجابيات، ولكن ذلك لا يعني أننا لا نخاف على الوضع الحالي من الانتكاس؛ لأننا - وللأسف - بدأنا نرصد خطاً تراجعياً في الفكر والممارسة لهذا التيار. إن وظيفتنا تشخيص أسباب التراجع ثم الدفع لمواصلة التقدم إلى الأمام كي لا تضيع منا تلك الإيجابيات الممتازة التي حصل عليها التيار الإسلامي.

الثانية: إن قضية الانبعاث الإسلامي الجديد أصبحت تقض مضاجع جميع أعداء الإسلام. والذي أخشاه أن يُعطى الواقع الإسلامي حجماً أكبر من حجمه الحقيقي، ثم تأتي المخططات والوقائع على مستوى ما أعطي من حجم، لا على مستوى حجمه الحقيقي؛ مما يؤدي إلى خلل في تنفيذ المشاريع الإسلامية القادمة، تصورياً وحركياً، أضف إلى ذلك: أننا سنكون مقبلين على أوضاع استثنائية أخرى عندما تبدأ موجة هجرة اليهود الأمريكان بعد هجرة اليهود الروس. وكيف سيكون تعامل الإسلاميين مع الأوضاع الجديدة؟ وما هي نظرتهم وتقويمهم لتلك الأوضاع؟ هذا ما ينبغي أن يكون محل نظر ودراسة وتخطيط.

الخطر الثاني:

وسأذكره باختصار؛ وخلاصته: حال التشتت والفرقة بل أحياناً العداء الذي يلف ساحة العمل الإسلامي؛ إذ إن حال الشتات في العمل الإسلامي هو وجه من أوجه كثيرة من اختلال شخصية الفرد المسلم المعاصر واهتزازها.

وداء الفرقة والشتات هو أحد أوجه الاختلال والاهتزاز الفكري والتربوي.

وهذا معناه أن الصياغة الفكرية والتربوية التي يتعرض لها الفرد المسلم تحتاج إلى إعادة نظر!! وأقصر كلامي هنا على الفرد المسلم الملتزم بدينه:

إن هذا الفرد هو أحد اثنين: إما منتمٍ إلى جماعة إسلامية. وإما غير منتمٍ.

فأما الفرد المسلم غير المنتمي لجماعة إسلامية فوضعه الفكري والتربوي يتبلور في أغلبه بتأثير الوسائط

الخارجية من إعلام ووسط اجتماعي ومحيط بيتي؛ وهو يغالب هذا التأثير بوسائله الخاصة من مطالعة للكتب الإسلامية أو التعايش مع وسط محافظ من الأصدقاء والأقرباء، ومعظم هؤلاء الأفراد مشوشون من الناحية الفكرية ومن ناحية النظرة التربوية الإسلامية.

وأما الفرد المسلم المنتمي لجماعة إسلامية فوضعه الفكري والتربوي بحسب المدرسة التي تتبناها جماعته. وهناك عدة مدارس: كالإخوان، والسلفيين، والتبليغ، والتحرير، وأنصار السنة .. إلخ. هذا الفرد كذلك يتعرض للوسائط الخارجية التي يتعرض لها المسلم غير المنتمي إضافة لمدرسته، والبدهي أنه لا يمكن أن نفكر بوجود عمل إسلامي موحد عندما يكون أفراده غير موحَّدي الفكر ولا موحَّدي المنهاج التربوي.

ومن هنا تتحدد لنا البداية السليمة في جمع الشتات المبعثر للعمل الإسلامي؛ إذ إن تعصب القيادات الإسلامية، كل لجماعته، قد حال دون الاستخدام الفوقي (أي القيادي) لقرار التوحيد الحركي للعمل الإسلامي، ولما كانت التربية المتبعة باستمرار غالباً ما تكون تحت معادلة: ما عندنا حق وما عند غيرنا ليس كذلك!! فإن قضية لمِّ الشتات الإسلامي أصبحت قضية معقدة!! ولكن لا مندوحة من وضع الحلول اللازمة لها.

إن الحل الذي أطرحه هو التوجه المباشر نحو الفرد المسلم المنتمي وغير المنتمي، ومخاطبته فكرياً وتربوياً بطريقة تتخطى التوجيهات الحزبية المسبقة. ولكن من الذي يقوم بهذا الخطاب؟! وكيف يبلور الخطاب إلى واقع عملي يحقق المفهوم التربوي؟! وما هي الأساليب التي يتحقق من خلالها الولوج في الطريق الموصل للهدف مع مراعاة اختلاف البيئات والمستويات والانتماءات؟! وما هي المراحل التي تقترح للوصول لتلك الغاية؟ وما هي التوقعات لنسب النجاح. وما .. وما .. وما .. أسئلة كثيرة.

في تقديري المتواضع أن مثل هذا الأمر لا بد أن تعقد لأجله ندوات كثيرة لأجل لملمة حيثياته وصياغة وسائل تنفيذ مراحله، وأن يشارك في ذلك المتخصصون وأصحاب التجارب من الإسلاميين.

إن السؤال الذي يُطرَح عنواناً لتلك الندوات والدراسات هو: كيف نستطيع في عالمنا المعاصر إعادة صياغة الشخصية الإسلامية بحيث تكون معبرة عن انتمائها لأهل السنة والجماعة عقيدةً وسلوكاً؟

إن مجموع هذه الشخصيات هي التي تشكل قاعدة الانطلاق في لَمِّ شتات فرقة العاملين للإسلام. لا أحسب أنني وفَّيت ما أريد قوله في هذا الأمر الثاني، وأظن أنني بحاجة إلى شرحه مسهباً في موضوع منفصل؛ لأن شرحه يطول ويتفرع، ولكن أقصى ما أستطيع ذكره هنا أن هذا الطرح لهذه المسألة له حالياً رصيد من الواقع وقد بدأ يؤتي ثماره وأُكُله، ولكن الطريق طويل وطويل، والاستعانة بالله وحده.



حول التجديد والإبداع

محمد بن عبد الله الدويش

يكثر الحديث هذه الأيام في أدبيات الصحوة حول التجديد والإبداع والابتكار، وتجد الكتب والدراسات التي تطرح حول الابتكار والإبداع رواجاً وانتشاراً بين القراء - وإن كان كثير منها ليس فيه جديد -.

والتجديد والابتكار أمر لا ينبغي أن ينازَع في أهميته؛ فهو يفتح مجالات جديدة للدعوة، ويسهم في توسيع دائرة انتشارها وتأثيرها، ويُذهِب السآمة والملل، ويجدد الهمة والروح لدى العاملين والدعاة.

إلا أن هناك أموراً ينبغي مراعاتها في ذلك، ومنها:

١ - الاعتدال والاتزان في ذلك، وإعطاؤه ما يتناسب معه من اهتمام دون إفراط أو تفريط، ومهما علا شأن التجديد والابتكار فليس فقدانه هو مشكلتنا الحقيقية، بل مشكلتنا الأكبر من ذلك أننا لا نعمل، فكم هي الفرص المتاحة اليوم أمام الناس للمشاركة في الدعوة والتي لها أثر بالغ ونتائج ملموسة؛ ومع ذلك نرى إحجاماً وتقاعساً عنها! أليست هناك مشروعات ناجحة ومؤثرة لا ينقصها إلا المال والدعم؛ فأين من ينفقون أو ينشطون في جمع المال؟ أليست هناك طوائف من المسلمين تحتاج إلى بدهيات في العلم الشرعي؛ فأين طلبة العلم الذين طالما احتجوا بالانشغال به عن كثير من المهام الدعوية؟ وأين من يكتب ويشارك في وسائل الإعلام؟ وها هي المجلات الإسلامية، والمؤسسات الدعوية تبذل جهوداً مضنية في البحث عمن يشارك في أعمالها الدعوية فتلجأ أخيراً إلى الاعتماد على من

يستجيب لها بغضِّ النظر عن تأهيله... إنها ميادين كثيرة، وفرص متاحة تبحث عن العاملين الجادين أيُظن أن هؤلاء سينشطون حين تظهر الأفكار الواعدة والإبداعات المرتقبة؟

٢ - أن التجديد والإبداع ينبغي أن يبقى في دائرة الوسائل والبرامج، ولا يتجاوز ذلك إلى المناهج والغايات، وينبغي الحذر من حمل النصوص الشرعية في التجديد والمجددين على ذلك كما يفعل بعض الناس؛ إذ نصوص التجديد تعني تجديد أمر الدين للناس.

٣ - حين يُبَالَغ في البحث عن التجديد والسعي إليه فكثيراً ما يكون ذلك على حساب الغايات والأهداف، فيتحول التجديد من وسيلة إلى غاية، وتُفَرَّغ البرامج الدعوية من مضمونها، أو يذوب الجانب الدعوي فيها فلا تؤدي ثمرتها.

٤ - ينبغي ألا تؤدي المطالبة بالتجديد والإبداع إلى احتقار البرامج والوسائل الدعوية التي ألفها الناس واعتادوها وتركت آثاراً كثيرة في المدعوين؛ فهناك من يقلل من شأن توزيع الكتاب والشريط وبناء المساجد، ويدعو إلى تجاوزها والانطلاق إلى وسائل تناسب تحديات العصر، فلا هو أعطى من يستمعون إليه برامج ووسائل عملية، ولا هو ترك الناس يسهمون في هذه الوسائل التي ربما لا يجيدون غيرها، فيُزهِّدهم فيها وقد رأوا ثمراتها من دخول طوائف في الإسلام، واهتداء كثير من الفساق وصلاح أحوالهم، ونشر السنة والخير وتعليم العلم بين الناس.

٥ - ينبغي أن لا ننسى أن خطابنا الدعوي يوجه للعامة دون أن يقتصر على النخب، والعامة يتفاعلون مع كثير من الوسائل المعتادة المألوفة وتترك أثرها فيهم.

٦ - قد يؤدي الإفراط في ذلك إلى تخريج طائفة ممن يجيد القول وتنميق الحديث ويفتقد العمل؛ فترتفع أسهم الذين يحترفون الجدل وطرح القضايا الكبار دون أن يكون لهم رصيد في الواقع العملي؛ أو بمعيار أدق أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، في حين أننا بحاجة ماسة إلى طائفة ممن يعملون ويضحون بأوقاتهم وجهودهم في سبيل الله ـ عز وجل ـ؛ وما أقل هؤلاء!

ومع ذلك كله يبقى التجديذ والإبداع مطلباً مهماً، ويبقى جيل الصحوة بحاجة إلى أن يربى عليه، وتبقى الأفكار الجديدة تختصر خطوات، وتفتح مجالات الدعوة، ولكننا ندعو إلى الاعتدال، وإلى أن يأخذ كل جانب حجمه الطبيعي دون إفراط أو تفريط.



توبة الأمة

محمد بن إبراهيم الحمد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فإن الحديث عن التوبة ذو شجون، والكلام عليها متشعب طويل؛ فللتوبة فضائل وأسرار، ولها مسائل وأحكام، وهناك أخطاء تقع في مفهومها، وهناك أسباب تعين عليها، ثم إن الحديث عن التوبة يشمل كافة الناس، ويخاطب جميع الطبقات، ويُحتاج إليه في جميع مراحل العمر.

ومع عظم شأن التوبة، وشدة الضرورة إليها إلا أن هناك تقصيراً في شأنها، وخللاً كبيراً في مفهومها، وغفلة مستحكمة عن المبادرة إليها، وإذا تحدث متحدث عن التوبة تبادر إلى الذهن توبة الأفراد فحسب، أما توبة الأمة بعامة فقلَّ أن تخطر بالبال.

وهذا من الأخطاء في باب التوبة؛ ذلك أن سنته ـ عز وجل ـ في الأفراد، وفي مغفرته للتائبين وعفوه عن المذنبين هي هي سنته ـ سبحانه ـ في الأمم والشعوب.

فالأمة التي تعود إلى طريق الرشاد، وتصْدقُ في التوبة والإنابة إلى رب العباد ـ يفتح الله لها، ويرفع من شأنها، ويعيدها إلى عزتها ومجدها، وينقذها من وهدتها التي انحدرت إليها، وينجيها من الخطوب التي تحيط بها؛ نتيجة الذنوب التي ارتكبتها، والمنكرات التي أشاعتها من رِباً، ومجون، وفسق، وشرك، وبدع، وحكم بغير ما أنزل الله، وموالاة لأعداء الله، وتقصير في تبليغ دعوة الله وإحجام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك مما هو مؤذِن بالعقوبة، وحلول مقت الله. نسأل الله السلامة.

فإذا تابت الأمة إلى ربها متعها الله بالحياة السعيدة، وجعل لها الصولة والدولة، ورزقها الأمن والأمان، ومكن لها في الأرض، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

وإذا أردت مثالاً على توبة الأمة من القرآن الكريم فانظر إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ**

آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، وهؤلاء القوم الذين ذُكروا في هذه الآية هم قوم يونس - عليه السلام - وقريتهم هي نينوى التي تقع شرقي مدينة الموصل في شمالي العراق. ومعنى الآية - كما يقول المفسرون -: أن قوم يونس - عليه السلام - لما أظلهم العذاب، وظنوا أنه قد دنا منهم، وأنهم قد فقدوا يونس - عليه السلام - قذف الله في قلوبهم التوبة، وفرَّقوا بين كل أنثى وولدها، وعَجُّوا إلى الله أربعين ليلة - أي رفعوا أصواتهم بالتلبية والدعاء - فلما علم الله منهم صدق التوبة كشف عنهم العذاب، وقال: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، أي لم نعاجلهم بالعقوبة، فاستمتعوا بالحياة الدنيا إلى حين مماتهم وقت انتهاء أعمارهم.

فما أحوج أمتنا اليوم إلى أن ترجع إلى الله منيبة تائبة، ليرضى عنها، ويرفع عنها ما هي فيه من الذلة، والمهانة، والخيبة، والتبعية لأعدائها.

وسنتوقف عند بعض المحطات التي يحسن بالأمة التأمل فيها والأخذ بها:

أ - **التوبة من الإسراف**: فالإسراف نذير شؤم، ومؤذن هلاك؛ فهو يفضي إلى الفاقة، وينزل بأهله إلى طبقة المُقلِّين أو المعدمين. والإسراف في الترف ينبت في النفوس أخلاقاً مرذولة من نحو الجبن، والجور، وقلة الأمانة، والإمساك عن البذل في وجوه الخير. أمَّا أن الإسراف في الترف يدعو إلى الجبن فلأن شدة تعلق النفوس بالزينة واللذائذ يقوي حرصها على الحياة، ويحملها هذا الحرص على تجنب مواقع الحروب، وإن كانت مواقف شرف وذود عن النفس، والمال، والعرض.

وأما أن الإسراف في الترف يسهل على النفوس ارتكاب الجور فلأن المنغمس في الترف يحرص على اكتساب المال؛ يشبع شهواته، فلا يبالي أن يأخذه من طرق غير مشروعة، فيمد يده إلى الاستيلاء على ما في يد غيره من طريق الرشوة، أو من طريق الغصب - إن كان ذا سلطان وقوة -.

وأما أنه يَذْهَبُ بالأمانة فلأن الغريق في الترف إنما همه الوصول إلى زينة أو لذة، أو مطعم ونحوه، وكثيراً ما تدفعه هذه الشهوات إلى أن يخون من ائتمنه، فيمد يده إلى المال الذي ائتمن عليه، وينفقه في شهواته الطاغية.

وأما أنه يمسك الأيدي عن فعل الخير فلأن من اعتاد الترف حتى أخذ بمجامع قلبه كان أعظم قصده من جمع المال إنفاقه فيما يَلَذُّ له من مأكول أو يتزين به من نحو ملبوس، أو مفروش.

لذلك كان الغالبُ على المترفين المسرفين قبضَ أيديهم حيث يبسط غيرهم يده إسعاداً لذوي الحاجات من الفقراء والمنكوبين، أو إجابة لما تدعو إليه المروءة والمكارم. ومن هنا نستبين أن للإسراف سيئةً أخرى هي قطع صلة التعاطف والتواد بين كثير من أفراد الأمة.

ولهذا تجد من الموسِرين المترفين من ينفق الأموال الطائلة في سبيل لذّاته وشياطينه، وإذا سُئل بذل القليل في مشروع جليل أعرض ونأى بجانبه.

هذا وللإسراف في الترف أثر كبير في إهمال النصيحة والدعوة إلى الحق؛ ذلك أن من اعتاد التقلب في الزينة، وألفت نفسه العيش الناعم ـ يغلب عليه الحرص على هذا الحال؛ فيتجنب المواقف التي يمكن أن تكون سبباً لفوات بعض النعيم.

وللإسراف أثر في الصحة؛ فقد دلت المشاهدات على أن المسرف في نحو المأكل والمشرب لا يتمتع بالصحة التي يتمتع بها المقتصدون فيما يأكلون ويشربون.

والإسراف في الترف يقل معه النبوغ في العلم؛ ذلك أن النفس المحفوفة بالرفاهية من كل جانب يضعف طموحها إلى اللذات العقلية؛ لأنها في لذة قد تشغلها أن تطلب لذة كلذة العلوم طلباً يبلغ بها مرتبة العبقرية.

ومن الجلي أن مرتبة العبقرية لا تدرك إلا باحتمال مصاعب، واقتحام أخطار، والمسرف في الترف ضعيف العزيمة لا يثبت أمام المكاره والشدائد.

هذه بعض مضار الإسراف؛ فحق على الأمة التي تريد النهوض من كبوتها أن تقلع عن الإسراف في الرفاهية، وتضع مكان الإسراف بذلاً في وجوه البر والإصلاح.

فمما تشكو منه الأمة إطلاق الأيدي بإنفاق المال في غير جدوى، وتدبير المال على غير حكمة وحسن تقدير.

قال العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ: «إن أمة تنفق الملايين في الشهر على القهوة والدخان، وتنفق مثلها على المحرمات، وتنفق مثلها على البدع الضارة، وتنفق أمثال ذلك كله على الكماليات التي تنقص الحياة ولا تزيد فيها، ثم تدَّعي الفقر إذا دعاها داعي العلم لما يحييها ـ لأمة كاذبة على الله، سفيهة في تصرفاتها»[1]. وقال رحمه الله ـ: «المال الذي تنفقه في المحرمات يسوقك إلى النار، والمال الذي تبدده في الشهوات يجلب لك العار، والمال الذي تدخره للورثة الجاهلين تهديه إلى الأشرار، وتبوء أنت بالتبار والخسار. أما المال الذي تحيي به العلم، وتميت به الجهل ـ فهو الذي يتوجك في الدنيا بتاج الفخار، وينزلك عند الله منزلة الأبرار»[2].

ولا يعني التحذير من الإسراف في الترف أن يكون الناس على سُنَّة واحدة من الإعراض عن الزينة والملاذّ فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [**الأعراف**: ٣٢]، وإنما المقصود من ذلك: الدعوة إلى أخذ النفوس بالاقتصاد، وحمايتها من الإفراط

---

(١) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ٣/٣٤٥.

(٢) المرجع السابق، ٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

في الزينة واللذيذ من العيش.

ولهذا سلكت هداية القرآن الكريم بالناس هذا الطريق القويم، وهو طريق الاقتصاد؛ فبعد أن أمر في آيات كثيرة بالإنفاق في وجوه الخير نهى عن الإسراف نهياً بالغاً فقال - تعالى -: ﴿ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٨، ٢٩].

وألحق المبذرين بقبيل الشياطين فقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وعدَّهم في زمرة من يستحقون بُغضه فقال - عز وجل -: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأثنى على عباده المؤمنين بفضيلة الاقتصاد فقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

«وإذا كان الإسراف يوقع الأفراد والجماعات في مضار كثيرة كان واجباً على أولياء الأمور ودعاة الإصلاح أن يتعاونوا على الجهاد في هذا السبيل؛ حتى يبتعد الناس عن الإسراف في مآكلهم، ومشاربهم، وملابسهم، ومراكبهم، ومساكنهم، وأمتعة بيوتهم.

وحين يُحذِّر من عواقب الإسراف، ويُدعى إلى الاقتصاد - يبين أنه لا فضيلة في الاقتصاد إلا بعد أن يؤدي الرجل حق المال من نحو النفقات الواجبات عليه لأقاربه، والزكوات المفروضة لأهلها، وبعد أن يبسط يده بالإعانة على بعض المصالح العامة: كإنشاء مساجد، أو مدارس، أو مستشفيات، أو ملاجئ، أو إعداد وسائل الاحتفاظ بسيادة الأمة والدفاع عن حقوقها»(١).

٢ - **التوبة من التبعية الثقافية والفكرية**: فمما يؤسف عليه، ويندى له الجبين ما يُرى من حال كثير من مثقفينا ومفكرينا؛ فلا تكاد ترى كثيراً منهم يرفعون بالإسلام رأساً، ولا يَهزُّون لنصرته قلماً، ولا يحفلون إلا بسيئ أفكار الغرب، ولا يثقون إلا بما يصدر من مشكاته.

إن كثيراً من هؤلاء الذين تخرجوا في المؤسسات الحضارية الغربية، وعاشوا في المجتمعات الإسلامية - يجهلون الإسلام جهلاً كاملاً.

ولا يعني ذلك الجهل أنهم لم يسمعوا بالإسلام، أو أنهم لم يحفظوا في صغرهم شيئاً من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، أو أنهم لم يسجدوا لله يوماً من الأيام سجدة، أو لم يعرفوا أخبار رسول الله ﷺ وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم -.

لا! ليس الأمر كذلك؛ وإنما المقصود أن هؤلاء يجهلون نظرة الإسلام إلى الكون، والحياة، والإنسان.

---

(١) انظر محاضرات إسلامية للشيخ محمد الخضر حسين، ص ١٤٠ - ١٤٧.

يحملون حقائق الإسلام، وشرائعه الحكيمة، ومقاصده النبيلة، وبجهلون قيمه الإسلام، ومُثُلَه، وأخلاقه، وخصائص حضارته، وتطوراتها، ومراحلها.

ويجهلون أسباب تقدم المسلمين في التاريخ، وأسباب تأخرهم، ويجهلون القُوى التي حاربتهم، والمؤتمرات التي نسجت عبر التاريخ للقضاء عليهم.

فهؤلاء الذين نسميهم مثقفين ومفكرين عندما واجهوا الغرب، وحضارته، وفنه، وأدبه ـ لم يواجهوه إلا بعقول خواء، وأفئدة هواء، ونفوس مجردة من معاني الأصالة والعزة والأنفة؛ فلم يواجهوا الحضارة الحاضرة مواجهة مدركة فاحصة مقوِّمة؛ وإنما واجهوها مواجهة سطحية تنطلق من مواطن الجهل، والذلة، والشعور بالهزيمة؛ فانبهروا بكل ما فيها دونما تمييز بين الحق والباطل، والضار والنافع، فنكسوا رؤوسهم حطة أمام الغرب.

ولهذا تراهم يهشون ويطربون إذا ذكر اسم فرويد، أو نيتشه، أو ت. إس إليوت، أو ماركيز، أو غيرهم من مفكري الغرب على اختلاف توجهاتهم ومدارسهم الفكرية. وإذا ذكر الله ورسوله اشمأزت قلوبهم، واستولى عليهم الشعور بالهزيمة والذلة.

ومن هنا فإن مثقفينا ـ في فروع الحياة كلها ـ إلا من رحم ربك ـ قد نقشوا ما عند الغربيين، وظنوا أنه لا ثقافة إلا ثقافتهم، ولا أدب إلا أدبهم، ولا واقع إلا واقعهم؛ فهم جهلوا الإسلام وحضارته، وعرفوا كل شيء عن الغرب. وأكثر هؤلاء لا يتبرؤون من الإسلام، بل يصرحون بانتمائهم للأمة الإسلامية؛ ولكنهم يفهمون الإسلام من إطار المفهوم الغربي للدين. والمفهوم الغربي للدين يتلخص في أن الدين عبارة عن رابطة فردية خاصة بين الإنسان وربه؛ فالإنسان يؤمن بمجموعة من القيم والأخلاق التي يستقيها من إيمان بالله، تصوغ شخصيته، وتجعل منه إنساناً اجتماعياً يستقيم سلوكه العام في إطار الإيمان الديني.

أما الحياة بشمولها فإنها ـ في نظرهم ـ لا بد أن تخضع لحركة العقل المتغير عبر الزمان والمكان[1].

يقول الدكتور محسن عبد الحميد: «من خلال عشرات المواقف الأليمة جداً التي مرت في حياتي التدريسية، والتي أثبتت لي بشكل قطعي هذا الجهل العام بين كثير من مثقفينا للإسلام أروي الحوادث الآتية:

✿ في محاضرة عامة لاقتصادي مسلم استعرض المذاهب الاقتصادية كلها من أقدم العصور إلى العصر الحديث في مختلف الملل والنحل، ولم يتطرق إلى الإسلام أو حضارته في مجال الاقتصاد

---

(١) انظر أزمة المثقفين تجاه الإسلام د. محسن عبد الحميد، ص ٤٩، ٥١، ٦٦، ٦٧.

منهجاً وعلماً.

فلما سئل عقب انتهاء المحاضرة عن سبب ذلك قال بالحرف الواحد: أنا متأسف؛ لأنني لا أعرف عن وجهة نظر الإسلام في هذا الموضوع شيئاً.

ولما أهدي له فيما بعد كتاب حول أحكام الاحتكار في الفقه الإسلامي تعجب كثيراً، وذكر أنه لم يكن يظن أن الفقهاء بحثوا مثل هذه الموضوعات.

❁ وحضرت مرة مناقشة رسالة علمية في الفقه الجنائي الإسلامي مقارناً بالفقه الجنائي الغربي - استغرب مناقش قانوني في اللجنة أن يكون فقهاء المسلمين قد ناقشوا بعمق نظرية قانونية كان يعتقد أنها نظرية غربية صرفة.

"إن مثقفينا في فروع الحياة كلها قد نقشوا ما عند الغربيين، وظنوا أنه لا ثقافة إلا ثقافتهم، ولا أدب إلا أدبهم، ولا واقع إلا واقعهم، فهم جهلوا الإسلام وحضارته، وعرفوا كل شيء عن الغرب"

❁ وكنا نتناقش يومياً في غرفة الأساتذة حول وضع المرأة في الإسلام؛ فانبرى أحد المختصين في علم الاجتماع فقال: إن الإسلام ظلم المرأة عندما جعل الرجل قوّاماً عليها.

فلما سألناه: ما المعنى اللغوي للقوامة في الآية الكريمة؟ حتى نحدد موقفنا منه - تلعثم ولم يعرف معناها.

فقال له أحدنا: كيف تصدر يا أستاذ هذا الحكم الظالم على الإسلام وأنت لا تعرف معنى القوامة»[1].

ثم إن نظرة كثير من أولئك تجاه المسلمين وقضاياهم هي هي نظرة الغرب؛ فالغرب يرى أن الإسلام دين قسوة وهمجية، وأن أهله قساة عتاة أجلاف غلاظ الأكباد.

وينطلي هذا الهراء على كثير من أولئك المثقفين، فيسايرون أعداءهم، ويسيرون على طريقهم، وما علموا أن الإسلام دين العدل والرحمة، وأن أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس.

وما الحسام الذي يأمر الإسلام بانتضائه للجهاد في سبيل الله إلا كمبضع طبيب ناصح يشرط به جسم العليل؛ لينزف دمه الفاسد؛ حرصاً على سلامته.

وأمة الإسلام خير أمة جاهدت في سبيل الله فانتصرت، وغلبت فرحمت، وحكمت فعدلت، وساست فأطلقت الحرية من عقالها، وفجرت ينابيع المعارف بعد نضوبها.

واسأل التاريخ؛ فإنها قد استودعته من مآثرها الغرِّ ما بَصُر بضوئه الأعمى، وازدهر في الأرض

(١) أزمة المثقفين تجاه الإسلام ص ٥٢، ٥٣.

ازدهار الكواكب في كبد السماء. فماذا فعل المسلمون لما انتصروا على خصومهم؟ ماذا قال النبي ﷺ لما انتصر على قريش وفتح مكة؟ ألم يصفح عنهم، وينس ما فعلوه به؟

وماذا فعل المسلمون لما انتصروا على كسرى وقيصر؟ هل خانوا العهود؟ وهل انتهكوا الأعراض؟ وهل قتلوا الشيوخ والأطفال والنساء؟ وماذا فعل صلاح الدين لما انتصر على الصليبيين؟ ألم يُنعم على قائدهم بالعفو؟ ألم يعالجه، ويطلق سراحه.

فهذه المواقف وأمثالها كثيرة في تاريخ الإسلام؛ مما كان لها أبلغ الأثر في محبة الناس للإسلام، والدخول فيه عن قناعة ويقين.

أفغير المسلمين يقوم بمثل هذا؟ آلغرب يقدم لنا مثل هذه النماذج؟

الجواب ما تراه وتسمعه؛ فمن أين خرج هتلر، وموسوليني، ولينين، وستالين، ومجرمو الصرب؟ أليست أوروبا هي التي أخرجت هؤلاء الطواغيت الشياطين الذين قتلوا الملايين من البشر، والذين لاقت البشرية منهم الويلات إثر الويلات؟ ألا يُعَدُّ أولئك هم طلائع حضارة أوروبا؟

فمَن الهمجُ العتاة القساة الأجلاف إذاً؟

ثم من الذي صنع القنابل النووية والجرثومية، وأسلحة الدمار الشامل؟ ومن الذين لوَّثوا الهواء بالعوادم، والأنهار بالمبيدات؟ ومن الذي يدعم اليهود وهم في قمة الإرهاب والتسلط والظلم؟

أما آن لكثير من مثقفينا أن يصحوا من رقدتهم؟ وأن لا ينظروا إلى الغرب بعين عوراء متغافلين عن ظلمه، وإفلاسه الروحي؟ هذه هي حال كثير من مثقفينا، ومع ذلك تجدهم يتصدرون وسائل الإعلام، ويتطرقون لقضايا الأمة.

ولو صُرف النظر عن ناحيتهم، وترك حبلُهم على غاربهم لهبطوا بكثير من شبابنا في خسار يهتز له قلب عدوهم شماتة وفرحاً. والنفوس التي تتزحزح عن الإيمان قيد شعرة تبتعد عن مراقي الفلاح سبعين خريفاً.

فلا بد - إذاً - من أن نكون على مرقبة من دعايتهم، وننفق ساعات في التنبيه على أغلاطهم؛ لعلهم ينصاعون إلى رشدهم، أو تحذر الأمة عاقبة هذا الذي يبدو على أفواههم.

فحقيق على هؤلاء أن يؤوبوا إلى رشدهم، وأن يقدموا لأمتهم ما يرفع عنها الذلة والتبعية، وأن يبحثوا في سبيل رقيها وفلاحها.

وإن من أعظم ما يعينهم على ذلك أن يدرسوا الإسلام دراسة واعية متأنية من مصادره الأصيلة، وأن يكون لديهم من الشجاعة الأدبية والأمانة العلمية ما يبعثهم إلى الرجوع إلى الحق والاعتزاز به.

أما السير في ركاب الغرب، والأخذ بكل ما يصدر منه دونما تمحيص - فذلك محض الهوان،

وعنوان التخلي عن العزة والكرامة؛ فالأمة العزيزة هي التي تعرف مقدار ما تعطي، ومقدار ما تأخذ، ونوع ما تعطي، ونوع ما تأخذ، وهي التي تُعِدُّ نفسها بكل ما أوتيت من قوة؛ حتى تحمي رأيها فيما تأخذ، وما تدع، وما تعطي، وما تمنع.

هذا وإن من أولئك النفر من تكون له شهرة أدبية أو مكانة اجتماعية؛ فكلما همَّ بالرجوع عن بعض آرائه المخالفة للشريعة أقصر عن ذلك؛ مخافة ذهاب الجاه والشهرة، وحرصاً على أن يبقى احترامه في أصحابه وموافقيه غير منقوص.

ولا ريب أن ذلك نقص في شجاعة الإنسان ومروءته، بل إن ذلك نقص في عقله، وعلمه، وديانته، وأمانته.

وإلا فإن الكريم الشهم الشجاع العاقل هو ذاك الذي يرجع عن خطئه، ولا يتمادى في غيه وباطله؛ فذلك مما يرفعه عند الله، وعند خلقه؛ فلماذا يستوحش من الرجوع إلى الحق؟

فمقتضى الدين، والأمانة، والمروءة أن يصدع بما استبان له من الحق، وألا يمنعه من الجهر بذلك أن ينسب إلى سوء النظر فيما رآه سالفاً؛ فما هو إلا بشر، وما كان لبشر أن يُبَرِّئَ نفسه من الخطأ، ويدعي أنه لم يقل ولن يقول في حياته إلا صواباً.

ثم إن الشهرة والجاه عَرَضٌ زائل ينتهي بنهاية الإنسان؛ فماذا ينفعه إذا هو قدم على ربه إلا ما قدم من صالح عمله، ولقد أحسن من قال:

تسائلني: هل في صحابك شاعر ... إذا متُّ قال الشعر وهو حزين؟
فقلت لها: لا همَّ لي بعد موتتي ... سوى أن أرى أخراي كيف تكون
وما الشعر بالمغني فتيلاً عن امرئٍ ... يلاقي جزاءاً والجزاء مهين
وإن أحظ بالرُّحمى فما لي من هوىً ... سواها وأهواء النفوس شجون
فخلٍّ فعولن فاعلاتن تقال في ... أناس لهم فوق التراب شؤون
وإن شئت تأبيني فدعوة ساجد ... لها بين أحناء الضلوع حنين



حملة الرسالة وتداول الابتلاءات

د. جلال الدين صالح

لم يكن الدين أبداً مجرد معرفة قلبية لا صلة لها بقول اللسان وعمل الجوارح؛ فذلك محض ابتداع لا يعرف له الإسلام مصدراً سوى قلوب الذين مرقوا عن فقه الدين على أصوله الصحيحة.

ومن الضروري أن تكون هذه الحقيقة عند حامل الرسالة محل إقرار واعتبار، ينطلق منها في بسط رسالته وإيصالها إلى قلوب الناس، ويدفع بها ما لا بد منه من ابتلاءات حمل الرسالة؛ ذلك أن الإسلام اليوم يعاني غربة في مفاهيمه أشبه بالتي عاصرها في أول تجدده برسالة نبينا محمد ﷺ، ولا يكون انجلاؤها إلا على أيدي حاملي الرسالة الذين نعتهم الرسول ﷺ بالغرباء في قوله: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»(1).

وهم وحدهم الذين يقدمون الدين غضاً طرياً كما أُنزِل (ينفون عنه ـ كما قال الإمام أحمد رحمه الله ـ: تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)(2)، فيتداعى عليهم الجاهلون، ويمكرون بهم سوءاً. إلا أنه مهما اشتدت ضائقتهم فلا بد من يوم تنفرج فيه، ويمكَّن للدين كما مُكِّن له من قبل، ووعد الله يتجدد كلما تجددت شروطه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقرّ أعينهم ممن آذاهم. قال السدي: لم يبعث الله ـ عز وجل ـ رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله ـ تبارك وتعالى ـ لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا)(3).

ولكن سنة الله في حمل الرسالات اقتضت أن يقرن بها ابتلاءات التمحيص والتمييز حتى يميز الخبيث من الطيب.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ موضحاً معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]: (أي نديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة، لما لنا في ذلك من الحكمة)(4).

وما كان فضل الله على بني إسرائيل إلا بعد ابتلاء لحق بهم وأذاقهم مر الحياة: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

كذلك كان جيل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ تحيط بهم المحن من كل جانب، إلا أن وعد النبي ﷺ بتغلب الدين على شانئيه، وظهوره على الكافرين كان يملأ جوفهم إيماناً، ويُذهِب عنهم عناء الطريق، من ذلك قوله ﷺ: «والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(5).

بل إنه ﷺ ساعة خروجه من مكة مهاجراً إلى ربه ظل يرى من وراء هذا الحدث تَمَكُّن الدين وعلوَّه، يثبت

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان ١/١٣٠، رقم ٢٣٢.
(2) الرد على الزنادقة والجهمية ١/.
(3) تفسير القرآن العظيم ٤/٨٣ ـ ٨٤.
(4) تفسير القرآن العظيم ١/٤٠٨.
(5) البخاري مع الفتح، كتاب المناقب ٦/٦١٩، حديث رقم ٣٦١٢، وأيضاً في الإكراه ١٢/٣١٥، حديث رقم ٦٩٤٣.

صاحبه الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ بقوله: ﴿لا تحزنْ إنَّ اللَّهَ معنا﴾ [التوبة: ٤٠]، ويعد سراقة بسواري كسرى.

وما كان ذلك منه ﷺ مجرد وعد مبتور عن أسباب تحققه، ولكنه كان وعداً موصولاً بدرء القنوط، وعقد العزيمة على النهوض، ومغالبة الباطل حسب مراعاة ظروف الحال والمآل؛ لذا قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في تفسيره: «الأمة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور خصوصاً إذا كانت مظلومة، وأن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها، ولا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها، ولا يكون لها إمامة فيه»[(١)]؛ ذلك أن نزع الاستضعاف عن الذات طريق من طرائق الارتقاء بهذا الدين نحو مقاصده، وسبب من أسباب مَنِّ الله على المستضعفين من عباده. وترويض الذات على نزع الاستضعاف، ودفعه بجهدها وجهادها ضرورة من ضروريات حمل الرسالة؛ فما كان الاستضعاف أبداً حالة لازمة غير قابلة للانفكاك؛ ولكنه نوع من الابتلاء تجب مغالبته ومجاهدته.

والابتلاء به ليس شراً خالصاً بل في طياته من الخير الكثير؛ فهو يُدني من مقام الأخيار، ويوثِّق الصلة بالله؛ فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «إن من أشدِّ الناس بلاءاً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[(٢)].

وقال: «إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخِط فله السخط»[(٣)].

ولكنْ من الغلو في الدين تعقُّبُ مواطن الابتلاء، والسعي للوقوع فيه، لقوله ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[(٤)].

وحذَّر ﷺ ـ وهو المجاهد الأكبر ـ أصحابه من التشوق إلى ملاقاة العدو بقوله: « لا تمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»[(٥)].

قال ابن بطال: (حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، وهو نظير سؤال العافية من الفتن، وقد قال الصدّيق: لأن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن أُبتلى فأصبر)[(٦)].

لهذا من الخطأ أن ينهج حاملو الرسالة وهم يقاومون الاستضعاف مسلكاً دعوياً يجلب عليهم من الابتلاءات ما لا يطيقون، أو يقعد بهم مقاعد القاعدين، بل لا بد من أن يحكم مسارهم الدعوي منهج أهل السنة والجماعة، وإلا جرفهم منهج الجموح، أو الجمود، وهما منهجان لا يسلكهما إلا أولئك الذين يبغون الإسلام عوجاً ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا تقوم تأصيلاتهم إلا على تجاوز النصوص بالتعطيل تارة، أو التأويل على هوى الذات واعتقاداتها المتأصلة سلفاً تارة أخرى، ويتسم السائرون عليهما بالانحراف في معالجة الانحراف؛ فمنهم من يرى لزوم إلغاء الجهاد ابتداءاً حتى ظهور الإمام الغائب كتيار الرفض، أو حمله على نوع من النسك يوهن البدن كنهج التصوف، ومنهم من يرى في حمل السيف فريضة شرعية محتومة يلجأ إليها في تصويب كل ما يبدو له نكوصاً عن الدين، كما هو فقه الخوارج خلافاً لمنهج أهل السنة والجماعة الذي يأخذ في الحسبان مراعاة الأحوال ومآلات الأمور، ويتقدم بالدين نحو غاياته بوسطية واعتدال.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٦/٣٤.

(٢) أحمد في مسنده ٦/٣٦٩، رقم ٢٧١٢٤، وانظر أيضاً سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٦٦.

(٣) الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء رقم ٢٣٩٨، وابن ماجة في الفتن، باب الصبر على البلاء رقم ٤٠٢٣.

(٤) ابن ماجة، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رقم ٤٠١٦.

(٥) البخاري مع الفتح ٦/١٨١، رقم ٣٠٢٥، باب لا تمنوا لقاء العدو.

(٦) البخاري مع الفتح ٦/١٨١.



التدرج في الإصلاح والتغيير

عبد العزيز بن ناصر الجليل

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد:

روى لنا صاحب الحلية أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه عمر بن عبد العزيز فقال:

(يا أمير المؤمنين! إن لي إليك حاجة، فأخْلِني ـ وعنده مسلمة بن عبد الملك ـ فقال له عمر: أسِرٌّ دون عمك؟ فقال: نعم! فقام مسلمة وخرج، وجلس بين يديه فقال له: يا أمير المؤمنين! ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال: رأيتَ بدعةً فلم تُمِتْها، أو سنة لم تُحْيِها؟ فقال له: يا بني أشيء حَمَّلَتْكَهُ الرعية إليَّ، أم رأي رأيته من قِبَل نفسك؟ قال: لا، واللهِ، ولكن رأي رأيته من قِبَل نفسي، وعرفت أنك مسؤول؛ فما أنت قائل؟ فقال أبوه: رحمك الله وجزاك الله من ولد خيراً؛ فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يا بني! إن قومك قد شدُّوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما أريدُ مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقاً تكثر فيه الدماء، واللهِ لَزوالُ الدنيا أهون عليَّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أوَ ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟)(١).

وبعد هذا الحوار الجميل الحكيم بين خليفة المسلمين العادل وابنه الورع الزاهد ـ رحمهما الله تعالى ـ يمكن لنا تسجيل الدروس الآتية:

١ - دور البطانة الصالحة للحاكم المسلم وبخاصة إذا كانت من قرابته كما هو ظاهر في نصح هذا الابن البار المشفق على أبيه الخليفة العادل، وهذا من علامة توفيق الله ـ عز وجل ـ للحاكم المسلم. ولكن متى يظهر أثر البطانة الصالحة؟ إنها لا تظهر إلا إذا وجد الاستعداد الصادق عند الحاكم؛ بحيث يظهر عليه حب أهل الخير والسعي إلى تقريبهم، وبُغض أهل الشر والنفاق والنفور منهم، وأما إذا وجد العكس من ذلك فإن الأثر سيكون ضعيفاً؛ بل وربما كان معدوماً.

٢ - التماس العذر لمن لم يتمكن من أهل الخير من الإصلاح السريع وتغيير كل الفساد الذي يقوم

---

(١) حلية الأولياء ٥/٢٨٣.

به مَنْ تحت أيديهم، ويكفينا أن نرى السعي الجاد للتغيير من قِبَلهم، وأن نرى الخير يزداد والشر يتناقص يوماً بعد يوم ولو كان ذلك قليلاً. وهذا الكلام يسري من باب أوْلى على من تولى من أهل الخير الحكم في بلد من بلدان المسلمين وأراد صادقاً أن يحكم بشريعة الله - عز وجل - وأن يحارب الفساد العظيم في مرافق الحياة الذي ورثه ممن سبقه، فهنا يجب أن نطبق ما قال عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - لابنه حينما طالبه بالتغيير السريع الشامل، ونلتمس العذر فيما يقوم به الحاكم الصادق من التغيير المتدرج، ويكفي أن نلمس الصدق والإرادة الحازمة منه في التغيير، وأوضح القرائن على ذلك الصدق في العزيمة والبدء في إبعاد البطانة الفاسدة عن مواقع التأثير، وتقريب البطانة الصالحة. أما أن يبقى أهل السوء والفساد في مواقعهم ويظل أهل الصلاح مبعدين فإن هذا يدل على عدم المصداقية وكذب ما يعلن؛ وإنما هو للاستهلاك وكسب عواطف المسلمين. وهذا يذكرنا بما نسمعه بين الفينة والأخرى من أن حاكم البلد الفلاني قد أعلن تطبيق الشريعة وتحكيمها فيغتر بهذا الادعاء من يغتر من المسلمين مع أن القرائن تدل على كذبه ونفاقه؛ وذلك لأنه لو كان صادقاً لبدأ أول خطوة في التغيير ألا وهي تغيير البطانة الفاسدة، وإبدالها ببطانة صالحة تستلم مواقع التغيير، وهنا يُلْتَمَسُ العذر له في التدرج وعدم العجلة في التغيير. أما أن يبقى أهل الشر في تسلطهم، ويظل أهل الخير مبعدين أو مغيبين في السجون، والشر والفساد في زيادة واستفحال؛ وهو أبعد ما يكون عن الإسلام فإن هذا لا يجدي شيئاً وإنما هو مجرد نفاق ولعب على جهلة المسلمين ومغفليهم، ورحم الله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -؛ حيث يقول: (لست بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يخدعني).

٣ - التدرج في دعوة الناس، وعدم مطالبتهم بالتغيير السريع في أنفسهم؛ وذلك لما ألفوه وتلبسوا به دهراً طويلاً من الزمان من المنكرات والمخالفات، وضرورة أخذهم بالرفق والبدء بالأهم فالمهم.

ومما يدخل في ذلك ما ينبغي أن يقوم به المربون في تربيتهم لأولادهم وطلابهم، وأن لا يطالبوهم في بداية تربيتهم بما يطالبون به أنفسهم أو من أمضى سنوات في التربية والتزكية، ولذلك قيل: على الزاهد أن لا يجعل زهده عذاباً على أهله وإخوانه.

ومما يلحق بذلك أيضاً: التدرج في دعوة الداخلين في الإسلام حديثاً، وأن يبدأ معهم بالأهم وهو توحيد الله - عز وجل - وبيان ما يضرهم من الشرك بجميع أنواعه، ثم إعلامهم بواجبات الإسلام العينية ومنهياته. ولا يعني هذا التسويف واتخاذ التدرج وسيلة للإبطاء بالالتزام بأحكام الله - تعالى -؛ وتطبيق شرعه، بل المقصود الرفق بالمدعو وأن يبدأ بالأهم الذي هو الأصل في النجاة من عذاب الله - تعالى -؛ إذ ما قيمة أن يصلي الداخل في الإسلام أو يحج أو يصوم وهو لا يعرف التوحيد، أو لا يزال متلبساً بما كان عليه في ديانته السابقة من شرك بالله - تعالى -؟



صيحات في وادي السكون!!

إنها صيحة أطلقتها (القدس) ـ منذ عشرات السنين ـ في وادي السكون!! ذلك الوادي الذي لا تسمع فيه حِساً ولا همساً! ولم تزل المدينة المقدسة تطلق صيحاتها مراراً وتكراراً.. لكن بلا جدوى؛ لأنها «صيحات في وادي السكون» إلا أن تلك الصيحات «إن ذهبت اليوم مع الريح.. فقد تذهب غداً بالأوتاد!»

علي بن جبريل بن أمين

وطنٌ يباع وأمةٌ تنساقُ ... ودمٌ يراق.. وأدمعٌ تهراقُ!

ومدينة الإسراء تندب حظها ... وتصيح: واذلاه حين أساق

واحسرتاه إذا تدنس باطني ... بخُطا اليهود، وضُيِّعَ الميثاق

واحسرتاه إذا تعرقلت الخُطا ... من بعد أن قد بانت الأوراق

واحسرتاه إذا تقهقر مسلم ... وكبا جوادُ الفارس السبّاق!

واحسرتاه إذا تمزق ـ جهرةً ـ ... ثوبُ العفاف، وضاعت الأخلاق

وازْورَّ وجه الصدق في قسماته ... والكاذبون وجوههم إشراق!!

يا مسلمون! أمات عهدكمو وقد ... كانت تهزكمو لي الأشواق؟

أوّاه يا عمر.. فكم من محنة ... جُرِّعتُها والدمع بي رقراق!

أقبلْ إلينا وامحُ عني حقدهم ... وانفِ اليهود! فكم لزُورٍ ساقوا!

واضـرب بِـدُرَّتِكَ الـنيـامَ بأرضـهم ... من مـسلمين؛ فـإنهم مـا فـاقـوا
يا مـسلمـون! ألـيس لـي في قلبكم ... حُـبٌ وودٌ زانـه إشـفـاق؟
مـسرى نـبـيكم يدنَّس جـهـرةً ... كـلـبٌ يدنِّس أرضـه وبصـاق!!
قـد كنت في عـهـد الأكـابر كـوكـبـاً ... شـمـخت إلـيـه الجـيـد والأعـناق
كـان الرجـال يلون عنـي مـجـرمـاً ... بسـيـوفـهـم؛ كم طـارت الأعنـاق!
كـانت جـمـوع الحق تغـشى مـسـجـدي ... مـن بـين بـاكٍ هـده إشـفـاقُ
وهـناك مـن يتـلـو الكـتـاب مـرتِّـلاً ... وهـنـا ركـوع كـلـه إطـراق
قـد كـنت قـبـلـة أمـةٍ مكـيّـةٍ ... قُـدسـيـةٍ، ذلَّـت بهـا الفـسـاقُ
والآن.. فـانظـر من يهـيم بـسـاحـتي ... هـذا يـهـوديٌ.. وذاك نـفـاق!
كـانت جـوانب مـسـجـدي مـعـمـورةً ... نـورٌ يزيـن سـاحَـهـا ورُواق
والآن ـ يا هـذا ـ تسـيل مـدامـعي ... أبكـي وأصـرخ.. أشـتكـي.. أشـتـاق!!
لـكن بـلا جـدوى، كـأني لـم أزلْ ... أبكـي وأصـرخ للألـى مـا فـاقـوا!
أُمـسـي.. أقـول لـعلـكم تاتـونني ... عنـد الصـبـاح؛ فـلا ترى الأحـداق
إلا الصـبـاح يجـيـبـني في لوعـتي! ... وهـناك يـأسـى قـلـبي الخـفّـاق
كـشف الـسـتـار؛ فـبـان كل مـخـبَّـاٍ ... خـلف الـسـتـار، وفُـكت الأطـواق
كلٌّ يـريد مـن الحـيـاة بقـيّـةً ... يحـيـا بـهـا! وتـضـمـه الآفـاق
والـيـوم لا أملٌ أراه مـحـلّـقٌ ... إلا المخـازي لـفَّـهـا الإزهـاق

* * * *

الآن ـ إخـواني ـ ألـفت سـكـونـكـم ! ... وعـرفـت ذلـتكـم.. لـذاك أسـاقُ
إن كنتـمُـو لا ترغـبـون بنـصـرتي ... فـالله ينـصـرني، هو الخـلاق





دندنَ الوهمُ بقلبي

محمد عبد السلام الباشا

هل تَراني من عذابي لا أُعاني؟
أم تَرى أنّي فقدتُ الحسَّ
حتى في كَياني
أم تَرى في الجرحِ غِمداً من سِناني
لستُ أدري..
رُبَّما سطَّرتُ حَرفاً قد براني
هدَّني مِن داخلي
ثم احتواني
رُبَّما عانيتُ ظُلماً مِن حَناني
كم دعوتُ الصَّبرَ .. يأتي
علَّهُ يُعطي أماني
زمجري يا ريحُ إلا في مكاني
إنَّني من طولِ حُزني
دندنَ الوهمُ بقلبي
بلْ غزاني
سيطرَتْ أشباحُهُ
في كلِّ نَبْضٍ
في التعازي والتهاني
قد صبرْنا
بانتظارِ السعدِ يأتي
في الخوالي
واكتشفنا بعد حينٍ
أنَّنا بالوهمِ أبطالُ النزالِ
كم بذلنا جُهدَنا؟!
سعياً حثيثاً
في نهارٍ أو ليالي
كم رسمْنا السعدَ في أوهامِنا؟!
يدنو رويداً بالخيالِ

واعتلى كلٌّ حصانَ الشوقِ
لا يدري بتالي
آه من جهد تمطَّى
ضاعَ منّا
لم نصلْ فيه المعالي
قد رأيتُ الكونَ في دهري تجدَّرْ
بعضُكُمْ بالوهمِ في أفراحِهِ
غنّى تعطَّرْ
لو رأينا مَنْ يُعاني
ليتَنا ممنْ تأثَّرْ
إنَّ أخلاقاً بنا صارتْ يباباً
ساءني مَنْ قد تغيَّرْ
يستديرُ الوهمُ فيكُمْ
قد عَدا حتّى تكسَّرْ
زادني همًا إباءٌ قد توتَّرْ
صبرُنا من طولِ غمٍ قد تذمَّرْ
رُبَّما يأتيكَ جيلٌ
يحملُ الحلَّ المقدَّرْ
قد عرفتُ العيشَ
في دنياي يستدعيه وهْمُ
هذه الدنيا لمن عافَ التجني
كُرْبَةٌ تبدو وغَمٌّ
نستقي منها رياءاً
قادَهُ في النورِ عَتْمُ
أيها الشاكي تجمَّلْ
لن يُعيدَ الحَقَّ سلْمُ
واستمعْ منّي لقولي
لمحةٌ تكفي وفهمُ



عنب السلام

علي بن صالح الغامدي

عزف السلام فأطرب النمرودا ... والقدس أصبح هيكلاً وحدودا
والورد يُخنق سحْرُه بسذاجة ... من والهٍ قتل الحياة وعودا

* * * *

يا من يحاول غافلاً أن يجتني ... عنب السلام بإصبع عنقودا
عنب السلام مخمَّر يا صاحبي ... والنخل أضحى تائهاً عربيدا
والسيف يصدأ والبيان مكمَّمٌ ... واليوم أصبح بلبلاً غريدا
والمجرم السكران أمسى حامياً ... والحق أمسى أعزلاً وطريداً
والشرع يغرق في بحور ذوي الهوى ... والعدل يحمل نعشه موؤودا
والشوك يُفْرش في دروب ذوي النهى ... والصبر يُنْثر في الدروب ورودا
عبثاً أحاول أن أخط مشاعري ... فالغدر يكتب للسلام عهودا
والطفل يرضع بالتطبع منهجاً: ... القدس يجمع مسلماً ويهودا

* * * *

يا أيها العملاق في زمن الخنا ... الموت سطر بالجهاد خلودا
جاهد ميول النفس واكسر حظها ... وانحر ربيعك إن رأيت عنيدا
أطلق رصاص الليل وارقب فجره ... فجِّرْ بعزة مؤمنٍ جلمودا
واثقب جدار الصمت واكشف زيفه ... حطم رؤوس الظلم والتلمودا
في جنة الفردوس في ريانها ... تجد الشهيد مكرماً وسعيدا
إن مات في ذات الإله مجاهداً ... قد عاش في ظل الكتاب حميدا
فالحر يأبى ذلة ومهانةً ... والنذل يعبد شهوة ليسودا

وسائل الاتصال ودخول الثقافات الأخرى

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

قلت في مقال شهر شوال: إن وسائل الاتصال الحديثة كما أنها فرصة كبيرة لتبليغ الرسالة المحمدية، فهي أيضاً وسيلة يتخذها غير المسلمين ـ ولا سيما الغربيين ـ لنشر معتقداتهم وتصوراتهم المخالفة لتلك الرسالة. وهذه فتنة، لكن لا حيلة لنا الآن في ردها، فماذا نفعل؟ وهل وصول هذه الثقافات شر كله على المسلمين، أم أنه قد ينطوي على بعض الخير؟

لا شك أن في وصولها بعض الخير. ومن هذا الخير:

أولاً: أن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ولمجادلتهم؛ لأن الدعوة تكون أوقع في نفس المدعو إذا كانت مرتبطة بمحيطه الثقافي، ناقدة ومقوِّمة له. نعم! إن في ما يقوله ويعتقده غير المسلم ما هو قبيح ومؤذٍ للمسلم، لكن معرفته مع ذلك مهمة. وهذا كتاب ربنا مليء بحكاية أقوالهم القبيحة، والرد عليها، وتسلية الرسل والمسلمين الذين يتعرضون لسماعها.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٥].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.
[هود: ٧٨، ٧٩].

ثانياً: إن في العالم الآن مئات المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، وكلها تتلقى أسئلة عن الإسلام كما تتلقى نقداً له، أو شبهات تثار حوله، وكل هذا يعطي الدعاة فرصاً ثمينة لتبليغ الدعوة الإسلامية، وقد اهتدى ـ بحمد الله تعالى ـ عن هذا الطريق، وما تزال تهتدي أعداد كبيرة من الناس في شتى بقاع العالم.

ثالثاً: إن أخبار المهتدين هؤلاء سواء كانت هدايتهم عن طريق الشبكة أو عن طريق آخر مما يسرُّ المسلم ويزيده إيماناً بدينه وثقة به، ولا سيما حين يستمع إلى الأسباب التي أخذت بأيديهم للدخول في الإسلام وتفضيله على ما كانوا ينتمون إليه من معتقدات وقيم وثقافات، والتحول الكبير الذي حدث في نفوسهم وسلوكهم بعد اعتناقهم الإسلام.

رابعاً: بل إن الاطلاع على الحضارة الغربية، ومعرفة حقيقتها كان سبباً في عودة بعض المسلمين إلى دينهم، بعد أن كانوا مغترين ببريق تلك الحضارة، ومبتعدين عن الإسلام. سألت أحدهم - وكان سودانياً بمدينة لندن - عن سبب عودته، فقال: إنه قال لنفسه كلاماً فحواه: أنه إذا كان هذا الذي يراه هو نهاية مطاف الحضارة الغربية فإنه مصير لا يريده لنفسه ولا لبلده. وحدثني آخر - وكان شاباً من بنغلاديش التقيت به في كاليفورنيا - فقال: إنه اكتشف أنه كان مخدوعاً في هذه الحضارة وأنه كان يتصورها على غير حقيقتها التي اكتشفها في أمريكا، وأنه كان قبل مجيئه إلى الولايات المتحدة يسخر من تقاليد بلده ولا سيما في الزي ويقلد الزي ويقلد كل ما هو أمريكي. لكنه الآن غيَّر رأيه.

والآن ما أكثر المسلمين الذين يريدون الفرار من أمريكا أو أوروبا إلى أي بلد مسلم، خوفاً على أخلاق أبنائهم وعلى دينهم! هذا مع أن الذين لا يعرفون الغرب معرفة هؤلاء يكون أكبر همهم أن يهاجروا إليه، وأن يربوا أبناءهم في مدارسه.

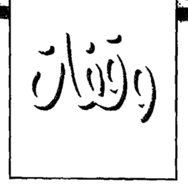
رابعاً: لكن الثقافات الأخرى - مهما كانت - لا تخلو من بعض الخير، فمعرفتها على حقيقتها تصحح الصورة القاتمة التي يرسمها لها بعض المتدينين عندنا من الذين لم يطلعوا عليها. وجوانب الخير هذه التي لا يكاد يخلو منها مجتمع بشري هي من بقايا الفطرة الخيِّرة التي فطر الله عليها العباد، وهي التي تمكنهم من رؤية الحق حين يعرض عليهم، وتساعدهم على قبوله حين يعرفونه، وإلا لو كان كل الناس من غير المسلمين لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً لما اهتدى أحد منهم إلى الإسلام ولا عرف قيمته؛ فكما أن الصورة المثالية للحضارة الغربية تفتن بعض الناس فإن الصورة المشوهة لها قد تيئس بعض الناس من هدايتهم.

خامساً: لكن وجود هذا الخير في حضارة كالحضارة الغربية شيء، وتصويرها على أنها المثال الذي ينبغي أن يحتذى في هذا العصر شيء آخر. أذكر أنني نقلت لمجموعة من الأمريكان في أحد المؤتمرات العلمية ما يقوله بعض المفكرين العرب عنهم، وكان مما قلت لهم: إنهم يقولون إنكم تختارون ناخبيكم على أسس علمية موضوعية، وعلى أساس البرامج التي يقدمونها لكم، فضحكوا حتى ضجت بهم القاعة، كأنني أسمعتهم نكتة من أظرف النكات. وذلك لأنه في الوقت الذي كان يقول فيه بعض المفكرين العرب ما ذكرت، كان هنالك معلق سياسي أمريكي مشهور يقول عن الانتخابات: إنها موسم ترويح أو تسلية. والمعروف أن من بين أسباب اختيار الرئيس: شكله، ونكاته، وجمال زوجه، ولذلك كان أنصار كلينتون يقولون للناخبين ما يقول أصحاب البضائع: اشترِ واحداً وخذ اثنين.

لكن مما لا شك فيه أن لدخول الثقافات الأخرى إلى بلادنا أضراراً كثيرة؛ وذلك أن ما ذكرنا من خيرات الاطلاع عليها ومعرفتها لا يشمل كل مطَّلع عليها من المسلمين، بل قد يكون تأثيرها ضاراً على أغلبهم، ولا سيما صغار السن وقليلي العلم منهم. ومما يساعد على تأثيرها الضار كونها هي الآن الحضارة القوية اقتصادياً وتقنياً، وعسكرياً، والناس - كما قيل - مولعون بتقليد الغالب. ومما يساعد على التأثير كون إعلامها القوي المتطور يعرضها بصورة جذابة تغري بها.

كيف العمل؟ هذا سؤال كبير، لكن نختصر الإجابة عنه فيما يلي:

يجب أولاً أن نعمل ما استطعنا للتقليل من فرص وصول جوانبها الضارة إلينا، وهي الجوانب المتمثلة في كثير من الأفلام والقصص، والجرائد والمجلات، كما يجب أن نسعى للتقليل من شرها بنقد أباطيلها والرد عليها مقتدين في ذلك بكتاب ربنا كما رأينا في الآيات التي أوردناها. والرد يكون رداً مباشراً على أباطيل معينة، كما يكون - وذلك هو المهم - بتزويد الناس بقواعد وأصول وأدوات وسائل الإعلام العامة. وأما الرد المباشر فيجب أن يكون عملاً يومياً تقوم به المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، كما تشارك فيه الصحف والمجلات التي تروي لنا أخبار الغرب وأقواله. وتكون الوقاية منها أيضاً بتقديم البديل الذي يغني عنها: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣].



من آفات القراءة (١-٢)

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

اشتهر عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي صاحب الكتاب العظيم: (الجرح والتعديل) بملازمته لوالده، وكثرة أخذه عنه، وكان يقول: «ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه»(١).

إنَّ القراءة هي إحدى الوسائل المهمة لاكتساب العلوم المختلفة، والاستفادة من منجزات المتقدمين والمتأخرين وخبراتهم. وهي أمر حيوي يصعب الاستغناء عنه لمن يريد التعلم، وحاجة ملحَّة لا تقل أهمية عن الحاجة إلى الطعام والشراب. ولا تقدُّم للأفراد ـ فضلاً عن الأمم والحضارات ـ بدون القراءة؛ فبالقراءة تحيا العقول، وتستنير الأفئدة، ويستقيم الفكر.

والقراء المنهجيون هم ـ في الغالب ـ النخبة المتميزة، والصفوة المؤثرة في التكوين الفكري والبناء الثقافي والمعرفي للأمة، ولهذا كانت العناية بالقراء عناية بروح الأمة وقلبها الحي النابض القادر على البناء والعطاء.

والقراءة ملكة وفنٌ لا يجيده كلّ أحد؛ فكم من القراء الذين يبذلون أوقاتاً طويلة في القراءة؛ ومع ذلك فإن حصيلتهم وإفادتهم منها قليلة جداً..!

وفي حلقتين اثنتين سأذكر ـ مستعيناً بالله ـ بعض الآفات التي قد تعرض لبعض القراء خاصة في بداية سلوكهم لهذا السبيل.

الآفة الأولى: قلة الصبر على القراءة والمطالعة:

وهذه آفة قديمة ازدادت في عصرنا هذا خصوصاً مع كثرة الصوارف والمشغلات الأخرى؛ حيث أصبح كثير من القراء لا يقوى على مداومة القراءة، ويفتقد الأناة وطول النفس، ولا يملك الجَلَد على المطالعة والبحث والنظر في بطون الكتب وكنوز العلم والمعرفة، وحينما يبدأ القارئ بالاطلاع على الكتاب سرعان ما يضعه جانباً ويشتغل بأمر آخر.

إنَّ الساحة الفكرية اليوم تعاني من خلل ظاهر في بناء ملكة القراءة، وها أنت ترى كثيراً ممن يدخلون في (زمرة المثقفين!) من أصحاب الشهادات الجامعية، بل حتى أصحاب الشهادات العليا، ومع ذلك تفاجأ بأن كثيراً منهم ربما يعجز عن إتمام قراءة كتاب واحد خارج تخصصه..!

إننا نعاني من أزمة حادة في عزوف كثير من المثقفين ـ فضلاً عن العامة ـ عن القراءة والبحث، مما أدى إلى اضطراب في التفكير العام، وسطحية مفرطة في كثير من الرؤى، وضحالة علمية حجبت منافذ البصيرة.

وترويض النفس وتربيتها وقسرها على القراءة من أنجح السبل لبناء تلك الخَلَّة الكريمة، خاصة عند نعومة الأظفار وبداية الطلب. وقد يعجز المرء في البداية، أو تصيبه السآمة والملل، ولكنه بطول النفس وسعة الصدر والعزيمة الجادة سوف يكتسب بإذن الله ـ تعالى ـ هذه الملكة حتى تصبح ملازمة له لا يقوى على فراقها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم»(٢)، وتكوين هذه العادة وغرسها في النفس من أولى ما يجب الاعتناء به لدى القراء والمربين.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/٢٥١).
(٢) أخرجه: الخطيب في تاريخه (٩/١٢٧)، وانظر السلسلة الصحيحة (١/٦٠٥).

ولست أدري كيف نروم - معاشرَ الدعـاة - العزة والتمكين، ونتطلع إلى تغيير مسار التـاريخ، وهممنا تتقاصر عن الانكباب علي كتب العلم والمعرفة، ونرضى بالقليل من المعلومات العائمة المفككة التي نحصل عليها من هنا أو هناك..؟!

وانظر إلى تلك المزية الجليلة التي تسنمها أسلافنا في هذا الباب، فهـا هو ذا متلأ الحسن الؤلؤي يقول: «لقد غبرت لي أربعون عاماً ما قمتُ ولا نمت إلا والكتاب في صدري»(1)، وحدَّث ابن القيم فقال: «أعرف من أصابه مرض من صداع وحمى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب عليه وضعه»(2).

الآفة الثانية: ضعف التركيز:

كثير من القراء يقرأ بعينيه فقط، ولا يقرأ بفكره، ولا يستجمع قدراته العقلية في التفهم والبحث. وربما جال القارئ بعقله يميناً ويساراً، وطافت بخاطره ألـوان من الهموم والمشاغل، ثم يفاجَأ بانه قضى وقتـاً طويلاً لم يخرج فيه بمادة علمية تستحق الذكر.

وبعض القراء يبدأ بهمة ونشـاط وتركيز، ولكنه بعد أن يقرأ قليلاً من الصفحات يبـدأ بالتململ التدريجي، حتى ينفلت الزمام من يديه، ويسـتيقظ فـجأة بعد أن سبح في عـالم رحب من الخواطر الشخـصية البـعيدة عن مادة الكتـاب، قال طه حسين: «كثيراً ما نقرأ لنقطع الوقت لا لنغذو العقل والذوق والقلب. وكثيراً ما نقرأ لندعو النوم لا لنذوده عن أنفسنا»(3).

وقد يؤدي ضـعف التركيـز أحياناً إلى اكـتساب مـعلومات مضطربة أو مـغلوطة أو ناقصـة، مما يقود إلى نتيـجة عكسية تضر القارئ ولا تنفعه، وقد يتعدى ضرره إلى غيره..!

إن امتلاك الـقدرة على التركيـز واستحضـار الفكر امتلاك لزمام المادة العـلمية، وهي السبـيل الرئيس للوصول إلى الفهم والإتقـان. ويختلف مقدار التـركيز المطلوب في القـراءة حسب طبيعـة الكتاب المقروء؛ ومسـتواه، وحسب مسـتوى القارئ الثـقافي أيضاً، وحـسب الهدف من القراءة؛ فـمقدار التـركيز الواجب لـقراءة كتاب عـلمي متخـصص يختلف عن التركيز المطلوب لقراءة قصة أدبية أو كتاب في الثقافة العامة.

وهذا يقودني إلى تقسيم القراءة إلى نوعين:

النوع الأول: القراءة التصـفحية: وهي القراءة التي يريد منهـا القارئ الاطلاع على مادة الكتاب ومـوضوعاته الرئيسـة، ويريد منها التـعرف من حـيث الجملة على أبوابه وفـصوله، ومنهج المؤلف وطريقـة عرضه. وهـذه الطريقة تصلح أن تكون مقدمة للـقراءة، وبعدها يقرر القارئ جدوى إعادة قـراءة الكتاب بتركيز، أو الاكتفـاء بالتصفح السريع. والاكتفاء بذلك يصلح لتكوين معلومات عامة، ولكنه لا يبني علماً راسخاً.

النوع الثاني: القـراءة العلمية: وهي القراءة المركزة التي يسـتجيب فيهـا القارئ لمادة الكتاب، ويتفاعل مـعها، ويرمي إلى تحليلهـا وبيان أفكـارها وأهدافهـا، وقد يدخل في حـوار إيجابي مـعـها. وهذا النوع من القـراءة هو الطريق الصحيح للبناء العلمي والمعرفي. ولأهمـيتها في تثبيت المعلومات، ولأهمية الكتاب المقـروء قد يرى القارئ إعادة قراءته عدة مرات لـترسيخ المكتسـبات العلمية التي تحـصَّل عليها، ولاكـتساب معلومـات أخرى ربما لم تتيسـر له في القراءة الأولى، وها هو ذا المزني يقرأ كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي خمسمائة مرة(4)!

وآفة كثير من القراء أنَّ أحدهم قد يعمد إلى قراءة الكتاب العلمي العميق قراءة تصفحية كما يقرأ الجريدة، ويكون همه الانتهاء من الكتاب، ولك أن تتخيل ماذا يمكن أن تكون حصيلة القارئ حينما تكون هذه هي طريقته دائماً في القراءة..!!

وقد ذكـر العلماء والتربويون أسـباباً كثـيرة تعين القارئ على التـركيز، مـثل: اختيـار الأوقات المناسبـة، والأماكن الملائمة الخـالية من الصوارف، وأن يكون خـالي الذهن، ولديه الاستعـداد العقلي والنفسي الذي يعـينه على استجـماع قدراته الفكرية.. ونحو ذلك مما يطول وصفـه، ولكن يجمعها وصف واحد وهو: أن يكون جاداً حـريصاً ذا همة صادقة؛ فمن امتلك هذا الوصف حرص على تذليل كافة العقبات التي قد تعرض له.

(1) جامع بيان العلم وفضله (2/1231). (2) روضة المحبين، ص 70.

(3) خصام ونقد، ص 6.

(4) مقدمة الرسالة، ص 4، وما أجمل قول الإمام البخاري: «لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر» هدي الساري، ص 488.



حصار الشِّعب
والدروس المستفادة منه

د. إبراهيم بن محمد عباس

إن الدين الإسلامي ليس مجرد تنظيم للحياة ولكنه دين واقعي يتعايش بأصوله ومبادئه وأحكامه مع الواقع بعيداً عن الافتراضات الخيالية والمثل العائمة التي لا تتوافق مع طبيعة النفس البشرية.

والسيرة النبوية العطرة هي المثال الحي للتطبيق العملي للمثل والأخلاق والمبادئ والأحكام الإسلامية، بل هي المنهج الإسلامي الكامل بكل مكوناته في واقع الحياة. وهي بهذا وبكل ما اشتملت عليه من أحداث وتوجيهات نور ساطع في سجل التاريخ البشري يقتبس منه من أراد في أي جيل دروساً تهدي الحيارى وترشد التائهين لأحسن السبل وأقومها.

إنها منهج ينبغي أن نتربى عليه ونربي أبناءنا على ما يشمله من مفاهيم وقيم نرى أن الناس في هذا الزمان أشد ما يكونون حاجة إليها.

وفي هذه المقالة نقلِّب النظر في حدث من أحداث السيرة النبوية المشرفة وهو (حصار الشِّعب) لنستنبط منه بعض الدروس والعبر التي نأمل أن ينفع الله بها..

أولاً: خبر الصحيفة:

قال ابن إسحاق: «لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم؛ فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل: اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شِعبه

فاجتمعوا إليه، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا، لا يصل إليهم شيء إلا سراً متخفياً به من أراد صلتهم من قريش. وقد كان أبو جهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله! لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة. فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم! فقال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه؛ أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ سبيل الرجل. قال: فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لَحْيَ بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطئاً شديداً وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم؛ ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وجهراً مبادياً بأمر الله لا يتقي فيه أحداً من الناس»(١).

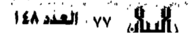
قال السهيلي: «وذكر ما أصاب المؤمنين مع رسول الله ﷺ في الشعب من الحصار لا يبايَعون ولا يناكَحون. وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة. وكان فيهم سعد بن أبي وقاص رُوي أنه قال: لقد جعت حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وبلعته وما أدري ما هو إلى الآن. وفي رواية يونس أن سعداً قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول فإذا قطعة من جلد بعير يابسة أخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ثم رضضتها وسففتها بالماء فقويت بها ثلاثاً. وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدُهم السوقَ ليشتري شيئاً لعياله فيقوم أبو لهب عدو الله فيقول: يا معشر التجار! غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً؛ فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي؛ فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء يُطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً»(٢).

الدروس المستفادة من هذه الحادثة:

١ - لقد فكر الأعداء - كما رأيت - تفكيراً جماعياً جاداً منظماً ومعتمداً على التخطيط الدقيق لضرب الحركة الإسلامية، وذلك حينما بدأت قاعدتها في الرسوخ، ونجحت في جذب العناصر القوية إليها، وبدأت تفكر في الحماية الأمنية اللازمة حتى تؤدي رسالتها للعالمين، عندئذ أدرك الأعداء أنه لا بد من القضاء على هذه الدعوة في مهدها، فكانت فكرة الحصار الاقتصادي وسياسة التجويع أملاً يداعب حلمهم ويطفئ ثورة حقدهم. ولكن الله خذلهم فأعز دينه وأتم نوره وازدادت الدعوة صلابة وقوة وازداد أصحابها يقيناً وتضحيات؛ فلا بد إذن من اليقين بأن الله متم نوره ولو كره الكافرون، وأن هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار مهما مكر الأعداء بأهله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٧١ - ٣٧٦، طبعة دار الإفتاء، الرياض.

(٢) الروض الأنف للسهيلي ٢/١٢٧ - ١٢٨.



٢ ـ لم تقتصر معاهدة قريش وأذاها على أصحاب الدعوة وحدهم بل شملت كل من يعطف عليهم أو يدافع عنهم أو يمدهم بصلة ولو سراً. ولهذا ينبغي لعموم المسلمين أن يكونوا يداً واحدة مع علمائهم ودعاتهم يؤازرونهم وينصرونهم، وعلى الدعاة إلى الله تقوية صلاتهم بأكبر قدر ممكن مع جمهور المسلمين ومد الجسور إليهم بالطرق الشرعية الصحيحة حتى يكونوا صفاً واحداً لا تخترقه سهام الأعداء. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٣ ـ لقد تجرع الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ مرارة هذا الحصار وتقلبوا في لظى هذه المؤامرة الخبيثة عندما أُطبِقَ عليهم بسياج من الظلم المكشوف المتمثل في تلك الصحيفة الجائرة، فصبروا حتى أتاهم نصر الله. لقد كانو يقدرون مسؤولية تبليغ الرسالة الملقاة على كواهلهم، وكانوا يدركون حقيقة هذه الرسالة وطبيعتها، وأنها لا بد أن تبلَّغ للناس بجهد من البشر، وفي حدود قدراتهم؛ فكان الصبر على مثل هذا البلاء نِعْمَ الزاد الذي يتناسب وطبيعة الطريق. لقد كانت التربية الجادة على منهج القرآن الكريم عاملاً مهماً من عوامل الصمود والتحدي أمام الباطل وأهله، ولقد كانت تربية النبي ﷺ لأصحابة على الصبر مقصودة في حد ذاتها؛ لأنه يعلم ـ ويريد أن يعلمهم ـ أن النصر مع الصبر، وأن البلاء سُنَّة ماضية، وأن أهل الإيمان لا بد أن يتعرضوا للفتن تمحيصاً وإعداداً. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

٤ ـ لقد تجلت التضحيات والمواقف النبيلة للثبات على المبدأ الحق عند الصحابة الكرام بما يبهر العقول وتعجز عن وصفه الألسن، ولذلك لم يكن مثل هذا المكر السيئ والكيد المسعور ليثنيهم عن واجب عظيم ورسالة قد آمنوا بها وأُشربوا حبها وعاهدوا الله على الجهاد في سبيل نشرها. إن الثبات والاستمرار في الدعوة علامة على صدق الداعية وإخلاصه وفهمه السليم لطبيعة الدعوة وحقيقتها، وإن التراجع أو الانتكاسة في منتصف الطريق وعند المنعطفات الحرجة التي تمر بها الدعوة يعد علامة على ضعف الإيمان وتزعزع اليقين وحب الدنيا والخلود إليها. يقول الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ: (وفي أيام الشِّعب كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وفد؛ فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات؛ بل يزيد جذورها عمقاً، وفروعها امتداداً، وقد كسب الإسلام أنصاراً كثراً في هذه المرحلة)(١). فالثباتَ الثباتَ أيها الدعاة، وعليكم بمواصلة السير والاستفادة من كل باب مفتوح لتبليغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.
[آل عمران: ١٣٩].

٥ ـ لقد وقف الكفار من عشيرة النبي ﷺ موقفاً حسناً؛ إذ دخلوا معه ومع أصحابه في الشِّعب حمية منهم وتقديراً ـ ولا شك في ذلك ـ لما تميز به الرسول الكريم ﷺ من حسن الخلق وحسن المعاملة معهم. فما

(١) فقه السيرة، للغزالي، ص ١٢٩.

أجمل الإحسان إلى الناس! وما أحق الأقربين بالمعروف! وأفضلُ الإحسان إلى هؤلاء هو دعوتهم للخير والأخذ بأيديهم إلى رياض الإيمان. والداعية - بلا شك - معرض للأذى والخطر من أهل الشر الكارهين للدعوة ولمن يقوم بها؛ ولذلك لا بد له من حماية. وعشيرة الداعية وأقرباؤه هم أكثر الناس استعداداً لمثل هذه الحماية؛ وخاصة إذا مَنَّ الله عليهم بنور هذه الدعوة وصبروا على ما يلاقون في سبيل نشرها من الأذى؛ فإنهم حينئذ في مقام كريم ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

٦ - لا بد أن ندرك أن الأعداء يبذلون الكثير من المال من أجل نشر باطلهم والصد عن سبيل الله؛ فمن أجل تلكم الأزمة الاقتصادية دُفعت الأموال الطائلة للضغط على الأجساد والبطون، ولكنهم لم يجدوا إلى القلوب المؤمنة سبيلاً، وما زال الأعداء ولا يزالون ينفقون بسخاء في سبيل الظلم والطغيان ونشر الكفر والإلحاد وتشجيع الفجور والإباحية عن طريق المؤسسات الإعلامية والمؤسسات التنصيرية والمؤسسات الفكرية وغيرها؛ كل ذلك ليصدوا الناس عن الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وإذا كان أهل الباطل يبذلون الكثير من المال من أجل باطلهم وفجورهم فما بال الموسرين من المسلمين يمسكون - إلا ما شاء الله - عن الإنفاق في سبيل الله لنشر الحق ودعوة الحق ومواساة المعوزين من المسلمين؟ فالبذلَ البذلَ - أيها المسلمون - وإلا حق فينا قول الحق - جل ثناؤه -: ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

ثانياً: حديث نقض الصحيفة:

قال ابن إسحاق: «ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش ولم يَبْلُ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو؛ وذلك أنه ابن أخ نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه فكان يأتي بالبعير وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً قد أوقره طعاماً حتى إذا أقبل به فم الشِّعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بزاً فيفعل به مثل ذلك... ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - فقال: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً. قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد! والله! لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها. قال: وقد وجدتُ رجلاً. قال: من هو؟ قال أنا. قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً، فذهب إلى المُطعِم بن عدي، فقال له: يا مطعم! أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنها إليها منكم سراعاً. قال: ويحك! فماذا أصنع؟

إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدتُ ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال ابغنا ثالثاً، قال: قد فعلتُ، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعاً. فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال لمطعم بن عدي، فقال: ابغنا خامساً. فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم! ثم سمى له القوم. فاتَّعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في نقض الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة! أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم لا يباعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت، والله! لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت ـ والله ـ أكذب؛ ما رضينا كتابتها حين كتبت. قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب ـ والله ـ فيها ولا نقر به. قال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، قال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تُشُووِر فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأَرضة قد أكلتها إلا: (باسمك اللهم) وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فَشَلَّت يده ـ فيما يروُون.

قال ابن هشام: وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم! إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان. فقال: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: نعم. قال: فوالله! ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلمَّ صحيفتكم، فإن كانت كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي؛ فقال القوم: رضينا. فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً؛ فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا»(1).

الدروس المستفادة من هذه الحادثة:

١ـ لقد استطاع نفر من الناس بعمل يسيرٍ مواجهة أزمة دامت ثلاث سنوات خطط لها أصحابها وأحكموا تنفيذها ودعموا استمراريتها بكامل قواهم السياسية والاجتماعية. نعم! لقد استطاعوا تخطي هذا المأزق الصعب وهم نفر قليل كانوا يعيشون وسط المجتمع نفسه، وذلك بالعزيمة القوية والتخطيط الدقيق؛ إذ لم يكن أحد من كبار القوم ومن أصحاب تلك المؤامرة الخبيثة يحلم بأنه سيأتي اليوم الذي تنتهي فيه هذه المؤامرة بمثل هذه السرعة وبمثل هذه المفاجأة؛ فقد وضعوا في حسابهم أنه لا يمكن لأحد أن يقف في وجه هذه القوة التي تحمي هذا القرار، وإن استطاع أن يقف في وجوههم فإنه لا يستطيع أن ينتهك قداسة القرار الذي علق

---

(1) سيرة ابن هشام ١/٣٩٧ ـ ٤٠٠.

في جوف الكعبة، ولكنهم نسوا أن الظلم مرتعه وخيم، وأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه.

واليوم وبفعل الهزيمة النفسية التي أصابت المسلمين فإنه يقع مثل هذا الحصار من الدول الظالمة ولا يقوم أحد برد الظلم وتمزيق الصحيفة والانسحاب من القرار؛ بل لا يفكر الكثير من المسلمين حتى في مجرد المحاولة؛ لا أقول بالعنف ولكن بالحوار والحل السلمي وهو الأسلوب الذي ينادون به حينما تكون القضية في صالحهم؛ فأين الذين يفكرون في قضايا إخوانهم المسلمين ويتفاعلون مع همومهم ويدركون معنى قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

٥ - إن الحكمة وحسن التخطيط من أساسيات الدعوة إلى الله - تعالى - وكم نحن في حاجة إليه؛ لأن العشوائية وارتجال المواقف والتكبر عن طلب النصح والمشورة قد جنت الدعوة من ويلاتها العلقم المر حتى أصبح التخطيط والتنظيم ضرورة دعوية على مختلف المستويات لا يكاد يختلف عليها اثنان ممن يعرفون طبيعة الدعوة ومخططات أعدائها؛ وخصوصاً في مثل هذا العصر المشحون بالفتن والمغريات، ومع ذلك فإن هناك - للأسف الشديد - من لا يكتفي بعدم القناعة بهذا؛ بل يشكك فيه ويحاربه، ولعل مثل هذا يستفيد من الحكمة والتخطيط عند هؤلاء النفر ولعله يستفيد من موقف زهير بن أبي أمية مع قومه وكيف اختار هيئة مناسبة وقدم للأمر بالطواف، وتكلم كلاماً موجزاً قوياً يفي بالغرض لهذا العمل الفدائي - إن صح التعبير - في ذلك الوسط المشحون بالعداوة والموبوء بحب الانتقام والسيطرة.. ولينظر كيف تم التشاور الثنائي في كل مرحلة حتى أحكمت الأدوار وتم التنسيق للعرض والمواجهة، وأخذت العدة واختير الزمان والمكان المناسبين لعقد هذا الاتفاق، ثم مُثِّل هذا الدور على أحسن صورة فكانت كلمات القوم تنطلق من وسط الصفوف يؤيد بعضهم بعضاً بطريقة لم يجد أمامها الملأ إلا التسليم... فهل في هذا العمل الإنساني النبيل من بأس، وهو يحقق مصلحة عامة؟ ألا فليتأمل هؤلاء ويقيسوا - إن كان للقياس عندهم اعتبار - بدلاً من أن يجعلوا التخطيط والتنظيم في أمور الدعوة محل اتهام، ويرونه جائزاً للكفار ومحرماً على المسلمين. ألا فاستلهموا رشدكم واعرفوا قدر عدوكم ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

٦ - إن أصحاب النفوذ والقوة كلماتهم مسموعة وأمرهم مطاع في غالب الأحيان؛ ولكن الذي يؤسف له هو عدم الروية والتفكر فيما يأمرون به وينهون عنه؛ فهؤلاء النفر الذين سعوا في نقض الصحيفة كانوا - ولا شك - على علم بها منذ بداية أمرها فوافقوا عليها حينئذ مكرهين - إكراهاً - معنوياً - حتى لا يشذوا عن الصف ويكونوا محل اتهام من أصحاب القرار؛ ولكنهم فيما بعد فعلوا الذي فعلوا، بل وبينوا أنهم لم يكونوا راضين عن هذه الصحيفة عند كتابتها، ولم يستشرهم فيها أحد، بل تشاور فيها الملأ ولم يستأذنوا فيها العامة، ولهذا أدرك هؤلاء الرهط أن هذه السابقة تنبئ عن خطر عظيم تكنه نفوس القوم الذين سعوا في كتابة هذه الصحيفة؛ فلذلك قال هشام بن عمرو للمطعم بن عدي: (أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنها إليها منكم سراعاً) وأدركوا أيضاً أن هؤلاء الملأ لم ينفذوا هذا القرار إلا لرغبتهم الشخصية وليس فيه أي مراعاة

للمصلحة العامة؛ ولذلك قال صاحب المبادرة هشام بن عمرو لزهير: (أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً) وهذه سياسة أصحاب المطامع؛ فهم في كل زمان يكيلون بمكيالين شأنهم شأن من قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

٤ ـ لا شك أن موقف أهل الباطل من الدعوة ليس بدرجة واحدة؛ بل يتفاوت تفاوتاً كبيراً، وكذلك ينبغي أن يكون موقف أهل الحق منهم؛ لأن منهم من يتعاطف مع الدعوة ويقف بجانبها حتى وإن كان مقيماً على فسقه وفجوره، ومنهم من يكرهها ويحقد على أهلها بكل حال ـ وإن كانوا مظلومين ـ استكباراً منه وعدواناً، ومنهم أناس بين ذلك ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢] وفي قصة الشِّعب نجد لعمِّ النبي ﷺ أبي طالب مواقف تستحق الذكر والإشادة وإن كان كافراً؛ ففي بداية الأمر كان هو الذي (جمع بني عبد المطلب فأجمع لهم أمرهم على أن يُدخِلوا رسول الله ﷺ ومن معه شعبهم، ويمنعوه ممن أراده، وذلك حينما أجمع المشركون من قريش على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فاجتمع بنو المطلب كافرهم ومسلمهم؛ منهم من فعله حمية وهم الكفار، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً وهم المسلمون؛ فلما عرفت قريش أن القوم قد اجتمعوا ومنعوا الرسول ﷺ اجتمع المشركون من قريش وأجمعوا أمرهم على ما في الصحيفة)[1] كما كان في ليالي الشِّعب (يأخذ أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فيضطجع على فراش رسول الله ﷺ ويأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها حرصاً عليه ممن يريد به مكراً أو غائلة)[2] ثم إنه أيضاً كان صاحب المحاولة الأولى في نقض الصحيفة ـ كما أسلفنا ـ. وفي المقابل فإن عدو الله أبا جهل كان أول من سعى في كتابة الصحيفة وكان يمنع وصول أي مدد إلى المحاصرين وكان من أكبر المعارضين لنقض هذه الصحيفة.. ثم تأمل في أولئك النفر من قريش كيف كانوا كارهين لهذا الأمر؛ كلما ذهب هشام إلى واحد منهم وافقه على رأيه بسهولة ويسر ودون تردد، بل ربما لو أراد هؤلاء الخمسة أن يستزيدوا لوجدوا كثيراً من الجماهير ممن نشؤوا على كره الظلم تتابعهم على ذلك، ولكنهم خافوا أن يفتضح أمرهم فيدخل معهم من لا يؤمن جانبه. «والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا؛ تجد من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه»[3].

٥ ـ إن رد الجميل لأصحابه ومكافأة المحسنين على إحسانهم خُلُق رفيع حث عليه الإسلام؛ وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «من أتى إليكم معروفاً فكافئوه»[4] وقد كان النبي ﷺ مقدراً لأصحاب المواقف مواقفهم الإيجابية في هذا الحدث الهام، وكان يكافئهم عليها. فأما عمه أبو طالب فقد قال العباس بن عبد المطلب ـ

---

(١) مغازي عروة بن الزبير، الأعظمي، ص١١٤.

(٢) مغازي عروة بن الزبير، الأعظمي، ص١١٤.

(٣) صحيح البخاري، حديث ٣٤٩٦.

(٤) حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير للألباني، رقم ٥٨١٣.

رضي الله عنه ـ للنبي ﷺ : ما أغنيتَ عن عمك؛ فوالله كان يحوطك ويغضب لك» قال: «هو في ضحضاح من نار؛ ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[1]. وأما هشام بن عمرو فقد أسلم وأعطاه النبي ﷺ من غنائم معركة حنين دون المائة من الإبل[2]. وأما أبو البختري فقد كان في صف المشركين يوم بدر فنهى النبي ﷺ عن قتله، قال ابن هشام: (وإنما نهى النبي ﷺ عن قتل أبي البختري؛ لأنه كان أكف القوم عن الرسول ﷺ وهو بمكة وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة)[3] وهذه مجرد أمثلة للاعتبار. وعلى الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ أن يعرفوا لأهل الفضل فضلهم، وأن يسجلوا لأصحاب المواقف الشريفة مواقفهم، وأن يجازوهم على الإحسان إحساناً؛ فإن من الأفاضل من يذب عن أعراض الدعاة بلسانه وقلمه ويتصدى لأعداء الدعوة ويسد طريقهم، ومنهم من يتفانى في نصح الدعاة وطلبة العلم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ويدعمهم ويقف معهم؛ فهذه الجهود ينبغي أن تكون محل رضى وتقدير من جميع الدعاة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾. [الأحزاب: ٢١].

٦ ـ يجب ألا يغفل الدعاة إلى الله عن الاهتمام برؤوس الناس وقادتهم الذين يؤثرون فيهم سلباً وإيجاباً وحسن العلاقة معهم؛ فقد يتحقق على أيديهم نفع عظيم للدعوة ولو لم يكونوا على قدر من الاستقامة.

٧ ـ ينبغي ألا يعرض عن أهل الباطل بالكلية؛ فإن منهم أناساً مأسورين إما بشهواتهم وأهوائهم أو بتأثير من شياطين الجن والإنس، وبعض هؤلاء قد لا يحتاجون إلى كبير جهد ليميزوا بين الحق والباطل فيتبعون الحق ويعز الله بهم الدين.

٨ ـ من الحكمة اتخاذ الأسلوب الحكيم والحجة البالغة في الحوار واهتبال الوقت المناسب له ليؤدي نتيجة مثمرة؛ فإن الرهط الذين سعى إليهم هشام ليتفق معهم على نقض الصحيفة لم يعترض منهم أحد؛ ولعله قد اختار الأشخاص المناسبين لهذا الحدث حسب معرفته بالرجال ومواقفهم السابقة من الدعوة وحسب تقديره لما يتطلبه الموقف.

٩ ـ يراعى جانب من بدرت منه بادرة طيبة وموقف حسن من الدعوة؛ فإن مثل هذا غالباً مهيأ في مستقبل الأيام ليكون له شأن آخر ومواقف مباركة، فلا بد أن يشجع ويشكر على مواقفه تلك لعله يكون رصيداً لمستقبل الدعوة.

ثالثاً: الحصار الحديث:

أخي القارئ الكريم: لعلك قد أدركت من خلال هذا العرض السريع لحدث تاريخي هام من أحداث السيرة النبوية العطرة وما تخلل ذلك من الدروس والعبر أن الأمة الإسلامية في الوقت الراهن تعاني أربعة أنواع من الحصار:

---

(١) صحيح البخاري، حديث ٣٨٨٣.
(٢) سيرة ابن هشام٤/١٤٠.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٠.

> يجب ألاَّ يغفل الدعاة إلى الله عن الاهتمام برؤوس الناس وقادتهم؛ فقد يتحقق على أيديهم نفع للدعوة

النوع الأول: الحصار المادي لبعض الشعوب الإسلامية المنكوبة وهو أسلوب وإن استنكرته الجاهلية الأولى فإن من يفرضونه في جاهلية اليوم ممن يسمون بالدول الكبرى يفتقدون بعض الخصائص التي كان يتميز بها أسلافهم من المشركين مثل المروءة والشهامة والحياء، ويفتقد كبراؤهم بعض المبادئ الإنسانية الأولية التي يمكن أن ينبثق عنها العطف والرحمة لهذه الشعوب، ولقد بلغت بهم الكبرياء والغطرسة مثل الذي كان بفرعون من الطغيان وإن لم يقولوا بألسنتهم ما قاله الأول بلسانه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] إلا أن لسان الحال شاهد على ذلك بما لا يقبل الشك، ومكرهم أصبح مكشوفاً، ونحن نؤمن بقول الله - تعالى -: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾. [فاطر: ٤٣].

النوع الثاني: الحصار المعنوي للشعوب المسلمة وذلك (بإغراق الناس في الشهوات بالإعلام الماجن الذي يشيع الفواحش وينشر الرذيلة على أمل أن ينجرف أكثر الشباب في تيار الإباحية والفجور فلا ينفعهم نصح الناصحين ووعظ الواعظين)[1].

النوع الثالث: الحصار المادي للدعاة والعلماء؛ وهذا وإن كان مما يؤلم القلوب المؤمنة إلا أن له فوائد عظيمة وآثاراً بعيدة المدى في صقل نفوس الدعاة المأسورين فإذا هي كالذهب الخالص. قال الله - تعالى -: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

النوع الرابع: الحصار الفكري للدعاة وذلك بصد الجماهير عنهم من خلال وصفهم بالألقاب المنفرة كالتطرف والإرهاب وغيرها، وذلك بواسطة الإعلام الذي يخدر الشعوب ويقلب الحقائق ويفرق بين القلوب؛ فهو السحر الحديث الذي أفرزه الفكر الغربي، وهو المصيدة التي يمكن أن تؤدي الدور بالوجه المطلوب بعد أن ترفع راية الإرهاب وتلوِّح بها وتنادي الجميع للمشاركة في زوبعتها ليجعلوها دعوى يطعنون من خلالها في الدعوة الإسلامية، ومعولاً يضربون به حصونها، وسيفاً مصلتاً على رقاب الدعاة والمخلصين، وتهمة جاهزة تطرح على المجاهدين الصادقين.

إن هذا المصطلح - أعني الإرهاب - مصطلح مناسب لمثل هذا الحصار الدعوي بغضِّ النظر عن مكان منشئه وسببه. إنه مصطلح مخيف يهز قلوب الجبناء ويسيطر على أفئدة ضعفاء العقول؛ لأنه لفظ يوحي بالنفرة

(١) وقفات تربوية مع السيرة النبوية، لأحمد فريد، ص ٨٥.

والوحشية لسامعه ومن خلال وصم الدعاة بهذا اللقب يمكن الطعن في الجهاد الإسلامي والتشكيك في حكمته.

ويهتبل الإعلام الكاذب والمزور للحقائق فرصة كل حركة نشاز وكل حادث شاذ يقع من بعض الجهلة أو المتعجلين من المسلمين ـ أو من غير المسلمين أحياناً ـ فيضخمه ويستغل الحدث اليسير أبشع استغلال، من أجل الكيد للدعوة ودعاة الإسلام وشن الهجوم الكاسح عليهم والطعن في نياتهم؛ حيث يتهم دعاة المسلمين زوراً وبهتاناً وظلماً وعدواناً بأنهم وراء كل عمل إجرامي وكل حادث تخريبي يحدث في أي مكان من الأرض حتى تثبت براءتهم إن كان لذلك من سبيل.

لقد نجح الأعداء إلى حد بعيد ـ وعلى مدى العشرين سنة الأخيرة تقريباً ومنذ أن ظهر مصطلح الإرهاب والتطرف ـ في عزل الدعاة عن جماهير المسلمين عزلاً فكرياً يفوق في آثاره العزل الحسي.

لقد جعل الأعداء شبح هذا المصطلح يطارد كل مسلم مستقيم يحافظ على أصول دينه أو يفكر في الدعوة إليه، وجعلوا هذا المصطلح مرادفاً للتعصب المذموم والتشدد في الدين والغلو والتنطع والبعد عن حقيقة الإسلام وصفائه، واتهموا من وصموهم بهذا المصطلح بكره الشعوب وعامة الناس والانتقام من المصالح العامة وتدمير مقدرات الأمة والعبث بها، وبعد أن وسّعوا دائرة هذا المصطلح بما يوافق شهواتهم وأهواءهم جعلوه عنواناً على صنف من الناس بمواصفات خاصة تزيد في مكان وتقل في مكان آخر. ومع أن التأثير يتفاوت من بلد لآخر إلا أن العامل المشترك هو نظرة الجميع لهذه الفئة من الناس بأنهم شواذ أو على أقل تقدير يجب التحفظ عليهم والبعد عنهم والخوف من آرائهم المنحرفة وأفكارهم المسمومة وحمل كلامهم دائماً على المحامل الأخرى التي تتناسب مع التفسير الإعلامي الذي يطن في الآذان صباح مساء. ومن هنا نجح هذا الحصار الدعوي الفكري الإعلامي في عزل هذا الفئة المؤمنة المجاهدة عن التأثير المطلوب في الجماهير المتعطشة لدينها من خلال هذاالتخطيط الماكر وهذه الفكرة المسمومة.

ومن أجل هذا كان لا بد من التفكير الجاد للخروج من مأزق هذا الحصار النفسي وتحدي هذه العقبات بتوثيق الصلة بين فئات المجتمعات المسلمة، والدعوة في صفوفهم بالأساليب المشروعة، وكشف خطط الأعداء بإجلاء الغشاوة التي وضعها الإعلام الخبيث على أعين الكثيرين من الغافلين؛ وذلك من أجل توضيح الحقائق وتصفية القلوب وتبليغ دين الله ـ عز وجل ـ حتى يعم الخير ويفشو الصلاح ويقطع دابر المجرمين.



في هذه الزاوية يسر المنتدى الإسلامي أن يتواصل مع قرائه الكرام بإيقافهم على آخر الأنشطة والمستجدات والفعاليات التي تتم بفضل الله - تعالى - في مختلف مكاتبه المنتشرة في إفريقيا وآسيا، سائلين الله - تعالى - أن يخلص النيات، ومتمنين من أحبابنا الكرام أن يزودونا بملحوظاتهم واقتراحاتهم، وأن يقفوا معنا بدعائهم وعونهم.

افتتاح كلية لندن المفتوحة

تم بحمد الله - تعالى - افتتاح كلية لندن المفتوحة التابعة للمنتدى الإسلامي يوم الجمعة الموافق ٨ شوال ١٤٢٠هـ في لندن، وقد حضر هذه المناسبة جمع من أهل العلم والدعوة الإسلامية في بريطانيا وبعض الضيوف من خارجها، ابتدأ الحفل بكلمة من (د. جلال الدين محمد صالح) المشرف العلمي للكلية تحدث فيها عن أهمية العلم الشرعي ووسائله قديماً وحديثاً. ثم تحدث (د. عبد المحسن آل الشيخ) رئيس مجلس إدارة الكلية عن أهداف الكلية وبرامجها. ثم تحدث الشيخ (د. جعفر شيخ إدريس) رئيس المجلس التأسيسي للجامعة الأمريكية المفتوحة عن أهمية أمثال هذه المشاريع وطموحاتها لتشمل نواحي العلم المختلفة. أما (د. بلال فيلبس) عضو هيئة الإشراف العلمي للكلية فقد تحدث باللغة الإنجليزية عن أهمية العلم الشرعي بطريقة التعليم عن بعد خاصة لغير الناطقين بالعربية. بعد ذلك تحدث (الشيخ د. صلاح الصاوي) نائب رئيس المجلس التأسيسي للجامعة الأمريكية المفتوحة عن العولمة وكيف نستفيد منها في هذا النوع من المشاريع لتحقيق عالمية هذا الدين. أما عميد الكلية (الأستاذ محمد النجار) فقد تحدث بعد ذلك عن مراحل إنشاء الكلية. وأخيراً قدم (د. عمر النمري) المشرف الأكاديمي للكلية والمهندس (هواري بن كريلة) منسق البرامج شرحاً مفصلاً عن التسجيل في الكلية من خلال صفحة الكلية على الإنترنت.

وعلى هامش هذا الافتتاح عقدت هيئة الإشراف العلمي للكلية اجتماعها الأول بحضور رئيس مجلس إدارة كلية لندن المفتوحة وعميد الكلية والمشرف العلمي للكلية وأعضاء هيئة الإشراف العلمي الآتية أسماؤهم:

- د. جعفر شيخ إدريس.
- د. بلال فيلبس.
- د. حافظ الكرمي.
- د. صهيب حسن.

وتم في الاجتماع مناقشة بعض القضايا العلمية المتعلقة بالكلية.

وقد بدأت الدراسة مع بداية الفصل الدراسي في برنامجين: أحدهما باللغة العربية، والآخر باللغة الإنجليزية. ويسر المنتدى الإسلامي بهذه المناسبة أن يتوجه بالشكر الجزيل للحضور الكرام في حفل الافتتاح ولأعضاء هيئة الإشراف العلمي ولجميع من كان خلف هذا العمل المبارك في إدارة الكلية، سائلين الله - تعالى - أن يوفق الجميع للعلم النافع والعمل الصالح. إنه سميع مجيب.

موسم الخير

في شهر رمضان وكما تتنزل الرحمات من رب الأرض والسماوات، يفتح الله ـ تعالى ـ بمنّه وكرمه على الدعاة بأعمال خير كثيرة، وكان لدعاة المنتدى نصيب من هذه الأعمال.. ومنها:

مشروع إفطار الصائم الذي أقيم هذا العام، حيث شمل (٣٩) دولة في قارات إفريقيا، آسيا، أوروبا، الأمريكتين. وقد وزعت من خلال المشروع (١,٠٦٦,٠٠٠) وجبة كما صحب المشروع برنامج توجيهي دعوي حفل بالمحاضرات والكلمات والمواعظ التي بلغ مجموعها قرابة (١٣,٢٥٠) برنامج دعوي، أفاد منها معظم الحاضرين في برنامج الإفطار

وقد آتت هذه الجهود ثماراً حسنة مباركة فعلى سبيل المثال:

في غانا: نُفذ المشروع في ١٣٩ موقعاً من أقاليم غانا، والذي استفاد منه (١٣٨,٩٢١) شخص، وصاحب هذا البرنامجَ برنامجٌ دعويٌ مكثف في العقيدة والفقه، وكان من ثمرات هذا الجهد المبارك أن اعتنق الإسلام ٩٩ شخصاً.

وفي نيجيريا: تم تنفيذ المشروع الذي استفاد منه (٢١٤,٨٥١) شخص، وكان مصحوباً بأنشطة دعوية كثيرة ومكثفة، وقد مَنَّ الله على ٣٣ شخصاً بالإسلام من خلال هذا النشاط.

وفي مالي: أسلم (٥٠) شخصاً تأثراً بمشروع الإفطار وما فيه من برامج دعوية.

وفي مجال الأنشطة التربوية والدعوية خلال شهر رمضان أقيمت المسابقة الكبرى لحفظ القرآن الكريم في (غانا)، وقد شارك فيها ٤٦ متسابقاً.

وفي توجو: أقيم اعتكاف ودورة رمضانية لطلاب حلقات تحفيظ القرآن، كما أقيمت الدورة التأهيلية للدعاة المتطوعين، والدورة الرمضانية لطلاب المعاهد الشرعية في مركز المنتدى بـ (لومي)، وقد شارك في الدورتين أكثر من ١٠٠ طالب.

نشاط حافل في لندن

بفضل الله ـ تعالى ـ حفل مكتب لندن بأنشطة عديدة، وكان النشاط مكثفاً للمسلمين في لندن وذلك للانشغال الحاصل مع الاحتفال بالألفية، فكانت الجهود الموجهة كي يعتكف المسلمون على التقرب إلى الله بالطاعات. كما أقيمت دورتان شرعيتان كانت الأولى تحت عنوان: «فقه الأقليات المسلمة»، حاضر فيها د. صلاح الصاوي، والأخرى بعنوان: «مسائل فقهية».

كما صاحب ذلك عدد من المحاضرات والدروس والمواعظ، والمسابقات والندوات وتوزيع الأشرطة السمعية والنشرات التعليمية كما أقيم اعتكاف في العشر الأواخر، وبلغ عدد المعتكفين حوالي ٢٠٠ شخص.

نشاط آخر في مالي

أقيم في مالي ملتقى دعوي شارك فيه ٤٩ داعية، وقد ناقش الملتقى عدداً من القضايا الدعوية منها:

١ - خصائص أهل السنة والجماعة وصفاتهم.

٢ - دور العلماء وطلبة العلم في إصلاح المجتمع.

٣ - خطر القاديانية.

كما نظم مكتب المنتدى هناك ثلاث دورات شرعية شارك فيها ١٧٥ شخص في كل من مدينة باماكو، وكاي، وموبتي.

الدين المعاملة

قصة عجيبة ولكنها من رحمة الله بعباده؛ فقد وقع حادث أليم على طريق جوس / كادونا «نيجيريا» وأُحضِرَ جميع المصابين إلى المستشفى التعليمي لجامعة جوس. وكان ضمن المصابين طبيب استمر يعالَج لمدة طويلة، وقد لفت نظره أحد الأطباء الذين يعملون بالمستشفى بسبب حسن معاملته وأخلاقه واهتمامه بالمرضى دون تفريق. وللعلم فإن الطبيب المتفاني هذا لم يمض على إسلامه أكثر من سنتين وقد اهتم به دعاة المنتدى الإسلامي الدرسون بمدرسة البيان وخصصوا له ولزملائه بالمستشفى بعض الكتب والرسائل ومجلة (الجمعة) باللغة الإنجليزية. وكانوا يجلسون معهم كل ثلاثة شهور في برنامج ونقاش دعوي.

وقد اندهش الطبيب المصاب لشفقة هذا الطبيب واهتمامه؛ فقال له: هل أنت نصراني؟ فرد قائلاً: لا؛ بل أنا مسلم. فقال له: لكنك في شفقتك واهتمامك تشبه المنصِّرين! فقال المسلم: إن الإسلام يأمر بكل ما رأيت وأكثر، وبدأ معه حواراً حول الإسلام. وعندما رأى النصارى ذلك أرسلوا له منصِّرة أوروبية بالكتاب المقدس ـ كما يزعمون ـ وكُتُب نصرانية أخرى وأصبحت تناقشه وتتابعه عن كثب.

ولكن الرب الرحيم العظيم قدَّر له الهداية؛ ففي يوم الخميس ١٦ رمضان ١٤٢٠هـ دعا جمعاً من المسلمين بما فيهم الطبيب الذي كان محل إعجابه بتصرفاته وأخلاقه، وطلب منهم العفو والمسامحة، وطلب منهم أيضاً أن يتوضأ أحدهم أمامه حتى يرى كيفية الوضوء؛ فقال له المسلمون بأنه غير مسلم، فلن يستفيد من الوضوء؛ ولم يكن قد أعلن أنه اعتنق الإسلام، وعند ذلك أشهر إسلامه أمامهم ونطق بالشهادتين، وطرد المرضة الأوروبية بكتبها من عنده، وطلب استبدالها بمصحف وكتب إسلامية ومجلة الجمعة، وفرح المسلمون بالمستشفى بهذا الحدث. والعجيب أنه توفي صبيحة الجمعة، اليوم التالي لإسلامه. نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

وهكذا نتعلم درساً وننهل عبراً من هذه القصة، ومن أهمها: سلوك طبيبنا المسلم، كأنه يقول للدعاة: يمكننا أن ندعو بمعاملتنا وأخلاقنا قبل أن تصدر كلماتنا داعية إلى الله.

افتتاح جامع السالمية

افتتح بحمد الله ـ تعالى ـ جامع السالمية في مدينة باماكو ـ مالي، وهو مسجد جامع يتسع لـ (٣٦٠) مصلٍّ، ويحتوي على مكتبة علمية، وفصل لتحفيظ القرآن الكريم. نسأل الله ـ تعالى ـ أن يعين القائمين على تبليغ الرسالة.

مؤتمر حمّى عام ٢٠٠٠م

أقام مكتب المنتدى الإسلامي في بريطانيا في آخر شهر رمضان مؤتمراً بعنوان (حمى عام ٢٠٠٠م) استمر لمدة ثلاثة أيام، وقد تميز هذا اللقاء بحضور جيد، ومما زاد من إقبال الناس خاصة من غير العرب استخدام الترجمة الفورية للمحاضرات العربية.

وكان من أبرز المحاضرات:

١ - أحداث حاسمة تركت أثرها على المسلمين في القرن الماضي.

٢ - هل اقتربت النهاية؟!

٣ - حمّى عام ٢٠٠٠م.

٤ - ماذا يحدث حولنا؟

٥ - التوقعات المحتملة في هذه الألفية.

٦ - المستقبل للإسلام.

قرية تمنع الناس من الصلاة.. تدخل في دين الله أفواجاً

قرية بوبيغو في جمهورية بنين قرية وثنية يقطنها شعب (الفلاني - الدندي)، وهم مشهورون بعدائهم الشديد للمسلمين حتى إنهم كانوا يمنعون المارة من الصلاة في قريتهم، وإن صلى أحد أحرقوا مكان مصلاه بالنار!

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان وأثناء تنفيذ برنامج إفطار الصائمين أسلمت القرية بكاملها، ويقدر عددهم بحوالي ستة آلاف نسمة، بعد جهود حثيثة من بعض دعاة المنتدى الإسلامي، فاللهم لك الحمد والمنة على نعمة الإسلام.

ولجنة بنين في المنتدى الإسلامي بصدد إعداد خطة متكاملة للدعوة في هذه القرية لتثبيت هؤلاء الناس وتعليمهم.

الخمر أمُّ الكبائر سبب إسلام أسرة كاملة

تم ابتعاث أحد الدعاة في نيجيريا إلى قرية فيها عدد كبير من المسلمين ليعلمهم دينهم خلال شهر رمضان ١٤٢٠هـ، وبعد أن قضى الداعية مدته وقبل رحيله من القرية أرسل إليه رئيس القرية وهو وثني يفيده بأنه يريد أن يسلم ولكن يود أن يكون ذلك أمام الحاكم التقليدي للمنطقة التي تتبع لها القرية وبوجود الدعاة الذين يقومون بتوعية المسلمين.

وبالفعل تجمع أهل القرية وبحضور الحاكم التقليدي ودعاة المنتدى الإسلامي؛ حيث أشهر الرجل إسلامه ومعه أهل بيته «زوجاته وأولاده».

وقال: إن السبب الذي دعاه للإسلام هو أنه كان يسمع أن المسلمين يقولون: إن الخمر حرام، وهو في قرارة نفسه يقول لا ينبغي لعاقل أن يشربها ولكنه يتناولها، وشاءت أقدار الله أن يصاب بمرض فذهب إلى الطبيب ومنعه من الخمر وحينها أيقن أن ما يقوله المسلمون حق، وأن ديناً يدعو للحفاظ على حياة الناس؛ لهو دين حق؛ لذلك قرر اعتناق الإسلام والالتزام به، ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

الجزائر بين الوئام والاستئصال

د. يوسف الصغير

يتناقل العراقيون طرفة عندما كان هناك نائب كردي للرئيس العراقي؛ حيث تقدم إليه أحد المرافقين بطلب منحة أرض فردَّ عليه نائب الرئيس بقوله: إن هذا الطلب يحتاج واسطة كبيرة!!

إن كون أحد المناصب الرفيعة وهمياً مجرداً من السلطة يدل على مشكلة يراد الالتفاف حولها، ولكن المصيبة أكبر عندما يكون البلد يدار من قِبَل فئة لا يمكنها الظهور على السطح لأمر مًّا، وتصر على التستر خلف مجموعة من الأحزاب ومجلس وطني نيابي ومجلس وزراء، بل ورئيس للدولة منتقى بعناية؛ بحيث يكون خارج هذه الفئة ويمارس مهام رئيس الدولة.

إن الذين يبشرون بأن قانون الوئام هو الحل للخروج من دوامة المستنقع الدموي الذي وقعت فيه الجزائر ربما يكونون واهمين؛ لأن ما يسمى بقانون الوئام هو مجرد نسخة معدة ومطورة ليس الهدف منها معالجة أسباب الأزمة والعودة إلى مبدأ الحوار مع الآخر، والقبول بتداول السلطة السلمي وعدم استبعاد أو حظر أي طرف، وأنه لا يوجد مواطنون من الدرجة الثانية كما يبشر رئيس الدولة، بل إن معيار النجاح لهذا القانون هو كما أكد ممثل الفئة الحاكمة رئيس أركان الجيش الفريق محمد العماري الذي ألقى كلمة بالفرنسية أثناء وجود الرئيس في زيارة خارجية، وقد بث التلفزيون مقتطفات واسعة منها في نشرات متفرقة؛ حيث أكد على نجاح قانون الوئام المدني في تفكيك الجماعات المسلحة، وأن الغالبية الساحقة من هذه الجماعات وضعت السلاح، وأن من تبقى مجرد «عصابات تتشكل من أوغاد سيتم استئصالهم عن آخرهم قريباً».

إن الذي أتوقعه أن هذا القانون هو آخر وأخطر سهم يوجهه النظام للمعارضين، وستكون نتيجته إما تصفية العمل المسلح ومن ثَمَّ القضاء على المعارضة السياسية. وأما الاحتمال الثاني - وهو الأقرب - فهو عجز الجيش عن تصفية الرافضين لإلقاء السلاح، وسيعود الصراع إلى نقطة الصفر مع فارق واحد هو أن

الاستئصال سيكون شعار الجميع. نسأل الله اللطف بهذه الأمة المبتلاة، وأن يبرم لها أمر رشد يعز فيه أهل طاعته، ويذل فيه أهل معصيته.

لقد جاء الرئيس بوتفليقة لتسويق قانون الوئام وتطبيقه، ولكن السؤال البدهي هو: من هم أصحاب قانون الوئام؟ وهل الرئيس يريد حقاً تطبيق القانون المذكور كما يريد واضعوه، أم أن له تصوراً آخر للوئام المنشود؟

قانون الوئام:

إن أصل هذا القانون هو المفاوضات التي جرت بين المخابرات والجيش من جهة ومدني مرزاق أمير جيش الإنقاذ وهو ضابط سابق في الجيش الجزائري، وانتهت إلى اتفاق الثالث عشر من «تموز» يوليو ١٩٩٧م. لقد واجهت هذه الاتفاقية مشكلة أساسية وهي انعدام الغطاء السياسي لها؛ فقد تبرأت الرئاسة منها، ورفض الرئيس السابق زروال الاعتراف بها. وبالمثل فإن محاولة إعطائها مصداقية بين الإسلاميين تمثلت في إطلاق سراح الشيخ عباسي مدني في الخامس عشر من الشهر نفسه، ولم يلبث طويلاً حتى أعيد للإقامة الجبرية؛ لأنه ـ كما نسب لأحد قادة جيش الإنقاذ ـ لم يلتزم بشروط إطلاق سراحه. لقد كان المخرج المؤقت هو إعلان مرزاق هدنة من جانب واحد وسوّغ الهدنة برفع الغطاء عمن يقومون بالمجازر وتشويه الإسلام مع ملاحظة أنه في تلك الفترة بالذات بدأت تتكشف حقيقة قيام أطراف من السلطة بتنفيذ عدد من المجازر الكبرى. ومن المؤلم أن ظاهرة القتل الجماعي التي بدأتها السلطة ضد عوائل المجاهدين قد اتسعت لتشمل عوائل رجال الأمن والقرى والتجمعات غير الموالية للسلطة ووسيلة لتصفية الحسابات القديمة بالإضافة إلى القتل الجماعي بقصد السرقة.

إذاً كانت المفاوضات محصورة بين الجيش الجزائري والجيش الإسلامي للإنقاذ، ولم يكن للحكومة الجزائرية أو لشيوخ الجبهة دور فيها.

سؤال مهم:

ويتبادر هنا السؤال الآتي: إذا كان من المعروف أن الجيش الجزائري هو السلطة الحقيقية في الجزائر فما هي علاقة الجيش الإسلامي للإنقاذ بجبهة الإنقاذ؟ وهل هو ـ كما يتردد ـ الجناح العسكري للجبهة؟

إن الإجابة على هذا التساؤل يقتضي معرفة ظروف نشأة المعارضة المسلحة للنظام والتي تتلخص فيما يلي:

١ - قبل إلغاء الانتخابات كان هناك مجموعات عمل مسلح غير مرتبطة بالجبهة، وكان تأثيرها ضعيفاً وشعبيتها محصورة، وهم أتباع مصطفى بويعلي.

٢ - بعد تعطيل الانتخابات وقيام السلطة بحملة واسعة من الاعتقالات والمضايقة وحتى التصفية الجسدية للشباب الإسلامي العامل أو المتعاطف مع الجبهة أصبحت الخيارات أمام الشباب محصورة في مغادرة البلاد أو البقاء تحت طائلة الخطف من قِبَلِ الأمن أو التصفية أو الهرب إلى الجبال.

> إن الجزائر بحاجة إلى حل حقيقي للأزمة وليس حلاً التفافياً يزيد الفرقة ويعمق العداوات

٣ - إن خيار اللجوء للجبال وقرار مواجهة السلطة كان خياراً إجبارياً وفردياً ولم يكن صادراً عن قرار تنظيمي لقيادة جبهة الإنقاذ، وهو ما يفسر تعدد الجماعات المسلحة وعدم تجانسها الفكري أو التنظيمي؛ لأن ظروف نشأتها كانت عفوية؛ ولهذا فلم يكن هناك استراتيجية واحدة للمواجهة.

٤ - بعد مواجهات دموية استمرت عدة سنوات وخسائر بشرية تقدر بمئة ألف قتيل استقرت الأوضاع على توازن قوى بين قوات الجيش والأمن والميليشيا البلدية من جهة، وبين مجموعات مسلحة مختلفة تمكنت كل واحدة منها من تثبيت أقدامها في منطقة نفوذ خاصة بها تضعف أو تنعدم فيها سلطة الدولة.

٥ - إن كون غالبية الشباب في كل المجموعات المسلحة تقريباً من أنصار جبهة الإنقاذ يعود إلى أن هناك قبولاً عامّاً للشيخين عباسي مدني وعلي بلحاج، ولكن هذا لا يعني أن قيادة كل جماعة تدين بالولاء للشيخين أو أحدهما، أو أنها تسير وفق توجيهات الزعامات السياسية للجبهة.

٦ - إن الجيش الإسلامي للإنقاذ لا يمثل الجبهة الإسلامية للإنقاذ على الرغم من تشابه الأسماء، بل ولا يدل على أنه أقرب الجماعات لها.

إن استقراء الأحداث يبين تشابك العلاقات وغموضها؛ فمثلاً يوضح أحمد بن عائشة أمير جيش الإنقاذ في الغرب أن رابح كبير فقط هو من يمثل التنظيم في الخارج؛ أما في الداخل فيقول: «نحن موجودون ونمثل أنفسنا» وفي المقابل علي جدي أحد قادة الجبهة يصرح أنهم لم يُفلِحوا في مقابلة مدني مرزاق، وأن عبد القادر حشاني قابل ربه قبل أن يتمكن من مقابلة مدني مرزاق؛ فلماذا يتهرب من مواجهتهما وهما من المؤيدين لإيقاف القتال مع التحفظ على قانون الوئام؟

كما استُعمل إطلاق سراح الشيخ عباسي مدني في محاولة تمرير اتفاق ١٩٩٧م؛ فإن الشيخ عباسي مدني - الذي لا شك في سعيه لإيقاف نزيف الدماء وحل الأزمة حلاً سلمياً - كتب رسالة يؤيد فيها قانون الوئام قبل صدوره وبما يتفق مع ما نقل له عن صيغة القانون، وقد استغلت السلطة ومجموعة مدني مرزاق هذه الرسالة؛ ولكن بعد صدور القانون صُدم الشيخ وسارع بإرسال رسالة إلى علي بن حجر «أمير الرابطة الإسلامية للدعوة والجهاد» يتبرأ فيها من قانون الوئام، وأنه لا يقدم الحل المنشود ويبطل ما ورد في رسالته الأولى. والغريب أن علي بن حجر يؤكد وصول الرسالة وقناعته بمصداقيتها؛ بينما السلطة وجماعة مدني مرزاق يتمسكون بالرسالة الأولى، ويشككون بالرسالة

الثانية. والأمر بسيط: لماذا لا تسمح السلطة للشيخ بتوضيح رأيه مباشرة لوسائل الإعلام إذا كانت واثقة من تأييده القانون؟ وإذا كانت الرسالة صحيحة ـ وهو الأقرب ـ فلماذا يا ترى لم ترسل إلى مدني مرزاق وهو صاحب المشروع؟ ألا يدل هذا على أن الآخرين أقرب منه للجبهة؟

وكما تم الحجر على عباسي مدني ومنعه من التعبير تم إسكات حشاني الذي لم يتردد في التحفظ على صلاحية قانون الوئام حلاً للأزمة، وأنه يجب أن يكون هناك حل شامل يسمح بالممارسة السياسية. نعم! لقد تم إسكاته ولم تتردد عائلته في اتهام أطراف السلطة بهذه الجريمة.

إن قانون الوئام اتفاق مع جبهة واحدة ممثلة في شخص واحد لا يصح إلزام الجميع به تحت طائلة التصفية الجسدية والإبادة الجماعية أو الاستئصال التام. إن الجزائر بحاجة إلى حل حقيقي للأزمة، وليس حلاً التفافياً يزيد الفرقة ويعمق العداوات بين الجزائريين!

إن أغرب ما في الاتفاق هو عدم الاتزان في الحقوق والواجبات؛ فمن جانب يتم حل التنظيم وإخلاء المواقع وتسليم الأسلحة وتنظيف مناطقهم السابقة من الألغام؛ وزيادةً على ذلك فإن هناك حماسة شخصية لمدني مرزاق لا يشاركه فيها رجاله لقتال الجماعات المسلحة تحت راية الجيش. وفي النهاية أصبحت مقاتلة الجماعات المسلحة منوطة برغبة الأفراد. هذا ما قدمه مرزاق للسلطة؛ فماذا قدمت السلطة لمرزاق ورجاله؟

إن القانون الأساس للوئام يعني عودة المسلحين إلى عوائلهم؛ مع احتمال تعرضهم للملاحقة القانونية. ولكن نتيجة لتمرد الأفراد على مدني مرزاق أصدر رئيس الجمهورية عفواً رئاسياً عن جميع من يشملهم قانون الوئام.

باختصار: إن أقصى ما يؤمل به هو العفو، أو بأسلوب ساخر هو أن السلطة تنازلت وأصدرت العفو وبضغط من الرئيس عمن لم تستطع قتله وتصفيته.

من الذي يضمن عدم الغدر بالعائدين واعتقالهم أو اغتيالهم؟ لقد بدأت عمليات التصفية من الآن فقد نشرت الصحف أخباراً عن اغتيال بعض العائدين أو تهديدهم وهذا وضع لا يحسد عليه من وثق بمن لا يوثق به أو أجبر على الإذعان لانكشاف ظهره. وحتى نعرف مصداقية الاتفاقيات أُورِد مقطعاً من مقابلة علي بن حجر[1] «أمير الرابطة الإسلامية للدعوة والجهاد» وهو ممن أذعن للقانون عن غير اقتناع.

س: قلتم: إن بعض الأوساط اقترحت وساطة بينكم وبين السلطة؛ فمن هي هذه الأوساط؟

ج: من أبرز الأوساط التي حاولت التقريب بيننا وبين المؤسسة العسكرية أذكر العميد المتقاعد محمد عطا يلية الذي جاء ناصحاً ومساهماً في هذه المصالحة.

س: هل قام بذلك بتكليف من الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، أم من تلقاء نفسه؟

ج: جاء معه مسؤول من السلطة. بمعنى أن

---

(١) جريدة الحياة، العدد: ١٣٤٧٩، ٣٠/١٠/١٤٢٠هـ.

مهمته كانت رسمية، وكانت هناك موافقة على مسعاه؛ إذ إنه أشار في اللقاء الذي جمعني به أن «هذا ممثل السلطة» وأشار إلى رجل حضر معه.

إن مسارعة قوات الجيش إلى التمركز في مواقع الجماعات المنسحبة يوحي بحرص السلطة على قطع خط الرجعة على العائدين عندما تقلب لهم السلطة ظهر المجنّ كما هو متوقع.

أكبر المشكلات:

إن أكبر مشكلة للفئة الحاكمة في الجزائر كما مر سابقاً أنها لا يمكن أو لا تريد أن يتصدر أحد أفرادها لمنصب الرئاسة، وقد كانت مشكلة التعامل مع الرئيس الواجهة من الإشكاليات المهمة في التعاطي مع الأزمة؛ فبعد عزل الرئيس الشاذلي بن جديد وتغييبه عن الساحة - حتى إنه لم ينسب إليه أي موقف أو تصريح طيلة السنين الماضية - تم استدعاء محمد بوضياف ممثلاً لمرحلة الثورة ورمزاً لها مع بعده عن البلاد لعشرات السنين بعد الاستقلال، ولكن بوضياف لم يستطع التأقلم مع القالب الذي أريد له، فعمل على تكوين حزب موالٍ له، ورفع شعار محاربة الفساد، وكان رجلاً حاداً كبيراً في السن يعادي مافيا الحكم بقدر عدائه للإسلاميين، ولم يكن انقياده ممكناً، فتم اغتياله وأصبح رمزاً لمصير كل من يخرج على الخطوط الحمراء. وبعد فترة نُصِّب أيضاً رجل عسكري أحيل إلى التقاعد المبكر، وأُبعد بسبب صراع الأجنحة داخل الجيش، وكان أكثر ميكانيكية؛ فقد رفع للإسلاميين شعار الحوار، ورفع للأسياد شعار الاستئصال، وكان أكبر النجاحات في عهده تسويق الديمقراطية المزيفة من الدرجة الثانية والمطبقة في بلدان العالم الإسلامي والمكونة من حزب السلطة مع جوقة من الأحزاب الفلكلورية مع النص على استبعاد أي حزب إسلامي؛ وذلك حتى يمكن لحزب السلطة الفوز الساحق بدون المساس بنزاهة الانتخابات.

إن أصول اللعبة لم تسمح للرئيس زروال حتى اختيار رئيس حزب السلطة الجديد؛ فقد تم اغتيال مرشحه، وبعد سلسلة من المضايقات تم إبعاد مستشاره الجنرال بشتين؛ مما أوحى له بانتهاء دوره، ولا بد أن يفسح المجال لغيره بعد أن رفض قبول اتفاق الجيش مع جيش الإنقاذ، وعطل هذا المشروع الخطير إلى أجل. ولم يكن القادم الجديد سوى وزير بومدين الأثير عبد العزيز بوتفليقه الذي خرج ليعيش في منفاه الاختياري بعد وصول الشاذلي للحكم، ولم يكن له أي دور في الأحداث.

لقد استُدعي (الرئيس الحالي) وأقنع بتولي الرئاسة، ولكنه جاء وهو يحمل شعاره الخاص وأمنيته الخاصة بأن يمارس السلطة الحقيقية.

لقد اشترط الرئيس أن يعرض مشروع السلم والوئام على استفتاء شعبي؛ وهي خطوة بارعة سياسياً من أجل تكوين شعبية خاصة به تمكنه من المناورة وطرح تصوره الخاص للوئام الذي هو بكل تأكيد لا ينسجم مع خطط السلطة وطريقة تنفيذها لهذا المخطط؛ فهل ينجح الرئيس في صبغ القانون بصبغته الشخصية، أم

يتجاوزه الجيش ويفرض أسلوبه؟

إن الحكم في الجزائر له رأسان؛ فالجيش يحاول إقناع أكبر عدد ممكن من الجماعات بالإذعان للقانون عن طريق توسيط المعارف والأقرباء وتقديم ضمانات شخصية للقيادات؛ ولكن لا شيء منشور، وليس كله مكتوباً، ومن يرفض فقد رفعوا في وجهه سيف الحجاج، وقد تسرعوا في استخدام هذا السيف بعد انتهاء المهلة مباشرة، ولكنهم اكتشفوا أنهم يحتاجون لمزيد من الوقت لتفكيك المزيد من الجماعات والاستعداد العسكري؛ فقد تم عقد صفقات مع الصين وجنوب إفريقيا وإيطاليا وأمريكا لتزويد الجيش بأسلحة خاصة لمواجهة حرب العصابات، وكان الجيش حريصاً على التضليل لاستعداداته العسكرية من أجل إقناع المزيد من الجماعات المسلحة بالإذعان الجبري.

لقد حرص قادة الجيش على التصريحات العنترية التي دأبوا على إطلاقها لسنوات عديدة، ولم يلاحظوا التناقض بين مدلولي الوئام والاستئصال، فجمعوا بينهما؛ ولكن ليتذكر هؤلاء الاستئصاليون ومن وراءهم أن النجاح في حل تنظيمات ونزع سلاحها والتمركز في مناطقها سلاح ذو حدين؛ حيث إن الإخفاق في الجزء الثاني من المخطط وهو تصفية الرافضين ـ وهم كثر ـ سيعيد الصراع بصورة أشد، وربما تواجه السلطة جماعات أقل عدداً ولكنها أكثر عداءاً مما سيعقِّد المشكلة. وإذا كان الحل الحالي يمكن أن يمر من خلال الشيخ عباسي فإن الحل القادم لا بد أن يكون من خلال الشيخ علي بلحاج.

وأخيراً: فإن موقف الرئيس صعب، وإذا كان يتوقع إخفاق الجيش في تنفيذ الجزء الثاني فإنه يسعى لاستثمار الآثار المترتبة على ذلك؛ ولهذا فقد أطلق تصريحات تحمل في طياتها أنه جاد في السيطرة على مقاليد الأمور معتمداً حالياً على اعتقاده أن الجيش لا يملك الاستغناء عنه في الوقت الحاضر «اسألهم هم إن كان في إمكانهم التخلي عني إن استطاعوا» أما في حديثه عن مسوِّغ حمل السلاح فيقول: «أنا شخصياً لو مررت في الظروف نفسها لكان مصيري مثل هؤلاء».

أما نظرته للجماعة الإسلامية المسلحة فأكد أن هذا التنظيم المسلح كان يستهدف بالدرجة الأولى المنشآت الحكومية والعسكرية ورجال الأمن وبدرجة أقل المدنيين، وهو تبرئة للجماعة من نسبة كل المجازر لها، وأشاد بحسن حطَّاب أمير الجماعة السلفية للدعوة والقتال».

يتبين مما سبق أن الرئيس يراهن على هزيمة الجيش، وعلى ثقة أمراء الجماعات الرافضة بحسن نيته مما يفتح المجال لحل أكثر منطقية.

وللمرء أن يخاف من يوم يلحق فيه بوتفيلقة سابقيه.

اللهم فرِّج بحرية إخواننا المسلمين في الجزائر المبتلاة، اللهم اجمعهم على الخير والهدى، اللهم افضح وانتقم ممن كان سبباً في هذا البلاء، واجعل دائرة السوء تدور عليه.

الجولان.. وأكذوبة سلام الشجعان!

عبد العزيز كامل

عندما دخل العرب الحرب عام ١٩٤٨م، كان هدفهم تحرير الشق الذي أعلن اليهود دولتهم عليه من أرض فلسطين، ولكن العرب لم يفلحوا في ذلك، واحتل اليهود المزيد من الأراضي، وعندما دخلت جيوش العرب الحرب سنة ١٩٦٧م لتحرير ما سبق احتلاله لم يفلحوا أيضاً بل خسروا المزيد والمزيد من الأراضي (القدس الشرقية ـ سيناء ـ الجولان ـ الضفة الغربية ـ غزة) ثم كانت حرب ١٩٧٣م، لا لتحرير فلسطين ولا القدس ولكن لتحريك الأوضاع من أجل التفاوض لاستعادة مصر لسيناء التي احتُلت، ولاستعادة سوريا للجولان التي ضاعت في تضاعيف قصة مثيرة وغامضة لا مجال للحديث عن تفاصيلها الآن[1]، ولا يجادل عربي مسلم في أن من حق سوريا أن تسترد ما اقتطع منها، ولكن السؤال: ما هو الثمن؟!

لقد أعاد الإسرائيليون سيناء إلى مصر منزوعة السلاح لقاء ثمن باهظ دفعته الأمة كلها لا مصر وحدها ـ ولا تزال تدفعه ـ وهو تعهد أكبر قوة عربية بالتخلي عن الدخول في أي عمل عسكري مستقبلاً ضد (إسرائيل) من أجل فلسطين أو غيرها، لا مشاركة ولا انفراداً، ولم يكن هذا التعهد شفوياً، بل كان وفق اتفاقات دولية ملزِمة تشرف على تنفيذ بنودها القوى العظمى.

وعبثاً حاول العرب أن يبعثوا الحياة في رفات مبدأ (قومية المعركة) الذي صاغه وأنعشه عبد الناصر وصنع نعشه أنور السادات، ولكن دون جدوى، ولم يعد أمام أصحاب الأراضي الأخرى التي ضاعت في الحرب إلا أن يسترجعوها عن طريق السلام بأثمان لا تقل فداحة عن الثمن الذي استُرجِعَت به سيناء.

الجولان.. وربع قرن من الضياع:

انكمشت آمال حزب البعث بعد خروج مصر من المعركة، وظل تحرير الجولان طيلة ما يزيد على ربع قرن هو قصارى ما يحلم به بعثيو سوريا.

والجولان التي تبلغ مساحتها ١٨٠٠ كيلو متر مربع تمثل أهمية كبرى للسوريين والإسرائيليين على السواء، ولهذا يشتد النزاع في فصله الأخير حولها، وقد كانت لها على مر التاريخ أهميتها بسبب ارتفاع هضبتها وغناها بالماء، وموقعها الجغرافي الذي شكل منها في العصور المختلفة محطة مهمة من النواحي العسكرية والتجارية، وإطلالتها على بحيرة (طبرية) عذبة الماء جعلها محط التنافس منذ القِدَم، ولهذا كانت ساحة للمعارك في التاريخ القديم بين الفراعنة

(١) راجع في ذلك إذا أردت كتاب: (سقوط الجولان) تأليف: (خليل مصطفى)، وكتاب: الأسد: (الصراع على الشرق الأوسط)، تأليف: (باتريك سيل)، وكتاب: (رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي) لـ (محمد عبد الغني النواوي).

والكنعانيين، وبين المصريين والآشوريين.

ويزعم الإسرائيليون أن موسى عليه السلام استقر فيها بعد خروجه من مصر كما يقول الحاخام (موئي حولان)[1].

ولما جاء الإسلام وتوجه نظر المسلمين إلى فتح بيت المقدس، كانت منطقة (الجابية) على أرض الجولان هي مكان اللقاء الذي جمع بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنهما ـ للتنسيق من أجل استمرار الجهاد على أرض الشام تحت إمرة أبي عبيدة ـ رضي الله عنه ـ.

وقد سكنت الجولان في العهد التركي أعداد كبيرة من الشركس والتركمان، ولما حصلت النكبة عام ١٩٤٨م نزح إلى الجولان عدد كبير من الفلسطينيين، أما عندما سقطت في يد اليهود في حرب ١٩٦٧م، فقد ملؤوها بالمستوطنين اليهود بعد أن أخلوها من العرب المسلمين باستثناء الدروز الذين لا يُحسَبون لا على المسلمين ولا اليهود ولا النصارى! وإن كانوا لليهود أقرب ولاءاً وخلقاً.

لقد وضع اليهود أعينهم على الجولان، حتى قبل أن يقيموا دولتهم؛ ففي عام ١٩١٨م ـ وقبل أن يعلن (بن جوريون) الدولة بثلاثين عاماً ـ أكد بأن الدولة اليهودية عندما تقوم لا بد أن تضم ما أسماه (سنجق سوريا) أي الجولان وما وراءها، وقد طالبت المنظمة اليهودية العالمية في رسالتها لمؤتمر السلام المنعقد في باريس في ١٩١٩/٢/٣م، بأن تضاف إلى الدولة اليهودية حين إقامتها منطقة جبل الشيخ على مرتفعات الجولان نظراً لأهميتها الحيوية أمنياً ومائياً، وبعد ذلك بعام الحّت الحركة الصهيونية على لسان زعيمها في ذلك الوقت (حاييم وايزمن) على بريطانيا لكي تجعل الجولان ضمن أجزاء الكيان اليهودي المزمع إقامته، وكان ذلك في رسالة بعثها وايزمن لوزير الخارجية البريطاني في ١٩٢٠/٤/١٥م.

ولكن يبدو أن الأجواء الدولية لم تكن تسمح في ذلك الوقت ـ ولا قريباً منه ـ بتحقيق ذلك المطلب الصهيوني الملحّ، فلما قامت الدولة، وتأسس الجيش، واستعدت (إسرائيل) للتوسع والانتشار، جعلت الجولان على قائمة أولوياتها عندما تحين الفرصة.

وجاءت الفرصة: وذلك عندما حصل تسخين استفزازي في عام ١٩٦٧م على الجبهة السورية من قِبَل بعض الفصائل الفلسطينية التي استعملها البعث السوري تحت شعار: (شعبية المعركة) ذلك الشعار الذي هددت به سوريا إسرائيل بأن تنقل الحرب إلى داخلها، وكان ذلك في وقت تألق فيه نجم عبد الناصر في مصر بعد أن نصّبته الجماهير العربية المخدوعة زعيماً فرداً سيحرر فلسطين بل العرب جميعاً ويلقي بـ (إسرائيل) في البحر! ولم تكن الذريعة القادمة من سوريا كافية فقط لدخول اليهود إلى أراضيها واحتلالهم للجولان، بل كانت فرصة لا تعوض لتحقيق هدف آخر كان أخطر وأكبر وأوْلى في نظر اليهود من الجولان، وهو جر عبد الناصر إلى معركة لم يكن راغباً فيها ولا قادراً عليها ضد (إسرائيل) وهذا ما حدث تماماً في حرب الأيام الستة التي حُطِّم فيها الجيش السوري والجيش المصري، وهما دعامة الجيوش العربية.

وقد ظلت الجولان تحت سيطرة اليهود طيلة ثلاثة عقود، برهن الإسرائيليون خلالها على أن أمن سوريا مرهون بمرتفعات الجولان التي تجعل دمشق في مرمى النيران الإسرائيلية، في الوقت الذي تعتبر الجولان نفسها ضماناً لأمن (إسرائيل) طالما ظلت تحت سيطرتها؛ فالدولة العبرية لا ترى أبداً أية إمكانية لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء بأن تُعاد الجولان كما كانت تحت سيادة سورية كاملة، وإن كان لا بد من إعادتها فلا بد من شروط كالشروط التي وضعت لإعادة سيناء، ومنها:

(١) وهذا زعم باطل؛ لأن موسى عليه السلام لم يتجاوز سيناء بل مات في التيه دون أن يدخل الأرض المقدسة فضلاً عما وراءها

الشرط الأول: ألا تُعاد الجولان إلا منزوعة السلاح، وترتب فيها ضمانات أمنية تسوِّي تماماً - إن لم تزد - بين وضعها قبل الإعادة ووضعها بعدها بالنسبة لـ «إسرائيل»، وقبل أن تجمَّد مفاوضات السلام بين سوريا و (إسرائيل) عام ١٩٩٦م استغرقت الترتيبات الأمنية بشأن الانسحاب من الجولان أكثر الوقت، وكانت هذه القضية سبباً في تحطم جهود وزير الخارجية الأمريكي آنذاك (وارن كريستوفر) خلال نحو ٢٠ جولة، كانت (إسرائيل) خلالها تصرُّ - إلى جانب نزع السلاح - على الاحتفاظ بمحطات إنذار مبكر على جبل الشيخ(١).

إن (إسرائيل) تريد أن تحول المطالب الأمنية إلى وضع استراتيجي يحقق لها مزيداً من التفوق، في الوقت الذي تتصلب فيه تجاه تنازلات جوهرية للعرب، هي في رأي باراك تتعارض مع شعار حزبه: (إسرائيل واحدة) فهو يخشى من تناقص التأييد لمشروعه في السلام، إذا لم يرَ فيها الشعب الإسرائيلي بقرة حلوباً تدر الثروة وتمنح الحراسة والأمن.

الشرط الثاني: أن تعترف الحكومة السورية بـ (إسرائيل) اعترافاً كاملاً، وتتبادل معها السفارات وتطبِّع معها العلاقات؛ بل إن (إسرائيل) ربطت مدى الانسحاب بمدى الاستعداد للتطبيع، وأطلقت في الآونة الأخيرة شعاراً جديداً يقول: «عمق الانسحاب سيكون بعمق السلام»! ومعنى هذا أنهم - أي الإسرائيليين - لن ينسحبوا انسحاباً كاملاً - كما تطلب سوريا - إلا إذا حصلوا منها على تطبيع كامل!

وهذا يعني ببساطة إلحاق حزب البعث العربي القومي السوري بالحظيرة التي سبق أن شنَّع عليها وعلى أصحابها وهي (كامب ديفيد)(٢)، وعند ذلك سيتتابع العرب في دخول بيت الطاعة وولوج عتبة دار السلام اليهودية الأمريكية، وعند ذلك أيضاً تكون قد أُغلقت آخر حوانيت الكفاح ودكاكين النضال في سوق ما كان يعرف بـ (القومية العربية)!

الشرط الثالث: أن تتقاضى الحكومة الإسرائيلية مقابلاً مقنعاً ومشبعاً لجشع الشعب الإسرائيلي حتى يمكن أن يصوِّت بالموافقة على الاستفتاء الشعبي الذي سيُجرى لإبداء الرأي في إرجاع ما يعتبره اليهود جزءاً من (أرض إسرائيل)!(٣). ومن أجل هذا فقد أعدت الحكومة الإسرائيلية - ولا زالت تعد -؛ قوائم من المطالب والشروط والاستحقاقات التي ترى أن على العرب والعالم - وعلى رأسه أمريكا - أن يوافقوا على تلبيتها إذا ما أرادوا أن تُعاد الجولان، وبذلك ينتهي الصراع العربي الإسرائيلي في جانبه العسكري.

وفواتير السلام التي أعدتها (إسرائيل) مقابل إعادة الجولان تتضمن الأثمان الآتية:

١ - الثمن الاقتصادي: مع بدء المفاوضات السورية الإسرائيلية، كان الطلب الإسرائيلي بالتعويضات المالية يتراوح بين ثلاثة مليارات من الدولارات أو أربعة مليارات؛ وذلك بحجة إقامة منشآت عسكرية بديلة لتلك التي سيجري تفكيكها في الجولان وجنوب لبنان، ومع تحسن المفاوضات ارتفع الرقم المطلوب إلى ١٧ مليار دولار مقابل الانسحاب،

---

(١) منطقة جبل الشيخ احتلها الإسرائيليون في حرب ١٩٦٧م، وجعلوها محطة مركزية للتجسس، وفي بداية حرب ١٩٧٣م استعادها السوريون، ثم تركوها لما دبت الفوضى في صفوف الجيش السوري بإذاعة خبر سقوط القنيطرة الذي بثته إذاعة دمشق قبل سقوطها، فعاد الجيش الإسرائيلي لاحتلالها بعد يومين من وقف إطلاق النار.

(٢) كان منتجع كامب ديفيد هو المكان المقترح أصلاً لتعقد فيه جولات التفاوض بين الإسرائيليين والسوريين، ولما كان المغزى المقصود من ذلك واضحاً فقد أصر السوريون على رفض هذا المكان المقترح، فكان البديل لكامب ديفيد، كامب شيفرد.

(٣) عندما طلب الرئيس السوري حافظ الأسد من الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران أن يتوسط لدى رئيس الوزراء الأسبق (مناحيم بيجن) في شأن الجولان قال له الرئيس الفرنسي: «إن بيجن يقول: إن أرض إسرائيل الكبرى خلقت لليهود، وهي ملك لإلههم، لذلك لا يحق لي أن أعيد شيئاً منها؛ لأنني لا أستطيع التنازل عما لا أملك» (الخليج العدد/٧٥٥٤).

ثم أضيفت مطالب أخرى بـ ١٨ مليار دولار لتحديث القوات المسلحة الإسرائيلية، ومع إضافة أثمان المطالب الأخرى العينية من سلاح ومعدات صار مجموع ما تطالب به «إسرائيل» من (تعويضات) على ترك الجولان ٧٠ مليار دولار!! هذا عدا المدفوعات السنوية الجارية فعلاً، القديمة منها والجديدة.

وبعد زيارة قام بها وفد من الكونجرس الأمريكي إلى (إسرائيل) أبلغته الحكومة الإسرائيلية أنها لن تنسحب من أي أرض إلا إذا جرى تفعيل برنامج المطالب الإسرائيلية؛ بحيث يتزامن مع عملية الانسحاب في حال البدء فيها بعد نجاح المفاوضات.

ولكن بالنظر إلى أن الكونجرس الأمريكي لا يمكن أن يوافق باسم الشعب الأمريكي على هذا الابتزاز غير المسبوق لـ (البطة الخشبية)(١) في أيامها الأخيرة، فقد جاءت الإشارات بعدم الموافقة على دفع استحقاقات السلام نيابة عن سوريا!! ولكن باراك الذي يعلم مدى حاجة كلينتون إلى فاصل من معزوفة السلام يختم بها عهده الملطخ ظل يرسل بإشارات تهدد بعرقلة العملية برمتها، فألح كلينتون ثم صرح بأن هناك رغبة أمريكية في إقامة عملية (تمويل دولي) للسلام في الشرق الأوسط، وبالفعل وجه الكونجرس الأمريكي دعوة لأقطار الخليج العربي الستة، والدول الصناعية السبع بأن تشارك في دفع فاتورة (التعويضات). ومن الكنيست الإسرائيلي صدرت تلك الدعوة فيما يشبه الأوامر، مما أثار سخط هذه الدول التي لم تُستشر أصلاً قبل ذلك في هذا التوجه؛ فعلى الصعيد العربي انتقدت الكويت هذا الطلب نيابة عن دول مجلس التعاون الخليجي وطلبت من الجامعة العربية أن تتخذ موقفاً عربياً موحداً تجاه هذا الابتزاز في دورتها القادمة في مارس ٢٠٠٠م. وسخرت مصر على لسان وزير خارجيتها مما أسماه: (التجارة بالسلام)، أما الدول السبع الصناعية الغنية، فقد عارضت أيضاً هذا الإجراء الأمريكي الإسرائيلي المقترح، فاعتبرته كل من اليابان وألمانيا منافياً للشرعية القانونية، وكذلك امتنعت كل من إيطاليا وفرنسا وكندا عن الموافقة على هذا الطلب، ولم يبق من الدول السبع إلا أمريكا صاحبة القرار وحامية (إسرائيل)، ثم بريطانيا الأم الشرعية لها؛ حيث التزم الإنجليز الصمت حتى لا يُحرَجوا مع ابنتهم اللقيطة!

> أعدت إسرائيل قوائم من المطالب والشروط التي تشترط على العرب والعالم أن يوافقوا على تلبيتها إذا ما أرادوا أن تعاد الجولان

ولكن الطلب الإسرائيلي لا يزال مرفوعاً ولم يتم التنازل عنه، فقد يُعدَّل أو يُخفَّض، ولكنه لن يلغى، فهكذا عودها العالم (الحر)!

هذا.. ويدخل في الثمن الاقتصادي ما أعلنه رئيس طاقم التفاوض في مكتب باراك من أن (إسرائيل) لها مطلب قاطع في الإبقاء على السيطرة على مصادر المياه في الجولان، وهذا المطلب شبيه باشتراط (إسرائيل) احتكار شراء بترول سيناء بعد إرجاعها لمصر، ولكن مياه الجولان التي تمثل ٣٥٪ من حاجات (إسرائيل) ربما تجد فرصة أسهل من بترول سيناء، خاصة وأن الصحافة الإسرائيلية سربت ما يفيد بأن الجانب السوري وافق في عهد نتنياهو على بقاء الوجود السوري بعيداً عن الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية بمقدار ٥٠٠ متر على الأقل.

---

(١) هذا التعبير يطلقه الإعلام الأمريكي على كل رئيس يوشك على الخروج من البيت الأبيض في آخر مدته الرئاسية الثانية.

٢ - الثمن العسكري: يريد إيهود باراك أن يستغل ثمرات المفاوضات مع سوريا - إن نجحت - لتحديث الترسانة الإسرائيلية، وإعطائها عناصر التفوق الإقليمي المطلق لمدة لا تقل عن خمسين عاماً كما قال، وهو باعتباره رجلاً عسكرياً[١] يرفع شعار: (جيش إسرائيل نواة الأمن القومي)، والسلام بنظره ليس هدفاً في حد ذاته، بل وسيلة لتعزيز الأمن أو بالأحرى الهيمنة لا على الدول المحاذية لـ «إسرائيل» فحسب، بل على الشرق الأوسط كله. وهذا هدف أصيل في السياسة الإسرائيلية بوجه عام، كما صرح بذلك الأكاديمي الإسرائيلي (إسرائيل شاحاك) في كتابه: (الأسرار المفضوحة) فقد قال: «إن الهدف الرئيس للسياسة الإسرائيلية - في الحرب والسلام - هو السيطرة الإقليمية على الشرق الأوسط بأكمله»!

ولكن باراك يريد أن يعطي لهذه السياسة بُعداً آخر باستغلاله فرصة السلام السانحة الآن مع سوريا، ويهدف إلى استثمارها لتحصيل تفوق عسكري جديد تتمكن (إسرائيل) من خلاله أن تدافع أو تهاجم عن بُعد، دون الحاجة إلى السيطرة المباشرة على أرض بذاتها في الجولان أو جنوب لبنان، وقد أبدى إعجابه الشديد بسياسة الحرب عن بعد التي مارستها الولايات المتحدة في العراق وكوسوفا، وأطلق عليها وصف: (الحرب المعقمة)!

ولهذا نجد قائمة المطالب الإسرائيلية العسكرية تصب في هذا الاتجاه؛ فدولة اليهود تطالب أمريكا بقائمة طويلة من الأسلحة المتقدمة وعلى رأسها، تقنية طائرة ستيلث (الخفية) أو (الشبح) فقد طلبت (إسرائيل) خلال الجولة الثانية من المفاوضات أن تزودها أمريكا بتقنية هذه الطائرة التي لا تستطيع الرادارات اكتشافها. وطلبت (إسرائيل) من أمريكا أيضاً أن تزودها بصواريخ كروز (توماهوك) التي لم تكشف المؤسسة العسكرية الأمريكية أسرارها حتى لشركائها في حلف الأطلسي باستثناء بريطانيا، وعدد الصواريخ المطلوبة في القوائم هو ٣٥٠ صاروخ، ثم عُدِّل إلى ٧٠٠، وتضمنت القوائم طلباً إسرائيلياً بالمساعدة على استكمال مشروع صاروخ (ناديتلوس) المضاد للصواريخ، وطلباً آخر بسربين من مروحيات (أباتشي) وسرب من طائرات (بلاك هوك) وسرب من طائرات النقل (هيركونيس) وآخر من طائرات الإنذار المبكر (إواكس) التي طلبتها (إسرائيل) قبل بدء المفاوضات مع سوريا أصلاً، وعلى القائمة طلب بالتزود بطائرات تزويد الوقود بالجو، ومحطة أرضية لالتقاط صور الرصد الجوي والأقمار الصناعية.

ويعلق المحلل الإسرائيلي (إلوف بن عالي) على هذه الطلبات بقوله: «إن باراك - ومنذ كان رئيساً للأركان - يحلم باستبدال الجولان وجنوب لبنان بجيش جديد و (ذكي)!»[٢].

إنه من الواضح أن الصورة التي يريد الإسرائيليون أن يكون عليها جيشهم في (عصر السلام) هي أن يتحول من جيش للدفاع إلى جيش للإخضاع وسط عواصم عربية ترفرف في سمائها رايات نجمة داود المرفوعة فوق السفارات والقنصليات!

ولم ينس الإسرائيليون أن يُشركوا سوريا في غنائم السلام؛ فهي مدعوة - بعد نزع سلاحها من الجولان - أن تبعد جيشها عن المنطقة وأن تتعهد - كالمنظمة - بضمان أمن (إسرائيل) على الحدود السورية واللبنانية، مع هدية أخرى لرفع المعاناة عن كاهل الشعب السوري وهي: تخفيض عدد القوات المسلحة إلى عدد يليق بدولة (محبة للسلام)!

٣ - الثمن السياسي: في حديث مع صحيفة معاريف الإسرائيلية في ١٩/١٢/١٩٩٩م قال إيهود باراك: «بالنسبة لتوقعاتي من المفاوضات، هناك

---

(١) لا يزال يحتفظ لنفسه بمنصب وزير الدفاع إلى جانب منصب رئيس الوزراء. (٢) جريدة الحياة، ٨/١٠/١٤٢٠هـ - ١٦/١/٢٠٠٠م.

إمكانية لإنهاء النزاع مع سوريا ولبنان، ...، وذكر دولاً عربية أخرى، ثم قال: أنا لست أعمى حتى أضيع هذه الفرصة»!

إن باراك يريد من الاتفاق مع سوريا ولبنان أن يفتح الباب أمام (إسرائيل) لعقد اتفاقيات صلح كامل مع البلدان العربية كلها؛ فدمشق برأيه هي بوابة الدخول إلى العواصم العربية التي لم تعترف بعدُ بـ (إسرائيل) دولة مستقلة ذات سيادة على أرض بيت المقدس.

وإعادة الجولان وجنوب لبنان يمكّن الإسرائيليين أن يقايضوا ذلك بالانفتاح على نحو عشرين دولة عربية، ستفتح أمامهم أسواقها وسفاراتها وأرضها وعقول شعوبها وربما قلوبهم! والظاهر أن فراسة اليهود تصدق دائماً مع العرب؛ فحتى عصر (الشجب) يبدو أنه سيولّي؛ بدليل أن عدداً من العواصم العربية قد بدأت تستبق الأحداث وتسرع في مضمار الهرولة حتى قبل أن تُبرم أي اتفاقيات مع سوريا أو لبنان، ويتم ذلك دون شجب أو تنديد أو حتى معاتبة رقيقة، وهذا أمر جديد على أبناء يعرب بن يشجب! [1] ولكن ماذا نفعل في ثمرات (القومية العربية) الخبيثة التي ولّت بعد ما قضت على اللسان العربي ذاته؛ فلم يعد يُعرف الفرق بين المدلول اللغوي لكلمة السلام والاستسلام.

فمن حق اليهود أن يهنّؤوا إذن ويقروا أعيناً، عندما يدشنون بالتعاون مع العلمانية العربية صرحاً جديداً من القلاع اليهودية في ديار الإسلام يوازي في أهميته ـ وربما يفوق ـ تأسيس الدولة الإسرائيلية ذاتها، ويبدو أن (باراك) لم يكن مبالغاً عندما قال: (إن إنجاز مهمة السلام مع سوريا يوازي في أهميته مشروع إقامة (إسرائيل) عام ١٩٤٨م)[2].

ومع فداحة تلك الأثمان المطلوبة للسلام مع سوريا، هناك ثمن أفدح، وهو ما يتعلق بالقضية الفلسطينية التي ما انبعث رموز البعث إلا بدعوى النضال من أجلها؛ فـ (إسرائيل) فيما يظهر لن توقع معاهدة سلام مع سوريا بشأن إعادة الجولان إلا بعد حسم المسائل الكبرى في مفاوضات الحل النهائي على المسار الفلسطيني؛ فالسلام مع سورية لا معنى له بنظر (إسرائيل) إذا لم ينطوِ على اعتراف سوري بنتائج مفاوضات الوضع النهائي مع الفلسطينيين[3] وهو الوضع الذي يُراد فيه أن تُطوى صفحة القدس بعد إعلانها عاصمة موحدة وأبدية لدولة اليهود، وأن يسدل الستار على قضية أربعة ملايين من اللاجئين الفلسطينيين، وأن تظل المستوطنات الإسرائيلية على ما هي عليه دون تفكيك أو إلغاء، وأن تسوَّى مسائل الحدود بما يزيد من عزلة الشعب الفلسطيني داخل أرضه، ولكن هذا موضوع آخر نرجو أن يكون لنا فيه حديث آخر.

الشاهد هنا أن الأمور إذا سارت مع سوريا على ما يهوى اليهود ويرتب الأمريكان فما الذي يمنع الإسرائيليين ـ وهم يزدادون قوة والعرب يزدادون ضعفاً ـ أن يكرروا التجربة في المستقبل ويحتلوا أجزاءً أخرى مما يعتبرونه ضمن (أرض إسرائيل) ثم يقايضوا ويزايدوا عليه مرة أخرى، لكي يقبضوا ثمنه ثم ينتقلوا إلى غيره؟! ما الذي سيمنعهم؟!

إن الحالمين الواهمين الذين يظنون أن الذئاب سترعى الغنم قريباً في الشرق الأوسط ينبغي أن يقال لهم: كفوا عن الأوهام والأحلام؛ فالصراع متجدد والصدام أكيد، وما يقوم به يهود (إسرائيل) ويهود أمريكا سيجعل الأخرس يتكلم والأبكم يسمع، بل.. سيجعل الحجر ينطق! بلى والله! سينطق الحجر، وكذلك الشجر ليقول لكل من تحرر من الأوهام والأحلام: «يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله»[4].

---

(١) (يشجب) هو أحد الأجداد القدامى للعرب بعد (يعرب).

(٢) في حديث له إلى صحيفة هآرتس (٢١/١٢/١٩٩٩م).

(٣) ظهرت بوادر ذلك في تجاهل وزير الخارجية السوري للإشارة في كلمته أمام كلينتون وباراك بأي شيء عن فلسطين أو القضية الفلسطينية.

(٤) رواه البخاري، ح/ ٧٥/٦، ومسلم: ٢٢٣٩/٤، ح/٢٩٢٢.



المسلمون في ڤيتنام

وصف عن قرب

خالد علي حسن

أعجبني ما كتبه الدكتور محمد ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي في مجلة الدعوة العدد ١٢٥٨١ بعنوان: «كيف ضاعت دولة تشامبيا الإسلامية؟»(*) فأحببت أن ألقي الضوء على أوضاع المسلمين في ڤيتنام عن قرب؛ حيث إنني مكثت فيها قرابة عام، وتجولت في العديد من ولاياتها الجنوبية.

أولاً: تعداد المسلمين:

يبلغ عدد المسلمين حوالي ٧٥ ألف نسمة أي ما يعادل ٠,٠٠١٪ موزَّعين على قرى ومحافظات المنطقة الجنوبية لڤيتنام، والغالبية العظمى منهم في محافظة (آن يان) التي تبعد حوالي ٢٠٠ كم عن العاصمة القديمة (هوشِمِنَّه) وهذا العدد هو من تعداد ٧٥ مليون ڤيتنامي منهم البوذيون والنصارى.

والمسلمون في ڤيتنام غالبيتهم من أصل (تشامب) وهم السكان الأصليون لڤيتنام الجنوبية والباقي من أصول (عربية يمنية ـ هندية ـ ڤيتنامية).

ثانياً: طرق الكسب:

يعمل غالبية المسلمين في القرى بالزراعة؛ حيث يمتلك بعضهم قطع أرض صغيرة لا يكفي محصولها للإنفاق على الأسرة، وبعضهم يعمل أجيراً في الأرض، وبعضهم يعمل بقطع المطاط لحساب شركات ڤيتنامية، وهؤلاء أسوأ حالاً من المزارعين. أما الذين يسكنون المدن فغالبيتهم بدون عمل وقليل منهم يعمل في بعض الحرف البسيطة مثل صناعة المفاتيح، ولا يوجد منهم موظفون ولا مسؤولون في الحكومة إلا في القطاع الخاص.

(*) للشيخ محمد العبودي كتاب وصف فيه رحلته إلى ڤيتنام بعنوان (أيام في ڤيتنام) من سلسلة رحلاته الدعوية. فجزاه الله خيراً.

ثالثاً: التعليم:

١ ـ التعليم الحكومي:

معظم أبناء المسلمين لا يكملون الدراسة في الجامعات لصعوبة النفقات، ويكتفون بالثانوية أو المتوسطة، ويوجد الآن عدد لا بأس به من الطلاب المسلمين في جامعات فيتنام خاصة في كلية التجارة (الإدارة ـ الكمبيوتر) ولا توجد أي مؤسسة أو هيئة تعتني بهم؛ فهم يعيشون مثل حياة الفيتناميين، وهناك ٤ منح سنوياً من البنك الإسلامي للدراسة في إندونيسيا تتحكم الجمعية الإسلامية فيهم وتبتز الأموال من الذين وقع عليهم الاختيار حتى إن الطالب ينتظر سنتين ليحصل على هذه المنحة، وأحياناً تضيع منح العام نتيجة التأخير؛ وقد يصل المبلغ الذي يدفعه ولي أمر الطالب للجمعية نظير مصروفات المنحة إلى ٨٠٠ دولار على الرغم من أنها مجانية.

٢ ـ التعليم الديني:

المساجد ليس لها أي نشاط في تعليم الكبار والشباب ودعوتهم، وجل ما تفعله أن تحتفل بالأعياد والمولد وتدعو المسؤولين الفيتناميين للمشاركة، فيجلسون ويدخنون جميعاً في المسجد دون تعظيم لحرمته!.

أما تعليم الصغار فحسب المكان: فهناك بعض المحافظات تسمح بتعليم الأطفال في المساجد، وأخرى لا تسمح. ويتعلم الأطفال: جزء عم، الحروف العربية، مبادئ التوحيد، الطهارة، والصلاة. وعادة يستعملون مقرئ القرآن للتعليم.

أما المدرسون فغالبهم غير مؤهلين حتى لتدريس الصغار؛ كذلك هم منشغلون بتحصيل أرزاقهم، ويجعلون وقت التدريس فيما زاد عنهم؛ حيث إنهم لا يتلقون أي مساعدات من أي هيئة، والحكومة لا تعترف بهم، عدا قرية واحدة تساعد الحكومة المدرسين فيها.

الهيئات والمؤسسات الإسلامية في فيتنام:

لا توجد أي هيئة أو مؤسسة إسلامية من خارج البلاد، ويرجع ذلك لصعوبة قوانين البلاد التي تحرم إقامة أي هيئة دينية لمساعدة طائفة بعينها؛ على الرغم من وجود مئات الجمعيات النصرانية التي تتواجد في مناطق عديدة في فيتنام تعمل وتدعو تحت ستار العمل الخيري للإنسانية. وعلى الرغم من ذلك فلم تقصر الهيئات الإسلامية في السعي للحصول على ترخيص مثل: (جمعية أم القرى الخيرية)، (لجنة العالم الإسلامي)، (جمعية إحياء التراث الإسلامي)؛ ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك على الرغم من شهرة هذه الجمعيات في العالم الإسلامي بعملها المنظم الإنساني الثقافي.

كما أن لهذه الجمعيات أعمالاً قائمة إلى يومنا هذا مثل: كفالة الأيتام، وكفالة المدرسين، بناء المدارس، طباعة الكتب وخاصة القرآن الكريم المترجم إلى اللغة الفيتنامية، بالإضافة إلى المشروعات الموسمية مثل: الأضاحي، الإفطارات الرمضانية. ولكن الناظر إلى حال المسلمين في فيتنام يجدهم في حاجة إلى تواجد قوي ومنظم من قِبَلِ هذه الهيئات عن طريق التمثيل وفتح مكتب أو فرع للهيئة هناك؛ وذلك

> لا توجد في فيتنام أي هيئة إسلامية من خارج البلاد على الرغم من وجود مئات الجمعيات التنصيرية

للحفاظ على هويتهم الإسلامية؛ حيث توجد أماكن في العاصمة القديمة الجنوبية (هوشمنه) لا تستطيع أن تميز فيها المسلمين من غيرهم. أما في داخل فيتنام فتوجد جمعية واحدة أنشأتها الحكومة، اسمها: (الجمعية الإسلامية بهوشمنه) ويقتصر عملها على مدينة هوشمنه فقط؛ ولكنها تحاول بسط نفوذها على المسلمين في باقي الولايات الأخرى، وتحاول الحكومة الآن إنشاء جمعية أخرى في ولاية (آن يان)؛ حيث الأغلبية المسلمة؛ لأن ذلك من مصلحتها؛ حيث تقوم الجمعية بمراقبة أعمال المسلمين من الألف إلى الياء ومن ثم إخبار الحكومة بها، وهذه الجمعية ليس لها أي نشاط إيجابي مؤثر في المسلمين.

الحالة الأمنية للبلاد:

لدى الحكومة خوف شديد من الإسلام والمسلمين بخاصة الأجانب وعلى وجه التحديد (العرب)، وكثيراً ما يذيعون وينشرون الأخبار التي فيها قتل وإيذاء في بلاد المسلمين لتخويف الناس من الدين، وقد شعرت بذلك أثناء وجودي هناك؛ وهذا بالنسبة للإسلام أما غيره من الديانات والعقائد فلا.

كذلك فهم يعملون على تجنيد عيون لهم حيث يقطن المسلمون. والعجيب أن هؤلاء العيون أكثرهم مسلمون وبعضهم يحمل بطاقة الحزب الشيوعي. والجدير بالذكر أن المسلمين أنفسهم إذا رأوا ما لا يعجبهم من شخص أشعروا به الشرطة.

الحالة الدعوية للبلاد:

المسلمون في جهل وفقر شديدين، ولكن المهم أن لديهم قابلية للتغيير، ونستطيع أن نقول: إنه لا توجد دعوة في فيتنام ولا أفراد يحملون همَّها إلا بعض الأفراد القلائل، وهم مدرسون مكفولون من جمعية إحياء التراث الإسلامي، ومع ذلك فهم ليسوا على المستوى المطلوب والوعي الكافي؛ فأحياناً يتسببون في مشكلات كبيرة مع أهل القرى التي يزورونها، ومن ثَمَّ ترفع الشكاوى بحقهم إلى الحكومة فتوقف الشرطة نشاطهم وتمنعهم من التحرك خارج القرية، وهؤلاء الأفراد يسكنون محافظة (آن يان) في قرية (شودوك).

من ناحية أخرى لا توجد دعوة لغير المسلمين البتة؛ وكيف يكون ذلك والمسلمون منشغلون بالخلافات المذهبية ثم تحصيل لقمة العيش؟ ثم كيف يكون ذلك والبلد لا يوجد فيها دعاة أكفاء؟! أما النصارى فعددهم الآن كثير جداً، والكنائس في كل مكان، وهم محترمون من قِبَل الحكومة؛ لأنهم لا يعملون أعمالاً من شأنها الإساءة إلى دينهم وذلك على اختلاف مذاهبهم

جماعة الزاهدين:

والغريب أن هناك جماعة أصولهم إسلامية يسكنون في ولاية فارنج في الجنوب الشرقي لفيتنام اسمهم «الزاهديون»[1] كانوا على الإسلام، ولكنهم حين انتشر فيهم الجهل وخالطوا البوذيين وأصحاب الملل الكافرة انحرفوا عن الشريعة الغراء، وأصبحوا يعملون أعمالاً غريبة منها قراءة كتاب مكتوب بخط اليد فيه بعض آيات القرآن الكريم بالحروف العربية وفيه كلام آخر غير مفهوم، هذا الكتاب يتوارثه أبناء أئمة المساجد، وبه يصير الابن إماماً بعد موت أبيه، كما أن الإمام هو الذي يصلي ويصوم عن الناس! نظير بعض الطعام أو المال الذي يقدم إليه من الشخص، وعندهم مساجد مهجورة لا يذهب إليها إلا الإمام، لا يعرفون عن الدين شيئاً، وهم غير مشاركين في الحياة المدنية، وغالبهم في القرى يعمل بالزراعة، ولهم تجمعات وأعياد خاصة.

هذه الجماعة لا تجد من يدعوها للعودة إلى الإسلام والسنة وهم قطاع كبير (عدة آلاف) يرجع منهم إلى الإسلام القليل بنفسه؛ حيث يرى من المسلمين السنة دعوة أو هدية أو تجديد مسجد كان قديماً أو غير ذلك من الأمور البسيطة.

المشروعات التي يمكن عملها في فيتنام:

المسلمون في فيتنام من المسلمين المنسيين، وهذا المقال تذكير بواجبنا نحوهم، ومن المشروعات المقترحة لتجديد الإسلام في المنطقة:

١ ـ رعاية الأيتام سواء في منازلهم أو عن طريق إقامة دار لرعايتهم وكفالتهم فيها، مع العناية القصوى بتربيتهم وتعليمهم أصول الإسلام وآدابه.

٢ ـ عمل دورات شرعية للمدرسين خارج فيتنام مثل تايلند أو كمبوديا.

٣ ـ إرسال الطلاب المتميزين للتعلم خارج البلاد ليعودوا دعاة لقومهم.

٤ ـ كفالة المدرسين والأئمة والدعاة للحفاظ على البقية الباقية من ثقافتهم الإسلامية، مع الحرص الشديد على تعليمهم أصول الإسلام وأركانه وحثهم على الالتزام بتعاليمه وآدابه.

٥ ـ بناء العيادات الصغيرة للخدمات الصحية، والتوليد خاصة؛ حيث لا توجد طبيبة مسلمة واحدة. أما الأطباء المسلمون فهناك طبيب واحد فقط من محافظة (آن يان).

٦ ـ إنشاء مركز للغة العربية على غرار المراكز التي تدرس الإنجليزية ولو بالاشتراك مع مركز قديم لتعليم اللغات؛ لأن نشر العربية يساعد في نشر الإسلام.

٧ ـ إنشاء جمعية للطلاب المسلمين في الجامعات لدعوتهم ورعايتهم والأخذ بأيديهم إلى أن يتخرجوا.

هذا ما يسَّره الله ـ عز وجل ـ من معلومات عن فيتنام حسب علمي.

فإلى الجمعيات الإسلامية التي تعمل في الدعوة إلى الله نقول: هلاَّ نال إخواننا في فيتنام قسطاً من دعوتكم وإغاثتكم حتى لا ينقرضوا ويعودوا إلى جماعات بدعية هي للبوذية أقرب!

(١) هذه الفرقة يوجد مثلها في كمبوديا وخاصة في قرية كمبومج شنان.



محمد حسين معلم

منذ أن وصل الإسلام إلى شرق إفريقيا وانتشر فيها بواسطة الدعاة والتجار العرب لم تشهد عقيدة التشيع حضوراً كبيراً في أرض شرق إفريقيا على الرغم من قدوم هجرات متتالية عبر القرون ـ من الجزيرة العربية والعراق والشام ـ بدوافع دينية وسياسية واقتصادية، ومن بينهم أناس يدَّعون أنهم من آل البيت، ومع ذلك فقد ساد المنطقةَ عقيدةُ أهل السنة والجماعة، وعلى مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في الفروع، وإن كان بعضهم لا يخلو من تصوُّف، ولم تظهر كتلٌ وقطاعات كبيرة تنتمي إلى الفكرة الشيعية تنشط في الميدان، وليس معنى ذلك عدم وجود أفراد وأسر متشيعة؛ ولكن حينما انطلقت الثورة الإيرانية بقيادة الخميني عام ١٩٧٩م من أرض الفرس أصبحت تتزعم الشيعة في العالم، وألقت على عاتقها مسؤولية نشر التشيع وحمايته؛ وعلى ذلك قدمت أدواراً مزدوجة في سبيل توسيع رقعة المذهب وتصدير فلسفته إلى أنحاء المعمورة.

وقد استطاع الشيعة في إيران توصيل مذهبهم إلى أصقاع مختلفة من العالم ومنها منطقة شرق إفريقيا التي شهدت نشاطاً شيعياً مكثفاً واسع النطاق وبقنوات مختلفة بفضل الدعم الكبير الذي تقدمه السفارات والقنصليات الإيرانية في تحقيق مآربهم في شرق إفريقيا ولا سيما في المناطق الساحلية المتأصلة جذور الإسلام في أعماق أهلها.

ويتركز نشاطهم فيما يلي:

أولاً: فتح مراكز ثقافية في المنطقة: وهذه المراكز تتكون من مكاتب علمية وقاعات للاجتماع وعقد الندوات وأماكن لتوزيع النشرات والكتب والأشرطة الدينية على مذهب الاثني عشرية وغير ذلك. وأحد هذه المراكز في كينيا يقع وسط البلد وفي مكان استراتيجي في العاصمة نيروبي، ويعتبر من أكبر المراكز في كينيا وهو تحت إشراف القنصلية الإيرانية؛ حيث

يتلقى منها التمويل والدعم المادي والروحي علاوة على الحماية السياسية، وهذه المراكز يديرها مجموعات شيعية مدربة تتقن عدة لغات مثل الإنجليزية والعربية إضافة إلى لغة السكان المحليين، وغالباً ما تضم هذه المراكز مكتبات علمية ضخمة فريدة من نوعها تحتوي على كتب علمية في مختلف صنوف العلم والمعرفة: من تفسير وعلومه، وحديث وعلومه، وفقه وأصوله، ولغة وأدب، وتاريخ وسيرة، ومعارف أخرى، كما تحتوي على مجلات وجرائد: أسبوعية أو شهرية، وأخرى فصلية، وهذه الجرائد يغلب عليها الطابع الشيعي الجعفري؛ لأن جلها يأتون به من داخل إيران.

ومن هذه المجلات:

١ - مجلة «رسالة التقريب» وهي فصلية، ويعنون بالتقريب: التقريب بين المذاهب الإسلامية: الشيعية، والسنية.

٢ - مجلة التوحيد. ٣ - مجلة الهدى.

٤ - مجلة الوحدة. ٥ - مجلة الراصد.

٦ - مجلة الطاهرة، وغير ذلك، وأغلبها مكتوبة باللغة العربية والفارسية.

ثانياً: فتح مدارس علمية وأكثرها ثانوية: وقد أنشأ الشيعة في المنطقة مدارس مختلفة المستويات التعليمية، وهذا النوع من المدارس كثير ومنتشر في العواصم والمدن الكبيرة وهي في الغالب مدارس أهلية يديرها مدرسون وطنيون، غير أن رئيسهم الروحي إيراني، ويُطلق عليه لقب الفقيه، وهناك مدارس ابتدائية ومتوسطة. وعلى أية حال لا يشترط في الطلاب ديانة معينة ولكن أغلبهم من المسلمين. أما لغة الثقافة في هذه المدارس فهي الإنجليزية والسواحلية.

ثالثاً: نشاط دعوي كبير بين الشباب المثقف: وقد وجد الشيعة في الآونة الأخيرة آذاناً صاغية لبدعهم وذلك بعد أن جندوا نخبة من السكان الأصليين - الذين تعاطوا المذهب الشيعي - واجتهدوا لنشره بين صفوف المجتمع، وهؤلاء الدعاة يتقاضون الأجور من قِبَل السفارات والقنصليات الإيرانية في المنطقة، وفي بداية الأمر لم يكن نشاطهم الدعوي يظهر في العلن؛ حيث الخوف والهلع من الدعاة السنيين، وخوفاً من إثارة الفتنة والخلاف الذي لم يكن لصالحهم. والحقيقة أن الشيعة تتبع أساليب وطرقاً مختلفة من إغراء بالأموال، وإعطاء منح دراسية لمن تَروق له أفكارهم المنحرفة من الشباب ويستحسن طابعهم الشيعي، علماً بأن غالبية السكان ليس لديهم مناعة قوية وحصانة شرعية تقيهم المحاولات البدعية المسمومة الموجهة إليهم. ومهما كان الأمر فقد أخذت الشيعة توطِّئ قدمها على أرض شرق إفريقيا، وبذلت - وما زالت تبذل - جهوداً في سبيل نشر التشيع والولاء لدولتهم، ويتلقون من إيران دعماً سخياً لا حدود له.

لذلك يخالج كثيراً من أهل السنة مخاوف عديدة من خطر هذا السيل الجارف الذي يتمثل فيما يلي:

١ - اهتمام الشيعة بالمسلمين الجدد، وزعزعة عقيدتهم وإدخالهم في التشيع.

٢ - اهتمامهم باللاجئين الصوماليين وإغرائهم بالمنح الدراسية.

٣ - فتح قنوات تلفزيونية، ولا سيما في تنزانيا.

٤ - اهتمامهم بإعداد المناهج الدراسية وتوفيرها.

٥ - تركيزهم على المسلمين في المناطق الساحلية.

٦ - اتحاد الجهود بين الشيعة والطرق الصوفية، وخاصة في المناطق الساحلية حتى تمكن الروافض من الاستيلاء على المراكز الصوفية وإحداث عداوة بين الصوفية وغيرهم.

٧ - نشرهم كتباً تسب تعاليم الإسلام وعقيدته الصحيحة وكذلك علماء أهل السنة مثل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وغيره.

٨ - استغلالهم الظروف الاقتصادية السيئة لبعض المسلمين في السواحل، وفي الملاجئ، حتى افتخر بعضهم أنهم استطاعوا التوغل في صفوف اللاجئين.

٩ - محاولاتهم الاستفادة من الوسائل الإعلامية المختلفة وتسخيرها لخدمة أهدافهم.

ومع هذه الجهود الكبيرة لأجل انتشار المذهب الشيعي إلا أن الله قيض بعض الدعاة - رغم قلة ما بأيديهم - لوقف هذا الزحف الكبير؛ حيث استخدموا وسائل الدعوة المختلفة من خطب ومحاضرات وندوات ودروس متتالية في أوساط الشباب وفي المساجد وغيرها حتى استطاعوا ردع الشيعة ورد ضلالاتهم في بعض المحافل؛ بحيث أُبعدوا من بعض الأماكن الهامة التي كانوا يسيطرون عليها على حين غفلة من أهل السنة.

ومن الأساليب والخطط التي استخدمها العلماء والدعاة السنيون: نشر كتب وتوزيعها تبين العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتوضح الضلال والزيغ من المذاهب المنحرفة وعلى رأسها المذهب الشيعي، غير أن المسلمين هناك يفتقرون إلى كتب وبحوث مكتوبة باللغات المحلية التي يعرفها السكان، كالسواحلية والإنجليزية؛ بحيث تتناول هذه الكتب إبراز خطر الشيعة على العقيدة والدين.

ومن المؤسف أن بعض الحركات الإسلامية لا تناقش مثل هذه القضايا؛ بل بعضهم يرون أن هذه الأمور خلافية قد تم دفنها مع الزمن، ولا يجوز نبش ما وراه التاريخ؛ لأن مناقشة القضايا العقدية لا سيما فيما يتعلق بالشيعة وضلالاتهم أمر لا ينبغي الخوض فيه لكي لا يتفرق المسلمون، في حين أن هناك نشاطاً مكثفاً يهدف إلى تشييع أهل السنة فضلاً عن غيرهم في أماكن عدة من العالم، وتنفق إيران في سبيل ذلك ثروة ضخمة، بل تتبنى وبكل جرأة رفع راية الشيعة في العالم بأسره وتفتخر بهذا الدور؛ حيث ترى أنه دور بطولي في ظل تخاذل أهل السنة وتقاعسهم دولاً وجماعات - إلا من رحم الله -.

ومن الغريب أن بعض المجلات والجرائد في العالم العربي ترفض نشر مواضيع تمس عقيدة الشيعة وتفنيد مكامن خبثهم رغم أن أصحاب هذه المجلات من جملة أهل السنة والجماعة، وهذا من غربة الإسلام التي أشار إليها نبينا محمد ﷺ، وأخطر من ذلك أن الشيعة بدؤوا بواسطة دولتهم ضغوطاً دبلوماسية على بعض الناس حتى لا يسمحوا بنشر ما يمس عقائدهم من الكتب والمقالات؛ حيث يعتبرون ذلك فتحاً لباب الدعاية عليهم والتدخل في شؤونهم الداخلية، مما تسبب في فقدان كتب كانت موجودة في الأسواق، ولا يُعرف من سحبها؛ لذلك فلا يستغرب أن يأتي يوم لا نجد في مكتباتنا كتباً ومصادر تكشف أكاذيب الرافضة وتفضح تلك الكتب أراجيفهم التي زلزلت أركان دولتهم وأبانت مكائدهم العقدية.

ورغم تبني إيران النشاط الشيعي، وتسخير كل ثرواتها وطاقاتها الهائلة في سبيل نجاح عقيدة الرفض بالإضافة إلى الخُمُس الذي يأخذونه من كل شيعي في أنحاء العالم تطوعاً ـ رغم ذلك كله فإنه من السهل أن نقاوم هذا الضلال المنتشر في صفوف المسلمين الجدد إذا استخدمنا خططاً محكمة وأساليب حكيمة مثل:

١ - نشر كتب وبحوث وتوزيعها تبين العقيدة الصحيحة على مذهب السلف الصالح، لا سيما الكتب التي ألفت لأجل تبيان الزيغ والضلال، ومن الضروري أن تكون بعض هذه الكتب مكتوبة بلغة يفهمها السكان الأصليون، ومن هذه الكتب:

- الشيعة والسنة، لإحسان إلهي ظهير.
- مسألة التقريب بين الشيعة وأهل السنة، د. ناصر القفاري.
- رسالة في الرد على الرافضة، للإمام محمد بن عبد الوهاب.
- حقيقة الشيعة، عبد الله الموصلي.
- أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، د. ناصر القفاري.
- الشيعة والقرآن، إحسان إلهي ظهير.
- النصوص الفاضحة، عبد الكريم محمد عبد الرؤوف، وغير ذلك من الكتب.

٢ - إقامة دورات دعوية بين الفينة والفينة لإعداد نخبة من الشباب وتربيتهم على المذهب الصحيح.

٣ - تنشيط بعض المراكز الثقافية التابعة لبعض الجمعيات والمؤسسات الدولية العاملة في منطقة شرق إفريقيا؛ إضافة إلى المراكز والمنابر الثقافية المحلية التي تعنى بالتعليم والدعوة.

٤ - إعطاء منح دراسية في الجامعات الإسلامية لأبناء السواحل الشرقية الإفريقية.

٥ - إصدار بعض النشرات شهريةً أو فصلية تتضمن ردوداً على الفرق المبتدعة.

٦ - تفريغ دعاة يهتمون بأمر العقيدة والتوحيد في جميع أصقاع المنطقة ليجوبوا الأقطار الساحلية بالدعوة الصحيحة.

نسأل الله أن ينصر من نصر دين محمد ﷺ، وأن يخذل من يخذله.



يرصدها: حسن قطامش

درس شيشاني

من دون أي مساعدات من الخارج، أو أي تأييد يذكر، وفي مواجهة جيش دولة عظمى تمكن مقاتلو الشيشان من إحراز انتصارات أربكت حسابات موسكو، ودفعتها إلى الاعتراف بالأخطاء، والإعلان ـ بعد تزييف مستمر ـ عن أعداد أقرب إلى الحقيقة للقتلى والجرحى في صفوف جيشها.

قد يتغير الموقف في مرحلة مقبلة، غير أن الحقيقة ستظل مع هذا قائمة ثابتة، وهي أن المقاتلين الشيشان تمكنوا من تدويخ الجيش الروسي وإلحاق الهزائم المخزية، وتكبيده أفدح خسائر، لقد حققوا لأنفسهم نصراً مدوياً في تاريخ جهاد ذلك الشعب الباسل من أجل نيل حريته واستقلاله. وهو نصر كان كفيلاً ـ لو أن في العرب بقية حياء ـ أن يجلب إلى وجوههم حُمرة الخجل.

فأما الدرس المستقى فلا أرى من هو أوْلى بأن ينتفع به من شعوبنا العربية والإسلامية التي غمرها الإحساس بوجود إرادة عليا لا تُقهر، ولا تملك حيالها غير الإذعان والاستسلام، إحساس بأنها باتت مغلوبة على أمرها.

غير أن أغلب ظني أنهم وهم يرقبون ما يجري اليوم في جمهورية الشيشان يودون في قرارة أنفسهم ـ ومهما تظاهروا علناً بغير ذلك ـ أن ينتهي الأمر سريعاً بسحق الروس لتمرد مقاتلي الشيشان حتى ترسخ ثقتهم في عبث المقاومة. فمجرد استمرار هذا التمرد، حتى من دون انتصارات باهرة كتلك التي حققها هؤلاء المقاتلون، يمثل إدانة دامغة لخمول همتهم، وأصابع الاتهام تشير إلى تقصيرهم.

واليوم إذ أتابع ساعة بعد ساعة أخبار جهاد الشيشان ضد الاستعماريين الروس أرى ثقتي تتنامى في أن الوقت قد يجيء حين يكون للمسلمين في تلك المنطقة دور القيادة للمسلمين في كل مكان. [حسين أحمد أمين، جريدة الحياة، العدد: (١٣٤٧١)]

كلام واضح

لم تنشب حرب الخليج الثانية بعد احتلال العراق للكويت لأسباب تتعلق بالديمقراطية أو حقوق الإنسان، وإنما بسبب النفط، ولو لم يكن النفط موجوداً في تلك المنطقة فلربما ظل العراق مسيطراً على الكويت حتى وقتنا هذا، ولم يكن الأمر ليأخذ الأهمية التي أخذها، فكما نرى في حالات أخرى لم يكترث أحد باحتلال بلدان أخرى. إذن يمكن القول: إن الولايات المتحدة تزعم أنها تنطلق من مسوغات إنسانية، ولكنها في معظم الحالات عوامل جيواستراتيجية، حتى في قراراتها المتعلقة بعمليات حفظ السلام كما في البوسنة وكوسوفا؛ لأن هاتين الدولتين تقعان في أوروبا، والوضع فيهما يؤثر على علاقات الولايات المتحدة مع روسيا ويعد مهماً من الناحية الاستراتيجية، ولكن الولايات المتحدة لم تتحرك إزاء رواندا، أو غيرها من الصراعات الإفريقية، وخرجت من الصومال بدون بذل محاولة جادة لتسوية النزاع فيها؛ لأنها لم تفهم حقيقة الأمر هناك واعتبرته قليل الأهمية بالنسبة لها، فانسحبت تاركة الصومال في حال يرثى لها كما كانت من قبل، إذن الولايات المتحدة تتخير حسبما يتوافق مع مصالحها الاستراتيجية. [آن ليشي، أستاذة العلاقات الدولية بجامعة فيلانوفا بالولايات المتحدة، مجلة المجتمع، العدد: (١٣٨٤)]

إنجاز ثوري!!

عندما تبدأ مطالعة موقع جمعية اللواطيين والسحاقيات العرب على الإنترنت ربما يكون من الأفضل أن تفقد طوعياً قدرتك على الاندهاش؛ حيث إن ذلك الموقع الأنيق يضم مجموعة متكاملة من المعلومات والأخبار ووسائل التعاون والخدمات، وكذلك جرعة معرفية هامة حول ثقافة الشذوذ الجنسي، وهو ما يبدو في مجمله مشروعاً لخلق مجتمع عربي جديد قائم على الحرية الجنسية!

إن هدف الجمعية هو تحقيق التواصل بين الشواذ العرب حول العالم، وتعتبر الجمعية أن إنجازها ثوري وخارق للعادة، نظراً لما تسميه بالاضطهاد التقليدي العربي لثقافة الشذوذ، وهي تشجع اللواطيين والسحاقيات على الاعتزاز بأنفسهم ومقاومة أولئك الذين يسعون إلى قمعهم بواسطة الكراهية والتجاهل!!

[جريدة القدس العربي، العدد : (٣٢٢٦)]

دعاة على أبواب العولمة!!

فئة الشباب في مصر تؤيد العولمة؛ لأنهم يتعاملون مع البيتزا ودجاج الكنتاكي ووجبات الماكدونالدز ويرتدون الجينز ويتعاملون مع الكمبيوتر وشبكة معلومات الإنترنت، ويتطلعون للسفر إلى الخارج، وهذه الفئة في واد آخر ولا تتأثر بمقولات أعداء العولمة. إن هناك اتجاهاً نحو السلام، والديمقراطية، وتحقيق الانتعاش الاقتصادي، وهذه ثلاثة أمور تحمل في طياتها بواعث الأمل!! فالسلام يجنب المنطقة مزيداً من الاستنزاف الاقتصادي والبشري والروحي. أما الديمقراطية فإنها تعوِّد العرب على حل خلافاتهم الداخلية الإقليمية بصورة سلمية وتساعد على فرز الكوادر السياسية ووضعِ أفضل لهذه الأمة في القرن المقبل. وبالنسبة إلى الانتعاش الاقتصادي: الملاحظ أن الدول العربية بدأت تتجه إلى اقتصاديات السوق وذلك بعد نصف قرن من التجربة وثبوت أن هذا الاتجاه هو الأفضل اقتصادياً في تنويع وتنمية مواردنا الذاتية.

[د. سعد الدين إبراهيم، رئيس مركز ابن خلدون بالقاهرة، مجلة الوسط، العدد : (٤١٦)]

كل هذا المديح!!

أبى الرئيس بوريس يلتسن ألا ينصرم القرن العشرون قبل أن يتاكد من تسجيل اسمه بين زعمائه الأفذاذ غير العاديين. وإذا أردنا وصفاً يلخص شخصية يلتسن آخر المنسحبين من عالم الأضواء في ذلك القرن فهو انه سياسي مغامر بامتياز، وهذه الصفة تحديداً هي أكثر ما يميز الزعماء الأفذاذ عن غيرهم. فالمغامرون هم الذين صنعوا التاريخ أو أعادوا صنعه، ولولاهم لسارت حياة الدول والمجتمعات رتيبة لا حيوية فيها ولا إثارة.

أما صفته الثانية التي لا تقل أهمية فهي العناد إلى غير حد. وما لم يكن السياسي عنيداً، يصير صعباً عليه أن يخوض مغامرات كبرى يركب خلالها الخطر في لحظات حاسمة. مع ذلك ـ وعلى رغم هذا الدور التاريخي ـ لم يتعرض سياسي في العقد الأخير من القرن العشرين إلى ما نال يلتسن من انتقادات لا بل لعنات، نسي كثيرون دوره هذا، ولم يذكروا غير سوء أدائه عندما صار سيد الكرملين.

وإذا كان ترك تقاليد فاسدة كثيرة فقد وضع تقليداً إيجابياً في يوم استقالته حتى إذا لم يقصد ذلك، وهو أن يستقيل المسؤول عندما يفشل.

وهذا موقف قد يَجبُّ بعض أخطائه التي ستظل تلاحقه، ولكنها لن، ولا ينبغي لها أن تسلبه حقه في الاعتراف به زعيماً فذاً ساهم بالدور الأهم في تحويل مسار بلاده وإخراج شعبه من وراء الستار الحديدي الذي لا تقارن مظالمه الهائلة بمعاناة الروس الآن.

وهو في ذلك كله زعيم فذ يستحق مكانة متقدمة بين رجال القرن العشرين أياً كان حجم الخلاف على دوره.

[وحيد عبد المجيد، رئيس تحرير التقرير الاستراتيجي العربي، جريدة الحياة، العدد : (١٣٤٥١)]

عليكم النصرة

كشف عائدون من مخيمات لاجئي الحرب الأهلية في منطقة شرق زائير ـ الكونغو الديمقراطية ـ عن تعرض نصف مليون مسلم من أبناء البلاد لمحاولات تنصيرية مستمرة تستغل الظروف القاسية التي يعيشها السكان المسلمون داخل المخيمات. وقالت هذه المصادر: إن المعونات التي تاتي من الأمم المتحدة إلى اللاجئين في المناطق الممتدة من شرق زائير إلى حدود بوروندي ورواندا تذهب في الأغلب إلى الأقلية المسيحية التي تعيش في المخيمات، في حين تظل الأغلبية المسلمة في انتظار معونات المنصرين، والفتات الذي ترسله لهم إيران التي تعد الدولة المسلمة الوحيدة التي التفتت لمشكلة هؤلاء اللاجئين!!

بدأت مشكلة هؤلاء اللاجئين منذ استولى رولان كابيلا على الحكم في زائير وحوَّل اسمها إلى الكونغو الديمقراطية؛ حيث نشبت حروب طاحنة ما زالت قائمة بين كابيلا ومعارضيه، وكان من ضحايا هذه الحروب المسلمون الذين يعيشون في المحافظات الشرقية، فتركوا مدنهم وقراهم، ومنهم عدة آلاف فروا إلى رواندا وبوروندي وأوغندا المجاورة، وعاشوا منذ تلك الفترة داخل خيام أقامتها لهم لجنة لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة.

إن المسلمين يتعرضون داخل هذه المخيمات التي أصابها البلى لمهانة لا تليق بالكرامة الإنسانية؛ فالطعام لا يسد الرمق، وتنعدم الخدمات الطبية مع تلوث مياه الشرب مما أدى إلى انتشار أمراض سوء التغذية بين الصغار والكبار، إضافة إلى الملاريا المنتشرة هناك بصورة وبائية. [مجلة الإصلاح، العدد: (٤٢١)]

لماذا المخالفة؟!

عندما اقتحم من يسمون أنفسهم جنود الله من رجال شامل باسايف وخطاب أراضي داغستان، عارضت أنا ذلك، وأعلنت موقفي جهاراً. وقلت: ليس هذا بجهاد.. هذا خداع.. وأعلنت ذلك من التلفزيون المركزي عندنا ـ وآنذاك كان ما يزال يعمل ـ وكان بوسعي التحدث معه.. وقلت: إذا كانت داغستان تريد الجهاد فلديهم علماء دين أفاضل يستطيعون إعلان الجهاد فيها، وإذا ما حدث وثاروا ضد روسيا فيمكننا التوجه لمساعدتهم كإخوة لهم. كما فعلوا هم حين ساعدونا في الحرب الماضية.

لكن ما حدث تماماً غير ذلك، فهم لم يعلنوا الجهاد، ونحن اقتحمنا أراضيهم، إنها أرض روسية.. ولهذا لم أؤيد العملية، إنه لشيء بعيد عن الإنصاف. فماذا كانت أهداف الهجوم.. وعن أي «إسلام» يدورالحديث لقد كانت هناك مدارس إسلامية ومساجد، ولم يفرض أحد الحظر على الدين، بينما نحن جئنا لفرض الشريعة والإسلام على حد الزعم.. هذا في الوقت الذي لم يتوفر هذا لدينا أنفسنا. فما هو المثال الذي كنا نريد تقديمه لهم؟

أنا لا استثني احتمال وجود يد لموسكو في ذلك، وربما جرى الاتفاق مع موسكو بشانه.

[مفتي الشيشان، أحمد قادروف، جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٧١٠)]

الجهاد المقلق!!

طالب الوفدان البريطاني والأمريكي اللذان زارا باكستان الحكومة الباكستانية بوقف أنشطة الجماعات الكشميرية المسلحة التي تعمل من الأراضي الباكستانية، وكان هناك ضغط على القيادة العسكرية من أجل تنفيذ عدد من المطالب إذا ما أرادت الحكومة الحالية أن تحظى بالقبول الدولي، وأكد مسؤولون في الوفدين أن الخطوة الأولى والأهم هي حظر نشاط حركة المجاهدين الكشميريين التي أعلنتها الولايات المتحدة حركة إرهابية. [السبيل الأردنية، العدد: (٣١٨)]

عزة يهودية!!

نقل عن الحاخام الأكبر الأسبق للدولة العبرية موردخاي إلياهو قوله: إن على سورية أن تعيد لـ «إسرائيل» مدينة دمشق العاصمة التي أخذت منا في عهد الملك داود، حسب زعم الحاخام المتشدد الذي يشكل مرجعاً دينياً أعلى للحزب القومي الديني (المفدال) المتطرف.

وأضاف الحاخام: إن على المؤمنين اليهود أن يخرجوا ويمزقوا ثيابهم؛ لأن الحكومة الإسرائيلية تريد إعادة مناطق من أرض «إسرائيل» بينما لا يعقل أن نتخلى عن أراضٍ في مرتفعات الجولان ونسلمها للعدو.

[جريدة القدس العربي، العدد: (٣٣٢٦)]

وماذا أنتم فاعلون؟!

قال السفير محمد صبيح مندوب فلسطين الدائم لدى جامعة الدول العربية: إن هناك عشرة آلاف عالم نووي في «إسرائيل» منهم علماء نجح الكيان في تهجيرهم من الدول السوفييتية السابقة وذلك ضمن موجة الهجرة التي شملت تهجير ٩٢ ألف عالم في مجالات مختلفة من الاتحاد السوفييتي السابق إلى «إسرائيل».

وأشار مندوب فلسطين في تصريحات أدلى بها على هامش اجتماعات اللجنة العربية المعنية برصد النشاط النووي «الإسرائيلي» إلى أن دول المنطقة تحتاج إلى أكثر من ٥٠ عاماً لإعداد جيش من العلماء النوويين على غرار الجيش الموجود في «إسرائيل» حالياً، وأضاف صبيح أن «إسرائيل» تستثمر هذه المعرفة وتعطيها إلى دول أخرى معروفة في المنطقة تحت غطاء التعاون العسكري.

[جريدة الخليج، العدد: (٧٥٥٤)]

هل نعي المقصود؟!

إن العالم العربي يفتقر إلى النظافة، وإن هذا الحال غير معقول بالنظر إلى أن «إسرائيل» في هذا المحيط بقعة نظيفة، فضلاً عن أنها جزيرة ثرية وسط بحر من الفقر، إن من الضروري الاتفاق على نظم التعليم وشؤون المياه والطاقة، وذلك بتغيير مناهج التعليم في دول الشرق الأوسط، وبالاتفاق على تقسيم المياه في المنطقة، إن هذه الموضوعات لا يصح أن تنتظر عملية السلام، ولكن يمكن أن تسير معاً بالتوازي، وحتى إذا تعثر السلام تسير هذه الموضوعات دون انتظار، حتى لا تبقى هذه المنطقة متخلفة وتلهث وراء قطار العولمة!!

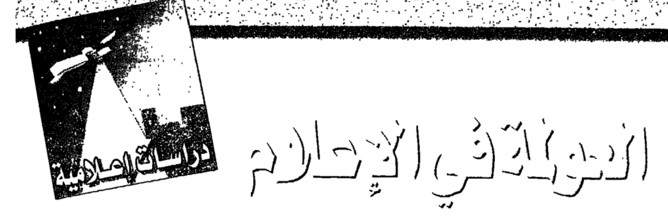
[شمعون بيريس، جريدة الخليج، العدد: (٧٥٦٠)]

تعادل غير.. عادل!!

ذكر تقرير عن الصحة والبيئة صادر عن معهد وورلد ووتش أنه للمرة الأولى ينافس عدد الأشخاص في العالم المصابين بتخمة غذائية وزيادة في الوزن هؤلاء المصابين بسوء تغذية وانخفاض في الوزن؛ إذ يبلغ عدد كل منهم ١,٢ بليون شخص.

والتخمة الغذائية هي مشكلة ظهرت حديثاً في دول تسمح الدخول المرتفعة فيها بشراء أغذية ذات سعرات حرارية عالية.

[جريدة الحياة، العدد: (١٣٤٦١)]



العولمة في الإعلام

د. مالك بن إبراهيم الأحمد

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين القائل: «إن من البيان لسحراً»(١) وبعد:

فإن أمر الإعلام في عصرنا الحاضر ودوره المؤثر والفعال على الأمم والمجتمعات، على الدول والمؤسسات، والكبار والصغار، والنساء والرجال أمر لا يخفى على ذي بال.

لكن الطور الذي دخله الإعلام في سنيه الأخيرة ليس مجرد طور عادي، وليس مجرد وسيلة جديدة أو أسلوب متطور فحسب؛ بل الأمر هو التوجه العالمي للإعلام؛ بمعنى أن الإعلام لم يعد محصوراً في مكان أو حدود سياسية أو بقعة جغرافية.. بل أصبح يتخطى الحدود وربما يجاوز كل وسائل الرقابة.

كذلك فإن الأمر لا يقف عند هذا الحد.. بل تعداه إلى تكوين مجموعات أو شركات إعلامية أخطبوطية لها أذرع في كل مكان، ولها وجود في كل صنف من الإعلام.. تشارك في القرار السياسي وتؤثر في النشاط الاقتصادي.. توجه المجتمعات وتقود الأمم في الفكر والثقافة، في الفن والرياضة، في الدين والأخلاق. نعم! هي مستقلة (مالياً) لكنها مرتبطة بصفة مًا بالدول التي تنطلق منها.

خلفية مالكيها ومؤسسيها تحكم توجهها الثقافي والاجتماعي. أما عمالها وموظفوها فهم مشاركون في صياغة توجهها وما تبثه وما تنقله وما تنتجه من مواد إعلامية فيغلب عليهم التوجه العلماني، ويؤثر حيث يغلب فيهم خلفيتهم الأيديولوجية. أما التاريخ فهو ما يصوغ علاقتهم مع الآخرين، خصوصاً إذا كانت هناك تداخلات مسبقة (حروب صليبية ـ استعمار..).

وحديثنا عن آثار العولمة في مجال الإعلام ليس من باب المبالغة ولا من باب تقوية الخصوم لكنه من باب ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال: ٦٠] من باب أن «الكلمة أمانة» ومن باب «الواجب والمسؤولية» وباب ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] وباب «تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى..» وسوف نسرد هنا نماذج فعلية تحكي صورة من الإعلام الدولي الذي ينحو نحو العولمة؛ فلقد سمعنا وقرأنا كثيراً عن العولمة في السياسة والعولمة في الاقتصاد.. لكن لم نسمع من قبل عن العولمة في الإعلام؛ فدعونا نقرأ قليلاً حول هذا الموضوع.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٤٧٤٩.

مفهوم العولمة:

العولمة مصطلح حادث مترجم عن الكلمة الإنجليزية Global ومعناها: عالمي أو دولي، وغالباً ما تذكر مرتبطة بمصطلح القرية (Global Village) بمعنى القرية الكونية أو العالمية. ويدور مفهوم العولمة حول الوجود العالمي أو الانتشار الكوني، وغالباً ما استخدم في السياسة والاقتصاد بمعنى النفوذ السياسي العالمي والمؤسسات الاقتصادية الدولية (الأخطبوطية) المتواجدة في أنحاء كثيرة من العالم ولها تأثير قوي ونافذ سواء في الشأن الاقتصادي أو السياسي المحلي (أي في البلدان المتواجدة فيها). ثم تطور في جانب جديد وهو العولمة الإعلامية، عن طريق إنشاء مؤسسات إعلامية دولية ضخمة لها قاعدة أساسية في بلد وتنطلق منه إلى كثير من البلدان، ولها آثر فاعل في الإعلام المحلي لتلك البلدان..

وأخيراً نشأ مصطلح العولمة الثقافية (Global Culture) وتعني الانتشار الثقافي الفكري لجهات قومية ومؤسسات دولية (أغلبها أمريكية) وأصبح لها أثر ملموس في الجانب الثقافي لدى الكثير من المجتمعات حول العالم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب[١].

المجموعات الإعلامية الدولية الكبرى:

هناك ست مجموعات رئيسة كبرى تعمل في الأنشطة الإعلامية على مستوى العالم ولها حضور دولي كبير متفاوت من مؤسسة لأخرى، أربعة منها أمريكية، وواحدة أوروبية، وواحدة أسترالية أمريكية، وهذا عرض لأبرز أنشطة هذه المجموعات:

١ـ تايم ورنر Time Warner:[٢].

أكبر مؤسسة إعلامية في العالم؛ إذ تفوق مبيعاتها ٢٥ بليون دولار، ثلثها من أمريكا والباقي من العالم. ويتوقع ارتفاع دخلها من خارج أمريكا إلى ٥٠٪، وتملك العديد من الأنشطة الإعلامية المتنوعة ومنها:

- ٢٤ مجلة (منها تايم).
- ثاني أكبر دار للنشر في أمريكا.
- شبكة تلفزيون ضخمة واستديوهات برامج وأفلام، ودور عرض للسينما (أكثر من ١٠٠٠ شاشة)، وأكبر شبكة كيبل تلفزيوني مدفوع في العالم.

---

(١) عدد أغسطس من مجلة ناشيونال جوغرافيك الأمريكية كان محور العدد الرئيس هو العولمة الثقافية Global Culture وغطت المجلة التأثير الامريكي الثقافي حول العالم.

(٢) في أضخم حدث إعلامي اقتصادي من نوعه في بداية عام ٢٠٠٠م التهمت الضفدعة (شركة خدمات الانترنت AOL) الجمل (شركة تايم ورنر) في صفقة تجاوزت قيمتها ٣٥٠ بليون دولار أمريكي مما يُنبئ بقفزة إعلامية نوعية؛ حيث ستتداخل خدمات الإنترنت مع مخزن إعلامي ضخم في مكان واحد ومن مصدر واحد.

- شركات أفلام في أوروبا، والعديد من محلات البيع بالتجزئة.
- مكتبة ضخمة من الأفلام (٦٠٠٠ فلم) والبرامج التلفزيونية (٢٥٠٠٠ برنامج).
- بعض القنوات الدولية التلفزيونية مثل HBO, TNT, CNN .
- مساهمات رئيسة في قنوات وشبكات تلفزيونية أو مرئية.

وللعلم، فإن عدد مشاهدي المحطة الإخبارية CNN يفوق ٩٠ مليوناً في ٢٠٠ دولة، ولدى HBO ١,٢ مليون مشترك حول العالم.

٢ـ مجموعة برتلزمان Bertelsmann:

أكبر مجموعة إعلامية في أوروبا وثالث أكبر مجموعة في العالم. دخلها السنوي يجاوز ١٥ بليون دولار، وتتميز بأن لها تحالفات وتعاوناً مع العديد من المجموعات الإعلامية الدولية في أوروبا واليابان، ولها العديد من الأنشطة الإعلامية ومنها:

- قنوات تلفزيون في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا؛ إضافة إلى استوديوهات سينمائية متعددة.
- مجموعة من الإذاعات الأوروبية.
- ٤٥ شركة نشر للكتب بلغات أوروبا المختلفة.
- أكثر من ١٠٠ مجلة في أوروبا وأمريكا.

٣ـ مجموعة ڤياكم Viacom:

مجموعة إعلامية قوية في أمريكا؛ وربع دخلها السنوي (١٣ بليون دولار) من خارج أمريكا، ولها نشاط محموم للتوسع الدولي؛ حيث أنفقت بليون دولار في السنوات الأخيرة للتوسع في أوروبا، ولها تحالفات مع العديد من المجموعات الإعلامية ونشاطها متنوع ومنه:

- ١٣ محطة تلفزيون في أمريكا إضافة إلى شبكات بث فضائي دولي (شوتايم(١) ـ نكلدون...).
- شركات إنتاج تلفزيوني وسينمائي وڤيديوي وموسيقي.
- شركات نشر كتب.

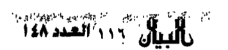
٤ـ ديزني Disney:

أكبر متحدٍ لمجموعة تايم ورنر في العولمة الإعلامية. لها دخل يفوق ٢٤ بليون دولار، ولها حضور قوي في مجال الأطفال بل تعتبر أكبر منتج لمواد الأطفال في العالم، ولها حضور من أقصى الشرق (الصين) إلى أوروبا والشرق الأوسط حتى أمريكا اللاتينية. ولها أنشطة متنوعة منها:

- استوديوهات أفلام وڤيديو وبرامج تلفزيونية، وشبكة ABC التلفزيونية الضخمة في أمريكا،

---

(١) قنوات شوتايم Showtime من أخطر القنوات التلفزيونية لها حضور قوي في المنطقة العربية (من خلال البث الفضائي) ولها ما يقارب ١٠٠,٠٠٠ مشترك عربي، وتتميز بأن الانحلال والتعري جزء رئيس من سياستها لاقتحام البيوت.



ومحطات تلفزيون وراديو متعددة.

- قنوات تلفزيونية دولية متعددة بالأقمار الصناعية والكيبل مثل ديزني Disney , Espn الرياضية.
- محلات تجارية باسم ديزني، ومراكز ألعاب وترفيه حول العالم.
- دور نشر للكتب.
- ٧ صحف يومية، و٣ شركات لإصدار المجلات.

وللمجموعة تحالفات ومشاركات مع مؤسسات إعلامية في أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية وكذلك مع شركات بث واتصالات متعددة الجنسيات.

٥. نيوزكوربريشن News Corporation:

خامس أكبر مجموعة إعلامية من حيث الدخل (١٠ بليون دولار) لكنها أكبر لاعب دولي في مجال الإعلام حول العالم. أسس المجموعة روبرت مردوخ(١) ويملك حالياً ثلثها، ولها وجود في جميع أنحاء العالم من خلال أنشطتها الإعلامية والتي منها:

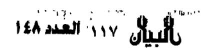
- ١٣٢ صحيفة و٢٥ مجلة في - أستراليا وبريطانيا وأمريكا (تعتبر واحدة من أكبر ثلاث مجموعات صحفية حول العالم).
- شركة فوكس للإنتاج السينمائي والتلفزيوني، وشبكة فوكس للبث التلفزيوني؛ إضافة إلى ٢٢ محطة تلفزيون.
- شبكة ستار للبث الفضائي حول العالم وشبكة سكاي (بريطانيا خصوصاً).
- دور نشر للكتب.

وللمجموعة تحالفات مع مجموعات إعلامية حول الإعلام، وقاعدتها ٦ دول رئيسة تنطلق منها أنشطتها المتنوعة وبالأخص: أستراليا - بريطانيا - أمريكا.

تعتبر هذه المجموعة من أعقد المجموعات الإعلامية وأوسعها، ولها نفوذ قوي في الصين والهند (فضلاً عن أوروبا وأمريكا)، وأسلوبها الناجح هو الشراكة مع جهات نافذة محلية مع عدم مصادمة

---

(١) مردوخ (أسترالي الأصل - أمريكي الجنسية) بنى إمبراطورية إعلامية عالمية بدأ من أستراليا، وكانت البداية عام ١٩٥٢م بشركة صغيرة تصدر جريدة واحدة في مدينة صغيرة في جنوب أستراليا، ثم توسع في شراء صحف التابلويد ذات الانتشار الواسع، واستخدم أسلوب الإثارة والصور لجذب القراء. انتقل إلى بريطانيا في بداية الستينيات، واقتحم أيضاً سوق الصحف الشعبية، وتبع ذلك في بداية السبعينيات الانتقال إلى أمريكا وأيضاً في مجال الصحافة. وكانت النقلة الكبرى له عام ١٩٨٥م عندما اشترى استوديوهات فوكس الأمريكية، ثم توسع بعد ذلك بشراء عدة محطات تلفاز أمريكية، ثم انتقل إلى البث الفضائي في بداية التسعينيات من خلال شبكة Bsky.B البريطانية ثم شبكة Star الآسيوية.
تغطي نشاطاته الإعلامية ٧٥ ٪ من سكان العالم و٥٢ دولة في كافة القارات (عدا أفريقيا الفقيرة) يملك مردوخ ٣٠ ٪ فقط من المؤسسة الإعلامية التي أنشأها (news Corp.).



التوجهات السياسية المحلية لهذه البلدان(١).

ومن أهم خصائص هذه المجموعة: أنها تبث بلغات البلدان المختلفة؛ فمجموعة (Fox) نفسها مثلاً تبث بالأسبانية في أمريكا اللاتينية وأسبانيا إضافة إلى الإنجليزية بوصفها لغة دولية وتتميز هذه المجموعة أيضاً بقدرتها على اختراق الدول النامية وتوطيد أقدامها فيها، كما أن لها مصادرها الخاصة بالأخبار والبرامج ممثلة في شركات تابعة أو شريكة إضافة إلى قنوات البث الخاصة بها.

٦.مجموعة TCT:

وهي مجموعة إعلامية متخصصة بالبث التلفزيوني عبر الكابل وكذلك عبر الأقمار الصناعية من خلال نظام الاشتراكات، ولها وجود قوي دولي في هذا الميدان؛ حيث تمتلك قمرين صناعيين للبث حول العالم (قيمتهما ٦٠٠ مليون دولار) والدخل السنوي للمجموعة يفوق ٧ بليون دولار.

مجموعات إعلامية أخرى:

هناك مجموعات إعلامية دولية أخرى على صنفين:

الأول: يمثل النشاط الإعلامي جزءاً من نشاط أوسع للشركة الأم.

والصنف الثاني: مجموعات إعلامية أصغر (من حيث الدخل؛ وإلا فإنها إمبراطورية إعلامية لا يقل دخلها عن بليون دولار سنوياً)، وسنذكر هنا أبرزها وأكثرها تواجداً على الساحة الدولية:

١ - **يونيڤرسال:** تملكها مجموعة سيغرام الدولية، ويمثل دخل المجموعة الإعلامية (٧ بليون دولار) نصف عائدات الشركة الأم. وأبرز أنشطتها: أعمال الإنتاج السينمائي والتلفزيوني والموسيقي ونشر الكتب، ولها ٢٧ مكتباً حول العالم، ولها وجود قوي في أوروبا وشرق آسيا (سوف تنفق ٢٠٠ مليون دولار في الصين حتى العام القادم).

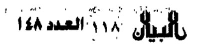
٢ - **بولي جرام:** تمتلكها شركة فيليبس المشهورة، وأعمالها الرئيسة: إنتاج سينمائي وموسيقي، ودخلها يجاوز ٦ بليون دولار نصفها من مبيعاتها في أوروبا وربعها في أمريكا.

٣- **سوني للترفيه:** وهي جزء من سوني للإلكترونيات اليابانية الضخمة، وهي متخصصة في الإنتاج السينمائي والتلفزيوني والموسيقي والبث الفضائي، ولها دخل يجاوز ٩ بليون دولار سنوياً، ولها شراكات وتحالفات متعددة في أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

٤ - **جنرال إلكتريك:** من أكبر الشركات في العالم خصوصاً في الكهربائيات، وتملك شبكة NBC للتلفزيون والراديو، ودخلها يجاوز ٥ بليون دولار، ولها وجود دولي وتحالفات متعددة مع شركات برامج كمبيوتر (ميكروسوفت) حيث أنفقت ٥٠٠ مليون دولار من أجل قناة دولية للأخبار عبر الإنترنت MSNBC.

---

(١) أوقفت شبكة ستار في الصين بث تلفزيون BBC عن الأراضي الصينية عندما رأى ساسة الصين أن القناة تبث أخباراً مزعجة لهم ولا يوافقون على أسلوبها في تغطية الأحداث الصينية.



٥ ـ **مجموعة هولنجر (كندا)**: ولها نشاط صحفي واسع؛ حيث تمتلك ٦٠ صحيفة يومية.

٦ ـ **التلفزيون المباشر (Direct TV) الأمريكي**: [المملوك لشركة هيوز Huges للإلكترونيات والتي تمثل بدورها فرعاً من جنرال موتورز] وهي شركة بث عبر الأقمار الصناعية (١٤ قمراً حول العالم) وتصل إلى ١٠٠ دولة.

عموماً هناك العديد من المجموعات الإعلامية (أكثر من ٢٠ مجموعة يفوق دخلها بليون دولار سنوياً في أمريكا ومثلها تقريباً في أوروبا) والطابع العام لها هو التحرك الأفقي ومحاولة كسب أوسع مساحة من الأرض إعلامياً؛ وإن كان الوجود الأمريكي هو الطاغي لهذا التحرك.

بقية العالم:

وبما أن بقية العالم (عدا اليابان) متخلف في كل شيء فإن العولمة الإعلامية جزء من هذا التخلف العام، لكن هناك ٤ مؤسسات إعلامية في أمريكا اللاتينية من الحجم الثاني وهي ذات توجه دولي.

وبالنسبة لآسيا والشرق الأوسط فلا توجد مؤسسات حتى من الحجم الثاني؛ على حين أن الأمر بالنسبة للمنطقة العربية أضعف بكثير.

أما اليابان فإنها رغم قوتها الاقتصادية إلا أنها متخلفة إعلامياً عن الغرب، وفيما عدا شركة (سوني) لا يوجد مؤسسات إعلامية دولية يابانية رغم وجود العديد من المؤسسات الإعلامية في اليابان (٢٢٧ شركة من أكبر ١٠٠٠ شركة إعلامية في اليابان) إلا أنها تركز على السوق الياباني المحلي، إحداها NHK التي يفوق دخلها ٦ بليون دولار سنوياً.

العولمة الإعلامية والتقنية:

ترتبط العولمة بالتقدم والتوسع الاقتصادي ارتباطاً وثيقاً؛ ولذلك كانت عملية الرقمية (Digital) في نقل الصوت والصورة والكلمة حاسمة في تسهيل وصول هذه المواد للمستهدف، كما أنها خفضت التكلفة مما ساعد على توسيع دائرة الانتشار عالمياً، كذلك ساعدت شبكات الاتصال الفائقة (Fibers) في تسهيل نقل كميات كبيرة من المعلومات وبدرجة نقاء عالية وبوقت قصير حول العالم، وأصبح هناك تحالف ظاهر بين شركات الاتصالات وشركات التقنية والبرامج مع المؤسسات الإعلامية نظراً للمصالح المشتركة بين هذه الأطراف؛ فالأولى ترصف الطريق والثانية تسير عليه[1].

أهداف العولمة الإعلامية:

من المعلوم أن الربحية غرض رئيس للرأسمالية الغربية، وأي نشاط اقتصادي يكون وسيلة لزيادة الدخل وللربحية فإنه مُحبّب ومرغوب.. هذا هو منطلق العولمة الإعلامية: ربح وربح وربح.

---

(١) يعتبر التحالف بين أكبر شركة للبرامج حول العالم (ميكروسوفت) وشبكة NBC التلفزيونية مثالاً حياً على هذا التعاون؛ حيث أثمر عن قناة إخبارية رئيسة تبث عبر الإنترنت تنافس قناة CNN الدولية المشهورة.

لكن لا ننسى أن القائمين على هذه المؤسسات والعاملين فيها لهم خلفيات وعقائد ومبادئ ينقلونها إلى العالم من خلال أنشطة مؤسساتهم الإعلامية مثل ما تنقل السفينة البضائع، فلا يُستغرب أن نرى مضامين هذه العولمة الإعلامية متوافقة تماماً مع ما درج عليه أصحابها؛ فالعنف يستشري في دمائهم، والجنس قضية بيولوجية؛ أما العقيدة فهي مجموعة من الخزعبلات والخرافات والشعوذات تتوافق أحياناً مع تربيتهم الدينية (النصرانية) وتصادمها أخرى.

مَن المستهدَف؟

ليس هناك مجتمع محدد مستهدف بالعولمة ولا قطاع معين أو دولة محددة، لكن أينما وجدت التسهيلات الفنية والإمكانات المالية فتجدهم هناك، لذلك نجد توجهاً قوياً للمجموعات الإعلامية الدولية تجاه المراهقين والأطفال؛ نظراً للوقت الطويل الذي يقضونه أمام شاشات التلفاز، الإنترنت، الكمبيوتر.

والمجتمعات العربية والإسلامية مستهدفة بهذه العولمة ضمن هذا الميدان؛ فحيثما شُرعت الأبواب لهم فإنهم داخلون، لا يعتدُّون غالباً بالبيئات وثقافتها وتقاليدها فضلاً عن دينها ومبادئها.

من يقود العولمة الإعلامية؟

المتابع لوسائل الإعلام بكافة أنواعها - والتلفاز والسينما والإنترنت على وجه الخصوص - لا يخفى عليه الحضور الأمريكي الطاغي؛ لدرجه أن أصواتاً عدة ارتفعت في أوروبا (فرنسا على وجه الخصوص) لمقاومة المد الإعلامي الأمريكي الغازي.

وفي الوقت نفسه بدأ السعي الحثيث لدى بعض المؤسسات الإعلامية الأوروبية نحو العولمة، بدءاً بالانتشار الواسع داخل أوروبا نفسها ثم الانطلاق نحو الأسواق الخارجية خصوصاً ذات الثقافة واللغة المتشابهة.

تطور العولمة الإعلامية:

بدأ التحول الضخم في اتجاه العولمة في مجال الاعلام بدءاً من الثمانينيات، وكانت البداية أفرعاً لمؤسسات وموزعين لمنتجات إعلامية، ثم تطورت الأمور مع التوسع الاقتصادي والنمو السكاني والانفتاح السياسي والاقتصادي بين الدول.

استطاعت مجموعة من المؤسسات الإعلامية أن تفهم حاجات المجتمعات المختلفة للمواد الإعلامية مما ساعدها على تطوير أدوات إيصال لهذه المواد مستفيدة من التطور التقني الواسع في ميدان الاتصالات.

بدأت المؤسسات الإعلامية الأمريكية القوية في موطنها في تكوين شركات متعددة الجنسيات وشراء أنشطة ومؤسسات إعلامية في البلدان الخارجية المختلفة.

واكب ذلك تحالفات استراتيجية مع الجهات المحلية القوية مستفيدة بدرجة كبيرة من النفوذ

الأمريكي السياسي في العالم وتهاوي أدوات المنع أو الرقابة ووسائلهما في البلدان المختلفة.

وتطورت الأمور تجاه العولمة بسرعة بالتواكب مع العولمة الاقتصادية؛ حيث يمكن إدراج الإعلام جزءاً من الأنشطة الاقتصادية.

وصل عدد المؤسسات الإعلامية الدولية إلى ٤٠ مؤسسة نصفها تقريباً أمريكي.

ويتوقع الاستمرار نحو هذا الاتجاه وزيادة التكتلات والمجموعات الإعلامية الدولية وذلك في المدى القريب والمتوسط.

دراسات:

في دراسة تمت عام ١٩٩٦ حول الإعلام في ٤١ دولة كانت النتائج ما يلي:

- أكثر الأفلام مشاهدة أمريكية، و ٩ أشرطة من كل ١٠ أشرطة ڤيديو أمريكية.
- ٢٠,٠٠٠ مستهلِك حول العالم (١٩دولة) سئلوا عن الثقافة الإعلامية الأمريكية أجاب ما يقارب النصف منهم بأنها جيدة جداً أو ممتازة.
- ٩٠٪ من الإعلام في إيطاليا يسيطر عليه الإعلام الأمريكي.
- ٢٥ ٪ من سوق الكتب (٨ بليون دولار إجمالي دخل الكتب في العالم) تسيطر عليه ١٠ دور نشر وأكبرها بل أكثرها مملوكة لمؤسسات إعلامية دولية (تايم ورنر، بريكزمان، ڤياكم)

نماذج لأنشطة إعلامية محددة ذات صيغة دولية:

بالإضافة إلى برامج التلفاز والسينما الأمريكية ذات الحضور الدولي الكثيف من خلال الشركات الإعلامية المذكورة سابقاً فإن هناك أنشطة إعلامية صحفية ذات طبيعة دولية؛ فتجد صحيفة دورية تصدر في أمريكا مثلاً ولها العديد من الطبعات الدولية ذات المضمون نفسه أو بتغير طفيف مثل مجلتي (نيوزويك) و (التايم) الأمريكيتين.

كذلك هناك مجلة (ريدرز دايجست) الأمريكية التي لها ١٧ طبعة، كل طبعة بلغة مختلفة وبنسخ تعد بالملايين.

كذلك مجلة ناشيونال جيوغرافيك لها العديد من الطبعات بلغات مختلفة آخرها وأحدثها اليابانية - اللغة الميتة - وبنسخ تفوق المليون شهرياً (ليس لها طبعة عربية).

مستقبل العولمة الإعلامية:

تعتبر أمريكا أكبر دولة في العالم اقتصادياً وسياسياً؛ وفي جانب الاتصالات هي الأولى وكذلك في جانب الكمبيوتر. أما الإعلام فلا يوجد لها منافس حقيقي في الساحة. هذه الحقيقة تعطي تصوراً واضحاً للمستقبل الإعلامي العالمي؛ فقيادة أمريكا له ظاهرة.

وتداخل الإعلام مع التقنية في الكمبيوتر والاتصالات تجعل القدرة الأمريكية في استمرار الهيمنة

الإعلامية مؤكدة؛ خصوصاً إذا انتبهنا إلى الأسلوب المستخدم في الإعلام (المرئي على وجه الخصوص) والذي يعتمد على الإيحاء والخيال الواسع والصورة والحركة لإيصال الرسالة الإعلامية بعيداً عن الكلام الكثير والحشو المطول.

ومما هو مشاهد أن التوسع الإعلامي (الأمريكي على وجه الخصوص) أفقي وعمودي؛ وقد استفاد من التحالفات المحلية (في المناطق القوية) والسيطرة والاحتكار (في البلدان الضعيفة).

كذلك فإن النظرة للعولمة من جهة الشركات الإعلامية الغربية والأمريكية على وجه الخصوص يزداد مع الأيام، والقناعة به بدأت تسري حتى في المؤسسات المتوسطة والصغيرة فضلاً عن الكبيرة.

هذا الأمر (العولمة الإعلامية) سيتجذر مع مرور الأيام، وسيصبح جزءاً مفهوماً من الواقع العالمي.

وبالطبع سيتأثر هذا الأمر بمدى المقاومة السياسية للبلدان المستهدفة وبمدى قدرتها على المقاومة أصلاً أو حتى برغبتها في ذلك أو عدم الرغبة.

كذلك سوف تتعرض البلدان المتخلفة لضغوط سياسية واقتصادية للقبول بهذا الواقع الإعلامي الجديد من باب: حرية الناس، وحقوق الإنسان، الإعلام الحر، تبادل الثقافات، وحوار الحضارات.

ولا ننسى أيضاً أن الشركات الإعلامية تتحرك بمساعدة حكومية من بلدانها الأم وهي تنظر إلى الناس (في كل مكان) أنهم مستهلكون لسلع هم ينتجونها، ولا ينظرون إليهم بصفتهم مواطنين في بلدانهم لهم ثقافاتهم الخاصة وعقائدهم المتميزة.

وأخيراً...

فإن واقع الإعلام العالمي يدعو للذعر مع الأخبار التي ما فتئت تذكّرنا بل تذهلنا بالتطورات المتسارعة؛ حيث ذكرت إحدى الشركات الأمريكية أنها في صدد إطلاق قمر صناعي جديد ذي إمكانات تقنية مذهلة وبتكلفة أقل من الحالية.. تقول الشركة: إنها في غضون سنة ٢٠٠٢م سوف تطلق قمراً قادراً على بث ألف وخمسمائة قناة تلفازية في وقت واحد يعادل أداؤه مجموعة من الأقمار الصناعية الحالية.. هذا في جانب البث الفضائي.. أما الإنترنت فالشبكة القادمة - والتي بدأ تطبيقها في بعض الجامعات الأمريكية - ستصل سرعتها إلى ١٠٠٠ ميجا بيت (٢٠٠٠ ضعف الشبكة الحالية) و١٠,٠٠٠ ميجا بيت في غضون بضع سنوات.. هذا يعني بثاً حياً عالي النقاوة للصورة المتحركة أو الصوت (تلفاز رقمي) أو الصوت، أما المواد المقروءة فيمكن نقلها في غضون بضع ثوان بدلاً من الدقائق حالياً.. بمعنى آخر: أن الإنسان سيمكنه مشاهدة مئات القنوات التلفزيونية بنقاوة معقولة وهو قابع في مكتبه أمام الكمبيوتر.

مع العلم أن هناك تجارب لبث تلفزيوني خاص بالإنترنت (ما زالت بصيغة متخلفة عن التلفاز العادي) علماً أن الإنترنت هي مولود أمريكي ويرعاه الأمريكان، والسيطرة فيه للشركات الأمريكية (خصوصاً الكبيرة منها والتي - أصلاً - لها وجود إعلامي نافذ دولياً).

وبعد : فهذه مقتطفات استقيتها من هنا وهناك أردت بها أن أحذر وأحذر وأحذر من خطورة الإعلام على عالمنا العربي والإسلامي الضعيف في كل المناحي (ومنها الإعلام)، وهو أصلاً هزيل في تقنياته ومواده البعيدة عن جذور الأمة وعقيدتها. كذلك أحمِّل قادة الفكر والتوجيه المسؤولية في هذا الميدان، وأدعوهم للمسارعة في تحمل المسؤولية خصوصاً أننا دائماً متخلفون عن الركب عالة على الغير في كثير من أمورنا. والعبء الكبير لا يستطيعه فرد أو أفراد بل لا بد من مساهمة الجميع: مؤسسات، ورجال أعمال، مربين ومفكرين؛ كل بحسبه وكل بقدرته.

والأمر يسيرٌ لو كان الإعلام خالياً من الرسالة والهدف، بل المضمون الثقافي المُصدَّر إلينا لا يحتاج إلى كثير بصيرة لمعرفة خطورته على مجتمعاتنا وأجيالنا القادمة.

وأتذكر قول الشاعر:

ويح قومي بصيفهم ... حَسْرَةٌ ضيَّعوا اللَّبنْ

قولهم عند دعوتي ... هوِّن الأمر لا تُجَنْ

كل هذا لأنني ... قلت: ما الدهر مؤتمنْ

قلت: يا قومي احذروا ... أن تميلوا إلى الفتنْ

اللهم هل بلغت..؟ اللهم فاشهد!

المراجع والمصادر:

تم الاستفادة من المصادر التالية بدرجات مختلفة ومن مواقع متعددة:

أولاً: الكتب:

- The Media in Western Europe Euromedia Research Croupe 1977.
- The Global Media E. Herman and R. Mchesey 1997.
- Media Today J. Turow, 1999.
- The Media B. Dulton, 1997.

ثانياً: الصحف:

- New york Times, 7/7/1999.
- Washington post, 7/12/1997.



كتاب الدبلوماسية

رؤية كيسنجر للنظام العالمي الجديد

حسن الرشيدي

ما هو كنه النظام العالمي الجديد؟ وما هي مكوناته وبنياته وطبيعة التفاعلات بين هذه البنيات؟ ثم ما هي غايات هذه البنيات وأهدافها؟

كل هذه لا تزال أسئلة محيرة اختلف كثير من المراقبين والمحللين حولها.

فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط نظام القطبين عالمياً ـ الذي ظل معتمَداً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى أواخر الثمانينيات ـ انقسم المحللون الاستراتيجيون إلى فريقين:

١ – فريق يؤكد أن النظام العالمي ما زال في طور التشكيل ولم تتبلور ملامحه بعد.

٢ – فريق آخر يقول: إن هناك نظاماً جديداً قد تبلور في الساحة العالمية وإن كان يحتاج إلى تعديلات معينة لوضعه في صورته النهائية.

وهنري كيسنجر هو وزير خارجية أمريكا الأسبق وصاحب سياسة (الخطوة خطوة) ويشتهر بالسياسة المكوكية أسلوباً سياسياً متبعاً ونهجاً دبلوماسياً للوصول إلى الأهداف المرسومة التي ذاع صيتها خاصة في الشرق الأوسط في أعقاب حرب أكتوبر ونجح من خلالها في التمهيد للتسوية السلمية بين مصر و (إسرائيل).

عمل كيسنجر محاضراً في الشؤون الاستراتيجية والسياسية في جامعات متعددة، ومن المعروف أنه يهودي الديانة، ولا تزال آراؤه وطروحاته تجد طريقها لدى صانعي القرار في البيت الأبيض.

ومؤلَّفه الأخير: (الدبلوماسية) كتاب ضخم يقع في واحد وثلاثين فصلاً يطل منها الكاتب على النظام العالمي الجديد، ويحاول تقديم مشورته واقتراحاته لصانعي القرار الأمريكي، وسوف نقوم بالتركيز على الفصلين الأول والأخير؛ لأنهما بمثابة التمهيد والخلاصة لنظريته التي يطرحها، وتبقى في النهاية رؤيته نظرة أمريكية ترى في أمريكا حقيقة الماضي والحاضر وحلم المستقبل.

يبدأ كيسنجر رؤيته قائلاً : «إن الولايات المتحدة في عالم ما بعد الحرب الباردة هي القوة العظمى الوحيدة المتبقية ذات القدرة على التدخل في أي جزء من العالم، إلا أن القوة غدت أكثر انتشاراً، وقلَّت القضايا التي تعتبر القوة العسكرية مناسبة لها، ودفع الانتصار في الحرب الباردة بأمريكا إلى ممارسات كانت دائماً موضع شك من جانب الساسة والمفكرين الأمريكيين، وغياب خطر أيديولوجي أو استراتيجي كاسح يطلق يد الدول في انتهاج سياسات خارجية ترتكز بشكل متزايد على مصالحها القومية المباشرة، وفي نظام دولي يتسم باحتمال وجود خمس أو ست قوى كبرى وكثرة من الدول الأصغر، ولا بد أن ينبثق النظام في معظمه ـ كما حدث في القرون الماضية ـ من التوفيق والموازنة بين المصالح القومية المتنافسة».

وقد تحدث كل من بوش وكلينتون عن النظام العالمي الجديد كما لو كان قريب المنال؛ والحقيقة أنه لا يزال في فترة جنينية ولن يكون شكله النهائي واضحاً إلا في القرن الجديد، وسيظهر النظام العالمي الجديد الذي يُعَدُّ في جانب منه امتداداً للماضي، وفي جانب منه سيكون غير مسبوق، شأنه شأن تلك النظم التي سيخلفها.

وتعيش النظم الدولية بشكل غير مستقر، ويعبر كل نظام عالمي عن تطلعه إلى الدوام، ويحمل المصطلح ذاته ادِّعاء الخلود؛ بيد أن العناصر التي يتكون منها في حالة تغير دائم. وحقيقة الأمر أن مدة بقاء النظم الدولية تتناقص مع كل قرن من الزمان، ولم يحدث أبداً من قبل أن تغيرت كل الوحدات المكونة للنظام الدولي وقدرتها على التفاعل وأهدافها بمثل هذه السرعة أو العمق أو العالمية.

وكلما غيرت الكيانات المكونة للنظام العالمي شخصيتها فإنه يعقب ذلك حتماً فترة من الاضطراب.

ثم قام الكاتب بعرض سياق تاريخي للمبادئ التي كان يسير عليها النظام العالمي في السابق مركزاً على مبدأ توازن القوى وهو النظام الذي سارت عليه دول أوروبا في القرنين الماضيين.

ويعتقد كيسنجر أن الدول الأوروبية لم تختر توازن القوى وسيلةً لتنظيم علاقاتها انطلاقاً من نزوع فطري للمخاصمة أو من حب العالم القديم للتآمر، وإنما ألقي بها في هذه الساحة حينما انهار خيارها الأول وهو حلم الإمبراطورية العالمية في العصور الوسطى وظهور العديد من الدول المتساوية ـ بدرجة أو بأخرى ـ في القوى من بين ذلك الأمل القديم، وحينما تضطر مجموعة من الدول تشكلت على هذا النحو إلى التعامل فيما بينها فإن المحصلة المحتملة لن تتعدى أمرين: إما أن تصير دولة واحدة تكون من القوة بحيث تهيمن على كل الدول وتقيم إمبراطورية، أو لا تكون أي دولة أبداً على درجة من القوة تسمح لها بتحقيق هذا الهدف، وفي الحالة الأخيرة يتم كبح جماح العضو الأكثر عدوانية في المجتمع الدولي بتجمع من الآخرين، أو بتعبير آخر: بإعمال مبدأ توازن القوى.

ولم يكن الهدف من نظام توازن القوى تجنب الأزمات أو حتى الحروب وإنما أريد به ـ حينما

يعمل على الوجه الصحيح - الحد من قدرة دول معينة على الهيمنة على دول أخرى، وكذلك الحد من مدى الصراعات، ولم يكن هدفه هو السلام بقدر ما كان الاستقرار والاعتدال، ولا يستطيع ترتيب توازن القوى - بحكم تعريفه - أن يرضي تماماً كل عضو في النظام الدولي، وإنما يعمل على أحسن وجه حينما يبقى على عدم الرضا دون المستوى الذي يسعى عنده الطرف المتضرر إلى الإطاحة بالنظام الدولي. ويعطي منظور توازن القوى عادة بأنه هو الشكل الطبيعي للعلاقات الدولية.

والحقيقة أن أنظمة توازن القوى لم توجد في التاريخ البشري إلا نادراً؛ فلم يعرف النصف الغربي من المعمورة أبداً نظاماً من هذا النوع، وكانت الإمبراطورية هي الشكل النمطي للحكم بالنسبة للسواد الأعظم من البشرية ولأطول فترات في التاريخ، وليس للإمبراطوريات مصلحة في العمل داخل نظام دولي وإنما تتطلع لأن تكون هي النظام الدولي.

ومن الناحية الفكرية كان مفهوم توازن القوى يعكس قناعات كل كبار مفكري النهضة السياسيين؛ فالكون في نظرهم - بما فيه المجال السياسي - يعمل وفق مبادئ عقلانية يوازن كل منها الآخر، والأعمال التي تبدو عشوائية ويقوم بها ناس عقلاء تجنح في كليتها صوب الصالح العام رغم أن الدليل على هذه الفرضية كان محيراً؛ فبسعي كل دولة إلى تحقيق مصالحها الخاصة الأنانية كان من المفروض أن تساهم كل منها في تحقيق التقدم كما لو كانت هناك يدٌ مًّا خفية تضمن أن حرية الاختيار لكل دولة ستحقق الصالح العام للجميع. وعلى مدى ما يزيد على قرن كان يبدو أن هذا التوقع قد تحقق. وبعد الاضطرابات الناجمة عن الثورة الفرنسية والحروب النابليونية استعاد قادة أوروبا توازن القوى في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م؛ إلا أن نظام توازن القوى الأوروبي عاد مع نهاية القرن التاسع عشر إلى مبادئ سياسة القوة في بيئة أشد إمعاناً في عدم التسامح مما أدى إلى حدوث اختبار للقوة الواحد تلو الآخر، وأخيراً نشبت أزمة في عام ١٩١٤م ولم تسترد أوروبا أبداً زعامة العالم تماماً بعد كارثة الحرب العالمية الأولى، وظهرت الولايات المتحدة لاعباً مهيمناً؛ ولكنْ في ذلك الزمن كان لأمريكا رأي آخر؛ فقد كان داخل أمريكا يتنازع تياران:

الأول: هو إعطاء العالم قيم أمريكا وجعلها منارة يقتدى بها عن طريق الاهتمام بالداخل فقط.

الثاني: هو أن قيم أمريكا تفرض عليها الالتزام بالنضال من أجل نشر هذه القيم وتطبيقها في أنحاء العالم، وتتفق هاتان المدرستان - سواء تلك التي ترى أمريكا منارة أو مناضلة أو ما يسمى الاتجاه التبشيري والاتجاه الانعزالي - أن من الطبيعي أن يوجد نظام عالمي يقوم على الديمقراطية والتجارة الحرة والقانون الدولي، وكان على رأس الفريق الأول الذي يؤمن بالانعزالية الرئيس ويلسون الذي حاول صياغة نظرية للأمن الجماعي بعد الحرب العالمية الأولى من خلال نقاطه الأربع عشرة مركِّزاً على أن النظام العالمي ينبغي - من الآن فصاعداً - أن يركز ليس على توازن القوى

وإنما على تقرير المصير العرقي، وأن الدبلوماسية يجب أن لا تدار بشكل سري بواسطة الخبراء وإنما على أساس اتفاقيات صريحة يتم التوصل إليها بشكل علني؛ ولكن الأوروبيين كانوا ينظرون شذراً إلى هذه السياسة معللين ميل أمريكا لهذا الطرح نظراً للظروف الخاصة لأمريكا التي تعد قارة شبه خالية، وحيث إن أهلها لم يواجهوا قوة تحتاج إلى موازنتها؛ بينما أوروبا كانت تزخر بعدة قوى تحتاج إلى التوازن فيما بينها.

ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ الاتجاه الثاني الذي يرى أهمية نشر المبادئ الأمريكية بالنضال في التغلب، وانخرطت الولايات المتحدة إبان الحرب الباردة في صراع أيديولوجي وسياسي واستراتيجي مع الاتحاد السوفييتي في عالم ثنائي القوة يعمل وفق مبادئ مختلفة تماماً عن تلك الخاصة بنظام توازن القوى؛ ففي عالم ثنائي القوة لا يمكن الزعم بأن الصراع يقود إلى الصالح العام فأي كسب لأحد الطرفين خسارة للطرف الآخر، وقد كان النهج الأمريكي الفريد في السياسة الخارجية إبان الحرب الباردة ملائماً بشكل كبير للتحدي الذي كان قائماً؛ فقد كان هناك صراع أيديولوجي عميق ودولة واحدة فقط هي الولايات المتحدة تمتلك العدة الكاملة من الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية اللازمة لتنظيم الدفاع عن العالم غير الشيوعي. وتستطيع دولة في مثل هذا الوضع أن تصر على آرائها وأن تتجنب عادةً المشكلة التي تواجه ساسة المجتمعات الأقل ثراء.

وقد تحطمت المفاهيم التقليدية للقوة بدرجة كبيرة في عالم الحرب الباردة؛ فلقد عرف التاريخ في معظمه توليفة من القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية أثبتت بوجه عام أنها متماثلة، وأصبحت العناصر المختلفة للقوة في فترة الحرب الباردة واضحة تماماً؛ فكان الاتحاد السوفييتي السابق قوة عسكرية عظمى وقزماً اقتصادياً في الوقت نفسه بعكس اليابان.

وبانهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة يرى كيسنجر أن النظام الدولي سيتسم بتناقض ظاهري؛ حيث التفكك من جانب والعالمية المتزايدة من جانب آخر، وسيشبه النظام الجديد على مستوى العلاقات بين الدول نظام الدول الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أكثر من تشابهه مع الأنماط الجامدة للحرب الباردة، وسيحتوي على ست قوى كبرى - على الأقل - هي: الولايات المتحدة، وأوروبا، والصين، واليابان، وروسيا، والهند؛ بالإضافة إلى عدد كبير من البلدان متوسطة الحجم والأصغر حجماً. وفي الوقت نفسه أصبحت العلاقات الدولية عالمية بحق للمرة الأولى؛ فالاتصالات فورية والاقتصاد العالمي يعمل في كل القارات في آن واحد، وطفت على السطح مجموعة من القضايا التي لا يمكن معالجتها إلا على أساس عالمي مثل: الانتشار النووي، والبيئة، والانفجار السكاني، والاعتماد الاقتصادي المتبادل.

ثم يشرع الكاتب في بيان خصائص كل بنية من بنيات النظام العالمي - في تصوره -.

أمريكا: يصف بعض المراقبين النظام العالمي

بأنه عالم أحادي القطب، ولكن الولايات المتحدة ليست في الواقع في وضع يؤهلها لإملاء جدول الأعمال العالمي من طرف واحد أفضل مما كان عليه وضعها في بداية الحرب الباردة. حقيقة أن أمريكا أكثر تفوقاً مما كانت عليه منذ عشر سنوات غير أن القوة أصبحت أكثر انتشاراً، ومن ثم فإن قدرة أمريكا على توظيفها في تشكيل بقية العالم قد تناقصت بالفعل، أي أن رغبتها في إظهار هذه القوة في العديد من الصراعات الصغيرة النطاق التي من المحتمل أن يشهدها العالم مثل: البوسنة، والصومال، وغيرها تمثل تحدياً فكرياً رئيساً بالنسبة للسياسة الخارجية الأمريكية. وبالرغم أن أمريكا هي الدولة الأعظم والأقوى، ولكنها دولة لها نظراء والأولى بين أكفاء ولا ينبغي على الأمريكيين أن ينظروا إلى ذلك على أنه إنقاص من قدر أمريكا أو على أنه من أعراض الانحطاط القومي؛ فالحقيقة أن أمريكا كانت على مدى معظم تاريخها دولة ضمن دول أخرى وليست قوة عظمى متفوقة؛ وظهور مراكز قوى أخرى ينبغي أن لا يزعج الأمريكيين.

ولكن ما هي المبادئ التي ينبغي أن تقيم أمريكا سياستها الخارجية عليها في القرن القادم؟

سيتعين على القادة الأمريكيين في القرن القادم أن يصوغوا لجمهورهم بوضوح مفهوماً للمصلحة القومية ويبينوا كيف تخدم تلك المصلحة في أوروبا وآسيا بالعثور على شركاء أساسيين لحفظ توازن القوى، ليس على أساس الاعتبارات الأخلاقية وحدها ولكن لمصلحة القومية الأمريكية.

إن الأمريكيين برغم أنهم استخدموا في كثير من الحالات منطق أن مصلحة الدولة تسوِّغ الوسائل لكنهم لم يستريحوا كثيراً إلى الاعتراف بمصالحهم الأنانية الخاصة، وظل القادة الأمريكيون يدَّعون على الدوام - سواء وهم يخوضون حروباً عالمية أو صراعات محلية - أنهم يناضلون من أجل المبدأ وليس المصلحة؛ ولكن من الحكمة الاعتراف بأن هناك حاجة لتحقيق توازن؛ فمهما كانت أمريكا قوية فإنه لا توجد دولة لديها القدرة على فرض كل أفضليتها على بقية العالم.

روسيا: لقد ظلت روسيا طوال تاريخها حالة خاصة، ولم تكن أبداً دولة قومية بالمفهوم الأوروبي؛ نظراً لمجاورتها لثلاثة مجالات ثقافية مختلفة هي: أوروبا، وآسيا، والعالم الإسلامي، ويفسر المحللون النزعة التوسعية الروسية عادة بأنها نابعة من إحساس بعدم الأمن؛ إلا أن الكتَّاب الروس سوَّغوا الاندفاع الروسي للخارج في الأغلب بأنه بمثابة القيام برسالة، ونادراً ما أبدت روسيا في تلك المسيرة إحساساً بالحدود وعندما كان يعوقها عائق فإنها كانت تنسحب باستياء بالغ.

وعلى مدى معظم تاريخها كانت روسيا دائماً تترقب الفرصة المواتية. ولكن الأسئلة الأهم: هل ستسعى روسيا إلى العودة إلى إيقاعها التاريخي وإلى استعادة الإمبراطورية الضائعة؟ وبأي مبادئ ووسائل سيكون رد فعلها على الاضطرابات القائمة حول حدودها خاصة في الشرق الأوسط المتقلب؟

إن الإمبراطوريات المنهارة تولد سببين للتوتر هما: محاولات الدول المجاورة الاستفادة من ضعف المركز الإمبراطوري، ثم جهود الإمبراطورية المتداعية لاستعادة سلطتها في محيطها. وتدور هاتان العمليتان في آن واحد في الدول الوارثة للاتحاد السوفييتي السابق؛ فإيران وتركيا تسعيان إلى دعم أدوارهما في جمهوريات آسيا الوسطى التي تقطنها أغلبية مسلمة؛ بينما تندفع روسيا لاستعادة سيادتها على كل الأراضي التي كانت تُحكَم من قِبَل موسكو، وتسعى باسم حفظ السلام إلى إعادة شكل من أشكال الوصاية الروسية، وتذعن أمريكا حتى الآن لتلك السياسة الروسية، وربما تتوازى المصلحة القومية الأمريكية مع نظيرتها الروسية في مناطق معينة، منها على سبيل المثال: جمهوريات آسيا الوسطى المهددة بالأصولية الإسلامية، وسيكون التعاون في تلك الساحة وارداً تماماً طالما أنه لا يكتب صكاً بعودة الإمبراطورية الروسية القديمة.

ولدمج روسيا في النظام العالمي لا بد من مقومين متوازنين: التأثير على المواقف الروسية، والتأثير على الحسابات الروسية. وتعتبر المعونة الاقتصادية السخية والمشورة الفنية ضرورية لتخفيف مشاق التحول، وفي الوقت نفسه ينبغي مراقبة النزعة الإمبريالية الروسية في الظهور.

أوروبا: استمدت حركة الاندماج الأوروبي جذورها من فرضيتين:

أولاهما: أنه ما لم تتعلم أوروبا أن تتحدث بصوت واحد فإنها ستنحدر تدريجياً إلى وضع هامشي.

ثانيهما: أنه كان ينبغي عدم وضع ألمانيا المجزأة في وضع قد يغريها بالسباحة بين الكتلتين والتلاعب بالجانبين في الحرب الباردة بتحريض كل منهما ضد الآخر، وقد نما الاتحاد الأوروبي الذي كان يضم في الأصل ست دول ليشمل اثنتي عشرة دولة؛ وهو في سبيله إلى التوسع ليشمل إسكندينافيا والنمسا وبعض الدول التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفييتي.

في نهاية المطاف لقد قبلت ألمانيا القيادة السياسية الفرنسية في الجماعة الأوروبية في مقابل صوت أقوى لها في الأمور الاقتصادية، وفي السنوات القادمة لن تشعر أوروبا بحاجتها السابقة إلى الحماية الأمريكية، وستسعى وراء مصالحها الاقتصادية الذاتية بشكل أكثر إقداماً، ولن تكون أمريكا مستعدة للتضحية بالكثير من أجل الأمن الأوروبي، وستصر ألمانيا في الوقت المناسب على تحقيق النفوذ السياسي الذي تؤهلها قدرتها العسكرية والاقتصادية له، ولن تعتمد عاطفياً على المؤازرة العسكرية الأمريكية والمؤازرة السياسية الفرنسية.

إن الأجيال القادمة في ألمانيا ـ وخاصة بعد كول ـ ليس لديها أية ذكريات شخصية عن الحرب أو عن دور أمريكا في إعادة تعمير ألمانيا المدمرة بعد الحرب، وليس لدى هذا الجيل سبب عاطفي للإذعان لمؤسسات فوق قومية أو جعل آرائه تابعة لأمريكا أو فرنسا؛ لقد أصبحت ألمانيا اليوم قوية إلى درجة لا تستطيع معها المؤسسات الأوروبية القادمة أن تحقق بنفسها توازناً بين ألمانيا وشريكاتها الأوروبيات، وليس

من مصلحة أية دولة أن تركز كل من ألمانيا وروسيا على الأخرى شريكاً أساسياً؛ ذلك أنهما إن توثقت العلاقة بينهما فإنهما تثيران مخاوف السيادة المشتركة، وإذا تعاركتا فإنهما تورطان أوروبا في أزمات متصاعدة.

ولأمريكا وأوروبا مصلحة مشتركة في تحاشي السياسات الروسية والألمانية الجامحة المتنافسة على مركز القارة، ولا تستطيع بريطانيا وفرنسا بدون أمريكا الحفاظ على التوازن السياسي في أوروبا الغربية، وستقع ألمانيا في غواية النزعة القومية. وأما روسيا فستفتقر إلى محاور عالمية، ومن الممكن أن تتحول أمريكا بدون أوروبا نفسياً وجغرافياً إلى مجرد جزيرة بعيدة عن الشواطئ الأوروبية الآسيوية.

لقد قام حلف شمال الأطلسي ليمثل رباطاً مؤسسياً رئيساً بين أمريكا وأوروبا؛ وبالرغم من الخلاف الدائم بين وجهتي النظر الأمريكية والفرنسية فقد سيطرت أمريكا على حلف شمال الأطلسي تحت راية التكامل وشكلت فرنسا - بتمجيد الاستقلال الأوروبي - الاتحاد الأوروبي، وتتمثل نتيجة الاختلاف بينهما في أن الدور الأمريكي مسيطر في المجال العسكري إلى حد لا يتيسر معه إقامة كيان سياسي أوروبي؛ بينما يتسم الدور الفرنسي بالإصرار على الاستقلال الذاتي السياسي الأوروبي إلى حد لا يمكن معه تعزيز تماسك حلف شمال الأطلنطي.

آسيا (اليابان والصين):

ففي حين تتجمع بلدان أوروبا في مؤسسات مشتركة فإن دول آسيا تنظر إلى نفسها على أنها متمايزة ومتنافسة. وتحمل العلاقات بين الدول الآسيوية الأساسية معظم خصائص نظام توازن القوى الأوروبي في القرن التاسع عشر، ويكاد يكون في حكم المؤكد أن تؤدي أية زيادة يعتد بها في قوة إحدى تلك الدول إلى قيام الدول الأخرى بمحاولة إعادة التوازن، وتتمثل الورقة القوية في موقف الولايات المتحدة التي لديها القدرة - وإن لم يكن لديها الفلسفة - على العمل إلى حد بعيد بالطريقة التي تصرفت بها بريطانيا في الحفاظ على توازن القوى الأوروبي حتى الحربين العالميتين في القرن العشرين.

وقد نعمت اليابان إبان الحرب الباردة بتخليها عن اعتمادها التاريخي على النفس بحماية الولايات المتحدة. ولكونها منافساً اقتصادياً قوي العزم فقد دفعت مقابل حرية المناورة في المجال الاقتصادي ثمناً تمثَّل في جعل سياساتها الخارجية والأجنبية تابعة لسياسات واشنطن، وطالما كان بالإمكان النظر إلى الاتحاد السوفييتي على أنه التهديد الأمني الأساس لكلتا الدولتين فلعله كان من المعقول معاملة المصالح القومية الأمريكية واليابانية على أنها متطابقة؛ إلا أنه ليس من المحتمل أن يستمر هذا النمط؛ فمع ما تحرزه كوريا والصين من قوة عسكرية، ومع مرابطة الجزء الأقل ضعفاً من القوة السوفييتية في سيبيريا فلن يأخذ المخططون اليابانيون للأمد الطويل التطابق المطلق بين المصالح الأمريكية واليابانية على أنه من المسلَّمات.

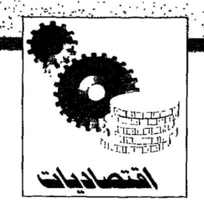
إن المنظور الياباني تجاه الجزء الرئيس من اليابسة الآسيوية يختلف عن المنظور الأمريكي

تجاهه بسبب عاملي القرب المكاني والخبرة التاريخية؛ ولذا فإن ميزانية الدفاع اليابانية أخذت في الارتفاع إلى أن أصبحت ثالث أكبر ميزانية دفاع في العالم، وربما تعد ثانية ميزانية دفاع فعالة في العالم إذا ما وضعنا في الحسبان المشكلات الداخلية في روسيا. وحينما سئل كيشي ميازاوا عام ١٩٩٢م ـ وكان رئيس اليابان آنذاك ـ عما إذا كانت اليابان ستقبل وجود قدرة نووية كورية شمالية أجاب بصراحة ـ بأسلوب غير ياباني بالمرة ـ بكلمة واحدة: «لا». فهل يعني ذلك أن اليابان ستطور قدرة نووية خاصة بها، أم ستسعى إلى قمع القدرة النووية الكورية الشمالية؟ إن مجرد إثارة مثل هذه الأسئلة يوحي بإمكانية أن تتحلل اليابان إلى حد ما من الارتباط بالسياسة الأمنية والخارجية الأمريكية.

ومن الملفت للنظر أن متانة العلاقات اليابانية الأمريكية ستكون هي الوجه المقابل للعلاقة الصينية ـ الأمريكية؛ فعلى الرغم من وجود درجة كبيرة من الألفة مع الثقافة الصينية فإن اليابان ينتابها أمران: الإعجاب من جانب مع الخوف من جانب آخر، والرغبة في الصداقة من جهة مع الدفع إلى السيطرة من جهة أخرى. ويغري التوتر الصيني الأمريكي اليابان بالابتعاد عن أمريكا؛ وذلك في محاولة إن لم تكن لتعزيز نفوذها في الصين؛ فعلى الأقل لعدم تقليله بالسير على الدرب الأمريكي بكل دقة، وفي الوقت نفسه فإن اتباع نهج ياباني محض يحمل في طياته خطر إمكانية تفسيره في بكين على أنه تعبير عن الرغبة اليابانية في الهيمنة، ومن ثم فإن العلاقات الطيبة بين أمريكا والصين هي الشرط المسبق للعلاقات الطيبة الطويلة الأجل بين اليابان وأمريكا. إنه مثلث لا يستطيع أي من الأطراف الثلاثة فيه أن يتخلى عنه إلا بتحمل مخاطر كبيرة.

والصين هي الدولة الأكثر صعوداً من بين كل القوى الكبرى؛ فإنها بمعدل النمو الاقتصادي الذي يقترب من ١٠٪ سنوياً وبالإحساس القوي بالتماسك القومي وبقوة عسكرية دائمة النمو ستشهد أكبر زيادة نسبية في المكانة بين القوى الكبرى.

ويختتم كيسنجر كلامه قائلاً: هناك بون شاسع بين منظور رجل الدولة ومنظور المحلل؛ فبوسع المحلل أن يختار المشكلة التي يرغب في دراستها؛ بينما تفرض المشكلات نفسها على رجل الدولة. وبمقدور المحلل أن يخصص ما يلزم من الوقت للوصول إلى استنتاج واضح؛ بينما يمثل ضغط عامل الوقت التحدي الأكبر بالنسبة لرجل الدولة، ولا يخاطر المحلل بشيء، فإذا ثبت أن استنتاجاته خاطئة فإن بمقدوره أن يكتب بحثاً جديداً؛ وكل الحقائق متاحة للمحلل؛ وسيكون الحكم عليه بمدى قدرته الفكرية. أما رجل الدولة فإنه يتعين عليه العمل استناداً إلى تقديرات لا سبيل إلى البرهنة على صحتها في الوقت الذي يصنعها فيه، وسيحكم عليه التاريخ على أساس مدى حكمته في إدارة التغيير الحتمي؛ وهذا هو السبب في أن فحص الكيفية التي يعالج بها الساسة مشكلة النظام الدولي ليس هو نهاية المطاف في فهم الدبلوماسية المعاصرة؛ مع أنه قد يكون نقطة البداية.



التثقيف الاقتصادي المعاصر

د. زيد بن محمد الرماني

مضى القرن العشرون وما زال يُطرح الملف الثقافي، وقضية العقل العربي؛ إلى جانب أدبيات هائلة حول هذين الموضوعين مثل: الهوية الثقافية، مسائل الثقافة، وإشكاليات الفكر، أزمات الثقافة، الغزو الثقافي، والتثاقف.. وتطول قائمة القضايا والمفاهيم.

إنّ ثقافة الصورة ـ في قوة أثرها وانتشارها ـ تمثل فرصة غير مسبوقة في تاريخ البشرية للإعلام والتوعية والتثقيف؛ إنها فرصة للتوعية والتربية والتنشئة.

فقد دخلت التكتلات الصناعية الكبرى(١) إلى مجال الإعلام وثقافة الصورة، وفرضت سيطرتها عليه من خلال مداخل متعددة القنوات: محطات التلفزيون الرئيسة ذات السياسة الإعلامية الموجهة نحو ثقافة الاستهلاك، وشركات المعلوماتية ذات الطابع التجاري الربحي، وشركات التلفزيون التي تمول إنتاج مسلسلات تلفزيونية خاصة، والشركات الكبرى المهتمة بنشرات الأخبار، وشركات البث المعنية بالتغطية الإعلامية للأحداث التي تتصف بالإثارة والإبهار وشد انتباه المشاهدين.

يقول مصطفى حجازي في كتابه: «حصار الثقافة»: «إن المقارنة البحثية لبرامج القنوات الدولية التي تتخصص في الأخبار، وتلك التي تتخصص في التسلية والترويح تبين أن هناك مكونات أساسية أصبحت تشكل ملامح البرامج ومحتوياتها»(٢).

---

(١) وليد نويهض. موقع الاقتصاد العربي في عصر التكتلات الإقليمية، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٥ هـ، ص ٨ ـ ١٠.

(٢) مصطفى حجازي ـ حصار الثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨م، ص ٤٩.

نشرة الأخبار ـ على سبيل المثال ـ أصبحت مقننة في عناصرها في العديد من المحطات: أخبار الأحداث، الإعلانات، سوق المال، الطقس، والرياضة.

إننا بصدد تكثيف المعلومة، وإحاطتها بأكبر قدر من الزخم في المحتوى وضغط الزمن إلى أقصى الحدود الممكنة، سواء في الأخبار أو الإعلانات.

لقد أصبحت أخبار الأسهم[1] وأسواق المال مكوناً أساساً من مكونات نشرات الأخبار عالمياً ومحلياً. وتحمل الشاشات في بنية أخبارها مشاهد أسواق المال وأسعار العملات والمؤشرات صعوداً وهبوطاً، كما تحمل حركة وكلاء البورصة ومشاهد آلات عدّ النقود.

والسؤال الملحّ: لماذا هذا التركيز على أخبار أسواق المال؟! مع العلم أن الخبراء والمتعاملين في هذه الأسواق لهم شاشاتهم الدائمة التي توافيهم بتحركات السوق المالية الكونية؛ فهل المقصود التثقيف المالي، أم أن المقصود هو جعل المال والسوق المالية مرجعية أساسية عند المشاهد سواء أكان يملك أم لا يملك؟!

ثم: ألا يفتح هذا الأمر الباب لتحويل الناس إلى قناصين للفرص: هوس الأسهم والاستثمارات المالية؟ أوَ لا يفتح شهية تجربة الحظ الذاتي في الدخول إلى حيلة رأس المال الطيار، وإحلال الحس المالي محل العلم والجهد والعمل والإنتاج؟

الغائب الأكبر في كل ذلك هو ثقافة الجهد والإعداد والتدريب والإنتاج أمام إغراءات الربح السريع.

ففي بحثها عن الإثارة وجذب المشاهدين تركز الشاشات التجارية على النجومية على اختلاف ألوانها. وتعطي لأخبار النجوم من المساحة ووقت البث ما لا يقارن مع الأوقات المتخصصة للموضوعات الأخرى.

على أن الرياضة على الشاشات أصبحت أبرز مجال للنجومية. والإعلام المرئي يسّر سبل المتعة والمشاركة الرياضية لمئات الملايين من المشاهدين على سطح الكوكب في مختلف المباريات.

وتحولت الرياضة إلى لحظات الحماس للإنجازات الخارقة والتنافس على تجاوز الذات كما وجدت نوعاً جديداً من الشراكة العالمية وفرصها بفضل الشاشات المتلفزة[2].

على أن للمسألة جانباً آخر خفياً لا بد من الوقوف عنده؛ إذ حُوِّلت الشاشات بقدرتها على البث، وانطلاقاً من أخلاقيات اقتصاد السوق الرياضية إلى سلعة يتم التعامل معها؛ حيث تتحول الرياضة

---

(١) مختار بلول ـ دليل المستثمر في الأوراق المالية، ١٤٠٨ هـ، ص ٤٠.

(٢) امين الخولي ـ الرياضة والمجتمع، عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٧ هـ، ص ٦٨ ـ ٨٤.

إلى سلعة، وأصبح ذلك ظاهرة شبه كونية من خلال الشاشات التلفزيونية.

فالنجومية لم تعد تقاس بأدائها المبدع فقط، بل كذلك بأثمانها: كم كسب النجم الفلاني؟ وبكم يساوي بالمقايضات بين الأندية؟ والكسب ليس بالقليل على أية حال؛ فما يكسبه نجم عادي خلال موسم رياضي يزيد عن رواتب أساتذة كلية بأكملها من ذوي الرتب والرواتب العالية والمناصب الأكاديمية.

ومع النجومية وتحويل الرياضة إلى سلعة بدأت تنحرف الأخلاقيات الرياضية النبيلة، وبدأت تظهر أخبار الصفقات والفضائح على مستوى الأندية واللاعبين والمستثمرين والمديرين!

وكذلك فإن التحالف التجاري بين الشاشات المتلفزة وشركات الإعلان وإنتاج المواد الرياضية أصبح يشكل سوقاً مالية ذات شأن عظيم.

إن نجومية الرياضة ـ كما هي نجومية الفن ـ لم تعد غريبة عن ثقافة الربح.. أما نجومية الجهد والإنتاج والعلم فتقبع في مكانها المتواضع.

وبعض المفكرين يأخذون على القنوات التجارية تحولها إلى قنوات للتسلية والترفيه؛ وهو ما يبقيها على سطح الأحداث، ويجعل منها أدوات للتمويه وتغيير صورة الواقع المرح. والتسلية تعليق للفكر واستسلام واستئناس بالأحاسيس السارة ومتع اللحظة الراهنة إذا كانت هي أساس البرامج ومادتها الرئيسة.

كبريات الشركات التلفزيونية تتسابق في صناعة المتعة والتسلية:

فحسب تقديرات الخبراء[1] أن الإنفاق الإعلاني العالمي بلغ حوالي ٦٢٠ مليار دولار سنوياً، أي ما يقرب من ضعف الدخل العالمي من النفط. وهو مرشح للتزايد كي يصل ـ تبعاً لبعض التقديرات ـ إلى حوالي ١٠٠٠ مليار دولار عام ٢٠٠٠م.

لقد أصبح الإعلان صناعة تقوم على أسس فنية وعلمية، وتعمل فيها فرق متعددة الاختصاصات؛ حيث تقوم جماعة من الخبراء بإطلاق العنان لخيال أعضائها كي تولد الأفكار الأكثر طرافة وجدة، وإمكانية تأثير ونفاذ، أو خروج عن المألوف؛ كي تصاغ في إعلانات مبتكرة عن مختلف السلع.

ومن ثم تكتسب السلعة (موضوع الإعلان) قيمة استهلاكية وخيالية ووجدانية ليست لها بالأصل؛ فالبيبسي تركز على مرح الشباب وجمال الصورة واللون وإرواء العطش، حتى صارت تعتبر مشروب الشباب.

---

(١) مصطفى حجازي ـ حصار الثقافة ـ مرجع سابق ـ ٦٣.

"الإنفاق الإعلاني العالمي يقرب من ضعف الدخل العالمي من النفط، وهو مرشح للتزايد"

والعطورات ومساحيق الجمال أصبحت تربط بالحسناوات وملكات الجمال. وأما أغذية الأطفال فإنها تربط بالطفل المدهش جمالاً وصحة وسعادة.

وهكذا تقوم سياسة الإعلان على بيع الأحلام، ودغدغة المشاعر وإثارة الرغبات من خلال مختلف أشكال الربط ما بين السلعة والصحة أو الجمال أو الجاه أو الشباب.

الإعلان ابن لاقتصاد السوق، فهو إعلان استهلاكي[1]، ويندر أن نجد إعلانات عن الأداء أو الإنتاج. وإذا أغرق المشاهد بالإعلانات الاستهلاكية فإننا سنكون أمام صناعة ثقافة الاستهلاك ليس إلاَّ؛ وبذلك يصبح الاستهلاك هو القيمة وهو المرجع والموجّه.

❁ ولكن، ماذا بخصوص من لا يملكون القدرة على الاستهلاك: كيف سيمارسون حقهم في الاختيار إذاً؟ إنها أسئلة تظل مطروحة على الساحة في حاجة ملحة لإجابات مقنعة.

والحقيقة أنه ليس هناك من حالة تعبِّر عن ثقافة السوق[2] بقدر الإعلانات التي تدعو إلى متعة الاستهلاك الآني. إننا بصدد الإثارة والمتعة على الأقل إذا استعرضنا واقع الإعلان التجاري الذي يغمر الثقافة المرئية.

لقد سيطر الإعلام المرئي على الثقافة، وسيطر الإعلان على الإعلام.

إن المشكلة ليست في الإعلان بحد ذاته؛ بل في توجهاته والقيم الاستهلاكية التي يروِّجها.

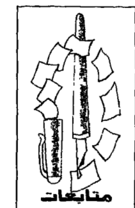
والمشكلة أن العالم العربي كالعالم الثالث يستهلك هذه الثقافة الجديدة عن طريق الاستيراد أساساً؛ نظراً لفقر إمكاناته في مجال الإنتاج.

إننا لا ندعو إلى حظر التسلية والترويح والمتعة وبهجة الحياة، بل ندعو إلى بذل الجهد للاستفادة من الفرص التي توفرها تقنية الإعلام للارتقاء بنوعية الحياة في العمل والجهد والتدريب والتأهيل، كما هو متوفر في مجالات الانتماء والتسلية والترفيه والتثقيف.

---

(١) جيرار لانيو - سوسيولوجيا الإعلان، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٥ - ٩.

(٢) مصطفى حجازي - حصار الثقافة - مرجع سابق، ص ٤٩ - ٥١.



رؤية حول مشروع

خطة العمل الوطنية لإدماج المرأة في التنمية بالمغرب

د. أحمد الريسوني (*)

أعدَّت كتابة الدولة المكلفة بالرعاية الاجتماعية والأسرة والطفولة بتمويل من البنك الدولي ما أسمته مشروع (خطة العمل الوطنية لإدماج المرأة في التنمية)، وبدراسة هذا المشروع يتبين أنه مصادم لأحكام شرعية ثابتة بالكتاب والسنة، وأن تطبيقه سيؤدي إلى زرع أسباب الشقاق بين أفراد الأسرة ويقضي على أسس المودة والرحمة والتضامن والتكافل بين أعضائها، فضلاً عن كونه يتضمن بنوداً لا علاقة لها بتنمية المرأة والمجتمع، ومن ذلك:

١ - السماح للفتيات بالزواج بدون إذن آبائهن وأوليائهن خلافاً لما جاء في حديث رسول الله ﷺ: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل»[١]، مع أن الواقع يثبت أن إرغام الفتيات على الزواج بمن لا يرضين أو منعهن من الزواج بمن اخترن أمر نادر، وأن إلغاء الولاية في الزواج يصطدم أيضاً بأعرافنا الاجتماعية التي لا تزال تشترط حضور الأقارب حتى بالنسبة للزوج، وترى في ذلك ضماناً لنجاح الزواج.

٢ - إخراج الطلاق من صيغه الشرعية المختلفة، وجعله قضية في المحاكم فقط؛ مما سيدخل ارتباكاً كبيراً في الأسرة وغموضاً في وضع الزوجية خلال مرحلة الدعوى، وتضييع حقوق الأطفال بسبب تعقيد الإجراءات القضائية وطول مدة البت، فضلاً عما سيؤدي إليه ذلك من إذكاء العداوة بين الزوجين وقطع طريق الرجعة، وما سينتج عنه من عزوف عن الزواج، وتشجيع العلاقات المحرَّمة لا حماية الأسرة من الطلاق كما يدعي ذلك واضعو المشروع.

٣ - اقتسام الثروة التي امتلكها الزوج أثناء الحياة الزوجية عند وقوع الطلاق، وفيه ما فيه من إباحة أكل

(*) رئيس حركة التوحيد والإصلاح بالمغرب، وكاتب إسلامي مغربي معروف.

(١) رواه أحمد، ح/ ٢١٤٨.

أموال الناس بالباطل، وهدم أحكام المتعة والنفقة في العدة، والنفقة على الأولاد، ونظام الإرث والإضرار بأعضاء الأسرة الآخرين الذين ساهموا في تكوين الثروة بالإضافة إلى ما يؤدي إليه ذلك - نظراً لضعف الوازع الديني والأخلاقي - من فسح مجال واسع لاختلاق الأسباب للمطالبة بالتطليق كلما نمت ثروة الزوج أو الزوجة، ولتحايل أرباب الأسر على أنفسهم وأولادهم لمحاولة إخفاء ثرواتهم أو اقتنائها تحت اسم أشخاص آخرين، مع ما في ذلك من إنشاء أوضاع شاذة ونشر ثقافة غريبة عن المجتمع المغربي المسلم.

٤ - رفع سن زواج البنات إلى الثامنة عشرة، وفي ذلك تعسف على حق شرعي وطبيعي للمرأة قد تُلجئ إليه بعض الأوضاع الخاصة والظروف الاجتماعية، مع العلم أن الزواج المبكر ظاهرة محدودة جداً كما تثبت ذلك الإحصائيات، ولا يعرقل شيئاً من إدماج المرأة في التنمية، مما يبرز أن المستهدف هو الأحكام الشرعية التي لا تتماشى مع المواثيق الدولية.

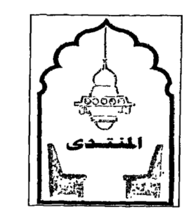
٥ - منع تعدد الزوجات الذي أباحه الله للحاجة إليه في بعض الأحيان ولم يفرضه، وإنما اشترط فيه العدل كما ورد في قوله - تعالى -: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٣] هذا مع الإشارة إلى أن التعدد محدود جداً ولا أثر له على استقرار الأسرة المغربية أو عرقلة إدماج المرأة في التنمية، وأن ما يهددها حقاً هو انتشار الفساد وتعدد الخليلات والخيانة الزوجية وتزايد العنوسة، وهو مما لم يهتم به مشروع الخطة أو يلق له بالاً.

لقد أضافت الخطة المذكورة إلى منافضة أحكام الشريعة ومقاصدها مجموعة سلبيات منها:

- كونها خطة غير وطنية انطلقت من الرغبة في مسايرة مقررات المؤتمرات الدولية مثل مؤتمر بكين وغيره، وهي المؤتمرات التي دعت إلى الاعتراف بالفاحشة وتطبيع ممارستها، وتوسيع مفهوم الأسرة كي يشمل «الأسرة» القائمة على علاقات جنسية محرمة وشاذة، وإشاعة الزنى والفساد من خلال تسهيل الحصول على العازل المطاطي بدعوى توفير الصحة الإنجابية والوقاية من الأمراض الجنسية، واعتبار تقسيم الأدوار داخل الأسرة، ومفاهيم الأبوة والأمومة، من التقاليد البالية والتحكمات الاجتماعية المتجاوزة.
- كونها تطرح إشكالات غير حقيقية لا علاقة لها بالتنمية وإنما تستجيب لاعتبارات أيديولوجية.
- كونها أيضاً خطة إقصائية قامت على رؤية أحادية تمثل رأي فئة محدودة من الجمعيات ذات التوجهات اللادينية.

لهذه الاعتبارات ولغيرها من المفاسد التي تضمنتها الخطة، ودفاعاً عن الدين وحفاظاً على الأسرة فإنه ينبغي رفض هذه الخطة، والمطالبة بخطة بديلة تستجيب لحاجات المجتمع المغربي في التنمية في إطار الإسلام وأحكامه ومقاصده، وذلك بكل الوسائل المشروعة ومن بينها التوقيع على العريضة الشعبية المتداولة في هذا الشأن.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.



الدعاة المستنسخون

محمد بن عوض صالح

بعد أن صليت العشاء في أحد المساجد أمسك إمام المسجد بكتاب رياض الصالحين وبدأ يقرأ منه بعض الأحاديث عن النبي ﷺ في باب التوبة. ومع بداية قراءة الإمام بدأ عدد المصلين يتناقص تدريجياً، حتى بلغ عند نهاية القراءة قرابة عشرة مصلين!!

لقد كان يقرأ بطريقة سردية مملة، يتجاوز كثيراً من الألفاظ غير المفهومة دون أدنى شرح أو تعليق. وبعد أن انتهى الإمام من القراءة توجهت إليه واقترحت عليه أن يغير طريقته في القراءة أو يغير الكتاب الذي يقرأ منه لكتاب يشرح على الأقل معاني الألفاظ ومراميها، فأجابني بأنه يقرأ بهذه الطريقة منذ زمن، ولكن الناس قد شغلتهم الملهيات عن سماع الذكر والعلم.. قلت في نفسي: سبحان الله العظيم!! أي علم يقصده ذلك الرجل؟! إني لا أنكر أن أحاديث رسول الله ﷺ من أعظم وأنفع العلم، لكن ذلك يكون حين يعيها سامعها، وقارئها قبله، حين تُفهم وترسخ في النفوس والأذهان، أما أن تتلى هكذا سرداً - دون شرح أو تعليق - على أسماع جماعة من الناس يغلب عليهم عدم التفقه في العلم والشرع؛ فإنه يستدعي إعادة النظر!!

إن التجديد والتنويع بل والتغيير في وسائل الدعوة إلى الله - عز وجل - ونشر العلم بين الناس - وأخص قضية العلم بالذكر - أمر قد غاب عن أذهان كثير من الدعاة وطلبة العلم. وليس ما ذكرت سوى مثال بسيط على هذه القضية. وأظن - والعلم عند الله - أن من أهم أسباب غياب هذا الأمر اختلاط معنى التجديد لدى بعض الدعاة أو طلبة العلم، فتجده لا يفرق بين التجديد في الوسائل، والتجديد في المناهج والدعوات. بل يظن أي تجديد أو تغيير في طريقة تبليغه دعوته للناس هو تغيير في صميم هذه الدعوة ومنهجها؛ وكأن هذه الوسائل قد تم تأسيسها وإنشاؤها مع هذه الدعوة؛ فلا يمكن بحال من الأحوال أن تتغير أو تتبدل!!

ومن الأسباب كذلك: الكسل والفتور وضعف الهمة الملازم لبعض الدعاة، فلا يكلف ذهنه عناء التفكير في وسائل جديدة وطرق مبدعة تناسب من يتعامل معه من الناس.

إن كوننا نطالب بالتجديد أو التنويع في وسائل الدعوة لا يعني أبداً أن ننبذ كل ما هو قديم أو مجرب؛ ولكنه يعني أن نطور هذه الوسائل ونحسِّنها، بل ونبدع وسائل جديدة حتى نستطيع أن نصل بهذه الدعوة إلى عقول الناس الذين تعبدنا الله بدعوتهم ثم إلى قلوبهم. وما ذاك إلا لأن وسائل الدعوة غير توقيفية، بل هي مفتوحة متجددة، كل زمان له ما يناسبه، كل هذا وذاك محدد بحدود الشرع. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتوافرة ولكني أكتفي بالتعليق على المثال السابق، فأقول: ما ضر ذلك الإمام لو أقام مسابقة شهرية لجماعة المسجد في الأحاديث والعلم الذي يقرؤه عليهم؟ أو أنه علق على الأحاديث التي سيقرؤها في اليوم التالي لها فتشتاق النفوس إلى سماعها؟ وهكذا، فالأمر ميسر بحمد الله، وما دام أن أي وسيلة توصل إلى تبليغ دين الله ونشره بين الناس ولا تخالف شريعته، أو تتعارض مع مصلحة أعلى منها، فلا غبار عليها، بل الغبار على تلك العقول التي صدئت والقلوب التي شغفت بتقليد ما أخذته عن أشياخها فلا تكاد تتزحزح عنه حتى لكأنها عقول مستنسخة عن عقل ذلك الشيخ.

إن طرح مثل هذا الموضوع يحتاج إلى تأصيل وبحث ومتابعة، وما هذه الأسطر إلا إشارة وخاطرة لقضية شغلت جزءاً من الذهن والهم، فأحببت إثارتها عسى الله أن يسخر لها كفؤاً كريماً يؤصلها ويجسدها مقالاً يرى النور على صفحات مجلتنا الغراء.

اللهم أصلح أحوالنا وتجاوز عن خطئنا وجهلنا.. إنك أنت الغفور الرحيم..

لنحذر طريق الهلاك

إبراهيم آل عبد الكريم

قد نجد من الذين يجاهرون بالمعاصي من يعلل عصيانه باعترافه بالخطأ وبأن كل إنسان يخطئ. نعم! لا نختلف في ذلك؛ ولكن الإصرار على المعصية الصغيرة تؤدي إلى مقام الكبيرة، وقد تؤدي إلى الشرك والضلال وترك الإسلام. وهذا التدرج من تحقير إبليس للصغيرة حتى يقع الشخص بالكبيرة وهكذا دواليك. والله ـ سبحانه تعالى ـ نهانا في محكم التنزيل عن اتباع خطوات الشيطان فقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] ومنطلق خطواته بداية من التحقير لأهمية بعض العبادات، فيدخل من باب حكم العبادة: أهي جائزة أم سنة؟ أو من باب الرياء فيدخل قلب المؤمن ويوسوس بنفسه، ويقول له: أنت تعمل كذا لأجل كذا، أو يصور له أن من حوله يشاهدونه وهو يقوم بها فإذا أحسن عبادته أوقع إبليس بنفس العبد الخوف من الرياء، ثم يخطو به خطوة إلى ترك العبادة، ومن ثم يستدرجه في ترك عبادات كثيرة حتى يصل إلى مرحلة الوقوع في المحرمات.

فلتحذر أخي المسلم من اتباع خطوات الشيطان ولنستعذ منه دائماً كما أمرنا سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وللوقاية من الشيطان أمور عدة منها:

أولاً: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ وسلم ورجلان يستبَّان. فأحدهما احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد». [رواه البخاري، ح/ ٥٥٨٨]

ثانياً: قراءة آية الكرسي. ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «وكلني رسول الله ﷺ وسلم بحفظ زكاة رمضان، فاتى آت، فجعل يحثو من الطعام. فاخذته فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول ﷺ.. فذكر الحديث إلى أن قال ـ فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب. ذاك الشيطان». [رواه البخاري، ح/ ٣٠٣٣]

ثالثاً: خاتمة سورة البقرة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقد ثبت من حديث أبي مسعود الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» [رواه البخاري، ح/ ٣٧٠٧] وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرأن في دار ثلاث ليال فيقربهما شيطان». [رواه الترمذي، ح/ ٢٨٠٧]

رابعاً: الوضوء والصلاة. وهذا أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة؛ فإنهما نار في قلب بني آدم» وفي الحديث: «إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء». [رواه أبو داود، ح/ ٤١٥٢]

خامساً: قراءة المعوذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصين منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تعوَّذ المتعوذون بمثلهما».

سادساً: قراءة سورة البقرة؛ ففي الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان». [رواه الترمذي، ح/ ٢٨٠٢]

سابعاً: التهليل مائة مرة. ففي الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك». [رواه البخاري، ح/ ٣١٥٠]

ثامناً: كثرة ذكر الله ـ عز وجل ـ. ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات..» الحديث. وفيه: «وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعاً، حتى أتى على حصن فاحرز نفسه منهم؛ كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله». [رواه الترمذي، ح/ ٢٧٩٠]

فيجب علينا جميعاً أن لا نخدع وراء الأمواج العاتية التي يحركها إبليس وأعوانه ليصطاد من بني آدم ويقذف بهم معه في نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ وندعو الله أن يصلحنا وذرياتنا؛ فإنه الهادي إلى سواء السبيل.

ماذا يجري للمدنيين داخل الشيشان

عبد الرحمن السنيدي

هناك تعتيم إعلاميٌ على ما يجري لإخواننا مسلمي الشيشان في محنتهم فلا خبر ولا إعلام عن مآسيهم، وما يفعله بهم الروس الحاقدون من وحشية وظلم وطغيان وإهانات وتمثيل؛ محاصرين في قراهم ومدنهم محرومين من أبسط مقومات الحياة يُمطرون ليل نهار بحمم القذائف والنار من الطائرات والصواريخ والدبابات والمدافع في أبشع صور الوحشية والطغيان مع تأييد غربي وموافقة ما داموا مسلمين؛ فليس هناك مجلس أمن ولا أمم متحدة ولا حقوق إنسان؛ فالمكيال يختلف عما جرى في تيمور الشرقية وغيرها لأبناء ملتهم النصارى من تدابير عاجلة وإعلام هائل وتحرك الأمم المتحدة ودولهم بإرسال القوات بأسرع وقت ممكن. ومن يعرف خفايا الغرب وموقفه من الإسلام وأهله لا يستغرب ذلك؛ بل الذي يدمي القلب أن (٥٢) دولة إسلامية مجتمعة أو منفردة لا تفعل شيئاً تجاه إخوان لهم يفعل بهم هذه الأفعال ولا يحركون ساكنا؛ لأن هناك خللاً كبيراً في إسلامهم وصلتهم بربهم وهذا ـ والله ـ منتهى الذل والهوان. فأين جيوش أسلافنا ـ رحمهم الله ـ ونخوتهم المعتصمية؟ بل ليت الإسلام والمسلمين يسْلَمون من مكر بعض دولهم ومحاربتها الشنيعة لكل ما هو إسلامي حتى فاقت في ذلك دول الكفر واليهود.

نعود إلى أحوال إخواننا المدنيين في الشيشان فنقول: إن الروس كإخوانهم في القومية يكررون التوقيت لشن عدوان الإبادة الوحشية مثلهم مثل الصرب الحاقدين؛ ففي العام الماضي شن الصرب عدوانهم على مسلمي كوسوفا في شهر رمضان المبارك في توقيت مقصود ومبيت على ذبح المسلمين في مناسباتهم الدينية، وفي هذا العام في وقت لم يغب عن مخططي عسكر روسيا لعملياتهم العدوانية ضد إخواننا في الشيشان قبل حلول رمضان المبارك بأيام قلائل وذلك بعد افتعال التفجيرات لإثارة الرأي العام الروسي ضدهم وليحققوا بذلك مكاسب انتخابية والذي تولى كبره منهم مجرمهم الكبير (بوتين) الرئيس الحالي بالوكالة.

بدؤوا ـ قاتلهم الله ـ عدوانهم بتدمير محطات الكهرباء، ثم ركزوا القصف على الأسواق والمراكز الإسلامية في المدن والقرى الشيشانية لتختل مقومات الحياة وتدمر؛ لإبادة الشعب كله وليواجهوا هجمات شتاء برد قارس وهم عزل من كل شيء سوى القذائف والصواريخ التي تمطر عليهم. ولنورد هنا مثلاً وإشارة لما يجري لإخواننا هناك من ممارسات تكشف مدى الوحشية والحقد الدفين؛ ولكن ليتصور المرء كيف يرجع مهاجر إلى بلدته رغم أنها تحت القصف المتواصل وتمطر بالقذائف حتى المحرمة دولياً ـ إلا أن تكون على المسلمين ليل نهار فذلك شأن آخر ـ. هذا هو ما حصل لإخواننا في الشيشان: لقد فروا فلم يجدوا ملجأ إلا العراء في برد قارس يكسو الأرض بالثلوج، أو بعض خيام بلا فراش ولا طعام ولا أي شيء من مقومات الحياة؛ فلذلك آثروا العودة لديارهم المدمرة تحت القصف المذكور لعله أرجا لهم بعد أن مات منهم من مات وتقطعت أشلاء بعضهم من القصف، لعل الله أن يجعل لهم فرجاً ومخرجاً. توقيت مقصود وتواطؤ دولي مريب.

ثم ما هي ممارسات العسكر الروس وتصرفاتهم تجاههم؟ هذا ما سنذكره مثالاً وإشارات لما يجري ضد إخواننا هناك ولعل من أبلغ القول ما شهدت به الأعداء؛ فقد نشرت جريدة سبعة أيام الجورجيه في عددها الصادر برقم ٤٧ في ١٩٩٩/١١/٢٥م تقريراً كتبته عن الشيشان من الميدان على لسان صحفية جورجية ومعها صحفي ألماني يقول التقرير باختصار ـ علماً أن جورجيا تخالف دين الشيشان وتعاديهم ـ: تعتبر قرية (قالمي) أقرب إلى جورجيا وأول لقاء مع الحرب، وتبدو حولها السيارات المحترقة من جميع الجهات وحول السيارات صمت رهيب باستثناء طائرة روسية تبحث عن هدف آخر. القرية كلها دمرت بالكامل نحن نخطو بحذر شديد تجاه القرية المدمرة وبعد هذه القرية تليها قرية نصف مدمرة والباقون من سكانها على قيد الحياة هم الذين لم يستطيعوا الخروج وقادونا أولاً إلى منزل سُوِّي مع الأرض، ثم روضة أطفال لم يبق منها سوى المدخل الذي كُتب عليه تحية من الأطفال: «نحن نرحب بكم وننتظركم بقلوبنا وأرواحنا» حيث ذهب بقية الأطفال حرقاً داخل الروضة التي دمرتها طائرات روسية، وفي اليوم الثاني عندما كان أقرباؤهم يوارونهم التراب قامت المروحيات الروسية بالتحليق فوقهم وكل ذلك يجري بجوار القرية وبجانبها حافلة مليئة باللاجئين. تبدو لنا وجوه الأطفال خائفين مرعوبين وفجأة بدأ القصف على الحافلة بالصواريخ الحارقة، والمحرك وخزان الوقود هما الهدف الأول بالنسبة لهم؛ ثم شعرنا بقوة الانفجار والارتجاج والحافلة تحترق، ولم يستطع أحد من الركاب الخروج فاحترق كل من فيها من الأطفال والنساء. وفي إحدى القرى قرب جروزني عذب

أحد السكان حتى الموت حين قام جنود فيلق روسي كامل بإطفاء سجائرهم على جسمه العاري وأجبروه على المشي على الثلج حافي القدمين، وأمام عينيه قام الجنود الروس باغتصاب زوجته. ودون رحمة قام هؤلاء بتعذيب ثلاثة أفراد من عائلة شيشانية، وتحمَّل الثلاثة جميع أنواع التعذيب الروسي الإجرامي وفنونه فأحدهم قتلوه رمياً بالرصاص بعد تعذيبه، والآخر قطعوا قدميه، والثالث نزعوا كبده وهو حي وقطعوا يديه حتى المرفق. إنها حرب إبادة شاملة ضد هذا الشعب المسلم الذي يعتبر عملة نادرة بين شعوب المسلمين اليوم. هذه مقتبسات من التقرير وهي غيض من فيض وإشارات لما يجري في عرض البلاد وطولها من تصرفات إجرامية روسية، وهكذا هو الإنسان في عقلية الحاكم الروسي وجيشه والغرب في مباركاته لذلك ودعمه. والحق ما شهدت به الأعداء. أما أخبار المجاهدين فإنها تصل ـ بفضل الله ـ عن طريق الإنترنت ويتبين منها ارتفاع معنوياتهم وكثرة إيقاعهم بجند الشيطان الجبناء الذين لا يواجهون مواجهة مباشرة، وأحوال أخرى تسر المسلم، ويطلبون فيها الدعاء من إخوانهم. وإني أحث كل مسلم على الاطلاع عليها ليرى فيها كيفية الاختلاف بين الإعلام الروسي والعالمي الكاذب المرجف وبين الحقائق على الواقع. نسأل الله لهم عاجل الفرج والنصر والعز والتمكين...

يا راية التوحيد

محمد بن عبد العظيم عيد

يا راية التوحيد قد أبكاني ... والدمع هيجني وهز كياني
أن كان تاج العز فوق رؤوسنا ... ورفعت عالية بكل مكان
أن قد قهرنا كل عابد باطل ... من عابد الأقمار والأوثان
من ملحد أو مشرك بإلهه ... أو عابد الأبقار والنيران
من آل صهيون ومن إخوانهم ... أو عابد لهواه والشيطان
ذلوا جميعاً مذعنين لديننا ... والعز كل العز في الإيمان
سدنا الجميع بديننا وبسيفنا ... فالسيف والقرآن مقترنان

إنَّهم النَّابهون

محمد سعد دياب

هذا حَصَادُ النَّابهينَ.. ويومُهمْ ... يا سَعْدَهُم.. إنَّ الحَصَادَ كبيرُ
يا ألفَ مَرْحَى بالذينَ نراهمُ ... وعلى ذُرَى الهاماتِ ضاءَ سرورُ
الساهرينَ الليلَ في طلبِ العُلا ... والصائدينَ العُمْرَ.. وهو قصيرُ
همٌّ يَضجُّ الوَقْدُ في شريانها ... وتَطَلُّعٌ ما شَابَهُ التقصيرُ
شَدُّوا إلى قِمَمِ النجاحِ رواحلاً ... لا تستريحُ.. ولا يخورُ مَسيرُ
أحداقُهُم قد سُمِّرت نحو السُّها ... وجباهُهُم فيها السَّنا محفورُ
ما جرَّهم طَيْشٌ.. ولا ألهاهمُ ... عَبَثٌ.. ولا ملأَ الفؤادَ قشورُ
تَعبوا.. وها قد كُللتْ قاماتُهمْ ... نصراً نضيراً كالسَّحابِ يدورُ
ما ضاعَ وقتهمو هَبَاءً ما حقاً ... إنَّ الجهادَ عطاؤه لوفيرُ
أبداً إلى الغاياتِ يرنو رَكْبُهم ... أبداً إذا حُمَّ النداءُ.. حُضورُ
عُشَّاقُ حرص.. يا لنَعْمَ مُرامُهم ... نِعْمَ المُرادُ.. فليس فيه قُصُورُ
هم زَهْوُ أوطان.. يزيلون الدُّجى ... فيزول عن أرجائه الدَّيْجُورُ
هم وَعْدُنا نحوَ الصَّباح .. وفألُنا ... أملٌ يُرَجَّى.. بَرْقُنا المنصورُ
هم هذه الأمُّ المضيءُ بقلبها ... ابنٌ لها.. وأبٌ هناكَ فخورُ

بريد القراء

* **الأخ: عبد العزيز سعد البراك:** نشكر لك رسالة التهنئة التي أرسلتها، أما اقتراحكم بذكر تعريف عن كُتّاب المقالات التي في المجلة، فإننا نحاول ذلك ما استطعنا إليه سبيلاً.

* **الأخ: إبراهيم أبكر بخيت:** جزاكم الله خيراً على تواصلكم الطيب مع المجلة، وعن السؤال الذي أرسلت، فمن الأفضل أن يوجه إلى الرئاسة العامة للإفتاء، أو اللجنة الدائمة بالرياض.

* **الأخ: وليد أبو الفضل:** أرسل ملاحظة على الأناشيد الإسلامية يذكر فيها: «نجد أشرطة تسمى بالأناشيد الإسلامية وعليها في الخارج صورة للمطرب وهو يرتدي بدلة وكرافت، ومن الداخل صوت كصوت أي مطرب، ويصاحبه دف وربما أورج وآلات إيقاع أخرى، ومن أنواع هذه الأناشيد ما إن يسمعه المرء حتى يجد نفسه يميل إلى التراقص!! ويقولون: إنه بديل إسلامي.

* **الأخ: عبد المنعم مصطفى حليمة:** نتفق معكم على كثير مما ذكرتموه في مقالكم (دعاة أم طغاة) ولكن ألا ترى معنا أن النقد الهادئ المشفق أبلغ في التأثير وأقرب إلى القبول؟!

* **الأخ: بهاء الصالحي:** نرجو التكرم بإعادة إرسال المشاركة مرة أخرى.

* **الأخ: يوسف بن عبد الله آل حميدان:** أرسل اقتراحاً يقول فيه: «حبذا أن يكون هناك مقالات في المجلة تتحدث عن الجهود المبذولة في الدعوة والإنجازات التي تمت في مختلف المجالات وعلى كافة الأصعدة، حتى تبعث روح التفاؤل وتزرع الأمل في النفوس» نشكر الأخ على هذا الاقتراح الطيب، ونسأل الله - تعالى - أن يوفقنا على تحقيقه، وندعو الإخوة للمشاركة بما لديهم.

* **الأخ: مبارك إبراهيم الخريف:** نشكر لك اقتراحاتك وملاحظاتك، ونتمنى دوام التواصل مع المجلة، وفقكم الله إلى ما يحب ويرضى.

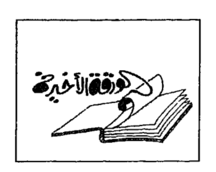
* **الأخ: عبد الله بن حماد البلوي:** سعدنا برسالتك الرقيقة، ونبادلك حباً بمثله، أما عن مشاركتك التي ذكرت أنك أرسلتها منذ مدة طويلة، فهي لم تصلنا، أما المشاركة المرفقة مع رسالتك هذه، فسوف تنشر في المنتدى - إن شاء الله -.

* **الأخ: العبديله هلاب:** سعدنا برسالتك التي تحمل هموم الدعوة، وما ذكرت من تصرفات لا تليق بالدعاة من فُرقة واختلاف وتكفير، هي أمور محزنة، وتحتاج إلى صبر وحكمة في التعامل، وفقنا الله وإياك إلى ما يحبه ويرضاه.

* **الإخوة: عبد الله عطية الزهراني، عبد العزيز بن صالح العسكر، د. محمد زين العابدين، محمد حاج يوسف حسن:** جزاكم الله خيراً على تواصلكم الكريم مع المجلة، ومشاركاتكم مجازة للنشر.

* **الإخوة والأخوات: أحمد الخنيني، سعد محمد البسامي، تركي بن عبد الله المحيا، عبد الله موسى بيلا، معاذ البرناوي، فهد يحيى مطهري، رياض ناصر الفريجي، حسين عبد الرحمن عقيل، هدى بنت فهد المعجل، خديجة الأحمدي، أحمد عبد الله العاطفي:** وصلتنا مشاركاتكم الطيبة وسعدنا بها لدلالتها على مكانة المجلة لديكم، ونفيدكم بأنها مجازة للنشر في المنتدى - بإذن الله -.

* **الإخوة: نضال القاسم، حسين بن شعيب، سلمان بن يحيى المالكي، وهيب عبد الرحمن خوج، محمد بشير رسول، عبد الرحمن المنصور، محمد الصادق عبد الله، عبد الله بن شبيب الدوسري، عبد العزيز العسكر، محمد عبد السلام الباشا، نواف نايف العتيبي، يحيى بن صديق حكيمي، موسى المطرفي، رياض بن ناصر الفريجي، محمد شلال الحناحنة (قصيدة)، فهد بن صالح البراك، عبد العزيز بن علي الكريدا، محمد الروبي عبد الوهاب، أبو جابر حسن علي فقيهي، غازي عمر محمد، خالد بن مطر السحري:** جزاكم الله خيراً على تواصلكم الكريم مع مجلتكم، ونتمنى لكم التوفيق في مشاركات قادمة مع تمنياتنا بدوام التواصل.



نعم أسلمنا.. ولكن هل حسن إسلامنا؟

رضا محمد فهمي

كثيراً ما نقرأ في سير الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ مثل هذا التعبير: «... ثم أسلم وحسن إسلامه».

وقد استوقفتني هذه العبارة وتذوقت لها طعماً في قلبي؛ مما دفعني إلى أن أسائل نفسي: نعم أنا أسلمت؛ ولكن هل حسن إسلامي؟

ثم تاه هذا المعنى ـ كغيره من المعاني ـ في خضم هذه الحياة وأحداثها.

حتى جاء الموقف الأول وكنت أشرب الماء متوجساً من نقائه، فتمنيت بيني وبين نفسي أن لو كان المشرف على تنقية هذا الماء وتعقيمه ممن حسن إسلامهم، فحينها لن أشعر بأدنى توجس لثقتي بإتقان عمله، فهو من حُسن إسلامه.

ثم جاء الموقف الثاني: وكنت في مدرسة المرور لاستخراج رخصة قيادة، وقد أُحلتُ إلى المشرف لتحديد المستوى، وقُبيل حلول دوري أُذِّن لصلاة الظهر؛ فتوقف العمل من أجل الصلاة ـ لا حرمنا الله من ذلك في بلادنا الإسلامية جميعها ـ وبعد الصلاة تأخر المشرف قليلاً ـ ولا تخفى حرقة الشمس في فصل الصيف في ذلك الوقت ـ فتمنيت أن يكون هذا المشرف ممن حسن إسلامهم فيرعى مصالح المسلمين التي كُلِّفَ بأدائها، فحينها لن أشعر أنا ولا غيري بقلق من ضياع الوقت بعد الصلاة.

أما الثالث: فقد جاءني صديق وأخذ يسألني عن أشياء خاصة، ويلح في السؤال، وكان ينتقل بأسئلته من حيث تنتهي إجابتي. فقلت في نفسي: ليته كان ممن حسن إسلامهم واشتغل فيما ينفع! وتذكرت لحظتها حديث المصطفى ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١).

تحدثت بهذا المعنى مع أخ كريم فوجدت المعنى نفسه يشغله؛ لكنه كان أفطن مني؛ حيث تحسس مواقفه هو وتمنى أن لو كان فيها ممن حسن إسلامهم.

---

(١) رواه الترمذي، ح/ ٢٢٣٩.

وكم من أناس مثلي قد اطمأنوا لإسلامهم؛ فلم ينشغلوا بحسنه ولا تحسينه؛ بل راحوا يزِنون الآخرين ويقيِّمون أفعالهم!

نعم! إن لحسن الإسلام واقعه الملموس في شتى مجالات الحياة، وليس كما يحصره بعضنا داخل مسجد، أو في ناحية تهواها نفسه دون أخرى تشق عليه؛ بل له آثاره في وظيفتنا وبيتنا، في لساننا وجهادنا، بل في مشيتنا وسلامنا، وقبل ذلك في أهدافنا وغاياتنا وحبنا وبغضنا.

وحبذا لو تحسسنا ذلك عندنا قبل أن نتحسسه عند الآخرين. قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود : ١١٢]. وقال ﷺ : «عرفت فالزم»(١).

ولعله يختلج في نفس من قصُر فهمه : كيف يحسن إسلامنا في شتى المجالات والصحابة أنفسهم صدرت منهم بعض الأخطاء في مجالات شتى؛ والأمثلة على الخطأ معروفة؛ فلنبحث عن مجال نتقنه ونحسن فيه إسلامنا.

ويذكرني مثل هذا بمن أراد أن يتاجر مع الله جملة؛ فبنى لله مسجداً ضخماً على نفقته الخاصة، ثم لم يصلِّ هو فيه؛ بل لزم بيته في الصلاة معتقداً أن له من الأجر مثل أجور من يصلون في مسجده. ولا عجب؛ فالجنون فنون!

أخي الحبيب : يجب أن نعتقد ـ والعمل وليد الفكر والاعتقاد ـ أن إحسان الإسلام يكون شاملاً، وينطلق من حسن تفاعل القلب مع أمر الله ـ تعالى ـ ونهيه ومع سنة رسوله ﷺ، ثم جهد المرء بجوارحه لتطبيق ما يؤمن به ويعتقده، ولا بأس بعد ذلك من الخطأ أو النسيان ولو تكرر طالما يفرق هذا التكرار توبةٌ نصوح.

ومن هذا الباب كانت الهفوات بل والزلات من بعض الصحابة الذين حسن إسلامهم وشُهد لهم بالجنان؛ فقد أتبعوا الخطأ بتوبة نصوح فاستمر لهم حسن إسلامهم. ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩].

أما أن يكون للمرء منا خبيئة يمعن في إخفائها ويحسن التوجه لله ـ تعالى ـ بها، لتكون له ذخراً عند الله يتشفع بها عند الشدائد، ويحتسب أجرها في الآخرة فذلك فضل من الله وتوفيقه.

ولكن هذا لا يغني عن تمثُّل الإسلام واقعاً حياً يشمل مناحي الحياة جميعاً، ولنحذر واقع هذه المرأة التي حُكي لرسول الله ﷺ عن كثير صلاتها وصيامها لكنها تؤذي جيرانها فقال : «هي في النار»(٢). **اللهم! إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.**

---

(١) المعجم الكبير، ح/ ٣٣٦٧.

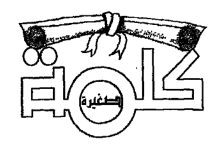
(٢) رواه أحمد، ح/ ٩٢٩٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

AL BAYAN MAGAZINE
7 Bridges Place, Parsons Green
London SW6 4HW, U.K.
Tel : 0171 - 736 9060
Fax : 0171 - 736 4255

الأردن٥٠ قرشًا، الإمارات العربية ٨ دراهم، أوروبا وأمريكا ١,٥ جنيه إسترليني أو ما يعادلها، البحرين ٦٠٠ فلس، اليمن٦٠ ريالاً، مصر ٢ جنيه ، السعودية ٨ ريالات، الكويت ٦٠٠ فلس، المغرب ١٠ دراهم، قطر ٨ ريالات، السودان ٥٠ دينارًا، سلطنة عمان ٦٠٠ بيزة.

EUROPE & AMERICA 1.5
(STERLING OR EQUIVALENT)



تحسبهم جميعاً

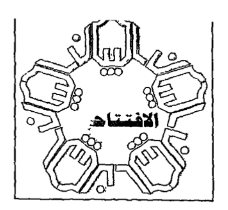
لقد تحول البابا من حاكم مطلق يمنح أو يبيع صكوك الغفران، ويسيِّر الحملات الصليبية إلى مجرد منصب ديني يمثل الكنيسة الكاثوليكية بعد تحول المجتمع الأوروبي عن الدين وتبنيه العلمانية أو اللادينية.

لقد تحول دور الكنيسة من القيادة إلى المشاركة الفعالة في تنفيذ المشاريع الاستعمارية؛ فعلى مدى قرون كانت الكنيسة فيها طليعة الاستعمار وأداته في تثبيت النفوذ الغربي وتكوين جاليات نصرانية محلية تكون أداة للغرب في تنفيذ أغراضه.

إن الكنائس الغربية هي المسؤولة عن أحداث نيجيريا وجنوب السودان وتيمور الشرقية وجزر الملوك، وكلما نجحت الكنيسة في تكوين تجمع نصراني فإن الدول الغربية تتولى مهمة الرعاية والحماية. ومن اللافت للنظر حرص البابا على الظهور بمظهر زعيم العالم المسيحي وتعدد زياراته لبلدان فيها جاليات نصرانية غير كاثوليكية في محاولة لدمجها في المشروع الغربي، ولهذا كانت زياراته لجورجيا والصين والهند والسودان وأخيراً لمصر.

لقد قوبل البابا في الهند رسمياً بحفاوة؛ لأنه يمثل الغرب؛ ولكن الهندوس قابلوه بالمظاهرات التي تندد بالنشاط التنصيري في الهند. أما في مصر فقد كانت الزيارة مناسبة لإبراز عمق الخلافات بين النصارى، وعدم ترحيب الكنيسة القبطية بهذه الزيارة؛ لأنها تهدد سلطة الكنيسة على رعاياها، ولهذا فإن الحكومة التي أفلحت في جعل شيخ الأزهر على رأس المستقبلين لم تنجح في إقناع البابا شنودة بالمشاركة في الاستقبال، بل وتم منع البابا يوحنا من دخول أحد الأديرة في سيناء، مما أكد عمق الخلاف الديني، والسياسي أيضاً؛ حيث إن الكنيسة القبطية تحس أن هناك نشاطاً كنسياً غربياً بين الأقباط في مصر ومحاولة إثارة القلاقل مع المسلمين ليكون ذلك ذريعة للتدخل الغربي في مصر عند الحاجة، بدعوى حماية الأقلية النصرانية المضطهدة!!

● العدد ١٤٩ ● المحرم ١٤٢١هـ/ إبريل ٢٠٠٠م



العربية وواجبنا نحوها

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإننا بهذا العدد الذي ندخل به العام الخامس عشر من عمر البيان المديد ـ بإذن الله ـ لنؤكد على استمرارنا في النهج العقدي والدعوي والتربوي في طريقنا المرسوم والمعهود مذكِّرين في الوقت نفسه بأن لكل أمة شعاراً، «واللسان العربي شعار الإسلام وأهله»[1]، وما ذاك إلا لارتباطه بأهم مقدسات المسلمين، وهما الوحيان: الكتاب، والسنة؛ بالإضافة إلى أن أغلب ما كتب في العلوم الإسلامية كان باللغة العربية.

ومن أجل هذا اكتسبت اللغة العربية خاصية تميزها عن بقية اللغات الحية، وهي ثبات أصولها، وتمنُّعها من التغير، وهذا لا يضاد النمو والتمدد عن طريق الاشتقاق والنحت وغير ذلك من وسائل نموها.

ولهذا كان من واجبات المسلمين ـ ولاةً وأفراداً ـ العمل على نشر اللسان العربي، والمحافظة عليه، والدفاع عنه؛ وهذا ما فعله الأسلاف حين نشروا اللغة العربية مع نشرهم للإسلام، وكان لذلك أثر كبير ـ بفضل الله ـ في توطين الإسلام في تلك الشعوب التي تعلمت اللسان العربي، وتشبثت به، وكان من أخطاء المسلمين في الأندلس عدم نشر اللغة العربية بين أهل البلاد والتسامح في بقاء لغات أخرى على مستوى اجتماعي عالٍ وكبير مما جعل اقتلاع الإسلام من الأندلس وطمس أغلب آثاره في نفوس أهله من غير العرب سهلاً وسريعاً؛ وإن بقيت آثار العربية في اللغة الأسبانية واضحة حتى الآن.

وفي هذا العصر تُوَجَّه إلى اللغة العربية سهام كثيرة من جهات عدة، لا مجال الآن للكلام عنها، وإنما سنوجه كلامنا إلى حال الدعاة مع اللغة العربية وموقفهم من الدعوات المناوئة لها؛ لأنهم أهم

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام.

الأفراد الذين يجب عليهم نشر اللسان العربي السليم والمحافظة عليه؛ حفاظاً على صفاء الدين وتعميقه في النفوس؛ لتتعامل مع الوحيين بنقاء وفهم أكثر. وهذه وقفات مع هذا الموضوع:

الوقفة الأولى:

انتشر في الآونة الأخيرة عدة إصدارات صوتية بلهجات عامية مختلفة، ولقيت رواجاً في السوق، مما دعا تسجيلات أخرى إلى احتذاء هذه الطريق، ونشر مزيد من هذه التسجيلات العامية، وهذه نكسة في طريق تقدم لغة المجتمع واقترابها من الفصحى.

وبيان ذلك: أن المجتمع كان على لهجات عدة، حتى يكاد بعضه لا يفهم لهجة بعض، وبعدما انتشرت وسائل الإعلام - وبخاصة المسموعة - وكانت العربية الفصحى لغتها بوجه عام أدى ذلك إلى زوال كثير من المفردات والأساليب والصوتيات العامية من المجتمع، وقرب الجميع إلى اللغة الفصحى، واقتصرت العامية على لغة المشافهة الخاصة في الشارع والمجالس، دون تقييد أو تسجيل، كل ذلك أدى إلى انتشار المفردات الفصيحة، والأساليب السليمة. والمُوازِن بين كلام الناس الآن وكلامهم قبل مائة سنة أو أقل يرى البون الشاسع بينهما، ويرى أن كلام الناس اليوم أقرب إلى الفصحى مفرداتٍ وأساليب وأصواتاً.

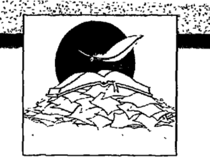
ولكن - وللأسف الشديد - نشط دعاة العامية، ودعوا إلى تقييدها في الكتب، وتسجيلها في الأشرطة المسموعة، مما أعطاها دفعة قوية، وبث الروح في كثير من كلماتها وأساليبها وأصواتها التي كادت تموت، وهذا لا يستنكر من دعاة القوميات الأرضية، أو الوطنيات الضيقة، غير المتعلمين للسان العربي الفصيح، ولكنه يستغرب - بكل أسىً - ممن يعلم أن كل دعم للعامية ونشر لها يعني إقصاءاً للفصحى وإضعافاً لها، كما يُستغرب من دعاة كان المطلوب منهم إعزاز اللسان العربي والاعتزاز به؛ لارتباطه بما يدعون إليه؛ فـ «إن نفس اللغة من الدين»[1]، وإن «اعتياد التكلم به - أي اللسان العربي - أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم»[2].

ولا يعني ما تقدم أن يُطالب عامة الناس بالالتزام باللغة الفصحى؛ فإن هذا في هذا الوقت مطلب

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٢٠٧.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١٦٢.



يوم عاشوراء.. أحكام وفوائد

عبد اللطيف بن محمد الحسن

ما المناسبات الإسلامية إلا اصطفاء من الله ـ تعالى ـ لبعض الأزمان وتخصيص لها بعبادات ووظائف. تأتي تلك المناسبات الكريمة فتحرك الشعور الإسلامي في أهله ليُقبلوا على الله ـ عز وجل ـ فيزدادوا طهراً وصفاءاً ونقاءاً.

يُقبل شهر الله المحرم فيدعو المسلمين للصيام؛ حيث يقول النبي ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم»(١).

وفي الوقت الذي يذكّرنا فيه هذا الشهر بهجرة المصطفى ﷺ ـ بداية ظهور الدعوة وقيام دولة الإسلام ـ نجد فيه يوماً يذكّرنا بانتصار نبي آخر هو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ذلكم هو يوم عاشوراء ـ العاشر من المحرم ـ.

ولقد حبا الله هذا اليوم فضلاً، فضاعف فيه أجر الصيام. ثم كان للناس فيه طرائق فأدخلوا فيه وأحدثوا وزادوا.. إما رغبة في الخير، أو مجاراة للناس، وإما اتباعاً للهوى وزهداً في السنة.

من هنا نشأت الحاجة لبيان فضل هذا اليوم، وما يشرع فيه، وبيان أحوال الناس في تعظيمه، مع وقفات تبرز من خلال المطالعة والبحث في هذا الموضوع، أسأل الله ـ تعالى ـ الهدى والسداد، وأن ينفع بهذه السطور.

أولاً: خصوصية عاشوراء وفضل صومه:

جاء في فضل عاشوراء أنه يوم نجّى الله فيه نبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين معه، وأغرق فيه فرعون وحزبه؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه(٢)، وهذا يحتمل أن الله ـ تعالى ـ: «أوحى إليه بصدقهم، أو تواتر عنده الخبر بذلك»(٣).

---

(١) رواه مسلم، ح/ ١١٦٣.

(٢) البخاري، ح/٢٠٠٤، ومسلم، ح/١١٣٣٠، واللفظ له.

(٣) فتح الباري: ٤/٢٩١.

وقد جاء بيان فضل صيام يوم عاشوراء في حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ سئل عن صوم عاشوراء، فقال: «يكفِّر السنة الماضية»، وفي رواية: «صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[1]، وفي حديث آخر: «ومن صام عاشوراء غفر الله له سنة»[2].

قال البيهقي: «وهذا فيمن صادف صومه وله سيئات يحتاج إلى ما يكفِّرها؛ فإن صادف صومه وقد كُفِّرت سيئاته بغيره انقلبت زيادة في درجاته، وبالله التوفيق»[3].

بل إن صيامه يعدل صيام سنة، كما في رواية: «ذاك صوم سنة»[4].

ويصور ابن عباس حرص النبي ﷺ على صيامه فيقول: «ما رأيت النبي ﷺ يتحرَّى صيام يوم فضلَّه على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء، وهذا الشهر، يعني: شهر رمضان»[5].

ولِمَا عُرف من فضله فقد كان للسلف حرص كبير على إدراكه، حتى كان بعضهم يصومه في السفر؛ خشية فواته، كما نقله ابن رجب عن طائفة منهم ابن عباس، وأبو إسحاق السبيعي، والزهري، وقال: «رمضان له عدة من أيام أخر، وعاشوراء يفوت، ونص أحمد على أنه يصام عاشوراء في السفر»[6].

ثانياً: حالات صوم عاشوراء:

مرَّ صوم يوم عاشوراء بأحوال عدة[7]:

الأولى: أن النبي ﷺ كان يصوم عاشوراء بمكة، ولا يأمر الناس بصومه.

الثانية: لما قدم المدينة وجد اليهود يصومونه، فصامه وأمر الناس بصيامه، حتى أمر من أكل في ذلك اليوم أن يمسك بقية ذلك اليوم. وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة؛ لأنه قدم المدينة في ربيع الأول.

الثالثة: لما فرض رمضان في السنة الثانية نُسِخَ وجوب صوم عاشوراء، وصار مستحباً، فلم يقع الأمر بصيامه إلا سنة واحدة[8].

ويشهد لهذه الحالات أحاديث، منها: حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما هاجر إلى المدينة، صامه وأمر بصيامه، فلما فرض شهر رمضان قال: «من شاء صامه، ومن شاء تركه»[9].

---

(١) رواه مسلم، ح: ١١٦٢.

(٢) رواه البزار، انظر: مختصر زوائد البزار ١/٤٠٧، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ٤٢٢/١.

(٣) فضائل الأوقات، للبيهقي: ٤٣٩.

(٤) رواه ابن حبان: ٣٩٤/٨، ح/٣٦٣١. قال شعيب الأرناؤوط: إسناده على شرط مسلم.

(٥) رواه البخاري، ح/٢٠٠٦، ولا يعني هذا تفضيله على يوم عرفة، فإنه يكفر سنتين، ويتميز بمزيد فضل لما يقع فيه من العبادات والمغفرة والعتق، ثم إنه محفوف بالأشهر الحرم قبله وبعده، وصومه من خصائص شرعنا، بخلاف عاشوراء، فضوعف ببركات المصطفى ﷺ. (انظر: بدائع الفوائد: ٢١١/٤، والفتح: ٤/٢٩٢، ومواهب الجليل ٢/٤٠٣).

(٦) لطائف المعارف، لابن رجب: ١١٠، وأخرج أثر الزهري البيهقي في الشعب: ٣٦٧/٣.

(٧) انظر: اللطائف: ١٠٢ ـ ١٠٩.

(٨) انظر: الفتح: ٢٨٩/٤.

(٩) رواه مسلم، ح: ١١٢٥، واللفظ له، والبخاري، ح:٢٠٠٢.

وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: كان يوم عاشوراء يوماً تعظمه اليهود، وتتخذه عيداً، فقال رسول الله ﷺ: «فصوموه أنتم»[١].

قال ابن رجب: «وهذا يدل على النهي عن اتخاذه عيداً، وعلى استحباب صيام أعياد المشركين؛ فإن الصوم ينافي اتخاذه عيداً، فيوافقون في صيامه مع صيام يوم آخر معه... فإن في ذلك مخالفة لهم في كيفية صيامه أيضاً، فلا يبقى فيه موافقة لهم في شيء بالكلية»[٢].

ثالثاً: كيفية مخالفة اليهود في صوم يوم عاشوراء:

يظهر مما تقدم من الأحاديث ـ والله أعلم ـ أن الأكمل هو صوم التاسع والعاشر؛ لأنه هو الذي عزم على فعله النبي ﷺ.

ومن صحح حديث: «وصوموا قبله يومًا، أو بعده يومًا» فإنه قال بمشروعية صيام الحادي عشر لمن لم يصم التاسع، لتحصل له مخالفة اليهود التي قصد إليها النبي ﷺ؛ خاصة أن من أهل العلم من يرى كراهية إفراد العاشر بالصوم؛ لما فيه من موافقة اليهود ومخالفة الأمر بمخالفتهم، وأيضًا خشية فوات العاشر[٣].

ومن أهل العلم من قال بأفضلية صوم الثلاثة أيام: التاسع والحادي عشر مع العاشر، وحجتهم الرواية المتقدمة: «صوموا يومًا قبله، ويومًا بعده»، وأيضًا: الاحتياط لإدراك العاشر، ولأنه أبلغ في مخالفة اليهود[٤].

رابعاً: أعمال الناس في عاشوراء في ميزان الشرع:

الناظر في حال الناس اليوم يرى أنهم يخصصون عاشوراء بأمور عديدة. ومن خلال سؤال عدد من الناس من بلدان عدة تبين أن من الأعمال المنتشرة التي يحرص عليها الناس في عاشوراء: الصيام ـ وقد عرفنا مشروعيته ـ.

ومنها: إحياء ليلة عاشوراء، والحرص على التكلف في الطعام، والذبح عموماً لأجل اللحم، وإظهار البهجة والسرور، ومنها: ما يقع في بلدان كثيرة من المآتم المشتملة على طقوس معينة مما يفعله الروافض وغيرهم.

وحتى نعرف مدى شرعية تلك الأعمال فتكون مقربة إلى الله، أو عدم مشروعيتها لتصير بدعاً ومحدثات تُبعِد العبد عن الله؛ فإنه لا بد أن نعلم جيداً أن للعمل المقبول عند الله ـ تعالى ـ شروطاً منها: أن يكون العامل متابعاً ـ في عمله ـ رسول الله ﷺ[٥].

---

(١) رواه مسلم، ح: ١١٣١، ١/٧٩٦.   (٢) لطائف المعارف: ١١٢.

(٣) وهو المشهور عن ابن عباس ومقتضى كلام أحمد، ومذهب الحنفية. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ١/٤٧٠ ـ ٤٧١، ورد المحتار، لابن عابدين ٣/٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٤) بل إن الحافظ ابن حجر (الفتح٤/٢٨٩) وابن القيم (الزاد٢/٧٢) جعلا المراتب ثلاثة، افضلها صيام الثلاثة الايام، يليها صوم التاسع والعاشر، والثالثة صوم العاشر وحده. وانظر: المغني، لابن قدامة ٤/٤٤١، ولطائف المعارف، ص ١٠٩.

(٥) ويتحقق الاتباع بموافقة العمل هدي النبي ﷺ في ستة أمور:

أ - كون سبب العمل مشروعاً، فالتهجد في ليالي معينة كليلة عاشوراء دون غيرها.. سببه غير مشروع؛ لأنه لم يرد في تخصيصها به نص شرعي.

ب - الجنس؛ فالتضحية بفرس غير مقبولة؛ لأنها لم تشرع.

ج - القدر أو العدد، فإذا صلى المغرب اربعاً لم تصح؛ لمخالفة الشرع في العدد.

د - الكيفية، فإذا توضأ وضوءاً منكساً لم يُقبل.

هـ - الزمان، فلو ضحى في شعبان لما صحت منه.

و - المكان، فلو اعتكف في بيته لما صح منه ذلك؛ لمخالفة الشرع في المكان.

(انظر: الإبداع في بيان كمال الشرع وخطر الابتداع، لابن عثيمين: ٢١-٢٢).

وإذا نظرنا في أفعال الناس في عاشوراء - سواء ما كان منها في الحاضر أو الماضي أو الماضي القريب[1] - رأينا أنها على صور عدة:

أ - ما كان منها في باب العبادات؛ حيث خصوا هذا اليوم ببعض العبادات كقيام ليلة عاشوراء، وزيارة القبور فيه، والصدقة، وتقديم الزكاة أو تأخيرها عن وقتها لتقع في يوم عاشوراء، وقراءة سورة فيها ذكر موسى فجر يوم عاشوراء ... فهذه ونحوها وقعت المخالفة فيها في سبب العمل وهو تخصيصه بوقت لم يخصه الشارع بهذه الأعمال، ولو أراده لحثَّ عليه، كما حث على الصيام فيه، فيُمنع من فعلها بهذا التقييد الزمني، وإن كانت مشروعة في أصلها.

ولأن باب البدع لا يقف عند حدّ فإن البدع في العبادات قد تنال كيفية العبادة، كما اختلقوا حديثاً موضوعاً مكذوباً في صلاة أربع ركعات ليلة عاشوراء ويومها، يقرأ فيها ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [**الإخلاص**: ١] إحدى وخمسين مرة[2]، وخرافة رقية عاشوراء، ونعي الحسين - رضي الله عنه - على المنابر يوم الجمعة[3]، وكالمنكرات المصاحبة لزيارة القبور.

ب - ما كان من باب العادات التي تمارس في عاشوراء تشبيهاً له بالعيد، ومن ذلك:

الاغتسال، والاكتحال، واستعمال البخور، والتوسع في المآكل والمشارب، وطحن الحبوب، وطبخ الطعام المخصوص، والذبح لأجل اللحم، وإظهار البهجة والسرور. ومنها عادات لا تخلو من منكرات قبيحة.

وهذه في أصلها نشأت وظهرت رد فعل لمآتم الرافضة التي يقيمونها حزناً على مقتل الحسين - رضي الله عنه - فكان من الناصبة[4] أن أظهروا الشماتة والفرح، وابتدعوا فيه أشياء ليست من الدين، فوقعوا في التشبه باليهود الذين يتخذونه عيداً - كما تقدم -[5].

وأما ما روي من الأحاديث في فضل التوسعة على العيال في عاشوراء فإن طرقها ضعيفة، وهي وإن رأى بعض العلماء أنها قوية فإن ضعفها لا ينجبر، ولا ينهض لدرجة الحسن.

أما الاغتسال والاكتحال والاختضاب فلم يثبت فيه شيء البتة[6]، ولمَّا أشار ابن تيمية إلى ما روي من الأحاديث في فضل عاشوراء قال: «وكل هذا كذب على رسول الله ﷺ، لم يصح في عاشوراء إلا فضل صيامه»[7].

وبذلك تعرف أن الشرع لم يخص عاشوراء بعمل غير الصيام، وهذا منهج الرسول ﷺ، ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [**الأحزاب**: ٢١]. وكم فات على أولئك المنشغلين بتلك البدع من اتِّباع النبي ﷺ والعمل بسنته!

---

(١) انظر في بدع عاشوراء: المدخل، لابن الحاج: ١/٢٠٨، ٢٠٩، وتنبيه الغافلين، لابن النحاس: ٣٠٣، والإبداع في مضار الابتداع، لعلي محفوظ: ٢٦٨-٢٧٢، والسنن والمبتدعات، للشقيري: ١١٨-١٢١، وردع الأنام من محدثات عاشر المحرم الحرام، لأبي الطيب عطاء الله ضيف . وانظر: معجم البدع، لرائد بن أبي علفة: ٣٩١ - ٣٩٥.

(٢) انظر: الإبداع ، لعلي محفوظ: ٢٧٠.

(٣) انظر: السنن والمبتدعات، للشقيري: ١٢٠.

(٤) هم الذين يناصبون آل البيت العداء، في مقابل الرافضة الذين غلوا فيهم.

(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/١٢٩ - ١٣٤، وانظر: اللطائف: ١١٢، وشعب الإيمان: ٣/٣٦٧، وضعيف الجامع، ح/٥٨٧٣.

(٦) انظر: السابق.

(٧) منهاج السنة النبوية ٧/٣٩، وانظر: مواهب الجليل ٢/٤٠٣ - ٤٤٤.

أما اقتصار النبي ﷺ على صوم عاشوراء أولاً فقد كان قبل أن يؤمر بمخالفة أهل الكتاب، وقد كان قبل ذلك يحب موافقتهم فيما لم يؤمر فيه بشيء[1]، واحتمل أن يكون صومه «استئلافاً لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم، وعلى كل حال فلم يصمه اقتداءاً بهم؛ فإنه كان يصومه قبل ذلك»[2].

والإسلام منهج وسط في الاتباع، حاديه دائماً الحق المجرد؛ ففعل المشركين لِحَقٍّ لا يسوِّغ ترك هذا الحق بدعوى مخالفتهم، كما أن فعلهم لباطل لا يسوِّغ متابعتهم فيه بدعوى موافقتهم لتأليف قلوبهم، وعليه: تنتفي الدوافع المتوهمة للإعجاب بحال أي مبطل أو متابعته في باطله أو ترك حق لأنه فعله؛ إذ مقياس قبول الأحوال توافقها مع الشرع، وميزان المخالفة ما كان من خصائص مِلَّتهم وشعائر دينهم، وبين هذا وهذا درجات لا مجال لتفصيلها.

٣ - حقيقة الانتماء:

علَّل اليهود صيامهم عاشوراء بمتابعتهم موسى عليه السلام حين صامه شكراً لله على إنجائه له من فرعون. وهاهنا أمران:

أولهما: هل يكفي صيامهم عاشوراء برهاناً للمتابعة وسبباً للأولوية بموسى عليه السلام؟

وثانيهما: هل وقع لهم ما أرادوا من موافقة عاشر المحرم (عاشوراء) فعلاً؟

أما الأول: فلا يكفي صومهم عاشوراء أن يقوم دليلاً لكونهم أوْلى بموسى عليه السلام أبداً؛ إذ الحكم في ذلك بحسب تمام المتابعة والتزام المنهج، قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

ولذا كان نبي هذه الأمة ﷺ وأتباعه أوْلى بنبي الله موسى - عليه الصلاة والسلام - من الأمة الغضبية، فقال: «نحن أحق وأوْلى بموسى منكم»[3].

وهكذا تتوحد المشاعر، وترتبط القلوب مع طول العهد الزماني، والتباعد المكاني، فيكون المؤمنون حزباً واحداً هو حزب الله - عز وجل -؛ فهم أمة واحدة، من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان .. لا يحول دون الانتماء إليها أصل الإنسان أو لونه أو لغته أو طبقته .. إنما هو شرط واحد لا يتبدل، وهو تحقيق الإيمان، فإذا ما وجد كان صاحبه هو الأوْلى والأحق بالولاية دون القريب ممن افتقد الشرط؛ ولذا استحقت هذه الأمة ولاية موسى دون اليهود المغضوب عليهم. ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

---

(١) صحيح البخاري، ح/ ٥٩١٧، موقوفًا على ابن عباس - وتقدم -.

(٢) الفتح: ٤/ ٢٩١، وانظر: ٢٨٨.

(٣) هذا لفظ مسلم: ح/ ١١٣٠.

(٤) انظر: اللطائف: ١٠٩، والزاد: ٢/ ٦٩، ٧٠، والفتح: ٤/ ٢٩١.

وأما الثاني: ـ وهو: هل وافقوا صيام عاشوراء فعلاً؟ ـ فقد ذكر بعض أهل العلم[٤] أن حساب اليهود كان بالسنة الشمسية، والمحرم شهر هلالي لا شمسي، وهذا يوقع الشك في إصابة اليهود يوم عاشوراء، أما المسلمون فحسابهم بالأشهر الهلالية فأصابوا تعيين عاشوراء، وإذا ظهر خطأ اليهود تبينت أولوية المسلمين من هذا الوجه أيضاً.

ويشبه هذا ضلال أهل الكتاب عن يوم الجمعة، فاختار اليهود السبت، واختار النصارى الأحد، وهُدي المسلمون ليوم الجمعة.

٤ – عبادة الله أبلغ الشكر:

كانت نجاة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقومه من فرعون.. منّة كبرى أعقبها موسى عليه السلام بصيام ذلك اليوم، فكان بذلك ـ وغيره من العبادات ـ شاكرًا لله ـ تعالى ـ؛ إذ العمل الصالح شكر لله كبير، قال ربنا ـ عز وجل ـ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وأساس الشكر مبني على خمس قواعد: الخضوع للمنعم، وحبه، والاعتراف بنعمته، والثناء عليه بها، وألا تصرف النعمة فيما يكرهه المنعم[١]. «والبشر مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء، فكيف إذا قصّروا وغفلوا عن الشكر من الأساس»؟![٢].

ويجب التنبه إلى أن أمر العبادة قائم على الاتباع، فلا يجوز إحداث عبادات لم تشرع، كما لا يجوز تخصيص عاشوراء ولا غيره من الأزمان الفاضلة بعبادات لم ينص عليها الشارع في ذلك الزمن. أما الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فعباداتهم شرع معصوم مبني على وحي الله ـ عز وجل ـ إليهم.

ثم اقتفاء آثار الأنبياء وتحقيق الاهتداء بهديهم والاجتهاد في تطبيق سنتهم هو الشكر بعينه.

٥ – في التعويد على الخير تثبيت عليه:

بلغ بالصحابة الحرص على تعويد صغارهم الصيام أن احتالوا عليهم في تمرينهم عليه حتى يُتِمُّوه، فصنعوا لهم اللعب يتلهون بها عن طلب الطعام، ـ كما تقدم في حديث الربيِّع ـ؛ وذلك لكون تعويد الصغير على فعل الخير مكمن قوة في استقامته عليه في الكبر؛ لأنه يصير هيئة راسخة في نفسه تعسر زعزعتها.. واليوم لدينا من وسائل التلهية المباحة بقدر ما لدينا من أصناف الطعام وأشكاله، وإذا اقتنع المربي بواجبه التربوي لم تُعْيِه الحيلة؛ فإن الحاجة تفتق الحيلة[٣].

---

(١) انظر مدارج السالكين: ٢/ ٢٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٥/ ٢٨٩٩.

(٣) كما تقول العرب. ومعنى المثل: أن شعور الإنسان بحاجته لشيء يولد له الحيلة والطريقة التي توصله إلى حاجته.

الصحابة والمزاح:

أورد أبو داود في سننه: «عن أسيد بن حضير قال: بينما رجل من الأنصار يحدِّث القوم وكان فيه مزاح بَيْنًا يضحكهم فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود، فقال: أصبرني! فقال: اصطبر. قال: إن عليك قميصاً وليس عليَّ قميص. فرفع النبي ﷺ عن قميصه فاحتضنه وجعل يقبل كَشْحَه. قال: إنما أردت هذا يا رسول الله»(1).

وكان من أشهر الصحابة نُعيمان بن عمرو بن رفاعة المشهور بقصصه ودعاباته، وهو صحابي جليل: «شهد بدراً، وكان من قدماء الصحابة وكبرائهم، وكانت فيه دعابة زائدة، وله أخبار طريفة في دعاباته.. وكان نعيمان مضحكاً مزاحاً»(2).

ولقد كان المزاح نوعاً من طرد السأم والهم والابتعاد عن مشاغل الدنيا وترويح للنفس؛ إذ لا بد للدنيا من مواقف تتجدد فيها الطاقة وتبعث فيها الهمة؛ لأن القلوب إذا كلَّت عميت؛ بل إن ذلك قد يكون مظهراً من مظاهر الرجولة في البيت ومع الزوجة والأولاد، إذا كان دون إسراف أو جنوح، لا كما يظن بعضٌ أن الرجولة بالتكلف والتصنع.

واسمع قول بعض الصحابة:

«قال ابن عمر: إنه ليعجبني أن يكون الرجل في أهله مثل الصبي، ثم إذا بُغي منه وُجِدَ رجلاً.

وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته، فإذا خرج كان رجلاً من الرجال»(3).

لذلك ينبغي ألاَّ يكون من خُلُق الشاب الملتزم أو الداعية التبسم خارج البيت وتصنُّع الغلظة والجفوة في بيته، ولا يخفى أن عكس الأمر من التكلف المذموم أيضاً.

التوازن مطلب أساس:

لقد كان رسول الله ﷺ يعيش بين الصحابة وفيهم الحازم من أمثال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد كان رجلاً مهيباً. وفيهم صاحب الدعابة الذي يستلقي على قفاه، ولم ينكر على أحد منهم.

والأصل هو في إنكار الضحك المتكلِّف في القهقهة، أو الضحك في مواطن الجد، أو الإفراط فيه.

«ولقد سئل ابن عمر - رضي الله عنهما -: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبل.

وقال بلال بن سعد: أدركتهم يشتدون بين الأعراض ويضحك بعضهم إلى بعض، فإذا كان الليل كانوا رهباناً»(4).

وهكذا ظل الصحابة أوفياء للمنهج النبوي دون أن يؤثر المزاح على جدية العمل، أو على تطبيق السنن، أو على تفويت المصالح.

ولا شك أن الإفراط يقود إلى أمور تنافي مقاصد الشريعة ومراتب المروءة، وتتعارض مع المقامات السامية، كما أنها قد تكون حسنة بذاتها ولكنها تقود إلى مفسدة، ولقد قال علي - رضي الله عنه - في توضيح هذا الميزان وتثبيته: «خير هذه الأمة النمط الأوسط: يرجع إليهم الفاني، ويلحق بهم التالي»(5).

---

(1) رواه أبو داود، ح/ 4547.

(2) الاستيعاب، لابن عبد البر، 4/ 1526.

(3) شرح السنة، للبغوي، 13/183.

(4) عيون الأخبار، ابن قتيبة، 1/326.

(5) شرح السنة، 13/318.

سلف الأمة:

وعلى منهج الصحابة سار السلف في جعل المزاح استراحة؛ فتكاد ألاَّ تجد كتاباً يخلو من مُلَح وطرائف لشيخ التابعين الإمام الشعبي ـ رحمه الله ـ.

قيل لسفيان بن عيينة : المزاح هجنة؟

قال : بل سنة ، ولكن الشأن فيمن يحسنه ويضعه مواضعه.

وقد اعتبر بعض الفقهاء المزاح وفق ضوابطه وفي أوقاته من المروءة ، والتقصير فيه من خوارم المروءة ، وشددوا على ذلك في السفر؛ وفي هذا يقول ربيعة الرأي : «إن المروءة من خصال : ثلاثة في الحضر ، وثلاثة في السفر ، والتي في السفر : فبذل الزاد ، وحسن الخلق ، وكثرة المزاح من غير معصية»[1].

وإيراد ما ورد عن التابعين وسلف الأمة يطول ، وجميعهم على هذا المذهب في جواز المزاح وفق الضوابط الشرعية.

يقول النووي ـ رحمه الله ـ : «المزاح المنهي عنه هو الذي فيه إفراط ويداوم عليه؛ فإنه يورث الضحك وقسوة القلب ، ويشغل عن ذكر الله ـ تعالى ـ ، ويؤول في كثير من الأوقات إلى الإيذاء ، ويورث الأحقاد ، ويسقط المهابة والوقار. فأما من سلم من هذه الأمور فهو المباح الذي كان رسول الله ﷺ يفعله»[2].

الضوابط الشرعية في المزاح:

١ – ألا يكون فيه شيء من الاستهزاء بالدين:

فيعد هذا من نواقض الإسلام؛ لقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞٦٥ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة : ٦٥، ٦٦].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه»[3] ويجعل الإمام ابن قدامة ذلك ردة عن الإسلام.

وهذه كالاستهزاء ببعض السنن على سبيل المزح ، وببعض الأحكام الشرعية كتقصير الثوب وإعفاء اللحية أو الصلاة والصوم وغيرها.

يقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي»[4].

٢ – ألا يكون إلا صدقاً ولا يكذب:

ولا سيما أولئك المعتادين لذكر الطرائف الكاذبة بقصد إضحاك الناس. روى الإمام أحمد في مسنده أن الرسول ﷺ قال : «ويل للذي يحدِّث فيكذب ليُضحِكَ به القوم ويل له»[5].

وقوله ﷺ : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليُضحِك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا»[6].

---

(١) شرح السنة، ١٣/١٨٤.

(٢) الأذكار، للنووي، ٤٦٨.

(٣) مجموع الفتاوى، ٧/٢٧٣.

(٤) الحلية لأبي نعيم، ٤/٩٦، والفردوس، للدليمي، ٣/٥٧٨.

(٥) رواه أبو داود، ح/ ٤٣٣٨.

(٦) رواه أحمد، ح/ ٨٨٥٢.



إنا نراك من المحسنين

محمد بن عبد الله الدويش

حين عاش يوسف ـ عليه السلام ـ في السجن كان شامة بين الناس في إحسانه إليهم وسمو أخلاقه معهم؛ لذا جاءه الرجلان يستفتيانه في رؤياهما مستشهديْن بما عرفاه من حاله وإحسانه للناس. واستثمر يوسف ـ عليه السلام ـ هذا الموقف في دعوتهما إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وبيان حال ما هم عليه من الأرباب المتفرقين بعد أن وعدهما بتأويل رؤياهما ناسباً الفضل في ذلك إلى ربه ـ عز وجل ـ.

إن هذا الموقف تتجلى فيه أثر نظرة الناس إلى الداعية وإحسانه إليهم في قبولهم لدعوته وسماعهم لكلمته.

ولذا فقد كان سيد الدعاة وإمامهم محمد ﷺ متمثلاً لهذا الجانب، ومتصفاً بتلك الصفة. تقول خديجة ـ رضي الله عنها ـ في وصفه: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ؛ وتُكسِبُ المعدومَ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]. والسيرة حافلة بأخبار من أسلموا متأثرين بما رأوا من حاله ﷺ وحسن خلقه.

وأخبر ـ تبارك وتعالى ـ أن العفو ودفع السيئة بالتي هي أحسن مدعاة لأن تنقلب حال العدو إلى صداقة: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

---

(١) رواه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

لذا فالدعاة الذين يتأسون بمنهجه ﷺ حري بهم أن يُعنوا بهذا الجانب ويهتموا به، ومن ذلك:

١ - الاهتمام بالناس، والاعتناء بهم، وقضاء حوائجهم، والحذر من اعتبار ذلك وقتاً ضائعاً أو على حساب الدعوة إلى الله - عز وجل -؛ وها هو النبي ﷺ يجد سعة لأن يهتم بحاجة رجل رقيق يريد العودة إلى زوجته؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن مغيثاً كان عبداً فقال: يا رسول الله! اشفع لي إليها، فقال رسول الله ﷺ: «يا بريرة! اتقي الله؛ فإنه زوجك وأبو ولدك» فقالت: يا رسول الله! أتأمرني بذلك؟ قال: «لا، إنما أنا شافع» فكان دموعه تسيل على خده. فقال رسول الله ﷺ للعباس: «ألا تعجب من حب مغيث بريرة وبغضها إياه؟»[١].

٢ - الاعتناء بالمحتاجين والفقراء وبذل المال لهم، وإيصال زكوات المسلمين وصدقاتهم إليهم، وها هو النبي ﷺ حين قدم طائفة من الناس - وكانوا أهل حاجة - نهى أصحابه عن ادِّخار لحوم الأضاحي من أجل أن يعينوا هؤلاء، وحين قدم قوم من مضر رقَّ لما رآه من سوء حالهم، فخطب أصحابه حاثاً على الصدقة والإحسان والبذل في سبيل الله[٢].

٣ - أن يعتني الدعاة إلى الله بالمشروعات العامة التي تعين الناس وتيسر لهم أمورهم، من خلال إنفاقهم وبذلهم، أو الشفاعة لدى المحسنين، أو رفع مطالبات الناس ومتابعتها في ذلك.

٤ - السعي لإيجاد الحلول للمشكلات الاجتماعية التي يعاني منها الناس، والتي زادت حدتها في هذا العصر، وعانى منها كثير من المسلمين، كالمشكلات التربوية، والمشكلات الزوجية، والخلافات بين الناس؛ وبخاصة أن كثيراً ممن يتصدون لهذه المشكلات ويطرحون آراءهم للناس فيها من خلال الصحف ووسائل الإعلام ليسوا من أهل الصلاح.

٥ - المبادرة لإعانة الناس في الحوادث العامة والأزمات، كالأعاصير والزلازل ونحوها؛ وما رأيناه - في أكثر من موقف - من سعي الأعداء للحيلولة بين قيام الدعاة إلى الله بالأعمال الإغاثية في الأزمات لخير دليل على أهميتها وأثرها.

---

(١) متفق عليه، واللفظ لأبي داود (٢٢٣١).

(٢) رواه مسلم (١٠١٧).

وفي حس المسلم أنه ليس وحده الذي يؤمن بقيام الساعة، ولكن الكون كله يترقب معه قيامها، ويشفق منها إشفاق العبد الوجل: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: « .. وما من دابة إلا وهي مُسِيخَة [منصتة] يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس، شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس...»(١)، « ... وفيه [أي: يوم الجمعة] تقوم الساعة، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة »(٢)، والمسلم يتيقن أن رد الحقوق إلى أهلها يوم القيامة لن يستثنى منه أحد، حتى البهائم العجماء؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ، قال: «لتؤدُنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»(٣).

وهو يعتقد أن شهود النجاة أو الهلاك في هذا اليوم ستشمل عناصر كثيرة في عالم المحسوسات وعالم المعنويات والغيبيات؛ فعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه: « ... أن أبا سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال له: إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ»(٤)، وفي ورواية: «لا يسمعه جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر إلا شهد له»(٥).

وأعضاء الإنسان تشهد عليه إن أذنب: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، وذلك أدعى إلى مراقبة العبد نفسه في السر والعلن.

والمسلم يعتقد أن أثر الطاعة والمعصية لا ينحصران في اليوم الآخر فقط، بل يعيشه في الدنيا أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصل رحمه»(٦)، وعن ثوبان - رضي الله عنه - مرفوعاً: «لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء»(٧)، وهذا ما وُجد صداه لدى سلف هذه الأمة؛ يقول ابن القيم - رحمه الله -: «قال بعض السلف: إني لأعصي الله -عز وجل- فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي»(٨).

---

(١) أخرجه أحمد، ٢/٤٨٦، والنسائي، ك/ الجمعة، ح/١٤٢٨، وقال محققو المسند بإشراف الأرناؤوط (ح/١٠٣٠٣): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني أيضاً في إرواء الغليل (ح/٧٧٣).

(٢) أخرجه ابن ماجة، ك/إقامة الصلاة، ح/١٠٨٤، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (ح/١٣٦٣).

(٣) أخرجه مسلم، ك/البر والصلة، ب/١٥.

(٤) أخرجه البخاري، ك/ بدء الخلق، ب/١٢، والنسائي، ك/الأذان، ح/٦٤٤.

(٥) أخرجه ابن ماجة، ك/الأذان والسنة فيه، ح/٧٢٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، ح/٥٩١.

(٦) أخرجه البخاري، ك/الأدب، ب/١٢، ومسلم، وأحمد بن حنبل.

(٧) أخرجه ابن ماجة، ك/الفتن، ح/٤٠٢٢، والترمذي، وأحمد، والطبراني، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح/١٥٤.

(٨) الجواب الكافي، بتحقيق أبي حذيفة عبيد الله بن عالية، ص ١٤٣.

مشاعر متبادلة مع الكون كله:

ومن هذه العلاقات تنبثق مشاعر الحب والبغض والموالاة والمعاداة عند المسلم، علاقات ومشاعر متبادلة بينه وبين الكون كله.

فالسماء والأرض لا تبكيان على موت الكافرين والطغاة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] بخلاف المؤمن الذي يبكي عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء ـ كما ورد عن علي وابن عباس رضي الله عنهم ـ[١].

والمسلم قد يتبادل مشاعر المحبة مع جبل أصم، عن أنس – رضي الله عنه – قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أُحُد، فقال: «إن أُحُداً جبل يحبنا ونحبه»[٢]، ومن ثَمَّ: فمن مقتضيات هذه المحبة عدم إزعاج المحب لمحبوبه؛ عن قتادة أن أنس بن مالك – رضي الله عنه – حدثهم أن النبي ﷺ صعد أُحُداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبتْ أُحُدُ! فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان»[٣].

والحجر والشجر يناصران أهل التوحيد، ويتعاونان معهم: عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»[٤]، فحتى الشجر والحجر يوالي ويعادي على أساس الدين.

والمسلم ينظر إلى الهلال فيرى العلاقة المشتركة معه أن «ربي وربك الله... »[٥]، وهو منهي عن لعن الريح؛ فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ، فقال: «لا تلعن الريح؛ فإنها مأمورة...»[٦].

والمسلم لا ينسى للوزغ عداءَه القديم لخليل الرحمن، فيبادله العداوة بمثلها. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «..... فإن رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – حين أُلقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار عنه، غير الوزغ كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله»[٧]، بينما دواب أخرى يلتقي المسلم معها في تسبيح ربها ودعوتها إلى التوحيد ونفعها، نُهِيَ المسلم عن قتلها: فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: «إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصُّرَد»[٨]، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: «أن نملة قرصت نبيّاً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبِّح؟»[٩]، وعن عبد الله بن عمرو

---

(١) انظر: تفسير الآية عند ابن جرير الطبري (رحمه الله).

(٢) أخرجه مسلم، ك/الحج، ب/٩٣، والبخاري، ك/المغازي، ب/٢٨.

(٣) أخرجه البخاري، ك/ فضائل الصحابة، ب/٥.

(٤) أخرجه مسلم، ك/الفتن، ب/١٨، والبخاري مختصراً، ك/الجهاد والسير، ب/٩٤.

(٥) أخرجه الترمذي، ك/الدعوات، ح/٣٤٥١، وأحمد، والحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح/١٨١٦.

(٦) أخرجه الترمذي، ك/البر والصلة، ح/١٩٧٨، وأبو داود، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح/٥٢٨.

(٧) أخرجه أحمد، ٦/٨٣، ١٠٩، ٢١٧، وابن ماجة، ك/الصيد، ح/٣٢٣١، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح/١٥٨١.

(٨) أخرجه أبو داود، ك/الأدب، ح/٥٢٦٧، وابن ماجة، ك/الصيد، ح/٣٢٢٤، وأحمد، ١/٣٣٢، ٣٤٧، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند، ح/٣٠٦٧.

(٩) أخرجه مسلم، ك/ السلام، ب/٣٩، وابن ماجة.

قال الملك: ولك بمثل»[1]، ويحب له ما يحب لنفسه: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2]، ويؤازره: عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ، قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه[3]، ويرد عن عرضه: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[4]، وينصره ولا يخذله: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله! هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ فوق يديه»[5]، وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[6].

علاقة ممتدة حتى الخلود:

ولا يمنع المسلمَ عجزُهُ عن نصرة دينه وإخوانه، بل لا تنقطع هذه العلاقة حتى بالموت؛ فالمسلم يهتم لنصرة دينه حتى إنه يكترث لذلك بعد موته، هل رأيتم من يجاهد بجثته؟!: غزا أبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - الروم فمرض، فلما حُضِر قال: «أنا إذا مت فاحملوني، فإذا صافعتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم، وسأحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لولا حالي هذا ما حدثتكموه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»[7]، فأبو أيوب - رضي الله عنه - يذكِّر نفسه بما ينبغي أن يموت عليه، ويذكِّر أصحابه بالرسالة التي لأجلها خرجوا (التوحيد ونبذ الشرك)، ويضرب أروع مثال للفداء والتضحية من أجل هذه الرسالة، وهو الحرص على إبلاغ الرسالة وعلى امتداد جهاده بعد موته، وذلك بتكريس إسلامية أرض فتحها المسلمون، بدفنه فيها، وإضافة سبب يحفز أصحابه على التقدم وعدم التقهقر عن أبعد نقطة وصلوا إليها، وذلك حفظاً لحرمة الميت.

وتمتد علاقة المسلم بدينه وإخوانه: عند الموت: يودع الدنيا بإعلان التوحيد كما دخلها: «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله»[8]، ويُبرز المسلمون الخير عند أخيهم المحتضَر، وتشاركهم الملائكة: عن أم سلمة - رضي الله عنها -؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض، أو الميت، فقولوا خيراً؛ فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون»[9].

وتمتد العلاقة بعد الموت: فالمسلمون يصلون عليه ولو كان بعيداً غائباً ولو لم يروه؛ فعن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخاً لكم قد مات، فقوموا فصلوا عليه» يعني النجاشي[10].

ورغم أن دفن الميت يكفي في القيام به نفر قليل، إلا أن إخوانه المسلمين لا يتركونه بعد موته يذهب وحيداً

---

(1) أخرجه مسلم، ك/الذكر، ب/٢٣.

(2) أخرجه البخاري، ك/ الإيمان، ب/٧، ومسلم، عن أنس بن مالك.

(3) أخرجه البخاري، ك/ المظالم، ب/٥، ومسلم.

(4) أخرجه الترمذي، أبواب البر والصلة، ح/ ١٩٣١، وأحمد بن حنبل، ٦/٤٤٩، عن أبي الدرداء، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي، ح/١٥٧٥.

(5) أخرجه البخاري، ك/ المظالم، ب/٤، ومسلم، عن أنس بن مالك.

(6) أخرجه البخاري، ك/ المظالم، ب/٣، ومسلم.

(7) أخرجه الإمام أحمد، ٥/٤١٩، ٤١٦، وصححه حمزة أحمد الزين، ح/٢٣٤٥٠.

(8) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، ك/ الجنائز، ب/١.

(9) أخرجه مسلم، ك/الجنائز، ب/٢.

(10) أخرجه مسلم، ك/الجنائز، ب/٢٢، والبخاري، ك/مناقب الأنصار، ب/٣٨.

إلى أول منازل الآخرة، بل يشيعونه إلى قبره كما يشيع الضيف العزيز الراحل: «حق المسلم على المسلم ست: ... وإذا مات فاتبعه..»(١).

والمسلم لا يُدفن للتخلص من جثته، بل هو يعود مرحلياً إلى الأصل الذي خرج منه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، وهو في هذا العَوْد مرتبط أيضاً بدينه وإخوانه؛ فهو ينزل إلى القبر تحت شعار «بسم الله وبالله وعلى سنة - وفي رواية: ملة - رسول الله»(٢)، ويدفن متوجهاً إلى القبلة؛ ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال عن البيت الحرام: «قبلتكم أحياءً وأمواتاً»(٣)، كما أنه ينحاز إلى إخوانه المسلمين الأموات، فلا يدفن في مقابر غيرهم، وفي المقابل: لا يُدفن غير مسلم في مقابر المسلمين(٤). وبعد الدفن يقف المسلمون عند قبر أخيهم يسألون له التثبيت: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل»(٥)، والمسلم إذا مر على مقابر إخوانه المسلمين سلَّم عليهم ودعا لهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»(٦)، أما إذا مر بقبر كافر فالأمر يختلف؛ ففي حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ قال لأعرابي: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار»(٧).

ولا تقف العلاقة عند هذا الحد، بل تمتد حتى لما بعد البعث؛ فيوم القيامة يحشر الناس بحسب متابعتهم ومشابهتهم الإيمانية في الدنيا: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٤]، وهنا يبرز مآل المشاعر والعلاقات بين الناس: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ولا شك أن ذلك أثر لما كان في الدنيا: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت»(٨).

وعند الجزاء يكون كل فرد مع مجموعته أيضاً: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

وتستمر مشاعر الأخوة وعلاقاتها حتى بعد المستقر في الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، بينما في النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

مشاعر موحدة تجاه كل شيء، وعلاقات ممتدة من قبل الميلاد حتى بعد الوفاة. فمن غير المؤمن التقي له تلك المنظومة؟! ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) أخرجه مسلم، ك/ السلام، ب/٣، والبخاري، ك/الجنائز، ب/٢.

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عمر، ك/ الجنائز، ح/١٠٤٦، وابن ماجة، ك/ الجنائز، ح/ ١٥٥٠، وأحمد، وصححه الألباني في إرواء الغليل، ح/ ٧٤٧.

(٣) أخرجه أبو داود، ك/الوصايا، ح/٢٨٧٥، وحسنه الألباني في إرواء الغليل، ح/٦٩٠.

(٤) للاستدلال على ذلك انظر: أحكام الجنائز للألباني، ص/١٧٢، م/٨٨.

(٥) أخرجه أبو داود، ك/ الجنائز، ح/ ٣٢٢١، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود، ح/ ٢٧٥٨.

(٦) أخرجه مسلم، ك/ الجنائز، ب/٣٥، وفي رواية زهير بن حرب، ح/ ٩٧٥.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير، ح/٣٢٦، وابن ماجة، ك/ الجنائز، ح/ ١٥٧٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح/١٨.

(٨) أخرجه الترمذي، أبواب الزهد، ح/٢٣٨٦، وأبو داود، ك/ الأدب، ح/٥١٢٧، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي، ح/ ١٩٤٤.



اغتيال الموهوبين

هدى سلطان

سهلٌ جداً أن نرى جيلاً جديداً من محبي الأدب والكتابة يتنافسون من أجل الظهور بشكل مميز ومختلف، ولكن القلة هم الذين يستمرون ويبدعون، وهؤلاء هم الذين نسميهم بالصفوة أو المبدعين. الحقيقة أن المبدع يستطيع أن يكتب، لكن ليس كأي أحد، وهذا ما يجعله مختلفاً عن غيره. والإبداع هو أن يصل المبدع إلى شيءٍ لم يصل إليه غيره، ويحقق شيئاً لم يحققه الآخرون، ويبدع أسلوباً آخر يحبه الناس المتابعون. هبة من الله هذا المبدع وإبداعه؛ لكن هل كل مبدع يستطيع إبراز فنونه وإبداعاته؟

قلة قليلة هم الذين كتب الله لهم الحياة والظهور على السطح ليراهم الناس، والكثير من المبدعين من الجنسين دفنت الظروف إبداعهم، وحجبت المصالح فنونهم، والإبداع يُحارَب على مر السنين، وهو يُحارب إما من طبقة المتخلفين الجاهلين الذين لا يعرفون قيمة العلم والإبداع، ولا يؤمنون بأهمية التطور والتقدم، ما يهمهم هو الحفاظ على العادات والتقاليد القبلية البالية التي بسببها تم اغتيال العديد من المواهب المبدعة في مهدها، مما كان من الممكن أن تضيف شيئاً للبشرية.

وسلطة العادات لدى بعض البشر أقوى وأعظم من سلطة الدين.

إن الإسلام حارب الجهل والعصبية والتخلف، ومع ذلك نرى الكثير يعيش في عالم آخر، عالم حجري كأنه لا يحس ولا يشعر! كما هو في حسد الحاسدين الذين يغيظهم نبوغ أحد، أو ما يفعله آخرون من استغلال الفقر وضيق الحال أن يلجئوا مبدعاً أو عالماً أن يبيع كتاباته وفنون أدبه وأشعاره الحزينة لِغنيٍّ خالٍ من الموهبة، لينال شهرة عظيمة في المجتمع؛ إذ جَمَعَ النار والماء، جمع المال

خاطرة أدبية

والإبداع حين استولى على إبداع وموهبةٍ كان نصيبها من الحياة أن صاحبها فقير، وذلك يكفي لأن يكون الموت نصيبها أو نصيب هذا الجسد الذي تحيا فيه.. فهل ثمة عقاب لمثل هؤلاء المعتدين؟! للأسف هذا حال كثير من المبدعين في هذا الوطن العربي الكبير، بينما لا نرى اضطهاداً كهذا للمبدعين في بلاد الغرب وهم الكافرون الضالون الذين يعملون المستحيل من أجل اكتشاف المبدعين الصغار من المراهقين والشباب، وتتنافس المؤسسات من أجل كسبهم والنهوض بهم، بينما المبدعون العرب لم نسمع بهم إلا بعد هجرتهم إلى بلاد الغرب؛ حيث وجدوا هناك ما ساعدهم على العيش والحياة والاستمرار في الإبداع بشكل متميز. وأكبر دليل على ذلك عالم الفضاء الدكتور فاروق الباز، وغيره من الأطباء والأدباء والمفكرين الذين دفعتهم ظروفهم الاجتماعية وعسرَها في بلادهم للهجرة؛ لأن السواد الأعظم من مبدعي العرب في الغرب دافعهم الأول للهجرة التقليل من شأن إبداعهم في وطنهم، والتضييق عليهم في رزقهم، وعدم توفير الفرص والتشجيع للاستمرار الإبداعي لديهم، وهذا هو الظلم للنفس المبدعة التي أكرمها الله من دون النفوس البشرية الأخرى بالنبوغ والتحليق فوق البشر بشيء فريد لا يصل إليه غيرها؛ لأنه في داخل هذه النفس البشرية المبدعة الخيرة التي تسخِّر إبداعها من أجل خير البشرية والإنسانية.

ومن هنا أطالب بتقديم العون لكل مبدع في الوطن العربي الكبير بتهيئة الإمكانات وتقديم المنح والجوائز والفرص لمزيد من الإبداع ليس في مجال دون مجال، ويجب فتح مؤسسات متخصصة لرعاية الموهوبين والمبدعين، ويجب معاقبة كل من يحاول قتل موهبة أي مبدع، أو التقليل من شأنه، أو استغلال فقره وشراء إبداعه، أو محاولة كتم صوته سواء في الإعلام أو غيره، وهذه المؤسسات مطلب مهم للعناية بهذه البذرة الإبداعية؛ لأن الموهبة لا تستطيع أن تعيش بدون اهتمام وبدون صقل لها، سواء بالدراسة العالية أو تحقيق الأمن المعيشي لها وتوفير الجو الاجتماعي المثالي الذي يعين هذا الموهوب على الحياة الجديدة، فيحيا بحياته في مجتمع يسعد بمثل هؤلاء المبدعين الذين يثرونه ويزيدون في موارده ويرفعون اسمه ويساهمون في نهضته ورفعته.

وقد نرى خلال السنين القادمة مبدعين يتكررون من جديد، وربما يبدعون أفضل من سابقيهم؛ فمن الممكن أن يظهر لدينا علماء يضاهون ابن تيمية وابن خلدون، وقادة وساسة ربما يضاهون عمر بن عبد العزيز، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان قطز وغيرهم كثير؛ وهذا ليس بمستحيل، والأمل بالله - تعالى - كبير وما ذلك على الله بعزيز.



شكوى الجهاد

عبدالعزيز التميمي

ردد حديثاً بشجو النفس يضطرم ... يشكو لظاه عبادُ الله والحرمُ
بشر صحابك والأيام قادمة ... أن الجهاد على الأبواب يحتدمُ
نم يا حبيب! قرير العين مبتهجاً ... إن الضياغم للأخطار تقتحمُ
أما فهمت من التاريخ موعظة ... وفي العقيدة نهج ليس ينخرمُ:
إن الشعوب وإن هيضت كرامتها ... يوماً على جحفل الأعداء تلتئمُ؟
هلاً سمعت نداءاً للجهاد على الـ ... آفاق ردد: إن الله منتقمُ؟
الله أكبر في ساح الوغى رفعت ... راياتنا وإلى الرحمن نحتكمُ
سِرْ واثق الخطو مسروراً بيقظتنا ... هناك أُسْدٌ بحبل الله تعتصمُ
هذي الخيول استشاطت في مرابطها ... وذي الجنود بأرض الشام تلتحمُ
ها قد تنادوا لحرب الدين قاطبة ... حتام يحجم جند الله؟ ويحهمُ!
جند الصليبية الرعناء يدعمهم ... مكر الشيوعية الحمراء ينحطمُ
فارفع لواءاً لحرب الكفر نعهده ... واحمل لواءاً لأهل الدين كلهمُ
فإن قُتِلتَ فذاك المجد من طرف ... وإن نُصِرتَ ففضل الله والكرمُ



اخفض جناحك

تحية وتقدير لصقور الشيشان

إبراهيم بن فهد المشيقح

اخفض جناحك؛ إنهم أحرارُ ... لا يحرق الإلحادَ إلا النارُ

النار.. لا السلم الجبان، فطفلهم ... منذ المهاد وعشقه البتّارُ

اخفض جناحك؛ إنهم لم يصرخوا ... يا مجلس الأمن! اعتدى الفجّارُ

لكنهم رفعوا (أعدّوا) فانطوى ... تحت اللواء أشاوسٌ أبرارُ

اخفض جناحك؛ شوكة الشيشان لم ... تُكسر، وإن حفّت بها الأخطارُ

عجباً.. لساني كيف يكْذِب مسمعي ... بل كيف تخدع قومنا الأخبارُ؟

قالوا: تهاوت قلعة الشيشان، إن الـ ... ـقول زورٌ، صاغه مكّارُ

هبّت رياح العزّ فوق جبالها ... وسهولها شمخت بها الأشجارُ

هبّ الشباب (الملتحون) فديتهم ... ما فيهمُ متقاعسٌ خوّارُ

يا فتية الشيشان! كل قصائدي ... خجلى، وكل مشاعري إكبارُ

من عين (دوداييف) صُغْتُ قصائدي ... جمراً.. ومن (أصلان) طار شرارُ

اخفض جناح الكبر؛ ليل جباههم ... يبكي وتشهد دمعَه الأسحارُ

اخفض جناح الكبر؛ ليل جهادهم ... يزهو وتشهد زهوه الأقمارُ

تلك الجبال الشمُّ تعرف أهلها ... لا ينثنون؛ فعزمهم جبّارُ

تترقب الأبواق رقصة موتهم ... ليزفها في أذننا المزمارُ

الروس فوق رؤوسهم، ووراءهم ... حقد الصليب، وجهدنا الإنكارُ

هذي دماء الأبرياء على الثرى ... تحكي بشاعة ما جنى الجزّارُ

الأرض ثكلى والجراح عميقةٌ ... والدمع ذابت تحته الأحجارُ

والصمتُ يجتاح البيان على الذرى ... والمدفع الرشاش فيه سُعارُ

والروس تحفر قبرها بشمالها ... وغداً.. سيكسرُ كأسَه الخمّارُ



ندوة عن:

مستقبل الصحوة الإسلامية

مرت عدة عقود من عمر الصحوة الإسلامية، وبعد هذه المسيرة، تحتاج الصحوة أثناء سيرها في طريق الحق إلى وقفات معها لنحدد حجم الإنجازات وأسبابها، والإخفاقات وعللها، ولكي تجدد النظر في الأساليب والطرق التي سلكتها، وإيماناً من (البيان) بواجبها تجاه هذه الصحوة تأتي هذه الندوة إضاءة على الطريق.

المشاركون:

- د. مانع بن حماد الجهني، أمين عام الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
- د. محمد بن لطفي الصباغ، أستاذ في كلية الآداب، جامعة الملك سعود ـ الرياض.
- د. جلال الدين محمد صالح، المشرف العلمي في كلية لندن المفتوحة ـ بريطانيا.

المحور الأول: حول مدلول كلمة الصحوة:

البيان: برز هذا المصطلح (الصحوة) في بداية التسعينيات الهجرية من القرن الماضي الذي يتوافق مع السبعينيات الميلادية للقرن العشرين، ومعروف أن أحوال المسلمين وقتها على المستوى الخاص والعام كانت أشبه بـ (غفوة)، إن لم نقل: في سبات أو غيبوبة ـ على المستوى العام ـ.

وقد كان مناسباً أن يطلق على حالة الانتباه والانتعاش من ذلك النوم وصف (الصحوة)، أما الآن وقد جاوزت (الصحوة) عدة عقود من التجارب المتواصلة التي أوصلت في بعض صورها إلى (دولة)، فهل لا يزال ذلك المصطلح مناسباً، أم نحن في حاجة إلى تعبير يترجم عن الحالة الراهنة لوضع المسلمين في العالم؟

د. مانع بن حماد الجهني: أمهد للموضوع بنبذة موجزة لا بد منها: الصحوة كما جاء في مجمل أقوال أهل اللغة: ذهاب الغيم وارتفاع النهار وترك الباطل، وتطلق ـ بوصفها مصطلحاً ـ على العَوْد الحميد إلى الإسلام الصحيح، والسعي الحثيث من قِبَل المسلمين لاكتشاف هويتهم من مَصْدَرَيْ هدايتهم وهما: القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة.

والصحوة الإسلامية - بمفاهيمها اللغوية والاصطلاحية - حدث تكرر في تاريخنا الإسلامي: بعد هجوم التتار على العالم الإسلامي، وبعد الحروب الصليبية التي استمرت عدة قرون، وبعد الهجمة الاستعمارية الحديثة. وكانت الصحوة في كل مرة - في السابق - تظهر على شكل زخم جهادي يؤدي دوره في إخراج الأمة من محنتها ثم لا يلبث المسلمون بعدها أن يفتروا ويبتعدوا عن دينهم إلى أن تحل بهم محنة توقظهم من سباتهم وغفلتهم مرة أخرى.

والصحوة المباركة التي نشهدها هي أهم وأعظم حركة فكرية للمسلمين خلال القرن العشرين الميلادي بأكمله؛ لما اتسمت به من سمات مميزة عن سائر الحركات الأخرى التي شهدها القرن المذكور؛ إذ امتزجت فيها الأصالة مع التجديد، والإحياء والنهوض والشمول مع الانتشار الجماهيري الواسع المنقطع النظير. وجميع تلك الخطا المباركة الحثيثة حدثت مع شدة النكير عليها وعلى روادها وحاملي رايتها والسائرين في دروبها من اضطهاد وضغوط.

وقد جاءت الصحوة التي نشهدها بعد فترة طويلة من التخلف والانحطاط حفلت بالافتتان بالأنموذج الغربي في الفكر والسلوك إثر تقدم الغرب في المجالات العلمية والتقنية وهيمنته - بسبب ذلك - على المسلمين وأشباههم من الأمم المتخلفة علمياً وصناعياً. جاءت الصحوة لتقول بوضوح: إن سبب تخلف المسلمين وضعفهم وهوانهم ليس بسبب الإسلام كما يقول ذوو العقول الفارغة والأفكار السفيهة، إنما هو بسبب البعد عن الإسلام عقيدة وفكراً ومنهجاً وسلوكاً، وإن السبيل للنهوض والتقدم واستعادة مكانتنا بين الأمم هو العودة للإسلام.

وقد حققت الصحوة المباركة - على رغم عمرها الزمني القصير بمقياس التاريخ - إنجازات مشهودة ملأت الرحب بما أثمرت من: تضامن وتواصل وجهاد، ومساجد ومدارس إسلامية ودعاة، ولقاءات وبحوث، وحجاب والتزام، ووعي فكري وانتشار علمي فقهي. وجميع ما ذكرت وما لم أذكر من مظاهر وإنجازات الصحوة الحالية يسعى ويتعاضد في منظومة متناسقة ليؤدي دوره في تحقيق غاية رئيسة هي: النهوض بالأمة الإسلامية واستعادتها مكانتها؛ فتكون أمة معتبرة بين سائر الأمم.

وإنني أتساءل: هل حققت صحوتنا تلك الغاية أو اقتربت بنا منها؟ أم لا يزال أمامنا مراحل بعضها صعب بيِّن وبعضها خفي؟ نسأل الله - تعالى - السلامة.

الحقيقة أنني لا أجحد أبداً إنجازات صحوتنا التي شرفتُ مع المعاصرين بشهود مولدها وتناميها، ولديَّ قناعة تامة بأن صحوتنا - في خطاها الواثقة - تنتقل من نصر إلى نصر، وتعالج ذاتياً، وتصحح الأخطاء التي تقع فيها؛ فالصحوة - بفضل الله تعالى ومَنِّه - رشيدة وخطاها سديدة وناجحة وموفقة. إلا أن ذلك لا يغني عن تساؤلنا الذي أوردناه: هل هذه المرحلة التي نشهدها اليوم هي آخر مراحل الكمال المبتغاة؟ وبصيغة أخرى: هل حققت لنا صحوتنا الغايات المرجوة منها كاملة؟ بصراحة أقول: لا؛ فالطريق لا يزال طويلاً، والغايات لم تكتمل بعد، والتحديات والعقبات - التي نستطيع استقراءها - ليست بالأمر اليسير الذي يجعلنا نجزم بالنجاح.

لذا فأنا مع تفاؤلي الكامل بالنجاح وبأن الله - تعالى - الذي وفقنا لهدايته وأعاننا على مواصلة المسير ثلاثين عاماً سوف يوفقنا للاستمرار والنجاح لتحقيق الغاية المنشودة، مع ذلك فإنني مقتنع تماماً بأن الصحوة لا يزال أمامها مراحل من العمل الجاد لإحياء موات القلوب الذي هيمن على الأمة مع الغفلة والجهل أحقاباً طويلة.

فالمسلمون الذين يتعدى تعدادهم المليار وربع المليار نسمة لا يزالون يُمتحنون بشتى صروف الابتلاء التي لا تخفى على أحد، بدءاً بالتضييق والاضطهاد والتهميش، وانتهاءً بالتصفية الكاملة والإبادة الجماعية، كما أنهم لا يزالون يعانون من وطأة الفقر والتخلف والمرض والجهل، وعلى رغم التقدم والرخاء النسبيين اللذين تعيشهما بعض الدول إلا أن الغالبية الإسلامية لا تزال تعيش تحت خط الفقر.

كذلك فإن الكثير من المجتمعات الإسلامية ـ خاصة في الغرب ـ تعاني من أمية إسلامية متفاوتة الدرجات، على رغم العناية الكبرى والمطردة بتوظيف الدعاة وعلى رغم البرامج الدعوية المتعددة والمتنوعة، أضف إلى ذلك ما نواجهه اليوم من تحديات صعبة وخطيرة يأتي في مقدمتها فكر العولمة الذي يدعمه ويسهر على نشره النظام العالمي الجديد. أكرر وأؤكد أن ما أقوله ليس جحوداً بما حققته الصحوة من إنجازات طيبة مباركة تفوق في حجمها ومداها الحيز الزمني الذي استغرقته إلى الآن، ولكن هذا الواقع يجعلنا نحبذ أن يظل هذا المسمى المبارك الذي أرجو أن يحقق لنا فائدة مقدرة؛ فالواضح جيداً أن الغرب يرقب بجدية وحرص وحذر خطا الصحوة ومجالاتها، وأعداء الإسلام دأبوا منذ فترة على تصويره كشبح مخيف يهدد كيان الغرب والتصريح باعتبار الإسلام العدو الحالي بعد سقوط الشيوعية.

ولا شك أن اتخاذ شعار يصور الوضع المتنامي للصحوة وآثارها يعني فتح باب لمزيد من الهجوم على الإسلام، وإتاحة الفرصة لخصومه لترديد المنغومة التي يضربون على أوتارها ليل نهار والتي تحذر من ظهور الإسلام وتزايد قوته. لذا أرى أن الكسب المعنوي الذي قد يتحقق من تعديل مسمى الصحوة إلى مسمى آخر مثل النهضة أو القوة أو المد، قد يكون أقل بكثير من الخطر الذي سوف يثار من قِبَل أعداء الإسلام والجاهلين بتعاليمه إذا ما أعرب المسلمون وصرحوا عن تعديهم مرحلة الانتباه من الغفلة إلى مرحلة إمساك زمام الأمور والتصدي للأعداء وفرض السيادة واستعادة المكانة، وأرجو أن يكون ذلك من الفطنة التي حثنا الإسلام على التحلي بها. هذا بالإضافة إلى أن مفهوم الصحوة يبقى سائغ الدلالة على من لم تكتمل صحوته ويكتشف جمال الإسلام وكماله ويعود إلى النبع الصافي والتوجيه القويم الذي يقدمه هذا الدين لأبنائه في كل مكان. وبهذا فسوف يستمر مفهوم الصحوة يتكرر في كل زمان ومكان في أولئك الذين ناموا عن ركب الالتزام ثم اكتشفوا قيمة ما فاتهم من الخير، فأخذوا يغذُّون السير للَّحاق بركب المستقيمين والسائرين على درب الصلاح.

البيان: لا شك أن الصحوة مرت بمراحل وتقلبات فكرية ومنهجية، فهل أخذت (الصحوة العلمية) دورها؟ وما السبيل لترسيخ ذلك؟

د. جلال الدين صالح: «الصحوة» اصطلاح تعارف الناس على إطلاقه وصفاً لحالات الإفاقة والتوبة التي عمت جموعاً كبيرة من المغتربين عن وعي الإسلام، ودفعت بهم إلى الإقبال على تجديد الدين في الأنفس والمجتمعات.

وبدت مظاهرها في كثير من المناشط الحياتية في السياسة، والاقتصاد، والثقافة... وهلم جرّاً، وكاد لها الأعداء من كل منعطف، وترصَّدوها من كل مرصد فزعاً وهلعاً مما سيؤول إليه أمرها من تمكين الدين، وبسط سلطانه فاستفزوها في مواطن كثيرة، واستثاروها في أزمنة عديدة ابتغاء شرٍّ بها، فقابلتهم بالإعراض والصفح تارة، والمواجهة والمجابهة تارة أخرى، ولكن دون الاعتبار بمآلات الأمور، وتحديد الأولويات ثم ترتيبها وفقاً لمقتضيات المحيط المكاني والزماني وقدرات الذات؛ فأصابها من ذلك أذى كثير، وفقدت مواقع كانت لها دِفْئاً ورِفْداً، ولا أعرف لهذا من سبب رئيس سوى ضمورٍ في فقه علوم الشريعة، وقصور في فقه الواقع وتحدياته؛ فالدين وإن كان من حيث عموم رسالته حقيقة عالمية لا تحده الحدود، ولا تحول دونه الفواصل إلا أنه من حيث تحقيقه في موقع مّا محكوم بمؤثرات سياسية وقدرات ذاتية؛ ومن ثم كان في تشريعاته رفع الحرج، وإرادة اليسر والإتيان منه بالمستطاع. غير أن غياب الصحوة العلمية في ترشيد الصحوة الإسلامية غيَّب الكثير من مثل هذه المفاهيم، وخلط ثوابت الأمور بمتغيراتها بسننها وفرائضها، ومكّن الرويبضة من أن يتحدث في أمور العامة دون أثارة من علم، وصارت الصدارة أحياناً للمتفيهقين والمتشدقين من الذين يحملون الناس على فتاوى شاذة وغريبة، غاية ما تؤدي إليه الإدبار عن الدين، والنفور عن المسلمين، من نحو إباحة

سرقة أموال غير المسلمين في ديار الكفر، أو قتل صبيان من يقاتلونهم من عسكر حكومات ديار الإسلام، مع تنطع وغلو في التكفير أو التفسيق أو التبديع.

وبروز هذه الاتجاهات الفوضوية في ساحة العمل الإسلامي ما كان قاصراً على فترة دون أخرى، ولكنه ظاهرة متعاقبة يلحظها كل من يتعقبها في مسيرة الصحوة الإسلامية، وقُصَارَى ما تدل عليه خلل في التكوين العلمي عند عدد لا يستهان به من السائرين على درب الصحوة ممن تدفع بهم الظروف إلى تصدُّر الصفوف، وليس من سبيل إلا المسارعة بالمعالجة العلمية، حتى يتبوأ مقاعد القادة في ميدان العمل الدعوي أناس ينفون عن هذا الدين ـ كما يقول الإمام أحمد ـ: «تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتاويل الجاهلين»، وإلا اتخذ الناس رؤساء جهالاً كما ورد في الحديث فافتوهم بغير علم فضلوا، وأضلوا.

والصحوة الإسلامية في تركيبتها تضم حشداً غير قليل ممن قلَّ كسبهم وضَؤُل حظهم من العلم الشرعي من خريجي العلوم المعملية؛ مما يؤكد أهمية ترسيخ العلم الشرعي في أوساطها، وأحسب أن ذلك يتحقق من خلال الأخذ بما يلي:

الأول: الإيمان بضرورة تنامي الصحوة وتعاظمها باعتباره شرطاً مهماً في النهوض بالمجتمعات الإسلامية واستعادة مجدها التليد، والاعتقاد بأن ذلك لا يكون إلا بما صلح به الأولون من تقديس النص المعصوم وإدراك مقاصده على ضوء أصول العلم الشرعي.

الثاني: تحليل عوامل الضعف والقوة في الصحوة الإسلامية، ودراسة مآثرها ومواقفها الدعوية في شتى ميادين عطاءاتها دراسة فاحصة، وناقدة ليتبين ما إذا كانت تلك المواقف على وفاق مع دلالة النص أم على شقاق؛ وذلك من خلال ندوات تأصيلية، ولجان علمية، وأطروحات جامعية تطبع في خاتمة المطاف وتعمم توزيعاً على قيادات مراكز العمل الإسلامي وجماعاته، وتسجل ملخصاتها في أشرطة سمعية يحوزها من لا وقت له للقراءة من الشباب.

الثالث: تبني العلماء العاملين لهموم الصحوة وتصدُّر قافلتها في بيان الموقف الشرعي من كل غاشية تغشى المجتمعات الإسلامية، ونازلة تنزل بمنازلهم، لا يمنعهم في بيان قول الحق فيها جهراً الخوفُ من مقامع سلطان جائر، ولا الطمع في مغانمه؛ فإن هذا ـ كما أحسب ـ ينفي لا محالة العملة الزائفة، وبه يميز الشباب الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويجعل أفئدتهم تلين لقيادة العلماء، وتوثق صلاتها بهم، وتتعمق فيها مكانة العلم وتوقير أهله، وبهذا الترابط تكون الصحوة الإسلامية جمعت بين البصيرة في الدين والقوة في الدعوة.

وما أحسن ما قاله ابن القيم في ذلك: «ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين، والقوة على الدعوة؛ فبالبصائر يُدرَك الحق ويُعرف، وبالقوة يُتمكَّن من تبليغه، وتنفيذه، والدعوة إليه»(١).

الرابع: إنشاء مؤسسات علمية ذات مناهج تقوم على ربط خطاب الشارع بحقيقة خطاب الواقع، وتجعل من التاصيل الشرعي هدفها الأول في تغذية الداعية وتكوينه حتى يتمكن من تقييم وتقويم المسيرة الدعوية على بصيرة من الله مستصحباً خصائص بيئته بكل ما يكتنفها من مظاهر الخير، وعوارض الشر.

---

(١) الوابل الصيب، ص ١٢٩.

الخامس: بعث رسالة المسجد من مرقدها بتدريس العلوم الشرعية في ساحته، ووضع محفزات تجعل من الورود إلى مناهل العلم فيه عملاً مرغوباً، ولعل من المناسب هنا أن أشير إلى أهمية إعطاء مناهج هذه الحلقات حقها من الاعتناء والاختيار حسب البيئات ومستوى أفهام الناس، وأولويات الاحتياج الدعوي حتى تأتي مُصاغة على نحو يفي بالمطلوب، ولا يؤدي إلى السآمة والملل والعزوف؛ فما أنجح الداعية حين يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويصطفي لهم من العلم على قدر حاجتهم! كما لا بد من التنويه هنا باهمية منبر الجمعة بوصفه أحد وسائل ترسيخ العلم في معالجة كافة القضايا معالجة تأصيلية بعيدة عن التعقيد، وليس معالجة حماسية لا تكاد تجيد غير إثارة العاطفة، وتهيجها.

المحور الثاني: تقويم الصحوة خلال ثلاثة عقود:

البيان: لا شك أن وجهات النظر اختلفت جداً في تقويم أداء الصحوة من خلال الفترة الماضية؛ فبين رأي متفائل مبالغ في جعل الآمال عليها، إلى رأي متشائم يهوّن من شأن النتائج والثمرات الفعلية لها، فأين الرأي الوسيط في تقويم هذه الصحوة؟ ولعلنا نسوق السؤال لفضيلة الدكتورمحمد الصباغ بصيغة أخرى: ما أبرز إيجابيات الصحوة سلبياتها؟

د. محمد لطفي الصباغ: إني من المتفائلين بمستقبل هذه الصحوة التي يعود الفضل في قيامها إلى الله ـ سبحانه ـ الذي هيّأ الأسباب العديدة لقيامها: من اشتداد كيد الكفار للمسلمين، ومن التنكيل بهم وبرجالاتهم، ومن الاستيلاء على بلادهم واستغلال خيراتهم وسحق أبنائهم، وتسميم أفكارهم، ومحاولة سلخهم عن دينهم، وتسليم الحكم في كل البلاد التي استعمروها إلى حفنة من عملائهم الذين يتابعون عملهم في محاربة الإسلام، ويسيرون وفق مخططاتهم الرهيبة. إن هذه الأسباب وغيرها كانت من أسباب قيام هذه الصحوة التي عمت كل بقعة فيها مسلمون.

ومما يؤيد تفاؤلي هذا الوقائع الآتية:

– إنّ سبعين سنة من الحكم الشيوعي الملحد في البلاد الإسلامية التي استعمرها الروس فيما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي لم تستطع أن تمحو الإسلام من تلك البلاد كما كان يظن أولئك الطواغيت الذين قتّلوا الملايين، وسجنوا الملايين، ونفوا وشرّدوا؛ وها نحن أولاء نسمع أبناء اليقظة الإسلامية في تلك البلاد.. وهي تتطلع إلى أن ترى الإسلام مطبقاً في ديارها، ولا ترى منقذاً لها سواه.

– وكذلك فإن سبعين سنة من الحكم الديكتاتوري الذي قام على الحديد والنار في تركيا بعد إلغاء الخلافة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة، وإعلان الحكم اللاديني، ومنع الحجاب، وتغيير الحرف العربي واعتماد الحرف اللاتيني، وجعل الأذان بالتركية، وجعل العطلة يوم الأحد، ومنع التعليم الديني، وقتل المعارضين وإبادتهم دون رحمة.. بعد سبعين سنة من هذا الظلم والعدوان وسفك الدماء نجد الشعب التركي المسلم يعلن ولاءه للإسلام ولكل من يتبنّى الإسلام.. ونجد الأذان يعود بالعربية ويعود الحجاب.. ويقوم التعليم الديني.

ولم يُلْقِ العلمانيون ـ أعداء الإسلام من المتسلطين هناك ـ السلاح، بل هم ماضون في متابعة حرب الإسلام، ومضايقة المتدينين، ولكنهم يشعرون الآن أن حجم المعارضة لهم في نمو وازدياد.. والعاقبة للمتقين.

– منذ حوالي ستين سنة ذهب بعض الطلاب من الشام للدراسة في بلد عربي كبير، ولما رجعوا إلى بلادهم قال قائل منهم: إن موضوع حجاب المرأة في ذاك البلد قد انتهى، ولا أمل في أن يعود، ولا يتوقع أحد من الناس أن تعود المرأة إلى الحجاب في ذاك البلد.. وقام في ذلك البلد حكم معاد للمتدين، ولاحق حكامه كل من يتبنى الإسلام ويدعو له، ونادى حكامه بالاشتراكية وعملوا على تطبيقها... ثم ماذا كان بعد هذا؟

لقد دارت الأيام.. وإذا بالحجاب يعود بقدرة الله.. لقد عاد هذه المرة عن اقتناع بوجوبه، ودخلت الجامعاتِ المحجباتُ معتزاتٍ بهذا الزي، وقد تكون بعض أمهاتهن سافرات حاسرات.

– وتُحدثنا الأنباء أنّه عندما يتاح للشعوب في بلاد المسلمين أن تعبّر عن رأيها فإنها لا تختار إلا الإسلام والمسلمين، والأمثلة على ذلك كثيرة في الجزائر والأردن ومصر وغيرها؛ سواء في ذلك المجالس النيابية أو البلدية أو نقابات الأطباء والمهندسين والمحامين والمعلمين.

هذه وقائع وغيرها كثير لا يمكن أن ينكرها أحد، وقد تحققت هذه الوقائع في أوساط محكومة باتجاهات غير ملتزمة بالإسلام، وبعضها معادٍ للإسلام كما بينًا. إن مناهج التعليم في تلك البلاد ووسائل الإعلام كلها كانت تعمل خلال تلك السنين الطويلة لإبعاد الناس عن الدين، ومع كل ذلك كان وكان.

أفليس هذا كافياً ليجعل تفاؤل المتفائل في محله؟

وهناك أمر آخر يجعلني أرجو أن يحقق الله التمكين لتلك الصحوة؛ ذلك أن الله ـ تبارك وتعالى ـ تكفل بحفظ هذا الدين متمثلاً بالكتاب الكريم، ولم يكل حفظه إلى الناس. وحفظه يقتضي وجود بشر كرام يُحيونه ويُحكّمونه ويجعلونه مرجعهم قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] .

أجل.. تولى الله ـ سبحانه ـ حفظه، ولم يكله إلى الناس يحفظونه كما فعل ـ سبحانه ـ بالكتب السابقة. قال ـ جلّ وعز ـ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤] .

ويتبيّن مما سبق أن إيجابيات هذه الصحوة:

● أنها رسّخت فكرة ضرورة العودة إلى الإسلام، وأن أمراضنا ومآسينا لا علاج لها إلا بالعودة إلى الدين وتطبيقه والدعوة إليه.

● ومن إيجابياتها انصراف طائفة من الشباب والشابات إلى دراسة هذا الدين دراسة جادة وتعليمه للآخرين؛ فقد بلغني أن عدداً كبيراً من الشباب والشابات حفظوا كتاب الله عن ظهر قلب، وأن عدداً منهم جمع القراءات العشر برواتها العشرين.

وقد بلغني أن عدداً من الفتيات حفظن صحيح البخاري، وصحيح مسلم بأسانيدهما ومتونهما، وهن ماضيات في حفظ الكتب الأخرى.

ولا شك عندي أن العلم بالدين ينتهي بأصحابه وبمن حولهم إلى العمل به لا سيما أن هؤلاء الذين حفظوا وتعلموا إنما فعلوا ذلك رغبة في العمل الصالح وابتغاء الثواب، ولا يرشحهم هذا في بلادهم إلى كسب ماديّ.

● ومن إيجابيات هذه الصحوة الإقبال على العبادة، وارتياد المساجد؛ إذ أصبحنا نرى نسبة الشباب هي الغالبة على مرتادي المساجد.

● ومن إيجابيات هذه الصحوة أنك صرت تلمس أثرها في أخلاق الجيل الناشئ من الاستقامة والصدق والأمانة والوفاء بالوعد وبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن المعاملة والكلمة الطيبة وما إلى ذلك.

● ومن إيجابياتها ازدياد الوعي لواقع المسلمين وإدراك خطر خطط الأعداء التي تستهدف وجودنا وديننا.

السلبيات:

أما السلبيات التي نلمسها في الصحوة فسأذكر أبرزها، وإني لأحسب أن الإخلاص والوعي والزمن.. أن ذلك كله كفيل بأن يتلافى نصيباً كبيراً منها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وأبرز هذه السلبيات:

● أننا نجد عند بعض الشباب والشابات اندفاعاً عاطفياً لسلوك سبيل الإسلام بعيداً عن التعقل والتخطيط والمعرفة ومراعاة مصلحة الدعوة. والعاطفة وحدها لا تكفي؛ إذ هي مُعرَّضة للفتور.

● وتجد بعض هؤلاء الشباب لا يعرفون إلا القدر اليسير من أمور دينهم؛ والحق أن المسؤولية في هذه السلبية تعود إلى هؤلاء الشباب وإلى العلماء الذين قصروا في استغلال تلك الاندفاعة العاطفية، ولم يعملوا على استمالة هؤلاء الشباب إلى المعرفة والازدياد من طلب العلم.

● ومن تلك السلبيات: قيام خلاف مستحكم بين طوائف من شباب الصحوة، وقد شغل هذا الخلاف الشباب عن التصدّي للمنحرفين، فانطلقوا ـ غفر الله لهم ـ ينال بعضهم من بعض.

● ومن تلك السلبيات: وجود غلوّ عند طائفة من شباب الصحوة وشاباتها. وقد حملهم هذا الغلو على تحريم كثير مما أحلّه الله، وسبب ذلك قلة علمهم بأحكام الشرع، وهناك سبب نفسي يرجع إلى ردة الفعل التي تكونت عندهم لِمَا شاهدوا من محادّة الله ورسوله في مجتمعاتهم والانحراف عن جادة الحق والصواب؛ فحملهم هذا وذاك على التشدد والغلوّ والتحريم.

● ومن تلك السلبيات: تعجُّل فريق من هؤلاء الشباب.. تعجل النصر، ومحاولة سلوك سبيل آخر غير الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فكان عاقبة أمر هذه السلبية ضرراً على الدعوة والدعاة.

● ومن تلك السلبيات: أن فريقاً من هؤلاء الشباب الصالحين الفضلاء يحسبون أن أفراد المجتمع كلهم يرون سبيل الإسلام، وينسون أن هناك شريحة من أبناء أمتهم عمل فيها كيد الكفار فأزاغ قلوبها عن الحق وجعلها تنادي بما ينادي به الكفار من محاربة الإسلام. إن هذه الفضيلة أوقعت أصحابها في تصرفات خاطئة ما كان لهم أن يقعوا فيها لو أنهم عرفوا واقعهم على حقيقته.

البيان: كان للأحزاب القومية واليسارية والعلمانية المختلفة في أنحاء البلاد العربية والإسلامية أدوار سياسية متعددة، وأطروحات فكرية متنوعة، للنهوض بالأمة من كبوتها، فكيف تقيّمون تلك الأطروحات؟! وأين تضعون إنجازات الصحوة مقارنة بإنجازات تلك الأحزاب؟

د. مانع الجهني: أمهد للإجابة عن هذا السؤال بتوضيح موجز للسمة الرئيسة والقاسم المشترك الأعظم بين تلك المذاهب والأفكار التي يحاول بعضٌ وضعها بديلاً للإسلام؛ فالملاحظ على منشأ تلك الأيديولوجيات أنه كان بسبب حالة الانحطاط العلمي والفراغ الفكري والروحي التي سادت في الغرب البعيد عن الإيمان قلباً وقالباً؛ وبما أن هدى الله ـ تعالى ـ هو الهدى والحق؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ هذا الفراغ أوجد بيئة مناسبة لمولد تلك الأفكار.

ثم صدّر المنظرون لتلك المناهج أفكارهم في وقت غفل المسلمون عن دينهم، فاستقبلها رسل الشؤم المنتسبون للإسلام والمتسمون بأسمائه، وبذلوا جهدهم لترويجها بين المسلمين الذين كان أغلبهم من الغفلة إلى حد عجزوا فيه عن التمييز بين الصحيح والفاسد، حتى لقد وصل الأمر ببعض المنظرين والمروجين لتلك المناهج أن يقولوا علانية بأن تخلف المسلمين وفقرهم كان بسبب انتمائهم للإسلام، ووصل الأمر بالغافلين والجهلة إلى تصديق تلك المقولة وترديدها.

وتلك كانت من أعظم انتكاساتنا: أن يقال عن ديننا الذي هو عصمة أمرنا: إنه سبب تخلفنا وهواننا.

والنتيجة المنطقية لما سبق هي انحطاط جميع ما تفرع عن هذه المناهج من مفاهيم وأفكار ووسائل وغايات؛ لأن كل ما نما في الباطل وتأسس عليه وتشرب مفاهيمه وسار على نهجه لا يمكن أن يثمر إلا باطلاً؛ ولا يجتمع الحق والباطل مطلقاً، وهذا ما أثبتته التجربة التي هي خير برهان.

وبما أن فاقد الشيء لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه فقد قدم هؤلاء الضُلَّال المضلون أفكاراً غثة عوجاء عرجاء لا تصلح أن تقيم نظاماً أو تعالج تخلفاً أو تصحح مساراً. لقد قدس اليمينيون الحرية والملكية الفردية، وفتحوا الطريق لأن يستغل كل إنسان قدراته في زيادة ثروته وحمايتها وعدم الاعتداء عليها، وأجازوا المنافسة وابتزاز الأيدي العاملة والبطالة والسعار المحموم وراء ملذات الحياة الذي أفرز بدوره الاستعمار والحروب والتدمير والربا والمجاعات.

وأنكر اليساريون وجود الله ـ تعالى ـ وجميع الغيبيات، وجعلوا المادة أساس كل شيء، وحاربوا الأديان، وألغوا الملكية الفردية، وحاربوا الأخلاق، وأزالوا كل معنى من معاني الحرية من وجودهم، وحاربت جميع أفكارهم جميع أحكام الإسلام وتعاليمه ومناهج الفطر السوية وطبائع الأشياء، وكانت النتيجة أن الشيوعية ـ كما رأينا ـ لم تثمر في أي بلد زُرِعَت فيه سوى العار والدمار إلى أن سقطت بأيدي صانعيها وعلى الأرض التي ولدت فيها بعد ما يقارب سبعين عاماً فقط.

وطالب العلمانيون بعزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع، وإبقاء الدين في ضمير الفرد دون أن يسمح له أن يتجاوز هذه العلاقة الخاصة، أو يسمح للتعبير عنه في أضيق حدود الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوهما، ودعا العلمانيون في البلاد التي هيمنوا عليها إلى نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية، وفتحوا الباب على مصراعيه لكل طاعن ومطعن في الإسلام وعقيدته وشريعته؛ فماذا أثمرت العلمانية؟

حاكم مسلم يود أن تصير بلاده قطعة من أوروبا، وآخر يلغي الشريعة الإسلامية ويستبدل بها قوانين وضعية، وآخر يلغي الخلافة، وظهرت الأحزاب التي عانى منها المسلمون ولا يزالون إلى اليوم مثل حزب البعث وغيره من الأحزاب القومية والوطنية.

أما الصحوة الإسلامية ـ مقارنة بالأيديولوجيات الأخرى ما ذكرت منها وما لم أذكر ـ فقد كان لها شأن آخر. لقد أوجدت الصحوة حركة فكرية ثقافية جهادية علمية في شتى ديار الإسلام تمثلت أبرز مظاهرها في العودة إلى المساجد والإقبال على صلاة الجماعة من قِبَل الشباب، والإقبال الشديد على المعارف الإسلامية والاطلاع على الكتب خاصة كتب التراث، وكذلك الإقبال الشديد على الشريط الإسلامي السمعي والمرئي. كما ازداد عدد المحجبات والمنقبات وظهر هذا جلياً بين طالبات الجامعة بصفة خاصة. كما انتشر بين الشباب إعفاء اللحية وكثر اعتزال الفنانات والفنانين للفن والتوبة إلى الله والتبرؤ من أعمالهم. كما علا صوت المطالبين بتطبيق الشريعة الإسلامية وبدأت الحكومات تستجيب على درجات متفاوتة. وبدأت بالفعل خطوات جادة وجيدة في مجال أسلمة العلوم والمعارف، وكثر إنشاء المؤسسات الإسلامية لتحل محل المؤسسات الأخرى، فظهرت المصارف الإسلامية والمدارس الإسلامية، كما أنشئت المراكز والمنظمات الإسلامية في المناطق التي يضطهد أو يقل فيها المسلمون، وكثرت الملتقيات والندوات التي تقدم فيها البحوث والدراسات في شتى جوانب الحياة الإسلامية المعاصرة والمستقبلية، وظهرت الدعوة الجادة للوحدة الإسلامية كما ظهرت الأحزاب السياسية الإسلامية.

هذا بعض ما قدمته الصحوة وأسفرت عنه في الظاهر، أما في الباطن ـ وهو أمر لا يقل أهمية عما سبق ـ فلقد

أثبتت الصحوة للمسلمين عامة وشبابنا على وجه الخصوص أن الإسلام هو الحل، وأن الإسلام هو الدين، وأن الإسلام هو أقوم وأفضل وأقصر سبيل للنهوض والتقدم، بل الأكثر من ذلك هو نجاح الصحوة في إحياء الاعتزاز بالإسلام والاستعلاء به على كافة المعتقدات والأديان الأخرى، حتى إنك ترى المسلم يُمتحَن بسبب إسلامه ويقبل التضحية بكل شيء: عرضه وماله وأرضه ولا يترك إسلامه، هذه هي الثمرة. أما الفرق فيصوره قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ [الأعراف: ٥٨].

البيان: بعد هذا العرض لإيجابيات الصحوة، نرجو من الدكتور جلال الدين أن يذكر لنا تقويمه لدور العلماء تجاه الصحوة في الفترة الماضية؟ وما الدور المطلوب منهم في المرحلة الراهنة والمستقبلة؟

د. جلال الدين صالح: لا يماري أحد أن العلماء صِمَام الأمان، وكل عمل دعوي ليس للعلماء فيه شأن فهو قحط وجفاف لا يورد الناس إلا موارد الهلاك، ولا يذيقهم إلا مُرَّ الحنظل، ولكن ليس ذلك لكل عالم، وإنما للعلماء الربَّانيين الذين لا يشرون بآيات الله ثمناً قليلاً، ولا يكتمون ما أوتوا من البينات، وهم بشكل عام ليسوا سواءاً في موقفهم من الصحوة، ودورهم فيها يدور بين مواقف ثلاثة هي:

الأول: موقف المؤازر الغيور، والناصح الأمين، والمنافح الصادق، وكثير من هؤلاء تعهَّد الصحوة الإسلامية بالدعم المالي، والذبّ السياسي، والتوجيه العلمي؛ فصدرت لهم فتاوى تناصر مختلف قضاياها الدعوية، وكتابات تعالج قوادح العمل الإسلامي.

الثاني: موقف اللامبالاة، وهو موقف لصنف من العلماء نظروا إلى الصحوة نظرة من لا يعنيه الأمر؛ فما حملوها، وما حملتهم، وغالب هؤلاء ممن حبس همه في ملذاته؛ شأنه في ذلك شأن حملة الرسالات الأرضية الذين نعت الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ همَّ الواحد منهم بأنه لا يتجاوز «بطنه وفرجه؛ فإن ترقَّت همته فوق ذلك كان همه مع ذلك في لباسه وزينته؛ فإن ترقت همته فوق ذلك كان في داره، وبستانه، ومركوبه، فإن ترقت همته فوق ذلكم كان همه في الرياسة»(1).

الثالث: موقف المعاند والمعارض المعادي؛ ومن هؤلاء نالت الصحوة ما نالت من التأليب، والتحريض، والانحياز إلى الباطل زلفة إلى أهله، وإيثاراً لإغراءاتهم، وإغواءاتهم.

وفي هذا الصنف من العلماء قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه؛ لأن أحكام الرب ـ سبحانه ـ كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشبهات.. فإذا كان العالم والحاكم مُحِبَّيْنِ للرياسة، متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق.. وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا فلا يحملهم حب الرياسة، والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة»(2).

والدور المطلوب من العلماء في المرحلة الراهنة والمستقبلة أن يُكوِّنُوا مرجعية ذات مؤسسات مستقلة تعالج قضايا الصحوة الشائكة بعمق بعيداً عن المؤثرات السياسية، والدوائر القطرية، أو الإقليمية وتمسك بِحُجَز الشباب من التدين المنفلت عن ضوابط وروابط الشرع.

---

(1) الوابل الصيب، ص ١٢٩.   (2) الفوائد، ص ١٠١.

المحور الثالث: أسباب القوة وأسباب الضعف:

البيان: لعل الحديث عن إيجابيات الصحوة وسلبياتها؛ يقودنا إلى حديث آخر مهم. وهو الكلام عن أسباب القوة وأسباب الضعف التي أفرزت ـ ويمكن أن تفرز ـ المزيد من الإيجابيات أو السلبيات؛ فهل يمكن أن نستعرض هذه الأسباب. ولو بطريقة إجمالية؟

د. محمد لطفي الصباغ: من أسباب الضعف التي نستطيع أن نذكرها ـ وهي موجودة في بعض شباب هذه الصحوة المباركة ـ:

● اتصاف بعض الشباب الصالحين من شباب الصحوة بالتشنج في الدعوة إلى فكرة يراها، والرد على المخالفين بشدة، والتعصب لرأي من الآراء وقد يكون هذا الرأي خطأً، وقد يكون صواباً لكنه ليس من الأهمية بهذه الدرجة التي تظهر من حديثهم.

● اغترار بعض الشباب الأفاضل بكلمات من التأييد يسمعها من بعض الناس، وتفسيرهم لبعض الظروف على نحو مغاير للواقع، ويكون ذلك التفسير مبنياً على وَهْمٍ لا نصيب له من الحقيقة؛ فيظن هؤلاء أن موقفهم موقف قوي، وقد يصرحون بتصريحات أو يتصرفون تصرفات تحمل أعداءهم على توجيه ضربة لهم تتناسب مع حجم التصريحات أو التصرفات.

● التفرق الذي أشرنا إليه قبل قليل، وهذا يسرُّ العدو أيَّما سرور!

● التهور الذي نجده عند بعض الشباب، وإقدامهم على بعض الخطوات الضارة. إنَّ سلوك سبيل العنف يضر صاحبه ودعوته أكثر مما يضر العدو.

● عدم الاستفادة من التجربة التي مر بها فريق من شباب الصحوة الصالحين، وعدم دراسة الأخطاء التي وقعت في مراحل دعوتهم وعملهم.

● الانفراد بالرأي وعدم الاستشارة عند بعضهم، والاستغناء عن حكمة الشيوخ المجرِّبين، وقد يكون عند بعضهم سيطرة حظ النفس عليهم والتقصير في التوعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما أسباب القوة التي يجب أن يأخذ بها رجال الصحوة ونساؤها فهي:

● أن يتسع صدر هؤلاء الرجال والنساء لمن يخالفهم في الأمور الاجتهادية، وأن يلجؤوا إلى الحوار مع مخالفيهم، وأن يرجعوا إلى من يتقون به من العلماء الورعين.

● أن يراقبوا أنفسهم ويحرصوا على أن يكون عملهم خالصاً لله، لا حظَّ فيه للدنيا ولا للنفس.

● أن يحرصوا على أداء الواجبات الدينية على أكمل وجه، وأن يأتوا بالنوافل ولا سيما صلاة الليل، وأن يكثروا من الالتجاء إلى الله ـ سبحانه ـ وأن يدعوه أن يمنحهم الثبات على الحق ويقويهم على مواجهة العقبات التي تعترض مسيرتهم، وأن يداوموا على قراءة القرآن ومحاولة حفظ شيء منه.

● أن يتعاونوا مع الصالحين من الشباب، وأن يتناصحوا فيما بينهم بالأسلوب اللطيف.

● أن تكون خطواتهم في الدعوة مبنية على تخطيط يلحظ الواقع الذي يعيشون فيه وطبائع المخاطبين واهتماماتهم.

● أن يُعْنَوْا بالتعلم والقراءة المستمرة في الكتب الدينية والتاريخية والسياسية والتربوية والنفسية، وأن يتعرفوا إلى الأفكار القائمة في عصرهم وينقدوها بميزان الإسلام.

● أن يقدموا خدمات للناس ابتغاء وجه الله؛ فذلك خير عظيم فـ «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»(١).

ومن أسباب القوة والمضي في طريق الصحوة أن يبتعد رجالها عن إثارة العقبات التي توقف العمل، ومن أهم هذه العقبات الاصطدام بالحكام.. هذا ليس من مصلحة الدعوة.. إن عليهم أن يعملوا في الدعوة إلى الله بالأسلوب الحكيم الذي يجعل العمل مستمراً.

البيان: من جوانب القصور الذي يشير إليه بعض الناس: التفريط في توظيف الطاقات البشرية التي تملكها الصحوة الإسلامية، مما أدى إلى انتشار ما يسمى بالبطالة الدعوية؛ فهل هذا صحيح؟ وما السبيل إلى علاجه؟

د. مانع الجهني: هذا الكلام غير دقيق؛ فالدعوة إلى الله - تعالى - كما هو معلوم - فرض عين على كل مسلم؛ إذ لا يتصور أن تتم إلا من خلال فريق عمل جماعي متعاون: هذا يقدم علماً وفكراً، وهذا يقدم دعماً من مال أو جهد أو رأي ومشورة، وهذا يشفع، وهذا يبلغ، وهكذا. لذا فإن القول بوضع مسؤولية الدعوة على كاهل الدعاة والعلماء وحدهم إجحاف ومجانبة للصواب، والمتتبع للحركة الإسلامية يرى أنها بكل ثمارها التي نعايشها اليوم هي ثمرة عمل دعوي جماعي شارك فيه جميع المسلمين في شتى بقاع الأرض بتفاوت في العطاء؛ فأين هذا من القول بانتشار البطالة الدعوية؟!

كما أننا نلحظ - خلافاً لما ذكر - تنامياً في العمل الدعوي سواء في تطوير مجالاته كمّاً وكيفاً أو في استحداث مجالات أخرى جديدة؛ فالدعاة اليوم - ولله الحمد والمنة - قد وصلوا إلى عامة الناس حتى في القفار والأصقاع والأدغال فضلاً عن المدن والريف؛ حتى إنك لا تجد مكاناً يعيش فيه مسلمون دون واعظ أو معلم. كما اتسعت وتنامت حركة التأليف والترجمة والنشر والتوزيع، ولا يمر يوم وإلا وتطالعنا عناوين جديدة ومطبوعات حديثة. كما أن هناك حرصاً حميداً مشكوراً لتوظيف كل وسيلة مستجدة لخدمة الدعوة، وشبكة الإنترنت العالمية والمواقع الدعوية المنشأة عليها التي هي في تزايد مستمر شاهد على ذلك، إضافة لتزايد المراكز والجمعيات الإسلامية والكليات والمعاهد المتخصصة والمؤسسات الإسلامية، واتساع قنوات الدعم والعطاء الميمون من قِبَل أولي الفضل والإحسان والنهى لدعم خطا الدعوة ونشرها.

الشاهد أن العمل الدعوي بخير وجهوده وإنجازاته مقدرة وتدعو للتفاؤل وتبشر بالخير. نعم! توجد مآخذ محدودة على بعض شباب الصحوة في الجانب الفكري أو السلوكي يغلب أن يكون سببها نقص علم أو فهم أو توعية أو تربية، أو استعجال للنتائج والحماس الزائد، أو التحديات المتزايدة وما تفرزه من ردود فعل قد لا تكون مناسبة، أقول: هذه الآثار وما شابهها ليست دليلاً على بطالة دعوية أو إخفاق في العمل إنما هي في رأيي أخطاء واردة؛ إذ إن تخلف السنين لا يفترض أن يُعدَّل في أيام إنما يحتاج إلى وقت مناسب؛ ولا شك أن مثل هذا العمل الكبير لا يخلو من أخطاء.

لذا فأنا أقول: إن العمل الدعوي الذي يتسع معناه ليشمل جميع أبعاد العمل الإسلامي يسير إلى الأفضل. وإن كان من كلمة أقولها للدعاة وعامة المسلمين وشباب الصحوة على وجه الخصوص فاذكِّر نفسي وإخواني وأبنائي بأن علينا جميعاً أن نبذل المزيد من الجهد في العلم والالتزام والعمل؛ ليس لأن عملنا الحالي قاصر؛ فالجهد الذي يقدم يستحق الإشادة والتقدير، ولكن علينا أن نزيد من العمل والعطاء بما يناسب غاياتنا العظيمة السامية، والنجاح في العمل يعني سُنّة حسنة لكل من عمل فيها أجره وأجر من عمل بها، والأجر الذي نبتغيه ونسأل الله - تعالى - أن يهبنا إياه هو سلعة الله الغالية وهي الجنة.

---

(١) رواه البخاري، ح/٢٧٢٤.

البيان: الخلافات العملية الحاصلة في صفوف فصائل العمل الإسلامي ناشئة ـ بلا شك ـ عن اختلافات علمية وقلبية؛ فهل من سبيل لتضييق هوة هذا الخلاف؟

د. جلال الدين صالح: لعل من الأنسب أن أورد هنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان خطورة ما يؤدي إليه التفرق من الهوان وغلبة الأعداء؛ حيث قال ـ رحمه الله ـ: «وهذا التفرق الذي حصل من الأمة: علمائها ومشائخها، وأمرائها، وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها؛ فمتى ترك الناس بعض ما أمر الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»(١).

أما أهم سبل تضييق الخلاف فأحسب أن منها ما يلي:

الأول: الإخلاص لله، وتربية القاعدة الإسلامية على خشية الله وحده باعتبار أن ذلك على رأس كل عمل تعبدي.

الثاني: التحرر من النزعة الحزبية التي لا ترضى بغير إفناء الآخرين أو نفيهم. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس للمعلمين أن يحزِّبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونوا مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى»(٢).

الثالث: قبول الحق والميل إليه مهما كان مصدره؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والله قد أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق، وأن لا نقول عليه إلا بعلم، وأمدنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي، أو نصراني ـ فضلاً عن رافضي ـ قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق»(٣).

الرابع: التوالي مع الاختلاف ومجانبة أهل الابتداع في ذلك. يقول ابن المرتضى اليماني: «الاختلاف مع التعادي والتفرق كما هو عادة أهل الكلام، دون الاختلاف مع التوالي والتصويب كما هو عادة الفقهاء وسائر أهل العلم»(٤).

الخامس: اعتماد مبدأ النقد وعدم التضجر إذا ما انتقد من نُجِلُّ من قادتنا؛ فكما يقول ابن قتيبة: «لا نعلم أن الله ـ عز وجل ـ أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط، وأماناً من الخطأ فنستنكف له»(٥).

السادس: مجاهدة الهوى والتخلص من سلطانه؛ فإنه كما يقول شيخنا الشيخ عبد الله الغنيمان ـ حفظه الله ـ: «اتباع الهوى نوع من الشرك كما قال بعض السلف: «شر إله عُبِدَ في الأرض الهوى» فإذا صار الهوى هو القائد والدافع صار أصحابه شيعاً يتعصب كل واحدٍ لرأيه، ويعادي من خالفه ولو كان الحق معه واضحاً؛ لأن الحق ليس مطلوبه»(٦).

السابع: البحث عن الأعذار، ومكافحة سوء الظن، والإعراض عن الشائعات. يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «لا يحل لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظن بها سوءاً وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجاً»(٧).

ولكن لا بأس ـ كما يقول ابن مفلح ـ من إساءة الظن «بمن ظاهره قبيح»(٨).

---

(١) مجموع الفتاوى، ٤٢٣/٣.

(٢) مجموع الفتاوى، ٢٨/٩ ـ ٢٥.

(٣) منهاج السنة النبوية، ٣٤٢/٢.

(٤) إيثار الحق على الخلق، ١٦٠ ـ ١٦١.

(٥) عبد الله بن ضيف الدين: دعوة إلى السنة منهجاً وأسلوباً، ٧٩ ـ ٨٠.

(٦) الهوى وأثره في الخلاف، ص ٢٣.

(٧) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ٤٧/١.

(٨) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ٤٥/١.

الثامن: اللجوء إلى التحاور بدل التهاجر؛ فالتحاور يذيب كثيراً من المشكلات ويدرأ كثيراً من الموبقات، وهو منهج دعوي يدور بين المؤمنين والكافرين فضلاً من أن يكون وسيلة تباحث بين المسلمين، ولكن لا بد أن يكون حواراً بنَّاءاً يؤدي إلى نتيجة عملية، وإلاَّ يُكُنِ الأمرُ كما قال الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله ـ: «إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجدال ومنعهم العمل»(١).

المحور الرابع: استشراف المستقبل:

البيان: في ضوء هذه المعطيات: عن الإيجابيات والسلبيات، وأسباب القوة وأسباب الضعف، هل لنا أن نستشرف آفاق المستقبل ـ الميمون بإذن الله ـ لهذه الصحوة، وهل لنا في ضوء ذلك أن نحدد أهم الأهداف التي ينبغي أن تجتمع عليها قلوب العاملين للإسلام؟

د. محمد لطفي الصباغ: إني أتوقع كما سبق أن ذكرت أن المستقبل للإسلام، وأن هذه الصحوة ستؤتي أكلها بإذن الله.. ويكون ذلك بالأخذ بأسباب القوة التي ذكرنا أهمها، وبالبعد عن أسباب الضعف التي أشرنا إلى أبرزها. ويكون أيضاً بتعاون العاملين للإسلام.. بتعاونهم على أن يكون الإسلام هو الذي يحكم حياتهم.

الخلاف أمر غير محمود، ولكنه لا يمكن أن يستبعد؛ فعلينا أن نوطِّن أنفسنا على وجوده وعلينا أن نتعايش معه.

وإني أخالف بعض أهل العلم الذين يقولون: إن الخلاف رحمة.. لا.. ليس رحمة أبداً، ولو صحّ هذا لكان الاتفاق والاجتماع عذاباً وشراً.. إنه ليس رحمة ولكنه أمر لا بُدّ منه، فلا ينبغي أن يُصعَّدَ الخلاف حتى يتحول إلى شقاق وعداوة ويكون سبباً في تفريق صفوف الأمة الواحدة؛ فالله ـ عز وجل ـ نهانا عن التفرق فقال: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والناس متفاوتون في الفهم والعلم والإدراك وتقدير الأمور، فلا بد من الاختلاف ولكن لنحذر من التفرق.

إن علينا ـ ما استطعنا ـ أن نضيّق من دائرة الاختلاف.. أقول هذا؛ لأن من أهم أسباب القوة التي نرجو أن تكون للصحوة أن يكون المسلمون صفاً واحداً.

لماذا لا نستوعب الخلاف ما دام في دائرة الشرع.. إنّ أصحاب الأفكار والمبادئ الأخرى عندهم خلافات، ولكن خطوطاً عريضة ومبادئ أساسية تجمعهم.

إن أئمة المذاهب اختلفوا.. بل إن أصحاب المذهب الواحد اختلفوا؛ فكم ترى من آراء لأبي حنيفة لم يوافقه عليها تلميذاه أبو يوسف ومحمد! وكذلك الأمر في المذهب الشافعي؛ فللنووي اختيارات خالف فيها المذهب؛ إنها طبيعة ثابتة في البشر قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

فإذا استطعنا أن نتعايش مع الخلاف ونستوعبه ـ ما دام في حدود الشريعة ـ وتعاونَّا على العمل للإسلام، وحررنا أنفسنا من سيطرة الهوى، وآثرنا الآخرة على الدنيا بقدر ما نستطيع، وكنا على مستوى العصر الذي نعيش فيه؛ من حيث المعرفة والاستعداد فإن الأمل عظيم بانتصار هذه الصحوة وسيادتها.

ومما يؤيد هذا عندي أن التجربة أثبتت فساد الحضارة المادية المعاصرة.. وها هي دولة الشيوعية الكبرى قد سقطت، وتكشفت حقائق رهيبة عن الشقاء الأسود الذي كان يعاني منه الإنسان في ظلّها.

---

(١) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ١/٢٠٢.

وكثير من عقلاء الأوروبيين والأمريكيين يتوقعون سقوط النظام الغربي الذي يسود الدنيا اليوم.

وبهذا لم يبق إلا الإسلام.

إن عوامل الفساد تنخر في كيان تلك الحضارة المادية الملحدة.. وهاهنا ملاحظة مهمة وهي:

أن تقرير هذه الحقيقة الموضوعية لا يُجيز لنا أن نقعد مسترخين ننتظر تحقق النصر لنا وانهيار الحضارة الغازية.. فهذا أمر لا يقره الإسلام.. بل لا بد من العمل والصبر، والتضحية والتصويب، والتعليم والتقويم قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

البيان: ختاماً هل لنا أيضاً أن نعيّن أهم العقبات التي كانت ـ ولا تزال ـ عائقاً أمام التطور الطبيعي لحركة المد الإسلامي؟ وكيف يمكن التغلب على تلك العقبات؟

د. جلال الدين صالح: هنالك أكثر من تحدٍّ يعيق حركة المد الإسلامي، منه ما هو ذاتي، ومنه ما هو موضوعي، ولن يكون للموضوعي كبير أثر ما لم يكن قد وطَّأ له الذاتي ومهَّد، وفي التحليل القرآني لكل ما أصاب المسلمين من جرح وقرح نجد الخطاب الرباني يلفت أنظار المؤمنين إلى ذاتهم: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] للدلالة على أن العامل الخارجي لا يعمل مفصولاً عن العامل الذاتي، تماماً كالغصن المنخور من الشجرة لا تسقطه الرياح إلا لقابليته للسقوط.

ومن أهم هذه العلل الذاتية المعيقة لتطور المد الإسلامي ما يلي:

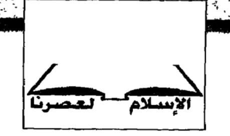
الأول: قابلية الاستفزاز وإحراق المراحل واختزالها كلها في مرحلة واحدة خلافاً لسُنَّة التدرج والنمو الطبيعي.

الثاني: نقل التجارب من موقع إلى آخر دون فحصها ودراسة الفوارق الزمانية والمكانية، ومعرفة المآلات.

الثالث: عدم ترتيب الأولويات، وعدم الموازنة بين المصالح والمفاسد، والجهل بثغرات المنافع القانونية للاستفادة منها في المجتمعات التي نشط فيها المد الإسلامي.

الرابع: عدم تصنيف الناس والتعامل مع كل صنف بما يناسبه تحييداً، أو كسباً أو تألُّفاً.

وأهم ما يمكن أن يعين في التغلب على تلك العقبات أن نتعامل مع الواقع وفق طاقتنا البشرية، ونتدرج في برنامجنا الإصلاحي، ولا نطوي المراحل كطي السجل؛ فالمنبَتُّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى. ولا بد أن نعرف أولوياتنا على ضوء دراسة محيطنا.



حقائق العلوم التجريبية .. حقائق شرعية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

شاع على ألسنة كثير من إخواننا المتدينين القول بأن الحقائق العلمية (ويعنون بذلك حقائق العلوم الطبيعية) حقائق متغيرة، فما يثبته العلم اليوم ينفيه غداً، وما ينفيه اليوم يثبته غداً. لذلك يجب أن لا يكون لها اعتبار في فهم الحقائق الدينية الواردة في الكتاب والسنة، وأن لا تستخدم دليلاً على الإعجاز العلمي.

لكن إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض؛ وذلك لأن العلوم الطبيعية ـ كما هو معروف ـ منها ما هو حقائق جزئية تقوم عليها أدلة حسية أو عقلية قاطعة، ومنها ما هو حقائق جزئية، أو قوانين عامة تقوم عليها أدلة راجحة لا قاطعة، ومنها ما هو نظريات هي المعرَّضة للتغير، ولا سيما ما كان ذا دليل غير قوي.

فحقائق العلوم التجريبية كلها ـ الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية ـ التي شهد لها الحس أو العقل شهادة قاطعة هي حقائق شرعية. بل إن ما قام عليه منها دليل راجح وإن كان غير قاطع، هي مما يعد ـ بميزان شرعنا ـ علماً يعمل به. فما دليلنا على ذلك؟

دليلنا أولاً أن الشرع قضى بأن كل الحقائق ـ دينية كانت أم دنيوية ـ إنما يكتسبها الإنسان بحسه وعقله. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فإذا كانت الحقائق إنما تكتسب بالحس والعقل، فمن البديهي أن يقال: إن كل ما شهد له الحس والعقل فهو حقيقة، وما لم يشهد له فليس بحقيقة. ولذلك فإن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ ذم الكفار المنكرين للحقائق المحسوسة ووبخهم. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

ونحن نعلم أن أحاديث الآحاد تعتبر علماً مع أن ثبوتها ليس قطعياً كثبوت الأحاديث المتواترة. ومما استُدلَّ به على أن الظن الراجح يعد علماً قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ

فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] .

وذلك لأن علم البشر علماً مباشراً بإيمان شخص لا يكون إلا ظنياً. لكن الامتحان يرجح هذا الظن نفياً أو إثباتاً، ولذلك يبنى عليه هذا الحكم المهم المذكور في الآية الكريمة.

ومعنى ذلك أننا نأخذ كما يأخذ غيرنا حتى بالنظريات العلمية إذا كان ثبوتها راجحاً ولم يكن قطعياً ما دامت لا تتعارض مع نصوص شرعية قطعية.

قد يستغرب بعض القراء قولي بأن ما لم يشهد له الحس والعقل، أو قل: ما لم يأت عن طريق الحس والعقل فلا يعد علماً، ويقولون: أين الوحي إذن؟ وأقول: إن سبب هذا الاعتراض هو خلط يقع فيه كثير من الناس، وقد نبَّهت عليه في كثير من كتاباتي وأحاديثي. الخلط هو عدم التفرقة بين وسائل اكتساب العلم، وهي الحس والعقل، ومصادر العلم، وهي الوحي والخلق؛ فالوحي مصدر للعلم؛ لكننا إنما نعرف أنه وحي بالحس والعقل، وإلا لم يكن لنا معيار نميز به بين النبي الصادق ومدعي النبوة، ولا بين ما هو كلام الله حقاً، وما هو من القول على الله ـ تعالى ـ بغير علم.

أعود إذن إلى قولي بأن حقائق العلوم التجريبية التي تقوم عليها أدلة قطعية ـ حسية كانت أم عقلية ـ هي حقائق ثابتة لا تتغير. تُرى: هل سيأتي يوم يقول فيه العلماء إنهم كانوا مخطئين في زعمهم بأن الأرض كروية، بعدما استطاعوا أن يروها كرة، وأن يصوروها لمن لم يرها؟ هل سيأتي عليهم زمان يكتشفون فيه أن الماء لا يتكون من الهايدروجين والأوكسجين كما يزعمون الآن؟ وهل يجوز لإنسان عاقل أن يكابر في وجود شيء بعدما رأى دليله الحسي؟ إن مثل هذه المكابرة أمر مذموم شرعاً كما أنه مذموم عقلاً، بل إن كل ما هو مذموم عقلاً فهو مذموم شرعاً.

إن إنكار الحقائق الحسية سواء منها ما يشاهده الشخص العادي، أو تثبته العلوم التجريبية ـ طبيعية كانت أم اجتماعية أم نفسية أم غير ذلك ـ هو هدم للشرع؛ لأنه هدم للبراهين الدالة على صحته، واللازمة للعمل به، والفارقة بينه وبين الدعاوى الباطلة.

إن كتاب الله ـ تعالى ـ مليء بتوجيه الناس إلى التفكر في خلقه، والاستدلال به على كثير من أصول الدين، كوجود الخالق ـ سبحانه ـ، ومعرفة صفاته، وبعثه لعباده، ومصير المكذبين لرسله.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين ربط بين مظاهر طبيعية وبين الإيمان، وهو ربط لا يتسنى إلا لمن يشاهد هذه الظواهر ويوقن بوجودها، ثم يكون إنساناً ذا عقل، وتفكُّر؛ فأولو الألباب هم الذين ينتقلون من المشاهدة إلى التفكر إلى الإيمان. وانظر إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ

مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

في الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة ربط بين حقائق طبيعية وبين الإيمان لا ينكره إلا المأفوكون. وفي الآية الثانية ربط بين حقائق طبيعية وبين صفتين من صفات الله - تعالى -. وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة ربط بين حقائق طبيعية وبين العلم والفقه والإيمان؛ فلا يكون عالماً ولا فقيهاً ولا مؤمناً من ينكر هذه الحقائق بعد رؤيتها.

لا يقولن لي معترض بأننا إنما آمنا بهذه الحقائق الطبيعية؛ لأن الله - تعالى - قررها. كلاً! فإن العلم بها سابق للإيمان بالقرآن الكريم ومستقل عنه؛ فهو أمر مشترك بين المسلمين وغير المسلمين. والقرآن الكريم جعل علمنا هذا بها دليلاً على قدرته وحسن صفاته. فلو كان علمنا بها مبنياً على تصديقنا بالقرآن لما صلحت دليلاً، ولكان في الكلام دور.

وأنت تجد في الآية الآتية مثل هذا الربط الذي ذكرناه بين الحقائق المشاهدة والبعث، وبينها وبين تصديق الرسول ﷺ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. [الأعراف: ٥٧].

والحقائق الحسية لها تعلق آخر مهم بأصول الدين؛ وذلك من حيث كونها معياراً للتفريق بين الصدق والكذب؛ لأن القول الصادق إنما هو الذي يوافق الواقع ولا يخالفه، فإذا كان الواقع المتحدَّث عنه واقعاً محسوساً، وكان القول مخالفاً له علمنا أن القول كذب. هذه قاعدة بدهية يعرفها كل عاقل. ولذلك فعندما ألَّف الطبيب الفرنسي موريس بوكاي كتابه المشهور عن العلوم الطبيعية والتوراة والإنجيل والقرآن ذكر في مقدمته كلاماً فحواه أنه قال لنفسه: ما دام الله - تعالى - هو خالق الكون فلا يمكن أن يوحي إلى بشر بكلام يخالف الواقع الذي خلقه ويعلمه، ولذلك فإنني سأحاكم هذه الكتب الثلاثة بمعيار الحقائق القطعية التي أثبتتها العلوم الطبيعية، فما وجدته منها مخالفاً لشيء منها علمت أنه ليس من عند الله - تعالى -. وكانت النتيجة أنه وجد في كتابَي اليهود والنصارى مثل هذه المخالفات، ولم يجد منها شيئاً في القرآن الكريم، بل وجد أن القرآن الكريم سبق العلوم المعاصرة

بتقرير بعض الحقائق، ثم جاءت هي مؤيدة لها. فهل نقول لمثل هذا العالم: إن منهجك غير صحيح؛ لأن حقائق العلوم الطبيعية حقائق متغيرة؟

وبمثل هذا المنهج انتقد النصارى الليبراليون إخوانهم الأصوليين. فالليبراليون يقولون: إن كتابهم المقدس لا يمكن أن يكون كله كلام الله كما يزعم الأصوليون، ويستدلون على ذلك بمواضع فيه جاءت مخالفة لحقائق محسوسة أثبتتها العلوم التجريبية.

ومن غريب ما سمعت في عدم اعتبار الحقائق المحسوسة استدلال بعضهم على هذا الزعم بحديث: «وكذب بطن أخيك». والحديث كما رواه البخاري في كتاب الطب من صحيحه عن قتادة عن أبي سعيد: «أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ. فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً، ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ اسْقِهِ عَسَلاً، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلاً، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. فقال: صَدَقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلاً، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ»[1].

استدل الزاعم بأن الحقائق المحسوسة لا اعتبار لها في النصوص الإلهية، بقول الرسول ﷺ لهذا الرجل: (صدق الله وكذب بطن أخيك) فكأنه يريد أن يقول: إنه مهما كانت الوقائع مخالفة للوحي فلا اعتبار لها، بل يجب على المؤمن الصادق أن يؤمن بكلام الله ـ تعالى ـ مهما رآه مخالفاً للواقع المحسوس؛ لأن كلام الله ـ تعالى ـ هو الصدق، والواقع ـ كبطن أخ السائل ـ هو الكذب. فكأن هذا القائل يفترض إمكانية مخالفة الوحي للحس أو العقل، وهو افتراض باطل، بل هو طعن في الشرع؛ لأن صدق الكلام إنما يعرف ـ كما ذكرنا ـ بموافقته للواقع. فالمخالف للواقع كذب لا محالة. والرجل إنما جاء للرسول ﷺ طالباً شفاء أخيه من الإسهال، والشفاء أمر محسوس. فلما رأى أن أخاه لم يُشْفَ عاد فسأل. لكن الرسول ﷺ كان موقناً بأن كلام الله حق ـ أي إن العسل لا بد أن يشفيه، وإن بدا الأمر أولاً على غير ذلك. وصدَّق الله كتابَه ورسولَه فشُفي الرجل، أي إن الحقيقة الحسية جاءت في النهاية موافقة للآية القرآنية. لكن مقتضى كلام أخينا المشكك في الحقائق المحسوسة، أن الرجل لو سقي عسلاً مائة مرة فلم يزده شربه إلا إسهالاً، ولو أن كل مريض شرب عسلاً لم يزده شربه إلا مرضاً فلا بد أن يؤمن الناس بأن في العسل شفاءاً؛ بل الحقيقة أنه لو حدث هذا لكان فيه أكبر دليل على أن القول بأن في العسل شفاءاً لا يمكن أن يكون قولاً للخالق ـ سبحانه ـ. فانظر كيف تؤدي الحجج الباطلة بصاحبها إلى الطعن في الدين من حيث يريد هو الانتصار له.

هنالك حديث طريف يدل على أن الرسول ﷺ كان يستدل بالحقائق الواقعية في تقرير المسائل الشرعية. روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ الأَسَدِيَّةِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) رواه البخاري، ح/٥٢٥٢.

يقـول : «لَقَـدْ هَمَـمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِـيلَةِ حَـتَّى ذَكَـرْتُ أَنَّ الـرُّومَ وَفَـارِسَ يَصْـنَعُـونَ ذَلِكَ فَـلا يَضُـرُّ أَوْلادَهُمْ»(١).

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : «وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي الْمُرَاد بِالْغِيلَةِ فِي هَذَا الْحَدِيث وَهِيَ الْغَيْل, فَقَالَ مَالِك فِي الْمُوَطَّأ وَالأَصْمَعِيّ وَغَيْره مِنْ أَهْل اللُّغَة : أَنْ يُجَامِع اِمْرَأَته وَهِيَ مُرْضِع. يُقَال مِنْهُ : أَغَالَ الرَّجُل وَأَغْيَلَ, إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَقَالَ ابْن السِّكِّيت : هُوَ أَنْ تُرْضِع الْمَرْأَة وَهِيَ حَامِل يُقَال مِنْهُ : غَالَتْ وَأَغْيَلَت. قَالَ الْعُلَمَاء : سَبَب هَمّه ﷺ بِالنَّهْيِ عَنْهَا أَنَّهُ يَخَاف مِنْهُ ضَرَر الْوَلَد الرَّضِيع. قَالُوا : وَالأَطِبَّاء يَقُولُونَ : إِنَّ ذَلِكَ اللَّبَن دَاء وَالْعَرَب تَكْرَههُ وَتَتَّقِيه. وَفِي الْحَدِيث جَوَاز الْغِيلَة فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْهَ عَنْهَا، وَبَيَّنَ سَبَب تَرْك النَّهْي وَفِيهِ جَوَاز الاجْتِهَاد لِرَسُولِ اللَّه ﷺ، وبه قَالَ جُمْهُور أَهْل الأُصُول. وَقِيلَ : لا يَجُوز لِتَمَكُّنِهِ مِنْ الْوَحْي وَالصَّوَاب الأَوَّل».

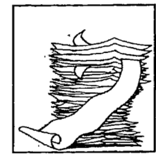
فالحديث يدل على أن سبب ترك النهـي هـو التجربة، تجربة أمم غير العرب، كانـوا يفعلون شيئاً لا تفعله العرب، ولم يضرهم فعله؛ فتجربتهم هذه دليل على أن هذا الفعل لا ضرر فيه، فلا ينهى عنه.

بقي أن نقول: إن الحقائق التجريبية التي يقرها الشرع نوعان: نوع يقره إقراراً عاماً ولا يبني عليه أمراً من أمور العبادات، ونوع يقره ويبني عليه بعض العبادات، فهو شرعي بمعنى خاص. مثال ذلك: أننا نعلم الآن أن ضوء الشمس لا يصلنا إلا بعد ثماني دقائق من مشاهدتنا لها، ونعلم أننا لا نرى الشيء إلا وصلنا ضوؤه. ومعنى ذلك أننا عندما نرى الشمس تشرق أو تغرب تكون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق. هذه حقيقة لا يكذبها الشرع. لكن الشرع بنى مواقيت الصلاة على الشروق والغروب كما يظهران للناس، لا على حقيقتهما الفلكية المستقلة عن الرؤية البشرية. لكن ما بُني الشرع عليه هو أيضاً حقيقة علمية، بل هي حقيقة يحسها كل إنسان مبصر.

ومثال آخر: هو ميلاد الهلال ورؤيته. فالميلاد حقيقة علمية تجريبية قطعية كما عرف الناس منذ مئات السنين، وكما أقر بذلك كثير من علمائنا السابقين. لكن الشرع رتب الصيام على الرؤية لا على ميلاد الهلال، ولا على إمكان الرؤية، مع أنها حقائق علمية. ماذا نفعل إذا كنا نعلم أن الهلال لم يولد، ثم زعم أناس أنهم رأوه؟ القاعدة العقلية والشرعية هي أن القطعي مقدم على الظني؛ فما دمنا نعلم يقيناً أن الهلال لم يولد، فإننا نعلم يقيناً أنه لا يمكن أن يُرى، ولذلك نرد شهادة من زعم أنه رآه؛ لأنها ظنية. فالذين يرون الأخذ بالحساب في النفي هم المحقون بحسب هذه القاعدة وإلا وقعنا في ورطة الاعتقاد بأن الحقائق القطعية تتعارض؛ أو أن ما يقرره الشرع قد يخالف ما يقطع به الحس او العقل.

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٢٦١٢.



ماذا يريدون من المرأة..؟!

ماذا يريدون من المرأة..؟!

المسلسل العلماني في تغريب المرأة ومسخ هويتها الفكرية والأخلاقية مستمر؛ فبعد مؤتمرات المرأة والسكان في: القاهرة، وبكين، وغيرهما اختتمت قريباً في مقر الأمم المتحدة أعمال الدورة الثانية والعشرين للجنة المكلفة بالقضاء على (التمييز ضد المرأة!)، وطالبت الجمعية العامة الدول الموقعة على اتفاقية حقوق المرأة بتطبيق قواعد المساواة بين المرأة والرجل، كما فرضت على هذه الدول عدم الاكتفاء بإقرار المساواة على مستوى النصوص التشريعية فحسب، بل العمل على تجسيد هذه النصوص في الحياة العامة من أجل تحسين الواقع اليومي الذي تعيشه المرأة.

وقبل أيام كتبت نفيس صادق (المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للسكان): «إنَّ إدماج النساء في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تعتبر من أهم التطورات التي حدثت في المائة سنة الماضية، ولكن هذه الثورة لم تكتمل بعد؛ فالمساواة النوعية ما تزال هدفاً لم يتحقق. إن ما يواجهنا من تحد ومسؤولية بوصفنا رابطة من الأمم هو أن نبني على ما أنجزناه في العقود الماضية، وأن نضمن أن القرن الحادي والعشرين سيوفر للنساء الفرصة للمشاركة الكاملة في صنع التاريخ!!».

وانظر إلى بعضٍ انعكاسات تلك التوصيات الأممية في بعض الدول الإسلامية؛ فبعد الحمّى البرلمانية لحقوق المرأة السياسية في الكويت، وبعد الحشود الصاخبة لمؤتمر مئوية قاسم أمين، ثم مشروع قانون الأحوال الشخصية في مصر، يستمر الجدل العريض في المغرب حول مشروع خطة إدماج المرأة في التنمية الذي أعد بتمويل أجنبي مشبوه من البنك الدولي!!

ولكن ألا يحق لنا أن نسأل: ماذا يريدون من المرأة..؟!

إنهم يريدونها أن تتخلى عن أنوثتها الطاهرة، وتصبح ألعوبة لشهواتهم ودمية لأهوائهم.

يريدونها أن تتمرد على حجابها وتنتكس في حمأة الجاهلية ومستنقعاتها الآسنة.

يريدون إلغاء دور الأسرة، ومسخ الهوية الاجتماعية للأمة، وإشاعة روح الانحلال والفساد.

يريدون استنساخ المرأة الغربية في بلادنا لتنتشر ثقافة الإيدز والعري والشذوذ الجنسي..!!

لقد كرَّم الله المرأة وشرفها، ووالله الذي لا إله إلا هو! إنها لن تجد من يرعاها ويحفظ لها حقوقها كما تجد ذلك في الإسلام.. فيا بغاة الشر أقصروا..!

وها نحن في مجلة البيان نفتح ملف (ماذا يريدون من المرأة؟!) ينشر بعون الله في عددين، ونحسب أن هذه القضية أوسع من أن يستوعبها ملف واحد، ولهذا يسعدنا أن نستقبل مشاركاتكم التي تثري الموضوع، وتكمل بقية فروعه. - البيان -

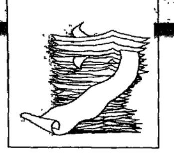
كمال حبيب

محمود كرم سليمان

محمود بن محمد المختار

فاطمة بنت عبد الله البطاح

أحمد فهمي



ماذا يريدون من المرأة..؟!

مشاريع هدم الأسرة المسلمة من التخطيط إلى التنفيذ

كمال حبيب

كانت الأسرة المسلمة ـ ولا تزال ـ تمثل قاعدة الاجتماع الإسلامي، وكانت ـ ولا تزال أيضاً ـ تمثل حصن هذا الاجتماع وقلعته، ومنذ أن اكتشف الغرب بحضارته (النصرانية ـ اليهودية) أنه لا يمكنه أن يخترق الأمة الإسلامية أو يُجهز عليها بالوسائل العسكرية عقب محاولاته ومخططاته العسكرية التي كان آخرها الحروب الصليبية؛ فإن الغرب سعى إلى تغيير وسائله، فتحول عن المواجهة العسكرية إلى المواجهة الفكرية والسلوكية وهو ما يعبر عنه عادة في الأدبيات الإسلامية بـ «الغزو الفكري» وكانت أهم أدواته في ذلك إنشاء جيش من المنصِّرين والمستشرقين، وتأسيس كراسٍ للدراسات الاستشراقية التي تستهدف اكتشاف العالم الإسلامي واختراقه لمعرفة عاداته وتقاليده ونفسية أبنائه.

وبلغ شأو هذه الجيوش الاستشراقية والتنصيرية حداً سجن العالم الإسلامي سجناً كبيراً، فلم تدع شيئاً إلا دسَّت أنفها فيه حتى دخلت مخادع النساء ـ بتعبير «محمود شاكر» في رسالته القيمة: «الطريق إلى ثقافتنا» ـ وكانت جيوش المنصرين والمستشرقين هم طليعة الاستعمار «الاستخراب» الغربي للعالم الإسلامي ـ كما كانت هذه الجيوش الاستشراقية هي الأساس الذي قامت عليه مراكز الأبحاث وأجهزة الجاسوسية والمخابرات المتصلة بالنفاذ إلى أعمق أعماق عالمنا الإسلامي.

وبعد انتهاء الاستعمار «الاستخراب» العسكري ظل العالم الإسلامي ـ بحكم موقعه الاستراتيجي وبحكم موارده، وبحكم ما يمثله من امتلاك الثروة الحضارية والروحية الهائلة والمتمثلة في الإسلام ـ ظل موضع اهتمام لما يمكن أن نطلق عليه: «الاستشراق الجديد». والاستشراق الجديد لا يعتمد في دراسته عن العالم الإسلامي على جنوده وأبنائه من الغرب، بل سعى إلى وجود مستشرقين من أبناء العالم الإسلامي نفسه؛ بحيث تقوم علاقة ترابط قوية بين المراكز الاستشراقية في الخارج وبين أطرافها وذيولها في الداخل.

وتمثل ظاهرة «الأبحاث المشتركة» عن الاجتماع الإسلامي فيما يتصل بمظاهر قوته الخاصة بالصحوة الإسلامية، واللغة العربية، والأزهر، والأسرة المسلمة، والحجاب، وانتشار السلوك الإسلامي ـ تمثل موضوعات هامة للاستشراق المحلي المرتبط بالاستشراق الجديد في الخارج؛ فلم يعد الذين يرصدون الظواهر التي تمثل مظاهر قوة في المجتمع الإسلامي من الغربيين وإنما هم من جلدتنا وأبنائنا ويتحدثون بالسنتنا. ووُجدت نخبة متغربة تتبنى قيم الغرب نمطاً

للحياة بديلاً عن نمط الحياة الإسلامي، وقد استطاعت هذه النخبة السيطرة على مراكز صناعة القرار وخاصة الإعلام والفكر والكتابة، وصارت الذراع الفكرية التي تحمي النظم الحاكمة وتسوِّغ لها الاندفاع في التبعية للأفكار والقيم الغربية: تارة باسم التقدم، وتارة باسم «الوراثة». وبلغت الرغبة في الاختراق حداً مريعاً؛ إذ وصل الأمر بالإصرار على اختراق المؤسسة الدينية ذاتها؛ وكأن الغرب يريد أن يقول: إنه لا توجد مؤسسة مهما كان شأنها عصية على الاختراق. وبالطبع فإن دراسة الوقائع الميدانية للعالم الإسلامي تمثل مدخلاً هاماً لصناع القرار السياسي في الغرب وخاصة في أمريكا؛ حيث تعتبر أمريكا ما تطلق عليه: «فهم الطابع القومي للشعوب» أحد أهم مداخل سياستها الخارجية تجاه العالم الإسلامي بالذات.

وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي - غير ماسوف عليه - فإن أمريكا صارت القوة الوحيدة المهيمنة على العالم، وطرحت ما أطلقت عليه: «النظام العالمي الجديد» ثم نظام «العولمة» ورغم أن المصطلح الأول اتخذ طابعاً تبشيرياً يشير إلى وجود نظام عالمي مرجعي واحد للعالم؛ بحيث تتلاشى الخصوصيات والصراعات، وتتوحد المعايير في التعامل مع المواقف المتشابهة؛ إلا أن الوقائع أثبتت فشل المصطلح. أما المصطلح الثاني فرغم أنه حاول المراوغة بالحديث عن نظام اقتصادي تبادلي تيسره الثورة التقَنيَّة إلا أنه استبطن فرض منظومة قيمية فيما يتصل بالسياسة والثقافة والاجتماع.

ويبدو أن الغرب بدأ يشعر بأنه حقق ما أراده بالنسبة إلى العالم الإسلامي فيما يتصل بالسياسة بسيطرته على النظم الحاكمة وفرض ما يريده عليها، وأن شهيته الآن بدأت تتجه إلى نظم الاجتماع والثقافة بفرض نظام موحد في الاجتماع والثقافة وهو ما يمكن أن نطلق عليه: «عولمة الاجتماع والثقافة» فالاجتماع أساسه الأسرة، والثقافة أساسها القيم الدينية، وفي حالة العالم الإسلامي فإن القيم الإسلامية هي التي تصوغ الاجتماع والثقافة وحياة البشر والناس.

إن الغرب شعر أن النظم الحاكمة قدمت عبوديتها وولاءها؛ لكن الناس والبشر في العالم الإسلامي لا تزال تأبى إلا أن تجعل عبوديتها وولاءها لله؛ ومن هنا كان اقتحام عالم الأسرة التي تمثل أساس الاجتماع الإسلامي.

وبشكل عام فإن الغرب وأمريكا خاصة تتبنى «سياسة تفكيك المجتمعات» أي جعل أهلها شيعاً وأحزاباً - وهي السياسة الفرعونية التي تعبر عن الطاغوتية والاستعلاء، ولكي تفكك هذه المجتمعات فإنها تسعى إلى ضرب مواطن القوة التي تحول دون اختراق المجتمعات الإسلامية. وأحد أهم مواطن القوة في العالم الإسلامي نظام الأسرة الذي يحفظ للمجتمع قوته وتماسكه. وتبدو الهجمة الغربية (الأمريكية) الآن عبر تسيدها وهيمنتها وشرائها للنخب العنكبوتية، واحتفائها بجمعيات ضغط نسائية منتفعة، وعبر جمعيات حقوقية نسائية وحقوقية عامة، وعبر تمويل هذه الجمعيات وكأنها فيها تفرض ولو بالقوة أجندة خاصة، وتأتي الأسرة والمرأة وقضاياها ذات الأولوية من الهجمة الغربية الأمريكية الجديدة، وهذه الهجمة تؤكد أن الغرب ووكلاءه في المنطقة ينتقلون من التخطيط والإعداد للغزو الفكري والقيمي للعالم الإسلامي إلى التنفيذ منتهزين لحظة تاريخية - إنما هي القوة المتسيدة للغرب وضعف العالم الإسلامي.

تعميم الحالة المصرية:

في مصر حيث يعتبر الأزهر المؤسسة الإسلامية الأولى وأحد المرجعيات السنِّية الأعلى في العالم الإسلامي - في مصر هذه تم «إقرار قانون الأحوال الشخصية الجديد» وهو قانون أعدته بالأساس وزارة العدل المصرية. ووفق معلوماتنا فإن مشروع القانون جاء استجابة لتلبية مطالب «اللوبي النسائي المصري» الذي يرتبط بالتيار النسوي الغربي وهو التيار الذي صاغ أجندة مؤتمر السكان والتنمية الذي عقد في القاهرة عام ١٩٩٤م، ثم أجندة «وثيقة مؤتمر بكين» الذي عقد ببكين في الصين عام ١٩٩٥م، وهي سلسلة مؤتمرات بدأت في السبعينيات تبنتها الأمم المتحدة، وتستهدف بشكل أساس «إعادة الهندسة الاجتماعية للأسرة وللاجتماع الإنساني والبشري». وهذه المؤتمرات وأفكارها

تستمد قوتها من أمريكا والأمم المتحدة والعالم الغربي الذي يريد أن يفرض عولمة الاجتماع الإنساني وفق منظومة القيم الغربية مستظهراً دعاوي حقوق الإنسان وحماية المرأة؛ حيث إن العالم الغربي لم يعد يرى أن ترتيب قواعد الاجتماع البشري مسألة داخلية تخص أبناء دين أو مجتمع بعينه؛ وإنما هي مسالة كونية عالمية تفرض القيم الغربية، وتستدعي حمايتها ولو بالتدخل الذي يحمل صفة إنسانية.

ووفق معلوماتنا فإن الغرب وأمريكا لم تكن بعيدة عن مطالبة وزارة العدل المصرية بطرح مشروع القانون الخاص بالأحوال الشخصية، وفرض مواد موضوعية فيها وهي المواد الخاصة «بالخُلع» «وسفر الزوجة» و «قبول طلاق المتزوجة عرفياً»؛ فقد كان مشروع القانون الذي عرض على مجلس الشورى المصري عام ١٩٩٨م إجرائياً بحتاً؛ لكن إضافة هذه المواد عليه نقلته من كونه قانوناً للإجراءات إلى قانون موضوعي؛ والهدف من ذلك كسر قوامة الرجل بالسماح لزوجته بالسفر دون إذنه، وتفكيك الأسرة المسلمة عن طريق إعطاء المرأة «حق الخلع» أي الحرية بالمفهوم النسوي لإنهاء العلاقة الزوجية متى شاءت دون أن يكون هناك أي عوائق يتطلب إثباتها مثل «الضرر».

ولأن القانون يدخل في نسيج العلاقات الخاصة أولاً، ويتدخل في منطقة فَصَّل الإسلامُ فيها باعتبار أن التشريع لها حق لله وحده ثانياً، ولأن هذه المنطقة من التشريع لا تزال البقية الباقية من القوانين القائمة الآن ومرجعيته الإسلام، لكل هذه الاعتبارات أراد واضعو المشروع أن يحصلوا على موافقة الأزهر، فعرض على مجمع البحوث الإسلامية الذي رده مرتين اثنتين بعد مناقشات وتمحيص، ثم عرض على مجلس الشعب؛ حيث تمت الموافقة عليه بعد حذف مادة حق الزوجة في السفر بدون إذن زوجها، وبقيت مادة الخلع.

والذي لم يجرِ الالتفات إليه في قانون الأحوال الشخصية الجديد بمصر؛ أنه ألغى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية وهي آخر ما كان باقياً للإسلام من أثر حاكم ومرجعي في القوانين؛ ومن ثم فإن القانون الجديد رغم المعارضة الإسلامية والشرعية له فإنها معارضة في الفروع وليس في الدفاع عن المرجعية الإسلامية ذاتها - أي أنه قانون مرجعيته مدنية علمانية، والقصد من ورائه هو تعميم هذه التجربة في قوانين البلدان العربية الأخرى؛ بحيث يكون هناك قانون موحد للبلدان العربية للأحوال الشخصية وتكون مرجعية هذا القانون الموحد مدنية علمانية، وهو جزء من المشروع الغربي لعولمة الاجتماع الإسلامي وعلمنته، وتواكب الحديث - مع إخراج قانون الأحوال الشخصية الجديد في مصر عن تعديل المادة ٢٤٠ في قانون العقوبات التي تساوي بين المرأة والرجل إذا وجد أي منهما الآخر متلبساً بالزنا، فالمادة الحالية تجعل الرجل الذي يقتل زوجته إذا رآها متلبسة بالزنا مع آخر في فراشه تجعله متهماً بجنحة باعتباره دفاعاً عن شرفه؛ بينما إذا حدث ذلك بالنسبة للمرأة فإنها تكون جريمة خيانة وهي مادة مأخوذة من القانون البلجيكي - لكن الفكرة المهيمنة على النائبة التي طالبت بتعديل المادة هي فكرة المساواة بين المرأة والرجل رغم أن المناط مختلف؛ فقد تكون المرأة التي رأتها الزوجة مع زوجها زوجته الثانية وليست خدينة له، بينما في حالة المرأة لا يمكن أن يكون من معها زوج لها؛ لأنها لا تجمع بين زوجين في آنٍ واحد.

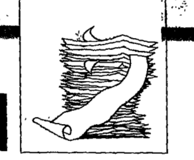
لكن المطالبة بتعديل المادة هو جزء من حملة نسوية تطرق على الحديد وهو ساخن؛ وبالمنهج نفسه والاستراتيجية ذاتها بدأ تحرك الجمعيات النسوية المصرية المشبوهة لتأسيس اتحاد فيما بينها على طريق تنظيم صفوفها لطرح مطالبها النسوية ذات الطابع الشاذ والعنصري. وعلمنا أن المحرِّكة لفكرة تأسيس اتحاد نسوي هي «نوال السعداوي» التي قامت بعقد مؤتمر صحفي دعت إليه الوكالات الغربية العاملة في مصر وحدها مطلع هذا الشهر؛ حيث طالبت بتشريعات نسوية علمانية لا يكون لله فيها أي سلطان أو حق على حد تعبيرها، ومعلوم أن الجمعيات النسوية المصرية والعربية قد تفككت عُراها بسبب اتهامات بسرقات تمويل هذه الجمعيات من الجهات الأجنبية. وآخر ما أمكننا رصده مما يمكن أن نطلق عليه: «توابع قانون الأحوال الشخصية المصري» ما تقدم به النائب «محمد خليل قويطة» من

اقتراح مشروع قانون لتعديل قانون العقوبات، بحيث يتناول التعديل في مادته ٢٩٠ جواز قيام النيابة بالإذن بإجهاض الفتاة التي تحمل سفاحاً بناءاً على تقرير الطبيب الشرعي. وقال النائب: إن الاقتراح يخفف من متاعب الجنين عليها، ويزيل مخاوفها من رعاية طفل فرضته جريمة الاغتصاب.

ولا بد من ذكر المظاهرة النسوية التي سبقت إخراج (مشروع) قانون الأحوال الشخصية والتي تمثلت في المؤتمر الذي نظمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر في الذكرى المئوية الأولى لصدور كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» الذي صدر عام ١٨٩٩م ـ وذلك في الفترة من ٢٣ ـ ٢٨ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٩م؛ وفي تجمع لنساء أخفقن في حياتهن الزوجية أو العجائز والمقعدات ليعبرن بصراحة عن محادة الله ورسوله والدعوة إلى تبني القيم النسوية الغربية والتخلص مما أسموه: (القيود الدينية) ـ في ذلك المؤتمر طالب هؤلاء النسوة بالمساواة بين الرجل والمرأة في الميراث وبحق المرأة المطلَق في الحرية بجسدها، وبحقها في كسر أي قيود للرجل عليها. وبلغ التطرف النسوي العربي حداً دفع بعض المشاركات إلى رفض هذا التطرف للمرأة العربية، وانسحبت المحجبات من الجلسات التي بالغت في الهجوم على الإسلام والدعوة الصريحة للعري وإلى التبذل المحرم، كما امتنع ممثلو التيار الإسلامي (ممن دعي) من الحضور لاقتناعهم أن النسوة الذين تم مشاركتهن لا يعبرن عن تيار حقيقي في العالم العربي والإسلامي وأنهن فئات مهمشة ومهووسة بتقليد الغرب ومنسحقة أمام قيمه؛ فالحالة المصرية تستجمع قوتها النسوية للتنفيذ والإعلان عما كان مخبوءاً.

وبينما كان الصخب حول مشروع قانون الأحوال الشخصية على أشده في القاهرة إذا بالرباط تتجاوب معها؛ حيث انتقل الصخب إلى هناك حول ما أطلق عليه المغاربة: (خطة الحكومة لتفعيل مشاركة المرأة في التنمية) وحكاية التفعيل هذه هي أحد بنود الأجندة النسوية القومية لجعل المرأة أكثر فعالية. ومعنى فعاليتها عندهم هو تأخير سن زواجها، وانخراطها في العمل بعيداً عن أسرتها باعتباره ـ وفق قيم الغرب ـ يدر دخلاً، ومن ثَمَّ فهو العمل المحترم حتى لو كان من البغاء ـ بينما يُنظر للمرأة التي تعمل في البيت بأنها خارج الإطار ولا تعمل عملاً منتجاً. وفي الواقع فإن مسألة الاندماج في التنمية بالمغرب ليست سوى ستار لإقرار قانون أحوال شخصية جديد هناك شبيه بقانون الأحوال الشخصية الذي تم صكه في مصر ووافق عليه شيخ الأزهر ورئيس جامعته. ومن قبل في لبنان ثار موضوع «الزواج المدني»؛ حيث تكون مؤسسة الزواج لا تقيم أي اعتبار للدين أو العقيدة؛ بحيث يمكن للمسلمة أن تتزوج كافراً أو مشركاً، وتصبح العلاقة الأسرية علاقة مدنية يحكمها عقد ينظمها بعيداً عن المودة والرحمة التي يفرضها الالتزام بالإسلام. وفي الكويت شهدت مسألة حقوق المرأة السياسية صراعاً بين العلمانيين والإسلاميين، وتم التصويت ضدها في مجلس الأمة الكويتي. ويهدف الذين يتبنون قانون الحقوق السياسية للمرأة في الكويت إلى كسر الحجاب بين المرأة والرجل وفرض الاختلاط بشكل مطلق؛ وهو ما يعد تهديداً لتقاليد المجتمع الكويتي. وفي الإمارات دعوة إلى اقتحام المرأة للوزارة.

إن ما يحدث الآن هو التلاعب بقواعد الاجتماع الإسلامي وطرح قواعد جديدة مستلهَمة من الرؤية الغربية إلى حد محاولة فرض أيديولوجية نسوية جديدة لها انتشارها وذيوعها كما كان الحال بالنسبة للاشتراكية والشيوعية والليبرالية ـ وتكون هذه الأيديولوجية عابرة للقارات؛ بحيث تكون المساواة بين الذكر والأنثى هي محورها! إنها الحرب الجديدة ولا شيء سوى كونها حرباً حقيقية تحتاج إلى وعي وجهاد لمدافعتها ورد خطرها عن مجتمعنا الإسلامي؛ فهو آخر خطوط دفاعنا عن حصوننا.



أساليب تغريب المرأة وآثارها

محمود كرم سليمان

الحمد لله ـ تعالى ـ والصلاة والسلام على رسوله. وبعد:

فإن فساد المرأة فساد للأسرة كلها وللمجتمع بأسره لما له من أثر عميق على الناشئة والشباب، ولعل أبرز ما نراه اليوم هو هذا التخطيط المرسوم بدقة والذي أخذ طريقه إلى المدارس والجامعات فأدى إلى تغريب المرأة وعلمنتها وابتعادها عن دينها.

كما أصبح الإعلام الحديث بجميع ألوانه سلاحاً يفتك بالمرأة ويغريها على الفساد خاصة أنه قد بلغ من الإبداع والتأثير قدراً كبيراً جعل من المستحيل مقاومة إغرائه، وقد اعتمد هذا الإعلام في معظم برامجه ومصنفاته الفنية والإعلانية اعتماداً محورياً على مظهر المرأة ومفاتنها سواء أكان في التلفاز أو الإذاعة أو الصحف والمجلات أو الإنترنت مؤخراً.

ولا شك أن الانحراف الخطير الذي تردت فيه المرأة قد أصبح ظاهرة واضحة في المجتمع تشهد عليه تلك الآثار المستشرية في كافة مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، فضلاً عن خروجه عن مبادئ الدين الصحيح وتعاليمه الأخلاقية والإيمانية.

ولا يخفى على الناظر البصير أن هذه الظاهرة في معظمها هي ثمرة لمخططات الاستعماريين والعلمانيين التي وضعت بهدف إفساد المجتمع وتفريغه من المقومات المستمدة من دينه القويم وتراثه الخالد، وبذلك فَقَدَ قدرته على التماسك أمام ضربات الاستعمار الغربي وأصبح لقمة سائغة له.

وقد توسلت هذه المخططات بعديد من الشعارات الزائفة البراقة التي تتخفى تحت مبدأ مساواة المرأة بالرجل وتحرير المرأة من قيود الدين والعرف.

وإمعاناً في إتمام هذه الخطة الخبيثة تم وضع عملاء من أمثال (مرقص فهمي) الذي أصدر كتاب «المرأة في الشرق» ونادى فيه المرأة إلى رفع الحجاب والاختلاط بمحافل الرجال، وهاجم فيه أحكام

الشريعة الإسلامية التي تحرِّم زواج المسلمة بغير المسلم ودعا إلى التمرد على هذه الأحكام.

● وفي عام ١٩١١م تأسس في مصر «حزب بنت النيل» الذي طالب بتحرير المرأة من الحجاب وتقييد الطلاق وكان من قياداته القديمة درية شفيق، وأمينة السعيد وغيرهما.

● وفي عام ١٩١٣م دعيت هدى شعراوي لحضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي بروما، وكان من توصياته: العمل على تعديل قوانين الطلاق لوقفه، ومنع تعدد الزوجات، وتقرير حرية المرأة في السفور والاختلاط.

وأصدر قاسم أمين كتابه: «المرأة الجديدة» الذي نادى فيه بالاتجاه الأعمى إلى تقليد الغرب فكرياً واجتماعياً، وعلى دربه سار سعيد عقل ولويس عوض ولطفي السيد ونجيب محفوظ، وعديد من أعضاء المحفل الماسوني، ومن الشعراء صادق الزهاوي، ونزار قباني وغيرهم.

ومما زاد الطين بلة قيام زعيم وطني بتمزيق النقاب من فوق وجه فتاة مسلمة في أكبر ميدان في مصر، كما أمر زوجته بحرق الحجاب أمام الجمهور.

ومن فضل الله ـ تعالى ـ أن قيَّض للأمة الإسلامية في هذا الوقت علماء مجاهدين وقفوا بكل قواهم لصد هذه المخططات ولتفنيد هذه الدعوات المشبوهة مما كان له أثره في التخفيف من مساوئها.

الآثار التي ترتبت على إفساد المرأة:

أولاً: مؤشرات عامة تظهر عمق ما أصيبت به المرأة والمجتمع:

١ - **البعد عن الدين:** وذلك بعدم معرفتها لعقيدته السمحة وفروضه وسنته وشريعته العادلة وأخلاقه الرشيدة، وكذلك عدم الالتزام بأداء العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وذكر وتلاوة وحفظ للقرآن الكريم واستغفار وحمد لله ـ تعالى ـ ودعاء وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقد تمرد بعضهن على تعاليم الدين وتنكرن لعقائده وعباداته وأحكامه مخالفات لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

٢ - **اتباع الشيطان وهوى النفس:** وبذلك تمرغت في أوحال الفسوق والانحلال، وسارت خلف نوازع النفس الأمارة بالسوء، وانطبق عليها قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وأنكرت قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣] وقد ورد عديد من الأحاديث عن رسول الله ﷺ عن هذا الصنف من النساء نذكر منها:

عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إياكم وخضراءَ الدمن! قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء»[1].

روى النسائي أن النبي ﷺ قال: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية»[2].

وروى كذلك: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»[3].

٣ - **التنكر للآداب الدينية**: مثل الحجاب وغض البصر وعدم الاختلاط بالرجال إلا بضوابطها الشرعية؛ فهي لا تقيم وزناً لتعاليم الدين التي تنهى المرأة عن الخروج كاشفة لملابسها الفاضحة، أو متزينة بالجواهر والحلي البراقة، أو متعطرة، أو متحلية بالأصباغ في وجهها خارج بيتها حتى لا تفتن الرجال، وقد روى أبو هريرة قول النبي ﷺ: «صنفان من أهل النار: أحدهما نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها»[4].

٤ - **تضييع الوقت فيما يضر**: فالوقت هو الحياة؛ وهذا الصنف من النساء يقتلن وقتهن في السهر في الملاهي التي تغضب الله - تعالى - كمشاهدة الأفلام الخليعة، وفي قراءة الكتب والصحف والروايات التي لا تراعي الآداب والأخلاق القويمة فيما تنشر، وفي مجالس الغيبة والنميمة والتآمر على الفضيلة وإفساد ذات البين، وغير ذلك من الآثام.

٥ - **مصاحبة أقران السوء**: فالصحبة الفاسدة لها أثر كبير في نشر الفساد؛ فهي كعدوى الأمراض ينتشر خطرها بالاختلاط خاصة بين النساء والرجال كما سبق ذكره.

٦ - **انشغال المرأة بالعمل** والاشتراك في النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على حساب بيتها وأبنائها؛ والإسلام أباح للمرأة أن تعمل إذا ألجأتها الضرورات الاجتماعية إلى العمل لا أن يكون هذا نظاماً عاماً، وعليها حينئذ أن تراعي الشروط التي وضعها الإسلام لإبعاد فتنة المرأة عن الرجل وفتنة الرجل عن المرأة.

وقد أثبتت التجربة الغربية الآثار السلبية لعمل المرأة، ونذكر منها:

● في الولايات المتحدة دخل المستشفى أكثر من ٥٦٠٠ طفل في عام واحد متأثرين بضرب أمهاتهم العاملات لهم، ومنهم نسبة كبيرة أصيبوا بعاهات.

● في مؤتمر للأطباء عقد في ألمانيا قال الدكتور كلين رئيس أطباء مستشفى النساء: إن

---

(١) المسند لشهاب، ٢/٩٦، وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير، ٢/١٧٩ (رواه الواقدي من رواية أبي سعيد الخدري وهو معدود من أفراده، وقد علم ضعفه).

(٢) رواه النسائي، ح/٥٠٣٦.

(٣) رواه ابن ماجة، ح/ ١٨٩٤.

(٤) رواه مسلم، ح/ ٣٩٧١.

الإحصاءات تبين أن من كل ثمانية نساء عاملات تعاني واحدة منهن مرضاً في القلب وفي الجهاز الدموي، ويرجع ذلك - في اعتقاده - إلى الإرهاق غير الطبيعي الذي تعاني منه المرأة العاملة - كما تبين أن الأمراض النسائية التي تتسبب في موت الجنين أو الولادة قبل الأوان قد تعود إلى الوقوف لمدة طويلة أو الجلوس المنحني أمام منضدة العمل أو حمل الأشياء الثقيلة، بالإضافة إلى تضخم البطن والرجلين وأمراض التشوه».

● توصلت نتائج دراسات أذاعتها وكالات أنباء غربية في ١٧/٧/١٩٩١م إلى أنه خلال العامين السابقين هجرت مئات من النساء العاملات في ولاية واشنطن أعمالهن وعدن للبيت.

● نشرت مؤسسة الأم التي تأسست عام ١٩٣٨م في الولايات المتحدة الأمريكية أن أكثر من ١٥ ألف امرأة انضممن إلى المؤسسة لرعايتهن بعد أن تركن العمل باختيارهن.

● وفي استفتاء نشرته مؤسسة أبحاث السوق عام ١٩٩٠م، في فرنسا أجري على ٢,٥ مليون فتاة في مجلة ماري كير كانت هناك نسبة ٩٠٪ منهن ترغبن العودة إلى البيت لتتجنب التوتر الدائم في العمل ولعدم استطاعتهن رؤية أزواجهن وأطفالهن إلا عند تناول طعام العشاء.

● وفي الولايات المتحدة ٤٠٪ من النساء العاملات، وفي السويد ٦٠٪ منهن، وفي ألمانيا ٣٠٪، وفي الاتحاد السوفييتي (سابقاً) ٢٨٪ يعانين من التوتر والقلق وأن نسبة ٧٦٪ من المهدئات تصرف للنساء العاملات.

● أما في الاتحاد السوفييتي فقد ذكر الرئيس السابق «جورباتشوف» في كتابه عن البروسترويكا أن المرأة بعد أن اشتغلت في مجالات الإنتاج والخدمات والبناء وشاركت في النشاط الإبداعي لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية من أعمال المنزل وتربية الأطفال.

وأضاف قوله: «لقد اكتشفنا أن كثيراً من مشاكلنا في سلوك الأطفال والشباب وفي معنوياتنا وثقافتنا وإنتاجنا تعود جميعاً إلى تدهور العلاقات الأسرية، وهذه نتيجة طبيعية لرغبتنا الملحة والمسوَّغة سياسياً بضرورة مساواة المرأة بالرجل».

● وفي دول الخليج ظهرت مشكلة من لون آخر فقد زاد عدد المربيات الأجنبيات بسبب عدم تفرغ الأم لرعاية أطفالها، ولو وضعنا في الاعتبار أن نسبة كبيرة من هؤلاء المربيات غير مسلمات، وأن معظمهن يمارسن عباداتهن الخاصة أمام أطفال المسلمين، وأسوأ من ذلك أنهن يزاولن علاقات جنسية مع أصدقاء في منازل مخدوميهن بالإضافة إلى احتسائهن للخمر وتدخين السجائر بمصاحبة الأطفال، ومن ذلك ندرك حجم الخطر الذي يهدد الأسرة المسلمة بسبب تحرر المرأة من تعاليم دينها وإهمالها لواجباتها نحو أولادها وبيتها.

ثانياً: مشكلات أصابت الأبناء من الجنسين:

وهذه مشكلات تشاهد في الجيل الجديد منذ الطفولة حتى من الشباب وتشمل مشكلات تربوية

ومشكلات تعليمية وثقافية.

فالمرأة الصالحة ذات الدين إذا كانت زوجة ولها أبناء تؤدي واجبها في تربية الأبناء ورعايتهم بما توفره للأسرة من سعادة، فينشأ الأبناء في رعايتها نشأة سليمة بدنياً ونفسياً وثقافياً بحيث يلتزمون بالعقيدة الصحيحة ويمارسون العبادة لله الخالق العظيم على أكمل وجه، ويتمسكون بالأخلاق الحميدة والسلوك السوي والصراط المستقيم والبر والتقوى.

أما النساء المنحرفات فهن محضن لكل فساد، وقدوة سيئة لأبنائهن في كل نواحي الحياة وفي كل أعمارهم منذ طفولتهم؛ فهم لا يكتسبون منهن إلا القيم الفاسدة والعادات السيئة والصفات الذميمة، وهن يتركنهم بدون الرقابة الواجبة ولا التوجيه الرشيد؛ حيث تربيهم الخادمات الجاهلات أو المربيات الأجنبيات فيغرسن فيهم أسوأ الخصال وأرذل القيم؛ ولذلك آثار لا تمحى في أعماق نفوس الأبناء تلازمهم في مستقبل حياتهم مما يكون له نتائج لا شعورية في كل سلوكهم، وقد يؤدي إلى إخفاقهم في الدراسة والعمل بل في تكيفهم مع المجتمع.

أما دور الأم في تعليم أولادها وبناتها خاصة قبل سن التعليم فهو في غاية الأهمية؛ فإن الطفل يخرج إلى الحياة مجرداً عن العلم بأي شيء؛ تأمل قول الله - تعالى -: **﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** [النحل: ٧٨]، والأم هي التي تقوم بتعليم أطفالها استخدام هذه الأجهزة الربانية في الحركة والكلام والأكل والإمساك بالأشياء واللعب، كما يتعلمون من الأم والأب وغيرهم من المصاحبين لهم اللغة، ويعرفون بالسماع أسماءهم التي ينادون بها، ثم يلي ذلك تعلم القراءة والكتابة البسيطة والنطق الصحيح للألفاظ ويحفظون اسم الله - تعالى - ومبادئ الدين.

وهذا الدور الهام لا يمكن أن تؤديه الأم المنشغلة عن أولادها التي تقضي وقتها خارج بيتها، كما لا تصلح له الأم الجاهلة بأمور دينها ودنياها وبواجباتها نحو أطفالها.

وعندما يجتاز الأطفال هذه المرحلة يكون دور الأم في تحصيل أبنائها العلمي مساعداً لدور المدرسة؛ فهي تعاونهم على أداء واجباتهم الدراسية في المنزل كما تهيئ لهم الأجواء المناسبة في البيت للشعور بالراحة والأمان والحنان والحب مما يكسبهم الثقة في النفس والتفاؤل والثقة في المستقبل، كما تتولى الأم الإجابة على تساؤلات أبنائها في هذه المرحلة التي يكونون فيها دائمي السؤال عن كل ما يخطر على بالهم؛ ويتوقف على مدى صواب إجابات الأم امتلاء عقولهم وقلوبهم بحقائق الحياة وتعرفهم على الفرق بين الحق والباطل والخير والشر والخطأ والصواب.

وأهمية دور الأم في هذه المرحلة في تعليم أبنائها دينهم ومراقبة ممارستهم للعبادات والتزامهم بالسلوك والأخلاق التي يحض عليها الإسلام وتعريفهم تعاليم الدين المتعلقة بالمجتمع وآدابه في كل شيء؛ وذلك استكمالاً لمقررات الدين في المدرسة ومراقبة تطبيقهم لهذه المعارف والآداب. وهناك أمور

تحتاجها الفتاة من الأم تختص بها دون الولد تعتمد على علم الأم بها واهتمامها بها بتبليغ بناتها بها في الوقت المناسب وتدريبهن عليها، نذكر منها ما تحتاجه البنت من معلومات عند البلوغ وواجباتها الخاصة في تدبير المنزل وخدمة الأسرة لتعرف حقوق الزوج والأبناء والبيت عندما تتزوج.

وهذه الواجبات السابق ذكرها لا يمكن أن تؤديها الأم الفاسدة، أضف إلى ذلك أن فساد عقيدة الأم يؤدي إلى دفع أولادها نحو الالتحاق بالمدارس الأجنبية ومن ثَمَّ بالثقافة الغربية مما يكون له أثر بالغ في نشأة شخصيتهم غريبة عن مجتمعهم ودينهم.

ثالثاً: مشكلات أصابت الرجال من أزواج وأقارب كما أصابت المجتمع كله:

١ - **تأثيرها على الزوج**: حيث قد يدفعه فسادها إلى ارتكاب المعاصي وإلى طريق الشيطان والبعد عن الصراط المستقيم، كما أن عدم التزامها بالحجاب وتبرجها أمام الرجال يثير سخط زوجها وغيرته عليها مما يكون له أثره في ارتكاب الزوج لردود أفعال لجنون الغيرة غير محمودة العواقب.

والمرأة التي لا تحترم الحياة الزوجية تضر بالأسرة وتهدد بتحطيمها بالطلاق أو بإهمال الرجل لبيته أو بالاتجاه إلى زوجة أخرى، أو الهروب إلى المقاهي ودور اللهو؛ وكثيراً ما تكون سبباً في إدمانه للتدخين والمخدرات والمسكرات.

ومشكلة الطلاق في الغرب تعبر عن هذه الظاهرة في بلاد تعيب على الإسلام إباحته للطلاق؛ فقد بلغت نسبة الطلاق إلى عدد الزيجات في السويد ٦٠٪، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ٤٠٪، وفي ألمانيا ٣٠٪، وفي الاتحاد السوفييتي ٢٨٪، وفي فنلندا ١٤٪. ونذكر هذه الدراسة التي نشرتها مجلة شتيرن من ألمانيا أن ثلثي الراغبات في الطلاق في فرنسا يمارسن عملاً خارج البيت وأن ٢٢٪ من حالات الطلاق في ألمانيا نتيجة الخيانة الزوجية، و١٠٪ منها لأسباب جنسية، و١٠٪ منها بسبب الإدمان.

أما في العالم العربي فقد وصلت مشكلة الطلاق إلى حجم غير مألوف مما يحتاج إلى دراسة مستقلة.

ومن المشكلات الاجتماعية عزوف المرأة عن الإنجاب؛ حيث لا ترغب في تحمل متاعب الحمل والوضع؛ وقد يدفعها ذلك إلى الإجهاض، وقد تقصر المرأة العاصية في تلبية حاجات زوجها الجنسية مما يؤدي به إلى الزنا أو الشذوذ.

وقد يؤثر ذلك على صحة الزوج بدنياً ونفسياً، ويجعله عرضة للأمراض الجنسية والنفسية وغيرها.

قد تدفع المرأة إلى انحراف زوجها مالياً لكي يحقق الثراء والكسب الحرام تلبية لمطالبها من الملابس الفاخرة والمجوهرات والسهرات الماجنة والحفلات الصاخبة.

٢ – تأثيرها على الرجال من الأقارب والآخرين:

المرأة التي لا تلتزم بتعاليم دينها في الحجاب وعدم الاختلاط بالرجال لها خطر عظيم على مجتمع الرجال، لذلك فقد حرص الإسلام على أن يباعد بين الجنسين إلا بالزواج لما يتبع هذا الاختلاط والتبرج من ضياع للأعراض وخبث للطوايا وفساد للنفوس وتهدم للبيوت وشقاء للأسر.

وقد لوحظ في المجتمعات المختلطة بين الجنسين طراوة في أخلاق الشباب ولين في الرجولة إلى حد الخنوثة والرخاوة.

والمرأة التي تخالط الرجال تتفنن في إبداء زينتها ولا يرضيها إلا أن تثير في نفوسهم الإعجاب بها؛ ولذلك أثره في الإسراف في تكاليف التبرج والزينة المؤدي إلى الخراب والفقر.

ويترتب على ذلك انتشار الفحشاء والزنا والأمراض المصاحبة لها في الدنيا، وفي الآخرة عذاب عظيم لمخالفة تعليم رب العالمين نذكرمنها قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ عن ربه ـ عز وجل ـ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[1].

وروي عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إياك والخلوة بالنساء! والذي نفسي بيده! ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما، ولأن يزحم رجل خنزيراً ملطَّخاً بالطين خير له من أن يزحم منكبيه منكب امرأة لا تحل له»[2].

أخرج النسائي: قول النبي ﷺ: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية»[3].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني، ١٧٣/١٥، والمستدرك للحاكم، ٣٤٩/٤، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره العراقي وضعفه المنذري كما في كشف الخفاء للعجلوني، ٤٣٧/٢.

(٢) مسند أحمد، ٢٦/١، والترمذي، ٤٦٥/٤ وصححه الحاكم في المستدرك، ١١٤/١ وابن حبان في صحيحه، ٤٣٦/١٠.

(٣) رواه الترمذي، ح/ ٢٧١٠.

وإثم مخالفة تعاليم الله ـ تعالى ـ لا تقف على النساء فقط بل على المخالفين من الرجال؛ ولا يعذرون عند الحساب لا في الدنيا ولا في الآخرة بأنهم كانوا فريسة لفساد النساء ولغواية الشيطان بعد أن حذرهم الله ـ تعالى ـ.

٣ - تأثيرها على المجتمع كله:

هذه المشكلات التي تهز اليوم أركان الأسرة والمجتمع بشدة كمشكلة الاغتصاب وخطف الفتيات والأطفال غير الشرعيين وأولاد الشوارع كلها من آثار فساد المرأة. وقد ظهر حديثاً ظاهرة انتشار ما يسمى بالزواج العرفي الذي وضع الأسرة أمام مشكلات جديدة تضع غطاءاً يخفي الفساد الاجتماعي الناتج عن انحراف الفتيات ويؤثر على مستقبل الأجيال القادمة.

كما زادت نسبة جرائم الأحداث والتشرد والتسول والأطفال المعاقين وهي نتيجة لتحطم الأسرة الفاسدة وانحراف الزوجين وإهمال الأبناء.

وأخيراً: هناك مشكلات اقتصادية تؤثر على المجتمع ترتبت على انحراف المرأة العاملة فضلاً عن انخفاض إنتاجيتها؛ فإنها تؤثر على إنتاجية زوجها وأولادها العاملين وتعوق تفوقهم في العمل وتفرغهم للإنتاج؛ ولذلك أثره المدمر على الاقتصاد الوطني.

وختاماً فإن الحمد والفضل لله ـ تعالى ـ الذي أنزل للإنسانية كتابه الكريم الذي فيه شفاء لكل أمراضها وعلاج لكل مشكلاتها وهداية لها من الضلال. وقال ـ عز وجل ـ: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [المائدة: ١٥، ١٦]، كما تكفل ـ عز وجل ـ بحفظه إلى يوم الدين؛ حيث قال: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [الحجر: ٩].

وذلك يبعث الأمل في الإصلاح بالرجوع إلى كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ﷺ والتمسك بهما والعودة إلى المجتمع الإسلامي الفاضل.

ونسأل الله ـ تعالى ـ أن يرزقنا الإيمان ويوفقنا إلى طاعته ذكوراً وإناثاً وبذلك يتحقق صلاح الأمة بأسرها في الدنيا وتنال رضوان الله ـ تعالى ـ في الآخرة.



ماذا يريدون من المرأة..؟!

حركة تحرير المرأة في مصر

وحصاد ثلاثين ومائة عام

محمود بن محمد المختار الشنقيطي

لم يكن عفواً ولا من قبيل المصادفة أن يبدأ أعداء الإسلام من صليبيين ويهود وعلمانيين ومتفرنجين وعبّاد الشهوة والجنس ـ أن يبدؤوا حربهم ضد المرأة بمصر؛ ذلك أن أرض الكنانة هي قبة الإسلام، وقلعته ومركز ثقله، ولتبوُّؤ أزهرها الصدارة والريادة العلمية والفكرية لأمة الإسلام منذ أن تسلمت مصر زعامة العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري على يد الفاتح صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ.

فلا غرو إذاً أن يلمس الحاقدون على الإسلام ـ حتى عهد الاستعمار ـ نزوع المصريين الفطري إلى التديُّن وتمسكهم بعرى الدين؛ لا غرو من اعتبار هذه الظاهرة مصدر قلق لهم جعلتهم يبدؤون بها، حتى إذا ما انتصروا في معركتهم ضد المرأة بمصر سهل بعدئذٍ سقوط حصونها وقلاعها في سائر بلاد المسلمين.

احفظوهـا؛ إنَّ مصر إنْ تَضِـعْ ضـاع في الدنيا تراث المسلمين

وبين يديك ـ أخي القارئ ـ بعض نتائج حركة تحرير المرأة وحصادها[1] بمصر باعتبارها أول حركة تحرير في العالم الإسلامي قامت على إثْر حركات التحرير في الغرب، وإنما وقع الاختيار على هذه الحركة لأسباب أهمها:

١ ـ عامل السبق الزماني وطول الفترة الزمنية لفصول حركة التحرير بمصر؛ حيث استغرقت مائة وواحداً وثلاثين عاماً من حين عودة رفاعة الطهطاوي من باريس عام ١٨٣١م ـ وهو الذي بذر البذرة الأولى ـ إلى صدور الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ في عهد جمال عبد الناصر، وقد احتوى هذا الميثاق على أكبر ما يعدونه تتويجاً للمرأة، ونص على أنه لا بد أن تتساوى بالرجل، ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التي تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية في صنع الحياة[2].

---

(١) عقد الأستاذ محمد قطب فصلاً بعنوان: (هل للمرأة قضية أصلاً؟) في كتابه: «قضية تحرير المرأة»، ص٣، وانظر أبعاد الحركة النسوية للدكتور محمد يحيى، في مجلة البيان عدد ٨٣، ص ١٠٢.

(٢) المؤامرة على المرأة المسلمة تاريخ ووثائق، للدكتور السيد أحمد فرج، دار الوفاء مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ص ١١٦.

٢ - اكتمال تجربة حركة التحرير بمصر ونضجها؛ حيث كانت الوسائل فعّالة والتركيز عنيفاً.

٣ - توافر أسباب التدوين وكثرة المراجع والمصادر التي تحدثت عن هذه الحركة من النشأة إلى النهاية.

وفي هذا المقال أسلط الضوء على أهم ما حصدوه من المكاسب وما حققوه من المطامع، وفق الأهداف التي رسموها مقتصراً على تعدادها، دون العناية بتحليلها ونقدها من منظور شرعي؛ فعندما يكون الخير صرفاً، أو يكون الشر واضحاً لا يكاد يختلف الناس في تحديد مواقفهم، وأحسب أن القارئ الكريم لن يجد عناءاً في التحليل والربط بين حصاد حركة تحرير المرأة بمصر الذي سنذكره - إن شاء الله - وبين نتائج ما تبعها من الحركات وحذا حذوها في مختلف أصقاع عالمنا الإسلامي. وما أصدقَ مقولةَ الفاروق عمر بما نحن فيه لمّا كتب لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما -: «اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور».

هل حصاد الحركة نتائج متقدمة أم متأخرة في طريق إصلاح المرأة المسلمة؟

ليس ثمة شك في أن حركة تحرير المرأة بمصر قد نجحت نجاحاً باهراً في ضوء الأهداف المتوخاة منها، بل حققت هذه الدعوة المضللة أعظم ما كانت تهدف إليه في مدة وجيزة، وبسهولة غير متوقعة؛ نظراً لسياسة تكسير الموجة، واتباع سياسة (بطيء ولكنه أكيد المفعول) وتفادي التصادم المباشر مع الإسلاميين الذين يمثلون الغالبية العظمى في المجتمع المصري، واستدراج بعض المشايخ المعمَّمين والعلماء ليكونوا في بداية الزحف... إلخ وسائلهم وخططهم[١].

وليس غريباً أن ننظر - نحن الإسلاميين - إلى هذه النتائج على أنها حقوق سُلِبَتْها المرأة، ووسائل شقاءٍ جُرَّت إليها[٢].

بينما يراها السفوريون التحرريون نتائج متقدمة في طريق الإصلاح، وتعزيزاً للدفاع عن حقوق المرأة، بل إن اتساع امتياز النساء من أهم الأبعاد الحضارية التي يمكن أن تقاس وتصنَّف المجتمعات والشعوب من خلاله، كما ذكر ذلك الكاتب الفرنسي روجيه جارودي قائلاً: «تتم التطورات الاجتماعية وتبدلات الزمن وفقاً لتقدم النساء نحو الحرية. إن اتساع امتيازات النساء يشكل الأساس العام لجميع التطورات الاجتماعية»[٣].

ويمكن أن نلخص نتائج هذه الحركة في النقاط الآتية:

أولاً: إيجاد القابلية وتهيئة الجو أمام الغزو الثقافي الغربي. ونقصد بالغزو الفكري والثقافي: (الاستلاب

---

(١) عودة الحجاب، ج ٢، ص ١٦٠، وسبل العفة وخطورة الانحراف وأسبابه، مريم خميس، الطبعة الأولى، دار الوفاء مصر، ١٤١٦هـ، ص ٤٦، والمرأة وكيد الأعداء، د. عبد الله وكيل الشيخ، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ، ص ١٧.

(٢) من المراجع - وهي كثيرة والحمد لله - التي حللت ونقدت هذه النتائج:

- عودة الحجاب، محمد احمد إسماعيل.
- قضية تحرير المرأة، للأستاذ محمد قطب.
- ماذا يريدون من المرأة، عبد السلام بسيوني.
- المرأة وكيد الأعداء، عبد الله بن وكيل الشيخ.

(٣) في سبيل ارتقاء المرأة، ص ٤١.

الحضاري، وأشكال التفسخ الأخلاقي، مع التهاون بالواجبات والرقة في الدين، فأوجدت جهود دعوة تحرير المرأة عبر منابرها الإعلامية ووسائلها الفعالة التي طالت الريف المصري ـ وهو يشكل معظم مصر[1] ـ، أوجدت لدى الناس شروط الهزيمة والانكسار، مع تغيب دور الإسلام الفاعل وتجريد تيار دعاة الفضيلة والحجاب من الإمكانات فاخترق الفكر الأجنبي والعدوّ الحاقد الصفوف، ليفتك كيف شاء، دون وجود مقاومة وحصانة قوية تذكر، وفعلت جهود أكثر من مائة عام فعلها في الناس «فالمسألة لم تكن قاصرة على تحرير المرأة كما يتوهم المتوهمون، وإنما كانت إرادة التغيير الجذري والشمولي باقتلاع المجتمع من جذوره»[2].

ثانياً: قبول المجتمع وإذعانه للتعليم المختلط، وقد كان السَّبْقُ في ذلك على يد مَن يسمُّونه: أستاذ الجيل!! (لطفي السيد)، فهو أول من أدخل الطالبات في قسم الطلاب سافرات الوجوه ولأول مرة في تاريخ الجامعة المصرية يسانده في ذلك طه حسين وكامل مرسي، وتحت الضغط الخارجي رضيت وزارة المعارف بالأمر الواقع واعتبار هذا من حقوق الفتيات[3].

قالت التحررية درية شفيق[4]: «في سنة ١٩٣٢م ظهرت صورة للدكتور طه حسين بك في نادي الجامعة وعلى يمينه ويساره الطلبة والطالبات جلوساً يتساءلون ويتناولون الشاي، وقامت القيامة لهذه الصورة البريئة التي تضرب المثل للأبوة في وجود العميد والإخوة في جلسة الطلبة والطالبات، واتُّخذت الصورة تكأةً يتخلص بها الرجعيون من (طه حسين) و (لطفي السيد)، ووقف الرجعيون في مجلس النواب يحملون على الجامعة ورجالها وفكرة تعليم البنات فيها، ويرون ذلك فضيحة من الفضائح يجب أن تحول دونها الحكومة»[5] [6].

ثالثاً: إخضاع الثوابت من الدين والمسلَّمات من الأحكام الشرعية لاجتهاد العلماء وتناول الباحثين ومناقشة الجاهلين والمبطلين، فاستغلها السفوريون وميَّعوها، ولبّسوا على العامة والدهماء وجه الحق فيها.

فالأمر الرباني بغضّ البصر عن العورات، وهو أمر من الواجبات الشرعية والعدالة والنزاهة، هذا الأمر صوّروه بأنه عدم ثقة في النفس، ومن مخلّفات القرون الوسطى المظلمة التي كانت تنظر إلى المرأة على أنها دون الرجل فتخفي بصرها!![7].

وقوامة الأب والزوج التي اشترطها الشرع لصحة بعض عقود المرأة وتصرفاتها اعتبروها ممارسات تعكس اضطهاد المرأة وظلمها، وتجسِّدُ ارتهانها لأبيها وأخيها أو زوجها، وهي ظاهرة استغلال الجهات الأقوى

---

(١) ذكرت (روز اليوسف) أم الكاتب إحسان عبد القدوس في مذكراتها خبر إرسالها من قِبَل المندوب البريطاني السامي للريف المصري واشترط في مدّها بمساعدات أن تعرض مسرحيتها في الريف. من (قضية تحرير المرأة، ص ٨٤).

(٢) المؤامرة على المرأة المسلمة، د. السيد احمد فرج، ص ٧٢.

(٣) عودة الحجاب، ج ٢، ص ٧٥.

(٤) لمعرفة تزاحم رجال ونساء حركة التحرير، راجع موسوعة الندوة العالمية الميسرة، وحجاب المرأة بين انتحال المبطلين، د. محمد البرازي.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٦) انظر حول فكرة توحيد المناهج بين الجنسين، كتاب المرأة وكيد الأعداء، ص ٣٢.

(٧) قضية تحرير المرأة، ص ٧٧.

اقتصادياً لامتلاك يمين المرأة، وإخضاعها لعملية القهر التاريخية[1] [2].

وقاعدة قرار المرأة في بيتها وأنها الأصل نوزعت، وجُعِل الأصل هو العمل دون شروط أو قيود أو ضوابط[3].

وسفرها دون محرم لبلاد الكفر ألبسوه لباس الابتعاث وطلب العلم والدراسة، وصار من المفاخر الاجتماعية وسمات الأسر المتحضرة والطبقات الراقية.

وإبداء الزينة للرجال الأجانب ـ الذي هو كسابقه محرَّم ومعصية ـ صار عند دعاة التحرر من تمام الرشاقة والجاذبية لفتى الأحلام وشريك المستقبل!![4].

ووجوب نسبة الابن لأبيه وحرمة انتسابه لغيره لم تعد موافقة لروح التقدم والفرنجة، فغيَّرن أسماءهن وانتسبن لأزواجهن فصرن: هدى شعراوي بدلاً من هدى بنت محمد سلطان باشا، وصفية زغلول بدلاً من صفية محمد فهمي... إلخ.

أما البيت فهو السجن ودكتاتورية الرجل، وشل للمجتمع عن الحركة، وأما الحجاب فهو كفن من اختراع المتشددات المتطرفات وعادات القرون البدائية، ثم تأتي (سيزا نبراوي) سكرتيرة هدى شعراوي، فتتزوج من الفنان مصطفى نجيب، بشرط نقل العصمة إليها، وكتب لها المأذون بذلك في العقد، ونُشِرَ للناس[5].

رابعاً: تسخيرُ بعض العلماء (المعممين أدعياء العلم) واستخدامهم لصالح حركتهم الضالة، واصطياد الأدلة لباطلهم، وليُّ أعناق النصوص لإضفاء الصبغة الشرعية والتأصيل الفقهي على أفكارهم.

فالشيخ محمد عبده الذي ثبت أنه كتب فصولاً من كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة»، هو الذي خذل أهل الإسلام يوم أن قاموا بموجة عارمة من المعارضة ضد القضايا التي أثارها كتاب قاسم أمين، وطلبوا منه فتوى في الكتابين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، ولكن الأستاذ ظل ملازماً للصمت إزاء هذه القضية التي كانت شغل الناس والعامة ـ آنذاك ـ فضلاً عن العلماء والخطباء والفقهاء والدعاة، فكان لامتناعه أعظم الأثر في تمرير أفكار قاسم أمين، مما جعل بعض علماء عصره يرميه بالاتهامات لتواطئه مع دعاة الإباحية والفجور، وما أوضح مواقف أستاذه جمال الدين الأفغاني الذي كان له أعظم الأثر والدور في إخراج الدين من المعركة تحت دعوى أن الحجاب تقاليد قديمة ضد تقاليد حديثة عصرية تقدمية! حتى قال: «وعندي أنه لا مانع من السفور إذا لم يُتخذ مطيةً للفجور»[6].

ومن مكاسبهم استخدامهم لشيخ الأزهر حسن العطار الذي شجع رفاعة وبارك فكرته، وكذلك كسبهم

---

(١) المرأة والحياة الاجتماعية، تغاريد بيضون، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ص ٢٧، ٤٠.

(٢) تقول أمينة السعيد: (القوامة لا مبرر لها، لأنها مبنية على المزايا التي كان الرجل يتمتع بها في الماضي، في مجال الثقافة والمال، وما دامت المرأة استطاعت اليوم أن تتساوى مع الرجل في كل المجالات فلا مبرر للقوامة) من عودة الحجاب، ص ١٤٢.

(٣) حول عمل المرأة كتب إبراهيم النعمة بحثاً مفيداً في مجلة الحكمة، عدد ٨ شوال ١٤١٦هـ، بعنوان (عمل المرأة بين الإسلام والغرب).

(٤) قضية تحرير المرأة، محمد قطب، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٥) سبل العفة، ص ٤٥.

(٦) دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، مصطفى فوزي آل غزال، دار طيبة الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ص ٢٧٠، وحجاب المرأة المسلمة للبرازي، ص ٤٥٠، وقد أسهب في مناقشة قضية اشتراك الشيخ محمد عبده في كتاب قاسم أمين.

للشيخ علي عبد الرازق، والشيخ سليم البشري شيخ الأزهر الذي أيّد قانون الأحوال الشخصية الوضعي عام ١٣١٩هـ، حتى إن رفاعة الطهطاوي مفتي البعثة المصرية إلى فرنسا كان يقول: «إن مراقصة النساء للرجال نظير المصارعة في موازنة الأعضاء، وإنه نوع من الأناقة والفتوة لا الفسق»[١]!!

خامساً: الحصول على بعض القرارات الرسمية الوضعية التي أصدرتها الحكومة المصرية وعممتها إرضاءاً للتحرريين ومنها:

١ - تقييد عدد الطلاق ومنع وقوعه إلا بعد موافقة الحكومة.

٢ - منع تعدد الزوجات إلا في ظروف توافق عليها الحكومة.

٣ - تأخير سن زواج الفتاة إلى السادسة عشرة فما فوق.

٤ - المساواة بين الرجل والمرأة في الميراث.

٥ - منح حق الطلاق للمرأة كالرجل.

٦ - إعطاء ما يسمونه الحق السياسي [٢] للمرأة بدءاً بحق الانتخابات ومروراً بعضوية المجالس البلدية والنيابية وكافة الأعمال والحرف كالرجل سواءاً بسواء، وانتهاءاً بحق التمثيل النيابي[٣].

سادساً: حصول التحرريين على الاعتراف الدولي العالمي بالحركة؛ فأول امرأة مصرية تحررية تعترف بها الحكومة لتمثيلها في المؤتمرات الدولية هي مَلَك حفْني ناصف في حكومة رياض باشا عام ١٩١١م.

ثم مثلت هدى شعراوي، ونبوية موسى، وسيزا نبراوي المرأة المصرية في مؤتمر روما الدولي للمرأة عام ١٩٣٢م والتقت سيزا نبراوي بالزعيم الهندي غاندي عام ١٩٣١م في مصر[٤].

والتقت هدى شعراوي على هامش مؤتمر روما بالقائد الاستعماري موسوليني ثلاث مرات وتبادلا العواطف والمشاعر الحارة، وكان مما صرح لها به قوله: «إنني أراقب باهتمام حركات التحرير بمصر»[٥].

وفي عام ١٩٣٥م التقت هدى شعراوي أيضاً بالزعيم الروحي للتحرريين أتاتورك، كما استضافت الحركة الدكتورة (ريد) رئيسة الاتحاد النسائي العالمي التي مهدت للمؤتمر العربي الدولي للمرأة عام ١٩٤٤م، وأقيم على شرفها وسط استنكارات الشعوب العربية واحتجاج العلماء، وأرسلت زوجة الرئيس الأمريكي روزفلت رسالة تبارك فيها المؤتمر[٦].

---

(١) سبل العفة، ص ٤٢، عودة الحجاب، ص ٧٧، المؤامرة على المرأة المسلمة، ص ٥٢.

(٢) هذا المصطلح غربي له مقاصد تصادم شرع الله جملةً وتفصيلاً، راجع كتاب «المرأة والحقوق السياسية في الإسلام»، مجيد محمود ابو حجير، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، فقد أجاد في كشف أبعاد حقيقة هذا المصطلح ومفاهيمه.

(٣) المؤامرة على المرأة المسلمة، ص ٩٩، ١٠٧، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د. سعد الدين السيد صالح، دار الأرقم بمصر، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، ص ٢٣٩، ٢٥٢، قضية تحرير المرأة، ص ٣٧، والمرأة والحياة الاجتماعية، ص ١٣٠.

(٤) عودة الحجاب، ص ١١٢، ١١٧.

(٥) المؤامرة على المرأة المسلمة، ص ٨٤.

(٦) الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار، محمد فهمي عبد الوهاب، دار الاعتصام، مصر، ص ٢٣، ٢٧.

سابعاً: حصول بعض أعضاء الحركة على مناصب حسّاسة في المجتمع المصري رغم مهاجمة المجتمع لهم.

● فقاسم أمين ترقى في مناصب المحاكم حتى صار مستشاراً في محكمة الاستئناف وظل بمنصبه حتى مات بالسكتة القلبية في ليلة ٢٣ إبريل عام ١٩٠٨م.

● سعد زغلول ١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ ظل بعد تخرجه من الأزهر في المحاماة، وبعد اتصاله بحزب تركيا الفتاة لمع نجمه في صالون الأميرة نازلي فاضل، واشتهر حتى تعرف على اللورد كرومر، فأسند إليه نظارة وزارة المعارف في الحكومة المصرية في ظل الاحتلال.

● هدى شعراوي أصبحت وكيلة الاتحاد النسائي الدولي بجهود حركات التحرير الأوروبية والمحافل الماسونية ومنظمات الصهيونية العالمية[١].

ومنذ نشأة الحركة وحتى اليوم ورئاسة الاتحاد النسائي المصري لا تخرج عن تلميذات هذه الحركة[٢] والزعيمة الحالية للاتحاد هي د. نوال سعداوي من أنشط المنظرات للتحلل والسفور.

ثامناً: صبغ القضية بالصبغة القومية لكسب جميع العرب من مختلف الأديان والملل، واستنفار طاقاتهم من الصليبيين الحاقدين أمثال: فهمي مرقص، وجرجي زيدان، وسلامة موسى.

وبعدُ ـ أخي القارئ ـ فما أشبه الليلة بالبارحة! ففي كل عصر ومصر تطل من جديد حركة تحرير المرأة مكرَّرة فصولها، وأدوارها، مع تغيير للافتات والأسماء والوسائل، أما الأهداف والغايات والنتائج والمنطلقات فهي هي، ومن هنا كان لا بد أن نقصد البحر وندع السواقي، ونعيد فتح ملف الحركة الأولى التي آتت أكلها بعد مائة وثلاثين عاماً من العمل الدؤوب والتخطيط المدروس... نعيد فتح ملفها لنقرأه قراءة ناقدة باصرة تساعدنا في إبطال المؤامرة على المرأة المسلمة وحجابها، ووأد الفكرة في مهدها، والذب عن الحدود والمحارم، ونفي تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين السفوريين **﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [يوسف: ٢١].

---

(١) مدى علاقة الحركة بالمحافل الماسونية، انظر كتاب «تحديات أمام المرأة المسلمة» للأستاذ أحمد الحصين، ص ٢٧٢، ٢٩٠.

(٢) عودة الحجاب، ص ٣٨، الطبعة الخامسة، دار البخاري، السعودية.



الإعلام وقضية المرأة

فاطمة بنت عبد الله البطاح

دأب الإعلام بوسائله المختلفة على تصوير المفاهيم الإسلامية الخاصة بالمرأة تصويراً يحط من قدرها، وينتقص من صلاحيتها، ويشكك في قدرتها على الاستجابة لمتطلبات الحياة العصرية، ويحقر من شأنها حتى في نظر أبنائها المنتسبين إليها.. فضلاً عن أعدائها!!

وبداية فإن هذا الدأب المستمر يُفترض ألا يبدو أمراً مستغرباً في نظر المسلم الذي يدرك ما تنطوي عليه صدور الأعداء من ضغائن وأحقاد ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾. [الصف: ٨].

كما يُفترض أمام هذه المحاولة أو الحملة الإعلامية المحمومة.. ألا يكون موقع المسلم المعاصر منها هو موقع المشتكي المغلوب على أمره! بل لا بد أن ينتقل بنفسه - ورغم تحديات الواقع الرديء - إلى موقع المشخِّص للداء، الباحث عن رؤى عملية واقعية تواجه هذه الحملة وتتصدى لها.

ولأن تاريخ الإعلام في هذا المجال ممتد ومتشعب ولا يسعنا استعراضه كله أو الإفاضة فيه، فسنكتفي بالتذكير بأن الإعلام قد سلك مسالك كثيرة ومتنوعة تصب كلها في النهاية في قالب واحد وهو أن المرأة المسلمة مهضومة الحقوق مهيضة الجناح!

ليتظاهر الإعلام بكل قنواته بالدفاع عنها والبحث عن حقوقها.. وإثارة قضايا مفتعلة كضرورة تحريرها من القيود ومساواتها بالرجال!! بالإضافة إلى إلقاء شبهات حول أحكام إسلامية معينة تُزرع في حس المرأة لتراها عبئاً ثقيلاً تتمنى الخلاص منه!

ففي تعليم المرأة وعملها:

اضطلع الإعلام بدوره في بناء مفهوم خاطئ عن قرار المرأة في بيتها؛ إذ جُعِلَ هذا القرار مُبعِداً لها عن دائرة القوى العاملة أو الكوادر المنتجة!!

فالمرأة المتفرغة لشؤون بيتها والحدب على أطفالها رعايةً وتعليماً بكل ما يمثله هذا الدور المنزلي من حضور ديناميكي فاعل ومؤثر.. لا يُعترف به إعلامياً!

وهذا يضع اليد على إشكالية الأولويات التي يفترض أن تحدد :

ما هو دور المرأة الأهم؟ وهل هناك مجال مقارنة للعائد الاجتماعي الذي يحصده المجتمع من تأدية المرأة دوراً رئيساً في بيتها، والعائد الاجتماعي من أدوار أخرى ثانوية وهامشية تمارسها المرأة خارج بيتها : مضيفة طيران، أو سكرتيرة؟

وثمة إشكالية أخرى:

تتمثل هذه الإشكالية في النظرة السائدة لعمل المرأة على أنه يكون خارج منزلها لا داخله!

وهذا الاعتقاد قد يكون منشؤه (تضخم النموذج الغربي) في العقلية العربية في ظل تقليد الضعيف للقوي والتبعية المطلقة له.

ومثلما صوَّر الإعلام قرار المرأة في بيتها بأنه أداة تعطيل لطاقات المرأة وعزل لها عن المجتمع والفعل الاجتماعي كله.. دعا أيضاً إلى ضرورة التعليم المطلق للمرأة ومنحها فرص التعليم حتى في مجالات لا تتناسب مع طبيعتها الأنثوية! ومن ثَمَّ إيجاد سيل هائل من الخريجات اللاتي يطالبن بفرص عمل!!

وأظهرت هذه الدعوة من خلال الإعلام على أنها الحل الأمثل للقضاء على الأمية النسوية التي تحرم المرأة من فرص الالتقاء بالسياق الاجتماعي الطبيعي المناسب لها، والذي لن تصل إليه إلا بما يمنحه لها (التعليم بكل ألوانه وتخصصاته وفنونه) من كفاءة وثقة وأهلية لتكوين رأيها الذاتي المستقل عن الرجل وعن قيود قوامته!

ولا يخفى أن روح الاستقلال قد حرص الإسلام على إنمائها في شخصية المرأة دونما حاجة لإلغاء حكم القرار في بيتها أو دعوة المرأة للانسحاب من أدوارها المنزلية الرئيسة، ودونما حاجة أيضاً لتعليمها علوماً لا تتناسب مع طبيعتها الأنثوية!

فالخطاب القرآني نادى المرأة على أنها كائن له حريته واستقلاله؛ إذ منحها مثلاً حرية الدخول في الإسلام دون اشتراط رضا ذويها!

بل وقَبِلَ النبيُّ ﷺ - بأمر من ربه - مبايعة المرأة له على اعتبار أنها كائن مستقل عن الرجل وليست ملحقاً له : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الممتحنة : ١٢].

ولو تأملت في حقيقة مطالبة الإعلام بمنح المرأة فرص التعليم بأنواعه أو ما يسمى بحركة التنوير فستجد أن النساء الرائدات اللاتي أبرزهنّ الإعلام ورفع راية المطالبة بحقهنّ في التعليم.. يعانين من تخلُّف وجهل شديدين حتى بعموميات الإسلام ومجمل أحكامه!

وكأن دائرة التعليم تضيق عن أحكام الدين في الوقت الذي تتسع عند نزعة العُري والرغبة في الاسترجال

والتخلص من معالم الأنوثة والفطرة! والانسياق الغبي وراء قيم ومفاهيم المرأة الغربية بكل ما فيها من انحرافات ومفاسد وأوبئة!! مما حرم هؤلاء النسوة من العلم الشامل والتحرر الحقيقي، وأوقعهنّ وبشكل أسوأ في جهل ورقٍّ مختلفين!!

فالحجاب ـ مثلاً ـ أغفل الإعلامُ الجانبَ النصيَّ (الشرعي) منه، وصوَّره على أنه عادة شعبية يتوارثها الأجيال ـ فيؤكدون ـ بذلك دونيتها، ورغبة المجتمع الذي تعيش فيه في عزلها عنه نفسياً وجسدياً! وهو بذلك معضلة حقيقية تقف عائقاً في طريق هذه المرأة نحو النهوض والتعلُّم والارتقاء، ونحوه!

ولم يقف دور الإعلام عند تصوير الحجاب بهذه الصورة الخلفية الرجعية! وإنما تعدى ذلك إلى إيذاء المحجبات تصريحاً أو تلميحاً!

ففي الوقت الذي يدندن الإعلام حول إعطاء المرأة حريتها المسلوبة تتلون هذه الدندنة وتصبح هجمة شرسة يمارسها الإعلام ضد كثير من المحجبات؛ كما هو الحال مع فئة التائبات اللاتي أعطى الإعلام نفسه حق التحدث حتى عن نواياهن وما تنطوي عليه قلوبهنّ! كما تولى كبر الهجوم على الحجاب بتأييده ومناصرته لبعض الحكومات التي منعت المحجبات من دخول الجامعات ودور العلم ليمارسن حقهنّ المشروع في الحياة!

أما التعدد: فليس بوسعنا تجاهل طرح الإعلام له بصورة متشنجة وعدائية تزرع في حس المرأة شعوراً بأن التعدد حكمٌ شُرع عليها لا لها؛ وذلك بعرضه المستمر للمشاكل والآثار الاجتماعية السيئة للتعدد بدءاً بكمٍّ هائل من قصص النزاع بين الزوجات وضرائرهنّ وأزواجهنّ، وانتهاءاً بحالات التيه والضياع التي يتعرض لها أبناء الأزواج المعدِّدين والذين ينشؤون بين عواصف مهيبة من الشقاء العائلي!

وهذا كله لم يكن الهدف الإعلامي منه هو احتواء المشكلة وإيجاد حلول لها وإنما الهدف ـ كما يظهر ـ إقصاء الحكم الشرعي كله وإظهار عدم تناسبه وتواؤمه مع روح العصر ومعطياته!!

وإلا فإن الإيمان بما للتعدد من آثار اجتماعية سيئة قد تنتج عنه في حالات وظروف معينة لا يجعلنا نلقي بلائمة على الحكم ذاته، وإنما ثمة أسباب حقيقية منها: فساد أخلاق المرء، وضعف دينه، وتجاوزه وعدم انضباطه بالآداب الإسلامية المشروعة التي تُلزِم الشخص المعدِّد بضوابط وحدود معينة تتواءم مع الحركة الطبيعية لبنية المجتمع الذي يعيش فيه. وهذا الشخص المعدِّد لم يكن الإعلام منصفاً في تشكيل ملامح صورته؛ إذ أظهره على أنه شخص مغرق بنزوات ورغبات جنسية ملحة.

بينما يمارس الإعلام تجميل حالة أولئك الذين يتبعون رغباتهم بطرق حيوانية وتحسينها؛ على الرغم من أن نتيجتها غالباً ما تكون جملة من انحرافات ورذائل وجمهوراً من أطفال غير شرعيين!

الآثار الملموسة لإفساد المرأة ظاهراً وباطناً بفعل الإعلام الموجَّه:

لا شك أن وسائل الإعلام المختلفة بكل ما تمثله من هيمنة وسيطرة وانتشار قد تركت آثاراً سيئة وبالغة الخطورة على شخصية المرأة المسلمة المعاصرة!

وهذه الآثار تبدو بدرجات متفاوتة كمّاً ونوعاً؛ إذ تختلف من مجتمع لآخر ومن امرأة لأخرى. كما أن أساليب

الإعلام في التأثير والتوجيه مختلفة ومتنوعة؛ إذ قد يكون قصير المدى يظهر نتاجه مباشرة. وقد يحدث التأثير في ظل عملية تراكمية تحتاج فترة زمنية ممتدة وطويلة ليتم التغيير الكامل في المواقف والمعتقدات والقناعات.

ولذلك فقد يطول بنا المقام لو أردنا عرض كل نماذج آثار الإعلام في إفساد المرأة المسلمة؛ لكننا سنكتفي بذكر بعضها اختصاراً:

أولاً: ولعله أبرزها وضوحاً وأشدها خطراً وهو فقدان المرأة المسلمة لهويتها الإسلامية وتميز شخصيتها وسحب قدر كبير من انتمائها لدينها وتراثها! وهذا نتيجة حتمية للظاهرة المرضية المتمثلة في التقليد والتبعية (للآخر)!

فالصحافة النسائية أو البرامج المرئية الموجهة للمرأة المسلمة ـ في أهدافها وطبيعة مضامينها ـ لا تعكس قيم المجتمع المسلم الذي تظهر فيه وتروِّج؛ بل تكرس نموذج المرأة الغربية وتظهره بصورة ترسخ في الأذهان على أنه هو النموذج القدوة!!

وهذا التكريس كان سبباً طبيعياً ومباشراً لضمور الفارق في الاهتمامات والممارسات بين المرأة المسلمة المعاصرة في بعض البلدان الإسلامية وواقع المرأة الغربية!

ثانياً: الفراغ الفكري والإغراق في الهامشية الذي تعاني منه المرأة المسلمة المعاصرة:

ومع أنه يُفترض أن يكون للإعلام النسائي مهمة بنائية وتربوية تهدف إلى الارتقاء بفكر المرأة نحو آفاق أشمل وأبعد؛ بحيث يكون دوره معها حلقة مستمرة من التعليم والتربية والتثقيف.

إلا أن واقع الإعلام الموجَّه للمرأة يؤكد أنه قد مارس تهميش فكرها وتعامل معها على أنها جسد وحسب!

فطغيان البرامج الترفيهية التافهة وإشغال جزء من ساعات البث، وصفحات الصحف بالغث من الموضوعات التي تحصر اهتمامات المرأة بدائرة ضيقة تنطلق بالاهتمام بالشكل وتنتهي إليه! بدءاً بالموضة والأزياء، الإكسسوار، وبرامج التخسيس وعمليات التجميل! وانتهاءاً بكيفية استغلال المرأة إمكاناتها الشكلية (المظهرية) للفت انتباه (الآخر)!

وحقيقة فإن طغيان مثل هذه المواد واحتلالها مساحة كبيرة من البث الإعلامي يعكس نظرة الإعلام للمرأة؛ إذ يراها وجهاً وجسداً جميلين مع إلغاءٍ وإماتةٍ مستهدفة لروح العقل والفكر والفهم!

وهذا كله جعل المرأة نفسها تعيش خواءاً فكرياً وفراغاً روحياً وخلطاً عجيباً بين الغايات والوسائل! واختلالاً ظاهراً وعدم توازن في النظرة لكثير من الأمور؛ ففي الوقت الذي يتبلور المفهوم الإسلامي المعتدل للجمال على أنه وسيلة تأخذ منه المرأة قدراً معيناً تُحقق به أنوثتها يزرع الإعلام في حس المرأة أن (الجمال المظهري) غاية تستحق أن تبدد المرأة جهدها ووقتها ومالها بل وربما تعيش لأجله!!

وبهذه الهمة الدنيوية والاهتمامات السطحية التي أصبحت تشغل المرأة وتسيطر على تفكيرها أخرج الإعلام المرأة وحرمها المشاركة الفعلية التي ينادي بها.

دور الإعلام الإسلامي في التصدي للهجمة:

لعل ما ذكر سلفاً يوقفنا وجهاً لوجه أمام القضية الأهم التي اقتضت هذا التناول المتواضع وهي دور الإعلام الإسلامي للتصدي للهجمة الإعلامية تجاه المرأة المسلمة.

وبداية فإن ثمة حقيقة يُفترض أن نعترف بها ونعتني بجوانبها وهي افتقار الصحوة الإسلامية ذات الرصيد الجماهيري الكبير إلى الإعلام الشامل والفاعل. وهذه الحقيقة (المرة) ستظل معضلة حقيقية نعاني منها حتى إيجاد الإعلام الإسلامي القادر على المنافسة!

ونحسب أن هذا الإيجاد لن يكون إلا إذا تنامى الوعي الجماعي بأهمية الإعلام في حياتنا وبمسيس حاجتنا إليه، وإذا تخلص أبناء الصحوة من سيطرة العقلية النكوصية المتشوقة للماضي والتي تحفز لدى أصحابها أحاسيس العزلة والانسحاب والخوف من الجديد سواء كان رأياً أو ثقافة أو مشروعاً حضارياً!

فالواقع أن ـ المسلم المعاصر ـ ليس راضياً عن الأوضاع القائمة في الإعلام المعاصر ويرفض كل الاتجاهات والقيم والأسس السائدة المنبثقة منه.

وتنحصر رؤيته تجاه الإعلام بأنه عدو آخر يجب بغضه والحذر منه وإدارة الظهر له وحسب!! دون محاولة إيجاد بدائل «مسموعة، مرئية، مقروءة» واتخاذها خطوة أولى في طريق الحل الطويل!

فالخطوة وإن كانت متأخرة عن مسيرة الإعلام (الآخر) وضئيلة مقارنة بحجم قدراته وآلياته إلا أنها ستزرع الأمل بنقلة نوعية تتجاوز فيها ردة الفعل إلى الفعل نفسه، وتتخطى الندب والتشاكي إلى العمل الجاد.

فقد مضى على الصحوة زمن طويل مارست فيه التحذير من جملة المجلات والصحف والبرامج المرئية الموجهة للمرأة وذكر قائمة طويلة من مضارها ومخاطرها، وتقديم حل إسلامي جاهز للعرض وهو مقاطعتها وإغلاق الأبواب دونها وحسب!

بمعنى أن موقفها الإعلامي بدأ بالرفض وانتهى إليه.. وهو الموقف الأسهل دائماً!

وكان يفترض أن يثمر هذا الموقف ـ على الأقل ـ عن أوراق عمل ودراسات ومشاريع إعلامية مستقبلية مقترحة تساهم في إزالة الرهبة من خوض التجربة الإعلامية لدى الإسلاميين وتشعرهم بأن هذا الكم الهائل والاهتمام الكبير بالمرأة المعاصرة من قِبَل الإعلام (الآخر) والذي يغمرنا بقوالب متنوعة ما بين برامج مرئية وصحف ومجلات متخصصة إنما هو تحكُّم في مستقبل هذه المرأة، وتشكيل لفكرها وعقليتها، وصياغة جديدة لممارساتها واهتماماتها ـ على غير ما نريد ـ!!

ومن ثَمَّ فإن المقاطعة ستبقى حلاً مؤقتاً لو ناسب مرحلة زمنية معنية ـ افتراضاً ـ فلن يُناسب المراحل التي ستليها ـ يقيناً ـ.

فالاختراق الثقافي الذي تتسع دائرته يوماً بعد آخر سيتيح للجيل إلغاء الحدود والسدود وعنصري الزمان والمكان ثم امتلاك القدرة للوصول إلى جميع أنحاء العالم؛ وربما يكون ذلك بطريقة أقل تكلفة وأسهل استعمالاً

من الضغط على الريموت!! لذا فليس من الواقع المنطقي والعملي - ونحن أمام ثورة تقنية ضخمة لوسائل الاتصال - أن نربي الجماهير على المقاطعة والانعزال ونحرمها من التكيف الإيجابي بإيجاد البديل الهادف الذي يحفظ خصوصيتنا العقائدية والثقافية، وفي الوقت ذاته يكون عوضاً لنا عن مرارة الشكوى وسلبية الانعزال.

وثمة ملامح أولية لهذا التكيف أوجزها فيما يلي:

١- ضرورة توعية الأمة بأهمية الإعلام، والتذكير بأننا أمة قام تاريخها المجيد من خلال وسائل إعلام إما مقروءة مثلها الكتاب، أو مسموعة من محاريب يرتفع صوتها بالقرآن ثلاث مرات يومياً، ومن منابر ارتفع منها صوت الخير والنصر والإرشاد منذ مرحلة التأسيس وإلى قيام الساعة.

٢ - أهمية الاحتفاء بالبحوث والدراسات والممارسات الإعلامية على اختلاف هويتها وتوجهاتها ومحاولة استيعابها والإفادة منها، مع تحريض النخب من الإسلاميين من ذوي الخبرة المهنية والميدانية لتقديم رؤاهم ومعالجاتهم للاتكاء عليها في بداية التجربة؛ فقد تلفت النظر لمسارات واتجاهات إعلامية غائبة نحن بحاجة إليها.

٣ - صناعة البدائل الإسلامية في مجال الإعلام بمختلف فنونه وضروبه وألوانه؛ على أن تكون هذه البدائل ملتزمة بالرؤية الإسلامية ومؤطَّرة بالمرجعية الشرعية، مع تذكير المتلقي المعاصر إلى أن صياغة هذه البدائل صياغة إسلامية إنما هو صورة من صور التحدي الحضاري الذي يواجه الأمة في الحاضر والمستقبل، ويتطلب من أبنائها مزيداً من سعة الأفق والمرونة والإنصاف والتخلص من الأحكام الجاهزة (ومبدأ: إما صفر أو مائة بالمائة)!! إذ إن وجود خلل أو خطأ أو تجاوز هو من طبيعة العملية الإعلامية - ولا شك -.

٤ - الرؤية الشاملة للإعلام الإسلامي - المنتظر - وعدم حصره بالإعلام الديني البحت؛ حيث لا يُنتظر منه التركيز على إيضاح الجانب العبادي، كما هو الحال مع نتاج الصحافة الإسلامية الذي يغلب عليها ما يتعلق بالعبادات، وكما هو الحال أيضاً مع البرامج المرئية الدينية التي لا يعدو نتاجها عن فتاوى وأحكام وتوجيهات وعظية مباشرة وتلاوات قرآنية مكررة.

٥ - الإلمام بالواقع الذي ينبثق منه الخطاب الإعلامي الإسلامي ويوجه إليه؛ بحيث يستند في مضامينه إلى تصور موضوعي لواقع متلقيه والمستفيدين منه واحتياجاتهم الحقيقية؛ ففي قضية المرأة - مثلاً -: لا بد أن نحدد أولاً من هي المرأة التي نتحدث إليها؟ واستيعاب كامل مراحلها العمرية واهتماماتها وقابليتها، ومن ثَمَّ: ماذا نُريد منها؟ وماذا نُريد لها؟

بمعنى أن يكون لإعلامنا مع المرأة المسلمة هدف رئيس ينشد تحقيقه؛ بحيث لا يكون جل نتاجه ردود أفعال لأطروحات الآخر أو تفنيداً لآرائه وهجماته وحسب؛ فالأصل تقديم مادة ذات مهمة وقائية بنائية معاً؛ بحيث تبني شخصية المرأة المتلقية المتزنة والمستقلة القادرة فيما بعد على تفنيد ما تسمعه أو تراه أو تقرؤه!

وبعد: فهذه الكتابة لا تعدو عن كونها ومضات أمل بأن ترفع الأمة راية جهادها الإعلامي فتخوض معركة الكلمة والمعتقد في زمن تجويه الأقمار الصناعية، وتسود فيه الذبذبات الإذاعية ليل نهار.

الحجاب الإسلامي بين المد والجزر

أحمد فهمي

كانت عودة الحجاب ملمحاً أساساً من ملامح الصحوة الإسلامية في مرحلتها المعاصرة التي تبدأ من سبعينيات القرن العشرين، وأصبح الحجاب رمزاً من رموز الصحوة وشعاراً من شعاراتها.

والآن ـ وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً، تنوعت وتعددت فيها أشكال المواجهة وميادينها بين الصحوة وأعدائها ـ لا تزال راية الحجاب ترفرف في ساحة المعركة، ولكن على نحوٍ يختلف كثيراً عما كانت عليه في السبعينيات في أكثر المجتمعات الإسلامية؛ وهذا الاختلاف في مسألة الحجاب هو ما نحن بصدد توصيفه وتقويمه في هذه الصفحات.

ولأن الواقع لا يعطي معانيه ولا يكشف أسراره إلا بإضافته إلى ما قبله من الزمن، فلا بد من إضافة بُعدٍ تاريخي يسير بقدر ما يكشف لنا الدورة الكاملة لنشوء الحجاب وتراجعه.

الأبعاد التاريخية لمعركة الحجاب والسفور في المجتمعات الإسلامية:

يروق للمحللين والعلمانيين المحليين كلما طرحت قضية الحجاب أن يُغرِقوا في التساؤل عن الدوافع والأسباب وراء انتشار هذه الفريضة المتزايدة منذ السبعينيات، وهذا تساؤل معكوس حقيقة، لا بد معه من إضافة البعد التاريخي حتى نرى الأشياء في سياقها الحقيقي، فيصبح التساؤل الصحيح عن الدوافع والأسباب الكامنة وراء تخلي المرأة المسلمة عن حجابها؛ فانحرافٌ فرعيٌّ في التاريخ لا يتجاوز سبعين أو ثمانين عاماً (متوسط عمر رجل واحد)، لا يمكن بحال أن يقضي على أصلٍ متجذِّر منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً من الزمان كشجرة ضخمة فرعها ثابت، وأصلها في السماء.

ومن الشواهد العجيبة على هذا الانتقال التعسفي التاريخي من الحجاب إلى السفور أن بعض رواده الكبار (الأصاغر) يشعر المتأمل في سيرة أحدهم كأنه يقرأ عن شخصين، الأول: يرفع راية الحجاب ويدافع عنه، والثاني: يعادي الحجاب ويرفع راية السفور، ونذكر مثالين على ذلك: الأول من مصر، والثاني من تونس.

ففي مصر: كان أول كُتُبِ قاسمِ أمين: «المصريون» دفاعاً حماسياً عن فضائل الإسلام على المرأة المصرية، ورفعاً من شأن الحجاب، ثم لما تمت إعادة برمجته على أيدي رواد صالون نازلي، أصدر كتابيه: «تحرير المرأة»، «المرأة الجديدة»، وجعل من نفسه الداعي الأول لفتنة التبرج بين المسلمين.

وفي تونس: سنة ١٩٢٩م وقف شاب عمره يومذاك ٢٦ سنة ـ في إحدى الندوات ـ يرد على امرأة سافرة تدعو إلى تحرير المرأة، فقال: «الحجاب يصنع شخصيتنا، وبالنسبة لخلعه: جوابي هو الرفض، وارتفع

الضجيج في القاعة، وانتقل الجدال إلى الصحف، وتابع الشاب الدفاع عن الحجاب بنشر مقالات في صحيفة تونسية فرنسية، ولم يكن هذا الشاب سوى المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة نفسه الذي قام في اليوم التالي للاستقلال بسحب غطاء الرأس عن النساء التونسيات»[1].

وسار كثيرون في أنحاء العالم الإسلامي على نهج قاسم أمين فأصدروا كتبهم المسمومة، مثل كتاب: «امرأتان في الشريعة والمجتمع» للطاهر الحداد في تونس سنة ١٩٣٠م، و«السفور والحجاب» لنظيرة زين الدين في سوريا في العشرينيات.

واستمرت جهود المثقفين والمفكرين ـ المتبنين للمنهج التغريبي ـ طيلة الحقبة الاستعمارية في الترويج للتبرج حتى أصبح واقعاً مفروضاً إلى جوار الحجاب، ولما أن أتى عهد الاستقلال وتولى القوميون زمام الأمور عملوا ما عجز عنه الاستعمار، وعمدوا إلى القضاء على البقية الباقية من الحجاب في بلادهم.

يقول صحفي ألماني واصفاً فترة إقامته في مصر من ١٩٥٦ ـ ١٩٦١م: «ويكفي أن تعلم أنه منذ عشرين عاماً فقط كانت كل النساء تقريباً يرتدين الحجاب، أما اليوم فإنه حتى في أكثر المناطق شعبية لم نعد نرى الحجاب»[2].

وفي سوريا مزق رجال «البعث» الحجاب في شوارع دمشق، ومنعوا المحجبات من دخول المدارس بحجابهن[3].

وفي الجزائر دعا «بن بيلا» الجزائريات إلى خلع حجابهن، وقال: إنني أطالب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر![4]، فخرجت العذارى المحاربات من بيوتهن، ونزعن الحجاب لأول مرة منذ أن اعتنقت بلادهن الإسلام[5].

وحقق العهد الاستقلالي في المغرب ما لم يستطعه الاستعمار في عشرات السنين[6].

أما المجاهد بورقيبة فبزَّ أقرانه في حرب الحجاب، وأصدر مرسومه الشهير (١٠٨) بمنع الحجاب في المؤسسات الرسمية للدولة، ودعا التونسيات ألا يُشْعِرْنَ السياح الأجانب بالغربة في بلادهن[7]، ولا يزال الحجاب محارباً بشدة حتى الآن في تونس، ولكن ما أن بدأ تهافت الفكر القومي مع هزيمة يونيو ١٩٦٧م، حتى عاد الحجاب يتربع على عرشه المسلوب من جديد، وما أصدق القائل: «إن الحجاب لم يكن ثمرة النكسة بقدر ما كانت النكسة ثمرة التخلي عن الحجاب كمظهر من مظاهر التخلي عن الإسلام»[8].

ولو شئنا دراسة تطورات الحجاب منذ بدء عودته في السبعينيات وحتى الآن، فلا بد من انتقاء بلد يصبح نموذجاً معبراً عن أحداث هذه الفترة، ولا نجد أفضل من النموذج المصري في التعبير عنها؛ فهو نموذج ثري بتطوراته وأحداثه ومتغيراته، كما أنه نموذج رائد يراد تسويقه للدول التي لم تبلغ مرحلته بعد.

---

(١) النهوض الإسلامي، عبد الجبار البو بكري، ص ١٣.

(٢) عودة الحجاب، ج ١، ص ٢٨٨. (٣) المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٦. كان هذا يوم كان (بن بيلا) على رأس السلطة وقبل الانقلاب عليه وسجنه، ليعود وقد تغيرت كثير من آرائه.

(٥) الإسلام في الغرب، جان بول، ص ١٨٨.

(٦) ومن حصاد هذه السياسة الميمونة ظاهرة محزنة ـ فيما يتعلق بالمرأة ـ بدأت من منتصف الثمانينيات وهي: تزايد أعداد المهاجرات المغربيات ـ بمفردهن ـ إلى أسبانيا، حتى فقن عدد الرجال، ويعمل أغلبهن خادمات في منازل النصارى، مجلة الرائد، عدد ١٣٩ سنة ١٩٩١م، ص ٥٦.

(٧) أشواق الحرية، قضية الحركة الإسلامية في تونس، محمد الحامدي، ص ١٩٣.

(٨) عودة الحجاب، ج١، ص ٢٥٢.

ولكي تكتمل الرؤية بأن تحتوي على الأبعاد الزمنية الثلاثة : الماضي ، الحاضر ، احتمالات المستقبل ، نتناول قضية الحجاب في تركيا ، باعتبارها تحتل المرتبة الأولى في التطرف العلماني الرافض للإسلام ، ومن ثَمَّ فهي هدف تُدفع معظم الدول الإسلامية دفعاً - مع اعتبار تفاوت مواقعها الحالية - لبلوغه في السنوات القادمة؛ فدراستها وإن كانت تعتبر واقعية بالنسبة لتركيا ، إلا أنها مستقبلية بالنسبة لغيرها من الدول الإسلامية .

الحجاب في مصر:

إن ثراء النموذج المصري - كما سبق - يجعل من الصعب تغطيته في صفحات معدودة بتفصيل وشمول ، ولذا سننتقي منه أهم المعالم التي تخدم موضوعنا .

أولاً: توزيع الأدوار في معركة الحجاب والسفور بين السبعينيات والتسعينيات:

لمعركة الحجاب سَمْتٌ متميز؛ فهناك أطراف متعددة ، وأدوار متداخلة ، وهناك أيضاً صور مختلفة للهزيمة والفوز ، كما أنها معركة مفتوحة نحسب أنها باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي الساحة المصرية يظهر ذلك بوضوح، وتنحصر الأدوار المؤثرة في الأطراف الآتية:

١ - المؤسسات التعليمية : ويبرز دورها في ثلاثة اتجاهات :

الأول: أخطرها ، وهو السعي للعلمنة الكاملة لمناهج التعليم - مع حصار وتحديد لدور المؤسسات التعليمية الدينية ، وهذا الاتجاه يظهر أثره في المستقبل بتخريج أجيال تنتمي إلى العلمانية قبل الإسلام .

الثاني: العمل على إضعاف ظاهرة الحجاب في تلك المؤسسات حتى لا تعوق بوجودها جهود العلمنة . وهذا الإضعاف يأخذ شكل مضايقات وحصار ولوائح وقرارات تمنع دخول المحجبات - خاصة المنقبات - إلى تلك المؤسسات - عاملات أو طالبات - ومن أشهر القرارات قرار رقم ١١٣ سنة ١٩٩٤م الذي يمنع ارتداء غطاء الرأس إلا بطلب من ولي الأمر[(١)].

الثالث: وهو اتجاه غير مباشر؛ وذلك بتشجيع تحول المؤسسات التعليمية إلى ساحات لهدم الأخلاق والقيم ، وتحطيم القيود على تطور العلاقة بين الشاب والفتاة ، ويكفي النظر إلى ظاهرة الزواج - الزنا - العرفي وتزايدها المستمر وأسلوب معالجتها الذي اقتصر على عقد ندوات دينية في تلك المؤسسات - ذراً للرماد في العيون - أحدثت في بعض الأحيان أثراً عكسياً ، فأخرجت الظاهرة إلى نطاق النقاش العلني واختزلتها إلى مجرد خلاف فقهي .

٢ - وسائل الإعلام : تقول إحدى الدراسات : إن أغلبية المجتمع المصري يقع تحت سطوة وسائط الإعلام الرسمية[(٢)] ، وأن النساء خاصة يقبلن عل مشاهدة برامج التلفاز أكثر من الرجال[(٣)] ، وفي أحد استطلاعات الرأي الهامة ، كان هناك عامل مشترك بين الموافقات على أن دعوة قاسم أمين تقدمية ، هو مشاهدة برامج التلفاز والراديو[(٤)] .

---

(١) لم يكن هناك موقف رسمي واضح من الحجاب منذ السبعينيات ، وإنما كان هناك مواقف فردية ، حتى بادرت وزارة التربية والتعليم باتخاذ الموقف الموضح.

(٢) في دراسة على عينة تمثل الطبقة الوسطى كان التلفزيون هو المصدر الرئيس للمعرفة ، أحوال مصرية ، عدد ١ ، ص ١١٣ .

(٣) المصريون والسياسة .. استطلاع رأي مشترك بين الأهرام ومالكي مركز الشكاة ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٤) ظاهرة الحجاب - دراسة عن فترة السبعينيات - المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، ص ٢٦٣ .

لا شك أن الإعلام أصبح يلعب دوراً خطيراً في محاربة الحجاب عبر منابره المتعددة، وله في ذلك أساليب متنوعة - مباشرة وغير مباشرة - فهناك الهجوم المباشر الفج الذي يسخر من الحجاب، أو يُرجِع دوافعه إلى مشاكل اجتماعية ونفسية ومادية.. إلخ.

ومنها تخصيص الهجوم بفئات معينة من المحجبات مثل: الفنانات التائبات، ومهاجمة كل من له دور في حجابهن من العلماء والدعاة[1]، ومنها التركيز على عدم ارتباط الحجاب بمستوى معين من الأخلاق، وارتباط صور معينة من الحجاب - النقاب - بارتكاب جرائم متنوعة[2]، ومن الأساليب غير المباشرة مهاجمة التيارات الإسلامية ورموزها، واتهامها بالتطرف، وربط انتشار الحجاب بفكر هذه التيارات - المتطرفة - ومنها اختزال المواد الدينية - ما أمكن -؛ خاصة أن الدراسات تثبت أن زيادة الإعلام الديني تؤدي إلى إشاعة مناخ ديني عام في المجتمع وسرعة انتشار الأفكار الدينية، ومن تلك الأساليب القذرة إشاعة الفاحشة بين المسلمين وتجريئهم عليها؛ فمع تدني الأخلاق وغلبة الشهوات لا يكون هناك مجال للحديث عن الحجاب.

٣ - الأسرة: تفكك الأسرة وضعف دورها الرقابي من سمات المجتمعات العلمانية الغربية التي يريد العلمانيون في بلادنا محاكاتها حذو القذة بالقذة، وبينما تُظهِر الأبحاث - عن فترة السبعينيات - أن حوالي ٦٠٪ من المحجبات أقررن بموافقة كل الأسرة على ارتداء الحجاب[3]، فإن الأمر يختلف حالياً مع تعدد الهجمات الموجهة للأسرة ولدور الرجل فيها، وإذا قلنا: إن موقف الأسرة تجاه الحجاب ينحصر في ثلاثة أمور: التشجيع - السلبية - الرفض؛ فالواقع الحالي يشهد بأن الزيادة الكبيرة كانت من نصيب الموقف الثاني (السلبية)[4]، والموقف الثالث حظي بزيادة قليلة خاصة بالنسبة لصور معينة من الحجاب (تغطية الوجه والكفين)، وكان النقص من نصيب الموقف الأول.

وهناك أطراف أخرى يفترض أنها تمثل الإسلام في معركة الحجاب والتبرج وهي:

٤ - المؤسسات الدينية الرسمية: وتنحصر في مشيخة الأزهر ودار الإفتاء والهيئات التابعة مثل: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ومجمع البحوث، ووصفها بالرسمية ينبع من أمرين، أحدهما: أن تعيين رجالها يتم بقرارات حكومية، والثاني: تحولها عرفاً - وإلزاماً أحياناً - إلى تبني الموقف الرسمي من القضايا المعدَّة سلفاً وتكلف تطويع أحكام الشريعة لها. وبالنسبة لقضية الحجاب، فإن أغلب النقد الموجه لهذه المؤسسات - حتى فترة قريبة - كان ينحصر في الموقف السلبي من تدعيمه، والدعوة إليه والتعرض لمهاجميه، وهذا لا يمنع من بعض مواقف قوية، كما حدث في الرد على القرار السابق لوزير التعليم؛ حيث صدرت فتوى بمخالفته للشرع[5] إلا أنه في السنوات الأخيرة تطور الوضع إلى مزيد من السلبية، بل إلى مهاجمة الحجاب

---

(١) كما حدث مع د. عمر عبد الكافي، على صفحات مجلة روز اليوسف رائدة مهاجمة الحجاب.

(٢) في حادث تفجير مقهى ميدان التحرير بالقاهرة، نشرت إحدى الصحف أن إحدى المنقبات دخلت المقهى ووضعت حقيبة التفجيرات ثم خرجت.. ثم خفيت القصة بعدها، إحقاق الحق - هويدي، ص ٦٣.

(٣) ظاهرة الحجاب، ص ١٢٣.

(٤) في الدراسة السابقة لدورية أحوال مصرية عبر أغلب المبحوثين عن رفضهم لفكرة فرض الحجاب على نسائهم معلنين أن الأفضل أن ينبع القرار منهن، ص ١١٣.

(٥) نشرت الفتوى في مجلة الأزهر عدد ربيع أول ١٤١٥هـ.

أحياناً، متمثلاً في بعض صوره واتهامها بالتطرف (النقاب)[١]، كما اقترن ذلك بالتهاون في إلزام الطالبات - في مدارس الأزهر وكلياته - بالحجاب الشرعي الصحيح.

٥ - العلماء والدعاة المستقلون: وأغلبهم في الأساس من خريجي كليات الأزهر والعاملين فيه، ويزداد تميزهم مع تزايد تبني المؤسسات الدينية للمواقف الرسمية في مختلف القضايا، ورغم التضييق عليهم إلا أن تأثيرهم واضح من الرأي العام، وموقفهم من قرار وزير التعليم بمنع الحجاب كان قوياً، حتى طالب بعضهم بمحاكمته، ومنهم د. محمود مزروعة، د. محمود حماية، د. محمد المسير، د. عبد الحي الفرماوي، د. عبد الغفار عزيز، د. يحيى إسماعيل... وغيرهم[٢].

٦ - الحركة الإسلامية: كان لها الدور الفعال في نشر الحجاب في المجتمع المصري، وانتشارُه في الجامعات المصرية أحد مظاهر النشاط الإسلامي فيها، والدراسة السابقة عن ظاهرة الحجاب في السبعينيات أظهرت أن ٥٠ ٪ من المحجبات وغير المحجبات يُرْجِعن انتشاره إلى تزايد نشاط الجماعات الإسلامية بل هو السبب الرئيس[٣]، وتظهر هذه العلاقة كذلك في فترة التسعينيات، ولكن في الاتجاه المعاكس؛ إذ من الملاحظ ارتباط تراجع معدلات الحجاب عامة، والحجاب الشرعي الصحيح خاصة مع تزايد التضييق على النشاط الإسلامي في مختلف الميادين وعلى الأخص في المدارس والجامعات.

٧ - «إن المحجبة تظهر في سمت عفريت» هذه العبارة لن نتعجب إذا قالها علماني حقود، ولكن عندما نعلم أنها صدرت من عالم داعية في وزن الشيخ محمد الغزالي[٤] - رحمه الله - نقداً لبعض صور الحجاب فإننا نصاب بدهشة عظيمة لهذا الخلط الواضح في الأوراق، والأدوار. أين كان يقف الشيخ؟ وكيف يجعل نفسه مشابهاً لعلمانية فجة مثل أمينة السعيد، تصف المحجبات - اللاتي يرتدين الزي نفسه الذي ينقده الشيخ - بأنهن يرتدين «ملابس تغطيهن تماماً، وتجعلهن كالعفاريت»[٥].

إن هذا الخلط الذي أصاب عدداً من المفكرين والدعاة - ممن أصبحوا يمثلون تياراً قوياً - هذا الخلط أحدث بدوره خلطاً في مفاهيم الناس حول الحجاب - وهو ما سنبينه بعد قليل - وجعل من هفواتهم وسقطاتهم تكأة لكل من أراد الطعن في أحكام الشريعة بأسلوب باطني استغلالاً لتلك الهفوات والسقطات.

ثانياً: الحجاب والتدين:

هناك بُعدان لدراسة العلاقة بين الحجاب والتدين:

الأول: الارتباط بين الالتزام بالحجاب، والالتزام العام بأوامر الشرع.

الثاني: الارتباط بين معدل ارتداء الحجاب ومستوى الحالة الدينية للمجتمع.

فبالنسبة للبعد الأول: يتمثل في دوافع ارتداء الحجاب، والحالة الدينية للمرأة بعد إضعافها.

---

(١) في حوار مع مفتي الجمهورية من مجلة اكتوبر بعنوان (غسيل مخ) قال عن النقاب: إنه ليس من الإسلام، وتحدى أن يأتيه أحد بنص يفيد ذلك. يعلق محمد إسماعيل المقدم على ذلك بقوله: إن المفتي نفسه - قبل تولي المنصب - فسر آية الإدناء في سورة الأحزاب بأنها تشمل تغطية الوجه من المرأة، «بل النقاب واجب» محمد إسماعيل، ص ٢٧.

(٢) انظر الحرية الشخصية، د. عبد الله خير الله، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(٣) ظاهرة الحجاب، ص ٢٠٢- ٢٠٤.

(٤) أضواء على تفكيرنا الديني، محمد الغزالي، ص ٢٢.

(٥) عودة الحجاب، ج ١، ص ١٢٦.

أما عن الدوافع: فلا خلاف في أن ارتداء الحجاب في السبعينيات كانت دوافعه دينية مباشرة، ووفقاً لأحد البحوث الاجتماعية كان ٩٠٪ من الأسباب الدافعة للحجاب ـ كما أقرت المحجبات ـ تدور حول الخوف من الله ـ من عذاب الآخرة ـ الرغبة في الجنة ـ يقظة الضمير الديني[١].. إلخ، ولكن مع مرور الوقت وانتشار الحجاب بين فئات المجتمع تحول ـ عند بعض الناس إلى ما يشبه العرف العام، والتقليد المتبع، ونشأت أجيال كان ارتداؤهن للحجاب ينبع من كونه تقليداً أو عرفاً أو ضغطاً اجتماعياً قبل أن يكون أمراً شرعياً، ويقوِّي هذا الرأي تزايد نسبة المحجبات اللاتي يرتبط حجابهن بأمور مثل: الزواج[٢]، تقدم السن، ولا يشمل ذلك ـ بالطبع ـ كل المحجبات، وخاصة اللاتي ينتمين إلى التيارات الإسلامية بمعناها العام. وهذا التحول بالحجاب إلى تقليد ـ لدى الكثيرات ـ لم يكن حتمياً، وإنما كان مدعماً بأمرين: عدم إتاحة الفرصة لتعميق هذه الظاهرة وتقوية ارتباطها بأصلها الديني المباشر من قِبَل العلماء والدعاة، والحرب المعلنة على الحجاب التي يؤرخ بعضهم بَدْأها من عام ١٩٨١م[٣].

أما بالنسبة للحالة الدينية للمرأة بعد ارتداء الحجاب، فهنا نجد أنفسنا ـ وفقاً لما سبق ـ أمام ثلاث حالات:

الأولى: من ارتدت الحجاب عرفاً أو طاعة لوليٍّ (زوج ـ أب) أو لأسباب أخرى، لكن ليس لوازع ديني.

الثانية: من ارتدت الحجاب التزاماً انتقائياً وليس عاماً بأحكام الشرع.

الثالثة: وهي التي يشكل ارتداؤها للحجاب أحد مظاهر التزامها العام بالشرع.

فالمحجبة في الحالة الأولى لا يترتب على حجابها ـ في معظم الأحيان ـ تغير واضح في السلوك أو الطاعات، وهي تنتمي ـ غالباً ـ إلى الفئة السلبية دينياً في المجتمع، والتي ليس لها موقف واضح من عوامل الإفساد، ويصل التعارض بين السلوك ـ عند بعضهن ـ لدرجة التناقض، مما يساهم في تشويه الصورة العامة للمحجبات، ويدفع كثيراً من الجهال لاتهام الحجاب نفسه؛ ولا يفوت الأقلام العلمانية أن تستغل هذه الفئة في حربها على الحجاب.

أما في الحالة الثانية فالمرأة دفعها وازع ديني للحجاب، ومن ثَمَّ فهي تحرص على عدم التناقض بين زيِّها وسلوكها، ولكن في إطار عرفي، بمعنى البعد عن كل ما ينتقد المجتمع صدوره عن المحجبة، أو ما يعيبها خارج بيتها، وهذا بالطبع غير منضبط؛ فالمجتمع يتعارف ـ في كثير من الأحيان ـ على ما يخالف الشرع، ولذلك فالمحجبة في هذه الحالة لا ترى بأساً في المصافحة أو النظر أو الحديث مع الرجال أو الاختلاط المسموح به عرفاً لا شرعاً، ولا شك في ميوعة هذا الوضع، وإن كان أقل من الحالة الأولى، وأنه يجعل للمحجبة قابلية قوية للوقوع في بعض صور الانحراف المناقضة لحجابها، خاصة مع توفر عوامل مثل: صغر السن، الوسط الملائم (الجامعة مثلاً) انتشار الفساد، ضعف رقابة الأسرة.

وتنتمي المحجبة ـ في هذه الحالة ـ إلى الفئة المحافظة دينياً التي تقف موقفاً واضحاً من مظاهر الفساد، وإن كانت تتعاطى وسائله في الوقت نفسه (التلفاز ـ الاختلاط ـ... إلخ).

أما الثانية: فحجابها منذ البداية كان مقترناً بالتزام عام بالشرع؛ لذا تتوفر في حالتها الضوابط اللازمة لتوافق السلوك مع الزي، مع انتماء أكثرهن للتيارات الإسلامية ـ ولو شعورياً ـ.

---

(١) ظاهرة الحجاب، ص ١٣٠. (٢) المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٣) عودة الحجاب، ج ١، ص ٢٢٨.

وعند المقارنة بين نسبة توزع المحجبات على هذه الفئات الثلاث في السبعينيات بمثيلتها حالياً نجد تغيراً واضحاً؛ حيث زادت نسبة محجبات الحالة الأولى زيادة ملحوظة، فأصبحت تقارب الحالة الثانية، بينما حدث تراجع في نسبة محجبات الحالة الثالثة.

البعد الثاني للعلاقة بين الحجاب والتدين: وهو ارتباط معدل ارتداء الحجاب بالحالة الدينية السائدة في المجتمع.

من المسلم به أن المجتمع الصغير هو الأسرة أو العائلة، وتأثر المرأة بأسرتها في ارتدائها للحجاب أو عدمه حقيقة أثبتتها الدراسات؛ فكلما زادت نسبة المحجبات في الأسرة كان ميل الفتاة نحو التحجب أقوى[1].

وفيما يتعلق بالمجتمع الكبير نلاحظ هنا اتجاهين مختلفين: فبينما نجد من الثابت أن انتشار الحجاب في السبعينيات كان أحد مظاهر إقبال الناس على الدين وعودتهم إليه، وأن التراجع في مستويات الحجاب يقترن أيضاً بانتشار موجات من الانحلال الخلقي في المجتمع، خاصة مع سهولة استقبال الإعلام الإباحي عبر القنوات الفضائية، مع ذلك، فهناك اتجاه آخر لتأثير المجتمع في الحجاب، وهو أن استمرار الانحلال الخلقي وانهيار القيم يكون سبباً معاكساً لإفاقة الناس ورجوعهم إلى الدين[2]، ولكن بعد حين.

ثالثاً: الحجاب والفئات الاجتماعية:

إعطاء معدلات عامة عن الحجاب في المجتمع المصري لا يعبر بدقة عن حقيقة الوضع؛ فهناك فئات اجتماعية متعددة ومتداخلة يتفاوت تأثرها وتفاعلها مع هذه القضية تفاوتاً ملحوظاً.

وفيما يتعلق بالحجاب يمكننا أن نقسم المجتمع في مصر وفق هذه الاعتبارات: الطبقة الاجتماعية - الريف والحضر - الفئة العمرية والحالة الاجتماعية.

باعتبار الطبقة الاجتماعية: فإن الطبقة المتوسطة تمثل الصدارة؛ من حيث ارتفاع معدل ارتداء الحجاب بين نسائها، ويقل الالتزام بالحجاب مع ارتفاع المؤشر الاجتماعي الطبقي أو انخفاضه[3]، وإن كان هذا لا يمنع من وجود الحجاب في جميع الطبقات، ويكفي أنه نجح في غزو طائفة من أهل الفن.

ولو نظرنا إلى الريف والحضر فإننا نجد أن الريف بطبيعة تكوينه الاجتماعي والثقافي يكون أقل تأثُّراً بالتغيرات السياسية والثقافية والأخلاقية العامة من المجتمع الحضري، ولذلك لم يختفِ الحجاب من الريف إبَّان الستينيات كما حدث في المدينة، بل استمر تقليداً يُحرَص عليه، حتى توافق مرة أخرى مع مجتمع المدينة في السبعينيات. ولكن نتيجة لارتفاع معدلات التعليم ذي التوجه العلماني، واتساع تأثير الإعلام، وكذا ارتفاع معدلات الهجرة من الريف إلى المدن، لم يعد تمسك المجتمع الريفي - حالياً - بالحجاب كما كان أولاً.

ووفقاً للاعتبار الثالث، وعلى عكس الغرض الشرعي من الحجاب وهو منع الفتنة، وأن المرأة كلما صغر سنها زاد الافتتان بها، على العكس من ذلك نجد أن نسبة ارتداء الحجاب في مصر تزداد مع تقدم السن، حتى إنه قلما تجد امرأة تجاوزت الستين سنة من العمر متبرجة - من نساء الطبقة الوسطى - وفي المقابل يقل إلى درجة كبيرة اقتران الحجاب بوقت البلوغ، ثم يرتفع تدريجياً مع ارتفاع الفئة العمرية، وتتزايد معدلات الحجاب مع الزواج عنها قبله.

---

(١) ظاهرة الحجاب، ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٠.

رابعاً: الحجاب في مصر، أنماط وأشكال متعددة:

«فلانة المحجبة» وصف نسمعه كثيراً عند التعريف بامرأةٍ مَّا، ولكن هل يتخيل السامع صورة معينة لزي هذه المرأة؟ أم أن هناك عدة صور وأشكال للحجاب تتداعى في مخيلته، أحدها فقط هو الزي الحقيقي لها؟

لقد أصبح الحجاب مصطلحاً فضفاضاً، وأُهملت ضوابطه، وعند أول مقارنة بين مدلول كلمة الحجاب في الواقع ومدلولها الأصلي في الشرع نجد بوناً شاسعاً، وقياساً على ما اشتهرت به اللغة العربية من دقة متناهية في وصف الأشياء ومراحل تغيرها، فإننا نجد أنفسنا بحاجة إلى مصطلحات كثيرة لتغطية الفارق الكبير بين الحجاب الشرعي والحجاب الواقعي.

ولمعرفة حجم التنافر بين المفهومين الشرعي والواقعي للحجاب يمكن أن نقلب مفردات المفهوم الشرعي كلها، ورغم ذلك يحتمل الواقع أن يطلق عليها: محجبة، لمجرد غطاء رأسها، واستعراض الأشكال المنتشرة للحجاب في المجتمع يثبت ذلك؛ فهناك غطاء الرأس مع كشف بعض الشعر والرقبة وجزء من الصدر والساقين، وقد تكون الملابس ضيقة أو متشبهة بالرجال، ثم غطاء للرأس والرقبة والصدر مع ملابس طويلة ولكنها زينة في نفسها، وقد تكون ضيقة تصف الجسم، أو معطرة، ثم الخمار الطويل الذي يستر البدن مع كشف الوجه والكفين، ثم الحجاب الكامل الذي يحقق الشروط كلها.

ومن أهم أسباب هذا التذبذب الخطير في مستوى الحجاب الحرب المتصاعدة ضده من بداية الثمانينيات، واستخدام مكيدة التطرف والاعتدال في هذه الحرب، وأيضاً وجود طائفة من المتبرجات اللاتي هرولن نحو «الحل الوسط» تخلصاً من الحرج الاجتماعي الضاغط الذي سبب انتشار الحجاب.. ومنها غلبة البعد الرمزي للحجاب لدرجة تفرغه منْ مضمونه الشرعي في أحيان كثيرة.

ومن الأسباب الهامة: استدراج فئة كبيرة من الكُتّاب والمفكرين الإسلاميين ـ المتبنين للاتجاه التنويري ـ في هذه المعركة والاكتفاء منهم بالهجوم على أشكال معينة من الحجاب يتهمونها بالغلو والتطرف، استناداً على قاعدتهم الذهبية في تطويع الشرع للواقع، لا العكس، وأن وسطية الشرع تكون بجعل الظرف الواقعي هو الأساس في استصدار الأحكام ووضع التصورات، وهذا لا شك في خطئه؛ فمع تغير الواقع تكون الإرادة المطَّردة للتوسط بينه وبين ثوابت الشرع تعني أن ننادي غداً بما نستنكره اليوم، حتى يأتي علينا وقت لا يبقى من الدين إلا أن ننوي أحكامه ونفعل ضدها.

ومن الشواهد القوية على صحة هذا الرأي، موقف أحد التنويريين(1) المقيم في بريطانيا من القضايا الإسلامية المثارة في ذلك الواقع العلماني ـ والذي هو المثل الأعلى لعلمانيي الشرق ـ والذي تطور فكره وفق القاعدة السابقة ليتوافق مع هذا الواقع فيما يتعلق بقضية الحجاب، أصدر فتوى بأنه لا يجب على المرأة أن ترتدي الحجاب لتعرضها للأذى بارتدائه في تلك البلاد، واستدل بآية: ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ [**الأحزاب**: ٥٩]، فلا يسع المسلمة ـ والحال هكذا ـ إلا أن تنوي الحجاب ـ وتتبرج!

وبناءً على النظرة الواقعية المتفحصة، نستطيع القول: إن هناك تناسباً وتوافقاً بين مستوى الحجاب وأنماط الحالة الدينية للمحجبة ـ والمذكورة آنفاً ـ فكلما تضاءل تأثير الدين في حياة المحجبة عند حجابها وبعده كلما تدنى مستوى الحجاب، والعكس صحيح، فتصبح أكثر المحجبات تديناً هي التي تتمسك بكافة شروط الحجاب، بما فيها تغطية الوجه والكفين، ولذلك نجد أنه انطلاقاً من تحول محاربة التدين الشامل إلى سياسة

---

(١) د. زكي بدوي رئيس مجلس المساجد في بريطانيا.

عامة، أصبح النقاب محارباً بشدة أكثر من أي شكل آخر للحجاب، واستهدفته جميع الجهات العلمانية بهجوم مكثف متواصل، ولعل ذلك يرجع إلى ضعف قابليته للتميع والتطويع بخلاف الصور الأخرى للحجاب، وكذا اعتماداً لأسلوب ضرب القمة، وقبول ما بعدها، تدرجاً في القضاء على الحجاب.

الحجاب في تركيا:

للحجاب في تركيا قصة طويلة حزينة، تبدأ من قوانين أتاتورك، ولا تنتهي عند مروة قاوقجي، ولو اكتفينا بالاطلاع على الفصول الأخيرة من هذه القصة، فستبدو لنا سمات بارزة لحرب الحجاب في تركيا:

١ - لا يمكن استيعاب أبعاد قضية الحجاب في تركيا حالياً، بدون الاطلاع على الجهود التاريخية الحثيثة للقضاء عليه منذ أتاتورك، هذه الجهود التي ليس لها مثيل في دولة إسلامية أخرى، في شدتها واستمراريتها إلى الآن، فمنذ ما يزيد عن سبعين عاماً كان البوليس التركي يقوم بنزع الحجاب عن النساء بالقوة وعقابهن أحياناً امتثالاً لقانون أتاتورك[١]، ورغم اختفاء هذا القانون إلا أن الحرب لا تزال قائمة.

٢ - أحدثت علمانية أتاتورك شرخاً كبيراً في الانتماء الإسلامي للمجتمع التركي، فأوجدت قطاعات من الجماهير تفضل العلمانية على الإسلام، وأظهر أحد استطلاعات الرأي الهامة أن نسبة ٨١٪ من الأتراك يثقون بالجيش التركي (حارس العلمانية)[٢]، مما أوجد موقفاً جماهيرياً - لا يستهان به - رافضاً للحجاب، وإن كانت الأغلبية تقبل به، وقد أحدث فوز الرفاه في انتخابات ١٩٩٤م حالة من القلق المتولد لدى العلمانيين وقطاعات من الشعب من إقدام الرفاه - في حاله تولي السلطة - على إجبار النساء على ارتداء الحجاب، واضطر أربكان لنفي ذلك تهدئة للأوضاع[٣]، وعندما أعلن عن احتمال حدوث ائتلاف بين الرفاه والوطن الأم، قامت النساء المؤيدات للثاني بإرسال حجاب إلى زوجة يلماظ احتجاجاً على ذلك[٤].

٣ - لا يتضمن الدستور التركي أي إشارة إلى الإسلام أو الشريعة؛ لذا ينطلق الإسلاميون من دفاعهم عن الحجاب ضد الدولة لا من أصله الشرعي الإسلامي، بل انطلاقاً من مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وهو ما يزيد الأمر صعوبة عليهم بخلاف الحال في معظم الدول الإسلامية الأخرى التي يعطي النص على الإسلام - ولو باعتباره ديناً رسمياً - في دساتيرها منطلقاً قوياً للإسلاميين في الدفاع عن الحجاب.

٤ - يتمثل جهد الدولة في محاربة الحجاب في وسائل عدة، نذكر منها:

- إصدار قانون ١٩٨٧ يمنع دخول المحجبات إلى الجامعات، وينفذ القانون في ٢٨ جامعة تركية، وقد تم التراجع عن هذا القانون سنة ١٩٩١م[٥] من قِبَل البرلمان والمحكمة الدستورية، ولكن لم يمنع هذا من استمرار الحظر في جامعات كثيرة، ومن المعتاد أن نجد في كل عام دارسي القوات المدججة بالسلاح تحيط بالجامعة لمنع المحجبات، وتقوم الشرطة النسائية بإخراجهن بالقوة.

- منع المحجبات من العمل في المؤسسات الحكومية، وقد تعرضت مئات الموظفات للفصل أو الإجبار على الاستقالة بسبب الحجاب[٦].

- اتخاذ بعض الإجراءات المحاصرة للحجاب مثل حظر ارتداء نساء العسكريين له، وعرقلة حصول المحجبة على جواز للسفر[٧]، وتعرضت الكثيرات للسجن أكثر من مرة بسبب تبنيهن لهذه القضية[٨].

---

(١) عودة الحجاب، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) رؤى مغايرة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، مايو ١٩٩٧م، ص ١١.

(٣، ٤) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٥) مجلة البيان عدد ٣٦، ص ٦٣.

(٦) عودة الحجاب، ج١، ص ٢١٤.

(٧) حزب الرفاه، يوسف الجهماني، ص ١٨.

(٨) عودة الحجاب، ج١، ص ٢١٥.

- حاولت الحكومة التركية في أواخر الثمانينيات مطاردة المحجبات خارج تركيا، فأرسلت طلباً للحكومة الألمانية بمنع الطالبات التركيات من ارتداء الحجاب، إلا أن ألمانيا رفضت للسبب ذاته الذي من أجله تطارد تركيا الحجاب وهو العلمانية!(١).

٥ - تتمثل المواجهة الإسلامية - بدورها - في وسائل عدة، نذكر منها :

- رفض الامتثال لقوانين منع الحجاب في الجامعات ومحاولة فرضه بالقوة، والأمثلة عديدة وتتكرر بصفة دورية، ومنها : قيام مدير المعهد العلمي للتمريض في أحد المدن برفض قيام الطالبة الأولى بإلقاء خطبة الوداع في حفل التخرج؛ لأنها ترتدي الحجاب تحت قلنسوة التمريض، وحدثت مشادات كلامية رافقها استخدام الأيدي(٢).

وفي المقابل تُؤْثِرُ طائفة من المحجبات ترك الدراسة على خلع الحجاب(٣)، ومن المعروف أن مروة قاوقجي - أثناء الدراسة الجامعية - تركت الدراسة في الجامعة التركية وذهبت إلى أمريكا لرفضها أن تخلع حجابها.

- استخدام أسلوب التظاهرات المؤيدة للحجاب والمناهضة لرفض الحكومة له، ومن أمثلتها ما يسمى بسلسلة الحرية، والتي شارك فيها مائة ألف مواطن أمسكوا يداً بيد احتجاجاً على منع الحجاب ليشكلوا سلسلة تمتد من أنقرة إلى اسطنبول، إلا أنها قُطِعَت لتدخُّل البوليس في بعض المناطق، ولكنها وصلت في أماكن أخرى مثل مدينة «قيصري» إلى عشرين كيلو متراً(٤).

- يستفيد حزب الرفاه من البلديات التي فاز بها في الانتخابات في تعيين عدد كبير من المحجبات في إداراتها إقراراً لوجودهن في المؤسسات الحكومية، كما يحاول مواجهة الدعارة والإباحية - بوصف هذه المواجهة وسيلة غير مباشرة لنشر الحجاب من خلال غلق بيوت الفساد، وقام عمدة أنقرة بإزالة التماثيل العارية من الشوارع وقال بغضب : «إذا كان هذا هو الفن فأنا أبصق عليه»(٥).

- يعمد الإسلاميون أيضاً إلى إثارة قضية الحجاب إعلامياً وسياسياً بصفة مستمرة، والمثال القريب إصرار مروة قاوقجي على حضور جلسات البرلمان بالحجاب رغم المواجهة الشرسة والصياح الهستيري الذي كانت تتعرض له داخل البرلمان، ورغم تراجع نائبتين لحزبين آخرين عن حجابهما إذعاناً للضغوط، فقد تحولت مروة قاوقجي إلى رمز لقضية الحجاب والاضطهاد الديني، وحظيت بتعاطف الكثيرين معها محلياً ودولياً.

٦ - للحجاب في تركيا أشكال متعددة ومستويات مختلفة؛ ففي الريف والأحياء الشعبية تغطي أغلب النساء شعورهن ولكن من قبيل العادة والتقليد، ومن أكثر أنواع الحجاب انتشاراً حجاب يتكون من غطاء للرأس والرقبة، ومعطف (بالطو) طويل، ويُرتدى من تحته سروال، وقد يُرتدى معه قفازات للكفين، وتتخير المرأة ما تشاء من الألوان، وهذا الزي هو أكثر ما يميز ذوات التوجه الإسلامي. ويوجد النقاب أيضاً في أماكن كثيرة، إلا أن التركيات يُظهِرن من خلف النقاب العينين وجزءاً من الوجه إلى أسفل الأنف، ويقلن : إن ذلك أبعد من الفتنة!

وإذا كان وضع الحجاب في مصر يتجه إلى مشابهة وضعه في تركيا فهناك دول إسلامية تسير ببطء نحو مشابهة الوضع المصري، ومن فاته بعض فصول حرب الحجاب في مصر يمكنه أن يشاهدها الآن في تلك الدول؛ حيث يعيدها التاريخ للحاضر مرة أخرى، مع تعديلات يسيرة في المصطلحات والشعارات، التي تعتبر من لوازم عصر حقوق الإنسان والألفية الثالثة!

ولكن إلى أي مدى سيظل التاريخ يعيد نفسه - هناك -؟ سؤال للحكماء.

---

(١) مجلة المختار الإسلامي نوفمبر، ١٩٨٧م.
(٢) رؤى مغايرة - مرجع سابق، ص ٣٠.
(٣) انظر البيان عدد ٥، ص ٩٠.
(٤) جريدة الشفق الجديد التركية.
(٥) رؤى مغايرة، ص ٢٠.



من آفات القراءة

(٢-٢)

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

في المقالة السابقة تحدثت عن أهمية القراءة ومكانة القرَّاء، وذكرت آفتين من آفات القراء هما: «قلة الصبر على القراءة والمطالعة»، و«ضعف التركيز». وفي هذه المقالة أذكر الآفة الثالثة بإذن الله ـ تعالى ـ.

الآفة الثالثة: ضعف المنهجية في القراءة:

المكتبة الإسلامية مليئة ـ بحمد الله تعالى ـ بالإصدارات العلمية في مختلف فنون العلم والمعرفة، وتحتوي على حصيلة كبيرة من الكتب والدراسات والأبحاث التي جاءت نتيجة جهود تراكمية متتابعة ومستفيضة تنمو عبر السنين.

ويختلف هذا الإنتاج قوة وضعفاً، وأصالة وتقليداً، ولا يستطيع المرء مهما أوتي من ملكات وقدرات أن يغطي جزءاً يسيراً من ذلك النتاج الضخم.

وقد يحار القارئ ـ المبتدئ خاصة ـ من أين يبدأ؟! وكيف يبدأ؟! ولذا كان الواجب على القارئ أن يرسم لنفسه منهجية واضحة للقراءة يدرك من خلالها إلى أين يسير.. وما أهدافه؟! ولعلِّي أذكر ها هنا الملحوظتين الآتيتين:

الأولى: بناء القاعدة العلمية:

إن ترتيب الأولويات من أهم المسائل التي تعين المرء على النجاح بشكل عام، ويتأكد ذلك في أولويات القراءة، وقديماً قال أبو عبيدة: «من شغل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم»(١). وكم أحزن على ذلك الشاب الذي لم يستقم عوده، ولم يشتد ساعده، ثم أراه يلقي بنفسه في بحر متلاطم الأمواج كيف يبحر فيه؟! وقد رأينا شباباً لم يقرؤوا بعدُ (كتاب الأربعين النووية)، ثم تراهم يعزمون على قراءة (فتح الباري!) وأشباهه من كتب العلم. وجميل أن توجد هذه الهمة، لكن أحسب أن مآل هؤلاء في النهاية إذا لم يتداركهم الله بفضله: الشعور بالإحباط والعجز، ثم الملل والسآمة؛ لأنهم لم ينموا نمواً طبعياً يتدرجون فيه في درجات العلم بتدرج فهومهم وبصائرهم.

ونظير ذلك من يبدأ بقراءة ما يسمى بـ (الكتب الفكرية) المتقدمة، دون أن تكون له حصيلة شرعية يميز فيها بين الغث والسمين، ودون أن يبدأ بالكتب الفكرية الميسرة التي تكمل بناءه العلمي والثقافي.

والواجب أن يحرص القارئ في بداية الطلب على بناء القاعدة العلمية التي يبني فيها مداركه العقلية وملكاته العلمية بناءاً راسخاً متيناً.

وبناء القاعدة العلمية يتطلب من القارئ جهداً كبيراً؛ فهو يأخذ من كل فرع من فروع العلم الرئيسة كتاباً أصيلاً يدرسه دراسة تفصيلية، ولا ينتقل منه إلى كتاب آخر إلا بعد أن يتقن أبوابه، ويعرف قواعده وفنونه، ثم إذا قرأ كتاباً آخر في الفرع نفسه كان كالبناء على تلك القاعدة والأساس.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/١٦٠).

والقدرة على اختيار الكتاب المناسب لها دور بارز في اختصار المسافات في طريق القارئ الطويل. وكم من قارئ قد ضلَّ الطريق وحرم الوصول؛ لأنه أراد أن يصعد السطح بلا سلم، أو أراد أن يبني داره على أرض هشة غير مستقرة، ومن المفيد هنا التأكيد على أهمية استشارة أهل الاختصاص وأصحاب الخبرة لمعاونة القارئ المبتدئ في ترشيح الكتب المناسبة له، وقديماً سئل (فولتير) عمن سيقود الجنس البشري؟ فاجاب: (الذين يعرفون كيف يقرؤون)(١).

ومن اللطائف العجيبة أن ابن الجوزي كان يتكلم عن ضرورة ترتيب الأولويات لطالب العلم، ثم يقول: (قد علم قصر العمر وكثرة العلم، فيبتدئ بالقرآن وحفظه، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليه بذلك منه شيء. وإن صحَّ له قراءة القراءات السبعة، وأشياء من النحو وكتب اللغة، وابتدأ باصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء، فلينظر في أصول ذلك)(٢) ثم ساق ابن الجوزي علوماً يبدأ بها طالب العلم في عصره، قد يعجز عنها بعض المنتسبين إلى العلماء في عصرنا..!

الثانية: بناء القاعدة الفكرية:

ها هنا معضلة يقع فيها كثير من القراء، وهي أنه في أثناء القراءة لا يحرص على بناء فكره، وإحياء قدراته العقلية ولا يستحثها للنظر والتامل، وإنما يقع أسيراً ينتظر التلقين من المؤلف، ويقف دائماً موقف المتلقي، ومثل هذا وإن حصل كمّاً من المعلومات فإنه ليس قارئاً جيداً؛ لأنه لا يملك البصيرة ولا القدرة على التمييز والموازنة بين اجتهادات العلماء والمفكرين. (فالتفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكاً لنا)(٣).

ونظير ذلك من يعتني بالحفظ وحده، ولا يلتفت إلى الفهم. والحفظ على الرغم من أهميته وضرورته؛ فإنه لا ينبغي الاكتفاء به، بل يجب تسخيره لخدمة الفقه والفهم، وقديماً عتب الإمام أحمد على بعض المحدثين بقوله: (ما أقل الفقه في أصحاب الحديث)(٤)، ومن لطائف الأخبار في هذا الباب ما ذكره إسحاق بن راهويه حيث قال: (كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأصحابنا، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة، فيقول يحيى بن معين من بينهم: وطريق كذا. فاقول: أليس قد صح هذا بإجماع منا؟ فيقولون: نعم. فاقول: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فيقفون كلهم إلا أحمد بن حنبل)(٥).

إن بناء القاعدة الفكرية للقارئ من أشق المهمات التي تواجه القارئ الجاد؛ فليس كل كتاب يمكن أن يبني فكر الإنسان، حتى بعض الكتب المفيدة التي قد يستفيد منها القارئ مادة علمية قد لا يخدم ذلك البناء؛ وما أحسن قول الإمام ابن القيم: (الفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة)(٦)، وهنا يأتي دور المعلمين والمربين في توجيه طلابهم والأخذ بايديهم في الطريق القويم. وقديماً كان بعض العلماء يربي فكر الطالب ببعض مسائل الحساب والفرائض، ويحاوره بعويص المسائل، وهذا منهج نبوي أصيل في التربية والتعليم؛ فها هو ذا رسول الله ﷺ يسأل أصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟»(٧).

وبهذا يتبين أن القراءة الجادة هي قراءة التفهم والبصيرة والإدراك، ونعمة الفهم من أجلِّ النعم التي ينعم الله ـ تعالى ـ بها على العبد، و «رُبَّ شخص يفهم من النص حكماً أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مئتين»(٨). وكم جرَّ سوء الفهم على صاحبه من الخلل والاضطراب؛ وما أحسن قول الإمام ابن القيم: «ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة»(٩).

---

(١) القراءة أولاً، ص ٣٨.
(٢) صيد الخاطر، ص ١٦٩.
(٣) التفكير علم وفن، ص ١٣٣.
(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٣٢٩).
(٥) تاريخ بغداد (٤/ ٤١٩).
(٦) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨١).
(٧) أخرجه البخاري في العلم (١/ ١٤٥) رقم (٦١)، ومسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٤) رقم (٢٨١١).
(٨) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠).
(٩) مدارج السالكين (٢/ ٤٣١).

نهاية الجغرافية

«سيادة» الدولة.. أم «سيادة» العولمة؟!

حسن قطامش

بعدما حصل «فوكوياما» الياباني على الجنسية الأمريكية كتب لهم «نهاية التاريخ» وقال: إن التاريخ سينتهي عند النموذج الأمريكي، وعندما أوصلت الولايات المتحدة «كوفي عنان» إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة، كتب لهم عن «نهاية الجغرافية».

كتب كوفي عنان مقالاً طرح فيه أفكار أولياء نعمته الذين أتوا به إلى مكانه هذا، وهو ـ فيما كتب ـ لم يعدُ كونه ناقلاً للأفكار التي تريد الولايات المتحدة إيصالها إلى العالم الذي ما زال فيه من يصدق ويعترف بفوقية الشرعية الدولية!!

يقول عنان: إننا في حاجة لملاءمة نظامنا الدولي بصورة أفضل مع عالم فيه فاعلون جدد ومسؤوليات جديدة، إن سيادة الدولة بمعناها الأساس يتم إعادة تعريفها الآن على الأقل بوساطة قوى العولمة والتعاون الدولي. إن الحكومات تفهم الآن بشكل واسع بأنها أدوات في خدمة شعوبها، والعكس ليس صحيحاً. وفي الوقت ذاته فإن السيادة الفردية ـ وأعني بها الحرية الأساسية لكل فرد التي تحظى بمرتبة القداسة ويحفظها ميثاق الأمم المتحدة والمعاهدات الدولية اللاحقة ـ قد دعمها وعي منتشر ومتجدد بحقوق الفرد. وعندما نقرأ ميثاق الأمم المتحدة اليوم نعي أكثر من أي وقت مضى أن هدفه هو حماية الأفراد من بني الإنسان، وليس حماية من يظلمونهم ويسيئون معاملتهم.

إن شعارات السيادة التقليدية وحدها ليست العقبة الوحيدة تجاه عمل فعال في الأزمات الدولية. كما أن الطرق التي تحدد بها الدول مصالحها القومية ليست بأقل أهمية؛ فقد تغير العالم بشكل عميق منذ نهاية الحرب الباردة، بيد أنني أخشى من أن مفاهيمنا عن المصلحة القومية لم تحذُ حذو هذا التغير؛ فهناك حاجة لوجود تعريف جديد أشمل للمصلحة القومية في القرن الجديد، مما يستحث الدول على إيجاد وحدة أكبر في السعي للأهداف والقيم العامة والمشتركة. وفي محتوى كثير من التحديات التي تواجه الإنسانية اليوم نجد أن المصلحة الجماعية الشاملة هي المصلحة القومية.

وإذا ما علمت الدول المصممة على انتهاج السلوك الإجرامي أن الحدود ليست رادعاً مطلقاً ـ وأن المجلس سيقوم بعملٍ مّا لمنع أكثر الجرائم

خطورة ضد الإنسانية ـ عندئذ لن تنخرط هذه الدول في مثل هذا المسار مفترضة أنها ستفلت بفعلتها دون عقاب.

إنه لا توجد مادة في ميثاق الأمم المتحدة تقف حائلاً دون الاعتراف بوجود حقوق فيما وراء الحدود!!(١).

فالإرادة الدولية ترسم خريطة جديدة للعالم تتوافق مع التطورات العالمية، وهذه الخريطة الجديدة لن يكون بها حدود خاصة لكل دولة، بل سيصبح العالم كتلة واحدة متعاونة متكافئة متوازنة متراضية مسالمة آمنة!!

وبالرغم من تلك الصورة المشرقة لهذه الخريطة إلا أن رئيس منظمة الوحدة الإفريقية، الرئيس الجزائري، «بوتفليقة»، أعرب عن عدم ارتياحه لما تخطط له القوى الجديدة لتحقيق أهدافها السامية!! ففي مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية «أونكتاد» الذي عقد في بانكوك قال بوتفليقة مؤمِّناً على كلام عنان: إنه يجري حالياً رسم خريطة جديدة للعالم.. يتم استبعاد قارة هي «إفريقيا» منها بوضوح وببساطة.

وقد يبدو العجب حين يتذكر المرء أن هذه القوى الجديدة التي تريد أن تزيل جميع الحدود هي نفسها القوى التي رسمت الحدود ذاتها في بدايات القرن العشرين الميلادي، والتي ما زالت آثار هذا الرسم قائمة حتى الآن بإشكالاته وخصوماته.

فما قصة هذه القوى مع الحدود؟

تزييف التاريخ:

التاريخ يصنعه الأقوياء، وهذا مسلَّم به، سواء كانت القوة حسية أم معنوية، أما الضعف فليس له ثمر إلا التبعية والإذعان والاستسلام والذلة، ومن هذا المنطلق، وبمقتضى السنن الإلهية، فإن الأقوى يفرض ما تطغيه به قوته، وما تدفعه إليه مصلحته، دون النظر إلى اعتبارات أخرى، خاصة إذا كانت القوة مادية بحتة. وتقود الولايات المتحدة العالم الآن، ومع استفرادها بالسيطرة بعد انتهاء الحرب الباردة، أطغاها هذا الاستفراد، فراحت تبالغ في التطاول على العالم، وأطلقت عليه كلب الرأسمالية المسعور «العولمة». بيد أن الولايات المتحدة في هذا السعي الجديد لم تقف عند حد تعديل الجغرافيا، بل سبقت ذلك بتزييف التاريخ، بدعوى أنها صاحبة رسالة إلهية مفوضة بها في هذا التغيير.

فهذا جورج واشنطن أول رئيس أمريكي في خطابه الرئاسي عام ١٧٨٩م يقول: «إنه موكل بمهمة عهدها الله إلى الشعب الأمريكي»، وهذا ما قاله توماس جيفرسون في خطابه الرئاسي عام ١٨٠١م: «الأمريكيون شعب الله المختار» وهو ما يعني بلغة التوراة ـ المحرفة ـ صفوة العالم، لهم الحكم والهيمنة اختياراً أو قوة وقسراً.

أما الرئيس «دوايت آيزنهاور» فقد خاطب أمته عام ١٩٥٣م قائلاً: «لمواجهة تحديات عصرنا حَمَّل القدر بلدنا مسؤولية قيادة العالم الحر».

الروائي الأمريكي هيرمان ملفيل (١٨١٩ ـ ١٨٩١م) قال: «نحن رواد العالم وطلائعه، اختارنا الرب، والإنسانية تنتظر من جنسنا الكثير. لقد بات لزاماً على أكثر الأمم أن تحتل المؤخرة. نحن الطليعة تنطلق إلى البرية لتقدم ما لم يقدمه الأوائل».

«ألبرت بيفريدج» عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي ألقى خطاباً في مجلس ولايته قال فيه: «إن الله لم يهيِّئ الشعوب الناطقة بالإنجليزية لكي

---

(١) مجلة الإيكونوميست البريطانية، ١٨ ـ ٢٥/٩/١٩٩٩م.

تتأمل نفسها بكسل ودون طائل، لقد جعل الله منا أساتذة العالم!! كي نتمكن من نشر النظام حيث تكون الفوضى، وجعلنا جديرين بالحكم لكي نتمكن من إدارة الشعوب البربرية الهَرِمَة، وبدون هذه القوة ستعم العالم مرة أخرى البربرية والظلام، وقد اختار الله الشعب الأمريكي دون سائر الأجناس فهو شعب مختار يقود العالم أخيراً إلى تجديد ذاته»!

أما المفكر والقاضي الأمريكي أوليفر وندل هولمز (١٨٤١ ـ ١٩٣٥م) فيقول: «الحق يمتلكه الشعب القادر على قهر الشعوب الأخرى». وفي هذا السياق العولي نفسه قال هنري كابوت لودج: «الدول الصغيرة شيء من تراث الماضي الذي عفا عليه الزمن ولا مستقبل لها».

كما اعتبر الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية أنفسهم شعباً مختاراً منذ قرون بقراءة كتابهم المقدس، إنهم بذلك النور والإرشاد للشعوب الأخرى؛ لأنهم الشعب المختار من الله؟ الفكرة الرئيسة: هي أن الله يساعد المختار، أما نجاحُه فلا يبدو لنا مسوَّغاً في عيون الرب فحسب، بل والطرق المستخدمة لتحقيق هذا النجاح يجب أيضاً أن تكون مسوَّغة!![1].

وبهذا الادعاء للحق الإلهي في التصرف في شؤون العالم، وبأي طريقة كانت راح الأمريكان يشوِّهون وجه التاريخ ويزيفون حقائقه.

العولمة.. ثور الرأسمالية الهائج:

الرأسمالية نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية يقوم على أساس إطلاق الحرية الشخصية للفرد فيما يعمل وفيما يكسب، وفيما ينفق دون حدود أو قيود، ومن دون مراعاة لدين أو خلق، وتقوم على أساس تقديس الملكية الفردية، والبحث عن الربح بشتى الطرق والأساليب، والمنافسة والمزاحمة في الإنتاج وفي الأسواق.

وقد مرت الرأسمالية بثلاث مراحل مختلفة:

الأولى: تبدأ من نهاية القرون الوسطى وحتى عام ١٩١٧م، وكانت تتسم تلك المرحلة باعتمادها على استنزاف موارد الدول الأخرى من خلال احتلالها العسكري.

الثانية: ما بعد قيام الثورة الشيوعية عام ١٩١٧م وحتى انهيار المعسكر الشرقي عام ١٩٩٠م، وفيه حاولت الرأسمالية استخدام الأدوات التجميلية لوجهها القبيح حتى تستطيع الاستمرار في مواجهة المعسكر الاشتراكي.

الثالثة: وهي التي أعقبت سقوط الاتحاد السوفييتي. وهنا ومع هذا الانفراد عادت إلى طبيعتها الأولى من نهب موارد الدول وخاصة العالم الثالث، ولكن بطرق أكثر إجراماً وخداعاً من خلال المؤسسات والمنظمات والاتفاقيات الدولية.

وكان هذا الطور الأخير هو طور «العولمة»، والعولمة ـ كما يريدونها ـ هي اتجاه العالم الآن ليصبح كياناً واحداً في كل المجالات، بدءاً من الاقتصادي وانتهاء بالثقافي، ومروراً بالسياسي والاجتماعي.

هذه الإرادة الدولية الجديدة التي تحاول فرضها على الدول الضعيفة ـ وأكثرها إسلامية ـ تقبلتها هذه الدول بالخوف، وعدم القدرة على المواجهة وذلك لعدة أسباب:

الأول: أن القوى الموجهة للعولمة هي قوى غربية «نصرانية ويهودية» ولهذه القوى تاريخ عداء مع المسلمين ضارب في القِدَم، ولا ينتظر لمستقبله إلا الزيادة في العداء ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا

---

(١) لاهوت الهيمنة الأمريكية، يوهان جالتونج ضمن كتاب: أمريكا طليعة الانحطاط، لجارودي، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣.

النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. ويقول ـ تعالى ـ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

ولم يكن الغرب أظهر منه وأقوى على المسلمين من اليوم؛ فمع هذا الظهور لن يكون العداء إلا إلى زيادة الرغبة في الكفر، كما نصت آية الممتحنة.

الثاني: أن هذه الدول التي تقود هذه العولمة هي نفسها التي أتت بنارها وحديدها لقتل المسلمين ونهب ثرواتهم والتنكيل بهم على مر عصور طويلة.

الثالث: أن العولمة لم تتحول بعدُ إلى نظرية مستقرة؛ فهي ما زالت في طور التشكيل، والريبة من مراميها ما زالت كثيرة.

الرابع: حجم القوة المادية التي تمتلكها، بل وتحتكرها وتتحكم فيها، فالتدفقات العالمية العالية، والتقنية الحديثة، والسيطرة على الموارد الطبيعية ـ دون ملكيتها بالضرورة ـ والسيطرة على وسائل الإعلام، واحتكار أسلحة الدمار الشامل، كل هذه جعلت حجم الخوف يتزايد لدى الدول الضعيفة.

الخامس: انفراد المعسكر الرأسمالي بالعالم، فلم يعد هناك شرق وغرب، بل «غرب وغرب».

لا عزاء للدولة:

إذا كانت الدولة عبارة عن مجموعة من الأجهزة، فيها ما يتكلف بالردع والعنف والمراقبة مثل الجيش والشرطة والقضاء والسجون.. إلخ وفيها ما يختص بالدعاية والتعبئة والتوجيه كالتعليم والإعلام والمؤسسات والأحزاب.. إلخ، فإن الدولة تضطلع بالقيام بواجبها في الحكم والتحكم في الأفراد، والمكان الذي يحدها، وهي التي تحتكر وسائل «العنف» ـ إن جازت هذه التسمية ـ التي تضمن من خلال هذه الملكية التحكم في «العنف» وهي المسؤولة عن «الفرد» في القيام باحتياجاته المادية والأدبية، كما هي مسؤولة عن حمايته وحماية حقوقه المكفولة له.

كما أنها القائمة على مراقبة الأنظمة والمعايير التي تكفل ضبط المعاملات المختلفة داخل الدولة، وبين الدولة وغيرها من الدول.

هذه الخصائص ـ وغيرها ـ يندرج تحت مسمى: «سيادة الدولة» ومع الدعوة الجديدة المطروحة على لسان الأمين العام للأمم المتحدة من أن سيادة الدولة بهذا المعنى يتم إعادة تعريفها بواسطة قوى العولمة الجديدة، فإن الدولة سوف تتحول أمام هذه القوى إلى أداة لتيسير تحقيق تلك الأهداف.

لقد كان لما تملكه هذه العولمة أو تتحكم فيه كالمنظمات الدولية، المؤتمرات الدولية، والشركات العملاقة، «العابرة للقارات» أو «متعددة الجنسيات» أو التكتلات الاقتصادية كالاتحاد الأوروبي، وحتى مشاريع السلام، كان لكل ذلك الأثر البالغ في تغيير شكل الدولة بصورة كبيرة، وأصبحت «الدولة» دولة كوميدية، أو دولة رخوة، لها المظاهر الخارجية لدولة ذات سيادة، ولها ـ صورياً ـ كل المهام التي كانت تقوم بها في السابق، لكنها في الحقيقة تقوم بعملية تكاد تنحصر في بيع مرافق الدولة، أو ما يسمى بـ «الخصخصة».

فلم تعد الدولة قادرة على أن تشكل ملجأً أو حاجزاً آمناً ضد الاقتصاد المسيطر على العالم، وأكثر من ذلك؛ فإن الدولة ذاتها تسعى للحصول على مكاسب مادية من ظاهرة العولمة، بيد أن هذه الدولة التي تحاول التلاؤم باستمرار مع هذه الظاهرة تجد نفسها ليست سوى وكيل في هذه

العملية؛ فهي محاطة بقوى عالمية تخرج عن نطاق سيطرتها، مما يضعف من قدرة الساسة والقادة على صناعة القرار السياسي والاقتصادي؛ إذ يواجَهون بقوة الإنتاج العالمي والتمويل الدولي وأعباء المديونية الخارجية مما يحد من فرص القادة المحليين في التركيز على تحسين الظروف الوطنية في مواجهة الأشكال والممارسات التنافسية من الرأسمالية المعولة. وهذا ما يعبر عن أبرز مظاهر ضعف السيادة الوطنية للدول واختراقها لعصر ما بعد الحرب الباردة(١).

ولكن سيبقى الأمر الأهم في ذلك كله هو معرفة الهدف والمغزى من هذه المحاولة لرسم خريطة جديدة للعالم، والقضاء على سيادة الدولة، وكيف تحقق لهذه القوى - إلى الآن - إنجاز كثير من أهداف هذه الخطة؟

دين العولمة.. والدين:

تنطوي العولمة في أساسها على إلغاء كل السلطات وأعلى هذه السلطات هي سلطة الدين؛ فكان سعي الرأسمالية الأهم متوجه إلى تنحية الدين، واستبداله بدين العولمة، أو كما أطلق عليها البعض: «وحدانية السوق»(٢)، أو «عقيدة العولمة»(٣).

ولقد كانت النقطة الأساسية التي استندت إليها العولمة في انطلاقها، هي حسم الصراع مع الدين. تقول إحدى داعيات العولمة: «إن حسم الصراع بين الدين والدولة كان يعني البعد بالدين عن استقلاله الذي يحقق من خلاله أهدافاً وأغراضاً سياسية، كما أفاد هذا الحسم في استبعاد عوامل القهر والتعصب والجمود، ودحض دعاوي الحكم بالحق الإلهي الذي روّج له بعض رجال الدين لإحكام سيطرتهم على الأفراد والمجتمع والدولة ومصادرة كل أنواع الحريات، وهكذا فإن حسم هذا الصراع والنأي بالدين عن النزاعات السياسية، كان نقطة فاصلة في تطور الديمقراطية منذ عصر النهضة، والذي كان له أكبر الأثر في تحرير العقل وترسيخ حرية الفكر.

فعلى أنقاض فكرة الحكم بالحق الإلهي تعمقت الفكرة التي تؤكد أن الأمة هي مصدر السلطات، ومن هنا تطورت مفاهيم الديمقراطية الليبرالية، فالفلسفة الليبرالية تقوم على المذهب الفردي وتعظم قيمة الإنسان بصفته الفردية»(٤).

فالعولمة في سعيها لهدفها وبمقتضى العداوة الطويلة بين سادتها وبين الإسلام، أرادت القضاء على ما تبقى من الإسلام في نفوس الناس.

ولقد كانت العولمة الثقافية من أخطر وجوه العولمة، والتي تُعنى بإذابة الفوارق العقدية والفكرية والسلوكية وطمس الهوية الإسلامية، والدعوة إلى الإباحية والانحلال.

وكما يشير البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة إلى أن العولمة تشير عادة إلى تدفق التجارة ورأس المال على الصعيد الدولي. ولكن انتشار الثقافات على الصعيد الدولي كانت له على الأقل أهمية انتشار العمليات الاقتصادية نفسها. واليوم، هناك ثقافة عالمية آخذة في الظهور، ومن خلال العديد من وسائط الإعلام - من الموسيقى والسينما إلى الكتاب

---

(١) انظر: العولمة والعرب، خيارات اقتصادية مرة بين التهميش والإقصاء، احمد ثابت، مجلة الاجتهاد، العدد/٣٨/ شتاء/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٢) روجيه جارودي، أمريكا طليعة الانحطاط، الفصل الثاني، ص ٣٩.

(٣) جميل مطر: إنسان دافوس.في مواجهة قوى ما فوق الدولة، جريدة الحياة، العدد: / ١٣٤٩٧/١٨/١١/١٤٢٠هـ.

(٤) العولمة دور جديد للدولة، د. هالة مصطفى، مجلة السياسة الدولية، العدد/١٣٤/ أكتوبر/ ١٩٩٨م.

ـ فإن الآراء والقيم الدولية تختلط بالهويات الوطنية وتلونها بطابعها. وقد شهد انتشار الأفكار عبر التلفزيون والفيديو تطورات ثورية، وهناك الآن أكثر من ١,٢ بليون جهاز تلفزيون في جميع أنحاء العالم، وتصدر الولايات المتحدة أكثر من ١٢٠,٠٠٠ ساعة من البرامج التلفزيونية سنوياً إلى أوروبا وحدها، وتنمو التجارة العالمية في البرامج بأكثر من ١٥٪ سنوياً.

وتفرض الثقافة الشعبية الآن ضغوطاً أقوى من أي وقت مضى. ومن مانيلا إلى ماناغوا، ومن بيروت إلى بكين، وفي الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، أصبحت أشكال الزي (الجينز، وتصفيفات الشعر الخاصة، والـ «تي ـ شيرت»، والألعاب الرياضية، والموسيقى، والعادات المتعلقة بتناول الطعام، والمواقف الاجتماعية والثقافية، أصبحت كلها تشكل اتجاهات عالمية. وحتى الجرائم ـ سواءاً أكانت تتصل بالمخدرات، أو بإساءات معاملة المرأة، أو الاختلاس، أو الفساد ـ أصبحت تتجاوز الحدود، ومتشابهة في كل مكان. لقد انكمش العالم في أوجه عديدة[(١)].

إن الدعوة لإنهاء الجغرافيا تهدف في أساسها إلى حرية الوصول إلى كل الأرض دون عوائق أو معارضة، أو حتى إلى تأشيرة دخول أو زيارة سياحية؛ إنها استباحة مطلقة، ولن تعدم قوى العولمة حجة أو تكأة للوصول إلى أغراضها في أراضي المسلمين وحرب الإسلام في أرضه.

إله المصلحة:

«لا تحدثني عن التاريخ أو عن الحق أو عن الكرامة، أوعن الحرية، وإنما حدثني عن المنفعة وعن القوة» هذا أحد المبادئ المترسخة لدى قوى العولمة، وبما أن الجشع وحب التملك والقضاء على الغير من أجل المصلحة الفردية، هي أبرز سمات الرأسمالية، وحيث إن العولمة ثورها الهائج فقد ارتفعت قيمة هذه السمات، وزادت حدتها مع زيادة قدرات الوسيلة الجديدة للرأسمالية. بيد أن العولمة في ظاهرها خبيثة خائبة، خبيثة في أنها تحمل شعارات براقة ووعوداً وأمانيَ بالرخاء والسعادة لكل البشر، فانخدع بها الضعفاء والمقهورون، فزادتهم غماً إلى غمهم.

وخيبة العولمة في خسارتها السريعة جداً لتلك الشعارات البراقة التي رفعتها، وما ذلك إلا لارتفاع وتيرة الجشع فيها حين نادى «العالميون» بإنهاء الجغرافيا وإزالة سيادة الدولة على حدودها، كان ظاهرها الرحمة والشفقة على حقوق الإنسان «فمجرد طفل جائع يبكي في أدغال إفريقيا مثلاً يستثير العطف وحركات المشاركة الوجدانية وغير الوجدانية لدى بعضٍ على ضفاف نهر الدانوب أو الرور أو المسيسيبي، وعلى ذلك قس. ليست القضية تدخُّل هذه الدولة في الشأن الداخلي لتلك الدولة بقدر ما هو الشعور المتنامي بالمصير المشترك لبني الإنسان!! إن العولمة المعاصرة سوف تؤدي في النهاية إلى حرمان الدول من حق السيادة المطلقة وصولاً إلى مفهوم جديد للسيادة يركز على العالم أجمع بصفته الوحدة السياسية التي تحل محل الدولة التقليدية المعتادة»[(٢)].

(١) تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٧م، مجلة الاجتهاد، العدد ٣٨/ شتاء ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

(٢) د. تركي الحمد، السيادة في عصر العولمة، جريدة الشرق الأوسط، العدد: ٧٤٣٩/ ٢٥/ ١٢/ ١٤١٩هـ.

ولا ندري هل نذكّر أولئك الدعاة بما قاله بوتفليقة أم نحيله على مآسي إفريقيا التي لا تنقطع في مدنها وقراها وليس في أدغالها؟

حق الإنسان.. أم التدخل والاحتلال:

تصدر وثيقة إعلان حقوق الإنسان عن أربعة مبادئ أساسية:

١ - يولد الناس ويظلون أحراراً متساوين في الحقوق.

٢ - يمكن للناس أن يفعلوا كل ما لا يضر بالغير؛ وبناء على ذلك يمكنهم أن يفكروا ويتكلموا ويكتبوا ويطبعوا في حرية.

٣ - للمواطنين الذين تتكون منهم الأمة الحق المطلق في إدارتها.

٤ - يجب على الأمة صاحبة السلطان أن تضع نصب أعينها دائماً حقوق الأفراد من جهة، والمصلحة العامة من جهة أخرى[(١)].

بالنظر إلى هذه المبادئ نجدها في ظاهرها تحافظ على حقوق الإنسان، ولكن بالنظر إلى الواقع نجد أن الدساتير والمواثيق الوضعية لم تتناول تحديد الحقوق بشكل قانوني واضح، وإنما عمدت إلى الحرية والمساواة بأسلوب عاطفي أدبي مما يزيد من مرونة السلطة الحاكمة في إقرار بعض الحقوق، أو عدم إقرارها في المجتمع، وليس أدل على ذلك من التفرقة التي تمارسها الدول الديمقراطية التي تدعي دفاعها عن حقوق الإنسان، أو السياسة الاستعمارية البشعة التي يمارسها العديد من الدول الكبرى في العالم.

علاوة على أن المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان كالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٨م، والعهد الدولي بشأن الحقوق المدنية والسياسية الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٦٦م، لم تنص صراحة على الوسائل الكفيلة بضمان حقوق الإنسان، واكتفت بالنص على ضرورة صيانتها فقط. فعلى الرغم من إقرار الإعلان العالمي، والعهد الدولي لحقوق الإنسان المتعلقة بشخصه وبدنه، وحرية تفكيره، وعدم اعتقاله اعتقالاً تعسفياً، وعدم تعذيبه أو حبسه بدون نص قانوني، إلا أن الإعلان الدولي لم يحدد الوسائل الدولية لكفالة تمتع الإنسان بحقوقه وحرياته المقررة فيه، وهذا ما يجعل حقوق الإنسان خاضعة لاعتبارات ذاتية، ترتبط بمصلحة الدولة، أو مصلحة الحكام، دون النظر إلى الاعتبارات الموضوعية المتعلقة بإقرار الحقوق والواجبات[(٢)].

إن آثار العولمة على الإنسان وحقوقه التي تم تجاوز الحدود الجغرافية للمطالبة بها كانت لها آثار سيئة للغاية؛ فقد كان إهمال البعد الاجتماعي سمة جوهرية من سمات العولمة؛ ففي الوقت الذي تتصاعد فيه أرباح هذه الشركات والفئات المرتبطة بها على نحو فلكي، تتدهور الأحوال المعيشية للعمال وللطبقة الوسطى بشكل صارخ بعد إلغاء الدعم وزيادة الضرائب غير المباشرة وخفض النفقات الحكومية ذات الطابع الاجتماعي (على التعليم والرعاية الصحية ومشروعات الضمان الاجتماعي) وبعد تخصيص كثير من مشروعات الحكومة وأنشطتها، فقد أصبح ينظر الآن إلى مشاركة العمال ذوي الياقات الزرقاء والبيضاء في ثمار التقدم التكنولوجي ونمو الإنتاجية في عالم ما بعد الحرب وإبان دولة الرفاه ونظم الاشتراكية

---

(١) التاريخ الفكري والسياسي للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ألبير بابيه، ترجمة: د. محمد مندور، ص ٢٥.

(٢) النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية، دراسة مقارنة، د. محمد أحمد مفتي، د. سامي صالح الوكيل، كتاب الأمة، شوال ١٤١٠هـ.

الديمقراطية وأثناء الحرب الباردة على أنه كان تنازلاً من جانب رأس المال لم يعد له الآن ما يسوِّغه، وأن مراعاة البعد الاجتماعي واحتياجات الفقراء أصبحت أعباءً لا تطاق. لا عجب، والحال هذه، أن تتزامن العولمة مع عمليات إثراء لم تشهد لها الرأسمالية مثيلاً من قبل إلى جانب عمليات إفقار شديد للعمال وللطبقة الوسطى تذكرنا بالمراحل الأولى لنشأة الرأسمالية. ويبدو أن هذا التناقض الذي يستفحل سنة بعد أخرى سوف يخلق احتمالات قوية لإحياء كثير من أشكال الصراع الطبقي وإعادة تكوين القوى المناهضة لهذا الوجه اللاإنساني للرأسمالية المعولمة، خاصة بعد أن كثر الحديث في الآونة الراهنة عمًّا يسمى بـ «ديكتاتورية العولمة والسوق» من جانب عدد كبير من المفكرين والسياسيين والكتاب الذين أزعجتهم هذه الأوضاع الاجتماعية.

ومع اتساع حرية الحركة لرأس المال عبر الحدود دون أية عوائق عمدت كثير من الشركات دولية النشاط ومتعددة الجنسية إلى نقل مصانعها من بلادها الأصلية؛ حيث ترتفع أجور العمال وينخفض متوسط معدل الربح، إلى البلاد النامية حيث انخفاض الأجور وتوفر المزايا العديدة التي ترفع من معدل الربح. وكان لذلك ـ بلا شك ـ علاقة واضحة بزيادة بطالة عمال هذه المصانع. أضف إلى ذلك أن الثورة التقنية الهائلة المرافقة للعولمة قد أدت إلى خلق اتجاه لا رجعة فيه للاستغناء المتواصل عن العمالة وإلغاء كثير من المهن والوظائف بعد إحلال الآلة مكان الإنسان(١).

وهكذا رفع عديد من الساسة والكتاب في الغرب دعوات تقول: إن زيادة معدلات البطالة والفقر في الدول الصناعية تقتضي «عدم تبديد الموارد في الخارج»، أي عدم توجيه معونات للدول المهمشة التي كانت تعرف بالدول النامية. وهكذا فإن «المجتمعات العاجزة عن إنتاج غذائها أو شرائه بعائد صادراتها الصناعية مثلاً لا تستحق البقاء، وهي حالياً عبء على البشرية يمكن أن يعرقل تقدمها الذي حكمه دائماً قانون: البقاء للأصلح، ومن ثَمَّ يجب إسقاط البلاد التي تعيش ـ رغم كل المساعدات ـ في حال فقر الأغلبية من سكانها يجب إسقاطها، من حساب هذه الشركات (الكوكبية)، وأن تترك وشأنها، ولا تُمنح أية معونات تنمية اكتفاءاً بالمنح الإنسانية في الظروف الاستثنائية»(٢).

هذا وقد اعترف الرئيس الأمريكي بأثر العولمة السيِّئ على الإنسان وحقه، فيقول كلينتون: إنه لا بد من مراعاة ظروف الإنسان الذي يدفع منذ أعوام ثمناً باهظاً للعولمة، هذا الإنسان غير مستفيد منها حتى الآن، وفي الغالب لن يستفيد منها قبل مرور وقت طويل، إنما يدفع أكثر مما دفعه الفلاحون في بدايات عصر الثورة الصناعية من قمع وفقر وانتزاع من المكان والهوية والتاريخ، ويدفع أكثر مما دفعه العامل الصناعي في جميع تجارب التصنيع من ظلم وأمراض واغتراب(٣).

هذا الاعتراف من رئيس القوى الموجهة للعولمة يصادق على ما ذكر من شراسة العولمة وأنها أخطر وأقبح مراحل الرأسمالية، ويصادق كذلك على أن هذه القوى كاذبة في دعواها أن هدفها الأساس من إلغاء سيادة الدول إنما هو لحماية حقوق الإنسان،

(١) انظر: تناقضات حاكمة لمستقبل العولمة، رمزي زكي، مجلة الاجتهاد، العدد/٣٨، شتاء، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

(٢) إسماعيل صبري عبد الله، «الكوكبة» الرأسمالية العالمية في مرحلة ما بعد الإمبريالية، المستقبل العربي، العدد: ٢٢٢، أغسطس/١٩٩٧م.

(٣) إنسان دافوس في انتظار روبن هود، جميل مطر، جريدة الحياة، العدد: ١٣٤٩٨/١٩/١١/١٤٢٠هـ.

وأن المواثيق التي تكلم عنهـا عنان والتي تحظى بمرتبة القداسة لم ترفع بعد من أكوام (الكناسة). إن الدعوة إلى التدخل في سيادة الدولة بحجة حماية الحقوق الإنسانية ليست إلا حجة واهية لاستعمار جديد بصلف ووقاحة.

الشركات «ناهبة» القارات!!

في صورة بالغة للجشع والطمع عاد الإقطاع بوجه آخر، ورغم نعومته وبهاء رونقه إلا أن هذه المساحيق لا تخفي ما وراءها من قبح.

فمن خلال الاستناد إلى نظرية «نهاية الجغرافية» وجعل العالم سوقاً واحدة وكتلة واحدة يتحرك فيه كل شيء دون قيود ظهر ما يسمى بالشركات «متعددة الجنسيات» أو «العابرة للقارات»، لقد انتهزت الرأسمالية سقوط الشيوعية وأطلقت وحوشها الكاسرة على البشر تنهبهم، وتسلبهم حقوقهم؛ فقد شهد الاقتصاد العالمي منذ منتصف السبعينيات العديد من التغييرات السريعة والمتلاحقة، وقد تسارعت وتيرة هذه التغييرات ومنحاها بشدة منذ نشأة منظمة التجارة العالمية في يناير ١٩٩٥م، وعلى رأس هذه التغييرات ازدياد النزعة إلى الاندماجات الكبرى والتي بدأت في البروز خلال حقبة التسعينيات. ففي عام ١٩٩٨م تم عقد ٨٩ صفقة اندماج تزيد قيمة كل منها على المليار دولار، وذلك مقابل ٥٨ صفقة مماثلة في عام ١٩٩٧م، ٤٥ صفقة في عام ١٩٩٦م، ٣٥ صفقة في عام ١٩٩٥م، وقد تركزت هذه الصفقات في قطاعات الخدمات المالية والتأمين والاتصالات والتكنولوجيا الحيوية. وبلغت قيمتها الإجمالية في عام ١٩٩٨م ٥٤٤ مليار دولار، بزيادة ٦٠٪ عن عام ١٩٩٧م الذي قدرت قيمة الصفقات التي تمت خلاله بنحو ٣٤٢ مليار، مقابل ٢٧٥ مليار عام ١٩٩٦م و٢٣٧ مليار عام ١٩٩٥م.

وقد أدى ذلك إلى ازدياد سيطرة الشركات متعددة الجنسية على مقاليد الأمور بالأسواق الدولية، وهناك الآن ٣٥٠ شركة كبرى تستأثر بما نسبته ٤٠٪ من التجارة العالمية، بل إن ثلث التجارة العالمية تتم بين هذه الشركات وفروعها في البلدان الأخرى. وبلغت الحصة المئوية لأكبر عشر شركات في قطاع الاتصالات السلكية واللاسلكية ٨٦٪ من السوق العالمي، وبلغت هذه النسبة ٨٥٪ في قطاع المبيدات، وما يقرب من ٧٠٪ في قطاع الحاسبات الآلية، و٦٠٪ في قطاع الأدوية البيطرية، و٣٥٪ في قطاع المواد الصيدلانية، ٣٢٪ في قطاع البذور التجارية[1].

فلم يكتف العالم المتقدم بإقامة تكتلات اقتصادية بين الدول كالاتحاد الأوروبي، والنافتا[2] في أمريكا فقام بتطوير أشكال التكتل كي يضمن الهيمنة المطلقة على السوق الدولية.

ومن هنا فإن اندماج الشركات دولية النشاط من شأنه أن يحكم السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية لصالح قطب واحد.

هذه الشركات تسعى للاستفادة من اقتصاديات الحجم الكبير والانتشار الجغرافي في توسيع أسواقها وتخفيض تكلفة الإنتاج والنقل وإعادة تقسيم العالم على المستوى الدولي بما يدعم كفاءتها الاقتصادية وفرض سيطرتها على الأسواق. هذه الشركات أصبحت تتضخم بشكل مفزع من خلال الاندماجات السريعة والمتلاحقة؛ حيث أصبح العالم أمامها سوقاً واحداً.

(١) عبد الفتاح الجبالي، مؤتمر سياتل وتحديات العولمة الاقتصادية، ملف الأهرام الاستراتيجي، العدد/٦١/يناير/٢٠٠٠م.

(٢) اتحاد يضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك.

على سبيل المثال: سوق السيارات سوف تسيطر عليه أقل من عشر شركات في العالم في ثلاث دول متقدمة.

لقد أصبحت هذه الشركات هي التي تتحكم في تدفقات كتل الأموال والأسهم والسندات وتحركاتها، وفي أسواق الأوراق النقدية المصرفية بعيداً عن العملات الوطنية حتى للدول الكبرى، ومخترقة بذلك حدود البنوك المركزية وقدراتها، حتى في الدول الكبرى أيضاً.

لقد كانت هذه الشركات هي اللاعب الرئيس وراء اتفاقيات الجات عام ١٩٩٤م وانتشار منظمة التجارة العالمية من أجل الدفع بقوة بما يعرف بتحرير الأسواق والتجارة العالمية وتدفقات السلع والمنتجات والأموال السائلة والأوراق المصرفية والمواد الإعلامية والإعلانية.

إن هذه الشركات تعتبر الأرض كلها سوقاً كبيراً لها بما فيها وبما عليها، وتتنافس هذه الشركات في اقتسام هذه «الأراضي» دون أي اعتبار لقيم أو أخلاق.

هذه الشركات أصبحت رأس الحربة للسياسات الاستعمارية الجديدة التي ترسمها القوى الدولية الرأسمالية فلم تعد في حاجة إلى قوات مسلحة ضخمة وقوية لتأمين مصالحها الخارجية؛ إذ أصبحت قوتها الاقتصادية تمكنها من دخول أية دولة، وتتيح لها أن تمد نشاطها إلى مختلف أنحاء المعمورة مستخدمة في ذلك رشوة كبار المسؤولين وذوي النفوذ السياسي وسلاح الإعلام على نطاق واسع، وربما يفسر هذا عمليات خفض نفقات التسليح والإلغاء التدريجي للجيوش المعتمدة على «الخدمة الوطنية العسكرية»، والتحول إلى جيوش محترفة قليلة العدد نسبياً وذات تكنولوجيا بالغة التعقيد.

ورأسمالية اليوم لم تعد في حاجة إلى الدولة في مجال خدمات الأمن الداخلي، وفض المنازعات المدنية، وخدمات البريد والاتصالات. والأكثر من هذا أنه في ضوء التطور المذهل الذي حدث في نظام النقد الدولي وتعويم أسعار الصرف وتحرير القطاع المالي، والاستخدام الواسع لبطاقات الائتمان Credit Cards لم تعد الدولة مسيطرة على الكتلة النقدية داخل حدودها، حيث انتزعت قوى السوق من إطار سيادة الدولة حق إيجاد النقود وضبط عرضها. بل إن تآكل قوة الدولة وسلطتها تبدو الآن بشكل جلي فيما تمخض عن العولمة من إضعاف شديد لفاعلية أي سياسة اقتصادية كلية تراها الدولة صالحة لاقتصادها المحلي ما لم تشاركها في ذلك الشركات متعددة الجنسية.

هذه الشركات نادراً ما تدخل في شكل استثمارات مباشرة (أي طويلة الأجل)، وإنما تدخل بما يعرف «بالأموال الطائرة» في استثمارات قصيرة الأجل وسريعة العائد، والتي تحقق لها عوائد هائلة دون أن يكون لذلك مردود على التنمية المحلية، بل ربما يحدث مثلما حدث في دول النمور.

وإن حدث وقدمت استثمارات مباشرة فإنها قبل ذلك تأخذ ما يكفيها من التسهيلات والضمانات السياسية والاقتصادية التي لا تحظى بها رؤوس الأموال المحلية، مما يعرقل الاقتصاد المحلي.

أضف إلى هذا أن جل أنشطتها يقتصر على السلع الاستهلاكية ذات العائد الأسرع نتيجة للنمط الاستهلاكي السائد. إن هذه الشركات تقوم بامتصاص الفوائض المالية لدى المستهلكين عن طريق الإغواء والإغراء الاستهلاكي(١).

---

(١) يراجع: العولة والعرب، أحمد ثابت، تناقضات حاكمة لمستقبل العولة، رمزي زكي، مجلة الاجتهاد، مصدر سابق، والكوكبة، إسماعيل صبري عبد الله، المستقبل العربي، مصدر سابق.

إن الاتفاقيات والمنظمات الدولية التي سعت هذه الشركات إلى قيامها وإقرارها تعطي لها الحرية المطلقة في فعل ما تشاء داخل الدولة المستقبلة لها، وشد يد الحكومات في إقرار أية إجراءات أو سياسات تتعارض مع توجهات هذه الاستثمارات عن طريق إزالة كافة الحواجز والعوائق التي تحول دون الحصول على أقصى منفعة من هذه الدول.

وقد سعت هذه الشركات «الناهبة» للقارات ومن ورائها قوى العولمة الجديدة إلى عدم حل أزمة الديون الخارجية للبلاد النامية، وإنما الاكتفاء بإدارة الأزمة على النحو الذي يجعل هناك ضماناً لاستمرار هذه الدول في دفع الفوائد المرتفعة والأقساط المستحقة باعتبار أن منفذ «الإقراض» بأسعار الفائدة المعومة والمرتفعة ما يزال مربحاً لرؤوس الأموال الفائضة.

كيف يواجه الضعفاء؟

في ظل هذا الواقع الضاغط بشدة على الدول لتغيير خرائطها وقيمها: ماذا تفعل الدول الضعيفة، والدول الإسلامية والعربية داخلة كلها تحت هذا المسمى؟

إن دولاً كثيرة من هذه الفئة لم تبلغ بعد إلى أن يعترف بأنها «دولة» بصورة كاملة، فقد عجزت عن إنجاز مهمات الدولة، وأخفقت فيها أيما إخفاق وضاعف من هذا الإخفاق مظاهر الفساد السياسي والاقتصادي والإداري والاستبداد. لقد أهدرت الثروات النفطية والأرصدة الدولارية في مظاهر الاستهلاك والترف وصفقات السلاح الضخمة التي تستخدم غالباً للقمع الداخلي وإرهاب الشعوب.

إن دولاً - أو كيانات - بهذا الوصف لن تستطيع الصمود أمام هذه الوحوش الكاسرة، وإن كان هناك بعض الدول التي تميزت بقدرات عالية في التصنيع والتطور التقني والتصدير مثل كوريا الجنوبية وتايلاند وماليزيا، وقد حدث لها ما لا يخفى في مواجهة هذه القوى، فكيف بمن هي دونها؟

إن هذه الدول في حاجة إلى الاعتصام بالله - عز وجل - ودينه وتطبيقه في الحياة قولاً وعملاً، حكماً وتحاكماً، إن هذا الاعتصام بحبل الله كفيل - مع السعي للأخذ بوسائل الإصلاح والتغير - بمواجهة هذه القوى.

نهاية الجغرافية أم نهاية العولمة؟

أفاق العالم أخيراً من سكرة «العولمة» فقد ظل العالم في حال غيبوبة، وافتقاد للتوازن، خلال التسعينيات؛ إذ كانت أدوات العولمة «النشطة» تتمثل في دس «السم في العسل»، وتقدم للعالم صورة وردية لمستقبل العالم في ظل العولمة؛ وذلك تحت شعار «العولمة السعيدة» على حد ما جاء في بعض الكتابات التبشيرية هنا وهناك.

وهكذا كان العالم خلال التسعينيات في حال تخدير، ولكن عند نهاية التسعينيات تخمرت تناقضات العولمة في الشمال والجنوب، وأفاق العالم من غفوته، وأطلق صيحته المدوية في سياتل ضد ترتيبات واتفاقات «منظمة التجارة الدولية»، والاعتراض على إطلاق جولة جديدة للتفاوض بشروط بلدان العالم الأول، والولايات المتحدة الأمريكية خصوصاً.

وجاءت الشعارات والهتافات التي ملأت شوارع سياتل لتعكس معاني عدة في مقدمتها:

العالم لن يتحول إلى سلعة يتداولها الأقوياء.

الناس والشعوب قبل الأرباح.

والكل يعلم أن هذه التظاهرات الكبرى لم تكن تظاهرات للرعاع أو الطلبة المتحمسين، أو «المراهقين السياسيين»، بل كان قوامها جمهرة

عريضة محترمة من النقابيين والمهنيين، وقيادات المجتمع.

وليس هناك من شك في أن الاجتماع الوزاري الثالث لمنظمة التجارة العالمية في سياتل أخفق إخفاقاً ذريعاً ومدوياً؛ إذ عجز المؤتمر عن إصدار «بيان ختامي» يحدد أسلوب عمل المنظمة وأدواتها مع بداية الألفية الثالثة، كذلك لم يُفلح في إطلاق جولة جديدة من مفاوضات تحرير التجارة كما كان مقرراً! ولعل أهم نتائج «معركة سياتل» ـ كما أطلق عليها ـ أن أية جولة جديدة من جولات التفاوض حول مزيد من تحرير التجارة الدولية لن يتم بالسهولة التي كانت تتصورها الولايات المتحدة.

إن حركة الاعتراض التي ظهرت في سياتل ضد منظمة التجارة العالمية «سوف تنتشر من الآن فصاعداً في أنحاء الأرض كافة».

كما أن عدم نجاح مؤتمر سياتل يعكس بداية تفجر تناقضات العولمة، وبخاصة عدم التوازن بين مصالح البلدان المتقدمة والبلدان النامية، وإعادة توزيع عناصر القوة فيما بين بلدان العالم الأول.

وفي طوكيو قالت الصحف اليابانية: إن تعثُّر نجاح المؤتمر ألقى مياهاً باردة على الثقة المفرطة التي أبدتها الولايات المتحدة، وأثبت أنه لا يمكن التوصل إلى إطار عمل لتحرير التجارة على الصعيد العالمي من دون الأخذ في الاعتبار مصالح الدول النامية والقوى الاقتصادية الأخرى في العالم، إن المؤتمر كان فرصة للدول المتقدمة والنامية لكي تقول: «لا» للولايات المتحدة التي اتصفت تصرفاتها بالأنانية والصلف والغرور، لكونها القوة العظمى الوحيدة في العالم.

ولعل أهم منجزات هزيمة «مؤتمر سياتل» هو إبطاء الهرولة نحو الاندماج في مسيرة العولمة من دون تأمل ورَوِيَّة. ولعل من المفارقة أن نقد ممارسات العولمة بدأ في العالم الأول، وعلى المقيمين خارجها أن يراعوا فروق التوقيت!!

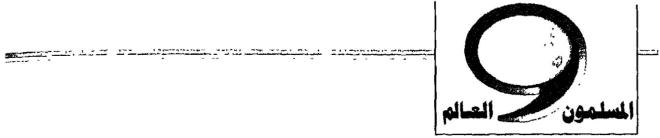
ولعل الشعار الذي رفعه المعادون والمتظاهرون: «لا نريد تجارة حرة بل نريد تجارة عادلة» ولعل التأمل في مغزى الفرق بين تجارة حرة، وتجارة عادلة هو فرق كبير؛ لأنه قد تكون الحرية بلا عدالة؛ ولأن الحرية التي لا تقود إلى العدل والإنصاف ليست إلا شعاراً براقاً أجوف لا يحقق الاستقرار والتوازن على الصعيد العالمي[1].

وأخيراً: فإن الإسلام لا يعترف بالحدود الجغرافية؛ إذ إن مجاله كل الأرض، بيد أن الإسلام دين الرحمة ودين العدل، ونحن على وعد من الله ـ تعالى ـ إن استقمنا ـ بالتمكين والسيطرة على كل الأرض: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ......﴾ الآية [النور: ٥٥]. وكما بشر النبي ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»[2]، لكن ليس بأنياب العولمة ولا بوسائل الشركات عابرة القارات عفواً (ناهبة القارات).

---

(١) منتدى دافوس والعولمة .. وعالم ما بعد سياتل، محمود عبد الفضيل، جريدة الحياة، العدد: ١٣٤٧٣، ٢٤/١٠/١٤٢٠هـ.

(٢) رواه أحمد، ح/ ١٦٣٤٤.



الأوضاع السياسية في سيراليون

عثمان محمد بيسي

تقع سيراليون على الساحل الغربي من إفريقيا وعاصمتها فريتاون، وأراضيها قليلة الموارد، والمناخ عموماً رطب. تحازي الساحل على المحيط الأطلسي أحراش ومستنقعات. عدد سكانها عام ١٩٩٦م حوالي خمسة ملايين نسمة، نسبة المسلمين فيهم ٣٠٪، ونسبة النصارى ١٠٪ والبقية ٦٠٪ من ديانات ومعتقدات أخرى.

وفيما يلي نتحدث عن «كارثة الصراع على السلطة وأثرها على الإسلام والمسلمين»:

١ - تاريخ الانقلاب وأسبابه:

قام صغار العسكريين من الجيش بالتعاون مع السجناء بانقلاب عسكري على (تيجاني كابا) أول رئيس مسلم يحكم سيراليون منذ الاستقلال في ٢٥/٥/١٩٩٧م، ففرّ الرئيس المدني المنتخب إلى جمهورية غينيا المجاورة.

ذكر المتمردون أسباباً لقيامهم بالانقلاب تتلخص في خمس نقاط كلها مزاعم في عدم اهتمام الحكومة المدنية بالجيش، واتفاقية السلام مع المتمردين، والصحافة، وتباطؤ الحكومة في دفع الزيادات على رواتب العمال والموظفين، ونحو ذلك.

أصدرت الحكومة المدنية بياناً ردت به على جميع مزاعم الحكومة الانقلابية بما اقتنع به الشعب والجمهور.

انقسم المحللون لدوافع الانقلاب إلى ثلاثة أقسام:

فمنهم من يرى أن الدافع قَبَلي إقليمي لكون الرئيس المدني من حزب إقليميّ شرق البلاد وجنوبها، والمتمردون شماليون، ومنهم من يراه سياسياً لخوف رؤساء الأحزاب غير الفائزة على استقرار الحكومة للرئيس الحالي؛ فلا ضمان لمستقبل أحزابهم، ومنهم من يراه دينياً لكون الرئيس أول حاكم مسلم للبلاد، وَوُفِّقَ في تخليص البلاد من كثير من مشاكلها في وقت قصير، والمتمردون وحكومتهم كلهم نصارى.

٢ - الانقلاب والرأي العام:

كان الراي العام الداخلي والخارجي مضاداً للانقلاب العسكري هذا؛ مما أدى إلى قيام الشعب عامة بالإضراب عن العمل في الدوائر الحكومية وغيرها، وإلى قيام مظاهرات جماعية من فئات متعددة في البلاد أكثرهم طلاب الجامعات، فقابلتهم الحكومة الانقلابية بالقمع والمذابح الرهيبة للسيطرة على البلاد.

كذلك يوجد انقسام داخل الجيش، وحدوث اصطدامات بين الانقلابيين وميليشيات الحكومة المدنية في الأقاليم.

كان الغرض من إنشاء الميليشيات هو الدفاع المدني أمام خطر المتمردين في البلاد، فأفراد هذه الميليشيات كانوا صيادين يتدربون على حمل السلاح لمقاومة المتمردين، وهم متطوعون ملتزمون بالصدق والأمانة والإخلاص، ولذلك أحبهم الشعب وأبغضتهم قوات الجيش التي دأب أفرادها على النهب والسلب عقب أي

مصادمات بينهم وبين المتمردين.

استعان الرئيس المدني المسلم بهذه الميليشيات في إخماد نار فتنة المتمردين، فكان ذلك من أسباب تحالف بعض قوات الجيش مع المتمردين محتجين بأن الحكومة المدنية آثرت المليشيات عليهم.

تَكَوَّنَ بعد الانقلاب «قوات الدفاع المدني» من الميليشيات خارج سيراليون بغية إعادة الحكومة المدنية إلى الحكم.

هذا ولا يخفى على من كان يتابع أخبار سيراليون أيام الانقلاب أن جميع الأسرة الدولية أدانوا الحكومة الانقلابية، وأنكروا عليها، ولم يعترفوا بها.

٣ - الجهود الدولية والمحلية لحل الأزمة:

كان أول مسعى لحل الأزمة بعد الانقلاب مباشرة ما قام به سفراء دول نيجيريا، وبريطانيا، والقائم بأعمال السفارة الأمريكية، والمبعوث الخاص للأمم المتحدة، وبعض السياسيين البارزين الذين عقدوا لقاءات مع قادة الانقلاب إلا أن جميع مساعيهم باءت بالإخفاق.

واستجابة لنداء الرئيس (تيجاني كابا) أصدر زعماء دول غرب إفريقيا أمرهم بزيادة عدد وحدات قوات حفظ السلام الإفريقية في المنطقة، فاستولوا على مناطق استراتيجية في البلاد.

وبناءاً على قرار القمة الثالثة والثلاثين لمنظمة الوحدة الإفريقية، وانعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الأعضاء في كوناكري تم إصدار قرار يقضي بإعادة الحكومة المدنية الشرعية لسيراليون ولو اقتضى الأمر استعمال التدخل العسكري.

واستناداً إلى القرار السابق تم تشكيل لجنة وزارية رباعية من وزراء خارجية نيجيريا، وساحل العاج، وغانا، وغينيا، كما تمت المصادقة عليه من قِبَل مجلس الأمن الدولي بالأمم المتحدة.

بدأت اللجنة الوزارية الرباعية تنفيذ القرارات بالحوار مع الحكومة الانقلابية، وانتهى بالخداع والانهيار من قِبَل الانقلابيين مما يستدعي التدخل العسكري؛ إلا أن الشعب يأمل في التفاوض السلمي خوفاً من إزهاق المزيد من الأرواح وتدمير مقومات البلد.

المساعي الدبلوماسية بعد إخفاق المحادثات في أبيدجان:

دعا رئيس مجلس المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا إلى قمة حول أزمة سيراليون، وقررت القمة فرض الحصار والعقوبة الاقتصادية على الحكومة الانقلابية، وأصدر مجلس الأمن الدولي قراراً يؤيد قرار قمة إفريقيا، ويعمم تطبيقه على جميع دول العالم تأييداً لقرار قمة إفريقيا.

أما بريطانيا فاظهرت رغبتها في إقصاء النظام الانقلابي عن السلطة بكل الوسائل الممكنة قبل استعمال القوة.

اجتمعت اللجنة الوزارية الإفريقية الموكلة بتنفيذ قرارات مجلس الأمن في كوناكري مع النظام الانقلابي، وشارك في الاجتماع رئيس المتمردين (سانكو) وامتاز هذا اللقاء الثالث بإحراز تقدم ملموس أدى إلى التوصل لحل الأزمة سلمياً تحت اتفاق مبرم بين الجانبين.

نص الاتفاق على بقاء النظام الإنقلابي في الحكم لمدة ستة أشهر من تاريخ إبرام الاتفاق يسلم الحكم بعدها للحكومة المدنية الشرعية، ويتم تطبيق برنامج السلام في سيراليون خلال تلك الأشهر الستة.

يحتوي برنامج السلام الذي يطبقه مجلس المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا على ثمانية بنود هي:

١ – الوقف الفوري لإطلاق النار بين جميع الأطراف تحت مراقبة قوات حفظ السلام الإفريقي وقوات الأمم المتحدة من تاريخ توقيع الاتفاق.

٢ – البدء بأعمال نزع السلاح وتجريد أفراد الجيش والمقاتلين من الأسلحة، وتسريحهم على مدى شهر كامل على يد (الأكوموغ) قوات حفظ السلام الإفريقية.

٣ – السماح بدخول المساعدات الإنسانية تحت مراقبة (الأكوموغ) مع بقاء الحصار إلى حين عودة الحكومة الشرعية.

٤ – العمل على عودة اللاجئين السيراليونيين إلى وطنهم.

٥ – أن عودة الحكومة المدنية الشرعية إلى الحكم هو لب مساعي الدولة لحل الأزمة، ويتوقع تعاون رئيس المتمردين (سانكو) في الحكومة وإصلاح البلاد.

٦ – احتواء المقاتلين الذين نزعت منهم الأسلحة، وذلك بتسجيل أسمائهم لتامين وظائف وحرف لهم، أو بإعطائهم منحاً دراسية لمواصلة دراساتهم داخل البلاد أو خارجها، وسيساعد المجتمع الدولي بإيجاد ميزانية لتحقيق ذلك.

٧ – طلب تبرعات لمساعدات إنسانية عاجلة لإعادة التأهيل والبناء في البلاد.

٨ – ضمان العفو العام عن جميع المتورطين في أحداث الانقلاب بدون قيد ولا شرط.

لقي هذا الاتفاق نوعاً من ارتياح النفس لدى السيراليونيين وإن كانوا يتخوفون من إعطاء مهلة ستة أشهر للنظام الانقلابي الذي يريدون التخلص منه.

٤ - آثار الانقلاب:

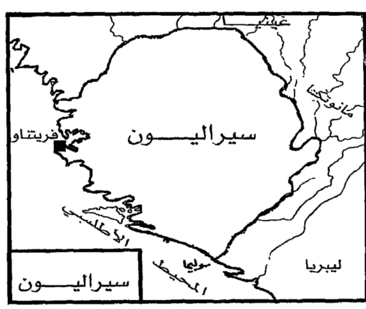
لهذا الانقلاب آثار غير جيدة من النواحي المختلفة الآتي ذكرها:

أ – الناحية الاقتصادية:

تحطيم لبنات التنمية الاقتصادية للبلاد سواء التي وضعت بعد الاستقلال مباشرة أو التي وضعت خلال حكم الحكومة المدنية التي قام المتمردون بالانقلاب عليها، وذلك من طرق متعددة منها: هبوط قيمة عملة سيراليون بعد الانقلاب، وتوقف كافة المعاملات التجارية، ونهب الأموال والممتلكات للدولة والمواطنين، وتجميد الإنتاج المحلي، وغلاء المواد المعيشية، وتجميد المساعدات والقروض، وفرض الفقر على الشعب، وإغلاق جميع المكاتب الدبلوماسية؛ إضافة إلى فرض العقوبة والحصار على الدولة من الأسرة الدولية.

ب – الناحية الأمنية:

كان دخول حرب المتمردين سنة ١٩٩١م بداية لفقدان سيراليون أمنها واستقرارها، إلا أن ذلك اقتصر على القرى والأرياف، ولكن قيام الانقلاب عام ١٩٩٧م قوّض كل أسباب الأمن في سيراليون، وهدم بنيانه من أساسه بتعميم أنواع الإجرام التي لا تتصور في جميع أنحاء البلاد في المدن وغيرها، وصار كل فرد غير آمن على نفسه ولا على أهله وماله، ووقعت مصادمات



عنيفة متنوعة في أرجاء البلاد كلها بين قوات حفظ السلام الإفريقية وقوات نظام الانقلاب راح ضحيتها آلاف من المواطنين وبعض الجيش، ومارست قوات نظام الانقلاب أنواعاً من التعذيب المروع ضد المواطنين من ضرب وقتل، وقطع للأطراف من الأحياء، واغتصاب النساء والبنات، واعتقال الأبرياء، وغير ذلك مما لا يصدقه إلاَّ من يشاهده؛ بل ارتكب الانقلابيون مذابح مفزعة في عدد من المناطق ضد المواطنين.

ج – من الناحية الاجتماعية:

تدهورت الحالات الاجتماعية في سيراليون بعد الانقلاب بشكل تام من حيث انتشار المجاعة، وتفشي الأمراض والأوبئة، وازدياد نسبة الوفيات، وتشريد السكان، وهجرتهم إلى الدول المجاورة، وانتشار البطالة فيمن بقي، وشيوع الفوضى التي يقودها نظام الحكومة الانقلابية، واختلال التوازن الاجتماعي باستمرار أعمال السرقة والنهب، وإتلاف ممتلكات المواطنين مما قاد إلى

استمرار المظاهرات والاضطرابات الاحتجاجية الشعبية ضد النظام الانقلابي.

د - من الناحية التربوية:

سبَّب هذا الانقلاب المشؤوم ضياع مستقبل الطلاب في جميع المستويات التعليمية في سيراليون لوقوع الانقلاب في وسط أيام امتحانات المدارس والجامعات في سيراليون سواء امتحانات النقل أو امتحانات الشهادة.

فمن جراء هذا الانقلاب توقفت جميع النشاطات التربوية والتعليمية في البلاد بجميع مراحل التعليم، إضافة إلى قتل عشرات من الطلاب، واعتقال مئات منهم أثناء المظاهرات، وتسليح الأطفال دون السابعة من أعمارهم بعد اختطافهم عنوة من مدارس حكومية لها أقسام داخلية، ونمو البطالة، وانتشار الفواحش بين الطالبات، واعتقال كثير من أعضاء الاتحاد الوطني للمعلمين، وهجرة معظم أساتذة الجامعات، ونهب الأدوات التعليمية الحديثة في معظم المدارس والمؤسسات التعليمية وتدمير بعضها، وتحويل معظم المؤسسات التربوية إلى معسكرات لإيواء المتمردين، وغير ذلك من الأمور التي أفقدت شباب سيراليون مقومات الحياة التربوية في البلاد.

٥ - أوضاع المسلمين ومعاناتهم من الأزمة:

لمَّا كان المسلمون في سيراليون يشكلون ٣٠ ٪ من السكان جعل معظم الكوارث في هذا الانقلاب تحل بهم، إضافة إلى أن الإسلام والمسلمين هما الهدف الأساس في القيام بهذا الانقلاب؛ لأدلة واضحة منها: كون جميع أفراد الانقلابيين نصارى معروفين بحقدهم على الإسلام، وكون رئيس الحكومة المدنية الذي قاموا ضده أول رئيس مسلم لسيراليون منذ الاستقلال، وكون المليشيات الذين يساندون الحكومة المدنية معظمهم مسلمون، ثم إن ما قام به رئيس الحكومة المدنية من مد جسور العلاقات مع بعض الدول العربية والإسلامية، وإصدار أحكام منع تعاطي المخدرات وترويجها، وغيرها من أحكام تتمشى مع مبادئ الإسلام كل ذلك مما أغضب أعداء الإسلام، وأدى بهم إلى القيام بالانقلاب وارتكاب ما يأتي:

أ - نهب ممتلكات المساجد من سجادات، ومصاحف، ومولدات الكهرباء، وساعات، ومراوح وغيرها وخاصة في العاصمة.

ب - ملاحقة الأئمة، والدعاة، والمشايخ، وشن غارات على المساجد أثناء أداء الصلوات إرهاباً وبحثاً عن الدعاة.

ج - تدمير بعض المساجد بالقنابل، وتدنيس بعضها.

د - تضييق النشاطات الدعوية والثقافية على الدعاة.

هـ - تدمير بعض المدارس الإسلامية، وتحويلها إلى معسكرات للجيش والمتمردين. وغير ذلك من أضرار لحقت بالمسلمين مباشرة من جراء هذا الانقلاب.

ختاماً:

استخلاصاً من العرض السابق فإن مأساة الانقلاب لم تكن إلا امتداداً لحروب صليبية دُبِّر لها بالتحالف بين رئيس الحكومة الانقلابية النصراني، ونائبه الملحد اللاديني ضد أول رئيس مسلم للبلاد، وضد الإسلام والمسلمين.

وكان لأيدٍ خبيثة من أعضاء الأحزاب المعارضة في البلد دور في تدبير الانقلاب؛ إذ رأوا أن الرئيس المسلم وفقه الله في مدة وجيزة من توليه حكم البلاد إلى تحقيق إصلاحات يعجز غيره عن القيام بها؛ فرأوا أنهم لو تركوا الحكم بيده إلى أن تأتي فترة الانتخابات القادمة فإن الحزب الحاكم سيفوز لتمكنه من تحقيق طموحات الشعب، فلا يستطيعون الفوز أيضاً، فدبروا بالتحالف مع الجيش وبالتعاون مع المتمردين ليقوم هذا الانقلاب المدمر، ومن هنا يتضح لنا أن الإسلام والمسلمين هما الهدف الأساس لقيام الانقلاب.

المسلمون في الإكوادور

خوان إسكيليو

واقع المسلمين في الإكوادور:

كان أوائل المسلمين في الإكوادور من الشام ومصر؛ حيث هاجروا بين الحربين العالميتين إلى هذه البلاد للبدء بحياة جديدة، ووصلوا بجوازات سفر تركية «وهو ما يذكّر بالإمبراطورية العثمانية» ولذلك فهم يُعرفون بالأتراك.

استوطن بعضهم العاصمة (كويتو) والمينا الرئيسة (غوايا كويل) وبعضهم استوطن (منابي) و (لوس رايوس) و (اسمار الداس).

وكان بعضهم يعمل بالتجارة؛ حيث كانت تعتمد في ذلك الوقت على التبادل، وعاشوا حياة قاسية. ونظراً لأن هؤلاء المهاجرين كانوا يقصدون الدنيا؛ ولضحالة ثقافتهم الدينية لم يستطيعوا مواجهة الديانة الكاثوليكية الرومانية المسيطرة بقوة وسائلها. وكثير منهم استقدم زوجته من بلده، ولم ينجب أحد منهم تقريباً ذرية.. ومنهم عائلات معروفة، وبعد سنوات طويلة تزوج كثير منهم من شابات من نصارى البلاد، وسافرن إلى بلاد أزواجهن، وتعرفن على الإسلام هناك، وعرفن أنهن شرعاً لا يمكن أن يرثن فلساً من أزواجهن؛ لأنه «لا يرث المؤمن الكافر»[1] إذ كُنَّ مسلمات اسماً فقط، وعاد بعضهن إلى (الإكوادور) وتنصّر بعضهن من جديد واستولين على ثروات أزواجهن ونشّأن أولادهن على النصرانية. وتتذرع هؤلاء النسوة المتنصرات بأن أزواجهن لم يعلموهن الإسلام بطريقة صحيحة، وكان عليهن البحث بوسائلهن الخاصة. ولكن بعض ذرية المسلمين ارتدُّوا، إلا أنهم يدّعون أنهم مسلمون ليرثوا آباءهم في البلاد التي تطبق الشريعة الإسلامية في مجال الإرث؛ في حين أن كثيراً من البنات متزوجات من نصارى. وجميع من ذكرنا اعتنقوا النصرانية ما عدا ثلاثة فروع من عائلة سالم وسّوم الذي أرسل أبناءه لتعلُّم اللغة العربية والإسلام لمدة عشر سنوات.

التنظيم والتجمعات:

في نهاية الأربعينيات تكوَّن ما يعرف باسم مجموعة: «لكلا» ولا علاقة للدين بهذا التنظيم؛ فقد ضم المسلمين والنصارى على أساس عرقي؛ ولكن خلافاتهم المستمرة ظلت تقودهم إلى المجهول. كما تكونت مجموعة أخرى تحت اسم: «النادي العربي» وذلك في منتصف الثمانينيات.

ولا تزال الهجرة مستمرة إلى الإكوادور من قِبَل بعض المسلمين من أرض الولايات المتحدة الأمريكية ولكن بأعداد قليلة، وأكثرهم لا يعكس صورة طيبة عن الإسلام.

في بداية التسعينيات حدثت هجرات بسيطة هندية وباكستانية وكثير منهم استطاع الوصول إلى هدفه «الولايات المتحدة وكندا» أما فيما يتعلق بالدين

---

(١) رواه البخاري، ح/ ١٤٨٥.

فلم يتركوا أثراً مهماً، وتتعلق ذكرياتهم بالأكل الحار الذي كانوا يأكلونه، والتوابل التي كانوا يطهون بها. وفي أواخر التسعينيات بدأت هجرات من غرب إفريقيا بسبب عدم الاستقرار في بلادهم.

في الثمانينيات أسلم اثنان من مواطني الإكوادور كان أحدهما يقيم في إيطاليا والآخر في الولايات المتحدة؛ حيث التقيا هناك بمسلمين مخلصين أثناء الدراسة في الجامعة، ولم يكونا قد سمعا حتى بكلمة إسلام في موطنهم الإكوادور، وهما يمارسان الدعوة بجد وإخلاص، ولكنهما لا يجدان الحماس لدى إخوانهم من المسلمين. وفي منتصف التسعينيات كان عدد المسلمين الجدد حوالي ١٢ شخصاً واليوم بلغ العدد حوالي ٦٠ مواطناً إكوادورياً.

وللتوضيح فإن هذا مجرد البداية في عمل المواطنين الإكوادوريين الذين أسلموا في الدعوة إلى الإسلام، ولم يكن هذا العمل سهلاً فقد وُوجِهُوا بالانتقادات والمحاربة حتى من أهلهم وذويهم الذين كانوا يعبدون الشمس إلى عهد قريب جداً؛ وربما لا يزال الوالدان والأقربون نصارى.

وكان أول زواج بين هؤلاء المسلمين تم في أول أكتوبر ١٩٩١م.

وتقول دراسة أجريت هنا أن نسبة المسلمين ٢,٦٪ من عدد السكان في الإكوادور.

وأول محاولة لقيام مسجد كانت من بعض المسلمين الذين كانوا يُعَدُّون على أصابع اليد؛ حيث قرروا استئجار شقة لاتخاذها مصلًى خصوصاً لصلاة الجمعة، ثم وفرت السفارة المصرية شقة لهذا الغرض، ولم يستمر هذا الحال طويلاً.

وكانت المحاولة الثانية في أكتوبر ١٩٨٨م من خلال تأسيس منظمة اجتماعية تهدف إلى إقامة المسجد، ووافقت الوزارة المعنية ولكن شريطة ألا تقام خطب دينية في هذا المنزل، وكان اسمها: (جمعية خالد بن الوليد الثقافية)، ويمثلها سليمان الأعسر، ولا تزال تعمل، ويحضر صلاة الجمعة حوالي (٢٥ ـ ٣٠) شخصاً، وأرسلت وزارة الأوقاف المصرية «الشيخ محمود الأزهري» ولكن انتهى عقده بنهاية السنة المالية ١٩٩٨م، وهناك صعوبة شديدة في العمل الدعوي، ويبدو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمتحن هؤلاء المسلمين الجدد في قوة إيمانهم.

الوضع الحالي:

تعد جمعية (خالد بن الوليد الثقافية) أول منظمة إسلامية تعترف بها الحكومة. تأسست الجمعية في ٥ أكتوبر ١٩٩٤م، ويمارس فيها التعليم الديني والاجتماعي والثقافي على طريقة أهل السنة والجماعة. وقد تبرعت المسلمة الملتزمة السيدة (ليلى وسَّوم) بمنزل مناسب لتمارس فيه المنظمة عملها، ولا تتلقى المنظمة أي دعم من أية دولة أجنبية.

٩٩٪ من نساء المسلمين هناك يلبسن اللباس الإسلامي مع الحجاب في حياتهن اليومية، ويعقدن دروساً أسبوعية يوم الجمعة، وفي الإجازة الأسبوعية يوم الأحد مرة كل أسبوعين.

نشاطات المركز:

- يقوم المركز بنشر بعض الموضوعات بعد ترجمتها إلى اللغة الأسبانية.
- تعريف غير المسلمين بالإسلام.
- دراسات دينية مقارنة.

وهناك خمسة كتب تم ترجمتها هي:

- ماذا يقول الإنجيل عن محمد؟ للشيخ أحمد ديدات.
- فهم المسلمين والإسلام: السفارة السعودية في واشنطن.
- الحوار بين الإسلام والمسيحية: د. هـ. بارقل.
- حقيقة المسيح: الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض.

الكتاب الأول: (ماذا يقول الإنجيل عن محمد؟)، كلَّف حوالي ١٦٠٠ دولار لعدد ٥٠٠٠ نسخة، أما بقية الكتب فلم تطبع بعدُ بسبب عدم وجود التمويل.

ويقوم المركز - ولله الحمد - بالآتي:

● خطبة الجمعة ويحضرها حوالي ٢٥ رجلاً، و١٢ امرأة.

● عقد المركز ٦ حالات زواج خلال السنوات الثلاث والنصف الماضية.

● لا يوجد طلاق.

● كل المسلمين تقريباً يحضرون إفطار رمضان في المسجد.

● الصلاة على الجنازة.

وبحمد الله فإنه لم يحدث أي شجار أو ارتفاع للأصوات داخل المسجد منذ ٤ سنوات.

الاتصالات الخارجية:

لم يكن هناك غير جماعة التبليغ التي يحضر بعض أفرادها من بنما، وكانت أول زيارة لهم في عام ١٩٩٠م، وفي خلال هذه الفترة حتى ١٩٩٨م قاموا بأربع زيارات.

حضرت مجموعات أخرى من جماعة التبليغ من المدينة المنورة ونيويورك والإمارات العربية المتحدة وبنما.

الندوة العالمية للشباب الإسلامي تثبت حضوراً بتبرعها ببعض الكتب الإسلامية. والمركز الإسلامي يقدر هذا الموقف النبيل.

أرسل المركز مندوباً عنه لأول تجمُّع للقياديين اللاتينيين الذي عقد في الأرجنتين في يوليو ١٩٩٧م.

الاتصالات الداخلية:

- زيارة المرضى عند الضرورة.
- مساعدة المحتاجين عند الضرورة.
- زيارة السجون: حوالي ١٢ أجنبي.

● ألقيت محاضرة حول الإسلام يوم ١٨/١١/١٩٩٧م على الطلاب القساوسة في كلية اللاهوت بالجامعة الكاثوليكية بالعاصمة كوتيو.

● التعاون مع المراكز الثقافية الإسلامية الأخرى بإرسال الكتب إليهم.

● كتابة تقارير حول الحضور الإسلامي في الإكوادور على صفحات الصحف وفي المجلات والتلفاز والقنوات ١٠، ٤، ٢.

المنشورات:

كتب للترجمة:

- كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب.
- مبادئ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- علامات الساعة، لابن كثير.
- دروس مهمة لعامة الأمة، للشيخ عبد العزيز ابن باز.
- فهم شرور البدعة، البو منتصر مهاجر علي.

كتيبات باللغة الأسبانية:

- مفاهيم خاطئة حول الإسلام.
- الأصولية الإسلامية.
- الجهاد.
- كتاب: أمور لا صلة للإسلام بها.

التعريف بالإسلام لدى غير المسلمين:

- ما هو الإسلام؟
- ينبغي أن تعرف هذا الرجل.
- حول الإسلام.
- خطبة الوداع على جبل عرفات.
- النساء في الإسلام.
- الاعتقاد بوجود الله في نظر الإسلام.
- المسيح نبي الإسلام. - حقوق النساء.
- من مخترع الثالوث؟ - هل عيسى إله؟
- السلوك عند صيام رمضان.

ويكلف طباعة هذه الكتب (٣٠٠٠ نسخة من كل منها) حوالي ٢٠٠٠ دولار أمريكي لكل كتاب.

سياسة الإكوادور حيال الطوائف الدينية:

- توجد حرية دينية في الإكوادور طبقاً لدستور الإكوادور على الرغم من أن الديانة الرسمية هي الكاثوليكية.
- ليس هناك ما يمنع من العمل الدعوي المفتوح.
- لا يوجد اضطهاد أو تحيز ديني سواء للفرد أو الجماعة.

- يمكن للعمل الدعوي أن يتم باستراتيجية من خلال التلفاز والراديو... إلخ.

تأشيرات الدخول: يمكن الحصول عليها بسهولة في مطار كويتو، تقريباً لجميع الجنسيات.

المشروعات:

بدأ المركز في توفير وظائف لتقوية الروابط بين أفراد المجتمع ولتحقيق الاكتفاء الذاتي وذلك في ميادين بدأت بالفعل.

ويمكن منح قطعة أرض سكنية للمهاجرين الحديثين، وإذا استطعنا تحقيق ما يصبو إليه المشروع فإن الإكوادور يمكن أن تكون مكاناً ينتشر منه الإسلام إلى أمريكا الجنوبية - إن شاء الله -.

المدرسة الإسلامية:

لقد بدأ المشروع في تشييد هذه المدرسة، وهي تبعد حوالي ٢٠ كيلو متر عن العاصمة كويتو وذلك لرخص سعرها، والمساحة المبنية عبارة عن ١٢٠ متر مربع.

المخيمات الصيفية تتواصل، ويقوم الإخوة بتشييد المباني والمرافق للفصول والسكن. ويفصل بين الأولاد والبنات حوالي ٨ كيلو مترات، ويمكن للمدرسين تشييد سكنهم وتكوين أول تجمع مسلم في البلاد.

توجد دروس مجانية لتعليم الأسبانية للأجانب.

مشروع لحوم الأغنام والدواجن:

يهدف هذا المشروع إلى توفير اللحوم الحلال لأعضاء المجتمع، ونتوقع أن نبدأ قريباً في التسويق، ويقوم بالعمل طبيب بيطري مسلم. وفي القريب يمكن للمسلخ أن يعمل بطاقة ١٠٠٠ دجاجة و٢٠٠ رأس من الغنم يومياً.

مشروعات أخرى:

منها توسعة المسجد، وبناء القبة، والمنارة، وأماكن الوضوء.

التكلفة لأماكن الوضوء ٩٠٠٠ دولار أمريكي.

أما توسعة المسجد فتحتاج إلى ١٠٠٠٠ أو ١١٠٠٠ دولار للمنارة والقبة. ويعلم الله وحده أن المركز لا يتلقى أي دعم ولكنه الآن بحاجة ماسة.

الاحتياجات:

١ - مقبرة خاصة بالمسلمين: توجد أرض بالقرب من العاصمة هي عبارة عن ثلاثة مواقع، وقيمة الموقع الواحد ١٩٩٢ دولار أمريكي.

٢ - ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الأسبانية يوجد الكثير منها في السوق ولكن ليس من بينها جهة من أهل السنة أو أيٍ جهة معروفة هنا.

٣ - مطبوعات للتعريف بالإسلام.

٤ - تبرعات من هيئات إسلامية من أهل السنة أو من الأفراد أهل الخير أو الزكاة وذلك لدعم الكتاب الإسلامي باللغة الأسبانية.

٥ - استيطان مسلمين هنا لعرض صورة طيبة عن الإسلام.

٦ - مِنَح لدراسة اللغة الأسبانية للمسلمين الكبار في جامعات مفتوحة.

كما أن من أعظم الاحتياجات تنشيط الدعوة إلى الإسلام الصحيح الخالي من شوائب البدعة، ونشر العلوم الإسلامية التي تعين المسلمين على عبادة الله - تعالى - على بصيرة من أمرهم.

استراتيجيات للعمل الدعوي:

- إعداد دعاة يتحدثون الأسبانية.
- إرسال طلاب وطالبات للدراسة في الخارج لإعدادهم في جامعات إسلامية.
- تشجيع الإخوة والأخوات على الدراسة في الجامعات المفتوحة.
- ترجمة شرائط الكاسيت والفيديو لأحاديث مثل أحمد ديدات وجمال بدوي وغيرهما.
- التعريف بثقافة الإكوادور لدى المنظمات الإسلامية العالمية وأسلوب التعامل معها.
- العمل مع المنظمات الإسلامية العالمية المعروفة لإدخال القرآن بصفة رسمية إلى الإكوادور.
- إعداد المخيمات ودعوة إخواننا في أمريكا الجنوبية للمشاركة فيها.
- الاستعانة بالبرامج الإسلامية لتعليم الأطفال والكبار القرآن والحديث واللغة العربية... إلخ.



يرصدها: حسن قطامش

وهل من مجيب؟

إلى كل إمام وإلى كل مصلٍّ... إلى الشيخ المسن في مصلاه... إلى المرأة في خدرها ... إليكم جميعاً هذا النداء.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠].

لقد حمي الوطيس وبلغت القلوب الحناجر واشتد الأمر وتكالب العدو وتواطأ الكفار علينا من كل جانب، الطائرات تقصف بأنواع القذائف المدمرة، والراجمات تقذف بأنواع الصواريخ، والجليد يطاول الجبال حتى ذكرنا ـ إخواننا ـ يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

أيتها الأمة: ألا يوجد فينا من لو أقسم على الله لأبره؟ ألا يوجد فينا من يرفع أكف الضراعة إلى ربه فيستجيب له؟ هل بخلتم علينا حتى بالدعاء؟ أين القنوت ولماذا شرع إذاً؟ لقد قنت النبي ﷺ يوم قُتِلَ سبعون صحابياً في بئر معونة؛ واليوم يقتل منا الآلاف فأين نصرتكم لنا؟ رحمك الله أيها العالم الرباني ـ ابن باز ـ كلما بلغك نازلة في أرض الإسلام بادرت بالقنوت للمسلمين في الصلوات، إنا لنتذكر دعواتك لنا في حربنا الأولى مع الروس، فرحمك الله رحمة واسعة؛ أيتها الأمة المسلمة: لا تنسونا بدعائكم ودعمكم؛ فإنما يأتي الفرج بعد الشدة.

[قادة المجاهدين في الشيشان: موقع: صوت القوقاز]

بين «مورو» وتيمور

ومن المؤسف كل الأسف أن المسلمين وخاصة خارج بلاد مورو يلومون المسلمين هنا، وبعضهم يقولون: كيف لا تنتصرون وأنتم قد مضى على كفاحكم ثلاثون عاماً وتيمور الشرقية حصلت على الاستقلال خلال ثلاثة أو أربعة أشهر فقط من الانتفاضة؟ ولعل هؤلاء الناس الذين يلوموننا نسوا أو تناسوا أن العالم الإسلامي لم يهتم بقضيتنا والذين تدخلوا في شؤوننا أجبروا بعضنا لقبول عروض الحكومة الفلبينية الصليبية التي كان ظاهرها الكرامة والشرف ولكن لبها وحقيقتها الاستسلام والخضوع لسلطان الكفار الظالمين المخادعين الذين كانوا وما زالوا يحاولون القضاء على الإسلام والمسلمين في المنطقة.

أما تيمور الشرقية فقد استقلت رغم عدم استحقاقها للاستقلال؛ لأن جميع دول الكفر في العالم تكالبت وتعاونت على دعمها؛ لأن شعبها نصراني وقد قام بثورة ضد دولة مسلمة.

إن هؤلاء النصارى يتعاونون ضد الإسلام والمسلمين رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم واتجاهاتهم ولهم الحق في ذلك؛ لأن راية الكفر تجمعهم، وأما المسلمون ـ مع الأسف الشديد ـ فلا تجمعهم راية دينهم وهي كلمة: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ؛ لأن بعضهم تنازلوا عنها، وصدق الرسول ﷺ إذ قال فيما معناه: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

[جبهة تحرير مورو الإسلامية ـ مكتب الإعلام الخارجي]

يريدون كسوفها وخسوفها

يقول برنار كوشنير الذي عين حاكماً لكوسوفا: إن قضية كوسوفا لم تعد «على الموضة» سياسياً وإعلامياً وبدأت الدول الغربية تتخلى عني، وتركتني وحيداً ومعزولاً. وصرت الآن عاجزاً عن تحقيق أي شيء من البرنامج الذي من أجله عينت مفوضاً للأمم المتحدة في كوسوفا. إنه خلافاً للتعهدات المالية التي التزمت بها الدول الغربية بتقديم ميزانية تقدر بـ ٢٠ مليون مارك ألماني، لم نتلق فلساً واحداً حتى الآن! حيث وصلت ميزانية كوسوفا للعام ٢٠٠٠ إلى الصفر. متسائلاً كيف يمكنه تحقيق برنامج تم تسطيره على أساس ميزانية متوقعة بعشرين ميلون مارك بينما ما هو موجود بالفعل في الرصيد البنكي للإدارة الدولية في كوسوفا يقدر بصفر؟! وهذا الأمر الواقع لا يخدم في النهاية سوى مصالح الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش.

[مجلة المجلة، العدد : (١٠٤٦)]

أين جيش المسلمين؟

قوات مسلحة قوامها خمسة عشر لواءاً ويبلغ تعدادها (٥٠ - ٦٠) ألف رجل على استعداد للتدخل لدى تلقيها لإنذار مبكر بحوالي شهرين: إنها القوة العسكرية (والويل كل الويل لتسميتها بجيش أوروبي حتى لا تثور ثائرة البلاد المحايدة) التي تستعد الدول الخمس عشرة الأعضاء بالاتحاد الأوروبي لإنزالها إلى الميدان خلال عام ٢٠٠٣م لمواجهة الأزمات الإقليمية المماثلة التي تحدث الآن في البلقان. إن الفكرة قد تمخضت بالفعل ويتم توثيقها من قِبَل رؤساء وزراء دول الاتحاد الأوروبي في اجتماع قمتهم في هلسنكي؛ حيث يتم تعميد الكيان الأوروبي الوليد للدفاع والأمن.

ومن المفروض أن يكون هناك ما لا يقل عن ١٢٠ ألف رجل في حالة التعبئة العامة اللازمة للتدخل العسكري ومن أجل أن يحلوا محل قوة التدخل وعلى الرغم من استقلالية القرار، إلا أن الاتحاد الأوروبي يُطمئن الأمريكيين قائلاً: «إن حلف شمال الأطلنطي سيظل أساس الدفاع الجماعي المشترك لأعضائه، وسيواصل دوره الهام في إدارة الأزمات».

[صحيفة الميساجيرو الإيطالية - مترجم]

عفواً.. يا منظمة العفو!!

دعت منظمة العفو الدولية - التي يوجد مقرها الرئيس في لندن - سلطات الهجرة الأمريكية إلى قبول طلب «آنسة» أردنية بمنحها حق اللجوء السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية لضمان حمايتها من خطر الموت الذي يتهددها بسبب ملاحقة أفراد عائلتها لها بتهمة ارتكاب جريمة شرف.

وأوضحت المنظمة في «بيان عاجل» أصدرته في هذا الشأن أن سلطات الهجرة الأمريكية رفضت طلب «الآنسة أ» التي استأنفت القرار لدى إحدى المحاكم المحلية.

وأوضح بيان المنظمة انه في عام ١٩٩١م بدأت «الآنسة أ» وصديقها (هـ) بتمضية أوقات معاً بالسر عن عائلتها، ثم تعاشرا في أغسطس من ذلك العام، وفي الحال طلب «هـ» يدها من عائلتها للزواج بها، إلا أن والد الفتاة رفض ذلك لكون «هـ» فلسطينياً ومن ذوي الدخل المتدني، وبسبب المخاوف من إمكانية إقدام عائلة الفتاة على قتل «هـ» إذا ما انكشفت معاشرته لابنتهم فر الاثنان كلٌ منهما على حدة من الأردن في ذلك العام.

وأضاف بيان منظمة العفو الدولية أن مخاوف «الآنسة أ» تأكدت لاحقاً أيضاً عندما تسلمت عدة رسائل من إحدى أخواتها تخبرها فيها بان والدهما أمر الذكور من أفراد العائلة بقتل شقيقتهم «غسلاً للعار» في أي زمان ومكان. وكانت آخر رسالة في هذا الخصوص قد تسلمتها «الآنسة أ» في سبتمبر ١٩٩٧م، حيث أخبرت الشقيقة شقيقتها بان والدهما أعلن انه يريد قتل ابنته قبل وفاته وأن «روحه سترقد بسلام إذا ما قام الذكور بهذا العمل».

[جريدة الشرق الأوسط، العدد : (٧٧٤٩)]

الرقيق الأبيض

١ – يسافر العبيد في عصرنا الحالي بالطائرة ومعظمهم من الإناث صغار السن ويأتين من أوروبا الشرقية أو الدول النامية. ويتم تشغيلهن في دول الغرب الغنية في بلجيكا وفرنسا وألمانيا؛ حيث يعملن من ١٦ إلى ١٨ ساعة يومياً كخادمات وخياطات وغانيات. والفرق الوحيد بينهن وبين العبيد أن أسيادهن لا يضعون في أيديهن ورقابهن الأغلال والقيود، ولكنهم ينتزعون منهن جوازات سفرهن؛ وهذا أمر له التأثير نفسه.

ويقول انتوني سيمبسون المكلف برعاية شؤون ضحايا العنف وتجارة الرقيق في اللجنة الأوروبية: إن انفتاح الكتلة الشرقية السابقة جعل تجارة الرقيق في أوروبا تنتشر بالمقدار نفسه لتجارة المخدرات. ويضيف سيمبسون أنه منذ إلغاء الرقابة على الحدود داخل الاتحاد الأوروبي أصبحت دول الاتحاد سوقاً رائجاً يفضله تجار الرقيق والقوادون.

وقد جاء في بيانات البوليس الدولي أنه قد تم نقل نصف مليون سيدة من أوروبا الشرقية إلى دول الاتحاد الأوروبي منذ عام ١٩٨٩م. [صحيفة دي ڤيلت الألمانية ـ مترجم]

٢ – يخشى مسؤولو الأمن في الولايات المتحدة أن تحل تجارة الجنس محل الاتجار في تهريب المخدرات.

ففي جلسة استماع في مجلس الشيوخ قال هارولدكوه ـ أحد مسؤولي الخارجية الأمريكية: إن المجرمين الدوليين يتركون الآن تجارة الأسلحة والمخدرات إلى تجارة الرقيق الأبيض؛ فهناك حوالي ٢ مليون امرأة على مستوى العالم تجبر على العمل في سوق الدعارة. ويقول المسؤولون: إن حوالي ٥٠ ألف امرأة تجلب إلى الولايات المتحدة سنوياً للعمل في سوق الرقيق ومعظمهن يأتين من أوكرانيا وألبانيا والفلبين وتايلاند والمكسيك ونيجيريا.

وتقول إنيز فيراكروز وهي من المكسيك وفي العشرين من عمرها: إن رغبتها في حياة أفضل حولتها إلى عاهرة وتضيف إنيز: إنهن كن يعملن ستة أيام في الأسبوع لمدة ١٢ ساعة يومياً، وكان على المرأة الواحدة أن تمارس الجنس مع حوالي ٣٥ شخصاً في اليوم، والموقف يصبح أسوأ في أيام العطلات.

[موقع هيئة الإذاعة البريطانية على الإنترنت، بي . بي. سي ـ أولاين]

هذا هو جارودي!!

تعارض الإسلام مع الماركسية وهْمٌ زائف؛ لأنه ليس هناك تعارض بين الدين والوسيلة، إننا لم نفهم العالم إلا من خلال ماركس، من هنا تأتي أهمية الماركسية كوسيلة للفهم، وهذا هو السبب الذي جعلني لا أهجر الماركسية، ولا المسيحية. لقد حافظت على الدين والوسيلة، دور الدين أن يضع للإنسان الغاية.. يمكن أن يكون الإنسان جراحاً أو مهندساً جيداً لكنه مسلم سيِّئ أو يكون مسلماً جيداً لكنه جراح سيِّئ لا داعي للخلط بين الآليات أو النواحي الفنية وبين الدين». وتابع: «أنا لم انتقل من اعتقاد إلى آخر، فانا بقيت مسيحياً وماركسياً وقمت بدور كبير في الحوار بين المسيحية والماركسية». وتابع: «لا يهمني أن يقول شخص: أنا مسيحي أو أنا مسلم؛ ولكنني أسأله: ماذا فعل الإيمان بك؟ لأن الاعتقاد هو فكر أما الإيمان فهو فعل ويتجلى هذا الإيمان في العمل».

وقال: «إنني أريد أن أحكم على الإنسان بما يعمله؛ فقد يكون هناك مسلمون سيئون ومسلمون طيبون ومسيحيون سيئون وآخرون طيبون. إننا نريد أن يكون هناك مسلمون طيبون ومسيحيون طيبون.. لا يمكن أن نستبعد الأديان الأخرى باسم أي دين؛ بل على العكس يجب أن نبحث عن الذي يجمعنا مع الأديان الأخرى».

إننا نعيش في عالم متلاحم، تتصادم في الوقت نفسه ثقافاته فيه، ونحن لذلك نحتاج إلى إيمان البوذيين بقدر احتياجاتنا إلى غيرهم من البشر، وأنا مع الاستفادة من هذه الأفكار جميعها، لا انتقل من ديانة إلى أخرى، ولكن أحاول الإلمام بكل الأفكار بحثاً عن معنى الإنسانية». [روجيه جارودي، جريدة : الرأي العام، العدد : (١١٩١٨)]

نهاية القوة

جاء في تقرير عنوانه «الثقافة العسكرية الأمريكية في القرن الـ ٢١» وكان ثمرة لتحقيقات استمرت عامين وشملت ١٢ ألف عسكري أمريكي في العالم، إضافة إلى نتائج ١٢٥ اجتماع عقدها خبراء تابعون للمركز.

إن الوتيرة المنهكة للعمليات والقروض المحدودة والمهام المتبدلة والتغييرات الديموغرافية في صفوف العسكر، والتطورات السريعة في التكنولوجيا وإغراءات المجتمع المدني خلفت انعكاسات كبيرة على البنية النظامية للجيش.

إن الجيش الذي يعتبر عدده الأدنى منذ أربعين عاماً حوالي ١,٤ مليون عنصر، بات منهك القوى ورواتب أفراده متدنية وتجهيزاته ناقصة إلى أقصى حد. كما يوجد بين عناصره ٥٦٪ من المتزوجين الذين تقترب أعمارهم من الكهولة، وهي نسب أكبر مما هي عليه في جيش يكون عماده التجنيد الإجباري.

وأكد التقرير أن جاهزية الجيش ومعنوياته تشهدان تراجعاً، وبات التوظيف والاحتفاظ بالعناصر المؤهلة يشكل مأزقاً، وصارت الحياة المهنية أقل من مُرْضية. [جريدة الحياة، العدد : (١٣٤٥٤)]

صفحة جديدة

بعثت القيادة العسكرية الجديدة في باكستان بعدة إشارات لـ «إسرائيل»، بواسطة رجال أعمال باكستانيين، تطلب تقديم اقتراحات لها حول صفقات بيع أسلحة وخبرات عسكرية.

وقال أحد رجال الأعمال الباكستانيين لصحيفة «معاريف» الإسرائيلية: «إن القيادة الجديدة في بلاده معنية بتغيير طابع العلاقات القائمة بين البلدين وتصفية أجواء العداء التي فرضتها قيادة الحكومة السابقة».

وأضاف أن بلاده اتخذت موقفاً عدائياً من «إسرائيل» بسبب قيامها ببيع الأسلحة وتحديث الأسلحة القديمة في الهند. ولكن القيادة الجديدة مستعدة لفتح صفحة جديدة مع «إسرائيل»، إذا أبدت هذه استعداداً لممارسة سياسة متوازنة بين الهند وباكستان. [جريدة الشرق الأوسط، العدد : (٧٧٤٩)]

عربون محبة

أعلنت لجنة الأبحاث الاقتصادية الصربية أن كلاً من ليبيا والصين ستقدمان لصربيا مساعدة مالية قدرها ٦٠٠ مليون دولار أمريكي رغم العقوبات الاقتصادية الدولية المفروضة عليها. وأضافت أن هذه المساعدات هي لدعم الاقتصاد الصربي المنهار وإعادة بناء وتشغيل المصانع التي دمرها قصف طائرات حلف شمال الأطلسي (ناتو).

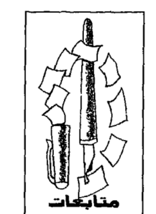
[حريدة الشرق الأوسط، العدد : (٧٧٠٥)]

زمن السلم!!

أكد الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (نايف حواتمة) أن نضاله ضد «إسرائيل» يرتكز على النضال «السياسي والدبلوماسي»!

وقال حواتمة: في هذه المرحلة نضالنا جماهيري سياسي ودبلوماسي كنضال الفصائل الأخرى في منظمة التحرير الفلسطينية؛ لأننا قررنا منذ ١٩٨٧م عدم اللجوء إلى السلاح والاعتماد على الانتفاضة الجماهيرية.

[جريدة الخليج، العدد (٧٤٦٩)]



الرد على الرفاعي

فضيلة الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان (*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد اطلعت على ورقات كتبها الأستاذ يوسف بن السيد هاشم الرفاعي بعنوان: «نصيحة لإخواننا علماء نجد» وقدم لها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. ومضمون هذه النصيحة هو الحث على التخلي عن التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والأخذ بأقوال الفرق الضالة التي حذرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ منها، بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقوله: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وحذر منها النبي ﷺ بقوله: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمكسوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

وبقوله ﷺ: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وبقوله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وسنتي».

إن الرفاعي والبوطي يدعوان إلى ترك ذلك كله، والأخذ بما عليه الفرق الضالة المنحرفة التي قال فيها النبي ﷺ: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» وهي الفرقة المتمسكة بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه بخلاف غيرها من قبورية وصوفية وجهمية ومعتزلة وغيرها. وهذا الافتراق هو الذي سبب التناحر والشقاق بين الأمة. والبوطي والرفاعي يريدان للأمة البقاء على هذا الافتراق تحت مظلة اسم الإسلام. إنني تذكرت بتآمرهما هذا على من تمسك بالسنة وترك البدعة قول الشاعر:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل فعل منكر
وبقيت في خلف يزكّي بعضهم ... بعضاً ليدفع معور عن معور

وأقول: لماذا خصَّا علماء نجد بنصيحتهما هذه مع أن المتمسكين بالسنة ـ والحمد لله ـ كثير في أقطار الأرض وفي مختلف البلاد؟ ما ذاك إلا ليوهما الأغرار أن أهل نجد أهل شذوذ وخروج عن الحق، على قاعدة من يرى أن كل متمسك بالحق فهو متطرف، ولكن هذا لا يضير؛ فالحق واضح يراه كل بصير، وأما الأعمى فلا حيلة فيه كما قال الشاعر:

وقل للعيون الرمد للشمس أعين ... سواك تراها في مغيب ومطلع
وسامح عيوناً أطفا الله نورها ... بأهوائها فلا تفيق ولا تعي

وإذا كانا يغاران على الأمة الإسلامية ـ كما زعما ـ؛ فلماذا لا يحذرانها من البدع والانحرافات التي تفرقها وتصدها

(*) عضو هيئة كبار العلماء ـ عضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية.

عن سبيل الله وتقضي على وحدتها وقوتها؟ وخذ مثلاً من عجرفة البوطي في مقدمته لتلك النصيحة؛ لتستدل به على مبلغ ما عنده من العلم؛ حيث قال في صفحة ١٩ ـ ٢٠ يخاطب علماء نجد: (وإذاً لأقلعتم عن ترديد تلك الكلمة التي تظنونها نصيحة وهي باطل من القول، وتحسبونها أمراً هيناً وهي عند الله عظيم، ألا وهي قولكم للحجيج في كثير من المناسبات: إياكم والغلو في محبة رسول الله، ولو قلتم كما قال رسول الله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» لكان كلاماً مقبولاً، ولكان نصيحة غالية). هذا كلامه بنصه، وقد بخل فيه أن يصلي على النبي ﷺ عند ذكره، وعاب على أهل السنة إنكارهم للغلو الذي أنكره الله بقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧]. وأنكره النبي ﷺ بقوله: «وإياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو». ثم ما الفرق بين الغلو؛ والإطراء الذي نهى عنه رسول الله ﷺ في حقه؟ إن معناهما واحد إلا عند البوطي اختراعاً من عنده، حمله عليه الحقد والبغضاء لأهل الحق. والحمد لله أنه لم يجد على أهل الحق ما يعابون به سوى هذه الكلمة التي زعمها باطلاً وهي حق. هذا وإن ما ذكره الأستاذ يوسف الرفاعي في أوراقه التي سماها نصيحة ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: حق ونحن وغيرنا من أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً قائلون به. لكنه رآه باطلاً لعمى بصيرته. ومن أعمى الله بصيرته فإنه يرى الباطل حقاً والحق باطلاً: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]. وهذه الأمور التي انتقدها علينا، منها قولنا: «كل بدعة ضلالة» كما قال ذلك رسول الله ﷺ فماذا علينا في ذلك إذا أنكرنا البدع وأمرنا بالسنن عملاً بهذه الأحاديث؟

وإليك نماذج مما قاله: سلطتم من المرتزقة الذين تحتضنونهم من رمى بالضلال والغواية الجماعات والهيئات الإسلامية العاملة في حقل الدعوة والناشطة لإعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ والآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، كالتبليغ والإخوان المسلمين والجماعات (الديوبندية) التي تمثل أبرز علماء الهند وباكستان وبنجلاديش، والجماعة البريلوية التي تمثل السواد الأعظم من عامة المسلمين في تلك البلاد، مستخدمين في ذلك الكتب والأشرطة ونحوهما. وقمتم بترجمة هذه الكتب إلى مختلف اللغات وتوزيعها بوسائلكم الكثيرة مجاناً، كما نشرتم كتاباً فيه تكفير (أهل أبو ظبي ودبي) الذين معكم في مجلس التعاون. أما هجومكم على الأزهر الشريف وعلمائه فقد تواتر عنكم كثيراً.. وقال: إذا اختلف معكم أحد في موضوع أو أمر فقهي أو عقدي أصدرتم كتاباً في ذمه وتبديعه أو تشريكه (كذا قال). وقال: سمحتم للصغار وسفهاء الأحلام بمهاجمة السلف الصالح الأعلام لهذه الأمة، ومنهم حجة الإسلام الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ بعد التهجم بشتى وسائل مطبوعاتكم على الإمام أبي الحسن الأشعري وأتباعه من السواد الأعظم من المسلمين منذ مئات السنين؛ حيث وصفتموهم بالضالين المضلين.

هذه نماذج من كلامه وأنا أبيّن أهم ما عابه الرفاعي علينا مع الرد عليه:

١ – مما عابه علينا: منع النساء من زيارة القبور، وهذا أمر قد منعه النبي ﷺ بقوله: «لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج» وإذا لعن النبي ﷺ شيئاً فإن هذا يدل على تحريمه والمنع منه، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب. فماذا علينا إذا أنكرناه ومنعناه؟

٢ – ومما عابه علينا: منع الناس من الغلو عند الحجرة النبوية، والاقتصار على السلام على النبي ﷺ السلام المشروع الذي كان يفعله الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عند قدومهم من سفر كما كان يفعله ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

٣ – ومما عابه علينا: منع الغلو في الأموات عند زيارة قبورهم، والاقتصار على السلام عليهم والدعاء لهم كما هي الزيارة المشروعة وتذكر الآخرة بزيارتهم والاستعداد لها.

٤ – ومما عابه علينا: منع البناء على القبور عملاً بقول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته». وقوله ﷺ: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد

ألا فلا تتخذوا القبور مساجد. فإني أنهاكم عن ذلك» وذلك لأن هذا من وسائل الشرك.

٥ - ومما عابه علينا: منع كتاب دلائل الخيرات وأمثاله من الكتب الضالة من دخول المملكة لما فيه من الشركيات والغلو في حق النبي ﷺ وذلك لحماية عقيدة المسلمين من الغلو الذي حذر منه ﷺ، وقد علّمنا ﷺ كيف نصلي عليه فقال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» إلى آخر الحديث، فلسنا بحاجة إلى صلاة مبتدَعة في كتاب دلائل الخيرات أو غيره.

٦ - ومما عابه علينا: منع الاحتفال بمناسبة مولد النبي ﷺ؛ لأنه بدعة محدثة لم يفعله ﷺ ولا أحد من أصحابه والتابعين لهم بإحسان. وقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». ويدخل في ذلك بدعة الاحتفال بمناسبة المولد، فمن فعله فهو مبتدع.

٧ - ومما عابه علينا: تركنا للقنوت في صلاة الفجر إلا في حالة النوازل؛ لأنه لا دليل عليه في غير هذه الحالة. ولا يقول به جمهور علماء الأمة، والواجب اتباع الدليل، ولما سئل عنه بعض الصحابة قال: إنه محدَث.

٨ - ومما عابه علينا: منعنا من إحياء الآثار المنسوبة للنبي ﷺ، أو لأحد من أصحابه، من أجل سد الطرق المفضية إلى الشرك، من التبرك بها، والاعتقاد فيها، وهذا هو عمل النبي ﷺ وأصحابه، فلم يكونوا يهتمون بهذه الآثار ولا يذهبون إليها، فلم يكن ﷺ بعد البعثة يذهب إلى غار حراء، ولا إلى غار ثور، ولا إلى موضع غزوة بدر، ولا إلى المكان الذي ولد فيه من مكة، ولا كان يفعل ذلك أحد من أصحابه، بل إن عمر - رضي الله عنه - قطع الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية لما رأى بعض الناس يذهبون إليها خشية الغلو بها، ولما قال بعض الصحابة حديثي العهد بالإسلام للنبي ﷺ: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» أي شجرة يتبركون بها ويعلقون بها أسلحتهم كما يفعله المشركون، قال ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة»؛ فالتبرك بالآثار وإحياؤها وسيلة إلى الشرك وعبادة غير الله - سبحانه وتعالى -، كما حصل لقوم نوح لما غلوا بآثار الصالحين حتى آل بهم الأمر إلى عبادتها من دون الله - عز وجل -.

٩ - ومما عابه علينا: منع كتابة بردة البوصيري على الجدران لما فيها وفي أمثالها من الغلو والشركيات التي لا تخفى على ذي بصيرة، مثل قوله في حق النبي ﷺ: ما لي سواك من ألوذ به عند حلول الحادث العمم. وقوله: إن الدنيا والآخرة من جود النبي ﷺ، وأن ما كتبه القلم في اللوح المحفوظ هو بعض علم النبي ﷺ، إلى غير ذلك من الكفريات والشركيات التي جره إليها الغلو.

١٠ - ومما عابه علينا: فصل النساء عن الرجال في المسجد الحرام والمسجد النبوي وفي غيرهما من المساجد، عملاً بسنة النبي ﷺ حيث كانت النساء تقف في عهده في الصلاة خلف صفوف الرجال، ولأجل صيانتهن وصيانة الرجال من الفتنة والافتتان بهن.

١١ - زعم الرفاعي أننا نترك المذهب الحنبلي كما قال في نصيحته، وننكر اتباع المذاهب الأربعة ادعاءاً للسلفية، ونحن إنما نعمل بما قام عليه الدليل منها ومن غيرها، وهذا ما أوصى به الأئمة الأربعة وغيرهم - رحمهم الله - كما هو معلوم من كلامهم، واتباع المذهب الحنبلي أو غيره من المذاهب الأربعة لا يتعارض مع السلفية كما نسب إلينا أننا نراه مخالفاً للسلفية، بل هو السلفية عينها.

١٢ - وكذلك من العجائب ما استنكره الرفاعي من تعليقات الشيخ ابن باز - رحمه الله - على كتاب «فتح الباري» وهذا لا نكارة فيه، فما زال العلماء يعلقون على الكتب ويبينون الحق للناس من الخطأ.

وأما القسم الثاني: مما يتضمنه ما يسمى بالنصيحة فهو كذب وبهتان في حقنا. وجوابنا عنه أن نقول كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].. وذلك مثل قوله:

١ - إننا نكفر المسلمين ونتهمهم بالشرك؛ لأننا نوزع الكتب التي فيها التحذير من الشرك والكفر ونرسل الدعاة. ونحن لا نكفّر إلا من دل الكتاب والسنة على تكفيره كمن يدعو غير الله أو يستغيث به من الأموات والغائبين، وهذا مما لا خلاف فيه. وأما توزيعنا للكتب التي فيها التحذير من الشرك والكفر والبدع فهذا من

النصيحة للمسلمين وتبصيرهم بدين الله، ولا يعني هذا أننا نكفر من لم يقم الدليل الصحيح على كفره، وإنما هو من باب التنبيه والتحذير والمحافظة على العقيدة. ومن أجل هذه المهمة نرسل الدعاة إلى الله لتعليم الناس أمور دينهم والدعوة إلى الإسلام والعمل بالسنة وترك البدع والمحدثات؛ ولم نرسلهم لإثارة الفتنة كما زعم الرفاعي والبوطي. وكان الرسول ﷺ يرسل الدعاة إلى الله كما أرسل معاذاً إلى اليمن وغيره من الدعاة إلى الأقطار، وكان ﷺ يكاتب الملوك والرؤساء.

٢ – ومن الكذب الصريح: قول الرفاعي: إننا نمنع التدريس في الحرمين إلا من يوافق مذهبنا، وهذا من الكذب؛ فالتدريس في الحرمين ـ ولله الحمد ـ وفي غيرهما لا يزال قائماً على خير ما يرام، ولم يمنع من التدريس إلا من كان مبتدعاً معروفاً بذلك، أو مخرفاً، فمثل هذا منعه حق وواجبٌ حمايةً لعقيدة المسلمين وتلافياً لنشر البدع والخرافات.

٣ – ولم نمنع من زيارة القبور الزيارة الشرعية ـ كما قال عنا ـ ولكننا نمنع الزيارة البدعية والشركية التي فيها دعاء الأموات والاستغاثة بهم؛ كما منعها النبي ﷺ ومنع غيرها من الشرك ووسائله. وعلَّمنا ﷺ ما نقول إذا زرنا القبور من السلام على الأموات والدعاء لهم. هذا ونسأل الله لنا وللأستاذ الرفاعي والدكتور البوطي وسائر المسلمين الهداية للحق وقبوله، وأن يجعلنا جميعاً من العاملين بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾. [النساء: ٥٩].

٤ – وأما قول الرفاعي: إننا غيّرنا اسم المدينة، من المدينة المنورة إلى المدينة النبوية، فالجواب عنه:

أولاً: أن اسم المدينة جاء في الكتاب والسنة مجرداً من أي وصف لا بالمنورة ولا بالنبوية.

ثانياً: أن وصفها بالنبوية أشرف وأوْلى من وصفها بالمنورة؛ لأن تنويرها إنما هو بالنبوة وسكنى النبي ﷺ فيها وهجرته إليها.

وأخيراً: يعيب الرفاعي على حكام المملكة قتل المفسدين في الأرض بترويج المخدرات، عملاً بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]. ويتأسف على قتل هؤلاء المفسدين المجرمين الذي يدمرون الشعوب ويخربون البلاد.. بل لم يقتصر الحكم بقتلهم على المملكة العربية السعودية، بل كثير من دول العالم تقتلهم دفعاً لشرهم وإفسادهم؛ فالرفاعي يشفق على هؤلاء المجرمين المفسدين ولا يشفق على الشعوب التي يفتك بها هؤلاء فساداً ودماراً، ويستدل الرفاعي لقوله هذا بحديث: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا في الحدود»، فيعتبر المفسدين في الأرض من ذوي الهيئات، وأن ترويج المخدرات من العثرات اليسيرة التي يقال أصحابها، ونسي أو تناسى أنهم ينطبق عليهم حد الحرابة والإفساد في الأرض المذكور في الآية الكريمة، وأن الحديث المذكور خاص بالتعزير بدليل قوله ﷺ: «إلا في الحدود». على أن التعزير قد يصل إلى القتل إذا لم يرتدع المخالف عن مخالفته إلا به؛ لأنه أصبح من المفسدين في الأرض كما ذكر ذلك المحققون من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ـ مع العلم بان هذا الحديث الذي استدل به وإن جاء من عدة طرق فإنها كلها لا تخلو من مقال، كما قال ذلك الصنعاني ـ رحمه الله ـ في كتاب: (سبل السلام شرح بلوغ المرام).

وليت الرفاعي صرف عطفه وشفقته إلى ضحايا هؤلاء المفسدين الذين فسدت عقولهم وأبدانهم حتى أفضوا إلى الموت أو أصبحوا عالة على مجتمعاتهم بسبب هؤلاء المفسدين المروجين للمخدرات في المجتمعات البشرية.

وختاماً: هذا ما أحببنا التنبيه عليه مما احتوت عليه نصيحة الأستاذ الرفاعي وهو تنبيه على سبيل الاختصار ـ وندعو الأستاذ الرفاعي ـ هداه الله ـ إلى الرجوع إلى الحق ـ فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ـ والله يتوب على من تاب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.



الثيوقراطية

د. محمد يحيى

من المصطلحات والمفاهيم التي جرى تداولها في الفترة الأخيرة ـ ولا سيما في معرض الهجوم على طروحات الحركات الإسلامية ـ مصطلح «الثيوقراطية» ولولا هذا الاستخدام ضد الإسلام ومبادئه لما كتب لهذا المصطلح أي بقاء أو أثر؛ فهو من المصطلحات السياسية ذات القيمة غير الدائمة التي أطلقت في الغرب لتشير إلى حكم أقلية من الأقليات تتسلط على أغلبية فئات المجتمع؛ فقد أطلق في بعض الكتابات مصطلح البلوتوقراطية للدلالة على سيطرة طبقة كبار الأغنياء على الحكومة والسلطة في بلد من البلاد، أو مصطلح الأديجاركية للدلالة على حكم أقلية من أصحاب النفوذ والحول.

والثيوقراطية تشير في هذا الإطار إلى حكم أقلية ممن يسمون برجال الدين أو الكهنوت التابعين لدين من الأديان لا سيما تلك المذاهب التي تنشئ كهنوتاً كالمسيحية في المقام الأول. والكلمة مشتقة كما هي العادة في الكثير من المصطلحات الغربية من الأصول اللغوية اليونانية من لفظي: ثيوس (الدين) وكراس (الحكم أو السلطة أو الطبقة .. إلخ). أقول: إن هذا المصطلح بالذات وجد شيوعه واستخدامه الأكثر والأغلب في الغرب في إطار الكتابات الصحفية الدارجة، وليس في إطار الدراسات الأكاديمية الرصينة أو المتعمقة، وما كان له أن يصل إلى الذيوع والانتشار والأثر الخطير الذي وصله عندنا في الكتابات في العالم العربي الإسلامي لولا أن استخدامه فُرِضَ في إطار الهجوم على دعوات الإسلاميين لتطبيق الشريعة الإسلامية أو إقامة الدولة الإسلامية أو إضفاء الطابع الإسلامي على المجتمع.

والحق أن استخدام هذا المصطلح بالذات لتوصف به طروحات دعاة الإسلام في ميدان السياسة والحكم والمجتمع ينطوي على تشويه خطير وغير موضوعي، فلا يفكر أي من هؤلاء الدعاة مهما بلغ من الغلو أن يقيم سلطة أو حكومة أو نظاماً سياسياً يشكله ويهيمن عليه المشايخ أو علماء الدين في تصوُّر أنهم طائفة أو طبقة؛ ذلك أنه لا توجد في الإسلام وفي تجاربه التاريخية مثل هذه الطبقة كما هي الحال بالنسبة للكنيسة أو الكنائس المتعددة في المسيحية، أو أنواع الكهنوت المماثل إلى حدٍّ مًّا في البوذية والهندوسية.

إن دعوات تطبيق الشريعة الإسلامية أو حكم الإسلام أو الدولة والنظام الإسلامي تقصد في مجملها ـ وحتى الاختلاف في التفاصيل ـ إلى إرساء نظام للحكم وفلسفة للمجتمع تقوم على مبادئ الإسلام وتعاليمه وتنطبع بطابعه؛ بحيث يكون هذا الدين هو بلغة السياسة المعاصرة: النسق الفكري والأخلاقي للدولة والمؤسسات في المجتمع الإسلامي. ولا يعني هذا بأي حال أن يكون المسيطرون على مجريات الأمور في مثل ذلك النظام هم علماء الدين؛ دون أن يعني كذلك أن يستبعد هؤلاء من دنيا الحكم والسياسة لمجرد ترضية بعض

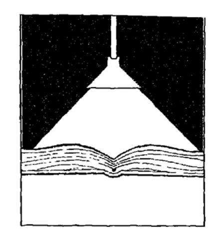
الذين يصفونهم خطأً برجال الدين ويريدون إقصاءهم من الحياة العامة من منظور علماني. وإذا قيل ـ وقد قيل ـ إن إقامة دولة أو نظام إسلامي يكون الحكم والسلطة فيه للمبادئ والتعاليم والتوجيهات والأحكام والشرائع والرؤى والتصورات والقيم الإسلامية يعني في الحقيقة إقامة نظام يحكم فيه علماء الدين المسلمون أو المشائخ؛ لأن هؤلاء هم الذين يشرحون ويفسرون الإسلام ومراميه وشريعته ونظامه. إن قيل ذلك فإن الرد ببساطة يقول: إن هؤلاء يؤلفون فئة من الدارسين والباحثين والعلماء يشرحون الإسلام ويعلِّمونه؛ لكن ليست فئة مغلقة ولا احتكارية؛ ففهم الإسلام وشرحه وتعليمه مفتوح للجميع شريطة الاتساق مع المنهجية العلمية كما هي الحال في كل المراكز والجامعات العلمية في كافة أنحاء العالم وكل الثقافات، ومع ذلك فلا يوجد مانع فكري أن يحكم العلماء أو يشكلون ناحية من نواحي مؤسسة الحكم وجوانبها؛ لأن العادة كانت ولا زالت في الغرب أن يضم الحكام بعض رجال الكهنوت المسيحي إلى صفوفهم، كما يضمون معهم فئات كالعلماء في الدراسات الطبيعية والإنسانية ورجال الأعمال والثروة والعسكريين وأصحاب النفوذ والأوضاع الارستقراطية.. إلخ، فليس ثمة عيب أو حرج إلا من وجهة النظر العلمانية الشرسة في تصورها الإقصائي للإسلام في أن يتولى الحكم أو جانباً منه أفراد من فئة علماء الدين الإسلامي إذا كانوا يصلحون لهذه المهمة من ناحية الاستعداد والكفاءة وثقة الجماهير والقدرة على إدارة دفة الحكم؛ مع الاستعانة بالمتخصصين كل في مكانه، والقدرة على تطبيق المشروع الإسلامي داخل بلادهم مع فهم كل الظروف والأوضاع التي يمر بها العالم.

وفي الوقت نفسه فلا يوجد أيضاً ما يفرض أو يحتم أن تتألف الطبقة أو الفئة الحاكمة في البلد المسلم الملتزم بالمشروع الإسلامي من طائفة علماء الدين أو المشايخ طالما كان الحكام مسلمين ملتزمين يطبقون الشريعة والمنهج الإسلامي الذي يتفق الجميع عليه، وينفذون السياسات المنبثقة عن الإسلام وهو دين الجميع ومفتوح لأن يدرسه الكل ويتخصص فيه كل قدر استطاعته.

إن استخدام مصطلح الثيوقراطية بهذا الخطأ المتعمد والتشويه مع التضحية في أهميته وإيهام الناس بأنه مصطلح «علمي» أو «أكاديمي» منضبط المعنى يهدف في النهاية إلى إدخال البلبلة وتشويه صورة الحركات الإسلامية بتصويرهم مجموعة قليلة من الأشخاص يريدون الوثوب على السلطة والحكم خدمة لطائفة محدودة تبغي التسلط على مقدرات الأغلبية وثرواتها؛ بينما تقول الحقيقة: إن المشروع الإسلامي هو نابع من الأغلبية المسلمة خدمة لمصالح عقيدتها وأهدافها الدينية والدنيوية، وإنه يرمي إلى تحكيم مبادئ الدين لا إلى إتاحة الفرصة لعدد محدود من الأشخاص الطامحين إلى خدمة مصالحهم الشخصية.

ومبادئ الدين ليست حكراً في فهمها أو العمل بها أو الإيمان بمراميها على فئة محدودة حتى يكون إعمالها بمثابة تكريس لسلطة هذه الفئة؛ بل هي محل إجماع الجميع؛ بحيث يجزئ عنهم من يحكم بها من أي فئة اجتماعية جاء طالما هو يحكم بها في انفتاح وعدالة دون أن يدعي احتكار الحكم له.

إن الثيوقراطية تجوز فقط لوصف فترات من التاريخ الغربي طويلة حكم فيها فعلاً أو من وراء ستار الكهنوت المسيحي، كما أنها تجوز الآن لوصف حقب معاصرة من التاريخ الغربي يحكم أو حكم فيها الكهنوت العلماني باعتبار العلمانية عقيدة تؤمن بها وتقوم عليها نخبة صغيرة من الأشخاص لا نبالغ إذا قلنا: إن جذورهم ترجع إلي المذهب الماسوني ـ الصهيوني.



الآثار المدمرة لسياسات الإفقار

ياسين بن طه بن سعيد الشرجبي

صراع الحق والباطل:

من سنن الله الاجتماعية أن يتواصل صراع الحق والباطل، ويستمر عداء أهل الكفر والنفاق لذوي الإيمان حتى قيام الساعة. ومظاهر الصراع والعداء لفسطاط الإيمان تتباين صوراً وأوضاعاً ومظاهر وشدة وقوة وحجماً؛ لكنها تتفق جميعها على الهدف النهائي والغاية المقصودة ألا وهي النيل من الدين؛ فالمؤامرات السياسية والمخابراتية، والكيد العسكري والأمني، والمكر الاقتصادي والمعيشي، والمخططات الثقافية والتعليمية والإعلامية والاجتماعية كلها جميعاً تبتغي القضاء على الإسلام وتدمير مقوماته وإبادة أهله، وذاك ما حدثنا عنه القرآن.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ... ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ... ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وواضح من الآيات الواردة في السورة ذاتها في أول القرآن أن الله ـ تعالى ـ يبين لنا سبيل المجرمين ويوضح لنا مبتغاهم حتى نأخذ حذرنا ونعد عُدتنا ونحذِّر قومنا.

الدين بُغيتهم: الأعداء على مر الزمان وفي كل مكان يريدون القضاء على إيماننا وعقيدتنا وديننا، وأن نترك دين الله الذي ارتضاه لنا إلى ملتهم المعوجة المحرَّفة، ويستخدمون لذلك كل ما يمكنهم من أدوات يرونها قوية وسريعة التأثير وتحدث دماراً أوسع وخراباً أعم.

يتولى كبر ذلك العداء: اليهود والنصارى كما أشار القرآن، بل إنهم لينسون عداواتهم الدينية القديمة ويؤلِّفون حلفاً شيطانياً ضد ديننا وأمتنا: ﴿ ... بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴾ [الأنفال: ٧٣].

الإفقار وسيلتهم: إنهم يستخدمون كل ورقة يرونها رابحة وكل سلعة يظنونها رائجة من أجل استئصال

هذا الدين منهجاً ودعاة وأمة؛ ومن بين الوسائل ذات الأثر الفاعل ضد أمتنا وذات العائد الثري عليهم: وسيلة حرب البطون وما يتبعها من سياسات الإفقار المدمِّرة ومحاربة الاقتصاد ومصادر المعيشة في حياة الأمم والشعوب عملاً بالمثل القائل: «جوِّعْ كلبَك يتبعْك». لقد فكَّر دهاة اليهود - لعنهم الله - طويلاً وقدَّروا ثم نظروا ثم عبسوا وبسروا - قُتلوا كيف فعلوا - ثم تمخض ذلك عن العمل على احتكار رؤوس الأموال وتجنيد أصحابها ليكون ذلك مقدمة للاستيلاء على العالم بعد إخضاعه لحكمهم وقراراتهم وتوصياتهم ومخططاتهم؛ فهم الذين يقبضون على عنقه ويتحكمون في مصيره ويملكون قوته.

ما يُسمى بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي يُعَدُّ كلٌّ منهما حكومة صهيونية تختبئ وراء ورقة الدولار الخضراء، وتضع فخاخها المخيفة خلف القروض والإصلاحات الاقتصادية والسعرية، وتزرع الموت الزؤام تحت أرضية الاتفاقات المالية، ولكن أكثر الحكام لا يعلمون أو لعلهم - وهو الأقرب - يعلمون.

إن كنت لا تـدري فتلك مصيـبة   وإن كنت تدري فالمصيبة أعظـم

والأعداء يدركون أن حربهم الاقتصادية وسياستهم التجويعية توصلهم سريعاً إلى خط النهاية في صراعهم مع أمتنا الذي يعني لديهم تدمير الإسلام، وهم - بلا شك - يحققون نجاحات في هذا المشوار الجهنمي الخبيث لأمرٍ قدَّره الله، وبسبب ما كسبت أيدينا نحن المسلمين. إلا أننا على يقين أنهم لن يصلوا إلى النهاية المرجوة في هدم الإسلام وإطفاء نوره؛ لأن الله قد وعد بغير ذلك، فقال - تعالى -: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، غير أنهم سينجحون في تحقيق الأهداف المرحلية التي ستكون وطأتها علينا شديدة وأثرها في حياتنا مؤلماً؛ إن لم نتيقظ وندفع عن أنفسنا ما استطعنا - بعون الله - وذلك بالاستمساك بحبله المتين والسير في صراطه المستقيم، ومن خلال استبانة سبيل المجرمين، وإعطاء الخطر ما يستحقه من الإعداد، وأخذ الأهبة، وإطلاق صيحات النذير وإشارات التحذير، ورص الصفوف، والتنادي لدفع الدمار القادم.

ولعل هذه الكلمات والسطور تكون لبنة في صرح الدفاع والتحذير؛ فتجعل جاهلاً يدري وغافلاً ينتبه وسادراً يرعوي ونائماً يستيقظ ومدافعاً يتحفَّز وحجَّة تقال وتُقام. وهدف هذا المقال مجرد الإيماء والإشارة إلى الخطر الداهم والدمار القادم؛ وليس الإحاطة والتوسع؛ فذاك مجاله البحوث العلمية الموسعة. والفقر المقصود في حديثنا ذاك الفقر المفتعل في ظل وجود الخيرات الوفيرة والذي يترافق مع الثراء الفاحش والتخمة المفرطة والتبذير الواضح والفساد الجلي.

آثار الفقر المدمرة:

تتحقق الآثار المدمرة لسياسات الإفقار حين يغيب الإيمان في قلوب الناس أو يضعف أثره، ولذا يحرص [illegible]اء المسلمين أن تترافق سياساتهم التجويعية مع تنفيذ مخططات الإلهاء واللهو الحرام وإبعاد الناس عن [illegible]هم وإضعاف اتصالهم بالله من خلال البرامج الإعلامية والثقافية التي تنشر ثقافة المجون والغناء والرقص وإثارة الشهوات وبعث الغرائز والدعوة لكل محرَّم.

١ - **في مجال العقيدة والدين:** وهو المجال الذي توجه إليه الأسهم المسمومة والضربات القاتلة ويراد به الشر أولاً وأخيراً.

والفقر مدعاة للشك؛ إذ إنه يكون مدعاة للشك في حكمة التنظيم الإلهي للكون، والارتياب في عدالة التوزيع الرباني للرزق، فيصبح لسان حال صاحب هذا التصور:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذي ترك الألباب حائرة وصيّر العالِم النّحرير زنديقاً

الفقر والعقيدة الجبرية:

وقد يرضى بعضٌ باعتناق النظرة الجبرية إلى الأمور وهي نظرة تتعارض مع عقيدة القرآن والسنة، فهو يُقنع نفسه بأن الفقر وإن كان شراً وبلاءً فهو أمرٌ قد قضاه الله في السماء ولا يجدي معه الطب والدواء؛ فقد أراد الله أن يفضل بعض الناس على بعض في الرزق ليبلوهم، وأنه - تعالى - يبسط الرزق لمن يشاء، ولا رادٌ لقضائه ولا معقب لحكمه، وغير ذلك من كلام حق يُراد به باطل، ويروَّج مترافقاً مع سياسات الإفقار ومخططات التجويع ليقنع الناس بالرضا والصبر ولا ينبسوا ببنت شفة ولا تنفرج أفواههم عن لفظة اعتراض، ولسان حالهم يقول:

الرزق كالغيث بين الناس منقسم هذا غريق وهذا يشتهي المطـــرا

أو كما قال آخر:

يسعى القوي فلا ينال بسعيه حظاً ويحظى عاجز ومهين

ونظرة الجبرية هذه ينكرها الإسلام؛ لأنها تمثل عائقاً منيعاً أمام أي محاولة لإصلاح الأوضاع الفاسدة وتعديل الموازين الجائرة وإقامة العدالة المرجوة والتكافل الاجتماعي باعتبارها مبادئ إسلامية رئيسة.

الإسلام فرض على الأغنياء في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم، ولما احتج الجاحدون منهم بمشيئة الله وقدرته ردّ عليهم زعمهم ورماهم بصفة الضلال المبين، قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]، إنهم في ضلال مبين؛ لأنهم لو عقلوا لعلموا أن الله قد أراد أن يرزق الناس بعضهم من بعض، وأن يتعاونوا على رد قدر الله من الفقر بقدر الله من التكافل وحسن توزيع الثروات وإيجاد فرص العمل وأسباب الرزق.

سؤال وجواب: قد يسأل سائل: إذاً ما المقصود بحثِّ النصوص القرآنية والحديثية على الرضا والقناعة بما قسم الله؟

والجواب: إن المقصود ليس هو ما يُراد ترويجه وإشاعته بين الناس من فهم خاطئ حول الرضا والقناعة من خلال ترضية الفقراء بالعيش الدون والحياة الهون، ولا القعود عن السعي إلى الكسب الحلال والغنى والحياة الطيبة والعيش الرغيد، ولا المقصود كذلك ترك الأغنياء في غيهم سادرين يلهون ويعبثون ويترفون ويسرفون، ولا ذم المال إطلاقاً؛ إذ إن رسول الله ﷺ كان يسأل الله الغنى تماماً كما كان يسأله التقى: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»(١).

وقد روى البخاري أنه ﷺ قد دعا لخادمه أنس قائلاً: «اللهم أكثر ماله»(٢).

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٤٨٩٨.

(٢) رواه البخاري، ح/٥٨٥٩.

وأثنى على مال أبي بكر فقال في الحديث الذي حسنه السيوطي: «ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مالُ أبي بكر»(١).

وقال: «ونعم صاحب المسلم هو»(٢)، «.... فنعم المعونة هو..»(٣)، وقال كذلك في الصحيح نفسه من حديث يسار بن عبيد: «لا بأس بالغنى لمن اتقى»(٤)، بل وكان يستعيذ بالله من الجوع: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع»(٥).

فالقناعة التي حث عليها الإسلام تعني أن لا يُفرط الإنسان المسلم في سعيه للغنى وأن يُجمِل في طلب الرزق ليتمكن من إقامة التوازن في حياته ويتجنب الإفراط والغلو، ويتوجه طموحه إلى القيم الأرفع والرزق الأبقى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧].

كما أن القناعة المطلوبة في الإسلام تعني الرضى بتفاضل الناس في أعطيات الأرزاق تماماً مثل بقية المواهب والملكات، فلا ينبغي أن يكون أكبر همِّ المسلم النظر إلى ما أوتيه الآخرون نظرة حسد وبغضاء وطمع، وعليه في حدود ما قدّر له أن يكون نشاطه وطموحه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. [النساء: ٣٢].

كما تعني الرضا بما رزق الله في حالات العسر وضيق الرزق والأزمات الطارئة التي تحل بالأمم وتعم الناس بسبب الكوارث وقلة الموارد الطبيعية وعدم القدرة على الهجرة أو تغيير الواقع.

الفقر واتهام الله: إذ من طبيعة الإنسان بدون تزكية الأديان أنه: ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

الفقر والكفر متلازمان:

قرن رسول الله ﷺ في دعائه بين الفقر والكفر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»(٦).

وقال في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والطبراني في الأوسط وضعَّف العراقي سنده: «كاد الفقر أن يكون كفراً».

وأوضح رسول الله ﷺ أن الحاجة والطمع في المال تدفع المرء إلى بيع دينه، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «يبيع أحدهم دينه بعرضٍ من الدنيا قليل»(٧).

وواضح اقتران بيع الدين بالكفر - والعياذ بالله - وابتغاء العرض القليل من الدنيا بالحاجة إليها والطمع فيها. ومن أقوال السلف:

- إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر: خذني معك.
- أكفر الناس ذو فاقة لا صبر له، وقلَّ في الناس الصابر.

---

(١) رواه أحمد، ح/ ٧١٣٤.

(٢) رواه البخاري، ح/ ٢٦٣٠.

(٣) رواه البخاري، ح/ ٥٩٤٧.

(٤) رواه ابن ماجة، ح/ ٢١٣٢.

(٥) رواه النسائي، ح/ ٥٣٧٣.

(٦) رواه أحمد، ح/١٩٤٨٧.

(٧) رواه مسلم، ح/ ١٦٩.

الاختلالات الحادثة في كل مجالات الحياة هي في الأصل اختلال في الإيمان والدين:

ففي مجال الأخلاق والسلوك ـ مثلاً: فعل ما يخالف أخلاق الإسلام يضعف الإيمان بل ويرفعه؛ ففي الحديث المتفق عليه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[1]. وفي رواية للبخاري: «ولا يَقتُل وهو مؤمن»[2].

وفي رواية لمسلم: «ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن؛ فإياكم وإياكم»[3].

ومن نافلة القول أن الأخلاق السيئة الوارد ذكرها في الأحاديث السابقة من زنى، وسرقة، وقتل، وغلول، وشرب خمر يكون الفقر والحاجة من أشد دوافعهما وأكثرها، وهي ذات تأثير في رفع الإيمان وانعدامه.

خلاصة: الفقر سبب للشك في الله، واتهامه، واعتناق العقيدة الجبرية المنحرفة، ويتلازم معه الكفر، وكل آثاره الأخرى توهن الدين وتضعف الإيمان.

٢ – في مجال الأخلاق والسلوك:

الفقر والفاحشة: تعد الحاجة والفقر من الأسباب الرئيسة التي تقف وراء الرذائل والفواحش؛ إذ يكون الفقر في حال غياب الإيمان أو ضعفه أقوى من مراقبة الله والخوف منه والاستجابة لنداء الضمير، لذا قيل: (صوت المعدة أقوى من صوت الضمير).

ودلالة الاقتران بين الفقر والفاحشة واضحة في النصوص الحديثية الصحيحة الآتية:

الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على سارق!! فقال: اللهم لك الحمد على سارق!! لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية!! فقال: اللهم لك الحمد على زانية!! لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني!! فقال: اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغني؛ فأُتي فقيل له: أمَّا صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما صدقتك على غني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[4].

نستطيع أن نفهم من الحديث السالف أن حصول السارق على المال وكذا الزانية قد يكون سبباً قوياً (فلعله، فلعلها) في رجوعهما عن غيهما والعودة إلى الأصل وهو العفاف (يستعف، تستعف)، وأن السبب في فاحشتهما ـ بعد ضعف الإيمان وغيابه ـ هو الحاجة إلى المال.

وفي الحديث المتفق عليه من رواية ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن الثلاثة الذين آواهم المبيت أو ألجأهم المطر إلى الغار، فسقطت الصخرة وسدت عليهم باب الغار، فأشار بعضهم على بعض بالتوسل إلى الله بصالح الأعمال لينجوا من الموت والهلكة، فقال أحدهم: «اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليَّ فأردتها

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٢٢٩٥.

(٢) رواه البخاري، ح/٦٣١١.

(٣) رواه مسلم، ح/ ٨٦.

(٤) رواه البخاري، ح/ ١٣٣٢.

عن نفسها (راودتها) فامتنعتْ مني حتى ألمت بها سنةٌ من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلِّي بيني وبين نفسها، ففعلت؛ حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أُحلُّ لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرَّجتُ من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ....»(١).

ما الذي جعل المرأة العفيفة توافق على أن تخلي بينها وبين نفسها لابن عمها؟! إنها الحاجة والفقر: (ألمت بها سنة من السنين)، وهذا هو الشاهد!! ثم ما الذي حفظها وابن عمها من الفاحشة؟! إنه الإيمان وتقوى الله الذي نادت به ابن عمها: (اتق الله).

الواقع يتحدث: في اعترافات الواقعين في مستنقعات الرذيلة والفاحشة وفي مذكراتهم ما يدل على أن الفقر والحاجة إلى المال كان سبباً في سقوطهم، ومآسي الأسر في ضياع شرفها وفي امتهان أولادها للسرقة والدعارة بسبب الفقر قصصٌ تُدمي القلوب وتُحزِن النفوس وتُعظم العقاب على كل راع ومسؤول لم يؤدِ حق رعايته، وكم من امرأة شريفة قد ألجأتها الفاقة إلى العمل خارج بيتها فكان الذئاب في انتظارها!

الفقر وأخذ المال الحرام:

من الأخلاق الذميمة التي حاربها الإسلام وجعلها من الكبائر: السرقة، الرشوة، الغلول، وغيرها مما تؤكل بها أموال الناس بالباطل وتجعل الكسب حراماً حراماً؛ هذه الأخلاق لا ترتكب غالباً إلا في حالة الحاجة والفقر وعدم كفاية الدخل في سد الحاجات الأساسية؛ فأنت تجد ذا النزاهة والأمانة إن لم يستطع المقاومة ولم يكن له زاد من الإيمان يثبته، تجده يضطر بفعل الضغوط الأسرية والحياتية وقلة ذات اليد إلى أن يغمس يده في رجس المال الحرام والعياذ بالله، وفي الحديث: «خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه، تمنعكم الحاجة والفقر»(٢) لذا كان من هدي الخليفة عمر بن عبد العزيز أن سدَّ على عماله وموظفيه كل نافذة أو ثغرة لأخذ المال الحرام، وبدأ برفع أجورهم ليحقق لهم الكفاية ويغنيهم عن الخيانة ويسد بذلك الذريعة إلى الحرام.

الفقر والذلة:

والذلة لغير الله خلق سيئ يجعل المرء عبداً للناس يخافهم ويذعن لما يملونه عليه حتى لو كان في ذلك معصية لله، لذلك تعوَّذ رسول الله ﷺ من الفقر والذلة وقرن بينهما: «اللهم إني أعوذ بك من القلة والذلة»(٣).

الفقر وصفات النفاق:

الفقر يدفع إلى طلب الدَّيْن، وعدم القدرة على السداد والأداء يجعل الإنسان يكذب ويخلف وهي من صفات النفاق. يقول رسول الله ﷺ في حديث البخاري: «إن الرجل إذا غرم ـ استدان ـ حدث فكذب، ووعد فأخلف»(٤).

الفقر وضياع أخلاق حميدة:

يُجبِر الفقر الناس على التخلي عن كثير من الأخلاق الحميدة، مثل:

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٢١١١.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، ٢٠/٩٠، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد، ٥/٢٢٨ بأن فيه انقطاعاً.

(٣) رواه النسائي، ح/٣٥٦٥. (٤) رواه البخاري، ح/ ٧٨٩.

- الكرم للضيوف والأصحاب.
- الصدقة والتكافل الاجتماعي.
- صلة الأرحام.
- الحب والتواد بين الناس.
- التعفف والحياء.

كما يدعو إلى الاضطرار إلى التسوُّل وما يجره ذلك من أضرار.

الفقر وسفك الدماء:

الفقر يؤدي إلى الجزع على الدنيا، والخوف على فوات نصيبه منها، مما يدفع إلى الصراع من أجلها والامتثال لسفاسفها وسفك الدماء وعدم السماح والصفح؛ لأن الجميع يرون أنهم في حاجة إليها، ويرونها مسألة حياة أو موت، كما أن آثار الفقر السابقة تؤدي إلى سفك الدماء وإزهاق الأرواح وارتفاع معدلات الجريمة.

٣ - أثر الفقر على العلم والفكر:

طلب العلم ونشره وتوفير مؤسساته ومتطلباته يحتاج إلى الدعم المادي، وفقدان المال يؤدي إلى عدم توفر الإمكانات المعينة على طلب العلم ونشره، فيجهل الناس، ويضيع العلم. ويؤدي اضطرار الناس إلى العمل كباراً وصغاراً إلى العزوف عن طلب العلم وتتفشى الأمية؛ فيظهر ذلك في تأخر الأمة علمياً وثقافياً؛ لأنهم قد شُغِلوا بطلب الرزق عن كسب العلم والثقافة والفكر، وحتى إنْ طلب أبناء الأمة العلم في ظل مؤسسات لا توفر أبسط الإمكانات والظروف المناسبة فإن طلبهم للعلم وتلقيهم له يكون ضعيفاً لا يغني من جهل ولا يُبصر من عمى ويؤدي إلى تسربهم. كما أن التفكير والقدرة على الابتكار ونفع الأمة يعوقه كثيراً ما يلاقيه أصحابه من عنت في مجال الحياة المعيشية وتوفير القدر الأدنى من الحاجات الأولية لأنفسهم.

روي عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة: أن الجارية أخبرته يوماً في مجلسه أن الدقيق قد نفد، فقال لها: «لقد أضعتِ من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه».

ويروى عن الإمام أبي حنيفة قوله: لا تستشر من ليس في بيته دقيق؛ لأنه مشتت الفكر مشغول البال فلا يكون حكمه سديداً.

وفي الحديث الصحيح: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»(١).

وقد قاس عليها الفقهاء: «لا يقضي القاضي وهو جوعان، أو عطشان؛ لأنها انفعالات تؤثر على حكمه».

يقول القائل:

إذا قلَّ مال المرء قلَّ بهاؤه ... **وضاقت عليه أرضه وسماؤه**

وأصبح لا يدري وإن كان دارياً ... **قدامه خير له أم وراؤه**

وقد قيل: أعطني خبزاً أعطك شعباً مثقفاً.

---

(١) رواه أحمد، ح/ ١٩٤٩٥.

وقديماً رأى الشاعر أن المُلْك يقوم على العلم والمال وأن كلاً منهما يحتاج الآخر:

بالعلم والمال يبني الناس مُلكهم ... لم يُبنَ مُلك على جهل وإقلال

٤ - أثر الفقر على الأسرة:

الأسرة نواة المجتمع، وبها يكثر أو يقل المجتمع، ويقوى ويضعف، ويصلح أو يفسد.

وأثر الفقر على الأسرة يظهر ظلاله السيئة على تكوينها واستمرارها:

أثره على تكوينها: فالفقر مانع رئيس من موانع الزواج؛ لأن من متطلباته المالية: المهر، النفقة، تجهيز المنزل.

لذا حث القرآن من لا يجدون القدرة على الزواج على الاستعفاف حتى يرزقهم الله من فضله؛ ولعل المقصود في ذلك: القدرة المالية لارتباط ذلك بقوله - تعالى -: ﴿ **يُغْنِيَهُمُ** ﴾، يقول - تعالى -: ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...** ﴾ [النور: ٣٣].

وفي الحديث المتفق عليه من رواية عبد الله بن مسعود: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»[١].

الفقر سببٌ قوي لدى الكثير من الآباء والأمهات - للأسف - لرفض الشباب المتقدمين لخطبة بناتهم؛ إذ إنهم لا يرغبون إلا في الموسرين، وهو داء قديم عرض له القرآن وأمر الآباء والأمهات بخلافه، قال - تعالى -: ﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٣٢].

لكن الكثير من الآباء والأمهات لا يُصغون لنداء القرآن؛ لذا انتشرت العنوسة بين النساء، وسُهِّل طريق الحرام للسالكين، وحدثت الفتنة والفساد الذي توعد به رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفسادٌ عريض»[٢].

أثره على استمرارها: والفقر معوِّقٌ قوي عن استمرار الأسرة بعد تكوينها؛ إذ إنه يكون سبباً في طلاق المرأة من زوجها؛ إذ يجيز الشارع أن يطلق القاضي المرأة من زوجها لإعساره وفقره وعجزه عن النفقة عليها.

والفقر سبب رئيس لمعظم الخصومات الدائمة بين الرجل وزوجته حول النفقات ومتطلبات المعيشة وكيفية توفيرها والتعامل معها، ويكون الفقر وراء انعدام السكينة وضياع المودة والرحمة.

بل إن سياسات الإفقار تدفع بالنساء والأطفال إلى العمل، فيخرج الجميع إلى الحياة والمغالبة لأجل البحث عن أسباب العيش ويُقوض بنيان الأسرة. إن استمرار الأسرة أيضاً يعني التناسل والإنجاب، والحد من النسل يعني توقف استمرار الأسرة، والأعداء يروِّجون لذلك ويتحججون بالفقر وانخفاض الثروات الغذائية مقابل الانفجار السكاني، وهم - للأسف - يجدون من يستمع إليهم ويقتل أولاده كأولئك الذين خاطبهم الله قائلاً: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٥١]، الإملاق: الفقر، ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٣١].

والآيات واضحة في أن من سبب قتل الأولاد الفقر أو خوف الفقر؛ فهو عقبة أمام استمرار الأسرة.

---

(١) رواه البخاري، ح/٤٦٧٧.

(٢) رواه ابن ماجة، ح/ ١٩٥٧.

وفي الحديث المتفق عليه: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»[1].

ولا يخاف الأب أو الأم أن يطعم ولده معه إلا في حالة شح الطعام وندرته بسبب الفقر والحاجة، لذا يضطر لقتله ـ والعياذ بالله ـ ليرتكب ذنباً من أعظم الذنوب بعد الشرك.

كما أن انشغال الآباء والأمهات بطلب العيش وتوفير الحد الأدنى من مقومات الحياة يؤثر سلباً في الاهتمام بتربية الأولاد والعناية بهم.

٥ - أثر الفقر على الصحة:

في الصحة العامة: يؤثر الفقر على الصحة العامة للفرد والأسرة والمجتمع؛ إذ بسببه لا يمكن توفير أساسيات للمحافظة على الصحة العامة، ومنها:

- الغذاء المناسب الواقي والمدافع من الأمراض وسوء التغذية.
- الوقاية اللازمة من خلال النظافة في المنزل والشارع ومنع انتقال العدوى.
- العلاج المناسب لإعانة الجسم على استرداد حالته الصحية السوية (سواء كان استشارة طبية، أو فحصاً مختبرياً، أو أدوية...).
- المؤسسات العلاجية المناسبة: المختبرات، المستشفيات، المراكز المتخصصة.
- مؤسسات إعداد الكوادر الطبية: إعداد الأطباء وتأهيلهم، وتدريب الكوادر الطبية المساعدة.

في الصحة النفسية: إذ بسبب الفقر يعاني الناس أفراداً وأسراً وجماعات من الضجر والتبرم والقلق وعدم الأمان والخوف من المستقبل والشعور بالحرمان، والإحساس بالدون والحسد والكراهية والسخط مما يسبب ضغوطاً على النفسيات؛ فتحدث خللاً وارتباكاً يؤدي إلى ما هو أعظم وأسوأ: من التفكير بالانتقام، والتطرف في الأفكار والتعامل، بل والجنون وفقدان الاتزان العقلي ـ عافانا الله جميعاً ـ.

٦ - أثر الفقر على الاقتصاد والسياسة:

رغم أن السياسة والاقتصاد هما سببان رئيسان للفقر والجوع ـ إما بسبب الفساد المالي والإداري والسياسات المتبعة، أو الإذعان لما تمليه على ولاة الأمور الحكوماتُ الخفية للصهيونية ممثلة في المؤسسات الاقتصادية الدولية. لكن الفقر نتيجة تؤثر أيضاً في السبب، ومن ذلك:

- قلة الإنتاج وانهيار الاقتصاد وزيادة العجز وضعف الإيراد، والكساد التجاري، والركود الاقتصادي.
- انعدام الثقة والحب بين الحاكم والمحكومين.
- ارتفاع تكاليف الخدمات العامة الأساسية.
- زيادة المماحكات السياسية وتبادل التهم.
- الظلم الجلي في توزيع الثروات.
- زيادة البطالة وما تؤدي إليه من أضرار اقتصادية واجتماعية.
- الشعور العام بالسخط وعدم الانتماء إلى الأمة والوطن.
- الحد من دور الدولة، وهذا يعني بقاء القرار السياسي والاقتصادي في يد من يقدِّم المال ويتحكم في الاقتصاد ويدير وجهة تطوره وملامحه.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٦٩٧٨.

- تصفية المدخرات السابقة وتسييلها من قِبَل الطبقات الوسطى والاستعانة بها في مواجهة النفقات المعيشية المتزايدة لتتحول بذلك إلى الطبقة الفقيرة.

- ازدياد هجرة العقول والأيدي العاملة المحلية.

- تغيير هيكل الإنتاج من إنتاج متين يعتمد على القطاعات الاستراتيجية كالزراعة والصناعة إلى هيكل إنتاجي يرتبط بالعالم الخارجي كالسياحة والاستيراد وغيرها.

تعريف أخير: مشروعات الصناديق الاجتماعية ذات الموارد الهزيلة: لا تخرج عن كونها ديكوراً يلحق ببرامج الإفقار والهلاك لإعطائها مسحة من السمة الإنسانية على وجهها الشيطاني القبيح، أما الزيادات الطفيفة التي تضاف إلى الأجور فإنها لا تجدي شيئاً ولا تشكل سوى رذاذ طفيف في مواجهة لهيب الأسعار وإعصار التكاليف الحياتية.

باختصار: تلكم كانت صنوف العذابات التي يُريد المتآمرون أن تسوم أمتنا وشعوبنا، وأن تتجرعها غصصاً ولا تسيغها ويأتيها الهلاك من كل مكان، وأن تُطحن برحى سياسات الإفقار فلا تبقى فيها باقية من إيمان وقوة أو أثر من خلق وإرادة، ومن ثم تسير في دربِ سننهم حذو القذة بالقذة رافعة راية التبعية والاستسلام ورامية بعقيدتها ودينها وتميزها وخيريتها خلف جدران النسيان. نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية وأن يكفيها شر الأشرار وكيد الأعداء والفجار وشر طوارق الليل والنهار.

ثالثة الأثافي:

قد أسلفت أن جرائم سياسات الإفقار لا يمكن أن تُنَفَّذ في صورتها المطلوبة إلا في ظل ضعف الإيمان وانعدامه، لذا لا بد من أن تترافق مخططات التجويع جنباً إلى جنب مع مخططات الإلهاء والصد عن سبيل الله، ونشر الإباحية والخنوع، ودعم مشاريع إشاعة الرذيلة والفسق والفجور، وذلك من خلال:

- قيام وزارات الإعلام والثقافة والسياحة في كثير من البلدان بدورها الشيطاني في الإلهاء والتغريب والتعتيم على الشعوب وصرف أنظارها عمًا يحاك لها وما يدبر ضدها في الخفاء.

- شغل الناس ـ وخاصة الطبقة المثقفة التي يُنتظَر منها قيادة الشعوب في المقاومة وفضح المخططات ـ في خلافات حزبية وتباينات سياسية فكرية ثقافية تعشي أعينها عن إدراك المؤامرات التي تستهدف الدين والعقل والعرض والمال والحياة.

- محاصرة التيار الإسلامي والعمل على تجفيف منابعه وتكسير أجنحته، ووضع الفجوات الواسعة والعميقة بينه وبين جمهور الناس عن طريق تشويه سمعة دعاته أو إبعاده بشتى الوسائل عن مراكز القرار أو الخطاب والبلاغ والإنذار حتى لا يؤدي دوره في إيقاظ الأمة وقيادتها في المواجهة.

إشارات على خط المواجهة:

١ - تقوية الصلة بالله، وتعميق الإيمان في النفوس، والعودة إلى الإسلام واعتماده منهجاً لتسيير شؤون الحياة وفق رغبة خالقها.

٢ - العلم بمكائد الأعداء، واستبانة سبيل المجرمين وفضح مؤامراتهم.

٣ - رص الصفوف، وتضافر الجهود، والتعاون على البر والتقوى.

٤ - الأمل والثقة بفرج الله وعدم اليأس: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].



دعوة للتمام

علياء بنت عبد الله

حين يحب الإنسان شيئاً يسعى إلى تكميله وتجميله، ويجتهد ما استطاع في حمايته من كل خدش يعكر صفاءه، أو كسر يؤذيه، وكذلك هو هذا الدين؛ نحمل له ولأبنائه المخلصين كل مشاعر الحب والتقدير والاحترام، ونذود عنه حتى من نسمة الريح. ومن تمام هذا الحب علينا أن نسعى جاهدين من أجل تأدية الأمانة التي حمِّلنا إياها.

وما حمل على كتابة هذه الأسطر إلا الطمع في القائمين على أنشطة الدعوة في الوصول إلى التمام والكمال بالمفهوم الشرعي لهذين اللفظين وليست الرغبة في الانتقاص من أحد؛ وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه.

أولاً: القرآن تهميش أم تفعيل؟

كان وحي السماء كفيلاً بأن يغير حياة أمة جاهلية لا تعرف معنى الإنسانية بنقلها إلى النقيض من تلك الحياة. كانت آياته تلامس أوتار النفوس فيُقبِل الناس على هذا الدين الوليد، وكان المسلمون في مكة يُعذَّبون فتثور فيهم ثورة العربي فتأتي التربية القرآنية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [النساء: ٧٧] وحين ينتشي المسلمون بفرحة النصر في بدر يردها الله إلى الميزان الحقيقي في وزن الأمور: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ويُهزَم الجيش المسلم في أُحُد فتأتي الآيات لتلمس الجرح وموطن العطب: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي الوقت الذي يرجع فيه المسلمون من صلح الحديبية مستائين محبَطين تأتي الآيات بعكس ما كانوا يتوقعونه تماماً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] ويستمر تنزيل الآيات حدثاً بحدث وآية بآية، ومحنة بمحنة يشاركهم أفراحهم ويسلِّيهم عن أحزانهم، حتى استطاع بحروفه وكلماته أن يحوِّل تلك الأمة إلى أمة ضربت بأرجلها هام السحاب.

إن كتاباً هذا شأنه وهذا شرعه جدير بأن يحتل مكاناً أكبر في برامجنا الدعوية. إن برامجنا تجعل

من تحفيظ القرآن هدفاً أول وهذا حق وواجب، ولكن من الواجب علينا أيضاً أن نصرف مجهوداً إن لم يكن أكبر فعلى الأقل مماثلاً له في تفسيره والوقوف على آياته واستخراج كنوزه، وما ذاك إلا لإعادة دوره في حياة الناس وربطهم بما تقتضيه الآية من استجابة فورية وتنفيذ مباشر، وإلا فإننا نطبق ما حذر منه النبي ﷺ؛ فعن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يُختَلَس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختَلَسُ منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنُقرئنه نساءنا وأبناءنا! فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة؛ هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟»[1].

إن جزءاً من إيماننا بأن كتاب الله هو شريعتنا الوحيدة إلى يوم القيامة يحتم علينا أن نصرف المزيد من الأوقات في استخراج أسراره ودروسه العقدية والتربوية والإيمانية وغيرها، ومن ثَمَّ فإن الإقلال من دور القرآن في جعله مادة للحفظ فقط مع التعريج السريع على معاني كلماته وجعل الأوقات الكبرى والذهبية تُصرَفُ في تعلُّم مواد أخرى ظلم كبير لكتاب الله وتهميش لدوره الحقيقي الذي يجمع العلم كله، ومن تعلَّم القرآن فقد أخذ بحظ وافر.

ثانياً: برامجنا بين الكم والكيف:

رغم تعالي الأصوات وتكرر النداءات بوجوب العناية بالكيف والبعد عن الغثائية التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله: «ولكنكم غثاء كغثاء السيل»[2] إلا أنه ما زالت برامجنا تخطو خطوات بطيئة نحو ترجمة هذا المفهوم، وما زالت تخاطب الجميع الخطاب نفسه وباللهجة نفسها.

فإذا أخذنا أحد البرامج على سبيل المثال نجد أن المشتركين قد يصل عددهم إلى ٤٠٠ مشترك: منهم العابد، ومنهم طالب العلم، ومنهم المسرف على نفسه، ومنهم من جاء يشغل فراغاً، وآخر لا يُعلَمُ سببٌ لمجيئه!! هؤلاء الأربعمائة يُجمَعون جميعاً في مكان واحد ليتلقوا المعلومة نفسها والتوجيه نفسه؛ وعلى أحسن الأحوال فقد يُفصَل الأطفال عن الكبار، وقد يكونون ربع العدد، كما يفصل كبار السن وهم الربع الآخر لتجمع المئات المتبقية بعضها مع بعض.

أي نوع من التربية الذي نطمح إليه من خلال هذا الطرح؟!

وبماذا يختلف هذا الأسلوب عن قراءة كتيب أو توزيع شريط؟!

ولماذا نشتكي من عدم وجود قيادات جديدة مؤهلة، ونشتكي من تكرر الوجوه على مر السنين؟ لماذا

---

(١) اخرجه الترمذي، ح/ ٢٦٥٣.

(٢) رواه احمد، ح/ ٢١٣٦٣.

نشتكي من ذلك إذا كانت برامجنا لا تتسع لتقوية الضعفاء، ولا لتحديث القدماء، ولا لتمييز الطاقات؟

ولسنا نجد تشبيهاً لفعلنا هذا إلا بطبيب يحقن جميع مرضاه على اختلاف علاتهم بدواء واحد فيشفي هذا ويقتل هذا؛ والسبب هو الخطأ في الدواء! هذا ونحن نتغافل عن إجابات رسول الله ﷺ المختلفة لسؤال واحد هو: أوصني يا رسول الله! فيأتي الجواب تارة بالحث على الصلاة في وقتها، وتارة بعدم الغضب، وأخرى ببر الوالدين؛ وذلك لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يحمل إجابات متسرعة ومجهزة يقدمها لكل من يسأل!! وإنما يعطي كل سائل حسب طاقته وحسب حاله.

> ما زلنا نخاطب النفوس والقلوب منذ عدة عقود غير منتبهين لانحراف المفاهيم التي غدا فيها الحق باطلاً والمنكر معروفاً في كثير من الأحيان!!

إننا إذا تعاملنا مع هذه المئات بهذه الكيفية فإننا نحمل وزرهم؛ لأننا نظلم ذلك المتعطش المتلهف فنبطئ من سرعة تحصيله ونطفئ فيه رغبته لمعرفة الحق، وعلى الصعيد الآخر فإننا قد نرمي بهذا الخطاب العام بسهام تصيب أولئك المستجدين فتجعله آخر العهد بهم!!

ثالثاً: العيش في الشرنقة!

في الوقت الذي يقف هذا الجيل الناشئ أمام مغريات الواقع الكبيرة وفتنه الأكبر، إلا أن برامجنا ما زالت تخاطب تلك القلوب البريئة نفسها والنفوس الصافية التي كانت تخاطبها قبل عشرين سنة مضت متجاهلين بذلك تغير الزمان وانحراف مفاهيم الناس التي غدا فيها الحق باطلاً والمنكر معروفاً في كثير من الأحيان.

فحين كنا نجعل بالأمس من قضية نقاب المرأة مشكلة العصر ونعتبرها أهم الدروس ونجمع في ذلك الفتاوى، فإننا نقف اليوم مشدوهين أمام تفسخ كامل وعري فاحش وكَمٍّ هائل من العلاقات المحرمة، وانتشار للزنا بصورة مروعة؛ وقصص المدارس والمستشفيات أكثر من أن تُعد أو تُحصى، فإذا أضفنا إلى ذلك إقرار بعض أفراد المجتمع لهذه الممارسات بحجة متطلبات العصر ومستلزمات النقلة لعرفنا حجم التغيير الذي يجب أنه نحدثه في برامجنا الدعوية حتى يتسنى لنا استيعاب هذا الانحراف والدخول على مختلف شرائح المجتمع لتصحيح ما أفسده هذا الانقلاب في حياة الناس.

رابعاً: دعوة للمخلصين:

استقراءاً لما سبق فإننا نأمل من القائمين على البرامج الدعوية إعادة النظر في البرامج المطروحة على الساحة وبنائها من جديد على أساس متين آخذين بالاعتبار ما يلي:

١ - إعـادة دور القـرآن في حـياة النـاس؛ وذلك من خـلال التـأكيـد على وقـفـاته الإيمـانيـة ودروسـه التربوية والعلمية، وإعطاء تفسيره وشرحه الوقت الكافي، ومحاولة ربطه بواقع الناس من حيث ضرب الشواهد من حياتنا اليوم مع ربطها بفتاوى المشايخ في بعض مستجدات العصر للتأكيد على أن الدين واحد لا يتجزأ، وأيضاً من خلال إعطاء معلمي القرآن أهدافاً لا بد من تحقيقها وفوائد ودروساً لا بد من التأكيد عليها من خلال التفسير.

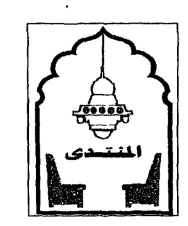
٢ - إتاحـة الفـرصـة لانطلاق قـيادات جـديدة عن طريق فـتح برامج تأهيلـيـة تعنى بأولئك المتلهـفين المتعطشين والذين تبدو عليهم علامات النبوغ والتميز، ويجب دراسة ذلك من ناحية الكثافة العلمية والتربية الجادة والمتابعة الدقيقة.

٣ - مراعاة الفـروق بين الناس؛ وذلك عـن طـريق فـتح دورات جديـدة لاحتياجات الناس ومطالبهم لا سيما في هذا الوقت العصيب.. ففي الحين الذي تحس فيه امرأة بأن أصعب مشكلاتها هي عدم قدرتها على تخريج حديث مَّا، قد تحس أخرى بأن أصعب مشكلاتها هي في التعامل مع أطفال لها بلغوا سن المراهقة: كيف تحميهم من الفتن؟ كيف تربيهم على الفضيلة وسط مجتمع منحرف؟

إن لكل فرد مطالبه، ولكل منا مـشكلاته؛ وكلمـا استطعنا فـتح أبواب جديدة لتوسـيع الخطاب مع الناس كلما استطعنا أن نسد شيئاً ولو قليلاً من أبواب الفتنة التي عمت وطمت.

هذا ونحن لا نسـتطيع أن نقلل من حـاجـة هذه أو تلك؛ فـفـي الوقت الذي نُكْبِرُ فـيـه سـؤال حنظلة واهتمامه بإيمانياته حين يأتي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائلاً: نافق حنظلة، أو يقـف الرسـول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع تلك المرأة التي تأتيه شاكية زوجها فلا يهمِّش من قضيتها، بل وتنزل فيها آيات تتلى إلى يوم القيامة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] وكم حوت آيات القرآن من أوامر للوالدين بوقاية أطفالهم من النار والاعتناء بتربيتهم وحفظ حقوقهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

فبماذا ستنتفع الأمة إذا كانت الأم لا تحسن تربية أبنائها ولا تستطيع غرس الفضيلة في صدورهم لتخرج للأمة رجالاً مشوهين فكرياً مليئين بعقد النقص والهزيمة الداخلية؟



مراعاة الأحوال في الدعوة

سليمان بن محمد النصيان

إن تغيير النفوس ونقلها عن ميولها ومألوفاتها أمر ليس سهلاً؛ فإن الأعراف التي استقرت في العقول وتواطأ عليها الناس لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة توجّه. والعادات في السلوكيات التي تجذرت وترسخت لا يتصور اقتلاعها في يوم وليلة، وهناك أمور كثيرة ينبغي مراعاتها والأخذ منها بالتدرج فيها؛ وهذه خلاصة نافعة في هذا الباب:

أ - مراعاة الطبائع: إن الناس يختلف بعضهم عن بعض في علمهم وفهمهم وطبائعهم الشخصية وعاداتهم الاجتماعية، ومن الناس من طبعه الحدة والسرعة في الانفعال، ومنهم من يميل إلى السكينة وطول البال؛ وكلٌّ له مدخل وأسلوب يناسبه.

ب - مراعاة الأفهام: تفاوت الأفهام أمر معروف وله أسبابه من قلة العلم أو اختلاف البيئة أو استحكام العادات ونحو ذلك.

ج - مراعاة المقاصد والنيات: قد يتفق اثنان في عمل مّا ومع ذلك يختلف الحكم عليهما باختلاف النوايا؛ فهناك من يفعل الفعل ناسياً أو جاهلاً بحرمته أو متأولاً فيه أو مكرهاً عليه.

د - مراعاة الأصول الخاصة: وذلك واضح في تعدد الجواب من الرسول ﷺ عندما يُسأل عن أفضل عمل - مثلاً -، أو عن الوصية والنصيحة.

هـ - مراعاة الأعراف والعادات العامة: إن لكل بلد أعرافها، وكل بيئة لها عاداتها، ومراعاة ذلك بالضوابط الشرعية من ضروب الحكمة وموافقة جوهر الشريعة.

و - مراعاة الأولويات والمهمات: وذلك بأن يركّز المسلم في دعوته وهدايته للناس على الأوْلى والأهم فيقدم الفرض على النفل، والعيني على الكفائي، وهكذا. ومن ذلك أيضاً أن يركز المسلم على ميدان أكثر من ميدان وعلى صنف أكثر من صنف آخر؛ فالمسلم مقدم على غير المسلم، ودعوة المقربين نسَباً وجيرانه مقدمة على الأباعد، ودعوة المثقف مقدمة على دعوة الأمي... وهكذا. ومن المعلوم أن هناك مقاصد ضرورية مقدمة، ومقاصد حاجية تأتي بعدها، وهناك مقاصد تحسينية تأتي في المرتبة الأخيرة.

ز - مراعاة المصالح والمفاسد: وهذا الأمر في غاية الأهمية؛ وذلك لأن الشريعة مبناها وأساسها على الحكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل.

وهذا مبحث دقيق ينبغي في البداية التنبيه إلى أن المراد بالمصالح والمفاسد ما كانت كذلك في حكم الشرع لا ما كان ملائماً أو منافراً للطبع، ولا يكون تقريرها وفق أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية ودرء مفاسدها العادية؛ والدقة في هذا المبحث تكمن في أن المعروف قد يترك فعله والحض عليه والمنكر قد يترك النهي عنه والإنكار عليه.. إلخ، ثم النظر في تقدير المصلحة والمفسدة، وتقديرها والترجيح بينهما يحتاج إلى تقوى صادقة، وبصيرة علمية نافذة، ومعرفة بالواقع واسعة.

ح - مراعاة الأوقات: والمقصود بمراعاة الوقت تخيُّر الوقت الملائم للدعوة من حيث فراغ المدعوين، واستعدادهم للتلقي، وكذلك المراعاة لأوقات المواعظ والدروس ومناسبة مدتها لأحوال الناس.

انتبه... فالعمر يمضي

عبد الملك مطر النمر

قال الشاعر:

إذا مر بي يوم ولم أقتبس هـدى ... ولم أستفد علماً فما ذاك من عمري

وقال حكيم: من امضى يوماً من عمره في غير حق قضاه، أو فرضٍ أداه، أو مجدٍ أثّله، أو حمدٍ حصّله، أو خير أسسه، أو علمٍ اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه.

وللوقت خصائص يتميز بها يجب علينا ان ندركها حق إدراكها، وأن نتعامل معه على ضوئها، ومن هذه الخصائص:

أولاً: سرعة انقضائه: فهو يمر مر السحاب سواء كان زمن مسرة وفرح، أم كان زمن اكتئاب وترح.

قال الشاعر:

مرت سنون بالوصال وبالهنا ... فكأنها من قصرها أيام

ثم أتت أيام هجر بعدها ... فكأنها من طولها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

ومهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة فهو قصير ما دام الموت هو نهاية كل حي. وعند الموت تنكمش الأعوام والعقود التي عاشها الإنسان حتى لكأنها لحظات مرت كالبرق الخاطف.

ويحكون عن شيخ المرسلين نوح ـ عليه السلام ـ: عندما سئل: كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

وسواء كانت القصة صحيحة أم غير صحيحة فإنها تعبر عن حقيقة مقررة هي: تضاؤل الأعمار عند الموت. قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ [يونس: ٤٥].

ثانياً: أن ما مضى منه لا يعود ولا يعوّض؛ فكل يوم يمضي وكل ساعة تنقضي وكل لحظة تمر ليس في الإمكان استعادتها، ومن ثمّ لا يمكن تعويضها؛ وهذا ما عبر عنه الحسن البصري بقوله البليغ: «ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم! أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني؛ فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة».

قال الشاعر:

وما المرء إلا راكب ظهر عمره ... على سفر يفنيه باليوم والشهر

يبيت ويضحي كل يوم وليلة ... بعيداً عن الدنيا قريباً إلى القبر

ثالثاً: أنه أنفس ما يملك الإنسان: فالوقت يعتبر من أنفس وأثمن ما يملك الإنسان؛ لأن ما مضى منه لا يرجع ولا يعوَّض بشيء. وترجع نفاسة الوقت إلى أنه وعاء لكل عمل وكل إنتاج؛ فهو في الواقع رأس المال الحقيقي للإنسان فرداً أو مجتمعاً.

والوقت ليس من ذهب فقط ـ كما يقول المثل ـ؛ بل هو أغلى ـ في حقيقة الأمر ـ من الذهب وغير ذلك من المعادن والجواهر النفيسة، إنه هو الحياة؛ فما حياة الإنسان إلا الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة.

وفي هذا قال الحسن البصري أيضاً: ابن آدم! إنما أنت مجموعة أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك، ومن جهل قيمة الوقت الآن فسياتي عليه حين يعرف فيه قدره ونفاسته وقيمة العمل فيه ولكن بعد فوات الأوان.

وفي هذا يذكر القرآن موقفين للإنسان يندم فيهما على ضياع وقته، حيث لا ينفع الندم:

الموقف الأول: ساعة الاحتضار، حين يستدبر الإنسان الدنيا ويستقبل الآخرة ويتمنى لو منح مهلة من الزمن وأُخِّر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسد ويتدارك ما فات. قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠]. ولكن الله رد عليهم بقوله: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١١].

الموقف الثاني: في الآخرة: حيث توفى كل نفس ما عملت وتجزى بما كسبت، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٧٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]. هناك يتمنى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى الدنيا؛ ولكن هيهات لما يطلبون؛ فقد انتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء، والله أعطى كل مكلَّف من العمر ما يتسع لعمل ما كُلِّفَ به، ويُذكِّره إذا غفل عنه وبخاصة من عاش حتى بلغ الستين من عمره؛ ففي هذا القدر من السنين ما يكفي لأن ينتبه الغافل ويتوب العاصي. وفي الحديث الصحيح: «أعذر الله إلى امرئ أمهله حتى بلغ ستين عاماً»(١).

---

(١) رواه البخاري، ح/٥٩٤٠.

آلام

مشاري بن محمد الكثيري

ربَّاه إنـي هـائـمٌ ممـا أرى ... وَخُطَايَ في دَربِي أراها تَعـثـرُ
فـالسَّيفُ يَشرِيه الأصاغرُ لُعـبَـةً ... يَتضَاحَكُونَ وفي المَجَالس يُنشَـرُ
والسَّيفُ أصبَحَ في المتَاجِرِ دُمـيَـةً ... بَعـدَ المَلاحِـمِ في الرؤوسِ يُسَطِّـرُ
ربَّاهُ إني زافِـرٌ أتحـسَّـرُ ... ودُمُـوعُ عَـيـني للعـروقِ تُشَطِّرُ
تيجـانُنَا حَـالَت لِلَونِ أسـوَدٍ ... وخُـيُـولُنَا عَـمَّـا قَـريبٍ تُنحَـرُ
لم تبقَ قَـادرة عَلى صَـولاتِـهـا ... فكمـاتُهـا مَـاتوا ويَبـقى الأخـورُ
أطفَـالُنَا تُغـريهـمُ أرسُـومَـةٌ ... في شَـاشَـةِ التلفـازِ هَذا المنكرُ
ربَّاهُ أمَّـتُـنَا تهـانُ بِشَـعـبِـهـا ... عَـمـداً ويَضحَكُ كَـافِـرٌ يَتَبَخـتَرُ

شاعر الأصالة

قال له صاحبه يوماً: ما بال شعرك لا يزال يتوشح التراث، وينأى عن مجاراة العصر وأنت ترى ما يطرقه الكثيرون! فقال مجيباً:

سعيد عبدالله الزبيدي

قل لي: إذا ما الحزنُ مدّ رواقه ... أتزور أطيافُ الهوى إنشادي
كلا فليس الشعرُ سلعةَ مفلس ... كلا فليس الشعر بيعَ مزاد
الشعر تبريح الفؤاد وشجوُه ... نبعٌ كريمٌ طاب للورّاد
تفنى حروف الشعر يفنى وَقْدُها ... ويظل ميراث الهداة عتادي
إني وقفت الشعر في درب الهدى ... وجعلته مرقىً إلى الأمجاد
أسرجت في درب الأصالة خيله ... وسقيتها نبضي وذوْبَ فؤادي
الشعر عندي منبرٌ تشدو به ... لغة الحقيقة كاللظى الوقّاد
الشعر عندي دعوةٌ ورسالة ... عزمٌ على سمع الزمان ينادي
الشعر درب للأصالة مشرق ... سيف صقيل ملّ من إغماد
الشعر يا هذا - وربِّك - بلسمي ... ألقى به دون الأساة ضمادي
في واحةِ الكلمات تسمو همّتي ... الشعرُ فيها بُلغتي ومرادي
ما بعت يوماً للغثاء مشاعري ... كلا ولا سحرُ الحداثة زادي
أشعلت بالفصحى لهيبَ قصائدي ... وسكبت فيها حرقتي وسهادي
فعسى بيانُ الشعر يذكي عزمنا ... وعساه في تلك المفاوز حادي
يا صاحبي فرس الحقيقة أبلقٌ ... يطوي القفارَ بعزمة ورشاد
سيظل نبع الشعر يروي سَلسلاً ... بمداده الفُصحى أعزُّ مِداد

العقيدة

عبدالله بن حسين بن أحمد شقبيل

هيَ يَا أخيَّ عَقيدةُ التَّوحِيدِ قَدْ ... شُغِفَ الفُؤادُ بِهَا رِضىً ومُثُولا
لِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ يا هَذَا فَقُمْ ... في الحَالِ طَوْعاً وَفِّهَا التَّبْجِيلا
هَذي العَقِيدَةُ يا أخي تَاجٌ عَلَى ... هَامِ التُّقَاةِ هُنَا غَدَا مَصْقُولا
هَذي العَقِيدَةُ مَنْ حَوَاهَا صَادِقاً ... ذَاقَ السَّعَادَةَ بُكْرَةً وأصِيلا
هَذي العَقِيدَةُ يا أخي كَمْ عَالَجَتْ ... قَلْباً سَقِيماً بِالهَوَى مَغْلُولا
وبِهَا تَفَرَّجَ ضِيقُ صَدْرِ مُخَالِفٍ ... لِلْحَقِّ لَمَّا فَارَقَ التَّضْلِيلا
فَالطَّائِعُ الوَافِي لِدِينِ مُحَمَّدٍ ... لاَ يَرْتَضِي في دِينِهِ التَّبْدِيلا
يَا سَعْدَ مَنْ حَفِظَ العَقِيدَةَ في الحَشَى ... لَمَّا أطَاعَ الوَحْيَ والتَّنْزِيلا
سَيَعِيشُ في الدُّنْيَا كَرِيماً مَاجِداً ... ويَنَالُ في الأُخْرى رِضاً وقَبُولا
مِنْ خَالِقٍ لِلْكَوْنِ جَلَّ جَلاَلُهُ ... فَهُوَ الَّذِي يَجْزِي الأنَامَ جَمِيلا

الوقت

غازي المهر

يمرُّ
دونما التفاتة
يمرُّ
مارقاً كسهمْ
وقاطعاً كسيفْ
يمرُّ
شامتاً بنا
نهارنا كليلنا
شتاؤنا كصيفنا

يمرُّ
عابثاً بنا
وساخرا
فإننا لم نحتفلْ
بالصبح والمطرْ
فنحن غارقون
في سباتنا العميقْ
• لا نستفيقْ

ردود

* الأخ: خالد سليمان الجماز: وصلتنا رسالتك التي تقترح فيها الكتابة حول الصراع بين الخير والشر، ونحن نشكر لك تواصلك وثقتك في البيان، مع تمنياتنا بدوام التواصل.

* الإخوة: د. شاكر السروي، محمد يحيى بن يحيى، وبدر بن ناصر العواد، د. محمد ظافر الشهري، فرست مرعي الدهوكي، د. عثمان علي حسن: سعدنا كثيراً بتواصلكم الطيب ونفيدكم بأن مشاركاتكم مجازة للنشر ـ بإذن الله ـ.

* الإخوة والأخوات: عبد العزيز بن عبد الله الصالح، عادل الدوسري، سكينة الفرحان، مشيب القحطاني، عبد السلام سعيد كريم، عمر الرماش «فضل الإخلاص وخطر الرياء»، عبد الله عطية الزهراني، فهد بن علي العبودي، أكرم عصبان الحضرمي، حمد عبد الله الجابري، حمود عبد الرحمن الصايل: جزاكم الله خيراً على تواصلكم الكريم مع المجلة، ومشاركاتكم سوف تنشر ـ إن شاء الله تعالى ـ في المنتدى، وفقنا الله وإياكم لكل خير.

* الإخوة: عبد الحفيظ عمارة، إبراهيم عبد الله عرفة، محمد معصوم رسول، عمر الرماش، خالد بن عبد الله السلمان، محمد الباشا، عبد العزيز العزاز، عبد الله سليمان الفيفي، فواز بن عبد العزيز اللعبون، صلاح نور عبد الشكور، سمير أحمد العسيري، وليد بن صالح الفريْز، د. محمد خليل جيجك، صفوان بن عبد الرحمن العندس، أسامة حامد الشوبكي، فيصل محمد العبودي، أحمد أبو زيد: أسعدنا تواصلكم وثقتكم في مجلتكم، كما يسعدنا دوام تواصلكم معنا، ونتمنى لكم التوفيق في مشاركات قادمة.



ومن الدعاة أنواع

محمد بن يحيى

تزخر الساحة - بفضل الله - بالكثير من الدعاة الذين حملوا هَمّ استنقاذ العباد من الغفلة والدنيا وشهواتها. وهؤلاء - بإخلاص كثير منهم واحتسابهم الأجر عند الله وتحملهم لما يلاقونه من أذى وبلاء - أثمرت جهودهم هذه الوفود المتزايدة في التوجه إلى الله - تعالى - والتمسك بشرعه وهدي نبيه ﷺ.

وثمة مشكلة تواجهها الدعوة جديرة بأن يتأملَ فيها كلُّ من حمل همَّ الدعوة إلى الله تتلخص في وجود أصناف من الدعاة ليسوا على المستوى المطلوب لممارسة الدعوة كفنٍّ يحتاج إلى التحلي بصفات خاصة والتصرف وفق أولويات واضحة.

وقبل أن أذكر بعض هؤلاء الأصناف أشير إلى شيء من أهمية الموضوع على النحو الآتي:

١ - كون هؤلاء الأشخاص يمثلون الدين في نظر الناس، والقصور منهم سوف ينسب إلى الدين بسبب الجهل والمكر وترصد أصحاب النفوس المريضة.

٢ - أن الداعية من هؤلاء محسوب على الدعاة؛ والخطأ منه يعمم على الجميع - وهذه أخص من السابقة -.

٣ - أن الداعية في كثير من الأحيان يكون فاتحة خير للمدعو وبداية ارتباط بشرع الله، وبسبب شيء مما سنشير إليه قد يكون سبباً لنفرة المدعو وصدوده عن أهل الخير.

وسوف أشير إلى بعض الأصناف التي ميَّزتها على أساس صفات مشتركة قد تتوفر كلها وقد يتخلف بعضها، والمقصود أن ينظر الداعية في نفسه ويقوّم سلوكه الدعوي، وأن يثار هذا الموضوع للنقاش وزيادة التأصيل من أهل العلم والاختصاص والخبرة.

النوع الأول: يغلب على هذا النوع الرهبة عند البدء في موقف أو معاملة دعوية بسبب الخوف من أن يقابل بالإساءة إليه. وغالباً فإن عدم فلاح هذا النوع مع المدعو في المحاولة الأولى يجعل صاحبه يتردد كثيراً قبل إعادة المحاولة. وكثيراً ما يستعجل أصحاب هذا النوع إنهاء المواقف الدعوية وعدم ربطها بتوابع أخرى بمجرد ترديد المدعو لبعض العبارات الدارجة مثل: «الله يهدينا».

وهذا الصنف وإن لم يكن على المستوى المطلوب ليقوم بالتأثير والجذب إلا أن أفراده يبدون غالباً مرشحين بشكل كبير للنجاح الدعوي، ويحتاجون - بعد توفيق الله - إلى تعلم المهارات المناسبة والأساليب الجيدة مع الممارسة المستمرة، كما أنه ينبغي أن يعملوا على كسر حاجز الرهبة بتذكُّر فضل ما يعملون، والاستعاذة بالله من الشيطان وكيده، وإقناع أنفسهم بالنجاح بدلاً من توقع الإخفاق.

النوع الثاني: (رهينة الصدود) وهذا النوع يملك في العادة خلفية دعوية جيدة؛ ولكنه يأخذ صدود المدعو بشكل شخصي يسيء إليه ذاتياً. وهذا ما يجعله يبحث عن أي عذر يعفيه من الممارسة الدعوية المباشرة، وقد يصرف الوقت في أشياء ليست من صميم الدعوة كأحاديث جانبية لا ينفذ منها إلى الهدف الدعوي، كما يُكثِر الشكاوي، ويتأثر عطاؤه الدعوي لفترة طويلة بسبب إخفاقه في محاولة دعوية مع شخص مَّا.

هذا النوع ينبغي أن يُوَجَّه إلى أهمية الفصل بين شخصه ودعوته، ويربى على أن لا يدعو إلى نفسه وأنه ليس من لوازم الدعوة أن يرى آثار نجاح دعوته، هذا إذا كان مفتقراً إلى هذه المفاهيم ونحوها.

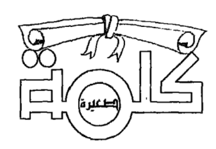
أما إن كان الأمر فيه أصلياً وحدود شخصيته لا تسمح بتجاوز هذه العقبة فلعله من المناسب أن يُوَجَّه إلى الدعوة في الأماكن التي يقل فيها جانب الصدود وتضعف احتمالاته، كما هو الحال فيمن لهم بالمحاضن الخيرية روابط محدودة وما زالوا بعيدين عن مظاهر الاستقامة.

النوع الثالث: (الداعية العدواني) الذي يفعل أي شيء يعتقد أنه يتمم الواجب الدعوي، ولا يهمه بعد ذلك أو قبله الأسلوب؛ يتحرك أكثر من اللازم، ويرفع صوته، يقول أي شيء حتى لو لم يكن متعلقاً بهذا المدعو أو ذلك الحدث، يستخدم كثيراً أسلوب الضغط والإلحاح ودفع المدعو للاستجابة، وقد لا يهتم بتخفيف ما قد يعتري المدعو من حدة، ولا يصرف الوقت معه لتكوين علاقة وئام ومودة.

وهؤلاء وإن بدت أوصافهم في الكتابة منفرة بغيضة إلا أنهم حقيقة واقعة لا بد من مناصحة أصحابها، خاصة أولئك الذين يكون من طبيعة شخصياتهم (أو مناطقهم) الحدة والصوت الجَهْوَرِي وسرعة الغضب ونحو ذلك. والأثر السلبي لهؤلاء واضح جلي وكبير على الدعوة خاصة عندما يكون استمرار العلاقات على المدى البعيد مطلوباً؛ لذلك عليهم مراجعة أنفسهم دائماً، ومصاحبة من ينبههم ويذكِّرهم ويسدِّدهم قدر الإمكان.

وأخيراً أشير إلى أن مثل هذا الموضوع قد يعطي ثماره بشكل أكبر عند وضعه على مائدة النقاش ودعمه بالأمثلة والنماذج الحية. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

بسم الله الرحمن الرحيم



أبو رقيبة نهاية وعبرة

ككل الطغاة عاش أبو رقيبة حياته حاكماً مستبداً ظالماً، وكان مشروعه العلماني القاضي بالسير وراء الغرب وتقليده تقليداً أعمى المسوِّغ لدعم الغرب له وتشجيعه على خطواته التغريبية في إفساد المجتمع التونسي وتضليله؛ ومع ذلك عاشت تونس دولة فقيرة عالة على الإعانات الأجنبية.

صنع إعلامه منه بطلاً سمي زوراً بـ «المجاهد الأكبر» حتى بعدما غدر برفاق الجهاد وأذل العلماء وهمشهم، وشتم رموز التاريخ التونسي ومن أشهرهم الشيخ (عبد العزيز الثعالبي)، وألغى دور جامع الزيتونة باعتباره من أكبر الجامعات الإسلامية العريقة، وأبطل حلقات العلم فيه، وبطش بالحركة الإسلامية بالقتل والسجن والتشريد؛ ولكن الله يمهل للظالم حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ فقد جاء إذلاله على يد أحد تلاميذه بعد أن طفح الكيل بقراراته العشوائية وأفكاره المتناقضة وإقالته للحكومات المتوالية بشكل مثير للسخرية؛ حيث أُعد تقرير من عدد من أطباء البلاط بأن الرجل أصبح عاجزاً عن الحكم فنحِّي، وعاش سنواته الأخيرة في سجن إجباري يعاني الهوان الذي طالما مارسه في حق التونسيين بدون وجه حق، ومن رآه في آخر أيامه علم مدى الذلة التي صاحبته وهو في أرذل العمر، وكيف أن أمثال هذا الرجل ممن يحاولون إذلال شعوبهم وظلمها والبطش بها يعاقبون بالعقوبات نفسها، وفي هذا عبرة، وأي عبرة لمن يعتبر!

ومما يؤسف له أن تونس ما زالت تسير على الخط العلماني نفسه، وما زال الإسلاميون يعانون الظلم والتهميش بدعاوى معروفة سلفاً.

فهل يا ترى يعود لتونس وجهها الإسلامي المشرق، ويتاح لأبنائها نيل حقوقهم المدنية التي كفلها دستور الدولة أسوة بغيرهم من الأحزاب العلمانية في الساحة؛ أم على قلوب أقفالها؟!!

نسأل الله لتونس ولشعبها كل ما يحقق لها عزتها ونهضتها وازدهارها.

● العدد ١٥٠ ● صفر ١٤٢١هـ/ مايو - يونيو ٢٠٠٠م

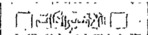
مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	—	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرّق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٣٥٢٢٨٢	٣٥٢٢٩٢
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٣٥٠٥٢٦	٥٠٠٠١٥
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بور تسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بينين	كوتونو	٠٣-٤١٩٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

الحسابات

- مصرف فيصل الإسلامي حساب رقم ٠٠٢- ٤٥١٤-٤٢-١٠٩
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
- الإمارات - بنك دبي الإسلامي (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة شارع الأربعين حساب مجلة البيان رقم ٢١٠٠/٧
- قطر: مصرف قطر الإسلامي حساب رقم ٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات حساب مجلة البيان: بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ٢٤٢٠٧٠٠٧١

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452



بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهًا استرلينيًا
أوروبا	٢٠ جنيهًا استرلينيًا
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهًا استرلينيًا
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهًا استرلينيًا
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهًا استرلينيًا

في هذا العدد

المراسلات والإعلانات

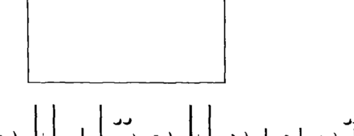
الدول العربية : البحرين: المحرّق مكتب دار البيان ، ص.ب ٥٠١٦٣ - هاتف٣٣٥٣٠٠ - فاكس ٣٣٦٣٠٠- السعودية : مكتب مجلة البيان - ص.ب ٢٦٩٧٠- الرياض : ١١٤٩٦- هاتف ٤٦٤١٢٢٢ - فاكس ٤٦٤١٤٤٦
البريد الإلكتروني: **bayan@naseej.com.sa**
أوروبا وأمريكا :
AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060
Fax : 071 - 736 4255

في هذا العدد

الموزعون

الأردن : الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس ٦٣٥١٥٢
الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨
قطر : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس ٦٦٢٤٥٠
مصر : القاهرة ـ ش الجلاء ـ الأهرام للتوزيع ، هاتف وفاكس ٥٧٤٧٠٢٣ .
المغرب : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ، هاتف ٢٤٥٧٤٥/٥٤
السعودية : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف ٤٦٤٦٦٨٨ ، فاكس ٤٦٤٢٩١٩، الشركة الوطنية هاتف ٤٧٨٢٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣ .
اليمن : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف ٢٠٦٤٦٧
السودان : دار أقرأ للنشر والتوزيع ، الخرطوم : ص.ب ٨٨ براري.

الكويت : درة الكويت للتوزيع، ص.ب ٢٩١٢٦، الصفاة هاتف ٤٧٢٤٦٦٦، فاكس٤٧٢٤٥٥٥.
البحرين : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
امريكا : International Media Group
Ann Arbor, MI 48107 U.S.A.- P.O. Box 7560
Tel 734-975-1115 Fax. 734-975-9997



سيطرةُ اليهود على الغرب من خلال السيطرة على وسائل الإعلام مكنهم من السيطرة على العقل الغربي، فأصبح الجميع يحرص على موادَّة اليهود والتقرب إليهم والركوع تحت أعتابهم، فإذا كان الرئيس الأمريكي يجعل دعم (دولة إسرائيل) أحد أبرز معالم برنامجه الانتخابي ليضمن النجاح، فغيره من باب أوْلى.

ولكن! هل استطاع اليهود تهويد العقل العربي كما استطاعوا تهويد العقل الغربي..؟!

وهل استطاع اليهود أن يخترقوا الوسط الإعلامي والفكري العربي كما فعلوا ذلك في الغرب..؟!

كان دعاة التطبيع قلَّة محدودة منبوذة، متهمين بالتبعية والعمالة، ويعانون من حصار كبير، وما هي إلا سنوات قلائل حتى أصبحت هذه الظاهرة تتصاعد لتصبح جزءاً رئيساً من النسيج الإعلامي العربي. فبعد الزوبعة التي أثارها الصحفي المصري (علي سالم) الذي زار «إسرائيل» بقصة سامجة مفتعلة، وبعد تأسيس (منتدى كوبنهاجن) وعلى رأسه (لطفي الخولي) الذي يدعو إلى تطبيع ثقافي شامل مع العدو؛ أصبح دعاة التطبيع يغزون الحظيرة الإعلامية والفكرية، وتعلو أصواتهم النشاز فوق كثير من الأصوات.

لقد استطاع اليهود النفاذ إلى قلب بعض المؤسسات الإعلامية والفكرية العربية واختراقها، وتغيير خطابها السياسي والفكري، وأصبح كبار الإعلاميين قبل صغارهم يلوذون بالدعوة إلى التطبيع، من أجل البقاء والبروز نحو الأضواء، والترقي في درجات السلم الإعلامي. وراح هؤلاء (التقدميون!) بالتفكير والتحدث بالنيابة عن اليهود والدفاع عن حقوقهم المشروعة (!) ونصَّب هؤلاء القوم أنفسهم حُماةً عن الحق اليهودي المزعوم، ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ منهم من تصهين ـ ربما ـ أكثر من بعض الصهاينة! وبعد أن كانوا يرفعون الشعارات الثورية، ويطبلون باسم القومية والوطنية، لبسوا لهذه المرحلة لباساً أنيقاً ناعماً يتلاءم مع رشاقة الكلمات التي تقتضيها ثقافة التطبيع.

نعم! بدأ كثير من المثقفين والمفكرين العرب يبحث عن دور مرموق في الخريطة السياسية، ولا يجد طريقاً أسرع ولا أثمن ولا أكثر نجومية وإثارة من طريق التطبيع..!!

إنَّ الساحة الثقافية العربية تعاني من حالة اهتزاز عنيفة أدت إلى لهاث محموم وراء سراب التطبيع، وسعت سعياً حثيثاً إلى تزييف وعي الشعوب العربية، وتشويه رؤيتها، ونستطيع أن نجمل أبرز جوانب التزييف بما يلي:

أولاً: فرض سياسة التطبيع، والترويج لثقافة السلام، وعرضها بألوان براقة خادعة، ومحاولة تلميع التجربة المصرية في السلام، والتعتيم المتعمد لكل المساوئ والمخازي التي أثبتتها السنون والأيام. وتبع ذلك حصار إعلامي محكم لكل الأقلام التي تخالف هذا التوجه، والسعي لتهميشها وعزلها، ومنع نشر كل ما يسيء لـ «إسرائيل» أو إذاعته. وأصبح معارضو التطبيع في حس هؤلاء: من الخارجين عن الصف العربي، ومن المتحجرين الجامدين على الماضي الذين وقفوا على أطلاله، ولم يستطيعوا استيعاب المتغيرات الهائلة والمتسارعة التي تحدث في العالم. وبعبارة أخرى: سعى هؤلاء الإعلاميون الذين يتشدقون بالديمقراطية والحرية إلى احتكار الصوت الإعلامي، والتطبيل به كما يشاؤون..!

ثانياً: الدعوة إلى مسح الذاكرة العربية، وإهالة التراب على تاريخ دموي طويل حافل بالوحشية والتسلط

والطغيان. فالحروب العربية (الإسرائيلية)، ومذبحة دير ياسين وغيرها من المذابح، أحاديث عفا عليها الزمن قام بها مجموعة من المتطرفين اليهود الذين لفظتهم الأيام، ولم يبق إلا صوت الحمائم الوديعة التي تؤمن بالإخاء والتعايش السلمي الذي تمليه المصالح المشتركة. ولذا يجب أن نمد أيدينا إليهم لنقطع الطريق على الأقلية المتطرفة الذين يعدهم حمائم «إسرائيل» خطراً على الصهيونية قبل أن يكونوا خطراً على العرب...!

وتأكيداً للكرم العربي المعهود يجب على منظمة التحرير الفلسطينية، والمجلس الوطني الفلسطيني، أن يغيروا بنود الميثاق الوطني الفلسطيني التي تنكر حق (إسرائيل) في الوجود على الأرض الفلسطينية، أو البنود التي تدعو إلى الكفاح المسلح لانتزاع الحق الفلسطيني.. ونحوها من البنود التاريخية، فقد مضى زمن الفدائيين، وصدئت أسلحتهم، فنحن في عصر سلام الشجعان!

ثالثاً: طمس معالم الصراع العسكري مع «إسرائيل»، والتهوين من شأن الترسانة النووية الهائلة التي يملكها اليهود، والتغاضي عن كافة الأسلحة الجرثومية والكيميائية الفتاكة المحرمة ـ في زعمهم! ـ دولياً؛ والترويج لاستبعاد إمكانية قيام أي حرب قادمة مع «إسرائيل» ما دمنا نتقدم في خطوات جادة نحو السلام المزعوم.

وربما دعا بعض (الأذكياء!) إلى أن الموازنات المالية الهائلة التي تصرف في الاستعداد للحرب يمكن أن تستثمر في التنمية الاجتماعية والحضارية للبلاد العربية، وكأن العائق الوحيد أو الرئيس للتنمية في زعمهم هو الاستعداد للحرب مع «إسرائيل»، هذا إذا سلمنا جدلاً أن هناك استعداداً للحرب أصلاً في ظل الأحزاب العروبية الثورية..!!

رابعاً: الدعوة إلى فتح الأسواق العربية لـ «إسرائيل»، وجعلها شريكاً استراتيجياً لتنمية الاقتصاد في منطقة الشرق الأوسط. وقد رأينا كيف أنَّ بعض المفكرين العرب راح يمجد دعوة (شمعون بيريز) لإقامة سوق شرق أوسطية مشتركة يتبادل فيها العرب و «إسرائيل» المنافع الاقتصادية! ثم رأينا أن ما يسمى بالمقاطعة الاقتصادية لـ «إسرائيل» أو الشركات التي تتعامل مع «إسرائيل» تتهاوى تدريجياً على أعتاب الجامعة العربية فضلاً عن غيرها..!!

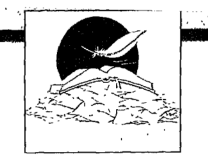
خامساً: الاستجابة للدعوات اليهودية المطالبة بتغيير كل ما يتعلق باليهود من المناهج التعليمية، واستبدالها بنصوص أخرى تدعو إلى إحياء السلام والتعاون. فتاريخ صلاح الدين الأيوبي، ومعركة حطين، والحروب الصليبية، بل حتى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتحدث عن اليهود؛ كل ذلك لا يتلاءم مع روح الانفتاح والوئام، ويجب علينا أن نبادر إلى تغييرها وإزالتها من العقلية العربية، ونحيي ثقافة السلام والتبادل الثقافي والحضاري. وإذا كان لا بد من دراسة التاريخ فليُدرسْ من خلال التاريخ الفرعوني. وحضارات ما قبل الإسلام ـ في نظر هؤلاء ـ هي الأنموذج الأمثل الذي يمكن أن يربى عليها الشعب العربي..!!

وأخيراً: إذا كان لا بد من فرض سياسة التطبيع فلا بد من تقديم القربان الذي يرضي (أبناء العمومة)، وهو كبت كل الأصوات المعارضة، وعلى رأسها (أصوات الأصوليين المتطرفين!)، وإذا استدعى الأمر أيضاً فلا مانع من توقيع اتفاقيات أمنية مع اليهود يفرض بموجبها ـ مثلاً ـ دورٌ رئيسٌ للسلطة الفلسطينية في تكبيل أيدي (أبطال) الحجارة، ووأد الحمية الإسلامية في نفوسهم. ولا مانع من أن تعمل السلطة الفلسطينية (المناضلة!) شرطياً متفانياً يعمل تحت مظلة وزارة الداخلية الإسرائيلية، وترفع عصا البطش والاعتقال وتكميم الأفواه. ومن خرج من المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية بناء على اتفاقات معاهدات السلام، دخل أضعافه في معتقلات أخرى تابعة للسلطة الفلسطينية، ولكنه هذه المرة بمسمى آخر لا نكير فيه أمام العالم المتحضر، ويحقق شتى الطموحات والتطلعات اليهودية..!

ولكن هل سينجح دعاة السلام في ذلك ..؟!

ونقولها بكل ثقة: هيهات .. هيهات.. فما دام الناس يقرؤون آل عمران والأنفال والتوبة، فإن فلسطين ستظل في قلوبهم ـ بإذن الله تعالى ـ، بعزّ عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر وأهله.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].



التشاؤم والطيرة

محمد بن عبد العزيز الخضيري

التعريف: التَطَيُّر في اللغة: التشاؤم، وهو توقع حصول الشر.

وسُمِّيَ التشاؤم تطيراً؛ لأن العرب كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لأمر قصد عش طائر فيهيجه، فإذا طار الطير من جهة اليمين تيمن به ومضى في الأمر، ويسمون هذا الطائر في هذه الحالة: (السانح). أما إذا طار جهة يسار الإنسان تشاءم به، ورجع عما عزم عليه، وكانوا يسمون الطير في هذه الحالة: (البارح).

فجاء الإسلام فأبطل هذا الأمر ونهى عنه، وشدد في النكير على فاعله، ورد الأمور إلى سنن الله الثابتة وإلى قدرته المطلقة.

وضد التطيّر: التفاؤل: وهو التَّيَمُّن بسماع كلمة طيبة، ويشمل كل قول أو فعل يُستَبْشَر به، والفرق بين التطير والتفاؤل أن الفأل يستعمل فيما يُستَحب، والتطير فيما يُكرَه غالباً.

ومثال التفاؤل: أن يسمع عند عزمه على فعل أمر كلمة طيبة أو اسماً حسناً أو يرى شيئاً طيباً.

وقد كان النبي ﷺ: «يتفاءل ولا يتطير»[١].

وكان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته يحب أن يسمع: «يا راشد يا نجيح»[٢].

تاريخ التطيُّر وأمثلته:

كان التطير موجوداً عند العرب على الصفة المذكورة آنفاً وصفات أخرى تقاربها. قال البيهقي: «كان التطير في الجاهلية في العرب إزعاج الطير عند إرادة الخروج للحاجة، وهكذا كانوا يتطيرون بصوت الغراب، وبمرور الظباء، فسموا الكل تطيراً؛ لأن أصله الأول، قال: وكان التشاؤم في العجم إذا رأى الصبي ذاهباً إلى المعلم تشاءم، أو راجعاً تيمن، وكذا إذا رأى الجمل مُوقَراً حِملاً تشاءم، فإن رآه واضعاً حِمْلَهُ تيمن، ونحو ذلك، فجاء الشرع برفع ذلك كله»[٣].

والتطير قديم الوجود في الأمم؛ فقد أخبرنا الله ـ سبحانه ـ أن فرعون وقومه تطيروا بموسى ـ عليه السلام ـ

---

(١) رواه أحمد وصححه احمد شاكر.

(٢) رواه الترمذي وصححه (١٦١٦).

(٣) فتح الباري، ١٠/٢١٣.



ومن معه : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف : ١٣١]. وقبل ذلك تشاءم قوم صالح بصالح - عليه السلام - ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل : ٤٧]. وكذلك أصحاب القرية تطيروا برسل الله إليهم فـ ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس : ١٨].

وكان الرد عليهم جميعاً : أن ما حل بهم من شر أو نقص في نفس أو مال، أو ما نزل بهم من عقوبة ما هو إلا من قِبَل أنفسهم بسبب كفرهم وعنادهم واستكبارهم، ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف : ١٣١] وقال الرسل الثلاثة لأهل القرية : ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس : ١٩].

وما زال الناس وإلى يومنا هذا يتطيرون، وتطيُّرهم دليل ضعف توكُّلهم على ربهم، ونقص عقولهم وإلا؛ فأي شأن للطير أو غيره بمستقبل الإنسان وقدره؟!

وللناس في التشاؤم أيام معينة أو ساعات محددة أو أعداد معينة مما لا ينقضي منه العجب.

فالرافضة «يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة حتى البناء لا يبنون على عشرة أعمدة، ولا بعشرة جذوع ونحو ذلك؛ لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة»(١).

وكثير من الناس في الغرب يتشاءمون بالرقم ١٣، ولذا حذفته بعض شركات الطيران من ترقيم المقاعد كما حذفوه في ترقيم المصاعد والأدوار في العمائر الكبار. وآخرون يتشاءمون بنعيق البوم والغراب، ورؤية الأعور والأعرج والعليل والمعتوه.

قال الشيخ ابن عثيمين(٢) : «والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم فإنها تضيق عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال : اليوم يوم سوء وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشترِ - والعياذ بالله - وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول : إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكاح، وقد نقضت عائشة - رضي الله عنها - هذا التشاؤم بأنه ﷺ عقد عليها في شوال؛ وبنى بها في شوال فكانت تقول : أيُّكن كانت أحظى عنده مني؟»(٣).

حكم التطير:

التطير محرم مخل بالتوحيد قد نفى النبي ﷺ تأثيره، وجعله شركاً، وأخبر أنه لا يرد المسلم، وأنها من الجبت. أما نفي تأثيره ففي قوله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»(٤) حيث نفى تأثير الطيرة. وأما جعله - عليه الصلاة والسلام - الطيرة شركاً ففي قوله : «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك»(٥). وقوله في حديث عبد الله بن عمرو : «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»(٦) وإنما جعل التطير شركاً لاعتقادهم

(١) منهاج السنة لابن تيمية، ١/١٠.
(٢) المجموع المفيد، ٢/٣٢.
(٣) رواه مسلم، ٢/١٠٣٩.
(٤) رواه البخاري، ح/ ٥٢٧٨.
(٥) رواه أبو داود، ح/ ٣٤١١.
(٦) رواه أحمد، ح/ ٦٧٤٨.

أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً؛ فكأنهم أشركوه مع الله ـ تعالى ـ وهذا الاعتقاد منافٍ لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٧] فالله هو النافع الضار، وهذه الطيور لا تعلم الغيب، ولا تدل على المخبّأ من الأمور بوجه.

قال ابن القيم: «التطير: هو التشاؤم بمرئيٍ أو مسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفر وامتنع بها عما عزم عليه فقد قرع باب الشرك، بل ولجه، وبرئ من التوكل على الله ـ سبحانه ـ وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع على مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، قوله ـ تعالى ـ : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠] فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً، فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة، ويساق إليه من كل أرب، ويقيض له الشيطان من يفسد عليه دينه ودنياه، وكم هلك بسبب ذلك وخسر الدنيا والآخرة!

قال الشيخ ابن عثيمين: «فإذا تطير الإنسان بشيء رآه أو سمعه، فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرجه من الملة؛ لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سبباً، وهذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر شركاً من هذه الناحية والقاعدة: «أن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً فإنه مشرك» وهذا نوع من الإشراك مع الله: إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعياً، وإما في التقدير إن كان السبب كونياً. لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعلٌ بنفسه دون الله فهو مشرك شركاً أكبر؛ لأنه جعل لله شريكاً في الخلق والإيجاد»[1].

٤ ـ وأما إخباره بأن الطيرة تنافي حقيقة الإسلام ويخشى على صاحبها فقد قال النبي ﷺ: «ليس منا من تطير أو تُطُيِّرَ له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[2].

وروى أبو داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذُكِرَتِ الطيرةُ عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً»[3].

٥ ـ وأما إخباره أنها من الجبت ففي قوله ﷺ: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت»[4]. والجبت: السحر كما فسره به عمر بن الخطاب.

وذلك أن المتطير يعتمد في معرفة المغيبات على أمر خفي كالساحر الذي يعتمد في قلب حقائق الأشياء على أمر خفي.

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ٢/ ٩٢.

(٢) رواه البزار. قال المنذري: إسناده جيد (الترغيب ٤/٣٣).

(٣) رواه أبو داود، ح/ ٣٤١٨.

(٤) رواه أحمد، ٣/٤٧٧، وأبو داود، ٤/٢٢٨.

أقسام الناس في الطيرة:

ينقسم الناس تجاه الطيرة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يتطير، ويستجيب لداعي التطير فيحجم عن أمر أو يقدم عليه بدافع من طيرته؛ فهذا قد واقع المحرم وولج باب الشرك على التفصيل المذكور سابقاً.

القسم الثاني: من إذا وقع له ما يدعو إلى الطيرة عند الناس لم يترك ما بدا له فعله لكنه يمضي في قلق واضطراب وغم، يخشى من تأثير الطيرة فهذا أهون من الأول؛ حيث لم يُجِبْ داعي الطيرة، لكن بقي فيه شيء من أثرها، وعليه أن يمضي متوكلاً على الله ـ سبحانه ـ مفوضاً أموره إليه.

القسم الثالث: وهم أعلى الأقسام وهم من لا يتطيرون، ولا يستجيبون لداعي الطيرة، ولا يعني ذلك أنه لا يخطر في قلوبهم شيء أصلاً، ولكن متى عرض لقلوبهم شيء ردوه بالتوكل على الله وتفويض الأمور إليه، قال معاوية بن الحكم: قلت يا رسول الله! منا رجال يتطيرون! قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم»[1].

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلاَّ، ولكن الله يُذْهِبُه بالتوكل»[2]. فقوله: «وما منا إلا» أي ما منا إنسان يسلم من التطير لكن الله يذهبه بالتوكل، وهذه الجملة في الحديث مُدْرَجة من كلام ابن مسعود كما ذكر العلماء.

علاج الطيرة وكفارتها:

بيَّن النبي ﷺ أنه لا يجوز أن يلتفت المسلم إلى الطيرة فترده عن حاجته وعليه أن يمضي متوكلاً على الله مردداً الذكر الوارد في ذلك؛ فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك. قالوا فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[3].

وفي حديث عقبة السابق قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[4].

الشؤم في ثلاثة:

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: لا عدوى ولا طيرة، وإنما الشؤم في ثلاث: في الفرس، والمرأة، والدار»، وفي رواية: «إن كان الشؤم ففي الدار، والمرأة، والفرس»[5].

---

(١) رواه مسلم، ٤/١٧٤٨. (٢) رواه الترمذي، ح/ ١٥٣٩.

(٣) رواه أحمد، ٢/٢٢٠، وابن السني (٢٩٣)، والطبراني كما في المجمع، ٥/١٠٥.

(٤) رواه أبو داود، ٤/٢٣٥، وسكت عنه، وصححه النووي والشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد.

(٥) رواه البخاري، ومسلم، قاله النووي، (شرح مسلم، ١٤/٢٢١).

وقد اختلف العلماء في هذا الحديث، فقال مالك وطائفة: هو على ظاهره، وأن الدار قد يجعل الله سكناها سبباً للضـــرر والهلاك، وكـذا اتخــاذ المـرأة المعينة أو الفـرس أو الخادم قـد يحصـل الهلاك عنده بقضاء الله ـ تعالى ـ، ومعناه: قد يحصل الشؤم في هذه الثلاثة. وقال الخطابي وكثيرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة؛ أي: الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يسكنها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس، أو خادم؛ فليفارق الجميع».

وقال ابن القيم: «إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة، وإنما غايته أن الله ـ سبحانه ـ قد يخلق أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم وشر؛ وهذا كما يعطي الله الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما حصله العبد من ولاية وغيرها؛ فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله ـ سبحانه ـ خلق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها، وحصول اليُمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً بها من قاربها؛ وكل ذلك بقضاء الله وقدره؛ كما خلق الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، والفرق بين هذين النوعين مدرَك بالحس؛ فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون والطيرة لون»(١).

وقد أرشد النبي ﷺ إلى دعاء ينتفع به المسلم في دفع الضر عند الزواج بالمرأة أو شراء الخادم والدابة؛ فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه. وإذا اشترى بعيراً فليأخذ بذروة سنامه، وليقل مثل ذلك»(٢).

الفأل:

بيَّنَّا معنى الفأل والفرق بينه وبين الطيرة، وأن النبي ﷺ كان يتفاءَل ولا يتطير. روى أنس أن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: كلمة طيبة»(٣)، وفي رواية لمسلم: «الكلمة الحسنة الكلمة الطيبة»(٤)، قال الشيخ ابن عثيمين: «فالكلمة الطيبة تعجبه ﷺ لِمَا فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قُدُماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة بل هذا مما يشجع الإنسان؛ لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً»(٥).

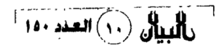
قال ابن الأثير: «الفأل فيما يرجى وقوعه من الخير ويحسن ظاهره ويسر، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وإنما أحب النبي ﷺ الفأل؛ لأن الناس إذا أملوا فائدة من الله، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم، ص ٢٥٧، بتصرف.

(٢) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة وابن ماجة، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه النووي في الأذكار.

(٣) رواه البخاري، ح/ ٥٣٣١. (٤) رواه مسلم، ح/ ٤١٢٢.

(٥) القول المفيد، لابن عثيمين، ٢/٨٨.



فهم على خير، وإن لم يدركوا ما أملوا فقد أصابوا في الرجاء من الله وطلب ما عنده، وفي الرجاء لهم خير معجل، ألا ترى أنهم إذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر، فأما الطيرة فإن فيها سوء ظن وقطع الرجاء وتوقع البلاء وقنوط النفس من الخير، وذلك مذموم بين العقلاء منهي عنه من جهة الشرع»(1)، وفي قول النبي ﷺ لما ذُكِرَتْ عنده الطيرة قال: أحسنها الفأل. قال الشيخ ابن عثيمين: «الفأل ليس من الطيرة، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام، فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما يوجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا فبينهما فرق؛ لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطيَّر به وضعف توكله على الله ورجوعه عما همَّ به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً، فالشبه بينهما هو التأثير في كل منهما»(2).

تنبيهات:

١ - «بعض الناس إذا انتهى من شيء في شهر صفر أرّخ ذلك وقال: انتهى في صفر الخير، فهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل فهو ليس شهر خير ولا شهر شر، أما شهر رمضان وقولنا إنه شهر خير فالمراد بالخير العبادة، وقولهم: رجب المعظم؛ بناءاً على أنه من الأشهر الحرم؛ ولهذا أنكر السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خيراً - إن شاء الله -، فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور»(3).

٢ - بعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب؛ فهذا مثل عمل أهل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام ولم ينقل عن السلف فيه شيء»(4).

٣ - بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه وتركه، وهذا خطأ، فكل شيء ترى فيه المصلحة فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك»(5).

٤ - ذهب بعض العلماء إلى كراهة تسمية المولود بما يتطير بنفيه أو إثباته لحديث سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تُسَمِّ غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجيحاً ولا أفلح؛ فإنك تقول: أَثَمَّ هو؟ فلا يكون فتقول: لا»(6)، إلا أنه ليس بمحرم لحديث عمر: إن الآذن على مشربة رسول الله ﷺ عبد يقال له: «رباح»(7).

ينظر في موضوع الطيرة:

١ - كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وشروحه.

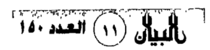
٢ - القول المفيد، للشيخ ابن عثيمين.

٣ - الموسوعة الفقهية الكويتية، ٥/٣٢٨، وما بعدها، و١٢/١٨٢ وما بعدها.

٤ - عالم السحر والشعوذة، للأشقر.

---

(1) ابن الأثير، جامع الأصول، ٧/٦٣١.
(2) ابن عثيمين، ٢/٨٩.
(3) القول المفيد، ٢/٨٥.
(4) مختصر الفتاوى المصرية، ص ٢٦٦، والقول المفيد، ٢/٨٦.
(5) القول المفيد، ٢/٣٢.
(6) رواه مسلم، ح/ ٣٩٨٥.
(7) رواه البخاري، ٩/٢٧٨، ومسلم، ٢/١١٠٥.





أحاديث الدجال

مسائل وفوائد

محمد بن عدنان السمّان

ظهور الدجال أحد أشراط الساعة الكبرى، وأعظم الفتن منذ خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ إلى قيام الساعة.

وقد حذر النبي ﷺ منه في أكثر من ثلاثين موضعاً؛ مبيناً خطره تارة، ومحذراً منه حيناً، وذاكراً طرق السلامة منه تارة أخرى. ولما تعددت وتنوعت الأساليب في مواجهة هذه الفتنة العظيمة وصلنا إلى مسائل وفوائد مستفادة من فعل وقول الهادي البشير ﷺ.

وقبل الشروع في ذكرها لعلنا نقدم بما يلي:

الحكمة في عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن الكريم:

ولعل أحسن ما قيل في ذلك ما ساقه الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ في فتح الباري[1] حيث قال: «وأجيب بأجوبة:

أحدها: أنه ذُكر في قوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ رفعه ـ: «ثلاثة إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها».

الثاني: قد وقعت الإشارة في القرآن إلى نزول عيسى عليه السلام في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩]، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف: ٦١]، وصح عنه أنه الذي يقتل الدجال، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، ولكونه يلقب: (المسيح) كعيسى عليه السلام؛ لكن الدجال مسيح الضلالة، وعيسى عليه السلام مسيح الهدى.

الثالث: أنه ترك ذكره احتقاراً، وتُعُقِّب بذكر يأجوج ومأجوج وليست الفتنة بهم بدون الفتنة بالدجال والذي قبله، وتعقب بأن السؤال باق وهو: ما الحكمة في ترك النص عليه؟

وأجابنا الإمام البلقيني بأنه نظر في كل مَنْ ذُكِرَ في القرآن من المفسدين فوجدهم ممن مضى وانقضى

---

(١) فتح الباري، (١٣/٩٨).



أمره، وأما من لم يجئ بعدُ فلم يذكر منهم أحد. انتهى. وهذا ينتقض بيأجوج ومأجوج. ووقع في تفسير البغوي أن الدجال مذكور في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وأن المراد بالناس هنا الدجال من باب إطلاق الكل على البعض وهذا ـ إن ثبت ـ أحسن الأجوبة؛ فيكون من جملة ما تكفل النبي ﷺ ببيانه. والعلم عند الله».

فوائد في التعامل مع الفتن:

١ ـ التزود بالطاعات والإكثار من الأعمال الصالحة حصن حصين من الفتن وزاد قوي في التصدي لها عند حلولها.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً[(١)]: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم[(٢)]، أو أمر العامة[(٣)]»[(٤)].

فأوصى ﷺ بالاجتهاد في الأعمال الصالحة؛ بل والمسابقة إليها قبل حلول وقت الفتن.

وذكر ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح[(٥)] ما أخرجه الحاكم من طريق قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد رفعه أنه «يخرج ـ يعني الدجال ـ في نقص من الدنيا وخفة من الدين وسوء ذات البين فيرد كل منهل، وتطوى له الأرض».

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى ضعف الدين وقلته في وقت خروجه.

٢ ـ الحث على الائتلاف بين المسلمين وترك الخلاف والنزاع والفرقة، وأن الفتنة أعظم في وقت الخلاف منها في وقت الائتلاف:

ويشهد لهذه الفائدة الحديث السابق الذي رواه الحاكم، وحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ الصادق المصدوق: «إن الأعور الدجال مسيح الضلالة يخرج من قِبَلِ المشرق في زمان اختلاف من الناس وفرقة، فيبلغ ما شاء الله أن يبلغ من الأرض أربعين يوماً..»[(٦)].

٣ ـ الحذر والتحذير من الفتن قبل وقوعها:

وهذا ظاهر في كل الأحاديث التي تحدثت عن الدجال، بل إن الأنبياء كل الأنبياء حذروا أممهم منه كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ؛ حيث قال: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب...»[(٧)] [(٨)].

٤ ـ عدم الانخداع بالمظاهر خصوصاً وقت الفتن، بل وتحذير الناس من ذلك:

ونلحظ ذلك في المظاهر الخادعة التي تصاحب الدجال، ومن ذلك: أن معه جنة وناراً، وأنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت[(٩)]، ـ لكن كل هذا ـ بإذن الله تعالى ـ، ولو تمعن المتمعن لما انخدع. قال

---

(١) اجتهدوا في الأعمال وسابقوا إليها.
(٢) الموت كما في شرح مسلم للنووي.
(٣) القيامة كما في شرح مسلم للنووي.
(٤) رواه مسلم، ح (٢٩٤٧).
(٥) فتح الباري، (١٣/٩٨).
(٦) رواه ابن حبان بإسناد صحيح، ح (موارد الظمآن ١٩٠٤).
(٧) رواه البخاري، ح (٣١/٧).
(٨) رواه مسلم، ح (٢٩٣٣).
(٩) وستأتي أحاديث تدل على شيء من مظاهره الخادعة للعيان.

ابن العربي[1] ـ رحمه الله ـ : «في اختلاف صفات الدجال بما ذكر من النقص بيان أنه لا يدفع النقص عن نفسه كيف كان، وأنه محكوم عليه في نفسه»، إذن لا يستطيع أن يدفع الضرر عن نفسه، فكيف يدفعه عن غيره؟!

٥ ـ **ضرورة الابتعاد عن مواضع الشبهات والفتن**، وألا يعتقد المرء أنه على قدرة في مواجهة الشبهات والفتن، وخصوصاً مع قلة العلم والدين.

عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بالدجال فَلْينأ عنه؛ فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»[2] [3].

٦ ـ لا يكفي تحذير الناس من الفتن؛ بل الواجب توضيح السبل للخلاص منها:

وقد وضح النبي ﷺ مجموعة من السبل للخلاص من الدجال؛ ومنها:

أ ـ قراءة فواتح سورة الكهف: قال ﷺ: « ... فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»[4].

ب ـ قال ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان: أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فإما أدركن أحد فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض، ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه؛ فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوح العين عليه ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه: (كافر) يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»[5].

ج ـ التعوذ منه: ثبت أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: «وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»[6].

٧ ـ الفتنة ليست شراً محضاً:

نقل الإمام النووي ـ رحمه الله ـ عن العلماء أنهم قالوا: «هذا من جملة فتنته التي امتحن الله ـ تعالى ـ به عباده ليحق الحق ويبطل الباطل، ثم يفضحه ويظهر للناس عجزه»[7].

٨ ـ الحق لا بد أن ينتصر وتُنهى الفتن ويظهر الحق:

وهذه أعظم فتنة تمر على البشرية ثم تنتهي، وينزل عيسى عليه السلام ليهلك الدجال، كما ثبت في صحيح مسلم: « ... يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ... فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه..»[8].

٩ ـ أهمية العلم الشرعي في مواجهة الفتن:

فالمؤمن الذي يكشف زيف الدجال وكذبه مسلم متمسك بالعلم الشرعي المبني على الدليل الشرعي؛ لذا تجده يخاطب الدجال بلهجة الواثق كما في صحيح البخاري: « ... فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه...»[9].

---

(١) فتح الباري، (١٣/١٠٤).
(٢) رواه أحمد، (٤/٤٣١).
(٣) أبو داود، ح (٤٣١٩).
(٤) رواه مسلم، ح (٨٣٢).
(٥) رواه مسلم، ح (٢٩٣٤).
(٦) صحيح البخاري، ح (٨٣٢).
(٧) شرح مسلم، ص ٧١٨٨.
(٨) صحيح مسلم، ح (٢٩٤٠).
(٩) صحيح البخاري، ح (٧١٣٢).

فهو نَسَبَ عِلْمَهُ بالدجال لعلمه بحديث الرسول ﷺ، وهذا من أعظم العلم الشرعي.

١٠ ـ ويتبع القاعدة الماضية سؤال أهل العلم عما أشكل وخصوصاً وقت الفتن:

ومن ذلك ما تكرر من أسئلة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عن هذه الفتنة.

فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم(١): «... قلنا: يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال «لا. اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله! وما إسراعه في الأرض...» الحديث.

ومن هذا الحديث أيضاً نرى حرص الصحابة على الصلاة وإقامتها في وقتها.

١١ ـ الكثرة ليست دائماً دليلاً على الحق، والدجال باعتباره فتنةً عظيمة سيتبعه أناس كثيرون؛ فهل نقول إنه على الحق؟

لا، بالطبع؛ فعلى المسلم أن يلزم الحق ولو كان وحده وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة»(٢).

قال ابن حجر في الفتح: وأخرج أبو نعيم في ترجمة حسان بن عطية أحد ثقات التابعين في الحلية بسند حسن صحيح إليه قال: «لا ينجو من فتنة الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة».(٣) وهذا لا يقال من قِبَلِ الرأي؛ فيحتمل أن يكون مرفوعاً أرسله، ويحتمل أن يكون من بعض أهل الكتاب.

فوائد وقواعد في الدعوة:

١ ـ التأكيد على أمور العقيدة من أهم المهمات:

وهذا يتضح من أحاديث الدجال في التركيز على عدة مهمات عقدية منها:

أ ـ غرس توحيد الأسماء والصفات.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»(٤) (٥).

٢ ـ إثبات رؤية الله ـ تعالى ـ في الآخرة وعدم رؤيته في الدنيا.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال للناس وهو يحذرهم فتنة الدجال: «تعلمون أنه لن يرى أحد منكم ربه ـ عز وجل ـ حتى يموت»(٦).

ج ـ حسن الظن بالله ـ جل جلاله ـ.

روى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة أنه قال: ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته وإنه قال لي: «ما يضرك منه؟» قلت: لأنهم يقولون: إن معه جبلَ خبزٍ ونهر ماء. قال: «بل هو أهون على الله من ذلك»(٧) (٨).

---

(١) رواه مسلم، ح (٢١٣٧).
(٢) صحيح مسلم، ح (٢٩٤٤).
(٣) فتح الباري، (١٣/٩٨).
(٤) رواه البخاري، ح (٧١٣١).
(٥) مسلم، ح (٢٩٣٣).
(٦) المسند (٥/٤٣٣).
(٧) البخاري، ح (٧١٢٢).
(٨) مسلم، ح (٢٩٣٩).

قال النووي ـ رحمه الله ـ : قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ : المعنى : وهو أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله ـ تعالى ـ على يده مضلاً للمؤمنين ومشككاً لقلوبهم؛ بل إنه جعله له ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ويثبت الحجة على الكافرين والمنافقين ونحوهم، وليس معناه أنه ليس معه شيء من ذلك[1].

د ـ عظم التوكل على الله والالتجاء إليه.

قال ﷺ : «إن من بعدكم الكذاب المضل، وإن رأسه من بعده حُبُكٌ حُبُكٌ حُبُكٌ[2] ثلاث مرات، وإنه سيقول: أنا ربكم، فمن قال : لستَ ربنا؛ لكن ربنا الله عليه توكلنا وإليه أنبنا نعوذ بالله من شرك لم يكن له عليه سلطان»[3].

٢ ـ أن يعطي كل أمر حقه من العناية:

فينبغي أن يُحذَّر من الأمر الخطير بطريقة تختلف عن الأمر الأخف خطورة، وينبغي الأمر بالواجبات والفرائض بطريقة تختلف عن الحث على المسنونات والمستحبات، وللأسف فإن بعض الناس ـ هداهم الله ـ يجعل المكروه محرماً أثناء النهي، أو يجعل الصغيرة كبيرة، بل يتعدى بعضهم ذلك وذاك إلى أن يجعل أحد خوارم المروءة من المحرمات. وانظر إلى النبي ﷺ كيف يحذر من الدجال بطرق وأساليب مختلفة متنوعة، ولماذا؟ لأن الدجال فتنة عظيمة؛ أي عظيمة! فهو يدَّعِي الربوبية، بل يظهر له من الفتن الشيء العظيم، ومن ذلك ما أخرجه ابن ماجه عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم! فيمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه يقولان له: يا بني اتبعه؛ فإنه ربك. وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه، فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت، ويمر بالحي فيصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر والأرض أن تنبت، فتمطر حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظم، وأمده خواصر، وأدره ضروعاً»[4].

٣ ـ لا بد من التوضيح والبيان وقت الحاجة:

لذا وصف النبي ﷺ الدجال وصفاً دقيقاً في أكثر من حديث بينت صفته وأفعاله وكذبه، وما يحتاجه المسلم لمواجهته، ومن أشملها ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: «أنذرتكم فتنة الدجال؛ فليس نبي إلا أنذر قومه أو أمته، وإنه آدَمُ، جعدٌ، أعور عينه اليسرى، وإنه يمطر ولا ينبت الشجرة، وإنه يسلط على نفس فيقتلها ثم يحييها ولا يُسلط على غيرها وإنه معه جنة ونار ونهر وماء وجبل خبز، وإن جنته نار وناره جنة، وإنه يلبث فيكم أربعين صباحاً يرد فيها كل منهل إلا أربعة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد المدينة، والطور، ومسجد الأقصى، وإن شكل عليكم أو شُبِّه، فإن الله ـ عز وجل ـ ليس بأعور»[5].

---

(١) شرح مسلم، (٥/٧٩٥).

(٢) متكسر من الجعودة.

(٣) رواه أحمد ، (٢٢٦٤٨).

(٤) رواه ابن ماجه، ح (٤٠٧٥).

(٥) مسند الإمام أحمد، ٥/٤٣٤.

٤ ـ الصبر والثبات على الحق؛ لا سيما مع ظهور الفتنة:

وانظر إلى ذاك الرجل المؤمن الثابت الذي ما زاده فرقُه له فرقتين إلا بصيرة به وتكذيباً.

ففي صحيح مسلم: «فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤمر به فيؤشر بالمئشار[1] من مفرقه حتى يفرق بين رجليه قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم فيستوي قائماً. قال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة»[2].

قال النووي ـ رحمه الله ـ نقلاً عن القاضي عياض: «فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره»[3].

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٥ ـ الاهتمام بالنساء في الدعوة، والتأكيد على تعليمهن العلم الشرعي:

والمرأة إذا لم تُرشد للخير فقد تنساق مع الشر، ومع قلة الدين في زمن ظهور الدجال تجد أن أكثر أتباعه النساء اللاتي يغترن بالمظاهر والفتن والشبهات.

أخرج الإمام أحمد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فيكون أكثر من يخرج إليه النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه»[4].

٦ ـ الارتباط بالقرآن الكريم قراءة وحفظاً وحث الناس على ذلك:

عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال»، وفي رواية: «من قرأ» الحديث[5].

---

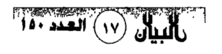
(١) المنشار.

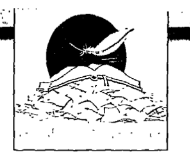
(٢) صحيح مسلم، ح (٧٢٤٣).

(٣) شرح مسلم، ص ٧١٨٧.

(٤) مسند الإمام أحمد، (٢/٦٧).

(٥) رواه مسلم، ح (٨٠٩).





علم الجرح والتعديل وعلاقته بالرواية

عبد اللطيف منديل

لما كان الحديث النبوي الشريف المورد الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن، والمنهل البياني له في تفصيل الأحكام المجملة التي وردت فيه، وتقييد المطلق وتخصيص العام، وتأسيس الأحكام التي لم ينص عليها الكتاب، عُني المسلمون بحفظه وفهمه في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، واستمر هذا الاهتمام عبر الأجيال المتتالية.

نشأة علم الجرح والتعديل:

كثيراً ما تتسرب بعض العلوم من أمة كان لها قصب السبق في الوجود إلى أمة أخرى تبعت أثرها على هذه الأرض. لكن الوضع يختلف بالنسبة لعلم الجرح والتعديل؛ فهو علم نشأ في ظل الإسلام، وتفردت به أمة محمد ﷺ، فلا أثر له في أي أمة من الأمم السالفة؛ لأن هذه الأمة سهرت على حفظ ما جاء به نبيها ﷺ، فتعلم فيه جيلٌ من الصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم. إلا أن إعطاء الصدارة لأبي بكر من الجيل الأول في البحث عن الرجال في قصة ميراث الجدة ـ كما سطر في كتب الجرح والتعديل ـ فيه تأمل[1]. نعم قد يصح في غير هذه القصة؛ فقد ذكر الحاكم أن أبا بكر وعمر وعلياً وزيد بن ثابت، جرّحوا وعدّلوا وبحثوا عن صحة الروايات وسقيمها[2]؛ فقد طلب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من أبي موسى الأشعري أن يأتيه بشاهد عندما حدثه بحديث عن رسول الله ﷺ: «إذا استأذن

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي برقم ٢١٠١، وأبو داود برقم ٢٨٩٤، وابن ماجه، برقم ٢٧٢٤، وغيرهم من طرق تدور على قبيصة بن ذؤيب عن أبي بكر. وقبيصة لا يصح سماعه من أبي بكر كما في «جامع التحصيل في أحكام المراسيل» لأبي سعيد العلائي عند ترجمته لقبيصة.

(٢) معرفة علوم الحديث، للحاكم، ص ٥٢.

أحدكم ثلاث مرات فلم يؤذن له فليرجع» فانطلق أبو موسى - رضي الله عنه - إلى مجلس فيه الأنصار فذكر ذلك لهم، فقال: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال: إذا استأذن أحدكم ثلاث مرات...؟ قالوا: بلى. لا يقوم معك إلا أصغرنا، فقام أبو سعيد الخدري إلى عمر. فقال: هذا أبو سعيد. فخلى عنه[1]. وكذلك كان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يستحلف من حدثه بحديث عن النبي ﷺ وإن كان ثقة مأموماً[2]. ولم يكن الجيل الأول يتهمون بعضهم، ولكن كانوا يخشون جرأة الناس على الحديث عن النبي ﷺ دون تثبت وتدقيق، فشددوا في قبولهم الروايات.

ثم اقتفى أثرهم واهتدى بهديهم في هذا جماعة من الجيل الثاني كالحسن البصري، وسعيد بن جبير، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين، وغيرهم. لكن رغم هذا لم تَنْمُ مادة واسعة في علم الرجال يتداولها العلماء والنقاد حتى منتصف القرن الثاني الهجري؛ حيث شاع الوضع في الحديث، وكثر الضعفاء، فانبرى لهم عدد من الأئمة النقاد والمحدثين الكبار مثل شعبة بن الحجاج، ومعمر بن راشد، وهشام الدستوائي، وسفيان الثوري، وغيرهم كثير من أصحاب منتصف القرن الثاني إلى أصحاب القرن الثالث؛ حيث بدأ نوع من التخصص في علم الرجال يبرز بصورة خاصة عند يحيى بن معين، وعلي بن المديني؛ فنما التصنيف في علم الجرح والتعديل خلال القرن الثالث والرابع. إلا أن الجرح في عصر التابعين لا يكاد يتجاوز سوء الحفظ[3]، وإنما ظهر الجرح والتعديل من حيث إنه علم قائم بذاته له أهله ورجاله وقواعده بعد عصر التابعين. ولعل أول من كتب في قواعد هذا العلم أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار المتوفى ٢٩٢ هـ في جزء له في معرفة من يُترَك حديثه أو يُقبَل. وهكذا نشأ هذا العلم، وهو أحد فروع علم الحديث[4].

حكم هذا العلم في الشريعة الإسلامية:

لقد جاءت عبارة ابن دقيق العيد ملجمة لأفواه المحدثين والنقاد: «أعراض المسلمين حفرة من حفر النار وقف على شفيرها طائفتان من الناس: المحدثون، والحكام»[5]. لكن رغم هذا لم تمنعهم من الوقوف في وجوه الكذابين والوضَّاعين ذباً منهم عن سنة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - وقيل ليحيى بن سعيد القطان: «أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركتَ حديثهم خصماءك عند الله

---

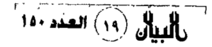
(١) البخاري برقم ٦٢٤٥، ٢٠٦٢، الفتح، ومسلم برقم ٢١٥٣.

(٢) أبو داود برقم ١٥٢١، والترمذي برقم ٤٠٦، ٣٠٠٦، وأحمد برقم ٢، وصحح إسناده أحمد محمد شاكر.

(٣) بحوث في تاريخ السنة، ص ٨١ بتصرف.

(٤) المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، ص ٣٦ بتصرف.

(٥) ضوابط الرواية عند المحدثين. للصديق بشير نصر، ص ٢٣٥.



ـ تعالى ـ؟ قال: لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إلَيَّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول: لِمَ حدثتَ عني حديثاً ترى أنه كذب؟!»(١).

وقد أجمع العلماء على أن الجرح والتعديل جائزان في الشريعة الإسلامية، بل هما واجبان صوناً للشريعة الإسلامية من الكذب. وقد أكد هذا الإجماع الإمام النووي في كتابه: (رياض الصالحين) عند إخراجه هذا العلم من دائرة الغيبة قال: «اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها. وهو ستة أسباب... فذكر منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة»(٢). والحاجة هنا لا تخفى على من له غيرة على السنة المطهرة، وإجماع العلماء هنا يرتكن إلى دلائل من الكتاب والسنة:

فمن الكتاب قوله ـ تعالى ـ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾** [**الحجرات**: ٦]. وقوله ـ تعالى ـ: **﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾** [**الطلاق**: ٢].

ومن السنة قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ائذنوا له. بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة»(٣).

وقوله: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٤).

هل يقبل الجرح والتعديل مجملين من غير بيان أسبابهما؟

تباينت آراء العلماء في الجرح والتعديل: هل يقبلان مبهمين من غير بيان أسبابهما، أم لا بد من ذكر سبب كل واحد منهما، أم ذكر التعديل دون الجرح أو العكس؟ لكن الذي درج عليه جمهور العلماء ونقاد الحديث وحكاه ابن الصلاح في كتابه: «مقدمة في علوم الحديث» عن الخطيب البغدادي أنه يقبل التعديل من غير ذكر أسبابه؛ لأن أسبابه كثيرة يصعب ذكرها. وأما الجرح فلا يقبل إلا مفسراً مبين السبب؛ لأنه قد يجرح أحدهم بما لا يعتبر جرحاً، ولذلك احتج البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم من الأئمة بأناس جُرِّحوا بدون بيان السبب؛ فقد احتج البخاري بحديث عكرمة مولى ابن عباس، وعاصم بن علي وغيرهما، واحتج مسلم بسويد بن سعيد وجماعة اشتهر الطعن فيهم، وهكذا فعل داود السجستاني، وذلك دال على أنهم ذهبوا إلى أن الجرح لا يثبت إلا إذا فُسِّرَ سببه(٥).

---

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، ص ١٤٤.

(٢) رياض الصالحين، ص ٢٧٩ باب ما يباح من الغيبة.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، وابن حبان في المجروحين من المحدثين، ج ١، ص ١٢.

(٤) أخرجه البخاري، ح/ ٢٤٥٧، ومسلم، ح/ ٤٥٩٩.

(٥) مقدمة ابن الصلاح، ص ٨٦، بتصرف.

ما العمل عند تعارض الجرح والتعديل؟

إذا توجه إلى فرد واحد جرح وتعديل، فالجرح مقدَّم على التعديل؛ لأن المعدِّل يخبر عما انكشف من حال الراوي، والجارح يخبر عن باطن خَفِيَ عن المعدِّل، فكان المخبر عن شيء خفي معه زيادة علم يجب الأخذ بها، وهذا بعد بيان سبب الجرح وإن كثر المعدلون. وهو مذهب جمهور العلماء وبه العمل عندهم [1].

وختاماً: أقول: إن هذا العلم - علم الجرح والتعديل - لا تزال الأمة الإسلامية في أمسِّ الحاجة إليه، لا سيما في عصرنا هذا؛ حيث اتجه المستشرقون ومن لفّ لفهم وشرب من منهلهم من بني جلدتنا إلى شن الغارة على السنة النبوية ورواتها، وإثارة الشكوك حولها بأسلوب ناعم مسموم يتظاهر رواده بالتجرد والبحث العلمي الموضوعي. ولهذا صار محتّماً على كل مسلم يعثر على خبايا هؤلاء الضفادع وأتباعهم في السنة النبوية ورواتها أن يرجع إلى كتب علماء الجرح والتعديل ليقف على حقيقة رواة السنة الموثقين والمجروحين؛ لأن هذه الماهية أو الحقيقة - حقيقة رواة السنة - يستحيل أن نجدها عند المستشرقين المكذبين لرسالة محمد ﷺ، وإنما نجدها عند أتباعه وخدّام سنته، عند علماء الحديث. ولقد أحسن القائل إذ قال:

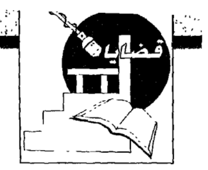
أهل الحديث هـم أهــل النبـــي وإن لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبـــوا [2]

وتخلي المسلمين عن هذا المنهج الحديثي النقدي سبب مباشر يقف إلى جانب كيد المستشرقين في ازدياد هوة هذا الانحراف الذي تغلغل فيه المسلمون في هذا الوقت.

---

(١) الكفاية في علم الرواية، ص ١٠٦ بتصرف.

(٢) صفة صلاة النبي ﷺ، للشيخ الألباني، ص ٤٤، وهو من إسناد الحسن بن محمد النسوي كما رواه الحافظ ضياء الدين المقدسي في جزء له في «فضل الحديث وأهله» كذا قال الشيخ الألباني - رحمه الله -.



ركائز الدعوة إلى البذل والتضحية

عبد الحكيم بن محمد بلال

لا تُنال المعالي بالأماني، ولا تقوم الدعوات إلا على ألوان البذل والتضحية بشتى صنوفها. وإذا عُرف أن ابتلاء الدعاة سنة ماضية تبين أن الدعوة الحقة لا تقوم بلا تضحية.

والمراد بالتضحية: التبرع بالشيء دون مقابل[1]، كالتضحية بالنفس أو المال أو العمل أو الوقت أو الجاه أو العلم أو المنصب... أو غير ذلك، حتى يظن الإنسان أن لا حق له فيما زاد على حاجته الضرورية، فيبذل جهده في تقويم ذلك دون مقابل مادي يناله مكافأة على تبرعه، وإنما يرجو بذلك كله وجه الله ـ تعالى ـ، ونصرة دينه[2].

وهذا المعنى نفسه هو المقصود من الجود والبذل، وإن كان غلب إطلاق الجود على إنفاق المال الكثير، بسهولة من النفس، في الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي، وهو لا شك من أعظم أبوابه، والمال عماد لكثير من أعمال الخير المتعدية التي لا تقوم إلا به.

إلا أن المراد بالكلمة أوسع من ذلك؛ فإن هذا المعنى جزء من معناها الواسع الذي يشمل المراتب الآتية أيضاً:

١ - الجود بالنفس، وهو أعلى مراتب الجود.

٢ - الجود بالرياسة، وامتهانها في سبيل نفع الخلق ودعوتهم.

٣ - الجود بالوقت والراحة والنوم واللذة، فيتعب ويسهر ويجهد نفسه.

٤ - الجود بالعلم وبذله، وهو أفضل من الجود بالمال، ومنه تعليم الناس، وإجابة السائلين بما يشفيهم، وهي زكاة العلم.

٥ - الجود بالنفع بالجاه، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وهذا زكاة الجاه.

٦ - الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كخدمة بدنية، وكلمة طيبة، وفكرة نافعة.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مادة (ضحي).

(٢) والتضحية كما تكون بالبذل تكون أيضاً بالكف والتراجع عن بعض المواقف والمكاسب لتحقيق مكاسب أخرى أكبر وأهم كما سيأتي.

٧ - الجود بالعِرض، والتصدق على من شتم أو قذف أو اغتاب.

٨ - الجود بالصبر والاحتمال وكظم الغيظ. وهذا أنفع من الجود بالمال.

٩ - الجود بالخلق الحسن والبشاشة والبسطة. وهو أعظم مما قبله.

١٠ - الجود بترك ما في أيدي الناس، وترك الالتفات إليه والتعرض له بالحال أو اللسان(١).

وهكذا يتاح للفقير أن يضحي بجوانب أخرى تكون الدعوة - في بعض الأحايين - أشد احتياجاً إليها من المال، وهذا مما لا يتاح للغني ذي الوفرة من المال الذي تشغله تنمية ماله؛ فإذا تصدق بشيء منه اكتفى به عن الجود بغيره. ثم للفقير أن ينال مثل أجره بحسن نيته، وصدقه فيها مع الله ـ تعالى ـ كما أخبر النبي ﷺ عن الغني الجواد والفقير المتمني للغنى ليعمل مثل عمله فقال: «فهما في الأجر سواء»(٢)وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والنية أمر يعلمه الله من القلوب، ولكن من أدلتها الظاهرة الحرص على إنفاق القليل حال الضراء.

وكما يقع الجود من الأفراد فإنه أيضاً يحصل من المجتمعات والدعوات والجماعات.

منزلة الجود والتضحية:

الجود والتضحية شعبة من شعب الإيمان، وخير وسيلة لشكر نعم الله التي لا تحصى؛ لأنها استعمال للنعم في محبة الله ـ عز وجل ـ، كما أن استعمالها في غير الطاعة أو الشح والبخل بها كفران لها.

والأدلة في مدح هذه الخصلة متكاثرة، لكن أبرزها في الدلالة على المقصود تلك الآيات التي تصف المؤمنين بالإنفاق في حالات تعكس قوة يقينهم، واستقرار هذه الصفة في نفوسهم. وإنفاق المال صورة من أبرز صور الجود، لكنها جزء قليل منه. ومن تلك الأدلة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨] أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام؛ ولكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ومثله قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- قوله ـ عز وجل ـ في وصف المتقين المسارعين إلى الخيرات: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] أي: في عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً.

ومن اعتاد الإنفاق في الشدة هان عليه في حال الرخاء والسعة. فالإنفاق حال العسر تدريب للنفس على البذل وحب الآخرين، وتحرير لها من سلطان الشح. والمشاهد أن من يشح بالقليل حال فقره يشح بالكثير حال غناه(٣).

---

(١) انظر المدارج، ٢/٢٧٩، ٢٨٢.

(٢) رواه ابن ماجه، ح/ ٤٢٢٨، وانظر صحيح سنن ابن ماجه، ح /٣٤٠٦.

(٣) خواطر في الدعوة، للصبّاغ، ص ١٤٥.

- قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:] وهذا المقام أعلى من الذي قبله ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ﴾ [الإنسان: ٨]، فإن المحب للمال قد لا يكون محتاجاً ولا مضطراً إليه بخلاف هؤلاء، كفعل الصدِّيق - رضي الله عنه - لما تصدق بكل ماله.

والإيثار: أكمل أنواع الجود، ولا يكون إلا من خلق زكي ومحبة لله - تعالى - مقدمة على شهوات النفس ولذاتها.

وفي مقابل الحث على البذل فقد عظم الله - عز وجل - قبح الشح وشناعته في قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وهذا يشمل وقايتها من الشح في جميع ما أمر به العبد، فيفعله منشرح الصدر، ويترك النهي ولو دعته نفسه إلى فعله فلا يكون بين هذه النفس وبين الامتثال إلا العلم بالأمر، ووصول المعرفة إليه، والبصيرة بأنه مُرْضٍ لله - تعالى -، فيحصل الفوز والفلاح[١].

وهذا يوضح أن الشح بشيء مما أوتيه الإنسان - وكان في وسعه وطاقته - مذموم جداً وسبيل الفلاح ترك الشح، وهو أمر يعني: سماحة النفس وطيبها في فعل أوامر الله - تعالى -، ونفع الخلق بكل وسيلة متاحة.

تضحيات النبي ﷺ وأصحابه:

كان النبي ﷺ أكثر الناس جوداً كما وصفه بذلك صحابته. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسولُ الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[٢].

فهو ﷺ في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وجوده دائم كالريح المطلقة التي لا تهب إلا بالخير والرحمة دائماً، ونفع جوده يعم الغني والفقير كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه من الأرض الطيبة أو غير الطيبة.

فقد كان ﷺ مباركاً أينما كان، وهو أسوة الدعاة والمصلحين.

وقد كان جوده متنوعاً شاملاً لكل أنواع الجود. ويعجز المرء على وصف بذله وتضحياته لأجل الله - عز وجل - وهو أمر لا يخفى يدركه جيداً من تأمل سيرته، وسير سنته، وأكثر النظر فيها، ولأجل التمثيل فقط أسوق هذه النصوص:

عن أنس - رضي الله عنه - قال: ما سئل رسول الله ﷺ عن الإسلام شيئاً إلا أعطاه، قال: «فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاء

---

(١) تفسير السعدي، ص ٨٠٥.

(٢) رواه البخاري ح/ ٦.

من لا يخشى الفاقة»[1] وصُوَرُ جوده بالمال يضيق عنها المقام، ويكفي أنه أعطى أناساً ألحوا عليه مع أحقية غيرهم خشية أن يسألوه بالفحش، أو يصفوه بالبخل[2]، فما أحرى هذا بالتأمل الطويل!

وعنه قال: «إن كانت الأَمَةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت»[3] فكان ﷺ باذلاً لجاهه ووقته وراحته وماله... في مرضاة الله - تعالى - ونفع الخلق.

كان يمكنه ﷺ أن يحصل غاية ما يريده من الجاه، ونيل الرئاسة والشرف، والتمتع بزهرة الدنيا من النساء وسائر الملذات، وتحصيل الراحة والرفاهية ورغد العيش، ولكنه ترك كل ذلك لله - عز وجل - وضحى بكل ما آتاه الله - عز وجل - فبذل نفسه وماله، ووقته وجهده، وجاهه وراحته، وأرخص كل ذلك في سبيل الله.

وقد بدأت معه رحلة المعاناة منذ صعد الصفاة، وأنذر عشيرته الأقربين، فوصفوه بالسحر والجنون بعد أن كان الصادق الأمين، وأوذي وأصحابه أشد الأذى، وابتلوا أعظم البلاء، فصار يعرض نفسه على القبائل في الحج يطلب حمايته ليبلِّغ دين الله، وقصد الطائف لعله يجد بغيته، فرجع مُدمى القدمين طريداً، وحوصر وأصحابه وأنصاره في الشعب ثلاث سنين حتى أكلوا أوراق الشجر من الجوع. ويعاني الصحابة من صنوف البلاء وألوان الشدائد ما لا يخفى، ويواجه بعضهم الموت كآل ياسر وخباب وبلال.

ويخرج بعض أصحابه إلى الحبشة طلباً للنصرة، ويصبرون على مفارقة الأهل والأولاد والأوطان، ويتسامعون بإسلام بعض الصناديد المشركين، فيعود بعضهم إلى مكة ليجدوا أشد مما كانوا يعانون، ثم يعودون ثانية إلى الحبشة، ومعهم آخرون في رحلة عناء أخرى. ثم يأذن الله بالهجرة إلى المدينة، ويهاجر ﷺ وسائر أصحابه، ثم يكابدون الغربة، وكثرة الأعداء، وأذى المنافقين واليهود، وقتال الأهل والعشيرة.

وقد كان لكثير من أصحابه ﷺ - رضي الله عنهم - صفحات طويلة من البذل والتضحيات، فيهجر مصعب - رضي الله عنه - النعيم والدعة ويهاجر داعية إلى الإسلام في المدينة، ويعرِّض علي - رضي الله عنه - نفسه للهلاك بنومه في فراش النبي ﷺ عشية الهجرة، ويرمي البراء نفسه بين الأعداء في حديقة الموت فيفتح الله للمسلمين بسببه، ويُعرِض أبو الدرداء عن التجارة تفرغاً لمجالسة النبي ﷺ، ويتقبل خالد بن الوليد التنازل عن منصبه طاعة لأمير المؤمنين، ويتنازل أبو عبيدة عن إمرة الجيش لعمرو بن العاص جمعاً لكلمة المسلمين، ويرفض الحسن بن علي الخلافة درءاً للفتنة وجمعاً

(١) رواه مسلم، ح/ ١٠٥٦.

(٢) رواه مسلم، ح/١٠٥٦.

(٣) رواه البخاري، ح/ ٦٠٧٢.

للكلمة، ويقبِّل عامر بن عبدالله رأس زعيم الروم المشرك ليعتق له أسرى المسلمين...[1].

ولم يخلُ تاريخ النساء العظيم من روائع بالجود والتضحية؛ فقد ضحت أم سلمة بشمل الأسرة، وتحملت فراق الزوج والولد في سبيل الهجرة، ولا يخفى جهد أسماء وعناؤها أثناء الهجرة، ولا تضحيتها بابنها عبدالله بن الزبير في سبيل نصرة الحق.

لا تقوم الدعوات إلا بالتضحيات:

باستقراء الحقائق، ومعرفة الواقع يتبين للبصير ما يلي:

١ - كل دعوة لا تنتشر إلا بجهود أتباعها، ودين الإسلام لم ينتشر براحة الأبدان وسلامة النفوس.

٢ - تتسع الثغرات على الدعوة الإسلامية يوماً بعد يوم، وتكثر المجالات الشاغرة التي تفتقر إلى من يقوم بها

٣ - يتزامن مع هذا قلة الموارد، وجفاف المنابع، وضيق ذات الدعاة مما يُخشى أن يشكل خطراً على بعض الدعاة وكثيراً من البرامج.

٤ - هذا الواقع الصعب يواجه أفراداً ممن عرفوا واجبهم ورأوا خطورة الأمر في حين أنه يحتاج إلى اجتماع الجهود واستعداد كل داعية غيور بالجود والتضحية.

٥ - وفي المقابل تزداد جهود أهل الباطل قوة، وتزداد مخططاتهم دقة، وتتعدد أنشطتهم لتشمل شتى الجوانب.

ونجد هنا شكوى عمر - رضي الله عنه - المُرَّةَ ماثلةً: «اللهم إني أشكو إليك جَلَدَ الفاجر وعجز الثقة»، ولا يرفع هذا الواقع إلا الصدق مع الله، ودليل الصدق الاستعداد مع البذل والتضحية في كل جانب تحتاج إليه الدعوة في وقت كهذا، وهو الوقت الذي يعظم فيه الأجر ويزداد فيه الفضل، وشتان بين من يضحي وهو يرى ثمرة الجهد وتلوح له أمارات النصر، وبين من يضحي وقد غابت عن ناظريه أمارات النصر ودلائل التمكين، قال الله - عز وجل -: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. [الحديد: ١٠].

---

(١) وهذه الصور الأخيرة من التضحية تدل على أن التضحية قد تكون بالكف والترك والتراجع عن بعض المواقف، وترك بعض المصالح لكسب مصالح أكبر منها وأعظم، وهذا من مواقف الحكمة. (راجع الرسالة السابقة في الحكمة).

موانع الجود والتضحية:

إن للتخاذل أسباباً أساسها ضعف الإيمان، وبرود اليقين، ومردها إهمال التربية أو ضعفها، وإن كان كثير منها يعود إلى الشح بالمال، لكنها تحتمل وجوهاً أخرى إضافة إلى أسباب أخرى عامة، منها:

١ - طول الأمل.

٢ - التفات القلب إلى الولد. وهو يقوم مقام طول الأمل عند كثير من الناس؛ لأنه يحمل على الجبن والبخل والحزن، لأن «الولد مجبنة، مبخلة»[1].

٣ - فتنة الأزواج.

٤ - الركون إلى الدنيا، وكونها الهمّ والشغل الشاغل، وإيثار الدعة والراحة.

٥ - حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال.

٦ - حب عين المال، والسعي للغنى والهروب من الفقر بلا نية صالحة.

٧ - تزعزع القناعة، والثقة، وسلامة الطريق الذي يسير عليه.

٨ - انعدام الجدية، ودنو الهمة، والعجز والكسل.

٩ - الانشغال بالتضحية من أجل أهداف ومصالح شخصية.

١٠ - الوصول إلى بعض الأهداف الدنيوية لنيل شهرة، أو تحصيل جاه أو شرف، أو منصب، يكون نهاية الجهد والعمل[2].

١١ - ضعف معرفة الواقع، وضخامة حاجة الدعوة، وجهود الأعداء، أو الجهل بذلك.

١٢ - الشعور بالأثرة، وحب النفس.

وبعض هذه الأسباب كافٍ في تحطيم الداعية، وتسبيط همته على البذل والتضحية.

بواعث الجود والتضحية:

يحصل بعث النفس على التضحية بأمور هي في حقيقتها علاج للعلل المانعة منها؛ وذلك بالأمور الآتية:

١ - دفع كل علة من العلل السابقة بما يضاد سببها؛ فعلاج حب الشهوات: القناعة والصبر، وعلاج طول الأمل: كثرة ذكر الموت، وعلاج التفات القلب إلى الولد: اليقين بتكفل الله - عز وجل - برزقه ورعايته، وعلاج حب المال: تعميق محبة الله في القلب، ومحاولة بذل القليل إضعافاً لمحبة المال.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٧٢، وانظر: صحيح الجامع، ح/٧١٦٠، ٢/ ١٢٠٢.

(٢) راجع الرسالة التاسعة (الرغبة في الصدارة والتطلع للأمارة) من هذه الرسائل.

٢ - معرفة حقيقة الابتلاء بالنعم، وأن لله - تعالى - في كل نعمة شكراً يليق بها؛ فالصحة لها شكر يناسبها، وكذا الوقت والجاه والقوة والذكاء والمال، وأن كلاً منها منحة وعطية ورعاية من الله - عز وجل - لينظر الله أعمالنا، ويظهر الشاكر من الكفور.

قال الله - عز وجل -: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٣ - تذكُّر بعض الحقائق المتصلة بالإنفاق، ومنها:

أ - أن ما قدمه الإنسان فلنفسه، فهو المستفيد منه حقاً.

ب - أن مال الإنسان حقيقة هو ما أنفقه في حياته، أما ما تركه فهو مال الورثة، كما في الحديث[١].

ج - أن إخراج ما زاد على حاجة الإنسان هو الخير له، «يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك...»[٢].

د - أنه يمكن للإنسان أن يكفيه القليل من المال، فما حاجته إلى الباقي؟

هـ - أنه لا حق للعبد في مال زاد عن حاجته في وقت اشتداد الحاجة، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له». قال أبو سعيد الخدري: «فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»[٣].

٤ - معرفة منزلة الإنفاق وفضله وفوائده، ومنها:

أ - أن الله يُخْلِفُ له ما أنفق، قال - تعالى -: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] مع أنه في الحقيقة هو الباقي عند الله - تعالى - في الآخرة.

ب - أنه - عز وجل - يبارك فيما بقي، ومن أصدق الأدلة المحسوسة: أن الله بارك في أوقات العلماء الصادقين فعملوا ما يصعب تصوره في الحسابات المادية، وبارك في أقوالهم وأفعالهم وكتبهم؛ فبلغت مبلغاً من النفع والأثر ما لم يخطر لهم على بال مما يكاد ألاَّ يتصوره غيرهم، وقد كانوا عظيمي التضحية بأوقاتهم وعلومهم. قال - عز وجل -: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

---

(١) الحديث رواه البخاري، ح/ ٢٤٤٦، وفي آخره: (فإن ماله ما قدم، ومال وُرَّاثه ما أخر).

(٢) رواه مسلم، ح/ ١٠٣٦.

(٣) رواه مسلم، ح/ ١٣٥٤.

٥ - معرفة واقع المسلمين وحاجاتهم، وخطط الأعداء وجهودهم، والتقصير الحاصل في فروض الكفايات، مما يزيد الواجب وجوباً على أهل الكفاية والغنى والمواهب والقدرات.

٦ - التعود على تقديم القليل حال الفقر والحاجة، وبشكل أخص في أوقات الشدائد والأزمات، التي تكثر فيها حاجات الدعوة، وتستدعي مزيداً من التضحيات.

دلائل الجود والتضحية وثمراتهما:

١ - كمال الإيمان: وذلك لأن التضحية شعبة من شعبه، يزيد بها الإيمان، وينقص بتركها، وقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(١).

٢ - حصول شرف التأسي بالنبي ﷺ، وهي أمارة أيضاً على قوة الإيمان لقوله - عز وجل -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾. [**الأحزاب**: ٢١].

٣ - عدم الركون إلى الدنيا، والتعلق بالآخرة، وهو طريق سعادة العبد.

٤ - تحصيل قناعة القلب وغنى النفس، وهو الغنى الحقيقي؛ لارتباط صاحبه بربه - عز وجل -.

٥ - ضمان الخلف لما أنفق، وحصول البركة لما بقي. وقد جاء في الحديث: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»(٢).

وهو مفهوم القاعدة المشهورة: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وأمثلتها في القرآن كثيرة: هجر إبراهيم - عليه السلام - قومه واعتزالهم فعوضه الله الذرية الصالحة، وضحّى يوسف - عليه السلام - بالشهوة فعوضه الله بالملك يتمتع بالمباحات، وضحّى أهل الكهف بالراحة فعُوِّضوا بالراحة الأعظم، وكانوا سبباً لهداية الضالين، والمهاجرون تركوا أوطانهم وأهلهم فعوضهم الله بالرزق والعز والتمكين، وجمع شملهم بعد فرقة... وهكذا فكل من ترك ما تهواه نفسه وضحى به لله - تعالى -، وجاد به في سبيله لرفعه كلمته عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذّات الدنيا كلها(٣).

٦ - ما يترتب على التضحية والجهود المبذولة من ثمرات ومنافع وهداية لا تخطر ببال صاحبها، ولا يعلم مداها إلا الله - تعالى -، مصداق حديث النبي ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»(٤).

وختاماً: فما دامت الدعوات لا تقوم إلا على التضحيات فقد أدرك كل واحد من الدعاة ما يجب عليه، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٦١٣٨. (٢) متفق عليه (خ/ ١٤٤٢، م/١٠١٠).

(٣) انظر: مجتنى الفوائد الدعوية والتربوية من مؤلفات السعدي، ص ٩٠.

(٤) رواه مسلم، ح/ ٢٦٧٤.



إيش ضرَّ أبا الحسن انصرافي؟

أكرم عصبان الحضرمي

إنَّ هذه النصيحة الغالية، والحكمة البالغة التي أطلقها الإمام الصَيْمَري[1] - عليه رحمة الله - تأسفاً على فوات كثير من العلم والاستفادة من علَمٍ من أعلام الحديث، لتمثل لنا سِراجاً نستنير به في ظلمات الهجر غير المنضبط الذي خيَّم في سماء صحوتنا، والذي يمثل عقبة في طريق العلم والاستفادة.

إنَّ مَنْ تفقه في هذه العبارة، وتأملها كل التأمل، انتفع بها غاية الانتفاع؛ لأنها تعالج لنا واقعاً من الانحراف في حياتنا التعليمية ومنهجاً معوجاً في التعامل مع اجتهاد العلماء، وأخطائهم، وتتضح لنا خطورة هذا المسلك حين تأتي الثمار السيئة من تفويت الخير الكثير في ترك جهود العلماء المشهود لهم بالعلم الراسخ والقدَمَ الثابت.

من أجل هذا وغيره أضحت هذه المشكلة جديرة بالوقوف أمامها وصرف النظر إليها، إنها مشكلة الازورار عن العلم (دروساً وكتباً وأشرطة...) بسبب بعض الاجتهادات والأخطاء، فما هو خبر الصَيْمَري؟

لنستمع إليه يحدثنا عن خبره.

قال الخطيب: قال لي الصَيْمَري: «سمعتُ من الدارقطني[2] أجزاءً من سننه، وانقطعتُ لكونه ليَّن أبا يوسف، وليتني لم أفعل، إيش ضرَّ أبا الحسن انصرافي؟»[3].

تشخيص الظاهرة:

إنه يشخِّص الظاهرةَ (الانقطاع عن دروس الدارقطني) ولقد انتشرت هذه الظاهرة في عصرنا

---

(١) أبو عبد الله الحسين بن علي الصيمري، أحد أئمة الحنفية كان صدوقاً وافر العقل عارفاً بحقوق العلماء. البداية والنهاية، ١٢/٥٧، السير، ١٧/٦١٥.

(٢) أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني صاحب السنن الحافظ المجوِّد، كان من بحور العلم واحد أئمة الدنيا، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، البداية والنهاية، ١١/٣٠٧، السير ١٦/٤٤٩.

(٣) سير أعلام النبلاء، ١٧/٦١٦.



وفشت، فكم من مجالسَ للعلماء تُهجَرُ، وكم من كتب تحرق، وكم من أشرطة ترمى! بل وصل الأمر ذروته وبلغ السيل الزبى حين يُهْجَرُ مَنْ لَمْ يَهْجُرْ تلك الأمور، وهذه ـ لعمري ـ قاصمةُ الظهر، فلم يقطعوا دروسَ الدارقطني فحسبْ، بل قطعوا من لم ينقطع من دروسه، وهذه من فرائد عصرِنا وهذا مخالف لميزان الإنصاف ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾. [يوسف: ٧٩].

أسباب الظاهرة:

إن سبب الانقطاع (لكونه ليَّن أبا يوسف)[١] صاحب أبي حنيفة وأحد أئمة الأحناف وأركان المذهب، فالصَيْمَري لم يتحملْ كلام الدارقطني فيه فترك مجلسه؛ وهذا نَعدُّه تعصباً منه ـ رحمه الله ـ وانتصاراً لإمامه.

داء التعصب:

فالتعصب إذن مَزَلَّةُ أقدام، ومَظنَّة أفهام، وآفة من آفات العلم، «وهو انتحالُ مجموعةٍ من الناسِ مذهباً أو انتخابُ آراء بحيثُ لا يبغون عنها حولاً ولا يريدون بها بدلاً».

إن الدارقطني أدَّاه اجتهادُه ـ وهو إمامُ الحديث ورجاله ـ إلى تليين أبي يوسف؛ فعلامَ يُترك الأخذ عن مجتهدٍ قد يكون رأيه هو الحق، ومذهبُه هو الصواب؟ ولكنه التعصب الذي يَحْرِم صاحبَه التعلم! قال حُسَيْنَكُ بنُ علي: أول ما سألني ابنُ خزيمة فقال: كتبت عن محمد بن جعفر الطبري؟ قلت: لا. قال: ولِمَ؟ قلت: لأنه كان لا يَظْهرُ وكانت الحنابلة تمنع من الدخول عليه[٢]. قال: «بئسَ ما فعلت. ليتَكَ لم تكتبْ عن كلٍّ ما كتبتَ عنهم، وسمعتَ من أبي جعفر»[٣].

فالواجب على طالب العلم ألا يتحيَّزَ لمذهبٍ معينٍ، ولا لآراء خاصة، وإنَّما ينتخب من الأقوال ما وافق الحق، ويجتنبُ ما خالفه.

التسرع في الحكم وعدم التثبت:

وتزداد الزاوية انفراجاً عند ترك التثبت، والتسرع في الحكم؛ فإن اجتهاد الدارقطني يُنظرُ إليه، فقد سبقه إلى ذلك نفرٌ من علماءِ الجرح والتعديل منهم شيخ المحدثين ـ البخاري ـ فقبلَ هجره يُتَبَيَّنُ

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة الإمام المجتهد، لم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل.

(٢) وقع بين محمد بن جرير وأبي بكر أمور وكانت الحنابلة حزب ابن أبي بكر فكثروا وشغبوا عليه. السير، ١٤/٢٧٧، وقد صدق ابن عقيل حيث يقول: «رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز ولا أقول العوام بل العلماء، كانت أيدي الحنابلة مبسوطة، في أيام ابن يونس فكانوا يستطيلون على أصحاب الشافعي فلما جاءت أيام النظّام استطال عليهم أصحاب الشافعي فتدبرت أمر الفريقين فإذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم»، شرح الإقناع، ١٣٠٩.

(٣) سير أعلام النبلاء، ١٤/٢٦٢، طبقات السبكي، ٢/١٣٧.



قوله، كما قال الحسنُ البصري ـ رحمه الله ـ : «المؤمنُ وقَّاف حتى يتبين»[1].

فإن أصاب فنعمًا هو، وإن أخطأ فالكمال عزيز، وإنما يمدحُ العالمُ بكثرة ما له من الفضائل؛ فلا تدفنُ المحاسنُ لورطة ربما رجع عنها وقد يَغْفِرُ الله له باستفراغه الوُسعَ في طلب الحق فيه، ولمن ثبت عنده ذلك الخطأ أن يجادل بالتي هي أحسن، ويرشده إلى الحق مع حفظ الأخوة، وبقاء الاستفادة؛ فكم من علمٍ فاتَ بسبب التسرع وعدم التثبت.

قال قيسُ بن الربيع: «قدم علينا قتادة الكوفة فأردنا أن نأتيه فقيل: إنه يُبغِض علياً، ثم قيل: إنه أبعدُ الناس من هذا؛ فأخذْنا عن رجل عنه»[2].

كم فاتهم من الخير، وأي خسارة خسروا حين نزل سندهم فأخذوا العلم نازلاً بعد إمكان أخذه عالياً، وانظر إلى السند والإحالة تجدها عن مجهول «قيل: إنه يبغض علياً». وقيل: «إنه أبعد من هذا»، فأين تعاليم القرآن؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

التعصب وسوء الظن:

وتزداد زاوية الانفراج للتعصب أكثر حين يُولِّدُ ظنوناً سيئةً ألا «وإن الظن أكذب الحديث»[3] ويؤدي إلى تتبع العثرات، وترصُّد الزلات، ويبدأ الخلاف في فرعية صغيرة فيرقى إلى الاتهام في أصول الإسلام وقواعد الديانة. قال الذهبي: «قرأت بخط الموفَّقِ قال: سمعنا درسه ـ أي ابن عُصْرُون ـ مع أخي أبي عمر وانقطعنا. فسمعت أخي يقول: دخلت عليه بعدُ، فقال: لِمَ انقطعتم عني؟ قلت: إن ناساً يقولون: إنك أشعري. فقال: «والله ما أنا بأشعري»[4] هذا معنى الحكاية.

وهذه الصورة من التعصب تظهر في عصرنا في أكمل مبانيها، وفي أوضح معانيها؛ فمن تكلم بنصوصٍ في الحاكمية من وجوب الحكم بما أنزل الله، والتحذير من القوانين الوضعية، والأحكام الدولية، يُهْجَرُ أولاً ويعدُّ خارجياً ثانياً، كما أن مَن لم يرَ إقحامَ الأمةِ في ظلماتِ الخروج غير المنضبط بالضوابط الشرعية يعد مُرْجئاً جَهْمياً.

إن الظنَّ السيئَ، والاتهام بالبدعة، والتسرع في ذلك، رُوِّع بها شيوخ[5] وظلم بها علماء وهُجِرَ بها

---

(١) الفتاوى لشيخ الإسلام، ١٠/٣٨٢.

(٢) سير اعلام النبلاء، ٥/٢٧٢.

(٣) جزء من حديث صحيح عند البخاري من حديث أبي هريرة.

(٤) وقد تعقب السبكي ـ الأشعري تلميذ الذهبي ـ على شيخه هذه القصة بما لا طائل تحته؛ وهذا يعد تعصباً أيضاً وجراة على شيخه. انظر طبقات السبكي، ترجمة ابن عصرون، وحاشية السير، ٢١/١٢٩، سير اعلام النبلاء، ٢١/١٢٩.

(٥) ومن الصور المبكية أن الكيا الهراسي أشيع انه باطني إسماعيلي فنمت له فتنة هائلة هو بريء منها، ولكن وقع الاشتباه على الناقل، فإن ابن الصباح باطني إسماعيلي كان يلقب الكيا ثم ظهر الأمر وفرجت الكربة، الطبقات الكبرى.



دعاةٌ لا يرون مسوِّغات ذلك، كما قال الأول: (وأرى العداوة لا أرى أسبابها) وكل ذلك بسبب أسانيد منقطعة (يقولون) ويرد ابن عصرون هذه الفرية مؤكداً كلامه بالقسم: (والله ما أنا بأشعري)، وكان حاله كحال القائل[1]:

ولكنـي ظلمت فكـدت أبكـي ... مـن الظلـم المبيَّن أو بكـيت

الكذب وكيد الشيطان:

انظر كيف يُكذَبُ على العلماءِ بسندٍ مبهمٍ لا يُعرفُ قائله أجنيٌّ أم إنسي؟ ومن يدري؟ لعل الشيطان هو الذي نقله! وما ذلك ببعيد، فقد قال أبو عمر بن عبد البر: (روينا أن جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب فقالت: إن صفية تحبُّ السبت وتصل اليهود، فبعث عمر يسألها فقالت: أما السبت فلم أحبه منذ أن أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً، فأنا أصلها، ثم قالت: يا جارية ما حملك على ما صنعتِ؟ قالت: الشيطان. قالت: فاذهبي فأنت حرة»[2].

ولكن إنْ مَرَّ كيدُ الشيطان على بعض العلماء فإنه لا يمرُّ على عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي كان الشيطان يَفْرَقُ منه. وهكذا نجدُ أن الشيطانَ قد نَصَب أحابيله وأقامَ شِراكه ودبَّر مكائده حتى يصطاد العلماء وطلبة العلم فيها. فلا يُغْفَلُ عملهُ؛ إنه دورُ: «ولكن بالتحريش بينهم»[3].

مراعاة التخصص:

والحاصل أن الدارقطني ـ رحمه الله ـ حين تكلم فيما تكلم لم يجاوز فنه، ولم يتعد تخصصه، فقد كان إمام الجرحِ والتعديل، والحديث عن الرجال، فلا يعنَّفُ ولا يُهْجَر. فإذا كان المخطئ في غير فنِّه يُرْفَقُ به، ويردُّ إلى الصواب فمن باب أوْلى المتخصص. ومن هنا ردَّ العلماءُ على ابنِ طاهر حين قال: «وأقبحُ ما رأيتُ في قولِ إمام الحرمين[4] في كتاب أصول الفقه: والعمدة في هذا الباب على حديث معاذ» قال: وهذه زلةٌ منه ولو كان عالماً بالنقل لما ارتكب هذه الجهالة».

قال الحافظ: «قلت: أساء الأدب على إمام الحرمين، وكان يمكنه أن يعبِّر بألين من هذه العبارة، مع أن كلام إمام الحرمين أشدُّ مما نقله عنه، فإنه قال: «والحديث مدون في الصحاح متفق على صحته لا يتطرق إليه التأويل»[5].

---

(١) سنان بن الفحل الطائي.

(٢) السير، ٢/٢٣١.

(٣) رواه مسلم، ح/٥٠٣٠.

(٤) قال الذهبي: كان هذا الإمام مع فرط ذكائه وإمامته في الفروع وأصول المذهب وقوة مناظرته لا يدري الحديث كما يليق به لا متناً ولا سنداً ذكر في كتاب البرهان حديث معاذ في القياس فقال: هو مدون في الصحاح متفق على صحته، السير ١٨/٤٧١.

(٥) السلسلة الضعيفة، ٢/٢٨٥.



فهذا في مَنْ لم يبلغ المرتبة العالية في هذا الفن «أما من بلغَ مرتبة الرسوخِ والإفادةِ، وكان على جانب عظيم من العلم - كالدارقطني، وانتحل مما انتحل عن اجتهادٍ ونظرٍ فلا يُرتابُ في العناية بالأخذ عنه والتلقي منه».

ثمرة فعل الصيمري:

لقد نعتَ ابنُ كثير الإمامَ الصَيْمَري بأنَّه كان عارفاً بحقوقِ العلماءِ، ومن حقِ الدارقطني عليه أن لا يقطعه بل ينْصَحه ولذلك قال: ليتني لم أفعلْ![1]. إنه لم يَزِدْ على تركِ مجلسه، فلم يتكلم فيه بل حفظ لسانه. وتُعَدُّ هذه في عصرنا منقبة للهَاجِرِ ليقابل من يعنِّف على مخالفه ويفسِّقه ويبدِّعه، وأين هذا المسلك الذي سلكه الصَيْمَري من مسلك زاهد الكوثري الحنفي الذي آذى العلماء الذين تكلموا في أبي يوسف أمثال البخاري والخطيب والعقيلي ونبز الأخير بأنه حشوي[2]. فهذا يعتبر عقوقاً من الخَلَف بتركِ مسلك السلف!

ثم قال: «إيشٍ ضرَّ أبا الحسن انصرافي؟» لم يضرَّه شيئاً بل بقي إمامَ عصره. إن انجفال طلبة العلم عن علماء السُّنَّة والدعاة إليها بسبب اجتهاد أو خطأ يفوِّتُ عليهم - وا أسفا - علماً جماً، وخيراً كثيراً ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]. ولا يَبْعُدُ أن يكونَ ذلك عقوبةَ الظلم، وترك الإنصاف؛ وما ضرَّهم لو صححوا الخطأ واعتذروا له؟ ورحم الله ابن الوردي[3] حين قال:

والناسُ لم يصنِّفوا في العلمِ ... لكيْ يَصيروا هَدَفاً للذمِّ
ما صنَّفوا إلا رجاءَ الأجرِ ... والدَعَواتِ وجَميلِ الذكرِ
لكنْ قديتُ جَسداً بلا حسدْ ... ولا يُضيعُ اللهُ حقاً لأحدْ
واللهُ عندَ قولِ كلِّ قائلِ ... وذو الحجَا في نفسِه في شاغلِ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

---

(١) يقول - تعالى -: ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

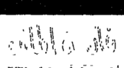
(٢) حاشية مناقب أبي حنيفة وصاحبيه، ص ٧٢.

(٣) ويقول الحريري:

وإن تجد عيباً فسدُ الخللا ... جلَّ الذي لا عيبَ فيه، وعلا



ماذا يريدون من المرأة..؟! (٢ ـ ٢)



وماذا نحن فاعلون؟

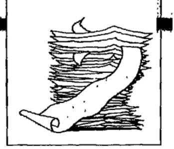
دأب العلمانيون على اتباع تقطير سمومهم في جسد الأمة المسلمة قطرة قطرة، حتى تحوَّل قطاع كبير من الأمة إلى مجتمع متشرب لهذا السم، وكان هذا الهدوء الماكر والخبيث في اطِّراح العقائد والمناهج الإسلامية. وهكذا اقتفوا سبيل إمامهم في الشر باتباع منهج «الخطوات» وقد أثمر هذا المنهج ثماره الخبيثة من تحول هذه المناهج من مجرد أفكار فردية إلى قضايا تكبر شيئاً فشيئاً، ويكبر معها عدد المدافعين عنها.

ولم تخرج معركة المرأة من هذه الدائرة الخبيثة؛ بيد أن تلك المرحلة كانت سجالاً بين الكائدين من العلمانيين، وبين المدافعين من الإسلاميين وأهل الصلاح، لكن المعركة شهدت تحولاً خطيراً يصب في صالح العلمانيين، وهو ذلك التأطير الدولي لهذه القضية، وتبني المؤسسة الدولية لها، وفرضها على دول كانت في حاجة إلى هذا التبني، حيث إنها لم تستطع بشكل واضح تبني الطرح العلماني في هذه القضية الاجتماعية لحساسيتها في المجتمعات الإسلامية، أما الآن فقد أصبح لزاماً عليهم الالتزام بالشرعية الدولية، وإلا تعرضت الأمة كلها للعقوبات، وهذا المشهد ـ وهو في بداياته ـ يعتبر إخلالاً بالموازين التي كانت تحافظ عليها الحكومات بين التيارات الفكرية داخل مجتمعاتها.

ونحن هنا ـ ومع بداية هذا التطور ـ نحتاج إلى وقفة نخرج بها من دائرة التوصيف للكيد العلماني، والأساليب والطرق التي انتهجوها إلى الوصول إلى دور فاعل بوضع التصورات الواقعية في مواجهة هذا الكيد الشيطاني. نحتاج إلى وضع السياج القوي حول حُرُمات الأمة بعيداً عن الندب والشجب، نحتاج إلى إطلاق القدرات لمواجهة هذا التواطؤ على الحرمات.

وبهذا الجزء الثاني من ملف «ماذا يريدون من المرأة؟» نرجو أن نكون قد أسهمنا بدورنا في هذا السعي، آملين أن نتبعه ويتبعه غيرنا بفاعلية أكثر.

ونحن في سعينا هذا نستعين بالعلي القدير الذي لا يُصلِح عملَ المفسدين.



ماذا يريدون من المرأة..؟! (٢ـ٢)

عولمة المرأة

قراءة في الأيدلوجية النسوية الجديدة

كمال حبيب

عولمة المرأة أي جعلها كائناً عالمياً يمكن وصفه بأنه كائن فوق الحكومات أو كائن عابر للقارات.. ولجعلها كائناً عالمياً كان لا بد من عقد المؤتمرات الدولية وتوقيع المعاهدات والاتفاقيات العالمية التي تلزم الحكومات بحقوق هذا الكائن، وتمثل توصيات المؤتمرات الدولية والمعاهدات والاتفاقيات العالمية المرجعية العالمية الجديدة التي يمكن وصفها بأنها «أيديولوجية نسوية» لها قوة الأيديولوجيات السياسية التي عرفها القرن الماضي ثم انهارت وخبت وماتت.

وكما كان يحدث بالنسبة للأيديولوجيات السياسية والفكرية فإن الأيديولوجية النسوية الجديدة يراد لها أن يكون معتنقوها في كل العالم وفي كل الدول والشعوب وفي كل الأعمال؛ فإنها الوسيلة الجديدة لغزو العالم وشعوبه، وهي الدين الجديد الذي يُراد للعالم أن يتوحد خلفه ويدين به: بيد أن الخطر في هذه الأيديولوجية والدين الجديد يكمن في أن الذي يُبشر بها ويدعو إليها هو النظام العالمي الجديد الذي حقق ما اعتبره انتصاراً نهائياً وعالمياً للفكر الغربي العلماني، ويريد أن يفرض هذا الدين والأيديولوجية بالقوة على العالم كله بحيث تكون هناك قوة عالمية واحدة ومرجعية كونية واحدة وإنسان عالمي واحد، وتنهار كل الحدود والقيود والحصون أمام هذه القوة العالمية الجديدة والمنفردة بحيث تصبح إرادتها ورغباتها ومصالحها مُسلَّماً بها ومُرحَّباً بقدومها بلا أي عوائق من الدين أو اللغة أو اللون أو الجنس أو القومية أو الثقافة. أي أن المرجعية الكونية الجديدة هي بديل لكل ما عرفته الأمم والأجناس البشرية من ثقافات وتاريخ وصراعات وأفكار؛ بحيث يغدو كل هذا ذكرى بلا قيمة ولا معنى، وتصبح القيمة والمعنى في المرجعية الكونية البديلة والجديدة التي يتحوَّل البشر جميعاً فيها عبيداً للإله الذي قررها، وهو النظام العالمي الجديد.



كما أن خطر هذه الأيديولوجية البديلة يتمثل أيضاً في اقتحام مناطق كان يُنظر إليها باعتبارها خاصة أو شخصية وينظم أوضاعها بشكل أساسٍ الدينُ والتقاليد والأعراف المحلية والثقافات الخاصة، أي أن الاقتحام والهدم لهذه الأيديولوجية ينال مناطق متصلة بالهوية والثقافة والوجود وهي محور الكيان الإنساني والوجود البشري. ويقف وراء هذه الأيديولوجية فكر شيطاني يريد أن يجعل من الأخلاق فوضى ومن الفاحشة شيوعاً وذيوعاً.

وتستمد النسوية الجديدة جذورها الفكرية من الماركسية الحديثة «حيث تعتبر أن خطأ الماركسية القديمة هو اللجوء إلى الأساليب الاقتصادية لبناء مجتمع لا طبقي؛ بينما اللجوء إلى الأساليب الاجتماعية هو السبيل الوحيد لمجتمع خالٍ من الطبقات والميول الطبقية، وتمثل «الأسرة» والأمومة في نظر «الماركسية الحديثة» - التي تستمد النسوية أفكارها منها - تمثل السبب وراء نظام طبقي جنسي يقهر المرأة لا يرجع إلا لدورها في الحمل والأمومة.

وإذا كانت السنن الكونية - الطبيعية عندهم - هي التي اقتضت هذا الاختلاف البيولوجي فلا بد من الثورة على هذه السنن - الطبيعية - والتخلص منها بحيث تصبح الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة فروقاً اجتماعية متصلة بالأدوار التي يؤديها كلٌّ من الرجل والمرأة وليست متصلة بالخواص البيولوجية لكل منهما؛ ومن ثَمَّ فإذا قام الرجل بوظيفة المرأة وقامت المرأة بوظيفة الرجل فإنه لن يكون هناك ذكر وأنثى وإنما سيكون هناك نوع «جندر» وهذا النوع هو الذي سيحدد طبيعة دوره في الحياة بحيث يجوز للأنثى أن تمارس دور الذكر والعكس، وبحيث لا تكون هناك أسرة بالمعنى التقليدي ولا أبناء ولا رجل ولا امرأة، وإنما أسر جديدة شاذة وأبناءٌ نتاج للتلقيح الصناعي؛ فأي فكر شيطاني ذلك الذي تتبناه «النسوية الجديدة»؟! وأي قوة تجعل من الأمم المتحدة وأمريكا والغرب تتبنى هذا الفكر الشيطاني لفرضه على العالم؟!! إنها تعبير عن إرادة لا نقول علمانية وإنما إلحادية لتحويل الوجود البشري وجوداً بلا قيمة ولا معنى تنتفي معه العناية من استخلاف الله للإنسان في الأرض. وفي الواقع فإن هذا الفكر الإجرامي ليس خطراً على المجتمعات الإسلامية فحسب ولكنه خطر على الحضارة الإنسانية ذاتها؛ لكن المجتمعات الإسلامية تأتي في القلب من معتقد هذا المخطط الإجرامي البديل والجديد.

أدوات المرجعية الجديدة:

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تم إرساؤه عام ١٩٤٨م يمثل البذرة الأولى لهذه المرجعية الجديدة التي طرحت موضوع الأسرة والمرأة قضية عالمية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، لكن ضجيج القضايا السياسية والاقتصادية على دول العالم الثالث في هذا الوقت غطى على الجانب الاجتماعي والثقافي المتصل بالأسرة والمرأة والأحوال الشخصية؛ فمنذ عام ١٩٥٠م حاولت الأمم المتحدة عقد الدورة الأولى لمؤتمراتها الدولية حول المرأة والأسرة بعنوان: «تنظيم الأسرة» لكن



الحكومة المصرية في العهد الملكي قاومته بقوة، وأخفق المؤتمر الذي كان يترأسه ماركسيٌّ صهيوني، ثم عاودت الأمم المتحدة مرة ثانية تطلعها في بناء المرجعية النسوية الجديدة، فعقدت مؤتمراً في المكسيك عام ١٩٧٥م ودعت فيه إلى حرية الإجهاض للمرأة والحرية الجنسية للمراهقين والأطفال وتنظيم الأسرة لضبط عدد السكان في العالم الثالث، وأخفق هذا المؤتمر أيضاً، ثم عقد مؤتمر في «نيروبي» عام ١٩٨٥م بعنوان: «استراتيجيات التطلع إلى الأمام من أجل تقدم المرأة» ثم كان مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية الذي عقد في سبتمبر ١٩٩٤م، وأخيراً كان مؤتمر المرأة في بكين الذي عُقد عام ١٩٩٥م تحت عنوان: «المساواة والتنمية والسلم» وهو المؤتمر الذي ختمت به الأمم المتحدة القرن الماضي، وانتهت إلى الشكل النهائي للمرجعية الجديدة والبديلة التي يراد فرضها على العالم والتي تهدف بكلمة واحدة إلى «عولمة المرأة».

وعولمة المرأة هو الجانب الاجتماعي والثقافي في «العولمة» الذي تسعى الأمم المتحدة وأمريكا وأوروبا إلى فرضه على بقية العالم خاصة العالم الثالث. والتوصيات والوثائق التي توقع عليها الدول والحكومات الأعضاء في الأمم المتحدة تعتبر ملزمة لها، كما أن الأمم المتحدة تقوم بكل هيئاتها ومؤسساتها بتنفيذ ما جاء في توصيات هذه المؤتمرات الدولية ووثائقها بما في ذلك المراقبة والمتابعة لمدى التزام الدول والحكومات بها. كما أن المنظمات غير الحكومية الممثلة في الأمم المتحدة تمثل قوة ضغط في دولها لمراقبة التزام هذه الدول بقرارات الأمم المتحدة وتوصياتها ومتابعة ذلك، وهي في هذا تشبه «جواسيس للأمم المتحدة» في دولها.

ولا تكتفي الأمم المتحدة بذلك وإنما تعقد مؤتمرات مع الأطراف الحكومية والمنظمات غير الحكومية كل سنة أو سنتين للتأكد من الالتزام الحكومي بالمرجعية الكونية البديلة والخضوع للنظام العالمي الجديد؛ فهناك مؤتمر سنوي يطلق عليه مؤتمر السكان + ١ أو + ٢ أو + ٣ وهكذا حتى يأتي موعد المؤتمر الدولي القادم للسكان عام ٢٠٠٤م. وأيضاً بالنسبة لمؤتمر بكين[(١)] قد عُقد بكين + ٤ في الهند وسوف يعقد مؤتمر للمرأة أيضاً عام ٢٠٠٥م أي بعد عشر سنوات من مؤتمر المرأة الذي عُقد في بكين، أي أن هناك آلية دولية لها طابع الفرض والإلزام والمتابعة تتدخل في الشؤون الداخلية للدول لتطلب منها الالتزام بما وقعت عليه؛ وهذه الآلية يمكن أن تمارس الإرهاب بفرض العقوبات الدولية على الدول التي ترى الأمم المتحدة أنها غير ملتزمة؛ كما أن هذه الآلية تمارس الإغراء بمنح معونات أو قروض أو ما شابه إذا التزمت بمقررات الشرعية الجديدة.

ومن ثَمَّ فإن ما يجري في مصر أو المغرب أو الأردن بشأن تغيير قوانين الأحوال الشخصية

---

(١) أي أن الأمم المتحدة تعقد مؤتمراً كل سنة (في السنة الأولى يطلق عليه + ١، وفي السنة الثانية + ٢، وهكذا)، وتلك المؤتمرات تشبه ورشة عمل لمتابعة تنفيذ توصيات مؤتمر بكين سنوياً حتى يُعقد المؤتمر الدولي الرسمي القادم.



أو العقوبات هو جزء من الالتزام بالأجندة الدولية التي وافقت هذه الدول عليها في المؤتمرات الدولية وليس تعبيراً عن حاجة داخلية لشعوب هذه الدول. فحق المرأة في فسخ عقد الزواج، وحقها في السفر هي وأولادها بلا قيود، وحقها في المواطنة الذي يستخدم ستاراً لمساواتها مع الرجل في الإرث والطلاق وعدم الخضوع لسلطة - أي رفض القوامة - وإقامة علاقات ود وصداقة خارج نطاق البيت والعائلة، كل هذه القضايا كانت مطروحة باعتبارها جزءاً من أجندة دولية للتسليم بالدخول في طاعة النظام العالمي الجديد والإقرار بالالتزام بالدين النسوي البديل.

وفي الواقع فإن كل ما سيحدث في هذا الإطار سيكون مثل تأسيس «المجلس القومي للمرأة» في مصر[1] الذي يضم الوجوه النسوية المصرية التي تدعو للأيديولوجية الجديدة بلا خجل أو حياء.

وهذه الوجوه النسوية هي انعكاس للفكر الغربي النسوي؛ حيث تشعر تجاه المرأة الغربية بالنقص، وتشعر أن الالتحاق الفكري بها سوف يعوض هذا النقص لهن - كما يبلغ النقص بهذه الوجوه حد كراهية الدين الإسلامي ونظمه الاجتماعية وقوانينه في الاجتماع والأسرة؛ وهم في ذلك أشبه «باللامنتمي» ومن ثَمَّ فهذه الوجوه تعبر عن حالة نفسية مرضية؛ ورفعها إلى مستوى التخطيط والحديث عن قضايا المرأة ليس سوى خضوع للقوى الدولية الخارجية التي تحب أن يعبر عن أوضاع المرأة في العالم الإسلامي النسوةُ اللاتي يرددن الأفكار الغربية ويبشرن بالأيديولوجية النسوية الجديدة.

وثيقة بكين .. مفردات المرجعية الجديدة:

وبالعودة إلى وثيقة بكين التي تمثل منتهى الفكر النسوي الجديد نجد مخططاً واضحاً لتدمير الأسرة والمرأة، وتدمير الحضارة البشرية ذاتها، ويبدو لنا أن الحضارة الغربية تريد أن تدمر الحضارات الأخرى وعلى رأسها الحضارة الإسلامية بعد أن شارفت هي على الهلاك والتدمير والفوضى بسبب خضوعها للأفكار النسوية والشذوذ الجنسي والأخلاقي[2].

---

(١) الدعوة لتخصيص مقاعد للنساء في البرلمانات هو عنوان لندوة تقوم بها جمعية تنمية الديمقراطية. ومسألة المشاركة السياسية للمرأة هي احد بنود الأجندة الدولية، والتي قد تشهد تدخلاً لفرض نسبة مقاعد للنساء في الانتخابات العامة.

(٢) يواجه العالم الغربي في أوروبا حالة من العقم؛ حيث أدى الانحلال الأخلاقي والشذوذ إلى عدم تعويض الأجيال العجوز بأجيال جديدة من المواليد - كما أن مؤسسة الأسرة تواجه الانقراض هناك؛ حيث ترتفع نسب الطلاق والامتناع عن الزواج، كما ترتفع نسبة الأولاد غير الشرعيين، وترتفع نسب الإلحاد، والمثير أن ذلك كله يتناسب تناسباً طردياً في حالة الدول ذات الوضع الرفاهي الأعلى، وفي أمريكا حيث يتمرد المهاجرون من آسيا والشرق الأوسط ودول أمريكا اللاتينية على برامج تنظيم الأسرة وهو ما يحافظ على إبطاء شيخوخة المجتمع الأمريكي، وبالنظر إلى الأرقام التي تنفقها أمريكا على الانحلال الأخلاقي نصاب بالدهشة؛ فهي تقدم ما مجموعه ٦٠٠ مليار دولار في عام ٢٠٢٠م لتبني الأطفال غير الشرعيين، وتقديمُ المساعدات العائلية والطبية سوف ترتفع إلى تريليون دولار عام ٢٠٣٠م، وأظن أن الدمار الذي أصاب الغرب يريد أن يشاركه فيه العالم كله خاصة المسلمين - كالزانية التي تود أن لو صار الجميع مثلها.



ومن المؤكد أن الجانب الثقافي والاجتماعي الذي يراد فرضه على الحضارات الأخرى - والإسلامية على رأسها - هو جزءٌ مما أطلق عليه «صموئيل هنتنجتون» : «صراع الحضارات» هذه الوثيقة - وهي في حقيقتها تمثل مخططاً - تحاول فرض مصطلح « النوعGender» بدلاً من كلمة Sex والتي تشير إلى الذكر والأنثى - أما النوع فمعناه رفض حقيقة أن الوضع البيولوجي هو المصير لكل فرد ، ورفض حقيقة أن اختلاف الذكر والأنثى هو من صنع الله - عز وجل - وإنما الاختلاف ناتج عن التنشئة الاجتماعية والأسرية والبيئة التي يتحكم فيها الرجل. وتتضمن هذه النزعة فرض فكرة حق الإنسان في تغيير هويته الجنسية وأدواره المترتبة عليها ، ومن ثَمَّ الاعتراف رسمياً بالشواذ والمخنثين والمطالبة بإدراج حقوقهم الانحرافية ضمن حقوق الإنسان ومنها حقهم في الزواج وتكوين أسر والحصول على أطفال بالتبني أو تأجير البطون. وتطالب الوثيقة بحق المرأة والفتاة في التمتع بحرية جنسية آمنة مع من تشاء وفي أي سن تشاء وليس بالضرورة في إطار الزواج الشرعي؛ فالمهم هو تقديم المشورة والنصيحة لتكون هذه العلاقات (الآثمة) مأمونة العواقب سواء من ناحية الإنجاب أو من ناحية الإصابة بمرض الإيدز.

وتطالب «وثيقة بكين» الحكومات بإعطاء الأولوية لتعزيز تمتع المرأة والرجل - بالكامل وعلى قدم المساواة - بجميع حقوق الإنسان والحريات بدون أي نوع من التميز وحماية ذلك ، ويدخل ضمن هذه الحقوق والحرياتِ : الحرياتُ الجنسية بتنويعاتها المختلفة والتحكم في الحمل والإجهاض وكل ما يخالف الشرائع السماوية ، وتطالب الوثيقة الحكومات بالاهتمام بتلبية الحاجات التثقيفية والخدمية للمراهقين ليتمكنوا من معالجة الجانب الجنسي في حياتهم معالجة إيجابية ومسؤولة ، وتطالب بحق المراهقات الحوامل في مواصلة التعليم دون إدانة لهذا الحمل السِّفَاح.

ولا تتحدث «وثيقة بكين» عن الزواج من حيث إنه رباط شرعي يجمع الرجل والمرأة في إطار اجتماعي هو الأسرة؛ وإنما ترى أن الزواج المبكر يعوق المرأة ، ومن ثَمَّ فهي تطالب برفع سن الزواج وتحريم الزواج المبكر. ولا ترد كلمة «الوالدين» إلا مصحوبة بعبارة «أو كل من تقع عليه مسؤولية الأطفال مسؤولية قانونية» في إشارة إلى مختلف أنواع الأسر المثلية ، ولا تستخدم الوثيقة عبارة الزوج وإنما الشريك أو الزميل.

وتخاطب وثيقة بكين المرأة الفرد وليست المرأة التي هي نواة الأسرة ، ولذا فالمرأة العاملة هي المرأة المعتبرة؛ أمَّا المرأة العاملة داخل البيت - ربة الأسرة - فيُنظر إليها باعتبارها متخلفة وخارج السياق الدولي الجديد؛ لأنها لا تمارس عملاً بمقابل ، ولأنها ربطت نفسها بالزوج والأولاد والأسرة ، ولذا فعبارة : «الأمومة» وردت حوالي ست مرات؛ بينما كلمة : «جندر» جاءت ستين مرة وجاءت كلمة

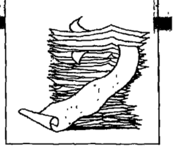


«جنس» في مواضع كثيرة. إن وثيقة بكين التي أصبحت «مقررات بكين» ووقعت عليها ١٨٠ دولة هي أساس المرجعية الكونية البديلة والتي أشارت بوضوح إلى أن الدين يقف عائقاً أمام تحقيق هذه المقررات، ولذا ناشدت المقرراتُ المؤسساتِ الدينيةَ لكي تساعد على تحويل مقررات مؤتمر بكين إلى واقع - أي أن تصبح المؤسسات الدينية أحد أدوات المرجعية الكونية الجديدة التي يتبناها النظام العالمي ويسعى لفرضها على العالم. وهنا لا بد من تأمُّل دور بعض المؤسسات الدينية الإسلامية في الموافقة على تمرير المطالب التي تفرضها الأجندة الدولية مثل حق الزوجة في السفر بدون إذن الزوج وكذا الأولاد القُصَّر بما في ذلك البنات. والمثير أن تستخدم الوثيقة كلمة (المساواة) للتعبير عن إزالة الاختلافات بين الرجل والمرأة، وتستخدم (التنمية) للتعبير عن الحرية الجنسية والانفلات الأخلاقي، وتستخدم كلمة (السلم) لمطالبة الحكومات بخفض نفقاتها العسكرية وتحويل الإنفاق إلى خطط التخريب والتدمير للأيديولوجية النسوية الجديدة؛ حيث تلزم مقررات بكين الحكومات المحلية بتنفيذ الأهداف الاستراتيجية للنظام العالمي الجديد فيما يتصل بإقرار الأيديولوجية النسوية الجديدة، وذلك بمساعدة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

هذه هي المفردات الجديدة والمقررات التي يسعى النظام العالمي الجديد لفرضها أيديولوجية كونية على العالم. وبالطبع فإنه يستهدف من وراء ذلك ضرب مواطن القوة في الحضارات المختلفة معه.

وبالنسبة للحضارة الإسلامية فلا يزال الدين الإسلامي يمثل مرجعية للناس ونظاماً لحياتهم خاصة في مسائل الأسرة والأحوال الشخصية وفي مسائل الفكر والثقافة والاعتقاد وهو ما يزعج الأمم المتحدة والغرب؛ إذ إن المسلمين يمثلون ملياراً وربع مليار نسمة، والعالم الإسلامي بإمكاناته وثرواته وأهله يهدد النظام العالمي الجديد بفقدان سيطرته عليه ما بقي الإسلام حاكماً للجوانب الاجتماعية والثقافية وللهوية، ولذا لا بد من تسديد الضرب إلى الصميم للقضاء على الهوية الإسلامية وعلى النظم الاجتماعية التي أثبتت أنها القلعة التي حمت العالم الإسلامي من السقوط والانهيار، ولذا فإن الصراع مع الغرب انتقل من السياسي والاقتصادي إلى الديني والثقافي والاجتماعي المتصل بالهوية والوجود؛ وهو ما يتطلب وعياً جديداً وأدوات جديدة؛ كما يتطلب يقظة ومقاومة.

إن الإنسان: الرجل، والمرأة، والأطفال، والأسرة هم المقصودون بالهجمة العالمية الجديدة وهم المقصودون بالمرجعية الكونية البديلة للنظام العالمي الجديد؛ وعلى عالمنا الإسلامي أن ينتفض ويستيقظ؛ فإن وجودنا مرتبط بمدى ارتباطنا بكلمة: «مسلمين» اسماً وفعلاً؛ وإلاَّ فالاستبدال كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].



ماذا يريدون من المرأة..؟! (٢ ـ ٢)

لكي لا نسقط في الهاوية

عبد الله أحمد ناصر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فقد أخفق العلمانيون في محاولتهم إقناع الأمة بأفكارهم، واستمروا على اختلاف اتجاهاتهم شراذم قليلة معزولة لا تمت إلى عامة الأمة بِصِلَة، وبعد فترة طويلة اتجهوا إلى تطوير استراتيجيتهم؛ فمن محاولة التأثير على الأفكار إلى محاولة تغيير السلوك والأخلاق وتفكيك الأسرة وإفساد المجتمع وطمس هويته من داخله، والقيام بتفريغ عقول الأمة من قيمها وإغراقها بالشهوات من دون ضابط شرعي أو حاجز أخلاقي.

والمتأمل في واقع الأمة اليوم يلمس نجاحًا كبيرًا تحقق للقوم في هذا الاتجاه، وكان المدخل الكبير والباب العريض الذي ولجوا منه إلى ذلك هو التأثير على المرأة دفاعًا عن حريتها وإرجاعًا لحقوقها المهدرة ـ فيما زعموا ـ.

ويعود هذا النجاح إلى أسباب عديدة يمكن إجمالها في جوانب ثلاثة:

الأول: أسباب تعود إلى المرأة والمجتمع، وأهمها:

● الجهل المفرط في أوساط كثير من النساء بقيم الإسلام وأحكامه ومقاصده، وقد زاد من خطورة هذا الأمر عمليات التشويه التي يمارسها العلمانيون تجاه التشريعات الإسلامية المتعلقة بالمرأة عن طريق تناولها بشكل مجزأ يجعلها بعيدة عن التشريعات التي وردت في سياقها، مع إغفال متعمد لبيان مقاصد الإسلام من تشريعها؛ بهدف إظهار قصورها وتجاوز العصر لها ووقوفها حجر عثرة في طريق نيل المرأة لحريتها وحقوقها.

● ظاهرة ضعف الإيمان لدى كثير من النساء نتيجة عدم قيام المؤسسات التربوية في المجتمعات الإسلامية بالدور المنوط بها تجاه هذا الأمر، وتركها الحبل على الغارب لصواحب السوء وذوي الشهوات ليقوموا عبر الوسائل المختلفة بالسيطرة على عقل المرأة ومشاعرها ومن ثَمَّ تحديد اتجاهاتها وتوجيه ميولها حسب ما يشتهون.

● غفلة كثير من النساء عن حقيقة رسالتهن في الحياة، والدور المنوط بهن في بناء الأمة وصيانتها من عوامل الزيغ والانحراف.

● قيام بعض النساء المترفات بتبني دعوات العلمانيين وبروزهن واجهة لكثير من الأنشطة المقامة، وتوفيرهن للدعم المعنوي والمادي الذي تحتاجه بعض الأنشطة، إضافة إلى تغريرهن بقطاع عريض من النساء اللاتي جرت العادة بقيامهن بتقليد مترفات المجتمع وكبرياته لعظم جهلهن وضعف إيمانهن.

● أن جزءًا كبيرًا من المحافظة الظاهرة لدى كثيرات يعود إلى أعراف قبلية وتقاليد اجتماعية متوافقة مع الشرع دون أن يكون لها بعدٌ إيماني في نفوس كثيرات، ومن المعلوم أن الأعراف والتقاليد ليس لها طابع الثبات بل هي قابلة للتبدل بمرور الوقت خصوصًا متى تغيرت أوضاع المجتمع: علمًا وجهلاً، غنىً وفقرًا، انفتاحًا وانغلاقًا، ويتسارع هذا التغير حين توجد جهات تخطط للتغيير وتستخدم سبلاً ملتوية تحتفي فيها بالقديم - إذا احتفت - معتبرة إياه تراثًا لعصر مضى، وتلمِّع فيها ما تريد نشره وتجعله من متطلبات التقدم وعلامات الرقي والنهضة.

● الانحراف العام والانحطاط الشامل الذي أصاب المجتمع المسلم في كثير من جوانب الحياة المختلفة، والذي بدوره كان له أكبر الأثر في ضعف كثير من النساء وقيامهن بالتفاعل مع الطروحات العلمانية بشكل ظاهر.

الثاني: أسباب تعود إلى العلمانيين، وأهمها:

● عملهم بهدوء وبأساليب خافتة حرصًا على عدم الدخول في مواجهات مكشوفة، وسعيهم إلى تحقيق أغراضهم المشبوهة عن طريق لافتات وشعارات مقبولة، مع الحرص على الاستفادة بأقصى مدى ممكن من بعض أهل العلم وبعض المحسوبين على الدعوة لقبول أعمالهم من قِبَل العامة وتسويغها أمامهم شرعًا من جهة، ولإحداث شرخ في صفوف العلماء والدعاة من جهة أخرى.

● استفادتهم من مرحلة الضعف والهوان التي تمر بها الأمة، ومن قوة الغرب النصراني - حيث يرتبطون به ويعملون على تحقيق مصالحه بصورة فجة - والذي يضغط بقوة في سبيل فرض حضارته وهيمنة قيمه وشيوع سلوكياته في المنطقة تحت مسميات مختلفة كالعولمة والديموقراطية ودعاوى حقوق الإنسان وحرية المرأة وحرية الاعتقاد إلى آخر القائمة.

● إبرازهم لصور الظلم التي تقع على المرأة في مجتمعاتنا، واتخاذها موضوعاً ومدخلاً للحديث عنها بهدف تحقيق مآربهم وإشاعة السلوكيات والأخلاق التي يروجون لها ويدعون النساء إلى تطبيقها.

● العمل على زعزعة الثقة بين العلماء والدعاة من جهة والمرأة من جهة أخرى بهدف إيجاد فجوة بينها وبين الدين، وذلك عن طريق وصمهم لأهل العلم والدعوة بالتخلف والجمود وعدم عيش الواقع وإدراك متطلبات العصر والوقوف حجر عثرة في طريق نهضة المرأة ورقيها، والتسبب في صور الظلم الحاصلة عليها في بعض مجتمعاتنا الإسلامية.

● استهواء المرأة وإغرائها وتزيين ما يشتهون لها عن طريق الاستفادة من بعض الخصائص التي تتمتع بها إجمالاً كقوة العاطفة وسرعة التأثر وضعف الخبرة في مجريات الحياة ومكائدها، وحب التزين والرغبة في الترفيه.

● تحسين صورتهم لدى المرأة وكسب ثقتها عن طريق إقامة بعض المؤسسات الطوعية التي تقدم بعض الأنشطة الاجتماعية والجمعيات التي ترفع عقيرتها بالمطالبة بحقوق المرأة وإنصاف المجتمع لها.



● الاستفادة من الخلاف الفقهي وشذوذات بعض أهل العلم في بعض المسائل الشرعية المتعلقة بالمرأة في محاولة إيجاد مسوغات شرعية لما يدعون المرأة إليه عن طريق التلفيق بين تلك الآراء والأخذ من كل عالم فتواه التي تخدم أهواءهم، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى سعيهم إلى الاستفادة من ذلك في تشويه صورة بعض أهل العلم والدعوة ، وزعزعة الثقة بينهم وبين المرأة عن طريق ضرب آراء بعض أهل العلم ببعض ، ووصم أصحاب الاجتهادات التي لا تتوافق مع أهوائهم بالتشدد والجمود وإرادة التعسير على المرأة وكبتها والتضييق عليها.

● التدرج في تحقيق أهدافهم؛ فمن المطالبة بحقوق مشروعة هي من صميم قيم الإسلام وتعاليمه إلى مزج ذلك بحقوق تتناقض مع قيم الإسلام إلى العمل على إحلال قيم الغرب وتقاليده محل قيم الأمة وتقاليدها ومطالبة أفراد المجتمع بتغيير هويتهم للوصول إلى الوضع المرتجى لهم.

● سعيهم إلى الفصل بين ما يزعمون أنه الدين الصحيح الذي يرفعون شعار التمسك به والدفاع عنه، وبين العلماء والدعاة الذين يزعم العلمانيون بأن دعوتهم للمرأة ليست من الدين الصحيح في شيء وإنما هي مجرد تشدد وتحكم في المرأة بأمر لا أصل له في الدين.

● تضخيم أخطاء العلماء والدعاة ونسبة بعض الشنائع زوراً إليهم ، والاستفادة من ذلك في عملية التشويه وزيادة الفجوة بينهم وبين بعض نساء المجتمع، وفي المقابل تضخيم العلمانيين لأعمالهم والمنكرات التي يروجونها لتضخيم وزنهم في المجتمع، ولتصوير أن جل النساء معهم، ولتيئيس العلماء والدعاة من إمكانية الإصلاح.

الثالث: أسباب تعود إلى العلماء والدعاة، وأهمها:

● ضعف مستوى الجهود والأنشطة العلمية والدعوية الموجهة للمرأة ، وقلتها وعدم كفايتها لسد احتياج الساحة ، وذلك يعود في ظني إلى قلة الاهتمام وضعف عملية التخطيط وتشتت الأفكار والجهود وعدم التركيز مما أدى إلى عدم استثمار الطاقات بصورة مرضية .

● عدم وجود طروحات متكاملة لقضية المرأة والقيام بطرح النظرة الشرعية مجزأة مما يفقدها قيمتها ويظهرها - في كثير من الأحيان - بأنها غير صالحة للتطبيق ؛ لأنها تتصادم مع جوانب من الواقع المعاش ؛ علماً بأن الواقع السيئ للمرأة يرجع إلى عدم أخذها بالتوجيه الشرعي في كافة جوانبه .

● مجاملة بعض العلماء والدعاة للواقع السيئ ، ومحاولتهم التعايش مع رغبات بعض أفراد المجتمع المتجهة نحو التغريب ، وقيامهم بإصدار الفتاوى المتسقة مع ذلك .

● الرتابة والتقليدية في جل البرامج والأنشطة العلمية والدعوية الموجهة للمرأة ، وعدم وجود إبداع أو تجديد فيها مما أدى إلى ضعف التفاعل معها وقلة الإقبال عليها من كثير من النساء .

● عدم أخذ زمام المبادرة في التعامل مع القضايا والأحداث، والتفاعل حسب ردود الأفعال دون أن يكون هناك مشاركة في صنعها أو تأثير في تحديد اتجاهها في غالب الأحيان ، وهو مما أفرغ الساحة الاجتماعية أمام العلمانيين، ومكنهم من فعل ما يحلو لهم تخطيطًا وتنفيذًا وتوجيهًا وقطفًا للثمار بما يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم.

● عدم بيان أهل العلم والدعوة لدائرة المباح المتعلق بالمرأة بشكل جيد ، وأخذهم لها بالأمثل عن طريق

طرحهم للأفكار وتبنيهم للحلول المثلى في كثير من المواقف والقضايا بطريقة يفهم منها بأنها الطرح الشرعي الوحيد في الجانب المتناول.

وقضية الأخذ بالأمثل من الأمور التي لا يطيقها سوى قلة من الصالحات، أما غيرهن من نساء الأمة فقد وسَّع الله عليهن بما أباحه لهن، وواجب العلماء بيانه، وعدم التثريب على من أخذت به ما دامت لم تتعد حدود الله و لم تنتهك محارمه.

● عدم مراعاة بعض الدعاة لتعدد الفتوى ووجود خلاف بين أهل العلم في بعض المسائل الاجتهادية، وقيامهم بمحاولة إلزام المرأة برأي معين مع أنها ليست مكلفة شرعاً إلا بتقليد الأوثق لديها في دينه من أهل العلم لا صاحب رأي أو بلد بعينه.

● حساسية بعض الدعاة المفرطة في التعامل مع المرأة وقضاياها، وانغلاقهم الشديد الذي يمنعهم في أحيان كثيرة من تناول الأمور بموضوعية؛ مما جعل الأمور تتجاوزهم بشكل أدى إلى انفتاح صارخ غير منضبط.

● الخلط بين الأعراف والتقاليد والمنهج، وعدم تمييز بعض العلماء والدعاة بين الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة والمبنية على نصوص الشرع وقواعده وبين آرائهم التي تكون مبنية على أعراف وتقاليد اجتماعية، ولا ريب في أن لهم الحق كغيرهم من أبناء المجتمع في أن يتخذوا ما يشاؤون من مواقف تجاه أعراف المجتمع وتقاليده التي لا تتعارض مع الشرع، وأن يحاولوا إقناع من يشاؤون بمواقفهم تلك كما يحاول غيرهم، لكن الواجب عليهم إيضاح أن تلك الآراء مردها إلى العرف والتقاليد من غير محاولة إلباسها لباساً شرعياً متكلَّفاً فيه، وأن لكل أحد أن يتخذ الموقف الذي يشاء ما دام رأيه غير متعارض مع الشرع، وهذا بخلاف الأحكام الشرعية الثابتة التي يجب على الناس التزامها كل حسب وسعه وطاقته.

● التعميم: بعض من الدعاة يقومون بمحاربة المشاريع والأنشطة النسوية التي تتضمن بعض المخالفات الشرعية في المجتمع بشكل مطلق بدل محاولة مد جسور التفاهم والثقة مع أصحاب تلك المشاريع وتنمية جوانب الخير لديهم، والقيام بترشيد مناشطهم وتوجيهها الوجهة السليمة، مما يدفع القائمين عليها - من ذوي النفوذ ورجال الأعمال - في أكثر الأوقات إلى استخدام كافة ما يملكون من أوراق لمضي الأمر على ما يريدون.

● هيمنة الأعراف والتقاليد وخوف بعض الدعاة من تجاوزها؛ إلى جانب إغفال بعض المناشط الملائمة للمرأة التي أثبتت نجاحها في مجتمعات أخرى وفسح المجال أمام العلمانيين ليسدوا الفراغ الذي تعاني منه نساء المجتمع من خلال البرامج والأنشطة التي يقيمونها.

● عدم إدراك كثير من العلماء والدعاة لطبيعة التحول الذي حصل في عقلية النساء وسلوكياتهن واحتياجاتهن في وقتنا وحجم ذلك، واستصحابهم لواقع المجتمع في زمن ماض، أو تعميمهم لواقع بيئاتهم الخاصة على البيئة العامة مما جعلهم لا يشعرون بأهمية إعطاء دعوة المرأة أولوية ومزيد عناية.

● إغفال العناية بالجوانب التي فطر الله المرأة على الاهتمام بها كأمر الزينة والجمال، والأمور التي لكثير من النساء تعلق قوي بها في وقتنا كالترفيه بحيث لم يتم تقديم برامج ومشاريع حيوية مباحة في هذا المجال تسد حاجة المرأة وتقطع الطريق على العلمانيين الذين يكثرون من الولوج إلى المرأة عبر هذه البوابة ولا يجدون أدنى منافسة من العلماء والدعاة حيالها.

● ضعف الرصد والمتابعة لجهود العلمانيين وأنشطتهم مع عدم المعرفة بكثير من أعمالهم إلا بعد وقوعها مما يؤخر من مواجهتها ويجعل العلماء والدعاة يتعاملون مع آثارها ويتناسون - في الغالب - أهدافها والأسباب التي هُيِّئت لنجاحها وشجعت القوم على المضي فيها.

● ضعف كثير من العلماء والدعاة في بناء العلاقات وتكوين الصلات والقيام بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله - تعالى - بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، مما هيأ الفرصة للعلمانيين لكسب كثير من ذوي النفوذ ومثقفي المجتمع ورجال الأعمال لخدمة طروحاتهم ودعم مشاريعهم مع أنهم ليسوا منهم.

● الانفصام لدى بعض الدعاة بين النظرية والتطبيق في التعامل مع المرأة فبينما يوجد لدى جلهم إدراك نظري جيد لما يجب أن تكون عليه الأمور، نجد ممارسة سيئة لدى كثيرين تمشياً مع الأوضاع البيئية ورغبة في الراحة وعدم المعاناة في مواجهة شيء من ذلك.

كيف ندافع العلمانيين؟

تعد النجاحات التي حققها العلمانيون في مجال المرأة ثمرة التقصير والغفلة التي عانى منها قطاع كبير من العلماء والدعاة وتيار الصحوة، وعليه فإن المدخل الصحيح للمدافعة يقتضي استشعار الخطر وإدراك ضخامة المسؤولية والتفكير بموضوعية والتنفيذ بجدية للخطوات المراد تحويلها إلى واقع، وما لم يتم ذلك فإن الخطر سيستفحل والخرق سيتسع على الراقع، ولن يجدي عندها كثير من خطوات الحل المؤثرة والمتاحة الآن.

وقبل أن أتطرق إلى ذكر بعض السبل التي يمكن بواسطتها مدافعة القوم وكبح جماحهم أو التخفيف من شرهم، لا بد من ذكر بعض القواعد والمنطلقات التي لا بد من استيعابها قبل الدخول في مواجهة معهم، ومنها:

● لا بد من التوكل التام على الله وصدق اللجوء إليه والاستعانة به والتضرع بين يديه وطلب عونه وتسديده مع الأخذ بالأسباب وإعداد العدة، وذلك لأن من ينصره الله فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له كما قال - تعالى - : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

● الاعتناء بالوضوح الإسلامي في الطرح، والمطالبة بجلاء لكافة أفراد المجتمع بتحقيق العبودية الحقة لله - تعالى - والانقياد التام له والتسليم لشرعه وعدم الخروج عن أمره والتأكيد على الدعاة بعدم إخفاء حقيقة دعوتهم في طروحاتهم سعياً في استصلاح جوانب الانحراف في المجتمع، وإقامةً للحجة على العباد وإبراءاً للذمة أمام الله - تعالى -.

● الحذر من التفلت الشرعي الذي يقع فيه بعض الدعاة أثناء طروحاتهم عن المرأة، ومع إدراك أن الدافع لبعضهم قد يكون الحرص على الدعوة والسعي إلى تقريب الكثيرات إلى الإسلام؛ إلا أنه قد فاتهم تذكُّر أن الانضباط بالشرع شرط لصحة العمل وأن الغاية مهما كانت شريفة لا تسوِّغ الوسيلة، وأن الباري - عز وجل - لا يُتقرب إليه بمعصيته ومخالفة أمره بل بطاعته وامتثال شرعه.

● التوجه إلى التخطيط الجاد والمتكامل في دعوة المرأة وتربيتها، والمبني على إدراك عميق للماضي ومعايشة للحاضر واستشراف للمستقبل، وترك الارتجال والعفوية وسطحية التفكير والتنبه إلى أن ذلك وإن قُبِلَ في أزمنة ماضية فإنه غير مقبول بحال اليوم نظراً لضخامة الاستهداف للمرأة والعمق في التخطيط والدقة



في التنفيذ لدى العلمانيين، والحذر من أن ينشغل العلماء والدعاة بردود الأفعال تجاه قضايا وأحداث جزئية يصنعها العلمانيون تتصف بالإثارة والهامشية على حساب قضايا جوهرية سواء في جهة البناء والتربية أم في جهة مواجهة القوم ودفع أخطارهم.

● العمل على طرح مبادرات إصلاحية جذرية تتسم بالعمق والشمول والواقعية بدلاً من الحلول الترقيعية وتجزئة القضايا بشكل يمكن العلمانيين من التلاعب بالأمر والمزايدة فيه بالدعوة إلى إصلاحات جزئية هامشية لها بريق تستغل في تخدير فئات كثيرة من المجتمع وتحييدهم عن الوقوف في صف العلماء والدعاة والذين يسعون إلى القيام بإجراء إصلاحات جوهرية في القضايا والمجالات الأساسية.

● الاعتناء بالقيام بإجراء تقييم شامل لأنشطة الدعاة وبرامجهم المختلفة والموجهة إلى المرأة، ومراجعتها من حيث الكم والكيف، ويتأكد ذلك اليوم نظراً لتغير الاحتياجات وتبدل الأحوال وتطور الإمكانات، وما لم يتم ذلك وتهيأ له الفرص الكفيلة بالنجاح فإن الزمن سيتجاوز أنشطة الدعاة وبرامجهم، ويجعلهم كمن يوصل الرسائل بين البلدان عبر الأقدام والدواب في زمن الاقمار الصناعية و الإنترنت.

● توحيد الصفوف ولمّ الجهود وسعة الصدر لرأي أهل العلم الأثبات المخالف في مسائل الاجتهاد، والتطاوع فيما لا إثم فيه، والمحاورة بالتي هي أحسن، وحسن الظن بالآخرين، والتماس العذر لهم، ومغفرة زلاتهم، والتجاوز عن هفواتهم... من أهم المهمات التي على العلماء والدعاة العناية بها؛ لأن الاختلاف شر والفرقة عذاب، وتضرر الدعوة من كون بأسها بينها وعدوها من داخلها أعظم عليها جداً من تربص أعدائها بها وكيدهم لها.

● إدراك الدعاة لحقيقة الوضع وأنهم في صراع مع قوم ينتمون إلى جهات تريد اجتثاث قيم الإسلام وأخلاقياته وإحلال قيم وأخلاقيات حضارة أخرى تناقضها مكانها، وعليه فالواجب عليهم طول النفَس وبعد النظر ومحاسبة الذات وإدراك صعوبة الطريق وأن الهدم أسهل من البناء وتهيئة النفْس لتحمل الهزيمة والمواصلة بعدها لأن العاقبة للمتقين، ومعرفة أن الانتصار الحقيقي يكمن في الثبات على المبدأ، أما شيوع المبدأ فالداعية يسعى له ويجد في سبيل ذلك، ولكن ليس من شأنه تحققه، وله أسوة بالأنبياء - عليهم السلام - إذ قتل بعضهم وطرد آخرون، ويأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد، والنبي ومعه سواد كثير قد سد الأفق.

● أهمية أن تتجه برامج الدعاة إلى تربية كافة شرائح النساء في المجتمع والبناء الصحيح لشخصياتهن وبخاصة تلك التي لم تؤثر فيها طروحات العلمانيين بعدُ، أو أن تأثيرهم محدود فيها، وأن تشتمل تلك البرامج على جرعات تحصينية ضد أساليب العلمانيين في الطرح، وذلك لأن الوقاية خير من العلاج وما استدفع الشر بمثل الاستعاذة بالله منه، والتعرف عليه للحذر من التلبس به.

● الإقرار بوقوع صور متعددة من الظلم الواقع على المرأة في مجتمعاتنا بسبب الجهل بالشرع وعدم تطبيقه، وهو ما يجب إفهامه للمرأة التي يريد العلمانيون تشويه صورة الإسلام في ذهنها، والإسلام لا يتحمل نتاج البعد عنه.

● الاعتناء بتحلي صغار شباب الصحوة بصفات الحكمة والصبر والحلم والروية وعدم الاستعجال، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والتعامل مع الأحداث بعقل لا بعاطفة مجردة، ومشاورة أهل العلم والخبرة في



سبل مدافعة العلمانيين حتى لا تُجَر الصحوة إلى مواقف غير محمودة العواقب، وبخاصة أنه لا توجد لدى (القوم) أي معايير أخلاقية تمنعهم من فعل أي شيء في سبيل تحقيق أغراضهم ومآربهم.

● إقامة تعاون إيجابي في المجالات الدعوية والتربوية بين البيئات والمناطق المختلفة يتم بواسطته تبادل الأفكار والخبرات، والبدء في البرامج المختلفة من حيث انتهى الآخرون، وهذا ولا شك سيشجع على مزيد انطلاق، ويوسع دائرة الاختيار أمام الدعاة ويمنع من هدر الطاقات والإمكانات في إقامة برامج ثبت إخفاقها متى امتلك الدعاة الشجاعة الأدبية للتراجع عن أنشطتهم ذات العائد الدعوي والتربوي الأقل، وتجاوز المألوف مما لا بعد شرعياً له وتحمل الضغوط البيئية الناتجة عن ذلك.

سبل المدافعة:

السبل المقترحة لمدافعة العلمانيين في مجال المرأة كثيرة، ومن أبرزها:

أولاً: سبل تتعلق بالمرأة والمجتمع ومن أبرزها:

● العناية بتأهيل المرأة وبناء شخصيتها بناءاً متكاملاً في كافة الجوانب التي تحتاجها و من أبرز ذلك:

أ- تعميق قضية الهوية والانتماء لهذا الدين لديها وتوضيح مقتضيات ذلك ولوازمه كوجوب المحبة الكاملة لله، والانقياد التام لشرعه فيما وافق هوى العبد وفيما خالفه، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»(1).

ب - تجلية رسالة المرأة المسلمة في الحياة والدور المنوط بها في عصرنا في سبيل نهضة الأمة ورقيها واستعادتها لعزتها، والسبل المعينة لها على أداء ذلك.

ج - العناية بالجوانب الإيمانية والعبادية لدى المرأة، وتزويدها بالعلم الشرعي، وبخاصة فيما تحتاج إليه ولا يسعها جهله في مراحل حياتها المختلفة.

د - رفع مستوى ثقافة المرأة وتحبيبها بالقراءة وتدريبها على ممارسة التثقيف الذاتي والاستفادة من الوسائل التقنية المتاحة في ذلك.

هـ - رفع مستوى وعي المرأة وإدراكها لواقعها والتغيرات الضخمة الحاصلة فيه، وما يحاك ضد الأمة عموماً والمرأة خصوصاً من مخططات تهدف إلى إبعادها عن دينها، وتهميش دورها في الحياة بشكل يجعلها تعيش في عزلة شعورية عن حاضرها.

و - الرقي باهتمامات المرأة وتعميقها وإبعادها عن السطحية، وتعويدها على الجدية وترتيب الأولويات وعدم الانشغال بالترهات والتوافه.

● تقرير الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة، نحو: كون الأصل قرارها في البيت، والتزام الحجاب، وعدم إبداء الزينة والتبرج تبرج الجاهلية الأولى، ودعوة المرأة إلى التزامها.

● رصد المشكلات التي تعاني المرأة منها في كافة الجوانب المختلفة، والسعي إلى تلافيها والتقليل من نتائجها السلبية.

---

(1) تاريخ بغداد للخطيب: 4/369، شرح السنة للبغوي: 1/213، وصححه النووي في الأربعين واستبعد ذلك جداً ابن رجب في جامع العلوم والحكم: 2/394، وقال الحافظ في الفتح: 13/302: (أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات).

● العناية بوقت المرأة وشغله بالمفيد واقتراح السبل الملائمة لتحقيق ذلك[١].

● تقوية البناء الأسري وبخاصة في المجال الدعوي؛ إذ إن للدعوة العائلية أهمية فائقة في تعليم المرأة دينها وتحصينها ضد طروحات العلمانيين ومكائدهم.

● تفعيل دور المرأة في مواجهة مخططات العلمنة الساعية لإفسادها، وتشجيعها على القيام بدعوة بنات جنسها؛ لأنها الأعرف بمجتمعاتهن والأكثر تأثيراً فيهن والأقدر على الاتصال بهن والبيان لهن فيما يخصهن، مع أهمية العناية بجانب التحفيز لها وإيجاد الدوافع لديها لمواصلة نشاطها الدعوي حتى لا تفتر أو تصاب باليأس والإحباط نتيجة طول المسير ومشقته[٢].

● مطالبة النساء بالعناية ببيئاتهن الخاصة ـ أزواجاً وأولاداً ـ والقيام بالدور المنشود منهن في استصلاحها وإمدادهن بالوسائل والآليات والسبل المناسبة، وخاصة فيما تجهله المرأة مما يناسب في خطابها للرجال من محارمها؛ لأنهن الأكثر دراية بها، والأقدر على توجيهها والتأثير فيها متى استخدمن الحكمة.

● تفعيل دور الصالحات في المجتمع وإفساح المجال وفتح القنوات والميادين الملائمة أمامهن، ومحاولة إعداد بعض المتميزات ـ علماً وتفكيراً وسلوكاً ـ ثم إبرازهن بصفتهن قدوات لنساء المجتمع.

● توعية المجتمع بأهمية دور المرأة في نهضة الأمة ورقيها، ومطالبة أفراده بمؤازرتها والتواصي برفع صور الظلم المختلفة عنها والموجودة في بعض البيئات، وترك اللامبالاة والغفلة والتهميش للمرأة الذي يقع فيه بعض الأفراد، اقتداءً بنبينا ﷺ في تعامله مع المرأة.

ثانياً: سبل تتعلق بمجابهة العلمانيين، ومن أهمها:

● إبانة أهداف العلمانيين والتي من أبرزها:

أ - التشكيك بالأصول وإزاحة ثوابت الأمة العقدية وأسسها الفكرية والسلوكية وإحلال حضارة الغرب وقيمه مكانها.

ب - إخراج المرأة عن العبودية لله ـ عز وجل ـ والاستمساك بشرعه، وجعلها مجرد متاع في مسارح الرذيلة وملاهي الخنا ووسائل الإعلان وأوراق الصحف والمجلات وشاشات التلفزة والقنوات الفضائية.

ج - الدعوة إلى التفلت الديني والفوضى الاجتماعية تحت مسمى الحرية والمساواة.

د - إيضاح أن حقيقة الحقوق المزعومة التي يطالبون بإعطائها للمرأة حق الإلحاد والزنا والعري والحمل السفاح والشذوذ الجنسي سالكين طريقة التلميع للوسائل والتزوير للحقائق والإظهار للباطل بمظهر أخاذ.

● تتبع العلمانيين وكشف تاريخهم ودراسة إنتاجهم الفكري ورصد أنشطتهم ووزنها بميزان الشرع وإبانة ما فيها مما يتناقض مع ثوابت الأمة والسعي إلى زعزعتها لكي يتم فضح القوم وكشف انعزالهم عن قيم

---

(١) من الأمور الهامة التي ينبغي تحريض المرأة على ممارستها: العبادة والذكر، مدارسة القرآن والأحاديث النبوية، القراءة المبرمجة، الاستماع إلى الأشرطة النافعة، إدارة المشاريع النسوية التعليمية والاجتماعية ودعمها، التعرف على الأرامل والأسر المحتاجة ومساعدتها، تعلم الأعمال المهنية والأنشطة الملائمة من خياطة وحاسوب وأشغال فنية ومسائل الأمومة والاهتمام بالطفل ونحو ذلك.

(٢) من أهم الحوافز التي ينبغي العناية بها: بيان ما أعد الله للداعين للهدى، وإيجاد الشعور بالتحدي ببيان ضخامة الاستهداف العلماني الموجه للمرأة، وذكر نماذج متميزة لبعض داعيات الحق وأخرى لداعيات الضلال.



الإسلام وحضارته، وارتباطهم خدمة وتربية وفكراً وسلوكاً بجهات خارجية معادية تسعى إلى استئصال هوية الأمة وإحلال قيمها مكانها، وذلك من شأنه أن يمكن العلماء والدعاة من نقل الطرف الآخر من مرحلة الهجوم إلى الدفاع.

● تتبع مداخلهم النفسية وأنشطتهم الجاذبة لكثير من النساء والعمل على الحد منها والتخفيف من آثارها وإيجاد بدائل إسلامية عنها.

● العمل على استمالة القريبين فيهم من الحق ودعوتهم والعمل على كسبهم إلى جانب الموقف الشرعي الصحيح.

● تحديد الشبهات التي يثيرونها حول النظام الإسلامي في مجال المرأة مما يتخذونه وسيلة لتشكيك المرأة في دينها وزعزعة عقيدتها، والقيام بتفنيدها[1] والإثبات - عقلاً وواقعاً - أن النظام الإسلامي هو الطريق الأمثل لحماية المرأة من الظلم وصيانة المجتمع من الفساد، وإعطاء كل ذي حق حقه.

● بيان حقيقة واقع المرأة في الغرب وكشف ضخامة الأمراض والمشكلات التي تواجهها على كافة الأصعدة[2]، وفي ذلك أعظم تعرية للعلمانيين والذين يطالبون المرأة في مجتمعاتنا بمحاكاة المرأة الغربية والسير على منوالها إن هي أرادت سلوك طريق التقدم والمضي في دروب الحضارة - كما زعموا -.

ثالثاً: سبل تتعلق بالعلماء والدعاة، ومن أهمها:

● إدراك الواقع إدراكاً جيداً وتحليل جوانب القوة والضعف لدى الطرفين[3]، والاستفادة من ذلك في تحديد أهداف المرحلة والسبل المثلى للمدافعة.

● إبانة حقيقة النظام الإسلامي في معاملة المرأة، وتجلية محاسنه وإزالة الشبهات التي تثار حوله؛ لأنه لن يدحض الظلام إلا النور كما قال - تعالى -: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

● إيضاح الاختلاف الجذري بين النظام الإسلامي وواقع المجتمعات الغربية، والذي من أبرزه:

أ - أن الأسرة في النظام الإسلامي تعد اللبنة الأولى في تكوين المجتمع؛ بينما يعد الفرد في الغرب هو الركيزة الأساس.

ب - أن العلاقة بين الجنسين في النظام الإسلامي علاقة تكامل وتلاحم وحرص من كلا الطرفين على مصالح الآخر كحرصه على مصالحه، وطبيعة العلاقة في كثير من أرجاء الغرب اليوم قائمة على التنافس والتنافر بين الجنسين وحرص كل من الطرفين - وبخاصة المرأة التي تشعر بالاستضعاف - على فرض هيمنته على الآخر.

---

(١) من أبرز الجوانب التي يكثر القوم من الطعن فيها: أحكام التعدد والميراث والحجاب والخلوة والاختلاط، ومسائل القوامة والولاية والطلاق.

(٢) من الأمور التي لا بد للدعاة من الحديث عنها في هذا المجال: نسب العفة والزواج والطلاق والأولاد عير الشرعيين والخيانة الزوجية في الغرب، ومشكلات العنوسة والخروج عن الفطرة والتحرش بالمرأة والأمراض الجنسية والنفسية والتفكك الأسري وواقع الأبناء بعد خروج المرأة للعمل والمعاناة التي تلقاها الفتاة حتى تتزوج هناك، ومسائل النفقة والمعاملة التي تلقاها المرأة الغربية في أطوار حياتها المختلفة: أماً وأختاً وابنةً وزوجةً ومسنةً، متزوجة ومطلقة وأرملة.

(٣) من أبرز جوانب قوة العلماء والدعاة: جلاء الحق الذي يدعون إليه، وعمق انتمائهم إليه، والعاطفة في المجتمع نحو الدين، وكراهية أفراده لأعدائه والعاملين لحساب جهات خارجية تريد تقويضه، والعودة الصادقة لكثيرات من نساء المجتمع نحو الالتزام بالإسلام عقيدة وسلوكاً.



ج - أن النظام الإسلامي يعطي المرأة حقوقها الشرعية كاملة وفي المقابل يطالبها بالقيام بالواجبات الشرعية التي يفرضها عليها والتي لا تقوم الحياة السوية إلا بها، وفي الغرب نجد أن كثيراً منهم - يتبعهم العلمانيون في بلداننا - يوهمون المرأة بسعيهم لإعطائها حقوقاً هي في واقع الأمر بوابتهم الرئيسة لاستعبادها واستخدامها استخداماً جسدياً قذراً بعيداً عن مراعاة متطلبات روح المرأة وعقلها وقيم المجتمع وأخلاقياته.

● إقامة لجان ومراكز أبحاث مهمتها العناية بالجوانب الإعلامية وإبراز جهود العلماء والدعاة - أفراداً ومؤسسات - في قطاع المرأة عموماً والأسرة خصوصاً في الجوانب المختلفة: العلمية، الاجتماعية والصحية، وإعداد المعلومات والإحصائيات عنها، ونشر ذلك بشكل دوري عبر وسائل الإعلام لإظهار ضخامة الجهد المبذول وضآلة ما يقوم به العلمانيون مقارنة بها.

● العناية بالنساء في البيئات الخاصة بالدعاة تعليماً وتربية؛ نظراً لإمكانية التأثير القوي والاتصال المباشر لكي يتم تلافي الإهمال غير المتعمد لها الناتج عن الانشغال بالبيئة الخارجية وإبراز قدوات نسائية للمرأة ذات عمق في التفكير وجدية في الاهتمامات وقوة في الأخذ بالإسلام.

● تفعيل دور العلماء والواجهات الاجتماعية الخيرة - ذكوراً وإناثاً - وكافة أفراد المجتمع ومطالبتهم بالقيام بالدور المنشود منهم في مواجهة طروحات العلمانيين ودفع خطرهم، استفادةً منهم من جهة وتوسيعاً لدائرة المعركة من جهة أخرى بدلاً من جعلها كما يريد العلمانيون بينهم وبين الدعاة فقط.

● زيادة المناشط الدعوية والاجتماعية وتحسينها والاعتناء بتناول الموضوعات المختلفة التي تحتاجها المرأة مع الحرص على التجديد في الأساليب والإبداع في الوسائل لضمان تفاعل المرأة معها بشكل أكبر.

● توثيق الصلة بالمثقفين ورجال الأعمال ومد الجسور معهم لترشيد أعمالهم من جهة والحيلولة دون أن تكون عوناً للعلمانيين على إفساد المرأة من جهة أخرى، وللتنسيق معهم في اقتحام مجالات جديدة تحتاجها المرأة كصناعة الترويح والملابس ونحوها وفق الضوابط الشرعية.

● توسيع دائرة الانفتاح الدعوي على كافة مجتمعات النساء: ملتزمات وغير ملتزمات، مثقفات وعاميات، متزوجات وغير متزوجات، أمهات وأخوات وبنات، وعدم قصر النشاط على فئة دون أخرى.

● اقتحام ميادين وقنوات دعوية جديدة في مجال المرأة، ومن أهم ذلك:

أ - قيام العلماء والدعاة بإنشاء جمعيات تنادي بالحقوق الشرعية للمرأة لقطع الطريق على العلمانيين الذين يَلِجُون من هذا الباب لتحقيق مآربهم.

ب -إقامة مراكز أبحاث نسوية خاصة بشؤون المرأة.

ج - إنشاء مؤسسات إنتاج ودور نشر متخصصة بقضايا المرأة ودعوتها.

● العمل على تغيير هيكلة تعليم المرأة ليناسب وضعية المرأة ورسالتها في الحياة، والسعي لتطوير المناهج وفتح التخصصات التي تساعدها على القيام بدورها الأساس المنوط بها زوجةً وأماً ومربية.

وختاماً: فلا بد من إدراك أن الخطب جسيم، ويحتاج إلى استعانة صادقة بالله - تعالى - وعمل جاد، وتضافر قوي لكافة جهود المخلصين؛ وإلا فإن العاقبة ستكون وخيمة والمصير غير محمود، وعندها سيهيئ الله لدينه جيلاً ينصره ويقوم بأمره، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





وقفات حول..

الخطاب الدعوي في قضية المرأة

محمد بن عبد الله الدويش

إن الحديث عن تقويم الخطاب الدعوي في قضية المرأة يحتاج إلى دراسة علمية واسعة تعتمد على حصر النتاج الذي يتناول قضية المرأة وتحليل مضمونه تحليلاً علمياً؛ وهذا مشروع علمي يحتاج إلى جهد واسع، ولعله أن يكون ميدان اهتمام بعض المختصين.

ورغبة في الإسهام في هذا الملف الذي تنشره المجلة أحببت أن أسطر بعض الوقفات السريعة التي لا تعدو أن تكون خواطر وانطباعات شخصية أكثر منها دراسة علمية موضوعية.

الوقفة الأولى: لماذا يُعنى الدعاة بقضية المرأة؟

يعد موضوع المرأة من الموضوعات الساخنة والحيوية لدى الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ، وقلما نجد مناسبة للحديث والكتابة إلا وتتضمن شيئاً يتعلق بالمرأة، ولعل الذي أدى إلى أهمية قضية المرأة لدى الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ أمور، منها:

الأمر الأول: التأسي بالنبي ﷺ في دعوته؛ فقد كان يولي المرأة عناية واهتماماً؛ فكان ﷺ حين يصلي العيد يتجه إلى النساء فيعظهن ويأمرهن بالصدقة؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «خرجت مع النبي ﷺ يوم فطر أو أضحى فصلى ثم خطب، ثم أتى النساء فوعظهن وذكّرهن وأمرهن بالصدقة»(١).

ولم يقتصر الأمر على استثمار اللقاءات العابرة، بل خصص لهن النبي ﷺ يوماً يحدثهن فيه؛ فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدّم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار. فقالت امرأة: واثنتين، فقال: واثنتين»(٢).

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٩٧٥، ومسلم، ح/ ٨٨٤ مطولاً.

(٢) رواه البخاري، ح/ ١٠٢، ومسلم، ح/ ٢٦٣٤.



الأمر الثاني: أن النبي ﷺ حذر من فتنة النساء، وأخبر أنها من أشد ما يخشاه على أمته، فقال: «ما تركت بعدي فتنةً هي أضر على الرجال من النساء»(١).

ومن ثم كان لا بد من الاعتناء بذلك، سواء فيما يتعلق بدعوة المرأة وإصلاحها، أو التحذير من فتنة النساء وخطورتها.

الأمر الثالث: أن لصلاح المرأة واستقامتها الأثر البالغ على صلاح الأسرة؛ فهي الأم والمربية؛ والشباب والفتيات إنما ينشؤون في أحضانها، فلا غنى لنا حين نريد تكوين الأسرة المسلمة عن الاعتناء بدعوة المرأة وإصلاحها.

الأمر الرابع: أن دعاة التغريب قد تبنوا قضية المرأة ورفعوا لواءها، وولجوا جحر الضب الذي ولجه الأعداء، وهي دعوة محمومة وصوت نشاز يرفعه هؤلاء الببغاوات في وقت بدأ يعلن فيه عقلاء الغرب والشرق التراجع عما يطرحونه في قضية المرأة، فبدؤوا يدعون إلى فصل التعليم، ويدعو بعضهم إلى الحجاب، وإلى عودة المرأة إلى منزلها... ومع ذلك يسير هؤلاء الأذناب كالقطيع يريدون أن يبدؤوا من حيث بدأ هؤلاء.

الوقفة الثانية: منجزات الصحوة في قضية المرأة:

حين نتحدث عن الخطاب الدعوي في قضية المرأة فإن العدل والإنصاف يستوجب علينا أن نذكر المنجزات والنتائج الإيجابية التي حققها الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ. وليس صحيحاً أن تكون اللغة الوحيدة التي نجيدها هي لغة النقد وتعداد الأخطاء.

فمن المنجزات التي حققها الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ في قضية المرأة:

١ ـ تأخر دعوة التغريب والتحرر، ولولا فضل الله ـ عز وجل ـ ثم جهود الدعاة للحقت تلك البلاد بسائر بلاد المسلمين.

٢ ـ تغيرت لغة دعاة التغريب والعلمنة، وباتوا أقل جرأة منذ بداية الدعوة لتحرير المرأة، فأصبحنا نسمع كثيراً في حديثهم التمسح بعبارات «في إطار الشريعة السمحة» «فيما لا يتعارض مع شريعتنا وتقاليدنا»، وندرك أن ذلك لا يعني تغير الموقف، لكنه شاهد على أثر الدعوة والصحوة الإسلامية.

٣ ـ الصحوة والعودة إلى الله التي تحققت في أوساط المرأة، ولعل من أبرز الشواهد على ذلك انتشار الحجاب في البلاد التي كانت سباقة في دعوات التحرر؛ ففي جامعة كانت سباقة في دعوة التحرر في إحدى العواصم لم يكن يوجد إلا طالبة واحدة محجبة، واليوم انتشر في تلك الجامعة وغيرها الحجاب حتى فاق النصف، ولعل ما حصل في تركيا ـ التي كانت أول من رفع لواء العلمنة والتغريب في العالم الإسلامي ـ من ضجة حول الحجاب دليل على ما حققته الصحوة في هذا الميدان.

٤ ـ بروز قيادات دعوية نسائية لها حضور واضح ومتميز في الساحة الدعوية.

٥ ـ بروز أنشطة دعوية نسائية، كالمجلات النسائية، ودور تحفيظ القرآن الكريم ومدارسه.

ومع هذا الجهد إلا أن العمل البشري لا بد أن تصاحبه ثغرات وقصور، وحين تتجذر القضية وتتعقد عوامله تتسع هذه الثغرات، فنحتاج للمراجعة النقدية لواقعنا بين آونة وأخرى.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٥٠٩٦، ومسلم، ح/ ٢٧٤٠.



الوقفة الثالثة: حول محتوى الخطاب الدعوي يلمس القارئ لهذا الخطاب سمات من أهمها:

أ - الدائرة العامة والخاصة:

يغلب على كثير من المتحدثين إلى المرأة التركيز على قضايا محددة وتكرارها، حتى أصبحت مَنْ تحضر مجلساً من هذه المجالس تتوقع ألا تسمع إلاحديثاً حول الحجاب - وبالأخص حول بعض مظاهر التحايل عليه - أو الخروج إلى الأسواق، أو طاعة الزوج ... إلخ، وهي قضايا لا اعتراض على طرحها ومناقشتها والتأكيد عليها، ولا اعتراض على أنها مما تحتاجه النساء اليوم؛ لكن هذا أخذ أكبر من حجمه، وأصبح على حساب أمور أخرى ربما كانت أكثر منه أهمية، بل ربما كان إصلاحها يختصر علينا خطوات كثيرة.

إن هناك أحكاماً وآداباً شرعية خاصة بالنساء دون الرجال، وما سوى ذلك فالأصل أن الخطاب فيه للجميع، والدائرة التي يشترك فيها الرجال والنساء أوسع بكثير من الدائرة التي تختص بها النساء، لكن المتحدث إلى المرأة غالباً ما يحصر نفسه في الدائرة الخاصة شعوراً منه بخصوصية المخاطبين.

إن الحديث عن الإيمان والتقوى والتوكل على الله والتخلص من التعلق بما سواه، والحديث عن العبادات وأهميتها، والحديث عن أخطار المعاصي وآثارها، والحديث عن الآداب والحقوق التي ينبغي للمسلم رعايتها، والحديث عن اليوم الآخر وما أعد الله فيه للمطيعين والعصاة، والحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة وأهمية ذلك ووسائله، وطلب العلم والوسائل المعينة على تحقيقه، والحديث عن واقع الأمة ومسؤولية المسلمين تجاهه، فضلاً عن التربية وأهميتها ووسائلها وبرامجها؛ إن الحديث عن ذلك كله مما تفتقر إليه المرأة شأنها شأن الرجل، فلماذا يغيب ذلك في خطابنا الدعوي الموجه للمرأة؟!

ب - الخطاب الموجه لغير المهتديات:

لئن كانت الفتيات المهتديات، واللاتي يرتَدْنَ المساجد ودور القرآن الكريم يناسبهن خطاب معين، فالأخريات لهن شأن غير ذلك. إن الفتاة التي تعيش في عالم التيه والضياع، والفتاة التي تعيش همَّ الحب والعلاقة مع الطرف الآخر، والتي تعيش بين المسلسلات والقنوات الفضائية تحتاج لخطاب غير الذي تحتاجه المهتدية الصالحة.

فحين يكون الحديث معها دائراً حول الحجاب وخطورة التساهل فيه، وحول أحكام خروج المرأة... إلخ فإنها تشعر أنها لن تسمع جديداً، لن تسمع إلا الحديث حول الأحكام والحلال والحرام، وفرق بين أن لا نقرها على هذا التصور والكلام، وبين أن نتعامل مع الأمر الواقع بما لا يتعارض مع الشرع.

لقد كان ﷺ يحدِّث الناس بما يناسبهم وما يفقهون؛ فالأعراب يدعوهم للإسلام من خلال إعطائهم المال وترغيبهم فيه، وعدي بن حاتم يحدثه عن الأمن الذي سينشأ حينما يدين الناس بدين الإسلام، والكاهن يحدثه بحديث بيِّن فصيح بعيد عن الكهانة... وهكذا.

فلِمَ لا يكون الحديث مع أمثال هؤلاء حديثاً عن السعادة والطمأنينة؟ حديثاً عن القلق والمشكلات التي سيطرت على الناس اليوم، وأن العلاج لذلك هو الإيمان والرجوع إلى الله؟ لِمَ لا نستعين بنتائج الدراسات المعاصرة التي تثبت أثر التدين على استقرار حياة الناس وتجاوز مشكلاتهم؟ ولِمَ لا نتناول الحديث عن اليوم الآخر ونربط ذلك بواقع الناس بطريقة تخاطب مشاعرهم وعواطفهم وعقولهم.. إلخ.

ج – أهمية شمول الطرح والمعالجة:

لا بد من تناول قضية المرأة تناولاً شمولياً، وأخذ الأمر من جميع جوانبه دون الاستجابة لتناول دعاة التغريب لجوانب معينة يحددونها ويريدون أن تكون هي موضع النقاش والحوار، كقضية قيادة السيارة، أو غطاء الوجه أو نحو ذلك؛ وهي قضايا ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً، فقضية قيادة السيارة ترتبط بالخروج من المنزل، واتساع مجالات التعرض للفتنة والإغراء، وترتبط بالحجاب... وهكذا.

وكثيراً ما يطرح هؤلاء مسائل مما ورد فيها اختلاف فقهي، كقضية كشف الوجه ونحوها ـ وبغض النظر عن عدم جدية هؤلاء فيما يطرحونه، وأن مسألة الخلاف الفقهي إنما هي تكأة أكثر من أن تكون منطلقاً حقيقياً ـ فرفض الدعاة لها لا ينبغي أن ينطلق من منطلق الترجيح الفقهي فقط، بل من النظر إليها باعتبارها جزءاً من منظومة ودائرة متكاملة لا يمكن فصل جزئياتها عن بعض.

إن الأمر يختلف حين تناقش هذه المسائل لدى الفقهاء، وحين يثيرها طائفة من دعاة تحرير المرأة، فلا يسوغ أن نتحدث مع هؤلاء بلغة الخلاف الفقهي المجرد.

د – مناصرة المرأة وتبني قضاياها:

إن مما رفع أسهم دعاة التحرير والتغريب لدى الناس وأوجد لأقوالهم صدى وقبولاً: انطلاقهم من مبدأ نصرة قضية المرأة والدفاع عن حقوقها؛ وبالفعل فإنهم أحياناً ينتقدون بعض الأوضاع الخاطئة للمرأة في المجتمع.

والدعاة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ هم أوْلى الناس بنصرة قضية المرأة والدفاع عن حقوقها المشروعة، وانتقاد الظلم الذي ينالها، ومن ذلك: حقها في حسن الرعاية والعشرة؛ فبعض الأزواج يسيء معاملة زوجته ويهينها، وربما تعامل معها على أنها خادم، أو سلعة، أو شيء دنس. ومن ذلك: الأوضاع الخاطئة والعادات المخالفة للشرع في تزويجها، كالمغالاة في المهر، واعتباره ميداناً للكسب المادي، وأخذ والدها لكثير من مهرها الذي هو حق لها، ومن ذلك العَضْلُ وتأخير تزويجها طمعاً في الاستفادة من راتبها حين تكون عاملة.

والدعاة حين يسعون لمناصرة قضايا المرأة والدفاع عنها لهم أسوة حسنة بالنبي ﷺ؛ فقد اعتنى بعلاج ما يقع من خطأ تجاه المرأة؛ فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، وذكَّر ووعظ، فذكر في الحديث قصة فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنما هن عوانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة؛ فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً. ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً؛ فأما حقكم على نسائكم فلا يوطِئن فُرُشَكم من تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»[1].

وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»[2] فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذَئِرْنَ[3] النساء على أزواجهن؛ فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء

(١) رواه الترمذي، ح/ ١١٦٣، وابن ماجه، ح/ ١٨٥١.

(٢) رواه أبو داود، ح/ ١٨٣٤.

(٣) ذَئِرْنَ: اي نفرن ونشزن واجترأن. (لسان العرب).



كثير يشكون أزواجهن فقال النبي ﷺ : «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم»(١).

والاعتناء بهذا الجانب يبرز الدعاة إلى الله بأنهم الأنصار الحقيقيون للمرأة، وهم المدافعون عن قضيتها.

هـ - مجالات التركيز في الدعوة والخطاب:

لا بد من مراجعة هادئة لمجالات التركيز في دعوة المرأة وخطابها، ومن الأمور المهمة التي تحكم التركيز في خطاب المرأة:

١ - الأمور الأشد مصادمة للأصول الشرعية تكون لها الأولوية في المعالجة سواء كانت هذه المصادمة مباشرة أو غير مباشرة بل نتيجة المآلات.

٢ - الفئات الأشد تأثراً، ولعل فئات الفتيات اللاتي في مراحل التعليم هن أكثر الفئات تأثراً واستعداداً للتجاوب مع التغيير سلباً وإيجاباً، فالاعتناء بهذه الطبقة وتوجيه الخطاب المناسب لها، والسعي لاستثارة همم من يتعامل معهن من الآباء والمعلمات أمر ينبغي أن يحظى بأولوية واعتبار.

٣ - المتغيرات السلبية الحديثة والطارئة تستحق تركيزاً أكثر من غيرها؛ لأنها لم تستقر في المجتمع ولم تنتشر؛ فمن السهولة مواجهتها، وتركها قد يفتح المجال واسعاً أمام انتشارها في المجتمع وتقبُّله لها، وانتقالها من مرحلة الحالات الفردية إلى أن تكون ظاهرة، ثم تتطور إلى أن تصبح قيمة اجتماعية يصعب تغييرها.

٤ - الجوانب المخالفة للشرع في حالها أو مآلها والتي يراد قطع خطوات عملية لإقرارها وتنفيذها؛ فالتصدي لها ومواجهتها أمر ينبغي أن يكون له أولوية، حتى لو قدمت على ما هو أهم منها مما لم يأخذ طريقه للتنفيذ.

الوقفة الرابعة: حول منهجية الخطاب وتتمثل في:

أ - تأصيل مبدأ التسليم:

لا بد من الاعتناء بتأصيل مبدأ التسليم والخضوع لله - تبارك وتعالى - والوقوف عند شرعه، والتأكيد على ذلك، وأن المسلم لا خيار له في التسليم لأمر الله سواء أدرك الحكمة أم لم يدركها ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وحين نُعنى بتحقيق الإيمان والتسليم لله - عز وجل - فإننا نختصر خطوات كثيرة على أنفسنا، وتؤتي دعوتنا ثمارها بإذن الله - عز وجل -.

وينبغي أن نحذر مما تسعى إليه بعض وسائل الإعلام المضللة التي تعقد حوارات حول القضايا الشرعية، فتجعل الحكم الشرعي رأياً آخر، ووجهة نظر قابلة للنقاش، وهي الخطوة الأولى التي يريدها دعاة التغريب والعلمنة.

---

(١) رواه أبو داود، ح/ ٢١٤٦، وابن ماجه، ح/ ١٩٨٥، والدارمي، ح/ ٢٢١٩.

ب - الاعتماد على المنهج العلمي:

مما نحتاجه عند تناولنا لقضية المرأة أن نتحدث حديثاً علمياً يحترم عقول الناس وتفكيرهم، فلم يعد الناس اليوم يقبلون أن يملي عليهم أحد - كائناً من كان - آراءه واقتناعاته الشخصية.

فحين نتحدث عن أن خروج المرأة للعمل يؤثر على رعاية منزلها وتربية أولادها فإننا نحتاج إلى أن نستشهد على صحة ما نقول بالدراسات العلمية التي أثبتت ذلك، وحين نتحدث عن صلة الاختلاط وخروج المرأة بالجريمة، وحين نتحدث عن أثر العفاف والمحافظة على الاستقرار والنجاح في العلاقات الزوجية ... إلخ نحتاج في ذلك كله إلى أن ندعم ما نقوله بالأدلة العلمية، وبنتائج الدراسات المتخصصة.

ولدينا اليوم رصيد من الدراسات العلمية لا يزال حبيس الرفوف؛ فالاستفادة منه وتوظيفه أمر له أهميته، يضاف إلى ذلك ضرورة إجراء دراسات علمية حول كثير من القضايا التي يُحتاج إليها، وينبغي استثمار مراكز البحوث، وأعضاء هيئة التدريس في الجامعات، وربما كانت هذه الدراسات الجادة أوْلى مما يطرح في الساحة من كتب وكتيبات لا تزيد على بضعة نُقُول من كتابات قديمة[1].

ج - التفريق بين العادات والأحكام الشرعية:

ترتبط العادات ارتباطاً وثيقاً بقضية المرأة؛ إذ لا يخلو مجتمع من المجتمعات من عادات تختص بهذا الجانب؛ ولأن معظم العادات القبلية في المجتمعات الإسلامية تتسم بقدر من المحافظة، فقد يختلط الأمر لدى بعض الغيورين فيخلطون بين عادات تواضع عليها المجتمع وأصبحت جزءاً من ثقافته، وبين الأحكام الشرعية؛ فيصرون على الإبقاء على هذه العادات والمنافحة عنها، وقد لا يكون لها أصل في الشرع.

والأمر في ذلك يحتاج إلى الاعتدال؛ فالعادات التي ليس لها أصل من الشرع لا ينبغي الإصرار على التمسك بها والمنافحة عنها، فضلاً عن ربطها بالشرع، وفي المقابل لا ينبغي الإصرار على تحطيمها ونبذها بحجة أنها مما لم يأت بها الشرع، فما كان منها حسناً فليبق عليه، وما كان سيئاً فليترك.

د - الاعتناء بالضوابط الشرعية والحذر من تجاوزها:

لما كانت فتنة المرأة من أشد الفتن وأضرها أحاطها الشرع بالضوابط والأحكام التي تقلل من تأثيرها.

لذا فلا بد من الاعتناء بهذه الضوابط والالتزام بها، فقد يدفع حرص بعض الدعاة على نشر الدعوة وتوسيع نطاقها إلى السعي للتخفف من هذه الضوابط وتجاوزها.

وقد يكون الأمر ناشئاً عن ردة فعل تجاه ما يطرحه الآخر ويَصِمُ به الإسلاميين؛ فيبالغ بعض الدعاة في التحرر من الضوابط الشرعية، وربما يشن هجوماً غير متزن على أولئك الذين يلتزمون بها.

إنه ليس من المقبول أن يبالغ أحد الدعاة في انتقاد فصل الرجال عن النساء في المؤتمرات والمنتديات الدعوية، أو يطلب أن تقدمه إلى الجمهور امرأة وتتولى قراءة الأسئلة، أو أن تصبح قضية فصل مصلى الرجال عن النساء من أكبر ما يتصدى لإنكاره في بلد يقطع خطوات حثيثة نحو التغريب وتحرير المرأة!

---

(١) كثير من الكتابات في قضية المرأة مصادرها كتاب: المرأة بين الفقه والقانون، أو غيره مما قد مضى عليه ثلاثة عقود.



الوقفة الخامسة: الموقف من دعاة التغريب والتحرر ويتمثل ذلك في الآتي:

أ - التفريق بين من يتناولون قضية المرأة:

لقد حمل لواء الدعوة إلى تحرر المرأة وتغريب المجتمع المسلم طائفة من رجال التيار العلماني، وسعوا بمكر ودهاء لسلوك أي طريق يمكن أن يوصلهم إلى أهدافهم المشبوهة، ولأن هؤلاء يسلكون أساليب ملتوية في طرح أفكارهم، ويتظاهرون بالدفاع عن قضية المرأة والسعي لإعطائها حقوقها المسلوبة فقد سايرهم في ذلك طائفة من الكتاب والصحفيين والمثقفين ممن لا يحمل التوجه والفكر العلماني، إنما هم من المتأثرين بما يطرحه أولئك، وكثيراً ما يطرح المتأثرون بهم قضايا تتفق مع ما يسعى إليه أولئك.

فينبغي عند تناول القضية والحديث عن المخالفين ألا نحشر الجميع في زاوية واحدة ودائرة واحدة؛ ففرق بين من يساير هؤلاء فيما يطرحون وبين من يحمل الفكر والتوجه العلماني.

ولقد فرق السلف بين أهل البدع، فأهل الأهواء والزندقة ليسوا كمن عرف عنه إرادة الخير وتحريه لكنه وافق بعض أهل البدع في بدعتهم، والداعية إلى البدعة المنافح عنها ليس كغيره، وأصحاب البدع المكفرة ليسوا كمن دونهم من أصحاب البدع المفسقة.

ب - البعد عن الحديث عن النوايا:

إن الحق يجب أن يقال، والباطل يجب أن يواجه ويبين للناس؛ لكن ثمة فرق بين بيان الحق والرد على المبطل، وبين الحكم على صاحبه؛ فنحن في أحيان كثيرة نشن انتقاداً لاذعاً لكل من يطرح طرحاً مخالفاً في قضية المرأة وغيرها، ولا نقف عند هذا الحد، بل نتهم الكاتب والمتحدث بسوء النية، وخبث الطوية... إلخ.

فليكن النقاش منصباً على الفكرة وعلى الموضوع، أما رموز التيار العلماني، ومن يحمل فكراً سيئاً فهؤلاء ينبغي أن يُفضحوا بالطريقة المناسبة ليس من خلال كتاب أو مقال واحد، بل من خلال رصد واسع لتوجهاتهم وأفكارهم، وأن يكون ذلك بطريقة تقنع الناس.

ج - النقد العلمي الموضوعي:

حين يتناول هؤلاء قضية المرأة أو غيرها فإنهم يُدبِّجون حديثهم بحجج ومسوغات تضفي عليه صبغة الموضوعية والحياد العلمي، وكثيراً ما يوظفون نتائج البحث العلمي توظيفاً مضلِّلاً.

والملاحَظ أن كثيراً من ردود الدعاة على هؤلاء تتسم بالتشنج والعاطفة، وتأخذ منحى الحكم على الأشخاص، والحديث عن المؤامرات التي تحاك على المرأة، ويتجاهلون النقاش العلمي الموضوعي لما يطرحه أولئك من مسوِّغات.

وهذا الطرح إن أقنع فئات من المتأثرين بالدعاة، فإنه لن يقنع فئات أخرى ممن يعني الدعاة إقناعهم، بل

ربما أسهم في إقناعهم بوجهة نظر الآخر.

إن الدعاة أحوج ما يكونون إلى إتقان لغة الحوار، والحديث العلمي الموضوعي، وإلى أن يدركوا أن مجرد كونهم ناصحين غيورين لن يجعل الناس منصتين لهم ينتظرون ما يطرحونه ويتلقونه بالتسليم والقبول.

الوقفة السادسة: لا بد من الاعتناء بالبناء والإعداد:

ينبغي الاعتناء بالبناء والإعداد، وألا تكون مواقفنا مجرد ردود أفعال لما يثيره الأعداء؛ فحين تثار قضية نتفاعل معها، ونكثر الحديث حولها وننسى ما سواها، ومن ثم تصبح دعوتنا مجرد انعكاس لما يثيره ويطرحه دعاة التغريب والتحرر.

ومع أن هذا لا يعني إهمال القيام بواجب الإنكار وبيان الموقف الشرعي في القضايا التي تثار، وأن ذلك ينبغي أن يكون في وقته، إنما الاعتراض على أن يكون هذا هو وحده محور الحديث ومنطلقه.

والحديث الناشئ عن ردة الفعل سيتحكم في مضمونه ومحتواه ما يطرحه ويثيره الآخر، ومن ثم فلن يكون متكاملاً أو متوازناً في تناوله للقضية.

الوقفة السابعة: لا بد من التركيز على البرامج العملية:

لا يسوغ أن يبقى جهد الدعاة منحصراً في إطار الخطاب النظري وحده، بل لا بد من الانطلاق إلى برامج عملية ومن هذه البرامج المهمة:

أ - الاعتناء بتربية الفتيات وتنشئتهن، وهذا يتطلب من الدعاة إلى الله أن يعتنوا ببيوتهم ويعطوها من أوقاتهم.

ب - الاعتناء بإعداد برامج ومناهج تربوية تتفق مع طبيعة المرأة بحيث تكون متاحة للجميع ليستفيدوا منها.

ج - نظراً لطبيعة المرأة وقلة الفرص المتاحة لها لتلقِّي التربية والتوجيه في مقابل ما هو متاح للشباب، فإن هذا يستلزم الاعتناء بإيجاد محاضن للمرأة تتلقى فيها التربية والتوجيه، كدور القرآن ومدارسه، وأن تُطَوَّر هذه المحاضن ويُرتَقَى بها، وأن تتضافر في ذلك الجهود ولا يكون الأمر مختصاً بفئة يسيرة من المهتمين.



ماذا يريدون من المرأة..؟! (٢ ـ ٢)

المؤسسات الدعوية النسائية

الواقع والتطلعات

د. رقية بنت محمد المحارب

أتناول في هذه الورقات موضوعاً أحسب أنه غاية في الأهمية في هذا الوقت يتعلق بإقامة مؤسسات دعوية نسائية متخصصة تعتني بكل الجوانب المهمة في حياة المرأة المسلمة أينما وجدت. وتعتبر الصفحات الآتية محاولة للفت الانتباه إلى أهمية الموضوع أكثر من كونها دراسة مستوفية لكل الجوانب المتعلقة به، وكلي أمل أن يتبع هذه المحاولة كتابات أعمق تتناول زوايا مهمة نحتاج إلى تجليتها وبيانها.

تمهيد:

أتساءل ـ أيها الإخوة والأخوات ـ عن مستقبل المرأة المتوقع خلال الزمن القادم، وماذا أُعِدَّ من جهود لمواجهة المستجدات القادمة فيما يخص المرأة بالتحديد؟ وماذا نعرف عن رموز التحرر النسائية والرجالية من أمثال: نازك العابد، ودرية شفيق، وهدى شعراوي، وملك حفني ناصف، وفاطمة اليوسف، ونوال السعداوي، وجرجي زيدان، ورفاعة الطهطاوي، وقاسم أمين؟ بل ماذا نعرف عن الدور الكبير الذي تلعبه الأمم المتحدة في مجال الأسرة؟ وماذا عن منظمة التجارة العالمية وتداعياتها فيما يختص بالشؤون الاجتماعية؟ وماذا تحقق على أرض الواقع في كل بلد إسلامي نتيجة المؤتمرات الدولية عن الطفولة والأمومة أو عن المرأة؟ وماذا لدينا من معلومات عما تواجهه المرأة في الخليج والمغرب العربي وغيرها من مناطق العالم الإسلامي؟ وما هي الهموم والتطلعات التي تراود بنات المسلمين؟ وما مدى تأثير وسائل الإعلام والظروف الاقتصادية على تنشئة الفتاة ونموها الثقافي والنفسي والاجتماعي؟ وماذا عن عالم الطفل والمشروعات التي تُناقَش الآن تنفيذاً لتوصيات المؤتمرات الدولية لنزع ولاية والديه عنه نتيجة العنف الذي يتعرض له في بلاد الغرب، وما مدى فداحة الوضع في البلاد الإسلامية؟ ثم ما مدى موافقة هذه التشريعات للمقاصد الشرعية؟

هذه الأسئلة وغيرها كثير لا يمكن أن تفي صفحات كثيرة بمجرد سردها بَلْهَ الدخولَ في كل قضية بتفصيلها.

وكنا - ولا زلنا - نعيش بشكل كبير في دائرة ردود الأفعال؛ فالحدث يصنع بيد غيرنا، والمبادرات الموجهة لصرف المرأة عن دينها تقام على مدار الساعة؛ فهذه مجلاَّت تؤصِّل التمرد على شرع الله، وهذه دراسات أكاديمية تظهر أرقاماً وتخفي أخرى في محاولة لإثبات أن عمل المرأة في بيتها - مثلاً - خسارة للاقتصاد الوطني، وهذا ملف عن المرأة يردد مقولات الحركات النسائية الغربية ويصف عصر الصحوة بأنه عصر الانتكاسة ويصف عصر السفور بأنه عصر التقدم(١) وهكذا في سلسلة متنامية.

إن الجهود الدعوية المبذولة على صعيد المرأة تحاول بقدر المستطاع تقديم رؤية شرعية، ولكنها تظل تتسم غالباً ببردة الفعل وبالتكرار أحياناً، وبفقدان الشمولية والتكامل والقلة، كما أنها تفتقر بشكل ملموس وملاحظ إلى المعلومة الدقيقة والإحصائيات، وبالإضافة إلى ذلك فإنها لا تتميز بطول النفس في الاستقصاء والمتابعة؛ وهذه طبيعة الجهود الفردية وضخامة المهمة.

والمرأة المسلمة وهي تواجه كل هذه التحديات المعاصرة تحتاج إلى من يعينها على الصمود ويأخذ بيدها إلى بر الأمان، وتحتاج بشكل خاص إلى عمل مؤسسي متخصص علمي وتربوي واجتماعي وثقافي واقتصادي. ومن شأن هذه المؤسسات المتخصصة - ونحن في عصر التخصص - أن تساهم مساهمة جليلة في توفير الحصانة الفكرية والعقدية، وفي البناء التربوي الإيماني والدعوي للمرأة، وإيجاد محاضن تربوية تخرج لمجتمعات المسلمين المرأة التقية المثقفة الفاعلة؛ بحيث تُكَوِّن - أعني هذه المؤسسات - رافداً مهماً لأهل التربية في مهماتهم، ولأهل الإعلام في جهودهم؛ وعلاوة على ذلك تكون رأياً عاماً مستنداً على الدليل الشرعي والتحليل المنطلق من الذاتية الثقافية في انفتاح على الصالح من ثقافة الآخر؛ إذ الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها. كما أن وجود هذه المؤسسات المتخصصة سوف يفتح آفاقاً للباحثين والباحثات في شؤون المرأة والأسرة الذين يعانون أشد المعاناة من ندرة مصادر المعلومات، وتبعثر المراجع العلمية وغياب الرصد الإعلامي المتخصص، وعدم وضوح القضايا الملحة التي تحتاج إلى جهود علمية لتحرير الموقف الشرعي.

وبعد هذه المقدمة الموجزة أتساءل: لماذا لم توجد مثل هذه المؤسسات الدعوية النسائية؟ ثم ما هو المطلوب منها بقدر من التفصيل؟ وما هي آفاق العطاء المنتظر؟ وما هي العوائق التي قد تحول دون قيام هذه المؤسسات؟ ثم أخيراً دعوة إلى إخواني وأخواتي لإبداء آرائهم حول هذا الموضوع ونقده.

أسباب غياب مؤسسات دعوية نسائية متخصصة:

قبل أن أورد جملة من الأسباب التي أرى أنها مسوِّغات لعدم وجود مثل هذه الهيئات النسائية أحب أن أشير إلى أنه ليس المقصود أن يكون القائمون على هذه المؤسسات الدعوية بالضرورة نساء، بل إن الهدف هو توجيه الاهتمام إلى كل ما يتعلق بالمرأة من أمور على سبيل الاختصاص، كما أنه من المهم الإشارة إلى أنني أقر بوجود جهود كثيرة - بحمد الله - مهتمة بهذه القضية منذ زمن، سواء كان ذلك من خلال الفروع النسائية

(١) مجلة الوسط، عدد ٤١٤.

لبعض الجمعيات الدعوية في العالم الإسلامي أو أفراد تخصصوا في الكتابة؛ ولكنني أعتقد أن الجميع يتفق معي في أنها لم تصل إلى مستوى الهيئات المتخصصة التي تعتبر ذات مرجعية في قضايا المرأة. وعلى سبيل المثال فإننا لا نجد مركز بحوث متخصصاً يُعنى بقضية الأسرة من وجهة النظر الشرعية ويغطي كافة جوانبها. وأذكر هنا بعض الأسباب التي أدت إلى افتقار الساحة الدعوية لهذه المراكز المهمة:

١ - حداثة سن الصحوة ـ إن صح التعبير ـ وضخامة المهمات المنوطة بها؛ فخلال الأربعين سنة الماضية شهدت مناطق العالم الإسلامي أحداثاً كبرى، فأصبح العالم الإسلامي ينوء بالتبعات والرواسب على مختلف الأصعدة التي خلفها الاستعمار الذي عمل بكل جهده على استنزاف المنطقة اقتصادياً وثقافياً، وهذا انعكس على وضع المرأة في تربيتها ودعوتها.

٢ - عدم القناعة لدى قطاع من الدعاة والمربين بأهمية العناية بقضايا الدعوة في أوساط النساء، ولا تزال هذه القناعة موجودة إلى يومنا هذا وإن كانت في طريقها ـ إن شاء الله ـ إلى الزوال.

٣ - سلامة البنية الأساسية للأسرة المسلمة في كثير من بلاد العالم الإسلامي؛ فمؤسسة الزواج لا زالت محترمة رغم الدعوات المحمومة إلى اعتبار الزواج العرفي مشروعاً!! ولا زالت قيمة العناية بالوالدين عظيمة عند السواد الأعظم من المسلمين، والنظرة الإيجابية للأبناء وضرورة تربيتهم التربية الصالحة.

٤ - ضعف الموارد المالية للمؤسسات الدعوية مما أدى إلى تأخير تنفيذ كثير من مشروعات التوعية، ووجود أولويات في قائمة الاهتمامات لدى هذه الجهات.

٥ - ندرة الطاقات النسائية القادرة على المطالبة بإنشاء هذه المؤسسات، وضعف تكوينهن الثقافي والتربوي مما نتج عنه فراغ كبير استطاع الاستعمار من خلاله تبني بعض القيادات النسائية وتقديمهن للمجتمع على أساس أنهن مناضلات؛ كما حدث في المغرب أثناء المظاهرات التي رُمي فيها الحجاب في الشارع احتجاجاً على المستعمر الفرنسي وكأنه هو الذي طالب به، وكما حصل أيضاً في مصر في المظاهرة المشهورة ضد الإنجليز، وتذكر عائشة بلعربي[1] أن الفرنسيين اهتموا بالمرأة منذ منتصف القرن التاسع عشر!! فأسسوا ثلاثة أنواع من المراكز: أحدها: للأسرة والطفل، والثاني: للطبقة العاملة، والثالث: في الأرياف لخدمة المرأة القروية. والهدف هو بالتأكيد الوصول للمرأة وتقديم الخدمات التعليمية المنسجمة مع المصالح الفرنسية. وأدى وجود بعض التقاليد المنافية للإسلام والتي فيها إجحاف واضح بحق النساء إلى الإقبال على البديل الفرنسي الذي لم يقصِّر في ربط هذه الممارسات بالدين.

فوائد المؤسسات المتخصصة:

لا أظن أن أحداً يختلف معي أن هناك منافع عظيمة من وجود المؤسسات المتخصصة التي تتناول القضايا النسائية وتتولى إعداد التصورات والدراسات المختلفة حول القضايا التي تشغل المهتمين بالدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ، ولا ينقضي عجبي حين أرى أنه تكونت في لبنان مثلاً ١٥٠ جمعية نسائية كثير منها نصراني أو يمثل

---

(١) الدراسات الاجتماعية عن المرأة في العالم العربي ـ إصدار اليونسكو، ١٢٥.

الديانات اللبنانية المختلفة، وأجد مثلاً أن غاية (الجمعية المسيحية للشابات) في بيروت هي «بناء رابطة من النساء والفتيات لتحقيق المبادئ والمثل العليا التي ائتُمِنَّ عليها باعتبارهن مسيحيات جادات في تفهم تعاليم يسوع والاشتراك في حبه مع الجميع والنمو في معرفة الله ومحبته والاقتداء به في محبة الغير وخدمة المجتمع»(١). ولا أدري هل لا زالت هذه الجمعيات موجودة أم أن بعضها توقف عن العمل، أو أن جمعيات جديدة أنشئت، فأنا محتاجة إلى دراسات تعطيني صورة واقعية عن النشاطات النسائية في العالم، وتُمِدُّني بحصيلة قوية أتمكن بها من الوعي بالواقع الذي يهمني بصفتي امرأة.

وشيء آخر ذو دلالة بهذه الجزئية: ما هو نشاط المنصِّرات وطرقهن للتعامل مع ظروف المرأة في بعض البلاد الإسلامية؟ وما هي استراتيجيات هذه الحركات وغيرها للتأثير على عقل المرأة المسلمة؟ وأورد فيما يلي بعض المقترحات، وأجزم أن هناك أبعاداً أخرى لم أتناولها:

١ - الخروج من دوامة ردود الأفعال والعمل على صناعة الأحداث.

٢ - القيام بمتابعة النشاطات ذات العلاقة بالمرأة ورصدها من خلال ما ينشر في الصحافة والمؤتمرات واللقاءات.

٣ - توفير المراجع العلمية ومساعدة الباحثين والباحثات في اختيار الموضوعات التي نرى أنها مهمة وتحتاج إلى بذل جهود فكرية متميزة، وبدون وجود مراكز دراسات متخصصة يصبح اختيار الموضوع وطرق معالجته نتيجة لجهد فكري للباحث يعتريه ما يعتري الفرد من قصور.

٤ - ترشيد الكتابات الموجهة للمرأة منعاً للتكرار وتحقيقاً لتغطية مختلف جوانب القضية المراد الحديث عنها. وسوق الكتاب النسائي الإسلامي يحتاج كغيره إلى كتابات نقدية قوية حتى تخرج الأعمال بصورة تتناسب وعمق الأمر.

٥ - تكوين رأي عام مؤيد للرأي الشرعي المبني على الكتاب والسنة المستصحب لظروف الواقع. فكم أدى النظر للواقع مجرداً عن النصوص الشرعية من فتنة لبعض الناس! وكم جر إغفال الواقع من صدور آراء لا تتفق والمقاصد الشرعية!

٦ - التعرف على المشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المرأة: طالبة على مقاعد الدراسة في الجامعة والمدرسة، أو عاملة لها زوج وأولاد، أو مطلقة، أو ربة بيت، أو غير ذلك، ووضع الحلول الشاملة، وهذا يحتاج إلى إجراء بحوث مكثفة وربما دراسات أكاديمية للوصول إلى أفضل الوسائل للتعامل مع هذه المشكلات.

٧ - التعرف على الاتجاهات الفكرية المؤثرة في المجتمع وقياس قوة الخطاب الشرعي ووسائل تنميته، وتعريف المهتمين بالقوى المختلفة ذات العلاقة.

٨ - التعرف على المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها المرأة، فالمرأة أصبحت ذات دخل وهذا الدخل يعني أنها تريد مجالات لاستثماره ووجود دراسات شرعية تساعد المرأة على أفضل الوسائل لاستغلال مالها

(١) الطاقات النسائية العربية، ص ٣٥١.



وتنميته، كما أن هذه الدراسات تتيح لها خيارات كثيرة تحقق المرأة المسلمة من خلالها عوائد في دينها ودنياها. ونتيجة لغياب الطروحات الشرعية أصبحت المرأة تستثمر في مجالات قد تؤدي إلى خسارة مالها أو تحقيق نسبة ضئيلة من الأرباح، كما تؤدي هذه الدراسات دوراً كبيراً في توجيه اهتمام المرأة لصرف مالها بدل أن يبذل في أدوات تجميل وجري وراء الموضة. ويكفي أن نعلم أن بلايين الدولارات تنفق على أدوات التجميل في العالم سنوياً لا أعلم تحديداً كم نصيب عالمنا الإسلامي من هذا المبلغ؟!

٩ - التعرف على الجهود التي تستهدف تغيير تشريعات الأحوال الشخصية التي كانت إلى وقت قريب إحدى البنود في الدساتير الوضعية التي لا تتعارض مع الشريعة. والمعارك التي تمت في المغرب - مثلاً - ونتج خلالها - بحمد الله - تآزر وتكاتف بين الغيورين هناك، نحتاج أن نعرف عنها أكثر من تحقيق ينشر في مجلة أو اثنتين ثم ينسى بعد فترة. نحتاج إلى توثيق لكل هذه التطورات وإجراء الدراسات القانونية الشرعية ومثل ذلك ما حصل في لبنان حول مسألة الزواج العرفي، وفي مصر حول قضية إسقاط حق التطليق من الرجل وإعطائه للقاضي، وتطليق المرأة إذا رغبت؛ كل ذلك يحتاج إلى مؤسسات متخصصة. ونقطة مهمة هنا أن محاربة التصرفات المجحفة بحق المرأة في بعض البلاد والمطالبة بتغيير بعض التشريعات التي لا تراعي حقوق المرأة لا يمكن أن يتم دون وجود تصور عن الواقع ومعرفة بالبنود ذات العلاقة، وكل هذا يتطلب جهوداً كبيرة.

١٠ - التعرف على مجالات العمل الإعلامي وإمكانية إنشاء مجلات أو دور نشر متخصصة، وإجراء دراسات الجدوى الاقتصادية لمثل هذه المشروعات.

١١ - تنشيط حركة التأليف الأدبي الملتزم خاصة في مجال القصة والرواية والشعر. والأدب لعب دوراً كبيراً في مسيرة سفور المرأة كما هو معلوم؛ ولذا فإن من المهم قيام دور نشر متخصصة مثلاً برعاية المواهب الأدبية وتقديم نتاجهم الذي يخدم الأمة عبر المطوية والكتاب والشريط وغير ذلك. وأركز على العناية بمواهب الفتيات الأدبية وتربيتهن على الأدب الملتزم حتى لا يقعن وسط الضجيج الإعلامي في تمجيد أمثال نزار قباني والبياتي وغيرهما من رموز الحداثة والفساد.

١٢ - صناعة الرموز المصلحة من خلال إبرازهم للمجتمع، وتقديم القدوة لكافة شرائح المجتمع النسائية؛ فتقدم مثلاً المرأة الواعية التي تنطلق من شريعة ربها في فكرها وإنفاقها وتعاملها مع زوجها وأولادها، والعاملة الملتزمة المنتجة في مجال عملها، وتلك التي تبذل في سبيل الإصلاح، والأديبة التي شغلتها هموم المسلمين فتسخر موهبتها في معالجة شؤونهم.

نماذج من الدراسات النسائية المطلوبة:

من الأعمال التي من المؤمل قيام هذه المؤسسات المتخصصة بها ما يلي:

١ - إعداد قاعدة معلوماتية لكل ما نشر عن المرأة في الصحافة العربية وغيرها.

٢ - إجراء الدراسات الميدانية عن العادات الاجتماعية وأثرها على أنماط السلوك النسائي في مختلف البلاد.

٣ - عمل الدراسات الاقتصادية لتوفير مشروعات لتنمية رأس المال النسائي.

٤ - إصدار دوريات ومجلات تخدم قضايا نسائية معينة وموجهة لطبقات مختلفة؛ فدورية تُعنى بالشؤون التربوية، وأخرى لمعالجة قضايا فكرية، وثالثة تخاطب البنت في المرحلة الثانوية والجامعية، ورابعة موجهة



للمرأة العاملة، وخامسة تتناول الأمومة والطفولة، وهكذا.. وليس بالضرورة أن تصدر هذه الدوريات بصورة شهرية بل ربما كان صدورها مرة في السنة.

٥ - إقامة مجموعات عمل لمناقشة قضايا اجتماعية ملحة كالطلاق والعنوسة وعمل المرأة وآثارها على بنية المجتمع وكينونة الأسرة، ووضع توصيات ومتابعة تنفيذها مع الجهات ذات العلاقة.

٦ - بحث إمكانية التعاون بين الهيئات النسائية الدعوية القائمة في العالم.

٧ - التعاون مع الجامعات ومراكز البحوث لإدراج قضايا المرأة ضمن أولوياتها والتعاون في اقتراح الأفكار والمشروعات العلمية. وكمثال على البحوث الأكاديمية تناول تأثير القنوات الفضائية على أفكار البنات في المرحلة الجامعية.

٨ - متابعة المؤتمرات الدولية والمشاركة بفعالية بغرض الدفاع العلمي الرشيد عن قضايا المرأة المسلمة.

عوائق في طريق التأسيس:

إذا كان ثمة اتفاق على حيوية وجود هذه المؤسسات فما هي يا تُرى العقبات والصعوبات التي تقف أمام تحقيق هذا الحلم على أرض الواقع؟ لعل بعض ما ذكر عند مسألة أسباب غياب هذه المؤسسات في الماضي لا يزال يمثل حجر عثرة حتى الآن. وألخص أبرز النقاط فيما يلي:

١ - طبيعة هذه المؤسسات الجادة تجعل من نفر قليل من الناس قادراً على تحمل عبء تأسيسها، وهذا النفر يكون منشغلاً بقضايا أخرى لا تقل عن هذا الأمر أهمية في كثير من الأحيان.

٢ - تحتاج هذه المؤسسات إلى مبالغ مالية؛ لكونها تقوم باستقطاب فئة معينة من الباحثين مما يعني ضرورة تفريغهم. والتعويل على العمل التطوعي لا يعني الاستقرار كما أنه لا يعني عملاً مؤسسياً.

٣ - حساسية الموضوعات المطروحة وصعوبة إجراء الدراسات الميدانية بحرية كافية.

٤ - قلة الخبرة بالعمل المؤسسي لدى قطاع عريض من المهتمين، وكذا ضعف القدرات الإدارية.

كلمة أخيرة:

وفي ختام هذه الورقات أحب أن ألفت نظر إخواني وأخواتي إلى بعض الأمور:

١ - ضرورة استحضار الإخلاص في هذا الأمر؛ إذ إنه من وسائل الدعوة إلى الله - عز وجل -، وبدون الإخلاص تصبح كل هذه الأعمال هباءاً منثوراً يوم الدين.

٢ - الثقة بنصر الله والتفاؤل بالخير خاصة في مثل هذا الوقت الذي قلَّ فيه الناصر، وهكذا كان هدي الرسول ﷺ عند الفتن تفاؤلاً وحسن ظن بالله وثقة به مع العمل الجاد المستمر.

٣ - أن المرحلة التي نعيشها تتطلب اهتماماً كبيراً بقضايا المرأة.

٤ - ما جاء من معلومات أو أفكار يحتمل الخطأ؛ وإنني أتمنى موافاتي بأي ملاحظة أو تصويب أو تعقيب؛ بحيث يتبلور العمل وتنفتح آفاق دعوية جديدة للمرأة المسلمة في العالم أجمع.

أسأل الله أن يأخذ بأيدينا جميعاً إلى مرضاته، وأن يجعل نياتنا خالصةً لوجهه، وأن يبصِّر نساء المسلمين بدينهن، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



المرأة.. وخطوات نحو التربية

علياء بنت عبد الله

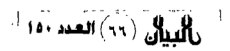
ثلاثة عشر عاماً هي تلك التي أمضاها النبي ﷺ في مكة باذلاً جهده ووقته وثمين دعوته في تربية جيل الصحابة أثمرت أفراداً قلائل.. وشخصيات معدودة.. ولكنها قلة ضربت أروع الأمثلة في الثبات يوم كثر النفاق بعد بدر.. قلة ولكن كتب لها النصر دون عشرة آلاف من الطلقاء الذين انهزموا في حنين.. قلة ثبتت على عهدها يوم ارتدَّت قبائل العرب بعد موته ﷺ.. لقد كان النبي ﷺ عميق الفكرة.. بعيد النظرة.. حين صرف الوقت الذهبي من دعوته في تربية ذلك الجيل الأول من الصحابة.. كيف لا!! وهم نجوم النور.. وخير أهل الأرض.

فلنتجاوز أربعة عشر قرناً من تاريخنا الممدود لنصل اليوم إلى منظر هذه الجموع النسائية التي تتوجه يومياً إلى مراكز تحفيظ القرآن الكريم وغيرها من المراكز الإسلامية لسماع كلمة حق في تفسير آية أو شرح حديث.. والتي تدفع إلى الابتسامة والتمتمة بكلمات الحمد والثناء لله.. ثم الإعجاب بتلك الجهود والتضحيات التي ـ ولا شك ـ كانت وراء كل قلب اهتدى وكل رِجْل قدَّمتِ الخُطا..

إن هذه الجموع التي تصمُّ آذانها عن نعيق الغربان معلنة التحدي أمام كل مغريات الزمن وفتنه.. لهي جموع تنظر بعين الحاجة والافتقار إلى من يأخذ بيدها ويحسن توجيهها.. وهنا بالذات يأتي دور التربية.. فإننا لا نعاني من الكم! وإنما من الكيف!

خطوات نحو التربية:

لو أخذت أي بذرة من بذور الأرض ووضعتها في إناء زجاجي أو على رف من الخشب فإنها لن تنبت مهما طالت المدة حتى تضعها في أرض خصبة وتتعاهدها بماء وسقيا وتعرضها لحرارة الشمس، ثم ما تزال معها تهذبها وتشذب أطرافها وتحسن توجيهها وتزيل عنها ما يؤذيها حتى تشتد وتخضر وتقف على ساقها.. وهذا ما تعنيه عملية التربية.



أولاً: تطوير المنبع:

كلما كان ماء النبع عذباً كان أروى للظمأ.. وعلى قدر خصوبة الأرض يكون جمال النتاج.

إن فقه المربية لعقيدتها التي تدعو الناس إليها وعلمها بمداخل النفوس واقتناص الفرص يزيد من فرصة قبولها لدى الناس ونجاحها في دعوتها إياهم إلى الخير والتزام طريق الحق.. ولذلك كان لزاماً على كل مؤسسة أو مركز إسلامي أن يهتم بالعاملات فيه تطويراً وأداءً ونقترح في هذا الصدد عدة نقاط:

● شرح أهداف المركز لجميع العاملات فيه سواء الأهداف المرحلية (مختصة بفترة محددة) أو الأهداف طويلة الأجل التي تحتاج إلى سنوات لتحقيقها ومتابعة تطبيقهن وسعيهن لإتمام هذه الأهداف؛ فإن ذلك مما يعزز الشعور لدى كل واحدة منهن بأنها لبنة لو نزعت لانكسر الجدار.. وأيضاً فالمتابعة تساعد في التنبؤ بالخطأ قبل وقوعه، وبالسيطرة على المشكلة في مراحلها الأولى.

● تنظيم دورات تأهيلية تطويرية تكون موجهة خاصة للعاملات في المراكز والمؤسسات تتشعَّب إلى ثلاثة محاور رئيسة:

١ - **دورات شرعية**: تعطي الأسس والقواعد في كل علم من علوم الدين الأساسية مما لا يسع مسلمة أن تجهلها فضلاً عن عاملة في المركز ينبغي أن تكون قدوة الناس ومحط أنظارهم.

٢ - **دورات تربوية**: تسهم في فهم رسالة هذا الدين الفهم الصحيح، وأن مهمتنا لا تقف عند البلاغ وتغيير الأفكار فقط، بل تتجاوز ذلك إلى مساعدة الناس على أن يغيروا من سلوكهم ويتغلبوا على مشكلاتهم وأن يتخطوا جميع العقبات من المجتمع والنفس.. وذلك لن يتسنى لنا حتى يكون لدينا أسس تربوية صحيحة نتعامل بها مع الناس. وسيرة المصطفى ﷺ وكيفية تعامله هي المنهج للتربية والمنبع الذي لا ينضب.

٣ - **دورات دعوية**: يُتناول فيها مستجدات الساحة وما يجب علينا إدخاله وإدراجه ضمن مناهجنا الإسلامية، وطرح الحلول لبعض مشكلاتنا الدعوية، ووضع جداول زمنية لتوسيع نطاقات الخطاب مع مختلف شرائح المجتمع ودراسة الأفكار والمقترحات الجديدة. والأهم من ذلك: وضع تصور عام للدعوة في المنطقة يهيب بكل العاملات الوصول إليه ولو بعد حين.

ولمزيد من الفاعلية فإن هذه الدورات يجب ألا تكون عشوائية أو كلما سنحت الفرصة لإقامتها، وإنما يجب أن تكون جميعها مدرجة ضمن جدول محدد (مثلاً: دورة شرعية كل ثلاثة أشهر، ودورة تربوية كل أربعة أشهر، ودورة دعوية نصف سنوية) وعلى كل مركز أن يحدد حاجة منسوباته دون المبالغة في جانب على حساب جانب آخر، وإدراج لجنة خاصة (لجنة التطوير) ضمن لجان المركز تكون مسؤولة عن تنظيم هذه الدورات من حيث اختيار المواضيع ودعوة المقدِّمات واستشارة المشايخ والعلماء وذوي الخبرة والتجربة في ساحة العمل الدعوي قبل الشروع في هذه الدورات.

ثانياً: البحث عن الراحلة:

قال ﷺ: «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة»(١).

إن بين هذه الجموع أشخاصاً ما أن تحكَّ قشرتهم حتى يبرق لك الذهب، وهؤلاء قد لا يأخذون من الداعية جهداً طويلاً حتى يحس بسرعة النتاج؛ بخلاف الصنف الآخر الذي قد تبذل معهم جهداً مضاعفاً ولكنهم، (مكانك راوح)، ومن ثَمَّ فإن من الخسارة أن يأتي أمثال هذه الشخصيات في مراكزنا الإسلامية ويبقين معنا سنين طويلة دون أن يُكتشفن أو يسعى إلى استخراج مكنونهن أحد!! وأحياناً كثيرة نشعر بتميزهن ووجودهن؛ ولكن برامجنا تخاطب الشريحة العامة ولا تتسع لأمثال هذه الشخصيات. وها هنا ثمة نقاط لا بد من مراعاتها:

- اهتمام المعلمات ومن هن في خط المواجهة مع الناس بالبحث عن الحريصات على دينهن المتميزات في علمهن وغيرهن ممن يظهر عليهن سِيما التنبه والنبوغ، وتوجيه رسائل خاصة لهن أثناء الشرح والتفسير، وبذل الجهود لاحتوائهن لا سيما إذا كُنَّ ممن يحضرن لأول مرة.
- إيجاد برامج خاصة لهؤلاء يشرف عليها أهل الاختصاص، تعطى فيها المواد بشكل مدروس، وتختار فيها السُّور والأحاديث والمواضيع بشكل دقيق.
- تكليف المربيات بمتابعة أحوالهن وتفقُّد حياتهن لا سيما خارج المركز، ومدى تقدمهن وتخطِّيهن العوائق والعقبات، وتقديم النصح والتوجيه اللازم ليتكون لنا من مجموع ذلك شخصيات مؤهلة مربية ملتزمة غير ضعيفة ولا ازدواجية.

ثالثاً: وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح:

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءاً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيٌّ، وأفرضهم زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، ألا وإن لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(٢).

لم يكن مجتمع الصحابة مجتمعاً مكوناً من نسخ مكرورة بعضها من بعض، بل كان فيهم العالم والزاهد وطالب العلم والتاجر والساعي لرزقه والفارس والمجاهد؛ بل ومنهم الأديب الذي يعلن النبي ﷺ له التأييد بروح القدس؛ لقد كان النبي ﷺ يتقن فن توزيع الأدوار، ولم يكن يهمِّش من دور هذا أو ذاك، بل لم يكن يفاضل بينهم إلا بالتقوى وما وقر في النفس عبداً كان أو حراً عالماً كان أو أمياً عابداً كان أو تاجراً!!

إن الأمة التي لا يحسن أفرادها إلا شيئاً واحداً أمة سهلة الانهزام.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٦٤٩٨، ومسلم، ح/ ٢٥٤٧.

(٢) رواه الترمذي، وابن حبان وإسناده صحيح. قال ابن حجر في فتح الباري في باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ: أورد الترمذي وابن حبان هذا الحديث من طريق عبد الوهاب الثقفي عن خالد الحذاء هذا الإسناد مطولاً، ثم ذكر الحديث، وإسناده صحيح إلا أن الحُفَّاظ قالوا: إن الصواب في أوله الإرسال والموصول منه ما اقتصر عليه البخاري، ٧/٦٢، والله أعلم.

وحين نتحدث عن العصر الذهبي لمجد الإسلام الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها يتبادر إلى ذهننا العدد الهائل من المدارس والجامعات والثورة العلمية من طب وهندسة ومعمار وإحصاء وغيرها من العلوم التي برع فيها المسلمون بأمر وإرشاد من دينهم. ومن تصفح القرآن استشعر مسؤوليته في خلافة الأرض والتي تعني إصلاحها وإصلاح أهلها من جميع الجوانب.

وما علاقة المرأة بذلك؟

إننا في مراكزنا نخاطب شريحة من النساء تريد أن تسمع وتريد أن تفهم؛ وبلغنا ـ بحمد الله ـ شوطاً في ذلك ولكن ما زال هناك صنف من الناس خارج الأسوار وهؤلاء على اختلاف أسباب عزوفهم إلا أنهم يشكلون شريحة كبرى من المجتمع، وطموحاتنا الدعوية لا تقف عند حد ذلك الصنف الأول، بل إننا نريد أن نوسع نطاقات الخطاب ليصل صوتنا إلى كل بيت وكل فرد.

إن الجمعيات النسائية التي أسهمت ـ بل أدارت ـ الحركة المشبوهة حركة تحرير المرأة وسَّعت أنشطتها ليصل خطابها إلى كل امرأة في المجتمع، فكان لديها أنصار من مختلف التخصصات والطبقات.. ليصلوا بالمرأة إلى ما وصلوا إليه الآن! ولذلك فإن حصر دور المراكز الإسلامية النسائية بأن تدور أنشطتها حول الأنشطة التلقينية واستعمال مهارة السماع فقط هو اختصار مخل لرسالة المركز الأصيلة العالية.. ولو أحصينا عدد مراكز تحفيظ القرآن الكريم المنتشرة في كل حي ومنطقة مثلاً ثم تلمسنا آثارها الإيجابية لوجدنا أن الآثار الملموسة في حياة الناس لا تتناسب أبداً مع عدد المراكز المتزايد في الأحياء!! وهذا يعني أن رسالتنا لم تصل بعدُ بالصورة الكافية.

إن هذا الدين الذي يدعو إليه المركز يجب أن يكون له أنصار ينافحون عنه وينشرون لواءه في كل مكان في شتى الطبقات ومختلف التخصصات.. فمثلاً: لا بد أن يكون لدينا معلمات واعيات يحملن لواء الدعوة في المدارس، ويربطن أهداف التعليم بأهداف هذا الدين ـ ولا تضاد بينهما ـ وإبراز أنفسهن قدواتٍ ونماذجَ حية لما يمكن أن يصنعه الدين في حياة الناس، ودعوة الطالبات والمعلمات إلى امتثال القيم العليا والأخلاق الفاضلة التي يدعو إليها هذا الدين، ومثال آخر: لا بد أن يكون لنا كاتبات وأديبات يكتبن أدباً إسلامياً رفيعاً يكفيننا مؤونة البحث عن قصص إسلامية هادفة أو مجلة خالية من المنكرات، ولعل من أنجع الأساليب في توسيع نطاق الدعوة وأنسبها للمرأة هي المشاركة الإعلامية في المجتمع.. في المجلات والجرائد.. والكتب والدوريات.. وذلك إعلاءً لصوت الحق ليتسنى لكل فرد سماعه، وليتعرف الناس على أنشطة المراكز وأهدافها.. وطرح تجاربنا في معايشة العصر لا سيما في تربية الأطفال والمراهقين، وخططنا لتربية هذا الجيل الناشئ.. فلماذا دائماً تتوارى تجاربنا الناجحة وتقتصر على فئة محدودة من الناس؟! هناك مئات القلوب التائهة التي تبحث عن الحق.. بل مئات العقول الواعية التي لو فهمت الحقيقة لما ترددت في سلوك الدرب.





الحجاب وأصول الاحتجاج

عبد العزيز بن ناصر الجليل

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه. أما بعد:

فلم يعد خافياً على أحد ما تشهده مجتمعات المسلمين اليوم من حملة محمومة من الذين يتبعون الشهوات على حجاب المرأة وحيائها وقرارها في بيتها؛ حيث ضاق عطنهم وأخرجوا مكنونهم ونفذوا كثيراً من مخططاتهم في كثير من مجتمعات المسلمين؛ وذلك في غفلة وقلة إنكار من أهل العلم والصالحين، فأصبح الكثير من هذه المجتمعات تعج بالسفور والاختلاط والفساد المستطير مما أفسد الأعراض والأخلاق، وبقيت بقية من بلدان المسلمين لا زال فيها ـ والحمد لله ـ يقظة من أهل العلم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حالت بين دعاة السفور وبين كثير مما يرومون إليه. وهذه سنة الله ـ عز وجل ـ في الصراع بين الحق والباطل والمدافعة بين المصلحين والمفسدين.

ومن كيد المفسدين في مثل المجتمعات المحافظة مع وجود أهل العلم والغيرة أن أولئك المفسدين لا يجاهرون بنواياهم الفاسدة؛ ولكنهم يتسترون وراء الدين ويُلبسون باطلهم بالحق واتباع ما تشابه منه، وهذا شأن أهل الزيغ كما وصفهم الله ـ عز وجل ـ في قوله: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾** [آل عمران: ٧]. وهم أول من يعلم أن فساد أي مجتمع إنما يبدأ بإفساد المرأة واختلاطها بالرجال، ولو تأملنا في التاريخ لوجدنا أن أول ما دخل الفساد على أية أمة فإنما هو من باب الفتنة بالنساء، وقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: «ما تركت فتنة هي أضر على الرجال من النساء»[١]، وقوله ﷺ: «فاتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٢].

وهذه حقيقة لا يماري فيها أحد، وملل الكفر أول من يعرف هذه الحقيقة؛ حيث إنهم من باب الفتنة

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٤٧٠٦.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٤٩٢٥.

بالنساء دخلوا على كثير من مجتمعات المسلمين وأفسدوها وحققوا أهدافهم البعيدة، وتبعهم في ذلك المهزومون من بني جلدتنا ممن رضعوا من ألبان الغرب وأفكاره، ولكن لأنهم يعيشون في بيئة مسلمة ولا زال لأهل العلم والغيرة حضورهم؛ فإنهم ـ كما سبق بيان ذلك ـ لا يتجرؤون على طرح مطالبهم التغريبية بشكل صريح لعلمهم بطبيعة تديُّن الناس ورفضهم لطروحاتهم وخوفهم من الافتضاح بين الناس، ولذلك دأبوا على اتباع المتشابهات من الشرع، وإخراج مطالبتهم في قوالب إسلامية وما فتئوا يلبسون الحق بالباطل.

ومن هذه الطروحات التي أجلبوا عليها في الآونة الأخيرة مطالبتهم في مجتمعات محافظة بكشف المرأة عن وجهها وإخراجها من بيتها معتمدين ـ بزعمهم ـ على أدلة شرعية وأقوالٍ لبعض العلماء في ذلك. ولنا في مناقشة هؤلاء القوم المطالبين بكشف وجه المرأة المسلمة أمام الأجانب واختلاطها بهم في مجتمع محافظ لا يعرف نساؤه إلا الحجاب الكامل والبعد عن الأجانب لنا في ذلك عدة وقفات:

١ - الوقفة الأولى:

إن هناك فرقاً في تناول قضية الحجاب ـ وهل يدخل في ذلك الوجه أم لا؟ ـ بين أن يقع اختلاف بين العلماء المخلصين في طلب الحق، المجتهدين في تحري الأدلة، الدائرين في حالتي الصواب والخطأ بين مضاعفة الأجر مع الشكر، وبين الأجر الواحد مع العذر ـ هناك فرق بين أولئك وبين من يتبع الزلات، ويحكم بالتشهي، ويرجِّح بالهوى؛ لأن وراء الأكمة ما وراءها؛ فيؤول حاله إلى الفسق ورِقَّة الدين ونقص العبودية وضعف الاستسلام لشرع الله ـ عز وجل ـ.

وهناك فرق بين تلك الفتاوى المحلولة العقال المبنية على التجرِّي لا على التحري التي يصدرها قوم لا خلاق لهم من الصحافيين ومن أسموهم المفكرين تعج منهم الحقوق إلى الله عجيجاً، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجاً، ينفرون من تغطية الوجه لا لأن البحث العلمي المجرد أدَّاهم إلى أنه مكروه أو جائز أو بدعة كما يُرجفون، ولكن لأنه يشمئز منه متبوعهم من كفار الشرق والغرب. فاللهم باعد بين نسائنا وبناتنا وأخواتنا وبينهم كما باعدت بين المشرق والمغرب»[(١)].

«ولك أن تقدر شدة مكر القوم الذين يريدون من جانبهم أن يتَّبعوا التمدن الغربي، ثم يسوِّغون فعلهم هذا بقواعد النظام الإسلامي الاجتماعي.

ولقد أوتيت المرأة من الرخص في النظام الإسلامي أن تبدي وجهها وكفيها إذا دعت الحاجة في بعض الأحوال، وأن تخرج من بيتها لحاجتها، ولكن هؤلاء يجعلون هذا نقطة البدء وبداية المسير، ويتمادون إلى أن يخلعوا عن أنفسهم ثوب الحياء والاحتشام، فلا يقف الأمر بإناثهم عند إبداء الوجه

---

(١) انظر عودة الحجاب، ٣/ ٤٣٧.



والكفين، يل يجاوزه إلى تعرية الشعر والذراع والنحر إلى آخر هذه الهيئة القبيحة المعروفة، وهي الهيئة التي لا تخص بها المرأة الأزواج والأخوات والمحارم فقط، بل يخرجن بكل تبرج من بيوتهن، ويمشين في الأسواق، ويخالطن الرجال في الجامعات، ويأتين الفنادق والمسارح، ويتبسطن مع الرجال الأجانب.

ثم يأتي القوم فيحملون رخصة الإسلام للمرأة في الخروج من البيت للحاجة وهي الرخصة المشروطة بالتستر والتعفف؛ على أنه يحل لها أن تغدو وتروح في الطرقات، وتتردد إلى المتنزهات والملاعب والسينما في أبهى زينة، وأفتنها للناظرين، ثم يتخذ إذن الإسلام لها في ممارسة أمور غير الشؤون المنزلية - ذلك الإذن المقيد المشروط بأحوال خاصة - يُتّخذ حجة ودليلاً على أن تودِّع المرأة المسلمة جميع تبعات الحياة المنزلية، وتدخل في النشاط السياسي والاقتصادي والعمراني تماماً وحذو القُذَّة بالقذة كما فعلت الإفرنجية.

وها هو ذا الشيخ المودودي - رحمه الله - يصرخ في وجوه هؤلاء الأحرار في سياستهم، العبيد في عقليتهم قائلاً: «ولا ندري أيُّ القرآن أو الحديث يُستخرَج منه جواز هذا النمط المبتذل من الحياة؟ وإنكم - يا إخوان التجدد - إن شاء أحدكم أن يتبع غير سبيل الإسلام فهلاً يجترئ ويصرح بأنه يريد أن يبغي على الإسلام، ويتفلَّت من شرائعه؟ وهلاً يربأ بنفسه عن هذا النفاق الذميم والخيانة الوقحة التي تزيِّن له أن يتَّبع علناً ذلك النظام الاجتماعي وذلك النمط من الحياة الذي يحرمه الإسلام شكلاً وموضوعاً، ثم يخطو الخطوة الأولى في هذا السبيل باسم اتِّباع القرآن كي ينخدع به الناس فيحسبوا أن خطواته التالية موافقة للقرآن؟»[١].

الوقفة الثانية:

وهي نتيجة للوقفة الأولى، وذلك بأن ينظر إلى قضية الحجاب اليوم وما يدور بينها وبين السفور من معارك إلى أنها لم تعد قضية فرعية ومسألة خلافية فيها الراجح والمرجوح بين أهل العلم، ولكنها باتت قضية عقدية مصيرية ترتبط بالإذعان والاستسلام لشرع الله - عز وجل - في كل صغيرة وكبيرة وعدم فصله عن شؤون الحياة كلها؛ لأن ذلك هو مقتضى الرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

إن التشنيع على تغطية المرأة وجهها والتهالك على خروجها من بيتها واختلاطها بالرجال ليست اليوم مسألة فقهية فرعية ولكنها مسألة خطيرة لها ما بعدها؛ لأنها تقوم عند المنادين بذلك على فصل الدين عن حياة الناس وعلى تغريب المجتمع وكونها الخطوة الأولى أو كما يحلو لهم أن يعبروا عنه بالطلقة الأولى.

---

(١) انظر مقدمة عودة الحجاب للدكتور محمد إسماعيل المقدم، ص ٢٢، ٢٣ باختصار وتصرف يسير.

وإن لنا في جعل قضية الحجاب اليوم قضية أصولية كلية مع أن محلها كتب الفروع - إن لنا في ذلك أسوة في سلف الأمة؛ حيث صنفوا بعض المسائل الفرعية مع أصول الاعتقاد لَمَّا رأوا أن أهل البدع يشنِّعون على أهل السنة فيها ويفاصلون عليها، من ذلك ما ذكره الإمام الطحاوي في العقيدة الطحاوية في قوله عن أهل السنة والجماعة: «ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر» وعلق شارح الطحاوية على ذلك بقوله: «وتواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين، والرافضة، تخالف هذه السنة المتواترة»[1].

ومعلوم أن المسح على الخفين من المسائل الفقهية؛ ولكن لأن أهل البدع أنكروه وشنعوا على مخالفيهم فيه نص العلماء عليه في عقائدهم.

إذن فلا لوم على من يجعل قضية الحجاب اليوم قضية أصولية مصيرية، وذلك لتشنيع مبتدعة زماننا ومنافقيهم عليه ولحملتهم المحمومة لنزعه وجر المرأة بعد ذلك لما هو أفسد وأشنع من ذلك، وأنها لم تعد مسألة فقهية يتناقش فيها أهل العلم المتجردون لمعرفة الراجح وجوانب الحاجة والضرورة فيه.

وقد صرَّح بعضُ العلماء بتكفير من قال بالسفور ورفْع الحجاب وإطلاق حرية المرأة؛ إذا قال ذلك معتقداً جوازه.

قال الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي في كتابه: «المسائل الكافية؛ في بيان وجوب صدق خبر رب البرية»[2]:

«المسألة السابعة والثلاثون»: من يقول بالسفور ورفع الحجاب وإطلاق حرية المرأة ففيه تفصيل:

فإن كان يقول ذلك ويُحسِّنُه للغير مع اعتقاده عدَم جوازه، فهو مؤمن فاسق يجب عليه الرجوعُ عن قوله، وإظهارُ ذلك لدى العموم.

وإن قال ذلك معتقداً جوازه، ويراه من إنصاف المرأة المهضومة الحق على دعواه! فهذا يكفر لثلاثة أوجه:

الأول: لمخالفته القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

الثاني: لمحبته إظهار الفاحشة في المؤمنين. ونتيجة رفع الحجاب، وإطلاق حرية المرأة، واختلاط الرجال بالنساء: هو ظهور الفاحشة، وهو بيِّنٌ لا يحتاج إلى دليل.

الثالث: نسبةُ الحيف على المرأة وظلمها إلى الله - تعالى الله عما يقول المارقون -؛ لأنه هو الذي أمر نبيه بذلك، وهو بيِّنٌ أيضاً.

---

(١) شرح الطحاوية، ص ٣٨٦.

(٢) عن كتاب الصارم المشهور على أهل التبرج والسفور، للشيخ حمد التويجري - رحمه الله -.

قلتُ : وظهور الفاحشة نتيجة لرفع الحجاب، وإطلاق حرية المرأة، واختلاط النساء بالرجال - يَشهد به الواقعُ من حال الإفرنج والمتفرنجين الذين ينتسبون إلى الإسلام، وهم في غاية البعد منه.

وصرح الشيخ محمد بن يوسف الكافي أيضاً بتكفير من أظهرت زينتها الخلقية أو المكتسبة، معتقدة جواز ذلك، فقال في كتابه المشار إليه ما نصُّه : «المسألة السادسة والثلاثون» : من أظهرت من النساء زينتها الخِلقية أو المكتسبة؛ فالخلقية : الوجه والعنق والمعصم ونحو ذلك، والمكتسبة ما تتحلى وتتزين به الخلقة كالكحل في العين، والعقد في العنق، والخاتم في الإصبع، والأساور في المعصم، والخلخال في الرِّجل، والثياب الملونة على البدن، ففي حكم ما فعلتْ تفصيل :

فإن أظهرت شيئاً مما ذُكِرَ معتقدة عدم جواز ذلك، فهي مؤمنة فاسقة تجب عليها التوبة من ذلك، وإن فعلته معتقدة جواز ذلك فهي كافرة لمخالفتها القرآن؛ لأن القرآن نهاها عن إظهار شيء من زينتها لأحد إلا لمن استثناه القرآن، قال الله - تعالى - : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١].

قال هشام بن عمار : سمعت مالكاً يقول من سَبَّ أبا بكر وعمر أُدِّب، ومن سَبَّ عائشة قُتِل؛ لأن الله يقول : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ١٧]. فمن سَبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتِل أي لأنه استباح ما حرَّم الله - تعالى - انتهى.

الوقفة الثالثة:

ليس المقصود في هذه الوقفات حشداً للأدلة الموجبة لستر وجه المرأة وكفيها عن الرجال الأجانب ووجوب الابتعاد عنهم؛ فهي كثيرة وصحيحة وصريحة - والحمد لله - ويمكن الرجوع إليها في فتاوى أهل العلم الراسخين ورسائلهم كرسالة الحجاب للشيخ ابن عثيمين. ومن الكتب التي توسعت في هذا الموضوع وردَّت على شبهات المخالفين كتاب : (عودة الحجاب / القسم الثالث) للدكتور محمد بن إسماعيل المقدم - حفظه الله - وإنما المقصود في هذه المقالة ما ذكر سابقاً من فضح نوايا المنادين بكشف الوجه والاختلاط بالرجال، وأن وراء ذلك خطوات وخطوات من الفساد والإفساد؛ ومع ذلك يحسن بنا في هذه الوقفة أن نشير إلى أن علماء الأمة في القديم والحديث - من أجاز منهم كشف الوجه ومن لم يجزه - كلهم متفقون ومجمعون على وجوب ستر وجه المرأة وكفيها إذا وُجِدَت الفتنة وقامت أسبابها؛ فبربكم أي فتنة هي أشد من فتنة النساء في هذا الزمان؛ حيث بلغت وسائل الفتنة والإغراء بهن مبلغاً لم يشهده تاريخ البشرية من قبل، وحيث تفنن شياطين الإنس في عرض المرأة بصورها المثيرة في كل شيء في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وأخرجوها من بيتها بوسائل الدعاية والمكر والخداع؛ فمن قال بعد ذلك : إن كشف المرأة عن وجهها أو شيء من جسدها لا يثير الفتنة فهو - والله - مغالط مكابر لا يوافقه في ذلك من له مُسْكَة من دين أو عقل أو مروءة.

وبعد التأكيد على أن أهل العلم قاطبة متفقون على وجوب تغطية الوجه إذا وجدت الفتنة يتبين لنا أن خلافهم في ذلك كان محصوراً فيما إذا أُمِنَتِ الفتنةُ، ومع ذلك فتجدر الإشارة أيضاً إلى أن هذا القدر من الخلاف بقي خلافاً نظرياً إلى حد بعيد؛ حيث ظل احتجاب النساء هو الأصل في الهيئة الاجتماعية خلال مراحل التاريخ الإسلامي، وفيما يلي نُقُول عن بعض الأئمة تؤكد أن التزام الحجاب كان أحد معالم «سبيل المؤمنين» في شتى العصور: قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «كانت سنَّة المؤمنين في زمن النبي ﷺ أن الحرة تحتجب، والأَمَةُ تبرز»(١).

وقال أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ: «لم يزل الرجال على مر الزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن متنقبات»(٢).

وقال الحافظ ابن حجر: «لم تزل عادة النساء قديماً وحديثاً أن يسترن وجوههن عن الأجانب»(٣).

وقد يتعلق دعاة السفور أيضاً ببعض الحالات التي أذن الشارع للمرأة فيها بكشف وجهها لغير محارمها كرؤية الخاطب لمخطوبته، وعند التداوي ـ إذا عدمت الطبيبة بشرط عدم الخلوة ـ وعند الشهادة أمام القاضي ونحوها، وهذا كله من يُسْر الشريعة وسماحة الإسلام؛ حيث رُخِّص للمرأة إذا اقتضت المصلحة الراجحة والحاجة الماسة أن تكشف عن وجهها في مثل هذه الأحكام؛ وليس في هذا أدنى مُتَعَلَّق لدعاة السفور؛ لأن الأصل هو الحجاب الكامل وهذه رخص تزول إذا زالت الحاجة إليه.

الوقفة الرابعة:

ومن منطلق النصح والشفقة وإقامة الحجة أتوجه بالكلمات الآتية إلى أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم وأساؤوا إلى مجتمعهم وأمتهم وخانوا أماناتهم وحملوا بذلك أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم ـ ألا ساء ما يزرون ـ فأرجو أن تجد هذه الكلمات آذاناً صاغية وقلوباً واعية قبل مباغتة الأجل وهجوم الموت؛ حيث لا تقبل التوبة ولا ينفع الندم.

١ - أذكِّركم بموعظة الله ـ تعالى ـ؛ إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ...﴾ [سبأ: ٤٦].

فماذا عليكم لو قام كل فرد منكم مع نفسه أو مع صاحبه، ثم فكرتم فيما أنتم عليه من إفساد وصد عن سبيل الله ـ عز وجل ـ، هل أنتم مقتنعون بما تفعلون وبما تجرُّونه على أمتكم من الفتن؟ وهل هذا يرضي الله ـ تعالى ـ، ويجلب النعيم لكم في الآخرة؟ إنكم إن قمتم لله ـ عز وجل ـ متجردين مثنى أو فرادى، وفكرتم في ذلك فإن الجواب البدهي هو أن الفساد والإفساد لا يحبه الله ـ عز وجل ـ، بل

---

(١) تفسير سورة النور، ص ٦٥.

(٢) إحياء علوم الدين، ٤ / ٧٢٩.

(٣) فتح الباري، ٩/٣٢٤.



يمقته، ويمقت أهله، وسيأتي اليوم الذي يمقت فيه أهل الفساد أنفسهم، ويتحسرون على ما فرطوا وضيعوا وأفسدوا، وذلك في يوم الحسرة؛ حيث لا ينفع التحسر ولا التندم، فعليكم بالتوبة قبل أن يحال بينكم وبينها.

٢ - أذكِّركم بيوم الحسرة والندامة يوم يتبرأ منكم الأتباع وتتبرؤون من الأتباع، ولكن حين لا ينفع الاستعتاب ولا التنصل ولا التبرؤ، بل كما قال - تعالى -: ﴿ وأسرُّوا النَّدامة لمَّا رأوُا الْعذاب وجعلْنا الأغْلالَ في أعْناق الَّذين كفرُوا هلْ يُجزوْنَ إلاَّ ما كانُوا يعْملُون ﴾ [سبأ: ٣٣].

أذكِّركم بالأثقال العظيمة التي ستحملونها يوم القيامة من أوزاركم وأوزار الذين تضلونهم بغير علم إن لم تتوبوا، قال - تعالى -: ﴿ وليحْملُنَّ أثْقالهُمْ وأثْقالاً مَّع أثْقالهمْ وليُسْألُنَّ يوْم الْقيامة عمَّا كانُوا يفْترُون ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال - عز وجل -: ﴿ ليحْملُوا أوْزارهُمْ كاملةً يوْم الْقيامة ومنْ أوْزار الَّذين يُضلُّونهُم بغيْر علْمٍ ألا ساء ما يزرُون ﴾ [النحل: ٢٥].

وإن الظالمين جميعهم رئيسهم ومرؤوسهم، تابعهم ومتبوعهم لهم يوم مشهود ويوم عصيب، يوم يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، ويحيل التبعة بعضهم على بعض؛ ولكن حين لا يجدي لهم ذلك إلا الخزي والبوار.

٣ - إن لم يُجْدِ واعظُ الله - سبحانه - والدار الآخرة فيكم فلا أقل من أن يوجد عندكم بقية مروءة وحياء تمنعكم من إفساد المرأة وإفساد المجتمع بأسره.

إن المتأمل لحال المتبعين للشهوات اليوم ليأخذه العجب والحيرة من أمرهم! فما لهم وللمرأة المسلمة التي تقر في منزلها توفر السكن لزوجها وترعى أولادها؟ ماذا عليهم لو تركوها في هذا الحصن الحصين تؤدي دورها الذي يناسب أنوثتها وطبيعتها؟ ماذا يريدون من عملهم هذا؟!

ثم ماذا عليهم لو تركوا أولاد المسلمين يتربون على الخير والدين والخصال الكريمة؟ ماذا يريدون من إفسادهم وتسليط برامج الإفساد المختلفة عليهم؟ هل يريدون جيلاً منحلاً يكون وبالاً على مجتمعه ذليلاً لأعدائه عبداً لشهواته؟ إن هذه هي النتيجة؛ وإن من يسعى لهذه النتيجة الوخيمة التي تتجه إليها الأسر المسلمة اليوم لهو من أشد الناس خيانة لمجتمعه وأمته وتاريخه.

إن من عنده أدنى مروءة ونخوة - فضلاً عن الدين والإيمان - لا يسمح لنفسه أن يكون من هؤلاء الظالمين، وما ذُكرَ من إفساد الأسرة إنما هو على سبيل المثال لا الحصر؛ فيا من وصلوا إلى هذا المستوى من الهبوط والجناية! توبوا إلى ربكم، وفكِّروا في غايتكم ومصيركم، واعلموا أن وراءكم أنباءاً عظيمة وأهوالاً جسيمة تشيب لها الولدان، وتشخص فيها الأبصار؛ فإن كنتم تؤمنون بهذا فاستيقظوا

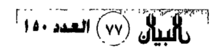
من غفلتكم وراجعوا أنفسكم، والله - جل وعلا - يغفر الذنوب جميعاً، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك فراجعوا دينكم، وادخلوا في السلم كافة قبل أن يحال بينكم وبين ما تشتهون.

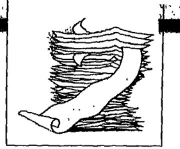
٤ - يا قومنا! أعدوا للسؤال جواباً وذلك حين يسألكم عالم الغيب والشهادة عن مقاصدكم في حملتكم وإجلابكم على المرأة وحجابها وقرارها في بيتها، فماذا أنتم قائلون لربكم - سبحانه -؟ إنكم تستطيعون أن تفروا من المخلوق فتدلِّسون وتلبِّسون، وقد يظهر ذلك للناس في لحن القول وقد لا يظهر؛ لكن كيف الفرار ممن يعلم ما تخفون وما تعلنون؟ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [**الحاقة**: ١٨]. فتوبوا إلى علاَّم الغيوب ما دمتم في زمن التوبة، وصحِّحوا بواطنكم قبل أن يُبعثَر ما في القبور ويُحَصَّل ما في الصدور.

وختاماً:

أوصي نفسي وإخواني المسلمين الحريصين على دينهم وأعراضهم وسلامة مجتمعاتهم من الفساد بأن يكونوا يقظين لما يطرحه الظالمون لأنفسهم وأمتهم من كتابات وحوارات مؤداها دعوة إلى سفور المرأة واختلاطها بالرجال الأجانب، فما دامت المدافعة بين المصلحين والمفسدين فإن الله - عز وجل - يقذف بالحق على الباطل فإذا هو زاهق. وينبغي أن لا ننسى في خضم الردود على ما يكتبه المفسدون من الشبهات والشهوات؛ ذلكم السيل الهادر الذي يتدفق من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية في بلاد المسلمين؛ وذلك بما تبثه الإذاعات والتلفاز والقنوات الفضائية من دعوة للمرأة إلى السفور ومزاحمة الرجال في الأعمال والطرقات، والتمرد على الرجل سواء كان أباً أو زوجاً أو أخاً؛ ولقد ضربت هذه الوسائل بأطنابها في بلاد المسلمين فكان لزاماً على المصلحين محاربتها وإبعادها عن بيوت المسلمين قدر الاستطاعة، فإن لم يكن إلى ذلك سبيل فلا أقل من تكثيف الدعاية ضدها والتحذير من شرها ووقاية المسلمين من خطرها؛ وذلك بإصدار الفتاوى المتتابعة والخطب المكثفة حول أضرارها وأثرها المدمر للدين والأخلاق؛ فإنها - والله - لا تقل خطراً عما تكتبه الأقلام الآثمة عن المرأة إن لم تزد عليه، والمقصود أن لا يكتفي المصلحون بمحاربة ما يكتبه المفسدون في الصحف والمجلات عن المرأة فإن هم سكتوا سكت المصلحون وظنوا أن الخطر قد انتهى. كلا! إن الخطر لم ينته وإن المعركة مستمرة؛ لأن الخطر الأكبر لا يزال قائماً ما دامت الوسائل المسموعة والمرئية لا تكفُّ عن المرأة والاستهزاء بحجابها وقرارها في بيتها وقوامة الرجل عليها، وإثارة الشبهات في ذلك.

أسأل الله - عز وجل - أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يعز دينه ويعلي كلمته، وأن يرد كيد المفسدين في نحورهم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





ماذا يريدون من المرأة..؟! (٢ـ٢)

ندوة عن:

واقع المرأة في الغرب

أشرف على إعدادها وترجمتها في بريطانيا

براق البياتي وعبد السلام عبد اللطيف

المرأة الغربية هي الأنموذج والمثل الذي يُحتذى من قِبَل أدعياء التحرر والتغريب؛ فهي ـ بزعمهم ـ قد وصلت إلى قمة السعادة، وحصلت على كافة حقوقها الإنسانية، ولكن هل هذا الزعم صحيح حقاً؟! أم أنه مجرد وهْم كبير يريدون أن يوقعونا في شراكه؟

هذا ما سوف نراه في هذه الندوة التي شاركنا فيها مجموعة من الأخوات الغربيات المسلمات، كلهن من أصول إنجليزية وويلزية، عشن في الغرب، وتربين في أحضانه، ثم عرفن حقيقته بعد أن شرح الله صدورهن للإسلام.

الأخوات المشاركات:

١ - فاطمة أم إسماعيل، واسمها قبل الإسلام: ڤيكتوريا كيب وول.

٢ - عائشة أم سعدية، واسمها قبل الإسلام: راشيل بريتشرد.

٣ - خديجة أم عارف، واسمها قبل الإسلام: ويندي بووث.

٤ - أم يوسف، واسمها قبل الإسلام: آشلي داينتي.

٥ - خديجة أم محمد، واسمها قبل الإسلام: جوان توماس.

٦ - نبيلة أم إسماعيل، واسمها قبل الإسلام: روبين ربيد.

البيان: مفهوم الأخلاق مرَّ بتغيرات جذرية متعددة: فكرية واجتماعية، حتى وصل إلى مرحلته الحالية، فما مفهوم الأخلاق في الغرب؟

■ **الأخت: خديجة أم عارف:** تختلف الأخلاق في الغرب من شخص إلى شخص ومن بيت إلى بيت، وهناك تصور عام أن كل التصرفات الشخصية مصونة مهما كانت هذه التصرفات إذا لم تؤثر على شخص آخر. ومن هذه التصرفات المقبولة عند الغرب مثلاً: أن ينتحل الرجل شخصية المرأة بزيها وعلاقاتها وأن يُظْهِرَ ذلك أمام أطفاله، ومثال آخر: هو الكَمُّ الهائل من المواد والعروض الإباحية في شتى وسائل الإعلام والتي أصبحت متقبلة. وبالرغم من أن هناك فئة من الناس تشعر بالخجل من هذه التصرفات إلا أنها لا تستطيع الانتقاد العلني خوفاً من أن توصف بالتحجر والتخلف. وتحت ضغط الإعلام أصبح الكثير من هؤلاء - ومنهم أرباب الكنيسة - يقبلون بالقيم الجديدة، ومثاله: السماح بزواج الشواذ داخل الكنيسة. نعم! الأخلاق في انحدار عجيب؛ وهناك ذلك المفهوم السائد بأن تفعل ما يحلو لك ما دمت تشعر بالسعادة وما دام مقبولاً عندك، هذا المفهوم الذي بدأ ينتشر من الستينيات حتى الآن.

■ **الأخت: فاطمة أم إسماعيل:** أنا لا أعتقد أن هناك قيماً باقية في الغرب؛ فالنساء أصبحن كالرجال، والرجال كالنساء، حتى الكنيسة التي كانت أساس القيم الغربية غيَّرت كلام الله لتكثر حضور الناس، فصاروا يجعلون الحرام حلالاً.. فالقيم الغربية قد انهدمت!

■ **الأخت: خديجة أم محمد:** لقد فُقِدَت فكرة القيم في الغرب؛ والأحوال تقزز النفس أكثر وأكثر، فالأفعال التي تحصل هنا من هذه الأنواع كثيرة، والناس المسؤولون عنها لا يوجد لديهم قيم، فهم لا يعتنون بتصحيح الأخلاق للناس والأطفال هذه الأيام، المسلمون الملتزمون هم فقط الذين لهم قيم هنا في الغرب.

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** لم تعد فكرة القيم موجودة في الغرب، فالغرب يؤمن بأن حرية الاعتقاد الشخصي أهم من مسألة الالتزام بقيم معينة. وبهذا فإن الغرب سمح للمجتمع أن ينقلب ضد نفسه؛ حيث إن كل فرد يعتقد بأن ما يؤمن به هو الصحيح، كما أن من المسلك الحسن عندهم أن يترك الأمر لكل فرد يدعو لما يعتقد به بغض النظر عما قد يحمله من أفكار ومعتقدات شاذة. لقد مضى عهد طويل منذ أن كان الغرب يهتم بالقيم؛ حيث إن الاهتمام بالماديات أصبح بمثابة الإله المعبود.

البيان: دعوات تحرير المرأة في الغرب قديمة جداً، فهل استطاعت تلك الدعوات أن تستنقذ المرأة الغربية وتنصفها وتكرمها؟ وهل استطاعت أن تسعدها حقاً؟

■ **الأخت: عائشة أم سعدية:** أنا شخصياً لا أعتقد أن المرأة المسماة «محررة» بأنها سعيدة، فالشيء الذي حصلت عليه هو الغرور بأن تعتبر مساوية للرجل فقط؛ إذ ليس لها وقت أو إحساس لتحيا حقيقة أنها زوجة أو أم، وهذا مما يُحزِن؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - خلق المرأة زوجة للرجل وأمّاً لأولاده لتراعي بيت الأسرة والأطفال وحاجات زوجها، ولـمَّا لم يتحقق ذلك للمرأة المتحررة فقد ضاع عليها أهم شيء في الحياة؛ ويوماً مَّا

سوف تشعر بهذا، ولكن بعد فوات الأوان! كيف يوجد للمرأة ذرة من الكرامة وهي تريد أن تكون كالرجل؟

■ **الأخت: خديجة أم محمد:** لا.. تحرر المرأة في الغرب لم يستطع أن ينقذ المرأة أو يكرمها، فقط استطاع أن يضغط على النساء ليخرجن من البيوت من غير رقيب ولا حسيب، يكون لهن هواياتهن وحياتهن الخاصة، لا يردن العمل فقط بل دفعن بأنفسهن للوصول إلى أعلى مرتبة في العمل، والوصول إلى هذه (القمة) ليس بالسهل للنساء، ولهذا هن دائماً تحت ضغوطات محاولاتهن للتنافس مع الرجال، وفي النهاية إذا وصلن إلى أعمال ووظائف فعادةً لا يرقين إلى ما يحققه الرجال؛ فبعد كل هذا العمل، والوقت، والجهد والضغط ما زالت النساء هنا ـ مثلاً ـ لا يحصلن على المرتبات نفسها لنظائرهن من الرجال، وهذا يؤدي إلى نتيجة سلبية!

بعض الشركات لا تقبل النساء للعمل عندهم إذا كن حوامل ولا يوظفون النساء اللاتي لديهن أطفال، وهذا يزيد التعقيدات للنساء اللائي يسعين للتساوي التام مع الرجال، وهذا التعقيد هن اللواتي جلبنه؛ فبدلاً من أن يرفعن مكانتهن جعلن حياتهن مضطربة وتحت ضغوط جمة هذا لا بد أن يؤدي إلى الحزن والأسى.

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** أنا أرى أن النساء في الغرب عشن مراحل (التحرر) واستُعبدن من قِبَل أفكار المجتمع الداعية لتحرير المرأة. ولقد ناضل النساء لنيل ما يسمى: (حقوق المساواة في أماكن العمل) وطالبن بالمعاملة بالمثل مساواة بالرجل. ولكن هؤلاء النساء أنفسهن سمعناهن فيما بعد يصرخن مطالبات بحقوق تختلف عن الرجال العاملين، مثل مطالبتهن بإجازات وضع الحمل، وتفريغهن للبقاء في رعاية أطفالهن الرضع، وفي هذا تناقض مع دعوات المساواة، حيث إن الرجال ليس لهم مثل تلك الحقوق، وهناك أمور أخرى مثل ترقيات العمل، فالمرأة عادة لا تمنح مثل تلك الترقيات ما لم تكن مستعدة لتقبل التحرشات المخدشة للعرض من قِبَلِ رؤسائها في العمل. ثم إذا ما نظرنا إلى واقع المرأة العاملة فسنجد مثلاً أن عليها التضحية في مسائل مثل تربية أطفالها والتي تلجئها ظروف العمل في كثير من الأحيان إلى إيكال تلك المهمة إلى مربيات؛ وقد أثبتت تجربة استخدام المربيات أنها قد تسيء إلى الأطفال؛ حيث تم ضبط كثير من الحالات التي يعنف فيها الأطفال ويُضربون، بل وكان منها حالات أدت إلى قتل الأطفال!

أما عن وضع أزواج النساء العاملات فهي الأخرى لا تخلو من خلل؛ فكثير من هؤلاء الأزواج قد يعاني من إهمال وتقصير زوجته تجاهه خصوصاً من الناحية العاطفية مما قد يؤدي به إلى العزوف عنها والبحث عن امرأة أخرى، فينتهي الأمر إلى الطلاق وتفسخ العائلة؛ ولذا فالمحصلة الكلية لمثل تلك الدعوات التحررية وبشكل عام لم تؤدِّ إلى السعادة.

البيان: خرجت المرأة الغربية للعمل في شتى الميادين مع الرجل جنباً إلى جنب؛ فهل تجربة العمل هذه ناجحة؟ وما أثرها على الأسرة والأبناء؟

■ **الأخت: فاطمة أم إسماعيل:** لا أصدق أن من النجاح أن يعمل الرجال والنساء جنباً إلى جنب؛ فمن فطرة الرجل أن يكون القائم والأقوى، ومن الطبيعي أن يرفض منافسة المرأة في مكان العمل، وعليه فسيصعب

عليها العمل في مثل هذه الأجواء، وسيؤثر هذا بدوره على حياتها الأسرية، وذلك عندما تنقل تأثرها بمشاكل العمل إلى البيت وتؤثر بذلك على الأسرة.

وهناك أيضاً: الدعوة للوقوع في العلاقات المحرمة في العمل، إذا كانت الأحوال في البيت تمر في ظروف صعبة.

■ **الأخت: عائشة أم سعدية:** كثير من النساء خرجن للعمل مع الرجال، ولكن تسمية ذلك نجاحاً شيء يحزن؛ والتنافس مع الرجال خطأ بالكلية، ولعل المرأة العاملة تعتقد أنها ناجحة بالتمكن من نفس مكانة الرجل أو أعلى منه، ولكنها في الحقيقة هي الخاسرة؛ فمن مشاكل الاختلاط مع الرجال أنها تخاطر بنفسها في الوقوع بعلاقات محرمة معهم، وطبيعي أن يؤدي هذا إلى الطلاق فتخسر زوجها وأطفالها.. ونحو ذلك. أيضاً عدم وجودها مع زوجها قد يقلل من اكتراثها به، ويمكن أن يجعله هو الآخر يدخل في علاقات جنسية غير مشروعة، حينئذ الأطفال حتماً سيعانون؛ لأن الأم ليست موجودة لتعلمهم ولترعاهم. وعادة ما يؤدي هذا إلى أن يخرج الأطفال إلى الشوارع، فيزيد احتمال وقوعهم في مشاكل عويصة، ومن تلك المشاكل الحمل المبكر غير الشرعي للبنات. وللمعلومية فيوجد في المجتمعات الغربية أكثر عدد من حالات الطلاق في العالم، وكذلك حالات حمل المراهقات من علاقات جنسية غير مشروعة.

■ **الأخت: خديجة أم عارف:** في مجتمع العمل المختلط ينظر إلى العلاقات التي تنشأ بين الرجال والنساء على أنها علاقات من قبيل المتعة غير الضارة، ولكن ينسى هؤلاء أن هذه العلاقات قادت إلى الزنا وإلى تفكك الأسرة والقضاء على الكثير من الزيجات. هذا الاختلاط خلق كثيراً من الشك بين الأزواج حول العلاقات غير المشروعة التي يقيمها كلا الطرفين من خلال العمل، كما أنه ورَّث كثيراً من المضايقات والتحرشات الجنسية في العمل من قِبَل الرجال للمرأة، تلك المرأة التي تبدي نصف جسدها أثناء العمل. إن دور المرأة أمّاً ومربية للأطفال لم يعد له قيمة في الغرب، بل إن المرأة تُلقي بأطفالها في الحضانة أو إلى شخص آخر ربما يكون غريباً، وتنطلق للعمل وبأجر أقل من أجر الرجل. أعتقد أنه ليست هناك وظيفة أكثر ربحاً وأجراً من وظيفة الأم التي تربي أطفالها في بيئة متزنة حانية. كل طفل يحتاج أن يشعر بالحنان والطمأنينة، وهل يستطيع أحد أن يعطيه هذا الشعور مثل الأم؟! على الرجال في الغرب أن يتحملوا مسؤولياتهم تجاه أسرهم وأن يقوموا على الأسرة معيلين لها، وأن يشعروا بأخطائهم عندما يدفعون نساءهم للعمل خارج البيت.

■ **الأخت: أم يوسف:** عمل النساء بجانب الرجال خطر جداً وهو ليس بناجح حتماً، والخاسرون منه هم الأسرة عموماً والأطفال بالذات؛ فعندما تعمل المرأة فإنها تهمل البيت الذي هو مسؤوليتها، ولعل إحدى آثار عمل المرأة أن الأكل الجاهز أصبح الوجبة الأساسية للأطفال، مما يدعو إلى تدهور صحة الأطفال بمرور السنين، وهناك أثر ثانٍ وهو أن الأمهات يصبحن غير متفرغات لأطفالهن مائة في المائة، والأطفال يشعرون بذلك؛ وبهذا يظهر النقص في الاتزان والتصرف وتنشأ مشكلات سلوكية.

أما الأثر الثالث فهو أن المرأة تبدأ في لبس زي معين لكي تجذب الرجال داخل العمل، كما يؤدي اختلاطها

بالرجال إلى عدم الرضا عن زوجها. ولعل وجود المرأة في محيط عمل الرجال من الأسباب التي أدت إلى ارتفاع نسبة الطلاق.

البيان: التعليم المختلط وخاصة في سنوات المراهقة من خصائص التعليم في البلاد الغربية؛ فما تقويم هذه التجربة؟

■ **الأخت: عائشة أم سعدية:** التعليم المختلط يشجع على العلاقات بين الأولاد والبنات، وإذا أُحصي عدد المراهقات الحوامل من مدارس مختلطة ومن مدارس بدون اختلاط (خصوصاً المدارس الإسلامية) لوجدنا في الغالب أن النسبة في المدارس المختلطة ستكون ٧٥٪ على الأقل مقارنة بالمدارس التي تطبق الفصل بين الجنسين بنسبة لعلها تقرب من ٥٪ (في حين ستجد أن النسبة في المدارس الإسلامية هي الصفر)، كما أنني أعتقد أن اختلاط الجنسين يؤدي إلى عدم تركيزهم من الناحية الدراسية؛ لأن اهتمامهم سيكون موجهاً للجنس الآخر.

■ **الأخت: خديجة أم محمد:** لتقويم التربية المختلطة في المدارس الغربية أقول: إن اختلاط الأولاد والبنات مثلاً في هذه المدارس شيء في غاية التهديم؛ فعندما يكبر الأطفال وينمون سوف يبدؤون يفهمون أمور النساء في المدرسة، وهم ليسوا تحت رعاية دائمة، والآن غدت مواضيع الحياة يُتحدَّث فيها علانية، وعند ذلك فإن الأطفال سوف يُشجَّعون على الفعل القبيح من زناً وما شابه ذلك، والذي يجري في الصفوف العُليا (الفصول المتقدمة) في هذه المدارس أن ترتب النشاطات للبنين والبنات معاً ويتركوا للاختلاط بحريّة، والنتيجة التي لا مفر منها أن البنات والبنين يبدؤون بعلاقات الحب والغرام، وهذا يؤدي إلى الزنا وحالات حمل البنات الصغار، وبعد ذلك تُترك البنت لتربية الأطفال وحدها، وهذا هو سبيل تفكك المجتمع!

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** التعليم المختلط خطر يهدد المجتمع؛ فالمربون (المعلمون والمعلمات هنا) يؤمنون بمشروعية إقامة العلاقات بين الجنسين من الطلبة المراهقين، متناسين الأبعاد الخلقية والصحية والجنسية لهذا الأمر، وهم أنفسهم (الهيئة التعليمية) قد يكونون متورطين في أعمال غير خلقية، مثل تعاطي المخدرات والعلاقات غير الخلقية بل وحتى الزنا. الشغل الشاغل للمراهقين في مثل هذه الحال هو معايشة هذه الأجواء وبذلك يصبحون معرضين لمختلف الأخطاء التي تحيق بهم في مجتمع تحطمت فيه القيم الخلقية، والمجتمع نفسه هو الخاسر في نهاية الأمر.

البيان: تعاني الفتاة الغربية المراهقة من مشكلات اجتماعية ونفسية متعددة نتيجة انتشار الشذوذ والزنا والاغتصاب ونكاح المحارم.. ونحو ذلك؛ فهل هذه المشكلات موجودة حقاً؟ وما حجمها؟ وهل يدرك الغربيون خطورة ذلك؟

■ **الأخت: خديجة أم عارف:** لا أعتقد أن نكاح المحارم منتشر، ولكن الزنا منتشر؛ فالأولاد يُعَلَّمون في المدارس أن العلاقات الجنسية مسموح بها بشرط أن يُستخدَم الواقي، أو ما يسمى بالجنس الآمن؛ ولكنهم لا

يعلمون القيم الأخلاقية أو أهمية الزواج. وهذه الأشياء لم تؤدِّ إلى أعداد كثيرة من الحمل المبكر غير المرغوب فيه، وإلى أعداد من الأمهات بدون أزواج فحسب؛ بل أدت إلى مجتمع يفتقر إلى الاتزان الأخلاقي والذي هو من الضرورات لتربية الأطفال في أي مجتمع. كثير من الفتيات أصبن بصدمة نفسية نتيجة الحمل المبكر (بطريق الزنا) وأدى ذلك إلى الإجهاض، ولا تسأل عن آباء صغار السن والذين يتنكرون للمسؤولية عادة. إن الصدمة النفسية والمعاناة المترتبة على هذه المشاكل خيالية. الإعلام يدفع الفتاة إلى التجمُّل والخروج بشكل سافر وهو ما يؤدي غالباً إلى الاعتداء الجنسي والقتل أحياناً. كل ذلك له تأثير سيئ على المجتمع؛ فالفرد الذي اعتاد الخلاعة والإباحية يصعب عليه أن يقيم علاقة متزنة من خلال أسرة وأن يربي أطفالاً. المجتمع والمربون والآباء لا يقدمون إلا القليل في مواجهة هذه المشاكل.

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** أنَّى للمربين أن يُقدِّروا خطر هذه الانحرافات وهم أنفسهم من ضحاياها؟! لقد انضم كثير من ذوي الانحرافات وبمختلف أصنافها إلى فئة المربين، وهذا يشجع المراهقين على ممارسة ما يسمى بالطرق المأمونة لتعاطي المخدرات وممارسة العلاقات الجنسية وهم في عمر يافع لا يعون معه المخاطر التي تحيق بهم!

■ **الأخت: أم يوسف:** هذه المشاكل موجودة وأعتقد أن حجمها أكبر من أن يتخيله أحد. أنا أعتقد أن المربين واعون لأخطار هذه الانحرافات السلوكية ولكن لا يعرفون كيف يوقفونها.

■ **الأخت: خديجة أم محمد:** نعم! هذه المشاكل موجودة، ومدى هذه المشاكل يؤدي إلى خلخلة أسرية؛ فعندما يكبر الأطفال يغدون مختلين وينقلون مشاكلهم وخللهم الاجتماعي إلى مراهقين آخرين أو حتى أطفالهم؛ وهذا ينتج قلة الاحترام في المجتمع، ولهذا فإن هناك تفككاً كبيراً في الحياة الأسرية وفي القدرة على التعامل الاجتماعي الجيد.

■ **الأخت: فاطمة أم إسماعيل:** نعم هذه المشاكل موجودة، ولكن أنا أشعر أن الموضوع في غاية البشاعة، ولا أريد أن أعلق أكثر.

البيان: للإعلام دور بارز في صناعة الأخلاق والقيم؛ فكيف يصور الإعلام الغربي المرأة الغربية؟ وهل لهذه الصورة دور في إفساد المجتمع وتفككه؟

■ **الأخت: فاطمة أم إسماعيل:** الإعلام يستخدم النساء معظم الوقت أدوات للنظر إليهن، والبنات الصغيرات يشاهدن هؤلاء النساء ويرغبن في الظهور مثلهن، ولذلك فإن المشكلات كثيرة منها تخلي المرأة عن عملها البيتي - كالطبخ وغيره من الخدمات - وانشغالها بجسمها.

■ **الأخت: خديجة أم عارف:** الإعلام يركز على منظر المرأة ومظهرها؛ فالمرأة الجميلة ذات الجسم الرشيق تغطي صورتها الصفحات، وتعرض جسمها بطريقة مقززة، والمرأة تفاخر بجمالها وتعتبره سلعة ناجحة. وتعتقد بعض النساء أن الحرية للمرأة هي في التعليم وفي تحقيق المنصب والشهرة، ولا يخفى أن هذه الحرية

هي التي أنتجت صناعة الجنس والتي تعتبر من أكثر الصناعات نمواً في الغرب. نعم! لقد امتُهِنَت المرأة في الغرب وهي التي سمحت للعابثين بذلك. غسيل الدماغ مستمر في الإعلام من خلال طرح نماذج على أنها مثال أعلى؛ إذ تقدم حياتهم الجنسية على أنها المثال، مثل نجوم الموسيقى والغناء مع عدم تقديمهم أمثلة إيجابية يمكن الاقتداء بها.

■ **الأخت: خديجة أم محمد:** الإعلام الغربي يصور المرأة الغربية على أنها قوية، مستقلة، جميلة ومثالية؛ لأن النساء يرغبن بذلك كما يقول الإعلام، وإذا لم يكن عندها أي من تلك الصفات فستفعل أي شيء للحصول على ما يتوقعه الناس من هذه المظاهر مثل لون الشعر ولون البشرة، وإذا لم تستطع أن تحقق ذلك فسوف تكون في غاية من الضيق؛ لأنها لم تبلغ (المثالية) التي يصوِّرها الإعلام! وهذا يؤدي بها إلى الكآبة الشديدة والإحباط بل وأحياناً إلى قتل النفس.

صورة الإعلام هذه شر ماحق يمكن أن يدفع المرأة إلى أن تحطم عزتها بنفسها، وإذا فقدت عزة النفس فلن تُكرَم أو تراعي أي أحد، أو أي شيء آخر، وهذا يمكن أن يؤدي إلى الإجرام واللامبالاة بين أفراد المجتمع.

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** إن الإعلام في تصويره للمرأة في الغرب يهمل دورها في المجتمع زوجةً وأمّاً، ويركز على مسائل مظهرها وهيئتها ودوافعها إلى كسب المال. الغالب هنا أن البنات الناشئات لم يعد لهن قدوة حسنة في أمهاتهن اللائي أصبحن يعلمنهن أن قيمة المرأة تكمن في اهتمامها بالملبس وقابليتها على جذب وإبهار الرجال. ومن المفاهيم المنحرفة التي أصبحت مترسخة عند كثير من النساء أن الاهتمام برشاقة الجسم مثلاً مقدم على الإنجاب والاعتناء ببيتها. كذلك فإن نظرة المرأة الغربية للرجل أصبحت تتسم بقلة الاكتراث لدوره في المجتمع، حيث إنها ما عادت في حاجة ملحة للارتباط بزوج؛ فالحرية الجنسية تصور لها أن الزواج أضحى من عادات الماضي وتقاليده وأن الزواج يؤدي إلى استعبادها من قِبَل رجل واحد!

■ **الأخت: عائشة أم سعدية:** الإعلام بارع في إبراز قضية تحرر المرأة الغربية.. الحرية في الذهاب إلى العمل، السياحة، السوق.. ونحوها. النساء في خطر كبير وهو: الاقتناع بأن كل شيء في الحياة رائع ويُشْرَع لها نيله؛ فلماذا تتزوج وفي استطاعتها نيل المتعة من غير زواج؟! ولماذا تجلس في البيت وفي استطاعتها أن تعمل وتختلط بحرية مع الرجال، وتحصل على أي عدد من الأخلاء كما تريد؟! المرأة في الغرب اليوم لا يوجد عندها قيم لنفسها، وليس لها كرامة البتة، وسوف تهلك نفسها بنفسها.

البيان: التفكك الأسري والتمزق الاجتماعي يعده بعض الناس أحد سمات المجتمع الغربي، فهل هذا صحيح؟ وهل له أثر على تربية الأبناء؟

■ **الأخت: خديجة أم عارف:** من أهم أسباب تفكك الأسرة في الغرب كثرة الطلاق وارتفاع نسبته وقلة الزواج؛ فالكثير لا يتزوج. ومن آثار هذا التفكك الآثار السلبية على الأطفال الذين يقعون ضحية للطلاق. ومن

مظاهر التفكك كثرة الأمهات العزاب التي يكون لديهن أطفال من غير زواج، ولكن من علاقات غير مشروعة، وعدد هؤلاء في ارتفاع مع ما يواجهن من صعوبات في تربية الأطفال وفقدان للعطف والرعاية من الآباء. وهذا يفسر انحراف كثير من الأطفال في هذا المجتمع. إن تعاليم الإسلام تحفظ للمرأة كرامتها وأي حدود توضع لها هي لحفظها وصيانتها؛ ولكن للأسف فإن هناك جهلاً بحقوق المرأة في الإسلام؛ فمثلاً واجب الإنفاق من قِبَلِ الزوج على المرأة والأطفال والبيت هو حق لهم مقرر في الإسلام؛ فعلى الزوج أن ينفق ومع ذلك يحق للمرأة أن تحتفظ بما تمتلك لنفسها إلا إذا أرادت المساعدة في حال العسر مثلاً. المرأة في الإسلام ليست تحت ضغط يدفعها للخروج من المنزل للعمل، بل لها الحرية في البقاء في البيت لتربية أطفالها دون الشعور بالذنب الذي تشعره الكثيرات من النساء غير المسلمات في الغرب. وللمرأة حق التعلُّم وخاصة في أمور دينها وأن تسد الحاجة في مجال الطب والتدريس حتى تقوم بخدمة أخواتها المسلمات في بيئة تعمل فيها بعيداً عن الاختلاط وتحكم بأحكام الإسلام.

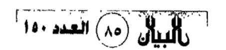
إن نظرة الذين لم يذوقوا حلاوة الإسلام والإيمان بأننا لسنا سعداء بطريقتنا الإسلامية في الحياة هذه النظرة غير صحيحة ولا واقعية؛ فأنا مثلاً أشعر بسعادة غامرة عندما التقي بأخواتي المسلمات بعيداً عن الرجال في مجتمع نسائي منفصل؛ حيث لا تحاسُد ولا تباغُض كما يحدث في المجتمعات المختلطة؛ حيث الغيرة والتباغض. كما أن الإسلام يحث المرأة على الاهتمام بالمنزل والأسرة؛ فإنه يفتح المجال لتعارف النساء وفتح باب التعلم لهن وخاصة العلم الشرعي. النساء غير المسلمات اللائي يحضرن أحياناً معنا في الحلقة بغرض التعرف على الإسلام يفاجأن بالتواد والتراحم الموجود بين المسلمات.

أما الحجاب الذي يتصور الغرب أنه حاجز أو عائق فقد كان تحرراً بالنسبة لي، تحرراً من أن يُنظَر إليَّ تلك النظرة المادية نظرة الجسد الخالي من العقل، وكان الحجاب دافعاً لأن أعامل باحترام وكرامة.

■ **الأخت: أم يوسف:** هذا صحيح، والآثار على تربية الأطفال بالغة؛ ففي المجتمع الغربي لا يربى الأفراد في أسرة تعتني بهم؛ لأن كل عضو في الأسرة منشغل بنفسه، ولهذا عندما يصل الأطفال إلى سن البلوغ فإنهم يمرون بهذه المرحلة الحساسة (سن المراهقة) وحدهم دون رقيب ولا حسيب ولا قلب حانٍ شفوق، وحتماً فإن المجتمع سيتدهور عندما يعاني الناس من المشاكل، وهذه نتيجة طبيعية لا مفر منها.

■ **الأخت: خديجة أم محمد:** نعم! ما ذكر صحيح وله تأثير على الأطفال؛ فالأطفال إذا ما نشؤوا في أسرة مفككة فلربما أدى ذلك إلى مرورهم بطفولة مؤلمة. كما أنهم عندما يكبرون ربما تنشأ عندهم مشكلة بخصوص تحمل مسؤوليات الزواج، هذا إذا لم يعدلوا عن فكرة الزواج أصلاً خوفاً من الوقوع في زيجات غير موفقة، مما يدفعهم إلى أن يخوضوا في العلاقات المحرمة التي بدورها ستنتج أطفالاً غير شرعيين في بيوت لا تربطها الأنظمة الأسرية؛ وهكذا دواليك.

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** إن التفكك الأسري من سمات العائلة الغربية؛ فمصطلح (العائلة) أصبح يعني



مجموعة من الأفراد الذين يتقاسمون مكاناً معيناً، ولكن ليس عندهم هموم ولا أهداف ولا قيم مشتركة، وتُرِكَ الأمر للصحافة والتلفاز والحاسب لتثقيف العائلة. والغربيون يصدقون ما تبثه لهم هذه الوسائل على أنها الحقيقة الخالصة ولا يلتفتون كثيراً إلى ما قد يبث عبرها من حملات إعلامية تضليلية. كما انشغل أفراد العائلة الغربية فأصبحوا نادراً ما يأكلون سوياً، وقلما يتخاطبون فيما بينهم، بل وقد ينعدم اكتراث بعضهم ببعض، وأصبحت الأنانية وحب الذات من سمات المعيشة في المجتمع الغربي، ومن اساسيات البقاء فيه على (هامش الحياة). كما صار العزوف عن القيم الأخلاقية من قِبَلِ الأبوين ينعكس على أولادهم فينشؤون هم بدورهم أفراداً بعيدين عن المعايير الخلقية ينقصهم احترام الذات واحترام الآخرين.

البيان: بعد هذه الندوة اللطيفة هل لنا أن نسأل عمَّا جعلكن تهتدين إلى الإسلام؟!

■ **الأخت: خديجة أم عارف:** ما زلت أتذكر أني كنت أؤمن بالإله منذ الثامنة من عمري، وكنت أذهب إلى الكنيسة مع وجود لَبْس وعدم وضوح لديَّ لمفهوم التثليث ومفاهيم أخرى، ثم توقفت عن ذلك في سن التاسعة عشرة وعشت حياة الغربيين. سمعت لأول مرة عن الإسلام في سن الرابعة والعشرين، وبعد سنوات قابلت رجلاً مسلماً في العمل، وعرفني على زوجته، ثم بدات أتعلم الإسلام، كل شيء كان بالنسبة لي صحيحاً ويقع في الموقع الصحيح، لقد كنت أؤمن بالتوحيد بأن الله واحد؛ وما ذُكِرَ في القرآن والسُّنَّة عن عيسى - عليه الصلاة والسلام - كان منطقياً ومقبولاً لي. كثير من تفاصيل الإسلام جذبتني كالرفق بالحيوان والاهتمام بالبيئة والأدلة العلمية في القرآن وأصبحت أكثر وضوحاً عندي الآن. ثم بدات بالتحدث مع عائلتي والأصدقاء عن الإسلام والمسلمين، وبعد سنتين من القراءة والتأمل والتفكير - وهذا التأخر ليس لتشككي في صحة الإسلام ولكن كان بسبب التأمل بقدرتي على تحمل الأعباء والتحولات التي سوف تنتج عن إسلامي - بعد ذلك كله أعلنت الشهادة وأصبحت مسلمة والحمد لله.

■ **الأخت: خديجة أم محمد:** كان لديَّ صديقات مسلمات كثيرات، وكنت دائماً احب أن أسمع تعاليم النبي ﷺ، وأحببت كثيراً من الأشياء المذكورة في القرآن والحديث، لقد قرات كتاباً يشرح الحياة الأسرية في الإسلام وهذا ما أردته. أيضاً لقد انجذبت للإسلام؛ لأن المسلم الصالح أمين، ومن ناحيتي فإني أحب الاجتماع مع الناس، والحياة مع زوج أمين يتقي الله - سبحانه وتعالى -، وانا أرى أن المسلمين هم الناس الوحيدون الذين يستحقون الاجتماع معهم.

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** لقد تقبلت معتقد الإسلام بعد أن وجدت أن الله - تعالى - أنه قد وضع نظاماً شاملاً لحياة البشر رحمة بالعالمين. وهذا النظام الشامل الذي يتيح للبشر أن يتعبدوا ربهم الخالق من خلال تطبيقه في نواحي حياتهم المختلفة؛ فهو نظام مهذِّب يغطي جميع القيم الخلقية والحريات والتربية وأسس

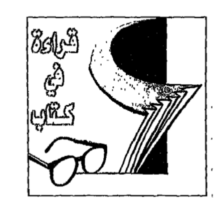
العلاقات الزوجية، بل وعلاقات البشر بعضهم ببعض. كنت أشعر بأن حياتي كان ينقصها شيء معتبر، وكنت أفتش في قرارة نفسي عمن يستحق الثناء والشكر، متناسية من هو أهل للثناء والشكر وهو الخالق المنان. وكنت دائمة الاستجابة لتوقعات الآخرين مني، وفي الوقت نفسه غير آبهة بالأحكام والسنن الإلهية المفروضة على العباد. أمَّا الآن وقد هداني الله - تعالى - للإسلام فسعيي حثيث للقبول بتوجيهاته، والاستسلام لحكمه وتعاليمه - جل شأنه - وأدعو الله ألا أنسى أبداً أن الفضل والحمد كله يعود له وحده - سبحانه وتعالى -. أسأل الله أن يتقبل صالح أعمالنا وأن يشملنا برحمته جميعاً.

البيان: الحمد لله على نعمة الإسلام. والآن نود لو تحدِّثْنَنا عن تجربتكن في الإسلام: هل وجدتن في التعاليم الإسلامية ما يُقيد المرأة أو ينتقص من كرامتها، أم أن الأمر مغاير لذلك؟

■ **الأخت: فاطمة أم إسماعيل:** لا، نحن محميون ونعامَل بأعلى كرامة.

■ **الأخت: عائشة أم سعدية:** لا يوجد شيء في الإسلام يقلل من كرامة المرأة، الإسلام يعطيها الكرامة، إنها لا تعرض على أي شيء سيئ، إنها تحفظ نفسها بالستر والكرامة وتغض نظرها وتخفض صوتها ولا تكون مصدراً للمشاكل لا داخل البيت ولا خارجه، إنها محدودة فقط داخل نطاق الإسلام، ولكن ليس كما يصوره الإعلام الغربي؛ فالمرأة المسلمة تعامل بالود والكرامة التي تستحقها، وإذا عرفت النساء الغربيات كيف تُعامَل المرأة المسلمة كما يأمر الله - سبحانه وتعالى - فسوف يسرعن لاعتناق الإسلام - إن شاء الله -.

■ **الأخت: نبيلة عبد الله:** إن الإسلام لا يقيد ولا يصادر أي شيء من كرامة المرأة. والحقيقة أن الإسلام يرفع من منزلة المرأة إلى درجة لا يمكن التعرف عليها ما لم تعتنق المرأة الإسلام فعلياً. عند دخولي في الإسلام دهشت لما يتمتع به النساء من منزلة رفيعة. فالصورة مغايرة لتلك التي عند الغربيين؛ فالمرأة عندهم زينة في ذراع الرجل يتباهى بها ثم يلقيها أرضاً بعد حين. إن التزام المسلمة بالحجاب والنقاب يُعد بمثابة حماية داخلية وأخرى خارجية لها. فلسان حال مظهرها الخارجي يقول: إنني أغطي جسدي لأحميه من قلة الستر المستشرية في المجتمع، وحتى لا أدع مجالاً للآخرين كي ينجذبوا لعورتي؛ ومن دون ذلك ربما كانوا سيهينونني بنظراتهم أو لساتهم التي كان من الممكن أن تنشأ نتيجة سوء فَهْمٍ لمظهري أو حركاتي فيما لو كنت غير ملتزمة بالزي الإسلامي. إنني أعتز بكوني مسلمة، والآن وقد تزوجت فأحس بالمشاعر الخاصة كوني امرأة لها زوج يعتني بها، - وإن شاء الله - يكون ممن يتذكر تعاليم الله - تعالى - وأحكامه بخصوص معاملة الزوج لزوجته.



نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء

تأليف: د. عبد الراضي محمد عبد المحسن
عرض: د. أحمد علي زلط

صدر مؤخراً كتاب: (نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء) للدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن عن الدار العالمية للكتاب الإسلامي بالرياض؛ وقد قام المؤلف في إخراج مادة كتابه بمنهج موضوعي رصين؛ وأسلوب عربي مشرق، بهدف تصحيح الصورة الخاطئة والمفاهيم المغلوطة عن نبي الإسلام، وقد استغرق إعداد الكتاب كما يقول مؤلفه: (عشر سنوات ... وذلك إدراكاً منا لدقة الموضوع وأهميته، وضرورة الاحتشاد الكافي له)(١).

وعنوان الكتاب يتآزر مع مضمونه أو محتواه؛ مما يشكل إضافة مهمة لمكتبة الدراسات الإسلامية المعاصرة.

ظل النبي المصطفى الكريم محمد ﷺ هدفاً لمطاعن خصوم الإسلام التقليديين وجنودهم من جحافل المبشرين والمستشرقين الذين راحوا يثيرون الغبار والشبهات، ويروِّجون المزاعم حول النبي ﷺ ورسالته، يريدون تشويهه في أعين الذين لا يعرفونه، لتنفيرهم من الإسلام السمح، و «في محاولة يائسة لقطع الطريق أمام الإسلام في أداء رسالته التنويرية وتعطيل دوره الحيوي في هداية البشرية»(٢).

وقد جاءت الدراسة الموضوعية للكتاب في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: بعنوان: النبوة في الإسلام، ويهدف المؤلف إلى تعريف طبيعة النبوة في الإسلام وذلك من خلال إيراد مفهومها في اللغة والاصطلاح، ذلك المفهوم الذي يجمع بين نظرية الاتصال والمعرفة المترتبة على هذا الاتصال؛ ومن جانب ثالث هو (الهبة) التي تمثل الطريق الوحيد للنبوة في الإسلام. وقد بدأ المؤلف بتعريفات النبوة،

(١) نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء، د. عبد الراضي محمد عبد المحسن، الطبعة الأولى، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٥.

فيقف أمام تعريف أهل السنة للنبوة ويرتضيه، وينقل عن ابن حزم: «النبوة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام؛ فمن أعلمه الله ـ عز وجل ـ بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئاً له بأمر ما فهو نبي بلا شك»(١). أما ابن تيمية فيؤكد في تعريفه على الاتصال الرأسي (بالله) والاتصال الأفقي (بالبشر) فيقول: «فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأه الله به؛ ويقول أيضاً: فالأنبياء ينبئهم الله، فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخير والأمر والنهي»(٢).

توقف المؤلف في كتابه أيضاً ليؤكد تعريفات النبوة أو مفاهيمها عند المعتزلة، وهم يرون فيها «رفقة مخصوصة خص الله بها بعض عباده، ثم توقف أمام تعريف ابن خلدون للنبوة الذي رأى فيها «الصدق الذي لا يعتريه الكذب؛ لأنها اتصال من النبي بالملأ الأعلى من غير مشيع، ولا استعانة بأجنبي» وعمَّق المؤلف في ضوء ذلك ماهية النبوة لغة واصطلاحاً.

وقد حدد المؤلف في مباحث الفصل الأول مراتب النبوة، وعصمة الأنبياء، وختم النبوة، فعرج إلى مراتب الأنبياء، الرسل، أولي العزم، خاتم الأنبياء محمد ﷺ. ثم تناول عصمة الأنبياء في الجانبين الأخلاقي والتبليغي (إبلاغ رسالة النبوة). وقد عرض مؤلف الكتاب في المبحث الرابع والأخير من الفصل الأول أدلة العقل والشرع والإجماع، والاجتهاد (الأدلة الذاتية) على كون رسالة الإسلام هي خاتم الرسالات ورسول الإسلام خاتم الأنبياء والمرسلين.

ويستدل المؤلف بالقرآن الكريم في إثبات عصمة الأنبياء في التبليغ فيذكر في كتابه: «فالقرآن يخبرنا أن الله قد عصم أنبياءه عن النسيان فيقول ـ تعالى ـ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦]. أي لا تنسى شيئاً من الوحي إلا ما أراد الله، ويقول ـ تعالى ـ مخبراً عن تكفله جمع الوحي في قلب الموحى إليه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ – ١٨]، ويقول ـ تعالى ـ عن ضمان التبليغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وعن استحالة القدرة على الكذب: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٦]، ويجمع القرآن كل ذلك في آية قاطعة جامعة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ويدعم المؤلف مباحث الفصل الأول الفرعية بمقولات سديدة حول موضوعات الفصل جميعاً؛ حيث يلخصها في جانب عصمة الأنبياء (في الأخلاق والتبليغ)؛ ومنها رأي ابن تيمية: (والعقل يلزم بهذه العصمة؛ إذ بدونها لا يحصل مقصود النبوة والرسالة؛ إذ لما كانت النبوة أو الرسالة هي النبأ أو الخبر فقد وجبت العصمة عن الخطأ في نقل هذا النبأ الذي هو مقصود النبوة والرسالة(٣)، والإجماع قد ثبت باتفاق الأمة على عصمة الأنبياء في التبليغ عن رب العالمين(٤).

(١، ٢) المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) انظر: النبوات، لابن تيمية، ص ٢٢١.

(٤) المرجع السابق، النبوات، نفسه.

يقول الله - تعالى - : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ويقول ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»(١).

في ضوء ذلك يسترشد المؤلف بالكتاب والسنة؛ ثم ما أسماه بالأدلة الذاتية ويقصد بها الخصائص والمقومات الذاتية للإسلام عقيدة وشريعة ونظاماً ومنهج حياة؛ كما فند الاختلاف بين الأدعياء في تاريخ الديانات؛ من أفراد أو مذاهب، وبين الثبات والرسوخ واليقين بمقام نبوة محمد ﷺ لكونه خاتم الأنبياء، ومنه قول العلامة كارستن كولبي في كتابه: (خاتم النبيين) الذي دعم به المؤلف فكرة ختم النبوة، فيذكر أنه الإعلان الوحيد في تاريخ النبوة الذي يصدر عن صاحبه وفي حياته ويسجله كتابةً، وذلك في وضوح ودقة وقطع لا مجال فيه للبس أو غموض؛ إذ هو ليس كغيره من الإعلانات السابقة التي تحصل عن طريق الاستنباط أو التحليل(٢).

أما الفصل الثاني من الكتاب فقد أخذ مجهوداً أو تكثيفاً لتفنيد المزاعم ضد نبي الإسلام وقد انبرى قلم المؤلف في وعي وبرهان ليفند الدعاوى الآتية:

١ - دعوى عدم انقطاع شريعة موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام -.

٢ - دعوى عدم الحاجة إليه.

٣ - دعوى (عدم تبشير النبوات).

٤ - دعوى (عدم التأييد بالمعجزات).

٥ - دعوى (قصر النبوة على العرب).

٦ - دعوى (أن الإسلام (هرطقة) مسيحية)!

وظاهر الدعاوى السابقة؛ أنها هرطقات الأعداء للإسلام ولرسوله ﷺ، ولذا فإن الصفحات من (٧٤) إلى (١٠٨) من الكتاب تكفلت بالرد على تلكم المزاعم، وهي ترهات تنكر ضوء الشمس وحقيقة نبوة الإسلام وخاتم الأنبياء؛ وهنا لم يأت المؤلف بجديد، لكنه كثف وحدد في نهج موضوعي كيفية إبطال كل دعوى من الدعاوى المثارة حول نبوة محمد ﷺ، بما يزيل تلك الشبهات باليقين العلمي المسدد. قال - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال - عز من قائل - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. ويقول - تعالى - : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

عرض كتاب: (نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء) في الفصل الأخير منه، عرضاً موثقاً وأميناً لدلائل نبوة محمد ﷺ؛ ولذلك فصَّل المؤلف دلائل النبوة تفصيلاً: أنواعها، وخصائصها، ثم توجه المؤلف إلى القرآن الكريم يكشف للقراء وجوه دلالته على النبوة، ومراتب الإعجاز القرآني على تنوعها المعروف.

وفي المبحث الثاني من الفصل عرض المؤلف أنواع المعجزات (معجزات النبوة) واستهل بماهية المعجزات والرد على منكري المعجزات وهي ماثلة كما عرض لها المؤلف في القرآن الكريم وكتب الحديث، أو المعجزات الفعلية والقولية، وقد لجأ المؤلف إلى استناد حقيقي آخر هو البشارات وأثرها

---

(١) البخاري، كتاب المناقب باب خاتم النبيين ﷺ.

(٢) نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء، ص ٦٥.

في الاستدلال على (دلائل النبوة) قبل البعثة المحمدية وبعدها.

أما المبحث الرابع حول سيرة النبي ﷺ وأخلاقه فقد وقف المؤلف عنده بالتأمل وملتزماً بمنهج عرض مادة الكتاب، فكان خير خاتمة لفصول الكتاب، ومنه نقتطف بعض ما أورده المؤلف بقلمه أو تعضيداً بالرأي من السلف الصالح: «نص القرآن الكريم على كمال أخلاقه ﷺ، فيقول - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وإشارته إلى هذا الكمال الأخلاقي سبب في تأليف القلوب حول النبي، يقول - تعالى -: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩](١).

ويقول الماوردي - هنا -: «إن تكامل الأخلاق أمر معجز؛ لأن الناس يطلبونه فلا يجدونه؛ فهو معوز لهم، وتكامل الأخلاق - أيضاً - موجب للصدق، والصدق موجب لقبول القول، ومعلوم أن جماع الكلام في النبوة قائم على الخبر وقبوله، فوجب أن يكون من دلائل الرسل(٢).

وليس من شك أن المؤلف وُفِّق إلى تفصيل ذلك، فعرض إلى كمال الخصال والأوصاف، وفضائل الأقوال، وفضائل الأعمال؛ وسنقف عند فضائل الأعمال لنثبت ما قاله المؤلف عنها بوصفها أحد محددات كمال أخلاق الرسول ﷺ ومن سيرته العطرة. يقول المؤلف: «فضائل الأعمال مختبر بخصال منها: حسن سيرته، وصحة سياسته، والثانية: جمعه بين رغبة من استمالة ورهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته وقاموا بحقوق دعوته، والثالثة: توسط شريعته بين الإفراط والتفريط، والرابعة: أخذه من الدنيا على قدر الكفاية، والخامسة: توضيحة لمعالم الدين وأحكامه وعباداته حتى لم يحتج إلى شرع غيره، والسادسة: جمعه بين الدعوة للدين باللسان والبيان وبين الانتصاب لجهاد الأعداء حتى انتصر، والسابعة: ما اختص به من الشجاعة في الحروب وثبات القلب وسرعة النهوض إلى نجدة الملهوف والمحتاج والمفزوع، والثامنة: ما كان عليه من سخاء وجود، حتى جاد بكل موجود، وآثر بكل مطلوب ومحبوب(٣).

خاتمة مجملة:

إن كتاب: (نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء) أحد أهم الكتب الإسلامية الرصينة التي أفرزتها حركة الدعوة، أو إنتاج دور النشر المختصة في العقود الأخيرة، وهو مجهود فكري هادئ موضوعي ينأى عن الحماسة والضجيج، ويقترب من الكتب الثقة الأم التي تناولت مثل هذا العنوان.

وقد بات من الضروري أن أنوِّه بكلمة الناشر في ذيل الكتاب، وأجدها فرصة للإفادة من موضوعات الكتاب فهماً وعملاً؛ فالكتاب هذا أصبح أحد العناوين المهمة للدفاع عن نبي الإسلام ورسالته. وجاء الكتاب في مجمله دراسة منهجية فيها من الدقة العلمية والأخذ بثوابت العقيدة؛ وجديد العلم الصحيح النافع، وهو ما تقدمه صفحات ذلك الكتاب. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٢.

(٢) أعلام النبوة، الماوردي، ص ١٥٨.

(٣) نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء، ص ٢١٥.



من مناهج قراءة النص الأدبي

د. مصطفى السيد

«خير للإنسان أن يَعْدِل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير منهج»(*).

٤/١

ولد النص النقدي ـ بوصفه البحث عن الأنساق المتحكمة في شعرية النَّص الأدبي ـ بعد ميلاد هذا الأخير، وليس النص النقدي ثرثرة أو ترفاً فكرياً، بل هو من مكملات النص الأدبي ومن مقوماته، ومن العناصر الأساس في الثقافة الإنسانية الأصيلة؛ لأن الإنسان ـ فرداً كان أو أمة ـ يكون حظه من الفكر المتين، بمقدار حظه مما يمتلكه من ذائقة نقدية وذهنية ناقدة لا تُسلِّم أو تستسلم لأي فكر قبل أن تحاكمه نقدياً.

وإذا كان الخطاب الأدبي يمتح ابتداء من موهبة أصيلة، فإنه أيضاً يتقوّى بالواقع، ويقتات من إخفاقه ونجاحه ليرد إليه ما يأخذه منه بعد أن تعيد عبقرية المبدع صهره وصياغته صياغة أدبية؛ وبسبب من هذه العلاقة الأبوية بين المجتمع/ الواقع والنص ظهرت الاتجاهات: الواقعي/ الاجتماعي / النفسي، لتحاكم النص بوصفه إحدى التجليات الفكرية والإبداعية للمجتمع والمبدع، وما زالت هذه الاتجاهات أكثرها تتبعثر جهودها حول النص لا فيه، ولم تلحظ استقلاله عن بيئته الزمانية والمكانية، وعن حياة قائله وشخصيته، ولو أن أعمال شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦م) مثلاً اعتمدت في فهمها وتقدير قيمتها على البيئة والعصر اللذين انتجاها لما كان لها معنى ولا قدر خارج هذه البيئة وذاك العصر؛ ذلك لأن الشعر أعمق بكثير من مجرد كونه مصدراً نستقي منه حياة الشاعر، وإذن فيمكن أن يقال: إن القصيدة هي الحياة ـ ولا أقول الواقع ـ وقد وضعت في بناء لغوي موسيقي متوازن، تتضاءل فيها قيمة المناسبة الخاصة، وتتضاءل قيمة الواقع

(*) عَرَّف الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) المنهج قائلاً إنه: «قواعد سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي يستطيع إدراكها، دون أن تضيع في جهود غير نافعة» فقال في المنهج ص: ١٤١ رينيه ديكارت: ترجمة: محمود محمد الحضيري: «والمنهج هو مفتاح التحكم في كل بحث، ونجوع كل دراسة، والأداة المساعدة على استنطاق القضايا وتوليد الأفكار» كما يقول «كارل يا سيرز»: «إن قدرتنا على الإبداع تكمن في قدرتنا على إعادة توليد الأفكار التي تلقيناها عبر التاريخ، وبدون المناهج الصالحة تبقى المعطيات خرساء نستنطقها فلا تجيب».

الخاص المصوَّر»[1].

«ولعل واحداً على الأقل من أسباب انصراف الناس عن الآداب أن الدارسين تحدثوا إليهم كثيراً عن الأدب وتحدثوا إليهم قليلاً في الأدب»[2].

«فالدارس العربي محتاج إلى مراجعة موقفه على ضوء ما يتجه إليه النقد العالمي في هذه الناحية؛ فما يزال لحياة المؤلف عنده - أي الناقد العربي - ذلك البريق الشديد، وما يزال يحتفل بحقائق السيرة الذاتية، ويعدها وثيقة من وثائق الدرجة الأولى لتفسير العمل الأدبي»[3].

فالاتجاه الواقعي وأشقاؤه يمَّموا وجوههم قِبَلَ النص بوصفه وثيقة اجتماعية أو تاريخية أو نفسية، واعتقدوا أنهم قالوا كل شيء عن العمل الأدبي عندما كشفوا شبكة علائقه التاريخية والاجتماعية، ومدى محاكاته لمرجعيته الاجتماعية، وإلى أي حدّ كان النص مظهراً لمشكلات مجتمعه ولنجاحاته أيضاً.

كما ساءلوا النص عن حياة الكاتب الخاصة؛ إذ أكَّد سانت بيف (١٨٢٨ - ١٨٩٣م) أكبر نقاد فرنسا في زمانه - أكد «في تفسير أعمال الأدباء على دراسة حياتهم الخاصة، واستقصاء جميع تفاصيلها، بما فيها حياتهم الحميمة، حتى اتهمه الأدباء المعاصرون له بما يشبه التجسس على حياتهم الخاصة»[4].

ويثمِّن - ريمون بيكار - ناقد فرنسي - جهود سانت بيف ومجهوداته قائلاً عنه وعنها: «كان مسؤولاً أكثر من أي إنسان آخر عن هذا الخلط بين حياة المؤلف وعمله، والغريب مع هذا أن مكانته لا تزال على حالها، ولا يزال سانت بيف الشخصية التي تقرر مصير الأدب»[5].

ولا شك أن النقد الفرنسي قد تجاوز سانت بيف، غير أن توجه هذا الأخير ما زال مهيمناً على أكثر أركان المؤسسة الأدبية في العالم العربي وما زال النص درساً ودارساً ومدروساً يعاني من - السانت بيفية - إذا صح هذا التعبير، ودراسة النص بهذه المنهجية تجعل النقد والناقد يتنازلان عن موقعهما لموقع الشرطي والرقيب إزاء العمل الأدبي، في حين يبقى موقعهما شاغراً.

يقول جورج ستينير - ناقد أكاديمي إنجليزي -: «إن رجل الشرطة والرقيب يسألان الكاتب، على حين يسأل الناقد الكتاب فحسب»[6].

وكان أكبر همِّ المناهج السابقة أن تجد في النص الفكرَ لا الجمال، والحقائق لا الخيال، ولا يمكن أن نضع دعاة هذه الاتجاهات في قَرَن واحد، أو نحددهم بتعريف وحيد، ولكن النقد الواقعي خاصة لفظ أنفاسه الأخيرة - أو كاد - على أيدي دعاته من الروس عندما انحطوا بالنص الأدبي إلى مهام أقرب ما تكون تابعة للبلديات لا للمؤسسات الأدبية، ولعل أندريه جدانوف (١٨٩٦ - ١٩٤٨م) الذي رأى اختزال الأدب ونقده إلى المستوى الذي يطابق منظوره ورؤيته الشيوعية السوفياتية لهذا الفن الجميل، بل لعله كان يوقع شهادة وفاة هذا الاتجاه من حيث أراد - بحسب منظوره الزِّمِّيت - دفعه إلى الإمام.

ولا أنكر - وأي باحث حر - أن أموراً خارج النص يمكن أن تسعف في إضاءته، وإنما غير المقبول هو تضخيم هذه الأمور الخارجية حتى توشك أن تحجب أشعة شمس النص أو تكاد.

---

(١) قراءة الشعر، ص ١٢٢ - ١٢٣، د: محمود الربيعي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٤.

(٣) حاضر النقد الأدبي، طائفة من الأساتذة المتخصصين، ترجمة د: محمود الربيعي، ص ١٣.

(٤) الأدب وفنونه، ص ١٤٥، د: محمد مندور، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

(٥) حاضر النقد الأدبي، ص ١٣٦.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص ٤٦.

ولقد نبه نقاد كثر يُعتد بكلامهم إلى الإحالات الخارجية، ولكن بدون إسراف في التناول.

يقول ت. إس. إليوت: (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥م): «إنه لا يمكن تحديد عظمة الأدب على أساس المقاييس الأدبية وحدها»[١].

ويقول غيره: «نجد أن القراءة الفاحصة جداً للنص، قد تضل عندما تمضي دون الرجوع إلى السياق التاريخي» وكيف يستطيع ناقد الأدب الإنجليزي أن يقرأ «تاجر البندقية»[*] «بسذاجة على أنها مادة أدبية خالصة» وأن خبث اليهود وجشعهم كانا غائبين لدى كتابتها؟

٢/٤

وإذا انحرف فهم الأدب عن مهامه الرسالية ووظيفته الجمالية، استتبع ذلك ـ غالباً ـ انحراف النقد وانحساره عن ارتياد جوهر النص، وانحصاره باستقراء ما قبل النص تشاغلاً بذلك، وعجزوا عن حوار ملفوظ النص ودلالته، خدمة لأهداف قَبْلية، وإبقاءاً للغة النص بكراً لم تفترعها أقلام النقاد.

وهكذا أدت هذه المناهج التي ترى النص وسيلة لا غاية إلى التعجيل بظهور الشكلانيين الروس[٢] الذين جسَّدوا عصر النص، ومجدوه بوصفه لغة تتحقق جماليته في أدبيته، فهو بنية لغوية مغلقة هدفه ووسيلته أمر واحد: أدبيته، ومرجعية الحكم عليه أو له من داخله؛ لأن له حياته الخاصة، ومن هنا ـ كما يقول الدكتور محمود الربيعي ـ: «فإن حياة القصيدة المتطورة النامية الباقية ـ لا حياة الشاعر المحدودة المنقضية ـ هي التي ينبغي أن تستحوذ على اهتمامنا»[٣].

ولذا فإن التماس المطابقة أو المفارقة بين المجتمع والناصِّ من جهة والنص من جهة أخرى: التماس ذلك ليكون حكماً وحاكماً قطعي الدلالة ـ يهمِّش النص في الوقت الذي يعلي من شأن العوامل الثانوية في النتاج الأدبي.

يقول مالارميه: (١٨٤٢ ـ ١٨٩٨م): «إن الكتابة مزودة باستقلالية تامة، بالقياس إلى العالم الذي تتحدث عنه».

ويقول جيرار جانيت ولد (١٩٣٠م): «إن الشيء الأدبي لا يمكن أن يوجد إلا بواسطة نفسه، وفي مقابل ذلك فإنه لا يرتبط إلا بنفسه أيضاً»[٤].

وإذا كان للكتابة هذا الاستقلال فإن النقد يجب ألا يكون خاضعاً لغير النص، بل يجب أن تكون علاقته مع النص علاقة نِدِّيَّة تحاوره ليكون النقد أدباً على أدب؛ لأن «النقد ذا القيمة هو النقد الذي يصبح نفسه أدباً، هو الذي تستمر قراءته لا لحججه وأفكاره، إنما لكونه نبعاً مستقلاً للمتعة الأدبية»[٥].

وقد يستطيع الباحث أن يعدَّ كلاً من الجاحظ (١٥٠ ـ ٢٥٥م) وعبد القاهر الجرجاني ت (٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) من الأمثلة التراثية المقاربة لاتجاه الشكلانيين، غير أن هذا الاتجاه تطور على أيدي نقاد غربيين، وبات يعرف بالاتجاه البنيوي الذي هو «عبارة عن جهود متفرقة تلتقي أساساً عند محاولة علمنة الدراسة النصية للأدب»[٦]،

---

(١) من محاضرة لأليوت تقدَّم بها إلى ندوة «الإيمان الذي يضيء».

(*) «تاجر البندقية» رائعة وليام شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦م) كتبها ١٥٩٦م والتي رسم فيها بعناية فائقة جشع اليهود وعدم إنسانيتهم.

(٢) الشكلانيون الروس: كانوا جماعة من الطلبة الشباب في موسكو ولينينغراد، شكلوا فريق عمل اختباري للبحث في القوانين الداخلية المشتركة بين النصوص الأدبية، لم يتجاوز عددهم العشرة، مارسوا نشاطهم ما بين (١٩١٥ ـ ١٩٣٠م).

(٣) قراءة الشعر، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٤) الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، ص ٣٩٥، د: عبد الملك مرتاض، مطابع مؤسسة اليمامة بالرياض.

(٥) حاضر النقد الأدبي، مرجع سابق، ص ١٥ ـ ١٦.

(٦) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص ٥، د: حميد الحميداني، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

ولقد بالغ هذا الاتجاه في الاعتداد بلغة النص، ولم يعتدّ بأية قيمة فكرية أو أخلاقية يتضمنها النص، وذلك عندما جعله «بنية مكتفية بذاتها، لا تحيل على وقائع مجاوزة للغة، قد تتصل بالذات المنتجة، أو بسياق الإنتاج، بل تحيل على اشتغالها الداخلي فقط».

ولكن بعض النقاد اعترف بالقيم التي ينتجها النص بوصفها مولوداً شرعياً، ولكن حذَّر من قيم خارجية يفسر الناقد النص عليها. يقول هذا الناقد: «القيم جميعاً تتولد من لغة القصيدة، والقارئ الذي يستنتج من الشعر شيئاً لا تنشئه لغته لا يقرأ الشعر، وإنما يقرأ أفكاره الخاصة»[1].

ولعل الاتجاه الشكلاني والبنيوي هما الأقرب تمثيلاً لما بات يعرف بـ «عصر النص».

٤/٣

يجب على القراء ألاّ يظلوا «مجرد قراء مستهلكين، مجرد تلاميذ، يظلون تلاميذ طول عمرهم، أنا أريد أن يتحول القارئ إلى ناقد يحاور المادة المقروءة، وأحرره من سلطة المقروء وسلطة المؤلف والنص عليه لكي تتحقق إرادة القارئ في حريته مع النص»[2].

لا أدري هل ينهض الكلام السابق ليكون فاتحة الحديث عن ـ عصر القارئ ـ أو عصر ما بعد النص، والذي يعد الناقد الفرنسي رولان بارت (١٩١٥ ـ ١٩٨٠م) أبرز ممثليه، وهو الذي كتب «لذة النص»[3] ليضع بحسب قوله: لذة الكتابة، ولذة القراءة على قدم المساواة؛ وهو الذي دعا مع آخرين[4] إلى موت المؤلف إحياءً لدور القارئ، ومن حججه في ذلك وجود أعمال أدبية عالية المستوى، عالية الشهرة يتيمة الأب كبعض الملاحم وألف ليلة وليلة.

وهذا الاتجاه لا يعوّل على شيء مما قبل النص، وبذلك يسقط عملياً الاتجاهات الواقعية والاجتماعية والنفسية، كما تجاوز الاتجاه الثاني، لا ليقف عند ما تقوله لغة النص، بل عند ما يُقوِّله القارئ إياها. يقول بول فاليري (١٨٧١ ـ ١٩٤٥م) أحد أساطين هذا الاتجاه: «إن كل إبداع أوْلى له أن يكون أي شيء، إلا أن يعزى إلى مؤلفه»!!!

فالقارئ هو المؤهل لإعادة إبداع النص، وإليه يدين بحياته وشهرته «عندما لا تكون القراءة مجرد شرود، أو رغبة غير مبالية، مصدرها الملل، تكون نوعاً من الفعل»[5] الذي يضاهئ(*) الفعل الأول المتمثل بإنتاج النص.

والقارئ المؤهل هو الذي يُنطِق النص الصامت على رفوف المكتبات عندما يجعله بؤرة المشهد النقدي، ليؤهله للدخول في مفردات الفكر الأدبي والإنساني.

ولا إخال ناقداً مسؤولاً يوافق دعاة هذا الاتجاه ودعاواه في زعمهم أن موت المؤلف يخلي لهم وجه النص؛ فهذه الدعوى أكذب من أن تصدّق، ومن يجرؤ على بتر وشائج العلائق القائمة بين النص وكاتبه؟

يقول الجاحظ: «ليعلمْ أن لفظه ـ أي الكاتب ـ أقرب نسباً منه من ابنه، وحركته أمسُّ به رحماً من ولده، ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمه»[6].

ولعل الجاحظ لامس بُعداً من المشكلة، ولكن

(١) قراءة الشعر، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٢) مقابلة مع د. عبد الله الغذامي، جريدة الجزيرة، ١٤١٩/١١/٢٦هـ، عدد: ٩٦٦٣.

(٣) وداعية هذا الاتجاه الأول: بول فاليري (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) ومن دعاته الروائي الأمريكي وليام فولكنر (١٨٩٧ ـ ١٩٦٢م).

(٤، ٥) حاضر النقد الأبي، مزجع سابق، ص ٨.

(*) يضاهئ: يشابه.

(٦) الحيوان، ١/٨٩، والكتاب للجاحظ.

بعداً خطيراً لا بد من الإشارة إليه، وهو أن النظر إلى النص بوصفه لقيطاً يفقده ليس شيئاً من جمالياته بل قداسته كما في النصوص الشرعية.

يقول الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض (ولد في ١٩٣٥م): «فكيف يعقل أن تكون أنت الذي يكتب ثم لا تكون في الوقت ذاته أنت الذي يكتب تلك الكتابة؟ وأي عقل يصدق ذلك؟ وبأي منطق يمكن البرهنة على موت المؤلف؟» ويرى أن رفض المؤلف «رفضاً للإنسان في معناه العام، وهو قائم على فلسفة إلحادية أولاً وعبثية آخراً»(١).

كما يرفض الناقد ـ فيرنون هال ـ هذه الخدعة بقوله: «إن الناقد يدرك أنه مع أهمية عمله في مساعدة القارئ أو المشاهد في الاقتراب أكثر من الروائع الأدبية، فإنه لا يمكن أن يخدع نفسه، فيظن أن عمله يساوي العمل الأدبي ذاته؛ فوظيفته أن يزيل العقبات من الطريق حتى يستطيع آخر أن يسير بسهولة في الغابة»(٢).

٤/٤

وفي الموروث الشرعي والشعري عندنا توجد إشارات واضحة تؤكد دور القارئ، وحقه في فهم النص فهماً يؤكد الثراء في بنية النص العربي الذي سالت أوديته بفضل الله ثم بفهمٍ يؤتاه قارئ، ويؤتى آخر غير ذلك الفهم، وقد يكون الثالث كما في الحديث الصحيح «لا يُمسك ماءاً ولا يُنْبِتُ كلأً»(٣).

ولعل فيما أخرجه الإمام البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ في صحيحه ما يعضد تعدد القراءات مع وحدة النص.

«عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بلى نصلي، لم يُرد منا ذلك، فذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهم»(٤).

فالنص واحد والقراءات متعددة، ولقد أورد الإمام ابن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) ما قد يؤكد ذلك؛ وذلك أثناء شرحه الحديث المشار إليه.

قال ـ رحمه الله ـ: «قال السهيلي وغيره: في هذا الحديث من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية، ولا على من استنبط من النص معنى يخصصه، وفيه أن كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب، قال السهيلي: ولا يستحيل أن يكون الشيء صواباً في حق إنسان، وخطأ في حق غيره»(٥).

وفي «محاسن التأويل» للقاسمي ـ رحمه الله ـ ٣١/١: قال أبو الدرداء: «لا يكون أحد فقيهاً حتى يحمل الآية على محامل متعددة» ويقول مفسر تونس وفقيهها صاحب «التحرير والتنوير» ابن عاشور ـ رحمه الله ـ ١/ ٩٧ في حديثه عن كثرة المعاني للآية: «لا تكنْ من كثرتها في حَصَر، ولا تجعل الحمل على بعضها منافياً للحمل على الآخر، إن كان التركيب سمحاً بذلك».

(١) الكتابة من موقع العدم، مرجع سابق، ص ٣٨١ ـ ٣٩٠، ويقول د. مرتاض في كتابه: «في نظرية الرواية»، ص ٢٧٢: إن قتل المؤلف ثم إقامة عنصر وهمي أطلق عليه «المؤلف الضمني» ليوقع شهادة وفاة المؤلف، وليدفع بالتاريخ إلى المزبلة، وليرمي بالإنسان إلى العدم».

(٢) قراءة الشعر، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٣) فتح الباري، ١٧٥/١، الحديث رقم: ٧٩.

(٤) المصدر السابق، ٤٠٧/١ ـ ٤٠٨، الحديث رقم: ٤١١٩.

(٥) المصدر السابق، ٤٠٩/١.

ويقول أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ) عن مؤسسة قرائه:

أنام ملءَ جفوني عن شواردها

ويسهرُ الخلق جرّاها ويختصمُ

ويقول بول فاليري (١٨٧١ ـ ١٩٤٥م): «لا شعاري المعنى الذي تحمل عليه» ويقول: «إن القصيدة قد تبدأ في التكوّن الحقيقي من اللحظة التي يتلقاها فيها المتلقي الخبير».

وقبل استعراض آراء بعض النقاد التي تتبنى تعدد القراءة = التفسير الأدبي لنص واحد، لا بد من التذكير بأن القراءة المكثفة امتداد للكتابة المكثفة؛ فالنص الشفاف الذي لا يتجاوز الضفاف يحدّد قُرَّاءه، كما يُطالب الناقد بالتفسير المركب والتحليل المعمق لما يرتضيه من قراءات، وأن يكون النص يسعف كل قارئ وقراءة، فلا يُلوى عنقه، أو يُقْسر على المعنى قسراً، وأن ندرك ـ كما يقول رينيه وليك صاحب نظرية الأدب: «إن هناك حدوداً موضوعة لحرية التفسير» ولكن إذا سقي النص رحيق الموهبة، وأُشرِب ثقافة حرة أصيلة، فإن قراءته توشك أن تكون عالماً بلا حدود، وإن كل ما يتوصل إليه في هذا الطريق صحيح ما دام النص لا يرفضه منطوقاً ومفهوماً.

والمرء يدعو إلى تعدد القراءة؛ لأنه «ليس من الحكمة أن نتوقع من عمل ذي عمقٍ مًّا أن يسلم معانيه كلها من القراءة الأولى التي يمكن أن يقوم بها أي إنسان في أي ظرف. صحيح أن الأدب يهدف إلى المتعة، ولكنها متعة التعرف والارتياد والتنظيم، والإنجاز الجمالي، غير أنه علينا أن نعطي اهتماماً أكبر، وجهداً أكثر فنتغلغل وراء المستوى البسيط «سيطرة الإيقاع مثلاً» لتلامس أعماق النص بحيث تؤدي القراءة «من حيث هي فعل ذهني إلى إنشاء جديد لقول سابق، وإنطاق لما بدا صامتاً في الأقاويل الشعرية»[(١)].

وإذا تجاوزنا دوافع الكتابة لهذه الأقطار عن القراءة «فإن احتفال الدارسين المحدثين بلحظة التقبل = القراءة ـ ظل عابراً رغم ملاحظاتهم الوجيهة في حين أن مبحث القراءة محتاج ـ منهجياً ومعرفياً ـ إلى دراسات كثيرة تلائم قيمته»[(٢)].

وأخيراً فإن الناقد الأريب الخِرِّيت هو الذي يأخذ من هذه المناهج ومن هذه المفاهيم عن القراءة ما يعينه على استنطاق النصوص، وكشف ما فيه من إبداع أو عكسه، فلا تستعبده مدرسة بعينها، بل يستخدم المعرفة بوصفها، أداة لا غلاً يقمع عقله عن دقة الاختيار وروعة الاختبار، ثم (ما الذي يفيده رفض الفكر المخالف سوى التمكين للرأي الواحد. إن النهضة الأدبية محتاجة إلى الاستماع إلى كل الأصوات، ومن الواجب عدم طغيان صوت أدبي على صوت أدبي آخر، وقد لا تتضح قيمة الأشياء من فورها، وبذا يكون من الخير الاقتصار على محاولة استيعابها، وتأجيل الحكم على قيمتها)[(٣)].

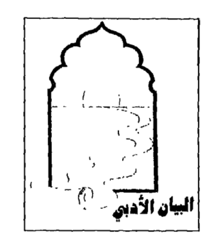
ولنكن على ذكر دائم لقول أحد النقاد: «إن ما يفكر فيه الخيال الحديث أو المعاصر ليس وضع أي شيء في كتاب بقدر ما هو إطلاق شيءٍ مًّا من الكتاب بالكتابة».

---

(١) جمالية الألفة، النص ومتقبله في التراث النقدي، ص ٦٣، شكري المنحوت، بيت الحكمة ـ قرطاج، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٨.

(٣) قراءة الشعر، ص ١٦٤ مرجع سابق.



ظل الأشجار

نافذة الحنبلي

ظِلُّ إنسانٍ يخطو خطوات هادئة وقورة، يزيد امتداد الظل تحت كل نور بين عدة أمتار وأخرى.. يتأرجح الظلّ تحت تأرجح أغصان الشجر العاري وهبّات الهواء التي تحاول جاهدة كسر هذه الأغصان...

بيوت جميلة متباعدة يسكنها الهدوء القاتل.. تنبعث من نوافذها أنوار هادئة تكاد ألا تضيء حافة النافذة التي زرعت بالزهور الجميلة وكأنها ألوان رسمت على لوحة ثلجية...

الظل يحدث نفسه.. ما أجمل هذه الطبيعة التي أودعها الله سرّه.. سبحان الله .. رغم البرد ورغم سقوط أوراق الشجر عن عيدانها، ورغم اكتساء السماء بثوب سحبها الداكن... أحس بإحساس عميق بسعادة عارمة تجتاح جوانحي .. حيث أحسّ في كل خطوة ومع كل هبّة ريح ومع تمايل كل غصن بعظمة الخالق وقدرته.. ما أروع هذا الشعور وما أسعدني به.. يسير الظل حتى يتوارى في أحد البيوت المختفية في حضن الأشجار.. يضيء نور خافت يرسل خيوطه متسللة عبر الستائر الشفافة.. يظهر الظل في النور بوضوح تام.. رجل أشيب.. طويل القامة.. قوي البنية.. يفتح كتاباً ويبدأ في قراءته بخشوع وتأمل.. ويقفل الكتاب بهدوء وينطفئ النور وتظلم الغرفة؛ ولكنّ هناك نوراً غريباً يحيط هذه الغرفة وكأن انعكاسات من الخارج والداخل تتلاقى لتجعل للبيت وهجاً خفياً لا أحد يعرف كنهه.

الفجر يبدأ بفتح جفونه رويداً رويداً، ويحاول جاهداً إبعاد رمد الغيوم عن مقلتيه.

البيت المختفي يضاء ثانية مع أول ومضة

عين للفجر.. الرجل نفسه ينهض بنشاط وحيوية يتوضأ ويصلي .. وما كاد الفجر يفتح عينيه جيداً حتى كان الرجل قد انتهى من صلاته.. وتابع قراءة كتابه.

الشمس تحاول جاهدة أن تطلّ من خلف الستائر الدّاكنة التي حاول الفجر قبلها فتحها لكن لم يستطع.

خرج الرجل ثانية من البيت وسار بهدوء ووقار من حيث كان يسير هو وظله في المساء .. يحمل حقيبة يبدو أنها ملئت كتباً..

وصل إلى مبنى كبير وعريق وقديم.. أحجاره تتحدث بأنه قائم منذ مئات السنين ولكنه لا زال متماسكاً قوياً جميل البناء .. كتب على بابه «جامعة».

الرجل يدخل حتى يصل إلى أحد المكاتب ويجلس ليتابع كتبه بشغف وتعمق.. تدق الساعة الثامنة.. يدخل إحدى القاعات الكبيرة التي عجت بالطلبة.

يدخل بهدوء.. تهدأ القاعة من الأصوات المتجاذبة من هنا وهناك.

يبدأ السلام باللغة العربية وبلغة أخرى.. ومن ثم يتابع إعطاء محاضرته عن الإسلام والنفس البشرية بلغة أجنبية.

الأسئلة تنهال عليه كوابل المطر.. لماذا المسلم لا يشرب الخمر؟ لماذا لا يقامر؟ لماذا لا ينطلق ويتمتع كيفما يشاء.. لماذا ولماذا؟؟

فأجابهم بهدوء: لماذا تكثر عندكم ملاجئ العجزة؟ لماذا تكثر عندكم الملاهي الليلية؟ لماذا أنتم في صراع مع الزمن؟ لماذا أنتم تتعاطون المخدرات؟ لماذا تنتشر عندكم الأمراض الخبيثة بكثرة؟ لماذا تكثر عندكم حالات الانتحار؟ لماذا تسعى حكوماتكم إلى توفير بيوت للمواليد غير الشرعيين؟ لماذا ولماذا؟

وجم جمهور الطلبة بهدوء غريب، وتأملوا وجه هذا الرجل الذي يضيء صحة ونوراً وكأنه في عنفوان شبابه.

ألا أقول لكم: لماذا لا يوجد عندنا كل هذا؟ لأننا مع الله.. وهل تعلمون معنى أن يكون الإنسان مع الله؟ هو أن يعمر قلبه إيمان دائم كنهر عذب متدفق لا تجففه الشمس ولا تجتاحه الفياضانات ولا تهزه الزلازل .. فهو دائم السريان .. دائم العطاء.. دائم العذوبة.



وترجم الشعراء

بمناسبة مرور سنة على وفاة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ رحمه الله ـ

عبد العزيز بن أحمد البجادي

لَيْس بدعـاً بكاء شـعـر، ولا إبْـ ... ـداع فـيـه، إذا ثوى العظماءُ
كَمْ بَكَى الشّعْرُ مِنْ إمَامٍ، ولا خَيْـ ... ـر بِشِعْرٍ يُجْتَرُّ، وَهْو خواءُ
زَمْجَرَتْ بالحُرُوف أفْئِدَةُ الأبْـ ... ـرارِ، حَرّى، وتَرْجَم الشُّعَرَاءُ
إذْ هَوى غُرّةُ الزّمَانِ ابنُ بَازٍ ... قبساً جُلّيَتْ به الظّلْمَاءُ
وبَكَاهُ قَصِيدٌ انثالَ، واصْطَـ ... ـفّ اصْطِفَافَ القَطا دَعَاها المَاءُ
فَبَكَى الجُودَ، والسّمَاحَةَ، والمَعْـ ... ـرُوفَ ، والبَذْلَ، والنّدَى الفُقراءُ
وبَكَى فَقْدهُ، ـ إذ افْتَقَدُوا المَنْـ ... ـقُولَ مِنْ عِلْمِ شَيْخِنَا ـ الدَّهْمَاءُ
غَيْرُ شافٍ بُكاؤُهُ، ذاكَ بَحْرٌ ... غَبَّ من لُجِّهِ قَوافٍ ظِماءُ
إن مضى بذْلُهُ فَرَازِقُهُ بَا ... قٍ، فمِنْهُ العَطَاءُ، والنّعماءُ
مَنْ لنا اليَوْمَ بالمؤصِّلِ مَا يَنْـ ... ـزِلَ فينا لمَّا خبا الضّوّاءُ
دَهْرُنا مُفْعَمُ النّوَازِلِ، كَمْ حَا ... رَتْ لَدَى تيه دَرْبِها الفُهَماءُ!
كُمْ إمَامٍ تَعَثَّرَتْ فِيهِ، واصْطَـ ... ـكّتْ، خُطاهُ، وحَارَ مِنْهُ الذّكاءُ
وامْتَطَى الشّيْخُ في خُطاً كَالرّوَاسي ... زَلَقَ الدّرْبِ، حِينَ غَابَ الضّياءُ
جَوّلَ الفِكْرَ فيه، واطّرَحَ التَّقْـ ... ـليدَ طُراً، ولاحَ منه الدّهَاءُ
تَحْتَ وَحْيٍ مِنْ نَصٍّ وَحْيَيْنِ إنْ مَا ... رِيمَ مِنْهُ التّعْلِيمُ، والإفْتاءُ
وَبدَا الرُّكْنَ لِلدُّعَاةِ إلى الدِّيْـ ... ـنِ، لَهُمْ مِنْهُ مُرْشِدٌ ، ووِقاءُ
وشَجّى في حُلُوقِ أهْلِ ضَلالٍ ... وانْحِلالٍ سَاقَتْهُمُ الأهْوَاءُ
وتَحَرّى تَألُّفاً شَمْلَ أهْلِ الْـ ... ـعِلْمِ، إنْ دَبَّ فيهم شَحْناءُ
ثُمَّ وَلّى لِيَحْمِلَ الهَمَّ، والعِبْ ... ءَ، جميعاً، كَمِثْلِه، الأحْيَاءُ
مِثْلُ هَذا فَلْتَبْكِهِ أمّةُ الإسْـ ... ـلامِ، والحِفظُ، والتقى، والسخاءُ



قُومي يا نؤوم

فتحي الجندي

أيا صاحِ! السعادةُ لا تدومُ … ولا الأهلون والأمُّ الرؤومُ

فبيْنا الريحُ ساكنةٌ رخاءٌ … تبدّل حالُها وأتت غيومُ

وبينا نملأ الآفاق عزّاً … فقد صرنا نُسام ولا نسومُ

وأصبحنا أذل الناس رأساً … وأصبحنا نُلام ولا نلومُ

وحالُ الأمة الخرساء يُبكي … فقد شُلّت ومزَّقها الوجومُ

فللأعداء «شاةٌ» دون قرن … وللأبناء «سكينٌ» ظلومُ

جميعُ الخلق قد قاموا ونمنا … ووالِينا يُزمجر: لا تقوموا

سيوفُ الأمة الشمّاء ضاعت … وما زال النزيفُ له كلومُ

ألا يا أمة الإسلام هبّي … كفاك النوم.. قومي يا نؤومُ

فحتّامَ التسكّع في خنوعٍ … وفي قاع الهوان نُرى نعُومُ؟

وحتامَ التشرذمُ والتغابي … ويرقص فوق جثتنا اللئيمُ؟

نهارُك بالأسى: لعبٌ ولهوٌ … وليلك بالهوى دنسٌ بهيمُ

فألوان المباذل خدّرتنا … وإن سال الغثاءُ فنحن هِيمُ

كفانا في دروب العار ضعْنا … كفانا في ضلالات نهيمُ

وللتزييف أشياخٌ كبارٌ … وللتسويغ تُمتهن العلومُ

ومهما قام للإسلام شهْمٌ … فإنّ به كلابهمُ تحومُ

ذئابُ الغرْب بحرٌ ماج حقداً … وفي أجوافهم نارٌ سمومُ

ومهما يطلبوا فلهم كلابٌ … وأذنابٌ ولاؤهُمُ عظيمُ

كلابُ «الترك» كم خرجوا علينا … وقائدهم «أتاتُرْكُ» المشؤومُ!

وكم في أرض يَعرُب من حقيرٍ … يحركه الهوى وبه يقومُ!

«نتنياهو» يمرِّغ أنف قومي … فنهتف كالحواة له: «شلوم»(١)

وشرع الله مغضوبٌ عليه … وللداعين أُحضرت السمومُ

وما زلنا نقدّم رأس «يحيى» … نبيَّ الله كي ترضى «سلومُ»

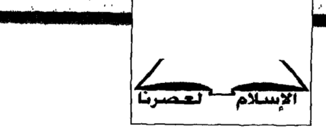
وأحضرت المشانق من عدو … وشُيّدت السجونُ لمن يحومُ

وكلٌّ يدعي شرفاً ولكن … قضى الشرفاءُ وارْتحل الكريمُ

ألا يا أمة الإسلام عفواً … فؤادي كاد تقتله الهمومُ

---

(١) شلوم بالعبرية : سلام.



دين الحق والخير والجمال

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

الإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأنه حق كله، وخير كله، وجمال كله؛ فلا باطل فيه، ولا شر فيه، ولا قبح فيه. وأما ما عداه فيختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر، والجميل بالقبيح. وهو دين الحق والخير والجمال؛ لأنه يوائم بين هذه القيم الثلاث، ويجعل كلاً منها ـ كما ينبغي أن يكون ـ معاضداً للآخر ومعيناً عليه، بينما يجعلها غيره من المذاهب والحضارات والنِّحَل متشاكسة متضاربة، يهدم بعضها بعضاً. يرون في جمال الفنون مسوِّغاً لاتخاذها وسيلة إلى قول الزور، وهدم الفضيلة؛ وفي جمال التعبير ـ شعراً كان أم رواية ـ ما يجعل من حق القائل أن يختلق الأباطيل ويروِّج للشرور، ويجاهر بالفسوق.

والإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأن المعبود الذي يدعونا إليه هو الحق، وهو فاعل الخير، وهو الجميل الذي لا يضاهي جمالَه جمالٌ.

فالله ـ تعالى ـ هو الحق الأعلى الذي لا يقارِب أحقيتَه حقٌّ؛ فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الخالق لكل شيء.

وربنا ـ تعالى ـ خيرٌ مَحْضٌ؛ فالخير كله بيديه، والشر ليس إليه.

وربنا ـ تعالى ـ جميل يحب الجمال.

والرسول ﷺ الذي أرسله إلينا حق، نعرف نسبه، ومولده، ونشأته، وصفاته، بل نعرف عنه ما لا يعرف أحد عن بشر سواه؛ فهو ليس كأولئك الذين يعتقد بعض أصحاب الديانات فيهم، وهم لا يملكون دليلاً تاريخياً حتى على وجودهم، ودعك من سيرتهم.

وكان رسولنا ﷺ متصفاً بكل صفات الخير، حتى قال عنه ربنا ـ سبحانه ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وحتى قالت عنه زوجه التي عرفت مداخله ومخارجه: «كان خلقه القرآن»[(١)].

---

(١) رواه أحمد، ح، ٢٣٤٦٠.

كان صادقاً، أميناً، وفياً، كريماً، رحيماً، شجاعاً، صبوراً، دوَّاراً مع الحق حيث دار، لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان جميل الصورة، جميل الروح، جميل الحديث. وكان لذلك رجلاً مهيباً.

والقرآن الكريم الذي أنزله - تعالى - كتاب يقول الحق، ويهدي إليه، ويأمر بالخير وينهى عن الشر، ويعبر عن كل ذلك بلغة هي الذروة العليا من الجمال:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]. (صدق في الأخبار وعدل في الأوامر والنواهي).

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فهو ليس كالكتب الدينية التي يشك أصحابها في أصولها، وفي ترجماتها، وفي معانيها.

وبما أن هذه القيم الثلاث مجتمعة في الإله المعبود، وفي الرسول المبعوث، وفي الكتاب المنزل، فإن أحسن أحوالها أن تكون كذلك متداخلة في حياة البشر.

ولذلك نجدها متداخلة موصوفاً بعضها ببعض في كتاب ربنا وسنة رسولنا ﷺ: فمكارم الأخلاق توصف بالجمال. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [المعارج: ٥].

والقول يوصف بالحسن وهو مفهوم جمالي وبه يوصف الفعل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

[النحل: ١٢٥]

ولا تناقض بين الانتفاع بالشيء وتذوُّق جماله، بل إن هذا الذي ينبغي أن يكون: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

[البقرة: ٦٩]

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : ٦٠].

وتأمل هذه الآية الكريمة التي يأمرنا الله ـ تعالى ـ فيها بالنظر إلى ثمر النبات وينعه : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٩]. والنظر إلى الثمر واليَنع لا ينفك عن رؤية ما فيه من بهجة وجمال. فكما أن خلقه آية ، وما فيه من غذاء آية ، فجماله أيضاً آية لقوم يؤمنون. وانظر كيف جمع ـ سبحانه ـ بين الأمر بالنظر إليه ، والأمر بإيتاء زكاته :

﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١].

والمحظوظ من كانت له زوجة تجمع بين حسن الخلق وجمال المنظر : « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله »[١].

وكما أن هذه القيم يوصف بعضها ببعض فإن ديننا يجعل بعضها وسائل لبعض.

فالدعوة إلى الخير لا تبنى إلا على الحق ، ولا تكون إلا مقرونة بالحسن والجمال : فالقصص القرآني أحسن القصص محتوى وأسلوبا ، لكنه كله مبني على الحق ، لا على الخيال. إنه يقرر واقعاً ولا يختلق باطلاً ليتوسل به إلى عبر اخلاقية أو دينية : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣]. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١].

والدعوة إنما تكون بالكلام الجميل الذي تأنس به المسامع وترتاح إليه القلوب : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣]، ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥].

لكن بعض إخواننا ـ عفا الله عنهم ـ جعلوا الدعوة إلى أعظم حق وأفضل خير : عبادة الله وحده ، والاستمساك بسنة نبيه ـ جعلوها مرتبطة بأنواع من الجفاء والغلظة التي تنفر منها طباع الكرام. ألم يتأملوا قول الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

يا لله! فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لرسوله الكريم ﷺ : إنك لو أبقيت على كل ما فيك من خصال الخير ، ولو بقيت تدعو إلى ما تدعو إليه من حق ، لكنك كنت مع ذلك فظا غليظ القلب لانفض من حولك هؤلاء الذين هم الآن معك. لماذا يا ترى؟ لأنهم أناس كرماء يحترمون أنفسهم ، ولا يرضون لها أن تذل

---

(١) رواه ابن ماجة ، ح/ ١٨٤٧.

حتى من رجل في مثل شخصية الرسول ﷺ. وما كل الناس كذلك؛ بل إن منهم من لا يبقى ويطيع إلا مع الإذلال والهوان. ألم يقل الله ـ تعالى ـ عن قوم فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وصدق القائل:

إذا أنت أكرمتَ الكـريم ملكتَه وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمـردا

ودعوة الحق إنما يصلح لها هذا النوع من كرام الناس. إنهم هم الذين يصدقون فيها ويتحملونها بقوة وشجاعة. فليكونوا هم إذن طَلِبَتَنا حين ندعو؛ ولندعهم لذلك بطريقة تليق بهم، فتجمعهم حولنا ولا تنفرهم منا. أما اللئام الذين يرضون بالهوان فلا خير فيهم، ولا رجاء منهم.

وقابل هؤلاء أناس تذرعوا بلين الكلام وخفض الجانب ليوقعوا الناس في مهالك الشرك والابتداع. والسعيد من وفقه الله ـ تعالى ـ للدعوة إليه بالتي هي أحسن.

الجمال إذن محمود ومرغوب فيه، وهو قرين الحق والخير. فأما حين يكون مَظنَّةً لأن يُتَّخَذَ وسيلة لهدم المكارم فإن الإسلام يمنع الاستمتاع به. ولذلك فإنه يحرم النظر إلى بعض الصور الجميلة، والاستماع إلى بعض الأصوات الجميلة حين يكون ما فيها من جمال ذريعة إلى شرك أو هدم مكارم. ولهذا حرم النظر إلى زينة النساء لغير محرم أو زوج؛ لأن الاستمتاع بجمالهن قد يكون وسيلة إلى هدم الفضيلة. وأباحه للمحارم؛ لأن هذه العلة منتفية في حقهم، وأباحه للأزواج، بل ودعاهم إليه؛ لأنه استمتاعٌ حلال، وقد يكون وسيلة إلى الامتناع عن الحرام.

وكذلك الأصوات الجميلة قد يرتبط جمالها بخاصةٍ فيها، أو في المستمتع بها، تثير مشاعر الرذيلة، أو تكون ملهية عن فضيلة. فخضوع النساء بالقول قد يثير الطمع فيهن وإن كن أزواج نبي، ولذلك مُنِعْنَ منه: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقل مثل ذلك عن المعازف وأنواع من الغناء. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «هو ـ والله ـ الغناء».

فالحمد لله الذي هدانا للحق، وسهَّل لنا سبل الخير، ومتعنا بجمال الكلام، وجمال الخلق، وجمال المعاني.

وقفات

رسالة على لسان رجال الشيشان

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

افعلوا ما شئتم أيها الروس.. فإنكم مهما قتلتم من الشيب والشباب، أو رمّلتم من النساء ويتمتم من الأطفال، فاعلموا أن ذلك لن يضرنا ـ بإذن الله تعالى ـ.

افعلوا ما شئتم.. وكيدوا ما شئتم، واستخدموا ما أردتم من الأسلحة الفتاكة، والقنابل المدمرة؛ فإن الله ـ تعالى ـ معنا، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

افعلوا ما شئتم.. انتفشوا وتبختروا ولا تأخذكم بنا رأفة لا شفقة، لا ترحموا طفلاً رضيعاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ضعيفة؛ فإن الله ـ تعالى ـ لن يضيعنا.

عجباً لكم! ماذا تنقمون منا؟!

ألأننا عدنا لديننا واعتصمنا بكتابنا؟! ألأننا نهضنا من سُباتنا ورحنا نبحث عن هويتنا؟! ألأننا بدأنا نستنشق نسائم الحرية، ونزيل تراب الشيوعية من فوق رؤوسنا..؟!

أرأيتم تبختركم وطغيانكم وجبروتكم وظلمكم، أتظنونه سوف يستمر؟! لا والله؛ فإن الله هو القوي العزيز، وإنَّا لنبصر فجر الخلاص بين راحتي هذه المحن ـ بإذن الله تعالى ـ.

كم فسقتم وطغيتم وزلزلتم الأرض من تحت أقدامنا، وصبّحتمونا بالقنابل المدمرة، ومسّيتمونا بالصواريخ الحارقة.. كم .. وكم؟! ولكن: **﴿ أأمنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾** [الملك: ١٦، ١٧].

انظروا إلى فلول المهاجرين من الشيوخ والنساء والصبيان والعَجَزة كيف راحوا يهربون زرافات ووحداناً فراراً بأنفسهم وأعراضهم من جبروتكم وتسلطكم..؟! يا سبحان الله! ما أقسى الذلة والمهانة! وما أصعب الشتات والتفرق! وما أشد ألم المرأة العفيفة التي انتُهِكَ عِرضها! وهل تعرفون أشد حرارة

من دموع ذلك الشيخ الذي هدّه الألم وفجعته الكارثة..؟!

تأملوا في نظرات ذلك الصبي التائهة، يتلفت هنا وهناك في تلك الأفواج المهاجرة لعله يجد أمه أو أباه أو أخته فيرتمي في أحضانهم.. ولكن.. هيهات هيهات..!!

ها هو ذا شيخ طاعن في السن يضم رأسه بين راحتيه مقعياً حزيناً يتجرع ألم الحسرة والفراق فقد هُدِّم بيته، وأُحرق زرعه، ودُمِّرت أملاكه، وتخطفت قنابل النابالم المحرقة زوجه وولده، فانزوى حزيناً يدفن مرارته وحزنه، ويكفكف دمعه وعبرته، وهكذا حال بقية الناس من حوله يُظلِّل وجوههم الفزع، ويحوطها الهلع.. ولكن ما زادنا ذلك - إي والله - إلا قوة وثباتاً وإصراراً على طريق الجهاد في سبيل الله.

نعم صبَّ طغاتكم علينا أقسى أنواع الظلم، فأحاط بنا الألم من كل مكان، نأرق ونحزن، وتتصدع قلوبنا على أهلينا وأبنائنا، لا تهنأ لنا عين بنوم، ولا يرقأ لنا دمع، نرى أبناءنا ونساءنا وإخواننا يُتَخَطَّفون من حولنا، وربما قدرنا على مواراتهم بالتراب، وربما عجزنا عن ذلك.. ولكن واللهِ الذي لا إله إلا هو إن قلوبنا العامرة بالإيمان مطمئنة ساكنة يملؤها البِشْر والراحة والشوق للقاء الله، وتحدوها أطايب الجنة إلى التسابق في التضحية وملاقاة الكفرة الملحدين، ولا نجد في نفوسنا قوة وثباتاً وشجاعة كما نجدها الآن، ولله الحمد والمنَّة.

أيها الروس: إننا نقاتلكم برجال - نحسبهم والله حسيبهم - يحرصون على الموت أكثر من حرصكم على الحياة، ارتفعت رؤوسهم الشماء اعتزازاً بدينهم، وشمخت أفئدتهم الكريمة ثباتاً وصلابة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، استعانوا بربهم، وعضوا على دينهم بالنواجذ.

إننا نقاتلكم برجال يصدق فيهم قول الشاعر العربي:

عُبَّاد ليل إذا جنَّ الظلام بهم ... كم عابد دمعه في الخدِّ أجراه

وأُسْدُ غاب إذا نادى الجهاد بهم ... هبُّوا إلى الموت يستجدون رؤياه

أيها الروس: هَبُوا أنكم دمَّرتم ديارنا وقتلتم رجالنا؛ أتظنون أن الله مخلفُ وعَده رسُله..؟! افعلوا ما شئتم؛ فإننا نرى بناءكم المترهل بدأ يتساقط ويتمزق - بإذن الله -، **﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** [الحج: ٤٠].

ماضٍ وأعرفُ ما دربي وما هدفي ... والموتُ يرقصُ لي في كل منعطَفِ

وما أبالي به حتى أحاذرَه ... فخشيةُ الموت عندي أبردُ الطُّرَفِ



زيارة بابا الفاتيكان:

خطوات جديدة على طريق الاختراق

عبد العزيز كامل

رغم الضجيج العالمي الذي سبق زيارة (بابا) الفاتيكان إلى منطقة الشرق الأوسط وما صاحبها، وبرغم الأضواء المبهرة التي سلطت عليها إعلامياً، إلا أن ذلك لم يكشف بشكل كامل عن أبعاد تلك الزيارة؛ فقد صورها الإعلام الدولي على أنها إحدى مظاهر الاحتفال العالمي بـ (اليوبيل) الألفي لميلاد المسيح - عليه السلام -. أما الإعلام العربي - في غالبه - فقد صور الزيارة بصورة مقطوعة عما قبلها وما بعدها، ومارس عملية تضليل كبرى في إخفاء معانيها ومراميها البعيدة، وشاركت أضواؤه الخدَّاعة في خطف الأبصار عن إدراك الحقائق على ما هي عليها، إمعاناً في المزيد من إطالة الغيبوبة المتواصلة للوعي العربي، والتي بدأت منذ إدخاله غرفة الـ (إن عاش) العلمانية الجاهلية الرديئة.

لقد أصر ذلك الإعلام على أن يفجعنا في عقيدتنا وفي ثوابتنا، بل وفي أذواقنا ومشاعرنا عندما استعلن بإظهار شعائر الوثنية، ومظاهر الشرك ليذيعها على الملايين من المسلمين، وعلى الهواء مباشرة، لا ليطلعوا على رداءة الكفر وأهله، ولكن لتزيينه وتزويقه بكلمات النفاق وشهادات الزور على ألسنة المعلقين والمحللين المكتوبة والمسموعة، وقد أطْلَعَنا هذا الإعلام على ما لا تشتهي الأنفس وما لا تلذ الآذان والأعين، فسمعنا من الذين أوتوا الكتاب ومن الذي أشركوا أذىً كثيراً، وأصاب القذى أعيننا والأسى قلوبنا ونحن نرى حامل الوثن يُعظَّم وتعد خطواته وكلماته وهو يرفع ذلك الوثن المتخذ على شكل الصليب وقد عُلِّق به تمثال عيسى - عليه السلام - الذي اتخذوه إلهاً. ومما زاد في الفجيعة أن ذلك الاحتفاء بالشرك الأكبر والجُرم الأعظم لم يكن في ديار بطرس أو مرقس أو قسطنطين، وإنما كان على أراضي الأنبياء التي أرادها الله خالصة للتوحيد، واستحفظها أمة خاتم الأنبياء ليطهروها ويعمروها. لقد شاهدنا غلاظ الأكباد من بني جلدتنا وهم يروِّجون في تلك الأيام

المعدودات لتجارة الشرك المسماة بـ « التبشير ».

ونسجل هنا شهادة ـ وقد جعل الله تعالى أمتنا شاهدة على الناس ـ أن ما يسمى باحتفالات (ميلاد الرب) لم تلقَ نجاحاً في أي مكان على ظهر الأرض مثلما وجدته على أرض الإسلام وفي بلاد العرب، ولم يلق حامل وثن (الإله المصلوب) ترحيباً ولا تبجيلاً ولا تكريماً في تلك الاحتفالات مثل ما لقيه من المتحدثين باسم المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإلى الله نشكو غربتنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس.

لقد كادت الجوقة العربية المشاركة في شركيات الاحتفال أن تلهينا بتناقضاتها المتنافرة ومواقفها المتخاذلة عن تتبع التفاعلات الحقيقية للحدث، حتى نضعه في سياقه ونسلكه في نظامه ضمن سلسلة التطورات الحادة التي تمر بها قضايا أمتنا فيما يسمى بمشكلة الشرق الأوسط.

وقد سبق أن تناولنا ـ على صفحات البيان الغراء مع القارئ الكريم ـ قضايا عديدة ذات اتصال بالعلاقة المريبة والغريبة القائمة اليوم بشكل مستقر بين اليهود المعاصرين والنصارى البروتستانت في كل من إنجلترا وأمريكا، وكانت المناسبة في ذلك ما تم تناوله على صفحات المجلة في حلقات (حمى سنة ٢٠٠٠) وقد ظهر من خلال المادة المعروضة فيها أن العلاقة بين هؤلاء وأولئك قد استقرت على شكل وفاق واتفاق جعل قوى البروتستانت في أمريكا دابة مطيعة ذلول يركبها (شعب الله المختار) سواء كانت هذه الدابة هي الفيل الجمهوري أو الحمار الديمقراطي[(١)].

والآن أجد في أخبار زيارة كبير الأحبار مناسبة لإلقاء الضوء على علاقة جديدة لا تزال العناكب السامة تنسج خيوطها بين اليهود وبين الطائفة الأكبر عددياً والأخطر تاريخياً من أمة النصارى وهم (الكاثوليك)[(٢)]، وحتى لا نقفز فوق المقدمات إلى النتائج باستعراض آثار تلك الزيارة المشبوهة فإني أجد من المهم أولاً أن نلقي ضوءاً على بعض الخلفيات التي كانت تحكم العلاقة بين العدوين التاريخيين: اليهود والكاثوليك، حتى عصر قريب جداً.

الإصلاح الديني على الطريقة الكاثوليكية:

شاع إطلاق وصف (الإصلاح الديني) على التغيير الذي أدخله البروتستانت على الديانة الكاثوليكية في القرن السادس عشر للميلاد على يد (مارتن لوثر) وقد انشطرت النصرانية بعد ذلك التغيير إلى شطرين فيما يتصل بالموقف من اليهود واليهودية: شطر أبقى على عقائد النصرانية المعادية لليهود ـ وهم الكاثوليك والأرثوذكس ـ وشطر أقبل على إجراء تغيير جذري في (تصحيح) العلاقة مع اليهود وهم (البروتستانت) الذين طوروا تلك العلاقة بعد ذلك، فاحتضنوا اليهود وأيدوهم وأمدوهم بكل أسباب العون والمساعدة حتى قامت دولتهم وقويت شوكتهم في القرن الأخير؛ ولكن البروتستانت رغم تقاربهم الشديد من اليهود إلى حد قريب من التهوُّد، لا يمثلون سوى نسبة السدس من مجموع النصارى في العالم، وكذلك الأرثوذكس؛ بينما يمثل نصارى

(١) الفيل هو الرمز الرسمي للحزب الجمهوري في الانتخابات الأمريكية، والحمار هو الشعار الرسمي للحزب الديمقراطي في تلك الانتخابات، ولم أعثر حتى الآن على السر في اختيار الحمار رمزاً لهذا الحزب! وعلى من عرف هذا السر أن يفيدنا.

(٢) معنى الكاثوليك: الجامعة فكنيستهم هي الجامعة.

الكاثوليك القسم الأكبر من أمة النصارى؛ إذ يبلغ رعايا الكنيسة الكاثوليكية وحدهم ملياراً ونيفاً من (الضالين) الذين اتخذوا حيال (المغضوب عليهم) موقفاً عدائياً دينياً ينطلق من صلب العقيدة الصليبية.

فالعداء لليهود كان جزءاً أساسياً من عقيدة النصارى الكاثوليك الذين يعظمون الصليب، وما كان للصليب أن يتخذ شعاراً لتلك الديانة، لولا اتهام النصارى لليهود بأنهم هم الذين تسببوا في صلب المسيح ـ عليه السلام ـ حتى قتل ـ كما يزعمون ـ ولهذا ظلت النصرانية الكاثوليكية على موقفها العدائي الديني من اليهود حتى وقت قريب مما دعا أحد مفكريها المعاصرين أن يقول: «إن القوى ذاتها التي (صلبت) المسيح طيلة ١٩٠٠ سنة تسعى اليوم إلى صلب كنيسته. لقد فُرِضَ على المسيحية في عصرنا الراهن نضال عظيم نهايته ستحدد مصير المسيحية: حياةً أو موتاً»(١).

ونحن الآن ـ في ضوء التطور الأخير بين الديانتين ـ نحاول أن نراقب (مصير المسيحية الكاثوليكية حياةً أو موتاً) مع قرب نهاية عمر أكثر باباوات الكاثوليكية غموضاً (يوحنا بولس الثاني). إن هذا الرجل الذي يقود دينياً ما يقرب من ربع سكان العالم يتربع على عرش صغير لدولة هي الأصغر في العالم من حيث المساحة والعدد، ولكن لهذا العرش حصانة غير مسبوقة؛ فمنصب (بابا الڤاتيكان) هو المنصب الديني الوحيد في العالم الذي لا يخضع لنفوذ جهة أعلى منه، سواء كانت دولة أو حلفاً أو منظومة عالمية، وهو فوق ذلك لا يخضع لأي سلطة في تعيينه أو خلعه من خارج الدائرة الڤاتيكانية، وقد أحكم وثاق هذه الحصانة أو بالأحرى شدِّد خناقها على النصارى الكاثوليك بالقرار القديم للمجمع المسكوني في روما عام ١٨٩٦م باعتبار صاحب منصب البابوية إنساناً معصوماً، وهو ما يعني أن مواقف البابا الكاثوليكي هي في مرتبة الوحي المنزل من السماء في اعتقاد أتباعه. ولقد أضفى (يوسف فوجتيلا)(٢) أو (جون بول) أو (يوحنا بولس) الثاني بشخصيته الرمادية أبعاداً أخرى من الإثارة والغموض على ذلك المنصب، فهو أول (بابا) يرأس البابوية الرومية من خارج روما. وتاريخه القديم مليء بعلامات الاستفهام وخاصة علاقاته اليهودية الخاصة.

إن هذا الرجل الذي يرتدي مسوح المسكنة، ويتقنع بلباس السكون يحمل بين جوانحه نفساً بعيدة الأغوار، سحيقة الأسرار؛ فقد قطعت الكاثوليكية في عهده أوسع خطاها وأسرعها نحو التقارب مع اليهود؛ ولا ندري على وجه التحديد إن كان الرجل بدوره يحتل موقع الفاعل أم المفعول؛ فمنذ أن تولى منصبه في عام ١٩٧٨م وهو يسير وئيداً نحو واقع جديد لتقريب الشُّقة بين بوابتي هيكل بطرس(٣) وهيكل سليمان.

وقبل أن أشرع في عرض أو سرد التسلسل في خطوات الشيطان نحو ذلك الوفاق النكد؛ أحب أن أشير إلى أحد أدوار هذا (البابا) على الساحة

---

(١) انظر (انقضاض اليهودية على المسيحية) للكاهن (جيرالد دنيرود)، ص ٦.

(٢) هذا هو الاسم الأصلي لبابا الڤاتيكان الحالي، وتغيير اسم (البابا) عندهم طقس ديني تقليدي.

(٣) ينسبون إلى عيسى ـ عليه السلام ـ أنه قال لأحد حوارييه ـ وهو بطرس ـ: (فوق هذه الصخرة ابني هيكلي). ففهم من النصارى أن المكان الذي سيموت فيه بطرس سيكون بيتاً للنصرانية، كما هو في روما.

الدولية؛ لأدلل بها على أنه ليس شخصية هامشية في المجريات العالمية.

معاول الصمت:

يوحنا بولس الثاني، مولود في بولندا، وقد اجتاحت النازية بلاده، مما تسبب في اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومثلما قامت الحرب باجتياح (هتلر) لبولندا فقد انتهت بدخول الجيش الأحمر إليها مخترقاً شرق أوروبا، وأقامت روسيا نظاماً شيوعياً في بولندا كان ركيزة للحلف الشيوعي الدولي المعروف بحلف (وارسو) وليستمر بعد ذلك الوجود الشيوعي في بولندا طيلة ٣٥ عاماً، ولأن الرجل لم يكن دوره المرسوم أن يبقى محبوساً في (قمقم) الرهبنة والانعزال عن السياسة - كما هو مشاع عن دور الكنيسة - فقد تهيأت أمامه فرصة لإثبات أن الدين - ولو كان باطلاً - لا يزال عامل دفع وتحفيز للشعوب؛ نصرةً للحق أو ثأراً بالباطل.

كانت بولندا منطقة التماسٍّ بين المعسكرين العالميين قبل انتهاء الحرب الباردة، وكان لنشاط المخابرات الأمريكية فيها دور ملموس لتحسس أخبار الند الشيوعي عن قرب، وقد أثمر هذا النشاط إبراز الشخصية التلفزيونية اللامعة (ليخ ڤاونسا) زعيم نقابة التضامن البولندية ذلك الزعيم الذي دفعته إلى مقدمة الأحداث في بولندا ومقدمة الأخبار في العالم (كلمة) من كلمات بابا الڤاتيكان.

لقد أوقد ذلك (البابا) في هدوء عود ثقاب على أرض بولندا؛ سرعان ما أشعل نيران ثورة عارمة في أنحائها ضد الحكم الشيوعي، وكانت البداية زيارة قام بها إلى هناك بعد سبعة أشهر فقط من تسلُّم منصب البابوية، وعندما هبط من الطائرة في يوم من أيام يونيو عام ١٩٧٩م، انكب - كعادته الطقسية - على الأرض ليقبلها أمام (الكاميرات) العالمية، فُدقَّت لذلك أجراس الكنائس في كل دول أوروبا الشرقية، ودبت روح من اليقظة الدينية في أوصالها، بدأت في بولندا ثم انتشرت حولها، وأثناء الزيارة أقام يوحنا (قُدَّاساً) أمام نحو ٣٠٠ ألف بولندي كاثوليكي، ألقى فيه خطبة تخللتها الكلمة التي كان لها ما بعدها، لقد قال أمام الحشود: «لا يمكن استبعاد السيد المسيح من تاريخ البشرية في أي بقعة من العالم، من أي خط عرض أو طول، أو شمال أو جنوب، إن استبعاد المسيح خطيئة في حق البشرية»! وبعد أن انتهى من خطبته دوَّى التصفيق بشكل متواصل مدة عشر دقائق كاملة، وسط ترديد الحضور لأهازيج منظمة يقولون فيها منشدين: (المسيح سينتصر .. المسيح سيملك .. المسيح سيحكم» ثم انفضَّت الجموع حاملة في نفوسها مشاعل الثورة التي قادها حركياً (ڤاونسا) ونظم لها روحياً ومعنوياً يوحنا بولس الثاني، وقد انتبه لهذا التطور في وقت مبكر الرئيس الأمريكي الأسبق (رونالد ريجان) الذي شاهد (القدَّاس) من خلال وسائل الإعلام، وعلق وقتها على ما شاهده قائلاً: «إن تحولاً هائلاً يُنتظر أن يحدث في العالم الشيوعي، وإن هذا القداس في قلب وارسو ما هو إلا نقطة البداية» وهذا ما كان بالفعل؛ فقد اشتعلت الثورة في أنحاء بولندا إلى أن انتهت بسقوط الحكم الشيوعي فيها، ثم تساقطت الأنظمة الشيوعية بعد ذلك في دول أوروبا الشرقية طيلة عقد الثمانينيات حتى انتهت بتفكك المنظومة الشيوعية بعد سقوط سور برلين في آخر الثمانينيات، ثم أعقبه تفكك الاتحاد السوڤييتي في أوائل التسعينيات، وقد اعترف آخر رؤساء الاتحاد

السوفييتي (ميخائيل جورباتشوف) بخطورة الدور الذي لعبه بابا الفاتيكان فقال: «يمكن للمرء أن يقول إن ما حدث في أوروبا الشرقية في السنوات الأخيرة، كان مستحيلاً لولا الدور الذي قام به البابا، والمجهود الهائل الذي أداه من خلال الدور السياسي الذي لعبه على الساحة العالمية»(١).

هذا إذن هو (البابا) وهذه كلماته وهذه خطواته وهذه مخططاته التي لا ندري - والحق يقال -: هل هي لحساب كنيسته أم لحساب الذين رفعوه لرئاستها بعد الوفاة المفاجئة لسلفه يوحنا بولس الأول الذي مات في ظروف غامضة بعد شهر وثلاثة أيام من تولي منصبه.

الكاثوليكية واليهودية.. من يخترق الآخر؟

لو لم تكن عمليات شد الحبال ومحاولات الاختراق المتبادل بين اليهود والنصارى (بروتستانت وكاثوليك) تجري على أرضنا الإسلامية، لما ألقينا لها بالاً، ولا أرعينا لها سمعاً، ولكن لما كانت تلك الصراعات الدينية تتخذ من أرض الإسلام ميداناً في جزء من أقدس بقاعه؛ فإن المسألة يصير لها شأن آخر.

إن الصراع القديم بين الكاثوليكية واليهودية قد تواصل حتى العصر الحديث؛ فعندما ظهرت الحركة الصهيونية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد على يد (تيودور هرتزل)، اتخذت الكنيسة الكاثوليكية موقفاً مناقضاً ومناهضاً لتلك الحركة، برغم حرص الصهيونية العالمية وقتها على كسب كنيسة روما لجانبها في مشاريعها المستقبلية في المنطقة، أو تحييدها على الأقل.

ولكن الكاثوليك ظلوا على موقفهم المعادي لليهود ما داموا باقين على عداوة المسيح وعدم الاعتراف به، وعندما جمع لقاءٌ بين هرتزل وبابا الفاتيكان - في زمنه -، رفض ذلك البابا - وهو (بيوس العاشر) - التماس اليهود بالتجاوب مع المطالب الصهيونية باستيطان أرض فلسطين، بل إن (البابا) اشترط على هرتزل صراحة في ذلك اللقاء الذي تم في ٢٥/١/١٩٠٤م، أن يتنصر اليهود أولاً قبل الحديث في أي موضوع يتعلق بالعودة إلى الأرض المقدسة وقال له: «إن بقاءكم على انتظار مسيح غير يسوع يجعلكم باعتقادكم هذا منكرين ألوهية يسوع، ولا يمكننا حينئذ مساعدتكم»(٢).

وقد وجد اليهود الصدر الرحب والأذرع المفتوحة لدى النصارى البروتستانت الذين ساروا معهم على طريق العودة من بدايته، حتى أوصلوهم إلى عتبة الدار، بعد أن بنوها وهيؤوها لهم عبر عقود الانتداب الثلاثة؛ كل ذلك والكاثوليك يرفضون مجرد الاعتراف بهذا الواقع الجديد؛ فعندما صدر وعد بلفور سنة ١٩١٧م على لسان الملكة البريطانية رفضته البابوية الكاثوليكية ولم تعترف به، وعندما أعلنت الدولة في سنة ١٩٤٨م لم تعترف البابوية الكاثوليكية بها، وعندما احتل اليهود القدس ثم أعلنوها عاصمة موحدة أبدية لهم لم تعترف البابوية الكاثوليكية بذلك، وظل الأمر على هذا حتى انتصف القرن العشرون وجاء عقد الستينيات.

رياح التغييرات تهب من أمريكا:

شهد عقد الستينيات الميلادية وصول أول رئيس من طائفة الكاثوليك(٣) إلى سُدة الحكم في الولايات

---

(١) راجع كتاب (القديس) تأليف (كارل برنشتاين)، (ماركو موليتي). (٢) يوميات هرتزل، ص ١٦٠٣.

(٢) الكاثوليك الأمريكيون يشكلون الآن ما يزيد على ستين مليوناً من مجموع تعداد الشعب الأمريكي، وقد قدر معهد جالوب للإحصاء عدد (الأصوليين) من الأمريكيين الكاثوليك عام ١٩٨٢م بثمانية ملايين.

المتحدة الأمريكية، وهو الرئيس (جون كنيدي) - وهو الذي قُتل بعد ذلك - ومع بداية ولايته بدأ اللوبي الصهيوني بالتعاون مع رجال دين من الكاثوليك الأمريكيين في الضغط على الرئيس الأمريكي لمطالبة الفاتيكان باتخاذ مواقف مغايرة من الديانة اليهودية والدولة اليهودية، وبالفعل بدأت تلك المساعي تؤتي شيئاً من ثمارها؛ إذ اتخذ المجمع المسكوني النصراني المنعقد عام ١٩٦٢م قراراً بتبرئة اليهود من دم المسيح! ثم بدأ الأمريكيون الكاثوليك في نشر مناخ جديد يطالب بتطبيع العلاقة بين الكاثوليكية العالمية ودولة (إسرائيل) فأصدر القس الأمريكي الكاثوليكي (إدوارد فلا نيري) وثيقة في ١٩٦٩/١٢/١م يطالب فيها الكنيسة الكاثوليكية باتخاذ موقف لاهوتي جديد من دولة (إسرائيل) وطالب بعده الأسقف (أوستريشر) في مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز في (١٩٧١/٥/٢٦م) بالاعتراف بحق اليهود في القدس وقال: «إن القدس مدينة يهودية... أطالب المسيحيين بالاعتراف اللاهوتي بالصهيونية...، إن إسرائيل هي تعبير عن إرادة الله»!

ثم تطور النشاط من شكل فردي إلى شكل جماعي، ففي ١٩٨٤/١١/٢٣م وقَّع أكثر من عشرين نائباً كاثوليكياً في مجلس النواب الأمريكي على رسالة إلى بابا الفاتيكان يطالبونه فيها بالاعتراف الرسمي بـ (إسرائيل) وتبادل التمثيل الدبلوماسي معها.

ومع هذه المساعي المحمومة والمشاعر الحميمة من نصارى أمريكا الكاثوليك، إلا أن اليهود ظلوا يشكون من وجود عثرات كبيرة تعترض مجرى التطبيع بين الكاثوليكية العالمية والصهيونية العالمية وهي:

١ - عدم اعتراف الفاتيكان بـ (إسرائيل) باعتبارها دولة.

٢ - عدم الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لها.

٣ - عدم الاعتذار عن سكوت البابوية الكاثوليكية على جرائم النازية في حق اليهود(١). أثناء الحرب العالمية الثانية.

٤ - عدم إدانة معاداة السامية(٢).

٥ - عدم الاعتراض على قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة باعتبار الصهيونية حركة عنصرية(٣).

(البابا) يقيل عثرات اليهود:

لقد نصب البابا نفسه لدحرجة تلك الأحجار عن طريق الوفاق التاريخي مع اليهود، وشرع يزيلها الواحدة تلو الأخرى.

● أما الاعتراف بدولة (إسرائيل) فقد أعلن باسم الفاتيكان اعترافه الرسمي بدولة (إسرائيل) في عام ١٩٩٣م، ثم أقام علاقات دبلوماسية كاملة معها في عام ١٩٩٤م.

● وأما الاعتذار فقد أقر به قبل زيارته الأخيرة وأثناءها؛ فقد قام بوضع إكليل من الزهور على النصب التذكاري لضحايا المحرقة في متحف

---

(١) لأن اليهود يعتبرون الكاثوليك مشاركين في (الهولوكست) كارثة المحارق النازية التي يدَّعي اليهود أن هتلر أحرق فيها نحو ستة ملايين يهودي في أفران الغاز، ومع هذا لم تتحرك الكنيسة الكاثوليكية لإيقاف هذا العمل أو إدانته.

(٢) السامية نسبة إلى (سام بن نوح) وباعتبار أن بني إسرائيل ينحدرون من نسل سام، فإنهم يعتبرون أي عداء لهم عداءً عنصرياً؛ لأنهم من الجنس السامي، ويتجاهل اليهود أن العرب أيضاً ينحدرون من الأصل السامي.

(٣) ضغطت الولايات المتحدة لإلغاء هذا القرار وبالفعل ألغي في عهد (بوش).

(يافا شيم)، ودعا في كلمة ألقاها هناك إلى إقامة جسور جديدة مع اليهود تعتمد على (الجذور المشتركة) بين الديانتين وقال معتذراً عن المحرقة بلسان فصيح: «إنه لا توجد كلمات تكفي للتعبير عن الأسف على المأساة المروعة التي حدثت ضد اليهود».

● وأما الإعراب عن إدانة معاداة السامية والصهيونية فقد أتى به ضمناً في إطار زيارته لتل (صهيون) حيث ألقى كبير حاخامات (إسرائيل) كلمة أمام (البابا) أكد فيها على أن القدس هي العاصمة الأبدية الموحدة لدولة (إسرائيل) ولم ينبس (البابا) ببنت شفة اعتراضاً على هذه العبارة التي قيلت بمناسبة استقباله؛ فهل يطمع البابا بهذه (العطايا) أن يصل في النهاية إلى كسب اليهود تمهيداً لتنصيرهم في آخر الأمر ليحقق نبوءة تنصرهم قبل عودة المسيح ...؟ ربما، أم هل يريد أن يشكل تحالفاً غربياً كاثوليكياً ينافس التحالف البروتستانتي في السيطرة على العالم؟ قد يكون.

على أي حال فقد جمع كبير الكاثوليك في تلك الزيارة كل ما في جعبته لإهدائها لليهود حتى أقر أعينهم وأجرى الثناء على لسان كبيرهم (باراك) الذي وصف الزيارة بأنها (رحلة التداوي التاريخية) وقال: «إن البابا أسهم بشكل كبير في تحقيق تغيير تاريخي في اتجاه العلاقات بين الفاتيكان وإسرائيل».

هذا ما قدمته البابوية الكاثوليكية لليهود؛ فماذا أعطت المسلمين والعرب والفلسطينيين؟!

الجواب ـ بمعيار الحقيقة لا الزيف أو الدعاية ـ: لا شيء[1]!

إذن فماذا أُعطي البابا في بلاد المسلمين؟!

والجواب: أُعطي الكثير.

ومع قليل من هذا الكثير هذه بعض الإشارات (والإشارة تغني عن العبارة):

● فُتحت أمام (البابا) أكبر فرصة تبشيرية تنصيرية تكفيرية في التاريخ، عندما هُيئت أمامه كل الإمكانات لإقامة أكبر (قدّاس) عالمي متنقل خارج مقر البابوية؛ حيث أذيعت شعائره وصلواته ودعواته على العالم أجمع عبر الفضائيات حية على الهواء، وتمكنت دعوة الشرك والخرافة والدجل أن تسمع الدنيا كلمتها، دون أن تسمع في مقابلها كلمة واحدة باسم دين الحق والتوحيد؛ حيث استُبعِدَ خطاب الدين في الكلمات الرسمية على المستوى العربي ـ كالعادة ـ بينما حفلت الكلمات الرسمية اليهودية والنصرانية في المناسبة بكثير من المعاني الدينية الصريحة.

● أهديت في الزيارة وقبلها، هدايا تذكارية، تجعل من (الصليب) تحفة فنية أو أثرية مهداة، وفي هذا ما فيه من اعتراف صريح بأن لهذا الوثن نصيباً من قيم الحق، ومن ذلك ما سمي بـ (صليب بيت لحم) الذي جعل وشاحاً لتكريم الضيوف يُحمل على الصدور!

● سُمعت كلمات (كبيرة) من شخصيات كبيرة القولُ منها تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً؛ ومن ذلك ما سمعته بإذني من أحدهم وهو يقول في كلمة نقلتها الإذاعات:

---

(١) بطبيعة الحال نحن ـ وفق مفاهيمنا الإسلامية ـ لا ننتظر خيراً أصلاً ممن قال الله ـ تعالى ـ في أمثالهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]. فعداوتهم باقية سواء اعتذر الفاتيكان أو لم يعتذر، وأما اعتذار (باباهم) عن الحروب الصليبية فلم يكن نيابة عن الكنيسة نفسها بل عن بعض رعاياها (الأشقياء) الذين خرجوا عن تعاليمها!

«يا قداسة البابا: نحن هنا - مسلمين ومسيحيين ويهوداً - أبناء الله الذين اختارهم للعيش في هذه الأرض»! وقول آخر: «إن شعبنا يؤمن بتعاليم القرآن والإنجيل معاً»!!... أي بالشرك والتوحيد معاً؛ لأن (البابا) ومن معه لا يعرفون شيئاً عن الإنجيل الذي أنزل على عيسى - عليه السلام -!

● أتيح لـ (البابا) أن يتيه فخراً، ويتبختر فرحاً وسط جموع ممن يُفترض أنهم (رموز الإسلام) عندما اصطفت كوكبة منهم بزيهم الرسمي صفوفاً على الجانبين لاستقباله بالتصفيق الحار، حتى أصابه الاندهاش؛ فقال لأحد مضيِّفيه: «هذا يوم لن أنساه أبداً إنه هدية من الرب»! وحُقَّ له أن يفرح بتصفيق (الرجال) حملة دين التوحيد ابتهاجاً بقدوم حامل لواء الشرك!

● غرر بالبسطاء من عامة المسلمين - وخاصة الأطفال - الذين أُخْرِجَ الآلاف منهم لتنظيم المهرجانات الاحتفالية من المدارس النصرانية التي عامة طلابها من أبناء المسلمين؛ حيث رفع بعضهم لافتات مكتوب عليها: «أيها البابا إننا نحبك» وردد بعضهم هتافات تقول: «مرحباً بقدوم ملك السلام» والمقصود عيسى لا بولس!

● ظهر اعتزاز طوائف الكفار على اختلاف مللهم بأديانهم؛ في مقابل هوان الدين على بعض المسلمين؛ حيث رفض بابا الأقباط مثلاً الذهاب بنفسه لاستقبال (بابا) الفاتيكان في المطار؛ وأصر أثناء زيارة بابا الفاتيكان له في مقره أن يجلس أتباع كنيسته من القسس صفوفاً في مواجهة قسس الكاثوليك بشكل نِدِّيٍّ مستقل، بينما رُتِّبَ اللقاء الإسلامي مع (البابا) ووفده بحيث يجلسون جنباً إلى جنب بشكل تبادلي.

● أما المغزى السياسي الذي أظهرته الزيارة والذي يدخل ضمن ما قدمه العرب لـ (البابا) ومعه اليهود فهو طمأنتهم بأن قضية الأرض المقدسة تضاءلت وانكمشت من قضية إسلامية عالمية إلى قضية عربية قومية، ثم إلى قضية (سلطة) وطنية.. ثم إلى قضية (لجنة) إشرافية تشارك فيها شخصيات علمانية ونصرانية مع آخرين من حاملي الجنسية الإسرائيلية، لا يعرف أكثرهم القدس والأقصى إلا جزءاً من التراث أو (الفلكور) الفلسطيني، أو أنها شيء للبركة لا تزيد عن (البركات) الملتمسة بمصافحة (البابا).

● أما أكبر الهدايا التي حباها أحباء (البابا) إليه فهو تحقيق أمنيته الغالية عنده وعند النصارى جميعاً بأن يبدأ (الألف السعيد) بداية سعيدة تبشرهم بأن العالم مهيأ بالفعل للاستجابة لأي ناعق كذاب يقول شيئاً باسم الإله، أو ابن الإله، فلا تجد من القطعان البشرية إلا الهتاف والتصفيق حتى لو كان ذلك في عقر ديار المسلمين!

إنه اختراق من نوع آخر؛ فمنذ قرن من الزمان أو يزيد، والساحة خاوية أمام كل صنف من الأعادي الذين تمالؤوا فأسقطوا خلافتنا الإسلامية ثم أقاموا أحلافهم الاستعمارية الصليبية وعايرونا وتفاخروا علينا بأن لهم (بابا) والمسلمون لا بابا لهم..!!

ونحن منصورون بالله عليهم - إن استقمنا - فالله مولانا، والكافرون لا مولى لهم.



زيارة البابا لمصر

دلالات وأبعاد

محمد أحمد منصور

في تعليق البابا على كلمة الترحيب التي ألقاها فضيلة شيخ الأزهر وتحدث فيها عن «تكامل الثقافات والأديان» ارتجل البابا كلمة بالإنجليزية؛ حيث قال: «إن الإسلام أصبح ثقافة؛ والمسيحية كذلك، إنني مقتنع بأن مستقبل العالم يعتمد على الثقافات باختلافها وعلى الحوار بين الأديان. إنني أشكر هؤلاء الذين يطوِّرون الثقافة الإسلامية»!!

ويبدو أن بابا الڤاتيكان(*) لم يكن متصوراً أن الحفاوة به ستصل إلى هذا الحد من الإكرام البالغ. لقد كان فضيلة شيخ الأزهر في استقباله في المطار مع بعض مسؤولي الأزهر، ونزل على رغبة مرافقيه في تنظيم استقباله بالأزهر، ومكان الجلوس وطريقته، ونوع الهدية التي ستقدم له.

لكن كل ذلك يصغر في جانب ما قاله فضيلة شيخ الأزهر من معان طالما انتظرها البابا من مثله. فالإسلام أصبح ثقافة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى وفق المنظور الغربي!

ولعل مثل هذه العبارة المرتجلة تعبر عن فحوى الزيارة الأولى له إلى مصر، والأولى له في هذه الألفية - والتي تأتي على ضوء المستجدات على الساحة العالمية والإقليمية والمحلية - تحمل في طياتها معضلات كثيرة؛ فعلى الساحة العالمية تطمح أوروبا إلى تبوُّؤ مكانة عالمية مشكِّلَةً قطباً آخر منافساً أحياناً ومكملاً في أحيان أخرى، ومع سعي أوروبا نحو أن يكون لها هوية متميزة فإنها تفضل عالماً أكثر كاثوليكية في مقابلة الهيمنة الإنجيلية الأمريكية.

ومما يكشف بعضاً من هذا التوجه هو التردد البريطاني بين الولاء الديني الإنجيلي والانتماء الجغرافي لأوروبا، وهذا الأمر يؤكد أن المسألة الدينية عادت بشكلٍ سافرٍ لتفرض نفسها على

(*) أصبح الڤاتيكان يلعب دوراً محورياً في السياسة الأوروبية؛ ولهذا أصبح أكثر حضوراً على الساحة الدولية والعربية؛ حيث أصبح محطة لبعض الساسة العرب، وكان آخرهم الرئيس اليمني (علي عبد الله صالح).

خريطة السياسة الدولية.

أما على الساحة الإقليمية فإن المنطقة تشهد مخاضاً يحدد معالمه طبيعة التنافس بين المشروع الأمريكي الشرق الأوسطي، والمشروع الأوروبي - البحر متوسطي وحجم ذلك التنافس؛ مع استبعاد للمشروع الحقيقي لهوية المنطقة (الإسلامي) والمشروع المرحلي الماضي (العربي)؛ ولهذا فإن هناك تسابقاً من الطرفين المتنافسين ومن الطرف الثالث (الضحية) ومن الطرف الرابع (الضيف الصهيوني) كل منهم نحو ما يراه يخدم مصالحه؛ فالعرب يريدون بقاء ما كان على ما كان حماية لمصالحهم، و «إسرائيل» تريد هيمنة مطلقة برعاية أمريكية، وأوروبا لا تكف عن طلب دور لها في ظل طلب عربي متكرر لمشاركة أوروبية في عملية السلام. ولكن كِلا المشروعين يتفقان من جهة المنظومة القيمية المطروحة للمنطقة سواء في شقها الأمني أو الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي؛ أما الخلاف فعلى الأسلوب وتحقيق المصالح الذاتية. ومن ثَمَّ بات واضحاً أن هذه المنطقة المستهدفة تتعرض لألوان من الضغوط وقدر كبير من المزاحمة الثقافية والأيديولوجية والعرقية والدينية حتى يمكن فرض المنظومة السابقة وتغيير هوية المنطقة لصالح «إسرائيل».

ولعل ما تتعرض له مصر بالأخص بشأن المسألة القبطية بوصفها أحد أعقد التحديات التي تواجه الدولة والمجتمع في آن واحد بالإضافة إلى الضغوط الإقليمية والدولية لعل ذلك هو الذي فتح الباب واسعاً أمام زيارة البابا بعد أن أخفقت النخبة - ذات الولاء العلماني والموروث الماركسي - في تفكيك الأزمة حتى بات التعبير الأقرب هو أن هناك «أزمة في إدارة الأزمة» ومن ثم وجدت الدولة نفسها أمام منعطف جديد يعبر عن مرحلة جديدة لم تجد بداً أمامها من تقديم عدد متوالٍ وغير متوقف من التنازلات!

هذه الخطوة رحب بها أحد المثقفين الأقباط «ميلاد حنا» طالباً المزيد حيث قال: «إن مبادرات البابا ونقل زيارته عبر التلفزيون الوطني أدى إلى بروز أجواء جديدة في مصر»، وقال أيضاً: «إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين في مصر سيأخذ من الآن فصاعداً منحىً جديداً»(١).

السلام.. والألفية ومبعوث العناية الإلهية:

يعتقد النصارى أن سعيهم لتحقيق السلام هو تمهيد لمجيء المسيح(٢) الذي يربطونه بحلول الألفية الثالثة، وسبيلهم إلى ذلك هو نشر ثقافة السلام ومحاولة إلغاء (أو إيقاف) سُنَّة التدافع وتغييب الوعي بالذات وبالآخر، والتي تعني إلغاء حقائق شرعية كالجهاد والولاء والبراء وتجريم كل صور ممارستها. ويتم هذا عبر آلية متكاملة وواضحة بدءاً بالتعليم والإعلام، ومروراً بالدساتير والقوانين

---

(١) القدس العربي، عدد: ٣٣٥٩، يوم ٢٨/٢/٢٠٠٠م، هذه الأجواء التي تحدث عنها هي مطالب الأمس والتي حوتها وثيقة السبعينيات الشهيرة والتي طالبت بإلغاء الخط الهمايوني واسترداد الأوقاف القبطية من الدولة وإلغاء وصاية الدولة على الكنيسة بالإضافة إلى تخصيص ربع المناصب الوزارية والبرلمانية لأبناء الكنيسة.

(٢) هناك تحالف نصراني يهودي بثلاثة أبعاد (الفاتيكان، مجلس الكنائس العالمي الأرثوذكسي، والجماعات الإنجيلية، على مستوى العالم لفرض هيمنة شاملة على مستوى العالم؛ ومن ثم فإن تبادل الأدوار في هذا السياق هي مسألة تكتيك متفق عليها، ويسعى الجانبان إلى ضم أطراف جديدة للتحالف - كالهندوسية والبوذية.

> رفض شنودة استقبال بابا الفاتيكان في المطار لكونه مماثلاً له، وحتى لا يعني ذلك الاعتراف بأحقية بابوية روما على بابوية الإسكندرية!

وترتيب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وانتهاءاً باختراق المؤسسات الدينية من خلال الحوار أو بالرموز العلمانية. هذه الآلية هي التي أفرزت الواقع المرير الذي يحياه الجميع الآن، والذي حتم على الكثيرين فرضية الصمت فَرَقاً من تداعيات جديدة أو طلباً لسلام اجتماعي هش.

لمحات من الزيارة:

الزيارة التي بدأت ظهر الخميس ٢٤ فبراير كانت قد بدأت قبل أكثر من عام على صفحات الصحف ووسائل الإعلام لتهيئة الرأي العام لذلك، لكن اللافت للنظر هو الزيارات التي تقدمت زيارات البابا مباشرة؛ حيث زار كل من الرئيس الإيطالي والألماني القاهرة وعدة عواصم أخرى فيما يفهم منه أنه تهيئة لزيارة البابا للمنطقة التي استهلها بالقاهرة؛ حيث استقبل استقبالاً رسمياً فوق العادة؛ إذ كان في استقباله رئيس الدولة وستة وزراء وشيخ الأزهر وذوو مناصب أخرى قيادية.

وخارج المطار اصطف طلبة المدارس الكاثوليكية التي يبلغ عددها في مصر ١٧٠ مدرسة غالب أبنائها من المسلمين! رافعين الأعلام والصور.

وكانت أول فقرة في برنامج الزيارة هي توجهه إلى الكاتدرائية الأرثوذكية؛ حيث استقبله بابا الأقباط شنودة الثالث.

وانشد له الكهنة لحنيْن: «أو بورو» أي «يا ملك السلام»، و «أفلوجو مانوس» أي «مبارك الآتي قبل الرب»(١).

وقد حرص الطرفان على إلغاء أي دلالة رمزية حيث تساوت الكراسي التي يجلس عليها القسس والكهنة من الطائفتين، وتساوى الكرسيان اللذان يجلس عليهما البابوان في الشكل والحجم. ويشار أيضاً إلى أن شنودة رفض الذهاب إلى المطار؛ لأنه يعد الخروج نوعاً من الهرولة من رمز إلى رمز كلاهما متكافئان وكي لا تهتز صورته أمام شعبه وتفسر على أنها نوع من الاعتراف بأحقية روما عن الإسكندرية!

ويشار أيضاً إلى أن البابا قد صحب القيادات الكاثوليكية في المنطقة العربية - إلى جانب الوفد الفاتيكاني والمصري - حيث صحبه بطريرك اللاتين (القدس) وبطريرك الأرمن (لبنان) والموارنة (لبنان) والسريان (سوريا) والكلدان (العراق).

ثم قام بزيارة مقر الأزهر؛ وكان كل شيء خلال هذه الزيارة يوحي بالتكافؤ - على خلاف زيارة الكاتدرائية الكاثوليكية! - سواء شكل الجلسة التي جاءت على التوالي لا التوازي؛ حيث كانت عبارة عن: شيخ فقسيس ثم شيخ فقسيس وهكذا. أما عبارات الترحيب التي خلطت الأوراق فلا هي تعبيرات بالأصالة عن موقف الإسلام ولا هي بالوكالة حيث لم تَرْقَ إلى مستوى التعبير الدبلوماسي، ولكن جاءت عباراته هكذا أقرب إلى

(١) يلاحظ أن الأرثوذكس يدَّعون أن الله هو المسيح، وليس ابن الله كما يعتقد الكاثوليك. ولكن مَنْ هذا الآتي الذي يقصدونه قبل مجيء الرب؟

الشعبية التي لا يرتضيها كثير من العوام.

وقد تجاهل البابا زيارة كنيسة الروم الأرثوذكس التابعة لليونان (والتي تعرف بكنيسة القسطنطينية) نظراً لرفض الكنيسة صلاة البابا داخل دير سانت كاترين التابع لها.

وفي صباح الجمعة فيما يشبه الحلم وجد البابا نفسه يقيم (قداساً) في ملعب رياضي في عاصمة إسلامية (١٧ مليون) يحضره ٢٠ ألف كاثوليكي إلى جانب ١٥٠٠ من المسلمين غالبهم ممن تربى في المدارس النصرانية أو من الفضوليين! وعلى مقربة من جامعة الأزهر؛ وقد تم نقل القداس عبر التلفزيون المصري على الهواء مباشرة. ويذكر أن القداس أقيم بسبع لغات: القبطية القديمة، والأرمنية القديمة، والعربية، والإنجليزية، والإيطالية، والبولندية، والفرنسية التي وجه فيها البابا نداءه من أجل التقارب بين النصارى.

وقد ألَّف صلاة عن السلام، وانتهى القداس قبيل صلاة الجمعة!

وقد لاحظ عدد غير قليل من الناس أن البابا والوفد الفاتيكاني المرافق له يرتدون ملابس بيضاء بينما يرتدي كرادلة الأقليات الكاثوليكية في البلاد الإسلامية السواد (ترى لماذا؟).

وفي عصر اليوم نفسه انتقل إلى كنيسة العذراء ليقيم فيها صلاة ويرأس لقاءاً مع وفد قبطي أرثوذكسي بقيادة شنودة الثالث.

وقد أكد فيه البابا على ضرورة توحد المؤمنين بالمسيح! تحت راية واحدة، وشدد مراراً على ذلك وكرر: «علينا أن نغتنم الوقت!».

وقد سئل شنودة بعد الزيارة عن مدى التقدم الذي طرأ على العلاقات، فجاء رده حاسماً وفي اتجاه واحد: «الحوار بين الأديان والطوائف يكون في إطار التعاون المشترك لكنه لن يدخل في العقيدة الدينية كما يتصور البعض»(١).

مثل هذا التصريح وغيره من المواقف تعكس حجم الصراع الدائر بين الكنائس؛ حيث حاولت الحكومة أن تنفذ من خلاله للتهوين من ادعاءات بعض الأقباط التي لا تنتهي أمام العالم، ولكن القيادة الفاتيكانية ليست بهذه السذاجة؛ فهي تحاول الموازنة لتحقيق مكاسبها دون مقابل وهذا يجعل الأمر بين فكي رحى.

وفي صباح السبت توجه إلى سيناء حيث دير القديسة كاترين التي ركع البابا عند قبرها، غير أنه لم يتمكن من إقامة صلاته داخل الدير، وأقامها بحديقة بجانبه فيما قيل عنه إنه حج على خطا موسى - عليه السلام -، حيث تلقى الوصايا العشر والعائلة المقدسة التي آوت إلى مصر. وصلى البابا أيضاً لتتويج الحوار المسكوني مع الكنيسة الأرثوذكسية ثم عاد بعدها إلى روما مروراً بالقاهرة.

دلالات:

ثمة دلالات حاول البابا جاهداً وأعوانه أن يؤكدوا عليها في ثنايا أحاديثهم كلها تشير إلى زحزحة الهوية الإسلامية والعربية لمصر وإشراك الهوية النصرانية معها؛ وهذا ليس في مصر وحدها وإنما في كل الدول التي شارك كرادلتها البابا في زياراته. وهو إجراء وقتي يسمح بعد حين بما هو أكثر.

- ومن ذلك ارتباط زيارة البابا على أعتاب الألفية الثالثة والتي ترتبط في أذهان نصارى العالم بأحداث مستقبلية معينة.

---

(١) المشاهد السياسي، عدد: ٢١١.

- تسمية رحلة البابا إلى هذه البلاد حجاً بما يسمح بتكرارها سنوياً؛ حيث زعموا ارتباطها بنبي الله موسى ـ عليه السلام ـ وبـ (الأسرة المقدسة).

- التأكيد على أن النصرانية خرجت إلى العالم من مصر.

- قوله: «مصر هي أرض القديس انطونيوس وهي معقل الدراسات (المسيحية)، ولعبت دوراً عظيماً في الحفاظ على الثقافات والعقائد الخاصة بالكنيسة»، ولسوف أتذكر كلمات البابا شنودة الثالث الذي قال: «إن مصر ليست بلداً نستوطن فيه إنها أرض تعيش فينا»[1].

- الإشادة بتراث مصر النصراني مذكراً بأنه البلد[2] الذي نزلت فيه الوصايا العشر على موسى ـ عليه السلام ـ ولجأت إليه عائلة المسيح ـ عليه السلام ـ وانطلق منه تقليد إنشاء الأديرة.

- البدء بزيارة الكاتدرائية القبطية قبل زيارة الأزهر مع أن قواعد البروتوكول تقتضي العكس!

- ما أشير إليه قبيل الزيارة من حج روحي إلى «أور» مسقط رأس الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإظهار التعاطف مع شعب العراق يعلم حقيقته المطلعون على حجم النشاط التنصيري داخل العراق اليوم. والبابا هنا يريد أن يحرك مشاعر مليار كاثوليكي في العالم للضغط على الحلف الإنجليكاني للسماح بدخوله مشاركاً في اللعبة.

وتساؤلات أيضاً:

وهي تساؤلات تفرض نفسها:

- هل تعد مثل هذه التصريحات مستنداً لتدريس التاريخ القبطي وإقامة أقسام له في الكليات، خاصة أنه في وقت كتابة هذا المقال يقام مؤتمر حول «علم المصريات» وستطرح مثل هذه القضية للنقاش من خلاله، والمتوقع أن تقر هذه المطالب في الوقت الذي تتقلص فيه دراسة التاريخ الإسلامي لصالح التاريخ الحديث والتاريخ الفرعوني وهكذا سيضاف إلى شخصية مصر عنصر آخر هو البعد القبطي![3].

- هل ستعطى صلاحيات أوسع للمؤسسات النصرانية سواء التي تمارس الدور التنصيري الصريح، أو التي تمارس أدواراً أخرى لا تقل خطورة، خاصة في ظل فكرة المجتمع المدني وإلغاء سيادة الدولة[4]؟

- هل هناك علاقة بين زيارة البابا وإلغاء القرار الهمايوني من قبل وبين النقل التلفزيوني أسبوعياً قداس الأحد على الهواء؟

- إلى أي حد سيخدم الفاتيكان بالوكالة مصالح الحكومة المصرية؟ وإلى أي حد سيخدم المشروع الشرق أوسطي والأوروبي اللذين يصبان في صالح الأقباط. فإلى الذين لا يقرؤون الآيات: تدبروا ما تطلعون عليه من التصريحات، وكما قال البابا: علينا أن نغتنم الوقت!

---

(١) الحياة، ٢٥/٢/٢٠٠٠م.

(٢) اختلف أهل التاريخ حول موقع الطور الذي تلقى عنده موسى ـ عليه السلام ـ الوحي؛ والظاهر أن أغلبهم على أنه ليس في مصر؛ والمسألة تحتاج إلى مزيد بحث وتحقيق.

(٣) وقد قررت الجامعة الأمريكية أخيراً إنشاء (كرسي) للدراسات القبطية!

(٤) للبابا تصريح خطير في هذه المسألة صرح به في ٥/١٢/١٩٩٢م يقول: «من الضرورة عدم الالتفات إلى حجج الاعتباطية مثل السيادة، وعدم جواز التدخل في الشؤون الداخلية؛ إذ من الضروري أن تتدخل القوات الغربية من أجل توفير الغذاء والصحة لكل إنسان على وجه الأرض» والواضح أن الغرب لن يعدم مسوغاً وأن هذا الكلام غير سار على الشيشان.

حيرة: حوار أم تحوير؟!

الحيرة والتحوير والحوار أصبحت متقاربة الدلالات في ظل ما يدار بهدف إزالة الحاجز النفسي لدى المسلمين ضد أوروبا النصرانية صاحبة الأيادي الحمراء التي تتبنى الهدف نفسه ولكن بأساليب أكثر نفاذاً وأقل تكلفة في حوارات وما هي بحوارات! وعلى حد تعبير أحد السياسين: «ليس هناك حوارات حضارية وثقافية في أذهان الغرب!! ولكنه صراع مخطط الأدوات والأهداف والمراحل».

في عام ١٩٩٥م اتخذ المجمع الفاتيكاني الثاني قراراً بفتح مجالات الحوار مع الإسلام واليهودية، وامتد الحوار ليشمل حوارات الأديان الوثنية مثل البوذية، بل والماركسية أيضاً، وفي عام ١٩٩٦م عقد مؤتمر عن الحوار بين الأديان تحت رعاية الأزهر بالقاهرة، وفي مايو ١٩٩٨م عقد اتفاق ثنائي وقع عليه وكيل الأزهر (الشيخ فوزي الزفزاف) ورئيس المجلس الأسقفي (أرينزي) لإقامة لجنة دائمة بين أعلى هيئة للكاثوليك في العالم (الفاتيكان) وأعلى هيئة إسلامية (الأزهر) وقيل إنها تهدف إلى دعم مبادئ العدالة والسلام واحترام الأديان السماوية[1]. وهنا سؤال جدير بالطرح: هل يعترف الفاتيكان بالإسلام باعتباره ديناً سماوياً؟!

إن العبارات المنتقاة بدقة للبابا عن الإسلام لا تحمل أي اعتراف بكونه ديناً سماوياً، ولا تحمل اعترافاً بفضل الإسلام على أوروبا؛ حيث نوَّه بدور الإسلام الذي جاء بالعلم والمعرفة والذي أثَّر تأثيراً كبيراً على العالم العربي وإفريقيا. وهي عبارة تحمل قدراً كبيراً من الالتواء.

وقد جاءت الزيارة الأخيرة لتعطي دفعة جديدة لذلك الحوار؛ فستعقد ندوة بين كلية أصول الدين في جامعة الأزهر وإحدى الجامعات الكاثوليكية؛ وقد تتحول هذه الندوة إلى مركز دائم للحوار داخل جامعة الأزهر التي أصبحت مأوى لكثير من المنظمات المشبوهة مثل مركز الصحة الإنجابية التابع لمؤتمر السكان.

وأخيراً نختم المقال بعظة للبابا تحتاج إلى مزيد تأمل في ظل ما يقع من أحداث: «إن الوصايا العشر ترسم طريقة حياة مفعمة بالإنسانية لا يوجد خارج هذه الوصايا مستقبل مشرق، ولا سلام للأشخاص والمجتمعات والأمم»[2].

وأخشى ما أخشاه أن يقترب اليوم الذي يُطْلَبُ منا تطبيق هذه الوصايا في واقع الحياة!

---

(١) هذا الاحترام له وقائع تفسره مثل ما جرى في تيمور الشرقية وما جرى أخيراً في نيجيريا فهما وجهان لهذا الاحترام. أما ما يحدث في الشيشان فشأن لا يعني هذا الشعار.

(٢) قالها بعد عودته من القاهرة في قداس الأحد ٢٧/٢/٢٠٠٠م بروما تعليقاً على حجه على خطا موسى ـ عليه السلام ـ نقلاً عن الحياة ٢٨/٢/٢٠٠٠م، عدد: ١٣٥٠٢.



الأحداث الأخيرة في نيجيريا

الخلفيات والحقائق

بلال عبد الله

نيجيريا من أكثر البلدان الإفريقية عرضة للتقلبات السياسية؛ حيث وقعت بها كثير من الأحداث والانقلابات التي شغلتها وشغلت معها القارة بأسرها.

ومن المعلوم أن الاستعمار الإنجليزي دخلها وفيها آنذاك ممالك إسلامية متعددة، وكان ذلك عن طريق المكتشفين ثم المنصِّرين، وبدأ الإنجليز يقنعون الأمراء المسلمين (الفولانيين) في الشمال بقبول الحماية البريطانية بحجة أن الألمان في الشرق والفرنسيين في الغرب والشمال يهددون دولتهم، ومع التعهد لهم ببقائهم أمراء في نواحيهم، وفي عام ١٩٠٠م أعلنت بريطانيا قيام محمية نيجيريا الشمالية وعين السير (فريدريك لوجارد) مندوباً سامياً، وأرسلت الحملات العسكرية ضد الأمراء الفولانيين الذين رفضوا توقيع اتفاقيات معهم، وفي عام ١٩٠٣م تم احتلال (كانو) و (سوكوتو) ولم تقع (بورنو) في حوزتهم إلا عام ١٩٠٦م، واستلم الإنجليز الحكم مساعدين للأمراء الفولانيين، ثم أدمجت المحمية الجنوبية بمستعمرة لاجوس، وأبقت بريطانيا الإمارات الإسلامية في الشمال مع إيقاد الخلاف بينها. وفي عام ١٩١٤م حكم (لوجارد) نيجيريا الشمالية والجنوبية وجعل منها محمية إنجليزية، وأفقدوا الإمارات الإسلامية استقلالها وجعلوها أدوات طيِّعة بأيديهم.

وقام الإنجليز بتنصير الوثنيين وبعض المسلمين، وعلموهم ومكّنوهم من سدة الحكم. وفطن المسلمون للمؤامرة فعلّموا أبناءهم وقاوموا الاستعمار الإنجليزي.

وسكان نيجيريا عموماً (حوالي ١١١ مليون نسمة) ويختلفون من حيث الدين والجنس واللغة والعادات. ويمثل المسلمون ٧٦٪ من السكان والنصارى ٢٠٪. والنيجيريون عدة قبائل هي:

١ - **اليوربا**: ويعيشون في الجنوب الغربي، وكانوا وثنيين، والمسلمون فيهم أكثر من النصف والباقي نصارى ووثنيون.

٢ - **الإيبو**: في الشرق وهم بالنسبة لليوربا متخلفون، وبدؤوا حديثاً بتنظيم القرى والهيئات الاجتماعية، وانتشرت فيهم النصرانية من طريق المنصِّرين، وأسلم لله الإيبو لكن لم يجدوا من يعلمهم الدين الصحيح سوى الصوفية من القادرية والتيجانية.

٣ - **الهوسا**: وأكثرهم في الشمال وهم ليسوا جنساً قائماً بذاته إنما هو اصطلاح لغوي يطلق على الشعوب التي تتكلم لغة الهوسا، كانوا وثنيين قبل أن يتحولوا إلى الإسلام على يد الفولانيين وهم عدة أمارات يحكمها ملك أو أمير يعاونه بعض الوزراء، وهم يعملون بالتجارة لكنهم متأخرون وتنتشر بينهم الصوفية التي ترى إبقاء التصوف سائداً بينهم لتضمن انقيادهم لها.

٤ – الكانوري: في الشمال الشرقي وهي قبائل متمسكة بدينها، ولها طلاب يدرسون في الأزهر، وهم خليط من العرب والحاميين والزنوج، ومن أشهر قادتهم الداعية الإسلامي المعروف: (عثمان بن فودي).

٥ – الفولاني: وهم أصلاً من صعيد مصر وفدوا لتلك المناطق وحكموا مملكة (تكرور) ثم تغلب عليهم التوكلور. اتجهوا للشرق حيث يقيم الهوسا، وكانوا قبائل صغيرة وحّدها الشيخ عثمان بن فودي، وجعل منهم قوة محاربة تسيطر على منطقة واسعة.

أخطر الأحداث ضد المسلمين:

وأشهر الأحداث الدامية ضد المسلمين في نيجيريا يوم كان المسلمون يقودون الحكومة الاتحادية، فبدأت الإشاعات ضدهم؛ بأنهم زيفوا إحصاء ١٩٦٣م حيث سيطر الشماليون على البرلمان الاتحادي. وفي فجر ١٥ يناير ١٩٦٦م تحركت مجموعة عسكرية نحو منزل الشيخ (أحمد بيللو) بعد عزله القائد العسكري (جوشون ايرونسي) ووضعْ قائد مسلم بدلاً منه، فهوجم بيت الشيخ بالقنابل وانتزعوه من فراشه هو وزوجته وأطلقوا عليهما النار، وتركوا بيته طعمة للنيران. وفي لاجوس العاصمة خُطِفَ (الشيخ أبو بكر تفاوا بليوا) رئيس الوزراء الاتحادية، ووزير المالية النصراني (فستسوس أوكوني) المتهم بممالأة المسلمين وقتلوهما بعد أيام من الانقلاب الذي قام به (ايرونسي). وقابل النصارى الانقلاب في كل أنحاء العالم بالابتهاج والفرح. أما المسلمون فقد سادهم الصمت عدا (مظاهرة إسلامية ضخمة في السودان) لكن ايرونسي النصراني عوقب بانقلاب نصراني آخر قاده (يعقوب جودن) وهو من مسلمي الهوسا المتنصرين، وتوالت الانقلابات العسكرية؛ ومع أن بعضها قام به ضباط مسلمون إلا أنهم (علمانيون) لم يقيموا للإسلام وزناً.

لكن المسلمين بذلوا جهوداً في تنظيم صفوفهم وجمعياتهم ومدارسهم وجامعاتهم إلا أنهم أقل مستوى من النصارى، وتسود بينهم الطرق الصوفية المشار إليها آنفا[١].

ماذا حدث مؤخراً في نيجيريا؟

الدعوى التي قامت بها بعض الولايات المسلمة من تبني تطبيق الشريعة الإسلامية أثارت ردود فعل غاضبة من النصارى؛ فما أسباب هذه الأحداث؟

أولاً: هناك توجُّهٌ في الجزء الشمالي من نيجيريا نحو تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في حدود ما يسمح به الدستور على مستوى الولاية؛ حيث إن نيجيريا تعتبر دولة اتحادية؛ فهنالك قوانين اتحادية وأخرى ولائية. فحاولت بعض الولايات في حدود سلطانها تطبيق الأحكام الشرعية. وكانت البداية ولاية زمفرا وهي ولاية حديثة اقتطعت من ولاية سكتو حاضرة المملكة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان ابن فودي. وقطعت ولاية زمفرا شوطاً في ذلك. وهذه الخطوة شجعت المواطنين والمهتمين في ولايات كثيرة للمطالبة بالتأسي بزمفرا في تطبيق أحكام الشريعة. واستجابة لهذه الرغبة أعلنت بعض الولايات نيتها لتطبيقها، وبعضها كَوَّن لجاناً لدراسة الأمر ومن ضمنها ولاية كدونا. ومدينة كدونا تعتبر مدينة قديمة وعاصمة للشمال في عهد الإنجليز وحتى بعد الاستقلال، وهي من أهم المراكز التجارية والصناعية بعد كنو، وأكبر مركز عسكري وسياسي في الشمال، وبها المصفاة الرئيسة في البلاد.

وهنا ثارت حفيظة النصارى وكتبوا وصرحوا أنهم سيعملون على إسقاط مشاريع تطبيق الشريعة، وعندما شعروا أن هنالك خطوات كبيرة ربما تتخذ خططوا للتعبير عن معارضتهم، فكانت تلك الأحداث والمظاهرات التي نتج من جرائها تدخل الشرطة والجيش للحفاظ على الأمن الوطني العام.

ثانياً: وقائع حادثة كدونا وما تبعها من أحداث:

في يوم الأحد ١٦/١١/١٤٢٠هـ الموافق ٢٠/٢/٢٠٠٠م وكالعادة اجتمع النصارى في كنائسهم واستمعوا إلى مواعظ رؤسائهم وخططوا للخروج يوم الاثنين صباحاً ١٩/١١/١٤٢٠هـ الموافق ٢١/٢/٢٠٠٠م في مظاهرة سلمية ـ كما

(١) المصدر (مواطن الشعوب الإسلامية في إفريقيا (نيجيريا) للأستاذ محمود شاكر الحرستاني بتصرف.

يقولون - للاحتجاج على تطبيق الشريعة في الولاية. وبعد أن سلموا مذكراتهم لنائب حاكم ولاية كدونا وهو نصراني؛ حيث كان الحاكم خارج البلاد للعلاج وهو مسلم، خرجوا إلى السوق؛ وفي الطريق أخذ النصارى يضربون كل من لم يتجاوب معهم في مطالبهم وهي كالآتي:

١ - يطالب المسلم بقول: (DOWN TO SHA-RI'A - NO WAY TO SHARI'A) أي لا، للشريعة - لا سبيل لتطبيق الشريعة.

٢ - العبث من قبل المتظاهرين رجالاً ونساء بلحية من لقوا من المسلمين الملتحين، ثم يطالب بما يغيظه من الكلمات.

٣ - مطالبة المسلم بخلع القلنسوة التي تعتبر من علامات المسلم.

٤ - التغني بأناشيد النصارى، وترديد بعض كلماتهم مثل: ALLELUYA كلمة تقال عند تبجيل إلههم.

٥ - حمل أوراق الأشجار في اليد أو تعليقها على السيارة ليكون دليلاً على رضا من فعل ذلك بما هم يطالبون به وهو عدم تطبيق الشريعة. وإلا فإنه يتعرض لأنواع من العذاب.

هذا وغيره من أمور لا يرضى بها المسلم لنفسه مهما كان ضعيف الإيمان، وجزاء من يرفض شيئاً مما سبق ذكره ضربٌ حتى الموت، ومن فعله ينجو منهم سالماً.

وبالإضافة إلى هذا فإنهم كتبوا في ألواح يحملونها في أيديهم عبارات تدعو للفتنة مثل: RIP SHARIA IS DEAD IN KADUNA. JESUS ONLY أي ما معناه: ماتت الشريعة في كادونا، وقد تولى المسيح.

وقد واصل النصارى عملية الضرب والاستهزاء بالدين إلى أن وصل الأمر بهم إلى إحراق بيوت المسلمين وممتلكاتهم وكذا دكاكينهم ومتاجرهم، فكأنهم يريدون إجلاء المسلمين من المدينة حتى تخلو لهم وتصبح مدينة للنصارى وللنصارى فقط، حتى وصلوا إلى السوق، وبدؤوا في إحراق السوق وقتل المسلمين وإحراقهم وإحراق مساكنهم، واستخدموا السلاح الابيض والسلاح الناري بالإضافة إلى العصي وحرق الناس في البيوت بالبترول. وكانت لهم الغلبة في الفترة الأولى من الساعة العاشرة صباحاً تقريباً وحتى الظهر. ثم نظم المسلمون أنفسهم وأعادوا لهم الكرة وكانت الضربة قاسية واستمرت طوال ليلة الثلاثاء وكل يوم الثلاثاء - أي اليوم التالي - وكذلك جزءاً من ليلة الأربعاء. وفي يوم الاربعاء تم احتواء الوضع من قِبَلِ الجيش وقوات الشرطة إلا من أحداث متفرقة.

وكانت النتيجة عدداً كبيراً من القتلى قُدرت من قِبَل الحكومة بخمسمائة شخص. ولكن الذين شهدوا الاحداث يقولون بأن قتلى الأحداث قد يصل عددهم إلى اكثر من الفي شخص. وهذا غير الجرحى الذين يتلقون العلاج الآن في المستشفيات. كذلك فرَّ عدد كبير من الناس من كدونا إلى مدنهم الأصلية أو القرى المجاورة. وأما عن الخسائر المادية فكانت كبيرة جدا وبخاصة المنازل والأسواق والسيارات وبعض محطات الوقود والمساجد والكنائس.

وحسب تقييم كثير ممن نثق فيهم ممن شهدوا الأحداث ان المسلمين قد كسبوا الجولة رغم الخسائر التي تكبدوها في الممتلكات، ورغم انهم كانوا على غير استعداد عندما غدر بهم النصارى.

ثم تبع ذلك أحداث انتقام من المسلمين في مناطق الإيبو نتيجة ما رأوا من جثث أقاربهم الذين تم نقلهم إليهم في الجنوب الشرقي وبالتحديد في مدينة أبا ووارى؛ حيث قُتل أعداد كبيرة من المسلمين وحرقت مساجدهم وممتلكاتهم. والمسلمون في تلك المناطق قلة. كذلك لم ينجُ النصارى ممن جذورهم من الشمال في تلك المناطق من القتل؛ حيث يعتقد الإيبو أنهم سبب هذه الفتنة ولذلك انتقموا منهم.

وما زالت الأوضاع متوترة في بعض المدن، وهنالك تحرشات وشائعات؛ ولذلك بدأ الإيبو في الرحيل من شمال نيجيريا وكذلك بعض النصارى من المناطق الشمالية.

وقد اسفرت الاحداث عن إحراق ممتلكات بعض الأغنياء المسلمين وذلك لدعمهم أعمال إسلامية مثل:

- تمويل برامج إسلامية في تلفزيون المدينة.

- تمويل مؤتمرات ولقاءات لدراسة الشريعة وبيان أهميتها وتطبيقها.

- تمويل مسابقات القرآن الكريم مع تكلفة عرضها في التلفاز.

- الجهات المهتمة بنشر أشرطة إسلامية.

وقد خطط النصارى للهجوم على ممتلكات كل من يقوم بأحد تلك الأنشطة؛ وفعلاً نجحوا في إحراقها مثل:

● شركة بيع الأجهزة الإلكترونية للحاج/ سليمان، وقد قدرت خسارته بـ ٢,٢ مليون دولار أمريكي.

● دابو لبيع السيارات لصاحبها الحاج/ دابو شنشنغي، وقد قدر خسارته بـ ٢ مليون دولار أمريكي.

● شركة بكي لبيع السيارات، وقدر مديرها العام الحاج/ عبد الرحمن خسارته بـ ٧٤٠,٠٠٠ دولار أمريكي.

● شركة إكارا لبيع السيارات لصاحبها الحاج/ محمد أحمد، وقد قدر خسارته بـ ٧٣٠,٠٠٠ دولار أمريكي.

وقد أحرق دكان إحدى السيدات وهي مسلمة، وذنبها أنها في كل يوم جمعة توفر الماء للذاهبين إلى المسجد لصلاة الجمعة أمام دكانها.

ثالثاً: نظرة عامة الناس إلى الحادثة وسببها الحقيقي:

من خلال المقابلات وما نشر في الجرائد والمجلات يمكن تحديد الأسباب التي أدت إلى الأحداث في النقاط الآتية كما جاء في استطلاعات تلك الصحف والمجلات:

١ - أسباب دينية:

يرى النصارى أنه إذا طبقت الشريعة ونجحت في إصلاح ما عجزت القوانين الوضعية عنه أن تكون للإسلام قوة ويؤدي ذلك إلى دخول غير المسلمين في الإسلام، ويقطع طريق تنصير المسلمين، ولذا لا بد من إيقاف تطبيقها حتى لو كان بالعنف والقتل، وقد قاموا بمحاولات عديدة لتتدخل الحكومة الفيدرالية وتمنع الولايات التي يطالب سكانها حكامهم بتطبيق الشريعة من تطبيق ما أجازه دستور البلد، ولَمَّا أخفقوا في ذلك رأوا أن الطريق الوحيد لتتدخل الحكومة هي إحداث بلبلة تؤدي إلى زعزعة الأمن وتوتره.

٢ - مصالح تجارية لمنفعة شخصية:

الذين يتاجرون بالبيوع المحرمة مثل الخمور وأصحاب بيوت الدعارة عرفوا أنه إذا طبقت الشريعة تكون نهاية بيوعهم المحرمة، ولذا رأوا أن إيقاف تطبيق الشريعة هو الطريق الوحيد للدفاع عن مصالحهم التجارية، وشجعوا إخوانهم النصارى على تنظيم المظاهرة، كما دعموها بكل ما أعطوا.

٣ - أسباب سياسية:

لا تزال بعض القبائل وخاصة قبيلة إيبو تفكر في الانفصال، وهي دائماً ترصد أحداث تتخذها حجة للقيام بتنفيذ أهدافها، وهناك أدلة واضحة ومنقولة في الجرائد والمجلات تثبت ذلك.

٤ - وأضاف بعض الناس أن البطالة ساعدت في توسيع رقعة الفتنة حيث تنظر الفئة نفسها أنها ضائعة في المجتمع.

رابعاً: موقف المسلمين من تطبيق الشريعة بعد الحادثة:

من خلال مقابلات أجريناها مع بعض الشخصيات والرأي العام للمسلمين اتضح أن موقف المسلمين لم يتزعزع في المطالبة بتطبيق الشريعة، بل زادتهم الحادثة شدة في المطالبة، ووجدت الحكومة نفسها في حيرة من أمرها؛ إذ لو حاولت منع المسلمين وخاصة في ولايات أغلبية سكانها مسلمون - فسوف يتهمها المسلمون أنها وقفت مع النصارى ضدهم، وكذا أي محاولة لإلغاء الفقرة التي أجازت تطبيق الشريعة من الدستور يقابلها المسلمون بالرفض.

ولهذا يرى كثير من الناس أن المسلمين سيحققون - بمشيئة الله - نجاحاً في تطبيق أجزاء كبيرة من القضايا الشرعية وإن لم يكن ١٠٠٪.

ويرى آخرون أنه لا بد قبل التطبيق من دراسة الموضوع دراسة دقيقة ومنظمة ثم الإكثار من توعية العوام.



براعم الشيشان

أوراق انتخابية

د. سامي محمد صالح الدلال

لأول مرة في التاريخ الغابر والحاضر تتقرر نتيجة الفوز بالرئاسة ليس بعدد أصوات الناخبين، بل بعدد الجماجم التي أُزهقت أرواح أصحابها.

منذ أن عين يلتسين بوتين قائماً بالأعمال، شرع هذا الأخير يخطط لدعايته الانتخابية ليفوز بكرسي الرئاسة في انتخابات ٢٦ مارس ٢٠٠٠م.

وقد وضع خطة دعائية جهنمية، هي «الإبادة الشاملة للشيشان» ثم راح يضع عناصر تنفيذها بكل ما أوتي من عزم ذاتي وقوة عسكرية روسية عاتية. ولم يكن أحد في العالم يعلم حقيقة تلك العناصر حتى تجلت وتجسدت في الواقع، فإذا هي تتكون من عدة ورقات وفق ما يلي:

١ - الورقة الأولى: جمع شتات مشاعر الشعب الروسي حول القضية التي يريد إشعالها لتكون وقود انتخابات الرئاسة. وقرر أن تكون القضية المطروحة هي تهديد الشيشان لأمن روسيا الداخلي والخارجي.

ولتحقيق ذلك لغمت المخابرات الروسية عدداً من الأبنية السكنية في داخل موسكو بالعبوات الناسفة شديدة الانفجار وعظيمة القدرة التدميرية، ثم فجرت تلك الأبنية على قاطنيها الأبرياء من الروس فأحالتها ركاماً في الحال مما أدى إلى قتل معظم سكانها تحت الأنقاض ولم ينج من تلك المجازر المخابراتية إلا بضعة من الجرحى.

وما أن وقعت تلك الانفجارات الضخمة حتى راح الإعلام الروسي يُحَمِّل الشيشان مسؤولية ذلك بكل ما أوتي من قوة ووسائل عبر الصحافة والإذاعات والتلفزيون وعلى مدى أسابيع مع ضخ يومي للعبارات التي تؤجج مشاعر الكراهية والحقد والغضب على الشعب الشيشاني.

كل ذلك لأجل تمهيد المسرح لبدء الغزو الروسي الهمجي الوحشي لأراضي جمهورية الشيشان المسلمة الموادعة. فكانت هذه الأحداث الإجرامية هي أول ورقة انتخابية طرحها بوتين في الساحة الروسية الديمقراطية!!

٢ - الورقة الثانية: في حملة بوتين الانتخابية كانت قرار إزالة دولة الشيشان من الوجود، وليس مجرد تدمير بنيتها التحتية. فأصدر أوامره

العسكرية لجحافله الجرارة لتحقيق تلك الغاية.

فتحركت تلك الجحافل المكونة من الدبابات والمدفعية والطائرات والصواريخ الشاملة للقوات البرية والجوية والبحرية، من المشاة والمظليين وقوات الصاعقة وقوات العمليات الخاصة والقوات البحرية، وقد تزودت بجميع أنواع أسلحة التدمير والتقتيل والإحراق والإزالة والغازات السامة وأسلحة الدمار الشامل كالأسلحة الكيميائية والنووية التكتيكية، مع حقن نفوس جميع الأفراد العسكريين المشاركين في تلك الحملة الشيطانية الإبليسية بالحقد والكراهية الشديدتين لكل ما له متعلِّق بمسمى الشيشان، نعم! تحركت تلك الجحافل لتزيح الستار عن الورقة الانتخابية الثانية لبوتين، وذلك في ظل مهرجان إعلامي هائج قرعت له جميع طبول الحرب الإعلامية، وعزفت له جميع أوتار الكذب والدجل الصحفية والإذاعية والتلفزيونية في ظل من الصخب الدعائي الذي يدعي أهمية وحدة الأراضي الروسية وتماسكها من خلال إبقاء الشعوب الإسلامية المضطهدة بالاستعمار الروسي تحت نير كيان الستار الحديدي الذي أعاد الروس صبغ لونه بغير اللون الأحمر مع إبقاء حقيقته الجوهرية.

وهكذا اندفع الموت المدجج بغية بسط سلطانه الأسود على الربوع الخضراء للأراضي الشيشانية.

٣ - ومع تسارع عقارب الزمن متجهة صوب يوم الانتخابات تسارع اصطفاف الورقة الانتخابية الثالثة فإذا هي تشكل الجمل الآتية:

أ - إزالة مدن شيشانية كاملة من الوجود بما فيها غروزني التي سويت بالأرض تماماً.

ب - تشريد الشعب الشيشاني إلى خارج أرضه ودياره في جو من الخوف والفزع والهلع تلسعه برودة الشتاء الثلجي القارس والقاسي، ويعشش الجوع الشديد في بطون أبنائه.

وقد دب فيهم الوهن والضعف وهجمت عليهم الأمراض، يحملون جرحاهم، ولا يجدون مكاناً يدفنون فيه موتاهم، ولا أحد يكسو عاريهم أو يدفِّئ أبدانهم أو يطعم جائعهم أو يداوي مرضاهم أو يعالج جرحاهم، يسيرون في مواكب الموت تلاحقهم الطائرات الروسية بصواريخها فتنثر أشلاءهم فوق الثلوج، وتدكهم المدفعية الثقيلة فتتطاير أحشاؤهم في كل اتجاه، وتقصفهم الدبابات المدمرة فتقطع الرؤوس عن الأجساد، وتبتر الأطراف وتقذفها في كل واد!

هكذا اندفعت الجموع العزل من المدنيين الشيشانيين نحو حدود جمهورية الأنغوش يتجسد فيها ذلك المشهد المأساوي الذي تتقاصر أجزل الكلمات وأمضى العبارات عن وصف صوره ووقائعه.

ج - الإجهاز على كل من بقي في المدن وتشبث بما بقي فيها من طوب متناثر أو أنقاض مبعثرة.

وقد شمل هذا الإجهاز النساء والأطفال والمسنين والرجال العزل الذين لم يقاتلوا أو اختاروا الصمود في ديارهم. فأما النساء فقد اغتصبوهن ثم قتلوهن، وأما الأطفال والمسنون والرجال فذبحوهم أو مثَّلوا بهم أو أحرقوهم أو أسروهم. ويا ويل هؤلاء الذين وقعوا في الأسر! فإنهم فعلوا بهم الأفاعيل التي يعجز القلم عن وصفها وتنوء الكتب عن حمل أثقال أوزارها.

إن الورقة الانتخابية الثالثة لبوتين تضمنت مشاهد إجرامية ليس لها مثيل في تاريخ البشرية؛ فقد نشرت جريدة «سبعة أيام» الجورجية في عددها الصادر برقم ٤٧ في ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩م تقريراً ميدانياً من الشيشان بلسان صحفية جورجية يرافقها صحفي ألماني، وقد جاء في التقرير - باختصار -: «تعتبر قرية قالمي أقرب

> لم يصل بوتين للرئاسة بعدد أوراق الناخبين وإنما بعدد جماجم الشيشانيين؛ فأين منظمات حقوق الإنسان من تجريمه وحكومته والدعوة لمحاكمتهم أسوة بمجرمي الحروب؟!!

إلى جورجيا. وتبدو حولها السيارات المحترقة من جميع الجهات، يلفها صمت رهيب، باستثناء طائرة روسية تبحث عن هدف آخر. القرية كلها دمرت بالكامل. وتلي هذه القرية قرية أخرى نصف مدمرة. والباقون من سكانها على قيد الحياة هم الذين لم يستطيعوا الخروج. قادونا أولاً إلى منزل سُوِّي بالأرض؛ ثم روضة أطفال، لم يبق منها سوى المدخل الذي كُتب عليه تحية من الأطفال: «نحن نرحب بكم وننتظركم بقلوبنا وأرواحنا» حيث ذهب بقية الأطفال حرقاً داخل الروضة التي دمرتها طائرات روسية. وفي اليوم الثاني عندما كان أقرباؤهم يوارونهم التراب قامت المروحيات الروسية بالتحليق فوقهم. وكل ذلك يجري بجوار القرية، وبجانبها حافلة مليئة باللاجئين. تبدو لنا وجوه الأطفال وهم خائفون مرعوبون. وفجأة بدأ القصف على الحافلة بالصواريخ الحارقة. وكان المحرك وخزان الوقود هما الهدف الأول بالنسبة لهم. ثم شعرنا بقوة الانفجار والارتجاج والحافلة تحترق، ولم يستطع أحد من الركاب الخروج، فاحترق كل من فيها من الأطفال والنساء. وفي إحدى القرى قرب غروزني عُذِّب أحد السكان حتى الموت، حين قام جنود فيلق روسي كامل بإطفاء سجائرهم على جسمه العاري وأجبروه على المشي على الثلج حافي القدمين، وأمام عينيه قام الجنود الروس باغتصاب زوجته. ودون رحمة قام هؤلاء بتعذيب ثلاثة أفراد من عائلة شيشانية. وتحمل الثلاثة جميع أنواع وفنون التعذيب الروسي الإجرامي فأحدهم قتلوه رميا بالرصاص بعد تعذيبه، والآخر قطعوا قدميه، والثالث نزعوا كبده وهو حي، وقطعوا يديه حتى المرفق» انتهى التقرير.

هل سمع أحد من الخلق بورقة انتخابية أبشع وأفظع من هذه الورقة؟!!

٤ - وأما ورقة بوتين الانتخابية الرابعة فكانت مقاتلة المجاهدين الشيشانيين؛ فقد حشد عليهم أكثر من مائة ألف مسلح مدجج بأفتك الأسلحة، ظانا أنه سيسحق بهم أولئك المجاهدين في بضعة أيام؛ فإذا بها تزيد على ستة أشهر ولا يزال أُوارها متقدا ولهيبها مستعراً.

لقد لقن المجاهدون الجيش الروسي دروساً قاسية في المعارك القتالية، رغم أن هذا الجيش كان يتجنب أية مواجهة مباشرة؛ وذلك باللجوء إلى الاستخدام المكثف لسلاح الطيران والقصف المركز بالمدفعية والدبابات، ومع ذلك فقد تكبد أفدح الخسائر وامتلأت مستشفيات روسيا بالأعداد الهائلة من الجرحى، وانتعشت سوق تصنيع التوابيت في جميع أنحاء المدن الروسية وازدحمت بطون المقابر بالهلكى في المعارك وظهورها بالمشيعين والمفجوعين بفقد أبنائهم أو أزواجهم أو آبائهم.

لقد وعد بوتين شعبه بأنه سيقضي على هؤلاء المجاهدين قضاءاً مبرماً ويصفيهم تصفية جسدية شاملة، فخاب ظنه وما أوفى بوعده ولن يستطيع؛ فإن هذا الجهاد سيستمر - بإذن الله تعالى - وستكون من نتائجه ليس تحرير بلاد الشيشان واستقلالها فقط ولا استقلال جمهوريات القوقاز فقط. بل ستكون من نتائجه انهيار شامل للدولة

الروسية، وتمزق لوحدة شعبها. وسيأتيك نبؤهم بعد حين. قال - تعالى -: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

لم يتمكن بوتين من لعب هذه الورقة الانتخابية على الوجه الذي خططه لها؛ لأن كيد الشيطان كان ضعيفاً، ولعل هذه الورقة هي التي أوشكت أن تقوض وصوله إلى هدفه الذي أراده وهو: أن يتبوأ الرئاسة الروسية بإجماع شعبي، فإذا به لم يفز إلا بـ ٥٢٪ من الأصوات.

٥ - أما الورقة الانتخابية الخامسة التي استخدمها بوتين للوصول إلى الزعامة الروسية فكانت «الكذب» نعم، الكذب، حتى صار بالإمكان أن يطلق على وزارة الدفاع الروسية اسم وزارة الكذب الروسية.

لقد امتهنوا الكذب على شعبهم وعلى جميع العالم وذلك للتغطية على الجرائم القذرة والبشعة التي مارسها الجيش الروسي ضد الشعب الشيشاني الصامد المجاهد.

لقد وظفت وسائل الإعلام الروسية كلها لتقود حملة الكذب، على طريقة: اكذب اكذب حتى يصدقك الناس. وقد شملت حملة الكذب هذه عدة ميادين:

١ - فقد أصدروا بيانات كثيرة كاذبة يدَّعون فيها عدم ممارسة أي بطش وعنف ضد السكان المدنيين العزل من النساء والأطفال والشيوخ.

٢ - وأصدروا بيانات كثيرة كاذبة يخففون فيها من الخسائر الحقيقية في الرجال والعتاد.

٣ - وأصدروا بيانات كثيرة كاذبة يدَّعون فيها انتصارات وهمية على المجاهدين.

٤ - وأصدروا بيانات كثيرة كاذبة يردون فيها باستخدام أسلوب الكذب، على الذين فضحوا كذبهم من صحافيين ومراسلين أجانب.

لقد جعل بوتين الكذب ورقة هامة في حملته الانتخابية ليموه الحقائق على شعبه وشعوب العالم، وليدَّعي تحقيق انتصارات وهي في حقيقتها هزائم منكرة.

تلك هي أهم أوراق الحملة الانتخابية وأبرزها التي دفعت ببوتين إلى سدة الرئاسة الروسية.

لقد انفرد بوتين بين الأولين والآخرين في صياغة حملة انتخابية عبر مجازر وحشية وفظائع دموية ومقابر جماعية.

فإن كنت تعجب فاعجب من دولة تسنَّم زعيمها سدة الرئاسة من خلال تلك المواصفات السوداء؛ فهل ينتظر الشعب الروسي إلا الظلم والشنار من هذا الرئيس الذي سيحكمه بالحديد والنار؟

ولكن نقول له ولأمثاله ما قاله الله - تعالى - في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾. [الفجر: ٦ - ١٤].

وقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،



يرصدها: حسن قطامش

بابا.. اليهـــود!!

قـال بابا الفاتيكان أثناء زيـارته لـ «إسرائيل»: «أنا أشـعر أنني جـزء من العـائلة اليهـودية، جزء من الشـعب اليهودي، هذه قرابة موجودة عميقاً في نفسي» وصرح مصدر كبير في الفاتيكان واحد المقربين جداً للبابا ويوجد في حاشيته منذ سنوات طويلـة: إن البابا يشعر بانتماء إلى الشعب اليهودي منذ أمد بعيد، وأن زيارة البابا إلى الديار المقدسة عمقت لديه المشاعر تجاهكم ـ أي الشعب اليهودي ـ منذ أمد بعيد، ومنذ أن وصل البابا إلى القدس وهو يفكر بصلته الوثيقة مع الشعب اليهودي. صحيح أن البابا يوحنا بولس الثاني ترعرع في بيئة يهودية ولكن فهم تحديداً في هذه الأيام أن عليه أن يحب شعبكم مثلما يحب نفسه. لدينا إيمان مشترك بإله واحد، ونفس الأصل، ونفس الدم. المسيحي الحقيقي لا يمكنه إلا أن يحب شعب الله المختار.

وقال المعلق السـياسي في التلفزيون الإسـرائيلي «مائير كـوهين»: «إن زيارة البابا للقدس حـملت ثلاث محطات هامة: الأولى دينيـة عندما التقى في مـقر الحاخامـية الكبرى في «إسرائيـل» مع الحاخامين الأكبـرين اللذين يمثلان الديانة اليهودية، وهو بمثـابة اعتراف بالشعب اليهودي، والـثانية سياسية فـي لقائه مع رئيس الدولة وهو بمثابة اعتراف بدولة «إسرائيل»، والثـالثة ـ وهي الأهم ـ تمثلت في زيارة البابا لمؤسسة ذكرى ضـحايا النازية وطلبه بان يلتـقي مع سـتـة من النـاجين من جـرائم النازية، وهو مـا يرمـز إلى أن كل واحـد منهـم يمثل مليـون شـخص من الإسرائـيليين الذين تمت إبادتهم». ويجدر بالـذكر أن البابـا زار الأردن (٢٤) ساعة فـقط، و(١٢) ساعـة في أراضي السلطة الفلسطينية وخمسة أيام في «إسرائيل»!!

[السبيل الأردنية، العدد: (٣٢٧)]

شـــذوذ الشـــذاذ!!

صوّت الحـاخامات المنتمـون لأكبر تجمع يهـودي في الولايات المتحدة لصـالح الاعتراف بزواج الشواذ جنسياً. ووافق المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين التابع لحركة الإصلاح اليهودية على مباركة زواج الشواذ من الجنسين في طقوس دينية يهودية.

وقال رئيس المؤتمر الحاخام تشارلز كرولوف: إن من حق الشواذ الاعتراف بزواجهم واحترامهم.

إن المؤتمر اليهـودي ذهب بموافقته تـلك إلى مدى أبعد من أي حركـة دينية أخرى في الولايات المتـحدة في منح حقـوق للشواذ؛ فحتى صـدور هذا القرار كان الشواذ يضطرون لـلبحث عن حاخام يقبل تزويجهما بصـورة فردية. وكانت مراسم الزواج تتفاوت بين مباركة بسيطة وعرس كامل يشبه حفلات الأعراس التقليدية.

في عام ١٩٩٠م وافـقت الحركـة على تعيين حـاخامـات يهود من الشـواذ اعتـماداً على مـبدأ أن جـميع اليـهود متساوون في التدين بغض النظر عن توجهاتهم الجنسية.

[موقع هيئة الإذاعة البريطانية / بي. بي. سي اولاين ـ http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news]

إنما الأعمال بالنيات

أعلن الرئيس الإندونيسي عبد الرحمن وحيد أنه سيقترح على البرلمان إلغاء مرسوم ساري المفعول منذ أكثر من ثلاثة عقود ينص على حظر نشاط الأحزاب الشيوعية والترويج للفكر الشيوعي. وأشار إلى وجوب إنهاء هذه الفترة التي هضمت فيها حقوق الشيوعيين!! ويذكر أن أعضاء الحزب الشيوعي الإندونيسي والمتعاطفين معه لا يحق لهم الدخول في سلك الوظائف العامة، وكانت هوياتهم الشخصية تحمل شارة بهذا الخصوص. وفرض رئيس أندونيسيا السابق سوهارتو الحظر على الحزب الشيوعي الإندونيسي في البلاد عام ١٩٦٦م. ووقتها قتلت قواته حوالي ٥٠٠ ألف من أنصار الحزب الشيوعي البالغ عدد أعضائه في ذلك الوقت حوالي ٢٠ مليوناً من الإندونيسيين. كما زج بقرابة ٦٠٠ ألف آخرين في السجون. [جريدة الشرق الأوسط، العدد (٧٧٩١)]

الحرب المقدسة!

الإندونيسي «أجوى واتيمينا» الذي يحمل إنجيله في جيبه ويمسك سبحته في يده المختومة بشارة الصليب يشن حرباً مقدسة انتقاماً لإخوانه النصارى، وهو موظف عمره ٥٣ عاماً برع في صنع القنابل المصنوعة من السماد، ويزعم بأن تحت إمرته أكثر من ٦٠ ألف جندي يهبون أنفسهم لله. ومضى شاب من اتباعه يرتدي سترة رياضية حمراء يقول بتفاخر: «لقد قتلت في غضون عام واحد نحو عشرة من المسلمين». أما «باولوى» والد «أجوى» الذي يبلغ من العمر ٧٣ عاماً فقد أظهر لنا ثلاث قطع من البنادق التي لم يتم العثور عليها من قِبَل الجيش الإندونيسي. كما كشف لنا عن أثر صرح يرجع تاريخه إلى معركة «سيلو» وهو المعبد البروتستنتي الرئيس في المدينة والذي تم دكه يوم الثاني عشر من ديسمبر الماضي. كما أعرب مضيفاً قوله: إنه مستعد للموت في سبيل الله وفي مواصلة هجماته ضد القرى التي يقطنها المسلمون برغم انتشار الجيش فيها. [صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية «مترجم»]

خوف أم تخاذل؟

١ - اعتبر وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي أمس أن العلاقات بين موسكو وطهران «قوية ودائمة» مشيراً إلى أن الوضع في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى يعتمد على تطور هذه العلاقات.

وقال: إن سلطات بلاده تريد إبقاء الاتصالات مستمرة مع روسيا وعلاقات مستقرة ودائمة. وأضاف: ان روسيا وإيران لعبتا دوراً مهما في ضمان السلام والأمن في المنطقة الكبرى التي تضم أيضاً آسيا الوسطى والشرق الأوسط. فالوضع في هذه المنطقة يعتمد في عدد من الجوانب على علاقتنا. ووصف خرازي الرئيس الروسي الجديد فلاديمير بوتين بأنه «رجل حازم، يتمتع بشعبية كبيرة». وأعرب عن ثقته في أنه «سيتمكن من تحقيق نجاح في كل مشاريعه». وجدير بالذكر أن إيران الآن هي الرئيس لمنظمة المؤتمر الإسلامي!! [جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٧٩٦)]

٢ - في تعليقه على المهرجان الذي أقامته الحركة السلفية في الكويت لمساندة الشعب الشيشاني، قال الكاتب اليساري الكويتي عبد اللطيف الدعيج:

لن أعترض مثل ما قد يعترض الكثيرون باعتبار أن نقد السياسة الروسية قد يضر بمصالح الكويت الوطنية، وقد يحرض الروس على مزيد من المساندة العسكرية والسياسية لطاغية بغداد، لن أعترض لأن روسيا دولة عظمى ونحن الله يرحم.. أعترض لأننا في الكويت وطوال النضال العربي أو الأممي وحتى الإقليمي لم نحرق علماً لدولة ولم نستهتر يوماً برمز لشعب، بل كان اعتراضنا على ما نعترض عليه كان التعبير عن الشعور راقياً وكانت الرسالة حضارية. ما جرى في هذا المهرجان لم يكن محاولة للتذكير بما يتعرض له الشيشانيون، ولم يكن تسجيل موقف ضد العنف والعدوانية التي تلمَّسها البعض من الرئيس الروسي، ولكن كان عملاً فظاً بدائياً، وخروجاً واضحاً عن التقليد والعرف الكويتيين للذين طالما ادعى البعض حفظهما وصونهما. من تجمهر أعلن للشعب الروسي أن المطلوب رأس رئيسه وأن اختياره الحر «نعال وزبالة».

[جريدة القبس، العدد: (٩٦١٩)]

أشاوس الـ(C.I.A) !!

خصصت السلطة الفلسطينيـة عشرات الدونمات من الأراضي في الضاحية الشماليـة لمدينة أريحا من أجل إقامة مبنى المدرسة الخاصة التابعة لدائرة المخابرات الفلسطينية المقرر البدء في إنشائها قريباً.

ويهدف إنشـاء المدرسة إلى عقـد الدورات والتدريبات لرجـال المخابرات الفلسطينيـة وذلك باستخـدام الأساليب العلميـة والأجهزة الحديثـة، وسيتم إقـامة قاعدة خـاصة ملحقة بمبنى المـدرسة لإجراء التدريبـات وإسكان عناصر الجهاز. وحسب التقديرات الأولية فإن تكاليف هذا المشروع ستصل إلى نحو أربعة ملايين دولار.

وفي هذا الإطار أيضاً قررت السلطة الفلسطينية بناء مقر جديد للمخابرات العامة الفلسطينيه في مدينة رام الله في الضفة الغربية، وسيقام المبنى الجديد فوق قطعة أرض تصل مساحتها إلى حوالي خمسين دونماً.

وسيـتولى الإشـراف على بناء المدرسة ومقر قيـادة المخابرات مهندسـون أمريكيـون تابعون لوكـالة المخابرات المركزية الأمـريكية (C.I.A) التي ستـتولى تمويل مـشروع مبنى القـيادة والمدرسة في إطـار التعاون المشـترك بين الجهازين. ومن المعروف أن ضـبـاط الـ «سي. آي. إيه» يتولون تدريب عناصر وضباط المخـابرات الفلسطينية، حيث يقيم في مدينتي رام الله وغزة خمسة ضباط كبار يقومون بالإشراف على هذه التدريبات.

ويتلقى هؤلاء رواتب مـاليـة من قـيادتـهم في واشنطن إضـافة إلى رواتب تـصرف لهم من مـيـزانيـة السلطة الفلسطينية، ويتـراوح المبلغ الذي يحصل عليه ضـابط المخابرات الأمريكيـة من السلطة ما بين ١٠ ـ ١٥ ألف دولاراً وذلك حسب رتبته. من جهة أخرى، أكدت معلومات مصدرها شخصية أمنية فلسطينية، أن السلطة الفلسطينية قامت في الأسبـوع الأول من الشهـر الماضي بتكريم عدد من ضـباط المخـابرات المركزية الأمـريكية وذلك بمناسـبة انتـهاء مهامـهم الأمنية الخاصة في الضـفة الغربية وقطاع غـزة. وحسب المعلومات فإن حـفل التكريم الذي جرى في مكتب رئيس السلطة في غزة، قـد أذهل الضباط الأمريكيين أنفسهم؛ حيث قام رئـيـس السلطة بتقليدهم أوسمـة فلسطينية رفيعـة، بالإضافة إلى منحهم مكافـآت مالية كبيـرة وصلت إلى ٥٠ ألف دولار للضابط الواحد، وتم منحـهم شهادات تقديريـة موقعـة من قبَل رئيس السلطـة. وكان خمـسة ضـبـاط آخرون قـد وصلوا إلى مناطق السلطة الفلسطيـنية ليأخذوا مكان الضباط الذين أنهوا فترة إقامتهم في المدن الفلسطينية.

[السبيل الأردنيه، العدد : (٣٢٦)]

إلى دعـاة حقوق الإنسان!

تتعـرض أكثر مـن مليون امرأة وطفل للبيـع والشراء كل عـام من خـلال تجارة الرق المعـاصرة، وأصـبحت هذه التجـارة متسارعـة في النمو ومغـرية جداً إلى حد أنها باتت تـشكل ثالث أكبر المصادر المربـحة بالنسبة لعـصابات الجريمة المنظمة بعد الاتجار بالأسلحة والمخدرات.

ويوظف معظم ضـحايا هذه التجارة بعد شـرائهم أو بيعهم في أعمـال الدعارة أو لاستغـلالهم بالعمل في بعض المصانع ذات الأوضـاع الصحية الرديئـة والأجور المتدنية إلى أبعـد الحدود. أما الأطفال فـيتعرضون للبـيع والشراء لأجل تجارة «البـورنوغرافي» (الصور والأفلام الإباحـية) أو لاستئـصال أعضاء بشرية منهم بهدف بيعهـا للمرضى القادرين على دفع أسعارها.

وتبيع الجهـات المتخصصة في تجارة الرقـيق حوالي ٢٥٠ ألف امرأة وطفل من منطقة شرق آسـيا وحوالي ٢٠٠ ألف من روسيا سنوياً. وتأتي البقية من أمريكا اللاتينية بشكل رئيس. أمـا المناطق التي تشتري فهي عملياً محصورة في آسيا وأوروبا والولايات المتحدة.

وأوضحت «انيـتا بوتي» نائبة مديرة مـجلس الرئيس الأمريكي للتحـقيق في أوضاع النساء أن هـؤلاء الأخيرات «يتعـرضن للبيع والشراء ـ بكـل ما تحمله الكلمـتان من معـان مخيـفة ـ داخل أوروبا مقـابل ٢٠ ألف دولار. أما في جنوب آسيا فيتراوح الثمن من حوالي ٣ آلاف دولار إلى ٦ آلاف».

[جريدة الشرق الأوسط، العدد : (٧٧٩٤)]

تعليق على الأحداث

نهاية العالم.. أو نهايتكم

أوردت وكالات الأنباء أخبار القتل الجماعي في أوغندا، وكان مفادها أن زعيم إحدى الطوائف الدينية النصرانية في أوغندا، أمر أتباعه في نهاية العام الميلادي ١٩٩٩م أن يبيعوا ممتلكاتهم والاستعداد للذهاب للجنة، وأمرهم أن يُحضِروا أموالهم هذه له؛ ولَمَّا لم ينته العالم ـ كما زعم مع بداية العام ٢٠٠٠م ـ طالب أفرادُ هذه الطائفة زعماءَهم بإرجاع هذه الممتلكات، وبعد فترة كانت تلك المذبحة التي قيل عنها إنها انتحار جماعي؛ حيث قام القساوسة بتجميع أفراد الطائفة في أماكن عدة، وقاموا بشنقهم وخنقهم ودس السم لهم، ثم بعد ذلك قاموا بإضرام النار في الجميع، وهرب أولئك إلى أوروبا، وقد جاوز عدد القتلى الألف من بينهم أطفال، فإن كان قساوسة النصارى لم يرحموا أبناء ملتهم وتعاملوا معهم بهذه الوحشية بل لقد كانوا أتباع طائفتهم، فما بال حال حقدهم وحربهم على المسلمين؟

أول قطر (المنبر)!

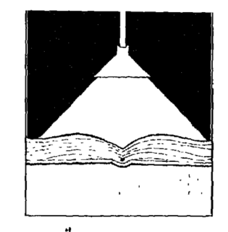
في إصدار جديد يحمل رقم «صفر» وهو العدد التجريبي الأول من مجلة «المنبر» وهي مجلة شيعية تصدر في الكويت جاء ما يلي:

«ربما تتعجب لو سمعت بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ أفضل من الأنبياء بل إن هذا الكلام يثير ثائرة البعض؛ فبدل أن يصغوا إلى أدلة هذا المعنى بصدور واسعة وأفكار متفتحة ليكتشفوا بذلك الحق، ينتهزون الفرصة لنشر الأكاذيب في وسائلهم الإعلامية وإشاعة الضوضاء والكلام الخالي من التعقل والاستدلال النابع عن العصبية وروح الانغلاق الشديد.

وأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قد جمع كل هذه الصفات: فكان له علم آدم وعزم نوح وحلم إبراهيم وهيبة موسى وزهد عيسى وكل من له أدنى درجات الإنصاف يعلم بأن الذي جمع أفضل صفات أولي العزم هو أفضل من الأنبياء كلهم إلا من ابن عمه رسول الله وخاتم الأنبياء ﷺ؛ فعلى المسلم التابع لرسول الله والمؤمن بالله وبكلامه أن يتبع هذا ويؤمن بهذه الحقيقة وإلا فسيشملهم قول نبينا ﷺ: «من شك فيه فقد كفر» والعياذ بالله من الكفر».

وكان ما سبق جزءاً من المقال الرئيس وموضوع غلافها الذي حمل عنوان: «كيف يكون علي «ع» أفضل من الأنبياء؟!» وفي مقال آخر تحت عنوان: (الإمامة أعلى الرتب والمقامات الإلهية)، يقول الكاتب في خاتمته: «ومن خلال هذه الشواهد يتضح لنا أن الإمامة مقام يختلف عن النبوة والرسالة، بل هي أسمى منها وأرفع، وأنه عليه السلام «علي بن أبي طالب» حصل عليها أيام شيخوخته، بعد أن خرج من جميع ما ابتلاه الله به صابراً مسلماً».

ومن المعلوم أن الأقلية الشيعية في الخليج كانت ملتزمة ـ إعلامياً ـ بعدم إثارة مثل هذه القضايا بهذه الصورة المستفزة. وإذا كان العدد التجريبي بدأ بهذه المثيرات المذهبية، فكيف بباقي نبرات أعداد المنبر؟!



حوار الأديان بين التطور والجمود

د. محمد يحيى

في محاولة تتبع الجوانب المختلفة للدعوة ودحض ما يروَّج له مما يسمى بحوار الأديان بين الإسلام والنصرانية على وجه التحديد لا ينبغي إغفال مسالة السياق العام أو الظروف والأوضاع التى تطرح هذه الدعوة في سياقها أو يراد لها أن تجري في ظلها، ولعل ابرز ما يشد الانتباه هو ذلك التفاوت الحاد بين السياق الذي تنشط فيه النصرانية بكنائسها هذه الأيام والسياق الذي يمر به الإسلام وهذا التفاوت الحاد في الظروف والسياق؛ حيث يكشف عن الجانب المريب أو على الأقل غير المتكافئ وغير المناسب لهذه الدعوة وهو ما سعيت إلى الكشف عنه من زوايا أخرى في مقالات سابقة حول الموضوع نفسه.

إن النصرانية العالمية بكنائسها وحركاتها ـ ولا سيما في أمريكا وأوروبا ـ تمر بحالة من المد تزداد قوة على مدى الأعوام الماضية؛ حيث أخذت تستعيد مكانتها الفاعلة والمؤثرة في المجتمعات على حساب تراجع أكبر في الأنظمة والمذاهب والتوجهات العلمانية التي تحكم تلك المجتمعات الغربية أو كانت تحكمها حتى عهد قريب، وتقترن بهذه القوة المتنامية في المجتمعات الغربية للنصرانية من حيث إنها دين وعاملُ فعلٍ اجتماعي ـ ثقافي ـ سياسي عمليةُ توسُّع كبرى وطرح للذات على مستوى العالم كله، ولم تعد هذه الحركة تقتصر على ما يسمى عادة في الكتابات الإسلامية بالتبشير أو التنصير على الأصح بل إنها تعدّت ذلك بكثير لتصبح النصرانية قوة دولية نشطة تسهم في شتى التحركات السياسية تحت شعارات أبرزها: «السعي للسلام والوفاق» والطروحات الثقافية (قضايا التعاون بين الثقافات والتقارب والحوار فيما بينها) بل والجهود الاقتصادية (تقديم معونات «التنمية» والخدمات الصحية والتعليمية على نطاق عالمي ... إلخ)، ولسنا بحاجة لضرب الأمثلة الكثيرة والمتواترة على هذا الوضع الجديد للنصرانية العالمية الذي نكتفي بتلخيصه بانه تحول من حالة انحسار وضعف داخلي إلى وضع القوة الدولية الفاعلة في مجالات تتجاوز ما اصطلح على وصفه بـ «الديني» لتصل إلى الأبعاد الكاملة لما يوصف بـ «السياسي» وهي قوة تزداد فاعليتها واثرها على سياسات بلدانها؛ بل تكاد توجهها.

ويرتبط بذلك وفي السياق نفسه بل ويترابط معه بشكل المسبب للسبب تصاعد موجة العداء للإسلام في الغرب وهو العداء الذي يحاول بعض اللادينيين في البلدان الإسلامية التهوين منه بالقول بانه مجرد رد فعل لممارسات المسلمين «الإرهابية» أو «الظلامية». كما يحاول بعضٌ آخر التقليل من خطره بالقول بانه مجرد بحث من جانب الغرب عن عدو جديد بعد زوال الشيوعية؛ غير أن شراسة هذا العداء واستمراريته واتخاذه لأشكال منظمة ومخططة واسعة المدى يدحض تلك الأقاويل بل الأباطيل، ويكشف عن ان الهجمة الغربية على الإسلام تاتي من مستويات أعمق من مجرد ردود الأفعال وأن هذا العداء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوضع القوي الذي أصبح للمسيحية بحركاتها وكنائسها في وضع الاستراتيجيات الكبرى في الغرب وإدارتها؛ دون أن ننسى بالطبع دور اليهود والصهيونية في صنع هذه العداوات

وتأجيجها وتوجيهها.

والحق أن دعوة الحوار تبدو غريبة بل مثيرة للشكوك عندما تأتي في هذا السياق الغربي من عداء منظم ضد الإسلام يشمل نطاق الفعل السياسي الغربي (من وسائل الإعلام إلى الجامعات ومراكز الأبحاث إلى مخططات المعونة الاقتصادية والفنية إلى النشاطات الثقافية والفكرية إلى الاستراتيجيات العسكرية والأمنية) وأيضاً من تنامي قوة النصرانية العالمية باعتبارها عنصراً فاعلاً وعلى امتداد نطاق الفعل نفسه في كل جوانبه على المسرح العالمي، وفي ظل هذا العداء المستحكم من ناحية والقوة الصاعدة الواثقة للنصرانية الدولية من ناحية أخرى فإن الدعوة إلى ما يسمى بـ (حوار الأديان) وبالذات مع الإسلام تبدو وكأنها ورقة سياسية ضاغطة تستخدم لتحقيق أهداف بعينها تخدم هذه القوى والسياسات الغربية أكثر منها دعوة صادقة أو واضحة للتقارب والتعاون حسب ما يُدعى لها علناً وفي وسائل الإعلام؛ ذلك لأن للسياسات الغربية والكنسية أولوياتها المحددة وثوابتها الكبرى واهتماماتها الأسمى في هذه المرحلة أولها «جدول أعمال» خاص بها على حسب مصطلح المؤتمرات.

ولا تمثل دعوة الحوار الديني أياً من هذه المبادئ والأولويات الجوهرية لكنها مجرد أداة من أدوات تحقيق هذه الأولويات السياسية تستخدم بقدر وبشكل مؤقت لتحقق ما يُبتغى منها ثم تُنَحَّى جانباً، وليس غريباً أو مما يستبعد أن نحدد أهداف هذه الأداة في نوع من التحذير للمسلمين أو لفت أنظارهم بعيداً عن المواجهة المطلوبة أو «التجسس» للتعرف على الكيفية التي يفكرون بها ويتصرفون من خلالها أو ـ وهذا هو الأهم ـ تعديل مواقفهم وأفكارهم وتحويرها لإبعادها أو إضعافها عن المواجهة مع الغرب الصليبي وحليفه اليهودي الصهيوني وذلك عن طريق العلمنة قبل أي شيء آخر.

وتزداد الشكوك المحيطة بدعوة حوار الأديان بين النصرانية والإسلام إذا تبينا السياق الذي تُروَّج فيه هذه الدعوة على الجانب الإسلامي وهو سياق مقلق على أقل تقدير، ومرة أخرى لسنا بحاجة إلى اجترار المفردات الأليمة لذلك السياق الذي يعيش فيه الإسلام والمسلمون داخل بلدانهم؛ ولكن يكفي أن نلخصه في عملية اجتياح وضرب للمؤسسات الإسلامية والحركات الدينية والأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسكانية (تحت ستار تحديد النسل) إلى عملية الإبادة الفعلية أو «المذابح» الموجهة للمسلمين التي لم تعد تلفت الأنظار لكثرتها، وهذه العملية تحدث بدرجات وأشكال متفاوتة في شدتها وكيفيتها على امتداد عالم الإسلام، وتقودها نخب علمانية لا دينية حاكمة أو صاحبة نفوذ قوي على الحكام وصلت بفضل المساندة الغربية القديمة والمتجددة إلى مقاعد الحكم والتوجيه وصنع القرار في هيئة دكتاتوريات عسكرية وبوليسية أو حتى حكومات «ديمقراطية ليبرالية». والحجج والمسوِّغات والأسباب التي تساق لهذا الاجتياح معروفة هي الأخرى لفرط تكرارها، وهي تتراوح بين التحديث والعصرنة إلى مكافحة التطرف والإرهاب «الإسلامي»!

وفي هذا السياق الخطير رأينا العجب: رؤساء الوزارات والهيئات التي أنيطت بها السيطرة على شؤون الإسلام يُعيَّنون من العلمانيين الأقحاح ذوي العقليات المتغربة؛ بينما المساجد تغلق، والعلماء يُنَحَّوْن عن المنابر ويسجنون، والجمعيات والهيئات الإسلامية تحاصَر، وأعمال البر والتقوى تحظر.. إلخ.

ويتشابه السياق الإسلامي الذي تطرح فيه دعوة الحوار الديني مع السياق الغربي أو المسيحي للدعوة من زاويتيه بشكل مذهل. ففيه أيضاً تتحول النصرانية أو الكنائس المحلية للأقليات النصرانية إلى عناصر قوة تتكامل مع قوة المسيحية الدولية، وفيه كذلك يسود مناخ العداء المرضي ضد الإسلام في وسائل الإعلام ودوائر الحكم والسلطة العلمانية وفيه أخيراً يبرز نفوذ اليهودية الصهيونية من وراء ستار الماسونية وأندية الروتاري والليونز والإباحية في الفنون وما شابهها.

الإسلام والمسلمون هم العنصر الغائب والمضروب في السياقين المسيحي ـ الغربي و «الإسلامي» لدعوة الحوار الديني؛ وكان أعداء الإسلام وخصومه في النهاية هم الذين يتحاورون مع بعضهم بعد أن قسَّموا أنفسهم إلى فريقين: أحدهما مسيحي أصيل واثق من نفسه حر مستقل يتمتع بالمستوى المطلوب من الكفاءة الفكرية والسياسية والحوارية والآخر «الإسلامي» يمثله موظفون يأتمرون بأمر النخب العلمانية الحاكمة ولا يتمتعون بأي حرية أو استقلال أو كفاءة أو غيرة على الإسلام.

سياق دعوة الحوار الديني إذن أو الظروف والأوضاع التي تجري فيها أو يراد لها أن تجري فيها يبعث على التأمل بل يثير الشك والريب. وهو سياق يبلغ فيه التفاوت الحاد والتناقض البين حد إلغاء فكرة الحوار بين طرفين متكافئين من أساسها لتحل محلها حقيقة أن النصرانية العالمية في وضعها المسيطر تخترع مع الاستراتيجية الغربية المعادية للإسلام خدمة لهيمنتها أداة أسموها بالحوار يبتغون فيها تحقيق أهدافهم الخاصة وحدها و «يحاورون» فيها طرفاً أسموه بـ «الإسلامي» وما هو في الحقيقة بممثل للإسلام؛ لأن الإسلام وممثليه الحقيقيين غائبون ومغيبون ويعانون من سياق مضاد من الضعف والضغط والهجوم يكاد يلغيهم من الوجود.

حوار الأديان مرة أخرى:

لا تفتأ الدعوة إلى ما يسمى بحوار الأديان بين الإسلام والنصرانية، تتكرر من مصادر عديدة أكثرها هذه الأيام: بعض ممن يسمون بالشخصيات الدينية الرسمية في بلدان تخضع فيها المؤسسات الإسلامية للتوجيه المباشر من الجهات السياسية بل والأمنية، وقد كتب صاحب هذا القلم في الماضي على صفحات هذه المجلة حول جوانب من هذه الدعوة التي تحتمل مع ذلك المزيد من التناول لتشعُّب نواحيها، ولعل أحد أبرز هذه الجوانب هو تصور الأطراف لأهداف هذا الحوار ومراميه الذي يقصد به عادة الإسلامي - النصراني رغم وجود مذاهب ومعتقدات أخرى يعتنقها الملايين وتتصل بهم مصالح وحياة الكثير من المسلمين ولا سيما في بلدان آسيا، والواقع أن اقتصار دعوة الحوار الديني على الحديث مع الكنائس المسيحية - وبالذات الغربية منها - يكشف عن جوهر الدعوة ومقصدها الأول ألا وهو التقرب للغرب والانضواء تحت لوائه وتكريس التبعية له. ويجلِّي هذا المقصد أن نعود إلى مسألة تصور هذا الحوار والداعين إليه وأهداف الداخلين فيه.

على الجانب الإسلامي نلاحظ أول ما نلاحظ غيبة مثل هذا التصور الواضح؛ فدعاة الحوار من الموظفين الرسميين المكلفين بذلك يكتفون بالحديث عن الحوار مع النصرانية وتحبيذه وكأنه هو الخير الأسمى للمسلمين في هذا العصر، وهم لا يوضِّحون لنا لماذا يعد هذا الحوار أمراً جيداً ومرغوباً فيه؟ كما لو كان مجرد طرح كلمة «الحوار» يغني عن أي بيان لطبيعة هذا الحوار وسياقه وأهدافه ومضمونه. والأخطر من ذلك الغموض المحير؛ إذ إن بعض هؤلاء عندما يفكر في اختراع تصور للحوار يخرج علينا بمفاهيم سقيمة ومتردية؛ ففي الآونة الأخيرة خرج بعض من هؤلاء في مصر يقولون: إن الحوار مع النصرانية الغربية مطلوب لتحسين صورة الإسلام في عين الغرب بعد أن شوهتها ممارسات المسلمين الموصوفين بالأصولية (وليس كيد الإعلام الغربي)! وهكذا فتصور هؤلاء المسؤولين أو الرموز الإسلامية المعنية عن هذا الحوار الذي يطنطنون به هو تصور دفاعي اعتذاري تسويغي وكأنهم منذ البداية يحددون صورة الحوار في هيئة المواجهة بين الادعاء والمتهم وبين جهة الاتهام واللص المقبوض عليه متلبساً؛ فالكنائس وقساوستها تجلس من ناحية تطرح التهم والشبهات ويجلس «ممثلو» الإسلام من الناحية الأخرى (وهم ليسوا في الواقع ممثليه الحقيقيين أو الغيورين) جلسة المحرَج والمعتذر الذي يحاول أن يرد على هذه الاتهامات بأي شكل حتى لو تعسف في ذلك إلى درجة التنازل عن ثوابت العقيدة والشريعة الإسلامية.

ومثل هذا التصور «للحوار» ينسف فكرة الحوار ذاتها منذ البداية ويلغي أي نِدِّيَّة وتكافؤ وتوازن بين الأطراف الداخلة فيه، فليس بين وكيل النيابة والمتهم حوار بل هناك استجواب ومساءلة بغرض الإيقاع بالمتهم والحصول على اعترافه بارتكاب الجرم، ولا يهم بعد ذلك إن قدم الأعذار والتسويغات لجريمته، بل المهم أن يدان. بينما يجلس المدعي (الطرف النصراني) مجلس المتفوق وهو المكان الذي ينبغي أن يتبوَّأه الضحية الذي عانى من إجرام الطرف المواجه وتعصبه وعدوانيته، بل ليس هذا حواراً وإنما هو أشبه بالتأنيب والتلقين من جانب الأستاذ للتلميذ الخائب الفاشل.

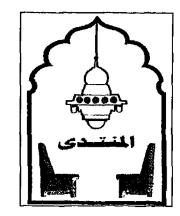
وفي كل الأحوال - وبصرف النظر عن التشبيهات والكنايات - فإن العلاقة التي تنشأ وفق تصور هذا «الطرف الإسلامي» المزعوم نفسه ليست علاقة «حوار» بين أنداد متكافئين بل هي علاقة خضوع واستسلام من طرف لآخر، وفي أحيان أخرى يلجأ هؤلاء الممثلون للطرف الإسلامي إلى طرح تصور بديل لهذا «الحوار» في محاولة لتغطية تخبط مفاهيمهم أو لحجب الطبيعة الحقيقية للعملية المطلوبة تحت مسمى الحوار؛ فهم يدَّعون أن الحوار مع المسيحية مطلوب

في سبيل دعم السلام العالمي ودفع جهود التنمية وتحقيق الرخاء للشعوب... إلخ، وهذه كلها دعاوى سخيفة لا محل لها من الاعتبار؛ فالداخلون في الحوار هم هيئات وجهات دينية لا علاقة لها بالاقتصاد الدولي ولا بمجريات السياسة الدولية وإن كانت الكنائس تمثل أحد المؤثرات المهمة في صنع السياسات العالمية لبلدانها وللكتلة الغربية عموماً. ثم كيف يخدم السلام العالمي والتنمية الدولية إذا كانت الكنائس تنغمس في عمليات التنصير الواسعة حتى بين المسلمين وحتى وهم يجلسون على مقاعد الحوار المزعوم، بل وما هو دور ممثلي الطرف الإسلامي في السلام والتنمية العالمية والكل يعلم (وهم قد يصرحون بذلك في مناسبات) بأنهم مجرد موظفين تابعين لدولهم وليس لهم صلاحيات أوسع من مجرد الحديث باسم رؤسائهم ووفق التكليفات المحددة والمحدودة التي تصدر لهم؟

التصور عن الحوار إذن غير موجود على الجانب الإسلامي؛ بل والأسوأ من ذلك أنه قد يكون موجوداً ولكن في شكل متهافت وخطير؛ لأنه ينم عن حقيقة أن المطلوب ليس حواراً كما يفهم ويعرف ويمارسه الناس؛ بل شيء آخر هو أقرب إلى الإذعان لما يريده الطرف النصراني من هذه اللقاءات والتمشي مع أهداف هذا الطرف الآخر، وعلى الجانب المسيحي في المقابل نجد أهدافاً وتصورات واضحة ومحددة لما يريدونه من هذا «الحوار» وهم قد يتحدثون على سبيل المجاملة السطحية والعابرة عن خدعة المحبة والمودة والتفاهم بين أصحاب الدينين؛ لكنهم يأتون إلى اللقاءات بمجموعة من التصورات لا تخطئها عين المراقب، ولعل أبرز هذه التصورات هو الحصول من الجانب الذي يفترض أنه يمثل الإسلام على اعتراف وتقبُّل بصحة ما تمثله الكنائس من عقائد ودعاوى، وندِّيته وتميُّزه، وهو اعتراف ثمين للغاية في إطار سياسات الكنائس وأوضاعها داخل بلدانها وخارجها، فهو من ناحية ورقة مهمة للغاية تطرح أمام جموع المسلمين في البلدان المستهدفة بالجهود التنصيرية؛ حيث يقال لهم: إن «مشايخ الإسلام» في بلاد القلب الإسلامي يجلسون مع أرباب الكنائس يتعاونون ويتباسطون و «يتقاربون» مع المفاهيم النصرانية ولذلك فلا حاجة للتوجس من جهود البعثات التبشيرية أو الابتعاد عن ممثليها؛ بل لا بد أيضاً من التواصل معهم وهو ما يفتح آفاقاً أوسع أمام العملية التنصيرية لا سيما في بلدان آسيا وإفريقيا.

ومن الناحية الأخرى - والأكثر أهمية - فإن الكنائس تستغل هذا الحوار لتعزيز مكانتها داخل بلدانها؛ حيث تخاطب الجمهور العريض ودوائر الحكم والنفوذ ورجال الأعمال والثراء بأنها تقوم بدور خطير في التعرف على «العدو الإسلامي المحتمل» وجس نبضه وكف عدوانيته وشراسته وتعديل مفاهيمه «الأصولية» مما يستدعي توجيه الدعم المادي والمعنوي لها واعتبارها من الأدوات الفعالة للسياسة الغربية عموماً تجاه العالم الإسلامي وهي السياسة التي أصبحت تركز الآن على عالم الإسلام واعتباره هدفاً رئيساً بعد انهيار الكتلة الشيوعية. ومن الناحية الثالثة تسعى الكنائس من خلال الحوار مع أطراف يدعى لها تمثيل الإسلام - كما أنها لا تتسم بأي عمق أو جدارة فكرية - إلى أن تتوصل وبواسطة طرح سيل من الاتهامات إلى تعديل وعلمنة وتغريب للكثير من المفاهيم والتصورات الإسلامية الشرعية تحت ستار التحديث والعصرية والاجتهاد الملائم للواقع وما شابه ذلك؛ حيث يتبارى «ممثلو الإسلام» في تقديم هذه «التنازلات» أو المواجهات في مجالات معروفة كالجهاد وأوضاع المرأة والأقليات غير المسلمة والتعامل مع الغرب والأخلاق والقيم ... إلخ، وذلك في سبيل السعي المحموم لنفي التهم التي يطرحها الطرف النصراني في الحوار ودحضها.

والخلاصة هي أن التصورات الموجودة حول الحوار الديني عند الطرفين الإسلامي والنصراني (وبصرف النظر عن الجوانب الأخرى لهذا الحوار مثل مصداقية ممثلي الأطراف أو السياق الذي يجري فيه أو الأهداف المتحققة لكل طرف) لا تبعث على الثقة؛ بل تثير أشد المخاوف؛ لأنها لا تدل على «حوار» يجري بين أنداد متكافئين يملكون رؤية واضحة حول ما يريدون؛ بل تشير إلى أن طرفاً واحداً فقط هو الذي يمتلك مثل هذه الرؤية الواضحة والهدف المحدد بينما يضطر الطرف الآخر بسبب افتقاده إليها إلى مجاراة الجانب النصراني مجاراة ذليلة تابعة يدور في فلك أهداف الآخر ونواياه ويضر بمصالح الإسلام وأوضاعه من خلال تمييع مفاهيمه وعقيدته وإضعاف هويته وتميزه وتحويله إلى تابع يسير وراء النظام الغربي العالمي الجديد كما سارت الدول والأنظمة والسياسات.



[illegible]

راشد بن عبد الله العدوان

نقرأ هذه الأيام في بعض المجلات (المرتزقة) بعض الكتابات من تسطير أصحاب الأقلام المسمومة حول قضية المرأة، وكيف أن الرجال سلبوها حقها، وأن الحجاب الشرعي ـ بزعمهم ـ ما هو إلا تقاليد وعادات دخيلة ورثناها إبان عصر الغفلة والجهل، وأن ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ما هو إلا حبسٌ لها، وإحكام الخناق على حقوقها المسلوبة التي لا تتأتى إلا بمشاركة المرأة للرجل ومخالطتها له في شتى شؤون الحياة.

ولا أدري: أأعجب من كلام هؤلاء الموتورين، أم أعجب من مدى جرأتهم وصفاقة وجوههم؛ حيث كشفوا عمّا تُكنُّ صدورهم، بدون أدنى حياء أو خجل؟

وأقول: إن هؤلاء الذين يَدَّعُون بأن للمرأة قضية، ويَدْعُون مطالبين ومزمرين ومطبلين بإخراج المرأة من مستقر حشمتها وعفافها، إنما يَدْعون لإحياء فتنة، ويحاولون جاهدين إحداث الانقسام في المجتمع بين الرجل والمرأة، وشغل أفراده بقضايا لا تفتأ أذهانهم تثيرها بين الحين والحين، ببريق لامع وغلاف يلفت النظر، في حين نجد العدو يتربص بالمسلمين الدوائر وواقعنا خير شاهد على هذا.

إن الرجل والمرأة حقيقةٌ واحدةٌ ربط الله بينهما بمودة ورحمة، لتثمر وتنبت التعاون على مسيرة الحياة كما شاء الله. يقول ـ جل شأنه ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وإثارة قضية المرأة إنما يأتي على الطريقة الغربية لخدمة الكثير من الأهداف المشبوهة في مجتمع المسلمين، فإذا كان الإسلام عند الغرب ومقلديه قد صار مبادئ عفا عليها الزمن بمرور القرون فعلى المسلمين أن يبحثوا لهم عما يعوضهم عنها من مبادئ العصر وأفكاره تُشكل نمط حياتهم، وتوجه مسارها، ومن ثَمّ فإن حاضرهم يجب أن يُفصَل عن ماضيهم، ومشكلات يومهم هي من ثمار أمسهم، وحلول الأمس لا تجدي نفعاً مع معطيات العصر، فيتحتم إذاً ولوج جُحْر الضب فتُدعى المرأة إلى الخروج والعمل، والاختلاط، والسفور، والانتقال بلا ضابط أو رقيب كالرجل؛ فهي نصف المجتمع، يجب ألا يموت، ويجب أن تُرفع الوصاية عنها! ويفسح لها المجال في كل اتجاه، وهكذا تدور الحلقة في شرقنا المسلم كما دارت في الغرب الصليبي، وترفع لها شعارات «حرية المرأة»، و«قضية المرأة»، و «التحديث»، ويتطرق الأمر إلى أن هناك موروثات يجب هدمها لإفساح الطريق أمام النهضة الحضارية المزعومة.

ونحن اليوم نتساءل: لماذا كانت هذه الدعاوى المحمومة في سبيل نهضة المرأة الحديثة؟ هل لتنهض بالأمة؟ هل لتسمو ببيتها وتعلو بأولادها وزوجها إلى مراقي السعادة، أم لكي تذوب المرأة المسلمة في خضم تقليدها للمرأة الغربية، والتي ضاعت وأصبحت متاعاً مباحاً وكَلأً ليس له من يحرسه ولكن تنتهك حرماته!!

ولكل من فشا فيهم مرض التجديد ووباء التقليد، فتمسكوا بكل حديث، ولو كان بالاختلاط والتبذير والرقص والفسوق، ونبذوا كل قديم، ولو كان الدين والعقل والفضيلة، والذين يطالبون بمساواة الرجل مع المرأة، أقول لهؤلاء جميعاً: اعلموا أن لكل من الرجل والمرأة عمله المناسب له، فالجدال حول هذا الأمر لا طائل وراءه.

نعم: لا جدال في الوظيفة المثلى التي تستقل بها المرأة وهي حماية البيت في ظل سكينة زوجية من جهاد الحياة وحضانة الجيل المقبل لإعداده بالتربية الصالحة لذلك الجهاد، والعمل بكل ما يتناسب مع فطرتها ويخدم بنات جنسها. ألا يُحَكِّم هؤلاء (المأفونون) عقولهم، ويعلموا أن الرجل رجل له مقوماته وخصائصه، وأن المرأة أنثى لها طبيعتها ومميزاتها؟

ألم يعلموا أن للرجال وظائف ومهام ومجالات عمل لا يتقنها بإجادة إلا هم، وأن للنساء وظائف ومهام لا يصلح لها ولا يقدر عليها إلا هن؟

وأما دعاوى هتك الحجاب فليست نفياً للحجاب فحسب، بل نفياً للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة، وما الحجاب إلا حفظ لمكانة المرأة وصونها من التبذل الممقوت، والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادى عليها في مدارج الطرق والأسواق. فخروج المرأة من حجابها وفطرتها خروج إلى الضياع، وهو إضعاف لها، وجعلها فريسة للمغرضين.

إن الأسرة المسلمة هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع الإسلامي، وحجاب المرأة جزء هام في وظيفتها الحياتية، يصونها من غوائل السوء، ويحفظها من لصوص الأعراض، ويقي حياءها من الخدش، ويحفزها إلى صلاح الروح، وصلاح النفس، ولهذا كان الغرب الحاقد شديد الحرص على نزع حجاب المسلمات ليصلوا إلى بغيتهم ويحققوا أهدافهم؛ فكاس وغانية تفعل بالمسلمين ما لا يفعله ألف مدفع. وعندما أدرك أعداء الإسلام أهمية الحجاب، وعرفوا ما فيه من وقاية للمجتمع ومحافظة عليه من الذوبان في غيره وجهوا سهامهم إليه، وألَّبوا عليه جموعهم وأجْلَبوا عليه بخيلهم ورَجِلهم ليصلوا إلى ما يريدون ويحققوا ما ينشدون.

وباسم حرية المرأة عمل المخدوعون ببريق حضارة الغرب على الدعوة إلى تشبُّه المسلمات بالكافرات، وصاحبات الخدور بالسافرات، لتكون المرأة وسيلة لتحقيق أهوائهم ورغباتهم، بعد تجريدها من مكانتها، وتهميش دورها، وتحطيم قيمها وأخلاقها، ثم الوصول إلى هدم بناء الأسرة، وتذويب المجتمع المسلم في عاداته وسلوكه بالمجتمعات التي لا تَمُتُّ إلى عقيدتنا وقيمنا بأي صلة، حتى لا تبقى لشريعة الله بقية.

وقد كان من أول ما قررته القوى المعادية للإسلام من كيد للإسلام أن تُدفع المرأة للتخلي عن معاني العفة، ومكارم الحياة، فزينت لها أسلوب الجاهلية في كل مناحي حياتها، وخاصة في موضوع حجابها ولباسها.

وختاماً أقولها صريحة وقوية: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بدونه أذلنا الله.

همسة في أذن داعية

أبو عبد الرحمن الفاتح

احذر الموت والمرض والغفلة والرياء والانشغال بهموم الدنيا وضياع الوقت في غير مرضاة الله، واجتنب والبخل والتقييم الخاطئ لنفسك ولغيرك، ودع عنك كثرة الضحك واليأس والنسيان.. نسيان القضية التي من أجلها خلقت ولها تدعو، واحذر الانشغال عن إخوانك ونسيان الموحدين المبتلين في كل بقاع الأرض، واحذر الشيطان وأعوانه وحزبه والخوف من غير الله، وتعوَّذ بالله من النكوص عن حمل الأمانة وإقامة الخلافة وتحكيم الشريعة.

.. واحذر إهمال القرآن: (قراءة ـ وتدبراً ـ وعملاً ـ ودعوة).

فإن كثيراً من الدعاة لا يعطي القرآن حقه في أن تتصل به القلوب ـ أكثر من اتصالها بأي كتاب آخر ـ وتستقي وتتلقى منه وتحيا فيه؛ فإنه لا بد لنا في أي مرحلة من مراحل الحياة أن نعيش بالقرآن ونتعامل بالقرآن ونتربى بالقرآن وندعو بالقرآن ونجاهد بالقرآن ونتحاكم للقرآن وهكذا حتى يمن الله علينا ونستحق أن نقيم خلافة على منهج القرآن.

فالمقصود هو الارتقاء بالدعوة والدعاة إلى حد أن يهيمن القرآن على الحوارات واللقاءات والندوات والدعوات، ولا مانع من الاستعانة بالكتب والشروح وأقوال العلماء ـ ولكن تظل الصدارة والهيمنة للقرآن بروحه وآياته ويظل القرآن هو المحور البارز في الحوار واللقاء؛ وذلك لأسباب كثيرة منها:

١ - أنه كلام الله فهو أيسر وأسهل أسلوب يصل بأسهل الطرق إلى القلوب.

٢ - أنه كلام الله فهو أبلغ دلالة.

٣ - جعل المدعو أكثر ارتباطاً بالقرآن وبالله ـ سبحانه وتعالى ـ عن ارتباطه بكلام البشر ـ وهذا عنصر تربوي مهم لا يحسه إلا من عاشه ـ.

٤ - إذا أُدير الحوار واللقاء بالقرآن فهو آمَنُ للعواقب.

مشاركة

أحمد بن محمد أشرف بن أمين

إن الصحوة الإسلامية اليوم في مرحلة نضوج وإيناع؛ فهي قد اجتازت مراحل الضعف التي مرت بها سابقاً، والتي كان لها أسبابها، ولست بصدد الحديث عنها الآن؛ لأنني إنما أردت أن أكتب عن مشكلة تواجهها الصحوة، وهي بالطبع ليست المشكلة الوحيدة، لكنها تستحق الاهتمام، وذلك لأنها تمس الوتر الحساس ـ كما يقولون ـ وإني وإن لم أكن من الدعاة الذين عملوا من أجل الوصول بالصحوة إلى هذا المستوى، أو من المربين الذين بذلوا الغالي والنفيس من أجل الرقي بجيل الصحوة إلى هذا القدر؛ إلا أنني أحببت أن أدلي بدلوي من حيث إني فرد من المسلمين الذين تسرهم ظاهرة الرقي والرفعة، وتسوؤهم هذه الظاهرة ـ أو المشكلة ـ التي أنا بصدد الحديث عنها، وهذه الظاهرة ـ وهي ظاهرة خطيرة حقاً ـ هي: «عدم الثبات على المبدأ والتغير المفاجئ في الأفكار»، ولست أعني بذلك التغير الناتج عن التصحيح أو التصويب، إنما أقصد بذلك التغير إلى الخطأ.. وفي الحقيقة فهذه ظاهرة أصبحت واضحة جلية للعيان، والعجيب في هذه الظاهرة أنها تحدث كلمح البصر أو أقل من ذلك ولا أكون مبالغاً فيما أقول، فتجلس مع شخص من أولئك ـ الذين هم في الحقيقة ضعاف النفوس ـ من الذين ساروا على الطريق مدة ليست بالقصيرة، وتشبعت أفكاره بالأفكار الصحيحة المؤصلة، وإذا به ـ عندما يتحدث ـ ذو فكر معتدل لا يحيد ولا يميل قد وافق بفكره نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وعندما تقابله مرة أخرى بعد شهر أو حتى أسبوع أو أسبوعين فإذا هو شاهر سيفه ينقض كل ما قاله، ويستند إلى أحداث ووقائع ومواقف، ربما يكون هو أحد أبطالها، ويجتهد اجتهادات باطلة لا أصل لها، ولا يقف عند هذا الحد، بل ويبدأ بالمواجهة العمياء، فيتتبع العثرات والأخطاء، ويقول: أنتم فيكم كذا، وفيكم كذا، وعندكم من الأخطاء كذا وكذا، ويبدأ يعدّ ويعدّ، ويتكلم ويُشهِّر، وما إلى ذلك مما يقوم به أمثاله، وإذا حاولت معرفة سبب ذلك تجده إما تعصباً لشخص مّا قد أخذت الصحوة منه موقفاً لضرره، وإما تشدداً في أمر مّا، وإما لأنه قرأ كتاباً منحرف الفكر فتأثر به، وإما لأنه جلس مع فلان ـ ممن هم أمثاله ـ فأخذ يلعب بأفكاره يمنةً ويسرة، أو لفهم خاطئ لشيء مّا، أو للبعد عن واقع الصحوة مدة معينة لسبب ما؛ حيث تأخذ الوساوس الشيطانية وخلجات النفس الشهوانية مسارها فيتأثر ويرى أن فكره السابق إنما هو خطأ في خطأ، وهذا من أكثر الأسباب التي تؤدي إلى ذلك في الوقت الحالي، ولنتذكر حديث النبي ﷺ: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»(1)، وهكذا، فإن هذا شيء يستدعي أن لا يُهمل حتى وإن كان في زاوية ضيقة؛ فهل النار إلا من مستصغر الشرر؟ ولعل من المظاهر التي يتميز بها هؤلاء التذبذب في الأفكار، فتجده يعجز عن المواجهة إذا ناقشته مناقشة عقلية، وإن حاول الهروب من هذا العجز، فسيكون عجزه أكثر عند مناقشته بنصوص القرآن والسنة ومعتقدات أهل السنة والجماعة، وسيحاول تأويل النصوص لكنه في الحقيقة لن ينفك عن الاحتجاج بأي حجة على أنه لا يستطيع الكلام لسبب مّا، أو أنه يحتفظ بذلك لنفسه، وما إلى ذلك.

ولعل العلاج لمثل هذه الظاهرة موجود لدى المربين والدعاة وعلماء النفس المعتدلين، ومتوفر في كتبهم، ولعل العلاج أيضاً ـ من وجهة نظر خاصة ـ يختلف من شخص لآخر، إلا أنني أنادي المختصين من المربين وغيرهم بأن يبذلوا ما في وسعهم لعلاج هذه الظاهرة المتفشية التي ربما كان لخصوم الصحوة دور كبير فيها، وليس هذا إسقاطاً، ولكن لا بد أن تتوخى الأمة الحذر، وأن تعرف أعداءها الحقيقيين، والذين من أخطرهم المنافقون لعنة الله عليهم.

---

(1) رواه النسائي، ح/ ٨٣٨.

إليكِ يا.. فتاة الإسلام

عبد الحميد سالم الجهني

لو تعلمين أُخيتي ما يحملون
لعلمت أنهم الذئاب وليتهم
فالذئب يفتك بالحياة وهؤلاء
أترينهم في كل ناد يصرخون:
وإلى متى تمشيّ الحسان مكفنات
وإلى متى يبقى النساء كما الدجاج
وإلى متى نجدُ الجمالَ رهينةً
وإلى متى - يا للحضارة - والتقدمُ
وإلى متى وإلى متى وإلى متى
ملؤوا به الدنيا فكل جريدة
وفويسق جمحت به أهواؤه
عيناه تنطقٌ بالفسوق وحولها
وهمُ فراخٌ للدياثة والخنا
فتشربوا أهواءهم وتشدقوا
فأتوا سكارى يزعمون بأنها
وهي الحضارة لا سبيل لنيلها
سبحان ربي ما جنى المتحررون
قد حرروها؟! من كرامة ربها
قيدٌ من الشيطان والدنيا اللعينة
أوَ هكذا تحيا الحرائر كالدمى
ونفائس الدرر الكريمة لا ترى
أختاه لا .. لا يخدعنك هؤلاء
يا أيها الأخيار قد نطق الرويبضة
أعجزتم حتى عن الشكوى فما
إن كان هذا لم يحرك ساكناً فيكم
والضعف لا ينفك بهدم أمة
والحق ما لم يحمه أتباعه
أو فاصبروا ... يستبدل المولى بكم

بقلوبهم لك هؤلاء المجرمون؟!
كانوا كذلك بل أشد. أتعلمين؟!
يمزقون حياءك الطهر المصون
إلى متى عهد الحريم المستكين؟
بالعباءة والحجاب بلا عيون
مجلدٌ ومحاصرٌ في كل حين
في البيت دون لقائه الحرزُ الحصين
لم يحررهن مَن أسرٍ ودين
هذا صراخهمُ القوي أتسمَعين
فيها شياطين الدعارة والفنون
فكأنه إبليس يهدي الفاسقين
هالات عربدة تطاير بالجنون
وتقلبوا دهراً بوحل الكافرين
كالببغاوات الضعيفة بالظنون
الحرية الحمراء يعشقها الرهين
حتى تَكَشَّف كل أنثى للعيون
وقد تمادوا بالتحرر من سنين
فاقتيدت البلهاء للقيد المهين
يستبيها كل أفاك لعين
أم أنهن من الإماء وقد سُبين؟
إلا بأصداف كالطف ما تكون
الفاسقون ولا أظنك تخدعين
الحقير ولا أراكم تنطقون
أدري بأي مصيبة تتألمون؟!
فلا عشتم على هذا السكون
حتى وإن كانت على الحق المبين
بلسانهم وسنانهم ذاق المنون
قوماً على نصر الشريعة قادرين

من ينبوع الحزن

عبد الرحمن الأحمد

قرأت في الصحف والمجلات كثيراً عن منظمات حقوق الإنسان والهيئات التابعة لها وقلت في نفسي: أين هم من مؤتمراتهم التي أقاموها على مرأى ومسمع من الجميع؟ وأين هم من قراراتهم وتوصياتهم التي لم يطبق منها شيء؟ وفجأة أفقت من غفلتي وقلت: أنعاتب اليهود؟ وهم المعروفون بالغدر ونقض العهود والمواثيق؟ أم نعاتب النصارى الذين ديدنهم المكر والخديعة للإسلام وأهله؟

إن الواقع المشاهد في دول العالم الإسلامي في هذا العصر ليتنافى مع كل القيم الإنسانية والأحكام السماوية بل وحتى الأحكام الوضعية التي هي من صنع البشر أنفسهم. ففي فلسطين احتلال وتدنيس، وفي كشمير مذابح وحشية، وفي البوسنة والشيشان جرح نازف، وفي كوسوفا تشريد وتعذيب واغتصاب وتقتيل، وفي كل بقعة من بقاع المسلمين مأساة، وما ذاك إلا لأنهم قالوا ربنا الله؛ فأين حقوق الإنسان من اغتصاب للنساء وتشريد للشيوخ وتنصير للأطفال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فيا أيها المسلمون العودة العودة إلى كتاب الله والتمسك بدين الله، ولن يصلح شأن آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، تمسكاً بكتاب الله وتطبيقاً لأحكام هذا الدين الحنيف.

ردود

* الإخـوة: الذين أرسلوا مـلاحظاتهم أو اتصلوا بالمجلة للتنبيه على الخطأ الذي وقع في افتتاحية العدد ١٤٨، بسبب الاستشهاد بآية: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ في موضوع الخلع وأن هذه الآية المقصود منها الفطام وليس الفصال، نشكر أولئك جميعاً شكراً جزيلاً معتذرين عن هذا الخطأ، آملين من الجميع دوام التناصح.

* **الأخ: باسل السدحان**: أرسل اقتراحاً يطلب فيه أن يحتوي عدد نهاية العام أو بدايته على فهرس يصنف مقالات هذا العام، ونحن نشكر الأخ على اقتراحه، وجزاه الله خيراً.

* **الإخوة: الذين يسألون عن البرنامج الإلكتروني لمجلة البيان**، فنخبرهم بأن البرنامج في مراحله النهائية ـ بإذن الله ـ وعند الفراغ منه سوف يتم الإعلان عن ذلك على صفحات المجلة. بارك الله فيكم لحرصكم واهتمامكم.

* **الإخوة: الذين يستفسرون عن رقم فتوى هيئة كبار العلماء** وتاريخ إصدارها حول كتاب: «الحكم بغير ما أنزل الله وأصول التكفير» لخالد العنبري، الرقم هو: ٢١١٥٤ بتاريخ: ٢٤/١٠/١٤٢٠هـ.

* **الأخ: ذعار بن محمد الجميلي**: نشكر لك تواصلك الطيب، وحول ملاحظتكم اللغوية فيرى الإخوة اللغويون أن الأمر يقبل الوجهين، مع تقديرنا لتواصلكم.

* **الأخ: د. عبد الله بن هادي القحطاني**: نشكر لكم تواصلكم الكريم مع مجلة البيان، ونفيدكم بأن مشاركة «الإرهاب الروسي» مجازة للنشر، ونعتذر عن نشر المشاركة الأخرى، آملين دوام التواصل.

* **الأخ: محمود محمد دبش**: جزاكم الله خيراً على مشاركتكم «منهج التفكير العلماني» والمقالة مجازة للنشر مع رجاء اختصارها إلى نصف عدد صفحاتها، بارك الله فيكم.

* **الأخ: محمد شلال الحناحنة**: نشكر لك تواصلك الدائم مع مجلتك، وحول مشاركتك «وقفات للخلف مع سيرة السلف» فنعتذر عن نشرها لغياب التوثيق والعزو إلى المصادر.

* **الأخ: حسين بن علي الشقراوي**: جزاكم الله خيراً على مشاركتك التي أرسلتها حول موضوع المرأة، ولكن الموضوع قد تم تغطيته في «ملف المرأة» المنشور في العددين (١٤٩، ١٥٠) مع أمل دوام التواصل.

* **الأخ: صالح بن سليمان العامر**: كتاب: «صناعة الحياة» للأستاذ محمد أحمد الراشد، من الكتب المفيدة المتميزة، ولكن الكتاب متداول، ولهذا لا نرى مناسبة تلخيصه في المجلة، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يبارك في جهودكم وبانتظار مشاركات أخرى.

* **الأخ: أبو جعفر محمد الشريف**: نشكر لك اهتمامك وحرصك، ونعتذر عن نشر مشاركة «وداعاً محدث العصر» لفوات المناسبة، وجزاكم الله خيراً.

* **الأخ: يحيى آل سالم**: مشاركاتكم التي أرسلتها عبر الفاكس عن التربية لم تصلنا كاملة، كما أنها غير واضحة، فنرجو التكرم بإعادة إرسالها، بارك الله فيكم.

* **الأخ: الذي أرسل يصحح اسم كاتب قصيدة** عنب السلام من «علي الغامدي» إلى «الحسين جبره» نقول: إن القصيدة وصلتنا باسم «علي الغامدي» فكيف نكتب اسماً آخر؟!

* **الإخوة: د. محمد ظافر الشهري، جابر بن راشد الفهيد، ناصر سنادة، جلال راغون، نايب صالح، راشد عبد الله العدوان، د. أحمد جمال بادي، عادل بن عبد الله الدوسري**: بارك الله فيكم، وشكر سعيكم في هذا التواصل الطيب، ونفيدكم بأن مشاركاتكم مجازة للنشر ونرجو المزيد.

* **الإخوة: سليمان بن يحيى المالكي، عبد الله سالم الغامدي، محمد عبد الله الرويلي، زاهر محمد الشهري، محمد سعيد حجاب**: جزاكم الله خيراً على مشاركاتكم، هي مجازة للنشر في المنتدى.

* **الإخوة: عبد الله عبده السمسمي، عمر الرماش، احمد سلامة أحمد، علي بن سليمان البذيخي، نجاح محمد عبد الغني، محمد الباشا، حسين عبد الرحمن بن عقيل، مد الله عبد الكريم المديد، عبد المنعم محمد خير، خالد بن سليمان العامر، عبد الله السبيعي، خالد عبد الوهاب القرينيس، يحيى آل سالم، حسين بن علي الشقراوي**: «وقفات مع العام الهجري» وصلتنا مشاركاتكم، وجزاكم الله خيراً على هذا التواصل الطيب، ونأمل دوام التواصل، ونتمنى لكم التوفيق في مشاركات قادمة.



خواطر في زمن الغربة

سالم فرج سعد

الغربة الحقَّة:

أستعيدُ ذكريات الماضي فلا تتراءى أمامي إلا أشباحُ الغربة بعذاباتها ومتاعبها.. أجول بخاطري فيما مضى وفيما يأتي فيتقاذفني اليأس والأمل، والشدة والرخاء.. نعم كنت أحب الغربة والوحدة لأعيش فيها لحظات خيال سابحة تجعلني أتأمل في الكون والحياة؛ لكن عندما عايشتها عرفت أن الحب شيء والتعايش مع هذا الحب شيء آخر.. قد يفهم البعض من الغربة ترك الأهل والوطن والسفر من أجل لقمة العيش أو تحصيل علم، وهو فهم صادق لكنه قاصر؛ فالغربة الحقيقية هي التي يعيشها المسلم في زمن الظلام والظلم والجاهلية العمياء، غربته في دينه ودنياه، وفي فكره وعقيدته، تلك هي الغربة الصعبة المريرة التي يشعر فيها العبد المؤمن أنه مسافر غريب في هذه الدنيا وينتظر راحته في دار النعيم، والقرار بأعماله الصالحة وطاعته لربّه ومولاه.. شعاره الدائم نصيحة رسوله الكريم ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل»(١).

وتهون كل المصائب.. وتضعف كل المتاعب.. التي تحيط بهذه الغربة الحقّة.. لأنها غربةٌ في سبيل الله.

غرباء وارتضيناها شعاراً للحياةْ   غرباءُ ولغير الله لا نحني الجِباهْ

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٥٩٣٧.

لماذا أكتب؟

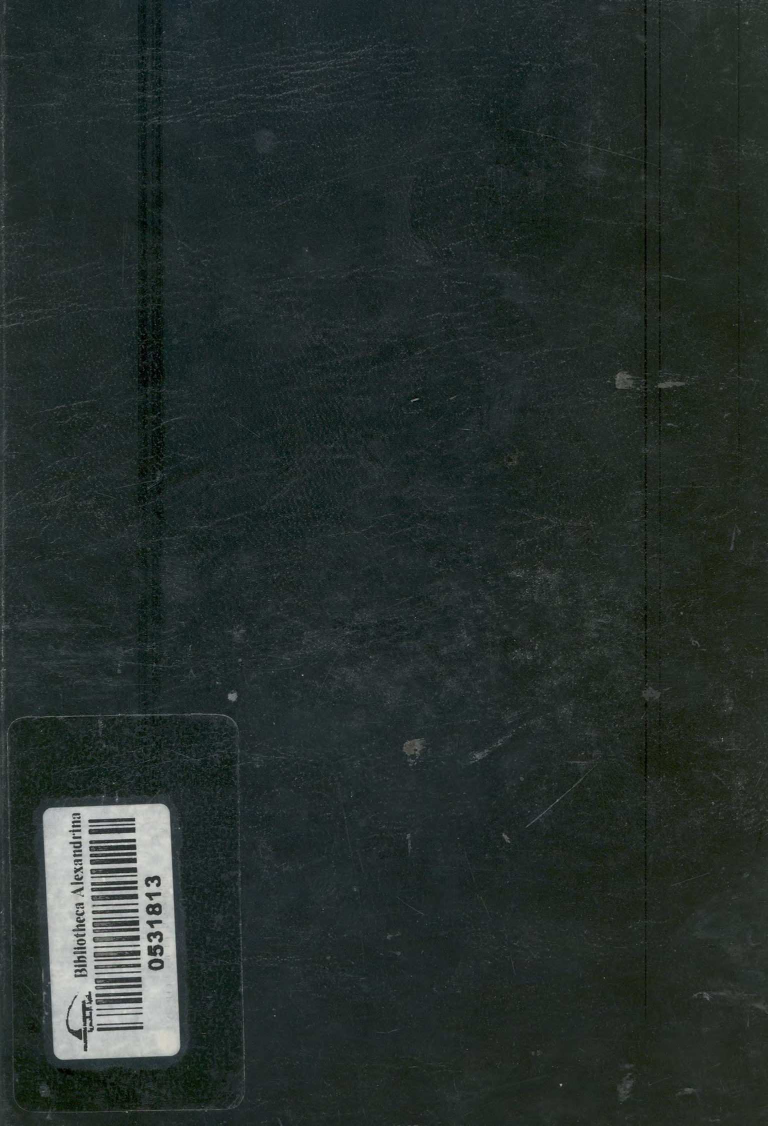
إنه سؤال يطاردني كلما كتبت أو أردت أن أكتب ومع ذلك لا بد من طرحه والإجابة عنه لتكون الكتابة هادفة وخالصة.

ونظرة سريعة إلى أعمدة الصحف وأسطر المجلات اليومي منها والأسبوعي، الشهري والسنوي، تجد التباين الشاسع بين أساليب المقالات، وأفكار الكتابات، وعندها يتأكد لك مدى أهمية هذا السؤال: لماذا أكتب؟

إن الكتابة للكتابة هي هواية وحرفة لا تؤدي مفعولها ودورها إلا حينما تكون الفكرة والصراحة والوجدان تلامس الواقع، وتخاطب العقول والضمائر.

إن أمانة القلم تفرض هذا السؤال العَلَم: لماذا أكتب؟

حفاظاً على حرية الكلمة، ورصانة العبارة، وقوة الفكرة والهدف.


Bibliotheca Alexandrina
0531813